مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّابِعُ والأَرْبعُونَ

سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّابِعُ والأَرْبعُونَ

سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2025

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م

الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 9-00-731-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 9-00-731-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ فَاطِرٍ

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]

غنى اللهِ عن كلِّ المخلوقات

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمّا أشبع المقام أدلَّةً، ومواعظَ، وتذكيراتٍ؛ قصدَ إقناعَ المشركين بترك شركهم، ربَّما أحدثَ ذلك في نفوس أهل العِزَّةِ منهم إعجابًا بأنفسهم، واغترارًا بأنَّهم مرغوبٌ في انضمامِهم إلى جماعة المسلمين - ناسبَ أن ينبِّهَهم اللهُ بأنَّه غنيٌّ عنهم، وأنَّ دينه لا يَعتزُّ بأمثالهم، وأنَّه مُصَيِّرُهم إلى الفناء، وآتٍ بناسٍ يعتزُّ بهم الإسلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾: (فقر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْفِراجٍ في شَيْءٍ، وأصله هو المكسورُ الفقار، يُقال: فقَرَتْهُ فاقرةٌ، أي: داهيَةٌ تكسر الفقارَ، وتقول العربُ: رجلٌ فقيرٌ مِنَ المال؛ إذا كان لا شيءَ له[2]، وهو المحتاج، إلّا أنَّه يُقال: افتقرَ إلى كذا بالتَّخصيص، فإذا قيل: هو فقيرٌ؛ فمعناهُ في العُرف: أنَّه كثير الاحتياج إلى فضل النّاس، أو إلى الصَّبر على الحاجةِ؛ لقِلَّة ثَروته، والفقرُ يُستَخدم على أوجهٍ، **الأوَّل**: عدمُ وجود الحاجة الضَّروريَّة، وذلك عامٌّ في الإنسانِ ما دام في دار الدُّنيا، وفي كلِّ الموجودات، وعلى هذا قولُه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، والثّاني: عدمُ المقتنيات، وهو المذكور في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ﴾ [البقرة: 273]، الثّالث: فقرُ النَّفس، وهو المقابلُ بقولِه ﷺ: «الغِنى غِنى النَّفس»[3]، الرّابع: الفقرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 285.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقر).
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6081)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1051).

إلى اللّه، يدلُّ عليه قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القصص: 24][1]، وكلُّ مخلوقٍ فقيرٌ إلى خالقِهِ في وجودِهِ وبقائِه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمّد: 38][2].

2) ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: أصل (غني) يدلُّ على الكفاية، والغِنى: ضِدُّ الفقر، والغَنيُّ: الذي لا يحتاج إلى أحدٍ في شيءٍ[3]، والغنى يُقال على ضروبٍ، أحدها: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلّا للّه تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، والثّاني: قلَّةُ الحاجات، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضّحى: 8]، الثّالث: كثرةُ المقتنيات بحسب ضروبِ النّاس، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النّساء: 6]، ويُعرَف بالعُرف، يقال: فلان غنيٌّ، بمعنى له ثروةٌ يستطيع بها تحصيلَ حاجاتِهِ من غير فضلٍ لأحد عليه، فوُجدان أجورِ الأُجراء غِنًى، وإن كان المستأجرُ محتاجًا إلى الأُجراء؛ لأنَّ وُجدانَ الأجور يجعله كغير المحتاج، والغنى المطلق لا يكونُ إلّا للّه تعالى"[4].

3) ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: (حمد) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ وأَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الذَّمِّ[5]، وحَمَدتُ الرَّجُلَ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا؛ إذا رَأَيْتُ منه فِعْلًا مَحمودًا، واصْطنعَ إليكَ يَدًا تَحْمَدُهُ عليها[6]، ورَجُلٌ محمودٌ ومُحمَّدٌ؛ إذا كَثُرتْ خِصالُهُ المحمودةُ، والحَميدُ: من صفاتِ اللّه تعالى، وتَقدَّس، بمعنى المحمودِ على كلِّ حالٍ، وهذه اللَّفظةُ في الأصول (فعيل) بمعنى مفعولٍ، فـ (حميد) بمعنى محمودٍ[7]، فمعنى وصفِ اللّه بـ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أنَّ غناه تعالى مقترنٌ بجوْدِهِ، فهو يَحْمَدُ من يتوجَّه إليه، وهو سبحانه المنعمُ على جميع المخلوقات، المستحِقُّ بإنعامِهِ للحمد[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

معنى قولِهِ تعالى ذكره: يا أيُّها النّاس أنتم المحتاجونَ إلى اللّه في كلِّ أموركم، الظّاهرة

---

(1) الرّاغب، المفردات: (فقر).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/ 227.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (غنى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني)، وابن منظور، لسان العرب: (غنا).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/ 227.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمد).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حمد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 38.

افتقارُ كلِّ الخلق إلى الخالق سبحانه

والباطنة، لا تستغنون عنه طرفةَ عينٍ، فإيّاه فاعبدوا، وفي رضاه، فسارعوا؛ يغنِكم من فقركم، ويقضِ لكم حوائجَكم، فهو سبحانه الغنيُّ عن النّاس، وعن كلِّ شيءٍ من مخلوقاتِه، والحميدُ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه، المحمود على نعمِه، فإنَّ كلَّ نعمةٍ بالنّاس منه، فله الحمدُ والشُّكر على كلِّ حالٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

فَصْلُ الجملتين لكمال الانقطاعِ بينهما

جاءت جملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مفصولةً عن الجملةِ الَّتي قبلها ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾؛ لوجود كمالِ الانقطاع بينهما، وهو اختلافُ الجملتين اختلافًا تامًّا، فكلُّ جملةٍ منهما مستقلَّةٌ بنفسها[2]، فبعد أن بيَّن اللّهُ سبحانَه بُطلان عبادةِ الأوثان، أعلمهم أنَّه غنيٌّ عنهم، وأنَّهم هم الفقراء إليه في كلِّ شيء.

بلاغةُ الاستفتاحِ بالنِّداء:

تنبيهُ السّامعين ولفتُ انتباهِهم لأهمّيّة ما يُقال

استُفْتِح قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بأسلوب النِّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، والغَرضُ منه تنبيهُ السّامعِ لإيقاظ ذهنِه واستحضار قلبِه، فإنَّ الحكيمَ إذا خاطبَ من يكونُ محلَّ الغفلةِ أو مشغولَ البال، يُقَدِّمُ على الكلامِ المقصود شيئًا؛ ليَلتَفتَ المخاطَبُ بسببه إليه، ويُقبِلَ بقلبه عليه بسبب ذلك المقَدَّم، كالنِّداء وحروف الاستفتاح وغيرِها؛ تنبيهًا له على أنَّ ما سيُلقى إليه أمرٌ مهمٌّ[3].

دلالةُ النَّكرة المقصودة (أيّ):

غفلةُ المشركين عن عبادة أحسنِ الخالقين

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداءَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بحرف نداء البعيد (يا)، فجيء بـ (أيّ) توصُّلًا لنداء ما فيه (أل)، وقد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 352، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 436.

(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 107.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.

ذهبَ جمهورُ النُّحاة إلى أنَّ معنى المنادَى المعرَّف بـ (أل) والنَّكرة المقصودة واحد؛ لأنَّهما معرفة، فقولُكَ: (يا رجل)، كقولك: (يا أيّها الرجل)[1]، وقد أبدى بعضُ العلماء فرقًا بينهما: فإنَّ المنادَى في قولك: (يا رجل) نَكِرة في الأصل، فقُصِدَ بالنِّداء، وأمّا المُعرَّف بـ (أل)؛ فهو معرفةٌ قبلَ قصدِهِ بالنِّداء[2]، وكذلك فإنَّ قولك: (يا رجل) يدلُّ على مجرَّد النِّداء، أمّا قولك: (يا أيُّها الرجل)؛ فيدلُّ على ذلك أيضًا، ويُنبئُ عن خَطَرِ المنادَى له، أو غفلةِ المنادَى[3]، فاستعمل (أي) في هذه الآية؛ للدَّلالة على غفلةِ المشركين عن عبادةِ أحسنِ الخالقين، الغَنيِّ عنهم وعن النّاس أجمعين.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

استغراقُ جنسِ النّاس إلى يوم القيامة

جاء لفظُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ معرَّفًا بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لدلالتِهِ على العهد أو الجنس، فمَن جعلها للعهدِ جعل الخطاب في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خاصًّا بالمشركين كما هو غالب اصطلاحِ القرآنِ، وهم المخاطَبون بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ الآيات، ومَن جعل (أل) للجنس؛ قال: إنَّ هذا اللَّفظَ يَعُمُّ العالَمَ كافرَهم ومؤمنَهم[4]، وهذا هو الأَوْلَى، وإن كان يمكنُ الجمعُ بينهما، بأن يقال: إنَّ الخطابَ في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يشمل المشركين خاصَّةً لسياق الآياتِ في مخاطبتِهم، والنّاسَ عامَّةً لعموم الاتِّعاظ بالقرآن[5].

سرُّ مخاطبةِ النّاس دون غيرهم:

حاجةُ الإنسانِ إلى ربِّه الرَّحمن

خاطب اللّهُ النّاسَ بالفقرِ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وإن كان كلُّ ما سوى الله فقيرًا إليه؛ لأنَّ النّاسَ هم

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 310.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 330.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 189.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 133.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 285.

الَّذين يَدَّعون الغنى، وينسبونهُ لأنفسهم، وذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ ذلك من باب تشريفِ الإنسان على غيره من المخلوقات؛ وذلك لأنَّ افتقارَ المخلوقاتِ إلى أفعال اللّهِ تعالى من حيثُ الخلقُ ونحوه، وافتقارَ الإنسان إلى ذاتِ اللّه وصفاته، فجميعُ المخلوقات وإن كانت محتاجةً إلى اللّه تعالى غيرَ أنَّ الاحتياج الحقيقيَّ إلى ذات اللّه وصفاته مختصٌّ بالإنسان من بينها[1].

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾:

افتقارُ النّاس إلى خالقهم متأصِّلٌ في جِبِلَّتهم

جاء أسلوبُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ لتعريف جُزأي الجملةِ، وهو قَصْر صفةٍ على موصوف، أي: قَصْر صفةِ الفقر على النّاس المخاطَبين قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسبة إلى اللّه، أي: أنتم المُفتَقِرون إليه، وليس هو بمفتقرٍ إليكم، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزّمر: 7] المُشْعِرِ بأنَّهم يحسبون أنَّهم يغيظون النَّبيَّ ﷺ بعدم قبولِ دعوته[2]، ويكون الوجهُ حملَ القَصْرِ في قوله: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ على القَصْرِ الإضافيِّ.

دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾:

افتقارُ النّاس بسبب ضعفهم أشدُّ من افتقار سائر الخلائق

جاء لفظُ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ بالتَّعريف دونَ التَّنكير، ووجهُهُ أنَّه قصد بذلك أن يُريَهُم أنَّهم لشِدَّة افتقارهم إليه هم جنس الفقراءِ، وإن كانت الخلائق كلُّها مفتقرةً إليه، من النّاس وغيرهم؛ لأنَّ الفقرَ ممّا يتبع الضَّعف، وكلَّما كان الفقيرُ أضعفَ؛ كان أفقرَ، وقد شهدَ اللّهُ سبحانه على الإنسان بالضَّعف في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، وقال ﷻ: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ [الرّوم: 54]، ولو نُكِّرَ؛ لكان المعنى:

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 390.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 285.

أنتُم بعضُ الفقراء[1]، وقد يكون تعريفُ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ لاستغراق الصِّفة قصدَ المبالغةِ، كأنَّهم لكثرةِ افتقارِهم وشِدَّة احتياجِهم هم الفقراء فحسب، وأنَّ افتقار سائر الخلائقِ بالنِّسبة إلى فقرِهم بمنزلة العدم[2].

دلالةُ التَّقييدِ بشِبه الجملة: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾:

النّـاسُ أشدُّ افتقارًا إلى الله وحدَه

دلَّ التَّقييدُ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ على افتقار النّاسِ إلى اللّه سبحانه وحدَه؛ لأنَّه هو خالقُهم ورازقُهم، فالنّاسُ أشدُّ الخلقِ افتقارًا واحتياجًا إلى اللّه في أنفسِهم وعيالهم وأموالهم، وفيما يَعْرِض لهم من سائر الأمور في حال الفقرِ والغنى، والضَّعف والقوَّة، والذُّلِّ والعِزِّ، فهم مفتقرون لربِّهم الغنيِّ في كلِّ أحوالهم، فلا غِنى لهم عنه طرفةَ عينٍ، ولا أقلَّ من ذلك[3]، وممّا يُذْكَر في دلالة التَّقييد ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ غايةَ العبدِ المُرادة افتقارُه إلى اللّهِ تعبُّدًا؛ لأنَّ افتقار الخَلْق إلى الخَلْق ذُلٌّ، أمّا افتقارُ الخَلْق إلى اللّه؛ فعزٌّ وطاعة، وفيه إعلامٌ بأنَّه لا افتقارَ إلّا إليه، ولا اتِّكال إلّا عليه[4].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِۖ﴾:

ارتباطُ الهداية بالألُوهيَّة، والأرزاقِ بالرُّبوبيَّة

دلَّ التَّعبيرُ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِۖ﴾ دون الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ لبيان أنَّ الفقر على نوعين: فقرٍ ماديٍّ يتعلَّق بالرُّبوبيَّة في قضايا الأرزاق، وفقرٍ معنويٍّ في الهداية والإرشاد، وهو متعلِّقٌ بالألُوهيَّة، ولمّا كان الحديثُ متعلِّقًا بدعوة الرَّسول ﷺ للنّاس عمومًا، وللمشركين خصوصًا إلى الهداية والرَّشاد، وليس ذلك إلّا للّه تعالى، جاء التَّعبيرُ باسم الجلالةِ مناسبًا للمعنى المراد.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 606.
(2) الآلوسي، روح المعانيّ: 11/ 356.
(3) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 257.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 272.

مقابلةُ أوصافِ العبادِ بأوصافِ المعبود

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ على ما قبلَهُ على سبيل المقابلة؛ لأنَّه لمّا ذكر العبادَ بوصفهم الحقيقيِّ؛ أتبعَه ذِكرَ الخالقِ باسمهِ الأعظم، المتضمِّن لأوصاف الكمال، من الغنى والإنعام المستحِقِّ للحمد[1].

تعظيمُ حقِّ الأُلوهيَّة، وتربيةُ المهابة في القلوب

نُكْتَةُ إظهارِ اسم الجلالة (الله):

أظهرَ الاسمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، مع سبق ذكرِه في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ لنُكْتَة جليلةٍ، وهي تعظيم حقِّ الأُلوهيَّةِ، فهو اللّٰهُ العظيمُ المستحِقُّ للعبادة وحدَه دونَ ما سواه مِنَ الأوثانِ، وفيه أيضًا نُكْتَةُ التَّنبيه على سبب استحقاقِ العبادة: وهو انفرادُه بصفة الأُلوهيَّة، كما أنَّ في إظهار اسم اللّٰه الأعظم الجامع لأسمائِهِ الحسنى موضعِ الضَّمير تقريرًا للقوَّة الكاملة، والعِزَّةِ القاهرة للّٰه سبحانه، فهو جديرٌ بتلك الصِّفات الفائقة[2]، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتصَّةٌ به وحدَه سبحانه، فَلا يُساوَى بِهِ غَيرُه، فَيُذْكَرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ[3].

قَصْرُ صفةِ الغنى على الله ﷻ، ونفيُها عمّن سواه

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾:

تظهر بلاغةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ بتعريف جُزأي الجملة مع توسيطِ ضميرِ الفصل ﴿هُوَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على قَصْرِ صفة الغنى على اللّٰه ﷻ ونفي هذه الصِّفة عمَّن سواه، حتّى يُنزَّل غناهم كالعَدَم، ومثلُ هذا النَّوع من القَصْرِ يدلُّ على كمال الموصوف في تلك الصِّفة المقصورة[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 31.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 06/ 11.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ و﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾:

استغراقُ الصِّفات، والدَّلالةُ على رسوخِها في الموصوف

دلَّ دخولُ (أل) على لفظَي ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ على استغراقِ الصِّفات ورسوخها في الموصوف، فاللّهُ هوَ الغنيُّ عن كلِّ شيء لا غيرُه، الحَميدُ المنعِم على جميع الموجودات، المستحِقُّ بإنعامِهِ سبحانه للحمد، فهو جديرٌ بتلك الصِّفات الجليلة.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة:

صفاتُ الله ﷻ كاملةٌ عظيمةُ الأثر

أوْثِر التَّعبيرُ بإيراد وصفي ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ و﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ على صيغةِ المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ للثّناء على اللّه سبحانه؛ بيانًا لكمال صفاته، وأفعالُ اللّه تعالى لا تتأثّر بالمبالغة، فتدلُّ صيغةُ المبالغة فيها على أثر المتعلّق، فالمبالغةُ في صفات اللّه ﷻ راجعةٌ لعِظَم أثرِها على عبادِهِ.

نُكْتَةُ تقديم ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾:

لا ينفع الغنيُّ الفقيرَ إلّا إذا كان جوادًا مُنعِمًا

تقدُّمُ وصفِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ لبيان أنَّ الغنيَّ لا ينفع الفقيرَ إلّا إذا كان جوادًا منعِمًا، وللإشعار بأنَّه تعالى بجانب غناه عن خَلْقِهِ، هو الذي يفيض عليهم من نِعَمِهِ، وهو الذي يعطيهم من خيرِهِ وفضلِهِ ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم[1].

بلاغةُ المقابلةِ في الآية:

فقرُ العبادِ إلى غنى ربِّهم الوهّاب

قابلَ النَّظمُ الكريمُ على وجهِ التَّضاد بين وصف الفقرِ للعباد وبين وصف الغنى للرَّبِّ سبحانه، في قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ تنويهًا بحاجة العباد إلى ربِّهم، ولأنَّه لمّا قَيَّدَ فقرهم بالكون إلى اللّه؛ قَيَّدَ غنى اللّه تعالى بوصف الحميدِ؛ لإفادة أنَّ غناه تعالى مقترنٌ بجودِهِ، فهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 356.

يُحْمَدُ ممَّن يتوجَّه إليه، وهو سبحانه المنعِمُ على جميع المخلوقاتِ، المستحِقُّ بإنعامِه للحمد(1).

سرُّ إتباعِ صفة ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بـ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ اللهَ حميدٌ لمَن عبدَهُ واستجابَ لدعوتِهِ

أتبع النَّظمُ صفةَ ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بصفة ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ على سبيل الاحتراسِ، وبعضُهم يسمّيه التَّكميلَ أيضًا، وهو أن يُؤْتَى في كلام يوهِم خلافَ المقصود بما يدفعه(2)، والغرضُ منه في الآية: دفعُ توهُّمهم أنَّه لـمّا كان غنيًّا عن استجابتهم وعبادتِهم، فهم معذورونَ في ألّا يعبدوهُ، فنبَّه على أنَّه موصوفٌ بالحمد لَمن عبدَه، واستجاب لدعوتِه، كما أتبع في قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزّمر: 7](3)، وممّا يُذْكَر في سِرِّ إتباع وصف الغنيِّ بالحميد؛ الدَّلالةُ على أنَّ غنى اللّه سبحانه مقرونٌ بالحمد، بخلاف غنى البشر، فإنَّه قد لا يكون محمودًا بسبب البخل، أو بكونِهِ يأتي بغير طريقٍ صحيح بالكسب غيرِ المشروع، أمّا غنى اللّهِ سبحانَه؛ فهو كاملٌ يُحْمَد عليه؛ لكمالِه ولكرمِه على خَلْقِه.

بلاغةُ فاصلةِ الآيةِ:

حثُّ النّاس على سؤالِ اللهِ وحدَه

تظهر بلاغةُ هذه الفاصلةِ ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ في حثِّ النّاس على الطَّلب من اللّه تعالى، والرَّغبة إليه فيما عنده؛ لأنَّه سبحانَه غنيٌّ لا تنفد خزائنُه، ولا تنقص بالعطاء أبدًا، فهو سبحانه يستجيبُ لمن سألَهُ، ويعطيه ما شاء من فضلِه، وهو سبحانه حميدٌ، أي: يَحْمَد لعبادِه ما يلقون به عطاءَهُم من حمدٍ وشكرٍ أيًّا كان هذا العطاءُ، قليلًا أو كثيرًا(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 38.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 8/ 866.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧﴾ [فاطر: 16 - 17]

كمالُ غِنى الخالق سبحانه عن مخلوقاته

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهما:

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآية السّابقة أنَّه الغنيُّ الكامل في غناه، وأنَّ النّاس فقراءُ إليه؛ ذكر في هاتين الآيتين ما يُدلِّل على غناه، وذلك في استغنائه عن العالم، وقدرتِه على الإتيان بخَلْق جديد، ولبيان أنَّ مِن فَقْر النّاس إليه احتياجَهم إلى مَن يحفظ حياتَهم، وأنَّ ذلك ليس بمُتَعذِّرٍ على اللّه لكمال قُدرته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾: (ذهب) أصل الذَّهاب: المُضيُّ، يقال: ذهب بالشَّيء وأذهبَه، ويُستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصّافات: 99]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ [النّساء: 19]، والذَّهْبَةُ: المَرَّة الواحدة من الذَّهاب، ويقولون: ذهب لذَهْبِه، أي: لمَذْهَبِه الذي يَذهب إليه[2]، والمَذْهب: مصدر، كالذَّهاب، وذهبَ به، وأذهبَ غيرَه، أي: أزالَهُ[3]، والإذهابُ مستعملٌ في الإهلاك، أي: الإعدام مِن هذا العالم، ومعناه في الآية: إن يشأْ؛ يُسَلِّط عليهم موتًا يعمُّهم، فكأنَّه أذهبَهم من مكانٍ إلى مكانٍ؛ لأنَّه يأتي بهم إلى الدّار الآخرة[4].

2) ﴿جَدِيدٖ﴾: (جدّ) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: الأَوَّلُ العَظَمَةُ، والثّاني الحَظُّ، والثّالِثُ القَطْعُ[5]، والجدُّ: قطعُ الأرض المستوية، ومنه جَدَّ في سيرِه

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 8/ 866.
(2) الخليل، العين: (ذهب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذهب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدّ).

يَجِدُّ جدًّا، وتُصوِّر من جددت الأرضَ: وهو القَطْعُ المُجَرَّد، فقيل: جددتُ الثَّوبَ؛ إذا قطعتُهُ على وجه الإصلاح، وثوبٌ جديدٌ: أصلُه المقطوع، ثمَّ جُعِل لكلِّ ما أُحْدِث إنشاؤه، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: 15][1].

3) ﴿بِعَزِيزٍ﴾: (عزّ) أصلٌ يدلُّ على شدَّة وقوَّة، وما ضاهاها من غلبةٍ وقهرٍ[2]، والعِزَّة: حالةٌ مانعة للإنسان من أن يُغْلَب، من قولهم: أرض عَزاز، أي: صُلْبة[3]، والعِزُّ خلافُ الذُّلِّ، كما أنَّ الذُّلَّ لينٌ ورخاوةٌ، ومنه العِزَّة: الشِّدَّة والقوَّة والامتناع، والعزيز: القَويُّ الشَّديد الذي لا يُغْلَب[4]، ومعنى العزيزِ في الآية: ذو العِزَّة، وهي القوَّة، والشِّدَّة، والغَلَبة، والرِّفْعَة[5].

المَعنى الإجماليُّ:

تهديدُ النّاس لعدم إيمانِهم

يقول اللّهُ ﷻ: اعلموا أيُّها النّاسُ أنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، إن يشأ؛ يذهبْكُم، ويستبدلْ قومًا غيرَكم أطوعَ منكم وأزكى؛ يذهبْكم، ويأتِ بخَلْقٍ جديدٍ، وما ذلك على اللّه بعزيزٍ، فإنَّه لا يعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل قولِه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾:

بيانُ غِنَى ربِّ العالَمِين عن النّاس أجمعين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ عمّا قبلَه، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾؛ لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجُملتين اتِّحادًا تامًّا، وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تنزَّلُ الثّانيةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (جد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عزّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (عزّ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزز).
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 260/ 1.
(6) حجازي، التّفسير الواضح: 22/ 94.

من الأولى منزلةَ نفسِها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ بيانًا لَمظهَرٍ من مظاهر غناه عن النّاس، وهو إفناؤُهم والإتيان بخَلْقٍ آخَرين بعدَهم[2]، وفي هذا تقرير لاستغنائهِ ﷻ عن كلِّ الخَلْقِ على الإطلاق، وتهديدٌ ووعيدٌ للكافرين بإهلاكهم بالكلّيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

إذهابُ الخَلْق معلَّق بمشيئته سبحانه

دلَّ التَّعبيرُ بأسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ على أنَّ هذه الجملةَ وقعت من الجملة السّابقة موقعَ المعلولِ من العِلَّة، وموقعَ المدلولِ عليه من الدَّليل؛ تحقيقًا للتَّهديد، وفيه إشارةٌ إلى تعليق مضمونِ الجواب على دوام حصولِ مضمونِ الشَّرط، فيَحْصُل الثّاني بحصول الأوّل، فحصولُ الإذهاب معلّق فقط بمشيئتهِ سبحانه، فإنَّ أمرَه تعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، وهو تعالى لغناه عنهم وغضبه عليهم، لو شاء؛ لأبادَهُم، وأتى بخَلْقٍ آخَرين يعبدونه[3].

نُكْتَةُ الشَّرط بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

عظيمُ حِلْمِ اللهِ على خَلْقِهِ

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ اسْتِعْمالُ حرفِ الشَّرط الجازم ﴿إِن﴾ دون (إذا)؛ لنُكْتَةٍ بلاغيَّة، وهي أنَّ ﴿إِن﴾ يَرِد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع، والمشكوكِ في حصولها، والموهومةِ والنّادرة والمستحيلة، وسائرِ الافتراضات الأُخْرى، وأمّا (إذا)؛ فيُسْتعمَل عندما يكون الشَّرطُ فيها مقطوعًا بوقوعه[4]، فلمّا كان سياقُ الآيةِ تعلُّقَ وُقوعِ أمرِ إذهابهم بمشيئةِ اللّه وحدَه، فقد يشاء ﷻ تحقُّقَه، وقد يشاء غيرَ ذلك، وذلك بحسب المصلحة الَّتي يعلمها اللّهُ ﷻ وحدَه، أمّا لو استعمَل النَّظْمُ (إذا)؛ فإنَّه يدلُّ على تحقيق

(1) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 338.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286.
(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

هلاكهم والإتيانِ بخيرٍ منهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾ الَّتي تُشير إلى التَّهديد دون تحقيقه، وفي هذا دعوةٌ للكافرين إلى التَّوبة والإقلاع عمّا هُم فيه.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بفعل المشيئة مضارعًا:

مشيئة الله قديمةُ النَّوع، متجدِّدةُ الآحاد

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ استعمالُ فعلِ المشيئة بصيغة المضارع؛ وذلك لأنَّ المُضارِعَ يُفيد افتراضَ تجدُّدِ الفعل واستمراره، فصِفةُ مشيئةِ الله عند أهل السُّنَّة والجماعة قديمةُ النَّوعِ، متجدِّدَةُ الآحاد، فاللّهُ ﷻ كلَّ يومٍ هوفي شأن، فيقضي ما يشاء في عباده من مقادير، واللّه ﷻ لم يَزل، ولا يَزال، يفعلُ ما يشاء، ويتكلَّمُ؛ إذا يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: 40][1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّلويح بالعقاب متجدِّدٌ ومستمرٌّ في كلِّ زمان ومكان، وفي هذا تحذيرٌ للنّاس ليأخذوا حِذْرَهم من وقوع الهلاك والإذهاب، كما يُستَفاد من صيغة المضارع الاستقبالُ، وهو تهديدُ المشركين بإفنائهم والإتيانِ بعبادٍ غيرِهم؛ إنْ أَصَرّوا على الشِّرك.

سرُّ حذفِ مفعولِ المشيئة:

دلالةُ جوابِ الشَّرطِ عليه

ورد في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ استعمالُ فعلِ المشيئة في سياق الشَّرطِ دونَ ذكرِ مفعولِه، وسِرُّ ذلك أنَّ شأن فعلِ المشيئة إذا وقع متَّصلًا بما يصلح لأن يدلَّ على مفعوله حذفُ المفعول؛ لظُهور أنَّ الجواب هو دليلُ المفعول[2]، وكذلك في هذه الآيةِ، فمفعولُ فعلِ المشيئة محذوفٌ؛ لأنَّ المرادَ منه ما يساوي مضمونَ جوابِ الشَّرطِ، فحُذِفَ إيجازًا، والتَّقدير: إن يشأ إذهابَكُم؛ يذهبْكم، إلّا أنَّ البلاغة في أن يُجاءَ به محذوفًا لما فيه من دقيق الصُّنعة

(1) ابن أبي العِزّ، شرح الطّحاوية، ص: 85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 321.

ومن جليل الفائدةِ، فهو إضمارٌ على شريطة التَّفسير، فيُعْطي هذا الحَذفُ النَّظمَ حُسْنًا وغرابةً، ومتى ظهرَ المفعولُ؛ صارَ الكلامُ غَثًّا، يَمُجُّه السَّمْعُ، وتَعافُهُ النَّفسُ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

الإذهابُ مستعمَلٌ في الإهلاك بالموت

أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ جوابًا للشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الإذهابَ مستعملٌ في الإهلاك، أي: الإعدامُ من هذا العالَم، أي: إن يشأ: يسلِّط عليهم موتًا يعمُّهم، فكأنَّه أذهبَهم من مكانٍ إلى مكان؛ لأنَّه يأتي بهم إلى الدّار الآخرة[2]، وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير بقوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ ما يدلُّ عليه من معنى الإبعادِ والاستبدالِ بسبب كفرهم، وفيه إشارةٌ إلى سهولة ذلك الأمر على اللّٰه تعالى.

دلالةُ الخطابِ في قوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

قَصْدُ العمومِ أو تخصيصُ المشركين بالوعيد

الخطابُ في قوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ موجَّهٌ للنّاس باعتبار العموم، ويكون المعنى: إن يشأ؛ يذهبْكم، ويأتِ بعالَم غيرِ العالَم الذي تعيشون فيه، وتعرفونَهُ، ويجوز أن يكون الخطابُ موجَّهًا لمشركي العرب، ويكون المعنى: إن يشأ؛ يذهبْكم أيُّها المشركون، ويأتِ بخَلْقٍ جديدٍ ليسوا على صفتِكم، بل مستمرّون على طاعته وتوحيده[3].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَيَأۡتِ﴾:

زيادةُ التَّهديدِ للمشركين بخَلْقِ قومٍ آخرين

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ على ما قبلَهُ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع، وفي هذا زيادةٌ في تهديد المشركين بأنَّ اللّٰه سبحانَه قادرٌ على إفنائهم إن شاء، وأنَّه ﷻ قادرٌ على أن يخلقَ عبادًا آخَرين يطيعونه، ولا يعصونه، وفي هذا دلالةٌ على تفرُّدِه سبحانه بالقدرة على خلق ما يشاء، وإهلاكِ ما يشاء.

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 84/ 22.

الإتيانُ بخَلْقٍ جديدٍ على الله يسير

دلالةُ التَّعبيرِ بالإتيان في قوله: ﴿وَيَأۡتِ﴾:

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالإتيان دونَ المجيء في قوله: ﴿وَيَأۡتِ﴾؛ لما يحمله من معنى اليُسر والسُّهولة في فعل الله لما يشاء من الإذهاب والإهلاك والإتيان بالخلق الجديد؛ بخلاف المجيءِ الذي يدلُّ في اللُّغة على الصُّعوبة والشِّدَّة في فعل الشَّيء في حَقِّ البشر، أمّا عند الله؛ فهو أمرٌ يسير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: 27].

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِخَلۡقٍ﴾:

ورد حرفُ الباء في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾ دالًّا على التَّعديَة، إذِ الفعلُ (أتى) في أصله لازمٌ، فلمّا أُريدَ تعديتُه إلى مفعول؛ جيءَ بحرف الجَرِّ الباء.

دلالةُ التَّعبير بـ (خَلْق):

قدرةُ ربِّ العالَمين على استبدال العالَم بعالَمٍ آخَر

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ (خَلْق) دونَ غيرِه كالنّاس والبشر في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لأنَّ الخَلْقَ أعمُّ؛ فيشملُ كلَّ مخلوقٍ، والنّاسُ والبَشرُ من المخلوقين، ولذلك فُسِّر الخَلْق بمعنى المخلوق، فهو مصدرٌ مُرادٌ به اسمُ المفعول، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11]، فأخبرَ اللهُ سبحانَه بأنَّه قادرٌ على الإتيان بعالَم غيرِ النّاس المعهودين، هذا إذا كان الخطابُ عامًّا، أو إن يشأ؛ يذهِبْكم أيُّها المشركون أو العربُ، ويأتِ بخَلْقٍ جديدٍ ليسوا على صفتكم، بل مستمرّون على طاعتِه وتوحيدِه[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿بِخَلۡقٍ﴾:

الـدَّلالـةُ على تفخيم الشَّيء وتعظيمه

جاء لفظُ ﴿بِخَلۡقٍ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾، والنُّكْتَةُ في تنكيره أنَّه يدلُّ على الإبهام، والإبهامُ له علاقة مباشِرة

(1) الآلوسي، روح المعانيّ: 11/ 356.

بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ مَن أراد أن يُعَظِّم شيئًا أبهمَهُ بحيث لا يُكْتَنَهُ وصفُه، وتذهبُ النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ، فالتَّنكيرُ هنا تعظيمٌ للخَلْق الجديدِ، الذي يستبدل الله به المشركين.

سرُّ وصف (خلق) بـ ﴿جَدِيدٖ﴾:

الاستبدالُ الكلّيُّ للمشركين والكافرين

وُصِفَ (الخَلْق) في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بأنَّه جديد، ومعناه: إحداثُ ناسٍ سوى المخاطَبين لم يكونوا موجودين، ولا مترقّبًا وجودُهم، كما يُفيد هذا الوصفُ المبالغةَ في تهديد المشركين؛ إذ يقتضي تمامَ إفنائِهم وعدمَ إبقاءِ بقيَّةٍ منهم، كما يُقرِّر أنَّ هذا الخَلْقَ البديلَ لن يكون فيه من المُهْلَكين أثرٌ، حتّى لو كان من ذرّيَّتِهم، فهو لعظَمته سبحانه قادرٌ على أن يخلقَ خَلْقًا جديدًا أحسنَ وأجملَ وأتمَّ وأكمل[1]، وفيه دفعُ توهُّمِ أنَّ هذا الخَلْقَ الجديدَ متَّصلٌ بالخَلْق السّابق؛ لأنَّ القُدْرة الإلَهيَّة مطلقةٌ لا يحدُّها حَدٌّ.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾:

بيانُ العظَمة الإلَهيَّةِ المطلقةِ والقُدْرةِ الباهرة

الواو في جملة: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ عاطفةٌ، أو حاليَّةٌ، أو حرفُ استئناف[2]، والظّاهرُ أنَّها عاطفةٌ على الجملة السّابقة، وهو قولُه تعالى: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾؛ لتأكيد مضمونها، وبيانِ العظَمة الإلَهيَّة المطلقة، والقدرةِ الباهرةِ الَّتي لا يمتنع عليها أيُّ شيء، وإنَّما سلكَ بهذا التَّأكيدِ مسلكَ العطف؛ لما فيه من المغايرة للمُؤكَّد في الجملة، بأنَّه يُفيد أنَّ هذا الشَّيء سهلٌ هيِّنٌ عليه.

دلالة النَّفي بـ (ما) في الآية:

التَّأكيدُ على عدم تَعَسُّر أيِّ شيءٍ على القدرة الإلَهيَّة

جاء النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بحرف (ما) النّافية؛ للتَّأكيد على نفي امتناعِ شيءٍ على القُدْرة الإلَهيَّة، فإذهابُ المشركين والإتيان بعبادٍ آخَرين مطيعين سهلٌ عليه سبحانه، فإنَّ أمرَه تعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له: كُنْ فيكون.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 230، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 05/ 180، والدعّاس، إعراب القرآن: 2/ 129.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عظَمةُ المُشارِ إليه منَ الإذهاب والخَلْق

استعمل النَّظمُ القرآنيُّ اسمَ الإشارةِ للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ للدَّلالة على عظَمة المشار إليه، فإهلاكُ المشركين وخلقُ عبادٍ آخَرين طائعين من الأمور العظيمة التي لا يَقْدِر عليها إلّا اللّهُ سبحانه؛ لأنَّه استبدالٌ كاملٌ، وإحلالٌ لعالَم آخَر مكانَ هذا العالَم.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على الخبر:

اختصاصُ اللهِ سبحانه بأفعال الرُّبوبيَّة

تَقَدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ لإفادة الاختصاصِ، بمعنى: اختصاص اللّه سبحانه وحدَه بالقُدرة على الإفناء والخَلْق، كما أنَّ في هذا التَّقديم تربيةً للمهابة، وتأكيدًا على عظَمة الرُّبوبيَّة، وفيه إشارةٌ إلى نفي العجزِ عن إهلاك الكفرة والمشركين، واستبدالهم بخَلْق جديد.

دلالةُ التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

لا شيءَ عسيرٌ علـى قُـدرة الحكيم الخبير

دلَّ التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ على سهولة هذَين الأمرَين: الإهلاك والإذهاب، والإتيان بالخَلْق الجديد، وفيه إشارةٌ إلى التَّهوين من شأن الكافرين؛ فهلاكُهم وبقاؤهم عند اللّه شيءٌ يسير.

نُكْتَةُ إظهارِ الاسم الأعظم بعد إضماره:

استحضارُ العظَمة والجلال

أوثِرَ التَّعبيرُ باسم اللّه الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ الجامعِ لأسمائه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتصَّةٌ به وحدَه سبحانه، فَيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامعِ لِصِفاتِ الكمالِ[1]، ومن عظَمته سبحانه الاستغناءُ عن الخَلْق أجمعين، والقدرة على إذهابِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.

واستبدالهم بخَلْقٍ آخَرين طائعين؛ لذلك كان التَّعبيرُ بلفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ هو المناسب لهذا السّياقِ في أمرِ الإهلاك، الذي يحتاج إلى الجبروتِ والقهرِ، وفي أمر الإتيانِ بخَلْق جديدٍ، الذي يحتاج إلى القدرةِ المطلقة.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِعَزِيزٖ﴾:

توكيدُ النَّفي

اقترنَ خبرُ (ما) النّافية في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ بالباء، وهي في هذا النَّظم صلةٌ غرضُها توكيدُ النَّفي المدلولِ عليه بحرف (ما)، قال ابن السَّرّاج: "وقد أدخلوا الباءَ في خبر "ليس" توكيدًا للنَّفي، تقول: ألست بزيدٍ، ولست بقائمٍ"[1].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ(عزيز):

الـعِـزَّة دلـيـلُ القدرة

أوثِرَ التَّعبيرُ بلفظ (عزيز) في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ لتعدُّد معانيه، فقد استُعمِل لفظُ (العزيز) في النَّظم القرآنيِّ تارةً في القائم بنفسه، حيثُ قال اللّهُ سبحانَه في حقِّ نفسه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب: 25]، واستعمله في القائم بغيره، حيثُ قال ﷻ: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾، وممّا يُذْكَر في سرِّ التَّعبير به: أنَّ العزيز هو الغالب في اللُّغة، يقال: مَن عَزَّ؛ بزَّ، أي: من غلبَ؛ سلب، وأصل مادَّته يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّة، فاللّه عزيز، أي: غالب، والفعل إذا كان لا يُطيقه شخصٌ، يقال: هو مغلوب بالنِّسبة إلى ذلك الفعل، فقولُه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾، أي: لا يُغلَب اللّهُ سبحانه على ذلك الفعل، بل هو هيِّنٌ عليه ﷻ، فإذهابُ المشركين وإفناؤهم، وإنشاءُ خَلْق آخَر مكانَهم ليس على الله بمُمتَنِعٍ ولا مُتَعَذِّر؛ لأنَّه القادرُ على ما يشاء[2].

(1) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 01/ 90.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/ 625، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 230، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عزز).

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿بِعَزِيزٖ﴾:

دلالــةُ الإبهامِ والشّيوع

جاء لفظُ ﴿بِعَزِيزٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ منكَّرًا؛ لإفادة الإبهام والشُّيوع، فإفناءُ المشركين والإتيانُ بخَلْق آخَرين لا يتعذَّر على القدرة الإلَهيَّة أدنى تعذُّرٍ، بل هو هيّنٌ على من تتوقَّف الأمورُ جميعُها على مشيئته سبحانه.

بلاغةُ التَّذييلِ بجملة الختام:

الـزّيـادةُ في الإرهـاب والتَّـهـديـد لـلـكـافـريـن والمشركين

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾؛ تأكيدًا على أنَّه سبحانه غنيٌّ عن الخَلْق، غيرُ محتاج إليهم، بل هم المحتاجون إليه، ولا وزنَ لهم عندَه، ولا يزول ملكُه بزوالهم، فهو قادرٌ على إفنائهم واستبدالهم متى شاء، وفيه دلالةٌ على هوان الخَلْق على اللّه؛ إذا كفروا به، وجحدوا نِعَمَهُ، فلا وزنَ لهم ولا كرامةَ إلّا بالطّاعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13].

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

التَّأكيدُ والمبالغةُ عـنـد وقـوع الغفلة والبُعد

تشابه قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ [النّساء: 133]، ومع قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ [إبراهيم: 19 - 20]، والملاحظ اتِّفاقُ موضع سورةِ إبراهيم مع موضع سورةِ فاطر؛ بخلاف موضع النِّساء، وسرُّ ذلك أنَّ آيةَ النِّساء يسبقها قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النساء: 132]، ولمّا كان السّياق فيها قائمًا على التَّأكيد والمبالغة فيه، ودلَّ ذلك على وقوع الغَفْلةِ والبُعد عن اللّه تعالى من النّاس؛ ناسبَهُ ذِكْرُ قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النساء: 133]، ولمّا كان إذهابُ هؤلاءِ يَعْقِبُه إتيانُ اللّه بأناس غيرهم متأخِّرين عنهم في الزَّمان، لكنَّهم متقدِّمين عنهم بالإيمان؛ ناسبَ ذلك التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَيَأۡتِ

﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ [النساء: 133]، أمّا آيةُ سورة إبراهيم؛ فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 19]، فلم يذكر ما يدلُّ على الغفلةِ، فناسبَ عدمُ ذكرِ (أيها الناس)، ولمّا كان خَلْق الجديد أدلَّ على القدرة، ناسبَه التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ [إبراهيم: 19][1]، أمّا في سورة فاطر؛ فلم يأتِ بلفظ (أيّها الناس)؛ لسبق ذكره في قوله تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وعلى ذلك فلا داعيَ للتَّكرار بذكرها مرَّةً ثانية، ولأنَّه تقدَّم أيضًا تكذيبُ الأقوام للرُّسل، وتكذيبُ كفّارِ مكّة لرسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ [فاطر: 4]؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ من باب التَّهديد والوعيد.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإذهابُ والإهلاكُ:

الإذهابُ عامٌّ في الإهلاك وغيره

يظهر الفرقُ بين لفظي (الإذهاب) و(الإهلاك) في علاقة العموم والخصوصِ بينهما، فالإذهابُ يَعُمُّ الإهلاكَ وغيرَه، ويستعمل على الحقيقةِ والمجازِ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، ويَرِدُ الإذهابُ كنايةً عن الإهلاك، بمعنى الإعدام من هذا العالم، فكأنَّه أذهبَهم من مكانٍ إلى مكانٍ؛ لأنَّه يأتي بهم إلى الدّار الآخرة بالموت[2].

أمّا الإهلاكُ؛ فهو خاصٌّ بالإبادة وعدم ترك أيِّ أثرٍ للمُهْلَكين[3]، وقد آثَر النَّظمُ القرآنيُّ في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ التَّعبيرَ بلفظ الإذهاب لعمومه ومناسبته لِلَفظِ الإتيان المذكور بعده.

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 394.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 286.
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة المعاصرة: (هلك).

الإتيانُ فيه سهولة ويُسْرٌ، والمجيء فيه شِدَّة

الإتيانُ والمَجيء:

ذكر أهلُ اللُّغة في التَّفريق بين المجيء والإتيان فروقًا لا يكاد يسلم واحدٌ منها من الاعتراض، وأشهرُ فرقٍ بينهما ما ذكره الرّاغب: أنَّ الإتيانَ فيه سهولةٌ ويسرٌ، أمّا المَجيءُ ففيه صعوبةٌ وشِدَّة[1]، وقد قال بعضهم بالعكس تمامًا، فقال: إنَّ الإتيانَ يكون بشِدَّة وفجأة، ولهذا استُعْمِل التَّركيب في إنزال عقوبات، قال تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، وقال: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾ [يونس: 24]، وقال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: 2]، وكذلك ما في [النّساء: 25، المائدة: 52، هود: 93، الرّعد: 41، الكهف: 55، الشّعراء: 165]، ومهما يكن من فرقٍ بينهما؛ فاستعمالُ لفظِ الإتيان دونَ المجيءِ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مناسبٌ لما ذكرَهُ الرّاغبُ، فإهلاكُ المشركين واستبدالُهم بقوم آخَرين يسير هيِّنٌ على اللّه ﷻ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طمأنةُ المؤمنين من عواقب التَّهديد للمشركين

لـمّا كان ما قبلَ هذه الآية مسوقًا في غرض التَّهديد، وكان الخطابُ للنّاس على وجه العموم فيها؛ أُريدَ طمأنةُ المسلمين من عواقب التَّهديد، فعَقَّب بأنَّ مَن لم يأتِ وزرًا؛ لا ينالُه جزاءُ الوازرِ في الآخرة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَزِرُ﴾: الأصلُ في (وزر) ثِقَلُ الشَّيءِ، فهوَ متعلِّقٌ بالحَمْلِ(2)، ثمَّ عبَّر عنهُ بالذُّنوبِ والآثام، تشبيهًا بثِقَلِ الجبل، فهوَ يُثقِلُ صاحبَه(3)، والوَزَر: الملجأُ الَّذي يُلتَجأ إليه من الجبل، والوِزْرُ: الثِّقَلُ تشبيهًا بوَزَر الجبل، والآثام تُسمّى أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مثقلةٌ، واحدها وِزْرٌ(4)، والوِزْرُ الحِمْلُ الثَّقيلُ مِنَ الآثام والذُّنوب(5)، فمعنى ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ في هذه الآية: لا تحملُ نفسٌ حِمْلَ أخرى، أيْ: لا يُؤاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه، ولا تَحمِلُ نفسٌ آثمَةٌ وِزْرَ نفسٍ أُخرى، ولكنْ كلٌّ يُجزَى بما كَسَبَ(6).

2) ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾: (ثقل) أصلٌ واحد يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربة، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وزر).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(4) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 207.
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وزر).
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/ 179.

ضِدُّ الخِفَّة، والثِّقَلُ: رُجحانُ الثَّقيل، والثَّقَلُ: متاعُ المسافرِ، وجمعه أثقالٌ، والأثقالُ أيضًا: الآثام، قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13]، أي: آثامَهم الَّتي تُثْقِلُهم، وتُثَبِّطُهم عن الثّواب، والمُثْقَلُ: الَّذي حَمَلَ فوقَ طاقته، والمُثْقَلَةُ هي حاملةُ أوزار وخطايا، وهو اسم يُستعمَل بالتَّأنيث، ليست للمرأة خاصَّة، ولكنَّه يحمل على النَّفس، ويجري مجرى النَّعت[1]، فمعنى ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ في الآية، أي: نفس أثقلَتْها الأوزارُ، والثِّقْل: الإثمُ، سُمّيَ به؛ لأنَّه يُثقِلُ صاحبَه يومَ القيامة، ويُثبِّطه عن الثَّوابِ في الدُّنيا[2].

3) ﴿حِمۡلِهَا﴾: (حمل) أصلٌ واحد يدلُّ على إقْلالِ الشَّيء، يقال: حَمَلْت الشَّيءَ أحمِلُه حَمْلًا، والحَمْلُ: ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرٍ، يقال: امرأة حامِلٌ وحامِلةٌ، فمن قال: حامل، قال: هذا نعتٌ لا يكون إلّا للإناث، ومن قال: حاملة، بناه على حَمَلَتْ، فهي حاملةٌ[3]، وفرَّق أهلُ اللُّغة بين الحَمْل والحِمْل، فقالوا: في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيء المحمول على الظَّهر: حِمْلٌ، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمْلٌ، كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثَّمرة في الشَّجرة تشبيهًا بحَمل المرأة[4]، وقد استُعير لفظُ (حِمل) في الآية للمعاني كالذُّنوب ونحوها، من باب جَعْلِ كلِّ محمول متَّصلًا بالظَّهر، كقوله سبحانه: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 31][5].

4) ﴿قُرۡبَىٰٓۗ﴾:(قرب) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف البُعد، يقال: قَرُب يَقْرُب قُربًا، وفلانٌ ذو قرابتي، وهو من يقرُب منك رَحِمًا، والقُرْبة والقُرْبى: القَرابةُ[6]، والتَّقَرُّبُ: التَّدنّي والتَّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ، ويُستعمل القُرْب في المكانِ، وفي الزَّمانِ، وفي النِّسبةِ، وفي الحَظْوةِ، والرِّعايةِ، والقُدرةِ[7]، والقَريبُ والقَريبة ذو القَرابةِ، والجَمعُ مِن النِّساءِ قَرائِبُ، ومِن الرِّجالِ أَقارِبُ، والقَرابَةُ والقُرْبَى: الدُّنوُّ في النَّسب[8].

(1) الخليل، العَيْن، وابن فارس، مقاييسُ اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثقل).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 394.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(4) الرّاغب، المفردات: (حمل).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 435.
(6) الخليل، العَيْن، وابن فارس، مقاييسُ اللّغة: (قرب).
(7) الرّاغب، المُفردات: (قرب).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).

5) ﴿يَخْشَوْنَ﴾: (خشي) أصلٌ يدلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، ثم يُحمل عليه المجاز[1]، فالخَشْيَةُ: الخَوْفُ، والخَشْيَةُ فيها اسْتِشعارُ النَّفْسِ حِدَّةً تقَعُ لا مَهرَبَ مِنْها، وفيها - مع ذلك - اسْتيحاشٌ وجَفْوَةٌ وخُشونَةٌ، قد يُعَبِّرُ عنها التَّوتُّرُ الحادُّ[2]، ولهذا فالخَشْيَةُ أخَصُّ مِنَ الخَوْفِ، فهي خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمٌ، وأكثَرُ ما يَكونُ ذلك عَنْ عِلْمٍ بما يُخْشى مِنْه[3]، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

6) ﴿تَزَكَّىٰ﴾: (زكو) أصلٌ يدلُّ على النَّماء والزّيادة، وترجع معانيه كلُّها إلى النَّماء والطَّهارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبة: 103][4]، والزَّكاة: النَّماء والبَركة والزّيادة، وكذلك التَّطهيرُ[5]، ومنه زكاة المال: ما تخرجه من مالِك لِتُطَهِّرَه به[6]، وتزكيَةُ النَّفس: تنميَتُها بالخيرات والبَركات، وبزكاءِ النَّفسِ وطهارتِها يصير الإنسانُ مستحقًّا للأوصاف المحمودةِ في الدُّنيا، والأجرِ والثَّواب في الآخرة، وتزكيَةُ الإنسانِ نفسَه ضربان، أحدهما بالفعل، وهو محمود، وإليه قُصِدَ بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشّمس: 9]، والثّاني بالقول، كتزكيَةِ العَدلِ غيرَه، وذلك مذمومٌ أن يفعل الإنسان بنفسِه، وقد نهى اللّهُ تعالى عنه فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النّجم: 32]، والمقصود بها هنا: الطَّهارةُ من أدناس الشِّرك، وأوضارِ الذُّنوب والمعاصي[7].

7) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: (صير) أصلٌ صحيحٌ معناه المآلُ والمرجِعُ، يقال: صِرْتُ إلى فُلانٍ، أصير مصيرًا، وصار إلى كذا: انتهى إليه، وأصلُ المصير: هو المآل والمَرجِعُ الّذي ينتهي إليه في تنقُّله وتحرُّكه، والمعنى هنا: المرجِعُ إلى اللّه في كلِّ شُؤون العباد في الدُّنيا والآخِرة[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خشي).
(3) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زكو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (زكو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (زكو).
(7) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 47، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 397.
(8) ابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِبُ، المفردات، وابن الأثير، النِّهايَةُ: (صير)، والخضيريُّ، السِّراجُ، ص: 270، ومقاتلُ بن سليمان، تفسير مقاتِل: 1/ 232.

كلُّ نفسٍ رهينةٌ بما كسبَتْهُ من أعمال

۞ المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى ذِكْره: ولا تحمل نفسٌ آثِمَةٌ إثمَ نفسٍ أُخرى غيرِها، بل كلُّ نفسٍ بما كسبت مرهونة، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النجم: 39]، وإن تَسْأل نفسٌ مثقَلَة بالخطايا مَن يحمل عنها من ذنوبها؟ لم تجد من يَحمل عنها شيئًا، ولو كان الَّذي سألَتْهُ ذا قرابةٍ منها من أبٍ أو أخٍ ونحوِهما، إنَّما تُحَذِّر - أيُّها الرَّسول - الَّذين يخافون عذابَ ربِّهم بالغيب، وأدَّوا الصَّلاةَ حقَّ أدائها، ومن تَطَهَّر من الشِّرك وغيره من المعاصي؛ فإنَّما يتطهَّر لنفسِهِ، وإلى الله سبحانه مآلُ الخلائق ومصيرهم، فيُجازي كُلًّا بما يستحِقُّ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾:

النَّجاةُ للمؤمنين والهلاك للكافرين

جاء التَّعبيرُ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ لشِدَّةِ ارتباطه بما قبله، فإنَّه لمّا كان ما قبلَ هذهِ الآية مسوقًا في غرض التَّهديد، وكان الخطاب للنّاس؛ أُريدَت طمأنةُ المسلمين من عواقب التَّهديد، فعقَّب بأن مَن لم يأتِ وزرًا؛ لا يناله جزاءُ الوازِر في الآخرة، وفي دلالة التَّعبيرِ بالواو أيضًا: أن تكونَ هذه الآية وعدًا بالإنجاء من عذاب الدُّنيا إذا نزل بالمهدَّدين الإذهابُ والإهلاك، مثلما أُهْلِكَ فريقُ الكفّار يومَ بدر، وأُنجيَ فريقُ المؤمنين(2)، كما دلَّ على ذلك في الآية السّابقة.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿وَلَا تَزِرُ﴾:

كُلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة

أوثِرَ التَّعبير بالفعل ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ لما يحمله من معنى الثِّقل؛ لأنَّ مادة (وَزَرَ، يَزِرُ) تُطلَق على الحِمل الثَّقيل، وعلى الذَّنب والجناية؛ لثِقَل عاقبتِها على جانيها؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 353، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 436.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 288.

لذلك آثَر التَّعبيرَ بالوزر دونَ غيرِه، والمعنى: ولا تَحمِل حامِلَةٌ حِمْلَ أخرى، أي: لا يُحَمِّل اللّهُ نفسًا حِملًا جعلَهُ لنفس أُخرى؛ عَدلًا منه تعالى؛ لأنَّ اللّه يحبُّ العدلَ، وقد نفى عن شأنه الظُّلْمَ، وإن كان تصرُّفه إنَّما هو في مخلوقاته[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع المنفي:

محلُّ المؤاخذةِ بالذُّنوب يومَ القيامة

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع المنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ محلَّ المؤاخذة بالذُّنوب هو يومُ القيامة، وهو اليوم الموعودُ لمجازاة الخلائق على أعمالها.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

تجسيدُ الذُّنوب في صورةٍ محسوسة يومَ القيامة

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ استعارةً بديعةً، فأصْلُ الوِزْر الحِمْلُ الثَّقيلُ من الأجرام، فاستُعيرَ للمعاني كالذُّنوب ونحوِها، والغرضُ من ذلك: تمثيل هيئة عنَتِهم، وشِدَّة مشقَّتهم من جَرّاء ذنوبهم الَّتي اكتسبوها، فكأنَّهم يحملونها؛ لأنَّهم يُعانون شِدَّة آلامِها، كما يعاني مَن يَحْمِل حِملًا ثقيلًا[2].

نُكْتَةُ التَّعبير باسم الفاعل المؤنَّث ﴿وَازِرَةٞ﴾:

كلُّ نفسٍ وازِرةٍ مهمومةٌ بهَمِّ وِزْرِها

آثَر النَّظمُ التَّعبيرَ باسم الفاعل ﴿وَازِرَةٞ﴾، دونَ التَّعبير بأنَّه: (لا تَزِر نفسٌ وِزْرَ أخرى)، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ نفسٍ وازرةٍ مهمومةٌ بهمِّ وِزْرِها، متحيّرةٌ في أمرها، وكذلك لنُكْتَةِ أنَّ القائلَ: (ولا تَزِر نفسٌ وزر أخرى)، قد يجتمع معها ألّا تَزِرَ وزرًا أصلًا، كالمعصوم ﷺ، لا يَزِرُ وِزر غيرِه، ومع ذلك لا يَزِرُ وِزرًا رأسًا، فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ يُبيِّن أنَّها تَزِر وِزرَها، ولا تَزِر وِزرَ الآخرين[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 288.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 24.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 288.

دلالةُ الإسنادِ إلى المؤنَّث دونَ التَّذكير:

مناسبةُ معنى النَّفسِ للاكتساب

وجهُ اختيارِ الإسناد إلى المؤنَّث في قوله: ﴿وَازِرَةٞ﴾، جاء بتأويل النَّفس دون أن يجريَ الإضمارُ على التَّذكير بتأويل الشَّخص؛ لأنَّ معنى النَّفس هو المتبادرُ للأذهان عند ذكر الاكتساب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ [الأنعام: 164]، وقولِه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثّر: 38]، وغيرِ ذلك من الآيات.

دلالةُ حذفِ الموصوف:

حُذِفَ الموصوف في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾، وتقديره: (نفس وازرة)، وقد تُرِك ذِكْرُه لظهور الصِّفة، ولزومِها للموصوف.

غرضُ الإخبار بنفي الوزر:

كمالُ عدلِه ﷻ

الغرضُ من الإخبارِ بنفي الوزرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ هو بيانُ عدلِ اللّه ﷻ، بألّا تأثَمَ نفسٌ آثِمَةٌ بإِثْم نفسٍ أخرى غيرِها، ولكنَّها تَأثَمُ بإثمها، وعليه تُعاقب دونَ إثم أخرى غيرها[1]، فكلُّ نفسٍ تتحمَّل ما اكتسبته من الذَّنب لا يجاوزها إلى غيرها، وهذا من عدلِه سبحانه.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿وَازِرَةٞ﴾:

إفادةُ العموم والتَّأكيد

جاء لفظُ ﴿وَازِرَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ نكرةً؛ وذلك لإفادة التَّعميم والتَّوكيد، فأمّا التَّعميم؛ فمعنى وازِرة: أنَّ كلَّ نفسٍ - دونَ تعيين - يقع عليها وِزْرُها دونَ وِزْرِ غيرِها، وأمّا التَّوكيد؛ فالمقصودُ منه توكيدُ العمومِ؛ لأنَّ ﴿وَازِرَةٞ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفي، فتَعُمُّ كلَّ نفسٍ وازِرة.

بلاغةُ حذف موصوف ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾:

لفظ ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ صفةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/ 48.

لموصوف محذوفٍ، تقديره: (وزر نفس أخرى)، وإنَّما أبقيَ على الصِّفة دونَ الموصوف للعِلْم به، ولدلالة ما سبق من الكلام عليه.

نُكْتَةُ جِناس الاشتقاق في ﴿تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ﴾:

جناسُ الإلحاق بـما اتَّـفَـق في أصل الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ محسِّنٌ بديعيٌّ يُسَمّى بجِناس الاشتقاق، حيثُ توافقت كلمتا ﴿تَزِرُ﴾ و﴿وَازِرَةٞ﴾ في الحروف الأصول، وهو ملحَقٌ بالجناس الاصطلاحيِّ؛ لأنَّ كثيرًا ما يُلْحَق بالتَّجنيس الكلمتان الرّاجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المسامحة[1].

دفعُ توهُّمِ تعارضِ هذه الآية مع غيرها:

حَـمْـلُ المُضِلّين أثـقـالَ ضلالهم مع أثقالِ إضلال النّاس

يتوهَّم البعضُ وقوعَ تعارضِ هذه الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، مع قوله سبحانه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ [العنكبوت: 13]، حيثُ إنَّه نفى في موضع فاطر أن تحمل نفسٌ إثمَ نفسٍ أخرى، وأثبتَ في موضع العنكبوت حملَ بعضِ النّاس لأوزارٍ أخرى، وبالنَّظر والتَّدقيق: لا يوجدُ تعارضٌ بينهما، وهذا واضحٌ في توفيق بعضِ العلماء بين الآيتين، فآيةُ سورة فاطر نفت أن يحمِل أحدٌ وِزرَ آخَرَ، لا مُشاركةَ له للحامِلِ على اقتراف الوِزر، وأمّا آية سورة العنكبوت؛ فمورِدها في زعماء المشركين، الذين مَوَّهوا الضَّلالةَ، ودَعَوا إليها، فإنَّ أوَّلَ تلك الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: 12]، فأخبر اللّهُ عن الضّالّين المُضِلّين أنَّهم يحملون أثقالَ إضلالِ النّاس مع أثقالِ ضلالهم، وذلك كُلُّه أوزارهم، ما فيها شيءٌ من وِزر غيرهم، فلا تعارض بين الآيتين، ألا ترى كيف كذَّبهم اللّهُ تعالى في قولهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾

(1) العصام الأسفرايينيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.

[العنكبوت: 12] بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾ [العنكبوت: 12][1]، ويزيد هذا المعنى وضوحًا حديثُ: «من سَنَّ سُنَّةً سيئةً؛ فعليه وزرُها ووزرُ مَن عملَ بها إلى يوم القيامة»[2].

دلالةُ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُ﴾:

التَّـهـويـل والتَّرهيب بنفي الإغاثة ولو من الأقربين

دلَّ التَّعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ على قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾؛ لوجود المغايرة بين الآيتين، فالآيةُ الأولى: في الدَّلالة على عدلِ اللّٰه تعالى في حكمه، وأنَّه تعالى لا يُؤاخذ نفسًا بغير ذَنبها، والآية الثّانية: في أنَّه لا غياثَ يومئذٍ لمَن استغاث، حتّى إنَّ نفسًا قد أثقلتْها الأوزار، لو دعت إلى أن يُخفف بعضُ وِقرها؛ لم تُجَبْ، ولم تُغَثْ، وإن كان المدعوُّ بعضَ قرابتِها من أبٍ أو ولدٍ أو أخٍ[3]؛ لذلك كان العطف بالواو، ليوجد التَّناسبُ بينهما.

بلاغةُ ذِكرِ ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ بعد الجملة السابقة:

نفيُ حملِ الأوزار بـالاخـتـيـار أو بالإجبار

ذُكِرَت هذه الجملة ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾؛ لوجود معنًى في الجملة الثّانية لا يوجد في الأولى؛ حيثُ يَتصوَّر البعضُ أنَّه لا فرق بين معنى الجملتين، والصَّحيح وجودُ فرقٍ بينهما، فهذه الجملة نفيٌ للتَّحمُّل اختيارًا، والجملة السّابقة نفيٌ له إجبارًا، وقيل: إنَّ في الجملة الأولى نفيَ حَمْلِ جميع الوِزْر، بحيثُ يتعرّى منه المحمولُ عنه، وفي الثّانية نفيُ التَّخفيف؛ فلا اتِّحاد بين مضمون الجُملتين، وذهبَ البعضُ إلى أنَّ الجملة الثّانية أعمُّ من الأولى، فقال: "وهذا النَّفي للحَمْل بعد الطَّلب من الوزارة أعمُّ من أن يكون اختيارًا أو جَبرًا، وإذا لم يُجبَر أحدٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 606، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 288.
(2) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (2675)، وهو حديث صحيح.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 607.

على الحَمْل بعد الطَّلب والاستعانة؛ عُلِمَ عدمُ الجَبرِ بدونه بالطَّريق الأولى، فيَعُمُّ النَّفيُ أقسامَ الحَمْل كلَّها"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرْطيَّة:

نفيُ الإغاثةِ مطلقًا في جميع الأحوالِ

دلَّ التَّعبيرُ بأسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ على نفي الإغاثةِ مطلقًا في جميع الأحوالِ من الدُّعاء وعدمِه، وعلى تعليق مضمون الجواب على دوام حصولِ مضمون الشَّرط، ويكون المعنى: (حصول انتفاءِ الحَمْلِ بحصول الدُّعاء إلى ذلك)، مع أنَّ الدُّعاء مَظِنَّة رحمةِ الدّاعي وإجابته إلى سُؤْله، ففيه نفيُ إغاثةِ أحدٍ لأحد مطلقًا.

نُكْتَةُ الشَّرط بـ (إن) دونَ (إذا):

احتمالُ سُؤالِ الغَوْثِ وعدمِ إجابته

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ استِعْمالُ حرف الشَّرط الجازم (إنْ) دون (إذا)؛ مناسبةً لسياق احتمالِ سؤالِ الغَوْثِ، فحرفُ (إن) يَرِدُ عمومًا في المعاني المحتمَلةِ الوقوعِ والمشكوكِ في حصولها، والموهومةِ والنّادرةِ والمستحيلة، وسائرِ الافتراضات الأخرى، وأمّا (إذا)؛ فتُستعمَل عندما يكون الشَّرطُ فيها مقطوعًا بوقوعه[2]، وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير بـ (إن) دونَ (إذا) التَّأكيدُ على الصّورة الذِّهنيَّة الَّتي ذكرها القرآن، بأن كلَّ إنسانٍ مشغولٌ بنفسهِ دونَ غيره، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: 34 - 37].

دلالةُ التَّعبيرِ بالدُّعاء في: ﴿وَإِن تَدۡعُ﴾:

المبالغةُ في نفي الإغاثةِ في يوم القيامة

استُعمل فعلُ الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ مبالغةً في نفي الإغاثةِ يوم القيامة، ففيه إشارةٌ إلى

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 184.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

أنَّ أحدًا لا يَحمِل عن أحدٍ شيئًا مبتدئًا، ولا بعدَ السُّؤال، فإنَّ المحتاج قد يَصبِر، وتُقضَى حاجتُه من غير سؤاله، فإذا انتهى الافتقارُ إلى حَدِّ الكمال يُحوجُه إلى السُّؤال[1]، وفيه إشارةٌ إلى ما سيكون في الآخرة عندما تستصرخ نفسٌ مَن يحمل عنها شيئًا من أوزارها، كما كانوا يزعمون أنَّ أصنامَهم تشفعُ لهم، ثمَّ لا يجدون مَن يجيبهم لذلك، وفي التَّعبير بالمضارع دلالةٌ على تجدُّد المحاولات في دعوة النَّفس الآثمة مَن يحمل عنها شيئًا من آثامها، وأنّى لها ذلك[2]؟.

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿تَدۡعُ﴾:

إفادةُ العموم، والاعتناءُ بفعل الدُّعاء

حُذِف مفعولُ فعلِ الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٌ﴾ لإفادة العموم، فيشمل كلَّ مدعوٍّ، من غير أن يُقصَدَ النَّصُّ على مفعول معيَّن[3]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، أي: كلَّ أحد، وكذلك يُستفاد من حذفِه التَّركيزُ على فعل الدُّعاء في حدِّ ذاته، والاقتصار على إثبات معنى الفعل؛ لإفادة الوجود المجرَّد في الشَّيء، دون التَّعرُّض للمعمول[4]، فيُجعَلُ المُتعدّي كغير المُتعدّي في أنَّك لا ترى له مفعولًا، لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصَبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سِواه مرفوضٌ مُطَّرَح[5].

دلالةُ حذفِ الموصوف، وإبقاءِ الصِّفة ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾:

عدمُ إغاثةِ المُثقَلة بالأوزار مطلقًا يومَ القيامة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ صفةً لموصوف محذوف، تقديره: نفسٌ ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذه النَّفسَ أثقلتها الأوزارُ وتمكَّنت منها، يدلُّ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 289.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 607، والخطيب القزويني، التّلخيص في وجوه البلاغة، ص: 127.
(4) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

ذلك وزن ﴿مُثْقَلَةٌ﴾، والثِّقْلُ: الإثم، سُمّيَ بِهِ؛ لأنَّه يُثقِلُ صاحبَه يومَ القيامة، ويُثبِّطُه عنِ الثَّواب في الدُّنيا[1].

نُكْتَةُ وصفِ النَّفس بأنَّها ﴿مُثْقَلَةٌ﴾، بعد وصفِها بـ ﴿وَازِرَةٌ﴾:

ليس عدمُ الوزرِ لعدمِ كونه محلًّا للرَّحمة بالثِّقلِ، بل لكون النَّفسِ مثقلةً

في وصف النَّفس بأنَّها مُثقلةٌ بعد وصفها بأنَّها وازرة نُكْتَةٌ بديعة، حيثُ إنَّه قال أوَّلًا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فيُظَنُّ أنَّ أحدًا لا يحمِلُ عن أحد؛ لكون ذلك الواحد قادرًا على حَمْله، كما أنَّ القويَّ إذا أخذ بيده رُمّانة أو سَفرجلةً لا تُحمَل عنه، وأمّا إذا كان الحِمْل ثقيلًا؛ فقد يُرحَمُ الحامِلُ، فيُحملُ عنه، فقال: ﴿مُثْقَلَةٌ﴾، يعني: ليس عدمُ الوزرِ لعدمِ كونه محلًّا للرَّحمة بالثِّقلِ، بل لكون النَّفسِ مثقلةً، ولا يُحمَل منها شيءٌ[2].

نكتةُ تنكير ﴿مُثْقَلَةٌ﴾:

إفادةُ التَّعميم والتَّوكيد

جاء لفظُ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّعميم والتَّوكيد، فأمّا التَّعميمُ؛ فبسببِ كونِ (نفس مثقلة) يفيدُ الشّيوعَ في كلِّ نفسٍ دونَ تعيين، وأمّا التَّوكيدُ؛ فالمقصودُ منه توكيدُ العموم؛ لأنَّ قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نكرةٌ في سياق الشَّرط، فتَعُمُّ كلَّ نفسٍ مُثْقَلَةٍ.

دلالةُ تعلُّقِ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾:

الحِمْلُ سببُ الدُّعاء وعِلَّتُه

تعلُّق الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ بالفعل ﴿تَدْعُ﴾، وجُعِلَ الدُّعاءُ إلى الحِمْل؛ لأنَّ الحِمْل سببُ الدُّعاء وعِلَّته، فالتَّقدير: وإن تدعُ مُثْقَلَةٌ أحدًا إليها؛ لأجل أن يُحْمَل عنها حِمْلُها، فحُذِف أحدُ متعلِّقَي الفعلِ المجرورِ باللّام، لدلالة الفعل ومُتعلِّقه المذكورِ على المحذوف[3].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 394.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 289.

بلاغةُ الاستعارة في ﴿حِمۡلِهَا﴾:

تجسيد حَمْلِ الذُّنوب والأوزار في صورةٍ محسوسة

تظهر بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال لفظ (حِمْل) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾، وهو في أصل وضعِه ما كان على الظَّهر من الأجرام، فاستُعير للمعاني كالذُّنوب ونحوها، فيُجعَلُ كلُّ محمولٍ مُتَّصلًا بالظَّهر، كقوله: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 31]، كما جُعِل كُلُّ اكتساب منسوبًا إلى اليد[1].

نُكْتَةُ بناءِ الفعل ﴿يُحۡمَلۡ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

انتفاءُ الحِمْل في ذاته، دونَ النَّظر إلى فاعله

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُحۡمَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للتَّركيز على انتفاء الحِمْل لأهمّيَّته في ذاته دونَ النَّظرِ إلى الفاعل، وإذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرض من الأغراض، جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سِواه مرفوضٌ مُطَّرَح[2].

دلالةُ التَّعبير بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهُ﴾:

عــدمُ إغـاثـةِ حامـلِ الأوزار، ولـو بـالـنَّـزر اليسير

دلَّ التَّعبيرُ بحرف الجَرِّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ على التَّبعيض، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ أيَّ نفسٍ مُثْقَلةٍ لو دُعيت إلى حِمْل بعضٍ يسير من ذنوبها لم يُحمَل عنها، فلا غياثَ يومَ القيامةِ لِمَن استغاث، وكلُّ نفسٍ مشغولةٌ بحِمْلها، وتجادُل عن نفسها، وإذا نُفيَ حِمْل بعضِ الأوزار؛ فنَفيُ الكلِّ من باب أولى.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة ﴿مِنۡهُ﴾:

الاهتمامُ بثِقَل الآثام

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡهُ﴾ على نائب الفاعل ﴿شَيۡءٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾؛ لإفادة الاهتمام بالحِمْل المَدعوِّ إلى تخفيف ثِقْله على النَّفس الدّاعية، فنفيُ حَمْل أدنى شيء منه مناسبةٌ لسباق الآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 435.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

نُكْتَةُ تنكير ﴿شَيۡءٞ﴾:

عـــدمُ حَـمْـلِ القليل، فضلًا عن حَمْل الكثير

ورد لفظُ ﴿شَيۡءٞ﴾ منَكَّرًا مفردًا في قوله تعالى: ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾، والغرضُ البلاغيُّ من التَّنكير فيه والإفرادِ: هو التَّقليلُ، إضافةً إلى أنَّ كلمة ﴿شَيۡءٞ﴾ لتوغُّلها في إبهام جنس ما تُضافُ إليه، أو جِنسِ الموجود مطلقًا، مفيدةٌ للتَّقليل غالبًا كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النّساء: 20](1).

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾:

تأكيدُ امتناعِ الغوثِ في جميع الأحوال

دلَّ التَّعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ على حالٍ محذوفة، كأنَّه قيل: وإن تدعُ مُثْقَلةٌ إلى حِمْلها لا يُحْمَلُ منه شيءٌ على كلِّ حالٍ، ولو في هذه الحال التي يكون المدعوُّ فيها ذا قُربى، فدلَّ ذلك على امتناع الغَوثِ في جميع الأحوال.

دلالةُ (لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾:

المبالغةُ في انتفاء الـحُـكـم الَّـذي قبلَها

ورد في قوله تعالى: ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ حرفُ (لو)، وهو هنا حرفٌ للشَّرط، وحُذِفَ جوابُه لدلالة ما قبلَه عليه، ومثلُ هذا الاستعمال شائعٌ في كلام العرب، ولكثرتِه قال كثيرٌ من النُّحاة: إنَّ (لو) و(إن) الشَّرطيَّتَين في مثله مجرَّدتان عن معنى الشَّرط، لا يُقْصَد بهما إلّا المبالغة، ولقَّبوهما بالوصليَّتَين، أي: إنَّهما لمُجرَّد الوصلِ والرَّبط في مقام التَّأكيد، والشَّرطُ الذي بعدَها شرطٌ مفروضٌ، هو غايةُ ما يتوقَّع معه انتفاءُ الحُكم الَّذي قبلَها، فيذْكُرُه المتكلِّمُ لقَصْد تَحَقُّقِ الحُكم في سائر الأحوال، ويكون المعنى: فإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلها؛ لا يُحْمَل منه شيءٌ، سواءٌ كان ذا قُربى أم لا، كأنَّه قيل: لا يحمل منه شَيءٌ على كلِّ حالٍ، فالجوابُ المُقَدَّرُ في موضع حالٍ، جيء بها للمبالغة في نفي إغاثةِ المستغيث، ومن النُّكَت في هذا الموضع: أنَّ ذا القُربى أرقُّ وأشفقُ على قريبه، فقد يَظُنُّ أنَّه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.

يُغْني عنه في الآخرة بأن يُقاسِمَه الثِّقلَ الَّذي يُؤدّي به إلى العذاب بالاقتسام بينهما أو بالاحتمال ولو بالقليل من الآثام؛ فجاء التَّعبيرُ بـ (لو) لنفي ذلك المعنى[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ اسمِ ﴿كَانَ﴾:

قَصْدُ العُموم بِشُمولِ كلِّ مَدْعوٍّ

جاء فعلُ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ناقصًا مسندًا إلى الاسم المحذوف المفهوم من قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾، وتقديره: ولو كان المدعوُّ ذا قُربى، وقد ترك النَّظمُ ذِكْرَهُ؛ ليَعُمَّ، ويشمُلَ كُلَّ مَدعوٍّ، وذلك أبلغُ في نفي الإغاثة.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظ ﴿قُرْبَىٰٓ﴾:

المبالغةُ في نفي إغاثةِ المستغيثِ، ولو مِن قريب شفيق

آثَر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾؛ لغرض المبالغة في نفي إغاثةِ أحد أحدًا، ووجهُ المبالغة أنَّ ذا القُربى أرقُّ وأشفقُ على قريبه، فقد يظنُّ أنَّه يغني عنه في الآخرة، بأن يقاسمَه الثِّقلَ الَّذي يؤدّي به إلى العذابِ، فيخفَّ عنه العذابُ بالاقتسام، وممّا يُذكَر في سِرِّ التَّعبير بالقُربى إفادةُ الإطلاق لمطلق لفظ القرابة، فيشملُ القُربى القريبة والبعيدة، وفيه إبطالٌ لاعتقاد العربِ الغِناء الذّاتيِّ بالتَّضامن والتَّحامل من ذوي القُربى؛ فقد كان المشركون يقيسون أمورَ الآخرةِ على أمور الدُّنيا، فيُعْطون لأنفسِهم الأمانَ إذا هُدِّدوا بالبعث، وهذا وهمٌ باطل[2].

بلاغةُ نظمِ الآية في نفي الإغاثة:

كلُّ امرئٍ بما كسب رهين

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ نفيَ جميعِ المعاني الدّاعية إلى الحمل، من كون النَّفسِ وازرةً قويَّةً تحتمل، وكون الأخرى مثقلةً، فلا يقال كونها قويَّةً قادرة ليس عليها حَمْل، وكونها سائلةً داعيَة، فإنَّ السُّؤال مظنَّةُ الرَّحمة، وكونها قريبةً؛ لأنَّ القرابة مظنَّةٌ للشَّفقة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 289.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 290.

والتَّحمُّل، أي: ولو كان المسؤولُ قريبًا، فإذًا لا يكون التَّخلُّف إلّا لمانع، وهو كونُ كلِّ نفسٍ تحتَ حِمْل ثقيل(1).

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾:

انتفاعُ المؤمنين بموعظة النَّبيِّ الكريم دونَ المشركين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ عمّا قبلَه على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ وذلك لأنَّ الرَّسول ﷺ يخطر في نفسه التَّعجُّب من عدم تأثُّر أكثرِ المشركين بإنذاره، فأجيبَ بأنَّ إنذارَه ينتفع به المؤمنون ومَن تهيَّؤوا للإيمان.

سرُّ إيرادِ هذه الآية عقب الَّتي قبلها:

اقتلاعُ أوهام المشركين في أمرِ البعثِ

وإيرادُ هذه الآية عَقِبَ الَّتي قبلَها يُؤكِّد أنَّ المَقْصِد الأوَّل من الَّتي قبلَها موعظةُ المشركين وتخويفهم، وإبلاغُ الحقيقةِ إليهم لاقتلاع مزاعمِهم وأوهامِهم في أمر البعث والحساب والجزاء(2)، وفيه كذلك إعلامُ اللهِ لرسوله بأنَّ هذه المواعظَ لن تُجْديَ مع المشركين، وإنَّما ينتفع بها المسلمون؛ لذلك قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾.

سرُّ الالتفات في الآية:

تسليةُ النَّبيِّ الكريم عن إعراض المشركين

انتقل النَّظمُ القرآنيُّ من ضمير الغيبة ابتداءً من قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ إلى خطاب النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ على سبيل الالتفات؛ للتَّأكيد على أنَّ المقصدَ الأوَّل من الكلام السّابق هو موعظةُ المشركين وتخويفُهم، واقتلاعُ مزاعمِهم وأوهامِهم في أمر البعث، ولتسليَة النَّبيِّ ﷺ بأنَّ تلك المواعظَ لم تُجْدِ فيهم؛ لأنَّه إنَّما ينتفع بها أهلُ الخشيَة دونَ غيرِهم(3).

بلاغةُ القصرِ في الآية:

قصرُ صفةِ الانتفاعِ بالإنذار على أهلِ الخشيةِ دونَ غيرهم

تظهر بلاغةُ أسلوبِ القَصْر بحرف ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 290.

﴿تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لتضمُّنِهِ معنى: (ما) و(إلّا)، فحصل بالقَصْر الجمعُ بين النَّفي والإثبات، بمعنى: إثباتِ ما يُذْكَر بعدَها، ونفيِ ما سواه[1]، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف، أي: قَصْرُ صفةِ الانتفاع بالإنذار على الموصوفين بخشية ربِّهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإنذار دونَ غيره:

أثرُ الإنذارِ التَّصديق

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالإنذار في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ المراد حصولُ أثرِ الإنذار، وهو الانكفافُ أو التَّصديق به، وليس المرادُ حقيقةَ الإنذار، وهو الإخبار عن توقُّع مكروه؛ لأنَّ القرينة صارفةٌ عن المعنى الحقيقي، وهي قرينة تكرُّر الإنذارِ للمشركين الفينةَ بعدَ الفينةِ، وهذا واقعٌ وظاهر في حياة النَّبيِّ ﷺ في إنذار المشركين[2].

نُكْتَةُ قَصْرِ الإنذار على أهل الخشيةِ:

اختصاصُ نفعِ أهلِ الخشيةِ بالإنذار دونَ غيرهم

قَصْرُ إنذارِ النَّبيِّ ﷺ على أهل الخشية مع أنَّه لجميع النّاس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ لنكتة بديعةٍ، وهي التَّنبيهُ على ألّا يَظُنَّ النَّبيُّ ﷺ انتفاعَ الَّذين لا يؤمنون بنذارتِه، وإن كانت صيغةُ القَصْر صالحةً لمعنى القَصْرِ الحقيقيِّ، لكنَّ اعتبارَ المقام يعيِّن اعتبارَ القصرِ الإضافيِّ، ونظيرُ هذه الآية قولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: 11]، وقولُه ﷻ: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: 45]، مع أنَّ التَّذكير بالقرآن يَعُمُّ النّاس كلَّهم[3].

دلالةُ المضارع في الفعل ﴿تُنذِرُ﴾:

استمرارُ دعوة النَّبيِّ الكريم حتّى أتاه اليقين

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿تُنذِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 25.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 290.
(3) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 291.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ للدَّلالة على التَّكرُّر والاستمرار، فما بَرِحَ النَّبيُّ ﷺ ينذر قومَه طول مُدَّة دعوتِه، وتَكرَّر منه ذلك الفينةَ بعدَ الفينةِ حتّى أتاه اليقينُ.

سرُّ العدولِ عن الوصف بالاسم الظّاهر إلى الوصف بالموصول:

مَدْحُ المؤمنين بخشية ربّ العالَمين

عُدِلَ عن الوصف بالاسم الظّاهر إلى الوصفِ بالموصول في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ تنويهًا بشأن ما في حيِّزه من جملة الصِّلة، وهو خشية اللّٰه بالغيب، وما عُطِفَ عليها من صفات، ولبيان أنَّها لعَظَمتها كافيةٌ في مدح مَنِ اتَّصف بها، فَمُدِحَ أهلُ الخشية بأنَّهم هم المنتفعون بإنذار الرَّسول ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخشية:

الخشيةُ هي الخوف مع العِلْم بعظمة المَخشيِّ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ دون (يخافون) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ مبالغةً في مَدْحهم بأنَّهم لعِلْمهم بعظَمة ربِّهم، وتهيُّبهم لجلاله، فهُم يخشونه؛ إذِ الخشيةُ هي الخوف مع العِلْم بعظَمة المخشيِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾:

دلَّت صيغةُ المضارع في الفعل ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ على تجدُّد خشيتهم للّٰه سبحانه ودوامها، حتّى وإنِ اعتراها ضعفٌ بسبب الجِبِلَّة البشريَّة، فإنَّهم يتوبون، ويعودون إلى ما كانوا عليه من تعظيم اللّٰه سبحانه.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ دون (المؤمنين):

الثَّناءُ على المؤمنين بأشهر صفاتهم

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ دون (المؤمنين) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ الآية؛ لأنَّه لمّا كانت هاتان الصِّفتان - خشيةُ الرَّبِّ بالغيب، وإقامةُ الصَّلاة - من خصائص المسلمين، صار المعنى: إنَّما تنذر المؤمنين، فعَدَلَ عن استحضارهم بأشهر ألقابِهم مع ما فيه من الإيجاز، إلى

استحضارِهم بصفتين مع ما فيهما من الإطناب؛ تدرُّجًا بذِكر هاتين الصِّفتين، إلى الثَّناء عليهم بإخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل(1).

نُكْتَةُ وصفِ الرُّبوبيَّة والإضافة:

رحمةُ الرَّبِّ بالمربوب، والإحسانُ إليه

عُبِّرَ بوصف ﴿رَبَّهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ دون سواه من أسماء اللّهِ وصفاته؛ لما في وصف الرُّبوبيَّة من الدَّلالة على الشَّفقة بالمَربوب، ومحبَّةِ الخير له، ولتتأتّى الإضافةُ المفيدة للتَّشريف والقُرب، فهو ربُّهم الَّذي قرَّبهم بخشيته إليه(2)، وفي هذه الإضافة أيضًا دلالةٌ على أنَّ خشيتَهم لربِّهم هي من إنعام ربِّهم عليهم، وإحسانِه إليهم، حيثُ وفَّقهم إلى معرفة مقامه وتهيُّب جلاله، كما أنَّ في الإضافة إلى وصْف الرُّبوبيَّة طمأنةً للخاشين برحمة اللّه بهم.

سرُّ حذفِ معمول الفعل ﴿تُنذِرُ﴾:

حَذْفُ ما يُعلَم جائزٌ وبليغ

حُذِفَ المفعول الثّاني للفعل ﴿تُنذِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لكونِه معلومًا من السّياق، فدلَّ ذِكْرُ النَّفس الوازِرةِ والمُثْقَلةِ على أنَّ مفعولَ الإنذار المحذوفِ هو جزاءُ الأعمال يوم القيامة، وما فيه من أهوال.

سِرُّ الاكتفاءِ بذِكْر الإنذار دونَ التَّبشير:

مناسبةُ ذِكْر الإنذار لمقام تهديد المشركين

اقتُصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ على ذِكْر فعلِ النِّذارة دونَ البِشارة في حقِّ النَّبيِّ ﷺ على سبيل الاكتفاءِ البلاغيِّ، وحَدُّهُ: أن يقتضيَ المقامُ ذِكْر شيئَين بينهما تلازُمٌ وارتباط، فيُكتفى بأحدهما عنِ الآخَر؛ لأنَّ فيه نُكْتَةً تقتضي الاقتصارَ عليه(3)، وهذا ما جاءَ بِه القرآنُ في هذه الآية، منَ الاقتصار على الفعل ﴿تُنذِرُ﴾ دون (تبشّر)؛ لأنَّ المقام هنا لتهديد المشركين؛ إذ كذَّبوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 292.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 202.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 118.

بالقرآن وبالرَّسول ﷺ، فكان مقتضيًا لذِكْر النِّذارة دونَ البِشارة، وفي ذلك اكتفاءٌ؛ لأنَّ البشارة تخطر ببال السّامع عند ذِكْر النِّذارة[1].

دلالةُ تقييدِ الفعل ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ بقوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

مدحُ المؤمنين بكونهم غيرَ مُرائين

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ بشِبه الجملة ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ وهي تحتمل أن تكون حالًا من الفاعل، بمعنى: يخشون ربَّهم غائبين عن عذابِه وأحكام الآخرة، أو غائبين عن النّاس في خَلَواتهم، وعند غيبتهم عن العَيان، أي: الذين آمنوا حقًّا غير مرائين أحدًا، أو تكون حالًا من المفعول، بمعنى: كون ذلك العذابِ غائبًا عنهم[2]، ويكون حرفُ الباء للملابسة.

دلالةُ (أل) في ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

الغيبُ كلُّ ما غاب عن الحَواسّ

جاء لفظُ ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ معرّفًا بـ (أل)؛ لدلالتها على معنيَين، أحدهما: العهد العلميُّ - الذي يسمّيه النُّحاة: العهد الذِّهنيَّ، والمعنى: بالغيب المعروفِ شرعًا، الثّابت بالنُّصوص الشَّرعيَّة، والآخر: جنسُ الغيب، ولا يكون الاستغراقُ هاهنا حقيقيًّا، بل استغراقًا عُرفيًّا، وهو الثّابتُ بالشَّرع.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر (الغيب):

تعدُّد معاني الغيب

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالمصدر (الغيب) في قوله: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لأنَّه يُطلَق في القرآن مُرادًا به اسمُ الفاعل، أي: الغائب[3]، وبهذا المعنى يكون الغيب: كلَّ ما غاب عنك[4]، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، أي: المُغَيَّب، وذكر العلماءُ أقوالًا في تعيينه، فقيل: هو اللّهُ تعالى؛ لأنَّه لا يُرى في الدُّنيا[5]، وقيل: القضاءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 09.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 396.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 1/ 36.
(4) الفيُّوميّ، المصباح المنير: 2/ 457، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، ص: 121.
(5) جمال الدّين الفتَّني، مجمع بحار الأنوار: 4/ 80.

والقدر، وقيل: أحوالُ الآخرة، وغيرُ ذلك، وهذه الأقوالُ هي من باب التَّمثيل للغيب ببعض أفرادِه، وإلّا فجميعُ ما ذُكِر يَصْدُق عليه أنَّه غيب، ولذا قال ابنُ عطيَّة: "وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيبُ على جميعها"(1).

نُكْتَةُ عطفِ إقامة الصَّلاة على الخشية بالغيْب:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ للتّنويه بشأنه

عُطِفت إقامةُ الصَّلاة على خشية اللّه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وبلاغتُه التَّنبيهُ على مَزيَّةٍ وفضلٍ في الخاصِّ، حتّى كأنَّه لفضله ورِفعته جزءٌ آخَر مغايرٌ لما قبلَه، فتخصيصُ إقام الصَّلاة بالذِّكر تنويهٌ بشأنها ورفعتِها، وقد جمع النَّظمُ بينهما في هذه الآية؛ لأنَّ أوقاتَ الخشيةِ دائمةٌ، وأوقاتَ الصَّلاةِ معيَّنةٌ منقضيَةٌ.

سرُّ تخصيص الخشية والصَّلاة بالذِّكر:

الخشيةُ والصَّلاةُ أصلا الأعمالِ الحسنةِ الظّاهرة والباطنة

خَصَّ النَّظمُ القرآنيُّ الخشيةَ والصَّلاة بالذِّكر؛ لأنَّهما أصلا الأعمالِ الحسنة الظّاهرة والباطنة؛ أمّا الصَّلاةُ؛ فإنَّها عِمادُ الدّين، وأمّا الخشية؛ فإنَّها شعارُ اليقين، وإنَّما يخشى المَرءُ بقَدْرِ علمِه باللّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28] فقَلْبٌ لم يكن عالمًا خاشيًا يكون ميتًا، لا يُؤثِّر فيه الإنذارُ، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس: 70]، ومع هذا جَعَل تأثيرَ الإنذارِ مشروطًا بشرطٍ آخَر، وهو إقامةُ الصَّلاة، وأَمارةُ خشيةِ قَلْبِه بالغيب المحافظةُ على الصَّلاة في الشَّهادة(2).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بإقامة الصَّلاة دونَ أدائها:

وجوبُ المداومةِ على الصَّلاة وإقامةِ أركانِها وأذكارِها

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بإقامة الصَّلاة دونَ أدائِها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ من باب

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/ 84.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 396.

مدحِ المقيمين الصَّلاةَ؛ لأنَّ معنى الإقامة الدَّوامَ، يُقال: أقام الصَّلاة؛ إذا داوم عليها[1]، وكذلك لأنَّ لفظَ الإقامةِ يدلُّ على الإتيان بها قائمةً تامَّةَ القيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ والأذكارِ، كما يحتمل إظهارُ الصَّلاة والثَّبات عليها، كما يقال: أُقيمت السّوقُ، وهذا تشبيهٌ بالقيام من حالةِ خفاء قعودٍ أو غيره[2]، وجوَّز بعضُ أهلِ العِلْمِ أن يكونَ ذلك من التَّقويم وهو التَّعديل، من قولك: قَوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلته، ويكون معنى (إقام الصَّلاة) - على هذا المعنى -: الإتيانُ بها على وجه المحافظة على أركانِها وشروطِها ومُكَمِّلاتِها[3]، والجامعُ لهذه المعاني المداومةُ عليها وإظهارُها، وإقامةُ أركانِها وأذكارِها وسائرِ شروطِها.

وجهُ الاستعارةِ في إقامة الصَّلاة:

بلاغةُ البيان القرآنيِّ في تجسيد المعاني

يتجلّى وجهُ الاستعارة على القول بأنَّ إقامةَ الصَّلاة مشتقَّة من التَّقويم، وهو التَّعديل - وذلك من قولهم: قوَّمت العودَ - أنَّه من بابِ الاستعارةِ، وفي إجرائها طريقتان، أولاها: أن يُقال: شُبِّهَتِ الصَّلاةُ بالعود بجامعِ التَّعديل في كلٍّ منها، فحُذِف المُشَبَّهُ به، ورُمِز له بشيءٍ من لوازمه، وهو ﴿وَأَقَامُواْ﴾، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة الأصليَّة، والأُخرى: أن يُقال: شُبِّهَ تعديلُ الأركانِ بتقويم الرَّجُلِ العودَ، واستُعيرت له الإقامةُ، ثمَّ اشتَقَّ من (الإقامة) بمعنى (التَّقويم) الفعلَ: (أقاموا)؛ فَصَرَّحَ بالمشبَّه به، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ونُكْتَةُ الاستعارةِ هاهنا: أنَّ تقويم الصَّلاةِ معنويٌّ، وتقويمَ العود حسّيٌّ، والخللُ الحِسّيُّ أظهرُ من الخَلَل المعنويِّ؛ لأنَّه مُدْرَكٌ لكلِّ راءٍ، فأيُّ فسادٍ في الحِسّيِّ يتفطَّنُ له، فيبادِرُ إلى إصلاحه، وكذلك شأنُ الصَّلاة، ينبغي النَّظرُ فيما قد يدخلُها منَ الخَلَل، فيتدارك، والله أعلم.

---

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قوم).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 85.

(3) النّبراويّ، حاشية على الأربعين النّوويّة، ص: 37.

مدح أهل الخشية بإقامة فرائض الصّلاة ونوافلها

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

(أل) الدّاخلةُ على ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، على أحد وجهين، أحدهما: أن تكون عهديَّةً، والمُراد بها: خصوصُ الصَّلواتِ الخَمْس، ويُؤيِّده: أنَّ هذا التَّرتيبَ (إقامة الصَّلاة) مستعملٌ في خطاب الشَّرع لهذا المعنى، كما ورد في قول النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهادَةِ أَن لا إلَهَ إلّا اللّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللّهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضانَ»[1]، والمراد بـ (إقام الصَّلاة) الَّذي هو ركنٌ من أركانِ الإسلام: الصَّلواتُ الخَمْسُ قطعًا، فكذلك ينبغي أن يكون ذلك هو المرادُ في الآيةِ، والآخر: أن تكونَ استغراقيَّةً، والمراد: كلُّ صلاةٍ يُصلّيها المُتَّقون، فإنَّهم يقيمونها، بمعنى: يأتون بها على وجه المحافظةِ على أركانِها وشروطِها ومكمِّلاتِها، وهذا القَدْرُ من الإقامة يتحقَّقُ في الصَّلوات كلِّها فرضِها ونفلِها؛ إذِ الآيةُ الكريمةُ سيقت مساقَ مدح الذين يخشون ربَّهم بالغيب، وهم لا يقتصرون على فعلِ الواجبات، بل يَتعدَّونَها إلى فعلِ المستحبّات، وهذا الوجهُ الثّاني أشملُ وأوعبُ؛ لكون الأوَّل مندرجًا فيه، إلّا أن موافقةَ المشهور من خطاب الشَّرع، من استعمال التَّركيب المذكورِ في خصوص الصَّلوات الخمس أولى، واللّه أعلم.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾؛ لأنَّه تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المَثل، ولأنَّ إقامةَ الصَّلاة والخشية من أعظم أسباب التَّزكية.

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

دخولُ المُذَيَّلِ في الحُكم العامِّ

تظهر بلاغةُ التَّذييل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ في ذِكْره

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (8)، ومسلم في صحيحه، برقم: (16).

بعدَ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾؛ لأنَّ ذِكْرَه عقبَ المُذَيَّل يُؤذِنُ بأنَّ ما تضمَّنَه المُذيَّلُ داخلٌ في التَّذييل بادِئَ ذي بَدْءٍ، مثلَ دخولِ سببِ العامِّ في عمومه من أوَّل وهْلةٍ، دونَ أن يُخَصَّ العامُّ به، فالمعنى: إنَّ الذين خَشوا ربَّهم بالغيب، وأقاموا الصَّلاة هم ممَّن تَزَكّى، فانتفعوا بتزكيتهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

جـــزاءُ تـزكـيـةِ الـنَّـفـسِ عـائـدٌ عليها بالنَّفع

ورد التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾، ونُكْتَةُ ذلك أن يتوقَّفَ وقوعُ الجوابِ والجزاءِ على وقوع فعل الشَّرط، فإذا وقع الأوَّلُ وقعَ الثّاني؛ وذلك لأنَّ أسلوبَ الشَّرطِ يقتضي وجودَ جوابِهِ؛ لأجل وجودِ شَرْطِهِ[2]، وكذلك في هذهِ الآيةِ، فقد أخبر اللّٰهُ سبحانه أنَّ مَن تطهَّر من أدناس الشِّرك، وأوضارِ الذُّنوب والمعاصي (فعل الشِّرط)، فجزاءُ تزكيته نفسَه عائدٌ عليه دونَ مَن سواه[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَزَكَّىٰ﴾، مادَّةً وصيغةً:

زكـــاةُ الـنَّـفـسِ بـتـطـهـيرها من أدناس الشِّرك

عُبِّرَ بالفعل ﴿تَزَكَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾، وهو (تفعَّل) من الزَّكاة، والمقصود بها هنا: الطَّهارةُ من أدناس الشِّركِ وأوضارِ الذُّنوب والمعاصي، وقد جاء على وجه المبالغةِ بصيغة (تَفَعَّل) التي تدلُّ على التَّكلُّف وبذلِ الجهد؛ فالتَّكلُّفُ يستلزم المبالغةَ في الفعل، وما يفعل بالتَّكلُّف يوجد على وجه الحُسْنِ والكمال[4].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

تعليقُ مضمون الـجـواب على دوام حـصـول مضمونِ الشَّرط

أفاد حرفُ الفاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 125.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 397.
(4) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 47، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 397.

ربطَ فعلِ الشَّرط بجزائه، والغرضُ البلاغيُّ منه إنَّما هو تعليقُ مضمونِ الجوابِ على دوام حصول مضمون الشَّرط، فيحْصُل الثّاني بحصول الأوَّل، فنفعُ التَّزكّي عائدٌ على المُتزكّي وحدَه.

بلاغةُ القَصْرِ في الآية:

قصرُ نفعِ التَّزكّي على المُتزكّي وحدَه دونَ مَن سواه

في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ بحرف (إنَّما)، جمعَ بين النَّفي والإثبات؛ لتضمُّنِه معنى: (ما) و(إلّا)؛ وذلك للدَّلالة على إثبات ما يُذْكر بعدَها ونفي ما سواه[1]، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوف، أي: قَصْرُ صفةِ النَّفعِ الحاصل من التَّزكّي، على الموصوف بالتَّزكّي وحدَه دونَ مَن سواه.

نُكْتَةُ تغايرِ الزَّمن بين فعلَي الجملة:

الدُّنيا دارُ العمل والآخرة دارُ الجزاء

يُلحَظ في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ تغايرُ الزَّمن بين فعلَي الجملة، فقد جاء فعلُ الشَّرط ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بصيغة الماضي، وفعل جواب الشَّرط ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بصيغة الاستقبال، والنُّكْتَةُ في ذلك أن مَن تحقَّقت فيه صفةُ التَّزكية، فسيكونُ جزاءُ تلك التَّزكية ونفعها له في الآخرة.

نُكْتَةُ ذِكْرِ التَّزكية بعدَ الخشية وإقامةِ الصَّلاة:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ لإفادة العموم

ذُكِرَت التَّزكيةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ بعدَ قوله قبله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ من باب ذِكْر العامِّ بعد الخاصِّ لإفادة العموم، ولأنَّ التَّزكية شاملةٌ للخشية وإقامةِ الصَّلاة وسائرِ الطّاعات، وهذا تقريرٌ وحَثٌّ عليها[2].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِنَفۡسِهِۦۚ﴾:

نفعُ المتزكّي لنفسه بالذّات، ولغيره بالواسطة

ورد في قولِه تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ حرفُ اللّام مِن لفظ ﴿لِنَفۡسِهِۦۚ﴾، ويظهر أنَّها للتَّعليل، أي: اللّام المبيِّنة سببَ

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 25.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 47، والآلوسي، روح المعانيّ: 11/ 358.

الفعلِ الَّذي قبلَها، فهي بمعنى (لأجل)، أي: تزكّيهِ لأجل نفعِ نفسِه، ولهذا سمّيت (لام الأَجْلِ)[1]، فنَفعُ المُتزكّي لنفسه بالذّات، ونفعُه لغيره بالواسطة، فإنَّ القوم الَّذي فيهم الصّالحون سالمون عن الآفاتِ، وتنزل عليهم البركاتُ[2].

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

اللهُ غنيٌّ عن عبادة العابدين

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ فنًّا بديعًا من فنون البيانِ، وهو (التَّعريض)، وهو كونُ معنى الكلامِ مفهومًا من عُرضه، أي: جانبه[3]، فقد دلَّ أسلوبُ القَصْر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ أنَّ قبولَ أهلِ الخشية إقامة الصَّلاة والنِّذارةَ كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَعْبَؤوا بنذارة النَّبيِّ ﷺ، تركوا تزكيةَ أنفسِهم بها، فكان تركُهم ضرًّا على أنفسِهم[4]، وفيه أيضًا إشارَةٌ إلى أنَّه تَعالى غنيٌّ عن عبادتِهم، وإنَّما وجبَ ما وجب لكونهم منتفعين بها في الدُّنْيا والعُقبى[5].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

تأكيدُ عودِ جزاءِ الأعمال إلى أصحابها خيرًا أو شرًّا

دلَّ التَّعبيرُ بالواو على عطف قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ على قوله: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾؛ لأنَّه تكميلٌ للتَّذييل، فبعدَ أن قَرَّر أنَّ نفعَ التَّزكّي عائدٌ إلى نفس المتزكّي، كما أنَّ ضررَ الذُّنوب والآثام راجعٌ إليه؛ أكملَ المعنى بالتَّأكيد على أنَّ مصيرَ كلِّ عاملٍ إلى الله سبحانه، وهو مُجازيْهِ بما قدَّم من خيرٍ أو شَرٍّ لنفسه.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة:

اختصاصُ اللهِ بالرُّجوع إليه وبالحساب

تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 47.

(3) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 291.

(5) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 47.

﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ على المبتدأِ لنُكْتَةٍ بلاغيَّةٍ، وهي الاختصاص، بمعنى: اختصاص اللّٰه بالرُّجوعِ إليه، ونظيرُه مثلًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]، فالمعنى: كذلك هو اختصاصُ اللّٰهِ بالرُّجوع إليه وبالحساب[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ معرَّفًا بـ (أل) الدّالَّة على تعريف الجنس، أي: المصير كلُّه إلى اللّٰه، سواء فيه مصيرُ المُتزكّي ومصيرُ غيرِ المُتزكّي، وكلٌّ يُجازى بما يناسبه[2].

دلالةُ التَّذييلِ بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الإشـــارةُ إلى الوعدِ والوعيد

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ على سبيل الوعدِ والوعيدِ، فالمُزكّي نفسُه إن لم تظهر فائدةُ تزكيته عاجلًا، فالمصيرُ إلى اللّٰه يظهر عندَه في يوم اللِّقاء في دار البقاء، والوازِرُ إن لم تظهر تبعةُ وِزْرِه في الدُّنيا، فهي تظهرُ في الآخرة؛ إذ مصيرُ الجميع إلى اللّٰه ﷻ[3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الثِّقلُ والوِزْرُ:

الـذُّنـوبُ ثقيلة عـلى صاحبها كثِقل الجبال

يتجلّى الفرقُ بين لفظي (الثِّقل) و(الوِزر) في الاستعمال، فلفظُ (الثِّقل) يُستعمل على سبيل الحقيقةِ في المحمولات، أمّا لفظُ (الوِزر)؛ فيُستعمل مجازًا عن الذَّنب، وأصلُه من الثِّقل، أي: إنَّه يُثقِلُ صاحبَه تشبيهًا بثِقْل الجبل[4]، فآثَر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (الوزر) لتعلُّق الأمرِ بحَمْلِ الذُّنوب.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 292.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 231.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 234، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).

الخشيةُ والخوف:

عمومُ الخوفِ وخصوصُ الخشية بالعِلْمِ

الخوف يتعلَّقُ بالمكروه وبتَرْك المكروه، تقول: خِفت زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، وتقول: خفت المرضَ، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21].

أمّا الخشيةُ؛ فتتعلَّق بمُنْزِلِ المكروه، ولا يُسمَّى الخوفُ من نفس المكروهِ خشيةً، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، حيثُ ذَكَرَ الخشيةَ في جانبه سبحانه، والخوفَ في جانب الحساب[1].

فيظهر بهذا أنَّ الخشية أخصُّ من الخوف، وأعلى مقامًا منه؛ لأنَّها خوفٌ مقرونٌ بمعرفة، وقد لخَّص الإمام ابن القيِّم الفرقَ بينهما بقوله: "الخوفُ: اضطرابُ القلب، وحركتُه من تَذَكُّرِ المُخَوِّفِ، وقيل: الخوف هربُ القلبِ من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخصُّ من الخوف، فإنَّ الخشيةَ للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفة، وقال النَّبيُّ ﷺ: «إنّي أتقاكم لله، وأشدُّكم له خشيةً»[2]، فالخوفُ حركةٌ، والخشية انجماعٌ، وانقباضٌ، وسكون"[3].

فآثَر النَّظمُ الكريم في هذه الآية استعمالَ لفظ (الخشية) لاقترانِه بالغيب، وهو لا يكون إلّا عن علمٍ بالمخشيِّ منه سبحانه.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 218.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1108).
(3) ابن القيّم، مدارج السالكين: 2/ 180.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠
وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ٢٢ إِنْ أَنتَ
إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ [فاطر: 19 - 23]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

ضـربُ الأمـثـالِ لتمامِ التّحذيرِ من المآلِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حالَ النّاس، وقرَّرت أنَّهم الفقراء إلى الله تعالى في كلِّ أحوالهم، وأنَّهم ما بين مهتدٍ وضال، وبيَّنت قلّة نفعِ النّذارة للكافرين، وأنّها لا ينتفع بها غيرُ المؤمنين، ناسبَ أن يضرب للفريقين أمثالًا كاشفة عنِ اختلاف حاليهما، وروعيَ في هذه الأشباه توزيعُها على صفة الكافر والمؤمن، وعلى حالة الكفر والإيمان، وعلى أثر الإيمان وأثر الكفر[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ أحوالِ النّاس في الهدى والضّلالةِ، إلى بيان ما يُمثِّلهم من الأمثلة الحسّيَّة المشاهدة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَوِي﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئَينِ[2]، و(استوى) يقالُ على وجهينِ؛ أحدُهما: يُسنَدُ إليه فاعلانِ فصاعدًا، نحوُ: استوى زيدٌ وعمرٌو في كذا، أي: تساويا، وقالَ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [التّوبة: 19]، والثّاني: أنْ يقالَ لاعتدالِ الشَّيءِ في ذاتِه، كقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسْتَوَىٰ ٦﴾ [النّجم: 6][3]، والمرادُ بنفيِ الاستواءِ في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: نفيُ المساواةِ، وهي المماثلةُ والمقاربةُ والمشابهةُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(3) الرّاغب، المفردات: (سوي).

2) ﴿ٱلظِّلُّ﴾: (ظلّ) أصلٌ يدلُّ على سَتْرِ شيءٍ لشيءٍ، ومِنْ ذلكَ: ظِلُّ الإنسانِ[1] والغمامِ والشَّجَرِ[2]، وقد يُطلَقُ الظِّلُّ على كلِّ ساترٍ[3]، والمرادُ بالظِّلِّ في الآيةِ: ما يَبقَى مِنِ انكشافٍ في المرئيِّ، بعدَ سَتْرِ أشعَّةِ الشَّمسِ عنهُ بساترٍ ما، وهو يختلفُ بحسَبِ اختلافِ كثافةِ السّاترِ.

3) ﴿ٱلْحَرُورُ﴾: (حرر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ البَرْدِ[4]، و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ المذكورُ في الآيةِ: حَرُّ الشَّمسِ[5]، أو الرّيحُ الحارَّةُ[6]، وهي السَّمومُ، أو الحَرورُ: الرّيحُ الحارَّةُ الَّتي تهُبُّ باللَّيلِ، والسَّمومُ تهبُّ بالنَّهارِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـانُ تبايـنِ أحـوالِ المؤمنين والكافرين بصورٍ حسّيَّةٍ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ حالَ الكافرِ والمؤمنِ وعاقبتَهما، إذ لا يستوي الكافرُ الَّذي عَميَ عن رؤيةِ الحقِّ والهدى، والمؤمنُ الَّذي أبصرَ الحقَّ وصدَّقَهُ، ولا تستوي ظُلُماتُ الكفرِ ونورُ الإيمانِ، ولا عاقبةُ الإيمانِ - وهي الجنَّةُ والظِّلالُ -، وعاقبةُ الكفرِ، وهي النّارُ والحَرورِ، وما يستوي المؤمنونَ الَّذينَ هم بمنزلةِ الأحياءِ، والكفرةُ الَّذين هم بمنزلةِ الأمواتِ.

ثمَّ يَبْسُطُ ﷻ العُذْرَ لنبيِّهِ، ويُسلّيهِ عمّا يُلاقيهِ مِنَ التَّكذيبِ والإعراضِ، ويُخبِرُ بأنَّهُ سبحانَهُ وحدَهُ القادرُ على إسماعِ صوتِ الحقِّ مَنْ يشاءُ سماعَ قبولٍ، وأمّا نبيُّهُ ﷺ فهو مُبلِّغٌ ونذيرٌ؛ فلا يستطيعُ إدخالَ الإيمانِ في قلوبِ الكفرةِ، ولا يجبُ عليهِ ذلكَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلل).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ظلل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 293.
(6) الرّاغب، المفردات: (حرر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 293.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

بيانُ الفرقِ بين المستجيب والمُعرِض بعدَ ذِكرِ حالِ المؤمنين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، إمّا أن تكون للاستئنافِ، فبعد أن بيّنتِ الآيةُ السّابقة أنَّ نفعَ النّذارةِ يكون لمن يخشى اللّه تعالى فحسب، استأنفتِ هذه الآية بنفي استواء المستجيب للنّذارةِ ومن لا يستجيب؛ لتوجيه النّذير إلى أنَّ الاستجابة تكون لَمن خشيَ ربّه بالغيب، وما دون ذلك فلا تنفعه النّذارةُ، أو تكون الواو للعطفِ على وجهين؛ **الأوّل**: أن تكون عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ﴾ [فاطر: 12][1]، والأعمى والبصيرُ مَثَلانِ للكافرِ والمؤمنِ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ إظهارٍ لمزيَّةِ الإيمانِ وقُبْحِ الكفرِ، بذِكْرِ المَثَلِ بعدَ المَثَلِ، **والآخر**: أن تكونَ مِنْ تتمَّةِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، والأعمى والبصيرُ مَثَلانِ للصَّنمِ وللّهِ ﷻ، والمعنى: لا يستوي اللّهُ تعالى معَ ما عبدتُم[3]، فيفيدُ الكلامُ التَّشنيعَ على مَنْ يُسوّي بينَ ذي العظَمةِ والجلالِ، وبينَ الأصنامِ والأندادِ.

والأوّلُ من وجْهي العطفِ أوفقُ بنظمِ الكلامِ؛ فإنَّهُ شَبَّهَ أوّلًا المؤمنَ بالبحرِ العَذْبِ، والكافرَ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وبيَّنَ فيهِ عدمَ الاستواءِ، ثمَّ نبَّهَ أنَّ الكافرَ أدوَنُ حالًا مِنَ البحرِ المالحِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ [فاطر: 12]؛ لأنَّ فيهِ منافعَ كثيرةً، والكافرُ خِلْوٌ مِنَ النَّفعِ، ثمَّ أتَى بتمثيلٍ آخرَ، فشبَّهَهما بالأعمى والبصيرِ في الضَّلالِ والاهتداءِ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ:

استواءُ الكافرِ مع المؤمنِ من مستحيلاتِ العادةِ والشّرعِ

لمّا كان عدمُ استواءِ المؤمنِ والكافرِ أمرًا مُستمرًّا مُتجدِّدًا؛ عُبِّرِ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 222.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 358.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 358.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 637.

بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليها النَّفيُ أفادتِ استمرارَ النّفي، أي: وما يَستوي الأعمَى والبصيرُ في حالٍ منَ الأحوالِ[1]، وفي هذه الصّيغة إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن لن يستويَ مع الكافرِ أبدًا، وأنَّ المساواة بينهما هي مساواةٌ بين الحقِّ والباطل، والنّور والظّلمة، والوجود والعدم، وهذا من مستحيلات السّنن الشّرعيّة والكونيّة.

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ مُفردةِ الاستواءِ:

بيانُ مزايا تفاضلِ غير المستويين في ذِكْرِ وصفيهما الضِّدّي

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة الاستواء في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وهو كنايةٌ لبيانِ فضلِ الفاضل على المفضولِ، ومزيَّتِه عليه، فالعربُ تقول: "لا يستوي كذا وكذا"، ويَعنونَ أنَّ أحدَ المَذكورَينِ أفضلُ مِنَ الآخرِ، ويعتمدونَ في ذلكَ على القرينةِ الدّالَّة على تعيينِ المُفضَّلِ، ولمّا كانَ وجهُ التَّفاضلِ معلومًا في أكثرِ مواقعِ هذا التَّركيبِ؛ صارَ في الغالبِ مُستعمَلًا في معنى الكنايةِ، وهو التَّعريضُ بالمفضولِ في تفريطِه بما هو خيرٌ معَ المُكنة منهُ[2]، وكذلكَ الأمرُ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ لظهورِ أنَّ الكافرَ لا يُساوي المؤمنَ في فضيلةِ اتِّباعِ الحقِّ، فتعيَّنَ التَّعريضُ بالكفّارِ، وتشنيعُ حالِهم، مع مزيدِ مدحٍ للمؤمنِ لِما عليه منَ الحال العظيمة.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾:

فضلُ البصيرِ على الأعمى في التّمييز بين المرئيّات

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ للجنسِ[3]، والمعنى: لا يَستوي جنسُ الأعمَى وجنسُ البصيرِ، بل هما متفاوتانِ غايةَ التّفاوتِ[4]، وفي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 36.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 169 - 170.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 637.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 233.

القصدِ إلى الجنسيَّةِ تنبيهٌ لِما يعلمُهُ كلُّ عاقلٍ مِنَ التَّفاوتِ المقطوعِ بِهِ بينَ الجنسينِ[1]، بحيثُ لا يشكُّ فيهِ أحدٌ مِنَ العُقَلاءِ، وهوفي كونِ أحدهما يُبصر فيُميِّز بين الأشياء المرئيّة، والآخر أعمى فلا يرى شيئًا فضلًا عن أن يُميِّز.

نُكْتَةُ إفرادِ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾:

فضلُ الجنسِ لا يستلزمُ فضلَ كلِّ فردٍ مِنْ أفرادِهِ

أُفرِدَ لفظُ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾؛ لأنَّهُ قد قوبِلَ الجنسُ بالجنسِ، ولم تُذكَرِ الأفرادُ؛ لأنَّهُ قد يوجدُ في العُمْيانِ وأولي الأبصارِ فردٌ مِنْ أحدِ الجنسينِ يُساوي فردًا مِنَ الجنسِ الآخرِ، كالبصيرِ الغريبِ في موضعٍ، والأعمَى الَّذي هو ابنُ ذلكَ المكانِ، وقد يقدرُ الأعمَى على الوصولِ إلى مَقْصِدٍ لا يقدرُ عليهِ البصيرُ، وقد يكونُ عندَ الأعمَى مِنَ الذَّكاءِ ما يُساوي بهِ البليدَ البصيرَ؛ فالتَّفاوتُ بينَ الجنسينِ مقطوعٌ بهِ، لا بينَ الأفرادِ[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالأعمَى دونَ العَميِّ:

التَّصريحُ بعَمى البصرِ، والتّلويحُ بأعمى البصيرة

عُبِّرَ بصيغةِ المفاضلةِ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ دونَ (العَميِّ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾؛ لأنَّهُ أعمُّ وأشملُ؛ لأنَّ الأعمَى يقالُ في عمَى البصرِ والبصيرةِ، والعَميَّ يقالُ في عَمَى البصرِ خاصَّةً[3]، واللَّفظُ الأعمُّ أنسبُ بمقامِ الذَّمِّ والتَّقبيحِ؛ إذِ الكافرُ مطموسٌ على بصيرتِهِ، وهو في إعراضِهِ عن رؤيةِ الحقِّ بمنزلةِ فاقد البصرِ، فيكون ذِكرُ لفظِ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ الشّاملِ لعمى البصر والبصيرة، ليدخلَ فيه فاقدُ البصرِ تصريحًا، وأعمى البصيرة تلويحًا، أو لأنَّ هذه الصّيغة هي الأكثر استعمالًا في الدّلالة على الأعمى، فَجَرَت مجرى الصّيغ مسلوبةِ المفاضلة.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 27.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 233، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 225.

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عمي).

نُكْتَةُ تقديم لفظ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾:

الضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

قُدِّمَ لفظُ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ على ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، معَ أنَّ البصيرَ أشرفُ؛ لأنَّهم كانوا قبلَ البعثةِ في ضلالٍ، فكانوا كالعُمْيِ، فلمّا جاءَ الرَّسولُ ﷺ، واهتدَى بهِ قومٌ؛ صاروا بصيرينَ[1]، فقُدِّمتِ الحالةُ السّابقةُ على اللّاحقةِ؛ ليَظهرَ فضلُ اللّاحقةِ، ولأنَّ الأصلَ في إرسالِ الرُّسل رفعُ الجهلِ[2] الَّذي هو بمنزلةِ العمَى، ولأنَّ الغرضَ الأهمَّ مِنْ هذا التَّشبيهِ هو تفظيعُ حالِ الكافرِ، ثمَّ الانتقالُ إلى حُسْنِ حالِ ضدِّهِ[3]، فبُدِئَ بما هو المقصودُ، ولأنَّ في تأخيرِ البصيرِ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ[4].

نُكْتَةُ حذفِ حرفِ النّفي:

فاقدُ البصرِ قد يهتدي، بخلافِ الميِّتِ فلا أملَ فيه

تُرِكَ ذكرُ حرفِ (لا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، فلم يُقَلْ: (ولا البصيرُ)؛ وذلك لأنَّ هذهِ الآيةَ ليسَتْ مقصودةً لذاتِها، بل هي كالتَّوطئةِ والتَّمهيدِ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾[5]؛ فالأعمى هو فاقد البصيرةِ، معَ احتمالِ أن يجد دليلًا هاديًا فيوصلَه للمقصود، أمّا الميّت فهو الذي انقطع الأملُ منه، فناسب دخولُ حرفِ النّفي فيما استحال منه الإيمانُ، أو لأنَّها كُرِّرَتْ في هذهِ الآياتِ فيما فيهِ تضادٌّ كليٌّ، والأعمَى والبصيرُ لا تضادَّ بينَ ذاتَيهما وإنْ تضادَّ وصفاهما؛ فالشَّخصُ الواحدُ قد يصيرُ أعمى بعدَما كانَ بصيرًا[6].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ):

مَن أبصر الحقَّ فهو البصيرُ

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾، ولم يُقَلْ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 26، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 512.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 36.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 292.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 225.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 638.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 232.

(والمُبصِرُ)؛ للمبالغةِ في الوصفِ؛ لأنَّ مَن أبصر الحقَّ فهو البصيرُ على الحقيقةِ البالغةِ، ولأنَّ صيغةَ (فعيلٍ) يترتَّبُ عليها تلاؤمُ فواصلِ الآياتِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

طريقُ الإيمانِ لا يسلكُه إلّا المبصرون

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ استعارتانِ بديعتانِ، وذلكَ أنَّ الأعمَى مُستعارٌ للكافرِ، والبصيرَ مُستعارٌ للمؤمنِ، والاستعارةُ تمثيليَّةٌ[1]، شُبِّهَتْ حالةُ مَنْ لا يفقهُ الأدلَّةَ، ولا يَفْصِلُ بينَ المعاني المتشابهةِ بحالةِ الأعمَى، الَّذي لا يعرفُ أينَ يقصدُ، ولا أينَ يضعُ قدمَهُ، وشُبِّهَتْ حالةُ مَنْ يُميِّزُ الحقائقَ بحالةِ القويِّ البصرِ الَّذي لا تختلطُ عليهِ الأشياءُ[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على قُبحِ الكفرِ وحُسْنِ الإيمانِ، وأنَّ مَنْ أبصرَ نورَ الحقِّ فهو البصيرُ حقًّا، ومَنْ لم يُبصِرْهُ، وعَميَ عنهُ؛ فهو الأعمَى حقًّا، المُتخبِّطُ في ظُلُماتِ الجهلِ والغوايةِ، أو أن تكونَ الاستعارةُ تصريحيّةً، حيثُ شَبَّه الكافرَ بالأعمى، وشَبّه المؤمنَ بالبصيرِ.

ويحتملُ - على بُعْدٍ - أنْ يكونَ الأعمَى مستعارًا للصَّنَمِ، والبصيرُ مستعارًا للّهِ تعالى[3]، والاستعارةُ تمثيليَّةٌ أيضًا[4]، أي: لا يستوي معبودُ الكافرينَ ومعبودُ المؤمنينَ[5]؛ لأنَّ معبودَ الكافرينَ لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، ولا يملكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، وفي الاستعارةِ تجهيلٌ للكافرينَ، وإظهارٌ لسَفَهِ رأيِهم، في إعراضِهم عن الإيمانِ والتَّوحيدِ.

فنُّ الطِّباقِ في الآية:

التَّنبيهُ بالمحسوسِ الضِّدّيِ أصرحُ منَ المعنويِّ الضّدّي

في الجمعِ بينَ الأعمَى والبصيرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 222.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 243.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 257.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 222.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 25.

﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ مُحسِّنٌ معنويٌّ، وهو الطِّباقُ؛ إذ تُشبِّه الآيةُ الكافرَ بالأعمَى، والمؤمنَ بالبصيرِ، وهما صورتانِ متقابلتانِ، وفائدةُ ذلكَ: التَّنبيهُ على طريقَي الكفرِ والإيمانِ بشيءٍ محسوسٍ؛ ليختارَ العاقلُ منهما ما هو أصلحُ وأسلمُ عاقبةً، والتّنبيهُ بالمحسوسات أوضحُ سبيلًا منَ التّنبيه بالمعنويّات في بيانِ الفروقات.

براعةُ تكرار حرف النّفي (لا):

نـفـيُ اسـتـواءِ أفـراد الأجناسِ يـؤكِّـد عـدمَ تـسـاوي الأجـنـاسِ فيما بينها

كُرِّرَتْ (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ في المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ في الآيتين؛ لزيادة تأكيد نفي الاستواءِ المستفادِ مِنْ (ما) في قولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِى﴾[1]، وهذا التَّأكيدُ يلائمُ مقامَ التّنصيصِ على التَّفاوتِ الشَّديدِ بينَ الباطلِ والحقِّ، والثَّوابِ والعقابِ، ويُؤكِّد التَّضادَّ بينَ الظُّلُماتِ والنّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ[2]، فيُؤكِّد استقلالَ ما دخلَتْ عليهِ (لا)[3]، هذا وجهٌ.

ووجهٌ آخر: أنْ يُرادَ بالتَّكرارِ بيانُ أنَّ أفرادَ الظُّلُماتِ ليسَتْ متساويةً، بل هي درجاتٌ متفاوتةٌ، وكذلكَ أفرادُ النّورِ، وأنَّ أفرادَ الحَرورِ مختلِفَةٌ في درجاتِ حرارتِها، بحسَبِ اختلافِ الفصولِ والأقاليمِ والمواقعِ مِنَ الأرضِ، وأفرادُ الظِّلِّ متفاوتةٌ أيضًا؛ فهو قبلَ طلوعِ الشَّمسِ باردٌ، وفي الظَّهيرةِ حارٌّ، وهو في البلادِ الباردةِ شديدُ البرودةِ، فكما أنَّ الظّلمات متفاوتةٌ، فكذلك الكفر على دركاتٍ متفاوتة.

والوجهان صحيحان، إذِ الأوّلُ بيّن التّفاوتَ بينَ الأجناسِ المذكورةِ، والآخرُ بيّن التّفاوتَ بين أفرادِ كلِّ جنسٍ منها، فهذه الأجناسُ فيما بينها غيرُ متساوية، فكيف يتساوى جنسُها مع جنسِ ضِدِّها؟!.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 608، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 322.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 232.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 49.

معنى تعريفِ لفظي ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾:

لا يستوي جنسُ الظّلمات، ولا جنسُ النّور

تعريفُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ للجِنسِ، والمعنى: ولا يَستوي جنسُ الظُّلُماتِ ولا جنسُ النّورِ، ويدخل فيه جميعُ أفراد جنسِ كلٍّ من الظلمات والنّور.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلنُّورُ﴾:

طُرُقُ الباطلِ كثيرةٌ، وطريقُ الحقِّ واحدٌ

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ وأُفرِدَ لفظُ ﴿ٱلنُّورُ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾؛ لأنَّ الحقَّ واحدٌ، وهو التَّوحيدُ، والباطلَ كثيرٌ، وهو طُرُقُ الإشراكِ والشُّبُهاتِ؛ فبعضُهم يعبدُ الكواكبَ، وبعضُهم يعبدُ النّارَ، وبعضُهم يعبدُ الأصنامَ، والتَّفاوتُ بينَ كلِّ فردٍ مِنْ تلكَ الأفرادِ وبينَ هذا الواحدِ ظاهرٌ، والمعنى: أنَّ الظُّلُماتِ كلَّها إذا اعتُبِرَتْ لا يوجَدُ فيها ما يُساوي النّورَ[1]، ولأنَّ لفظَ الظُّلُماتِ بالجمعِ أخفُّ، ولفظَ النّورِ بالإفرادِ أخفُّ، ولذلكَ لم يَرِدْ لفظُ الظُّلُماتِ في القرآنِ إلّا جمعًا، ولم يَرِدْ لفظُ النّورِ إلّا مفردًا[2].

نُكْتَةُ تقديمِ لفظِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾:

نورُ الإسلامِ ناسخٌ لظُلُماتِ الكفرِ

أُخِّرَ ذكرُ لفظِ ﴿ٱلنُّورُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ معَ أنَّهُ أشرفُ؛ لأنَّهم كانوا قبلَ البعثةِ في ضلالةٍ، فكانَ طريقُهُم الظُّلمةَ، فلمّا جاءَ الرَّسولُ ﷺ، واهتدَى بِهِ قومٌ؛ صارَ طريقُهُم النّورَ[3]، فذُكِرَتْ أوَّلًا الحالةُ الأقدمُ، ولأنَّ الظُّلُماتِ أكثرُ كمًّا[4]، فبُدِئَ بالأكثرِ قبلَ الأقلِّ، ولأنَّ في تأخيرِ النّورِ مراعاةَ تلاؤمِ فواصلِ الآياتِ[5]، ولأنَّ التّخليةَ قبلَ التّحليةِ، فعلى المسلمِ أنْ يُخليَ قلبَهُ من كلِّ الظّلماتِ، ليملأَهُ بنورِ الإيمانِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 233، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 149.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 127، 22/ 293.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 26.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 49.

(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 225.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظي ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾:

في قولِ الباري تقدَّسَ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ استعارتانِ لطيفتانِ، وذلكَ أنَّهُ قد شُبِّهَ الباطلُ والكفرُ بالظُّلُماتِ، وشُبِّهَ الحقُّ والإيمانُ بالنّورِ[1]، وحُذِفَ المشبَّهُ، وصُرِّحَ بالمشبَّهِ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيّة، فالكفرُ يجعلُ الَّذي أحاطَ هو بهِ غيرَ مُتبيِّنٍ للأشياءِ؛ فإنَّ مِنْ خصائصِ الظُّلُماتِ إخفاءَ الأشياءِ، والكافرُ خَفيَتْ عنهُ الحقائقُ الاعتقاديَّةُ[2]، والحقُّ أبلجُ يُنيرُ لِمَنْ دخلَ فيهِ، ويُظهِرُ لهُ الحقائقَ، ونُكْتَةُ هاتينِ الاستعارتينِ: إظهارُ قُبْحِ الباطلِ والكفرِ، والتَّنفيرُ عنِ اتِّباعِهما، وإبرازُ جمالِ الحقِّ والإيمانِ، والتَّرغيبُ في سلوكِ سبيلِهما.

الإيمـانُ يُنـوِّرُ القلوبَ بالحقِّ، والكفرُ يُعمي العيونَ عنِ الحقِّ

براعةُ فنِّ الطِّباقِ:

في مقابلةِ لفظِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ للفظِ ﴿ٱلنُّورُ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾، رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ؛ بذِكرِ معنَيينِ متقابلينِ، وهما الظُّلُماتُ والنّورُ؛ لتجسيدِ الباطلِ بصورةٍ قبيحةٍ يظهرُ فيها التَّخبُّطُ والتّيهُ، وتجسيدِ الحقِّ بصورةٍ حسنةٍ، تفيضُ بالنّورِ والاستقامةِ والرَّشادِ.

قُبحُ الباطلِ يَظهرُ عندَ شَعشَعةِ نورِ الحقِّ

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

تشابهَتْ هاتانِ الآيتانِ معَ قولِهِ تعالى في سورةِ الرَّعدِ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ [الرّعد: 16]، ففي كلٍّ مِنَ الموضعينِ أُعيدَ فعلُ الاستواءِ[3]، وزيدَ هنا (لا) لتأكيدِ النَّفيِ كما مرَّ، ولم تُذكَرْ (لا) في آيةِ الرَّعدِ؛ لأنَّهُ ليسَ فيها نفيٌ، وإنَّما هي واردةٌ بطريقِ الاستفهامِ التَّقريريِّ التَّوبيخيِّ[4]؛ لأنَّ ما قبلَها كذلكَ،

اختلافُ النَّظمِ لاختلافِ أسلوبَي الخبرِ والإنشاءِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 293.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 249.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 113.

وهو قولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ [الرعد: 16]، وزيدَ في الرَّعدِ الأمرُ بالقول؛ لأنَّ ما قبلَه كذلكَ، واستُعمِلَ في الرَّعدِ (أم)، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ في التَّشبيه[1]، إذِ المقصودُ الانتقالُ من نفي الحالةِ الأولى إلى الأخرى، واستُعمِلَ (هنا) الواوُ؛ إذ لم يُرَدْ معنى الانتقال، بل نفيُ استواءِ المُتقابلَين، فجاءت آيةُ الرّعد بأسلوبِ الإنشاء، وآيةُ فاطر بأسلوب الخبر، وأتى لكلِّ أسلوبٍ ما يُناسبه من النَّظم، مع أنَّ الغايةَ واحدةٌ، وهي بيان الحقِّ لاتِّباعه، والباطلِ لاجتنابه.

دلالةُ تعريفِ الظِّلِّ والحَرورِ وإفرادِهما:

جنسُ الظِّلِّ يَفضُلُ جنسَ الحَرورِ

جاء لفظا الظِّلّ والحَرورِ معرّفين ومفردَين في قوله ﷻ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾؛ لأنَّ القصدَ إلى الجنسيَّة[2]، والمرادُ: نفيُ استواءِ جنسِ الظِّلِّ وجنسِ الحَرورِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على ما هو معلومٌ لكلِّ عاقلٍ منَ التَّفاوتِ العظيمِ بينَ الجنسينِ، وأنَّ جنسَ الظِّلِّ أفضلُ؛ لأنَّ منفعتَهُ عظيمةٌ.

نوعُ الاستعارةِ وبلاغتُها:

المؤمنُ في ظلِّ إيمانِه، والكافرُ في جحيمِ كُفرانه

في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ استعارتانِ بليغتانِ لأثرِ الإيمانِ والكفرِ، وذلكَ على جعلِ الظِّلِّ مُستعارًا للثَّواب، والحَرورَ مُستعارًا للعقاب[3]، فالمؤمنُ بإيمانِه في ظلٍّ وراحةٍ، والكافرُ بكفرِه في حَرٍّ وتعبٍ[4]، و﴿ٱلظِّلُّ﴾ مكانُ نعيم في عُرْفِ العربِ، أهلِ البلادِ الحارَّةِ الَّتي تتطلَّبُ الظِّلَّ للنَّعيم غالبًا، إلّا في بعضِ فصلِ الشِّتاء، و﴿ٱلۡحَرُورُ﴾ مُؤلِمٌ ومُعذِّبٌ في عُرْفِهم[5]، فالاستعارةُ تمثيليَّةٌ، حيثُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 114.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 233.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 608، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 257.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 232.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 293.

شَبَّه أثرَ الإيمانِ من تحصيلِ الثّواب والعافية في الدّارين بالظلِّ، وأثرَ الكفرِ من تحصيل العقابِ في الدّارين بالحَرور، أو أن يكون الإيمانُ مُشبَّهًا بالظّلِّ، والكفر مشبَّهًا بالحَرورِ، فتكون الاستعارة تصريحيّةً، والتّمثيليّة أوفر دلالةً.

نُكتَةُ تقديمِ ﴿ٱلظِّلُّ﴾ على ﴿ٱلۡحَرُورُ﴾:

التّـنـاسـبُ المعـنـويُّ والـلّـفـظـيُّ من عللِ التّقديمِ

قُدِّمَ لفظُ ﴿ٱلظِّلُّ﴾ على لفظِ ﴿ٱلۡحَرُورُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾، معَ تقديمِ ما يُؤدّي إلى العقابِ في الآيتينِ السّابقتينِ، وهو الكفرُ المستعارُ له لفظُ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾؛ وذلك إمّا ليكونَ معَ ما قبلَهُ على نَمَطٍ واحدٍ؛ فإنَّ العمَى والظُّلماتِ والظِّلَّ متناسبةٌ، حيثُ إنَّ الظَّلامَ ينشأُ عن الظِّلِّ[1]، والظَّلامُ والعمَى يمنعانِ مِنْ رؤيةِ الأشياءِ كما ينبغي، معَ ما في تأخيرِ الحَرورِ مِنْ رعايةِ الفاصلةِ[2]، وفواصلُ القرآنِ مِنْ مُتمِّماتِ فصاحتِه، فلها حظٌّ مِنَ الإعجازِ[3].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فَعول):

الإشارةُ إلى شدَّةِ معاناةِ الكافرِ مِنَ العذابِ

لفظُ ﴿ٱلۡحَرُورُ﴾ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ على وزنِ (فَعول)، وهو مأخوذٌ مِنَ الحَرِّ، وقد غلبَ إطلاقُهُ على السَّموم[4]، بعدَما كانَ في الأصلِ بمعنى الشَّديدِ الحرارةِ مطلَقًا[5]؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ مِنْ صيَغِ المبالغةِ[6]، وفي التَّعبيرِ بها هنا إشارةٌ إلى شدَّةِ ما يُقاسيهِ الكافرُ مِنَ العقابِ الَّذي هو نتيجةُ كفرِهِ.

براعةُ الطِّباقِ في ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾:

العاقلُ يسلكُ الطَّريقَ المُفضي إلى السَّلامةِ

في الجمعِ بينَ ﴿ٱلظِّلُّ﴾ و﴿ٱلۡحَرُورُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 38.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 225.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 293.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 149.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 222.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 49.

﴿وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾ رعايةٌ لُمحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ؛ لِما بينَ هذَين اللَّفظين مِنَ التَّضادِّ، وفي ذلكَ تنبيهٌ للعاقلِ على عاقبةِ الكفرِ وعاقبةِ الإيمانِ؛ ليختارَ منهما ما هو أسلمُ لهُ وأصلحُ؛ فإنَّ العاقلَ لا يرضَى بسلوكِ طريقِ العَطَبِ والهلاكِ.

نُكْتَةُ تكرارِ نفي الاستواءِ:

العمى وسيلةٌ صارفةٌ عن حقائقِ الحياةِ، والبصرُ وسيلةٌ موصِلةٌ لها

ذُكِرَ التَّمثيلُ بالأعمَى والبصيرِ للكافرِ والمؤمنِ، ثم ذُكِرَ التَّمثيلُ بقولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾؛ تمهيدًا وتوطئةً للتَّمثيلِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ الَّذي هو المقصودُ الأَولى؛ لأنَّهُ تمثيلٌ للمؤمنينَ والكفّارِ أيضًا، ولهذا كُرِّرَ فعلُ الاستواءِ فيه، وحُذِفَ فيما قبلَهُ[1]، فأُقيمَ ذِكْرُ الأحياءِ والأموات في جملةٍ مستقلّةٍ لبيانِ أنَّها المقصودةُ بالمقام، إذ إنَّ المقصودَ منها بيانُ حالِ المؤمنين والكفّار بعدَ انقطاع الحياةِ الدّنيا وما خُتِم لهم بعد موتِ قلوبِ الكافرين، وحياةِ قلوب المؤمنين، فكان تكرار نفي الاستواءِ مؤكِّدًا على أنَّ هذه الجملة هي مقصودُ الكلامِ المتقدِّم، وبها يتحقَّقُ الأمرُ، فالتَّمثيل بالأحياءِ والأموات تمثيلٌ آخرُ للمؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ مِنَ التَّمثيلِ بالأعمَى والبصيرِ[2]؛ لأنَّ المنافاةَ بينَ الحياةِ والموتِ أتمُّ مِنَ المنافاةِ المُتقدِّمةِ[3]، فأُعيدَ الفعلُ إشارةً إلى أنَّهُ مقصودٌ بالتَّمثيلِ[4].

بلاغةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المنفيّ:

نفيُ استواءِ الكفرِ والإيمانِ أصلٌ يتجدّدُ في كلِّ زمان

لمّا كانَ نفيُ استواءِ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ ممّا لا يطرأُ عليه تغييرٌ في ذِهنِ البشرِ؛ فالحيُّ خيرٌ من الميت، كان من مقتضى

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 637.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 149، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 294.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 225، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 322.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 222.

الظّاهر أن يأتيَ بالاسمِ دون المضارع في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، لكن لمّا كان المقصودُ التّمثيلَ بهما عن المؤمنين والكافرين، ناسبَ أن يأتيَ بالمضارعِ، إذِ المضارعُ نفيٌّ تجدُّديٌّ لاستواء الكافر مع المؤمن، وأنَّ هذا الاستواء المنفيَّ يجب أن يبقى متجدِّدًا على مدارِ الحياةِ إلى قيامِ السّاعة في اعتقادِ المؤمنِ الحقِّ، وأنَّ كلَّ ما يطرأ من تغييراتٍ على ما يُناهض مقتضى هذه الآيةِ؛ فإنَّه إلى وبالِ الكفرِ منتهٍ؛ لأنَّه في خبثِ الكفر والنّفاقِ نبتَ، وما كان ويكون وسيكون من دعاوى تسويةِ المؤمنين بالكافرين، إلّا دعاوى باطلة لا تخرج عن مؤمنٍ بالقرآنِ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَمْوَٰتُ﴾:

الإيمانُ محمودٌ كالحياةِ، والكفرُ شنيعٌ كالموتِ

يُحتملُ أنْ يكونَ التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ للعهدِ، فيُرادَ بالأحياءِ: المؤمنونَ الَّذين دخلوا في الإسلامِ في زمنِهِ ﷺ، وانتفعوا بدعوتِهِ، وبالأمواتِ: الَّذينَ بقوا خارجينَ عن الإسلامِ، وأصرّوا على كفرِهم وعنادِهم، واستكبروا[1]، وفي الكلامِ تشنيعٌ لحالِهم، حيثُ عايَنوا الهدى، وأعرضوا عنهُ، ويحتمل أنْ يكون التّعريفُ للجنس، وهما تمثيلان للكفّار والمؤمنين عمومًا، ويدخلُ في ذلكَ - دخولًا أوَّليًّا - مَنْ آمنَ ومَنْ كفرَ في زمنِهِ ﷺ، وهذا هو الأولى في التّوصيف العلميّ، فيُفيدُ الكلامُ تقبيحَ شأنِ الكفرِ، ورفعَ شأنِ الإيمانِ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

نُكْتَةُ تكريرِ حرف النّفي (لا):

لا يستوي الحيُّ والميت جنسًا ولا فردًا

كُرِّرَتْ (لا) في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ لتوكيدِ النَّفيِ المستفادِ منْ (ما)[2]، فيكونُ انتفاءُ استواءِ الأحياءِ والأمواتِ مُقرَّرًا لا شكَّ فيهِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لتقبيحِ الكفرةِ.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 637.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 637.

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّكريرُ إشارةً إلى التَّفاوتِ بينَ أفرادِ الأحياءِ، وبينَ أفرادِ الأمواتِ؛ فالأحياءُ بالإيمانِ والعملِ الصّالح متفاوتونَ فيما بينَهم بحسَبِ ما لدى كلٍّ منهُم مِنْ إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، والأمواتُ بالكفرِ وانطماسِ البصيرةِ متفاوتونَ فيما بينَهم بحسَبِ ما لدى كلٍّ منهُم مِنْ كفرٍ وأعمالٍ سيِّئةٍ، والجمعُ بين هذَين الاحتمالين أولى من إهمالِ أحدهما، فهو نفيٌ لمساواة الجنسين، ونفي مساواة أفرادِ كلِّ جنسٍ فيما بينهم، وهذا فيه تكثيرٌ للمعاني، وتثويرٌ للحقائق.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾:

المؤمنونَ أحياءٌ باستزادتِهم منَ الخيرِ، والكفّارُ أمواتٌ بانقطاعهم عنه

في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ استعارتانِ بليغتانِ، وذلكَ أنَّ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ استعارةٌ للمؤمنينَ، و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ استعارةٌ للكافرينَ(1)، بيانُ ذلكَ: أنَّهُ لمّا كانتِ الحياةُ مَبْعَثَ المدارك والمساعي كلِّها، وكانَ الموتُ قاطعًا للمداركِ والمساعي؛ شُبِّهَ الإيمانُ بالحياةِ في انبعاثِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ منهُ، وفي تلقّي ذلكَ وفَهْمِه، وشُبِّهَ الكفرُ بالموتِ في الانقطاعِ عن الأعمالِ والمُدرَكاتِ النّافعةِ كلِّها، وفي عدمِ تلقّي ما يُلقَى إلى صاحبِهِ، فصارَ المؤمنُ شبيهًا بالحيِّ مشابهةً كاملةً لمّا خرجَ مِنَ الكفرِ إلى الإيمانِ، وكانَ الكافرُ شبيهًا بالميِّتِ ما دامَ على كفرِه(2).

نُكْتَةُ تقديمِ لفظِ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾:

تقديمُ مقصودِ الكلامِ على سواه تنبيهٌ على فضله على سواه

قُدِّمَ ذكرُ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ على ﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ في قولِ الباري عزَّ سلطانُهُ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾؛ لأنَّ الحياةَ أشرفُ مِنَ الموتِ(3)، ولأنَّ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنينَ بعدَ الدَّعوةِ، و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ إشارةٌ إلى المُصرّينَ على الكفرِ بعدَها، وفي ذلكَ تنبيهٌ على شرفِ الإيمانِ،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 436.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 294.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 225، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 322.

واستحقاقِهِ التَّقديمَ[1]، فكان التَّقديمِ من بابِ تقديمِ الأصلِ الذي يجب أن يكون عليه النّاس، وهذه الجملةُ هي مقصودُ الجملِ المتقدّم ذكرها عليها، وشأنُ جملِ القصد أن يتقدّم فيها المقصودُ كذلك.

غرضُ جمعِ لفظَي ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾:

جمعُ لفظَي ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ دون إفرادِهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ على بابِهِ؛ لتعدُّدِ المشبَّهِ بهما[2]، ولأنَّ المرادَ أنَّ أحدَ الصِّنفينِ لا يُساوي الآخرَ، سواءٌ قابلتَ الجنسَ بالجنسِ، أم قابلتَ الفردَ بالفردِ[3]، وفي التَّعبيرِ بالجمعِ أيضًا: تحقيقٌ للتَّباينِ بينَ أفرادِ الفريقين[4]، وتفنُّنٌ في الكلامِ عندَ الحديثِ عن المؤمنينَ والكفّارِ، بإيرادِ الجمعِ بعدَ إيرادِ الأعمى والبصيرِ بالإفرادِ[5].

تفاوتُ صنفَيِ الأحياءِ والأمواتِ جملةً وتفصيلًا

بديعُ فنِّ الطِّباقِ:

في الجمع بينَ ﴿ٱلۡأَحۡيَآءُ﴾ و﴿ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ مُحسِّنٌ معنويٌّ، وهو الطِّباقُ بالجمعِ بينَ معنَيين متضادَّين، ومِنْ بلاغتِهِ في هذا الموضعِ إظهارُ صورتينِ متقابلتين؛ إحداهما: للمؤمنينَ الأحياءِ، والأخرى: للكفّارِ الأمواتِ، والعاقلُ مَنْ يختارُ أكملَ الوصفينِ وأشرفَهما وأنفعهما في الدّارين.

العاقلُ يُؤثِرُ الحياةَ على الموتِ والمصلحةَ على المفسدةِ

بلاغةُ عطفِ المنفيّاتِ:

اكتنزتِ الآياتُ بأدواتِ العطفِ والنّفي؛ فكلٌّ مِنَ الواوَيْنِ اللَّتَين في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾؛ عاطفٌ جملةً على جملةٍ، والتَّقديرُ: ولا تستوي الظُّلُماتُ والنّورُ، ولا يستوي

تنوُّعُ أدواتِ النَّفيِ والعطفِ بينَ ما يتعلَّقُ بالجُمَلِ وما يتعلَّقُ بالمفرداتِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 50.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 360.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 233، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 513.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.

الظِّلُّ والحَرورُ، وقد صُرِّحَ بالمُقدَّرِ - وهو الفعلُ - أخيرًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وأمّا الواواتُ الثّلاثةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، فكلُّ واوٍ منها عاطفٌ مفردًا على مفردٍ، وأمّا أدواتُ النَّفيِ: فاثنتانِ منها مُؤكِّدتانِ للنَّفيِ الموجَّهِ إلى الجملتينِ المعطوفتينِ المحذوفِ فعلاهما، وهما: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾، واثنتانِ مُؤكِّدتانِ لتوجُّهِ النَّفيِ إلى المفردَينِ المعطوفَينِ على مفردَينِ في سياقِ نفيِ التَّسويةِ بينَهما وبينَ ما عُطِفا عليهما، وهما واوُ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، وواوُ ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، والتَّوكيدُ بعضُهُ بالمِثْلِ، وهو حرفُ (لا)، وبعضُهُ بالمُرادفِ، وهو حرفُ (ما)، ولم يُؤتَ بأداةِ نفيٍ في نفيِ الاستواءِ الأوَّلِ؛ لأنَّهُ الَّذي ابتُدِئَ بِهِ نفيُ الاستواءِ المُؤكَّدِ مِنْ بعدُ، وهو استعمالٌ قرآنيٌّ بديعٌ في عطفِ المنفيّاتِ مِنَ المفرداتِ والجملِ[1].

بلاغةُ ترتيبِ التَّمثيلاتِ:

الـتَّرقّـي مِـنَ الأدنى إلى الأعلى ترقٍ منَ الوسيلة إلى الـطّـريـق فالمقصود

ترتيبُ التَّمثيلاتِ في هذهِ الآياتِ في غايةِ البلاغةِ؛ فقد ذُكِرَ الأعمَى والبصيرُ مَثَلًا للمؤمنِ والكافرِ، ثمَّ البصيرُ الذي يُبصِرُ في ضوءٍ، فذُكِرَ ما في الكافرِ مِنْ ظُلمةِ الكفرِ، وما في المؤمنُ مِنْ نورِ الإيمانِ، ثمَّ ذُكِرَ مآلُهما، وهو أنَّ المؤمنَ بإيمانِهِ في ظلٍّ وراحةٍ، والكافرَ بكفرِهِ في حرٍّ وتعبٍ، ثمَّ ذُكِرَ مَثَلٌ آخرُ في حقِّ المؤمنِ والكافرِ فوقَ حالِ الأعمَى والبصيرِ، وهو الأحياءُ والأمواتُ؛ إذِ الأعمَى قد يشاركُ البصيرَ في إدراكٍ ما، والكافرُ غيرُ مُدرِكٍ إدراكًا نافعًا، فهو كالميِّتِ[2]، وفي ترتيبِ هذهِ التَّمثيلاتِ أيضًا ترقٍّ مِنَ الأدنى إلى الأعلى؛ فقد شُبِّهَ المؤمنُ والكافرُ بالأعمَى والبصيرِ مُستتبَعًا بالظُّلماتِ والنّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ، ثمَّ بالأحياءِ والأمواتِ على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 293.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 232، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 26.

سبيلِ التَّرقّي، وجيءَ بعدَهُ بقوله سبحانَه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[1]، وهو ترقٍ منَ الوسائل إلى المقاصد، فالبصرُ وسيلة الإيمان، والعمى وسيلة الكفر، والظّلُّ طريق المؤمنين، والحرور طريق الكافرين، والإيمان مقصودُ الحقّ، والكفر مقصود الباطل.

نُكْتَةُ فصلِ جملةِ التّعليل:

جملةُ التّعليل خطابٌ للعقل، وطُمأنينةٌ في القلبِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾؛ لأنَّهُ تعليلٌ لهُ، وفيه تسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، وإقناطٌ لهُ منْ إيمانِ المُصِرّينَ، وإيذانٌ بأنَّ الهاديَ والمُضِلَّ هو اللّهُ ﷻ، فمَنْ تعلَّقَتْ مشيئتُهُ بإسلامِهِ فهو كالأحياءِ، فينتفعُ بالدَّعوة، ومَنْ تعلَّقَتْ مشيئتُهُ بضلالتِهِ فهو كالموتى، فلا ينتفعُ بالوعظِ، فكلٌّ مُيسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ[2].

فنُّ اللّفِّ والنّشر:

النّاسُ بينَ مُنتفِعٍ بالإنذارِ وغيرِ مُنتفِعٍ به

جاءت جملة التّعليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ مع مقابلتِها لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾، على مقابلةِ اللَّفِّ بالنَّشرِ المُرتَّب؛ فجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ تعليلٌ لجملة ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: 18]؛ لأنَّ القصرَ يفيدُ فريقينِ؛ فريقًا انتفعَ بالإنذار، وفريقًا لم ينتفعْ، فعُلِّلَ ذلكَ بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾، وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ إشارةٌ إلى الَّذينَ لم يشأِ اللّهُ أنْ يُسمِعَهم إنذارَكَ[3].

غرضُ توالي المُؤكِّداتِ:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، وزيادةُ تأنيسِهِ

جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ مجموعةٌ منَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 359.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 637.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 295.

المُؤكِّدات؛ وهي: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميّة؛ لتسليةِ النَّبيِّ ﷺ وزيادةِ تأنيسِه، بأنَّهُ قد أدَّى ما عليه.

نُكْتَةُ ذكرِ لفظِ الجلالةِ:

إكسابُ الهداية معنى الجلالةِ والمهابةِ

جاء ذكرُ لفظِ الجلالةِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لأنَّهُ يُنبِئُ عن صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها: كمالُ القدرةِ الَّتي بها يكونُ إسماعُ القبولِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الحصرَ المستفادَ من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ بالنِّسبةِ إليهِ تعالى، لا بالنِّسبةِ إلى جميعِ مَنْ عداهُ[1]، والإشارةِ إلى أنَّ إسماعَ القبولِ ممّا استأثرَ اللّهُ تعالى به[2].

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

إسماعُ الوحي لتحقيقِ الهدايةِ من خصائصِ الألوهيّةِ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ - وهو لفظُ الجلالةِ - على المسندِ الفعليِّ، وهو ﴿يُسۡمِعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: إنَّ اللّهَ وحدَهُ يُسمِعُ مَنْ يشاءُ، ويدلُّ على هذا التَّخصيصِ ما بعدَهُ، وهو قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، ويلزمُ مِنَ التَّخصيصِ تقوّي الحُكمِ؛ لأنَّ بناءَ الخبرِ على لفظِ الجلالةِ فيهِ نسبةُ الإسماعِ إليهِ سبحانَه، وفي ﴿يُسۡمِعُ﴾ ضميرٌ يرجعُ إليه سبحانَه، فيُفيدُ إسنادَ الإسماعِ إليهِ مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّهَ يُسمِعُ مَنْ يشاءُ، يُسمِعُ اللّه مَنْ يشاءُ.

بلاغةُ الكنايةِ والاستعارةِ في استعمالِ مفردةِ الإسماعِ:

الإسماعُ وسيلةُ الهدايةِ، فمن وُفِّقَ للسّماعِ فقد وُفِّقَ للهدايةِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإسماعِ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ دون الهداية، وذلكَ أنَّهُ ليسَ المرادُ بالإسماعِ مُطلَقَ الإسماعِ، بل هو كنايةٌ عن السَّماعِ النّافعِ الَّذي

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 51.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 51.

تكونُ عنهُ الإجابةُ للإيمانِ[1]، أي: إنَّ اللّهَ يُسمِعُ مَنْ يشاءُ أنْ يُسمِعَهُ ويوفِّقَهُ لفهمِ آياتِهِ، والاتِّعاظِ بعِظاتِهِ[2]، فهدايةُ العبادِ بيده تعالى لا بيد أحدٍ آخر، ولو كان رسولُ اللّه ﷺ، وآثرَ التّعبيرَ بهذا اللّفظِ دونَ الهدايةِ، كأن يقول: (إن اللّه يهدي من يشاء)؛ لبيانِ أنَّ الإسماعَ هو وسيلة الهدايةِ، كما أنَّ الإبصار هو وسيلة الإيمانِ، ومن كانت بيده وسيلة الهداية، فبيده وسيلة الإيمان، ويحتمل أن يكون استعمالُ لفظِ الإسماعِ استعارةً تصريحيّةً من باب تشبيه الهداية بالإسماع، ونُكْتَةُ الاستعارةِ أنَّ ذِكْرَ الوسيلةِ للتّنبيه على أهمّيّتها، وأنَّ من وُفِّق لأن يسمع، فهو الموفّق لأن يهتدي.

غرضُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

زرعُ قيم الهداية في قلوب الدُّعاةِ؛ ليزرعوها في قلوبِ المدعوّين

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ إسماعَهُ جلَّ وعزَّ مَنْ يشاءُ أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ؛ إذ قدرتُهُ تعالى لا يَعْسُرُ عليها شيءٌ في أيِّ زمانٍ، ومَنْ شاءَ اللّهُ هدايتَهُ في أيِّ وقتٍ اهتدَى، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ القلوبَ بيدِ اللّهِ على الاستمرارِ، وأنَّ على العبدِ أنْ يتحرَّى توفيقَ اللّهِ وهدايتَهُ، وفيه إيماءٌ إلى أنّ بابَ القبولِ مفتوحٌ في كلِّ وقتٍ، فليس لأحدٍ أن يحكمَ على آخر بالخُسرانِ المبين، فمن لم يتُب اليوم عساه يرجع غدًا، فهذه قيمة هدائيّة تزرع الأملَ في قلوبِ الدُّعاة إلى اللّه تعالى.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

هدايةُ النّاس جميعًا بيد الله وحدَه

عُبِّرَ بالاسم الموصولِ ﴿مَن﴾ دون (الذي) في قوله تعالى: ﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾؛ للدّلالةِ على العموم، أي: يُسمِعُ كلَّ مَنْ يشاءُ أنْ يُسمِعَهُ سماعَ قبولٍ للحقِّ وإذعانٍ لهُ، ويَدْخلُ في ذلكَ دخولًا أوَّليًّا المؤمنونَ عندَ زمنِ نزولِ الآيةِ، فهؤلاءِ قد شاءَ اللّهُ ﷻ هدايتَهم، ووفَّقَهم إليها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 27.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.

غرضُ حذفِ المفعولِ:

حَذْفُ مفعولِ ﴿يَشَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ على عادةِ فعل المشيئة من باب الإيجازِ؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، والتَّقديرُ: يُسمِعُ مَنْ يشاءُ إسماعَهُ.

فائدةُ الاستئنافِ:

مَنْ يُضلِلِ اللهُ فلا هاديَ لهُ

الواوُ في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ استئنافيَّةٌ، وفائدةُ الاستئنافِ: أنَّهُ بعدَ أنْ بُيِّنَ أنَّهُ ﷻ يُسمِعُ مَنْ يشاءُ، وكانَ ذلكَ مُتضمِّنًا لتخصيصِهِ بذلكَ؛ أُكِّدَ التَّخصيصُ ببيانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيرُ مُسمِعٍ مَنْ في القبورِ، وإنَّما يكونُ ذلكَ للّهِ ﷻ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إقناطِهِ ﷺ عن هدايتِهم(1).

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ:

تخصيصُ الهدايةِ باللهِ وحدَهُ ترهيبٌ بعد ترغيبٍ

قُدِّمَ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ المسندُ إليهِ ﴿أَنتَ﴾ على المسندِ المشتق ﴿بِمُسۡمِعٖ﴾؛ للدّلالةِ على الحصرِ، وهو حصرٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إليهِ تعالى، بدليلِ ما قبلَهُ، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾(2)، والمعنى: وما أنتَ بمُسمِعٍ مَنْ في القبورِ، بل اللّهُ تعالى هو الّذي يُسمِعُ مَنْ يشاءُ، وهذا على مذهبِ مَنْ يرى أنَّ المشتقّاتِ لها حُكمُ الفعلِ في إفادةِ التَّخصيصِ(3)، وهو الصّحيحِ في هذا السّياقِ، إذِ الهدايةُ للّهِ تعالى وحدَهُ كما تضافرت عليه نصوصُ القرآنِ الكريمِ.

معنى الباءِ:

ما على الرَّسولِ إلّا البلاغُ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمُسۡمِعٖ﴾ للتَّأكيدِ(4)، والمعنى: وما أنتَ بمُسمِعٍ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ(5)، وفي الإتيانِ بها زيادةُ تنبيهٍ على أنَّ النَّبيَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 257.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 50 - 51.
(3) القزوينيّ، الإيضاح، ص: 118 - 119.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 359.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 40.

ﷺ لا يملكُ هدايةَ مَنْ لم يشأِ اللّهُ هدايتَهُ، وفي ذلكَ تسليةٌ لهُ ﷺ؛ لئلّا يُهلِكَ نفسَهُ عليهِم حسرةً وأسًى.

تـصـويـرُ شـدَّةِ حرصِ النَّبيِّ على هدايةِ النّاسِ

نُكْتَةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

ما يقتضيه الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وما أنتَ تُسمِعُ مَنْ في القبورِ)؛ ليتوافقَ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى صيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لِما فيها مِنَ الدّلالةِ على الثّباتِ والدَّوامِ، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى شدَّةِ حرصِهِ ﷺ على هدايتِهم، حتَّى كأنَّهُ ظنَّ أنَّهُ مُتمكِّنٌ مِنَ القدرةِ على إسماعِهم، فنفَى اللّهُ تعالى عنهُ ذلكَ، ليُخفِّفَ عنه، وليُعلِّقَ النّاسَ بالواجبِ عليهم.

مـقـابـلـةُ قـدرةِ الـخـالـقِ على الـهـدايةِ وعَـجْـزِ المخلوقِ عنها

فنُّ الجناسِ:

بينَ ﴿يُسۡمِعُ﴾ و﴿بِمُسۡمِعٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ مُحسِّنٌ لفظيٌّ، وهو الجناسُ، ومِنْ بلاغتِهِ في هذا الموضعِ: التّناغمُ الصّوتيُّ بينَ الجملتينِ الَّذي يزيدُ حُسْنَ التَّقابلِ بينَ كونِ اللّهِ تعالى مُسمِعًا مَنْ يشاءُ، وكونِهِ ﷺ غيرَ مُسمِعٍ مَنْ في القبورِ.

الكفّارُ أمواتٌ فلا يـسـمـعـون ولا يهتدون

غرضُ العدولِ إلى الموصولِ:

ما يقتضيه الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وما أنتَ بمُسمِعِ الموتى)؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: من الأحياء، فيُقابِلُ المحذوفَ لفظُ الموتى، لكنْ عُدِلَ إلى الموصولِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ ترشيحًا للتَّمثيلِ بذِكرِ القبورِ الَّتي هي مِنْ خواصِّ المُشبَّهِ بِهِ، وهو الأمواتُ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ الكفّارَ هم عينُ الأمواتِ[1]، ولأنَّ قولَهُ: ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ أبلغُ في بيانِ عدمِ وصولِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 50.

الأصواتِ إليهم؛ لأنَّ بينَهم وبينَ المُنادي حاجزَ الأرضِ، فهذا إطنابٌ أفادَ معنًى لا يُفيدُهُ الإيجازُ[1]، مع ما فيه من مزيدِ التّرهيبِ، وتقبيحِ أحوالِ الكافرين المُعْرضين عن قبولِ سماعِ الحقِّ، الموصلِ إلى الهدايةِ الإلهيّة.

دلالةُ حرفِ الظَّرفيّة:

الـكـفّـارُ منغمسونَ في كفرِهم، كلُبْثِ الموتى في قبورِهم

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ على أنَّ القبورَ محلٌّ للأمواتِ، وفي ذلكَ تقويةٌ لسياقِ تقبيحِ حالِ المُعرِضينَ عن الدَّعوةِ، المُشبَّهينَ بالأمواتِ، ببيانِ أنَّهم قد ماتوا وسكنوا المقابرَ، واشتملَتْ عليهم اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى شدَّةِ انغماسِ الكفرةِ في كفرِهم، وهو تقويةٌ لجانبِ تمثيلِ الكفّارِ ممّن حقّت عليهم كلمةُ العذابِ، بالموتى الذين حقّت عليهم كلمةُ الموتِ، ففيه ترهيبٌ شديدٌ من الوصولِ إلى مرحلة موت القلب وعدم رجوعِه إلى الحياةِ.

بلاغةُ جمعِ القبورِ:

مقابلةُ لفظِ الأمـوات، وملاءمةُ الفاصلة لما قبلَها

جُمِعَ لفظُ القبورِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لتقعَ في مقابلةِ الأمواتِ في قوله: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾؛ لأنَّ لكلِّ ميِّتٍ قبرًا عادةً، وفي الجمعِ أيضًا مراعاةٌ لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها.

علَّةُ فصلِ الجملة:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ جيءَ به؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ عمّا يُلاقيه مِنْ إعراضِ المشركينَ عن دعوتِهِ[2]، وبيانًا لكونِهِ قد أدَّى ما عليهِ مِنَ الواجبِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 295.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 436.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.

غرضُ القصرِ وبلاغتُه:

القصرُ المستفادُ مِنْ ﴿إِنْ﴾ النّافيةِ و﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، هو من باب قصر الموصوف على الصِّفة، فهو إضافيٌّ بالنِّسبةِ إلى الإسماعِ، أي: المنفيُّ هو الإسماعُ، والمعنى: فما وجبَ عليكَ إلّا الإنذارُ، وقد أنذرتَهم، وفعلتَ ما يجبُ عليكَ، وأمّا إسماعُ القبولِ فغيرُ مُفوَّضٍ إليكَ، ولستَ مُكلَّفًا بإدخالِ الإيمانِ في قلوبِهم[1]، فغَرَضُ القَصْرِ لا إثباتُ صفةِ الإنذارِ فحسب، بل صَرْفُ الاعتناءِ بالإسماعِ الذي هو للّه تعالى وحدَه كذلك، والانشغال بالإنذارِ الذي هو من وظائف النّبوّة.

توجيهُ الحرصِ إلى الإنذارِ، وتركُ المبالغة في الحرص على الهداية

غرضُ تنكيرِ ﴿نَذِيرٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ للإفرادِ، أي: إنْ أنتَ إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ النَّذيرِ، مُندرِجٌ في زُمْرةِ الأنبياءِ المُنذرِينَ.

النّبيُّ ﷺ فردٌ من زُمْرةِ الأنبياءِ المُنذِرين

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ النِّذارة:

قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ معناهُ: إنْ أنتَ إلّا نذيرٌ للكافرينَ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ الإنذارِ إيجازًا؛ لظهورِهِ، ولأنَّ حذفَهُ يترتَّبُ عليهِ مراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ.

حذفُ المُتعلّق للإيجاز

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالنَّذيرِ دونَ المُنذِرِ:

عُدِلَ إلى صيغةِ المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، ولم يُقَلْ: (مُنذِر) بصيغةِ اسم الفاعلِ؛ لأنَّ الإنذارَ أبلغُ في ردِّ المخالفِ وردْعِه، وذلكَ يستدعي المبالغةَ المُستلزمةَ للتَّكثيرِ، ولأنَّهُ أُريدَ بالنَّذيرِ الاسمُ، وهو المُخبِرُ بحلولِ العدوِّ بديارِ القوم، ومِنْ أمثالِ العربِ: "أنا النَّذيرُ العُرْيانُ"[2]، أي: الآتي بخبرِ حلولِ العدوِّ بديارِ قومٍ، والمرادُ

عنادُ الكفرة يستوجبُ زيادةَ الإنذارِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 51، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.

(2) نقل الأزهريّ، في تهذيب اللّغة: 14/ 304: "إنَّما قالُوا: أنَا النّذيرُ العُريّان، لِأَن الرجلَ إذا رأى الغارةَ قد فَجِئتهم وأَرادَ إنذارَ قومه تجرَّدَ من ثِيابه، وأَشارَ بها ليُعْلِمَ أنْ قد فَجِئَتْهُم الغارةُ، ثمَّ صار مَثَلًا لكلِّ شَيْءٍ يُخافُ مُفاجأته"، وقد ورد في حديث النّبيّ ﷺ الذي أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6117)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2283).

بالعُرْيانِ أنَّهُ ينزعُ عنهُ قميصَهُ ليُشيرَ بهِ مِنْ مكانٍ مرتفعٍ، فيراهُ مَنْ لا يسمعُ صوتَهُ، فالوصفُ بالنَّذيرِ تمثيلٌ بحالِ نذيرِ القومِ؛ للإيماءِ إلى تأكيدِ ما أنذرَهم بهِ، حتَّى كأنَّ المُخبرَ عنهُ مُخبرٌ عن أمرٍ قد وقعَ، وهذا لا يُؤدّيهِ إلّا اسمُ النَّذيرِ، ولذلكَ كَثُرَ في القرآنِ الوصفُ بالنَّذيرِ، وقلَّ الوصفُ بالمُنذِرِ[1].

سرُّ الاكتفاءِ بالنِّذارةِ عن البِشارةِ:

عنـادُ الكـفـرةِ ناسبَه الإنـذارُ دونَ التّبشير

آثرَ النّظمُ الكريم في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ استعمالَ مفردةِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ؛ لأنَّ مَساقَ الكلامِ للحديثِ عن المُصمِّمينَ على الكفرِ[2]، وهؤلاءِ يلائمُهم الإنذارُ؛ لِما يلوِّح بهِ مِنَ الوعيدِ والتَّهديدِ[3]، ويُؤيِّدُ ذلكَ أنَّ القَصْرَ في الآيةِ قصرٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ لأحوالِهِ ﷺ نحوَ المشركينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأعمَى والأكمَهُ:

الأعمى من ذهب بصرُه، والأكمَهُ من وُلِد فاقدًا للبصر

الأعمَى هو مَنْ ذهبَ بصرُ عينيهِ كلتَيهما، والأكمَهُ: مَنْ وُلِدَ وهو أعمَى[4]، وقد اختيرَ لفظُ الأعمَى في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بكونِ الكفّارِ قد تركوا الفِطْرَةَ الَّتي فطرَهمُ اللّهُ عليها، واستبدلوها بالكفرِ والعنادِ، ولو عُبِّرَ بالأكمَهِ لربَّما كانَ فيهِ بَسْطٌ لعُذْرِهم، بأنَّهم قد وُلِدوا كفرةً، كما أنَّ الأكمهَ يولَدُ وهو أعمَى، ففيه تنزيه اللّهِ تعالى عنِ الجبرِ.

العمَى والعَمَهُ:

العـمـى لـفـاقـد البصر والـبـصـيرة، والعَمَه للمُتَرَدِّد فـاقـدِ طـريـق الرّشاد

العمَى يقالُ في فَقْدِ البصرِ والبصيرةِ، والعَمَهُ: هو التَّردُّدُ في الأمرِ والتَّحيُّرُ فيهِ، وقد اختيرَ الأعمَى هنا؛ لأنَّهُ يدلُّ على أنَّ الكفرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 53.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 513.
(4) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن، ص: 153.

بمنزلةِ فاقدِ البصرِ، وأمّا العَمَهُ الدّالُّ على التَّردُّدِ فلا يناسبُ؛ لأنَّهم قدِ اختاروا جانبَ الضَّلالِ جازمينَ بهِ.

القبورُ والأجداثُ:

القبورُ أنسبُ بسياقِ ذَمِّ الكفرةِ

القَبْرُ والجَدَثُ كلاهما يُستعمَلُ في موضعِ دفنِ الميِّتِ، لكنْ يُلاحَظُ في القرآنِ أنَّهُ يستعملُ لفظَ (الأجداثِ) عندَ الحديثِ عنِ الحالةِ الَّتي يكونُ عليها الموتى عندَ إحيائِهم وخروجِهم مِنْ قبورِهم للحسابِ والجزاءِ؛ مِنْ كونِهم فَزِعينَ ومُسرِعينَ نحوَ ذلكَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: 51]، وقولِه: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: 7]، وقولِه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ [المعارج: 43]، وأمّا القُبورُ فتُستعمَلُ في غيرِ ذلكَ، كما في قولِه: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾ [الممتحنة: 13][1]، وعُبِّرَ بها هنا أيضًا؛ لأنَّ السّياقَ ليسَ للحديثِ عنِ البعثِ وهيئةِ المبعوثينَ، وإنّما هو لذَمِّ الكفرةِ وتقبيحِ شأنِهم بتشبيهِهم بالأمواتِ.

الإنذارُ والتَّخويفُ:

الإنذارُ تخويفٌ مع تنبيهٍ على موضعِ المخافةِ، والتّخويفُ أعمُّ من ذلك

الإنذارُ: تخويفٌ معَ التَّنبيهِ على موضعِ المخافةِ، مِنْ قولِكَ: نَذِرْتُ بالشَّيءِ، إذا علمتَهُ فاستعددتَ لهُ، فإذا خَوَّفَ الإنسانُ غيرَهُ وأعلمَهُ حالَ ما يُخوِّفُهُ بهِ فقد أنذرَهُ، وإن لم يُعلِمْهُ لم يُقَلْ: أنذرَهُ، بل يقال: خوَّفَهُ، وقد عُبِّرَ بالإنذارِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد بيَّنَ للكفرةِ حالَ ما خوَّفَهم بهِ، وحذَّرَهم منهُ.

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 81 - 87.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ التّكليف بالنّذارةِ إلى أنّها سنّة ماضيةٌ في جميع الأمم

لمّا بينتِ الآيات السّابقةُ حالَ النّاس ما بين مهتدٍ وضال، وختمت بأنَّ الهداية بيد اللّه تعالى وحدَه، وأنَّ النّبيّ ﷺ ما هو إلّا نذير، فليس له من الأمرِ شيءٌ في هدايةِ البشر، ناسبَ الانتقالُ إلى بيانِ أنَّ وظيفةَ النّذارةِ هي بتكليف اللّه تعالى[1]، وليس له إلّا أن يُنذر النّاس بما يُنذرهم به، وأنَّ هذه سنّةُ اللّهِ تعالى في جميع الأمم السّابقة، فأفادت المناسبةُ دفعَ توهُّم أنَّ النّبيَّ ﷺ هو مجرّد نذير، بل هو بشير ونذير[2]، وكلُّ ذلك تكليفٌ إلهيٌّ، وتشريفٌ ربّاني.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقّ) أصلٌ يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصحَّتِه[3]، وتمكُّنِه في مَقَرِّه[4]، ومِنْ ذلكَ قولُهم: ثوبٌ مُحقَّقٌ، إذا كانَ مُحكَمَ النَّسْجِ[5]، وحَقَقْتُ العُقْدَةَ، أي: أحكمتُ شَدَّها[6]، والحقُّ: نقيضُ الباطلِ، أي: الشَّيءُ الثّابتُ الرّاسخُ المُتمكِّنُ[7]، وهو المرادُ هنا[8].

2) ﴿بَشِيرٗا﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجمالٍ[9]، ومِنْ ذلكَ: البَشَرةُ، وهي ظاهرُ الجِلْدِ، والبِشارةُ مأخوذةٌ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 234.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 40، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (حقق).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (حقق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

مِنْ ذلكَ؛ لأنَّها الإخبارُ بخبرٍ سارٍّ يبسطُ بَشَرةَ الوجهِ، وذلكَ أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ[1]، والمرادُ بالبشيرِ هنا: المُخبِرُ بالبُشْرَى، والنَّبيُّ ﷺ مُخبِرٌ بما فيهِ سعادةُ الدُّنيا والآخرة.

3) ﴿خَلَا﴾: (خلو) أصلٌ يدلُّ على تعرّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[2]، ومِنْ ذلكَ: الخَلاءُ، وهو المكانُ الَّذي لا ساترَ فيهِ مِنْ بناءٍ ونحوِهِ، والخُلُوُّ يُستعمَلُ في الزَّمانِ والمكانِ، ومعنى قولِهم: خلا الزَّمانُ: مضَى وذهبَ[3]، ومعنى ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: مضَى وأُرسِلَ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إرسالُ الرُّسُلِ ما بين التّبشيرِ والإنذارِ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ إرسالَ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ، ما كان إلّا بالحقِّ، وهو الإيمانُ والهُدى، مُبشِّرًا بالجنَّةِ مَنْ صدَّقَكَ، وآمنَ بما جئتَ بهِ، ومُنذِرًا مَنْ كذَّبَكَ، وكفرَ بما جئتَ بهِ، وما مِنْ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السّابقةِ إلّا مضَى فيها نذيرٌ يُنذِرُهم بأسَنا، فأنت لستَ بِدَعًا من الرُّسلِ، ما أنتَ إلّا أحدَ أولئكَ الذين أنذروا أقوامَهم؛ استجابةً لأمرِ ربِّك ومولاك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ:

الإرسالُ بالحقِّ تشريفٌ لسيّد الخَلْقِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ، فيهِ ثناءٌ على النَّبيِّ ﷺ، وتنويهٌ بهِ وبالإسلامِ، ودفعُ توهُّمٍ أنْ يكونَ قَصْرُهُ على النِّذارةِ في الآيةِ السّابقةِ قصرًا حقيقيًّا[5]، وليكون الاستئنافُ مبيِّنًا شأنًا عظيمًا من شؤونه ﷺ، وهو أنَّه أُرسل بالحقِّ جامعًا بين التّبشيرِ والنّذارة.

(1) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلو).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلو).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.

الإعلامُ بالمعلوم تنبيهٌ وامتنانٌ وتشريفٌ

غرضُ الجملةِ الخبريَّة:

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾ خبرٌ لا يُرادُ بِهِ مُجرَّدُ الإخبارِ؛ لأنَّهُ ﷺ يعلمُ أنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، ولكنَّ المرادَ بِهِ تأنيسُهُ ﷺ بإجراءِ هذهِ الصِّفاتِ الجليلةِ عليهِ، والامتنانُ عليهِ بها، والتَّمهيدُ لتسليتِهِ عن تكذيبِ المشركينَ لهُ، وتأنيسُ المؤمنينَ والامتنانُ عليهم أيضًا؛ إذ أُرسِلَ إليهِم رسولٌ موصوفٌ بهذهِ الصِّفاتِ الَّتي لهُم فيها خيرٌ عظيمٌ.

وجوبُ تعظيمِ النَّبيِّ المُرسَلِ بما اتَّصفَ بهِ من الخيرِ المُرسَلِ

نُكْتَةُ التَّوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ بـ (إنَّ)، وبناءِ المسندِ الفعليِّ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ على المسندِ إليهِ، وهو (نا) في ﴿إِنَّآ﴾، بحيثُ يفيدُ الكلامُ نسبةَ الإرسالِ إلى اللهِ تعالى مرَّتينِ، كأنَّهُ قيلَ: إنّا أرسَلْناكَ، إنّا أرسَلْناكَ، والغرضُ مِنَ التَّوكيدِ إظهارُ الاعتناءِ بكونِهِ ﷺ مُرسَلًا متَّصفًا بهذهِ الأوصافِ الجليلةِ، وبيانُ أنَّ رسالتَهُ عظيمةُ الشَّأنِ، وهي مِنَ اللهِ تعالى بمكانٍ، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنينَ بل للنّاسِ جميعًا على التَّيقُّظِ لمضمونِ الكلامِ والتَّصديقِ بهِ؛ ليَقْدِروا النَّبيَّ ﷺ حقَّ قَدْرِهِ، ويَعْلَموا أنَّهُ نِعمةٌ عُظمى، ورحمةٌ مُهْداةٌ.

الخطابُ المباشرُ تقريبٌ ورفعةُ حبيبٍ

نُكْتَةُ مجيءِ المسندِ إليه ضميرًا:

جيءَ بالمسندِ إليهِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ ضميرًا، ولم يُقَلْ: (إنَّ اللهَ أرسلكَ)؛ تشريفًا للنَّبيِّ ﷺ بعِزِّ الحضورِ لمقامِ التَّكلُّمِ معَ المُرسِلِ ﷻ، كأنَّ اللهَ يُشافِهُهُ بهذا الكلامِ بدونِ واسطةٍ[1]، أي: أنّ الله ﷻ كرَّمه صلواتُ ربّي وسلامه عليه بأن جعل الخطابَ له صادرًا عن المتكلّم سبحانه بضمير العظَمة والكبرياء، لا بالاسم الجليل؛ ليكون الكلامُ بأسلوبِ الخطابِ المباشرِ، لا بأسلوبِ الإخبارِ المجرّد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 691.

بلاغةُ التَّعبيرِ بنونِ العظَمةِ:

مَــن تـعـلّـق بالـعـظـيـم نـالَ شــرفَ المـكـانـةِ والمهابة

عُبِّرَ بضميرِ العظَمةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، ولم يُقَلْ: (إنّي أرسلتُك)؛ لتعظيم شأنِ الإرسالِ، بأنَّهُ إرسالُ ذي العظَمةِ والجلالِ ﷻ، والمعنى: إنّا أرسلناكَ بما لَنا مِنَ العظَمةِ[1]، وفيهِ أيضًا: تعظيمٌ للمُرسَلِ بأنَّهُ رسولُ العظيمِ سبحانَهُ، ورسولُ العظيمِ عظيمٌ، ويلزمُ مِنْ ذلكَ تعظيمُ المُرسَلِ إليهِم، حيثُ أُرسِلَ إليهِم هذا النَّبيُّ الباهرُ الشَّأنِ، فينبغي عليهِم القيامُ بحقِّ هذهِ الرِّسالةِ؛ لينالوا شرفَ هذا التَّعظيمِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تحقُّقُ الإرسالِ وعــدٌ بـالـنَّـصرِ المـبـين، وثـبـاتِ المؤمنين

جاء فعلُ الإرسالِ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ إرسالَ النَّبيِّ ﷺ أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ وتأكَّد، فلا ينبغي أنْ يُشَكَّ فيه ويُرتابَ، وفي ذلكَ زيادةُ تأنيسٍ وتثبيتٍ للنَّبيِّ ﷺ، وقطعٌ لأعذارِ الجاحدينَ المُنكرينَ الَّذينَ جَحَدوا بالرِّسالةِ، واستيقنَتْها أنفسُهم ظُلمًا وعُلوًّا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه بتحقُّقِ الإرسالِ سيتحقّقُ ما بعدَه من النَّصرِ المبين، وثَباتِ المؤمنين.

عِلَّةُ حذفِ مُتعلَّقِ فعلِ الإرسالِ:

الـنَّـبـيُّ مُـرسَـلٌ للنّاسِ جميعًا

حُذِفَ مُتعلَّقُ فعلِ الإرسالِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ إيجازًا، وتقديرُهُ: إنّا أرسلناكَ للنّاسِ؛ وذلك لظهورِهِ، وكونِهِ معلومًا مِنْ آياتٍ أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النّساء: 79]، وفي هذا الحذفِ مناسبةٌ لمقامِ عمومِ الرِّسالة، فكلُّ مَنْ يسمعُ هذا الخطابَ يعلمُ أنَّهُ مِنَ المُرسَلِ إليهِم، وإنْ لم يُنَصَّ في الآيةِ على ذلكَ.

نوعُ الباءِ ودلالتُها في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الرّسالةُ والحقُّ قرينا الصّدقِ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسةِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 41.

والمصاحبة[1]، والجارُّ والمجرورُ حالٌ مِنَ الفاعلِ، أي: أرسلناكَ مُحقّينَ، أو مِنَ المفعولِ، أي: مُحِقًّا، أو نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إرسالًا مُلتبِسًا بالحقِّ، أو مُتعلِّقانِ بـ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[2]، وأيًّا ما كانَ ففي التَّعبيرِ بالباءِ دلالةٌ على أنَّ الحقَّ قرينٌ ومصاحبٌ لكلِّ مَنْ تلبَّسَ بالرِّسالةِ؛ فالرِّسالةُ حقٌّ، وكلٌّ مِنَ المُرسِلِ والرَّسولِ مُحِقٌّ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الحقُّ الكاملُ قرينُ الرِّسالةِ

لفظُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ للجنسِ، فيُفيدُ الكلامُ تلبُّسَ الرِّسالةِ بالحقِّ الكاملِ في الثَّباتِ الَّذي يطابقُهُ الواقعُ[3]، وأعظِمْ برسالةٍ كانَ الحقُّ ملابسَها، ويالَخسارةِ مَنْ أعرضَ عنها، وحادَ عن صراطِها.

غرضُ تقديمِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الحــقُّ أصــلُ البِشارةِ والنِّذارةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، إمّا للاهتمامِ بكونِ الحقِّ ملابسًا للرِّسالةِ، فهو توطِئةٌ لذكرِ وظيفةِ الرَّسولِ وهي البِشارةُ والنِّذارةُ، وإمّا للقَصْرِ، وذلك على القولِ بتعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ بقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: أرسلناكَ بشيرًا ونذيرًا بالحقِّ لا بغيرِهِ[4].

نُكْتَةُ تَنكيرِ لفظِ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾:

البشارةُ والنّذارةُ وصــفٌ عــريــقٌ معذوقٌ بالنّبيّين السّابقين

نُكِّرَ لفظا ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للتَّفخيمِ، فكلُّ وصفٍ مِنْ هذهِ الأوصافِ عظيمٌ في ذاتِهِ، ويزيدُهُ التَّنكيرُ فخامةً وتعظيمًا، وعلى هذهِ الأوصافِ الشَّريفةِ مدارُ رسالتِهِ ﷺ، وللإفرادِ، فيفيدُ أنَّهُ ﷺ ليسَ بِدْعًا مِنَ الرُّسلِ، بل هو مِنْ جملةِ المُبشِّرينَ والمُنذِرينَ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 51.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 226.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 41.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 51.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ):

تبليغُ النّبيِّ ما أُمِرَ بِهِ على أكملِ وجهٍ

جيءَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قوله ﷺ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ ﷺ بالبِشارةِ والنِّذارةِ، وفي ذلكَ مزيدُ تفخيمٍ وتعظيمٍ لشأنِهِ وشأنِ رسالتِهِ، وإشارةٌ إلى أنَّهُ يُؤدّي ما وجبَ عليهِ مِنَ التَّبشيرِ والإنذارِ على أكملِ وجهٍ وأتمِّه.

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلَّقِ البِشارةِ:

حـذفُ المُتعلّقِ إيجازًا لظهورِهِ، والإيـذانِ بـأنَّ البِشارةَ لها من يستحقُّها مِنَ المؤمنين

يتعلّق قولُهُ تعالى: ﴿بَشِيرًا﴾ بمحذوفٍ تقديره: بشيرًا للمؤمنينَ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ البِشارةِ إيجازًا؛ لظهورِهِ، والإيذانِ بأنَّ البِشارةَ لها من يستحقُّها من المؤمنين، ولذلكَ ينصرفُ الذِّهنُ إليهم عندَ الحذفِ.

غرضُ تقديمِ ﴿بَشِيرًا﴾:

التّبشيرُ مقدَّمٌ في دعـوةِ عمومِ النّاسِ، والإنذارُ مقدّمٌ في دعوةِ المعاندين

قُدِّمَتِ البِشارةُ على النِّذارةِ في قوله عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ لإظهارِ شرفِ البِشارةِ واستحقاقِها التَّقديمَ[1]، ولأنَّ التَّبشيرَ هو المقصودُ الأصليُّ في دعوةِ النّبيِّ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غلبَ عليهِ التَّبشيرُ؛ لأنَّهُ رحمةٌ مُهْداةٌ للعالَمينَ، وأمّا الإنذارُ فهو ضرورةٌ لرَدْعِ الكفّارِ والعُصاةِ المخالفينَ، ويُؤخَذُ مِنْ ذلكَ أنَّ على الدُّعاةِ إلى اللّهِ ﷻ أنْ يُغلِّبوا الرِّفقَ والرَّحمةَ بالنّاسِ على التَّخويفِ والتَّشديدِ؛ فالرِّفقُ منهجٌ نبويٌّ، ولا يكونُ الرِّفقُ في شيءٍ إلّا زانَهُ، وفي تقديمِ ﴿بَشِيرًا﴾ أيضًا مراعاةُ وقوعِ النَّذيرِ مُتَّصلًا بقولِهِ تعالى بعدَهُ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فهو مُشتمِلٌ على النِّذارةِ أيضًا.

بلاغةُ عطفِ المُتقابلاتِ:

اجتماعُ البِشارةِ والنِّذارةِ بإتقانٍ، لا تكونُ إلّا صفةَ كمالٍ وشميلةَ تمامٍ

عُطِفَ النَّذيرُ على البشيرِ في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بالواوِ، ولم يُقَلْ: (بشيرًا نذيرًا) دونَ عطفٍ؛ لأنَّ المرادَ الإعلامُ برسوخِ قَدَمِهِ ﷺ في كلٍّ مِنَ الصِّفتينِ[2]، كما هو مُقتضَى مقامِ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 51.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 41.

التَّكريم والتَّشريفِ، والواوُ تُشعِرُ باستقلالِ كلٍّ مِنَ الصِّفتين، حتَّى كأنَّ الذّاتَ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِهما، ولو تُرِكَ العطفُ لربَّما ظُنَّ أنَّ الصِّفةَ الثّانيةَ تابعةٌ للصِّفةِ الأولى، وليسَتْ مقصودةً لذاتِها؛ فدَلَّ العطفُ على أنَّه ﷺ يتّصف بالبشارةِ وصفًا راسخًا، كما يتّصف بالنّذارةِ وصفًا راسخًا، وأنّه في كلٍّ منهما قد أتى بالوصفِ اللّائقِ به، دونَ إفراطٍ أو تفريطٍ، فإنَّ مِنَ النّاس مَن لا تُتقن إلّا البشارةَ، ومنهم مَن لا يُتقن إلّا النِّذارةَ، أمّا أن يكون الإتقان للصَّفتين معًا، باجتماعٍ وانفرادٍ، فلم يكن إلّا لسيّد الخلقِ ﷺ.

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلَّقِ النِّذارة:

العِلْمُ بالشَّيءِ مع فوات نُكْتَةِ ذِكْرِه مُقتضٍ للحذفِ

قولُه تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ معناهُ: ونذيرًا للكافرينَ والعُصاةِ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ النِّذارةِ إيجازًا؛ لظهورِهِ، وللتَّنبيهِ على أنَّها إنَّما تكونُ للكافرينَ والعُصاةِ، ولذلكَ لا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرِهم عندَ الحذفِ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى ضرورةِ أنْ يضعَ الدّاعيةُ إلى اللهِ النِّذارةَ في موضعِها الصَّحيحِ، ولا يُجاوِزَ بها أهلَها المستوجبينَ لها، فإنَّ إنذارَ المؤمنين العاملين المُجِدّين قبيحٌ، كقُبْحِ تبشير المجرمين والكافرين.

فنُّ الطِّباقِ في ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾:

جَمَعَ النَّبيُّ خصائصَ الرّحمةِ، فشمِلَت جميعَ النّاسِ

في الجمعِ بينَ البشيرِ والنَّذيرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ رعايةُ مُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، إذ يرسمُ الكلامُ صورتينِ متقابلتينِ؛ إحداهما: صورةُ تبشيرِهِ ﷺ للمؤمنينَ، والأخرى: صورةُ إنذارِهِ للكفرةِ والعُصاةِ، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّهُ رحمةٌ للنّاسِ جميعًا مؤمنِهم وكافرِهم؛ لأنَّ إنذارَ الكافرينَ والعُصاةِ رحمةٌ بهِم؛ لصَرْفِهم عنِ الضَّلالِ إلى الهدى، وعنِ العِصيانِ إلى الطّاعةِ.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا

إرسالُ الرُّسلِ في كلِّ الأممِ هدايةٌ ربّانيّةٌ وعدالةٌ إلهيّةٌ

﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ حاليَّةً، أي: والحالُ أنَّهُ ما مِنْ أمَّةٍ إلّا خلا فيها نذيرٌ[1]، ويحتملُ أنْ تكونَ عاطفة على التي قبلَها، فتأخذَ حُكمَها فهي استئنافيَّة[2]، والكلامُ إبطالٌ لاستبعادِ المشركينَ أنْ يُرسِلَ اللّهُ إلى النّاسِ بشرًا منهُم؛ فإنَّ هذهِ الشُّبهةَ كانَتْ مِنْ أعظم ما صدَّهم عن التَّصديقِ بهِ، فلذلكَ أُتبِعَ ذِكْرُ الرِّسالةِ بإبطالِ الشُّبهةِ، وفي ذلكَ أيضًا تسفيهٌ لأحلامِهم؛ إذ رَضوا بأنْ يكونوا دونَ غيرِهم مِنَ الأممِ الَّتي شُرِّفَتْ بإرسالِ أنبياءَ إليها[3]، وفيهِ تسليةٌ لهُ ﷺ بأنَّهُ ليسَ عليهِ إلّا البلاغُ، وأمّا التَّكذيبُ فهو دَأْبُ الأممِ السّالفةِ معَ أنبيائِهم[4]، وهذا هو مقتضى العدالة الإلَهيّة أن يُرسِل في كلِّ الأمم رسولًا منهم، لينتشلَهم من ضلالاتِ الشّركِ، ويدخلَهم في نور الهداية.

بلاغةُ القصرِ وغرضُه:

امتلأتِ الأممُ السّابقةُ بدعوةِ النّبيّين، فأخرجت منهم المهتدين

القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ قَصْرًا ادِّعائيًّا للمبالغة، كأنَّ كلَّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ لا تتَّصفُ إلّا بصفةِ كونِها أُرسِلَ إليها رسولٌ، والغرضُ مِنْ ذلكَ: التَّأكيدُ على أنَّ إرسالَ الرُّسلِ مِنَ البشرِ أمرٌ قد جرَتْ بهِ عادةُ اللّهِ ﷻ في جميعِ الأممِ الضّالَّة، ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ مُقتَفٍ آثارَهم، ومُندرجٌ في زُمْرتِهم، وليسَ بِدْعًا منهُم، وفي هذا التَّأكيدِ تقويةٌ للتَّسليةِ ودفعِ الشُّبهةِ الواردةِ على رسالتِهِ ﷺ.

دلالة ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ﴾:

تأكيدُ النَّفيِ المستفادِ مِنْ (إنْ)

جاءَ حرفُ الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ (إنْ)، وفي التَّعبيرِ بهِ تنبيهٌ على أنَّ النَّفيَ قد شملَ يقينًا كلَّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ الضّالَّةِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 41.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 22/ 268.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 296.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 641.

شمولُ اللّفظ ودلالتُه على ما يجمعُ كلَّ طائفةٍ مِنَ النّاسِ

بلاغةُ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾ لشموله؛ إذ يدلُّ على ما يجمعُ كلَّ طائفةٍ مِنَ النّاسِ مِنَ المكانِ الواحدِ، والزَّمانِ الواحدِ، والدّينِ الواحدِ، المُستدعي لإرسالِ الرُّسلِ مُبشِّرينَ ومُنذِرينَ.

القيامُ بحُجّةِ اللهِ في الأرضِ عمَّ كلَّ أُممِ الأرضِ

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أُمَّةٍ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي تعُمُّ، أي: ما مِنْ أمَّةٍ مِنَ الأممِ الضّالَّةِ الدّارجةِ في الأزمنةِ الماضيةِ إلّا خلا فيها نذيرٌ[1]، والغرضُ مِنْ هذا التَّعميم: إقامةُ الحُجَّةِ على الأممِ، والتّنصيصُ على شمولِ رحمتِه ﷻ لجميعِ الأممِ؛ حيثُ لم يُخْلِ أمَّةً منها مِنْ قائمٍ للّهِ بالحُجَّةِ، ونذيرٍ يدعوها إلى الحقِّ والهدى، والحكمةُ في ذلكَ: ألَّا يَبقَى الضَّلالُ رائجًا في الأرضِ[2].

إرسالُ الرُّسلِ إلى الأممِ من مقتضياتِ بقاءِ الأممِ

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿خَلَا﴾:

في قولِه سبحانَهُ: ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ مجازٌ لطيفٌ، وذلكَ أنَّ أصلَ الخلاءِ الفراغُ، وهو يُستعمل في خلوِّ المكانِ؛ فيُقال: خلا منهُ المكانُ، فأُسنِدَ الخُلوُّ إلى صاحبِ المكانِ، وهو النّذير على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لنُكتةِ المبالغةِ[3] في المضيِّ وانصرامِ العهدِ، أي: تحقَّقَ الأمرُ وانقضى، وهو معلومٌ لدى كلِّ الأممِ التي تستعملُ عقلَها للوصولِ إلى أخبارِ بقيّةِ الأممِ، وما يَستجدُّ لها من أحداثٍ، فالتّعبير يوحي بأنَّ هذا الأمرَ معهودٌ عند الجميعِ لا يخفى على أحد.

سنَّةُ إرسالِ الرُّسلِ مُعرقةٌ في القِدَمِ

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى ثناؤُهُ: ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 297.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 735.

للدّلالةِ على تحقُّقِ خُلوِّ الأنبياءِ السّابقينَ، فيكونُ الكلامُ قد أفادَ المُضيَّ باعتبارِ الصّيغةِ، وباعتبارِ إسنادِ الخُلوِّ إلى النَّذيرِ كما تقدَّمَ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في كونِ سنَّةِ إرسالِ النُّذُرِ قديمةً ضاربةً بأطنابِها في الزَّمنِ الماضي.

دلالةُ حرفِ الظّرفيَّة ﴿فِيهَا﴾:

دلَّ حرفُ الجرِّ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، وهو يفيدُ أنَّ الأممَ هي مكانُ خُلوِّ الأنبياءِ، ومكانُ دعوتِهم إلى اللّه تعالى، فدلَّ على أنَّ الرُّسلَ قد تغلغلوا في دعوةِ تلك الأمم.

الأُمـمُ السّابقة مكانُ خُلوّ الأُمم ومكان دعوتهم إلى الله تعالى

غرضُ تقديم ﴿فِيهَا﴾:

قُدِّمَ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿نَذِيرٌ﴾ في قوله سبحانَه: ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ للعنايةِ بكونِ خُلوِّ الأنبياءِ هو في الأممِ السّابقةِ، وهو يلائمُ مقامَ إقامةِ الحُجَّةِ، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿نَذِيرٌ﴾ مراعاةً لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

العـنـايـة بـكـون خُـلـوِّ الأنبياءِ في الأممِ السّابقةِ

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿نَذِيرٌ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ للإفرادِ المفيدِ في إقامةِ الحُجّةِ، أي: خلا فيها فردٌ مِنْ أفرادِ النُّذُرِ، وقد يُرسِلُ اللّهُ تعالى أكثرَ مِنْ نذيرٍ، كما وقعَ في بعضِ الأُممِ، لكنّه أتى بالإفرادِ لبيانِ أنَّ إقامةَ الحُجّة تقع به، ويُفيد كذلك التّعظيمَ؛ فإنّ النّذيرَ من اللّه تعالى عظيمٌ في ذاتِه ووظيفته.

نـذيـرٌ مـن الله تقومُ به الحُجّةُ على الخَلْقِ

توجيه تخصيص النِّذارةِ بالذّكرِ:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ النّذير دونَ الرّسول أو النّبيِّ في قوله تعالى: ﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، واستعملها دونَ الصّفة الأُخرى وهي البشيرُ؛ لأنَّهُ لمّا كانتِ النِّذارةُ مشفوعةً بالبِشارةِ دلَّ ذكرُها على ذِكْرِها، لا سيَّما قد اشتملَتِ الآيةُ على ذكرِهما في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ﴾[1]، ولأنَّ النّاس لتماديهم في الضّلالِ والغفلةِ أشدُّ احتياجًا إلى

بـدايـةُ دعـوةِ الـضّـالّـين بـالإنـذار، فـإن اهتدَوا بُشّروا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 608.

النَّذيرِ مِنَ البشيرِ[1]؛ لأنَّ تأثيرَ الإنذارِ في الزَّجرِ عن الكفرِ والمعاصي أقوى[2]، ولأنَّ النِّذارةَ هي الَّتي تقعُ بها التَّسليةُ؛ لِما فيها مِنَ المشقَّة، ولمراعاةِ العمومِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ فإنَّ مِنَ الأممِ مَنْ لم تحصلْ لها بشارةٌ؛ لأنَّها لم يُؤمِنْ منها أحدٌ[3]، ولأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، فأفاد ذلك كلُّه أنَّ الأممَ المذكورةَ هي أممُ الضّلالةِ والكفر، فاحتاجت إلى النّذير، فإنْ آمنت جاءتها البشارةُ، وهذا هو المناسبُ للمقامِ والسّياق، فإنَّ الآيةَ نزلت في إنذارِ الكافرين من قريش، فناسب الإخبارُ عن أوّليّة الدّعوة، وهي النّذارة.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

يغلبُ على الإرسالِ الرِّفقُ والسّلاسة، وعلى البعث الإثارةُ والإيقاظ

يشتركُ الإرسالُ والبعثُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو توجيهُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ويفترقانِ بأنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، كبعثِ البعيرِ مِنْ مكانِه، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمة، إلّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها مع حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣﴾ [الفيل: 3]، وقدِ اختيرَ لفظُ الإرسالِ دونَ البعثِ في الآيةِ؛ لأنَّ السّياقَ هنا سياقُ نعمةٍ وتشريفٍ لهُ ﷺ، والإرسالُ أنسبُ به.

التَّبشيرُ والإخبارُ:

الإخبارُ عامٌّ في الأخبارِ والتّبشير، يخصُّ السّارَّ منها

التَّبشيرُ إخبارٌ بالأمرِ المحبوبِ فقطْ، فهو أخصُّ مِنْ مُطلَقِ الإخبار، وقدِ اختيرَ التَّبشيرُ في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا﴾؛ لِما تدلُّ عليه البشارةُ مِنَ الإخبارِ بما يَسُرُّ، وأعظمُ التَّبشيرِ الجالبِ للسُّرورِ تبشيرُ النَّبيِّ ﷺ برحمةِ اللّهِ تعالى والجنَّة.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 641.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 52.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 41، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 297.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾ [فاطر: 25 - 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانـتـقـالُ من العمومِ السُّنَنيّ إلى الخصوصِ الخِطابيّ

لمّا بيّنتِ الآيةُ السّابقة أنَّ الأمم المتقدّمة قد جاءتها رسلُ اللّٰه تعالى مُنذِرين لكفرِهم وعنادهم، وأنَّ هذه هي سنّةُ اللّٰه تعالى مع جميعِ الأممِ في إرسال المُرسلَين لإنذارِ مَن أشرك وعاند، ناسبَ الانتقالُ من الإخبارِ عن ذلك العموم، إلى خصوصِ إنذارِ النّبيِّ ﷺ قومَه، ففيها منَ التّسليةِ والإيناسِ بأنَّ ما كان للرُّسُل السّابقين كان لنبيّنا ﷺ، ففُهِم من هذه المناسبةِ أنَّ الأممَ السّابقة صدر عنها تكذيبٌ لرسلِهم، كما كذّبت قريشٌ رسولَ اللّٰهِ ﷺ، ثمّ أخبر عن إيقاعِ العقوبةِ بسببِ تكذيبِهم، تلويحًا لمن عاند وأصرّ على شركه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: (بين) أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيءِ وانكشافِه، ومِنْ ذلكَ: البَيْنُ، وهو الفراقُ، ويقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضحَ وانكشفَ، والبيِّنةُ: الدّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانَتْ أو محسوسةً[1]، والمرادُ بالبيِّناتِ في الآيةِ: خوارقُ العاداتِ الَّتي أظهرَها الأنبياءُ[2].

2) ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: (زبر) أصلٌ يدلُّ على كتابةٍ[3]، ومِنْ ذلكَ قولُهم:

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).

زَبَرْتُ الكتابَ: كتبتُه كتابةً غليظةً، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتابِ المُنزَلِ على داودَ عليه السلام[1]، والمرادُ بالزُّبُرِ في الآيةِ: المواعظُ الَّتي يُؤمَرُ بكتابتِها؛ لتكونَ محفوظةً، وتُردَّد على الألسُنِ، كزَبورِ داودَ عليه السلام[2].

3) ﴿أَخَذْتُ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيلِه[3]، وذلكَ يكونُ تارةً بالتَّناولِ، نحوُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً يكونُ بالقَهْرِ، كقولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67][4]، والمرادُ بالأخذِ في الآيةِ: الاستئصالُ والإفناءُ[5].

4) ﴿نَكِيرِ﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ المعرفةِ[6]، فالإنكارُ ضِدُّ العِرْفانِ[7]، ويقالُ: أنكرتُ على فلانٍ، إذا فعلتُ به فِعلًا يَردعُهُ[8]، والمرادُ بالنَّكيرِ هنا: شدَّةُ الإنكارِ بالعقوبةِ[9]، إذِ العقوبةُ إلَهيّةٌ غيرُ معروفةٍ لدى النّاس، فكان ذِكْرُ نكير من بابِ التّهديد والتّرهيب.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّكذيبُ دَيدنُ المعاندين، والعذابُ سنَّةُ ربِّ العالَمين

تُخاطبُ الآيةُ الكريمةُ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم، مسليَّةً له فيما يَلقَى مِنْ تكذيبِ قومِه: وإنْ يُكذِّبْكَ - يا محمَّدُ - مُشركو مكَّةَ فقد كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم مِنَ الأُمم، الَّذينَ جاءَتْهم رُسُلُهم بالمعجزاتِ وكتبِ المواعظِ والتَّنبهاتِ، وكتبِ الشَّرائعِ والأحكام، ثمَّ أهلكهمُ اللّهُ تعالى لإصرارِهم على كفرِهم وعنادِهم، فكيفَ كانَ إنكارُ اللّه الشَّديدُ عليهم بالعقابِ والنَّكالِ؟!.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زبر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نكر).
(8) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(9) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها على الحذفِ:

تصديق الأقوام وتكذيبُهم عادةُ الأممِ

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عاطفةً لهذهِ الجملةِ على جملةٍ محذوفةٍ، ونُكْتَةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا كانَ النَّبيُّ ﷺ شديدَ الأسفِ على رفضِ قومِه للدَّعوةِ؛ رحمةً لهُم، وخوفًا مِنْ أنْ يكونَ ذلكَ لتقصيرٍ منهُ، وكانَ التَّقديرُ: فإنْ يُصدِّقوكَ فقد فازوا بخيرَي الدُّنيا والآخرةِ؛ عُطِفَ عليهِ تسليةً لهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1]، فتكونُ الواوُ منبِّهةً على القسيمِ الآخرِ، وهو تصديقُ قومِه ﷺ له، لكنّه حَذَفَ المعطوفَ عليه لإرادةِ التّهديد، فإنَّ وقت نزولِ الآياتِ كان التّكذيبُ هو السّائد، ومقصودُ الآيةِ تسليتُه ﷺ بما كان للسّابقين، ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً والجملةُ مستأنفةٌ؛ تسليةً لهُ ﷺ، ببيانِ أنَّ التَّكذيبَ عادةُ أقوامٍ معَ أنبيائِهم، وأنَّ الأنبياءَ لم يُقصِّروا في دعائِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ:

الإعــلامُ بحالِ السّابقين يدفع الــعــجــبَ من صنيعِ اللّاحقين

جيءَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لإفادةِ ترتُّبِ تركِ الأسفِ على المُكذِّبينَ على تكذيبِهم وعنادِهم، وفي ذلكَ حثٌّ للنَّبيِّ ﷺ على ألّا يُهلِكَ نفسَهُ حسرةً وأسًى عليهِم؛ إذ يفيدُ الشَّرطُ أنَّ تركَهُ الأسفَ عليهِم لا ينبغي أنْ يتخلَّفَ عن كفرِهم بدعوتِهِ، وتكذيبِهم لهُ، وأفاد الشّرطُ توقعَ التّكذيبِ مع دفعِ التّعجُّبِ من صنيعهم، فلا يتعجّب إلّا الجاهل، فأعلمه ﷺ بالحالِ كي لا يقع منه تعجُّبٌ، ودَفعُ التّعجُّبِ وأسبابِه من مظاهر التّسليَةِ.

نُكْتَةُ استعمالِ أداةِ (إنْ) دونَ (إذا):

الــتَّــكــذيــبُ بــالــواضــحــاتِ فــوقَ أنَّــه عـنـادُ مكابرٍ فهو غفلةُ جاهل

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ (إن) دون (إذا)، والظّاهرُ أنْ يقالَ: (وإذا كذَّبوكَ) باستعمالِ (إذا) الَّتي تفيدُ الجزمَ بوقوعِ

---
(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 42.

الشَّرطِ؛ لأنَّ تكذيبَ المشركينَ لهُ ﷺ حاصلٌ مقطوعٌ بهِ، وإنَّما استَعملَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ (إنْ) الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّكذيبَ بعدَ تبيُّنِ الدَّلائلِ وظهورِ الحقِّ ممّا لا ينبغي أنْ يصدرَ عن العاقلِ، وحقُّهُ أنْ يُفرَضَ كما تُفرَضُ المحالاتُ، فنزَّلهم منزلةَ الجَهَلةِ المُسارعين في الغفلةِ.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

إسنادُ التَّكذيبِ لكفّارِ قريشٍ ليُشَنِّعَ عليهم تكذيبَهم ومكابرتَهم

ضميرُ الفاعلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ راجعٌ إلى كفّارِ قريشٍ[1]، والغرضُ مِنْ إسنادِ التَّكذيبِ لهُم التَّشنيعُ عليهِم بالنَّصِّ على تكذيبِهم ومكابرتِهم، والتَّمهيدُ لتهديدِهم بما حلَّ بالأممِ مِنْ قبلِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

التَّكذيبُ سلوكٌ بشريٌّ يتقوّى بالشَّرِّ والكفرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ تكذيبَ كفّارِ قريشٍ متوقَّعٌ منهم، ومتوقَّعٌ منهمُ الاستمرارُ على ذلك والانصرافُ عن قَبولِ دعوةِ الحقِّ، كما هو حالُ بقيّةِ الأممِ، ففيه حَثُّ النَّبيِّ ﷺ على عدمِ المبالاةِ بهِم وبتكذيبِهم[2]، ببيانِ أنَّهُ لا لومَ عليهِ وإنْ بَقوا على ما هم عليهِ مِنْ معاداةِ الحقِّ وأهلِهِ؛ فما على الرَّسولِ إلّا البلاغُ المبينُ.

أثرُ الفاءِ ودلالتُها في تقديرِ المحذوفِ:

إفادةُ عمومِ الوصيّةِ بدفعِ التّعجُّبِ والحُزنِ مِنْ تكذيبِ المُعاندين

جوابُ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ محذوفٌ دلَّتْ عليهِ عِلّتُهُ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: وإنْ يُكذِّبوكَ فلا تحزنْ، أو فلا تعجَبْ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّ هذهِ سنَّةٌ قديمةٌ في الأممِ معَ الرُّسلِ مِثلِكَ، وليسَ ذلكَ لنقصٍ فيما جِئْتَ بهِ، فالفاءُ فاءٌ فصيحةٌ، أو

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 341.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.

تفريعٌ على المحذوفِ[1]، فدلَّت جملةُ الجوابِ، وما تفرّع عنها على الجوابِ المحذوفِ، ونُكْتَةُ حذفِ الجوابِ إفادةُ عموم المطلوب، وهو الإيصاءُ بعدم الحُزن والتّعجُّب والمبالغةِ في الحرصِ عليهم، ممّا قد يُؤثِّر على النّبيِّ ﷺ، ففيه إيماءٌ إلى رحمة اللّه تعالى بنبيّه ﷺ، فقد أرشده إلى ما فيه تسليتُه وتأنيسُه.

دلالةُ استعمالِ أداةِ (قد):

تكذيبُ السّابقينَ لأنبيائِهم مُتيقَّنٌ في اللّاحقين

(قد) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ لتحقيقِ تكذيبِ السّابقينَ لأنبيائِهم، وتأكيدِ حصولِه، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقام تسليةِ النَّبيِّ ﷺ، ببيانِ أنَّ تكذيبَ السّابقينَ أمرٌ مُحقَّقٌ مُتيقَّنٌ، ومِثْلُه تكذيبُ كفّارِ قريشٍ له ﷺ.

دلالةُ الإيماءِ في التّعبير بالماضي:

تحقُّقُ تكذيبِ السّابقين، والإيماءُ إلى وقوعه في اللّاحقين

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ تكذيبِ السّابقينَ، وللإيماءِ إلى أنَّه سيتحقّق وقوعُه في اللاحقين، ففيه دلالةٌ إيمائيَّة إلى أنَّ التّكذيبَ واقعٌ لا محالةَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الإيماءُ إلى أنَّ التّكذيبَ في الأممِ السّابقةِ سنّةٌ بيّنة

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله عزَّ ثناؤُهُ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للتّنبيهِ على أنَّ الحُكمَ بالتّكذيبِ عامٌّ للأممِ السّابقةِ لكفّارِ قريشٍ، كقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وقوم لوطٍ، وقوم فرعونَ، فالتَّعريفُ بالموصولِ هنا مُساوٍ للتَّعريفِ بلامِ الجنسِ، والمرادُ شمولُ التَّكذيبِ لكلِّ أمَّةٍ على سبيلِ الإجمالِ، لا على أنَّ كلَّ فردٍ مِنْ أفرادِها مُكذِّبٌ؛ إذ لا تخلو أمَّةٌ مِنَ المؤمنينَ، وإنْ كانَ عددُهم قليلًا، وللتّنبيه على أنَّ علةَ إيرادِ هذا الأمر هو بيانُ أنَّ التّكذيبَ كائنٌ في المتقدّمين، ففيه تقويةٌ لمعنى السُّنَنيَّة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.

دلالة ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

التَّسليةُ معَ تقاربِ الزَّمانِ أشدُّ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ لابتداءِ الغايةِ الزَّمانيةِ، وفي التَّعبيرِ بها هنا - حيثُ لم يُقَلْ: (قبلَهم) - تقويةٌ للتَّسليةِ؛ لأنَّ تسليةَ الإنسانِ بمَنْ قاربَهُ في الزَّمانِ أشدُّ، ولأنَّهُ لمّا كانَ المُكذِّبونَ بعضَ النّاسِ، فلزمَ لذلكَ أنْ يكونوا في بعضِ الزَّمانِ؛ دلَّ على ذلكَ بإثباتِ حرفِ الجرِّ[1].

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ ﴿كَذَّبَ﴾:

الحذفُ للإيجاز، ولدلالة السّياقِ على المحذوف

حُذِفَ المفعولُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ إيجازًا؛ لدلالةِ السّياقِ عليه، والتَّقديرُ: كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم أنبياءَهم[2]، كما أنّ في حذفِ المفعول توجيهَ الاهتمامِ بالتّكذيبِ والمكذّبين، وأنَّه المقصودُ في الكلامِ.

بلاغةُ موقعِ جملةِ ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾:

تعيينُ سببِ الكفرِ، ودفعُ التّقصيرِ عن الأنبياءِ في التَّبليغِ

يحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ مستأنَفَةً استئنافًا بيانيًّا، جوابًا لسؤالٍ نشأَ منَ الكلامِ السّابقِ، فكأنَّهُ لمّا أُخبِرَ عن تكذيبِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، سألَ سائلٌ: هل كانَ تكذيبُهم عِنادًا أو لنقصٍ في البيانِ؟[3]، فأُجيبَ بأنَّهُ لم يكنْ لتقصيرٍ منَ الأنبياءِ في البيانِ؛ لأنَّه ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾، بل كانَ لعنادِ الكفرةِ، وفَرْطِ تمسُّكِهم بما هم عليهِ منَ الباطلِ، ويحتملُ أنْ تكونَ حالًا بإضمارِ (قد)[4]، أي: كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم وقد جاءَتْهم رُسُلُهم بالبيّناتِ[5]، وفي التَّقييدِ بالحالِ تقبيحٌ لتكذيبِ الكفرةِ، بأنَّهُ قد وقعَ معَ مجيءِ الأنبياءِ بالبراهينِ والحُجَجِ الواضحةِ، وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ نفوسَهم قد ضَرِيَتْ بالكِبْرِ والعنادِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 184، 16/ 42.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 341، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 397.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 42.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 85.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 360.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

مجيءُ الرُّسل بالبيّنات حجَّةٌ متحقِّقةٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ مجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وفي ذلك إقامةٌ للحُجَّةِ على المُكذِّبينَ، بأنَّ اللّهَ تعالى قد أرسلَ إليهم الرُّسُلَ مُؤيَّدينَ بالبراهينِ الصّادقةِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

المَجيءُ بالبراهين حاصلٌ مُقترنٌ بالقصدِ

آثرَ النّظم الكريمُ استعمالَ مفردةِ المجيءِ دونَ الإتيانِ في قوله عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[1]، فتكونُ دلالةُ (جاءَ) على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)، وهو المناسبُ هنا لمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ على المشركينَ، ببيانِ أنَّ المجيءَ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ قد ثبتَ يقينًا.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

تخصيصُ رسولٍ فأكثر بكلِّ أُمَّةٍ حجّةٌ باهرةٌ وسلطانٌ هادٍ

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ بمعنى اللّامِ، أي: رسلٌ لهم، ففي إضافةِ الرُّسلِ إلى ضميرِ المُكذِّبينَ إشعارٌ باختصاصِ كلِّ رسولٍ بالأُمَّةِ الّتي أُرسِلَ إليها، وأنَّهُ كانَ لها دونَ غيرِها، وذلكَ أنسبُ بمقامِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهِم؛ إذ كونُ الرَّسولِ مختصًّا بهِم يعني: أنَّهُ يبذلُ غايةَ وُسْعِهِ في دعوتِهِ لهُم، ولا ينشغلُ عنهُم بغيرِهم، وإذا كانَ للأمَّةِ أكثرُ مِنْ رسولٍ - كما هو الشَّأنُ في بعضِ الأممِ - فذلكَ أبلغُ في الحُجَّةِ، وأقطعُ للعُذْرِ.

مناسبةُ استعمالِ لفظِ الرُّسلِ دونَ الأنبياءِ:

الاتِّساقُ بين الألفاظِ والمعاني من عناية النّظم القرآنيّ

جاء التّعبيرُ بلفظِ الرُّسلِ دونَ الأنبياءِ في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ الرُّسلَ مأمورونَ

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

بالتَّبليغ، فيكونونَ عُرْضةً للتَّكذيبِ الَّذي تتحدَّثُ عنهُ الآيةُ، ولأنَّ الرُّسلَ أنسبُ بقوله تعالى في حقِّهِ ﷺ في الآيةِ السّابقة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ﴾؛ إذ يفيدُ الكلامُ أنَّ علَّةَ تكذيبِهِ ﷺ هي علَّةُ تكذيبِ مَنْ قبلَهُ، وهي الرِّسالةُ.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ المجيءِ إلى الرُّسلِ:

الـرُّسُـلُ السّـابـقـون بمنزلةِ رسولٍ واحدٍ

لمّا كانتِ البيِّناتُ والزُّبُرُ والكتابُ المنيرُ في جنسِ الرُّسُلِ؛ أُسنِدَ المجيءُ بها إليهم إسنادًا مطلَقًا، فقيلَ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾، وإنْ كانَ بعضُها في جميعِهم، وهي البيِّناتُ، وبعضُها في بعضِهم، وهي الزُّبُرُ والكتابُ المنيرُ[1]، فيكونُ الإسنادُ مِنْ قبيلِ قولِهم: بنو فلانٍ قَتلوا فلانًا، وإنَّما القاتلُ رجلٌ منهُم[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُلَ وإنْ تعدَّدوا وتعدَّدَ ما آتاهمُ اللّهُ مِنَ البراهينِ والدّلائلِ؛ فغايتُهم واحدةٌ، وهي الدَّعوةُ إلى توحيدِ اللّهِ تعالى وعبادتِهِ، وهم في ذلكَ بمنزلةِ رسولٍ واحدٍ.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

بيِّناتُ رُسُلِ الحقِّ حُججُ الله على الخَلْقِ

الباءُ الجارَّةُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للمصاحبةِ، أي: مصحوبينَ بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ، وفي ذلكَ تشريفٌ للرُّسُلِ، بأنَّهم مُؤيَّدونَ بالأدلَّةِ والبراهينِ مِنَ اللّهِ، وفيهِ أيضًا إظهارٌ لرحمتِهِ ﷻ بالمُرسَلِ إليهِم؛ حيثُ لم يترُكْهم وعقولَهم وأهواءَهم، بل جعلَ في هذهِ البراهينِ والدَّلائلِ ما يَحملُهم على الإيمانِ، ويقتلِعُ جذورَ الشَّكِّ مِنْ نفوسِهم، إنْ هم تركوا الكِبْرَ والعنادَ.

معنى تعريفِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وغرضُ جمعها:

تعريفُ لفظِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 609، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 85.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 641.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للجنسِ، أي: بجنسِ البيِّناتِ، أي: المعجزاتِ الدَّالَّةِ على صحَّةِ نبوَّتِهم[1]، أو للعهدِ، أي: بالبيِّناتِ المعهودةِ لكلِّ واحدٍ منهُم، وجُمِعَ لفظُ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ الرُّسلِ؛ إذ مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القِسْمةَ آحادًا، فيكونُ لكلِّ واحدٍ منهُم معجزةٌ أو أكثرُ، وفي التَّعبيرِ بالجمعِ أيضًا إشارةٌ إلى كثرةِ دلائلِ الحقِّ.

بلاغةُ العطفِ ودلالتُه:

تـنـوُّعُ البيِّناتِ بتنـوُّعِ الـرُّسُـلِ واحـتـيـاجـات أقوامِهم

العطفُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ منظورٌ فيه إلى توزيعِ أصنافِ المعجزاتِ على أصنافِ الرُّسُلِ؛ فبعضُ الرُّسُلِ جاءَ بالزُّبُرِ، وبعضُهم جاءَ بالكتابِ المنيرِ، وكلُّهم جاءَ بالبيِّناتِ[2]، وفي هذا التَّنوُّعِ إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷺ قد عدَّدَ سُبُلَ هدايةِ الخلقِ، وسُبُلَ استقامةِ أحوالِهم وشؤونِ حياتِهم.

نُكْتَةُ تكريرِ الباءِ:

كلُّ كتابٍ استقلَّ بالحقِّ فلا نقصَ فيه ولا عجز

مقتضى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (بالبيِّناتِ والزُّبُرِ والكتابِ المنيرِ)، لكنْ كُرِّرَ حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ للتَّنصيصِ على المغايرةِ بينَ المعطوفاتِ[3]، وللإشارةِ إلى توزيعِ أصنافِ الدَّلائلِ على أصنافِ الرُّسُلِ[4]؛ إذِ التَّكريرُ يُشيرُ إلى استقلالِ كلِّ واحدةٍ منها، ولأنَّهُ لمّا كانَ التَّصديقُ بما جاءَ به الرُّسُلُ لازمًا لكلِّ المُرسَلِ إليهم، وكانَتْ نسبةُ التَّكذيبِ إلى الأُممِ أمرًا عَجَبًا؛ كانَ الأمرُ حَريًّا بالتَّأكيدِ بإعادةِ الجارِّ؛ لئلّا يُظَنَّ أنَّ تكذيبَهم بسببِ عدمِ الزُّبُرِ والكتابِ[5]، وفيه إيماءٌ إلى دفعِ شبهةِ القصورِ في تلك الكتبِ، فإنَّ كلَّ واحدٍ منها قد استقلَّ بالخيرِ الوفيرِ، والعطاءِ الوافرِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 609، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 52.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 42.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾:

اشتمل الزّبور على المواعظ الشّافية من داءِ القلوبِ

التَّعريفُ في قوله ﷻ: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ للجنسِ، أي: بجنسِ المواعظِ الَّتي يُؤمَرُ بكتابتِها[1]، أو للعهدِ، والمرادُ المواعظُ المعهودةُ الَّتي أُمِرَ بكتابتِها لبعضِ الرُّسلِ، كزَبورِ داودَ عليه السلام، وأيًّا ما كانَ، ففي الكلامِ تنبيهٌ على عنايةِ اللّهِ تعالى بتأييدِ بعضِ الرُّسُلِ بالزُّبُرِ المشتملةِ على المواعظِ، الَّتي بها صلاحُ القلوبِ والأحوالِ.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾:

كثرةُ تخوُّلِ الأنبياءِ أقوامَهم بالمواعظِ

جُمِعَتِ الزُّبُرُ في قوله سبحانَهُ: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ الرُّسلِ؛ إذ مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القِسْمةَ آحادًا، فيكونُ لكلِّ واحدٍ منهُم مواعظُ، وفي التَّعبيرِ بالجمعِ أيضًا إشارةٌ إلى كثرةِ المواعظِ الَّتي كانَ الرُّسُلُ يتخوَّلونَ بها أقوامَهم[2]؛ حرصًا على إرشادِهم إلى ما فيهِ خيرُ الدُّنيا والآخرةِ.

بلاغةُ عطفِ الكتابِ على الزُّبُرِ:

تنزيلُ تغايرِ الوصفِ منزلةَ تغايرِ الذّاتِ

الظّاهرُ أنَّ عطفَ الكتابِ على الزُّبُرِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ لتغايرِ الذّاتِ[3]؛ فالزُّبُرُ هي الكتبُ الَّتي فيها مواعظُ، والكتابُ المنيرُ هو ما فيهِ شرائعُ وأحكامٌ[4]، ويُؤيِّدُ ذلكَ إعادةُ الجارِّ[5]، ويحتملُ - على بُعْدٍ - أنْ يكونَ المرادُ بالزُّبُرِ والكتابِ واحدًا، والعطفُ لتغايرِ الوصفينِ[6]؛ لأنَّهُ زُبُرٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ مكتوبٌ، وكتابٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ مجموعٌ[7]، فنُزِّلَ تغايرُ الصِّفاتِ منزلةَ تغايرِ الذَّواتِ، ولذلكَ صحَّ العطفُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 52.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.

(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 397.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 53.

(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.

(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 53.

معنى تعريفِ الكتابِ:

المرادُ كُتُبُ الشَّرائعِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ

تعريفُ الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للجنسِ، والمرادُ كُتُبُ الشَّرائعِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ[1]، وفي تأييدِ بعضِ الأنبياءِ بها إظهارُ عنايتِهِ ﷻ بتشريعِ ما فيهِ انتظامُ مصالحِ النّاسِ.

عِلَّةُ إفرادِ الكتابِ:

غايةُ الشَّرائعِ تعظيمُ المعبودِ

أُفرِدَ الكتابُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾؛ لأنَّ تعريفَهُ للجنسِ الَّذي يستوي فيهِ الإفرادُ والجمعُ، وليُتوصَّلَ بالإفرادِ إلى وصفِهِ بالمفردِ الَّذي يترتَّبُ عليهِ مراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ، وفي الإفرادِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ كتبَ الشَّرائعِ وإنْ اختلفَتْ فهي بمنزلةِ كتابٍ واحدٍ؛ لأنَّ غايتَها واحدةٌ، وهي أنْ يُعبدَ اللّهُ تعالى حقَّ عبادتِهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الكتابِ بالمنيرِ:

الكتابُ يُنيرُ طريقَ الحقِّ لإقامةِ الحُجّةِ وتوفيرِ المحجّةِ

المرادُ بإنارةِ الكتابِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾: بيانُهُ للحقِّ، وفي الكلامِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَ الكتابُ بالمِصباحِ المُضيءِ في اللَّيلِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ بهِ، وهو المِصباحُ، وأُبقيَ على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ، وهو الإنارةُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ[2]، ونُكتَةُ الاستعارةِ: بيانُ وضوحِ تلك الكتبِ بإنارتِها لطريقِ المدعوّين، ففيهِ بيانٌ لحُجّةِ تلك الكُتُبِ على الأقوامِ، وأنَّها لم تكن لتُقصِّرَ في العطاءِ الهادي، ولا التّنويرِ المستمرّ.

سرُّ ترتيبِ المعطوفاتِ:

التَّرقّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى

في ترتيبِ المعطوفاتِ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ لطافةٌ، وذلكَ أنَّهُ ابتُدِئَ بذِكْرِ البيِّناتِ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ لا بدَّ لهُ مِنْ معجزةٍ، وهي أدنَى الدَّرجاتِ، ثمَّ قد ينزلُ عليهِ كتابٌ فيهِ مواعظُ، وإنْ لم يكنْ فيه نسخٌ وأحكامٌ، ومَنْ ينزلُ عليهِ ذلكَ أعلى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.

مرتبةً ممَّنْ لا ينزلُ عليه، وقد تنسخُ شريعتُه الشَّرائعَ، وينزلُ عليهِ كتابٌ فيهِ أحكامٌ، ومَنْ يكونُ كذلكَ فهو مِنْ أولي العَزم، فالرُّسُلُ تُبيِّنُ رسالتُهم بالبيِّناتِ، وإنْ كانوا أعلى مرتبةً فبالزُّبُرِ، وإنْ كانوا أعلى فبالكتابِ، ونبيُّنا ﷺ قد أوتيَ الكلَّ، فهو رسولٌ أشرفُ مِنَ الكلِّ؛ لكونِ كتابِهِ أكملَ مِنْ كلِّ الكتبِ(1).

توجيهُ المتشابِهِ اللّفظيّ:

الإيجازُ والإطنابُ ملحوظٌ في اختلافِ السّياقِ والمقام

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، مع قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 184]، فقد جُعِلَتِ التَّسليةُ في آية فاطر بحالِ الأُممِ معَ رُسُلِهم؛ لأنَّ سياقَ الحديثِ في شأنِ الأممِ، وجُعِلَتْ في آيةِ آلِ عمرانَ بحالِ الرُّسُلِ معَ الأممِ؛ لأنَّ سياقَ آيةِ آلِ عمرانَ كانَ في ردِّ محاولةِ أهلِ الكتابِ إفحامَ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ قبلَها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: 183].

وكُرِّرَتِ الباءُ هنا دونَ آيةِ آلِ عمرانَ؛ لأنَّ آيةَ آلِ عمرانَ جَرَتْ في سياقِ زعمِ اليهودِ أنَّهُ لا تُقبَلُ معجزةُ رسولٍ إلّا معجزةَ قُرْبانٍ تأكلُهُ النّارُ، فقيلَ في التَّفرُّدِ ببُهْتانِهم: قد كُذِّبَتِ الرُّسُلُ الّذينَ جاءَ الواحدُ منهُم بأصنافِ المعجزاتِ، كعيسى ﵇، ومِنْ معجزاتِهم قرابينُ تأكلُها النّارُ، فتُرِكَتْ إعادةُ الباءِ هناكَ إشارةً إلى أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا بالأنواعِ الثَّلاثةِ(2)، ولأنَّ ما في آيةِ آلِ عمرانَ كلامٌ مبنيٌّ على الاختصارِ، وهو إقامةُ لفظِ الماضي في الشَّرطِ مقامَ لفظِ المستقبلِ، ولفظُ الماضي أخفُّ، وبُنِيَ الفعلُ للمفعولِ، فلا يحتاجُ إلى ذكرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 298.

الفاعلِ، ولذلكَ لم تُكرَّرِ الباءُ؛ ليوافقَ الأوَّلَ في الاختصارِ، بخلافِ ما في هذهِ الآيةِ؛ فإنَّ الشَّرطَ فيها بلفظِ المستقبلِ، والفاعلُ مذكورٌ معَ الفعلِ، ولذلكَ كُرِّرَتِ الباءُ؛ ليكونَ الكلامُ كلُّه على نَسَقٍ واحدٍ[1].

نوعُ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

تحتمل (ثم) التّراخي الزّماني والرُّتبي

﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ عاطفةٌ هذهِ الجملةَ على جملةِ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، أي: ثمَّ أخذتُهم[2]، والتَّراخي فيها يحتمل أن يكون للتَّراخي الزَّمانيِّ[3]، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّ طولَ الإمهالِ ينبغي أنْ يكونَ سببًا للإنابةِ والرُّجوعِ إلى الحقّ، لا للاغترارِ بظَنِّ الإهمالِ[4]، ويحتمل أن يكون للتّراخي الرُّتبي، فمجيءُ الرُّسُل ابتداءً، ثمّ بعد ذلك أَخْذُ الأقوامِ، فلا تتقدّم رتبةٌ على أخرى، ففيه تنبيهٌ على العدالةِ الإلَهيّة.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الأخذ:

نهايةُ الإمهالِ العذابُ والنَّكالُ

عُبِّرَ بالأخذِ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الاستعارةِ اللَّطيفةِ، وذلكَ بتشبيهِ إهلاكِهم بإتلافِ المُغيرينَ على عدوِّهم، يقتلونَهم، ويغنمونَ أموالَهم، فتبقَى ديارُهم خاليةً، كأنَّهم أُخِذوا منها[5]، وهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ، أو يقالُ: حقيقةُ الأخذِ: التَّناولُ لِما لم يكنْ في اليدِ، وقد استُعيرَ هنا للقدرةِ عليهم، بتسليطِ الإهلاكِ بعدَ إمهالِهم، ومناسبةُ هذهِ الاستعارةِ: أنَّ الإملاءَ لهُم يُشبِهُ بُعْدَ الشَّيءِ عن مُتناوِلِه، فشُبِّهَ انتهاءُ ذلكَ الإملاءِ بالتَّناولِ[6].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

العاقلُ يعتبرُ بالأمثالِ، وبما يسمعه من متين الأقوال

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 53.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

﴿كَفَرُواْۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ إهلاكَ المُكذِّبينَ للرُّسُلِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، وعُرِفَ واشتُهِرَ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ تهديدِ كفّارِ مكَّةَ بعاقبةٍ كعاقبةِ الَّذينَ مِنْ قبلِهم، لا سيَّما وهم يُعاينونَ آثارَ بعضِ هؤلاءِ المُعذَّبينَ، ويَمُرّونَ عليهم.

نُكْتَةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

التّحذيرُ من الكفرِ، فهو علَّةُ الإهلاكِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (أخذتُهم)، لكنْ وُضِعَ الموصولُ موضعَ ضميرِهم في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾؛ لذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ - وهو الكفرُ - والإشعارِ بعلِّيَّتِه للأخذِ[1]، أي: ثمَّ أخذتُهم؛ لأنَّهم كفروا، وفي ذلكَ تحذيرٌ ووعيدٌ لكلِّ مَنْ يسلكُ سبيلَهم.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ الكفرِ:

جنايةُ الكفّارِ بسترِ الآياتِ المنيرةِ بعدَ صبرِ الرُّسُلِ عليهم، ودعائِهم لهُم

عُبِّرَ بلفظِ الكفرِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾؛ لأنَّ الكفرَ في الأصلِ هو السَّترُ، وفي التَّعبيرِ به هنا إشارةٌ إلى أنَّ الكفرةَ قد سَتَروا تلكَ الآياتِ المنيرةَ بعدَ طولِ صبرِ الرُّسُلِ عليهم، ودعائِهم لهُم[2].

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي:

عنادُ الكفرةِ على الكفرِ عِلّةُ إهلاكِهم

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ كفرَ المُكذِّبينَ للرُّسُلِ أمرٌ قد ثبتَ اتِّصافُهم به، ورسخَ فيهم، حتَّى صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبلِّيَّةِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ التَّنصيصِ، على أنَّ الكفرَ سببُ أخذِهم؛ إذ تدلُّ صيغةُ الماضي على أنَّ اللّهَ أخذَهم بعدَ أنْ أمهلَهم، وتمكَّنَ الكفرُ منهُم.

غرضُ العطفِ بالفاءِ:

الإشعارُ بأنَّ أخذَ المُكذِّبينَ الكافرينَ مشهورٌ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتَّفريعِ على

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 397.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.

﴿أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾[1]، وفي العطفِ بها إشعارٌ بأنَّ أخذَ المُكذِّبينَ مشهورٌ، وقد كانَ على وجوهٍ مِنَ العذابِ، ولذلكَ استوجبَ الاستفهامَ عندَ ذكرِهِ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه:

أخـذُ المُكـذِّبينَ عـجـيـبٌ، وهـو مـعـلـومٌ لـدى المخاطَبين

الاستفهامُ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِنْ حالِهم، وهو مُفرَّعٌ على أخذِهم، والمعنى: أخذتُهم أخذًا عجيبًا، كيفَ ترونَ أُعجوبتَهُ؟ وأصلُ (كيفَ) أنْ يُستفهَمَ بها عن الحالِ، فلمّا استُعمِلَ في التَّعجيبِ مِنْ حالِ أخذِهم؛ لزِمَ أنْ يكونَ هذا الحالُ معروفًا، أي: يعرفُهُ النَّبيُّ ﷺ وكلُّ مَنْ بلغَتْهُ أخبارُهم، وعلى تلكَ المعرفةِ المشهورةِ بُنِيَ التَّعجيبُ[3]، وهو يزيدُ التَّشديدَ والتَّهويلَ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ النَّكيرِ دونَ العقابِ:

لو رأى الجاهلُ العـذابَ لأنكرَه من شـدَّة هولِه وعظيم وقعِه

عُبِّرَ بلفظِ النَّكيرِ دونَ العقابِ في قوله ﷻ: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ لأنَّ فيهِ كنايةً بديعةً؛ لأنَّهُ في الأصلِ اسمٌ لشدَّةِ الإنكارِ، وهو هنا كنايةٌ عن شدَّةِ العقابِ؛ لأنَّ الإنكارَ يستلزمُ الجزاءَ على الفعلِ المُنكَرِ بالعقابِ[5]، فجمعَ هذا اللّفظُ بين معنى العذابِ، ولفظِ النّكيرِ ومعناه، فدلَّ على أنَّ عذابَهم بسببِ أفعالهم المنكرةِ، فكان الجزاءُ من جنسِ العملِ، ولو رآه الجاهلُ لأنكره لشدّةِ هولِه، وعظيمِ شدّته، وفي التَّعبيرِ بهِ أيضًا مراعاةٌ للفاصلةِ.

لطيفةُ حذفِ ياءِ المتكلِّمِ:

حُذِفَتْ ياءُ المتكلِّمِ في لفظِ ﴿نَكِيرِ﴾ تخفيفًا، ولرعايةِ الفواصلِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 299.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

الوقفِ؛ لأنَّ الفواصلَ يُعتبَرُ فيها الوقفُ[1]، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا النكير مضافٌ إلى الضّمير دون التّصريح به، لما فيه من شدّة التّعذيب.

بلاغةُ التّعريضِ:

قَــرْعُ العـصا لـكـفّـارِ قـريـشٍ أشـدُّ من إنـزالِ سَـوطِ الـعذابِ لمَن عَقِل وفهِم

في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تعريضٌ بالوعيدِ، وتهديدٌ لقريشٍ بمِثْلِ ما جرَى لمُكذِّبي الرُّسُلِ في الأمم السّابقةِ[2]؛ فإنَّ اللّهَ تعالى قد كتبَ على نفسِهِ نُصرةَ رُسُلِهِ، وذِكْرُ هذا الاستفهام لتحريك الأفهام، وتصويبِ المطلوب من الأنام، بإدراكِ أنَّ اللّه تعالى ليس غافلًا عمّا يعملون، وأنَّ إنزالَ العذابِ كما نزل بالمتقدّمين قابَ قوسين أو أدنى، فغرضُ الخبر التّحذيرُ بالتّعريض، ورُبَّ خبرٍ يُعرَّض به أشَدُّ من تهديدٍ صريح.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 28.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من إنزالِ الكتاب إلى إنزالِ الماء، وبيانُ المواقف والثّمرات المختلفة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أحوالَ النّاس ما بين مؤمنٍ وكافرٍ، وضَربت الأمثالَ لكلٍّ منهما، ثمّ ذَكَرت مواقفَ النّاس منَ البيّنات والكتاب، واللّهُ ﷻ أنزل الكتابَ من السّماء ليُحييَ به قلوبَ العِبادِ؛ ناسب أن يذكر بعد ذلك إنزالَ الماء من السّماء لإحياءِ الأرضِ، وإخراجَ الثّمرات المختلفة الألوان؛ لتكونَ تمثيلًا كذلك لحال النّاس من إنزال القرآنِ منَ السّماء، واختلافَ ألوانِ الجبال الدّالّ على اختلاف جواهرِها ومعادنها، إشارةً إلى اختلاف جواهر الرّجال، وتباينِ معادنهم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُدَدٌ﴾: (جدّ) أصلٌ يدلُّ على قَطعِ الشّيءِ[1]، ومِنْ ذلك قولُك: جَدَدْتُ الثّوبَ، أي: قطعتُهُ على وجهِ الإصلاحِ[2]، والجَدّاءُ: الشّاةُ المقطوعةُ الأُذُنِ[3]، والمرادُ بالجُدَدِ في الآية: الخُطَطُ والطّرائقُ[4].

2) ﴿وَغَرَابِيبُ﴾: (غرب) الغرابيبُ: جمعُ غربيبٍ، وهو الأسودُ الشّديدُ السّوادِ، المُشبِهُ للغُرابِ في السّوادِ[5]، وهو المرادُ في الآيةِ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدّ).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جدد).
(3) الخليل، العين: (جدد).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 609.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غرب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 302.

المَعنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ كمالَ قدرتِه تعالى في خلقِ الأشياء المختلفة مِنَ الشَّيءِ الواحدِ، فقد أنزلَ مِنَ السَّماءِ غَيْثًا، فسقَى به أشجارًا في الأرضِ، فأخرَج بِهِ منها ثمراتٍ مُختلِفًا أنواعُها وألوانُها، واختلافُ الثّمراتِ هو لونٌ من ألوان قُدرةِ اللّه تعالى على إخراج الأنواع المختلفة من المصدر الواحد، وهو تمثيلٌ لنزول القرآن منَ السّماء كالماءِ، واختلافِ ثمرات الاستجابة له من النّاس، كما أنَّه خَلَقَ في الأرضِ مِنَ الجبالِ طرائقَ بيضًا وحُمْرًا مختلفةَ الألوانِ، وسودًا شديدةَ السَّوادِ، وهو تمثيلٌ لاختلافِ جواهر الرّجال، ومعادِنِهم.

اختلافُ أنواعِ الثّمرات معَ اتّحاد السّببِ دليلٌ على كمالِ القدرةِ وعجيبِ الإبداع

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ:

تقريرُ الاختلاف والتباين في جميعِ المخلوقات

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ لأنَّهُ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير ما قبلَهُ مِن اختلافِ أحوالِ النّاسِ، ببيانِ أنَّ الاختلافَ والتَّفاوتَ أمرٌ مُطَّردٌ في جميعِ المخلوقاتِ، مِنَ النَّباتِ والجمادِ والحيوانِ[1]، فكما أنَّ الاختلافَ في السنّة الكونيّة الخلقيَّة؛ فهو كذلك في السنّة الاجتماعيّة الهدائيّة، أو لتقريرِ ما أشعرَ بِهِ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مِنْ عظيم قدرتِهِ ﷻ[2]، فكما أنَّه قادرٌ على إنزال العذابِ على الكافرين بسببِ عنادِهم، فهو قادرٌ على إنزال الماءِ لإخراج الثّمرات المختلفةِ الألوان.

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه:

الاستفهامُ يحتملُ التّقريرَ والإنكارَ، ومآلُ الغرضين واحد

صُدِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ بهمزةِ الاستفهامِ؛ لإفادةِ التَّقريرِ بأمرٍ ظاهرٍ معلوم، لا يَخفَى على أحدٍ، وهو إنزالُ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإخراجُ الثَّمراتِ المختلفةِ بِهِ؛ لأنَّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 360.

الاستفهامَ الَّذي للتَّقريرِ لا يقالُ إلّا في الشَّيءِ الظّاهرِ جدًّا[1]، ولا أظهرَ من إنزالِ الماءِ منَ السّماء، كما أنّه لا أظهر من إنزالِ القرآن من السّماءِ، ويحتملُ أنَّهُ لمّا كانَ في أحوالِ إنزالِ الماءِ وإخراج الثَّمراتِ نوعُ خفاءٍ؛ عُلِّقَ بِهِ الرُّؤيةُ بطريقِ الاستفهامِ التَّقريريِّ الدّالِّ على التَّرغيبِ فيها[2].

ويوجّه الاستفهامُ على أن يكون إنكاريًّا، وذلك بدخولِ الهمزة على (لم) النّافية، فالاستفهامُ متّجهٌ للمضمونِ المنفيِّ، وهو عدمُ رؤية إنزال الماء من السّماء، فيكون الإنكارُ أن يقع من أحدٍ عدمُ رؤيةِ هذا المشهدِ البديع وإقرارِ ما فيه، ومُؤدّى الأمرِ بين التّقرير والإنكار في المآل واحد، وهما طريقتان لدى المفسّرين، وإن كان في الإنكار مزيدُ مبالغةٍ على مَن لم يَعْتبر بالمقصودِ من المذكور.

نوعُ الرُّؤيةِ، ونُكْتَةُ استعمال اللّفظِ:

العبرةُ في العِلْمِ بقدرةِ المُنْزِلِ سبحانه، لا برؤية النّازل

الظّاهرُ أنَّ الرُّؤيةَ في قوله ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ رؤيةٌ قلبيَّةٌ، والمعنى: ألم تعلمَ أنَّ اللّهَ أنزلَ[3]؛ لأنَّ إنزالَ المطرِ وإنْ كانَ مُدرَكًا بالبصرِ، لكنَّ إنزالَ اللّهِ تعالى إيّاهُ ليسَ كذلكَ[4]، فرؤيةُ المُنْزَل أمرٌ معلومٌ بالحاسّة، لكنَّ المرادَ هو العلمُ بأنّ اللّه هو الذي أنزله من السّماءِ، ونُكتةُ التَّعبيرِ عنِ العلم بالرُّؤيةِ: تنزيلُ المعلوم منزلةَ المَرئيِّ المُشاهَدِ المحسوسِ، ويحتملُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بصريَّةً[5]، فيُفيدُ الكلامُ تقريرَ رؤيةِ هذا الأمرِ المُدرَكِ بالأبصارِ.

تعيينُ المُخاطَبِ بالرُّؤيةِ:

الخطابُ عامٌّ في كلِّ من تصِحُّ منه الرُّؤيةُ، ويدخلُ سيِّدُ الخَلْقِ دخولًا أوّليًّا

يحتملُ أن يكونَ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 235.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 151.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 341، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 150.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 361.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

ونُكْتَةُ ذلكَ: أنَّ اللّهَ تعالى لمّا ذكرَ الدَّلائلَ، ولم تنفعْهم؛ قطعَ الكلامَ معَهم، والتفتَ إلى غيرِهم؛ إشعارًا بأنَّ فيهم نقيصةً لا يستأهلونَ الخطابَ معها، فلعلّهم يتنبَّهونَ لذلكَ، ويدفعونَ عن أنفسِهم تلكَ النَّقيصةَ[1]، وبذلكَ أيضًا يدفعُ ﷺ عنهُ اغتمامَهُ مِنْ مشاهدةِ عدمِ انتفاعِ المشركينَ بالقرآنِ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ عامًّا لكلِّ مَنْ تتأتّى منهُ الرُّؤيةُ، وفي ذلكَ تفخيمٌ للأمرِ[3]، ببيانِ أنَّهُ قدِ اشتُهِرَ حتَّى صحَّ أنْ يُخاطَبَ بهِ كلُّ أحدٍ، وهذا هو الأَوْلى بالقَبولِ، ويدخل فيه المخاطَب المباشَر ﷺ دخولًا أوّليًّا.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

المحسوسُ المُشاهَدُ يستقِرُّ في الأذهانِ، كقطعيّاتِ الدّليل والبرهان

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ لأنَّ (لم) تقلبُ زمنَ المضارعِ إلى الماضي، فتفيدُ التَّقريرَ بحصولِ الرُّؤيةِ في الماضي، والمعنى: قد رأيتَ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ المحسوسَ المُشاهَدَ لا ينبغي أنْ يُنكرَ، فليس المرادُ تحقُّقَ الرُّؤية في الماضي فحسب، بل المرادُ أن تتقرَّر في الأذهان، أي: أنّها وقعت واستقرّت في أذهان المخاطَبين، حتّى أصبحت أمرًا قطعيًّا لا يقبل الشّكَّ أو الارتيابَ، ومن هنا تأتي فائدةُ الاستفهامِ التّقريريَ أو الإنكاريَ كما سبق تقريرُه.

نُكْتَةُ تخصيصِ الرُّؤيةِ بإخراجِ الثَّمراتِ دونَ الجبالِ:

إخراجُ الثَّمراتِ المختلفةِ النّاشئ عن إنزالِ الماءِ هو موضعُ النَّظر

لمّا كان في إخراجِ الثَّمراتِ المختلفةِ نوعُ خفاءٍ؛ عُلِّقَت بهِ الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾؛ وذلك أنَّ الرّؤيةَ للإنزال ونتيجةِ الإنزال، وهو إخراجُ الثّمرات، بخلافِ أحوالِ الجبالِ والنّاسِ وغيرِهما؛ فإنّها مُشاهَدةٌ غنيَّةٌ عنِ التَّأمُّلِ، ولذلكَ جُرِّدَتْ عنِ التَّعليقِ بالرُّؤيةِ[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 235.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 300.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 646.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 151.

وهذهِ النُّكتةُ مبنيَّةٌ على أنَّ التَّقريرَ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ليسَ بأمرٍ ظاهرٍ معلومٍ كما تقدَّمَ.

نُكْتَةُ التَّوكِيدِ:

الإلـهـابُ والتّهييجُ للنَّظر في المشاهدات الواضحات

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للإلهابِ والتّهييجِ للنَّظرِ في المشاهداتِ الواضحاتِ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ التَّقريرِ والحثِّ على الاعتبارِ؛ إذ هو تقريرٌ بما يعلمُهُ المُخاطَبُ يقيناً.

علَّةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ:

مناسبتُه لمقامِ الاستدلالِ على القدرة

جيءَ بلفظِ الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقامِ الاستدلالِ على القدرةِ؛ لأنَّهُ الاسمُ الجامعُ لمعاني الصِّفاتِ الجليلةِ، ومنها القدرةُ الَّتي لا يُعجِزُها شيءٌ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

أدلّـةُ التّوحيدِ مبثوثةٌ غيرُ خافية، تبلغُها الأنظارُ الدّانية

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ إنزالَ الماءِ مِنَ السَّماءِ وإخراجَ الثَّمراتِ بهِ أمرانِ قد تحقَّقا وثبَتا، وهما معلومانِ محسوسانِ مُشاهَدانِ مُتكرِّرانِ، لا يُنكِرُهما أحدٌ، ولا ينازِعُ في ثبوتِهما، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللّهِ ﷻ، ومقامِ الامتنانِ على عبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ الجليّةِ الواضحة، فالسّياقُ لا يستدِلُّ إلّا بما هو ظاهرٌ للعبادِ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ معرفةَ أدلّةِ الفطرةِ الموجبةِ للتّوحيدِ ظاهرةٌ غيرُ خافيةٍ، وهي قريبةٌ من الأنظارِ الدّانيةِ.

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

اللهُ ذو القدرةِ الباهرةِ والنِّعمِ الغامرةِ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لإفادةِ تقوّي فعلِ الإنزالِ؛ لأنَّ الإنزالَ قد أُسنِدَ إلى لفظِ الجلالةِ، ففي ﴿أَنزَلَ﴾ ضميرٌ يرجعُ إلى لفظِ الجلالةِ، فيفيدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 44، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 301.

الكلامُ نسبةَ الإنزالِ إليهِ تعالى مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قيلَ: اللهُ أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، أنزلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ الابتدائيّة:

ابتداءُ الإنزال مقصودٌ بانتهائه، فهو لغايةٍ مقصودةٍ

﴿مِنَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّ ماءَ المطرِ يتكوَّنُ في طبقاتِ الجوِّ العليا عندَ تصاعدِ البُخارِ الأرضيِّ إليها، ثمَّ ينزلُ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى كمالِ اقتدارِهِ ﷻ على تكوينِ السَّحابِ وإنزالِ المطرِ مِنْ هذا المكانِ المرتفعِ في الوقتِ الَّذي يشاءُ[1]، ويُلحظُ مع حرفِ الابتداءِ معنى الانتهاءِ، أي: أنزله ابتداءً من السّماء وانتهاءً إلى الأرضِ، فهو مقصودٌ في ابتدائه وانتهائه، ففيه دليلٌ على قصديّة الفعل الإلهيّ، وأنّه لم يكن شيءٌ إلّا بأمرِه تعالى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ للعهدِ، والمرادُ: معناها العُرْفيُّ عندَ العربِ، وهو ما يبدو للنّاظرِ كالقُبَّةِ الزَّرقاءِ، وهذا هو المرادُ إذا أُطلِقَ لفظُ السَّماءِ بالإفرادِ دونَ الجمعِ[2].

أغراضُ تقديمِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

السَّماءُ مَصدرُ الخيراتِ ومبدأُ النّظرات

قُدِّمَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءً﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لِما في التَّقديمِ مِنَ العِنايةِ بالمُقدَّم، وهو كونُ نُزولِ المطرِ مِنَ السَّماءِ، وذلكَ أعظمُ في القُدرةِ، وأنسبُ بمقامِ الاستدلالِ عليها، ومقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ، وللتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الماءُ النّازلُ.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿مَآءً﴾:

المطرُ آيةٌ مِن آياتِ القدرةِ الموصلةِ إلى العظيمِ سبحانه

نُكِّرِ لفظُ ﴿مَآءً﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ للنَّوعيَّةِ، والمعنى: أنزلَ مِنَ السَّماءِ نوعًا مِنَ الماءِ، هو ماءُ المطرِ الَّذي لا شيءَ يُشبِهُهُ في مماثلةِ بعضِهِ بعضًا، فلا قدرةَ لغيرِهِ تعالى على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 44.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 331.

تمييزِ شيءٍ منهُ إلى ما يَصلُحُ لشيءٍ دونَ آخرَ[1]، ولا يمنعُ من حملِ التّنكيرِ على التّعظيم، فهو ماءٌ عظيمٌ في مصدرِه، وفي ثمرته، وفي الاستدلالِ به على القدرةِ الإلَهيّة الموصلة إلى الإيمان.

فنُّ الإدماجِ:

تعدُّدُ الأصنافِ معَ اتِّحادِ أصلِ النَّشأةِ مِنْ مظاهرِ القدرةِ

في قوله جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إدماجٌ، وذلكَ أنَّ المقصودَ مِنَ الاعتبارِ هو اختلافُ ألوانِ الأصنافِ مِنَ النَّوعِ الواحدِ؛ كاختلافِ ألوانِ التُّفّاحِ معَ ألوانِ السَّفرجلِ، وألوانِ العنَبِ معَ ألوانِ التّينِ، واختلافِ ألوانِ الأفرادِ مِنَ الصِّنفِ الواحدِ، كاختلافِ ألوانِ التُّمورِ والزَّيتونِ والأعنابِ والتُّفّاحِ والرُّمّانِ، وذِكْرُ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ إدماجٌ في الغرضِ؛ للاعتبارِ بقدرةِ اللّه، معَ ما فيهِ مِن اتِّحادِ أصلِ نشأةِ الأصنافِ والأنواعِ، كقوله ﷻ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الرّعد: 4]، وذلكَ أنسبُ بالاعتبارِ[2]، فهو أدمجَ غرضَ الاعتبارِ والاستدلالِ على القدرةِ مع غرضِ النّظرِ المجرّد، وما أُدمج فهو المقصود في سياقِ الحديثِ عن مظاهر الكون.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

إخراجُ الثَّمراتِ مُسبَّبٌ عن الماءِ، ومنه ماءُ السّماء

قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾، والفاءُ فيهِ للسَّببيَّة، فتُفيدُ تسبُّبَ إخراجِ الثَّمراتِ عن إنزالِ المطرِ مِنَ السَّماء، والفاءُ باعتبارِ بَدءِ الإخراجِ؛ فإنَّهُ لمّا نزلَ المطرُ مِنَ السَّماءِ، وامتزجَ بالتُّرابِ؛ بدأَ الخروجُ عَقيبَهُ، وإنْ كانَ ظهورُهُ في وجهِ الأرضِ بعدَ مدَّةٍ[3]، وليس المقصودُ بالسّببيّة الحصرَ، بل ذِكْر نوعٍ من أنواعِ الأسباب، فالماءُ الخارجُ مِنَ الأرض سببٌ آخر كذلك.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى التّكلُّم:

الانتقالُ من توريثِ المهابةِ إلى توريثِ الامتنان

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 44.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 301.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54.

﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم؛ لأنَّ نونَ العظَمةِ أدعَى لإثارةِ المَهابةِ[1]، ولإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بالإخراجِ؛ لِما فيهِ مِنَ الاختلافِ، معَ اتِّحادِ المادَّةِ الدّالّة على كمالِ القدرةِ والحكمةِ البديعةِ[2]، ولأنَّ نعمةَ الإخراجِ أتمُّ مِنْ نعمةِ الإنزالِ لفائدةِ الإخراجِ، فأُسنِدَ الأتمُّ إلى ذاتِه تعالى بضميرِ المتكلِّم، وما دونَهُ بضميرِ الغائبِ[3]، ولأنَّ المنَّةَ بالإخراجِ أبلغُ مِنْ إنزالِ الماءِ[4]، ويَكثُرُ هذا الالتفاتُ في القرآنِ عندَ ذكرِ الإنباتِ[5].

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

قانونُ السَّببيّة دالٌّ على إرادةِ القديرِ وقدرةِ المُريدِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ للسَّببيَّةِ[6]، أي: فأخرَجْنا بسببِ ذلكَ الماءِ المخلوطِ بالتُّرابِ ثمراتٍ[7]، وفي ذلكَ تنبيهٌ منهُ ﷻ على قانونِ الأسبابِ في المكوَّناتِ، حيثُ جعلَ الماءَ سببًا عاديًّا لخروجِ النَّباتِ، ولو شاءَ سبحانَهُ لأخرجَ الثَّمراتِ دونَ توسُّطِ شيءٍ، ففيه تنبيهٌ على أنَّ الذي جعل الماءَ سببًا في إخراجِ الثّمراتِ، هو القادرُ على هدايةِ البشرِ لإخراجِ ثمراتِ الإحسانِ والعبادة.

غرضُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾:

العنايةُ بالمُقدَّم والتَّشويقُ إلى المُؤخَّر

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم - وهو كونُ الماءِ سببًا في إخراجِ أنواعِ الثَّمراتِ - والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الثَّمراتُ.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ للنَّوعيَّة، والمعنى: فأخرَجْنا بالماءِ أنواعًا

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 437.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 44، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 28.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 226.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 238.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 361، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 398.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54.

مِنَ الثَّمراتِ مُختلِفًا ألوانُها[1]، وهي ثمراتُ النَّخيلِ والأعنابِ وغيرِ ذلكَ[2].

علَّةُ تذكيرِ ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾:

التَّذكيرُ مُقتضَى مقامِ الإيجازِ

﴿مُّخۡتَلِفًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ نعتٌ لـ ﴿ثَمَرَٰتٖ﴾، و﴿أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ فاعلٌ به، ولولا ذلكَ لأُنِّثَ ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾، ولكنَّهُ لمّا أُسنِدَ إلى جمعِ تكسيرٍ غيرِ عاقلٍ - وهو الألوانُ - جازَ تذكيرُهُ[3]، وعبَّرَ بهِ القرآنُ إيثارًا للإيجازِ[4].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الألوانِ:

تعدُّدُ أجناسِ الثَّمراتِ وألوانِها مُرادٌ لفظًا وسياقًا

يحتملُ أنْ يُرادَ بالألوانِ في قوله تعالى: ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ أجناسُها وأصنافُها، على أنَّ كلًّا مِنَ الثَّمراتِ ذو أصنافٍ مختلفةٍ[5]، والألوانُ مجازٌ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إظهارِ القدرةِ القاهرةِ[6]؛ فالَّذي قَدَرَ على تنويعِها وهي مِنْ ماءٍ واحدٍ، لا يُستبعَدُ عليهِ أنْ يجعلَ الدَّلائلَ بالكتابِ وغيرِهِ نورًا لشخصٍ، وعمًى لآخرَ[7]، ويحتملُ أنْ يرادَ بها هيئاتُها مِنَ الصُّفرةِ والخُضرةِ ونحوِهما[8]، فيكون المرادُ بالألوانِ معناها المعروف المُدرَك بالبصرِ[9]، ولا مانع من الجمعِ بينَ المعنى الظّاهر والإيمائيّ، فالأوّل هو ما يقتضيه اللّفظُ، والآخرُ هو ما يقتضيه السّياق الاستدلاليُّ، على تنوّعِ النّاس في الهدى والضّلال.

نُكْتَةُ تقديمِ أحوالِ الثَّمراتِ على أحوالِ الجبالِ:

الثّمراتُ هي الأمثلةُ الأوضحُ على اختلافِ النّاس من تلقّي الوحي

قُدِّمَ الاعتبارُ باختلافِ أحوالِ الثَّمراتِ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 644.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 302.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 226، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 324.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 301.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 44.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(9) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 222.

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ على اختلافِ أحوالِ الجبالِ وغيرِها؛ لأنَّ في اختلافِها سَعَةً تُشبِهُ سَعَةَ اختلافِ النّاسِ في المنافعِ والمداركِ والعقائدِ[1]، ولأنَّ الثَّمراتِ أشرفُ مِنَ الجبالِ[2]، ولأنَّ إنزالَ الماءِ من السّماء هو تمثيلٌ لنزولِ القرآن من السّماء، فهو أوضح بهذا الاعتبارِ مِنَ الإيماءِ إلى اختلاف جواهر النّاس ومعادنهم، كاختلاف جواهر الجبالِ ومعادنِها.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

اختلافُ الألوانِ والبِقاعِ كاختلافِ الثّمرات، إرادةٌ واحدةٌ ونتائجُ مختلفة

تحتملُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أنْ تكونَ للاستئنافِ، كأنَّ قائلًا قالَ: اختلافُ الثَّمراتِ بسببِ اختلافِ البِقاعِ؛ فبعضُ النَّباتاتِ لا تَنْبُتُ في بعضِ البلادِ، كالزَّعفرانِ وغيرِه، فبيّنَ تعالى أنّ اختلافَ البِقاعِ بإرادته، ولذلكَ صارَ بعضُ الجبالِ فيهِ مواضعُ حُمْرٌ، ومواضعُ بيضٌ، والمعنى: وأخرَجْنا بالماءِ ثمراتٍ مختلفةَ الألوانِ، وفي الأشياءِ الكائناتِ مِنَ الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ دالَّةٌ على القُدرةِ، رادَّةٌ على مَنْ يُنكِرُ إرادةَ اللّهِ في اختلافِ ألوانِ الثِّمارِ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها بحسَبِ المعنى[4]، أي: ألم تَعْلَمْ أنَّ مِنَ الجبالِ[5].

بلاغةُ العدولِ مِنَ الفعليّة إلى الاسميَّةِ:

تجدُّدُ نزولِ الماءِ ناسبَهُ الفعليّةُ، وثباتُ الجبالِ ناسبَهُ الاسميّةُ

جاء قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾ جملةً فعليَّةً، وجاء قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ جملة اسميَّةً؛ فاختلف التّعبيرُ في الجملتين، أمّا الفعليّة: فإنَّ إنزالَ الماءِ من السّماءِ متجدِّدٌ في الزّمان والمكان والحال، ولا يوجد له قاعدةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 301.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 236.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 235.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 235.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54.

ثابتةٌ من حيثُ الوقتُ ومكانُ النّزول وكميّة النّزول، بخلافِ الجبالِ؛ فهي ثابتةٌ في مكانِها وألوانِها وحالِها، فناسبَ التّعبيرُ بالاسميّة.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

وجودُ الاختلافِ في الجبلِ الواحد والجبال الكثيرة دليلُ إرادةِ التّعدّد

(مِنْ) في قول الحقِّ جلَّ اسمُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: وبعضُ ترابِ الجبالِ جُدَدٌ، ففي الجبلِ الواحدِ جُدَدٌ مختلفةُ الألوانِ، وبعضُ الجُدَدِ في بعضِ الجبالِ، وبعضُها الآخرُ في بعضِ جبلٍ آخرَ[1]، فالتّبعيضُ ملحوظٌ في الجبالِ، وفي الجبلِ الواحد، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى لم يخلق أُمّةً مهتديةً، ولا أُمّة ضالّة، بل أوجد قابليةَ الهدى والضّلال في الجميع، والإيمانُ قد يكون في بعض أُمّة أو في بعض جُزءٍ من أمّة، وهذا التّمثيل يدعو إلى فهم أنّ الهدايةَ بيد القادر ﷻ، بنواميس كونيّةٍ وسُنَنٍ اجتماعيّة، وأخلاق جِبلّيّة، مَنَّ اللّهُ بها على العبادِ جملةً، فأخذ كلٌّ منهم بقدرٍ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْجِبَالِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلْجِبَالِ﴾ في قوله عزَّ ذكرُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ للعهدِ، والمرادُ الجبالُ المعهودةُ الّتي يشاهدُها النّاسُ في الأرضِ، أو للجنسِ الشّاملِ لأفرادِهِ، فبعضُ أفرادِ جنسِ الجبالِ شأنُهُ كذا وكذا.

توجيه تخصيصِ الجبالِ بالذّكرِ دونَ الأرضِ:

الجبالُ بروزٌ حجريٌّ ثابتٌ، يُناسبُ البروزَ النّباتيّ المتغيّر

ذُكِرَتِ الجبالُ في قوله جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾، ولم تُذكَرِ الأرضُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرّعد: 4]، معَ أنَّ هذا الدَّليلَ مِثْلُ ذلكَ؛ لأنَّهُ لمّا ذُكِرَ في الأوَّلِ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ كانَ إخراجُ الثِّمارِ نفسُه دليلًا على القدرة، ثمَّ زيدَ عليهِ قولُهُ: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾؛ فإنَّ فيهِ دليلًا أيضًا، كذلكَ الأمرُ في الجبالِ نفسِها دليلٌ للقدرةِ والإرادةِ؛ لأنَّ كونَ الجبالِ في بعضِ نواحي الأرضِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 302.

دونَ بعضِها، والاختلافَ الَّذي في هيئةِ الجبلِ انخفاضًا وارتفاعًا؛ كلُّ ذلكَ دليلٌ باهرٌ على القدرةِ والاختيارِ، ثمَّ زيدَ ذلكَ بيانًا، وقيلَ: ﴿جُدَدُۢ بِيضٞ﴾، أي: معَ دلالتِها بنفسِها هي دالَّةٌ باختلافِ ألوانِها أيضًا[1]، وبُروزُ الجبالِ من الأرضِ، تُشبهَ النّباتَ البارزَ من الأرض، لكنَّ بروزها ثابتٌ حجريٌّ، والثّمار بروزُها متغيّرٌ نباتيٌّ، فناسبَ ذِكرُ بُروزَين مع اختلافِ جوهرِ كلٍّ منهما، وأصلُهما نازلٌ من السّماء.

الاهتمام بالخبرِ، والتّشويق للمبتدأ

بلاغةُ تقديمِ المسندِ:

﴿جُدَدُۢ﴾ مبتدأٌ، و﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ خبرُهُ، وتقديمُ الخبرِ للاهتمامِ بهِ؛ إذِ الجبالُ مواطنُ الاعتبارِ والتَّفكُّرِ، وللتَّشويقِ لذكرِ المبتدأِ؛ حثًّا على التَّأمُّلِ والنَّظرِ[2] في آياتِ قدرةِ اللّهِ في هذهِ الرَّواسي.

الدَّعوةُ إلى التّفكُّرِ في جبالِ الأرضِ بعد سمائِها ومائِها

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿جُدَدُۢ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿جُدَدُۢ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ للنَّوعيَّةِ، بدليلِ التَّفصيلِ بعدَهُ، فبعضُها أبيضُ، وبعضُها أحمرُ، وللتَّنكيرِ أغراضٌ؛ منها: الإيماءُ إلى ضرورةِ التّأمل في هذه الجُدَد، ولو عرَّف لكانت معروفةً لدى المُخاطَبين، فتلاشت حينَئِذ الدّعوةُ إلى التّفكُّر فيها، فجاء التّنكير لبناءِ عنصر البحث لدى المخاطَبين، عن أنواعِ وأشكالِ وألوان وأصناف هذه الجبال، وما حوته من الاختلاف في الألوان، وسببُ ذلك الاختلاف، وهذا الخبرُ هو دعوةٌ تفكّريَّة في جبال الأرض، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 191]، فإنَّ التّفكُّر طريقُ النّجاةِ من عذابِ النّار.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الجُدَدِ:

جاء استعمالُ مفردةِ الجُدَدِ دونَ الطُّرُقِ في قوله جلَّ ذكرُهُ:

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 235.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 302.

﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مِنْ غرابتَها أنَّها لا تضمحلُّ ألوانُها على طولِ الأزمانِ، كما هي العادةُ في غالبِ ما يتقادمُ عَهْدُهُ[1]، والجُدَدُ جمع جُدَّة، أي: طريقة ظاهرة، من قولهم: طريق مَجْدود، أي: مسلوكٌ مقطوعٌ[2]، فهي ظاهرةٌ واضحةٌ لمن رام التّفكُّرَ فيها، وهو المناسبُ لذِكْرِ الثّمرات الظّاهرة.

جُدَدُ الجبالِ كثَمَرات الأشجار، ظاهرةٌ للعيانِ واضحةٌ في الأذهان

فنُّ التَّدبيجِ والتَّقسيمِ:

في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ فنُّ التّدبيج، وهو أنْ تُذكَرَ ألوانٌ، يُقصَدُ بها الكنايةُ أو التَّوريةُ عن معانٍ أخرى، مِنْ وصفٍ أو مدحٍ أو هجاءٍ أو غيرِ ذلكَ، وقد أُريدَ بها هنا الكنايةُ عن المُشتبِهِ مِنَ الطُّرُقِ؛ لأنَّ الطَّريقَ البيضاءَ هي الَّتي كَثُرَ السَّيرُ فيها، وهي أوضحُ الطُّرُقِ، لا يخافُ السّائرُ فيها، ودونَها الحمراءُ، ودونَ الحمراءِ السَّوداءُ، فهي في خفائِها والتباسِ معالِمها ضدُّ البيضاءِ في الظُّهورِ والوضوحِ، ولمّا كانَتْ هذهِ الألوانُ الثَّلاثةُ في الظُّهورِ للعينِ طَرَفينِ وواسطةً بينَهما؛ فالطَّرَفُ الأعلى في الظُّهورِ البياضُ، والطَّرَفُ الأدنَى في الخفاءِ السَّوادُ، والأحمرُ بينَهما، وكانَتْ ألوانُ الجبالِ لا تخرجُ في الغالبِ عن هذهِ الألوانِ الثَّلاثةِ؛ جاءتِ الآيةُ الكريمةُ بهذا التَّقسيمِ، فحصلَ فيها التَّدبيجُ معَ صحَّةِ التَّقسيمِ[3].

اختلافُ طُرُقِ السّالكينَ إيماءٌ إلى تباين صفاتِ السّالكين

نُكْتَةُ تقييدِ اختلافِ الألوانِ بالبيضِ والحُمْرِ:

جاء ذِكْرُ قيد ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ بعدَ البيض والحُمْر في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾، دون أن يذكر بعدها كلّها، أي: بعد البيضِ والحُمْرِ والسّودِ؛ وذلك

الإشارةُ إلى تباين درجات البيض والحُمْر بخلافِ السّود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 45.
(2) الرّاغب، المفردات: (جدد).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 151.

لأنَّ الأسودَ ذُكِرَ معَ مُؤكِّدِه، وهو الغرابيبُ، فيكونُ بالغًا غايةَ السَّوادِ، فلا يكونُ فيهِ اختلافٌ[1]، وعليه فيكون الأبيض على درجاتٍ، ومثلُه الأحمر، وقد يصل الأحمرُ إلى درجاتٍ قد يظُنُّها النّاظرُ من بعيدٍ سوادًا، وأمّا السّودُ فالمراد بهِنَّ التّامّ السّواد، وهذه لا تكون إلّا درجةً واحدة، كحالِ الكافرِ الذي عاند وكذّب، فلا يرجع عن كفره؛ لاسودادِ قلبِه.

بلاغةُ التّمثيلِ في اختلافِ الألوان:

المؤمنُ على درجاتٍ، والكافر نوعان منه ما يُرجى إيمانُه، ومنه الميؤوس منه

يومِئ اللّونُ الأبيض مع اختلافِ درجاته إلى المؤمن، ويُبيِّنه قولُه تعالى في هذه السّورةِ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]، واللّونُ الأحمر إلى المنافق والكافر الذي ما زال في دائرة إمكان الاهتداء، واللّونُ الأسود إلى المنافق الكافر، الذي طُبِع على قلبه وخُتِم، ولذلك تنوّعت درجاتُ الأبيض والأحمر، بخلافِ الأسود، فلا سبيلَ إلى إيمانِه.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَغَرَابِيبُ﴾:

تنوُّعُ أصنافِ الجُدَدِ وألوانِها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ للعطفِ، وهو معطوفٌ على ﴿وَحُمۡرٞ﴾ عطفَ ذي لونٍ على ذي لون، أو على ﴿بِيضٞ﴾، أو على ﴿جُدَدُۢ﴾، كأنَّه قيلَ: ومِنَ الجبالِ مُخطَّطٌ ذو جُدَد، ومنها ما هو على لونٍ واحدٍ[2]، وأيًّا ما كانَ ففيهِ تنبيهٌ على تنوُّعِ الجُدَدِ وتعدُّدِها.

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ على ﴿سُودٞ﴾:

زيادةُ توكيدِ شدّةِ السَّواد دليلُ انقطاعِ الرّجاء

الغِربيبُ مُؤكِّدٌ للأسودِ، يقالُ: أسوَدُ غربيبٌ، وهو الَّذي أبعدَ في السَّوادِ، وأغربَ فيه، ومِنْ حقِّ التَّأكيدِ أنْ يتبعَ المُؤكَّدَ، وهنا تقدَّمَ عليه، ووجهُهُ: أنْ يُضمَرَ المُؤكَّدُ قبلَهُ، ويكونُ الَّذي بعدَهُ تفسيرًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 236.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 228.

للمُضمَرِ، كأنَّهُ قيلَ: سودٌ غرابيبُ، ثمَّ أعادَ السّودَ مرَّةً أُخرى، وإنَّما يُفعَلُ ذلكَ لزيادةِ التَّوكيدِ، حيثُ يُدَلُّ على المعنى الواحدِ مِنْ طريقَي الإظهارِ والإضمارِ[1]، ولرعايةِ تلاؤمِ الفواصلِ[2]، وفيه إيماءٌ إلى انقطاعِ الرّجاءِ من إيمانِ بعض الكافرين، فهو ترهيبٌ ووعيدٌ ممّن كان هذا حالُه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 609، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 302.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ الاختلافِ في الثّمرات والجبالِ، إلى اختلافِ النّاس والحيوانات

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة أحوالَ الثّمراتِ وتنوُّعَها، واختلافَ جُدَدِ الجبال وتنوّعَ ألوانِها؛ للإيماءِ إلى اختلافِ حال المؤمنين والكافرين، وأنَّهم على درجات متباينة - ناسبَ أن يذكر في هذه الآيةِ اختلافَ ألوانِ النّاس والدّواب والأنعام، التي هي مختلفةٌ كاختلافِ الثّمرات، ثمّ بيّن أنّ مَن يستجيب لهذه الأدلّة والبراهين هم العلماء الباحثون عن الحقِّ، المُستدلّون بنواميس الكون، وأنّهم الصّنفُ المتميِّز على غيرِهم؛ لأنَّهم الواصلون إلى المقصدِ الذي كان لأجله هذا الاختلاف والتّباين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾: (دبّ) أصلٌ يدلُّ على حركةٍ على الأرضِ أخفَّ مِنَ المَشْيِ[1]، والدّابَّةُ: كلُّ ما دبَّ على الأرضِ[2]، وبعضُهم يخصُّها بالفرسِ[3]، والمرادُ بها في الآية: كلُّ ما يدبُّ على الأرضِ[4].

2) ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: (نعم) أصلٌ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، ومِنْ ذلكَ: النِّعمةُ، وهي ما يُنعِمُ اللّهُ تعالى بهِ على عِبادِهِ مِنْ مالٍ وعيشٍ[5]، والنَّعَمُ: الإبِلُ، لِما فيها مِنَ الخيرِ والنِّعْمةِ[6]، والجمعُ: أنعامٌ، وتُطلَقُ الأنعامُ على الإبلِ والبقرِ والغَنَمِ[7]، وهي المرادةُ هنا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (دبب).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (دبب).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 482.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نعم).

3) ﴿يَخۡشَى﴾: (خشي) أصلٌ يدلُّ على خوفٍ[1]، ومِنْ ذلكَ: الخشيةُ، وهي أشدُّ الخوفِ[2]، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علمٍ بما يُخشَى منهُ[3]، وهو المعنى المرادُ هنا.

4) ﴿عِبَادِهِ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ[4]، ومِنْ ذلكَ: العُبوديَّةُ، وهي إظهارُ التَّذلُّلِ[5]، والعبدُ يقالُ على أضرُبٍ؛ الأوَّلُ: عبدٌ بحُكمِ الشَّرعِ؛ وهو الإنسانُ الَّذي يصِحُّ بيعُهُ وشراؤُهُ مِنَ النّاسِ، الثّاني: عبدٌ بالإيجادِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّهِ، والثّالثُ: عبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمةِ، والنّاسُ في هذا نوعانِ: عبدٌ للّهِ مُخلَصٌ، وعبدٌ للدُّنيا مُعتكِفٌ على خِدْمتِها ومراعاتِها[6].

5) ﴿ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾: (علم) أصلٌ يدلُّ على نقيضِ الجهلِ[7]، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِهِ[8]، والعالِمُ: ضدُّ الجاهلِ، والجمعُ: علماءُ، والمرادُ بالعلماءِ هنا: العلماءُ باللّهِ وبالشَّريعةِ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

انتفاعُ العلماءِ بالدَّلائلِ والبراهين

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن دليلٍ آخرَ مِنْ دلائلِ قدرتِهِ وإرادتِهِ بعدَ دليلِ اختلافِ الثَّمراتِ والجبالِ، فيقولُ: ومِنَ البشرِ وما دبَّ على الأرضِ والأنعامِ خَلْقٌ مُختلِفٌ ألوانُهُ، كاختلافِ ألوانِ الثَّمراتِ والجبالِ، إنَّما يَخشَى اللّهَ حقَّ خشيتِهِ العلماءُ بهِ وبصفاتِهِ وشريعتِهِ، إنَّ اللّهَ غالبٌ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، غَفورٌ لِمَنْ تابَ وأنابَ إليهِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خشي).
(3) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 20.
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(7) الخليل، العين: (علم).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (علم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 304.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

اختلافُ الألوانِ سنَّةٌ كونيَّة في المخلوقاتِ كلِّها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾، فحكمُها حكمُها، مِنْ حيثُ احتمالُ الاستئنافِ والعطفِ على جملةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾[1]، وأيًّا ما كانَ، ففيها تنبيهٌ على دليلٍ آخرَ مِنْ دلائلِ قدرةِ اللّهِ ﷻ، فبعد أن بيّن اختلافَ ألوان الثّمرات، وألوانِ جُدَدَ الجبال، ذَكر اختلافَ ألوانِ النّاس والدّوابّ والأنعام، لبيان أنّ سنّته تعالى في خَلْقه أن يكون هناك تباينٌ ظاهر، دالٌّ على التّباين الباطن؛ فإنَّ اختلافَ الألوان مرتبطٌ باختلافِ الباطن وما يحويه من خصائص.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

ثباتُ الألوانِ لا يُؤثِّر في إصلاحِ السُّلوكِ ولا في تعديلِ الأخلاقِ

جاء التّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قول الباري ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾؛ عن النّاس والدّوابّ والأنعام، متّفقًا مع التّعبير بالاسميّة كذلك في اختلاف ألوان الجُدَد؛ لأنَّ اختلافَ النّاسِ والدَّوابِّ والأنعام في الألوانِ أمرٌ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، وإنَّما يحصلُ مرَّةً واحدةً عندَ الخَلْقِ، وعندَ تولُّدِ النَّسلِ، فعُبِّرَ عنهُ بما يدلُّ على الثَّباتِ والدَّوام[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ هذا الدَّليلَ مِنْ دلائلِ قدرتِهِ ﷻ ثابتٌ مُشاهَدٌ في كلِّ حينٍ، وهو معطوفٌ على مثله، ليحصل التّباينُ في الذّوات، والاتفاقُ في ثباتِ مظهرِها ولونِها، وأنَّ هذا اللّون الثّابت لا يَضرُّ بصاحبه، إذ هو اختيارُ اللّهِ ﷻ، ولذلك جاء التّنبيه على خشيةِ العلماءِ للّه تعالى، لما يعلمونه منَ الحِكَم المبثوثة في الخَلْقِ، فإنَّ ثبات الألوانِ لا يُؤثِّر في إصلاحِ السُّلوك وتعديل الأخلاقِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 362، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 303.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 151، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 303.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

اختلافُ أصنافِ الحيوانِ في الألوان، كاختلافها في الجبالِ

(مِنْ) في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: أنَّ المُختلِفَ ألوانُه بعضٌ مِنَ النّاسِ، ومجموعُ المختلفاتِ كلُّه هو النّاسُ كلُّهم، وكذلكَ الدَّوابُّ والأنعامُ، وهو نظمٌ دقيق دعا إليه الإيجاز[1]، فمعنى الكلام: أنَّ النّاسَ أبعاضٌ، وكلَّ بعضٍ منهم له لونٌ يختلف في أصله عن بقيّة الأبعاض، وله درجة يختلفُ عن بقية درجات البعض الواحد، وحمل (مِنْ) على التّبعيض مأخوذٌ من كلام الزّمخشريّ: "ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه"[2]، كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾، لكن جاء النَّظم هنا موجَزًا غيرَ مفصَّلٍ كما جاء في الجبال.

معنى التَّعريفِ:

الاختلافُ عامٌّ في جنسِ النّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الألفاظِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ للجنسِ المفيدِ للعموم؛ فمقامُ الاستدلالِ على قدرةِ اللهِ يقتضي التَّعميمَ في المذكوراتِ؛ لِما يُؤذِنُ به مِنْ شيوعِ الاختلافِ واشتهارِه، والمرادُ العمومُ من حيثُ مجموعُ كلِّ جنسٍ، فيشمل جميعَ الأفرادِ بقطعِ النّظر عن لون كلِّ بعضٍ منها.

نُكْتَةُ تقديم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

المسارعةُ إلى مواطنِ الاعتبارِ دَأْبُ العقلاءِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾؛ للاهتمام به؛ إذِ النّاسُ والدَّوابُّ والأنعامُ مواطنُ للاعتبارِ والتَّفكُّرِ، فحقُّها التَّقديمُ في الذِّكرِ، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ؛ حثًّا على التَّأمُّلِ والنَّظرِ، ولتسويغِ الابتداءِ بالنَّكرةِ[3]، ولأنَّ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وما عُطِفَ عليهِ نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تأخيرُهُ بانتظامِ الكلامِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 303.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 7/ 151.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 303.

تفضيلُ جنسِ الإنسانِ على سائرِ جنسِ الحيوان

نُكْتَةُ عطفِ ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

لفظُ ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ يشملُ بمعناهُ اللُّغويِّ الإنسانَ وغيرَهُ، وفي عطفِهِ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ - وهو مِنْ عطفِ العامِّ على الخاصِّ من حيثُ اللّغة - إشارةٌ إلى شرفِ جنسِ الإنسانِ وفضلِهِ[1]، وإذا حُمِل لفظُ الدّوابّ على المعنى العرفيّ، فالعطف على بابِه، فيكون الدّوابّ لما شاع استعمالُه العرفيّ في الخيل والبغال والحمير، فهو بهذا الاعتبارِ جنسٌ مختلفٌ عن جنسِ الدَّوابِّ، وفي ذلكَ تنبيهٌ لهذا المُفضَّلِ على غيرِهِ إلى ضرورةِ التَّفكُّرِ في خلقِهِ؛ ليُتَفطَّنَ لِما فيهِ مِنْ دلائلِ قدرةِ اللّهِ تعالى وإرادتِهِ، فلا يصرفَ العبادةَ لغيرِ مُستحِقِّها.

عطفُ المنافعِ الضّروريّةِ على المنافعِ الحاجيّةِ

نُكْتَةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾:

لفظُ ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ من حيثُ اللّغةُ يشملُ الأنعامَ، وفي عطفِها عليهِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، وتخصيصِها مِنْ بينِ الدَّوابِّ بالذِّكرِ - وهو مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ - تنويهٌ بشأنِها[2]؛ وإذا جعلنا الدّوابّ من حيثُ العُرفُ لما يُرْكَب؛ فلها منافع خاصّةٌ، وهي قريبةٌ مِنَ النّاسِ، ولذلك قيلَ: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ ليعمَّ الكلامُ الكلَّ صريحًا[3]، فيكون الكلامُ من باب التّقسيم؛ فعَطَف على النّاس مركوباتِهم، وعطف على المركوبات الأنعامَ التي ينتفعون منها في مأكلهم ومشربهم وملبسهم.

الأشرفُ جنسًا والأبهى لونًا أحقُّ بالتَّقديمِ في الذِّكرِ

سرُّ ترتيبِ المذكوراتِ:

لمّا ذَكرَ تعالى شأنُهُ أصنافَ الحيوانِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ بدأَ بالأشرفِ منها، وهو الإنسانُ، ثمَّ ذكرَ الدَّوابَّ؛ لأنَّ منافعَها في حياتِها تتمثّل في الرّكوب والنّقل والحراثة،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 437.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 437.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 47، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 325.

والأنعامَ منفعتُها في المشرب والملبس والمأكل، فجاء التّرتيبُ في ذِكرِ النّاس باعتبارِهم هم المقصودين في الكلام، ثمّ الدّوابِّ لأنَّها أظهرُ الدّوابِّ في الألوان، ويحرص الإنسانُ على اقتناءِ الأجملِ لونًا منها، ثمّ الأنعامِ التي هي دونَ الدّواب في اهتمام الإنسان بلونِها، فقدَّم لا باعتبار أهميّةِ المنافع، بل باعتبارِ الأبرزِ في التّفضيل في الألوان، فقد يتغاضى الإنسانُ عن لون الأنعامِ ما لا يتغاضى عن لون الخيل، وقد يتغاضى عن لون الخيلِ ما لا يتغاضى عن لون الزوجة، فبهذا الاعتبار كان التّقديم والتّرتيب.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

تقديرُ المحذوفِ مُنتزَعٌ من سباقِ الكلامِ ولحاقِه

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وذلكَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ قبلَه محذوفٌ، إليه يعودُ الضَّميرُ، تقديرُه: (والأَنْعام - خلق - مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ) وهذا تقدير ابنِ عطيّة[1]، وإنَّما حُذِفَ لدلالةِ السّياقِ عليهِ، والنَّظم بُنيَ على الإيجازِ إذا دلَّ الكلامُ على المرادِ، وقدَّرَه الزّمخشريُّ: "ومنهم بعضٌ مختلفٌ ألوانُه"[2]، وتقديرُ الزّمخشريّ مأخوذٌ من السِّباق، من دلالة حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وتقديرُ ابن عطيّة مأخوذٌ من اللّحاق، وذلك ليصِحّ عودُ الضّمير، لأنّه قال: ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ لا ألوانها، وهذا من بديع التّقدير وتنوّعِه المُنتزعِ من سياق الكلام بسباقِه ولحاقه.

نُكْتَةُ تذكيرِ ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾:

الـتّـذكـير أنـسبُ بسياقِ المذكورين

ذُكِّرَ لفظُ: ﴿مُخۡتَلِفٌ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ مِنْ جملةِ المذكورينَ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، والتَّذكيرُ أنسبُ بهِ؛ لكونِه عاقلًا، ولأنَّ التَّذكيرَ أعلى وأولى[3]، ولأنَّ الكلامَ عائدٌ على محذوفٍ مذكّر.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 437.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 7/ 151.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 236.

إلحاق الواضحات بالواضحات، إرغامٌ لأنوف المكذّبين وكبر المُعاندين

بلاغةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لِما سبقَ ذكرُه مِن اختلافِ الثَّمراتِ والجبالِ[1]، أي: اختلفت ألوانُ النّاس والدّوابّ والأنعام مثلُ اختلافِ ألوانِ الثّمرات وجُدَدِ الجبالِ، وقدِ استُعمِل اسمُ الإشارةِ للبعيدِ؛ لتفخيمِ شأنِهِ وتعظيمِهِ؛ لِما في تلكَ المذكوراتِ مِنَ الدّلالةِ على باهرِ قدرةِ اللهِ تعالى وإرادتِهِ، معَ كونِها في غايةِ الظُّهورِ، بحيثُ لا تَخفَى على أحدٍ، أي: اختلافًا بيِّنًا مثلَ ذلك الاختلاف السّابق في وضوحه وبيانه ومقصود ذكره.

تنوُّعُ بيانِ متعلِّقاتِ القيودِ، دلالةٌ على اتِّساعِ المعنى المطلوب

تعيينُ تعلُّقِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من عدمِهِ:

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُتعلِّقٌ بما قبلَهُ، أي: مختلفٌ اختلافًا مِثْلَ الاختلافِ في الثَّمراتِ والجُدَدِ[2]، ويحتملُ أنَّهُ مُتعلِّقٌ بما بعدَهُ، والمعنى: مِثلُ ذلكَ المطرِ والاعتبارِ في مخلوقاتِ اللهِ تعالى واختلافِ ألوانِها، يَخشَى اللهَ العلماءُ[3]، ويَرِدُ عليهِ أنَّ ما بعدَ ﴿إِنَّمَا﴾ مانعٌ مِنَ العملِ فيما قبلَها[4]، ويرى ابن عاشور أنْ يكونَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ابتداءَ كلامٍ، يُنزَّلُ منزلةَ الإخبارِ بالنَّتيجةِ عَقِبَ ذِكْرِ الدَّليلِ، والمعنى: كذلكَ أمرُ الاختلافِ المُشاهَدِ في اختلافِ ألوانِ المخلوقاتِ، وهو توطئةٌ لذِكْرِ العلماءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، أي: إنّما يَخشَى اللهَ مِنَ البشرِ المختلفةِ ألوانُهم العلماءُ منهُم، وأوثِرَ هذا الأسلوبُ في الدّلالةِ تخلّصًا؛ للتّنويه بأهل العلم والإيمان، لينتقل إلى تفصيل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، وأسلوب ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من فصل الخطاب؛ لذلك يحسُنُ الوقفُ على ما قبلَه ويستأنف ما

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 610.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 437.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 437.

(4) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 231.

بعده، وأمّا جَعْلُ ﴿كَذَٰلِكَۗ﴾ من توابع الكلام السّابق فلا يناسب نظمَ القرآن لضَعْفِه(1).

بلاغةُ الاستئناف بجملةِ القصر:

العِلْمُ بالله رأسُ الخشيةُ منه

إذا اعتبرنا أنَّ ﴿كَذَٰلِكَۗ﴾ ابتداء كلام؛ فجملة ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ مستأنفة عن جملةٍ ﴿كَذَٰلِكَۗ﴾، وإذا عُلِمَ ذلك دلَّ بالالتزام على أنّ غير العلماء لا تتأتّى منهم خشيةُ اللّهِ، فدلَّ على أنَّ البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم مختلفون(2)، ولمّا كانَ شرطُ الخشيةِ معرفةَ المخشيِّ، والعِلْمَ بصفاتِه وأفعالِه، فمَنْ كانَ أعلمَ بِه كانَ أخشَى منهُ؛ جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، بعدَ ذِكْرِ أفعالِه تعالى الدّالَّةِ على كمالِ قدرتِه(3)؛ للدّلالةِ على أنَّ العلماءَ قد عرفوهُ ﷻ، وعَلِموا بصفاتِهِ وأفعالِه، وهو أيضًا تكملةٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: 18] بتعيينِ مَنْ يخشاهُ ﷻ مِنَ النّاسِ، بعدَ بيانِ اختلافِ مراتبِهم(4).

بلاغةُ القَصْرِ:

الخشيةُ منَ الله رأسُ استزادةِ العِلْم بالله

القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ، أي: قصرُ الخشيةِ على العلماءِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: لا يخشاهُ الجُهّالُ، وهم أهلُ الشِّركِ، فالمؤمنونَ يومئذٍ هم العلماءُ، والمشركونَ جاهلونَ، نُفيَتْ عنهُم خشيةُ اللّهِ(5)، والخشيةُ هي خصيصةُ العلماءِ، فمن علِمَ خشيَ اللّه تعالى، ومن خشيَ منَ اللّه تعالى استزادَ منَ العِلْمِ باللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 304.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 304.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 610.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 151.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 304.

تشريفُ العلماءِ والتّعريضُ بالمشركين

غرضُ استعمال أداة ﴿إِنَّمَا﴾ في القصر:

اختيرَت أداةُ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾؛ لأنَّ الحُكمَ الَّذي تُستعمَلُ فيه ممّا مِنْ شأنِه ألّا يجهلَهُ المُخاطَبُ ولا يُنكِرَهُ[1]، فتفيدُ هنا أنَّ قَصْرَ الخشيةِ على العلماءِ أمرٌ معلومٌ، لا يجهلُهُ أحدٌ، ولأنَّ أحسنَ مواقعِ (إنّما) التَّعريضُ[2]، وفيها هنا تعريضٌ بأنَّ المشركينَ جُهَلاءُ باللّهِ وبصفاتِهِ، ولذلكَ لا يَخْشَوْنَ اللّهَ، ولا يخافونَ عقابَهُ[3].

العلماءُ أخشى النّاس لمزيدِ علمهم باللهِ

بلاغةُ استعمالِ مفردة الخشيةِ:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ الخشيةِ دونَ الخوفِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾؛ لأنَّها أبلغُ؛ فهي أشدُّ الخوفِ، إذ تدلُّ على فَرْطِ خوفِ العلماءِ مِنَ اللّهِ تعالى، ولأنَّها تُطلَقُ حينَ يُرادُ التَّنبيهُ على العِلْمِ بما يُخشَى منهُ، فيكونُ في التَّعبيرِ بها مدحٌ للعلماءِ بأنَّهم يعبدونَ اللّهَ ويخشونَهُ عن عِلْمٍ وهدًى، مع مناسبتها للسّياق، فالخشية تُستعمل في غالب الاستعمال القرآنيّ في تفاصيل المعلوم، وهو المناسِبُ لذِكْرِ العلماءِ.

العِلْمُ الذي لا يزيد ينقص، والخشيةُ التي لا تقوى تتلاشَى

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ خشيةَ العلماءِ للّهِ ﷻ مُتجدِّدةٌ مُستمِرَّةٌ، كما هو شأنُ العلماءِ العاملينَ العارفينَ بقَدْرِ مَنْ يخشونَهُ، وهم يُجدِّدونَ الخشيةَ كلَّما أبصروا دليلًا مِنْ دلائلِ قدرتِهِ تعالى، ولمّا كان السّياق في ذكرِ الأدلّة الدّالّة على كمال قدرته تعالى، الموصلة إلى اليقين بالتّوحيد المُسْتَحَقِّ للّه تعالى دونَ سواه، ناسبَ التّعبيرُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 58.

(2) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 345.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 648.

بالمضارعِ مزيدًا في مدح العلماء، فعِلْمُهم لا يتوقّف، بل يزداد في العبادةِ الفكريّة والقلبيّة والسّلوكيّة، والعِلْمُ الذي لا يزيد ينقص، والخشيةُ التي لا تقوى تتلاشى.

مناسبةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ:

ذو العظَمةِ والجلالِ مُستحِقٌّ للخشيةِ الكاملة

جاء التّعبيرُ بلفظ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾؛ لمناسبتِه مقامَ الخشيةِ، مِنْ حيثُ إنَّ هذا اللَّفظَ مُنبئٌ عن صفاتِ الجلالِ الَّتي تُثيرُ المَهابةَ والوَجَلَ في القلوب، لا سيَّما وقد تقدَّمَ ذكرُ اختلافِ المخلوقاتِ، الَّذي لا يقدرُ عليه إلّا المُتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ، ومنها القدرةُ التّامَّةُ، والإرادةُ البالغةُ، وهو المناسبُ للسّياق الكليِّ، إذ ذِكْرُ عنوانِ الأُلوهيّةِ هو ذكرٌ للمقصودِ بعد ذِكْرِ الوسائل، فإنَّ غاية المعرفة توحيدُ اللّه تعالى وإجلالُه دونَ سواه.

نُكْتَةُ تقديم لفظِ الجلالةِ:

أهلُ الخشيةِ العلماءُ العارفون بالله دونَ غيرِهم

قُدِّمَ لفظُ الجلالةِ على العلماءِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾، معَ أنَّ الأصلَ تقديمُ الفاعلِ على المفعول؛ لأنَّ المرادَ حصرُ الفاعليَّةِ، والمعنى: الَّذينَ يخشونَ اللّهَ مِنْ بينِ عبادِه هم العلماءُ دونَ غيرِهم[1]؛ لأنَّ المقصورَ عليهِ في ﴿إِنَّمَا﴾ هو المُؤَخَّرُ[2]، ولو أُخِّرَ لفظُ الجلالة لكانَ الحصرُ في المفعوليَّةِ، وكان المعنى: العلماءُ لا يخشونَ إلّا اللّهَ[3]، وهو معنى صحيحٌ في نفسِه، لكنَّهُ غيرُ مرادٍ هنا؛ لأنَّ المقامَ لبيانِ الخاشينَ، والإخبارِ بأنَّهم العلماءُ خاصَّةً دونَ غيرِهم، لا لبيانِ المخشيِّ[4].

نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 611، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 648، والتّفتازانيّ، المختصر، ص: 348.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 611.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 648.

للبيانِ، والمعنى: إنّما يخشى اللّهَ عبادُه العلماء، أو للتَّبعيضِ، والمعنى: إنّما يخشى اللّهَ من النّاس العلماء.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ العبادِ مضافًا:

مقتضى توحيدِ الرُّبوبيّة التّسليمُ لمقتضيات توحيد الألوهيّة

أُضيفَ لفظُ العبادِ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ كلَّ مَنْ سواهُ تعالى في قبضتِه، وتحتَ قَهْرِه[1]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى علَّةِ الخشيةِ، وأنَّ الواجبَ على جميعِ العبادِ الخشيةُ منهُ سبحانَهُ؛ لأنَّهم مملوكونَ ومربوبونَ لهُ، فأول علّةٍ جعلت العلماءَ يخشون اللّه تعالى حقَّ الخشية، معرفتُهم بأنَّهم عبادٌ للّه تعالى، ومقتضى توحيد الرّبوبيّة التّسليم بمقتضيات توحيدِ الألوهيّة.

نُكْتَةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾:

العلمُ باللهِ هو الموصِلُ لمقامِ الخشية قلَّ أو عظُم

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ العلماءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ للجنسِ، والمرادُ: العلماءُ بهِ تعالى وبصفاتِهِ وشريعتِه، العاملونَ بعلمِهم، وكأنَّ ما سواهم ليسَ بعالم، فالعِلْمُ الحقيقيُّ هو العِلمُ بالشَّرعِ المورِثُ للخشيةِ[2]، وأمّا العلماءُ بعلومٍ لا تتعلَّقُ بمعرفةِ اللّهِ وثوابِهِ وعقابِهِ فليسَتْ علومُهم بمُقرِّبَةٍ لهُم مِنْ خشيةِ اللّه؛ لأنَّ العالمَ بالشَّريعةِ لا تلتبسُ عليهِ حقائقُ الأسماءِ الشَّرعيَّةِ، فهو يفهمُ مواقعَها حقَّ الفهم، ويرعاها في مواقعِها، ويعلمُ عواقبَها مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، وغيرُ العالم إنِ اهتدَى بالعلماءِ فسَعْيُهُ مِثْلُ سَعْيِ العلماءِ، وخشيتُهُ مُتولِّدةٌ عن خشيتِهم[3].

نُكْتَةُ جملة التّعليل:

مَنْ عزَّ فغفرَ وجبَتْ خشيتُهُ

قولُ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ منهُ ﷻ؛ لدلالتِهِ على أنَّهُ مُعاقِبٌ للمُصرِّ على طغيانِهِ، غفورٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 48.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 304.

للتّائبِ عن ظُلمِهِ وعصيانِهِ[1]؛ فكونُهُ عزيزًا ذا انتقامٍ يوجبُ الخوفَ التّامَّ، وكونُهُ غفورًا لِما دونَ ذلكَ يوجبُ الرَّجاءَ البالِغَ[2]، فالختامُ بهذينِ الوصفينِ يناسبُ ابتداءَ الكلامِ[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ تكميلًا للدَّلالةِ على استغناءِ اللّهِ تعالى عن إيمانِ المشركينَ، ولكنَّهُ يريدُ لهم الخيرَ[4].

دلالةُ التَّأكيدِ:

اللهُ تعالى أهلٌ لأنْ يُخشَى وأهلٌ لأن يُعبد

أُكِّدَ قولُ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ مضمونِه، وأنَّه أمرٌ ثابتٌ مُنخرِطٌ في سِلْكِ الحقائقِ اليقينيَّةِ، وأنَّه ﷻ لا يَعسُرُ عليهِ شيءٌ، وهو أهلٌ لأنْ يُخشَى[5]، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في مقامِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ فالتّأكيد تأكيدٌ للحقائقِ للاستزادةِ منها عند أهلِ الطّاعة، وتحصيلها عند غيرهم.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الخشية لا تدعو إلى الرُّكون والكسل، بل إلى مزيدِ العمل

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (إنَّهُ عزيزٌ غفورٌ) بالإضمارِ؛ لتقدُّمِ ذِكرِ لفظِ الجلالة، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾؛ لتأكيدِ ثبوتِ الصِّفتينِ؛ فلفظُ الجلالةِ دالٌّ على جميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ[6]، ولتكون الجملةُ مستقلّةً بمقصودِها، فالأولى بيانٌ لاستحقاقِه الخشية، وهنا للجمعِ بين التّرغيب والتّرهيب، ففيها معنى الاحتراس أن يُظن أنَّ الخشية تدعو للرُّكون والكسل، بل تدعو إلى مزيدِ العمل، ولتأكيدِ استقلالِ الجملةِ بحيثُ تَصلُحُ لأنْ تجريَ مَجْرَى الأمثالِ السّائرةِ.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 151.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 236.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 60.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 305.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49.

التَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

نُكْتَةُ تقديمِ صفةِ العزيزِ على الغفور:

لمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿عَزِيزٌ﴾ مُرهِّبًا مِنْ سطوتِهِ، موجبًا لخشيتِهِ؛ لإفهامِهِ أنَّهُ لا يرحمُ الَّذينَ لا يخشونَهُ؛ رغَّبَهم بقولِهِ: ﴿غَفُورٌ﴾ في أنَّهُ يمحو ذنوبَ مَنْ يتوبُ إليهِ منهُم[1]، فأفادَ الكلامُ التَّنبيهَ على فَرْطِ رحمتِهِ ﷻ ولُطْفِهِ بعبادِهِ، ففيها احتراسٌ عن أن يُظَنَّ أنّ العِزّة مانعةٌ من الإقبالِ لطلبِ المغفرة، مع ما في تأخيرِ ﴿غَفُورٌ﴾ من مراعاةٍ لتلاؤمِ الفواصلِ.

اختصاصُ الله بالعزّة الحقيقيّة ومغفرةِ الذُّنوبِ البشريّة

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ:

جيءَ بصيغةِ المبالغةِ في قوله تعالى ذكرُهُ: ﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾؛ لزيادةِ التَّرغيبِ في الإيمانِ والطّاعةِ، والتَّرهيبِ مِنَ الكفرِ والعصيانِ، والحثِّ على خشيتِهِ ﷻ؛ إقامةً للحُجَّةِ على العبادِ، فكما أنَّه المخشيّ دون سواه عند العلماءِ، فهو كذلك العزيز دون سواه، والغفور دون سواه، في تحقُّقِ معاني العزّة والمغفرة الحقيقيّة، فلا عزّة إلّا لله، ولا يغفر أحدٌ الذّنب إلّا هو.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 305.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانـتـقـالُ من إجمالِ الخشيةِ إلى بيانِ تفاصيلِ أهلِها

لمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقة تباينَ المخلوقات في ألوانِها، واختلافَ النّاسِ في خشية للّه تعالى في العِلْم والعمل والعبادة، ناسبَ الانتقالُ إلى بيان حقيقةِ هذه الخشية، وشرحِ مضمونها بشكلٍ وافٍ، ولفظٍ واضح، فبيَّن صفاتِهم بأنَّهم الذين يتلون القرآنَ، ويُقيمون الصّلاةَ، وينفقون من رزقِ اللّه تعالى، فهم جامعون للخيرِ كلِّه، حريصون على الرّضوان جميعِه، وهذه هي الخشية التي مُدِحوا بها، واستحقّوا الثّناءَ البالغَ عليها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تِجَٰرَةٗ﴾: (تجر) أصلٌ يدلُّ على التَّصرُّفِ في المالِ بيعًا وشراءً طلبًا للرِّبح[1]، والتّاجرُ: هو الَّذي يبيعُ ويشتري[2]، وتُستعارُ التِّجارةُ للحِذْقِ في الشَّيءِ، فيقالُ: فلانٌ تاجرٌ في كذا، أي: حاذقٌ فيهِ[3]، والمرادُ بها هنا: طلبُ الثَّوابِ بالطّاعةِ[4].

2) ﴿تَبُورَ﴾: (بور) أصلٌ يدلُّ على هلاكِ الشَّيءِ وما يُشبِهُهُ مِنْ تعطُّلِهِ وخُلوِّهِ[5]، والبَوارُ أيضًا: الكسادُ[6]، يقالُ: سوقٌ بائرةٌ، أي:

---

(1) الرّاغب، المفردات: (تجر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 10/ 278.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (تجر).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 611، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 127.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بور).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بور).

كاسدةٌ، وبارَتِ البياعاتُ، أي: كَسَدَتْ[1]، والمرادُ بعدمِ البَوارِ هنا: عدمُ الكسادِ، أو عدمُ الهلاكِ[2].

3) ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾: (وفي) أصلٌ يدلُّ على إكمالٍ وإتمام[3]، يقالُ: وفَى ووَفَّى وأوفَى[4]، والوافي: هو الَّذي بلغَ التَّمامَ[5]، والتَّوفيةُ: تتميمُ الشَّيءِ[6]، وجعلُهُ وافيًا، أي: تامًّا، لا نقصَ فيه ولا غَبْنَ، وهو المرادُ هنا[7].

4) ﴿أُجُورَهُمْ﴾: الأجرُ: ما يعودُ مِنْ ثوابِ العملِ دنيويًّا كانَ أو أُخرويًّا، ويقالُ في عقدٍ وما يَجري مَجْرَى العقدِ، ويقالُ في نفعٍ دونَ ضَرٍّ[8]، والمرادُ بالأجورِ هنا: ثوابُ الأعمالِ[9].

5) ﴿شَكُورٌ﴾: (شكر) أصلٌ يدلُّ على الثَّناءِ على الإنسانِ بمعروفٍ أدّاهُ لغيرِهِ[10]، والشُّكرُ ثلاثةُ أنواعٍ: شكرُ القلبِ، وهو تصوُّرُ النِّعمةِ، وشكرُ اللِّسانِ، وهو الثَّناءُ على المُنعِمِ، وشكرُ سائرِ الجوارحِ، وهو مكافأةُ النِّعمةِ بقدرِ استحقاقِ المُنعِمِ، وإذا وُصِفَ اللّهُ بالشُّكرِ فإنَّما يُعنَى بذلكَ إنعامُهُ على عبادِهِ، وجزاؤُهُ لهُم على عبادتِهم[11]، وهو المرادُ هنا.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

أهـلُ الخشيةِ عُقْباهم جنّاتُ النّعيم

تُبيِّنُ الآيتانِ الكريمتانِ صفاتِ العلماءِ والمؤمنينَ الَّذينَ يخشونَ اللّهَ، وتذكرُ مآلَهم، فهم الَّذينَ يقرؤونَ القرآنَ، ويحافظونَ على

---

(1) الخليل، العين: 8/ 285.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفي).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وفي).
(5) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (وفي).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وفي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أجر).
(9) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 87.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(11) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شكر).

الصَّلواتِ وأوقاتِها وأركانِها وشرائطِها، ويصدَّقون بما رزقهم اللّه تعالى من واسع فضله، مِنَ الأموالِ في الخفاءِ والعلانيةِ، وفي جميعِ الأحوالِ؛ يرجونَ بذلكَ تجارةً لن تكسدَ، ليُثيبَهُم اللّهُ تعالى على ذلكَ أتمَّ الثَّوابِ، ويزيدَ حسناتِهم تفضُّلًا منهُ، إنَّهُ غفورٌ لِما فَرَطَ منهُم مِنَ السَّيِّئاتِ، شَكورٌ لحسناتِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

استئنافٌ لبيان ما قبلَها

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ لبيانِ جملةِ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾، فكأنَّهُ قيلَ: هم الَّذينَ يحافظونَ على كتابِ اللّهِ عِلْمًا وعملًا[1].

غرضُ التَّوكيدِ:

تنبيهُ المتهاونين والتّنويه بالتّالين

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ المحافظةِ على تلاوةِ القرآنِ الكريمِ، وأنَّها عندَ اللّهِ تعالى بمكانٍ عظيمٍ، وللرَّدِّ على مَنْ يظنُّ مِنَ الكفّارِ وغيرِهم مِنَ العُصاةِ أنَّ التّالينَ كتابَ اللّهِ مِنَ الخاسرينَ بما ضيَّعوا مِنْ عاجلِ دنياهم[2]، وهي كذلك تنبيهٌ وتحذيرٌ لمن يرى أنَّ تلاوة القرآنِ ليس بالشّيءِ العظيمِ، فبيّنَت الآيةُ أنَّ تلاوةَ القرآن الكريم من أسباب الفوزِ بالدّارين، والنّجاة عند حسابِ الثّقلَين.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

تلاوةُ القرآنِ برهانُ الخشيةِ والإيمانِ

جاء التّعبير بالاسم الموصولِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ العلماءَ والمؤمنينَ قد اشتُهروا بتلاوةِ القرآنِ، وعُرِفوا بها[3]، وهو أيضًا كنايةٌ عن إيمانِهم؛ لأنَّهُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 305.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 365.

لا يتلو القرآنَ إلّا مَنْ آمنَ بهِ، وتلقّاهُ بعنايةٍ[1]، وهو تعليلٌ لما نالوه من الشّرفِ المرومِ، والمكانة العليّة، فإنَّ تلاوة القرآنِ جاءت صلةً للموصول؛ لتعليلِ سببِ الكرامة التي نالوها، والمكانة التي حَظوا بها، وهو ما يُؤكِّد موقعَ التّلاوة من بيان معنى الخشية.

فائدةُ التّعبير بصيغةِ المضارع:

دَيْدَنُ العلماءِ تلاوةُ القرآنِ، وديدنُ غيرِهم التّشاغلُ عنه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّهم يداومونَ على قراءةِ كتابِ اللّهِ، وهي شأنُهم ودَيْدَنُهم على الاستمرارِ[2]، كلَّما نزلَ مِنَ القرآنِ شيءٌ، وبعدَ كمالِ نزولِ القرآنِ[3]، ويساعدُهُ مقامُ المدحِ، نحوُ قولِهم: فلانٌ يَقْري الضَّيفَ، ويَحْمي الحريمَ[4]، فالمرادُ أنَّهُ يفعلُ ذلكَ على الاستمرارِ، وفي ذلكَ حثٌّ للمؤمنينَ على الإكثارِ مِنْ تلاوتِهِ، وعدمِ التَّقصيرِ فيها، وعلى القولِ بحملِ التِّلاوةِ على اتِّباعِ القرآنِ والعملِ بما فيهِ؛ يفيدُ الكلامُ أنَّهم يعملونَ بكتابِ اللّهِ، ويقفونَ عندَ حدودِهِ على الاستمرارِ؛ لأنَّ التِّلاوةَ دونَ عملٍ ليسَ فيها كبيرُ نفعٍ[5]، والعمل بالقرآن لازم التّلاوةِ، وتالي الخشيةِ والمهابة.

دلالةُ إضافةِ القرآنِ للفظ الجلالةِ:

تعظيمُ المضافِ إلى العظيمِ، وتعيين المراد

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بكتابِ اللّهِ القرآنُ[6]، والإضافةُ للعهدِ، وقد عُدِلَ عنِ اسمِهِ العلَمِ إلى اسمِ الجنسِ المضافِ لاسمِ الجَلالةِ؛ لِما في إضافتِهِ إليهِ تعالى مِنْ تعظيمِ شأنِهِ[7]، وجوِّزَ أن يكونَ المرادُ بهِ جنسَ الكتبِ الإلَهيَّةِ، فيكونُ ثناءً على المُصدِّقينَ مِنَ الأممِ جميعًا[8]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 305.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 611.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 651.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 365.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.

فيدخلُ فيهم أمَّةُ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ دخولًا أوَّليًّا[1]، ويَرِدُ على هذا القولِ أنَّ صيغةَ المضارعِ تُنادي باستمرارِ مشروعيَّةِ تلاوتِهِ والعملِ بما فيهِ، واستتباعِهما لِما سيأتي مِنْ توفيةِ الأجورِ، وزيادةِ الفضلِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للقرآنِ النّاسخِ لِما بينَ يديهِ مِنَ الكتبِ[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

تـوريـثُ المهابة والـجـلالـةِ والرّغبة والرّهبة

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قوله ﷻ: ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ[3]، وفي ذلكَ تعظيمٌ للكتابِ المضافِ إليهِ؛ إذ كتابُ ذي العظَمةِ والجلالِ عظيمٌ، وتعظيمٌ لتالي هذا الكتابِ الكريمِ، وتنبيهٌ على أنَّهُ لا ينبغي لهُ أنْ يُقبِلَ على غيرِهِ، فهو يورِّث المهابةَ في قلوبِ التّالين له، والجلالَ في عقول المتفكّرين فيه، والرّغبةَ في أفئدة العاملين بمقتضاه، والرّهبةَ في صدور المخالفين لأوامره ونواهيه.

مناسبة عطف إقامة الصّلاة على التّلاوة:

أبـدانُ أهـل القرآنِ مشغولةٌ بطاعةِ الرّحمن

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، فيكونُ داخلًا معَهُ في حيِّزِ الصِّلةِ، ونُكْتَةُ هذا العطفِ: أنَّهُ أتبعَ ما هو علامةُ قبولِ الإيمانِ والعِلْمِ بِهِ تعالى بعلامةٍ أخرى، وهي إقامةُ الصَّلاةِ؛ فهي أعظمُ الأعمالِ البَدَنيَّةِ[4]، وأنَّهُ جعلَ لفعلِ القلبِ الَّذي هو الخشيةُ دليلًا باللِّسانِ، ودليلًا آخرَ بالأركانِ، وأنَّ الصَّلاةَ مِنْ مواطنِ قراءةِ القرآنِ ومناجاةِ اللّهِ تعالى بهِ[5].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي:

الصَّلاةُ مِنْ أوائلِ فرائضِ الإسلامِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دونَ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 244.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49 - 50.

المضارعِ كما في تلاوةِ القرآنِ؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ إقامةِ الصَّلاةِ ووقوعِها[1]؛ فالصَّلاةُ عمادُ الدّينِ، ومِنْ أوائلِ ما يُشادُ منهُ، ولأنَّ فرضَ الصَّلاةِ قد تقرَّرَ، وعَمِلوا بهِ، فلا تجدُّدَ فيهِ، وامتثالُ الَّذي كُلِّفوا بهِ يقتضي أنَّهم مداومونَ عليهِ[2]، وللإيماءِ إلى أنَّ مدحَ الذين يخشون اللّه تعالى هم من يتجدَّدُ إيمانُهم بتلاوة القرآن، وتثبتُ أركانُهم وسلوكهم على الهدى بتحقُّقِ إقامة الصّلاة.

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ الإقامةِ:

إقامةُ الصّلاةِ في ذاتِها ومستتبعاتها في الحياةِ كلِّها

في قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ جَعْلُها قائمةً، وهو مأخوذٌ مِنْ قامَتِ السّوقُ، إذا تداولَ النّاسُ فيها البيعَ والشِّراءَ، وأصلُ القيامِ في اللُّغةِ: هو الانتصابُ المضادُّ للجلوسِ والاضطجاعِ، وإنَّما يقومُ القائمُ لقصدِ عملٍ صعبٍ، لا يتأتَّى مِن قُعودٍ، كقيامِ الخطيبِ والعاملِ، فكانَ للقيامِ لوازمُ عُرفيَّةٌ، ولذلكَ أُطلِقَ مجازًا على النَّشاطِ في قولِهم: قامَ بالأمرِ، وهو مِنْ قبيلِ المجازِ المُرسَلِ، وشاعَ فيها حتَّى ساوَى الحقيقةَ، فصارَتْ كالحقائقِ، فصحَّ بناءُ المجازِ الثّاني والاستعارةِ عليها، فإقامةُ الصَّلاةِ استعارةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّهَتِ المواظبةُ على الصَّلواتِ والعنايةُ بها بجَعْلِ الشَّيءِ قائمًا[3]، فشأنُ المؤمنينَ أن يفعلوا الصَّلاةَ في أوقاتِها، مَعَ كمالِ أركانِها وأذكارِها[4]، والمواظبةُ عليها هو إقامتُها في ذاتِها، وإقامةُ مستتبعاتِها في الحياةِ كلِّها، مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، فهي التي تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ، وتأمر بالمعروفِ والرّشادِ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الصّلاةُ اسمٌ جامعٌ للفرائضِ والنّوافلِ

الصَّلاةُ المقصودةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي العبادةُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 34، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 49.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 231.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 399.

المخصوصةُ المشتملةُ على قيام وقراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ وتسليم، والظّاهرُ أنَّ تعريفَها للجنسِ الشّاملِ للصَّلواتِ المفروضةِ وغيرِها، كما هو مُقتضَى مقام المدح؛ فالمؤمنُ العالمُ يُكثِرُ مِنَ الصَّلَواتِ، ويحافظُ عليها، ويُقيمُها على أكملِ صورةٍ فَرْضًا كانَتْ أو نفلًا؛ فإنَّ مقتضى الفريضة، المحافظةُ عليها بالنّافلة.

مناسبة عطف الإنفاق على إقامة الصّلاة:

الصّدقة برهانُ الصّلاةِ، والصّلاة وعاءُ التّلاوة

عُطِف قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ على ما قبلَهُ، ومن فوائدِ هذا العطفِ: أنَّهُ أتبعَ ما هو علامةُ قبولِ الإيمانِ والعِلْم به تعالى بعلامةٍ أخرى، وهي إقامةُ الصَّلاةِ، ثمَّ أتبعَها بعملٍ عظيمٍ مِنَ الأعمالِ في المالِ، وهو الإنفاقُ[1]؛ لأنَّ بذلَ المالِ يشقُّ على النُّفوسِ، فكانَ لهُ مِنَ الأهمّيَّةِ ما جعلَهُ ثانيًا للصَّلاةِ، وهو يقترنُ بها كثيرًا في القرآنِ، وأنَّهُ جعلَ لفعلِ القلبِ الَّذي هو الخشيةُ دليلًا باللِّسانِ، وآخرَ بالأركانِ، وثالثًا بالأموالِ، وأنَّهُ لمّا ذكرَ الوُصْلةَ بينَهم وبينَ الخالقِ؛ ذكرَ إحسانَهم إلى الخلائقِ[2]، وأنَّ الصَّلاةَ والإنفاقَ رأسُ العباداتِ، فذِكْرُهما هنا يعني أنَّهم أطاعوا اللّهَ بأنواعِ العباداتِ[3]، والإنفاقُ برهانُ صدقِ الصّلاة، كما أنَّ الصّلاة وعاءُ تلاوة القرآن.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإنفاق:

مَن أنفق مالَه لم ينتظر مآلَه

آثرَ النّظم الكريم استعمالَ مفردةِ الإنفاق دونَ التّصدّق ونحوه في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ لبيانِ أنّ هذه النّفقة قد خرجت من أيدي المتصدّقين، وهم لا يرجون من ورائها رجوعًا، فالإنفاق هو الذّهاب بلا أمل عودة، كنَفَقِ الدّراهم، ونَفَقَ فلانٌ، أي: مات، فهم لا يأملون من وراء الصّدقات إلّا رضا الرّحمن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان: 9].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 50.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 61.

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي:

إنفاقُ الصّدقات لا يتبعه امتنانٌ أو نُكران

جيءَ في قوله جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ بفعلِ المُضيِّ دونَ المضارعِ كما في تلاوةِ القرآنِ؛ لأنَّ الصَّدقةَ قد تقرَّرَتْ، وعمل بها المسلمونَ، والمقصودُ بالمضيّ أنّهم أنفقوا أموالَهم في سبيل تحقيق رضا اللّه تعالى، دون أن يلحق ذلك أدنى منٍّ أو أذًى، فهم أنفقوا صدقاتِهم ولم يُجَدِّدوا التّفكير فيها؛ لأنَّها أصبحت في حُكم المنسيّة، فلا أثرَ لها إلّا طلبُ الأجرِ والثّواب، بخلافِ تلاوةِ القرآنِ الَّتي تتكرَّرُ باستمرارِ النُّزولِ، وتكرُّرِ تلاوةِ ما قد نزلَ، وامتثالُ المسلمينَ ما كُلِّفوا بهِ يقتضي أنَّهم مُداومونَ عليهِ[1]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى عنايةِ الإسلامِ منذُ بُزوغِ فجرِهِ بالإحسانِ إلى الخَلْقِ، ومواساتِهم بالمالِ، حتَّى جُعِلَ ذلكَ مِنْ علاماتِ العلماءِ العاملينَ الَّذينَ يخشونَ اللّهَ تعالى حقَّ خشيتِهِ.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها:

التّكليف بحسبِ الطّاقةِ في الفرائض والنّوافل

(مِنْ) في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: بعضَ ما رزَقْناهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ اللّهَ تعالى لم يُكلِّفِ النّاسَ بما يَشُقُّ عليهِم، فلم يُكلِّفْهم بإنفاقِ جميعِ أموالِهِم، وإنَّما كلَّفَهم بإنفاقِ شيءٍ مِنَ المالِ، يكونُ فيهِ مواساةٌ للفقراءِ والمساكينِ، وتطهيرٌ للنُّفوسِ مِنَ الشُّحِّ، وفيهِ تنبيهٌ أيضًا على أنّهم لم يُسرِفوا، ولم يَبسطوا أيديَهم كلَّ البسطِ[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

إنفاقُ الأموال في سبيل الله معَ استحضار أنّها رزق الله تعالى

عُبِّرَ بالموصولِ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ لبيانِ أنَّهم يُنفقون أموالهم في سبيل اللّه تعالى، وهم يستحضرون أنَّها رزق اللّه تعالى، وفي ذلكَ حثٌّ على الامتثالِ، وأداءِ حقِّ شكرِ النِّعمةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 365.

غرضُ الالتفاتِ:

إدماجُ الامتنانِ بشُكرِ المَنّان

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وأنفقوا ممّا رزقهم)، لكنْ التُفِتَ النّظمُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قوله: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ في الآيةِ إدماجًا للامتنانِ، وإيماءً إلى أنَّهُ إنفاقُ شكرٍ على نعمةِ اللّهِ عليهم بالرِّزقِ، فهم يُعطونَ منهُ أهلَ الحاجةِ، والالتفاتُ أنسبُ بالامتنانِ(1).

بلاغةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

المـالُ مَـحْـضُ فضلٍ مِـنَ اللهِ على العبدِ

أُسنِدَ فعلُ الرِّزقِ إلى نونِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ الرِّزقِ الَّذي تتأتَّى بهِ مصالحُ النّاسِ ومعايشُهم، وتنبيهًا على أنّهُ منهُ وحدَهُ سبحانَهُ، لا بحولٍ منهُم ولا قوَّةٍ(2)، وفي إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ اللّهِ تعالى، وجعلِ مفعولِهِ ضميرَهم؛ تنبيهٌ على أنَّ ما يصيرُ الرِّزقُ بسببِهِ رِزقًا لصاحبِهِ هو حقٌّ خاصٌّ لهُ، خوَّلَهُ اللّهُ إيّاهُ بحكمِ الشَّريعةِ على حسَبِ الأسبابِ والوسائلِ الَّتي يتقرَّرُ بها مِلْكُ النّاسِ للأموالِ والأرزاقِ(3).

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي:

إحسانُ العبدِ فضلٌ مِنَ اللهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ رزقَ اللّهِ تعالى لهُم قد تحقَّقَ وثبتَ قبلَ أنْ يُنفِقوا منهُ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على الإنفاقِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى قد أنعمَ عليهم بالرِّزقِ، وكتبَ لهُم ثوابَ الإنفاقِ منهُ، فالفضلُ لهُ سبحانَهُ في الابتداءِ والانتهاءِ.

فائدةُ اقترانِ ذِكْرِ السِّرِّ والعلانيةِ:

مـدحُ عـمـومِ أحـوالِ وأزمـانِ إنفاقِ المؤمنين

في اقترانِ ذِكْرِ السِّرِّ والعلانيةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم يُنفقونَ في جميعِ الأحوالِ، وعلى الدَّوامِ(4)، وفي ذلكَ مبالغةٌ في مدحِهم بأنَّهم يواظبونَ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 306.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 235.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.

الإنفاقِ، وإنْ أدَّى إلى نَفادِ المالِ[1]، ويلزمُ مِنْ ذلكَ: الحثُّ على الإنفاقِ في كلِّ حالٍ؛ ليصلَ العبدُ إلى مرتبةِ الَّذينَ يخشونَ اللّهَ حقَّ خشيتِهِ، فدلَّ الاقترانُ على عموم الأوقات والأحوال، فلا وجهَ لتخصيص وقتٍ دون آخر، إلّا ما جاء الشّرعُ في الحثِّ عليه، والعمومُ هو الأولى عند ذهاب مدح الخصوص.

غرضُ تقديمِ السِّرِّ:

الإنفاقُ علانيَةً ممدوحٌ إذا دُفِعَ الرِّياءُ وتحقّقَ الاقتداءُ

قُدِّمَ ذِكْرُ لفظِ السِّرّ على لفظِ العلانيةِ في قوله جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾؛ لأنَّهُ أبعدُ عن شائبةِ الرّياءِ[2]، فالنّفس تهوى أن يعرفَ النّاسُ مآثرَها، وعلى رأسها الكرمُ والجودُ، فكان تقديمُ السِّرِّ بهذا الاعتبارِ أقربَ للمدحِ والثّناء، ففيه تنبيهٌ على الإخلاصِ، وذِكْرُ العلانيةِ للإشارةِ إلى أنَّهم لا تَصُدُّهم رؤيةُ المشركينَ عن الإنفاقِ، فهم قد أعلنوا بالإيمانِ وشرائعِ الدّينِ، أحبَّ مَنْ أحبَّ، أو كَرِهَ مَنْ كَرِهَ[3]، فالمدحُ في أعمِّ أحوال السّرِّ، والإعلان فيه مدحٌ عظيمٌ إذا اعتُبِر فيه دفعُ شائبة الرّياء، والقدوةُ في نفوسِ الأقوياء.

بديعُ فنِّ الطِّباقِ:

الإنفاقُ بحسبِ المقصد والحال والمآل

السِّرُّ: الخفاءُ، والعلانيةُ: الجهرُ والظُّهورُ، وفي الجمع بينَهما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقام الحثِّ على الإنفاقِ؛ إذ يرسمُ الكلامُ صورتينِ متقابلتَينِ للمُنفِقينَ؛ إحداهما: في الخفاءِ، والأخرى: في العَلَنِ، بحسَبِ ما يقتضيهِ الحالُ، فلا يبقَى لتاركِ الإنفاقِ عُذْرٌ، فمَن خشي على نفسِه الرّياء فعليه بالسِّرِّ، ومن أرادَ تحقيقَ مقصدِ الخير في نفوس الأغنياء فعليه بالعلانية.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 50.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 61.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.

بلاغةُ وضعِ الخبرِ موضعَ الإنشاءِ:

قولُهُ تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، والخبرُ هنا مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّبشيرِ، كأنَّهُ قيلَ: ليَرْجوا تجارةً لن تبورَ، والتَّعليلُ بقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ قرينةٌ على إرادةِ التَّبشيرِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالرَّجاءِ:

مع الإنفاقِ يقع الـرّجـاءُ دونَ القطعِ والجزم

جاء التّعبيرُ بمفردة الرَّجاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ العبدَ وإنْ بالغَ في الاجتهادِ، ينبغي عليهِ ألّا يغترَّ بعبادتِهِ، ولا يجزمَ بالثَّوابِ[2]؛ لأنَّهُ مَحْضُ فضلٍ منَ اللّهِ، والعبدُ لا يجبُ لهُ على سيِّدِهِ شيءٌ[3]، وهو يفعلُ الطّاعاتِ وقلبُهُ وجِلٌ ألّا يُقبَلَ منهُ[4]، هذا منْ جهةِ العبدِ، وأمّا منْ جهةِ اللّهِ تعالى: فهو سبحانَهُ أكرمُ الأكرمينَ، وفي الإخبارِ برجائِهم عِدَةٌ قطعيَّةٌ بحصولِ مرجوِّهم[5]، فما ظنُّكم بربِّ العالَمينَ؟!

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

العـبدُ مُفتقِرٌ لـربِّـهِ يـرجـو النّجاةَ ويخشى الحساب

اختيرَتْ صيغةُ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَرْجُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ المرادَ الاستمرارُ[6]، وأنَّ رجاءَهمُ الفضلَ والثَّوابَ مِنَ اللّهِ تعالى شأنُهم ودَيْدَنُهم، فهو مَقْصِدُ الحاجاتِ، ومُفيضُ الخيراتِ والرَّحماتِ، وهم مفتقرونَ إليهِ باستمرار، وهذا الاستمرارُ علامةُ الصّلاحِ، ونقاءُ السّريرة، فهم يرجون في دوامِ حالهم، ولا يستشعرون إلّا الرّجاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 60 - 61].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 62.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 50.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 365.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 62.

عدمُ تحديد كُنهِ التّجارة أو لتعظيمها

غرضُ التَّنكيرِ:

نُكِّر لفظُ ﴿تِجَٰرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ لأنَّ المرادَ نوعُ تجارةٍ لا يُعرَفُ كُنْهُهُ[1]، وليسَتْ كسائرِ التِّجاراتِ، أو للتَّعظيمِ، أي: تجارةً عظيمةَ الشَّأنِ.

تصويرُ الأجر والثّواب بربح التّجارة أقربُ للمقصودِ وأرسخُ في الحضّ على المطلوبِ

بلاغةُ الاستعارةِ وفائدتها:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ التِّجارة في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ استعارةً لتحصيلِ الثَّوابِ بالطّاعةِ[2]؛ لأنَّ التِّجارةَ طلبُ الرِّبحِ بالبيعِ والشِّراءِ، والرِّبحُ هو الفضلُ على رأسِ المالِ، وهنا شُبِّهَ تحصيلُ الثَّوابِ بالطّاعةِ، بتحصيلِ الرِّبحِ بالبيعِ والشِّراءِ، فذُكِرَتِ التِّجارةُ، وأُريدَ المشبَّهُ[3]، وقولُهُ: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ - إنْ كانَ بمعنى: لن تكسُدَ - ترشيحٌ[4]، أو التِّجارةُ مستعارةٌ لأعمالِهم مِنْ تلاوةٍ وصلاةٍ وإنفاقٍ، ووجهُ الشَّبهِ: مشابهةُ ترتُّبِ الثَّوابِ على أعمالِهم بترتُّبِ الرِّبحِ على التِّجارةِ[5]، واستعمالُ التّجارة في الاستعارة أبلغُ منها في الحقيقة، إذِ المقصودُ تشبيهُ ما يترتّب على الأعمال الصّالحة من الثّواب والأجر الكريم، بما يترتّب على التّجارة، ولمّا كان ما يترتّب على التّجارة ملحوظًا في دنيا النّاس، كان أقربَ لتصوّر المخاطَب المقصودِ، وفائدتُه أرسخُ في الحثّ والحضّ على فعل الخيراتِ، وهو مقصودُ السّياق.

(لن) أبلغ في النّفي؛ لنفيها الحالَ والاستقبال

سرُّ النَّفيِ بـ ﴿لَّن﴾ دونَ (لا):

استعَملَ ﴿لَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾، دونَ (لا)؛ لأنَّها أبلغُ في النَّفيِ؛ لأنَّها لنفيِ الحالِ والاستقبالِ، والمعنى: لن تكسُدَ،

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 62.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 224.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 62.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 365.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.

ولن تَهْلِكَ بالخُسْرانِ أصلًا[1]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ بيانِ ربحِ تجارةِ المؤمنينَ.

بلاغةُ المضارعِ المنفيِّ:

كـلّـمـا جـدَّ وسواسٌ جَدَّ له نفيٌّ

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ انتفاءِ البَوارِ؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ تقويةٌ لرجاءِ المؤمنينَ، وتأكيدٌ على أنَّ الخُسْرانَ لا يجدُ إلى تجارةِ المؤمنينَ معَ اللهِ سبيلًا، فإنَّ ممّا يخطر للأذهان ما يُثيره الشّيطانُ من وساوس عدمِ قبول الأعمال، قد يُقعِد العاملين عن العمل، فجاء النّفيُ لدفع هذه الأوهام، والاحتراسِ من هذه الأفهام، في الصَّدِّ لتلك الوساوس بالمضارعِ المنفيِّ، فكلّما جَدَّ وسواسٌ جَدَّ له نفيٌّ.

بلاغةُ الاستعارة في مفردة البَوارِ:

أفلحَ مَنِ اشترَى الباقيَ بالفاني

وُصفَتِ التِّجارةُ في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ بعدمِ البوارِ؛ للدّلالةِ على أنَّها ليسَتْ كسائرِ التِّجاراتِ الدّائرةِ بينَ الرِّبحِ والخُسْرانِ؛ لأنَّها اشتراءُ باقٍ بفانٍ[2]، وهذهِ الصِّفةُ هي مَناطُ التَّبشيرِ والرَّجاءِ[3]، والبوار هو فَرْط الكساد، ولمّا كان الكساد يؤدّي إلى الفساد، عُبّر به عن الهلاك[4]، ففيه تشبيه التّجارة بشخصٍ نُفي عنه الهلاك، ورُمِزَ له بأحد لوازمه وهو نفي البوار، الذي هو الهلاك، من باب الاستعارة المكنيّة.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ﴾:

ثـوابُ اللـهِ خيرُ المقاصدِ

الظّاهرُ أنَّ اللّامَ في قوله ﷻ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ للتَّعليل، وهو علّةٌ لانتفاءِ البَوارِ، أي: ينتفي عنها الكسادُ؛ ليوفّيَهم اللّهُ تعالى أجورَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.

(4) الرّاغب، المفردات: (بور).

أعمالِهم، أو عِلَّةٌ لمحذوفٍ، والتَّقديرُ: فعلوا تلكَ الأعمالَ الصّالحةَ ليوفّيَهم[1]، أو علَّةٌ لـ ﴿يَرۡجُونَ﴾ المرادِ به التَّبشيرُ، أي: بشَّرْناهم بذلكَ، وقدَّرناهُ لهُم؛ لنوفّيَهم أجورَهم[2]، وأيًّا ما كانَ فقد تعلَّقَتْ هِمَمُهم بالثَّوابِ، وتعلَّقَتْ إرادةُ اللّهِ تعالى بإكرامِهم وإثابتِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

توفيةُ الأجورِ والزّيادةُ مِنَ الفضلِ يكونانُ يوم القيامة

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ لأنَّ توفيةَ الأجورِ والزّيادةَ مِنَ الفضلِ أمرانِ يكونانُ في المستقبلِ يومَ القيامةِ، والمضارعُ يدلُّ على الاستقبالِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالأجورِ:

استحقاقُ المؤمنينَ الأجرَ تفضُّلٌ من الكريم

جاء التّعبير باستعمال مفردةِ الأجرِ في قولِه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ مختصٌّ بالخير، فيكونُ مناسبًا لسياقِ تكريم المؤمنينَ، ولأنَّ فيهِ إشارةً إلى استحقاقِ المؤمنينَ لهُ، فهو بمنزلةِ الأُجرةِ الَّتي يستحقُّها العاملُ على عملِه، وهو استحقاقٌ صوريٌّ، وإلّا فالأجرُ في الحقيقةِ مَحْضُ فضلٍ وتكرُّمٍ منهُ سبحانَهُ بناءً على الوعدِ الكريمِ، وتسميةُ الفضلِ أجرًا فضلٌ آخر.

نُكْتَةُ الإضافةِ:

اختصاص الأجور بالعاملين

أُضيفَ لفظُ الأجور إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى المؤمنينَ في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على اختصاصِها بهِم، وأنَّها بمنزلةِ شيءٍ مملوكٍ لهُم، لا يكونُ لغيرِهم ممَّنْ لم يعملْ عملَهم.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَزِيدَهُم﴾:

التّوفيةُ عدلٌ والزّيادةُ فضلٌ

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾، ونُكْتَةُ هذا العطفِ: أنَّهُ ﷻ يُسبِغُ عليهم الفضلَ بأنَّهُ يزيدُهم على ما تستحقُّهُ أعمالُهم ثوابًا مِنْ كرمِه، وهو مضاعفةُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.

الحسناتِ[1]، فالتّوفيةُ إيماءٌ إلى العدلِ، والزّيادةُ إشارةٌ إلى الفضلِ، مع أنَّ كليهما من تمام الفضلِ الإلهيّ، والفيض الرّحمانيّ.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ للابتداءِ، وهي تفيدُ أنَّ ابتداءَ الزّيادةِ مِنْ فضلهِ ﷻ؛ إذ لا فضلَ لغيرِه.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ الفضلِ:

جاء التّعبير بمفردةِ الفضلِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الزّيادةَ - وهي مضاعفةُ الحسناتِ - مَحْضُ إكرامٍ منهُ ﷻ، وليسَ لهُم فيها تسبُّبٌ أصلًا[2].

بلاغةُ موقعِ الفاصلةِ:

التّوفيةُ والزّيادةُ مِنْ آثارِ رحمةِ اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ تعليلٌ لِما قبلَهُ مِنَ التَّوفيةِ والزّيادةِ، أي: غَفورٌ لسيِّئاتِ المطيعينَ، شَكُور لطاعاتِهم، يُجازيهم عليها أكملَ الجزاءِ، فيوفّيهم أجورَهم، ويزيدُهم مِنْ فضلِه[3]، وفيهِ تذييلٌ لهُ وتأكيدٌ[4].

غرضُ التَّأكيدِ:

الغُفرانُ والشُّكرانُ مِنْ شأنِ الرّحمن

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لزيادةِ المبالغةِ في تحقُّقِ الوعدِ، ببيانِ أنَّ الغُفرانَ والشُّكرانَ مِنْ شأنِهِ تعالى[5]، وأنَّهُ لا يَسَعُ النّاسَ إلّا عفوُهُ ومغفرتُهُ، ولو آخذَ أعبدَ العبادِ بما يقعُ مِنْ تقصيرِهِ لأهلكَهُ[6]، فتأكيدُ غفرانِه وشُكرانِه لبيانِ أنّه ﷻ يُعامل العبادَ بصفاته العليا، وأنَّ عليهم أن ينتبهوا لذلك في عباداتهم ورجائهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 307.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 51.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 366.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 308.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 308.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 51.

نُكْتَةُ تقديمِ الغَفورِ على الشّكور:

التَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

قُدِّمَت صفةُ الغَفورِ على الشَّكورِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ لأنَّ التَّخلية مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، ولزيادةِ الامتنانِ، حيثُ بُدِئَ بما يتعلَّقُ بغفرانِ السَّيِّئاتِ، ثمَّ ذُكِرَ ما يتعلَّقُ بإثابةِ الطّاعاتِ.

نُكْتَةُ صيغةِ المبالغةِ:

اللهُ سبحانَهُ واسعُ المغفرةِ

جيءَ بصيغةِ المبالغةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾؛ للمبالغةِ في تحقُّقِ الوعدِ الكريمِ؛ لأنَّهُ مِنَ اللهِ سبحانَهُ المُتَّصفِ بأنَّهُ غَفورٌ شَكورٌ، أي: كثيرُ المغفرةِ، وشديدُ الشُّكرِ، أي: الإثابةِ على الطّاعاتِ[1]، والمبالغة جاءت في الصّفتين الجامعتين بين مغفرة التّقصير، والإثابة على الطّاعات؛ لبيانِ أنَّه ﷻ يُعاملهم بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ:

التِّـلاوةُ خاصَّةٌ بـالـقـرآنِ، والقراءةُ أعمُّ

التِّلاوةُ لا تكونُ إلّا لكلمتينِ فصاعدًا، والقراءةُ تكونُ للكلمةِ الواحدةِ، يقالُ: قرأَ فلانٌ اسمَهُ، ولا يقالُ: تلا اسمَهُ؛ لأنَّ التِّلاوةَ في الأصلِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، فتكونُ في الكلماتِ يُتبَعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ[2]، والتِّلاوةُ أيضًا تختصُّ بكُتُبِ اللهِ المُنزَلةِ، فهي أخصُّ مِنَ القراءةِ؛ فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً[3]، وقد اختيرَ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ لفظُ التِّلاوةِ دونَ القراءةِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على المواظبةِ وتكشُّفِ الحقائقِ والمعاني للتّالي شيئًا فشيئًا؛ لأنَّهُ موضوعٌ لإتباعِ اللَّفظِ الثّاني للأوَّلِ شيئًا فشيئًا، بخلافِ لفظِ القراءةِ؛ فإنَّهُ موضوعٌ لجمعِ الحروفِ والكلماتِ، غيرَ ملحوظٍ في وضعِها معنى الإتباعِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 308.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140.
(3) الرّاغب، المفردات: (تلو).
(4) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 14/ 462.

الجهرُ والعلانيةُ:

العلانيةُ تغلب في المعاني، والجَهْرُ في المعاني والأعيان

العلانيةُ: ضدُّ السِّرِّ، وأكثرُ ما تُستعمَلُ في المعاني دونَ الأعيانِ(1)، والجهرُ يقالُ لظهورِ الشَّيءِ بحاسَّةِ البصرِ أو حاسَّةِ السَّمعِ، أمّا البصرُ فنحوُ قولِكَ: رأيتُهُ جهارًا، وأمّا السَّمعُ فنحوُ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرّعد: 10](2)، والجهرُ يقتضي رفعَ الصَّوتِ، والإعلانُ لا يقتضي ذلكَ(3).

وقد عُبِّرَ بالعلانيةِ هنا؛ لأنَّ الغالبَ في القرآنِ عندَ الحديثِ عن الإنفاقِ مقابلةُ السِّرِّ بالعلانيةِ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة: 274]، وقولِه: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [الرّعد: 22]، وقولِهِ: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [إبراهيم: 31].

التِّجارةُ والبيعُ:

التّجارة مقصودُها الرّبح، والبيع أعمُّ من ذلك

التِّجارةُ: التَّصرُّفُ في المالِ بيعًا وشراءً طلبًا للرِّبحِ، فهي أخصُّ مِنَ البيعِ؛ لأنَّهُ قد لا يكونُ لطلبِ ربحٍ(4)، وقد عُبِّرَ بها هنا؛ لأنَّها أنسبُ بكونِ المؤمنينَ يعملونَ الأعمالَ الصّالحةَ طلبًا للثَّوابِ، وكأنَّهم يتاجرونَ معَ اللهِ، وأيُّ تجارةٍ أربحُ مِنْ تجارةٍ تُؤدّي إلى النَّجاةِ مِنَ العذابِ؟!

(1) الرّاغب، المفردات: (علن).
(2) الرّاغب، المفردات: (جهر).
(3) النّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 24.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (تجر).

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ [فاطر: 31]

العلاقةُ بين الأجورِ وزيادةِ الفضلِ، وبين كونِ الكتابِ حقًّا موحًى به

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قال اللّه تعالى في حَقِّ أهل كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ٣٠﴾ [فاطر: 29 - 30]؛ بيَّن بعد ذلك أنّ هذا الكتاب الذي استَحَقّوا عليه الأجر هو الحق لا ريب فيه، وأنّ مِن أَخَصِّ خصائصه أنّه مصدِّقٌ لما سبقه من الكتب فيما قرَّرَتْه من الحقّ الإلهي، لا فيما نالها من الزّيف والتّحريف، فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أصلُ (كتب) يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، مِنْ ذَلِكَ الكِتابُ والكِتابَةُ، يُقالُ: كَتَبْتُ الكِتابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا[1]، أي: جمعته وضممت بعضَه إلى بعض عن طريق الرّقم والتّدوين، والكِتابُ في الأصل اسم للصّحيفة مع المكتوب فيه[2]، ويطلق في القرآن على اللَّوح المحفوظ كما في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد: 22]، وعلى الكتاب الإلهي الذي أنزله اللّه على رسله، كالتّوراة والإنجيل والقرآن، والمراد به هنا: القرآن الكريم.

2) ﴿مُصَدِّقٗا﴾: (صدق) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).

وغَيْرَهُ، ومِنْ ذَلِكَ الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ، ولِأَنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لَهُ، هوَ باطِلٌ، وأَصْلُ هَذا مِنْ قَوْلِهِمْ: شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ، ورُمْحٌ صَدْقٌ، والصِّدّيقُ: المُلازِمُ لِلصِّدْقِ[1]، ويستعمل التَّصْديقُ في كلّ ما فيه تحقيق، يقال: صَدَقَني فِعْلُه وكتابُه[2]، ومعنى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾؛ أي: موافقًا لما قبله من الكتب السّماوية المنزّلة على الأنبياء في العقائد وأصول الأحكام[3].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

القـرآنُ حـقٌّ مصدّقٌ للكُتبِ الإلهيّةِ الّتي أنزلها اللهُ الخبيرُ البصيرُ

خاطب اللّه تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: الذي أوحينا إليك من القرآن هو الحق لا شك فيه ولا مرية، حالة كونه مُصدِّقًا لما سبقه من الكتب المنزلة على أنبياء اللّه، ومُهيمنًا عليها جميعًا، واللّه تعالى هو الذي وضعه هذا الوضع، وأنزله على خاتم رسله محمد ﷺ؛ لأن الحكمة والعدل يقتضيان ذلك، إن اللّه لخبير بشؤون عباده، بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والعطفِ:

إبهاجُ الموحَى إليه ﷺ بما خصّه من الوحي الحقِّ

الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملة بعدها مُستأنَفَةٌ لبيان أنّ هذا الكتاب الذي أوحاه اللّه تعالى إلى رسوله ﷺ لا يشتمل إلا على الحق، وفي ذلك إبهاج للموحى إليه ﷺ، وقيل: الواو للعطف، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 29] المستأنفة، فهي مثلها في حكم الاستئناف[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 413.
(4) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 167، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 438.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 309.

سرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

العــــدولُ إلى التّــعــريــفِ بالاسمِ الموصولِ بــيــانٌ لــفــضــلِ القرآنِ المُنَزَلِ

عرّف المسند إليه باسم الموصول، دون الإضمار الذي هو مقتضى الظّاهر بأن يقال: وهو الكتاب الحقّ؛ لما في الصّلة من الإيماء إلى وجه كون هذا الكتاب وهو القرآن الكريم هو الحقّ الكامل، وفي هذا مَسرَّةٌ للنبيّ ﷺ، وبشارةٌ له بأنّه أفضل الرّسل وأنّ كتابه أفضل الكتب[1].

عودُ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿إِلَيۡكَ﴾:

مفادُ الخطابِ أنّــه مُــنــزَّلٌ على النّبيّ الأوّابِ

ضمير الخطاب في قوله ﴿إِلَيۡكَ﴾، مقصود به النّبي ﷺ، وهو وإن لم يَجْرِ له ذِكرٌ في الآية ولا فيما قبلها، لكنّه المعهود به بلا ريب، ولقرينة قوله تعالى قبل ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 29] ففُهِمَ أنّ الخطاب لمن أُنزل عليه هذا الكتاب الذي هو القرآن.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ حرفِ المعنى مفيدٌ في بيانِ المُرادِ

وذلك أنّ تحديد معنى ﴿مِنَ﴾ مرهون بتحديد المراد بالموصول (الذي) المردود على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ فعلى كون المراد بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ القرآن، وهو الظّاهر، فإن ﴿مِنَ﴾ تكون للتّبيين؛ إذ القرآن أخصّ من ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ مفهومًا، وإنِ اتّحَدا ذاتًا[2]، أو أنّ غرض البيان هو إزالة ما في الموصول من إبهام[3]، أو أن يكون المراد بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الجنس فتكون ﴿مِنَ﴾ للتّبعيض؛ إذ المراد من﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾ هو القرآن وهو بعض جنس الكتاب[4].

نكتةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

معهودُ البيانِ في التّعبيرِ بالكتابِ عن القرآنِ

الأظهر أن (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للعهد، والمعهود هو القرآن لا غير، بقرينة قوله تعالى قبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 29]

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 308، 309.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 366.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 309.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 366.

وقوله هنا: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، فحمل اللّفظ على أنّه اللّوح المحفوظ، فتكون (أل) للجنس ومن للابتداء[1] بعيد.

دلالةُ موقعِ الاسمِ الموصولِ (الَّذي):

الاسم الموصول (الَّذي)، هو في محلّ رفع مبتدأ، والجملة بعده هي صلته لا محلّ لها من الإعراب، وأمّا خبره فهو جملة ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

بلاغةُ القَصْرِ، وتعريف طَرَفَيِ الإسنادِ:

القصرُ الادّعائيُّ أظهرُ في ترجيح التّأويل المؤثر

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ هو أسلوب قَصْرٍ، وطريقُه هنا هو تعريف الجزأيْن - المُسنَد إليه والمسنَد -، فقد أفاد تعريف الجزأين كما قال ابن عاشور: قَصْرَ المسنَدِ على المسند إليه، أي قَصْرَ جنسِ الحق على الذي أوحينا إليك، - على معنى: الحقُّ هو الذي أوحينا إليك لا غير - وهو قصرُ ادِّعائيٌّ للمبالغة لعدم الاعتداد بحقّيَّة ما عداه من الكتب؛ لكونِ الكتب الإلهية لِما طالَها من التّحريف لا يُعتَدُّ بحقّيَّة ما فيها إلا من خلال تصديق القرآن لها فهو الشّاهد وهو الميزان، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾، وأما ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ فلتأكيد ما أفاده تعريف المسند من القَصْر[2].

وقال الخَفاجيُّ: وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إن كان الضّمير للفَصْل وقَصْدِ الحَصْر، فهو من قصرِ المسنَد إليه على المسنَد - أي قصرُ الموحَى به وهو القرآن على الحَقِّ، لا العكس؛ لعدم استقامة المعنى إلا أن يقصد المبالغة[3]، فيكون على هذا قَصْرًا ادِّعائيًّا على ما خرَّج ابن عاشور القَصْرَ عليه، ومنه فإنّ (أل) في كلمة﴿ٱلۡحَقُّ﴾ هي الجنسيّة، ولتعريف كلمة﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بـ (أل) الجنسية، أثره ودوره في إفادة القصر، وهو قصر ادعائي لقصد المبالغة كما مضى بيانه.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 232، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 366.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 309.

(3) الخفاجي، حاشية الشّهاب: 7/ 225.

سرُّ العدولِ عن (هو حقٌّ) إلى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾:

بيانُ الأثرِ في كونِ التّعريفِ آكد من تنكيرِ الخبرِ

قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ آكد من قول: هو حقّ؛ لأنّ تعريف الخبر يدلّ على أنّ الأمر في غاية الظّهور؛ لأنّ الخبر في الأكثر يكون نكرة، حيث إنّ الإخبار في الغالب يكون إعلامًا بثبوت أمر لا معرفة للسّامع به لأمر يعرفه السّامع، كقولنا: زيد قام، فإن السّامع ينبغي أن يكون عارفًا بزيد ولا يعلم قيامه فيُخْبَر به، فإذا كان الخبر أيضًا معلومًا، فيكون الإخبار للتّنبيه، فيعرَّفان باللام كقولنا: زيدٌ العالمُ في هذه المدينة، إذا كان عِلْمُه مشهورًا[1].

الموقعُ النّحويُّ لقوله ﴿مُصَدِّقٗا﴾:

موافقةُ القرآنِ للرّسلِ دليلُ أحقّيّتِهِ

قوله: ﴿مُصَدِّقٗا﴾ منصوب على الحالية، والعامل فيه مقدّر يُفهم من مضمون الجملة قبله أي: (أُحقِّقُه مصدِّقًا) وهو حال مؤكدة، وإنما قال: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ أي: لما سبقه وتقدمه من الكتب السّماوية؛ لأنّ أحقّيَّتَه تستلزم موافقتَهُ الكتب الإلهيّة المتقدمة عليه بالزّمان في العقائد وأصول الأحكام[2]، وأمّات الأخلاق.

معنى اللّامِ في قولِهِ ﴿لِّمَا﴾:

اللّامُ الزّائدةُ للتّقويةِ ذاتُ أثرٍ في الدّلالةِ المرعيّة

اللام في﴿لِّمَا﴾ هي لام التّقوية، وأُدخِلت لام التّقوية على مفعول ﴿مُصَدِّقٗا﴾ للدّلالة على تقوية ذلك التّصديق أي: هو تصديق ثابت مُحقَّقٌ لا يَشوبه شيء من التّكذيب ولا التّخطئة، فإنَّ القرآن نَوَّه بالتّوراة والإنجيل ووَصَف كُلًّا بأنّه هدًى ونورٌ[3]، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: 46]، وقيل: الجارّ والمجرور

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 238.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 366.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 622.

﴿لِّمَا﴾ متعلّق بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾، و(ما) اسم موصول بمعنى: الّذي، وهو في محلٍّ نصبٍ مفعول به لاسم الفاعل ﴿مُصَدِّقًا﴾[1].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾:

الكنايةُ عن السّابقِ دلالةٌ على ورودِ اللّاحقِ

قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾ معناه ما سبقه من الكتب وبالأخص التّوراة والإنجيل، وهو كناية عن السّبق؛ لأنّ السّابق يجيء قبل المسبوق مُتقدِّمًا عليه، فكأنّه يمشي بين يديه كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: 46][2].

نكتةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ﴾:

التّذييلُ تقريرٌ لأحقّيّةِ الكتابِ، وعلّةٌ لاصطفاءِ النّبيِّ الأوّابِ

هذه الجملة التّذييلية مقرِّرة لما تضمَّنَه قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فهو كذلك لأنّ الذي أنزله هو الخبير البصير بعباده الذي يعلم بواطنهم وظواهرهم، ومن ثم فلا يكون كتابه مشتملًا إلا على الحقّ، كما أنّ هذا التّذييل يتضمن "جوابًا لما كانوا يقولونه: إنّه لِمَ لمْ ينزل على رجل عظيم؟ فيقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ﴾ يعلم بواطنهم و﴿بَصِيرٞ﴾ يرى ظواهرهم، فاختار محمدًا ﷺ ولم يَخْتَر غيره فهو أصلح من الكل[3].

فائدةُ تتابعِ المؤكّداتِ في الفاصلةِ المُنتقاةِ:

أثــرُ حشدِ المؤكّداتِ وتأكيد صدقِ ما أُنـزلَ من آياتٍ

تواردت المؤكّدات في جملة التّذييل مُمثَّلةً في: إنّ التّأكيدية، واسميَّة الجملة، وإظهار اسم الجلالة، الذي يربّي في القلوب المهابة، ثم اللام المزحلقة الدّاخلة على الخبر، وذلك كلّه "للاهتمام بالمقصود من هذا الخبر"[4]، وأيضًا لإقناع المنكرين لكون القرآن هو الحقّ، والحاقدين على رسول الله ﷺ بسبب اصطفائه دون غيره رسولًا لربّ العالمين.

---

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 243.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 309.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 238.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 309.

بلاغةُ الالتفاتِ من التّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ:

إبرازُ الاسم الجليلِ سكينةٌ للبَرِّ النَّبيلِ، وتخويفٌ للفاجرِ العليلِ

في الآية التفاتٌ من التّكلُّم في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى الغَيْبة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ وذلك بإبراز اسم الجلالة وإظهاره، وذلك لما تضمنه الخبر من تقرير أحقيّة القرآن وعلوِّه على كلّ كلام، و"لحاجة المخبرين هنا إليه، لأنّهم البر والفاجر"[1] فمن النّاس البَرُّ الذي يُسلِّم للقرآن بهذه الأحقِّيَّة، فيزداد بإبراز الاسم الجليل اطمئنانًا ورسوخا، ومنهم الفاجر الذي يجحد هذا الوصف، ففي إبراز الاسم الجليل له تهديد وتخويف.

معنى الباءِ في قولِه ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾:

عِلْمُ اللهِ تعالى مُلازِمٌ للثّقلَيْن فلا يغيبون عنه طرفةَ عينٍ

الباء هنا للمصاحبة وفائدتها الدّلالة على ملازمة علمه سبحانه لبواطن عباده وظواهرهم ملازمة مطلقة، وهذا ينتج أنّه سبحانه أعلمُ بما يُصلحهم وينفعهم؛ ومن ذلك إرساله للرّسول ﷺ وإيحاؤه القرآن إليه، وفيه المنهاج الحق والطّريق الصدق.

نكتةُ إضافةِ (العبادِ) إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

الإضافةُ للتَّكريمِ والتّشريفِ مُبينة عن البيانِ المنيفِ

في إضافة (عباد) إلى ضميره سبحانه تشريف لهم وتكريم، ومثله إضافة اللفظ نفسه إلى ضمير التّكلم في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 53].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾:

قدَّم شبه الجملة ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ على الخبر لأجل الاهتمام ولتنازع لفظي ﴿لَخَبِيرُۢ﴾ و﴿بَصِيرٞ﴾.

معنى اللّامِ في قوله ﴿لَخَبِيرُۢ﴾:

اللّام في قوله ﴿لَخَبِيرُۢ﴾، هي اللّام المزحلقة التّي تدخل على الخبر فتفيد التّأكيد.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 53.

دلالةُ الجمعِ بين صِفَتَي الخبيرِ والبصيرِ:

تقديمُ أعمِّ الصّفتيْن دلالةً على العِلمِ الشّموليِّ المكينِ

قوله: ﴿لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ تابع فيه بين صفتين جليلتين للّه ﷻ، وهما صفتا (خبير - وبصير)، وجمع بينهما للدّلالة على علمه سبحانه ببواطن عباده وظواهرهم، ومقتضاه أنّه الأعلم بهم وبما يصلحهم، فالخبير: العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظّاهرة والخفية، والبصير: العالم بالأمور المُبْصَرَة، وعلى ذلك يكون السّر في تقديم الخبير على البصير؛ لأنّه أشمل، وذِكْر البصيرِ عَقِبَه للعناية بالأعمال التي هي من المُبْصَرات وهي غالب شرائع الإسلام[1]، وقيل: الخبير هو العالم ببواطن أحوال عباده، والبصير هو العالم بظواهرها[2]، وعليه قيل: قدّم ﴿لَخَبِيرُ﴾ للدّلالة على أنّ العمدة في الوحي وجودًا وعَدمًا الأمور الرّوحانية النّفسانية، فإنّ النّبوة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم، وأنّ النّبوة رتبة روحانية تستدعي عظيم النّفس بالتّحلي بالفضائل والكَمالات القدسية، لا التّزخرف بالزخارف الدّنيوية[3].

غرضُ تنكيرِ الاسميْن الجليليْن:

دلالــةُ صيغةِ المبالغةِ وتنكيرِها علـى التّناهي والعظمةِ

وقوله: ﴿لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ صيغتا مبالغة والهدف من ورودهما وسائر صفاته سبحانه على أسلوب المبالغة؛ للدّلالة على التّناهي في معنى الصّفة بما يليق بجلاله سبحانه وكماله، وأيضا لكثرة متعلّقاتهما، ولأجل هذا أيضًا وردتا بصيغة النّكرة تفخيمًا وتعظيمًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

القرآن والذّكر والكتاب والفرقان:

كلٌّ من: القرآن والذّكر والكتاب والفرقان وغيرها، أسماء لمسمى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 310.
(2) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع القونويّ: 16/ 64.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 64، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152.

مطابقةُ الألفاظِ للمُسمَّى الواحدِ من وجهٍ، واستقلال معانيها باعتبارِ آخر

واحد هو كتاب الله المنزل على سيدنا محمد ﷺ للتّعبد والإعجاز، لكن كلَّ اسم منها يقال باعتبار معين، وقد سَمَّى الله تعالى القُرْآنَ بِخَمْسَةٍ وخَمْسينَ اسْمًا وقد أفاض السيوطي في الإتقان في بيان معانيها[1].

فمن أسمائه: القرآن والأظهر فيه أنه سُمّيَ كذلك لكونه مقروءًا بالألسنة متلوًّا بها.

ومن أسمائه: الكتاب وذلك لجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه والكتاب لغة الجمع[2]، وأيضًا لكونه مدوَّنًا مكتوبًا في السماء ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: 15 - 16] وفي الأرض في المصاحف.

ومن أسمائه: الذكر وذلك لِما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية، والذِّكر أيضًا الشرف قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]، أي شرف؛ لأنه بلغتهم[3]، ومن أسمائه: الفرقان لأنّه فرق بين الحق والباطل[4].

العبيد والعباد:

كلُّ العبادِ عبيدٌ، وليس كلُّ العبيدِ عبادًا

قال الرّاغب: العُبوديَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها، لأنّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23][5]، وكلّ النّاس هم لله عبيد لكونهم مخلوقين له ومقهورين له، لكن يفرق في التّعبير بين العباد والعبيد في كون العباد قد اختاروا طريق الطّاعة لله فانقهروا لأوامره عن محبة واختيار، ولذلك كان نصيبهم في الاستعمال القرآني في مقامات المدح والثّناء، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ

(1) السيوطي، الإتقان: 1/ 178.
(2) السّيوطي، الإتقان: 1/ 181.
(3) السّيوطي، الإتقان: 1/ 183.
(4) السّيوطي، الإتقان: 1/ 183.
(5) الرّاغب، المفردات: (عبد).

﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63] ونحوه وهو كثير في القرآن، فالنّاس في هذا ضربان كما يقول الرّاغب: عبدٌ للّه مخلص، وهو المقصود بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: 3] وعَبۡدٌ للدّنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وعلى هذا النحو يصحّ أن يقال: (ليس كلّ إنسان عَبۡدًا للّه)، فإنّ العَبۡدَ على هذا بمعنى العابِدِ، لكن العَبۡدَ أبلغ من العابِدِ، والناس كلّهم عِبادُ اللّه بل الأشياء كلّها كذلك، لكن بعضها بالتّسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العَبۡدِ الذي هو مُستَرَقٌّ: عَبيدٌ، وجمع العَبۡدِ الذي هو العابِدُ عِبادٌ، فالعَبيدُ إذا أضيف إلى اللّه أعمّ من العِبادِ، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29]، فنبّه أنّه لا يظلم من يختصّ بِعِبادَتِهِ ومن انتسب إلى غيره من الّذين تسمّوا بِعَبۡدِ الشّمس وعَبۡدِ اللّات ونحو ذلك[1]، وبهذا نفهم أنّ لفظ العباد أخصّ من لفظ العبيد، فكلّ العباد عبيد، وليس كلّ العبيد عبادًا.

(1) الرّاغب، المفردات: (عبد).

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ صِدقيّةِ الكتابِ الموحَى به بأقسامِ المُصْطَفَيْنَ من العبادِ ودرجاتِهم

بعد أن قَصرَتِ الآيةُ السّابقةُ الحَقَّ على الكتابِ - وهو القرآنُ - ادّعاءً للمبالغة، بَيَّنت هذه الآية أنّ هذا الكتاب الحَقَّ قد أورَثَه اللّهُ تعالى أمّةَ محمد ﷺ، فهو الرّسول الخاتم، وكتابه هو الكتاب الخاتم، وأمّته هي آخر الأمم، فكانوا - على فضلهم جميعًا - في استقبالهم له على ثلاثة أقسام ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾: (ورث) من الورْث، والميراثُ أَصْلُهُ الواوُ، وهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إِلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ، قالَ الشاعر:

وَرِثْناهُنَّ عَنْ آباءِ صِدْقٍ *** ونورثُها إذا متْنا بَنينا[1].

ويقال لكلّ من حصل له شيء من غير تعب: قد ورِثَ كذا، ويقال لمن خوِّل شيئًا مهنّئًا: أورِثَ، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ [الزخرف: 72] ومعنى ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ في الآية، أي: أَعْطَينا[2].

2) ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾: أصل (صفو) يدُلُّ عَلَى خُلوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ؛ مِنْ ذَلِكَ الصَّفاءُ، وهوَ ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ[3]، والاصْطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيار: تناوُلُ خَيْرِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 438، والسّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 107.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).

والاجتباء: تناولُ جَبايَتِه، واصْطِفاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوْبِ الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يَتَعرَّ ذلك من الأوّل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 75][1]، ومعنى ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ في الآية: اختَرْنا وفَضَّلْنا[2].

3) ﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾: (قصد) يَدلُّ أصله على: إتْيانِ شَيْءٍ وأَمِّه؛ تقول: قَصَدْتُه قَصْدًا ومَقْصَدًا، ويدلُّ أيضا عَلَى اكْتِنازٍ في الشَّيْءِ، ومنه: ناقةٌ قَصيدٌ أي مكتنزةُ اللّحْم ممتلئة[3]، والقَصْدُ: استقامة الطّريقة، والقَصْدُ في المعيشة ألا تُسْرِف ولا تَقْتُر[4]، والاقْتِصادُ على ضرْبَيْن: أحدهما محمود على الإطلاق، وذلك فيما له طرفان: إفراطٌ وتفريط كالجودِ، فإنّه بين الإسراف والبخل، وكالشّجاعة فإنّها بين التّهوّر والجُبْن، ونحو ذلك ... والثّاني يكنّى به عمّا يتردّد بين المحمود والمذموم، وهو فيما يقع بين محمود ومذموم، كالواقع بين العَدْلِ والجَوْر، والقريب والبعيد، وعلى ذلك قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾[5].

4) ﴿سَابِقُۢ﴾: أَصْلُ (سبق) يدُلُّ على التَّقْديم[6]، والسَّبْق: التّقدّم في السّير، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾ [النازعات: 4]، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17] ثم يُتَجَوَّز به في غيره من التّقدّم، كما في قوله تعالى: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه: 129]، أي: نَفَذَتْ وتقدّمت، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفَضْل والتّبريز، وعلى ذلك: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المتقدّمون إلى ثواب اللّه وجنّته بالأعمال الصّالحة[7]، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

5) ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: أصلُ (فضل) يَدُلُّ عَلَى زيادَةٍ في شَيْءٍ، والفَضْلُ: الزّيادَةُ والخَيْرُ، والإفْضالُ: الإحْسانُ[8]، والفضيلة: الدّرجة والرِّفعة في الفضلِ، والفَضْلُ: الزّيادة عن

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 438.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصد).
(4) الخليل، العين: (قصد).
(5) الرّاغب، المفردات: (قصد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(7) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

الاقتصاد، وذلك ضَرْبان: محمود: كفضل العلم والحِلْم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفَضْلُ في المحمود أكثر استعمالًا، والفُضولُ في المذموم[1]، والتَفَضُّل: التَطَوّل على غيرك، ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24] فمعناه: يريد أنْ يكونَ له الفضلُ عليكم في القَدْر والمنزلة[2]، وأشار بـ ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ هنا إلى توريث الكتاب، أو الاصطفاء، أو السَّبْق[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقسامُ المؤمنين في الاستجابةِ للكتابِ المبينِ

يُخبِر اللّه تعالى عن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم الذي هو الحق بأنه أَوْرَثَه مَن اصطفاهم من عباده لتحمُّله، وهم أمة محمد ﷺ الذين انقسموا في تجاوبهم معه وافترقوا ثلاثَ فِرَقٍ، "فمنهم ظالم لنفسه بغلبة سيئاته على حسناته، ومنهم مقتصدٌ لم يُسرف في السيئات ولم يُكْثِر من الحسنات، ومنهم سابقٌ غيرَهُ بفعل الخيرات بتيسير اللّه، ذلك السبق بالخيرات هو الفوز الكبير من اللّه"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياقِ:

الاختلافُ في دلالةِ الحرفِ العاطفِ مفيدٌ للبيانِ المتُوخَّى

﴿ثُمَّ﴾ عاطفة لما بعدها على ما قبلها، أي على جملة: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وهو من عطف الجمل، مع إفادتها التّراخي الذي هو من أَخصِّ معانيها، ونوع هذا التّراخي مُختَلَفٌ فيه:

فقيل هو التّراخي الزّمني؛ على أن يكون "في العطف بحرف ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أنّ ما أوحي إلى النّبي ﷺ حتى نزول هذه الآية، لم يكن إلا بعضًا من الكتاب، وأن ميراث المسلمين لهذا الكتاب لم

(1) الرّاغب، المفردات: (فضل).

(2) الخليل، العين: (فضل).

(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 259.

(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 648.

يأتِ بعدُ، لأنّ الكتاب لم يتمَّ نزولُه، وسيتمُّ ذلك بعد بضعِ سنوات، ولهذا جاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ ليفيد هذا التَّرتيبَ والتّراخي في الزّمن، بين نزول هذه الآية وبين تمام نزول القرآن"[1] وعلى هذا يكون سبب التّعبير بالماضي في قوله ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ بدل المضارع (نورثه) مُرادًا به تَحقُّقِ الوقوع، فيكون اسْتعارَة باعْتبار الزّمان[2] وذلك باستعارة الماضي للمضارع وهي استعارة تَبَعيَّة، أو أنّه على تأويل: ثم حَكَمْنا وقَضَيْنا بتوريثه[3].

وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ للتّرتيب والتّراخي الرُّتَبيّ بهدف الارتقاء في الإخبار عن القرآن تنويهًا بشأنه، وكذلك تنويهًا بشأن المُنَزَلِ عليه ﷺ "فبعد أن ذُكِّر بفضيلة كتابه، وهو أمرٌ قد تقرَّر لديه، زيدَ تبشيرًا بدوام كتابه وإيتائه أُمَّةً هم المُصطَفَوْن من عباد الله تعالى، وتبشيره بأنّهم يعملون به ولا يتركونه كما ترك أممُ مَن قبله كُتبَهُم ورسلَهم، لقوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾الآية، فهذه البشارة أهم عند النّبي ﷺ من الإخبار بأنّ القرآن حقٌّ مصدِّقٌ لما بين يديه، لأنّ هذه البشارة لم تكن معلومةً عنده فوَقْعُها أهمّ"[4] وهذا التّحليل مبنيٌّ على أنّ المراد بالكتاب القرآن الكريم، ولا ريب أنّه الأظهر وأنّه المعهود في السّياق، خلافًا لمن ادّعى أنّ المراد جنس الكتب[5]، فإنّ السّياق لا يظهره كما أظهر السابق.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى التكلّم:

التّنويهُ بشأنِ القرآنِ والأمّةِ الوارثةِ من مقاصدِ الجملةِ الآنفةِ

لما قال سبحانه في تذييل الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ بأسلوب الغائب، قال هنا بأسلوب التّكلم مُلتفتًا إليه ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ تعظيمًا لهذا الإيراث، وتنويهًا بشأن رُكْنَيْه وهما الموروث

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 11/ 886.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 65.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 152، والطِّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 12/ 654.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 311.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 35.

- القرآن الكريم - والوارثون وهم أمَّتُه ﷺ، فإنّ مثل هذا الإيراث العظيم لا يكون إلا من اللّه العظيم، ولذا أسنده إلى ضمير العظمة، وقدّم قوله: ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ في الكلام لكونه نعمة جسيمة وأنّه سبب لسائر النّعم[1] فقد نالت الأمة خيرَيِ الدّنيا والآخرة بهذا الإيراث لذلك الكتاب العزيز.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

حملُ الجملةِ على أكثرِ من دلالةٍ مفيدٌ في البيانِ لا محالةَ

قوله تعالى: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يَحْتَمِل في ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ أن يكون معناه أعطينا؛ وحالئذٍ فالتّعبير حقيقيٌّ ولا مجازَ فيه[2]، وقيل: بل هو مجاز على ذلك، ففي ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ استعارة تبعيّة، حيث شبّه إعطاء الكتاب إيّاهم من غير كدّ ولا تعب في وصوله إليهم، بتوريث الوارث[3]، ويمكن الحمل على الاستعارة المكنيّة في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بأن يكون قد شَبَّهَه بشيءٍ يورَث، ثمّ حذف المشبّه به ودلّل عليه بشيء من لوازمه، وهو قوله: ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ ويكون السّر على ذلك لزومَ التّمسك بالكتاب، والحرصَ عليه، كما أنّ الوارث يتمسك بحقّه في إرثه ويحرص عليه.

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتابُ المعهودُ في العبارةِ هو القرآنُ المُعجِزُ بجدارةٍ

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هي العهديّة والكتاب هو القرآن؛ لأنّ السّياق إنّما يدور عليه في هذه الآيات بدءًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29]، ثم يأتي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ - ليبرز أنّ النّظم متلاحمٌ، وأنّ الكلام لا يزال عن نفس الكتاب الّذي هو

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 311.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 35.

القرآن الكريم المتلوّ من قبل المؤمنين، الموحى به إلى الرّسول ﷺ.

على أنّ قولًا لا يساعده النّظم إلّا بتكلّف وإبعاد، يرى أنّ (أل) للجنس، وأنّ المراد جنس الكتب[1] الإلهيّة المنزّلة على الرّسل، ومَنْ يرى ذلك أُلجِئَ إلى القول بأنّ المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾ أعمّ من مؤمني هذه الأمّة، وبالكتاب جنس كتب اللّه، وبالّذين اصطفينا هذه الأمّة، ويكون ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ ماضيًا محمولًا على ظاهره، والمعنى: ثمّ أورثنا هذا الكتاب الكريم هذه الأمّة بعد إعطاء تلك الأمم الزُّبُرَ والكتابَ المنيرَ[2]، وهو خلاف الظّاهر كما يُرى.

دلالةُ مفعولَيْ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾:

غرضُ تقديرِ المفعولِ الثّاني في الذِّكرِ الاهتمامُ به وتبريزُه

على تأويل ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ بمعنى (أعطينا) فإن فعل ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ يكون ناصبًا مفعولين؛ الأول هو ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ والثّاني هو ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، قال ابن عاشور: "وكان مقتضى الظّاهر أن يكون أحد المفعولين الذي هو الآخذ في المعنى هو المفعول الأول والآخر ثانيًا، وإنما خولِف هنا فقُدِّم المفعول الثّاني لأمن اللُّبْس قصدًا للاهتمام بالكتاب المُعطى"[3].

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

اللهُ سبحانه يختارُ مَن يشاءُ لما يشاءُ لا معقِّبَ لحُكمِهِ

أوثِر التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ دون غيره تنويهًا بشأن المخبَر عنهم الذين اصطفاهم اللّه تعالى لإرث كتابه، وهم أمة محمد ﷺ، وإضافة إلى مدحهم والثناء عليهم بالاسم الموصول، فإن جملة الصلة قد تَضمَّنَتْ سببَ اختيارهم لهذا الإرث، وهو كونُهم مُصْطَفَيْن من اللّه تعالى، فهذا الاصطفاء هو الذي هيّأهم لأن يكونوا ورثة الكتاب، وقد قال سبحانه:

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 35.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 35.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 311.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحجّ: 75]، فهو سبحانه يختار من يشاء لما يشاء، وقت ما يشاء.

نكتةُ إسنادِ الاصطفاءِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

الـدّلالـةُ على عَظَمَةِ المُصْطَفَيْن لإرثِ الكتابِ المبين

أسند الاصطفاء إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ للدّلالة على عظمته سبحانه، ومن ثَمَّ عظمة هذا الاصطفاء، فعن طريقه وبواسطته اختار اللّٰه تعالى لحمل كتابه ثم بيانه والعمل به خيرَ أمة أُخرجت للنّاس وهي الأمّة المحمدية التي قال اللّٰه تعالى في حقِّها: ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 110]، وقيل: هم علماءُ الأمةِ من الصَّحابةِ ومن بعدهم ممَّن يسيرُ سيرتَهم[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾:

التّعبيرُ بالاصطفاءِ أكملُ وأبلغُ من التّعبيرِ بغيرِه

عبّر هنا بكلمة الاصطفاء دون غيرها كالاختيار والاجتباء فقال: ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ للدلالة على الكمال فالتّعبير بها أكمل وأبلغ من التعبير بغيرها، فكلمة (صَفَو) التي منها الصّفاء تدُلُّ عَلَى خُلوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ[2]، والاصْطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيارَ تناولُ خيرِه، والاجتباءَ تناولُ جَبايَتِه، واصْطِفاءُ اللّٰهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوْب الموجود في غيره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75][3].

وأمّا عن اختيار صيغة الماضي، فللدّلالة على تحقّقه وتقرّره، ويجوز أن يكون معنى ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: حَكَمْنا بإيراثه وقَدَّرْناه، وعلى ذلك فهو مجاز مرسل علاقته السّببية فهو من باب إطلاق السّبب على المسبّب[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 153.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 367.

دلالة الحرف ﴿مِنْ﴾ في السّياق:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَاۖ﴾، يجوز أن تكون للبيان؛ على معنى أنّ المصطَفَيْن هم عبادُنا، ويجوز أن تكون للتّبعيض؛ أي أنّ المصطفين بعض عبادنا لا كلّهم[1].

نكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿عِبَادِنَاۖ﴾:

القصدُ إلى إضافةِ التّشريفِ بناء على تحديدِ المُرادِ بالعبادِ

في إضافة عباد إلى ضمير العظمة اتّجاهان: فإن كان المرادَ بالعباد (المصطفون) فالإضافة لتشريف العباد؛ أي أنّهم لكونهم قد اصطفاهم الله لإرث الكتاب قد شرفهم بهذه الإضافة فليس أولى منهم أحد أن يكون عبدًا لله، وإن كان المراد بالعباد جميع الخلق، والخلق فيهم المؤمن والكافر، فالإضافة لتعظيم المضاف إليه لا غير؛ إذ في المضاف من لا يستحق التّشريف بهذه الإضافة.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَمِنْهُمْ﴾:

تنوّعُ دلالةِ حرفِ المعنى مُفْضٍ إلى بيانِ المُرادِ من شِبْهِ الجملة

الفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآية، تفصيل وتقسيم لأحوال الّذين أورثوا الكتاب أي أُعطوا القرآن[2]، و(مِنْ) هنا، وفي بقيّة الأنواع الّتي شملها التّقسيم؛ للتّبعيض، ويجوز أن تكون للبيان على معنى: أنّ المصطفين هم عبادنا[3].

نكتةُ عودِ الضّميرِ في ﴿فَمِنْهُمْ﴾:

الخلافُ في عودِ الضّميرِ مُبينٌ عن المُرادِ في التّعبير

الضّمير في﴿فَمِنْهُمْ﴾ الأظهر أنّه عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾، وذلك قول الحسن، وعليه فالظالم لنفسه من المصطفين، وقيل: هو عائد إلى ﴿عِبَادِنَاۖ﴾، أي: ومن عبادنا على الإطلاق، وهو قول ابن عبّاس وعكرمة وقتادة والضّحاك، وعليه فالظّالم لنفسه هو الكافر[4]، وفي هذا الاحتمال الثّاني جواب عما استشكله بعض أهل

---

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 36.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 312.

(3) السّمين، الدّر المصون: 9/ 232.

(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 312.

العلم عن إدراج الظّالم لنفسه ضمن المصطفين، كما نقل ذلك الشّوكاني بقوله: قد استشكل كثير مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ؛ لأنَّهُ سُبْحانَهُ جَعَلَ هَذا القِسْمَ الظّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ المُقَسَّمِ، وهوَ مَنِ اصْطَفاهُمْ مِنَ العِبادِ، فَكَيْفَ يَكونُ مَنِ اصْطَفاهُ اللَّه ظالِمًا لِنَفْسِهِ؟ فَقيلَ: إنَّ التَّقْسيمَ هوَ راجِعٌ إلَى العِبادِ، أَيْ: فَمِنْ عِبادِنا ظالِمٌ لِنَفْسِهِ، وهوَ الكافِرُ[1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾:

التّقسيمُ مُسهمٌ في الإبانةِ عن المُرادِ من السّياقِ المُستفادِ

قدّم شبه الجملة ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾، لأجل حصر الأقسام، ثمّ صحّة تقسيم الأصناف الموجودة في الواقع بحسبها، على معنى: هم أي المصطفون أو العباد أصناف وأقسام، منهم كذا ومنهم كذا.

الموقعُ الإعرابيُّ لقولِه ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾:

مــن فصيـحِ الـدّلالـةِ المؤثرةِ تسويغُ الابتداءِ بالنّكرةِ

الجارّ والمجرور (مِنْهُمْ) في مواضع وروده في الآية، متعلّق بمحذوف في محلّ رفع خبر مقدّم، والمبتدأ هو ﴿ظَالِمٞ﴾، ﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾، ﴿سَابِقُۢ﴾ وهذا التّقديم والتّأخير هو مسوّغ الابتداء بالنّكرة.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿ظَالِمٞ﴾ في السّياقِ:

الإلماحُ إلى كثرةِ أعــدادِ ظالمي أنفسِهم

نَكَّر قوله:﴿ظَالِمٞ﴾ وقَدَّمَه على غيره من الأقسام، لكثرة الظّالمين أنفسهم وتفوقهم في العدد على غيرهم من أصحاب القسمين الآخرين: المقتصدين والسّابقين بالخيرات.

وفي المراد بالظّالم لنفسه على كون الضّمير في ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾ عائدًا إلى اصطفينا قيل: المُرادُ به المُقَصِّرُ في العمل بالكتاب، وهو المرجئ لأَمْرِ اللَّهِ، فإن قيل: كيف يكون ظالمًا لنفسه وهو من المصطفين ورثة الكتاب؟ فالجواب: لَيْسَ مِنْ ضَرورَةِ وِرَثَةِ الكِتابِ مُراعاتُهُ حَقَّ رِعايَتِهِ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 400.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، وقيلَ: الظّالمُ لِنَفْسِهِ: هوَ الَّذي عَمِلَ الصَّغائِرَ، ورجَّحه الشّوكاني معلِّلًا بأن عَمَلَ الصَّغائِرِ لا يُنافي الِاصْطِفاءَ، ولا يَمْنَعُ مِنْ دُخولِ صاحِبِهِ مَعَ الَّذينَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ[1].

معنى اللّامِ في قوله ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾ لام التّقوية؛ لأنّ العامل فرع في العمل، إذ هو - أي: ﴿ظَالِمٌ﴾ - اسم فاعل[2].

دلالةُ الواوِ في﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾:

الواو في قوله﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ﴾ عاطفة، حيث عطفت هذه الجملة على الّتي قبلها، ليجمع بينهما في التّقسيم.

معنى(مِنْ) في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ أنّ دلالةَ الجارِّ على التّبعيضِ والبيانِ ممّا يتمُّ به البيانُ

(مِنْ) هنا، وفي بقية الأنواع التي شملها التّقسيم معناها التّبعيض، ويجوز أن تكون للبيان على معنى: أنّ المصطفين هم عبادنا[3]، فما قيل (مِنْ) في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ يقال كذلك في ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٌ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مُّقۡتَصِدٌ﴾:

التّفخيمُ غرضٌ مُنبئٌ عن أهميّةِ النّكرةِ

السرّ في تنكير ﴿مُّقۡتَصِدٌ﴾ للتّفخيم من شأنهم، "والمقتصد: هو غير الظّالم نفسه كما تقتضيه المقابلة، فهُمُ الّذين اتّقوا الكبائر، ولم يَحرموا أنفسَهم من الخيرات المأمور بها، وقد يُلمّون باللَّمَمِ المعفوِّ عنه من اللّه، ولم يأتوا بمنتهى القُرُبات الرّافعة للدّرجات، فالاقتصادُ افتعالٌ من القصد وهو ارتكاب القصد، وهو الوسط بين طرفين يبيِّنُه المقام، فلما ذُكِر هنا في مقابلة الظّالم والسّابق،

---

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 400.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 361.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 232.

عُلِم أنّه مرتكبٌ حالَةً بين تَيْنك الحالتَيْن، فهو ليس بظالم لنفسه وليس بسابق"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَابِقُۢ﴾:

السّبقُ بالخيراتِ قُربةٌ بالنّوافلِ والواجباتِ

نُكِّر لفظ ﴿سَابِقُۢ﴾ تفخيمًا لشأن السّابقين بالخيرات، والسّابق بالخيرات: هو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرّمات، ويتقرب إلى الله بالطّاعات والقربات والنّوافل التي هي غير واجبة[2].

بلاغةُ المجازِ في قولِه ﴿سَابِقُۢ﴾:

التّعبيرُ بالسّبقِ مَكْنيٌّ به عن الإكثارِ في الخيرِ وسُبُلِه

والتّعبير عن المجتهد في التّقرّب إلى الله تعالى بفعل الواجبات وسائر أنواع القربات بقوله: ﴿سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ مجاز لإحراز الفضل؛ لأنّ السّابق يحرز السَّبَق، أو هو مجاز في بذل العناية لنوال رضى الله، وعلى الاعتبارين في المجاز فهو مكنيٌّ عن الإكثار من الخير؛ لأنّ السّبق يستلزم إسراع الخطوات، والإسراع إكثار[3].

معنى الباءِ في شِبهِ الجملةِ ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾:

الباء في قوله: ﴿سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ للظّرفيّة، أي في الخيرات كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61] وهي الظّرفية المجازية.

معنى (أل) في لفظِ ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾:

(أل) في ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ للجنس، بما يشمل جنس الخيرات من الواجبات والمندوبات وسائر القربات.

نكتةُ حذفِ (الخيرات) مع أوّلِ صنفيْن:

الإيجازُ بالحذفِ اكتفاءً بالمذكورِ في السّياقِ المُدرجِ

وفي حذف (الخيرات) في قوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ فلم يقل: (في الخيرات) فيه إيجاز بالحذف اكتفاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 312.
(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 5/ 490.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.

بذكرها في الصنف الثالث في قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ فآلَ الكلام إلى تقدير ذكرها مع الصنفين السّابقين وأنّها مرادة فيهما "فيؤول إلى معنى: (ظالم لنفسه في الخيرات) و(مقتصد في الخيرات) أيضًا، ولك أن تجعل معنى ﴿ظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أنّه ناقصها من الخيرات كقوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: 33] أي لم تنقص عن معتادها في الإثمار"[1].

نكتةُ التّقديمِ والتّأخيرِ بين الأصنافِ:

إجمالُ الأقوالِ المحتملةِ من حكمةِ هذا التّرتيبِ المترقّي في البيانِ

أجمل الآلوسي الأقوال في حكمة هذا التّرتيب الذي عليه الأصناف الثّلاثة في الآية، حيث قدم الظّالم لنفسه ثمّ ثنّى بالمقتصد، ثمّ ختم بالسّابق بالخيرات، وممّا ذكره في هذا:

فقَدَّم (الظّالمَ لنفسه) لكثرة الظّالمين لأنفسهم، وعَقَّبَ بالمقتصد لقلّة المقتصدين بالنّسبة إليهم، وأَخَّرَ السّابق لأنّ السّابقين أقلّ من القليل[2].

وقيل: هذا التّرتيب جاء على حسب مقامات النّاس، فإنّ أحوال العباد ثلاث: معصية ثمّ توبة ثمّ قربة، فإذا عصى العبد فهو ظالم، فإذا تاب فهو مقتصد، فإذا صحّت توبته وكثرت مجاهدته فهو سابق.

وقيل: النّكتة في تقديم الظّالم أنّه أقرب الثّلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب، فإذا باشره الاصطفاء، فمن العباد من يتأثّر قليلًا وهو الظّالم لنفسه، ومنهم من يتأثّر تأثّرًا وسطًا وهو المقتصد، ومنهم من يتأثّر تأثّرًا تامًّا وهو السّابق.

وقيل: رتّب هذه الثّلاثة هذا التّرتيب، ليوافق حالَهُم في الذّكر بالنّسبة إلى ما وُعِدوا به من الجنّات في قوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 613.

﴿يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ليوافق حالهم في الحشر عند تحقّق الوعد، فأَخَّر السّابقَ الدّاخل في الجنان أوّلًا ليتّصل ذكره بذكر الجنّات الموعود بها، وذكر قبله المقتصد، وجعل السّابق فاصلًا بينه وبين الجنّات؛ لأنّه إنّما يدخلها بعده فيكون فاصلًا بينه وبينها في الدّخول، وذكر قبلهما الظّالم لنفسه؛ لأنّه إنّما يدخلها ويتّصل بها بعد دخولهما، فتأخير السّابق في المعنى تقديم، وتقديم الظّالم في المعنى تأخير.[1].

معنى الباءِ في قولهِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الباء في قوله﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ للسّببيَّة، أي بسبب إذن اللّه، أو للمصاحبة أي مصحوبًا بأمره وتيسيره.

نكتةُ إضافةِ الإذنِ إلى لفظِ الجلالةِ:

إذنُ الله هنا هو تيسيرُه الخيرَ لعبادِهِ تجوّزًا

أضاف الإذن إلى اللّه تعالى لأنّه صادر منه سبحانه، فإنّه لا يكون في الكون شيء من توفيق وغيره إلا منه سبحانه وبإذنه وتيسيره، كما لا يخفى ما في هذه الإضافة من تفخيم لإذنه سبحانه وتشريف، والإذن مستعمل في التّيسير على سبيل المجاز[2].

بلاغةُ الالتفاتِ من التكلُّم إلى الغَيْبَةِ:

توفيقُ اللهِ قيدٌ في حصولِ الطّاعةِ من الطّائعِ الأوّاهِ

وإنما التَفَتَ عن التّكلم إلى الغَيْبة فلم يَقُل: (بإذننا) بل قال: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ لغرض إظهار الاسم الجليل الذي يمنح الفخامة والمهابة لما يضاف إليه، حتى لا يتسرَّب الوهم إلى السّابق بالخيرات فيظن أنّه قد سبق إليها بمهارته، بل بتوفيق اللّه وتيسيره.

نكتةُ فصلِ قوله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ﴾:

وإنما فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ على الاستئناف المقرر لما قبله، والجملة أيضا مؤكِّدة لتكذيب الجاهلين ومخيبة

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 370.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.

لظنونهم؛ لأنّ السّابق كلّما علا مقامه في السّبق قَلَّ حظُّه من الدّنيا، فرأى الجاهلون أنّه مُضيِّعٌ لنفسه[1]، فجاء هذا التّذييل ليؤكّد خيبة أملهم فيما اعتقدوه في أهل اللّه أنّهم محلٌّ لسخط اللّه وغضبه لقلَّة حظّهم من الدّنيا.

الجملةُ مقرِّرةٌ لفوزِ المُصطَفَيْن، ومُخيّبةٌ لظنونِ الجاهلين

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيد:

بيانُ شرفِ المُشار إليه بالإشارة إليهِ بالدّلالةِ على البُعدِ

الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ إلى الاصطفاء المفهوم من ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ أو إلى المذكور من الاصطفاء وإيراث الكتاب، أو إلى السّبق[2]، أو إلى جميع ذلك كما قال القونويّ: ولو أريد بالمشار إليه مجموع هذه الثّلاثة، لكان في غاية من الحسن واللطافة[3]، وعَلَّل الثّعلبي صحّة الإشارة إلى الثّلاثة جميعًا وأحقّيَّتهم بدخول الجنة بأنّه ميراث، والبارُّ والعاقُّ سواء في الميراث مع صحة النّسب، فكذلك هؤلاء جميعًا مع صحة الإيمان[4] وإن تفاوتوا في الدّرجات.

وما في اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإشعار بعلو رتبتِه وبُعدِ منزلته في الشَّرفِ[5].

بلاغةُ القَصْرِ والتّعريفِ لطرفَي الإسنادِ:

الاصطفاءُ وإيراثُ الكتابِ جامعانِ لفوزِ العاجلةِ والمآبِ

قال ابن عاشور: "ضمير الفصل لتأكيد القَصْر الحاصل من تعريف الجزأين، وهو حقيقي لأنّ الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بذلك لأنّ كلّ فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل، ووجه هذا الانحصار أنّ هذا الاصطفاء وإيراث الكتاب جمع فضيلة الدّنيا وفضل الآخرة قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: 97]"[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 58.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 313.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 68.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 439.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 153.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 314.

أما القونويّ، فإنّه يرى أنّ الحصر المُستَفاد من تعريف الخبر وضمير الفعْل، هو إضافي أو ادِّعائيٌّ لا حقيقيٌّ تحقيقيّ[1].

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾:

(أل) في﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ للجنس، لا للعهد إذ ليس المقصود فردًا معهودًا منه.

نكتةُ وصفِ الفضلِ بأنّه كبيرٌ:

وصفُ الفضل بالكِبَر زيادةٌ في تفخيمِه وتعظيمِه

ووصف الفضل بكونه كبيرًا مع ما يفيض به لفظ الفضل من معاني الكِبَر والعظمة، ثم ما يترتب عليه من إفادة منح المصطَفَيْن من العباد الخير والرّحمة، زيادة في تعظيمه وتفخيمه، ليشعر أنّ المراد الخير كلّه والرّحمة كلّها، وفي ذلك زيادة إطماع في العمل على تحصيله بالاعتناء الكامل بالكتاب الذي أورثهم اللّه إياه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاصطفاء والاجتباء والاختيار:

اختلافُ المفردات باعتبار صَفْوِ الشّيءِ، وخيريّته، وجبايته

الاصطفاء هو تناولُ صَفْوِ الشيءِ، وأصل (صَفَو) يدُلُّ عَلَى خُلوصٍ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الصَّفاءُ، وهوَ ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ[2]، واصْطِفاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشّوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعرّ ذلك من الأوّل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: 75][3].

والاختيار هو: تناول خير الشّيء، والفرق بينه وبين الاصطفاء كما يقول العسكري: "أنّ اختيارك الشّيء أخذك خير ما فيه في الحقيقة أو خيره عندك، والاصطفاء أخذ ما يصفو منه، ثم كثر

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 68.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).

(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).

حتى استعمل أحدهما موضع الآخر، واستعمل الاصطفاء فيما لا صفوله على الحقيقة"[1] أي كثر استعماله في غير محلِّه.

والاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء، قال ﷺ:﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50] يقال: جَبَيْتُ الماء في الحوض: جمعته، واجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهيّ يتحصل له منه أنواع من النّعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصّديقين والشّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6] وقوله: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][2].

وبهذا يظهر أنّ هنالك مشتركًا دلاليًا بين الألفاظ الثّلاثة، وقد يَحلُّ أحدها محلّ الآخر، وأنّ كل لفظ منها يقال باعتبار غير اعتبار الآخر في الفروق الدّقيقة بين ثلاثتها، فالاصّطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيار: تناول خيره، والاجتباء: تناول جبايته[3].

الإذن والمشيئة والإرادة:

تشتركُ الثّلاثةُ في سبقِ القضاءِ والتّقدير، وتفترقُ فيما عدا ذلك

أما فيما يتعلق بالفرق بين الإذن وكلّ من المشيئة والإرادة فلا بد من التّفريق بين الإذن الكوني والإذن الشّرعي، أما الإذن الشّرعي فمعناه الإباحة وهو من الأحكام التّكليفية، وفيه يقال: "أذن لَهُ في الشَّيْء إِذْنًا وأذينًا: أَباحَهُ بِهِ لَهُ"[4] وأما الإذن الكوني فهو نفسه المشيئة والإرادة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64] أي: بإرادته وأمره "ولا يكاد يستعمل الإذن إلا فيما فيه مشيئة به، راضيًا منه الفعل أم لم يرض به، فإنّ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100] فمعلوم أنّ فيه مشيئته وأمره، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 29.
(2) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(3) الرّاغب المفردات: (صفو).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 72.

ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 102] ففيه مشيئته من وجهٍ، وهو أنّه لا خلاف أنّ اللّه تعالى أوجد في الإنسان قوة فيها إمكان قبول الضّرب من جهة من يظلمه فيضرّه، ولم يجعله كالحجر الّذي لا يوجعه الضّرب، ولا خلاف أنّ إيجاد هذا الإمكان من فعل اللّه، فمن هذا الوجه يصح أن يقال: إنه بإذن اللّه ومشيئته"[1].

وأمّا عن الفروق الدّقيقة بين المشيئة والإرادة، فإنّه من شدة التّقارب الدّلالي بين الإرادة والمشيئة، ألفينا المعجميين يعرفون كُلًّا منهما بما يعرف به الآخر، فمثلًا يقول ابن منظور: المَشيئةُ، مَهْموزَةً: الإرادةُ[2].

وفرَّق العسكري بينهما، بأنّ الإرادَة تكون لما يتراخى وقته ولما لا يتراخى، والمشيئة لما لم يتراخ وقته، قال: والشّاهِد أَنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ زيدٌ أَو أَبى، فيقابل بها إباه، وذَلِكَ إنما يكون عِنْد محاولة الفِعْل[3].

ونزيد: أنّ لفظ الإرادة يُطلق على نزوع النّفس إلى الشّيء مع الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يُفْعَل، أو لا يُفْعَل، ثم إنّه يستعمل مرّة في المبدأ، وهو: نزوع النّفس إلى الشّيء، وتارة في المنتهى، وهو الحكم فيه بأنّه ينبغي أن يُفْعَل أو لا يُفْعَل، فإذا استعمل في اللّه فإنّه يراد به المنتهى دون المبدأ، فإنّه سبحانه يتعالى عن معنى النّزوع، فمتى قيل: أَرادَ اللّه كذا، فمعناه: حكم فيه أنّه كذا وليس بكذا، نحو:﴿إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [الأحزاب: 17][4] وأما مع البشر، فإنه يستعمل في أحد المعنيين المبدأ أو المنتهى، أو في كليهما معا.

والمَشيئَةُ عند أكثر المتكلّمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم: المشيئة في الأصل: إيجاد الشّيء وإصابته، وإن كان قد يستعمل في التّعارف موضع الإرادة، فالمشيئة من اللّه تعالى هي الإيجاد، ومن النّاس هي الإصابة[5].

وعلى هذا، فإنّ الألفاظ الثّلاثة تشترك في معنى سبق القضاء والتّقدير، وعلى إيجاد الأشياء وفق إرادة اللّه ومشيئته وإذنه الكوني التّقديري.

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ريد).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.
(4) الرّاغب، المفردات: (رود) والكفويّ، الكليّات، ص: 74.
(5) الرّاغب، المفردات: (شيأ).

المسابقة والمسارعة والمنافسة:

المسابقةُ المشاركةُ، والمسارعةُ التّعجُّلُ، والمنافسةُ رغبةٌ متقدّمةٌ

لا يُشَك في وجود تقارب دلاليّ بين لفظي المسّابقة والمسارعة، فقد يفسّر كلّ من اللّفظين بالآخر في الجملة، فالمسابقة إلى الشّيء مسارعة إليه، وكذا المسارعة، لكن مع هذا تبقى لكلّ لفظ منهما خصوصية نسعى هنا إلى اكتشافها، وخصوصا أنّه في الآية الكريمة جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61] فكلاهما في معنى السّبق والتّقدم والمبادرة إلى الطّاعة[1]، فما الفرق بينهما إذن؟.

أصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، والاِسْتِباقُ: التَّسابُقُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17][2] والمسابقة مفاعلة منه، أي لابدّ فيه من متسابقَيْن على الأقل ليقوما بالمسابقة والمنافسة فيما بينهما، ومنه المسابقة بالخيل والإبل.

وأمّا المسارعة فهي من سرع وأصله خلاف البطء[3] بما يعني المبادرة إلى الشّيء والتّعجل إليه فلا يستدعي مشاركة، كما في المسابقة.

وعليه يكون الفرق بين قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61] أي يبادرون إليها حتى لا تفوتهم، ومعنى ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61] أي سابقون غيرهم ممن يظنون أنّهم لاحقوهم أو متقدمون عليهم.

وأمّا المنافسة، فهي الرّغبة في الشّيء والانفراد به، وهو من الشّيء النّفيس الجيد في نوعه، ونافست في الشّيء منافسة ونفاسًا، إذا رغبتَ فيه[4]، فالمنافسة إذن هي الرّغبة التي تتقدم المسابقة والمسارعة للحصول على الشّيء النّفيس.

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 184.
(2) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سرع).
(4) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (نفس).

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ٣٣﴾ [فاطر: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين إيراث المُصطَفَيْن الكتاب وما في الجنّةِ من نعيمٍ وثوابٍ

لما ذكر الله تعالى ورثة الكتاب، وهم أمّة محمد ﷺ، وذكر أقسامهم من حيثُ الاجتهادُ في حملهِ وفهْمِه والاجتهادُ في العمل بأحكامه وتوجيهاته، وبيّن أن ذلك هو الفضل الكبير، ذكر بعد ذلك جزاءهم يوم القيامة فقال: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدْنٍ﴾: أصل (عدن) يدل عَلَى الإقامَةِ، قالَ الخَليلُ: العَدْنُ: إقامَةُ الإبِلِ في الحَمْضِ خاصَّةً، تَقولُ: عَدَنَتِ الإبلُ تَعْدِنُ عَدْنًا، والأَصْلُ الَّذي ذَكَرَهُ الخَليلُ هوَ أَصْلُ البابِ، ثُمَّ قيسَ بِهِ كُلُّ مُقامٍ، فَقيلَ: جَنَّةُ عَدْنٍ، أَيْ إقامَةٍ[1]، ويقال: عَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ عَدْنًا إذا لَزِمَه ولم يَبْرَح منه، والعَدْن: الإقامَةُ، والمَعْدِن: مَرْكز كُلِّ شَيْءٍ[2]، ويقال المَعْدِنُ: لمستقرّ الجواهر، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ أي: استقرار وثبات[3].

2) ﴿يُحَلَّوْنَ﴾: (حلو) له ثلاثة أصول: الأول طيبُ الشّيء في مَيْلٍ من النّفس إليه، والثّاني تحسينُ الشّيء، والثّالث - وهو مهموز - تنحيةُ الشّيء، والمناسب هنا هو الأصل الثّاني وهو ما يدل على تَحْسين الشَّيْءِ، ومنه: حُليُّ المَرْأَةِ، وهوَ جَمْعُ حَلْيٍ، كَما يُقالُ: ثَدْيٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدن).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (عدن).
(3) الرّاغب، المفردات: (عدن).

وثُديٌّ، وظَبْيٌ وظُبيٌّ، وحَلَّيْتُ المَرْأَةَ، وهَذِهِ حِلْيَةُ الشَّيْءِ أَيْ صِفَتُهُ، ويُقالُ: حِلْيَةُ السَّيْفِ، ولا يُقالُ حُليُّ السَّيْفِ[1]، الحَلْيُ اسْمٌ لِكُلِّ ما يُتَزَيَّن بِهِ مِنْ مَصاغ الذَّهَبِ والفِضَّة، والجمعُ حُليٌّ بالضَّمِّ والكَسْرِ[2]، ومعنى ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أي: يَلْبَسون على سبيل التزيُّن والتَّحلّي[3].

3) ﴿أَسَاوِرَ﴾: أصل (سور) يدل على عُلوٍّ وارْتِفاع[4] والسّورَةُ المنزلة الرفيعة، والسّوارُ أو السِّوارُ مِنَ الحليِّ معروفٌ، وتُكْسَرُ السّينُ وتُضمُّ، وجَمْعُهُ أَسْوِرَةٌ ثُمَّ أَساوِرُ وأَساوِرَةٌ، وسَوَّرْتُهُ السِّوارَ إذا أَلْبَسْتَه إيّاه»[5] وسِوارُ المرأة معرّب، وأصله: دِسْتِوار، وكيفما كان فقد استَعْمَلَتْه العرب[6]، والمراد هنا أساور الذّهب التي تلبس في الذّراع[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جـــزاءُ ورَثَـــةِ الكتابِ المكرّمين في جنّةِ اللهِ يومَ الدّينِ

جزاء ورثة الكتاب الذين اصطفاهم الله له وأورثهم إياه في الآخرة جنّات إقامة يدخلونها، يتزيّنون فيها بأساور من ذهب ولُؤْلُؤٍ، وثيابهم في الجنّة حرير أي: ثياب رقيقة[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

كمالُ الاتصالِ بين الجملةِ المفصولةِ وما قبلها مُبينٌ عن المُرادِ

الفصل في قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ سببه كون الجملة مُستأنَفَةً استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤال مقدَّر عن ذلك الفضل الكبير الذي أشير به إلى ورثة الكتاب بمختلف أصنافهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلو).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (حلا).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 417.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سور).
(5) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (سور).
(6) الرّاغب، المفردات: (سور).
(7) السّجستاني، غريب القرآن، ص: 68.
(8) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 648، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 438.

أو إلى السابقين بالخيرات منهم تبعًا لاختلاف توجيه اسم الإشارة كما سلف بيانه: ما آثاره وما مظاهره؟ فقال: ﴿جَنَّٰتُ﴾، أو: ما ذلك الفضل؟ فقيل: هو ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾، أي هي مُسَبَّبَةٌ عن سبب السّبق الّذي هو الفضل[1]، فيكون بين هذه الجملة وما قبلها (شبه كمال اتّصال)، أو أنّها فُصلت عمّا قبلها لكونها بدلًا عن قوله ﴿ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي: بدل اشتمال من قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾، فإنّ مما يشتمل عليه الفضل دخولهم الجنّة، وتخصيص هذا الفضل من بين أصنافه؛ لأنّه أعظم الفضل، لأنّه أمارة على رضوان اللّه عنهم حين إدخالهم الجنّة، كما قال سبحانه: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72][2]، فيكون بين هذه الجملة وما قبلها (كمال اتّصال).

نكتةُ إضافةِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدۡنٍ﴾:

بذلُ الغالي والنّفيسِ لنيلِ الغالي والنّفيسِ

إضافة ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى﴿عَدۡنٍ﴾ هو من إضافة الموصوف إلى الصّفة، فإنّ ﴿عَدۡنٍ﴾ معناه الإقامة الدّائمة، وذلك وصف للجنات فإنّها دار إقامة وخلود، وفي هذه الإضافة تشويق لورثة الكتاب وحَضٌّ لهم على بذل غاية الجهد في الاعتناء بما ورثوه كي يثبتوا أنّهم جديرون بأنّ يكونوا أهله، وأهله هم أهل اللّه وخاصته، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «إنَّ لِلّه أَهْلِينَ مِنْ خَلْقِه» قالوا: ومَنْ هُمْ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: «أَهْلُ القُرْآنِ، هُمْ أَهْلُ اللّهِ وخاصَّتُهُ»[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾:

أولُّ مطالعةِ الخيرِ أقوى لحظاتِ السّعادةِ في التّأثيرِ

أوثر التّعبير بـ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ دون (يسكنونها) ثم التّعبير به مضارعًا لأنّه مستقبل[4] وأيضًا "لاستحضار الحالة البهيجة"[5]؛ لأنّ أبهج حالات الإنسان تكون عند مطالعة ما يسعده أولّ مرة؛ فتلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 58.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 314.
(3) النّسائي، السنن الكبرى تحت رقم: (7977).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 315.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 131.

لحظة لا تنسى، فإذا طال العهد بالسّكنى توطنت النّفس على ما ألفَتْه، فتصبح السّعادة والبهجة عادة وطبيعة، ولا تكون على درجتها في الحالة الأولى، ومن ثم كان في استحضار البهجة الأولى تذكيرًا بها لإحيائها في النّفس، وهذا أيضًا من مظاهر النّعيم.

عودُ ضميرِ الجماعةِ في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾:

الضّميرُ يعودُ إلى خيارَيْنِ كلاهُما مُعبِّرٌ عن الدّلالةِ المتوخّاةِ

ضمير الجماعة في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ يعود على الأظهر إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ المقسم إلى ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، أي هؤلاء كلّهم يدخلون الجنة؛ لأنّ المؤمنين كلّهم مآلهم الجنّة كما دلّت عليه الأخبار التي تكاثرت[1]، وقيل: يعود إلى السّابق بالخيرات وإنّما جمع الضَّمير؛ لأنَّ المرادَ بالسّابقِ الجنسُ، وعليه فتخصيصُ حالِ السّابقينَ ومآلِهم بالذِّكرِ، والسُّكوتُ عن الفريقينِ الآخرينِ وإنْ لم يدلَّ على حرمانِهما من دخولِ الجنةِ مُطلقًا، لكنَّ فيه تحذيرًا لهما من التَّقصيرِ وتحريضًا على السَّعيِ في إدراكِ شأوِ السّابقينَ[2].

نكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ:

أثر التّقديم في التّشويق وتقوية الحكم

قدّم المسند إليه على المسند الفعليّ من باب التّشويق، فإنّ المصطفين إذا سمعوا ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ تاقت نفوسهم إليها، فإذا سمعوا بعدها ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ طاروا فرحًا بفضل الله عليهم، كما أنّ في "الإخبار بالمسند الفعليّ عن المسند إليه، إفادة تقوّي الحكم"[3].

الموقعُ النّحويُّ لقوله ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾:

قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ و﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾، يجوز أن يكونا صفتين لجنّات، وأن يكونا حالين من الضّمير المرفوع أو المنصوب، في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 315.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 613، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 153.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 315.

(4) الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 328.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِه ﴿يُحَلَّوْنَ﴾:

التّحلية: التّزيين، والحلية: الزّينة، وأسند الفعل إلى صيغة المجهول، لأنّهم يجدون أنفسهم محلّين بتكوين اللّه تعالى[1]، وليسوا هم من يحلّون أنفسهم بها.

دلالةُ ذِكْرِ شبهِ الجملةِ الظّرفيّة ﴿فِيهَا﴾:

الظّرفُ قيدٌ لتعيينِ مكانِ التّحليةِ وزمانِها

قوله: ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنات، والظّرف هنا قيد في تعيين مكان التّحلية بالزّينة، وهو أنّه بعد دخول الجنات لا قبلها، فأفاد تقديمه الحصر؛ إذ لا مكان للتّحلية بالزّينة إلا في الجنات، وفي هذا من التّشويق للطّائعين ما فيه، وفيه أيضًا من التّحسير لغيرهم ما لا يخفى، ولو قيل: (يحلون من أساور) بترك حرف الظّرفية، لربما طمحت النّفوس إليها في الدّنيا، ولتعارض ذلك مع حرمة التّحلي بالذّهب على الرّجال في الدّنيا، ومن ثمَّ كان حرف الظّرفية هنا حاسمًا ومانعًا لكل احتمال آخر.

ولما كان الكفّار يتنعمون به في الدّنيا ويزهون به، وحُرِمَه المؤمنون بالتّحريم التّكليفي، فقد جعله اللّه تعالى من مظاهر النّعيم في الآخرة لعباده المؤمنين، الذين منعوا أنفسهم منه في الدّنيا طاعةً للّه مع قدرتهم عليه.

دلالةُ الحرفِ ﴿مِنْ﴾:

تنوّعُ دلالات حروفِ المعاني مفيدةٌ في الإبانةِ المرجوّةِ

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ مزيدة للتّأكيد على رأي الأخفش، ويجوز أن تكون للابتداء، وهو مُتعيِّن عند الّذين يمنعون زيادتها في الإثبات، وجوِّز أن تكون للبيان لما أنّ ذكر التّحلية ممّا ينبىء عن الحليّ المبهم[2]، وقيل: للتّبعيض أي: بعض أساور كأنّه بعض له امتياز وتفوّق على سائر الأبعاض[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 371.
(3) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 6/ 264، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 371.

وجهُ جمعِ السّوارِ على ﴿أَسَاوِرَ﴾:

الأَساوِرُ: جَمْعُ أَسْوِرَة، والأَسْوِرَةُ: جَمْعُ سِوارٍ[1] أي: أن أساور هو جمع الجمع، وأتي به هكذا للدّلالة على كثرة ما يتحلون به من الأساور، حتى إنه لم يُكتَفَ في التّعبير عنها بالجمع، فعمد إلى جمع الجمع، ليدل على هذه الكثرة الكاثرة.

التّعبيرُ بصيغةِ جمعِ الجمعِ غرضُهُ الدّلالةُ عن التّكثيرِ

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾:

نكّر الأساور تفخيمًا لها بناء على كون ﴿مِنْ﴾ للتّبعيض، أو تكثيرًا لها بناء على كونها للابتداء أو البيان، وارتكازًا على إيثار التّعبير بجمع الجمع ﴿أَسَاوِرَ﴾ كما مضى.

الموقعُ النّحويُّ للفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾:

قوله ﴿أَسَاوِرَ﴾ هو في موقع المفعول الثّاني لـ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن ذَهَبٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ابتدائيّة، على معنى: أُنشِئت من ذهب[2]، أو بيانيّة والجملة بيان للأساور[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مِن ذَهَبٍ﴾:

نكَّر كلمة ﴿ذَهَبٍ﴾ تفخيمًا لشأنه وتكثيرًا، وفي الكلام اكتفاء، أي: من ذهب وفضّة كما اكتفى في آية سورة الإنسان بذكر الفضّة عن ذكر الذّهب، بقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21]، ولكلّ من المَعْدِنَين جمالُه الخاص[4].

بيانُ أنّ التّنكيرَ للتّفخيمَ، والحذف للاكتفاءِ

معنى الواو في قوله ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾:

الواو عاطفة، وقد عُطفت بها الجملة الاسميّة ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

العطف بين الجملتيْن الاسميّة والفعليّة مفيد في الدّلالة عن المراد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 102، والشّوكاني، فتح القدير: 3/ 526، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 231.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 497.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 102، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 418.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

﴿حَرِيرٌ﴾، على الجملة الفعلية ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، ولا مانع من ذلك، بل هو حسن[1] طالما توفرت المناسبة الدّاعية إلى ذلك.

بلاغةُ القَصْرِ بتقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

ورودُ التّقديمِ الأثيرِ للتّنبيهِ على التّنعُّمِ بالحريرِ

قدَّم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لإفادة القصر، إذ إنّ لباس الحرير مقصور على كونه في الجنّة، لا في الدّنيا، ومن فوائد التّقديم أيضًا التّنبيه على زيادة التّنعم بها، ورعاية الفواصل[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرِيرٌ﴾:

نكّر كلمة ﴿حَرِيرٌ﴾ قصدًا لتفخيمه ورفعةِ شأنه، ولا غَرْوَ فإذا كان الحرير في الدّنيا عزيزا نفيسا، فكيف بحرير الآخرة؟.

فائدةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾:

التّعبيرُ بما يُفيدُ الثّبوتَ ويراعي الفواصلَ مفيدٌ في البيانِ

ونكتةُ العدول عن الفعلية ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ إلى الاسمية ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، هو أنّه عبَّر بالاسميّة لبيان نوع اللّباس الّذي يلبسونه للتّنعم على الدّوام إن هم رغبوا في استدامته، إثر بيان تنعّمهم بالتّحلية بالذّهب واللّؤلؤ المعبّر عنه بالفعليّة لكونها أمرًا طارئًا يتجدّد حينا بعد حين.

ولا شك أنّ الفاصلة مَرعيَّة في هذا الأسلوب، لكن هل تكفي رعاية الفواصل كسرٍّ أوحدَ في هذا العدول؟ والجواب: لا، بل هنالك سرٌّ آخر لهذا العدول يتعلق بالمعنى؛ قال أبو السّعود في بيان هذا السّر:

قوله:﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غيَّر الأسلوب، حيث لم يقل (ويلبسون فيها حريرًا) لا للدّلالة على أنّ الحرير ثيابهم المعتادة، أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل، بل للإيذان بأنّ ثبوت اللباس

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40.

لهم أمر محقَّق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عَراؤُهم عنه، وإنّما المحتاج إلى البيان أنّ لباسهم ماذا - أي نوع اللباس - بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنّها ليست من اللوازم الضرورية، فجعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات، ولعل هذا هو الباعث على تقديم بيان التّحلية على بيان حال اللباس(1).

وقيل: السّرُّ في هذا هو أنّ الجُمْلَة الاسمية تفيد الدّوام، وأما التّحلي بالأساور ففي وقت بعد وقت، وصيغة المُضارِع تفيد الاسْتمْرار التجدّديَّ(2).

فإن قيل: كيف يلبسون الحرير في الآخرة وكذلك الذّهب واللؤلؤ، وقد كان حرامًا عليهم في الدّنيا؟.

فالجواب: وهذا هو سرّ لباسهم إياه في الآخرة دار الجزاء، حيث يعوَّضون به حرمانَهم إياه في الدّنيا بالنَّهْي التّكليفي عن لباسه، وليكون أحد مظاهر التّنعُّم، وهكذا الشأن في كلّ ما حرموه في الدّنيا بالتّكليف الإلهي، فإنّهم ينعَّمون به في دار الجزاء بالتّكريم الإلهي.

نكتةُ إضافةِ ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ:

بيانُ أنّ الإضافةَ هنا للقَصْرِ والتّخصيصِ

الإضافة في قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ للقصر والتخصيص، وهو من قَصْرِ الصفة على الموصوف أي: "جميع ما يلبسونه في الجنات حرير"(3)؛ بقيد أن تشتهيه أنفسهم - ويَبْعُد ألا تشتهي الحرير العزيز نفسٌ - فإنّه لا يكون في دار الجزاء إلا ما تشتهيه الأنفس، لقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: 31 - 32] وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾ [الزخرف: 71].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 102.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 233.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 526.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

من البيانِ المألوفِ الحذفُ بدلالةِ المذكورِ على المحذوفِ

في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾، احتباك حيث حذف من كلّ جملة منهما ما ذكر في الجملة الأخرى، فكأنّه قيل: (يُحَلَّوْن بها وحِليَتُهم من أساورَ من ذهب ولباسُهم فيها حريرٌ يلبسونه)(1).

سرُّ اختيارِ لفظِ (لباس) دون (ثياب):

اللّباسُ ما يكونُ مُلامسًا للجسدِ مُختفيًا تحت الثّيابِ الظّاهرةِ

المراد باللّباس هنا ما يخالط الجسد ويتلبّس به ويلاصقه، فتُستر به العورة، ويُرتدى فوقه الثّياب الّذي يكون ظاهرًا للتجمُّل والتزيّي، قال أبو السّعود في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ [النور: 60]: ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور: 60] أي الثّياب الظّاهرة كالجلباب ونحوه(2).

ومعنى ذلك أنّ اللباس هي الملابس الباطنة التي تلاصق الجسد، وما يطلق عليه في الاستعمال المعاصر: (الملابس الدّاخلية)، والثّياب هي التي تكون فوقها ظاهرة، فيتجمل بها المرء ويخالط بها النّاس ويلتقي عوامَّهم ووجهاءَهم ويمارس بها أعماله وأشغاله، ويذهب بها إلى دور العبادة كما أرشد القرآن إيها بقوله: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31].

وفي تعبير القرآن هنا باللباس - وهو ما استتر - وكونه من حرير، إيماء إلى أنّ الثّياب الظّاهرة إنما تكون أكثر فخامة وجمالًا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أنّ هذه الثّياب الظّاهرة لأهل الجنات إنّما تكون من سندس وإستبرق كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾ [الإنسان: 21] لكنّها لأهل العذاب إنما تكون من نار، لقوله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: 19].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 233.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 195.

بلاغةُ تقديمِ تحليةِ الأساورِ على اللّباسِ:

تقديمُ التّحليةِ علـى الـلّـبـاسِ إظهارٌ للرّفاهيةِ والتّنعُّمِ

من أغراض تقديم التّحلية على بيان حال اللّباس أنّ ثبوت اللّباس لهم أمر محقّق غنيّ عن البيان، إذ لا يمكن عَراؤُهم عنه، بخلاف التّحلية، فإنّها ليست من لوازمهم الضّرورية، فلذا جعل بيانها مقصودًا بالذّات، فلعلّ هذا هو السّر في تقديمها، على بيان حال اللّباس[1]، و(اللّباس كما هو معهود في الدّنيا، مقدّم على الأساور، فهو من الضّروريات والأساور حاجيات).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

جنّة الخلد وجنّة عدن:

الفرق بين جنّتي الـخُـلْـد وعَـدْن اعتباريّ، وبهما يـظـهـر كـمـال المكان والمكين

أصل اشتقاق لفظة الجنّة مأخوذ من السَّتر والتّغطية، ولفظ الجنّة كما يقول ابن القيم: هو الاسم العام المتناول لتلك الدّار، وما اشتملت عليه من أنواع النَّعيم واللَّذة والبهجة والسّرور وقرَّة الأعين[2].

ثمّ بعد هذا الاسم العامّ قد تأتي أوصاف للجنّة ومنها ما ورد في القرآن الكريم من وصف الخلد ووصف عدن.

أمّا وصف الخُلْد، فقد ورد في سياق وصف حالة أهل الجنّة من الخلود فيها، مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82] والخُلود: هو تبرّي الشّيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكلّ ما يتباطأ عنه التّغيير والفساد تصفه العرب بالخلود ... وأصل المُخَلَّد: الذي يبقى مدّة طويلة، ومنه قيل: رجل مُخَلَّد لمن أبطأ عنه الشّيب، ودابة مُخَلَّدَة: هي التي تبقى ثناياها حتى تخرج رَباعيتُها، ثم استعير للمبقيّ دائمًا، والخُلودُ في الجنّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها[3] فيُفْهَم من هذا أن وصف

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 195، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 130.
(2) ابن القيم، حادي الأرواح: 1/ 191.
(3) الرّاغب، المفردات: (خلد).

الجنة بأنها دار الخلد معتبر فيه حالة أهلها، وأنهم يبقون فيها على حالة لا يعتريهم فيها أي فساد خَلْقي أو خُلُقي، لأن ذلك من لوازم التنعم فيها.

أمّا وصف الجنّات بأنّها عَدْنٌ كما تنبئ عنه إضافة الموصوف إلى الصّفة في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا﴾، فإنّه مَرْعيٌّ فيه كون الجنّات دار إقامة ومستقرّ، لأنّ اللّفظ مأخوذ من قولهم: عَدَنَ بالمكان أي أقام فيه، فيفهم من هذا أنّ وصف الجنات بـ ﴿عَدۡنٍ﴾ دالّ على استقرار أهلها فيها دون الرّحيل عنها، فيؤول الكلام بمجموع الوصفين أنّ الجنّة دارُ خُلْدٍ لأهلها فلا يعتريهم فيها فساد ولا خلل ولا فناء، وأنّها دار عَدْنٍ يقيمون فيها فلا يفارقونها إلا تَرَقّيًا في داخلها أي: بين الجنّات، وبهذا يظهر أنّ الفرق بين الوصفين هو فرق اعتباريّ، وبمجموعهما يظهر كمال المكان والمكين.

الحليّ والزّينة:

بين اللّفظين عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ، فكلّ حُليٍّ زينةٌ وليست كلُّ زينةٍ حليًّا

الحُليّ جمع الحَلْي، نحو: ثَدْي وثُديّ، وقد ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148] وورد الفعل منه في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: 21][1] فالحُليّ على هذا اسم لما يتحلى به كالذّهب والفضّة، وهو نوع من الزّينة.

والزّينة: اسم دالٌّ على ما يُتَزيَّن به، وأصل (زيَنَ) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسِينِهِ[2]، والزّينَةُ ثلاث: زينة نفسيّة كالعلم، والاعتقادات الحسنة، وزينة بدنيّة، كالقوّة وطول القامة، وزينة خارجيّة كالمال، فقوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: 7]، فهو من الزّينة النّفسيّة، وقوله: ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 32]، فقد حُمِل

(1) الرّاغب، المفردات: (حلى).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).

على الزّينة الخارجيّة، والزّينَةُ الحقيقيّة: ما لا يَشين الإنسانَ في شيء من أحواله لا في الدّنيا، ولا في الآخرة، فأمّا ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شَيْن[1].

وعلى هذا فلفظ الزّينة أعم فيشمل الحليّ باعتباره نوعًا من أنواع الزّينة ويشمل غيره حسيًّا كان أو معنويًّا، فبينهما على هذا عموم وخصوص مطلق؛ فكلّ حليّ زينة وليس كلّ زينة حليًّا.

(1) الرّاغب، المفردات: (زين).

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: 34 - 35]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبطُ بين دخولِ ورثةِ الكتابِ الجنّاتِ وبين الحمدِ على الإنعامِ والتّكرماتِ

بعد أنّ أخبر سبحانه في الآية السّابقة عن جزاء المصطَفَيْن الذين أورثوا الكتاب فكانوا أهلًا لوراثته، وإنْ وقع من بعضهم بعض تقصير حيال أوامره ونواهيه، وجزاؤهم هو ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ - أخبر هنا بما يقولونه عند دخولهم الجنات حمدًا لله وشكرًا على فضل إحسانه، فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَزَنَۖ﴾: أصل (حزن) كـ (تعب) يدل على خُشونَةِ الشَّيْءِ وشِدَّةٍ فيهِ، والحَزْن هوَ ما غَلُظَ مِنَ الأَرْضِ، والحُزْنُ مَعْروفٌ[1]؛ فإنّه خشونة في النّفس لما يحصل فيه من الغمّ، ولاعتبار الخشونة بالغَمّ قيل: خشّنتُ بصَدْرِه: إذا حزنْتَه[2]، والحُزن ضد الفرح والسّرور، وقال اليزيدي: حَزَنَهُ لغة قريش، وأَحْزَنَهُ لغة تميم[3] فهوَ على ذلك يَتَعَدَّى في لُغَةِ قُرَيْشٍ بِالحَرَكَةِ يُقالُ: حَزَنَني الأَمْرُ يَحْزُنُني[4]، والحُزن بالضمّ والسّكون والحَزَن بفتحتين لغتان بمعنى واحد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(2) الرّاغب، المفردات: (حزن).
(3) الجوهريّ، الصحاح: (حزن).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (حزن).

كالبُخْل والبَخَل[1]، والمراد بذهاب الحَزَن في الآية: ذهاب خوف النّار، أو خوف الموت، أو هموم الدّنيا[2].

2) ﴿أَحَلَّنَا﴾: أصل (حلّ) فَتْحُ الشَّيْءِ، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ، يقالُ حَلَلْتُ العُقْدَةَ أَحُلُّها حَلًّا ومنه حَلَّ، أي: نَزَلَ، لِأَنَّ الْمُسافِرَ يَشُدُّ ويَعْقِدُ، فَإذا نَزَلَ حَلَّ[3]، فأصله إذن من حل الأحمال عند النزول، ثم جرّد استعماله للنّزول، فقيل: حَلَّ حُلولًا، وأَحَلَّهُ غيره، والحِلَّة: القوم النّازلون، وحيّ حِلال مثله، والمَحَلَّة: مكان النزول[4].

3) ﴿نَصَبٌ﴾: أصل (نصب) يَدُلُّ عَلَى إقامَةِ شَيْءٍ وإهْدافٍ في اسْتِواءٍ، يُقالُ: نَصَبْتُ الرُّمْحَ وغَيْرَهُ أَنْصِبُهُ نَصْبًا[5]، والنَّصيبُ: الحجارة تُنْصَبُ على الشيءِ، وجمْعُه: نَصائِبُ ونُصُبٌ، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ[6]، وهو المراد هنا فمعنى ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعبٌ ومشقّةٌ[7].

4) ﴿لُغُوبٌ﴾: أصل (لغب) يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وتَعَبٍ؛ تَقولُ: رَجُلٌ لَغْبٌ بَيِّنُ اللَّغابَةِ واللُّغوبَةِ، واللُّغوبُ: التَّعَبُ والإعْياءُ والمَشَقَّةُ[8]، ولَغَب (كفتَح وكتَب وكرُم وفَرِح ماضيًا ومضارعًا): تَعِبَ وأعيا أشدَّ الإعياء، ولَغّبَ السَّيرُ فلانًا وألْغبه: أتعبه أشدّ التّعب، ولغّب دابَّتَه -: تحامَلَ عليها حتى أَعْيَت[9]، ومعنى ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾: تعبٌ ومشقّة. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كَلالٌ، إذ لا تكليف في الجنّة ولا كَدّ[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وقال الّذين أنعم الله عليهم بدخول الجنّة - وهم ورثة الكتاب - بعد دخولهم الجنّة ورؤيتهم نعيمها: الحمد لله الّذي أزال عنا الحزن بسبب ما كنا نخافه من دخول النّار، إنّ

---

(1) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 38.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (حلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(6) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(7) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 90.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لغب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لغب).
(10) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 260، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 90.

مِن كمالِ النّعيمِ في الجنّاتِ خلوصُهُ من التّعبِ والمنغّصاتِ

ربنا لبالغ المغفرة لذنوب من تاب من عباده، بالغ الشّكر للطّائعين على طاعتهم بما يجزله من عطاء وفضل، ومن ذلك أنّه سبحانه أنزلَنا دار النّعيم المقيم، دار الإقامة التّي لا تحوّل عنها بعد دخولها، ولا انقضاء لنعيمها الخالي من كلّ ما ينغّص، حيث لا يصيبنا فيها تعب ومشقّة، ولا نكلَّف فيها بكدّ وعناء، تعويضًا عمّا نالنا في الدّنيا من ألوان التّعب من طلب المعيشة، ومعاناة التّكاليف الضّرورية لحياة الدّنيا وحياة الآخرة، ومعاشرة الأضداد، وعروض الآفات والأسقام.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في جملةِ ﴿وَقَالُواْ﴾:

تنوّع معاني الواو، مفيد في توسيع المعنى وترسيته

الواو يَحْتَمِل أن تكون عاطفة لما بعدها على ما قبلها وهي جملة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ عطف جمل، ويَحتمِل أن تكون استئنافيَّةً والجملة بعدها مستأنَفَة، وعليه فالفعل ماض مراد به المستقبل[1]، ويحتمل كذلك أن تكون حاليَّةً والجملة بعدها حاليَّة، معبرة عن حالهم وقولهم بعد دخول الجنات، وهو ما رَجَّحه ابنُ عاشور بحجَّة أنّ فيه تخلُّصًا من الحاجة إلى تأويل الماضي في ﴿وَقَالُواْ﴾ بتحقيق الوقوع مع أنّه لم يُقصد في قوله: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾[2].

عودُ الضّميرِ في لفظِ ﴿وَقَالُواْ﴾:

بيانُ أنّ الضّميرَ عائدٌ إلى (الذين اصطفينا) بأقسامِهِ الثّلاثةِ

الضّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ يعود إلى ما عاد إليه الضّمير في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ أي إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ المقسم إلى ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق، أي هؤلاء كلّهم يدخلون الجنّة؛ لأنّ المؤمنين كلّهم مآلهم الجنّة وهو الوجه الأظهر، أو أنّه يعود إلى السّابق بالخيرات فقط، بناء على الاختلاف في مرجع ضمير الفاعل في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ كما مضى في محلِّه.

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 22/ 248.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 316.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿وَقَالُواْ﴾:

فائدةُ التّعبير بالماضي ونكتَتُه الدّلالَةُ على تحقق الوقوع[1] وأن ﴿وَقَالُواْ﴾ هو بمعنى (يقولون) لتنسجم الصيغة مع صيغة المضارع في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾؛ وعلى ذلك ففي هذا التّحول عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضي في ﴿وَقَالُواْ﴾ استعارة تَبَعيَّة، وقد مضى أنّ ابن عاشور يرى أنّ الواو في ﴿وَقَالُواْ﴾ للحال وأنّ جملة (قالوا) حالية، ليتخلص من تأويل الماضي بالمضارع كما مضى بيانه.

تعبيرُ الماضي عن المستقبلِ مجازٌ وغرضُ التّعبير به تحقُّق الوقوعِ

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ واللّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾:

(أل) في﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ لاستغراق أفراد الجنس، أي كلّ أفراد الحمد وأنواعه، واللّام في﴿لِلَّهِ﴾ هي لام الاستحقاق، فالحمد كلّه بكامل أنواعه مُسۡتَحَقٌّ للّه ﷻ على إفضاله وجزيل إنعامه، وهذا الحمد الكامل مُسۡتَحَقٌّ له وحده دون سواه، وذلك أنّ تعريف الطّرفين - المسند والمسند إليه - مفيد للحَصۡر[2].

لا يستحقّ الحمدَ الكاملَ المُطلق أحدٌ إلّا الله تعالى

دلالةُ الجملةِ الاسميّة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

عبر بالجملة الاسمية في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ للدّلالة على الثّبوت مع الدّوام، فالحمد ثابت له سبحانه ثبوتًا دائمًا مُسۡتَحَقًّا على نِعَمِه الكثيرة الوفيرة التي لا تنقطع أبدًا عن عباده، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مقول القول في محلّ نَصۡبٍ.

ثبوتُ الحمدِ له سبحانه مع دوامِهِ هو ثبوتٌ مستحَقٌّ بيقينٍ

دلالةُ الموقعِ النّحويّ لقوله ﴿ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ﴾:

الموصولُ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ صفة لاسم الجلالة، وقد أجرى على اسم الجلالة الوصف بالموصول تنويهًا بمضمون الصّلة، ولما يفيده الموصول من تعليل الخبر[3].؛ أي هو سبحانه مُسۡتَحِقٌّ للحمد لأنّه ﴿أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ الآية.

التّعبيرُ بالموصول صفة لاسمِ الجلالةِ تنويهٌ بمضمونِ جملةِ الصّلةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 153.
(2) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 3/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 247.

التّقديمُ المُفيدُ للاهتمام والاختصاصِ مبينٌ عن المراد

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَنَّا﴾:

قدَّم شبه الجملة ﴿عَنَّا﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾، حيث الضّمير المجرور مراد به أهل الجنّة القائلون ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ للاهتمام والاعتناء، فمحور الحديث دائر عليهم، وما أُذهِب الحزن إلا عنهم، وهو بهذا مفيد للاختصاص كذلك، فَهُمْ وحدَهُم دون أهل النّار من حَظَوا بهذا الفضل.

استغراقُ كلّ أفرادِ الجنس مُعبّر عن الشّمول والاستيعابِ

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡحَزَنَۖ﴾:

(أل) في﴿ٱلۡحَزَنَۖ﴾ لاستغراق كلّ الأفراد، فإنّ أهل الجنّة لا ينالهم شيء من الحزن مهما قلَّ، فقد نَزَعَ اللّه عنهم أسبابَه وأَبْعَدَ عنهم دوافِعَه؛ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: 43]، فأكثر أسباب الحزن إنما تأتي بسبب مخالطة النّاس والاحتكاك بهم، أما أهل الجنة فليس بينهم وبين إخوانهم من أهل الجنّة إلا الأنس والمودة؛ كما يعبر عن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: 47 - 48].

في إذهابِ الحزنِ غاية اللّطف والإشفاقِ

بلاغةُ المجازِ في إذهابِ الحزنِ:

في قوله تعالى: ﴿أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ تعبير بالمجاز، حيث استخدم إذهاب الحزن في التّعبير عن الإنجاء منه فَيصْدُقُ بإزالته بعد حصوله، ويَصْدُقُ بعدم حصوله[1]، وعليه ففي ﴿أَذۡهَبَ﴾ بمعنى أنجى استعارة تصريحيّة تبعيّة، أو مجاز مرسل بعلاقة السببيّة، حيث إن إذهاب الحزن سبب في الإنجاء منه، أو بعلاقة اللزوم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 316.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾:

المقصودُ بالسّياقِ الثّناءُ على اللهِ تعالى لفرطِ فضلِهِ وإنعامِهِ

قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، اسْتِئْنافُ ثَناءٍ على اللّه شكروا به نعمة السّلامة، وأثنوا عليه بالمغفرة لتجاوزه عما اقترفوه من اللَّمَمِ وحديثِ الأنفس ونحو ذلك مما تجاوز اللّه عنه بالنّسبة للمقتصدين والسّابقين، ولِما تجاوز عنه من تطويل العذاب وقبول الشّفاعة بالنّسبة لمختلف أحوال الظّالمين أنفسهم، وأثنوا على اللّه بأنّه شكور لما رأوا من إفاضته الخيرات عليهم ومضاعفة الحسنات مما هو أكثر من صالحات أعمالهم[1].

فائدةُ تتابعِ المؤكّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

غرضُ تتابعِ المؤكّداتِ هو الاهتمامُ والاعتناءُ بالثّناءِ على اللهِ تعالى

في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ جملة من المؤكِّدات بغرض الاهتمام والاعتناء بالثّناء عليه سبحانه - لأنّ هذا الكلام منهم إنما يكون في يوم القيامة، حيث لا يوجد منكرون لما قرروه في هذا الثناء - هي: الاستفتاح بـ﴿إِنَّ﴾ التوكيدية، والاسمية الجملة، واللّام المزحلقة الدّاخلة على الخبر، والختم باسمي (غفور وشكور) مع تنكيرهما وبنائهما على المبالغة.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيّةِ مُضافًا:

يبرز أوّلًا سرّ اختيارهم لفظ الرّبوبية دون الألوهيّة، وذلك لأنّ فيض الإنعام إنّما هو من تجليات الرّبوبية، ثمّ إنّ في إضافة لفظ الرّبوبية إلى ضميرهم تشريفًا لهم وتكريمًا.

سرُّ إظهارِ لفظِ الرّبِّ في موقعِ الإضمارِ:

الرّبوبيةُ مسلكٌ للغفرانِ والشّكرانِ

قوله:﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، وفيه أظهر اسم الرّب في محلّ إضماره لسبق ذكره في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، قصدًا إلى التّعرض لعنوان الرّبوبية، وما يترتّب عليها من مغفرة ذنوبهم، وشكر أعمالهم بالمكافأة عليها بالفضل لا بالعدل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 316.

الشّكرانُ والغفرانُ إبرازٌ لكمالِ العنايةِ والإنعامِ

علّةُ التّذييلِ بقولِه: ﴿لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

ذيّلت الآية الكريمة بالاسمين الجليلين (غفور وشكور) اللَّذَيْن تعانقا هنا لإبراز كمال العناية وكمال الإنعام على ورثة الكتاب؛ فإنّ من مقتضى ذلك مغفرة ذنوبهم التي صدرت منهم بمقتضى كونهم غير معصومين، وهو ما أفاده الاسم الجليل (غفور) أي عظيم المغفرة، ثم مضاعفة حسناتهم على أعمالهم، مع الإغداق عليهم من فضله الواسع الذي يكون بلا مقابل؛ وهو ما أفاده الاسم الجليل ﴿شَكُورٌ﴾ أي كثير الشّكر وافر العطاء "فهو شكر بالعمل؛ لأنّ الذي يجازي على عمل المَجْزيّ بجزاء وافر، يدل جزاؤه على أنّه حمد للفاعل فعله"[1] فالشّكر على هذا مجاز عن الإثابة[2].

المغفرةُ سلامةٌ مطلوبةٌ قبل الشّكرِ الّذي هو فضلٌ وغنيمةٌ

نكتةُ تقديمِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿شَكُورٌ﴾:

وفي سرّ تقديم ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿شَكُورٌ﴾ يقال: إنّ المغفرة هي صون العبد من أن يناله العقاب أو يمسَّه العذاب، مأخوذة من قولهم: اغْفِرْ ثوبك في الوعاء، واصبغ ثوبك فإنّه أَغْفَرُ للوسخ[3]، وأمّا الشّكر فهو مكافأة على حسن العمل مع مراعاة الفضل في المكافأة والإكرام، وعليه، فالتّرتيب بين الاسمين الجليلين في محلّه، من حيث إنّ تقديم ما يفيده الاسم الأوّل، مقدَّم على ما يفيده الثّاني؛ لأنّ التّخلية مقدّمة على التّحلية.

بيانُ أنّ التّنكيرَ للتّعظيمِ ومزيدِ الفضلِ

غرضُ تنكيرِ ﴿لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

ونَكَّر الاسمين الجليلين، تفخيمًا وتعظيمًا، فهو سبحانه متّصف بالمغفرة البالغة التي تطمع المقصرين في مغفرته وعفوه، وبالشّكر العظيم، الّذي يثلج صدور الطّائعين ويحفّزهم على مزيد الطّاعة والإكثار من القربات.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 308.
(2) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع القونويّ: 16/ 62.
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).

فائدةُ المبالغةِ في صيغتي المغفرةِ والشّكرِ:

المبالغةُ في صفاتِ اللهِ دلالةٌ على عظمتِهِ وجلالِهِ

وصياغة هذين الاسمين الجليلين على طريقة المبالغة راجع إلى عظيم أمرهما وجلالة قدرهما، وإلى تكرر آثار كلّ صفة منهما مع الفرد الواحد، فهو سبحانه يغفر لعبده مرات ويتوب عليه مرات ويكافئه بفضله مرات ومرات، فتمتد آثار شكر الله للعبد رأسيًّا وأفقيّا، وهكذا بسائر العباد.

ومما وجَّه به العلماء مجيءَ صفات الله تعالى على جهة المبالغة كذلك؛ أنّها منظور فيها إلى اعتبار تعدد المفعولات[1]، ومعنى ذلك أنّ سلطان صفات الله تعالى يقع على أفراد عديدين؛ بل جماعات متعددين في الوقت الواحد، لأنّه سبحانه عظيم في صفاته[2].

نكتةُ فصلِ قولِه ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا﴾:

قوله تعالى:﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾، صفة لقوله ﴿رَبَّنَا﴾ في الآية السّابقة، ولهذا فُصلت عمّا قبلها لما بينهما من كمال الاتّصال.

سرُّ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ وصلتِهِ:

ذِكْرُ الموصولِ تنويةٌ بمضمونِ الصِّلةِ

عبّر بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ الّذي هو صفة لـ ﴿رَبَّنَا﴾، تنويهًا بمضمون الصّلة، وهو كونه سبحانه قد أنعم عليهم أيضا بأنّ أحلَّهم ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ وهي الجنّة حيث يقيمون فيها بلا رحيل عنها، وهذا أيضًا من دواعي قصر الحمد الكامل عليه سبحانه وحده.

دلالةُ مفعولي (أَحَلَّ):

تعديةُ الفعلِ لمفعولَيْنِ أوفى في الدّلالةِ عن المُرادِ

المفعول الأوّل في قوله: ﴿أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾، هو ضمير المفعول في ﴿أَحَلَّنَا﴾، والمفعول الثّاني هو ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾، ولا يصحّ أن يكون ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ ظرفًا؛ لأنّه مختصٌّ فلو كان ظرفًا لتعدَّى إليه الفعلُ بـ (في)[3].

---

(1) الزّركشي، البرهان: 2/ 508.

(2) أحمد الخطيب: مفاتيح التفسير: 2/ 751.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 233.

نكتةُ وصفِ الجنّةِ بدارِ المُقامةِ:

الجنّةُ هي دارُ الإقامةِ الّتي لا تحوّل عنها لمَنْ دَخَلَها

في قوله: ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ إشارة إلى أنّ الجنّة دار خلود وبقاء، لا يتحول عنها أبدًا من دخلها ولا يموت، بخلاف الدّنيا؛ فإنها منزلة ينزلها المكلَّف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور، ومن القبور إلى منزلة العرَصة التي فيها الجمع، ومنها التّفريق إلى الجنة وإلى النّار، وقد تكون النّار لبعضهم منزلة الانتقال، وأما الجنّة فهي دار الإقامة مطلقًا[1].

الغرضُ من التّعبيرِ بالمصدرِ الميميّ ﴿ٱلۡمُقَامَةِ﴾:

المـصـدرُ الميمي يـدلّ على نهايةِ الأمرِ وغايتِه

المقامة مصدر ميميّ بمعنى الإقامة؛ لأنّ المصدر الميميّ من المزيد يكون على صيغة المفعول كالمُدخَل والمُخرَج[2]، وفي التّعبير بالمصدر الميميّ قوّة وتأكيد، إضافة إلى ما يشعر به من انتقالهم من حالة إلى حالة، ومن دار إلى دار، بحيث تكون هذه الدّار ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾، هي نهاية الأمر، وأنّه لا تحوّل عنها، فمثلا كلمة المآب، وهي مصدر ميميّ تدلّ على نهاية الأمر وغايته، وكذلك كلمة المصير وكلمة المنقلب ونحوها، وهذا بخلاف المصدر الأصليّ الّذي يدل على مجرّد الحدث، دون أي ملابسات أخرى[3].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ ابتدائيّة في موضع الحال، من ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾[4]، وجائز أن تكون لام العِلّة والسّببيّة[5]، أي بسبب فضله ولأجله.

نكتةُ إضافةِ الفضلِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

بيانُ أنّ الإضافة للتّشريف ولِفَرْطِ الأدبِ مع اللهِ

أضاف الفضل إلى ضمير العظمة، في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾

(1) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 38.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي: 7/ 38.
(3) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 35.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 316.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 232، والخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 249.

تعظيمًا لما ينالهم من فضل الله، فكلّ فضل من العظيم عظيم، وتأدُّبًا في نسبة ما نالوه من عطاء وجزاء إلى فضل الله لا إلى أعمالهم التّي قدَّموها. "ومن علم أنّ العمل متناه زائل، وثواب الجنّة دائم لا يزول، لم يشكّ في أنّ الله تعالى ما أحلّ مَنْ أَحلَّ دارَ الإقامة إلّا من مَحْضِ فضله سبحانه"[1].

نكتةُ فصلِ قولِه﴿لَا يَمَسُّنَا﴾:

دلالــةُ جملةِ الفصلِ المنفيّ مضارعها على البيانِ المُرادِ

قوله تعالى:﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ جملة حالية في محلّ نصب، سبب فصلها مع كونها جملة حالية، هو كونُ فعلها مُضارعًا مَنْفيًّا بـ ﴿لَا﴾[2]، وهذه من الحالات التي تفصل فيها الجملة الحالية عن سابقتها.

وجائز أن تكون الجملة مُستأنَفَة استئنافًا ابتدائيًّا مسوقًا لبيان سَلْب التّعب عنهم إثر بيان إثبات أنواع المسرّة[3]، وأيضًا للإخبار عن نعمة أخرى جديدة تضاف إلى ما سبق من نِعَم، وتكون مستقلّة عنها، والغرض الإغراق في بيان فضل الله عليهم، وهذا من لوازم الشكر.

سرُّ التّعبيرِ بالمسِّ دونَ الإصابةِ:

التّنبيهُ بنفي الأدنى على نفي الأعلى

ومما يلفت في دقة التّعبير القرآني هو إيثاره أن يكون الفعل المنفي مأخوذًا من المسّ الذي يُعبِّر عن اللمس الرّقيق، ولم يقل: (لا يصيبنا) فيُشْعِر بعمق الإصابة والإيلام؛ لأنّه إذا نَفَى الأقلَّ والأدنى وهو المَسُّ، فقد نفى الأعلى وهو الإصابة والإيلام، وهذا من باب التّنبيه بنفي الأدنى على نفي الأعلى.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾:

المضارع المنفيّ بـ (لا)، يدلّ على عدم حصول المنفيّ حالًا واستقبالًا

نكتة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَمَسُّنَا﴾ المنفي بـ ﴿لَا﴾ هو الدّلالة على استمرار هذا النّفي وعدم انقطاعه في المستقبل، فإنّ ﴿لَا﴾ إنّما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 372.

(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 188.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 170.

تكون لنفي الاستقبال باتّفاق، ولنفي الحال أيضًا على رأي كثيرين، والمعنى: لا يمسّنا في الحال ولا في الاستقبال ما ينغّص علينا من النّصب واللّغوب، فنفيُ مسّ النّصب واللّغوب في الجملتين بصيغة المضارع، اسْتمْرارٌ تجدّديٌّ بواسطة توهّم عروض تعب ناشئ من قياس النّشأة الأولى، فنفى ذلك بالاسْتمْرار التّجدديّ، والمَعْنَى كلّما توهّم نزول تعب بسَبَب من الأسباب، فلا يمسّهم نصب ولا لغوب، فَضْلًا عن نزوله وعروضه(1).

نكتةُ تقديمِ المفعولِ بِهِ على الفاعلِ:

قُدّم المفعولُ به لاتّصالِهِ بالفعلِ والاهتمامِ به

قدم المفعول به على الفاعل في قوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ فكلمتا ﴿نَصَبٌ﴾ و﴿لُغُوبٌ﴾ كلتاهما فاعل لـ ﴿يَمَسُّنَا﴾ في الموضعين، و(نا) الفاعلين في الموضعين مفعول به، وإنّما قدم المفعول به لكونه ضميرًا متصلًا بالفعل، وكون الفاعل اسمًا ظاهرًا في الموضعين، فحالئِذ يجب تقديم المفعول به على الفاعل، ومع هذا الوجوب التّركيبي نلمح سرًّا معنويًّا وهو أنّ تقديم المفعول به أفاد الاهتمام والاعتناء بورثة الكتاب الذين أَحلّهمُ اللّهُ دارَ المُقامَة وأبعد عنهم الحزن، ونفى عنهم النّصب واللغوب.

نكتةُ الظّرفيّةِ ﴿فِيهَا﴾ وتقديمُها:

الظّرفُ هنا قيدٌ في انتفاءِ النّصبِ والـلّـغـوبِ في الجنّةِ

عبَّر بشبه الجملة الظّرف في قوله ﴿فِيهَا﴾ وقَدَّمَه في الموضعيْن على الفاعل ﴿نَصَبٌ﴾ و﴿لُغُوبٌ﴾ للإشعار بكون هذا الظّرف قيدًا في الانتفاء، فَعَدَمُ مَساسِهِم بالنَّصَب واللُّغوبِ هو مقيّد بدخول الجنّة لا قبله، ففي الدّنيا قد يصيبهم النّصب، وما هو أعلى منه؛ لأنّ الدّنيا دار اختبار وعمل وتمحيص، وأمّا الجنّة فهي دار نعيم مقيم، مجرّد عن كلّ ما يسمّى نَصَبًا أو لُغوبًا، وفي التّقديم دلالة على فضل الجنّة لكونها دار رضا الرّحمن التي ينعَّم فيها عباده الطّائعون.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 171.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿نَصَبٌ﴾:

بيانُ أنّ علّةَ التّنكيرِ التّعميمُ والتّقليلُ

وسِرُّ تنكير قوله ﴿نَصَبٌ﴾ هو التّعميم والتّقليل، على معنى لا يمسُّنا فيها أقلُّ النَّصَب فضلًا عن كثيره، فوقوع كلمة ﴿نَصَبٌ﴾ نكرةً في سياق النّفي يدلّ على نَفْيِ وقوعِ كلّ ما يُسمَّى نَصَبًا وإن دَقّ أو صَغُر، فَضْلًا عمّا كَثُر منه أو كَبُر.

دلالةُ موقع ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾:

جملة ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾، جملة حالية من ضمير المفعول به الأوّل، في ﴿أَحَلَّنَا﴾، وهو الأظهر، أو هي حال من المفعول الثّاني، وهو ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾[1].

معنى الواوِ في قوله ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾:

الواو للعطف، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾[2] ولها حكمها.

بلاغةُ المجازِ في السّياقِ المُحكَم:

في التّعبيرِ بالمسِّ عـن الإصـابـةِ استعارةٌ تبعيّةٌ

في التّعبير بالمسّ المنفيّ، في قوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ استعارة تَبَعيَّة، حيث استعمل المسّ في معنى الإصابة، وسرّ العدول عن التّعبير بالإصابة إلى التّعبير بالمسّ، هو أنّ التّعبير بالمسّ أرقّ من التّعبير بالإصابة، فإذا نفاه فقد نفى ما هو أعلى منه، فيكون من باب التّنبيه بنفي الأدنى على نفي الأعلى كما مضى ذكره.

نكتةُ إعادةِ ذِكْر ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾:

التّكريرُ للتّأكيدِ والمبالغةِ، وعدّ كلّ جملةٍ نعمة مستقلّة

في إعادة الفعل المنفي في قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ تأكيد انتفاء المسّ[3] ومبالغة في انتفاء كلّ منهما[4]، وفي استقلال هذه

---

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 250.
(2) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 154.

الجملة الثّانية عن الأولى حيث لم يقولوا: (ولا يمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا لُغوبٌ) إشعار بأنّ أهل الجنّة قد عَدّوا كلّ واحدة منهما نعمة مستقلة بذاتها شكرًا للّه واعترافًا له بالفضل.

عِلَّةُ الجمعِ بين نفي مساسِ التّعبِ والنَّصَبِ:

نَـفْـيُ الـتّـعـبِ البدنيّ والنّفسيّ مدعاةٌ لتكاملِ عافيتِهم

وإنما جمع بين نَفْيُ أن يمسّهم تعب أو نصب؛ لتتكامل عافيتهم البدنية والنّفسية، فقولهم: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب بدن، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي تعب نفس، وهو لازم عن تعب البدن[1]، فالفرقُ بينهما أن النّصب هو نفس المشقَّة والكُلفة، واللُّغوب ما يحدث منه من الفتورِ، والتَّصريحُ بنفي الثّاني مع استلزامِ نفي الأوَّلِ له[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿لُغُوبٌ﴾:

وتنكير ﴿لُغُوبٌ﴾ كتنكير ﴿نَصَبٌ﴾ وهو الدّلالة على التّقليل، على معنى لا يمسُّنا فيها أقلُّ النّصب وأقلُّ اللغوب، فَضْلًا عن الكثير منهما.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحريرُ والسّندسُ والاستبرقُ:

ثـلاثـتـهـا من النّسيجِ الغالي الـنّـفـيـسِ، والـفـرقُ بينها في سُـمـكـهـا واستخدامِها

يشترك كلّ من الحرير والسندس والإستبرق في كون كلّ منها من أنواع النّسيج النّفيس والفرق بينها في سُمكها واستخدامها؛ فالحَريرُ من الثّياب كما قال الرّاغب: هو ما رَقَّ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: 33][3] "فهو رقيقٌ ناعم ليس فيه غِلَظ»[4] والإستبرق هوَ ما غَلُظ مِنَ الحَرير، وقيل: الدّيباج الغليظ الخشن[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 34.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 154.
(3) الرّاغب، المفردات: (حر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حر - حرر).
(5) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 47، وابن منظور، لسان العرب: (استبرق).

والسّندس هو: نمارق من الحَرير[1]، وقيل: هو رقيق الدّيباج بالفارسية[2].

الحمد والشّكر:

الحمدُ أعمّ من الشّكر، وبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، أو مُطلقٌ على خلافٍ

الحمدُ: الثَّناءُ على الجميل سواءً كان نعمةً مُسْداةً إلى أحدٍ أم لا، يقال: حَمِدْتُ الرجل على ما أنعم به عليَّ وحَمِدْته على شجاعته، ويكون باللسان وحدَه دونَ عملِ الجَوارح، إذ لا يقال: حَمِدْت زيدًا أي عَمِلْتُ له بيديَّ عملًا حسنًا، بخلافِ الشّكر فإنّه لا يكونُ إلّا نعمةً مُسْداةً إلى الغيرِ، يقال: شكرتُه على ما أعطاني، ولا يقال: شكرتُه على شجاعته، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13] وقال الشّاعر:

أفادَتْكُمُ النَّعْماءُ مني ثلاثةً *** يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

فيكونُ بين الحمد والشّكر عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ، وقيل: الحمدُ هو الشّكرُ بدليل قولهم: "الحمدُ للّه شكرًا"، وقيل: بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ والحمدُ أعمٌّ من الشّكرِ، فكلُّ حَمْدٍ شكرٌ ولا عكس[3].

الحزنُ والغمّ والهمّ والبؤس:

هـذه الألـفـاظ هي انفعالات، يـجـمـعـهـا الـحـزن، لكونه أثرًا لها

الحُزن بالضم والسّكون والحَزَن بفتحتين لغتان بمعنًى واحد كالبُخْل والبَخَل[4]، وأصل (حَزِن) كـ (تَعِب) يدلّ على خُشونَةِ الشَّيْءِ وشِدَّةٍ فيه، والحَزْن هو ما غَلُظَ مِنَ الأَرْضِ، والحُزْنُ مَعْروفٌ[5]؛ فإنّه خشونة في النّفس لما يحصل فيه من الغمّ، ولاعتبار الخشونة بالغمِّ قيل: خشَّنْتُ بصدره: إذا حزنْتَه[6]، والغمّ كَرْبٌ يحصل للقلب بسبب

(1) الكفوي، الكليات، ص: 519.
(2) السّيوطي، الإتقان: 2/ 135.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 201، والراغب، المفردات: (حمد)، والسّمين، الدّرّ المصون: 1/ 36.
(4) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 38.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(6) الرّاغب، المفردات: (حزن).

ما يحصل، والهمّ لما يتوقع حصوله، قال العسكريّ في الفرق بينهما: الهمّ هوَ الفِكر في إزالَة المَكْروه واجتلاب المحبوب، ولَيْسَ هوَ من الغم في شَيْء، أَلا ترى أَنَّك تَقول لصاحبك: اهتم بحاجتي ولا يَصح أَن تَقول اغتمَّ بها، والغَمّ معنى ينقبض القلب مَعَه ويكون لوُقوع ضَرَر قد كانَ، أَو توقع ضَرَر يكون أَو يتوهَّمُه(1).

وقال صاحب "تاج العروس" في التّفريق بينهما: الغمّ هو الكرب يَحصُلُ لِلقَلْب بسَبَبِ ما حَصَلَ، والهَمُّ هوَ الكَرْبُ يَحْصُلُ بِسَبَبِ ما يُتَوَقَّعُ حُصولُه مِنْ أَذًى(2).

والبَأْسُ والبُؤْسُ والبَأْساءُ: الشّدة والمكروه، إلا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في النّكاية، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ۝٨٤﴾ [النساء: 84]، وقوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42] وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177](3).

وعن معاني هذه المفردات جميعها ينشأ الحزن؛ فهو انفعال نفساني وشعور ينشأ عما يعتري النّفس من الهم والغم والبؤس.

الحلّ والإقامة والسّكن:

النّـزولُ بالمكانِ والـقـرارِ فيه مشتركٌ بينها، وكلٌّ منها يُقال باعتبارٍ مُعيَّنٍ

الحِلُّ هو النّزول بالمكان، وأصل (حَلّ) فَتْحُ الشَّيْءِ؛ يقالُ: حَلَلْتُ العُقْدَةَ أَحُلُّها حَلًّا ومنه حَلَّ، أي: نَزَلَ، لِأَنَّ المُسافِرَ يَشُدُّ ويَعْقِدُ، فَإِذا نَزَلَ حَلَّ(4)، فأصله إذن من حلّ الأحمال عند النّزول، ثم جُرِّد استعماله للنّزول، فقيل: حَلَّ حُلولًا، وأَحَلَّهُ غيره، والحِلَّة: القوم النّازلون، وحيٌّ حِلالٌ مثلُه، والمَحَلَّة: مكان النزول(5).

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 266، 267.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (غمم).
(3) الرّاغب، المفردات: (بؤس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلّ).
(5) الرّاغب، المفردات: (حلّ).

وأما الإقامة، فهي من أقام بالمكان بمعنى استقر فيه، وكذلك (المُقام) بضم الميم فمعناه الإقامة بالمكان[1]، وأما المَقام بِالفَتْح فمصدر قامَ يقوم مَقامًا والمقام أَيْضًا مَوضِع القيام، والمَقامة بِالفَتْح المجْلس الَّذي يُتحدث فيه[2].

والمُقامة - بالضم - الإقامة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي الإقامة، وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: 13] من قام، أي: لا مستقرّ لكم[3].

والسكن مأخوذ من السُّكون وهو: ثبوت الشيء بعد تحرّك، ويستعمل في الاستيطان نحو: سَكَنَ فلان مكان كذا، أي: استوطنه، ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][4].

والسّكن: اسم بمعنى المسكون، يقال: سكن فلان البيت، إذا جعله مَقَرًّا له، وهو مشتقٌّ من السّكون، أي القرار[5].

والمعنى المحوري للسّكن: استقرار في جوفِ حيِّز أو باطن، كالقوت في الجوف، وسكن بالمكان أقام، بمعنى: استقرّ في جوفه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45]، ويقال لأهل الدّار: ساكنون؛ لأنّهم يستقرون في جوف البيت والمنزل[6].

وعلى هذا فالذي يجمع بين ثلاثتها هو النّزول بالمكان والقرار فيه، وكلٌّ منها يقال باعتبار معين، فالحلّ باعتبار النّزول بالمكان، والإقامة بمعنى القيام والاستقرار فيه، والسّكن بمعنى السّكون فيه والاستقرار كذلك.

دار السّلام ودار المقامة وجنات عدن ونحوها:

هذه الأوصاف وغيرها مما ذُكر في القرآن هي صفات راسخة في الجنّة ولذلك أضيفت إليها فقيل: دار السّلام في قوله سبحانه: ﴿۞لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 307.
(3) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 238.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).

كلُّ ما ورد، هي معانٍ وأوصاف ملابسة للجنَّة لغةً، وبعضها قد يكون مراتب لها

127] ودار المقامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وجنّات المأوى في قوله سبحانه: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [السجدة: 19] وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: 13 - 15] وجَنّات عَدْنٍ في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: 23] وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وجَنّات النعيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [لقمان: 8].

فهذه جميعُها أوصاف للجنّة، أو مراتبُ لها، ولها معانيها الحاصلة والمُلابِسة للجنّة: فهي دار السّلام؛ من السّلامة لأن مَنْ فيها يَسلمون من الأذى والمنغِّصات، وهي دار المقامة التي يقيم فيها الصّالحون بلا ارتحال عنها، وهي جنّات المأوى؛ لأنّ الصالحين يأوون إليها لا إلى غيرها كما أن أهل النّار يأوون إليها كذلك، وهي جنات عَدْن لكونها مستقَرًّا لأهلها فيقال: عدن بالمكان أي: أقام فيه، وهي جنات النّعيم لكون أهلها ينَعَّمون فيها، وعلى هذا، فكلُّ ما ورد في ذلك هي معانٍ وأوصاف ملابسة للجنّة بمعانيها المعروفة في اللغة، وبعضها قد يكون مراتب لها.

النَّصَب واللُّغوب:

النّصب هو تعب البدن والجسم، والـلّـغـوب هو الألم النّفسانيّ

النّصب واللّغوب من باب واحد، وقد وردا معًا في قول ورثة الكتاب حال دخولهم الجنّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

وعن الفرق بينهما قال أبو السّعود: والفرقُ بينهما أنّ النّصب

نفس المشقَّة والكُلفة، واللُّغوب ما يحدث منه من الفتورِ[1]، وقال البِقاعيُّ: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي نصبُ بدنٍ ولا وجعٌ ولا شيءٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي كَلالٌ وتعبٌ وإعياءٌ وفتورُ نفس من شيء من الأشياء، قال أبو حيان: هو لازم من تعب البدن، فهي الجديرة لعمري بأن يقال فيها:

علينا لا تنزل الأحزان ساحتها *** لو مسّها حجر مسّته سراء[2].

أي أنّ النّصب هو تعبُ البدن والجسم، واللُّغوب هو الألم النّفساني الذي قد يكون أثرًا لتعبِ البدن وقد يكون ذاتيًّا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 61.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ربطُ السّرورِ والنّعيمِ للمؤمنين المُنَعَّمين بمعرفةِ مصير الكافرين المُتَجبِّرين

لما بيّن سبحانه في الآيات السّابقة ما فيه المؤمنون ورثة الكتاب من النّعماء، بيّن بعد ذلك ما لأعدائهم من الضرّاء، زيادةً في سرورهم لما قاسَوْه في الدّنيا من تكبُّرِهم عليهم وفجورهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾[1]، أو يقال: إنّه لما ذكر حالَ المؤمنين ومَقرَّهم، ذكر حال الكافرين، وهذا يدل على أنّ أولئك الثّلاثة هم في الجنّة، والذين كفروا هم مقابلوهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقۡضَىٰ﴾: أصل (قضى) يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ أَمْرٍ وإِتْقانِهِ وإِنْفاذِهِ لِجِهَتِهِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] أَيْ أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ[3]، ويأتي (قضى) من الانقضاء بمعنى الذّهاب والانتهاء، يقال: قضى الشّيء يقضي: إذا قطعه وأزاله[4]، وانقَضى الشّيء وتَقضّى أي فَني وذهب[5]، ومنه انقضاء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 61.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 35.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضى).
(4) الرّاغب، المفردات: (تفث).
(5) الخليل، العين: (قضى).

الأجل بمعنى انتهائه، ومعنى ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ لا يُحكم عليهم بموتٍ ثانٍ فيموتوا ويستريحوا[1].

2) ﴿يُخَفَّفُ﴾: أصل (خفّ) يدلّ على ما يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ، يُقالُ خَفَّ الشَّيْءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهوَ خَفيفٌ وخُفافٌ[2]، فالخَفيف يذكر بإزاء الثّقيل، ويقال ذلك باعتبارات مختلفة منها اعتبار المضايفة بالوزن، وقياس شيئين أحدهما بالآخر، نحو: درهم خفيف، ودرهم ثقيل[3]، ومعنى ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ أي: لا يخفف عنهم نوع عذابهم، والنّوع في نفسه يدخله أن يَخْبوَ أو يُسَعَّر ونحو ذلك[4].

3) ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾: أصل (صرخ) يَدُلُّ عَلَى صَوْتٍ رَفيعٍ[5] والاصطراخ افتعال من الصّراخ وهو شدة الصّياح، ويصطرخون: بنى من الصّرخ "يفتعل"، وأُبدِلت من التّاء طاءٌ، وأصله يصرخون[6]، والاسْتِصْراخ: الاستغاثَة[7]، والمعنى المحوريُّ له: صياح حادّ نافذ كذلك الصّوت الذي يكاد يخرق الأذن[8]، ومعنى ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾[9].

4) ﴿نُعَمِّرْكُم﴾: (عمر) له أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ، ومنه العُمْرُ وهوَ الحَياةُ، ويُقالُ: عَمِرَ النّاسُ: طالَتْ أَعْمارُهُمْ، وعَمَّرَهُمُ اللّهُ – جَلَّ ثَناؤُهُ – تَعْميرًا، والأصل الآخَرُ يدل عَلَى شَيْءٍ يَعْلو، مِنْ صَوْتٍ أَوْ غَيْرِهِ.[10] والملائم لقوله: ﴿نُعَمِّرْكُم﴾ هو الأصل الأول، والعَمْرُ والعُمُرُ: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمارَةُ بدنِهِ بروحه[11]، والمراد بالتّعمير: تطويل العمر[12].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 154.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خف).
(3) الرّاغب، المفردات: (خف).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 441، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 36.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرخ).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 36.
(7) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (صرخ).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صرخ).
(9) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 690.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمر).
(11) الرّاغب، المفردات: (عمر).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 319.

5) ﴿فَذُوقُواْ﴾: أصل (ذوق) يدل على اخْتِبار الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فَيُقالُ: ذُقْتُ المَأْكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بِإنْسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فَقَدْ ذاقَهُ[1]، وأصل الذّوق يقالُ فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذّوق في العذاب، لأنّ ذلك - وإن كان في التّعارف للقليل - فهو مستصلح للكثير، فخصّه بالذّكر ليعمّ الأمرين[2]، والمراد به في الآية: الإيلام الشّديد، تهكُّمًا بهم[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ ندمِ أهلِ النّارِ حين لا ينفع النّدم ولا تُجدي الحسرة

بيَّن اللّه تعالى هنا جزاء الذين كفروا يوم القيامة؛ فإنّ لهم نار جهنم خالدين فيها، لا يُقْضَى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب، ولا يُخَفَّف عنهم من عذاب جهنم شيء، مثل هذا الجزاء نجزي يوم القيامة كلّ جحود لنِعَم ربِّه، وهم يصيحون فيها بأعلى أصواتهم يستغيثون قائلين: ربنا أَخرجنا من النّار نعمل عملًا صالحًا مغايرًا لما كنا نعمل في الدّنيا لننالَ رضاك، ونَسْلَم من عذابك، فيجيبهم اللّه: أَوَلم نجعلكم تعيشون عمرًا يتذكر فيه من يريد أن يتذكَّر، فيتوب إلى اللّه ويعمل عملًا صالحًا، وجاءكم الرّسول منذرًا لكم من عذاب اللّه؟! فلا حُجَّةَ لكم، ولا عُذرَ بعد هذا كلّه، فذوقوا عذاب النّار، فما للظّالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي من نصير ينقذهم من عذاب اللّه أو يخفّفه عنهم[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

عطف الجمل مُفيدٌ في الإبانةِ عن المعنى المحتملِ

الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عاطفة، والجملة بعدها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذوق).
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 38.
(4) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في التّفسير، ص: 438.

معطوفة على جملة: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾[1]، وغرض العطف الجمع في الحديث بين جزاء الطّائعين وجزاء الكافرين لتظهر المضادّة، فيفرح المؤمنون ويتحسّر الكافرون، وقيل: العطف على جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ ويكون ما بينهما اعتراضًا[2]، وجوّز أن تكون الواو استئنافًا وما بعدها جملة مستأنفة[3].

نكتةُ التّعبيرِ بالموصولِ (الَّذينَ) وصلتِهِ:

التّـنـبـيـهُ على سببِ العذابِ، والـحـضّ على تصحيحِ المُعتقَدِ

عبَّر بالاسم الموصول تنبيهًا على ما تضمّنته جملة الصّلة من الالتزام بطريق الكفر؛ لإبراز سبب دخول النّار وأنّه الكفر، وفي ذلك تخويف للكافرين وحضّ لهم على تحويل مسار اعتقادهم، وفيه أيضًا إلقاء الفرح والمسرّة في قلوب المؤمنين، حينما يعلمون أن الله تعالى قد انتقم لهم ممن نكّلوا بهم في الدّنيا.

بلاغةُ المقابلةِ بين حالِ المُصطفَيْن والكافرين:

إفادةُ المقابلةِ أنّ ورثةَ الكتابِ هم أهلُ جنّاتِ عدنٍ

في ذكر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ - مقابلة الأقسام الثّلاثة للّذين أورثوا الكتاب بذكر الكافرين، ومقابلة جزائهم بجزائهم، يدلّ على أنّ أولئك الثّلاثة هم في الجنة، أي أنّ الجنّة دار للأقسام الثّلاثة جميعها على تفاوت في الزّمان والمكان[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.

(2) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 251.

(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 250، وصافي، الجدول: 22/ 278.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.

دلالةُ اللّامِ وتقديم شبهِ الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾:

اللّـــلّامُ للاستحقاقِ، والتّقديمُ لاختصاصِهم بالخلودِ في النّارِ

اللام في﴿لَهُمۡ﴾: للاستحقاق للدّلالة على أنّ النّار قد أُعِدَّت لجزاء أعمالهم[1]، ويكون سبب تأخير المسند إليه من باب الفجيعة للكافرين والتّشويق للمؤمنين الذين يَسرُّهم معاقبةُ مَنْ كفروا باللّه وجحدوا ألوهيَّتَه وربوبيَّتَه.

ويجوز أن تكون اللّام للاختصاص لبيان أنّ البقاء فيها - أي في النّار - بلا انقطاع ولا تخفيف هو خاصّ بهم، ويكون في تقديم ضمير الكافرين على ذكر الجزاء دلالة على اختصاصهم به دون المؤمنين الذين قوبلوا بهم في الآية السّابقة، أي لهم وحدهم دون المؤمنين ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾، فإن قيل: عصاة المؤمنين أيضًا يدخلون النّار التي تختص بالكافرين؟ فالجواب: أنّهم إنْ دخلوها فدُخولُهم لفترة ثم يخرجون منها، أما البقاء فيها على الدّوام بلا انقطاع فهذا خاص بالكافرين، لقوله بعد ذلك ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾.

نكتةُ إضافةِ النّارِ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

بيانُ أنّ العذابَ بالتّجهمِ فوقَ العذابِ بالنّارِ

قيل: إنّ اسم جهنم مُعرَّب وأصله فارسي[2]، وعلى القول بأنّه عربي، فهو مشتق من الجهم أو الجهومة وهو الشّيء المخوف العابس الكريه[3]، وعندئذ يكون ما يحمله لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ من معنى الكراهية والبغض والخوف هو مُسوِّغُ ذِكره وإضافة النّار إليه، وهو من إضافة الموصوف إلى الصّفة للدّلالة على التّمكن والملازمة بين الموصوف وصفته.

نكتةُ فصلِ جملةِ ﴿لَا يُقۡضَىٰ﴾:

فُصِلتْ جملة ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ عمّا قبلها ﴿لَهُمۡ نَارُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.
(2) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصحاح (جهنم).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/ 326، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 272، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/ 4138.

﴿جَهَنَّمَ﴾، لما بينهما من كمال الاتصال لكون الثّانية بدل اشتمال[1] من الأولى.

دلالةُ دخولِ ﴿لَا﴾ على الفعلِ ﴿يُقْضَىٰ﴾:

مفاد النّفي الاستمرار، وعدم حصول المنفيّ حالًا واستقبالًا

نكتة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَمَسُّنَا﴾ المنفي بـ ﴿لَا﴾ هو الدّلالة على استمرار هذا النّفي وعدم انقطاعه في المستقبل، فإنّ ﴿لَا﴾ إنّما تكون لنفي الاستقبال باتفاق، ولنفي الحال أيضًا على رأي كثيرين، والمعنى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ في الحال ولا في الاستقبال؛ ليكتمل تيئيسهم من الفراغ من العذاب يومًا ما بموتهم أو بتخفيف العذاب عنهم، والفعل ﴿يُقْضَىٰ﴾ هنا هو من الانقضاء بمعنى الذّهاب والانتهاء، يقال: قضى الشّيء يقضي: إذا قطعه وأزاله[2]، وانقَضَى الشّيء وتَقَضَّى أي فني وذهب[3]، ويقال: قضيت حاجتي، وضربه فقضى عليه أي قتله كأنّه فرغ منه وانتهى، وسُمٌّ قاضٍ أي قاتل[4].

ويمكن أن يكون من (قضى) بمعنى: حكم، ومنه قضاء الله أي: حكمه، وما أوجده في مخلوقاته[5].

وعبّر بصيغة المضارع المبني للمفعول المسبوق بـ ﴿لَا﴾ النّافية للدّلالة على عموم السّلب واستمرار النّفي، ثمّ للدّلالة أيضًا على أنّهم لا يملكون أمر أنفسهم في انهاء حياتهم أو بتخفيف العذاب عنهم، وأنّ ذلك إن حصل فإنّما يكون بإرادة الله الذي قضى عليهم بهذا العذاب الدّائم، وحكم عليهم به وحكمه العدل.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 272.
(2) الرّاغب، المفردات: (تفث).
(3) الخليل، العين: (قضى).
(4) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 39.
(5) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 317.

معنى الفاءِ في قولِهِ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾:

الفاء في قوله ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ هي فاء السّببيّة، أي فيموتوا بسبب أن قُضي عليهم بالموت؛ لأنّهم لو ماتوا لبَطَلَتْ حواسُّهم فاستراحوا(1).

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿فَيَمُوتُواْ﴾:

انتفاءُ السّببِ يدلّ على انتفاءِ المسبَّبِ

عبَّر بالمضارع في قوله﴿فَيَمُوتُواْ﴾ لدلالته على الاستقبال، أي فيموتوا بعد أن يُقضى عليهم وبسببه، والعامّة على نصبه بحذف النّون جوابًا للنّفي، وهو على أحد معنيي نصب (ما تأتينا فتحدِّثنا)، أي: ما يكون منك إتيانٌ فلا حديثٌ، فانتفى السّبب وهو الإتيان، فانتفى مُسَبَّبُه وهو الحديث(2).

معنى الواوِ في قولِه ﴿وَلَا يُخَفَّفُ﴾:

العطفُ للفعليْن المَنفيَّيْن نفيٌ لوقوعِ أيٍّ منهما

الواو في قوله ﴿وَلَا يُخَفَّفُ﴾ للعطف، فقد عطفت هذه الجملة على سابقتها، وهي جملة﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ بقصد الجمع بين نفي القضاء عليهم بالموت، وتخفيف العذاب عنهم، أي: لا هذا، ولا ذاك.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿يُخَفَّفُ﴾:

المُــرادُ نفيُ تخفيفِ نوعِ العذابِ وإن تفاوت في ذلك

الشَّيءُ الخفيف يُقال مقابلًا للشّيء الثّقيل وزنًا، وهذا أصله كما مضى بيانه في شرح المفردات، فإنّه يقال على ما يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ، فيُقالُ: خَفَّ الشَّيْءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهوَ خَفيفٌ وخُفافٌ(3)؛ لكنّه يستعمل بعد ذلك توسُّعًا في معانٍ كثيرة يَحْسِمِ المرادَ منها السّياقُ الوارد فيه هذا اللفظ لسياق، والمراد هنا بحسب السّياق خِفَّة نوع العذاب، أي: لا يُخفَّف عنهم نوع العذاب الذي حُكِم به عليهم، وفي ضوء هذا المعنى يُفهم أنّه لا تعارض بين قوله: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ وقوله تعالى في آية أخرى:﴿كُلَّمَا خَبَتۡ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 440.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 234، والعكبري، التّبيان: 2/ 1076.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خف).

﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]؛ لأنّ المعنى لا يخفف عنهم نوع عذابهم، والنّوع في نفسه يدخله أن يَخْبوَ أو يُسعَّرَ ونحو ذلك[1]، وقيل في الجواب أيضًا: إنّ عذابها يكون شديدًا، فإذا خَبَتْ فإن لا يزال ألمها شديدًا حالًّا بهم، فألمُها يكون أوّلًا يزيد، فإذا خَبَتْ يقف حاله، ولا يزيد، ثم تشتعل بعد ذلك فيزداد عليهم الألم، فهي في نفسها تسكن، لا أن الألم النّازل بهم يخفف عنهم[2].

وأمّا سرّ اختيار صيغة المضارع وإيثارها على غيرها، فللدّلالة على استمرار النّفي وعمومه، أي عموم السّلب، وليس سلب العموم، والمعنى: لا يخفّف عنهم على الدّوام والاستمرار.

فائدةُ ذِكْرِ جملةِ نفيِ التّخفيفِ بعد نفيِ الموتِ:

بيانُ انتفاءِ التّابعِ وإن كان ذِكْرُ المتبوعِ دالًّا عليه

فإن قيل: فما فائدة جملة ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ بعد جملة: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ وهي تقتضيها باللازم؟ كما إذا قيل: لم آكل، فإنه يعلم منه انتفاء الشّبع فلا حاجة بعده إلى نفي الشبع، فالجواب أن يقال: إن انتفاء التّابع وإن كان يُعلم من نفي المتبوع، لكنه نفاه بعد ذلك قصدًا للمبالغة في بيان انتفائه[3].

دلالةُ التّقديمِ لشبهِ الجملةِ ﴿عَنۡهُم﴾:

تقديمُ الأهمِّ من بيانِ اللّغةِ المهمِّ

السّر في تقديم شبه الجملة﴿عَنۡهُم﴾ على قوله ﴿مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾، هو تقديم الأهم فالذين كفروا الّذين يعود إليهم الضّمير هم محور الحديث، وليس العذاب، فإن ذكره تابع لذكرهم لكونه جزاءهم.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله ﴿مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾:

الـدّلالـةُ على التّبعيضِ أو الزّيادةِ كلاهما مُفيدٌ في الإبانةِ

﴿مِّنۡ﴾ في قوله:﴿مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ للتّبعيض أي: بعض عذابها، ويجوز أن تكون ﴿مِّنۡ﴾ زائدة، ويكون قوله: ﴿عَذَابِهَاۚ﴾ مجرورًا لفظًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 440.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 334.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 39.

مرفوعًا مَحَلًا على أنّه نائب فاعل ﴿يُخَفَّفُ﴾[1] وقيل: نائب الفاعل هو شبه الجملة ﴿عَنْهُم﴾، و﴿مِّنْ عَذَابِهَا﴾ في موضع نصب[2].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في الإسنادِ إلى الضّميرِ:

بيانُ أنّ المُعذِّبَ على الحقيقةِ هو الله تعالى

إضافة العذاب للضّمير العائد إلى نار جهنّم هو من باب إضافة الشّيء إلى ظرفه ومحلِّه، ففيه مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ المعذِّب في الحقيقة هو اللّه تعالى، والنّار هي محل هذا العذاب، وقيل: الضّمير يعود إلى جهنم ليشمل ما ورد من أنّ المعذَّبين يُعذَّبون بالنّار، ويعذبون بالزّمهرير وهو شدّة البرد، وكلّ ذلك من عذاب جهنم[3].

نكتة فصل جملة ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى﴾:

الفصلُ على الاستئنافِ البيانيِّ مُبينٌ للمعنى المُراد

فُصِلت جملة التّذييل﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ عن سابقتها على الاستئناف البيانيِّ، فكأنّه قيل: لِمَ لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم شيء من عذاب جهنم؟ فكان الجواب: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾، فالتّذييل مقرّر لمضمون ما قبله، وبهذا يكون بين الجملتين شبه كمال اتصال.

بلاغةُ التّشبيهِ في قولِهِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تشبيهُ الشّيءِ بنفسِهِ مبالغةٌ حين لا يوجَد له نظيرٌ لفظاعتِهِ

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾، معناه: مثل ذلك الجزاء ﴿نَجۡزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾، فيكون من باب تشبيه الشّيء بنفسه للمبالغة وكأنّه لفظاعته وشدته لا يوجد في الواقع ما يمكن أن يشبه به فشبّه بنفسه، على حد قول النابغة:

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ والسَّفاهَةُ كاسْمِها *** يُهْدي إلَيَّ غَرائِبَ الأَشْعارِ

يعني أنّ السّفاهة لا يمكن أن تعرَّف ولا أن تُشبَّه بأكثر من اسمها الّذي تعرف به بين النّاس.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 235، والعكبريّ، التّبيان: 2/ 1076.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 372.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 62، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 318، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 62.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿نَجۡزِي﴾:

بيانُ أنّ عذابَ الكافرين مُستمرٌّ بلا انقطاعٍ

عبَّر في قوله ﴿نَجۡزِي﴾ بصيغة المضارع الدّالة على الاستقبال، لأنّ ذلك الجزاء يكون في الآخرة، والدّالة أيضًا على استمرار هذا الجزاء وتجدّده حال وقوعه، في ضوء ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النّساء: 56].

والتفت من الغَيْبَة إلى التّكلُّم في قوله: ﴿نَجۡزِي﴾ للإشعار بعظم هذا الجزاء وهَوْلِه.

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ في قولِهِ ﴿نَجۡزِي﴾:

توجيهُ القراءتيْن وأكثر يوسّع المعنى ويثْريه

في قوله: ﴿نَجۡزِي﴾ قراءتان؛ فقد قرأ أبو عمروٍ ﴿يُجۡزَى﴾ مبنيًّا للمفعول، و﴿كُلُّ﴾ مرفوع به، وقرأ الباقون ﴿نَجۡزِي﴾ بنونِ العظمة مبنيًّا للفاعل، و﴿كُلَّ﴾ مفعول به، فالحجّة لمن ضم: أنّه دلّ بالفعل على بنائه لما لم يسمّ فاعله، فرفع ما أتى بعده به، والحجّة لمن قرأه بالنّون والفتح: أنّه أراد: حكاية ما أخبر اللّه ﷻ عن نفسه، ونصب قوله: ﴿كُلَّ كَفُورٖ﴾ بتعدّي الفعل إليه[1].

فائدةُ التّوكيدِ والمبالغةِ في ﴿كُلَّ كَفُورٖ﴾:

كلّ جاحدٍ لألوهيّةِ اللهِ تعالى هو لا محالةَ كفورٌ

كل صيغة موضوعة للدّلالة على العموم، وهي بذلك دالَّةٌ على أنّ هذا الجزاء مُحدِقٌ ومحيطٌ بكلّ كفور، والواقع أنّ كلّ مَنْ كفر باللّه وجَحَد وجوده هو كفورٌ مُفْرِطٌ في الكفر مبالغ فيه، وقيل في توجيه المبالغة في ﴿كَفُورٖ﴾أيضًا: أي مبالغ في الكفر بانضمام أذى المُسْلمينَ إلَى الكفر، أو بانضمام سائر المعاصي[2].

(1) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السبع، ص: 296، والسّمين الدّرّ المصون: 9/ 235.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 73.

دلالةُ الواوِ في قولِهِ ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ﴾:

الواو عاطفة؛ عطفت جملة (هم يصطرخون) على جملة: ﴿لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾[1] وقيل: على جملة: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ﴾[2].

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ:

قَصْرُ الاصطراخِ على الكفارِ دون غيرِهم مُعبِّرٌ عن المُراد

قوله تعالى:﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ﴾، قدَّم المسند إليه (هم) على المسند الفعليّ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ للدّلالة على اختصاصهم بهذا الفعل واستئثارهم به، فَهُم وحدَهُم دون غيرهم ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ في جهنم ويستغيثون من شدة عذابها؛ أما المؤمنون فهم سعداء بما هم فيه يحمدون الله الذي أحلَّهم دار المُقامَة من فَضْله، كما أنّ صيغة الفعل وهي المضارع تدلّ على استمرارِهم على هذا الصّراخ وتجدُّدِ استغاثتهم حيث لا مُنقذَ لهم ولا مغيثَ من دون الله، ويَحتمِل أن يكون غرض تقديم المسند إليه تقويةَ الحكم[3].

نكتةُ المبالغةِ في الفعلِ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾:

بولغ في الفعل للدّلالة على شدّةِ صياحِهم واستغاثتِهم

قوله: ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ هو افتِعالٌ من الصُّراخ شدَّةِ الصّياحِ والاستغاثة بسبب العذاب، وأصله (يَصْتَرِخونَ) ثم أبدلت التّاءُ طاءً، للمناسبة بين الصّاد والطّاء؛ لأنّهما حرفا إطباقٍ وحرفا استعلاءٍ فصارت ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾[4]، وفيه مبالغة؛ لِأَنَّهُ افْتِعالٌ مِنَ الصُّراخِ وهوَ الصّياحُ بِشِدَّةٍ وجُهْدٍ، فالِاصْطِراخُ مُبالَغَةٌ فيهِ، أيْ يَصيحونَ مِنْ شِدَّةِ ما نابَهُمْ[5]، فصيغة الافتعال تفيد أنّ الصّراخ صادر منهم عَلَى وجه الجدّ والشّدة غير ما أفاده نفس الصّراخ[6]، كما أنّ ما فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 36.
(2) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 253.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 74.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 36، وشيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 40، والآلوسي، روح المعانيّ: 11/ 372.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 318.
(6) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع القونويّ: 16/ 74.

من حروف الاستعلاء والتّفخيم يُشعِر بخشونة أصواتهم مع شدّة ارتفاعها لتصوير حالهم من التّذلل والاستغاثة.

دلالةُ المَجازَ في كلمةِ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾:

إطــلاقُ الاصـطـراخِ على الاستغاثةِ مُفيدٌ في الـبـيـانِ عن المُرادِ

مضى أنّ كلمة ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ افتعال من الصّراخ، وهو الصّوت الشّديد، ويعمد المفسّرون إلى تفسيره بيستغيثون، وعليه فهو مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق، أي "إطلاق المطلق على المقيّد، فإنّ الصّراخ كما رفع الصّوت أي بأي وجه كان، واستعمل في رفع الصّوت مطلقًا، والاستغاثة رفعه طلبًا للغَوْث"[1].

نكتةُ فصلِ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ وغرضُ ندائِهِ:

الاخــتـلافُ في غـرضِ الفصلِ مُفيدٌ في تجليةِ المعنى

وَجُمْلَةُ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ مقول قول مُضْمَر، وذلك القول إنْ شئتَ قدَّرْتَهُ فعلًا مفسِّرًا لـ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ أي يقولون في صراخهم: ربنا أخرجنا من النّار، وإنْ شئتَ قدَّرْتَهُ حالًا من فاعل ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ أي قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾[2]، وعلى هذا فجملة النّداء بَيانٌ لِجُمْلَةِ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾، ولهذا فُصِلتْ عنها، وغرضهم من هذا النّداء هو ظَنُّهم أنّه الأجدى في قبول استغاثتهم؛ لكونهم حسبوا أَنَّ رَفْعَ الأَصْواتِ أَقْرَبُ إِلَى عِلْمِ اللّه بندائهم، ولإظهار عَدَمِ إطاقَةِ ما هُمْ فيهِ[3].

ويَحْتَمِل أن تكون جملة النّداء - وهي مقول قولهم - جوابًا عن سؤال مقدَّر؛ أي: فماذا قالوا حال اصطراخهم واستغاثتهم؟ فكان الجواب: قالوا ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾

واستخدام النّداء في الاستغاثة إما مَجازًا لجهر المستغيث صوتَه، أي لتحقق الصّراخ فيه، أو لكونها من أفراده[4].

(1) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 40.
(2) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 62، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 318.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 74.

دلالةُ النّداءِ بلفظِ الرّبوبيّةِ ﴿رَبَّنَآ﴾ مُضافًا إلى الضّمير:

وفي استغاثتهم وندائهم مُؤْثِرينَ لفظَ الرّبوبية ﴿رَبَّنَآ﴾؛ استرحام واستدعاء لرحمة الرّبوبية وعطْفِها، وفيه إبرازٌ لمدى تذلّلهم في الاستغاثة، وإشعارٌ بما هم فيه من ضَنْكٍ وسوءِ حال.

غرضُ فعلِ الأمرِ ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾:

قولهم: ﴿أَخۡرِجۡنَا﴾ هو على سبيل الدّعاء والرّجاء، فالأمر خارج عن أصل معناه إلى الدّعاء.

الموقعُ النّحويُّ لقوله ﴿نَعۡمَلۡ﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾:

التّخريجُ الإعرابيُّ للجملةِ مُفيدٌ في الإبانةِ عن دلالتِها

جملة ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ جملة لا محلَّ لها من الإعراب جواب شرط مُقدَّر، أي: إنْ أخرجتنا ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾[1]، أو يُقال: جزم الفعل على أنّه جواب للدّعاء، والتّقدير هو نفسه: إنْ تُخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحًا[2] وكلمة ﴿صَٰلِحًا﴾ مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف أي (عملًا صالحًا)[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿صَٰلِحًا﴾:

التّنكيرُ بغرضِ التّفخيمِ للعملِ مُنبئٌ عن معنى السّياقِ

نكّر ﴿صَٰلِحًا﴾ على نية تفخيم العمل الذي سيقومون به لو استجيب دعاؤهم بالإخراج من النّار والعَوْدِ إلى دار الدّنيا لاستدراك ما فاتهم من الأعمال الصّالحة، لكن هيهات! وهذا الرّجاء منهم كما يكون في الدّار الآخرة عندما يَصْطَلون بالنّار، يكون منهم كذلك عند معاينةِ الموت وفَوْتِ وقت التّوبة، كما قال سبحانه في ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: 99 - 100]

---

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 22/ 254، والخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 3/ 1006.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 319.

(3) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 84.

التّخريجاتُ والاحتمالاتُ النّحويّةُ سعةٌ في الدّلالةِ مُفيدةٌ

دلالةُ موقعِ ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي﴾:

قوله: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ بنصب ﴿غَيۡرَ﴾ على جواز أن يكون مثل ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة أخرى للمصدر المحذوف أي: (عملًا صالحًا غيرَ الذي ...) أو لمفعول به محذوف، ويجوز أن يكون ﴿صَٰلِحًا﴾ نعتًا للمصدر و﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي﴾ هو المفعول، وجملة ﴿كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ صلة الموصول، وكان واسمها وجملة نعمل خبر كنا(1).

تمنّي الرّجوعِ إلى الدّنيا للاستدراكِ حينَ فاتَ الإدراكُ

سرُّ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ وصلتِهِ:

جاء التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ الدّال بذاته على معيّن قصدًا منهم إلى عمل بعينه وهو الشّرك؛ لأنّه الذّنب العظيم الذي قادهم إلى ما بعده من عداوة النّبي ﷺ ومحاربته، وقادهم كذلك إلى استمراء سائر المعاصي التي دأبوا على فعلها دون ارْعِواءٍ، فوَعَدوا إن هم عادوا إلى دار العمل ليعملنَّ أعمالًا أخرى تتفق والإيمان باللّه، مخالفة لما كانوا يعملونه وهم كافرون، وقيدوا العمل بهذا الوصف: عملا ﴿صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ "إشعارًا بأنّهم كانوا يحسبون ما فعلوه صالحًا، والآن تبيّن خلافه؛ إذ كان هوًى وطبعًا ومخالفةً، وللتّحسّر على ما عملوه من غير الأعمال الصّالحة مع الاعتراف منهم بأنّ أعمالهم في الدّنيا كانت غير صالحة"(2)، أو أنهم كانوا يعرفون أنّهم عملوا غير صالح والأمر لم يلتبس عليهم وأنّهم قالوا ذلك لما أُسقِط في أيديهم فندموا وتحسَّروا، وتَمَنَّوا الرّجوع إلى الدّنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحًا، فقولهم هذا منطوٍ على ندم شديد على ما وقع منهم من إفراط وتفريط، وتَحسُّرٍ على ما فاتهم من الإيمان باللّه وعمل الصّالحات.

بلاغةُ الإطنابِ في قولِهِ: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي﴾:

قال الزَّمَخْشريُّ: فإن قلتَ: هلّا اكتفى بـ ﴿صَٰلِحًا﴾ كما اكتفى

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 161.

(2) شيخ زادة، حاشية زاده: 7/ 40، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 440.

بيانُ زيادةِ تحسيرِهم على ما أَفْنَوا فيه حياتَهم من الكفران والعصيانِ

به في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة: 12] وما فائدة زيادة ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ ... ؟ قلت: فائدته زيادة التّحسر على ما عملوه من غير الصّالح مع الاعتراف به، وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي[1].

والحاصل أنّ قوله: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ إطنابٌ؛ لأنّه لو اكتفى بالمَوْصوف لكفى كقَوْله تَعالَى: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: 12] ووجه الإطناب زيادة التّحسُّرِ كما ذكر الزّمخشري، وهذه النُّكْتَة علَّة مصححة لا موجبة فلذا ترك هذا الوصف في آية سورة السجدة المَذْكورة[2].

نكتةُ فصلِ قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾:

الفصلُ لِلاستئنافِ البيانيِّ مُفيدٌ في استجلاءِ المعنى

الفصل في جملة: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ عمّا قبلها للاستئناف البيانيّ؛ لكونه ناشئًا جوابًا عن سؤال مقدَّر عن الذي أجابه به ربهم لما دعَوه ورجَوه أن يعودوا إلى الدّنيا؛ فكان الجواب بتقدير فعل قول مضمر، أي، قال لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ ففيه شبه كمال اتصال.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُهُ وغرضُهُ:

بيانُ أنّ الاستفهامَ مُفيدٌ للتّوبيخِ والتّقريعِ والتّقريرِ

الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ للتّوبيخ والتّقريع والتّقرير، وهو متناوِلٌ لكلّ عُمُرٍ تمكّن فيه المُكلَّف من إصلاح شأنه وإن قصُر، إلّا أنّ التّوبيخ في المتطاوِل - الّذي عُمِّر طويلًا - أعظم[3].

دلالةُ الواوِ على الجملةِ المحذوفةِ:

الواوُ للعطفِ عَطَفتْ ما بعدها على مُقَدَّرٍ يقتضيه المقامُ بينها وبين همزة الاستفهام، أي: ألم نمهلْكُم؟، أو: أَلَم نُؤَخِّرْكُم؟ ولم ﴿نُعَمِّرۡكُم﴾[4]، أي نؤخّركم عُمُرًا يتذكّر فيه من تذكّر.

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 615.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 74.

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 615، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 63.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 154، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 74.

دلالةُ التّعبيرِ بجملةِ ﴿نُعَمِّرۡكُم﴾:

استحضارُ الحالِ وقتَ التّقريعِ والسّؤالِ

معنى (عمر) يدلّ عَلَى بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ، يُقالُ: عَمِرَ النّاسُ: طالَتْ أَعْمارُهُمْ[1] في هذه الحياة أي وجودهم في الدّنيا بدنًا وروحًا عِمارَةٌ[2] وصيغة المضارع الهدف منها أن يستحضر حالهم وقت تقريعهم وسؤالهم.

معنى ﴿مَّا﴾ في السّياقِ المُحكمِ:

الإحالة على النكرة لإفادة التمكن مع امتداد مدّة التذكر

نكرة موصوفة، والمعنى: (أَوَلَمْ نُعمِّرْكُم تعمُّرًا يتذكر فيه من تذكّر)، أو (زمانًا يتذكَّر فيه من يريد أن يتذكّر)، أي: يتمكَّنُ فيه المُتذكِّرُ من التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ[3] وهو الوجه الأرجح[4]، ويجوز أن تكون مَصْدَرِيَّة ظَرْفيَّة، على تقدير (مُدَّةَ تَذَكُّرٍ)، حكاه أبو حيّان[5]، وردّه السّمين قائلًا: وهذا غَلَطٌ؛ لأنَّ الضميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يمنعُ مِنْ ذلك لعَوْدِه على ﴿مَّا﴾، ولم يَقُلْ باسميَّةِ ﴿مَّا﴾ المصدريةِ إلّا الأخفشُ وابنُ السَّراج[6]، ويُضَعِّفُه أيضًا أنّ ﴿مَّا﴾ المصدرية الظّرفية يَقِلُّ كون صلتِها مضارعًا مثبتًا[7].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾:

بيانُ أنَّ استحضارَ صورةِ التّذكّرِ مبنيّةٌ على التّأملِ والتّفكرِ

عبّر بالمضارع في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، استحضارًا لصورة التّذكّر الّذي يُبنى في العادة على التّفكر والتّأمل، وهي حالة متكرّرة متجدّدة مترقّية، لا تؤتي ثمارها وافية إلّا بالتّأني وطول التّفكُّر، وكثرة التّأمّل.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمر).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمر).
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 336، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 154.
(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 3/ 4.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 36.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 336.
(7) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 3/ 4.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ المُقدَّمة ﴿فِيهِ﴾:

حياتُهم كافيةٌ للاعتبارِ لو أنّهم كانوا من أولي الأبصارِ

التّعبير بالظّرفية في﴿فِيهِ﴾ يدلُّ على كفاية هذا الزّمن الذي تُرِكوا فيه على قيد الحياة للاعتبار والاتعاظ، وتقديمها مفيد للاختصاص لأنّ هذا الزّمان وحده هو الملائم للتّذكر، أما الدّار الآخرة فليست دار عمل وإنّما هي دار جزاء، وأيضًا فإنّ هذا التّقديم لازم لسلامة معنى الجملة؛ إذ لو أُخِّر فقيل (ما يتذكر من تذكر فيه) لأوهم أنّ (ما) نافية وليست نكرة موصوفة، فيكون المعنى: لا يتذكر من أراد التّذكر فيه، مع أنّ المقصود إثبات خلافه.

وكون ﴿مَّا﴾ نافيةً في قوله: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ قولٌ فاسدٌ غير مستقيم لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى: أما من جهة اللفظِ فلأنها - أي ﴿مَّا﴾ - يجبُ قَطْعُها عن ﴿نُعَمِّرْكُم﴾، لأنّه لا يجوزُ أن يكونَ النّفيُ من معمولِه، وأيضًا فإنَّ الضّمير في ﴿فِيهِ﴾ يرجع إلى غير مذكور، وأما المعنى: فلأنّ قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ إنما سيق لإثباتِ التّعميرِ وتوبيخِهم على تركِهم التّذكيرَ فيه، فإذا جُعِلَ نفيًا كان فيه إخبارٌ عن نفي تذكّرِ مُتذكّرٍ فيه، فظاهرُه على ذلك نَفْيُ التّعمير؛ لأنّه إذا كان زمانًا لا يتذكَّرُ فيه متذكِّرٌ لزِمَ أن لا يكون تعميرًا وهو خلافُ قولِه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾[1].

عودُ الضّميرِ في شبهِ الجملةِ ﴿فِيهِ﴾:

بيان أنّ عود الضّمير إلى (ما) لكونها نكرةً موصوفةً أو موصولةً

الضّمير في ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى ﴿مَّا﴾ على اعتبار كونها نكرةً موصوفةً أو موصولة، لا مصدرية، فقد مضى أنّه لا يجوز عود الضّمير على ما المصدرية إلّا على مذهب الأخفشِ وابنِ السَّراج اللَّذَيْن اعتبراها اسمًا، قال الشّهاب: ولعله - أي بناءً على القول بأنّها مصدريَّة - يُجعل الضّمير للعُمُر المفهوم من "نُعمِّر" فلا غلطَ فيه[2] حينئذ.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 664، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 75.
(2) الخفاجي، حاشية الشّهاب: 7/ 227.

دلالةُ التّعبيرِ بالأداةِ ﴿مَن﴾:

﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ هي الموصولة، وأوثر التّعبير بالموصول للإيماء إلى ما تَضمَّنَتْه جملة الصّلة من التّنبيه على لزوم التّذكُّرِ في حينه؛ لئلا يقع ندم بعد فوات أوانه.

دلالةُ جملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾:

جُمْلَةُ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، صِفَةٌ لـ ﴿مَّا﴾ أي على كونها نكرة موصوفة، والمعنى: زَمانًا كافيًا بِامْتِدادِهِ لِلتَّذَكُّرِ والتَّبَصيرِ[1].

نكتةُ حذفِ مفعولِ التّذكّرِ:

حذفُ المفعولِ للعلمِ بِهِ، أو لكونِ التّذكرِ مَجازًا مُرسَلًا

قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ حذف المفعول للعلم به أي يتذكَّرُ عذابَ اللّه وسُبُلَ النّجاة منه، أو يكون المراد بالتّذكُّر الإيمان والعمل الصالح فهو على هذا مجاز مرسل من إطلاق السّبب وهو التّذكر وإرادة المسبَّب وهو الإيمان وعمل الصّالحات بدلالة المقام[2].

سرّ التّعبيرِ بالماضي ﴿تَذَكَّرَ﴾ دونَ المضارعِ:

في التّعبيرِ بالماضي تيئيسٌ لهم من العودةِ إلى الدّنيا

لما كان التّفكر بعد البعث غير نافع، لأنّه بعد كشف الغطاء؛ عبَّر بالماضي فقال: ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ إعلامًا بأنّه قد خُتم على ديوان المتذكّرين، فلا يزاد فيهم أحد[3]، وفي هذا تيئيس لهم وقَطْعٌ لأطماعهم في العودة إلى الدّنيا من جديد لتدارك ما فاتهم من الإيمان والعمل الصّالح حسب زعمهم، لكن القرآن يشهد بأنّهم لو عادوا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾

[الأنعام: 27 - 28].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ص: 319.
(2) المطعني، التّفسير البلاغي لآيات الاستفهام: 3/ 310.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 63.

عطفُ الجملةِ الخبريّةِ على معنى الإنشائيّةِ مُفصحٌ عن الدّلالةِ

دلالةُ الواوِ في قولِهِ ﴿وَجَآءَكُمُ﴾:

الواو في قوله:﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾عاطفة لجملة ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾، وهي خبريّة على معنى جملة: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ وهي إنشائيّة؛ إذ هي على معنى: قد عمّرناكم وجاءكم النّذير، أي أنّ قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ وإن كان إنشاء صورة، لكنَّه خبر في المَعْنَى؛ لأنّ الاسْتفْهام للتّقرير أي للتّثبيت، فالمَعْنَى عَمَّرْناكم قَدْرَ ما يَتذَكَّر فيه مَن تَذكَّرَ وجاءَكمُ النّذير، ولم يَبْقَ لكم عذرٌ في ترك التّذكر[1].

قال الزّمخشريّ: فإنْ قلتَ: عَلامَ عطفُ ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾؟ قلتُ: على معنى: أَوَلَم نُعَمِّرْكُم، لأنّ لفظه لفظ استخبار، ومعناه معنى إخبار، كأنّه قيل: قد عمرناكم وجاءكم النّذير[2]، ومجموع الجملتين فيه إلزام الحجّة عليهم بالعقل والسّمع؛ فإنّ التّذكر من باب العقل، والإنذار من باب السّمع[3].

بيانُ أنّ التّذييلَ والتّفريعَ مُنْبِئٌ عن تيئيسِهم من الخلاصِ

معنى الفاءِ في قولِهِ ﴿فَذُوقُواْ﴾:

الفاءُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ لِلتَّفْريعِ، وجملة ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ الّتي بعدها، تفريع على ما سبق من الحكاية، فيجوز أن يكون من جملة الكلام الّذي وبّخهم اللّه به، فهو تذييل له وتفريع عليه، لتيئيسهم من الخلاص، يعني: فأين الّذين زعمتم أنّهم أولياؤكم ونصراؤكم فما لكم من نصير[4] وقيل: الفاء للتّعليل[5]، أي فبسبب ذلك (ذوقوا).

دلالةُ الأمرِ ﴿فَذُوقُواْ﴾، وحذف مفعولِهِ:

الأمر في قوله ﴿فَذُوقُواْ﴾ أمرُ إهانةٍ مستعمَلٌ في معنى الدّوام،

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع القونويّ: 16/ 75.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 616.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 40.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 320.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 76.

وهو كناية عن عدم الخلاص من العذاب، وحذف مفعول ﴿فَذُوقُواْ﴾ لدلالة المقام عليه، والتقدير: ذوقوا العذاب(1).

بلاغةُ الاستعارةِ بالذّوقِ عن العذابِ:

توجيهُ الآيةِ بناءً على الاستعارةِ مُفصحٌ عن المُرادِ

في التّعبير عن إدراك عذاب جهنّم للكافرين بالذّوق في قوله ﴿فَذُوقُواْ﴾ استعارة تصريحيّة تبعيَّة؛ إذ إنّ في استعارة الفعل ﴿فَذُوقُواْ﴾ للفعل اصطلوا أو تألموا ونحوه تشبيها للإيلام بالذّوق في قوة الإحساس ودِقَّتِه، ويمكن الحمل على الاستعارة المكنيّة فتكون كلمة الذّوق قرينة دالة عليها؛ إذ التّذوق من خصائص المطعومات من الأكل والشّرب، فيكون قد شبه العذاب بالمطعوم ثم حذف المشبّه به وعبر عنه بشيء من لوازمه وهو التّذوق الذي يعبر عنه الفعل ﴿فَذُوقُواْ﴾، وفيه إشعار بمدى إدراكهم الدّقيق وتألّمهم العميق بكلّ مكوّنات العذاب ومظاهره، تماما كما يدرك المرء بحاسّة الذّوق الدّقيقة في إدراكها وإحساسها بما يمر عليها من طعام وشراب، كما أنّ فيه إشعارًا بالملازمة فكما أنّ الإنسان لا يفارق الطّعام والشّراب لحاجته إليهما في معاشه، فكذلك الكفّار لا يفارقهم العذاب، وكأنّ حياتهم في النّار قوامها العذاب، كما يشير إلى بعض ألوانه وصوره قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: 43 - 46].

معنى اللّامِ في قوله ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

اللّام في ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ هي لام المُلْك المنفيّة، أي: لا يملكون نصيرًا، وتَحْتَمِل أن تكون لام الأجْل أي: ليس لأجْل الظّالمين من نصير بسبب ظلمهم.

معنى(أل) في ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

المُرادُ نفي النّصيرِ لجميعِ المشركين الظّلمةِ

معنى (أل) في ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للاسْتغْراق، والمُرادُ بالظّالمين الكافرونَ؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 320.

إذ الشّرك ظلمٌ عظيمٌ، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13] والنّفي لوحظ أولًا، ثم الاسْتغْراق ثانيًا فيفيد الاسْتغْراق في النّفي، لا نفي الاسْتغْراق لفساد المَعْنَى[1].

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطابِ إلى الغَيْبَةِ:

التّصريحُ بذِكْرِ الظّالمين لأنّهم منعوا النّصيرَ بسببِ ظلمهم

قوله ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، وفيه قال ابن عاشور: وعُدِلَ عن ضمير الخطاب أن يقال: (فما لكم من نصير)، إلى الاسم الظّاهر بوصف (الظّالمين) لإفادة سبب انتفاء النّصير عنهم، ففي الكلام إيجاز، أي: لأنّكم ظالمون، وعليه ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فالمقصود ابتداءً نفيُ النّصير عنهم، ويَتبعُه التّعميم بنَفْيِ النّصير عن كلّ من كان مِثْلَهم من المشركين، ويجوز أن يكون كلامًا مُستقلًّا مُفَرَّعًا على القصّة ذُيِّلَتْ به للسّامعين من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، فليس فيه عدولٌ عن الإضمار إلى الإظهار؛ لأنّ المقصود إفادةُ شمولِ هذا الحُكم لكلّ ظالم فيدخل الذين كفروا المُتَحدَّثُ عنهم في العموم[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَّصِيرٍ﴾:

بيانُ أنّ التّنكيرَ لإفادةِ التّعميم لوقوعِ النّكرةِ في سياقِ النّفي

نكّر قوله ﴿نَّصِيرٍ﴾ لإفادة العموم، فالنّكرةُ في سياق النّفي تَعمُّ؛ أي ما لهم أي نصير يدافع عنهم، وأول من يتخلى عنهم أولياؤهم ورؤساؤهم، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۚ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 76.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 320.

﴿نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ: 31 - 33].

فائدةُ تعميمِ لفظِ ﴿نَّصِيرٍ﴾:

الانتصارُ للظّالِم مهما كانت قرابته هو تجاوزٌ للحقّ

ومن فوائد تعميم (الظالمين) وتعميم (النّصير) اقتضاءُ أنّ نَصْرَ أيِّ ظالم تجاوزٌ للحقّ، لأنّ اقتفاء الحقّ يقضي بألّا يكون للظّالم نصير، إذ واجب الحكمة والحقّ أن يأخذ المقتدر على يد كلّ ظالم؛ لأنّ الأمّة مكلّفة بدفع الفساد عن جماعتها، وفي هذا إبطال لخُلُق أهل الجاهليّة القائلين في أمثالهم "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، وقد ألقى النّبيّ ﷺ على أصحابه إبطال ذلك، فَساقَ لهم هذا المثَل حتّى سألوا عنه ثمّ أصلح معناه مع بقاء لفظه، فقال: «إذا كان ظالمًا تَنْصُرُه على نفسه فتَكُفُّه عن ظُلْمِه»[1].

سرُّ التّعبيرِ بكلمةِ ﴿نَّصِيرٍ﴾ مفردةً:

استغراقُ المُفرد أشملُ في السّياقِ وأبلغُ

وأما عن سرّ اختيار المفرد للاستغراق حيث قال ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ولم يَقُلْ (من أنصار) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢﴾ [آل عمران: 192]، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾ [آل عمران: 56] وقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الروم: 29] - فلأنّ استغراق المفرد أشمل[2]، ويمكن أن يقال: إنّ الله تعالى قال في آل عمران ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢﴾ [آل عمران: 192] وقال: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الروم: 29] وقال ها هنا: ﴿فَمَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 320، ونص الحديث كما في صحيح البخاري تحت رقم: (6952) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انْصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله، أَنْصُرُه إذا كان مظلومًا، أَفرأيْتَ إذا كان ظالمًا كيف أنصُرُه؟ قال: «تَحجُزُه أو تَمْنَعُه من الظّلم، فإنّ ذلك نَصْرُه».

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 76.

﴿لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي هذا وقت كونهم واقعين في النّار، فقد أَيِسَ كلّ منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النُّصْرةَ، ولم يبقَ إلا توقعهم من اللّه فقال: ما لكم من نّصير أصلًا، وهناك كان الأمر مَحْكيًّا في الدّنيا أو في أوائل الحشر، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النّصرة وهم آلهتهم[1].

علّةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾:

عبَّر بالجملة الاسميّة، في قوله: ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، لثبوت الحكم عليهم ودوامه؛ فما لأيّ ظالم في أي وقت نصير من دون اللّه، يحجب عنهم عذابه، ويمنع عنهم عقابه.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العمل والفعل والصُّنْع:

الفعلُ أعمّ من كلٍّ من العملِ والصّنع، والصّنعُ أخصُّ منهما

لا شكَّ أن بين الفعل والعمل تقاربًا دلاليًّا ومشتركًا يسمح بأنّ يحلّ أحدهما محلّ الآخر في كثير من المواضع، وقد قيل في الفرق بين الفعل والعمل:

أولًا: العمل هو ما يكون عن قصد وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإنّ ما يُنسب إلى الحيوانات هو فعلٌ وليس عملًا[2].

ثانيًا: وقيل أيضًا: إنّ الفعل يُطلق على ما يمرّ سريعًا وينقضي ولا يكون له أثر، أمّا العمل فيقال لما يكون له أثر[3] ومن العَمَل الفعلُ باليد من زراعة وتلقيح وسَقْيٍ[4] لأنّ ما يعمله الإنسان بِكَدِّ يده له أثناء عمله على العامل، ويبقى أثره.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 36/ 243.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل - فعل).
(3) أبو حيان التّوحيدي، المقابسات، ص: 280، والرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عمل).

فقد لوحظ في استعمال القرآن الكريم أنّه إذا كان المقام مقام تعبير عن ممارسة دنيء الأخلاق فإنّه يؤثر التّعبير بلفظ الفعل، كما هو الشّأن في آية هود ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: 87] والفعلة المرادة هي بخس النّاس أشياءهم والنّقص في الكيل والميزان، وهي من أحط الخصال وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ [الأعراف: 28].

وبهذا المعيار، فإنّنا إذا نظرنا إلى التّطفيف في الكيل والميزان وما يشابهه من التّعامل بالرّبا، فإنه لا كدٌّ فيه ولا تَعَبٌ، بل ينقضي بلا أثر من تعب ونحوه، وكذلك النّظر إلى من يفعلون الفاحشة فإنّها تنقضي سريعا كنشوة عابرة دون أن يُكَدَّ لها بتحمل مسؤولية ولا غيرها.

وأمّا الصُّنْعُ: فهو إجادةُ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعل صُنْعًا، والصّنع كما هو أخصّ من الفعل هو كذلك أخصّ من العمل[1].

ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل، فهو ينسب إلى اللّه تعالى كما في قوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: 88]، وإلى البشر كما في قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 38][2].

كما أنّ الصُّنْعَ يفترق عن الفعل، في كونه مقيَّدًا بالقصد كالعمل، إلّا أنّه أخصّ منه - أي من العمل - من جهة كونه مقيَّدًا بالعمل أو الفعل المتقن، وبذلك يظهر أنّ الفعل هو أعمّ منهما.

الوليّ والنّصير:

بين الولاية والنُّصرة مشتركٌ قد يجتمعان فيه، ومُفترقٌ يختلفان فيه

ويفرَّق بينهما بأنّ الولاية لا تكون إلا عن محبَّة، فالوليّ إنما يتولّى أمر من يحب فقط فيدافع عنه وينصره، أما النّصير فقد يتولى النّصرة لا عن محبَّة للمنصور وإنما لسبب آخر غير المحبة اقتضى تقويته والانتصار له.

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).

وأيضًا فإنّ الوليَّ قد لا يستطيع النّصرة، فالنّصرة ليست من مقتضيات الولاية؛ أما النّاصر، فلا يسمى ناصرًا إلا بهذه الاستطاعة[1]، وبهذا الفرق يكون بينهما عموم وخصوص مُطلق، فكلّ وليٍّ ناصر وليس كلّ ناصر وليًّا.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 578، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 144.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ [فاطر: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين عذابِ النّارِ المذكورِ، وكونه تقديرَ العليمِ بذاتِ الصّدورِ

لما كان قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ متضمِّنًا نَفْيَ أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار، ومستدعيًا خُلودَهم في العذاب، فكان مَظِنَّة أن يُقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار، والعادة في الشّاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه؟ فأجيب بأنّ اللّه ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على معنى أنّه تعالى محيط بالأشياء علمًا، فلو كان لهم نصيرٌ في وقت من الأوقات لَعَلِمَه، ولما نفي ذلك على سبيل الاستمرار، وكان مظنة أن يقال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظلَموا في أيام معدودة؟ فأجيب بأنّه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فلا يخفى عليه ما فيها، وأنّه سبحانه يعلم من الكافر أنّ في قلبه تمكُّنَ الكفر، بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع اللّه ولا عبده[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَيۡبِ﴾: أصل (غيب) يَدُلُّ عَلَى تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عَنِ العُيُونِ، ثُمَّ يُقاسُ، ومِنْ ذَلِكَ الغَيْبُ: ما غابَ، مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّهُ[2]، بحيث لا يمكن الاطّلاع عليه لأنّه لا يقع تحت الحواس، ولا تقتضيه بداية العقول، وإنما يعلم منه ما أراد اللّه إعلامه لخلقه بخبر الأنبياء عليهم السلام[3]، والمراد بـ ﴿غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما غاب فيهما عن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 244، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 374.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيب).
(3) الرّاغب، المفردات: (غيب).

أبصار المخلوقين، ومن ذلك أفعال المخلوقين أنفسهم فإنّه يعلمها ومجازيهم بحسبها.

المَعنى الإجْماليُّ:

الأَحَقُّ بالعبادة، مَنْ يعلمُ غيبَ السّماواتِ والأرضِ، وما تُكِنُّه الصّدورُ

قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، مراد به تقرير الحقيقة، الّتي غابت عن أهل الشّرك والضّلال، وهي أنّ اللّه سبحانه هو الإله الّذي ينبغي أن يعبد وحده دون سواه، لأنّه وحده يعلم كلّ غائبة في السّماوات وفي الأرض، وأنّه وحده يعلم ما تنطوي عليه الصّدور، وما تكنّه الضّمائر، ومن كان هذا شأنه، كان سلطانه قائمًا على كلّ شيء، وكانت عبادته وحده واجبة على كلّ مخلوق(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الفصلُ بحصولِ شبهِ كمالِ الاتّصالِ مفيدٌ في تحديدِ المعنى

فُصِلَتْ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عن سابقتها على الاستئناف البياني، وذلك أنّه لما كان قوله تعالى في ختام الآية السّابقة: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ مُتَضمِّنًا نَفْيَ أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار، ومُستدعيًا خلودهم في العذاب، كان ذلك مَظِنّة أن يقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار، والعادة في الشّاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه؟ فجاء الجواب في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي محيط بالأشياء علمًا، فلو كان لهم نصير في وقت من الأوقات لعلِمه(2)، فهو على هذا استئناف في معرض التّعليل للسّؤال المقدَّر الذي ذُكِر، فيكون بين الجملتين المفصولتين (شبه كمال اتصال) ولهذا فُصِلَتا.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 11/ 895.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 374، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 244، وشيخ زاده، حاشية زاده: 7/ 41.

فائدةُ التّوكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميّةِ:

التّأكيدُ للاهتمامِ وإثباتِ الحُكْمِ وليس لمواجهةِ الإنكارِ

فائدة التّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة هو الاهتمام ومجرد الإثبات والإخبار بأنّ اللّه ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ حيث لا يومئ السّياق إلى من ينكر ثبوت ذلك للّه ﷻ، وأنّ هذا الإخبار جاء ردًّا على من يسأل عن سرّ دوام عذاب الكافر مع أنّ اللّه تعالى قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40] ولا يزاد عليها، والكافر ما كفر باللّه إلا أيامًا معدودة، فكان ينبغي أن لا يُعذَّبَ إلا مثل تلك الأيام؛ فجاء الجواب مؤكِّدًا لتقرير هذه الحقيقة، وهي أنّ اللّه تعالى يعلم عنهم ما لا نعلمه وأنّه الحكيم فيما يقرِّر ويَحْكُم.

بلاغةُ القَصْرِ بتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ:

قصرُ الصِّفةِ على المـوصـوفِ من الفصيحِ المألوفِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، قَصْرُ صفةٍ على موصوف، فاللّه تعالى وحده دون سواه ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وطريق القَصْرِ هنا هو تعريف كلٍّ من المسند والمسند إليه.

بلاغةُ الالتفاتِ من التّكلّمِ إلى الغَيْبَةِ:

مفادُ الإسنادِ إلى اسمِ الجلالةِ، والانتقالِ بالخبرِ من الأخصِّ إلى الأعمِّ

في الآية التفات من التّكلم في قوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وقبله قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾؛ إلى الغَيْبَة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، والسّرُّ في هذا فَضْلًا عن النّكتة العامة في أسلوب الالتفات وهي تنشيط الذّهن؛ فإنّ في هذا الالتفات قصدًا إلى إسناد ذلك إلى اللّه تعالى تصريحًا بالاسم الأجلّ، واهتمامًا بهذا الوصف المقصور عليه سبحانه، وفيه كذلك انتقالٌ وتدرُّجٌ من الأخَصِّ إلى الأعمِّ، ومن الأدنى إلى الأعلى، فقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وقبله قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ إنّما هو متعلّق بالمخاطَبين من المعاقَبين والمُعاتَبين، وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فهو

أشمل وأكبر، وهو بهذا يحمل من التّهديد للكافرين ما هو أكبر مما مضى، فإنّ كونه سبحانه عالمًا بغيب السّماوات والأرض، يقتضي علمه بكلّ شؤون المخاطبين سابقًا، ويقتضي باللازم أنّه مجازيهم على كلّ أعمالهم، وإن ظنوا أنّ هنالك ما يمكن إخفاؤه، فإنّ الآية تفجعهم حين بَيَّنَتْ أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية لأنّه ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

نكتةُ إضافةِ الـ﴿غَيۡبِ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإضافةُ لأدنى ملابسةٍ مفيدةٌ في تجليةِ المعنى وبيانِه

والإضافَة إلَى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هي لأدنى ملابسة[1]، وإلّا فإن الأدلّ منه التّعبير بـ (بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ) وهو تعبير متكرر كثيرًا في القرآن الكريم، ولذا جمع بينهما تَرَقّيًا في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97].

غرضُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

بيانُ أنّ السّماواتِ أعظمُ خَلْقًا من الأرضِ وأوفى شرفًا واتّساعًا

قدَّم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهو الشّأن الغالب في القرآن الكريم؛ لكون السّماوات أعظمَ من الأرض خَلْقًا واتّساعًا، والسّياق يقتضي تقديم الأعظم؛ لأنّه سبحانه إذا كان عالمًا بغَيْب الأوسع وهو السّماوات، فهو عالم بغيب الأقل من باب أولى، وأيضًا لأنّ السّماوات أشرف لكونها مَحلَّ الملائكة وهم أهل الطّاعة المطلقة لله، بخلاف الأرض فالكفر والمعاصي فيها أوسع من الإيمان والطّاعات وأكثر، كما قال سبحانه عن أهل الأرض: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116] وأيضا: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النحل: 83].

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

لم يَرِدْ في القرآن الكريم لفظ (الأرض) إلّا مفردًا، بخلاف لفظ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 76.

السّماوات الّذي ورد مجموعًا ومفردًا في الكتاب العزيز، فلم يَرِدْ أبدًا في الكتاب العزيز لفظُ الأرض مجموعًا على (أرضين) لأنّها تَرِدُ غالبًا مُرادًا بها الجهة، فهي "بمنزلة السّفل والتّحت ... فلا معنى لجمعها، كما لا يُجمع الفوق والتّحت والعلوّ والسّفل"[1] ولذا لما استُدْعيَ في تركيبٍ أن يُجمَع لفظ الأرض، في مقابلة لفظ السّماء المجموع، لكونه أراد الذّات والعدد، وليس الجهة، انظر ماذا فعل القرآن وبماذا عبَّر؟ وذلكم المعنيّ هو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12] "فإنّ الأرض لا نسبة إليها إلى السّماوات وسَعَتِها، بل هي بالنّسبة إليها كحصاة في صحراء، فهي وإن تعددت كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس"[2]، ومن أسباب إفراده كذلك في القرآن استثقال جمعه (أرضون)[3].

إفرادُ لفظِ الأرضِ من معتادِ الاستعمالِ القرآنيّ البليغِ

معنى (أل) في لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

(أل) في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للجنس، فيصدق بالجمع من حيث الدّلالة، ويدلّ على ما دلّ عليه لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المجموع.

بلاغة الطّباق في ذِكْر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الطّباق بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو من طباق الإيجاب، والمقابلة بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا كظرفين ومحلّين لعلم الغيب، يؤكّد للكافر بالله سبحانه كم هو ضئيل جدًّا، في مواجهة السّماوات والأرض، فماذا يمثل هذا الكافر في مقابل السّماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما؟ وماذا يمكن له أن يخفيه عن الله إذا كان سبحانه عالما بغيب السّماوات والأرض؟.

كشفُ حجمِ الكافرِ أمامَ نفسَهَ وضآلته مقارنةً بالكونِ الهائلِ العظيمِ

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(3) السّيوطي، الإتقان: 2/ 355.

جملةُ الفصل كالنّتيجةِ والعلةِ لسابقتها

نكتةُ فصلِ قولِهِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ﴾:

قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ استئناف، قيل: إنَّه تعليلٌ لما قبله؛ لأنَّه إذا علمَ مضمراتِ الصُّدورِ وهي أخفى ما يكونُ، كان أعلمَ بغيرِها[1]، وهو كالنّتيجة لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لأنّه لازم علم اللّه بغيب السّماوات والأرض، أي: يلزم من علم اللّه بغيب السّماوات والأرض علمه بما في صدور النّاس[2].

بيانُ أهميّةِ الأغراضِ المُحقّقة بتتابعِ المُؤكّداتِ

فائدةُ تتابعِ المُؤكّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ذِكْرٌ لعدد من المؤكِّدات بغرض الاهتمام بالحكم، وحَثُّ الكفار على الارعواء والانتهاء عما انطوت عليه قلوبهم من الكفر وتوابعه، وكذا حَثُّ جميع النّاس على التّحقق بالإخلاص الكامل للّه ﷻ في أعمالهم الصّالحة والبعد عن الشّرك الخفيّ وهو الرّياء، وفي سبيل تقرير ذلك كلّه أكد هذا التّذييل بـ (إنَّ) التّوكيدية المؤكدة لمضمون الجملة، واسمية الجملة المؤكد لثبوت المعنى ودوامه، والمبالغة في صفة ﴿عَلِيمُۢ﴾.

كمالُ العِلْمِ دالّ على كمالِ الجزاءِ على الأعمالِ وإن خفيتْ

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بصفةِ العلمِ وتنكيرِه:

التّعبير بصفة العلم أوَّلًا وآخرًا ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ﴾ و﴿عَلِيمُۢ﴾ فيه إشعار للخلق بأنّ خالقهم لكونه مُتَّصِفًا بكمالِ العلم وطَلاقَتِه، فإنّه هو الأعلم بمدى ما يُصلِحُهم، فلا يعلم من يصلح الخلق إلا من خلق، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]، فَمَنْ خَلَقَ السّماوات والأرض وعَلِمَ غيبَهما، هو مَنْ خلقهم وبعث إليهم الرّسل لحاجة أنفس المبعوث إليهم ولمنفعة لهم في ذلك، لا لحاجة المرسل والباعث ولمنفعة له، فحاشاه، ولذا فإنّ عليهم الإيمان به والإخلاص له فإنّهم مهما حاولوا إخفاء شيء عليه من كفر وما هو أدنى منه،

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 155.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 321.

فإنّ اللّه يعلمه، لأنّه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي خفاياها فكيف بما هو أقل منها؟ ثم إنّه مجازيهم بحسب علمه بما يستحقون من جزاء.

وأما عن التّنكير، فالغرض الأبرز من تنكير كلمة ﴿عَلِيمُۢ﴾ هو تعظيم علمه سبحانه، وأنّه لعظمته ودقته لا يغيب عنه مثقال ذرة مما تُكِنُّه الصّدور وتطويه وتخفيه.

معنى الباءِ في قولِه ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الأسرارُ مُختصَّةٌ بالصّدورِ كأنّها مالكةٌ لها

الباء في قوله ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ للإلصاق، وهو أصل معنى الباء الّذي لا يفارقها مهما تعدّدت معانيها، وأيضًا للمصاحبة وذلك أنّ "المراد ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، إمّا الأسرار أو القلوب، وأحوالها بجعلها لاختصاصها بالصّدور كأنّها صاحبة للصّدور مالكة لها، وليست الذّات مقحمة كما في: ذات غد، ولا من إضافة المسمّى إلى اسمه كما توهّم"[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

(أل) في﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للجنس باعتبار أفراده، فاللّه تعالى يعلم جميع ما في جميع الصّدور في آن، بحيث لا يخفى عليه شيء ممّا تكنّه وتعمل على إخفائه وعدم إظهاره.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

المُرادُ بِذاتِ الصّدورِ ما فيها من أسرارٍ وخواطرَ وأمورٍ

التّعبير بذات الصّدور وهي القلوب مراد به ما حَلَّ فيها من المعتقدات والضّمائر، فهو من هذه الجهة مَجازٌ مُرسَلٌ بإطلاق المحل وإرادة الحالّ فيه، وأيضا هو كناية عن موصوف؛ فذاتُ الصّدور هي القلوب لأنّ الصدور هي موضعها، ثم إن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ "كناية عن انتفاء أن يفوت علمه تعالى شيء، وذلك كناية عن الجزاء عليه فهي كناية رمزية"[2].

(1) الخفاجي، حاشية الشّهاب: 5/ 71.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 322.

اسمُ الفاعلِ للثّبوتِ، وصيغةُ المبالغةِ للشّمولِ

نكتةُ العدولِ عن لفظِ ﴿عَٰلِمُ﴾ إلى ﴿عَلِيمٌۢ﴾:

ومما يُلحظ في تركيب الآية الكريمة تلك المفارقة بين جملتي الآية، بالإخبار أولًا باسم الفاعل في قوله: ﴿عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ والآخر بصيغة المبالغة في قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ والسّبب هو أنّه في الأولى قصد إلى إثبات الحكم والدّلالة على دوامه، وفي الثّاني قصد إلى بيان أن علمه سبحانه لا يفوت عنه تعالى شيء، "وذلك كناية عن الجزاء عليه"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 321.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾ [فاطر: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستخلافُ في الأرض طريقٌ للإيمانِ لا طريقٌ للكُفرانِ

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ أهلِ النّار، وما أعقبَهُ من ذكرِ علْمِ اللّه تعالى لغيبِ السّماواتِ والأرض، وما تُكِنُّه الصُّدور؛ ناسبَ أن يذكرَ جعلَهم خلائفَ في الأرضِ؛ ليختاروا مصيرَهم، وأنّهم ما دخلوا النّارَ إلّا بمحضِ إرادةٍ واختيارٍ، فقد مكّنَهم سبحانَه ليُؤمنوا، ويَعملوا الصّالحاتِ، كما أنَّه لمّا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾: نبَّه في هذه الآية أنَّ مَن أنشأ شيئًا كانَ أعلمَ به، فإتقانُ صُنعه يدلُّ على تمامِ قُدرةِ صانعِه، وتمامُ قدرته ملزومٌ لتمامِ علْمِه[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: أَصلُ (خلف) مِنَ الإِخْلافِ، وهو: مجيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[2]، فالخَلَفُ: الْمُتَأَخِّرُ، سواءٌ كان تَأَخُّرُه في الزَّمَنِ، أَوْ في الرُّتبَةِ، يُقال: فُلانٌ خَلَفُ لِأَبيه، أَيْ: جاءَ بَعْدَهُ[3]، والجمعُ: خَلائِف، جاؤوا بِهِ على الأَصل، مِثْلُ كريمةٍ وكرائمَ[4]، والمقصودُ بالـ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في الآية: جمعُ خليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غيرَه في أَمرٍ كان لذلك الغيرِ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 322.

2) ﴿مَقْتًا﴾: أصلُ (مقت) يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[1]، والمَقْتُ: بُغضٌ من أمرٍ قَبيحٍ رَكِبَهُ[2]، مَقَتَهُ مَقْتًا: أبغضَهُ، فهو مَقيتٌ وممقوتٌ[3]، وقيل: المَقْتُ أشدُّ البُغضِ مع خِزْيٍ وصَغارٍ[4]، والمُقيتُ على الشَّيْءِ: القادرُ عليه، ومنهُ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ٨٥﴾ [النساء: 85][5]، والمرادُ بالمَقْتِ في الآية: البُغضُ الشَّديدُ؛ من أجلِ ارتكابِ قبيحٍ عظُم قُبْحُه، واحتقارُك الإنسانَ؛ من أجل معصيةٍ، أوْ بُغْضِ دينِه الباطلِ الَّذي يأتيه[6].

3) ﴿خَسَارًا﴾: أصلُ (خسر) يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ، والخَسارةُ والخَيْسَرَى: الضَّلالُ والهَلاكُ والنُّقصانُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته[7]، وخَسَرَ إذا نَقَصَ ميزانًا أَوْ غَيْرَهُ، وخَسِرَ إذا هَلَكَ[8]، والخَسارُ: مِثْلُ الخَسارة، وهو: نُقصانُ التِّجارة[9]، والخَسار في الآية معناهُ الخُسرانُ، أي خَسِروا آخِرتَهم ومعادَهم بأنْ صاروا إلى النّار والعَذاب[10].

المَعنى الإجْماليُّ:

مَن خرجَ عنِ المقصودِ وقعَ في المَحذور

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ كمالَ حِكْمةِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه، فقد ألقى سُبحانه في الأرضِ مقاليدَ التَّصرُّف، والانتفاعِ بما فيها من خيراتٍ جمَّةٍ، وأَباحَ منافعَها المُتعدِّدَةَ، وجعلَ اللّاحقينَ يَخلُفونَ مَن قَبْلَهم مِن الأُمم، وأَورثَهُم ما بأَيديهم من مُتَعِ الدُّنيا؛ ليَشكروه بالتَّوحيد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مقت).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (مقت).
(3) الجوهري، الصحاح: (مقت).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (مقت).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (مقت).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/ 2139.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 323.
(10) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/ 2139.

والطّاعة، فمنْ جحَد وكفرَ بهذه النِّعمةِ العظيمة، وغَمَطَها حقَّها، ولم يعتبرْ بما حلَّ بالسّابق مِن الأُمم؛ فعَليه وبالُ كفره؛ لا يَتعدّاه إلى غيره، وكلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينةٌ، ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلّا بُغضًا شديدًا لهم مِن رَبِّهم، ولا يَزيدُهم استِمرارُهم على كُفرِهم إلّا خَسارةً وهَلاكًا في الدُّنيا والآخِرةِ(1)، ففي الآيةِ بِشارةٌ للمُؤمنِ فلا يَيْأَسْ مِن أنَّ اللّهَ ﷻ يَجعلُ له الخِلافةَ في الأرضِ؛ وإنذارٌ للكافرِ بأنْ تُجتاحَ أرضُه على أَيدي المؤمنينَ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الفصلِ بينَ الجُمَل:

معرفةُ المآلِ لا تُحرِّك من أخذ عقلَه غرورُ الحال

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَفصولًا عنِ السّابق، وهو إمّا أنْ يكون استئنافًا، وإمّا أنّه جملةٌ مُعترضةٌ بينَ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ﴾ [فاطر: 38] وجملة: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾(3)؛ وفيه بيانٌ للآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾ [فاطر: 38]؛ فهي تُقرِّرُ معنَى أنَّ اللّه يعلمُ حالَ الإنسان، وأنَّه مع تمكينِه له في الأرضِ، فإنَّه يكفُرُ ليصيرَ مآلُه إلى النّار، ففيه تبكيتٌ وتوبيخٌ على تفويتِ مُدّةِ الاستخلافِ في الأرضِ دونَ الانتفاعِ فيها بالإيمانِ، ويترجّحُ لدينا كونُها اعتراضيّةً؛ إذ ربطُ كمالِ العلم بالغيبِ باختيارهم الكفرَ بالفاءِ يدلُّ على أنَّها اعتراضيّةٌ ذُكرتْ لبيانِ تمكينِه لهم بجعلِهم خلائفَ، ومع ذلك لم يعتبروا بالأمم السّابقة، ولم يَنتفعوا بخسارة المكذبين.

دلالةُ تصدير الآيةِ بالضّمير:

سبحانَ مَن تعرَّفَ إلى عبادِه في كلِّ شيءٍ

تُعرِّفُ الآيةُ العبادَ باللّه سبحانه وبعظيم امتنانِه عليهم بجعلِهم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 389، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 355، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 557، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 332.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن - سورة فاطر، ص: 273.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 322.

خلائفَ في الأرضِ؛ وأنَّ ذلك مِن شأنه أنْ يوصِّلَهم إلى المعرفةِ به تعالى؛ حتى يصيرَ أمرُه في أبصارهم وبصائرهم بمجرّد ذكرِه بقطع النّظر باسم الجلالة أوِ الضّمير، وفي الابتداء بالضّمير بيانٌ بأنَّ اللّه تعالى هو الذي اختصَّ بجعلِهم خلائفَ في الأرض، وأنّ هذا لا يكونُ لغيرِه سبحانه وتعالى، وبسببِ هذا الاختصاصِ يكونُ اختصاصُ العبوديّة والخضوع له تعالى، لِمَن وفقّه اللّه وكتب له الخيرَ.

علّةُ التّعبير بالموصول:

يَــزدادُ قبحُ الجحودِ عند معرفةِ نِعَمِ المَعبود

جاء التّعبيرُ بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، دون أنْ يُقال: (هو جعلكم خلائف في الأرض)؛ للإشعار بما في مضمون الصِّلة من بيان علَّة الامتنان، ولِلَفْتِ الأنظارِ إلى قيمة معنى الصِّلة بالنِّسبة للمُتلقّينَ مِن أهل الكفرِ والمعصيةِ خصوصًا، وأنَّه شيءٌ جليلٌ لهم؛ وهو أنَّهم خلائفُ في الأرض، وبيانُ عِظَم امتنان اللّه عليهم بجعلِهم كذلك، وبذلك تقومُ عليهم الحُجَّةُ بقوّةٍ.

نكتةُ القصرِ بتعريف الطّرفيْنِ:

تأنيبُ الكافرين بتضييعِ حقِّ ربِّ العالمين

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ مسندٌ إليه ومُسنَدٌ، وكلاهما معرفةٌ؛ فأفادَ تعريفُهما قصرَ الخبرِ المسنَد على المسنَد إليه؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أي: لم يَجعلكم خلائفَ في الأرض إلّا اللّه، ونكتةُ القصر تأنيبُهُم وتبكيتُهم على إهمالِهم أنفسَهم؛ وهم لا يزالونَ في الدنيا.

نكتةُ استعمال الفعلِ مادّةً وصيغةً:

الجعلُ امتنانٌ خـاصٌّ بعد امتنانٍ عامٍّ

جاء استعمالُ الجعل مادّةً وصيغةً في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ دون الخلق؛ لبيانِ أنَّ المنَّة في تصييرهم خلائفَ قادرين على الاستخلاف في الأرض بعد أن خلقهم بشرًا؛ فميّزهم عن سائر الخلق بهذا الجعلِ، ففيه امتنانٌ خاصٌّ بعد الامتنان العامِّ المشترك مع سائر المخلوقات، كما أفاد المضيُّ دلالةَ

تحقّقِ الوقوع، فلا مجالَ للكفر في الجاعلِ المتفضّل الذي خلقَ خلائفَ منَ النّاسِ في الأرض، ولا ننسى أنّ (جعلنا) وقعت خبرًا فعليًّا عنِ المبتدأ الدّالِّ على تقوية الحكم مع التّخصيص، فيكون كنايةً عن عظمة الخالقِ في إيجاد مخلوقاتِه على هذا النّمط من خلافةِ بعضهم لبعض.

تعيينُ مرجعِ الضّمير:

نــعــمــةُ الاستخلاف تعمُّ الجميع

يرجعُ الضّمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لعموم النّاس عمومَ شمولٍ واستغراقٍ فهو مجازٌ؛ امتنانًا عليهم، وإحسانًا إليهم، ليعمَلوا بموجِبِ الاستخلافِ بالإيمان والأعمالِ الصّالحة.

غرضُ استعمالِ مفردة ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾:

مَن جحدَ نعمةَ الاستخلاف في الدُّنيا هُدِّد بسلبِ نِعمة النّجاة في الآخرة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لمزيد الامتنان على النّاس، فقد أوتوا نِعمةَ الاستِخلافِ في الأرضِ، والمعنى: أنّه تعالى جعلكم خلفاءَه في أرضه، وألقى إليكم مقاليدَ التّصرُّفِ فيها، وسلَّطَكم على ما فيها، وأباحَ لكم منافعَها، أوْ جعلَكم خلفاءَ مِمَّن قبلَكم مِنَ الأُمَم، وأورثَكم ما بأيديهم؛ مِن متاعِ الدُّنيا؛ لتشكروهُ بالتَّوحيدِ والطّاعة[1]، وفي (الخلَف والخليفة) إيحاءٌ بأهميَّة الاختيار والإنعام على النّوع البشريِّ، الذي اختاره اللّه تعالى ليقومَ بمهمَّة الإصلاح والإعمار لحياتِه الدّنيا، وإنْ كان كلُّ شيء يَجري بمحضِ خَلْقِ اللّه تعالى، وتحتَ أمره وإرادته، إلّا أنَّها خلافةٌ تمكينيّةٌ للابتلاءِ والتكليف، وأنْ يَستشعرَ المُستخلَفُ قدرةَ المُستخلِف، وأنْ يتعرّف عليه ويهتديَ إليه بالآيات والدّلالات.

غرضُ جمع ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾:

كـثرةُ الخلائفِ تنويعٌ لأشكالِ الاستخلاف وأنواعِ العِمران

لَمّا كانَ تيسيرُ المعاشِ في الأرضِ وتمكينُ الاستخلافِ فيها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480.

لكلِّ فردٍ أدلَّ على الامتنانِ؛ فتكونُ الحُجَّةُ عليهم أقوى وأعظمَ، نبَّه القرآنُ على ذلك بالتّعبيرِ بجمعٍ: (خليفة)؛ فقال: ﴿جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ على الأصلِ في الخطابِ، وإذا كان في الجمع تنبيهٌ على معنى أنَّ هؤلاءِ الخلائفَ يُعِينُ بعضُهم بعضًا؛ فإنَّ فيه معنى أنَّ بعضَهم بلاءٌ لبعضٍ؛ بأنْ يتأثَّرَ الضّعيفُ بالقويّ، وأنْ يتّبِعَ الفقيرُ الغنيَّ، ونحوَ ذلكَ.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

الامـــتـــنـــانُ بـالـتّـمـكـينِ من أعظمِ مِنَنِ ربِّ العالمين

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الظّرفيّةِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ دونَ حرفِ الاستعلاء؛ للدّلالة على غايةِ التّمكينِ الحسّيِّ والمعنويِّ في الاستخلاف؛ بحيث كان يسهلُ عليهم معرفةُ اللّه، واختيارُ توحيده، وعبادتِه على عبادةِ غيره؛ وهذا إبلاغٌ فوق الإبلاغ بذِكرِ الأرضِ قيدًا لجعلهم خلائفَ، مع ما فيه منَ الامتنانِ بالتّمكين في الأرضِ، والإشارةِ إلى أنَّهم تمكّنوا منَ الأرض فوقَ ظهرِها وتحت أرضِها، ونلحظُ في ذكر حرف الظّرف ما يؤكّدُ علويّةَ الخطابِ القرآنيّ وأنَّه من خارجِ حدودِ الأرض، إذ منحَ المولى الجليلُ الاستخلافَ في الأرض دونَ حدود السّماء وما فيها من عوالمَ؛ ليبيّنَ لهم مدى ضآلتِهم في وقت الامتنان والنِّعمة؛ فيحصلُ لهم نوعُ تأديب.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

كلمة: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مُعرَّفةٌ بأل، والمرادُ بها الأرضُ المعهودةُ؛ وهذا أبلغُ في الاحتجاج والامتنانِ عليهم، فالاستخلافُ يشملُ الأرضَ كلّها، فهي موضعٌ للاستخلافِ، وهذا العهدُ في المكان يُعطي حريّةَ الاستغلال والاستثمار في كلّ بقاعِها وأجوائِها، والانتفاعِ بخيراتها، والعملِ على إعمارِها دونَ إفسادها.

بلاغةُ الكنايةِ:

استشعارُ فكرة الاستخلافِ الصّوريِّ

منَ المعلوم أنَّ الخليفةَ يقومُ عند غيابِ الأصيلِ عنِ المشهد، مع أنَّ استخلافَ الإنسان في الأرض مختلفٌ غايةَ الاختلاف؛ إذ هو تحتَ مراقبةِ المُستخلِف الذي لا يغيبُ عن علمِه شيءٌ، فالخلافةُ صوريّةٌ في الحقيقة جيء بها كنايةً عن تمكين الإنسانِ من اتّخاذ قرارِ الاختيار بالإيمانِ والكُفران، والمبادرةِ في دارِ الابتلاء بالأعمالِ التي هي تحتَ طائلةِ التّكليفِ، فكان قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ كنايةً عن حجم المسؤوليةِ المُلقاةِ، وأهميّةِ الاختيار والقرار المتعلّق بشأن التّكاليف.

نوعُ الفاء ومعناها:

يــجــبُ عـلـى الـمُـسـتـخـلَـف الإيـمــانُ دون الــكُــفــران للمستخلِف

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ تحتملُ أن تكونَ مستأنفةً[1]، وأن تكونَ فصيحةً[2] على تقديرِ محذوف، أي فإنْ علِمتم أنّكم خلفاءُ؛ وما يتوجَّبُ على المستخلَف مِنَ التّوحيدِ والعبادة للمستخلِف؛ فمَن كفرَ فعليهِ كُفرُه، وتحتملُ التَّفريعَ على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ [فاطر: 38][3]، وأيًّا مّا كان تعلُّقُها فإنَّ الإتيانَ بالفاء دلَّ على أنَّ أهمَّ واجباتِ الخليفة الإقرارُ بالمستخلِف، والتّعرّفُ إليه بالعبادةِ والاعتراف؛ حتى يتمكّنَ الخليفةُ من إعمار الأرض والسَّيطرةِ على نزواتِه وشُروره التي تُؤدّي إلى إفسادِ نظام الحياةِ والعالم.

نوعُ (مَن) ودلالتُها:

العمومُ دالٌّ على الاستغناء التّامِّ

(مَن) في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ شرطيَّةٌ، ولفظُها مفردٌ مُذكَّرٌ، ومعناها الجَمْعُ بنَوْعَيْه، وقد حُمِلَ على لفظِها في قوله: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾، والموصولُ دالٌّ على العموم، وهذا الشّمولُ مقصودٌ

---

(1) صافي، الجدول: 22/ 281.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 164.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 322.

للدّلالة على استغناءِ المُستخلِف عنِ الخليفةِ، وأنَّ المُستخلَفَ يتحمّلُ نتائجَ قراره باختيارِه جحودَ المُستخلِف.

علّةُ استعمالِ مُفردة (الكفر) بصيغة الماضي:

الكفرُ مبدأُ الجحودِ ومُنتهى الصُّدودِ

لمّا كانَ السّياقُ في الحديثِ عن جزاء الّذين كفروا باللّه وبنعمه، جاء التّعبيرُ عن جحودِ نعمةِ الاستخلاف، التي هي في الحقيقة نِعَمٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، وعدمِ العملِ بمُقتضاها بمفردة (الكفر) في قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ﴾؛ للتَّنبيه على علّة الجحود وعدمِ شُكرِ نِعَمِ اللّه تعالى وهي الكفرُ الصّريح، وجاءتِ المفردةُ بصيغة الفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقُّقِ الكفرِ فيهم، ولتكونَ مقابلًا للفعل ﴿جَعَلَكُمْ﴾ الدّالِّ على النِّعمة، ويكونُ بينهما طباقٌ خفيٌّ؛ إذِ الجعلُ امتنانٌ والكُفر إنكارٌ للجَعْل وتكذيبٌ به.

غرضُ حذفِ متعلِّق الفعل:

حُذِف متعلِّقُ فعلِ الكُفر في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ﴾، فلم يقل: فمَن كفرَ باللّه تعالى، ونحوَه ممّا يَقتضيه السّياق؛ إرادةَ العموم، ليدخل فيه أصغرُ كُفرٍ وأكبرُه وهذا أشدُّ ذمًّا، كما يحتملُ أنْ يكونَ المتعلّقُ (بنعمةِ الاستخلاف وأنكر المستخلِف)؛ ليكونَ برهانًا على الجحودِ الواضح للمُستخلَف، الّذي تولّى القرارَ والاختيارَ بالحقّ الممنوحِ له منَ المستخلِف، فعمدَ إلى جَحْدِه وإنكارِه.

معنى الفاء وفائدتُها:

أعظمُ إحسانٍ إلى الإنسانِ دعوتُه إلى إعمال الأذهان

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: واقعةٌ في جواب الشّرط، فهي رابطةٌ بين الشّرط والجواب، وتدلُّ على سببيَّة الشّرط في الجوابِ، فهي تربُطُ بينهما في الذِّهنِ؛ فيكونُ ذلك سبيلًا إلى تمكُّن المعنى الحاصلِ من مجوعِهما في النَّفسِ فَضْلَ تمكّنٍ، وهذا أدْعَى إلى التَّفكيرِ فيه ومُراجعتِه، وتلك فائدةٌ جليلةٌ، كما تُشعِرُ (الفاء) بحجم القرار النّاشئِ عن فعل الشَّرط وما يترتّبُ عليه من آثار.

معنى حرفِ الاستعلاء:

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الاستعلاء (على) في قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ لمعنى التّمكُّنِ والإحاطةِ؛ الدّالِّ على تأثيرِه فيه تأثيرًا بالغًا، يعني أنَّ وبالَ كفرِه وجزاءَه مُحيطٌ به إحاطةً تامّةً، وفي جعلِ الكُفر وهو أمرٌ معنويٌّ فوقَ الكافر مجازٌ استعاريٌّ بتشبيهِ الكفر بجسمٍ ثقيلٍ يعلو الكافرَ، للدّلالةِ على ثقلِ القرارِ الخاطئِ الَّذي اتّخذَه حتى أثقلَ كاهلَهُ.

المجازُ المرسَلُ أوِ الحذفيُّ:

التَّنبيهُ على الأسبابِ يوقظُ من طولِ السُّبات

قولُه: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ جوابُ شرط، وهو على تأويلِ اللّفظ بتقديرِ مضافٍ محذوف، أي: فعليه وبالُ كفره، وضَرَرُ كُفره[1]، أَوْ أَنْ يكون الكفرُ مجازًا مرسَلًا؛ عُبِّر به عن مُسبَّبه، فالعَلاقَةُ سببيَّةٌ، فذكر السَّببَ وهو الكُفر وأرادَ المسبَّبَ عنه وهو الوبالُ والخُسران والعذاب، ففيه تنفيرٌ منَ الكفرِ وتقبيحٌ له، ويترجّحُ لدينا أنَّ المجازَ استعارةٌ بالكناية؛ ودلَّ حرفُ الاستعلاء عليه؛ لأنَّ الكفر لا يتحمّلُ وزرَه إلّا مَن سار في طريقه، والجحودَ شنيعٌ ثقيلٌ لا يجوزُ الإقدامُ عليه.

غرضُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

جزاءُ الكفرِ مقصورٌ على صانعِه محيطٌ بموجدِه

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ المتعلّقانِ بالخبرِ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾؛ فلم يقل: (فكفره عليه)، وذلك للعنايةِ والاهتمام بالمُقدَّم مع التّخصيص؛ إذ لا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى؛ ولإيقاظِ الكافرِ المُعبَّر عنه بالضّميرِ المجرورِ محلًّا في ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ مِن غفلتِه؛ إذ جزاءُ الكفرِ مقصورٌ عليه لا يتعدّاه إلى أحدٍ مهما كان شأنُه، فقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 442، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 232، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 48.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

العاقل من اتعظ بغيره

في جملةِ الشّرط وجوابِه: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ كنايةٌ عن عدمِ الاهتمام بأمرِ دوامِ الكافرينَ على كُفرهم، وفيه إرخاءُ حبلِ الاختيارِ، الموصِلِ إلى الجزاءِ العادل، كما تفيدُ الكناية عدمَ لحوق أضرارِ الكفر إلّا بالكافر نفسِه، وعلى العاقل الذي يسمعُ الخطاب ويرى أنَّ مسؤولية الكفرِ لا تقومُ إلّا بالمقترِف له فيَرعوي عنه ويَرتدعُ، ردًّا على توهُّمِهم أنَّ هذا الكفرَ والتّكذيبَ تنقيصٌ واستخفافٌ بالمُستخلِف، وما هو إلّا إضرارٌ بأنفُسِهم.

نوعُ الواو ودلالتُها:

يجتمعُ على الكافرِ العذابُ الحسّيُّ والمعنويُّ

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾ للعطفِ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾، أي: عليهم جزاءُ كفرِهم، ومقتُ اللّه إيّاهم، وفي ذكرِ (الواوِ) احتفالٌ بما بعدَها؛ بجعلِه مُستقلًّا عمّا قبلَه مُغايِرًا له؛ إبلاغًا في بيانِ خطرِ الكفرِ، وفي بيانِ ما يَستَوْجِبُه من مقتِ اللّه، وكان مقتضى ظاهرِ هذا المعنى أنْ لا تعطفَ عليها؛ لأنَّ البيان لا يُعطَفُ على المبيَّن، وإنّما خولف ذلك للدّلالة على الاهتمام بهذا البيان، فجُعِل مُستقلّا بالقصد إلى الإخبار به، فعُطِفت على الجملةِ المبيَّنة بمضمونها؛ تنبيهًا على ذلك الاستقلال، وهذا مقصدٌ يفوتُ لو تُرِك العطف، أمّا ما تُفيده منَ البيانِ فهو أمرٌ لا يفوَّتُ؛ لأنَّه تقتضيه نسبةُ معنى الجملةِ الثّانية من معنى الجملةِ الأولى[1].

نكتةُ استعمالِ أداة النفي (لا):

الكفرُ مصبُّ الآثام ومجمعُ الآلام

تدخلُ (لا) على الفعل المُضارع، وتفيدُ النّفيَ في الحال والاستقبال، ومعناها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾ أنَّ هذا الكفرَ يَزيدُهُم مقتَ اللّه إيّاهم في الدّنيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 322.

والآخرة؛ لأنّه مستثنىً بإلّا، وفي هذا مِنَ التّرهيبِ مِنَ الكفرِ ما فيه، ومِنَ التّرغيبِ في شُكْرِ النِّعَم بالإيمانِ باللّهِ وحدهُ ما فيه.

علَّةُ استعمالِ الفعلِ ﴿يَزِيدُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الكفرُ دركاتٌ متباينةٌ يزدادُ مَقتُها بزيادةِ كفرِ أصحابِها

لمّا خوطِبَ النّاس بنعمةِ الاستخلافِ في الأرضِ والتّمكينِ فيها، وصدرَ عنهم الكفرُ بعدَ تحقيق النِّعم وإنزالِ المِنَن، أُخْبِروا بأنَّ هذا الكفرَ إنَّما يَزيدُهم مقتَ اللّهِ إيّاهُم، فعُبِّر بالزّيادة؛ ليتناسَبَ مع تلك النِّعْمةِ التي صُدِّرَتْ بها الآيةُ، فزيادةُ كفرِ الكافر تَزيده مَقتًا وعذابًا، ففيه وعيدٌ بمُضاعفة العذابِ بقدرِ مُضاعَفةِ الكفر، ولمّا كانتِ الزّيادةُ تكونُ في وقتٍ دونَ وقتٍ؛ فهي تتجدَّدُ لهم، فصوَّر القرآنُ ذلك بنَظْمِ الزّيادة فعلًا مضارِعًا.

نكتةُ صوغِ الكفر اسمَ فاعلٍ:

الرّاسخونَ في الكفرِ أرسخُ مَقتًا وأجزلُ جحدًا

آثر النَّظمُ الكريمُ إظهارَ لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ﴾، ليصوغ عنوانَ كفرهم باسم الفاعل، فيكونُ فيكونَ معبِّرًا عن رسوخِ كفرِهم، أي: المُغطّينَ للحقِّ وهم راسخونَ فيه، غيرُ مُتمكِّنينَ عنه؛ ولذا لم يقل: (لا يزيدُ مَن كفر)؛ لأنّه قد يكونُ كفرُه غيرَ راسخٍ، فيُسْلِمُ[1]، كما دلَّ اسمُ الفاعل على علّةِ تلك الزّيادة في المَقت؛ إذ تعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على علّيَّته له، والمعنى أنَّهم إنَّما ازدادوا مَقتًا بسبب رسوخِهم في الكفر رُسوخًا مُحكَمًا، لا يزولُ عنهم حتى صارَ شعارًا لهم.

تنوُّع معنى لفظِ الكفرِ باعتبار السّياق:

الإصرارُ على الكفرِ يَستوجِبُ البقاءَ في الطّرْدِ

المرادُ بالمصدر ﴿كُفۡرُهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ﴾ الكفرُ الدّائم الَّذي بسببِهِ نالوا المَقتَ؛ فلو لم يكفروا لَما مقتَهُم اللّهُ، ولم يكونوا مَمقوتينَ عندَه قبلَ أنْ يقَعَ منهم الكفرُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 232.

والّذي زادَهُم مقتًا عندَ اللّهِ دوامُ الكُفرِ واستمرارُه منهم؛ فقد كان المشركونَ يَتكبَّرون على المُسلمين، ويُشاقّونهم، ويُؤْيِسونهم مِن الطّماعيّة في أنْ يقبلوا الإسلامَ بأنّهم أعظمُ مِن أنْ يتَّبعوهم، وأنَّهم لا يُفارِقون دينَ آبائهم، ويحسبونَ ذلك مَقتًا منهم للمسلمين، فجازاهمُ اللّه بزيادة المَقتِ على استمرارِ الكفر[1]، كما أنَّ التّعبيرَ بالمصدر يدلُّ على أنَّ حقيقةَ الكفر قد قامَتْ بهم، وإسنادُ الفعلِ إليه مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ المصدريَّةُ، وغرضُهُ المبالغةُ في أثرِ الكُفر وضَرَرِه؛ إذ يُحدِثُ الكفرُ في ذواتِ الكافرين زيادةَ مقتٍ وبغضٍ لهم عند اللّه تعالى.

من رَضيَ بالكفرِ رسوخًا عُرِفَ به

نكتةُ إضافةِ لفظِ الكُفرِ إلى الضَّميرِ:

أُضيفَ لفظُ (الكفر) إلى ضميرِ الكافرينَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ﴾؛ للدّلالة على عظيمِ رغبتِهم في الكفر، وارتياحِهم له؛ كأنّهم خُصّوا به، وخُصَّ بهم، مع ما فيها منَ الإشعارِ بشَناعةِ كفرِهم وقَباحته حتّى كأنَّه نوعٌ خاصٌّ فريدٌ في بابِه لا يُضافُ إلّا إليهم، وأمّا تقديمُ المفعولِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على الفاعل ﴿كُفۡرُهُمۡ﴾ فهو واردٌ على الأصل، ولو قيل: ولا يزيد كفرُهم الكافرينَ لزمَ عودُ الضّمير على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً.

نكتةُ استعمالِ الظّرف ﴿عِندَ﴾:

قُيِّدت جملةُ الخبرِ: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ﴾ بقيدِ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ لتدلَّ على غايةِ الإرعاب والإرهاب لهم؛ لأنَّ الوعيد هو كونُه عندَ اللّه تعالى، وكفى بذلك ترهيبًا، وللدّلالةِ على أنَّ ذلك المقتَ والبُغضَ في ميزان اللّه تعالى القائم على الحقِّ والعدل، وأمّا في ميزانِ الدّنيا فقد يكونُ الكافر محبوبًا عندَ أصحابِهِ، لكنَّه ميزانٌ يقومُ على المصالحِ والغايات.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 232.

فائدةُ إضافةِ لفظ الرّبوبيّة إلى الضّمير:

في اختيار لفظِ الرَّبِّ مضافًا إلى ضميرِهِم في قوله: ﴿كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ إنكارٌ لطيفٌ عليهم أنْ يكون منهم كفرٌ بالمُحْسِن إليهم، والمُنْعِم عليهم؛ بَلْهَ أنْ يستمروا ويَدوموا عليه؛ وتقبيحٌ لهم، وتشنيعٌ عليهم، وتشهيرٌ بهم؛ فقد قابلوا الجمالَ الإلهيّ بالإساءة، فقوبلت إساءتُهُم بغضبِ الجلالِ الإلهيِّ؛ ففي الإحسانِ إليهم تعليلٌ في المعنى لزيادة المقتِ؛ كأنَّهم لمّا قابلوا عظيمَ الإحسان بعظيمِ الإساءة - وهو الكُفران - زادهُمُ اللّه مَقْتًا.

مقابلةُ الإحسانِ بالكُفْرانِ دَيْدنُ أهلِ الأوثانِ

بلاغةُ القصرِ:

قُصِرت زيادةُ الكافرين كفرًا على المَقتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾؛ قصرًا حقيقيًّا مَجازيًّا؛ لأنَّ دوامَ كفرِهم يتسبَّبُ في زيادةِ غيرِ المقتِ لهم، ويجوزُ أنْ يكون قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ زيادةَ مقتِ اللّهِ عليهم أصلٌ لكلِّ بلاءٍ يحصلُ لهم؛ بسببِ استمرارهم على الكفر، فهذه الزّيادةُ لا تتعدَّى المقتَ إلّا إلى ما هو مِن آثارِه ومتعلّقاته، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ لأنَّ الزيادةَ تقومُ بالمقتِ، والكافرونَ يُنكِرونَ مِثْلَ هذا المعنى القَصْريَّ؛ فأفاد القصْرُ قلبَ اعتقادِهم لتبكيتهم وتوبيخِهم، وكذلك يُقال في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ لأنَّ دوامَ الكفرِ منهم يتسبَّبُ في زيادة كلِّ ما هو داخلٌ تحتَ الخَسارِ، ونلحظُ في كلا القصْرين نوعًا منَ المفاجأة وعدم التوقُّع؛ إذ فعلُ الزّيادة يتضمّنُ التّكثيرَ في صفاتهم التي يَستلزِمُها كفرُهم منَ الغُرور والاستكبار وغيرهما، ولكنَّ الزّيادةَ هنا وقعتْ في منزلتهم عندَ اللّه تعالى، فكانت عبارةً عنِ المَقتِ والخَسارة والبُغض والفشَل.

المَقتُ والخَسارُ مُختصّانِ بالكافرين

علّةُ التّعبيرِ بالمَقتِ مادّةً وتنكيرًا:

الكفرُ بنعمةِ الاستخلافِ غايةُ الشَّناعةِ والقُبْحِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة (المقت) في قوله تعالى: ﴿وَلَا

﴿يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ﴾، وهو أشدُّ البُغضِ، لما فيه من بيانِ شديدِ المُباعدة عن أسبابِ الرّحمة، فإنَّ الكافرينَ بكُفرهم وكُفرانهم قد بلغوا الأشدَّ في تحصيلِ الأسبابِ الموجبة لقطعِ أشكالِ الرَّحمة، فهو كنايةٌ عن شديدِ العذابِ اللّازمِ لهم، كما دلّ التّنكيرُ على التّفخيمِ والتّعظيم؛ ليكون بُغضًا عميقًا تتضاعفُ به دلالةُ العذابِ الواقعِ بهم لزومًا.

بلاغةُ العطف بتَكرارِ الجُمل:

تَكرارُ الجملِ يُؤْذنُ بمزيد النِّقَمِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ﴾، والخَسار هو من نتائجِ المقت وثمراته، فهذه الجملةُ كالتّوكيدِ للأولى، وحقُّ التّوكيد الفصلُ لا الوصل، لكنَّها جاءت موصولةً بالواو؛ لزيادةِ التَّقريرِ والتَّنبيهِ على أنَّ اقتضاءَ الكُفرِ لكلِّ واحدٍ من الأمرَينِ الهائلَين القبيحَين بطريقِ الاستقلالِ والأصالةِ[1]، فهي كمجيءِ الخاصِّ بعدَ العامِّ، وحسَّنَ ذِكْرَ (الواو) تَكرارُ معظم الجملةِ.

بلاغةُ الاكتفاءِ:

الاكتفاءُ من مظاهر الاختزالِ الحاوي لنُكات البيانِ

لمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ﴾، وكان الثّاني تأكيدًا وبيانًا للأوَّلِ، وهو على نهجِ أسلوبِ الأوّل، اكتُفي بحذفِ قيدِ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عن ذكرِه دون العكس؛ لما أنَّ المقت جامعٌ بينَ العذابِ المعنويِّ والحسيِّ، وكان ذكرُ العنديّة في جانبِه أشدَّ وأعظمَ من ذكرِها في جانبِ الخَسارة، مع تحقُّقِ الأمرِ في الجُملتينِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480.

علّةُ التّعبيرِ بلفظ الخَسارِ:

الكفرُ بالنِّعَم تجارةٌ خاسرةٌ بعد الاغترارِ بربحِها

الخَسارُ في أصلِ اللغةِ نقصانُ التّجارة، واستُعيرَ هنا لخَيْبةِ العمَلِ؛ على جهة الاستعارةِ التّصريحيّة الأصليّة؛ فقد شُبِّه عملُهم في الكُفر بعمل التّاجرِ الخاسِرِ الذي بارَتْ سِلْعتُه؛ فباعَ بأقلَّ ممّا اشتراها به، فأصابَهُ الخَسارُ، فكلّما زادَ بيعًا زادَتْ خَسارتُه؛ حتّى تُفْضيَ به إلى الإفلاسِ[1]، والمعنى: أنَّهم خابَ عملُهم في الآخرة؛ فصاروا إلى النّارِ والعذابِ، وإنَّما آثَرَ القرآنُ معنَى الخَسارِ؛ تناسُبًا مع ما أعطاهُم اللّهُ من رزقٍ ونِعَمٍ وخيرٍ وفيرٍ؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ ذلك لم يَنْفعْهُم في الآخرة؛ لأنَّهم لم يَستثمروهُ، ولو استثمروهُ بشُكْرِه بالتّوحيدِ والإيمان لَما خسروا في الآخرة؛ فهذا المعنى راجعٌ إلى قوله تعالى في أوائل السّورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ [فاطر: 5]، وهؤلاءِ قد غرَّتْهُم الحياةُ الدّنيا، فخوطِبوا بهذا المعنى، وفي الجمع بين المقتِ والخَسار توضيحٌ لثمرةِ ذلك المَقت، وإظهارٌ للازمِه وهو الخَيبةُ والفَشل.

نكتةُ تذكيرِ لفظِ ﴿خَسَارٗا﴾:

بقَدْرِ عِظَم الفرصة المُضيَّعة تكونُ الحَسْرةُ عليها

آثَرَ النّظمُ الكريم تذكيرَ المصدر (خَسار) الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾، وهو مصدرٌ مِن خَسِرَ يَخْسَر كالخسارة[2]، وتذكيرُه دون تأنيثه بأنْ يُقال: (خَسارة) أشدُّ في المعنى، فإنَّ الخسارةَ ملحوظٌ في النّوعِ الواحد، والمرّةِ الواحدة، بخلاف الخَسار، فإنَّه ممتدٌّ طويلُ الغاية.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

المقتُ والكُرهُ والبُغض:

الكُرهُ خِلافُ الرِّضا، والبُغضُ خلافُ الحبّ، والمقتُ أشدُّهُما

المقتُ أخصُّ مِنَ الكرهِ والبُغض؛ فهو البُغضُ الشّديدُ، وهذه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 323.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 442، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 323.

الشِّدّةُ إنّما تكونُ مِن أجلِ مُخالفةٍ عظيمةٍ؛ ولهذا قالوا: إنَّه البغض الشّديدُ لَمن تراهُ تعاطَى القبيحَ، وقالوا: كلمةُ المَقتِ تدورُ على شَناءةٍ وقبحٍ، ومَثَّلوا في ذلك بـ(نكاح المَقتِ) في الجاهليّة؛ وهو أنْ يتزوّجَ الرجلُ امرأةَ أبيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: 22]، وأمّا البُغْضُ فهو ما يدلُّ على خِلافِ الحُبِّ؛ فهو أعمُّ في المَقتِ، وكذلك الكُرهُ؛ فإنَّه يدلُّ على خلافِ الرِّضا والمحبَّة[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغض) و(كره) و(مقت)، والراغب، المفردات: (مقت).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠﴾ [فاطر: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانــتــقــالُ مــن مَـظـاهـر الاستخلافِ إلى حقائقِ الخِلافِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة أنّه هو وحدَهُ الَّذي جعل النّاسَ خلائفَ في الأرضِ، المشيرُ إلى أنَّه وحْدَه خالقُهم ورازقُهم، وأنّه وحدَه الحقيقُ بالتّوحيدِ والعبادةِ، ناسبَ أنْ يذكُرَ بعدَ ذلك ما يُحقِّقُ هذا المعنى ويُؤكِّدُه؛ مِن تقريرِ بُطْلان إلهيّة آلهتِهم التي يدعونَها مِن دونِ اللّه، وقد نُظِم ذلك التّقريرُ على صفةِ الاستفهامِ الّتي تجعلُهم يَعترفونَ بنعمةِ الاستخلافِ، وما يتبَعُ ذلكَ مِنَ الاعترافِ بالألوهيَّة الحقَّة، والإيمانِ بها[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ أثرِ استخلافِ اللّه تعالى للنّاس في الأرضِ، إلى عدميَّة أثَرِ الشُّركاء الَّذين يدعونَهم من دون اللّه، وشتّانَ ما بينَ الخالق والمخلوق، وبين المعبودِ الحقِّ والمعبود الباطل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أصلُ (رأى) يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ، والرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئيِّ، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفسِ أحدَ النَّقيضين عندَ غلبةِ الظَّنِّ، والرُّؤيا: ما يُرى في المنام[3]، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، وللنَّحويّين في:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 232.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).

(أَرَأَيْتُمْ) الإخباريّةِ خلافٌ بالنِّسبة إلى الفاعل، فهي تفيدُ التَّنبيهَ، وهو تَرْكيبٌ شَهيرُ الاستِعْمالِ، يُفتَتَحُ بمِثْلِه الكَلامُ الَّذي يُرادُ تحقيقُهُ والاهتِمامُ بِهِ[1]، والمقصودُ بالإراءَةِ في الآية: الإخبار؛ لأنّها كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الاستِخبارِ، ومَعناها: أَخبِروني عن شُركائِكم[2].

2) ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾: أصلُ (شرك) يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفِرادٍ، والشِّرْكَةُ: أن يكونَ الشَّيءُ بين اثْنَيْن لا يَنفَرِدُ به أحدُهما[3]، والشَّريكُ: المُشارِك، يُقالُ: شَرِكتُه في الأَمْرِ وشاركتُه: إذا انضممْتُ إليه وخالطتُه، وصِرْتُ شريكًا له[4]، والشِّرك: أنْ تجْعَلَ للّه شريكًا في رُبوبيَّته تعالى اللّه عنِ الشُّركاءِ والأنداد[5]، والمقصود بالشُّركاء في الآية: جَمْعُ شَريكٍ، وهي الأصنامُ التي أَشركوها في العِبادة، ووُصِفوا بالشُّركاءِ لاعتِقادِ المُخاطَبين ذلك؛ ولذلك أُضيفَ إلى ضميرِهم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من أساليب المُناظَرةِ في القرآن السَّبْرُ والتَّقسيم

تُبيِّنُ الآية الكريمة عجْزَ آلهةِ المشركين ونقْصَها، وبُطْلانَ الشِّركِ من جميع الوُجوه، فهي خطابٌ للنّبيِّ ﷺ أنْ يقولَ للمُشركينَ من قَومِه: أرأيتُم مَنْ تُشركونَهم مع اللّهِ تعالى؛ فتَدْعونَهم من دونِه، أَخبِروني عنهم، وأَروني ما الَّذي خلَقوه مِنَ الأرضِ؛ حتَّى استحَقّوا عبادتَكم لهم؟! أم لهم نصيبٌ مع اللّهِ في السَّماواتِ في خَلقِها، أوْ مُلكِها، أو تدبيرِها؟ أم آتَيْناهم كتابًا فيه ثُبوتُ الشَّركةِ مع اللّه؟ فالمُشرِكونَ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ مِن صِحَّةِ ذلك؟! كُلُّ ذلك مُنتَفٍ؛ فلا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 221، و15/ 150.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 691.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (شرك).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 151.

باعِثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطِلةِ إلّا خِداعُ بَعضِهم بعضًا بالأمانيِّ الكاذِبةِ، والآراءِ الباطِلةِ، فاتَّبَعوا أهواءَهم بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ بينَ الجُملِ:

تضييعُ نعمةِ الاستخلافِ في المُناداةِ على نِقمةِ الشّرك

جاءَ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾ غيرَ مُصدَّر بعاطفٍ؛ إمّا لأنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ في الاحتجاجِ على الكفّار في أمرِ أصنامهم؛ بعد إقامة الحُجّةِ عليهم بجعلِهم خلائفَ في الأرضِ، ولبيانِ أنَّ إقدامَهم على الكفر لم يقمْ على برهانٍ قاطعٍ ولا دليلٍ دامغٍ، وهذا هو الرّاجحُ لاختلاف الجُملتينِ في الإنشاءِ والإخبارِ، وإمّا لأنّه بيانٌ وتوكيد للآية السّابقة، فهو من كمال الاتّصال؛ بمُلاحَظةِ المعنى فيهما، وأنَّ معنَى الثّانيةِ يقرِّرُ معنى الأولى ويؤكِّدُه، وفي الثّانية تفصيلٌ لكُفرهم، وبيانٌ لتضييعِهم نعمةَ الاستخلافِ، وأنَّهم رتَّبوا عليها عبادةَ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

بلاغةُ الأمرِ وغرضُهُ:

من ضيَّع الرَّحمةَ حالَ وجودِها نَدِمَ ساعةَ احتياجِها

خطابُ الأمر في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ لنبيّنا محمّد ﷺ؛ ليُخاطِبَ أهلَ الكفرِ محتجًّا عليهم، أدلُّ على عِظَم الاحتجاج وفخامته، وأبلغُ في إقامة الحُجّة عليهم؛ لأنّه يَستحضرُ دعوتَه ﷺ إيّاهُم إلى الحقِّ، وتبيينَه لهم؛ بما لا يبقَى معَه نوعُ شُبْهَةٍ لهم تجعلُهُم يدعونَ غيرَ اللّه؛ ففي الأمرِ تبكيتٌ لأهل الكفرِ[2]، وهو يُذكِّرُهم بأنَّه ﷺ لا يزالُ حاضرًا فيهم؛ فليُسْرِعوا في التّوبة مِمّا هم فيه، والاقتداءِ به، مع الإشعار "بأهميّة المقولِ، وكونه رسالةً خاصّةً يجبُ الاعتناءُ بها، وتبليغُها فورَ تلقّيها، ومواجهةِ مَن كان مقصودًا بها؛ وهم - هنا -

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 390، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 356، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 557، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 691.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 22.

عبدةُ الأصنام"[1]، كما يحمل توجيهُ الأمر له ﷺ تعظيمًا لشأنِ هذا الرّسول الأكرم، الَّذي كان واسطةً في تبليغ ما يريدُه اللّه منهم، مع أنَّ الخطاب مِن خطابِ عموم الشُّمول، الّذي يرادُ به كلُّ مَن يتأتَّى منه القولُ، ففي ضميرِ الفاعل مجازٌ؛ إذ ذُكر الضّميرُ وأريدَ به العموم، وكأنَّه إذا قالَ النّبيُّ قالت أمّتُهُ وأتباعه، وأنَّه لا ينبغي أنْ يَتخلّفَ أحدٌ عنِ الدَّعوة إلى الدّين الحقِّ.

بلاغةُ الاستفهام وغرضُهُ:

تـقـريـرُ أهـلِ الباطلِ توطئةً لبلوغِ الحقِّ

الهمزةُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾ للاستفهام، وهي أتتْ لغرضِ التّقرير والإلجاءِ إلى الاعتراف، والمعنى: إنْ كنتُم رأيتُم شركاءَكم منَ الأصنامِ فلا سبيلَ لكم إلّا الإقرارُ بأنَّهم لم يخلقوا شيئًا؛ لأنَّ المُستَفْهَمَ عن رؤيتِه هنا واضِحٌ بادٍ، وفائدةُ الاستفهام أنْ يكون توطئةً لكلام يأتي بعدَه يكونُ كالدّليلِ عليه، أوِ الإيضاح له؛ فيؤولُ معناه بما يتّصلُ به مِن كلام بعدَه؛ ففي قولِه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾ تمهيدٌ لأنْ يُطلَبَ منهمُ الإخبارُ عن شيءٍ خلقَه شركاؤُهم، فصار معنى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾: انظُروا ما تُخبرونَني به مِن أحوالِ خَلْقِهم شيئًا مِنَ الأرض[2]، فالتّقريرُ ناظرٌ إلى عَلاقَة جملةِ الهمزة بما هو بعدَها في الآية مع التّنبيه؛ فالاستفهامُ دعوةٌ إلى التّفكيرِ في حالِ الأصنامِ الّتي يَعبدونها مِن دون اللّه تعالى، ليَنتهوا بعدَ النّظر والتّأمُّل إلى أنّها لا تستحقُّ العبادة والتقديسَ.

نكتةُ استعمالِ مفردة الرُّؤية:

إبـصارُ الإلـه في الدُّنيا من أدلّة بُطلانِ ألوهيّتِه

(الرُّؤيَة) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ بصريَّةٌ؛ لأنَّ المُستَفْهَمَ عن رؤيتِه في مِثْل هذا التّركيبِ في الاستعمال هو أحوالُ المرئيِّ، وإناطةُ البصر بها، أي: أنَّ أمرَ المُستَفْهَم عنه واضِحٌ بادٍ لكلِّ مَن

(1) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324.

يراهُ، والغرضُ إحضارُه في الذِّهنِ بقوّةٍ؛ للاقتناع بما سُيَحْكَم عليه به؛ بعدَ التّفكيرِ في ذلك الحكم[1]، وفي جعل الشُّركاء في مَرمى الرُّؤيةِ تنبيهٌ على الامتهان والحقارة بحيثُ يراهم كلُّ مَن يقصدُ رؤيتَهم، ويعلمُ أنّه لا خَلْقَ لهم، واللهُ تعالى بخلاف ذلك في كلٍّ مِنَ الأمرَيْن؛ فهو مُحْتجِبٌ بحجاب الجلال والعزّ، وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنَّه الخالقُ لكلِّ مخلوقٍ، فكيف يكون مَن لا يخلُقُ كمَن يخلقُ؟![2]، كما أفادَ فعلُ الرّؤيةِ البصريّة أنَّ مجرَّد الرّؤيةِ للشُّرَكاء كافٍ للحُكم بعدم ضرِّها ونفعِها لعدم خالقيّتِها لشيء، فلا حاجةَ لمزيد تأمُّلٍ وتفكير، وفي إسنادِ فعل الرّؤيةِ إلى جميع المخاطَبينَ ما يدلُّ على تكاتُفِهم في الاعتقادِ الباطل واجتماعِهم عليه، بقي أنَّه إذا أُريد بالرُّؤيةِ الإخبارُ والإعلامُ؛ فيكون هنالك مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه السّببيّةُ؛ إذِ الرُّؤيةُ سببٌ للإخبار عن علْمٍ ويقين.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ الشّركاء:

الشِّركُ اختراعٌ ضعيفٌ يُنبئُ عن احتيالٍ عظيم

المرادُ بالشُّركاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ مَن زعمَه الكفارُ شركاءَ لله في الإلهيَّة؛ فالمرادُ أنّ حقَّ الإلهيّة في التّشريعِ والأمرِ والنَّهي يشتركُ فيه اللهُ ﷻ صاحبُ الحقّ المُطلق، وهولاء الشُّركاءُ المزعومونَ ممّن اخترعَهم وجعلَهم - وهمًا وخيالًا - يُشرِّعون من دون الله تعالى، فالشُّركاء هم في وهم غالبِ المُشركين، وفي احتيالِ بعضِ سادتِهم، كما أنَّ الشّركة والشّراكة تومئُ إلى الاحتياج والافتقار، ومِن شأن الإله الحقِّ أنْ يكون غنيًّا عنِ الشَّريك والمُعاون له في الخالقيَّة، ومجرّدُ إثباتِ الشّرك إبطالٌ لألوهيّةِ كلِّ المعبودات، فمَن كان متّصفًا بالشّراكة في جنابِ الألوهيّة لن يكون إلهًا حقًّا لافتقاره، وبهذا تتضمّنُ لفظةُ (الشّرك) دليلَ الإبطال لها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324، وعبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

الآلهةُ مزعومةٌ والأمرُ لأربابِ المُشركين

دلالة جمع (شركاء):

جاء التَّعبير بصيغةِ الجمع عنِ (الشّركاء) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ ليكونَ أدلَّ على تقرير المقصودِ؛ مِن بيانِ عجزِ آلهتهم، وبطلانِ القولِ بألوهيَّتها، فمهما تعدَّدتِ الآلهةُ المزعومة فهي باطلةٌ؛ لأنَّ تعدُّدَ الإله يستلزمُ الاحتياجَ والافتقارَ، وفيها فائدةٌ أنَّ المشركينَ كانت عندهم آلهةٌ متعدِّدة، ولم يكن عندَهم إلهٌ واحد، ففيه بيانُ الاختلاف والنِّزاع، وأنَّهم كَذَبةٌ فيما يزعمونَ، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [الزمر: 29]، وواقعُ المشركين أنَّ النّزاع بينهم لم يكن ظاهرًا، وذلك لاتِّفاقِ أربابِ المشركين على الباطل، فاجتماعُهم على الباطل باتِّفاقٍ، لا على آلهة مزعومةٍ متخيَّلةٍ، كما أفادَ الجمعُ الاستخفافَ بعقولهم، التي ذهبتْ إلى تعدادِ الإلهِ تعدُّدًا خارجًا عن حدود الفطرةِ والعقلِ السَّليم.

الأصنامُ خادمةٌ للمصالح ومحقِّقةٌ للمطالب

نكتةُ الإضافةِ ودلالتُها:

آثرَ النّظمُ الكريم إضافةَ الشُّركاء إلى ضمير المخاطَبين دون الاسم الظاهر، فلم يقل: (أرأيتم الشّركاء)؛ على معنى: الذين جعلتموهم شركائي، أو شركاء للّه؛ وذلك لأنَّهم همُ الذين جعلوهم شركاءَ للّه، فليس للأصنام شركةٌ بوجهٍ إلّا بقولهم، فالواجبُ إضافتُها إليهم[1]، والإضافة بمعنى (من) أي: شركاء منكم، أو (اللام) أي: شركاء لكم، وعلى المعنيَين؛ فإنَّهم مصدرُ أولئك الأصنام، وهم يخدمونَ مصالحَهم، ويسعَون في استقرارِ حُكمهم، مع ما في الإضافة على كلِّ حالٍ من معنى التَّهكّم بهم والسُّخريةِ منهم[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 442، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 48، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324.

(2) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

علّةُ التّعبير بالموصول:

حالُ الباطلِ كافٍ في الدّلالةِ على حقيقتِه

أوثِر استعمالُ الموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ أنْ يقال: (أرأيتم شركاءكم الدّاعين لهم من دون اللّه)؛ للتّنبيه على الخطأِ في تلك الدَّعْوة، والتّشنيع عليهم بها، ورميِهم بالسَّفَه مِن أجلها، وهي بيانٌ لعَدِّ الكفّارِ الأصنامَ شركاءَ للّهِ، ويؤيدُ ذلك قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإنَّ عجْزَ الأصنام عنِ الخلْقِ مِن شأنه أنْ يكون قرينةً على كون الصِّلة للتّنبيهِ على خطأ المُخاطَبين[1]، كما أفادَ الموصول توضيحَ الشُّركاء؛ لوقوعِه نعتًا لهم، وأنّ المقصودَ بهم الشّركاءُ في الدّعوة والعبادة مع اللّه تعالى، وليسوا شركاءَ العمل وغيرِه، بقي أنَّ إيرادَ الموصول جمعًا للعاقل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع أنَّ الأصنام غيرُ عاقلة؛ لبيان أنَّ دعاءَهم لها وطلبَهم منها يستلزمُ أن تكون عاقلةً سامعة، وفي ذلك نعيٌ عليهم أنَّهم يدعونَ آلهةً نزّلوها منزلةَ مَن يسمعُ ويعقلُ مع أنَّها لا تسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعقِل.

نكتةُ استعمالِ مُفردة الدُّعاءِ:

مَن دعا معبودَه فلينتظرْ نَصْرَه وإعانتَه

المقصودُ بالدُّعاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دعاءُ السُّؤالِ والاستغاثة، الدّالُّ على اعتقادِ الدّاعي الألوهيَّةَ فيمَن يَدعوه؛ ولذلك يُفسَّرُ هذا الفعلُ بالعبادةِ؛ وإنّما استعملَهُ النّظمُ في هذه الآية دونَ العبادة؛ لبيانِ عظيم جَهلِهم وقبيح اعتقادِهم؛ ببيانِ عظيم رَغبتهم في عبادةِ تلك الأصنام، وإقبالِهم بكليّاتِهم عليها مِن جهةٍ، وبيانِ أنَّ عليهم أنْ يسألوها ويَستغيثوا بها؛ إذا مسَّهم ضرٌّ؛ فهل تستجيبُ لهم؟ وهل يكون منها دفعُ ضررٍ، أوْ جلبُ نفعٍ لهم؟ ففيه تنبيهُهُم على خطئِهم بالواقعِ المشهود المُبصَر، فمَن دعا معبودَه فعليه أن ينتظرَ نتائجَ مُعتقده وفكرِه، وفي الفعل إشارةٌ إلى أنّ الإلهَ الحقَّ هو الذي يُتوجّهُ له بالدُّعاء والسُّؤال، ويستجيبُ لهم ويُحقّقُ مطلوبهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324 - 325.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُضارِع:

المـأفـونُ بـاقٍ في ضلالِه مُستعِرٌ في نارِه

جاء التّعبير بصيغةِ المضارع لفعلِ الدّعاء من دون اللّه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دون الماضي مع تحقُّقِ وقوعه؛ لتصويرِ عظيم ضلالِهم؛ باستمرارهم على الكفر، وبقائِهم عليه، وأنَّ عبادتهم الأصنامَ لا تختصُّ بوقت دون وقتٍ، بل هي تحدثُ وتتكرّرُ؛ بتَكرارِ موجباتها[1]، ممّا يُنبئُ عن مُلازمتهم الاعتكافَ لها والخضوعَ أمامها عند الدُّعاء والطَّلب منها، وفي ذلك تهكُّمٌ بهم واستخفافٌ؛ إذ دأبوا على الباطل حتى صار عمَلًا متكرّرًا، واستحضارُ صورةِ ما وقعَ التّهكُّمُ به وكأنّه يجري الآن أكثرَ تهكُّمًا وسخريةً ممّا آلَ إليه أمرُهم.

نكتةُ حذفِ المفعول:

الـجـمـعُ بـينَ الـتّـحـذيرِ مِـنَ الخطأ، والتّنبيهِ على الصّوابِ

فعلُ الدُّعاءِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جاءَ محذوفَ المفعول وهو متعدٍّ، فلم يقل: (الذين تدعونهم)، وذلك لإرشادهم إلى ما ينبغي أنْ يترتَّبَ على حِجاجِهم؛ مِن ترْكِ دعوة الأصنام مِن دونِ اللّه، وحسَّنَ الحذفَ العلمُ بالمحذوفِ مِنَ السّياق، مع ما فيه منَ التَّهكُّم بالمحذوفِ، والسُّخريّةِ منه؛ لإفادته أنّ هاتيك الأصنامَ إنَّما تُعْرَف بدعاءِ هؤلاءِ إيّاها، فلا حاجةَ مع ذلك إلى ذكرِها.

نكتةُ تقييدِ الحالِ المحذوفةِ:

مَن تأمَّلَ في حالِ الـشّيءِ أحْسَنَ في الحُكْمِ عليه

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيدٌ وقَع متعلّقًا بمحذوفٍ؛ هو حالٌ مِنَ العائد المُقدَّرِ، أي: الذين تدعونهم حالَ كوْنِ دعائكم إيّاهم مِن دون اللّه تعالى، ونظمُه حالًا؛ للاسترشاد بحالِ الأصنام على حقيقتها؛ فإنَّ حالَها دليلٌ على بطلانِ ألوهيَّتها، وداعٍ إلى الاستغرابِ والتَّعجُّبِ مِن عبادتها مِن دون اللّه.

(1) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

بلاغةُ ألفاظِ القيد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ابتدائيٌّ، ولمّا كانَ الغرضُ مِنَ القيد المتعلّق بالحالِ؛ الدّعوةَ إلى المقارنةِ بينَ حال آلهتهم وشأنِ اللّه في الكونِ؛ تمهيدًا لتلقّي باقي الآية؛ عُبِّر بما يَهْديهم إلى حقيقةِ أصنامِهم؛ وهو كلمةُ ﴿دُونِ﴾؛ فهي هيِّنةٌ حقيرةُ القيمةِ، وذلك موطنُ التَّعجُّبِ مِن عبادتها، واستُعمل لفظُ الجلالة الذي هو نَصٌّ في الإلهيَّةِ، وله جميعُ صفاتِ الكمالِ؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ إثباتُ الإلهيَّة له، ونفيُها عنِ الأصنام، وبالتَّقابُلِ بينَ حالِ الأصنامِ وشأنِ اللّه في الكونِ تظهرُ لهم حقيقةُ الإله الحقِّ.

التَّقابُلُ بينَ الأشياءِ دعوةٌ للتّفكيرِ فيها لبلوغِ حقيقةِ ما فيها

علَّةُ فصلِ الجملة:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن جملة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ لأنَّه بدلُ اشتمالٍ، أوْ بدلُ مُفصَّلٍ من مُجْمَلٍ[1]، والغرضُ مِنَ الإبدال بيانُ عجزِ تلك الآلهةِ المزعومةِ عنِ الخلق بعدَ أنْ ثبتَ كونُها غيرَ مُستحقّةٍ للدُّعاء لِمَن تأمّلَ حقيقتَها، وأنَّ مجرّدَ اعتقادِ الشّريك في الألوهيَّة إبطالٌ لها من أصلِها؛ إذ شأنُ الإلهِ الحقِّ الاستغناءُ عنِ الشَّريك والشَّراكة في الأمر والمُلك والخَلق.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظ الرّؤية:

تقوى الحُجَجُ بطريقِ المُشاهَدةِ

لا يُرادُ بالرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ حقيقتُها؛ لأنَّه لا يتأتّى لهم ذلك، فكان ذلك قرينةً على أنَّ الرّؤيةَ مجازٌ مُرْسَلٌ في الإعلام أوِ الإنباءِ؛ عَلاقَتُه السّببيّةُ، والمعنى: أَعلموني أوْ أَنبئوني شيئًا مخلوقًا للّذين تدعونَ من دون اللّه في الأرضِ[2]، وفضلُ المجازِ يتمثّلُ في الإبلاغِ في بيانِ عدم استطاعةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 324.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325، وجعله الدكتور عبد العظيم المطعني مِن باب الاستعارة، وهو غيرُ مستساغٍ، ينظر: عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

الأصنام أنْ تكونَ قد خلقت شيئًا مِنَ الأرضِ؛ لأنَّ الإبصارَ أبلغُ مِنَ السّماع، ويحتمل أنَّ الإراءة تضمّنتِ الإخبارَ والإعلام؛ لتدلَّ على الإخبارِ المُقترنِ بالإراءة لتعجيزِ المخاطَبِ والاستخفافِ بعقله في عبادةِ مَن هو عاجزٌ عنِ الخلق؛ إذ لا يقدرُ على ذكرِ مخلوقٍ صنعَهُ الشّريك، لتتسنّى رؤيتُهُ والعلمُ به ومعرفتُه، وما ذاك إلّا دليلُ عدمِ الشَّريك أصلًا؛ لأنَّ مِن شأن الشّريك الفعلَ والإيجاد.

وفي استعمالِ فعلِ الرّؤية مرّتين في الآية إشارةٌ إلى أهمّية الدّليل القطعيِّ المُثبِتِ صحّةَ الشّركاء الَّذي يصلُ بسامعه مِن قطعيّته إلى الرُّؤية وليس العلْمَ فقط، ومن ثمَّ يحتملُ أن يكونَ المجاز في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي﴾ استعاريًّا بتشبيهِ العلْم بالرّؤية؛ ثمَّ حذفَ المشبّه وأبقى المشبَّه به على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة.

غرضُ الأمر وغايتُه:

عندَ التّحدّي تظهرُ الحقائقُ

فعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ﴾ ليس على ظاهره؛ لأنَّ آلهتهم لم تخلُق شيئًا؛ فلن يستطيعوا أنْ يُعلموا أوْ يُنبئوا أحدًا بعكسِ ذلك، ولا أنْ يُروه ضدَّ ذلك؛ فكانَ الغرضُ منه إيقافَهُم على عجزِ آلهتهم عنِ الخلْقِ؛ بتعجيزِهم وإفحامِهم هُمْ، أي: أنَّ الأمرَ تعجيزٌ للتّبيين، والمعنى: أعلِمتم هذه الّتي تدعونها ما هي، وعلى ما هيَ عليه مِنَ العجز؟[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُه:

ما بعدَ الجوابِ إلّا بلوغُ المأمول وتحقيقُ المطلوب

كلمةُ: ﴿مَاذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ مركّبةٌ مِن (ما) الاستفهاميَّة، و(ذا) التي بمعنى: الذي؛ حين تقَع بعدَ اسم استفهام، وفعلُ الإراءة مُعلَّقٌ عنِ العمل في المفعول الثّاني

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 203، وينظر: عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

والثّالث بالاستفهام، والتّقديرُ: أروني شيئًا خلقوه مِمّا في الأرضِ[1]، وغرضُ الاستفهام الإنكارُ والتّوقيفُ والتّبكيتُ والتّنديم والإفحام[2]، وفَضْلُ إفادةِ ذلك بالاستفهام على إفادته بمعانٍ صريحة: الإيجازُ، وهو سخيٌّ كما ترى، وهو مِن نوعِ إيجاز القِصَر، وحثُّ المُتلقّي على التّفكيرِ في المعنى؛ كأنَّ السّؤالَ على ظاهرِه؛ لأنَّ مَحْضَ الاستفهام أنْ يتنبَّهَ السّامعُ؛ ليرجِعَ إلى نفسِه، فإذا رجَع إليها، وفكّر في المعنى: نطَق داخلُه بمعاني الاستفهامِ؛ فكان مقتنعًا به، فتكونُ الحُجّة قد قامتْ عليه.

دلالةُ اسْتعمالِ مُفرَدة الخلقِ مادّةً وصيغةً:

المُطالبةُ بخلْقِ الأصنامِ إثباتٌ لبُطلانِ عبادتِهم وإحقاقٌ لعبادة الله وحدَه

جاء استعمالُ مفردةِ (الخَلْق) في قولِه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لتحريكِ الأذهانِ في شأنِ الأصنام، فإنَّ مسألةَ الخلقِ من أكثر المسائلِ إحراجًا للعابد، وهي القضيّةُ التي يُستدلُّ بها على صحَّة عبادة المعبود الحقّ، فهي من جهةٍ إبطالٌ لعبادةِ الأصنام، ومن جهةٍ أخرى إحقاقٌ للحقِّ في عبادةِ اللّه تعالى وحدَه دون سواه، وجاءَ التّعبير بالفعل الماضي؛ لأنّ المقصودَ لا يتعلَّقُ بحالِ الخلْقِ فيما يكونُ وما بعدَه، بل فيما قد كانَ وما ظهرَ للعيان؛ ليظهر تمامُ عجزِ الأصنام عن الخلْقِ.

لطيفةُ إسنادِ فعل (خلق) إلى الضّمير:

يُنزَّلُ غيرُ العاقلِ منزلةَ العاقلِ؛ لغرضٍ

الأكملُ والأتمُّ في كشْفِ حقيقةِ عجْزِ الأصنام عنِ الخلْقِ إسنادُ الخلْقِ إلى الجميع؛ فقد جرى الكلامُ في الآيةِ على استحضارِ جميع ما يدعوه الكفّار من دونِ اللّهِ؛ لأنَّ بيانَ عجزِ الجميع أبلغُ من بيانِ عجزِ البعضِ، والاستدلالِ به على عَجْزِ الآخَرينَ، ومن إفادةِ استواءِ الجميعِ في العَجْز؛ إذا أُسْنِد الفعلُ إلى واحدٍ، وهذا كلُّه مؤسَّسٌ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.
(2) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 312.

اصطفاء الجمع (شركاء)، ثم لمّا كان الخلْقُ بمعنى الإيجادِ مِن شأنِ العُقَلاء عُبِّر عنِ الأصنام بضميرِ الفاعِلينَ العُقلاءِ، وهو واوُ الجماعةِ، وفي جعلِهم عقلاءَ تهكُّمٌ بهِم مِن جهةٍ، وتنزُّلٌ معَهم في المخاصَمة والمُناظرة ليتبيّنَ لهم عجزُهم، وذلك العجزُ دليلُ عدمِ العقل والسَّمع والنّفع والضّرِّ.

بلاغةُ قيدِ الجارّ والمجرور:

تحديدُ المطلوب تقييدٌ للخَصْم عند التَّحدّي

الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ قيدٌ لفعلِ الخلْقِ، و﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّة، أي: شيئًا ناشئًا مِنَ الأرض، أَوْ تبعيضيَّةٌ؛ على أنَّ المرادَ بالأرضِ ما عليها؛ كإطلاق القريةِ على سُكّانها في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82][1]، و(أل) في لفظِ: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد العلْميّ، أي: الأرضِ التي تعيشونَ عليها، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ خلقَ الإنسانِ منَ الأرض، وأنَّ اللّٰه تعالى أوجدَ الإنسانَ من ترابِ هذه الأرض، وجعلَهم خلائفَ في الأرض التي خُلقوا منها، وفي ذلك تبكيتٌ لهم وإفحامٌ؛ إذ كانَ ينبغي لهم أنْ يَدْعوا الَّذي خلقَ خلقَهم منَ الأرض ولا يُشركوا به شيئًا.

معنى ﴿أَمۡ﴾ وغرضُ الاستفهام:

التَّدرّجُ في الإنكارِ على المُشركين يزيدُ في قوّة اليقين

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ مُنقطعةٌ للإضرابِ الانتقاليّ؛ وهي تُؤذِن باستفهام بعدَها، على تقديرِ همزةِ استفهام، والمعنى: بل ألهم شركٌ في السَّماوات[2]، وغرضُ الاستفهام التَّقريرُ على أنْ ليس لهم حصّةٌ ونصيبٌ في السَّماء، أوِ الإنكارُ على مَن يعتقدُ أحقيّةَ الأصنام بالمذكور، والفرقُ بين الاستفهام هنا والواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ معانيَ الاستفهام الثّاني أعلى وأشدُّ في أنفسِها مِن معاني الاستفهام الأوّلِ؛ لأنّ المُسْتَفْهَمَ عنه هنا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.

أنَّ لهُم شركًا مع اللّهِ في مُلك السَّماوات، وتصريفِ أحوالهما؛ كسيرِ الكواكب، وتعاقُبِ اللَّيلِ والنّهارِ، وتسخيرِ الرّياحِ، وإنزالِ المطر(1).

نكتةُ التّدرّجِ في ذكر الاستفهام بعدَ الاستفهام:

مُراعاةُ حالِ المُخاطَبين في الحِجاج حِكْمةٌ مَرْعيَّة وإقناعٌ حكيم

لَمّا كان المشركونَ في غايةِ الإقبالِ على عبادةِ الأصنام ودُعائها مِن دون اللّه، وغايةِ الانصرافِ عنِ التّوحيد، فكانوا راسخينَ في الكُفر عَريقينَ فيه أُقيمَتِ الحُجَّةُ عليهم في بطلانِ أمر أصنامهم على جهة التَّرَقّي؛ لأنَّ عجزَ الأصنامِ عن أنْ تُثْبِتَ شيئًا لها في السَّماوات أشدُّ وأعظمُ مِن عَجْزها عن أنْ تُثبِتَ شيئًا لها في الأرض، فكانَ الاستفهامُ الثّاني أعلى مِنَ الأوّل، ومؤكِّدًا للأوَّل؛ لأنّه يلزمُ منه مِن باب أَوْلى، فوسَّع القرآنُ لهم في المُحالِ؛ زيادةً في تبكيتِهم على ما هم فيه مِنَ الضّلالِ(2).

وتقديمُ: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الأصلُ؛ لأنَّ السَّماوات لا تخطُرُ ببال المشركينَ أنَّ للأصنام تصرُّفًا في شؤونها، فجاء قولُه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَجيءَ تكملةِ الدّليلِ على الفرْضِ والاحتمالِ، وقد كانوا ينسبونَ للأصنام بنوَّةً للّه؛ فمِن أجلِ ذلك جيءَ في جانبِ الاستدلال على انتفاءِ تأثيرِ الأصنام في العوالم السَّماويَّة بإبطال أنْ يكون لها شركٌ في السَّماوات؛ لأنّهم لا يَدَّعونَ لها في مَزاعِمِهم أكثرَ مِن ذلكَ(3).

معنى (اللّام) ونكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور:

ادّعاءُ الألوهيّة للأصنام ادّعاءُ باطلِ الأوهام

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ للاختصاص، وقُدِّم ذكرُ الجارِّ والمجرور المتعلِّقين بمحذوفٍ؛ هو خبرٌ على ﴿شِرۡكٞ﴾ الذي هو مبتدأ؛ لقصر المؤخَّر على المُقدَّمِ؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ؛ قصرًا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

إضافيًّا قلبيًّا؛ لأنَّ معنى الجملةِ محلُّ إنكارٍ، ودعاؤُهم الأصنامَ مِن دون اللّه يُنزِّلُهم منزلةَ مَن يدَّعي مِثْلَ هذا القَصْرِ.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿شِرۡكٌ﴾:

الـتّـنـزُّلُ مع الـخَـصْـم مـن منهجِ القرآنِ في إثباتِ الحقائق

لّما كان المشركونَ قد أثبتوا بدعائِهم الأصنامَ مِن دون اللّه أنَّ الإلهيَّة شيءٌ مُشتركٌ بينَ آلهتهم وبينَ اللّه ﷻ، وأنَّ أحدَ الطَّرفيْن لا ينفردُ به؛ كانَ مِن لوازمِ ذلك أنَّ هذه الآلهةَ تشاركُ اللّه تعالى فيما خلقَه، والألصقُ بهذا المعنى لفظُ ﴿شِرۡكٌ﴾ المعبَّرُ به في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ "والشِّرك بكسر الشّين: اسمٌ للنَّصيب المشترَك به في ملك شيءٍ"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شِرۡكٌ﴾ وتذكيرِه:

التَّنبيهُ على نفيِ الأَعـلـى بـنَـفْـيِ الأَدنى

لّما كانَ عجزُ الأصنامِ عن أنْ يكونَ لهم نصيبٌ في السَّماوات أشدَّ مِن عجْزهم عن ذلك في الأرضِ؛ كان تنكيرُ لفظِ ﴿شِرۡكٌ﴾ الوارد في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لغرضِ العموم والتّقليلِ، والمعنى: أم لهم شركٌ في السَّماوات؛ ولو كان قليلًا؟ والتّحدّي والإفحامُ على هذا أعلى وأبلغُ[2].

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة:

جاءَ استعمالُ حرف الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لزيادة معنى العُموم والشّيوع، والدّعوةِ إلى الذّهاب في تأمُّل السّماء، كأنَّه قيل: انظروا في السَّماء، ونلحظُ تناسبًا توزيعيًّا بين (مِن وفي) واحتباكًا في قوله: ﴿خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ إذِ الخلقُ والإيجادُ يكون منَ الأرض فتتحقّقُ الشِّركةُ في الخالقيَّة، والشِّركُ والنَّصيب في السَّماء فتتحقّقُ الخالقيّةُ لبعضها، فذكرَ في الأوَّل ﴿خَلَقُواْ﴾ وحذفَه منَ الثّاني، وذكرَ الشِّرك والنّصيبَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 325.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

في الثّاني وحذفَهُ منَ الأوَّل، ومَن عجزَ عنِ الخلقِ في الأرض والسَّماء بطلتْ ألوهيّتُه فيهما.

معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجمعِها:

الـتَّرقّـي في الحِجاج مدعاةٌ لقهرِ الخصم والغلَبةِ عليه

ورد لفظُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معرَّفًا بأل في قوله: ﴿لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدّلالة على ما يعهدُهُ المخاطَبون في أذهانهم مِن هذه السَّماوات السَّبع؛ فهم على علْم بأنَّها سماواتٌ سبع؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، وعُبِّر بالجمع: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دون المفرد السَّماء؛ إبلاغًا في التّرقّي في الحِجاج؛ فلم ينتقلِ الحِجاجُ مِنَ الأرضِ إلى السَّماءِ، بل مِنَ الأرضِ إلى السَّماوات؛ لأنَّ مَن له شركٌ في سماءٍ واحدةٍ منْهُنَّ كان له شركٌ في سائرِها مِن بابٍ أَوْلَى؛ لأنَّهُنَّ جميعًا يَسكُنُهنّ مخلوقاتٌ كثيرةٌ.

سرُّ المغايرة بين الفعليّة والاسميّة:

موافقةُ صورة اللّفظ لمعناه تمكينٌ للمَعنى

لمّا جاء الاستفهامُ عن قدرةِ الآلهةِ خلقَ شيءٍ مِن الأرضِ جاءَ في جملةٍ فعليّة: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ الخلْق وقعَ ووُجِد؛ وجاء الاستفهام عن وجودِ شِركٍ في السَّماوات بالاسميّة: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ وجودَ الشّرك على افتراضِه يجبُ أن يكون ثابتًا مُستقِرًّا؛ فلمّا نفاه وأنكره بالاستفهام، نفى لازمَهُ وهو أن يكونَ ثابتًا، فجاء التّعبيرُ عن كلِّ معنًى بما يُناسبُه.

بديعُ فنِّ الطِّباق:

في الطِّباقِ دعوةٌ للنَّظرِ في الكون كلِّه

الطِّباقُ بين ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هو نتاجُ حركة معنى الحِجاج؛ وهو داعٍ إلى النّظر في كلٍّ مِنَ الطّرفيْنِ في نورِ حالِ الآخَر؛ فتتمكَّنُ المعاني في النَّفس، ويوقعُ هذا الطِّباقُ في نفسِ المُتلقّي أنْ لا شيءَ

في الكونِ يشهدُ بإلهيّة الأصنام، وإنَّما يشهدُ كلُّ الكونِ بإلهيَّةِ اللّه سبحانه وبحمدِه.

توبيخُ المشركينَ إنصافٌ لحقيقةِ الدّين

غرضُ الاستفهام بـ﴿أَمۡ﴾:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾: منقطعةٌ بمعنى (بل والهمزة)، أي: أآتاهم اللّه كتابًا مِن عندِه فيه ما يزعمونَ مِن إلهيَّة أصنامِهم وخلقِهم منَ الأرض وشِركهم في السَّماوات؟ وغرضُ الاستفهام هنا كالمتقدِّم مِنَ الاستفهامَيْن السّابقيْن، ومعاني الاستفهام هنا أشدُّ وأعلى مِن معانيه في الاستفهامَيْن السّابقيْن؛ لأنَّ في تعبيرِ الاستفهام ما يُفهِمُ غضبَ ذي الجلالِ سُبحانه، وغرضُ الاستفهام الإنكارُ، والتَّعجُّبُ، والتّحقيرُ، والتَّوبيخُ.

التَّهكُّمُ بالجهلة المُعانِدينَ مِن وسائلِ ردْعِ سوادِ المقلِّدين

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ (الإيتاءِ):

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (الإيتاءِ) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾ دون (الإعطاء)؛ لأنَّ في مادّة هذه الكلمة معنى النَّفاذ والسُّهولة، وكلمةُ الإعطاء مدارُها على الأخذِ والمُناوَلَةِ[1]؛ فتكونُ الكلمةُ مُشيرةً إلى معنى التّمكينِ مِنَ الحُجَّةِ التي في هذا الكتابِ، والتي جعلَتْهم يُقبِلون على دعاءِ الأصنام وعبادتِها، وهي الأنسبُ في سياقِ الرّدِّ على بُهتانهم بما تُضفيه من معنى التّهكُّمِ؛ فهم لا يعرفون الكتابَ، ولم يجرِ على أيديهم.

دلالةُ الإسنادِ إلى ضمير العظمة:

أُسند فعلُ الإيتاء إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾: للدّلالةِ على الغضبِ الشّديدِ، أي: أنَّ عظمةَ الألوهيَّة تأبَى ذلك الإيتاءَ[2].

الإعراضُ عن المشركين ترقٍّ في تبويرِ شُبهاتِهم

نكتةُ الالتفاتِ مِنَ الخطابِ إلى الغيبةِ:

في قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾: التفاتٌ مِنَ الخطابِ إلى الغيبة؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أتى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

على أن يكون الضّميرُ للمشركين، أمّا على جعله للأصنام فلا التفاتَ، والأوَّلُ هو الأظهرُ؛ بقرينة سياقِ الخطابِ بالاستفهام، ولأنَّ الغرضَ إقامةُ الحُجَّة على عابديها، فهم المقصودونَ بالخطاب، ونكتتُه الإعراضُ عنهم وتنزيلُهم منزلةَ الغُيَّبِ؛ بعد تبوير شُبُهاتِهم، وهذا أوْلى مِن عوْد الضّمير على الشُّركاء؛ لأنَّ شركاءَهم أصنامٌ جماديَّة[1]، وفي الالتفاتِ انصرافٌ عنهم مُؤذِنٌ بالغضبِ عليهم؛ ففيه تحقيقٌ لإسنادِ الإيتاءِ إلى ضميرِ العظمة.

نكتةُ استعمالِ لفظ الكتاب:

القرآن هو واجبُ الاتِّباع لا الشِّركُ كثيرُ الأتباع

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿كِتَٰبًا﴾ في قوله: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبًا﴾، وهو مناطُ الشُّبْهةِ الثّالثةِ المُفْترَضة، فحالُ المشركينَ في الثَّبات على باطلِهم كحالِ من آتاه اللّه كتابًا يأخذُ عنه حُججَه وبراهينَه[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن آتاه اللّه تعالى كتابًا كان صاحبَ الكلمةِ الفصل، والدّيانةِ الأصل، والحقِّ المبين، والصّدقِ المُستبين، فهي تعريضٌ بأنَّ القرآنَ الذي آتاه اللّه محمَّدًا ﷺ هو الحقُّ الذي لا محيدَ عنه، وهو الواجبُ الاتِّباعِ دون الباطلِ كثيرِ الأتباع.

دلالةُ إفرادِ الكتاب وتنكيرِه:

المشركون أوهى مِن أن ينالوا كتابًا وأوهنُ من اتّباعِ مكتوبٍ

أُفرد ذكرُ الكتاب في قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبًا﴾ فلم يقل: (كُتُبًا)؛ لحقارةِ شأنِ ادِّعاءِ ألوهيَّة الأصنام؛ فهي لا تحتاجُ إلى كُتُب، وجاء منكّرًا للدّلالة على النّوعيةِ، أي: آتيناهم نوعًا مِنَ الكتب عجيبًا؛ ألا ترى إلى قوله بعده: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾ على قراءةٍ، و﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَٰتٖ مِّنۡهُۚ﴾ على قراءة أُخْرَى، هذا على مراعاة حالِ المشركين، وأمّا على مراعاةِ الاستفهام الإنكاريِّ فالتّنكيرُ للإعدامِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 203، وعبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 313.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.

والتّحقير، ولا يكفي أن يُقال: للتّحقير فقط؛ لأنَّ التّحقيرَ صفةٌ لموصوفٍ موجودٍ، وليس لدى المشركين كتابٌ مِنَ اللّه قطُّ[1].

نوعُ (الفاء) ودلالتُها:

نفيُ إيتاءِ الكتابِ نفيٌ لبيّناتِه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾ إمّا سببيّةٌ؛ وما بعدَها مُسبَّبٌ عن مجموعِ ما قبلها؛ وهذا يَعْني أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾ مُلاحَظٌ في بناءِ المعطوفِ؛ فاستحضارُه يُعينُ على الإحسان في فِقْهِه، وهذه الفاءُ تدلُّ على أنَّ ما بعدها داخلٌ في الإنكارِ كالذي قبلها؛ فالمرادُ نفيُ أنْ يكونَ قد آتاهم اللّه كتابا فيه بيِّنةٌ على ما يريدونَ، فلا كتابَ ولا بيِّنةَ؛ والمُقيَّدُ والقيدُ منفيّانِ جميعًا.

نكتةُ الجملةِ الاسميَّة:

قـوّةُ الاسميَّة تحكي تشبُّثَ المشركينَ بعقيدتِهم الضّالَّة

بُنيتِ الجملةُ الاسميَّة بتقديم ضمير المشركين (هم) في قوله: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾، ولو قيل: فكانوا على بيّنةٍ منه، ونَحْوُ ذلكَ كانت فعليَّةً، ولمّا كانتِ البيِّنةُ مِن شأنِها أنْ تَجْعَلَ صاحِبَها قويًّا مُسْتمْسِكًا برأْيِه؛ ناسَبَ ذلك أنْ تخرُجَ في ثوبِ الاسميَّة.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

مَن تمكَّنَ مِن فَهْمِ شيءٍ تمسَّكَ به

جاء استعمالُ حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ وهو للاستعلاء الحِسّيِّ، ومدخولُها هنا هو البيِّنة المستفادةُ مِمّا في الكتابِ، فدخولُ ﴿عَلَىٰ﴾ عليها ليس على الحقيقة، وإنَّما على تشبيهِ البيِّنة بشيءٍ حسّيٍّ مُستعلىً عليه؛ على طريق الاستعارة المكنيَّة، وحرف ﴿عَلَىٰ﴾ قرينتُه التّخييليّةُ، وبلاغةُ الاستعارة تكمُن في الدّلالة على غايةِ تمكُّن المُشركين مِنَ الدّليلِ على ألوهيَّة أصنامهم، وفي هذا مِنَ التَّهكُّم بهم وبأصنامِهم ما فيه.

نكتةُ الإقامةِ مقامَ الموصوف والتّنكير:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ لفظ ﴿بَيِّنَتٖ﴾ في قوله: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ

(1) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 313.

﴿بَيِّنَتٍ﴾، والبيِّنةُ هي الدّلالةُ الواضحةُ؛ حسّيَّةً كانت أو معقولةً[1]، وهي صفةُ موصوفٍ محذوفٍ، أي: حُجَّةٍ بيِّنة، أو دلالة بيِّنة؛ كما قال تعالى: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ﴾ [البقرة: 211]، فحَذفُ الموصوفِ؛ إشعارٌ بكمالِ اتِّصافِه بالبيِّنة؛ حتَّى صار يُعْرَفُ بها، وتُطْلَقُ عليه، وقد جاءت كلمةُ ﴿بَيِّنَتٍ﴾؛ نكرةً للإشارةِ إلى عظمتِها وفخامتِها؛ فلمّا نُفيَ الكتابُ نُفيت جميعُ المعاني المُلازمة له، وبقي معنى التَّهكُّم بالمشركين.

ظهَر للمشركينَ الـضَّـلالُ ظهورَ الحقِّ للمؤمنين

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قرأ نافعٌ وابنُ عامر والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وأبو جعفر: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَٰتٍ﴾ بصيغةِ الجمع، وقرأه ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بصيغة الإفراد، فأمّا قراءةُ الجمع فوجُهها: أنَّ شأنَ الكتاب أنْ يشتملَ على أحكام عديدةٍ، ومواعظَ مُكرَّرة؛ ليتقرَّرَ المرادُ من إيتاءِ الكتب؛ مِنَ الآيةِ القاطعة؛ بحيثُ لا تحتملُ تأويلًا ولا مبالغةً ولا نحوَها على حدِّ قولِ علماءِ (أصول الفقه) في دلالة الأخبار المتواترةِ دلالةٌ دلالةً قطعيَّةً، وأمّا قراءةُ الإفرادِ: فالمرادُ منها جنسُ البيِّنة الصّادقُ بأفرادٍ كثيرةٍ[2]، وفي الجمع: إيماءٌ إلى أنَّ الشِّرك خطيرٌ لا بُدَّ فيه من تعاضُدِ الدّلائل، وهو ضَرْبٌ مِنَ التَّهكُّم[3].

في الـقـراءتـيْنِ احتفالٌ بالبيِّنةِ؛ إبلاغًا في بيانِ قـبـحِ ضَـلالِ المشركين

كما أنّ في الجمعِ: دلالةَ تعظيمِ الحُجَّة التي جاءتْهم في الكتابِ الذي أوتوه من عندِ اللهِ؛ فما اهتدوا به من هذا الكتابِ إلى أنَّ أصنامهم آلهةٌ من شأنها أنْ تُدْعَى وتُعْبَدَ من دونِ اللهِ شيءٌ عظيمٌ في بابِه، وفي الإفرادِ: تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ الحُجَّةَ البيِّنة مع جلالها

---

(1) الراغب، المفردات: (بان).

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، والدّمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 204.

في مقدورِهم فَهْمًا وإفْهامًا، فهم مُتمكِّنون منها؛ تمكُّنَ الإنسانِ مِنَ الشّيءِ القليلِ.

نكتةُ ذكرِ الجارِّ والمجرور:

التَّعريضُ بحالِ مَن لم يُؤتَ كتابًا مِنَ الله تعالى

الجارُّ والمجرور ﴿مِّنۡهُۚ﴾ في قوله: ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفِ صفةٍ للّفظِ: ﴿بَيِّنَتٖ﴾، أي: بينةٍ كائنةٍ منه، والضَّميرُ فيه راجِعٌ إلى (الكتابِ)، ووصفُ البيِّنات أوِ البيّنة - على القراءتين - به؛ للدِّلالة على أنَّ المراد كونُ الكتاب المفروضِ إيتاؤه إيّاهم مُشتملًا على حجَّة لهم تثبتُ إلهيَّةَ الأصنام، وليس مطلقُ كتابٍ يُؤتَونَه أمارةً منَ اللّه على أنّه راضٍ منهم بما هُم عليه؛ كدلالة المُعجزات على صدقِ الرَّسول، وليست الخوارقُ ناطقةً بأنَّه صادق، فأُريد: (أآتيناهُم كتابًا ناطقًا مثلَ ما آتينا المسلمينَ القرآنَ)[1].

دلالاتُ الاستفهامِ المتُوالي:

المنعُ طلبُ الدّليلِ على الدَّعوى

كرَّر النّظمُ الكريم الاستفهامَ عندَ المُحاجَجة للكافرين الَّذين استخلفَهم اللّه تعالى في الأرض ليعبدوه، فاتَّخذوا أصنامًا يشكرونَها من دونه في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ مَّا تَدۡعُونَ﴾ ... ﴿فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ﴾ وذلك بمنتهى الجحود؛ إذ يخلُقُ ويُعبَدُ غيرُه، ويُنعِمُ ويُشكَرُ غيرُه، فتكرَّر الاستفهام الدّالُّ على الإنكار والتّعجيبِ والاستغراب ممّا أقدَموا عليه، والغرضُ من هذا الاستفهام المُطالبةُ بالدَّليل على دَعواهم الألوهيّةَ في الأصنامِ وما يعبدونَهُ من دون اللّه تعالى، وهذا ما يسمَّى منعًا في صنعةِ المناظرة، وهو طلبُ الدّليل على الدَّعوى مِنَ الخصم، مُبيِّنًا له أنَّ الدّليلَ الذي يدلُّ على الألوهيّة منحصرًا منحصرٌ في أنْ يكونَ الإلهُ الحقُّ قادرًا على الخلق منَ الأرض، أوْ أنّ لديه نصيبًا منَ التّدبير في السَّماء، ومَن عجزَ عنِ الخلق من الأرض فهو عاجزٌ عنِ الثّاني، أوْ أنْ يكون مؤيّدًا بكتابٍ منَ اللّه، ومَن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

عجزَ عن ذينك فهو عاجزٌ عن إثبات ألوهيَّتِهم بكتابٍ منزّلٍ منَ اللّه تعالى، وبهذا السَّبر للأجوبةِ المُثبتة الألوهيّةَ منَ الدَّليل الحسّيِّ الأوَّل والدّليلِ العقليِّ الثّاني والدّليلِ النّقليِّ الثّالث، يتحقّقُ العجزُ التّامُّ عن إثبات ألوهيَّتِهم بأيِّ دليلٍ مُعتبَر.

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

لفتُ الانتباه إلى دليلِ الشّركِ السّاقطِ الاعتبار

حرفُ ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للإضراب الإبطاليّ؛ والمعنى: لمّا نفَى القرآنُ أنواعَ الحُجَجِ في إثباتِ إلهيَّة أصنامِهم أضرَب عنه بذكرِ ما حمَلَهُم عليه؛ وهو تغريرُ الأسلافِ للأخلاف، وإضلالُ الرّؤساءِ للأتْباع بأنَّهم شفعاءُ عند اللّه[1].

نوعُ ﴿إِن﴾ ومعناها:

مدارُ حياةِ المُشركِ على الوهمِ وانعدامِ الفهمِ

حرفُ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ﴾ نافيةٌ، بمعنى (لا)، ومِن أسرارِ اصطفائها التَّنبيهُ اللّطيف على شكِّ الكافرين في مضمونِ هذه الجملة، أوْ على أنَّهم ينبغي عليهم أنْ يُقلعوا جميعًا عنه؛ وهذا يتأسَّسُ على أنَّ صورة ﴿إِن﴾ النّافية صورةُ (إن) الشَّرطيَّةِ، وأنَّ ذلك يُعدَّ مِن شجاعةِ البيانِ القرآنيِّ.

دلالةُ لفظِ ﴿يَعِدُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الرُّؤساءُ يتلطَّفون بالأتباعِ في الظّاهر بما فيه الحتفُ في الباطن

وصَفتِ الآيةُ حالَ المشركينَ بأنَّ بعضَهم يعدُ بعضَهم الآخر غرورًا، وهو أنَّ شركاءَهُم تُقرِّبُهم إلى اللّه زلفَى، وأنّها تشفعُ وتضرُّ، فهذا التّعبيرُ يُصوِّرُ حالَ الرّؤساءِ معَ الأتباعِ، وكيف أنَّهم يوهِمونهم بأنَّ الخيرَ فيما يدعونَهم إليه، وكيف يَعتنون بهم، ويُقرِّبونهم منه، وجيء بفعل المضارع ليحكيَ تجدُّدَ ذلك منهم، واستمرارَه، وهذا غاية الحرصِ منهم على انقيادهم لهم، وبهذا يكونُ أمرُ الشّرك قائمًا على مجرّدِ المواعدةِ بأنَّهم على حقٍّ، وليس الوعدُ والكلامُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 326.

قادرًا على إثباتِ هذه الدَّعوة الخطيرة، فآلَ أمرُ الشّرك إلى دليلٍ واهٍ، وهو الوعدُ منَ الكُبراء للأتباع بصحَّة ذلك.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ (الظُّلم):

المشركون ظلموا أتباعَهم وأنفسَهُم

آثرَ النَّظمُ ذكرَ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دونَ حذفِه كأنْ يُقال: (بل إنْ يعد بعضُهم بعضًا إلّا غرورًا)؛ جريًا على نسَق الغيْبَة والضّمير، ولكن عُدِل عنِ الضّميرِ إلى الاسم الظّاهرِ؛ لإرادةِ وصفِهم بصفة الظُّلم التي هي من لوازم الشِّرك، و(أل) فيه موصولةٌ، وإنّما آثَر النَّظمُ وصفَهم بالظُّلْم على صريح الشِّرْك؛ لبيانِ علَّة الوعدِ بالغُرور والباطل، وهو ظلمُهم لأنفسِهم ولغيرِهم وهو الأظهرُ في السّياق، وهذا تحريكٌ للأتْباع ليرجعوا عن الاقتداءِ بالرّؤساء الظّالمين؛ ففيه تنبيهٌ على الباطل الذي غَرقوا فيه، كما أنَّ تسميتَهم ظالمينَ؛ لأنَّهم تركوا عبادةَ المُستخلِفِ الحقيقيِّ إلى عبادة الوَهْم والطّاغوت.

دلالةُ التّعبير باسمِ الفاعل:

الحِجاجُ للعريقينَ في الخُصومةِ الرّاسخينَ في الباطلِ

جيءَ بوصفِ (الظُّلم) في قوله تعالى: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بصيغةِ اسم الفاعل؛ للدّلالةِ على كمالِ اتّصافِ المُتحدَّثِ عنهم بالظُّلْم، فهم راسخونَ عريقونَ فيه؛ والدَّليلُ على ذلك حِجاجُهُم بكلِّ تلك الاستفهاماتِ السّابقةِ الدّالةِ على الإنكارِ والاستغراب والتّعجيبِ من شِركهم، وبالتَّذكيرِ بالنِّعَم قبلها في آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

دلالةُ استعمالِ لفظ (بعض):

المشركون بعضُهم أولياءُ بعضٍ في أصل الكفرِ وتواصُلِه

(البَعضانِ) الواردانِ في قوله تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا﴾ فإنَّ الأوّلَ المضافَ بدلٌّ من ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ، وهمُ الرُّؤَساءُ، وإن الثّانيَ مفعولٌ به للفعل ﴿يَعِدُ﴾، وهمُ الأتْباعُ، وهم ظالمون أيضًا في لفظِ الآية، واستعمالُ البعضيَّة يُحقِّقُ هذا ويؤكِّدُه،

مع الإشارةِ إلى الانسجام القويِّ الكائنِ بينَ الرّؤساء والأتباع؛ مِمّا جعَل على أبصارِ الأتباع وبصائرِهم حِجابًا يمنعُهم مِنَ التَّفكيرِ والمُراجعةِ، مِمّا تسبَّبَ في توغُّلِ الرُّؤساء في الشِّرك والعناد؛ إذ قدِ اغترّوا باتِّباعِ غيرِهِم لهم؛ ووراءَ ذلك مِنَ المعنى الدّلالةُ على ضعف الجميع، والتّحريكِ للجميع نحوَ إحداث ثورةٍ على النَّفْسِ بإحداثِ ثورةٍ على الغير؛ وذلك بتهييجِ الحميَّة في نفوسِ الأتْباع، وأنَّهم يُعامَلون على أنَّهم دون الرُّؤساء، وأنّهم لن يتحمَّل الرّؤساءُ عنهم وزرَهُم، إلى آخِرِ ما يفيضُ به السّياقُ.

اعتقادُ المشركِ مقلوبٌ في عالمِ الحقائقِ منكوسٌ

بلاغةُ القصر ونوعُه:

في قوله تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾: قصرُ وعدِ الظّالمين بعضِهم بعضًا على كونه غرورًا؛ قصرًا إضافيًّا قلبيًّا؛ لأنَّ المشركينَ يعتقدونَ عكسَ ذلك، وهو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، والقصرُ مِن أغراضِه العامَّةِ التّوكيدُ، وداعي التّوكيدِ به هنا "ظنُّهم أنَّ أمورَهُم في غايةِ الإحْكام"[(1)].

الاغترارُ مسلكُ الفُجّار في طريقِ أهلِ النّار

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿غُرُورًا﴾:

لفظُ ﴿غُرُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، والتّقديرُ: إلّا وعدًا غرورًا، فهو صفة للمستثنى المحذوف[(2)]، وحُذف الموصوف لمعرفتِه من فعل ﴿يَعِدُ﴾، والغرورُ كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن: مالٍ، وجاهٍ، وشهوةٍ، وشيطانٍ[(3)]، ووُصِفَ بها وعدُ المُشركين بعضِهم بعضًا؛ للتّنبيه على نقصانِ فِطنتهم؛ لأنَّ من أصول معاني هذه المادّةِ النّقصانَ[(4)]، ففيه تنبيهٌ على ضَعْفِ الرُّؤَساءِ الذينَ يعتمدونَ على الأتْباعِ وحقارتِهم، ولو كانَتْ عقيدتُهم صحيحةً لَما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327.
(3) الراغب، المفردات: (غ رر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرّ).

اعتمدوا عليهم؛ فإنَّ الحقَّ حَقٌّ؛ وإنْ لَمْ يَتَّبِعْهُ أحَدٌ، وتَنْبيهٌ على ضعْف الأتباع وهوانِهم على الرُّؤساء، وإنَّما حُذِف الموصوفُ؛ للدّلالةِ على كمال اتّصافِه بالصّفةِ؛ حتَّى كأنَّه صارَ يُعبَّر بالصّفة عنِ الموصوفِ فنُزِّلا منزلةَ الشَّيءِ الواحد، وفي اختيارِ كلمة ﴿غُرُورًا﴾ الدّالّةِ على البطلان إشارةٌ إلى أنَّ دليلهم على الشّرك ضعيفٌ لا يقوى، مع أنَّ الأدلّةَ المذكورة في الاستفهام قاطعةٌ ببُطلان شركِهم، وما ذلك إلّا لسوءِ استدلالِهم وشدّةِ ظُلمهم، فاختيارُ وصفِ الوعد بالغرور يكونُ دليلًا على بطلانِ ذلك المعتقَد ببطلانِ دليلِه وعدمِ استقامتِه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإراءَةُ والإعلام والإخبارُ:

الإراءةُ سببُ الإعـــــلام، والإعـلامُ أخصُّ مِنَ الإخبارِ

(الإراءة) إنّما تكون بينَ طرفَيْنِ؛ أحدُهما الرّائي، والآخَر المرئيّ، ومدارُها على النَّظَرِ والإبصارِ بالعين، والرُّؤْية مدارُها على ذلك بالعَين أو بالبصيرةِ، وأمّا (الإعلامُ) فإنّما يكونُ بخَلْقِ العِلْم الضّروريّ في القلب؛ كما خلق اللّه سبحانه مِن كمالِ العقل والعلْم بالمشاهدات، وقد يكونُ بنصبِ الأدلّة على الشّيءِ، وأمّا الإخبارُ فهو إظهارُ الخبرِ؛ عُلِم به، أوْ لم يُعلَم، ولا يكونُ مُخبرًا بما يُحدِّثه مِنَ العلم في القلب كما يكونُ مُعلِمًا بذلك[1]، وقد يُتجوَّزُ بإحداها عن الأُخرى عندَ إرادةِ المبالغة في العلْم بالشّيء؛ إذِ الإخبارُ يفيدُ علمًا ويكون سببًا له، كما أنَّ الإراءة علمٌ قطعيٌّ لا ينجُمُ إلّا عن دليلٍ وبرهانٍ دالٍّ على العلْم القاطع، فتتحقّقُ الإراءةُ للدّعوةِ المُثبَتةِ، وتكتملُ بالمشاهَدة.

الدُّعاء والنِّداء والعِبادة:

(الدُّعاءُ) كالنِّداء، إلّا أنَّ النّداءَ قد يُقال بـ: (يا، أو أيا) أو نحوِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 59.

العبادةُ أعمُّ مِنَ الدُّعاءِ والنِّداءِ

ذلك؛ مِن غير أنْ يُضَمَّ إليه الاسمُ، والدُّعاءُ لا يكادُ يُقال إلّا إذا كان معَه الاسمُ، نحوُ: يا فلان، وقد يُستعمَل أحدُهما في موضع الآخر؛ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، و(النّداءُ): رفْعُ الصّوت وامتدادُه بما له معنًى، والعربيُّ يقول لصاحبه: نادِ معي؛ ليكونَ ذلك أنْدَى لصوتنا، أي: أبعدَ له، والنِّداءُ قد يكونُ بعلامة مِن غير صوتٍ ولا كلامٍ، ولكنْ بإشارةٍ تنبئُ عن معنى (تعالَ)؛ ولذلك لا يُسند النّداءُ إلى اللّه سبحانه، بخلاف الدُّعاء؛ فقد يُسند إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، و(الدُّعاءُ): يكون برفعِ الصّوتِ وخفْضِه؛ يقال: دعوتُه مِن بعيد، ودعوتُ اللّه في نفسي، ولا يُقال: ناديتُه في نفسي، وأمّا (العبادةُ): فهي أبلغُ مِنَ العبوديّة؛ لأنَّ العبوديَّة إظهارُ التَّذَلُّلِ، والعبادةُ غايةُ التَّذَلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال؛ وهو اللّه - سبحانه وبحمده -، والعبادةُ ضربان: عبادة بالتّسخير، وعبادة بالاختيارِ؛ فظهر بهذا أنَّ كلًّا مِن (الدّعاء والنّداء) قد يكونُ مِن مظاهرِ العبادةِ التي هي بالاختيار[1].

الغُرور والخداع والوهم:

المقصودُ معَ الوَهْمِ يقَع بسرعةٍ، ومعَ الغُرورِ قد يقع، وقد لا يقع

(الغَرورُ): كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ؛ مِن مالٍ، أو جاهٍ، أو شهوةٍ، أو شيطانٍ؛ تأسيسًا على نقصانِ فطنتِه، وخِسَّة هِمَّتِه، وسفَه رأيِه، والغَرورُ: الإطماعُ في أمرٍ محبوبٍ على نيَّةِ عدم وقوعِه، أو هو إظهارُ الأمر المُضِرِّ في صورة النّافع؛ والغَرور: إيهامٌ يحمل الإنسانَ على فعل ما يضرُّه، وكذلك غرَّ إبليسُ آدمَ؛ ففعلَ آدمُ الأكلَ الضّارَّ له، و(الخِداعُ): إنْزالُ الغير عمّا هو بصدده بأمرٍ يُبْديه على خلاف ما يُخْفيه، والمقصودُ مِن الغرور والخداع قد يتمُّ وقد لا يتمُّ، ويتّفقان

(1) الراغب، المفردات: (دعا) و(عبد)، ومعجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، ص: 535.

في إرادة الشَّرِّ منهما أيضًا، و(الوَهْمُ): وهْمُ القلبِ؛ وقيل: الغَرور: إيهامُ حالِ السُّرور فيما الأمرُ بخلافه في المعلوم، وليس كلُّ وهْم غرورًا؛ لأنّه قد يتوهّمُه مخوّفًا فيحذرُ منه، فلا يقال: غرَّه[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خدع) و(غرّ) و(وهم)، والراغب، المفردات: (خدع)، و(غرر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 205، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 384.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر: 41]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ مِن سَرابِ الوجود إلى كمالِ الإيجاد

لمّا ذكَرتِ الآيةُ السّابقة ما يُبيِّنُ فسادَ أمرِ الأصنام؛ على جهةِ الاستدلالِ والإقناع بذكرِ بعضِ أحوالِها، ناسبَ أنْ يذكِّر بقدرةِ اللّه وعَظَمتِه؛ لتتأكَّدَ حقارةُ الأصنام وعجزُها؛ معَ تهديدِ القوم المُشركينَ لإقدامِهم على افتراءِ ألوهيَّة أصنامِهم؛ معَ بيانِ امتنانِهم عليهم بنِعمةِ عدمِ المُعاجلة بالهلاكِ في مُقابلةِ غَضَبِه عليهم في الآيةِ السّابقة(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُمۡسِكُ﴾: أَصْلُ (مسك) يَدُلُّ عَلَى حَبْسِ الشَّيْءِ أَوْ تَحَبُّسِه، وضِدُّه: الإطْلاقُ والإرْسالُ، والإمْساكُ: البُخْلُ(2) والقَبْضُ، يُقالُ: أَمْسَكْتُ الشَّيْءَ بيَدي إمْساكًا، أيْ: قَبَضْتُه، ومن مَعانيه كذلك: الكفُّ والامتناعُ، يُقالُ: أَمْسَكَ عنِ الطَّعام، أيْ: كَفَّ عنه وامتنَعَ(3)، والمقصودُ به في الآية: القَبضُ على الشَّيءِ بحيثُ لا يَنفلِتُ ولا يتفرَّقُ، وهو هنا مجازٌ عنِ الحِفظ والحَبْسِ والمَنعِ، أي: إنَّ اللّه يحفظُ السَّماواتِ والأرضَ من أنْ تضطربَ من أماكِنِها(4).

2) ﴿تَزُولَاۚ﴾: أصلُ (زول) يدلُّ على التَّحَوُّلِ والانتقالِ، يُقالُ: زالَ من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، أي: انْتَقَلَ وتَحَوَّلَ، ويُطْلَق بمعنى ذَهابِ الشَّيْءِ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 442، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 234.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).

(3) ابن سيده، المحكم، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مسك).

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 436، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 137.

والزَّوالُ كذلك: التَّنْحيَةُ والإبْعادُ، يُقال: أَزَلْتُ الشَّيْءَ إزالَةً: إذا نَحَّيْتُهُ وأَبْعَدْتُهُ، ويأتي بِمعنى الاسْتِحالَةِ والاضْمِحْلالِ وزَوالِ المُلْك، والجَمْعُ: أَزْوالٌ[1]، والمراد بالزَّوال في الآية: نفيُ العَدَمِ والتَّحَوُّلِ عن السَّمواتِ والأرض، أي: إنَّ اللّهَ يُمسِكُهُما مِنْ أن يُعْدَما، ويُمسِكُهُما مِنْ أن يتحوَّلَ نظامُ حركتِهما، وشاهِدُهُ قولُه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: 40][2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قدرةُ الله كاملةٌ تامّةٌ لا يُشارِكُهُ فيها أحدٌ مِن خلقِه

تُبيِّن الآيةُ الكريمة جانبًا مِن عظيم قدرتِه، وتمام رحمتِه، وسَعةِ حِلْمِه ومغفرتِه سبحانَه، فإنَّ اللّهَ تعالى يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ؛ لِئلّا تَزولا، ولَئِنْ زالتِ السَّماواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِنَ الخَلقِ، إنَّ اللّهَ كانَ حليمًا لا يُعاجِلُكم بالعُقوبة، غَفورًا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم بالذُّنوبِ[3]، واللّهُ سبحانه مُريدٌ استِمرارَ انتظامِ حَرَكةِ الكواكِبِ والأرضِ على هذا النِّظامِ المُشاهَدِ المُسمَّى بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وكذلك نظامُ الكواكِبِ الأُخرى الخارجةِ عنه إلى فَلَكِ الثَّوابِت، أي: إذا أراد اللّهُ انقراضَ تلك العوالِمِ أوْ بَعضِها قَيَّض فيها طوارِئَ الخلَلِ والفَسادِ، والخَرْقِ بعدَ الالتِئام؛ فتفكَّكَتْ وانتَشَرتْ إلى ما لا يَعلَمُ مَصيرَه إلّا اللّهُ تعالى، وحينَئذٍ لا يَستطيعُ غيرُه مُدافعةَ ذلك ولا إرجاعَها إلى نظامِها السّابق؛ فرُبَّما اضمحَلَّت أوِ اضمَحَلَّ بَعضُها، ورُبَّما أخَذتْ مَسالِكَ جديدةً مِنَ البقاءِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلْمًا إجماليًّا، وتتدبَّرَ في اتِّساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[4].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زول).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 328.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 390، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 557، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 71، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 691.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 328.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ وعلَّته:

معرفةُ حقيقةِ الأصنامِ بالوقوفِ على معاني الجمالِ والجلالِ والكَمالِ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ مفصولًا؛ فيصحُّ أنْ يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيانِ شأنِ اللهِ تعالى المُقابِلِ لأمْرِ الأصنام، أوْ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ على أنَّ الحديثَ عنِ الأصنامِ وانتفاءِ الألوهيَّةِ عنها بالدّليلِ العقليِّ والدّليلِ النَّقْليِّ؛ معَ بيانِ حقيقةِ حالِ المشركينَ معَها، مِن شأنِه أنْ يُحرِّكَ للحديثِ عنِ الألوهيَّةِ الحقَّة، التي لا تكونُ إلّا للّه ﷻ، فكأنَّ سائلًا سألَ عن ذلك؛ فأُجيبَ بهذه الآيةِ، ونلحظُ أنَّ مضمونَ هذهِ الآيةِ يُحقِّقُ مضمونَ ما قبلَها ويُؤكِّدُه على جهة التَّلازُم؛ لأنَّها في إثباتِ عظَمَةِ اللّه وقدرتِه؛ والآيةُ السّابقةُ في إثباتِ حقارةِ الأصنامِ وضَعْفِها، والشيءُ يَبِينُ ويتَّضِحُ بقوَّةٍ بِضِدِّه؛ فبينَ الآيتيْنِ كمالُ اتِّصالٍ؛ فلهذا غابتِ الواوُ.

دواعي التّوكيدِ وأغراضُه:

عندَ الإنكارِ الفِعْليّ يقعُ التَّوكيدُ القاطعُ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ جملةٌ اسميَّةُ الصَّدرِ، مُصدَّرةٌ بأداة التّوكيد: ﴿إِنَّ﴾؛ ودواعي التّوكيدِ إنكارُ المشركينَ المعنَى؛ فإنَّ "مِنَ النّاس المُكذِّبَ به؛ وهم المُعطِّلةُ، ومنهم مَن عملُه - ؛ وإنْ كانَ مُقرًّا - عملُ المُكذِّبِ؛ وهو مَن يُنكِرُ شيئًا مِن قُدرتِه؛ كالبَعْثِ"[1]، ومِن دَواعِيهِ أيضًا: تحقيقُ المعنى؛ وأنّه لا تسامُحَ فيه، ولا مبالغةَ[2]، واللَّفْتُ إلى عظمةِ المعنى وكونِه غريبًا عجيبًا؛ بالنَّظَرِ إلى حالِ الأصنامِ التي يَدْعوها المُشْرِكونَ مِن دونِ اللّهِ.

نكتةُ استعمالِ لفظِ الجَلالة:

اسْمُ الجلالةِ حُضورُ الهَيْبةِ ورُسوخُ الجَلالِ

لمّا كانَ سياقُ الآيةِ إثباتَ ألوهيَّتِه ﷻ وكمالِ قدرتِه الدّالّةِ على كمالِ عظمتِه؛ بعدَ إثباتِ عدمِ ألوهيَّةِ الأصنامِ؛ كانَ أوفقَ بالسّياقِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327.

ذكرُ اسمِ الجلالة في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ﴾، الجامعِ لمَعاني الأسماء والصّفات؛ لأنَّ أسماءَه تعالى وصفاتِه كمالاتُه، وكمالاتُه لا تتناهَى، والمعنى: إنَّ اللّه "الذي له جميعُ صفاتِ الكمالِ"[1]، هو الذي يُمسكُ السّماوات والأرضَ أنْ تزولا، فكانَ ذكرُ العلَم دليلًا على الحُكم؛ إذِ الإمساكُ هينٌ لأنَّه اللّه.

غرضُ تقديمِ المسنَدِ إليه على المسنَدِ الفعليّ:

التّعريفُ باللهِ تعالى وحَسْمُ قضيَّةِ الألوهيَّة الحَقَّة

جاءَ المسندُ إليه وهو لفظُ الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مُتصدِّرًا خبرَه الفعليّ كما هو مُقتضى أداةِ التّوكيد؛ لإفادة تقوّي الحُكْم النّاتجِ عنِ الإسناد المذكور في النَّفْسِ؛ بطريقِ تَكرارِ ذكرِ اسم الجلالة؛ مرّةً بلفظِهِ الظّاهر، وأخرى بضميرِه الفاعلِ، وبطريقِ تهيُّؤ المُتلقّيَ لمعرفة الخبر من بعد سَماع ذكرِ المسنَدِ إليه؛ حتَّى إذا جاءه الخبرُ تمكَّنَ في قلبه ونفسِهِ؛ فكان مَدْعاةً إلى التّفكيرِ فيه ومُراجعتِه، وفيه دلالةٌ على التّخصيص؛ أي: قصرِ المسنَد بتوابعِه على المسنَدِ إليه؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ، قصرًا إضافيًّا إفراديًّا؛ أي: إنَّ هذا الإمساكَ المُسْنَدَ إلى اللّهِ لا يكون إلّا له ﷻ؛ فلا يَتَجاوزُه إلى الأصنامِ التي يَعْبُدُها المشركون من دونِ اللّهِ - خصوصًا، وفائدةُ ذلك مراعاةُ خصوصيَّة سياقِ السِّباقِ في الظّاهر، أوْ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أي: إنَّ ذلك الإمساكَ لا يتجاوزُ المسندَ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ إلى شيءٍ مُطلقًا، وفائدةُ ذلك: التّعريفُ باللّه للمشركينَ خصوصًا وغيرِهم عمومًا، ونفوسُهم تفتقرُ إلى العلْم بهذا المعنى مؤكَّدًا مَحسوسًا؛ فلهذا دُلَّ عليه بطريقِ القصرِ، وفي التّقديم فائدةٌ ثالثةٌ؛ وهي إفهامُهم أنَّ من أجلِّ أغراضِ الآيةِ تعريفَهُم باللّه، وأنَّ ما بعدَ اسمِ الجلالةِ من شأنِه أنْ يُعرِّفَهُم به.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 234.

تصويرُ الكونِ بالشَّيءِ المَمسوكِ لتقريبِهِ للأذهانِ

بلاغةُ الاستعارة:

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (الإمساكِ) في قوله تعالى: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾، والإمْساكُ: هوَ القبْضُ باليدِ على الشَّيْءِ؛ بحيثُ لا ينفلتُ، ولا يتفرَّقُ، وهذا مُحالٌ عليهِ ﷻ؛ فكان حقُّ فَهْمِ الكلامِ أنْ يُؤوَّلَ؛ فقد مُثِّلَ حالُ نظامِ السَّماواتِ والأرضِ بحالِ استقرارِ الشَّيءِ الذي يُمْسِكُه المُمْسِكُ بيدِه[1]؛ على سبيلِ الاستعارةِ التّمثيلية التي حُذِفَ فيها المشبَّهُ به، ووُجِد في الكلامِ شيءٌ يرمُزُ إليه؛ وهو: ﴿يُمۡسِكُ﴾ المُنْصَبُّ على المشبَّه، ويجوزُ أنْ تكونَ الاستعارةُ تصريحيَّةً تبعيَّةً في الفعلِ؛ قال ابن عاشور: "وعُبِّر عن ذلك الحفظ بالإمساك على طريقة التّمثيلِ"[2]، والحِفْظُ مِنَ اللّه للسَّماواتِ والأرضِ شيءٌ معنويٌّ، والإمساكُ المستعارُ شيءٌ حسّيٌّ؛ فمِن فوائدِ الاستعارة تقريبُ المعنى المعقولِ إلى المُتلقّينَ بتمثيله بالمحسوسِ؛ وهذا اعتناءٌ بالمعنى ومُتلقّيهِ جميعًا.

قد يَدِقُّ وجهُ نظمِ المعنى فعلًا مضارِعًا ويلْطُفُ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع لفعل (الإمساكِ) في قولِه تعالى: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾؛ ليدلَّ الإمساكُ على الدَّوامِ التجدُّديِّ، وكذلك الحِفْظُ؛ لأنَّ صفاتِ الأفعالِ للمَولى تعالى حادثةٌ مُتجدّدةٌ، وجاءَ التّعبيرُ بالمضارعِ أيضًا نظرًا إلى المُتلقّي ومُراعاةً لحالِه؛ فكلَّما نظَر إلى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في أوقاتٍ متفاوتةٍ مُتجدِّدةٍ، وبعدَ أنْ تعاوَرَ عليها اللّيلُ والنّهارُ والشّمسُ والقمرُ وجدَها كما هيَ؛ باقٍ نظامُها، بقدرتِه تعالى محفوظٌ، لا يكادُ يَعْتريهِ نوعُ خَلَلٍ، وكذلك يُقال في: (الأرض)؛ ففي المضارعِ دعوةٌ للمُتلقّينَ المشركينَ خصوصًا وغيرِهم عمومًا إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 237.

في نظامِ السَّماواتِ والأرضِ؛ ليظهرَ لهم المطلوبُ مِن كونه تعالى هو الإلهَ الحقَّ الواحدَ الأحدَ.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

العوالمُ كلُّها محفوظةٌ بعنايةِ الله وعلمِه

تعريفُ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للعَهد الذِّهْنيِّ؛ فالمُشركونَ على علْم بأنَّ فوقَ سماءِ الدّنيا ستَّةَ سَماواتٍ؛ قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٦١﴾ [العنكبوت: 61]، ويجوزُ أنْ تكونَ للعَهْد الذِّكريِّ؛ لأنّها ذُكِرتْ في الآيةِ السّابقة: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ويجوزُ أنْ يرادَ بها الجنسُ فتفيدُ استغراقَ كلِّ السَّموات التي ينظرُ إليها المتلقّي من أجرامٍ وكواكبَ وعوالمَ علويَّةٍ؛ إذ كلُّ ما علاكَ فقد سَماكَ.

نكتةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

عظمةُ الإلهِ الحقِّ تُحيطُ بما لا تُحيطُ به العقول

عُبِّر بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جَمْعًا دون الإفراد؛ لأنَّ حفظَها كلِّها أدَلُّ على قدرته تعالى وإحاطتِه وعلمِه بالأشياء في سياقِ التّعريف بأنَّه وحْدَه الإلهُ الحقُّ، وفيه استحضارٌ للاستفهام في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ بحيثُ يوقِعُ في نفس المُتلقّي أنَّ القادرَ على حفظِ نظامِ السَّماواتِ هو المالِكُ لها؛ أفتقدرُ آلهتُكم على أنْ تُمسكَ السَّماوات أنْ تزولا؟! وهذا الاستحضارُ يكون أقوى في حَمْلِ التّعريف في لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على الجنس والاستغراق، وفي هذا الاستغراقِ الشُّموليِّ نفيٌ لأنْ يكونَ لآلهتهم المزعومةِ نصيبٌ في تدبيرِ شيءٍ منها وحفظِها.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

الأظهرُ في الاستدلالِ يُقدَّمُ ذكرُه في سياقِ الامتنانِ

قُدِّم ذكرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ذكرِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ للمُغايَرةِ بينَ الحديث عنِ الألوهيَّةِ الحقَّةِ الثّابتةِ للّهِ تعالى، والحديثِ عنِ الألوهيَّةِ الباطلةِ التي يدّعيها

المشركونَ لشركائهم في الآيةِ السّابقة: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ﴾؛ فبينهما كمالُ نفيِ التّسوية؛ فشأنُه تعالى مُغايِرٌ تمامَ المغايرةِ لحالِ تلك الأصنامِ وغيرِها، ولأنَّ حفظَه تعالى للسَّماوات أظهرُ للنّاسِ مِن حِفْظِه للأرض التي يَمشونَ عليها؛ ومِن شأنِ الأظهرِ في الاستدلالِ أنْ يُقدَّمَ.

كلُّ العوالمِ العلويّةِ وغيرِها محفوظةٌ بعلمِ الله وقُدرته

تعريفُ لفظِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تعريفُ لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للعهد الذِّهْنيِّ؛ أي: الأرضَ التي خُلِقوا منها، ويعيشونَ عليها، ويجوزُ أنْ تكونَ للعهدِ الذِّكْريِّ؛ لذكْرِها قبلُ في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويحتملُ أنْ تكون للجنسِ؛ فيدلُّ على الاستغراق والشُّمول؛ إذ كلُّ العوالم التي تكون أعلى مِن شيء فهي سماءٌ، وأسفلَ مِن فوقها تكونَ أرضًا لها، فيكونُ المرادُ بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جميعَ العوالم العلويَّة والسُّفليّة؛ إذِ العالمُ كلُّه خاضعٌ لقُدرته محفوظٌ بعنايتِه مِنَ الفسادِ والإضمحلالِ والزَّوال.

سُبحانَ مَن يلطفُ بخلْقِهِ ويَعبدونَ معَه غيرَه

نكتةُ إفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

أُفرِد ذكرُ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ولم تُجمَع كـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنّها الظّاهرةُ للنّاسِ؛ فيكونُ الاستدلالُ بحفظِ اللّه إيّاها سالمًا مِن اعتراضاتِ الضُّعفاءِ والمُجادِلينَ، وفي الإفرادِ استحضارٌ للاستفهام في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ليُبْنَى على هذا تمكينُ الفرقِ بينَ القادرِ سبحانه وبين ما يُدَّعَى له الإلهيَّةُ بالباطلِ؛ وذلك حيث يقَع في النّفْس أنَّ القادرَ على حفْظِ الأرضِ هو الذي مِن شأنه أنْ يكونَ له خَلْقٌ منها، أفيكونُ مِن آلهتكم التي تدعونها مِن دون اللّه قدرةٌ على ذلك الحفظ؟! ويقوَى وقوعُ هذا المعنى في النَّفْسِ؛ إذا كانت (أل) في لفظِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ للعهد الذِّكْريِّ، أوْ كانَ تلقّيها للسّياقِ حيًّا على

كلِّ حالٍ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ المراد (الأرضين)، إلّا إنَّه أفردَها؛ لأنَّها التي يعيشونَ عليها ويَرونَها أمامَهم.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ (الزَّوالِ):

تـنـوُّعُ المعـاني في سياقٍ واحدٍ فـضـاءٌ رحـبٌ لِمَن رعى ذهنَه بحُسن النَّظر

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ لفظِ (الزَّوالِ) في قوله تعالى: ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾، وقولِه: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾؛ ويُطلَقُ الزَّوالُ على العَدَم، وعلى التَّحوُّلِ من مكانٍ إلى مكانٍ، ومنه زوالُ الشَّمسِ عن كبدِ السّماءِ، وقدِ اخْتيرَ هذا الفعلُ دونَ غيرِه؛ لأنَّ المقصودَ معناهُ المُشترَكُ؛ فإنَّ اللهَ يُمسكُهما مِن أنْ يُعدَما، ويُمسكُهما مِن أنْ يتحوَّلَ نظامُ حركتِهما إلى الفسادِ والاختلالِ؛ كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: 40]، فاللهُ مُريدٌ استمرارَ انتظامِ حركةِ الكواكبِ والأرضِ على هذا النِّظامِ المُشاهَدِ، أي: إذا أرادَ اللهُ انقراضَ تلك العوالمِ أو بعضِها قيَّضَ فيها طوارئَ الخللِ والفسادِ والخَرْقِ بعدَ الالتئامِ والفَتْقِ بعدَ الرَّتْقِ؛ فتفكَّكَتْ وانتشَرتْ إلى ما لا يَعْلَمُ مصيرَه إلّا اللهُ تعالى، وحينئذٍ لا يستطيعُ غيرُه مدافعةَ ذلك، ولا إرجاعَها إلى نظامِها السّابقِ؛ فرُبّما اضمحلَّت، أوِ اضمحلَّ بعضُها، وربّما أخذَتْ مسالكَ جديدةً مِنَ البَقاءِ؛ ففي التَّعبيرِ بالزَّوالِ إيقاظٌ للبصائرِ؛ لتَعلمَ ذلك علمًا إجماليًّا، وتتدبَّرَ في اتِّساقِ هذا النِّظامِ البديعِ[1]، وفيه ضَرْبٌ مِنَ الإيجازِ لا يَخْفَى، وفي التّركيبِ كنايةٌ عنِ الحفظِ والعِنايةِ المُستمرَّةِ لنظامِ العالمِ، وذكرَ الإمساكَ له مِنَ الزّوالِ وأرادَ به لازمَه وهو البقاءُ والحفظُ إلى أجلٍ مسمّى.

علّةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوَّلِ:

في رعـايـةِ الله للأكوانِ امتنانٌ صريحٌ وتهديدٌ ضمنيٌّ

قولُه تعالى: ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾: مصدرٌ مؤوَّلٌ بالزَّوالِ، أي زوالهما، وإنَّما أوثِرَ المصدرُ المؤوَّلُ؛ لاشتمالِه على المضارعِ الذي يُراعي حالَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 328.

المُتلقّي؛ كما روعي في نَظْمِ الإمساكِ فعلًا مضارعًا؛ ففي مجيءِ فعل الزّوال مضارعًا تحقيقٌ وتقريرٌ لمعنى الإمساكِ مِن جهةٍ، وربطٌ بينَ آخرِ الجملة وصدرِها مِن جهةٍ أخرى، فهو امتنانٌ لدوام الإمساك، مع ما فيه منَ التَّهديدِ الضّمنيِّ؛ لأنَّ احتماليَّة الزّوال قائمةٌ بل هي الأصلُ، ولولا الإمساك الإلهيّ لزالتا، والأصلُ أنْ يتعدَّى الفعلُ إلى (الزَّوال) بـ(مِن)، لكنْ حُذفَ حرفُ الجرِّ توسُّعًا، والتّقدير: (أنَّه تعالى يمنعُها منَ السُّقوط)، وإنَّما آثر (الزّوال) على (السُّقوط)؛ لأنَّه وقوعٌ على الأرض مع تحطُّم أوْ عدمِه، وأمّا (الزّوال) فهو الاختفاء والاضمحلالُ إلى العدمِ والتّلاشي، وهذا الَّذي يحدثُ بالفعل للكواكب والنّجوم.

بلاغةُ الواوِ وأثرُها:

تنبيهُ العبادِ على أسبابِ المهالكِ مِهمازُ البحث عن أسبابِ النَّجاة

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ عاطفةٌ لمجموعِ الشَّرط والجوابِ على جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي ولو قُدِّر زوالُهما ما أمسكَهما أحدٌ من بعدِ إمساكِه تعالى، أوْ من بعدِ الزّوال، فهذه الجملةُ تُقرِّرُ ما قبلَها وتُتَمِّمُ معناهُ؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ الأولى أنَّ الله يمنعُهما منَ الزَّوال، ومضمونَ الجملةِ الثّانية أنَّه على تقديرِ الزّوال لا يمنعُهما منَ الاضمحلال إلّا هو؛ فجيءَ بـ(الواو) لعطفِها حالةً يترقَّى فيها الاستدلالُ على التّفرُّد بمُلك السَّماوات والأرض والتّأثيرِ فيهما.

وبيَّن ابنُ عاشورٍ أنَّ في مجيءِ هذه الجملة بعدَ الَّتي قبلها إشارةً إلى أنَّ مصيرَ المُمْكِنات إلى الزّوال والتّحوّل؛ ولو بعدَ أزدهارٍ؛ فالزَّوالُ المفروضُ أيضًا مرادٌ به اختلالُ نظامِهما الذي يؤدّي إلى تطاحُنِهما[1]، وهي إشارةٌ إلى قيامِ السّاعة، وقد سبقَ التّنبيه على ذلك في النُّكتةِ السّابقة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327 - 328.

علّةُ التّأكيد بالقَسَم:

لا سبيلَ للإنكار إلّا باعتقادِ الأوهام وسيّءِ القرار

(اللّامُ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ موطّئةٌ للقَسَم، والشّرطُ وجوابُه مُقْسَمٌ عليهِ، أي: إنَّ تعليقَ الجوابِ بالشّرط ووقوعَه عندَه مُحقّقٌ[1]، وإذا كانت جملةُ القَسَم يلزمُ منها معنى ما قبلها، وهي تلزمُ هذا المعنى فإنَّ داعيَ التّأكيدِ بالقَسَمِ هنا هو داعيهِ بـ(إنَّ) هناكَ.

دلالةُ (إنْ) وغرضُها:

افتراضُ الزّوال للتّنبيهِ على ما سيكون حقًّا واقعًا

(إنْ) في قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أداةُ الشّرطِ؛ للدّلالةِ على الفَرْضِ والتّقدير؛ معَ التّنبيهِ على دوامِ امتنانِه وإنعامِه على عبادِه بإمساكِ السّماوات والأرضِ، وعدمِ زوالِهما، وأنَّ زوالَهما حقيقٌ ألّا يكونَ ثبوتُه إلّا على مُجرَّدِ الفَرْضِ، وذلك لأنَّ الزّوالَ افتراضٌ لتحقيقِ الامتنان، وأمّا الزّوال الكونيُّ المضروبُ في كتابِ اللّه تعالى، فذلك قطعًا لا يُراد نصًّا هنا، بل إشارةً وتلميحًا، وإنَّما فُرِض الزّوالُ من أجل نفيِ إمساكِ أحدٍ من دونِ اللّه لهما، إثباتًا لعجزِ الشُّركاءِ، وتأكيدًا لقدرةِ اللّه الواحدِ الأحد، فيتحقّقُ إمساكُ اللّه لهما في الإثبات، ونفيُ إمساكٍ أحدٍ لهما مِن دونه، وبذلك يتحقّقُ الإنفرادُ بالإمساك والحفظ لنظامِ العالَم باللّه تعالى بأسلوبَيِ الإثباتِ والنَّفيِ معًا.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المُضيِّ في لفظِ الشَّرطِ:

المعاني الإشاريّةُ يُسلَك معها التّركيبُ البيانيُّ التّعريضيّ

الأصلُ في الفعلِ بعد (إنْ) الشَّرطيّة الواردة في قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أنْ يكونَ مضارعًا؛ لأنَّها للشَّرط في الاستقبالِ، ثمَّ هو المُتناغي معَ الأصلِ في استعمالِ (إنْ) مِن كونِ الشّرطِ فيها غيرَ مقطوعٍ بوقوعِه؛ كما تقولُ لصاحبِكَ: (إنْ تكرمْني أكرمْك)؛ وأنتَ لا تقطعُ بأنَّه يُكرمُك؛ فقولُه ﴿زَالَتَآ﴾ مستقبلٌ في المعنَى؛ وإنْ كانَ ماضيًا في اللّفظِ؛ وإنّما عُبِّر بلفظِ الماضي؛ لتصويرِ كمالِ قدرتِه تعالى؛ معَ كمالِ إنعامِه وإحسانِه على عبادِه؛ لأنَّ ترتُّبَ انفرادِ اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 328.

سبحانه بالإمساك على تقديرِ حصولِ الزّوال وفرْضِه أبلغُ مِن ترتُّبِه على كونِه في المستقبل.

سِرُّ تنزيلِ الجمعِ منزلةَ المفرد:

كلُّ الأشياءِ كمًّا وكيفًا في التَّعلُّقِ بقدرةِ الله على حَدٍّ سواءٍ

في قوله تعالى: ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿زَالَتَآ﴾ أُسْنِدَ فعلُ الزّوالِ إلى ضميرِ السّماوات والأرض بألفِ التّثنيةِ؛ نظرًا إلى لفظِهما، لا إلى جميعِهما وأفرادِهما، و"على تأويل السّماوات سماءً واحدةً"[1]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ تسلَّطَ الإمساكُ على مجموعِهما، أي: على كونِهما شيئَيْنِ اثنَيْنِ؛ جَرْيًا على التَّرقّي في الدِّلالةِ على عَليِّ الاقتدارِ الإلهيِّ على السَّماواتِ والأرضِ؛ فقد سبَقَ التَّعريفُ بقدرته تعالى بالجمع للسّماوات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾، وهنا دلَّ تنزيلُ السّماواتِ منزلةَ السَّماءِ الواحدةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ اقتدارَه تعالى على إمساكِ السَّماوات كاقتدارِه على إمساك سَماءٍ واحدةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، وهذا معنًى جديدٌ ليس في جمع السّماوات في الجملة السّابقةِ، وعلى الإفرادِ يَقوَى ظهورُ كمالِ إنعامِه وإحسانِه على عبادِه في هذه الجملةِ؛ بعدمِ زوالِهما، واستمرارِ حفظِهما وديمومَتِه، وأنَّه على مجرّد الفَرْض والتّقدير.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الزّوالِ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

زوالُ السّماواتِ والأرضِ بيدِ اللهِ تعالى كما حَفِظُهما

أُسْنِدَ فعلُ الزّوال في قوله تعالى: ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿زَالَتَآ﴾ إلى مجموعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ تنبيهًا لطيفًا على كمال اقتدارِه سبحانه عليهِنَّ، وعلى كمالِ انقيادِهِنَّ له تعالى؛ لأنَّ زوالَهُما لا يكونُ إلّا بيدِ اللّه سبحانه؛ كأنَّ النّظْمَ الكريمَ أراد للمُتلقّي أنْ يستدلَّ بإمساكِه تعالى السّماواتِ والأرضَ على أنَّ الذي مِن شأنه أنْ يُزيلَهُما هو المُمسكُ لهُنَّ؛ فمسوِّغُ الإسنادِ "العلمُ بأنَّ اللّه هو الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 329.

يُزيلُهما؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾"[1]، "وإذ قد تحقَّقَ بالجملة السّابقة أنَّ اللّه مُمسِكُهما عنِ الزّوال عُلِم أنَ زوالهما المفروضَ لا يكونُ إلّا بإرادةِ اللّه تعالى زوالَهما، وإلّا بطلَ أنَّه مُمسِكُهما منَ الزّوال"[2].

نكتةُ استعمالِ ﴿إِنۡ﴾ ودلالتُها:

يستثمرُ النَّظمُ صورَةَ اللّفظِ لتحقيقِ المعنى

الأداةُ ﴿إِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ نافيةٌ بمعنى: ما؛ وتظهر بلاغتُها في صورةِ لفظها؛ فهي كصورة (إنْ) الشّرطيةِ التي تدلُّ على قِلّة وقوع الشّرط بعدَها، أوْ نُدرته، ونحوِ ذلك؛ فيكونُ ذلك توكيدًا وتحقيقًا لنفيِ الإمساكِ؛ والقومُ المشركونَ في افتقارٍ إليه.

سِرُّ التَّعبير بصيغةِ المُضيِّ:

ما أمرُ الإمساكِ إلّا كلمحِ البصَرِ؛ أوْ هو أقربُ

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا﴾ نُظِم الإمساكُ فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ قدرةِ اللّه تعالى وعظمتِه، والأدلُّ على كمالِها وتمامِها سرعةُ هذا الإمساكِ الدّالِّ على كمالِ إحاطتِه بهنَّ واقتدارِه عليهنَّ؛ وذلك هو المستفادُ مِنَ الماضي، المفيدِ لتحقُّق وقوعِ الإمساك بمجرّدِ حصولِه.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَحَدٖ﴾:

جاء لفظُ ﴿أَحَدٖ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ نكرةً في سياقِ النّفيِ؛ وقد دخلَتْ عليها ﴿مِنۡ﴾ الزّائدةُ المفيدةُ توكيدَ الاستغراق والشُّمول، فأفادتِ العمومَ المؤكّد، ويدخلُ فيها في المقامِ الأوّلِ الأصنامُ، والمعنى: "لا يستطيعُ أحدٌ كائنًا مَن كانَ إمساكَهُما وإرجاعَهُما"[3].

دلالةُ القيدِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾:

جاءَ القيد ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ صفةً للفظِ ﴿أَحَدٖ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 328.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 327 - 328.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 328.

﴿أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾، وحرف ﴿مِّنۢ﴾ دالٌّ على الابتداءِ، أي: أحدٍ كائنٍ مِن زمانٍ بعدَه؛ لأنَّ حقيقة (بعد) تأخُّرُ زمانِ ﴿أَحَدٖ﴾ عن زمنِ غيرِه المضافِ إليه؛ و(البعديّة) هنا مجازٌ عنِ (المغايرةِ) بطريقِ المجازِ المرسَل؛ لأنَّ بعديَّة الزّمان المضافِ تقتضي مغايرةَ صاحبِ تلك البعديَّة؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، أي: غيرِ اللّهِ؛ فالضّميرُ المضافُ إليه: (بعد) عائدٌ إلى اللّه[1]، وما عليه النَّظْمُ مِنَ التّعبيرِ بالظّرفِ أبلغُ في الاستدلال؛ لأنَّه أعمُّ، فيدخل فيه كلُّ من هو كائنٌ ابتداءً من بعدِ اللّه تعالى، أي: كلّ ما يتصوّره العقلُ البشريُّ من بعد اللّه تعالى إلى قيام السّاعة، فإنَّ القدرةَ على الحفظ مسلوبةٌ عنه، ففيه إعجاز غيبيٌّ مخلوطٌ بالتَّحدّي القاهر للعباد، وفي الظّرفيّةِ دلالةٌ على أنَّ كلَّ الموجوداتِ مِنَ الأرضِ والسَّماوات متأخّرةٌ وجودًا عن ذاتِ المولى تعالى، الأوّلِ بلا ابتداء والآخرِ بلا انتهاء، فيكون دليلًا على عدمِ قدرة الإمساكِ لهما من بَعده إنْ زالتا؛ لأنَّ مَن كان غيرَ موجود حالةَ إمساكِهما؛ فإنّه غيرُ قادرٍ على الإمساكِ لهما بعدَ وجودِه المتأخّرِ عن وجودِهما؛ إذِ المخلوقاتُ بأسرِها سماويّةً أوْ أرضيّةً مُفتقرةٌ إلى المُمسِك لهما كافتقارِهما.

كلُّ ما يتصوّره العقلُ من دون اللّه فمسلوبُ القدرة في الحفظِ الكونيّ

بلاغةُ التّعليل بجملةِ التّذييل:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه تعليلٌ، ولذلك أُتبِعَ بوصفِ اللّه تعالى بالحِلْم على عبادِه والمغفرة لأخطائِهم؛ لما تشملُه صفةُ (الحليم) من حِلْمه على المؤمنينَ أنْ لا يُزعجَهم بفجائعَ عظيمةٍ، وعلى المشركين بتأخيرِ مُؤاخذتِهم؛ فإنَّ التّأخيرَ للعذابِ من أثَرِ الحِلْم، وما تقتضيه صفةُ (الغفور) من أنَّ في الإمهال إعذارًا للظّالمين لعلّهم يَرجعون[2]، وفي التّعليلِ المؤكّدِ

صفاتُ اللّه رحمةٌ بالأكوانِ دافعةٌ لفواجعِ الزّمان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 329.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 329.

إشارةٌ إلى أنَّ إمساكَ اللّه لهما وعدمَ اضمحلالِ النّظامِ الكونيِّ راجعٌ لإرادتِهِ المحضةِ، وأنَّ ما أقدم عليه المشركونَ من عبادةِ غيره تعالى محلُّ سخطٍ وعدم رضا، ولولا أنَّه حليمٌ غفورٌ لاختلَّ النّظامُ الكونيُّ ولفسَدَ، وكأنَّ النّظامَ بذاته يعقلُ ولا يرضى بذلك الشّركِ والذَّنبِ العظيم.

نكتةُ ذكْرِ فعلِ الكونِ الماضي:

ذُكر فعلُ (الكون) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، ولم يقل: (إنه حليم غفور)؛ وهذا يُحرِّكُ لفِقْهِ علّة ذكرِها، وهو "إفادةُ تقرُّرِ الاتّصافِ بالصّفتيْنِ الحَسَنتيْنِ"(1)؛ إذِ اللّه ﷻ في جميع أحواله حليمٌ بعباده، غفورٌ لهم، والمُضيُّ في ﴿كَانَ﴾ ليس على ظاهره؛ لأنَّ الوصفَ إذا أُسنِدَ إلى اللّه مقترنًا بـ﴿كَانَ﴾ تجرَّدَت مِنَ الزّمان، وكان معناه: كان حليمًا غفورًا، ولا يزال كذلك؛ فهو كذلك أزلًا وأبدًا، ولكنَّ هذه الصّيغةَ في الظّاهر تُحقِّقُ المعنى وتؤكِّدُه وتحسِمُه؛ فهي تشيرُ إلى ثبوتِ صفات الجلال أزَلًا، وما كان أزليًّا فإنّه باقٍ أبدًا؛ إذ كلُّ ما ثبتَ قِدمُهُ استحالَ عدمُهُ.

حِلْمُ الله بعبادِهِ باقٍ، وغفرانُه محيطٌ بهم

نكتةُ اقترانِ صِفتَيِ الحِلْمِ والمغفرة:

لمّا كانَ في ذِكْرِ إمساكِ السَّماوات والأرض عنِ الزّوال بعدَ الإطنابِ في مَحاجَّةِ المشركين، وتفظيعِ غرورِهم تعريضٌ بأنَّ ما يَدْعون إليه هو مِنَ الفظاعةِ، بحيثُ يُزلزلُ الأرضينَ، ويُسقط السَّماوات كِسَفًا؛ لولا أنَّ اللّه أرادَ بقاءهما لحِكْمةٍ؛ كما قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: 89 - 90] أتْبَعَه القرآنُ بالتَّذْييلِ بوصْفِ اللّه تعالى بـ(الحِلْمِ والمغفرةِ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ بما تشملُه صفةُ (الحليم)؛ مِن حِلْمِه تعالى بالمؤمنينَ وعدم إزعاجِهم بفجائعَ

تأخيرُ العقوبةِ حِلْمٌ وإمهالُ المُذنبِ مَغفرةٌ إلى حين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 329.

عظيمةٍ، وبالمشركينَ وعدم تعجيلِ مُؤاخَذتِهم؛ فإنَّ التّأخير مِن أثَر الحِلْم، وما تقتضيه صفةُ (الغفور) مِن أنَّ في الإمْهالِ إعذارًا للظّالمين؛ لعلّهم يَرجعون[1].

دلالةُ صيغةِ المبُالغة:

لا أحلمَ منَ الله تعالى ولا أسترَ منه

جاءتْ صفتا (الحِلْم والمغفرة) بصيغتَيْ مبالغةٍ على وزن (فعيل)؛ لتصويرِ عظيمِ الامتنان والإحسان في ذاتِه كيفًا وكمًّا؛ بالنّظر إلى الأفراد الَّذين يصدُق عليهم حِلْمُ اللّه ومغفرته، وبذلك يتناسقُ كمالُ رحمتِه ومغفرتِه بكمالِ قُدرته؛ إذ شأنُ القادرِ على الإمساكِ بالنّظام الكونيِّ، الذي لا يقدرُ أحدٌ على الإمساكِ به أنْ يتّصفَ بكمال الحلم والمغفرةِ التي لا يتّصفُ أحدٌ بهما على ذلك الكمالِ المطلق، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن قدَرَ على العقوبة أنْ يتّصفَ بالحلم والمغفرة والعفوِ عندَ الإساءة، فذلك كمالٌ ينبغي التّحلّي به.

نكتةُ حذفِ العطفِ بينَ الاسميْنِ الجليليْن:

أسـماءُ اللـه الحسنى تُشيرُ إلى ذاتٍ واحدةٍ في جميعِ صفاتها

جاء اسما (الحليم والغفور) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ مِن غيرِ عاطفٍ دالٍّ على المغايرة؛ لأنَّ "الأوصافَ الجارية على اللّه - ﷻ - جاريةٌ مجرى الأسماء المترادفة، وفي هذا إشارةٌ إلى وحْدتها، وأنَّ أبرزَ ما فيها هو الدّلالةُ على الذات التي لا تتعدَّدُ، وهذا ملحظٌ جيِّدٌ في الاستعمالات المبيّنة؛ فقد لوحِظَ في دوران الكلام في الأفواهِ أنَّ صفاتِ ذي الجلال لا تَجري في السّليقةِ والاستعمال مجرى غيرِها؛ فإذا كان العطفُ قليلًا في صفاتِ المخلوقين فإنّه أقلُّ مِنَ القليل في صفاتِ الخالقِ"[2].

نكتةُ تقديمِ الحلْم على المغفرة:

الحِلمُ كالعلَّةِ والمغفرةُ كالثَّمرة

قُدِّم وصفُ الحِلْم على وصفِ المغفرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 329.
(2) محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب: دراسة بلاغية، ص: 295.

حَلِيمًا غَفُورًا﴾؛ لأنَّ الحِلْمَ يقتضي المغفرةَ، فقُدِّم ما هو كالعلّة على ما هو كالثّمرة، ونظرًا إلى ترتيبِ الصّفتيْنِ في الواقع بالنِّسْبة للنّاس؛ فالحِلْمُ يَسبقُ المغفرةَ؛ والقرآنُ يُخاطبهم بما يَعهدونَهُ ويَعرفونَه، بقي أنَّ التّنكير للاسمينِ الجليلينِ أفادَ تفخيمًا لهما معَ كونِهما على وزنٍ من أوزان المبالغة، لبيانِ عظيم حِلْم اللّه بمخلوقاته، وكبيرِ مُسامحتِه وسَترِه لهم على عظيم ذنوبهم، التي يدخل فيها الشّركُ دُخولًا أوليًّا؛ إذ يحلُمُ ويُشكَرُ غيرُهُ، ويَستُرُ ويُعبَدُ مَن دونَه!

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإمساكُ والحِفظ:

الإمساكُ من صوَرِ الحفظِ، والحفظُ غايتُهُ

تدور مادّةُ (الإمساك) على حبْس الشيء أوْ تحبُّسِه؛ فالبخيلُ مُمْسِكٌ، وإمساكُ الشّيء: التّعلّقُ به، وحفظُه، ومادّةُ (الحفظ) تدورُ على مراعاةِ الشيء؛ يُقال: حفِظْتُ الشيءَ حِفْظًا، والحِفْظُ يُستعمَلُ في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ؛ والإمساكُ قد يكون مِن صوَرِ الحفظ، والحفظُ قد يكون غايةً لإمساكِ الشّيء[1]، ونتيجةً لعلاقةِ التّلازُمِ بينَهما فقد يُكنَّى بالمَسْك عنِ الحِفظ.

الحِلْم والصَّبر:

الإمهالُ النّاتِجُ عنِ الصَّبْرِ غيرُ الإمهالِ النّاشئِ عنِ الحِلْمِ

أصلُ (الحِلْمُ) في العربيَّة اللّينُ، والحِلْمُ هو الإمهال بتأخير العقاب المُسْتحَقِّ، والحِلْمُ مِنَ اللّه تعالى عنِ العُصاة في الدُّنيا فعلٌ يُنافي تعجيلَ العقوبة مِنَ النِّعمة والعافية، ولا يُقال لتارك الظُّلْم: حليمٌ؛ إنّما يُقال: حلُم عنه؛ إذا أخَّر عقابَه، أو عفا عنه، ولو عاقبَه كان عادلًا، وقال بعضُهم: الحِلْمُ فيه أناةٌ وإمهالٌ.

والصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ لمُصادفةِ المكروه، وصبَر الرّجلُ: حبَس نفسَه عن إظهار الجزع، ولا تجوز الصّفةُ على اللّه تعالى بالصّبر؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حفظ) و(مسك).

لأنَّ المَضارَّ لا تلحقُه، وتجوز الصّفةُ عليه بالحِلْم؛ لأنّه صفة مدحٍ وتعظيم، وإذا قال قائلٌ: اللّهمّ حِلْمَك عنِ العُصاة، أي: إمهالك: فذلك جائزٌ على شرائط الحِكْمة مِن غير أنْ يكون فيه مَفْسَدةٌ، وإمهالُ اللّه تعالى إيّاهم مظاهرةٌ عليهم[1]، والحاصلُ أنَّ الصّبر أمرٌ راجعٌ إلى النّفس بتحمُّلِها الصِّعابَ، والحلمَ راجعٌ إلى غير النّفس بالعفوِ والصّفحِ والإمهال.

المغفرةُ والعفوُ:

المغفرةُ تدلُّ على السَّتر، والعفوُ يدلّ على المَحو

(العفوُ): تركُ العقاب على الذَّنب، و(المغفرةُ): تغطية الذّنب بإيجاب المثوبة؛ ولذلك كثُرتِ المغفرةُ مِن صفات اللّه تعالى دونَ صفاتِ العباد؛ فلا يُقال: استغفرِ السّلطانَ؛ كما يُقال: استغفرِ اللّهَ، وقيل: العفوُ إسقاطُ العذاب، والمغفرةُ أنْ يَستُرَ عليه بعد ذلك جُرْمَه؛ صونًا له عن عذابِ الخِزْي والفضيحة؛ فإنَّ الخلاصَ مِن عذاب النّار إنّما يُطلَبُ إذا حصَلَ عقيبَه الخلاصُ مِن عذابِ الفَضيحة؛ وفي العفوِ مبالغةٌ ليسَتْ في الغفور؛ فإنَّ الغفران يُنبئُ عنِ السّتر، والعفوَ يُنبئُ عنِ المحو؛ وهو أبلغُ مِنَ السّتر؛ لأنَّ السّتر للشّيءِ قد يحصُلُ مع إبقاء أصلِه؛ بخلاف المَحْو؛ فإنَّ إزالتَهُ جملةً ورأْسًا[2].

(1) معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، ص: 197 - 200.
(2) معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري، ص: 363 - 364.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: 42 - 43]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مَن لم يشكُرِ المنَّةَ الإلهيَّةَ نالَه عذابُ السُّنّةِ الكونيّة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة منَّةَ اللّه على النّاس في أنْ جعلَهم خلائفَ في الأرض، وما صدرَ عنهم من اتّخاذِ الأنداد بدلَ الاعترافِ بالحقّ وعبادةِ اللّه الواحدِ الدّيّان، وأنَّ اللّه ﷻ هو الّذي يحفظُ السّماوات والأرضَ برعايته المشاهَدةِ آثارُها، ناسبَ التّذكيرُ بما قالَه أولئك المشركونَ في السّابق، مِن قسم يُنبئُ عنِ اعترافِهم بحقيقةِ الدّين، ووَعْدِهم بأنْ يكونوا أهدى من أهلِ الكتاب، وبيانِ موقفِهم عندَ تحقُّقِ ما أَقسموا به، وبيانِ سببِ ذلك الموقفِ المتناقِض، وهو الاستكبارُ في الأرض، ومكرُ السَّيِّئ، ثمَّ ذكّرهم بسنّة الأوَّلين، في إنزالِ العقوبة، وأنّها سنّةٌ لا تتبدّلُ؛ ليَرتدعوا عن غيِّهم واستكبارِهم، فهو انتقالٌ من بيانِ المِنَنِ الكونيَّة، إلى بيانِ السُّنَنِ الكونيّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُفُورًا﴾: أصلُ (نفر) يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[1]، يُقال: نَفَرَ يَنْفِرُ نُفورًا ونِفارًا: إذا فَرَّ وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنه: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا إذا أسرَعوا في الخُروجِ؛ لِقِتالِه[2]، والنُّفورُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (نفر).

هُروبُ الوَحْشيِّ والدّابَّةِ بِجَزَعٍ وخَشْيَةٍ مِنَ الأَذَى، والمرادُ بالنُّفورِ في الآيةِ: الفِرارُ مِنَ الشَّيْءِ، وأُطلِقَ هنا على لازمِهِ؛ وهو البُعْدُ[1].

2) ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾: أَصْلُ (كبر) الامْتِناعُ وعَدَمُ الانْقيادِ، يُقال: تَكَبَّرَ البَعيرُ إذا امْتَنَعَ ولم يَنْقَدْ[2]، والكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ تتقاربُ، فالكِبر الحالةُ الَّتي يتخصَّص بها الإنسانُ من إعجابِهِ بنفسه، وذلك أنْ يرى الإنسانُ نَفْسَه أكبرَ من غيره، وأعظمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على اللّه؛ بالامتناع من قَبول الحقِّ والإذعانِ له بالعبادة[3]، والاستكْبارُ: الامْتِناعُ عَن قَبولِ الحقِّ معاندةً وتكبُّرًا[4]، ويُقالُ على وجهينِ؛ أحدهما: أنْ يتحرَّى الإنسانُ ويطلب أنْ يصيرَ كبيرًا؛ وذلك متى كان على ما يجبُ، وفي المكان الَّذي يجبُ، وفي الوقت الَّذي يجبُ فمحمودٌ، والثّاني: أنْ يَتشبَّع، فيظهرَ مِن نفسِهِ ما ليس له، وهذا هو المذمومُ[5]، والمقصود بالاستِكبارِ في الآية: ادِّعاء الكِبر من غيرِ استحقاقٍ، والسّينُ والتّاءُ للمُبالغةِ[6].

3) ﴿وَمَكۡرَ﴾: أصلُ (مكر) يدلُّ على الاحتيالِ والخِداعِ[7]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[8]، والمَكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطَريقٍ خفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، وهو نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه؛ عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[9]، والمقصودُ بالمَكْرِ في الآية: إخفاءُ الأَذى، وهو سيِّءٌ مذمومٌ؛ لأنَّه مِنَ الغَدْرِ، وهو مُنافٍ للخُلُقِ الكريمِ، فوَصْفُه بالسَّيِّئ وصْفٌ كاشِفٌ لِما يحمِلُه مِن معاني السّوءِ[10].

4) ﴿يَحِيقُ﴾: أصلُ (حيق) نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، يُقالُ: حاقَ بهم الشَّرُّ يَحيقُ حَيقًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 36.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (كبر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (كبر).
(5) الراغب، المفردات: (كبر).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 111.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(8) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكر).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

وحيَقانًا وحُيوقًا[1]، إذا نزَلَ، وحاقَ: أَحاطَ، ثُمَّ خُصَّ الاستِعمالُ بإحاطَةِ الشَّرِّ[2]، فالحَيق: ما حاقَ بالإنسان من مَكْرٍ أَوْ سوءِ عمَل يعمَلُه، فيَنزِلُ ذلك به، وهو مُقيَّدٌ بالمَكْرِ والسّوءِ[3]، ومعنى ﴿يَحِيقُ﴾: يُحيطُ ويَنزِلُ.

5) ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾: أصلُ (بدل) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِب، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ إذا غيَّرتُهُ؛ وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ، وأَبْدَلْتُهُ: إذا أَتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ، وحقيقتُه: أنْ تُغيِّرَ الصّورةَ إلى صورةٍ أُخرى، والجوهرةُ بعَيْنِها[4]، والتَّبديل في الآية معناه: جَعْلُ شيءٍ بدلًا عن شيءٍ آخَرَ.

6) ﴿تَحۡوِيلًا﴾: (حول) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَحَرُّكٌ في دَوْرٍ[5]، والتَّحويلُ: مَصْدَرُ حَوَّلْتُ الشَّيْءَ عنِ المَوْضِع تَحْويلًا وحَويلًا إذا نَقَلْتُهُ من مَوْضع إلى مَوْضِع، وأَزَلْتُهُ عنِ الأَوَّلِ إلى غَيْرِه[6]، ومنه: حَوَّلْتُ الرِّداءَ إذا نَقَلْتُ كُلَّ طَرَفٍ إلى مَوْضِع الآخَرِ، والحائلُ: كلُّ شَيْءٍ يَتَحرَّكُ من مَكانه، أو يَتَحوَّل من مَوْضِع إلى مَوْضِع، ومن حالٍ إلى حال[7]، والحَوْلُ: الحَرَكة، يُقال: حالَ الشَّخصُ: إذا تَحَرَّكَ[8]، وحقيقةُ التَّحْويل في الآية: نَقْلُ الشَّيءِ من مكانٍ إلى غيره[9].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

تُخبرُ الآيةُ الكريمة بما صدر عن مُشركي العَرَب بأنَّهم أقسَموا باللّٰهِ مُجتَهدينَ في أيْمانِهم، وبالغوا فيها أشدَّ المبالغة: لئِنْ جاءَهم مِنَ اللّٰه رسولٌ يُنذِرُهم بأسَه ليكونُنَّ أسلكَ لطريق الحقِّ، وأشدَّ قبولًا له من أيِّةِ أمَّةٍ مِنَ الأُمم الَّتي خَلَت من قبلِهم، فلمّا جاءَهم مُحمَّدٌ ﷺ نَذيرًا ما زادَهم مجيئُه إلّا نُفورًا مِنَ الحَقِّ وضَلالًا إلى ضَلالِهم[10]، وسببُ

(1) ابن دريد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حوق).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (حوق)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 146.
(3) جعفر شرف الدين، خصائص السور: 5/ 30.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حول).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حول).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حول).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 392، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 358، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 559، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 139.

نفورِهم الاستكبارُ في الأرضِ عنِ الإيمانِ به، ومَكرُ السّيِّئَ بالنّاسِ، فقد خَدَعوهم، وزيَّنوا لهم الباطِلَ؛ ليَصُدّوهم عنِ الحَقِّ، ولا يَنزِلُ سوءُ المَكرِ إلّا بأهلِه، فهل يَنتَظِرُ هؤلاءِ المُشرِكونَ إلّا عادةَ اللّهِ الجاريةَ في الأُمَمِ السّابِقةِ في إهلاكِهم في الدُّنيا على كُفرِهم بالحَقِّ؟ فلن تَجِدَ يا محمَّدُ ﷺ لطريقةِ اللهِ الَّتي قضاها وحَكَم بها تبديلًا لها، بل هي سُنَّةٌ ماضيةٌ، وعادةٌ جاريةٌ، فلا بُدَّ أنْ يُعذَّبَ هؤلاءِ المُشرِكونَ؛ إنِ استمَرّوا على باطِلِهم؛ ولنْ تجِدَ لهذه العادةِ تحويلًا(1).

الوعودُ الكاذبةُ سرابٌ وإنْ أُحيطَت بأعظمِ الأيْمانِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ للعطف، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها من أخبارِ ضَلال المُشركينَ في شأنِ الرّبوبيَّة وفي شأنِ الرِّسالة والتّديُّن، وأنَّ ما حُكي فيها هو من ضَلالاتِهم ومُجازفتِهم(2)، والعطفُ هو على مجموعِ الأخبارِ السّابقة، للتّذكيرِ بما قاله المشركون قديمًا، وأنَّهم نقضوا كلامَهم وأقسامَهم بالإيمانِ بعد أنْ حقّقَ اللّه مطلوبَهم ببعثة الرّسول ﷺ من أنفُسِهم، وبهذا يكون كفرُهم مُخالفًا للعدل، ومُخالفًا لما صدرَ عنهم من أقوالٍ سابقة، أوِ الواوُ للاستئناف(3) توطئةً لتقريرِ سُنّة اللّه تعالى في معاملةِ المُكذّبين.

العطفُ لبيانِ سُنّة الله في المكذِّبين، والاستئنافُ لتقرير تلك السُّنّة

دلالةُ استعمالِ لفظ القَسَمِ:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة (القَسَم) دونَ مُرادفاتها في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ عظيم اهتمامِهم بالمُقْسَم عليه؛ لأنَّ القَسَمَ مأخوذٌ مِنَ القَسامة؛ وهي الأيمانُ تُقسَّم على أولياءِ

العبرةُ في تصديقِ الأفعالِ للأقوالِ لا مجرَّدُ إرسالِ الأقسامِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 393، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 508، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 358.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 331.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 285.

المقتول؛ إذا ادَّعَوا دمَ مقتولِهِم على ناسٍ اتَّهموهُم بهِ؛ فالقسمُ ألصقُ بالجماعةِ على هذا؛ ولذلك أُسنِدَ الفعل إلى الجماعة؛ فكأنَّهم في حالةِ مواجهةٍ وخصومةٍ شديدةٍ؛ معَ مَن أقسموا لهم بأن يكونَ كيتَ وكيت إنْ جاءهم نذيرٌ، فالفعلُ يُبيِّن حالَهم عند عقدِ الأيمان، وأنَّهم تلفّظوا بتلك الألفاظِ، وآثرَ النّظمُ مادّةَ (القسم) على (الحلِف)؛ لأنَّ القسم غالبًا يكون في الصِّدق، فكانت أيمانُهم في تلك الأوقات مقرونةً بالتّصديق، لكنَّهم غادروا تلك الأيمانَ بمجرَّد بعثةِ الرّسولِ ﷺ، ممّا يدلُّ على مدى النّفورِ بعدَ حالةِ الوعد الصّادق، الَّذي أخذوه على أنفُسِهم.

نكتةُ التّعبير بصيغة الماضي:

التَّذكيرُ بما كانَ سابقًا لبيانِ زَيفِ ما وقع حاضرًا

نُظِم التّعبيرُ بلفظِ القَسَم في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ القسمَ قد صدرَ عنهم في الماضي، والقرآنُ يذكرُ حكاية ذلك، والظّاهر أنَّه صدَر عنهم "في مَجاري المُحاورة أوِ المفاخرةِ بينهم وبينَ بعضِ أهل الكتاب مِمَّن يَقْدُمُ عليهم بمكّةَ، أوْ يَقْدُمون هم عليهم في أسفارِهم إلى يثربَ، أوْ إلى بلادِ الشّام"[1]، والقرآنُ يحكي عنهم ما صدَر منهم؛ لإقامةِ الحُجّة عليهم، وبيانِ زَيْفِ سادةِ المُشركينَ أمامَ أتباعِهم.

دلالةُ استعمالِ (باء القسم) ولفظِ الجلالة:

معرفةُ الحقِّ قبلَ وقوعِه ميدانُ الادّعاءِ الكاذبِ في اتّباعِ الحقِّ عند وقوعِه

قولُه تعالى ﴿بِٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بالفعلِ (أقسموا) في قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، والباءُ باءُ القَسَم، ومعنى الإلصاقِ لا يُفارِقُ الباءَ؛ على ما عليهِ سيبويهِ وكثيرٌ مِنَ المُحقِّقينَ؛ فتفيدُ هنا امتلاءَ أفواهِهم بالقسم بالله؛ النّاتجَ عن امتلاءِ قلوبهم بالمُقْسَم به؛ دلالةً على شدّةِ حرصِهم واهتمامِهم بالمُقْسَم عليه، وهذه الدّلالةُ حاصلةٌ بكونِ المُقْسَم به اسمَ الجلالةِ الأعظم دون غيرِه مِمّا يدَّعون له

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 330.

الألوهيَّة؛ "والقَسَمُ بينَ أهلِ الجاهليَّةِ أكثرُه باللّٰه، وقد يُقْسِمون بالأصنامِ وآبائِهم وعُمرِهم؛ والغالبُ في ذلك أنْ يقولوا: واللّاتِ والعُزَّى"(1)، واسمُ الجلالة هو الأنسبُ بقوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ لأنَّ النّذير إنَّما يَجيئُهم مِن قِبَلِ اللّٰه خالقِ السَّماوات والأرض؛ ويُؤنسُ بذلك أنَّ "هذه الآية وغيرها، وما يُؤْثَرُ مِن تنصُّر بعضِ العربِ ومن اتِّساعِ بعضِهم في التَّحنُّفِ يدلُّ على أنَّهم كانوا يعلمونَ رسالةَ الرُّسُلِ"(2)، وهكذا أفادَ إظهارُ اسمِ الجلالة وإيثارُه على القسَم بالأصنام مَدى رَغبتهم القويّةِ في ظهورِ رسولٍ من بينِهم يتّبعونَه.

دلالةُ استعمالِ لفظ الجَهْد:

جَـهْـدُ الأيـمـانِ شأنُه المفاخرةُ لا الـنُّـزولُ على الحقِّ

جاء استعمالُ لفظ (الجَهد) في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾؛ حكايةً عن صَنيعِ المشركينَ؛ للدّلالةِ على غايةِ تهيُّئِهم لقَبولِ الرَّسولِ النّذيرِ ورسالتِه، وعلى ما هو أصلٌ لذلك؛ وهو غايةُ عظَمةِ الرَّسولِ والرِّسالةِ؛ فبذلُهم ما في وُسْعِهم وما هو فوقَ ذلك حتَّى شقّوا على أنفسِهم صورَةٌ لذلكَ، ولِعُلُوِّ نَبْرةِ الفخرِ؛ حين دعا بعضُ أهلِ الكتابِ قريشًا إلى دينِهم؛ والإبلاغُ في ذلك والاحتشادُ له بكل ما يُمكن من سيما العربِ، وفي إضافةِ الجَهد إلى الأيمانِ استعارةٌ بالكناية؛ إذ يدلُّ على تشبيهِ الأيمانِ والأقسامِ بذاتٍ يقومُ بها الجهدُ نتيجةَ العمَلِ الكثير، والغرضُ منها تصويرُ مَدى علوِّ صوتِهم بتلك الأيمانِ والأقسامِ، حتَّى أصابَهم الجهدُ والإعياء، وفي ذلك كنايةٌ عن صدقِهم في الطّلبِ لمبعثِ رسولٍ من أنفُسهم.

أثرُ إعرابِ ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ في تجليةِ المعاني:

تـصـويـرُ حـالِ المـشـركـين عند الـقـسَـمِ بـيـانٌ كاشفٌ لحقيقةِ صِدْقِهم

قولُه تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ منصوبٌ على المصدريَّةِ أوِ الحاليَّة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 333.

وهو على الأوَّلِ صفةٌ بالمصدرِ أُضيفتْ إلى موصوفها؛ أي: وأقسموا باللّه قَسَمًا جهدًا، فـ﴿جَهۡدَ﴾ نائبٌ عنِ المفعول المطلق المُبيِّن للنّوع؛ لأنّه صفةٌ لِما حقُّه أنْ يكونَ مفعولًا مطلقًا؛ وهو: ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ إذ هو جمعُ يمين؛ وهو الحلفُ، فهو مرادفٌ لـ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾[1]، ففي الوصفِ بالمصدرِ دلالةٌ على قوة اتّصافِ الموصوفِ بالصِّفة، وفي الإضافةِ إبلاغٌ في بيانِ ذلك، وهذا كلُّه يُصوِّرُ حالَ المشركينَ في المُحاورة والمُفاخرة مِن جهةٍ، ويدلُّ على عظيم ادِّعائهم ما هو عظيمٌ في نفسِه؛ ليوهِموا مُتلقّيهم أنّه كذلك في أبصارِهم وبصائِرهم.

نكتةُ جمْعِ الأيمان:

كـثرةُ الأقسـام بـيـانٌ لحقيقة المَرَام

جاء التّعبيرُ بجمع (الأيمانِ) في قوله تعالى: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ قَسَمهم في هذا الموقفِ؛ فهم يُكرِّرونَ الأيمانَ في تتابُعٍ يَشي بعظمةِ الرَّسول النَّذير ورسالتِهِ عندَهم.

علّةُ الفَصْلِ:

الـتّـصـريـحُ بالمُقسَم عليه في الكلام دالٌّ على عنايةٍ والتزام

قولُه تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ بيانٌ[2] لقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ ولهذا غابَ العاطفُ؛ فلم يقل: (ولئن جاءهم نذير)؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، وكشفَ البيانُ للمقسَم عليه عن رغبةٍ جادّةٍ بتحصيله، والتزام به في حالةِ وقوعه، ومن ثمَّ اعتُني بنقلِه بنصّه؛ ليكون حُجّةً عليهم عندَ الإنكار والتّكذيب.

دلالةُ التّأكيدِ بأسلوب القسم:

إعـادةُ القسم مــذكــورًا ومحذوفًا إقامةٌ للحُجّة

أكَّد المشركونَ كلامَهم بأسلوب القَسَم؛ كما حُكيَ عنهم في قوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾، إذِ (اللّام) في (لئن) واقعةٌ في جوابِ قَسَم محذوفٍ، تقديره: واللّه، وموطّئةٌ للقَسَم بعدها؛ لأنَّ الجوابَ ما يأتي بعدَ الشَّرْطِ، و(إنْ)

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 331، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 299.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

شرطيَّةٌ، ونلحظ أنَّه لم يكتفِ النصُّ بفعل القسَم الظّاهر، فلم يقل: وأَقسَموا باللّه عندَ مجيءِ الرّسول ليكوننّ، بل عمدَ إلى إعادة القسَم محذوفًا، أي: أقسَموا قائلينَ واللّه لئن...الخ، وفي ذلك توكيدٌ للقسم بذكره مرّتينِ مذكورًا ومَحذوفًا مع التّنصيصِ على لفظ القسَمِ الصّادرِ مِنهم ليكونَ حُجّةً عليهم.

دلالةُ استعمالِ (المجيء):

مجيءُ النَّذيرِ من عظائمِ أمورِ الدّينِ ومكارمِ أمورِ الدُّنيا

جاء استعمالُ لفظ (المجيء) مُسنَدًا إلى النّذيرِ في قولِه تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٌ﴾؛ للإشعارِ بمعنى التَّحقُّقِ؛ لأَنَّ المجيء باعتبار الحصولِ؛ فبمُجرَّدِ تحقُّقِ مجيئه ليكونُنَّ أهدى مِن إحدى الأمم، ولأنَّ مَجيءَ الرَّسولِ ليس بالأمرِ الهيِّنِ السَّهْلِ؛ وإنَّما له خطرُه وشأنُه؛ لخطر الرِّسالة، وأهميَّةِ الغاية منها، وأثرِها في حياة الإنسانِ؛ فيكون هذا توطئةً قويَّةً للجواب: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾[1]، وكذلك يُقال في التّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٌ﴾، وكان إيرادُ المقسَم عليه بأسلوبِ الشَّرط إشارةً إلى أنَّه متى تحقّقَ المجيءُ فإنَّ الهداية تعقبُهُ؛ حِرصًا منهم على التّصديق وظهورِ ثمراتِ الإيمانِ عليهم.

نكتةُ تقييدِ فعل المجيء بالضَّمير:

الاخـتـصـاصُ بالرِّسالةِ مَطلَبُ كلِّ أمَّةٍ

قُيِّد فعلُ المجيءِ في قوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ﴾ بذكر المفعول به، وهو الضَّمير العائدُ على المشركين؛ فلم يُقل: (لئن جاء نذيرٌ)؛ للتّنبيهِ على أمرين؛ أنَّ النّذيرَ يَقصدُهم جميعًا، وأنَّه لهم على وجهِ الخصوصِ، وهو إيماءٌ إلى أنَّه يهتمُّ بهم ويَحرصُ عليهم؛ هدايةً وفلاحًا ونجاحًا، ونجاةً مِنَ النّار، وفوزًا بالجِنان، وإذا كانَ كذلك كانَ اللّائقُ بهِ سرعةَ الاستجابةِ العظيمةِ لهُ من قِبَلِهم، كما

---

(1) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 14، 44، 45.

دلّ الضّميرُ على تعليلِ عدمِ إيمانِهم برسالاتِ أهلِ الكتاب وهو أنَّ أولئك الأنبياءَ لم يكونوا للعربِ ولأحوالِهم، فلا يصحُّ متابعتُهم؛ لأنَّ نبوّتهم لم تَستهدفْهم ولم تطلبْ منهم الدّخولَ في أديانهم، بخلاف النّبيِّ الَّذي تكون دعوتُه مختصَّةً بهم.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿نَذِيرٌ﴾:

الكشفُ عن واقعِ العَربِ الفكريِّ قبلَ الرِّسالة

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة ﴿نَذِيرٌ﴾ في قوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ دونَ (بشير)؛ للكشفِ عن أمرٍ غيبيٍّ وهو أنَّ القومَ يعلمونَ أنَّهم على الخطأ والضّلال، وينتظرونَ مَن يُنذرهم، ويُخرجهم منَ الظُّلمات إلى النّور، ولو رأوا في أنفسِهم أنَّهم على خيرٍ لما احتاجوا إلى النّذير، ويُعزِّز هذا ما ذهب إليه ابنُ عاشورٍ في بيان حالِ الموقفِ؛ وذلك أنَّ مجادلةَ أهلِ الكتاب إيّاهُم كانت مشتملةً على تخويفٍ وإنذارٍ، وهذا يُرجِّحُ أنْ تكونَ المُجادَلةُ جَرَتْ بينهم وبينَ بعضِ النَّصارَى؛ لأنَّ الإنجيلَ معظمُه نِذارةٌ[1]، ويمكنُ أنْ يكون من بابِ (الاكتفاء)، وحرصوا على ذكرِ النَّذير دون البَشير؛ لأنَّ الأصلَ في دعوةِ الأنبياء الإنذارُ والتّخويفُ، والبِشارةُ لازمةٌ لها.

نكتةُ حذفِ الموصوفِ:

حذفُ الموصوفِ تمكينٌ لمعنى الصِّفةِ المنكَّرة

لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وصفٌ لموصوفٍ محذوف، فقامتِ الصِّفة مقامَه؛ وفي الحذفِ إشارةٌ إلى تمحُّضِ الرَّسول للنِّذارةِ؛ حتَّى عُرِف بها؛ فصارتْ تُطْلَق عليه، ويُسْتَغْنَى عن ذكرِه معَها، وأنَّ إيمانهم حينئذٍ كإيمانِ الَّذين يُؤمنونَ في حالةِ الإنذارِ الشّديد؛ لأنَّ هذا الرَّسولَ ليس يتوجَّه منه شيءٌ إليهم إلّا الإنذارُ؛ وبهذا الحذفِ يقوَى ترتُّبُ قوله: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ على قوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، ونُكِّر لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾؛ للدّلالة على النَّوعيَّة، أي: لئن جاءهم نذيرٌ مخصوصٌ عجيبٌ عظيمُ الشّان؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

ويُؤيِّده: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾، أي: لتميزُّهِ ليكونُنّ أهدى من إحدى الأُمَمِ؟.

دلالةُ استعمالِ فعلِ الكَوْنِ مُقترِنًا باللّام:

جاء استعمالُ فعلِ الكون في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لبيانِ عزمِهم على الاهتداء التّام، والالتزام الكامل بمعالم الرّسالة التي تنزلُ عليهم، وفي توكيدِ المضارع تقويةٌ على ذلك الكونِ النّاجم عن الإيمان بالرَّسول المُبتعَثِ، كما اقترنتِ اللّام به وهي الواقعةُ جوابَ الأقسام للتّوكيد أيضًا، فيكون توالي المؤكّدات دليلًا على شدّة رغبتهم ببعث نذيرٍ منهم لينذِرَهم ويُخوِّفَهم.

سرُّ التّعبيرِ باسمِ التّفْضيل:

جاء التّعبيرُ بلفظ (الهداية) في قوله تعالى: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ بصيغةِ التَّفضيل، أي: أشدُّ هدايةً أوِ اهتداءً بالمُسابقةِ على اتّباعه، وقولُه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ متعلّقٌ بلفظِ ﴿أَهۡدَىٰ﴾، وهو مُشتمِلٌ على المُفَضَّلِ عليهِ، وأمّا المُفَضَّلُ فهو اسمُ الكونِ المرادُ به المشركونَ، وجهةُ التَّفضيلِ الهدايةُ أوِ الاهتداءُ بالرّسولِ النَّذيرِ ورسالتِه، وتكشف هذه المفاضلةُ عن مُحاورةٍ جرتْ بين المشركينَ في الجاهليّة وبينَ أهل الكتاب، فأقسَموا أنْ يَكونوا خيرًا منهم في الرَّشاد، والظّاهرُ أنَّ أهلَ الكتاب وصَفوهم بالضَّلال؛ لأنَّهم يعبدونَ الأوثان، وبشَّروهم بظهورِ نبيٍّ جديدٍ يَدعوهم إلى اللّه تعالى، فأقسَموا أنَّه لو ظهرَ اتّبعوه واهتَدَوا بكلامِه حتى يتفوَّقوا في هدايةً.

الكشفُ التّاريخيُّ عن مُحاوَرات المشركينَ لأهل الكتاب

بلاغةُ الإبهامِ ودلالتُه:

آثرَ النّظمُ الكريم الإبهامَ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ دونَ ذكرِ المراد تعيينًا، فلم يَذكُرِ اليهودَ أوِ النَّصارى أوْ أهلَ الكتاب ونحوَ ذلك، ويَحتملُ الإبهامُ أنْ يكونَ من كلام المُقْسِمينَ، ويَحتملُ أنْ يكونَ إبهامًا من كلامِ القرآنِ؛ على عادةِ القرآنِ في التَّرفُّعِ عمّا لا

للإبهامِ أثرٌ في اتِّساع المعنى ما لا يكونُ في تعيينِهِ

فائدةَ في تعيينِه؛ إذِ المقصودُ أنَّهم أشْهَدوا اللّهَ على أنّهم إنْ جاءَهُم رسولٌ يكونوا أسبقَ مِن غيرِهم اهتداءً، ويَحتمل أنْ يكون فريقٌ مِنَ المشركينَ نظروا في قَسَمِهم إلى هَدْيِ اليهود، وفريقٌ نظروا في قَسَمِهم إلى هَدْيِ النَّصارى، وفريقٌ نظروا في قَسَمِهم إلى هَدْيِ الصّابئة؛ فجَمَعَتْ عبارةُ القرآنِ ذلك بقولِه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾؛ ليأتي على مقالةِ كلِّ فريقٍ معَ الإيجازِ(1).

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡأُمَمِۖ﴾ والإضافةِ:

تغايرُ التّعريفَين للرّغبة في تحصيل كمالِ التّفوّق

وردتْ كلمةُ (أل) في سياقِ التّركيبِ الإضافيِّ من قولِه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ وأُريدَ بها الاستغراقُ؛ إذِ الأممُ جمعُ أمّة، ودخولُ (أل) عليه دالٌّ على العموم والشّمول لجميع الأُمم المعروفةِ آنذاك، وأمّا تعريفُ الإضافة فهو للعَهد؛ إذِ الَّذين حاوَروا العربَ مِنَ النّصارى أوْ غيرِهم مِنَ اليهودِ ونحوِ ذلك، فأرادوا بهذينِ التّعريفينِ تفوُّقَهم على الأمَّة التي تعتقدُ تفوُّقَها في الاهتداء على جميعِ الأُمم، وفي اختيار لفظ ﴿ٱلۡأُمَمِۖ﴾ ما يشيرُ إلى شيوعِ كلمة (الأمّة) التي تنسبُ النّاسَ إلى (الأم) الواحدة أوِ المعتقد الواحد، وأنَّ العربَ أمّةٌ من تلك الأمم المعروفة، وتنقصها الهدايةُ وتُعيَّر بها فتوصف بالأمّيَّة للدّلالة على شدَّة الجهلِ والضَّلالة، حتى إنَّهم أقسَموا بالمسارعةِ إلى الاهتداءِ في حالِ ظُهور النّبيّ الجديدِ؛ للتّخلُّص من وصفِ الأميَّةِ المُلازم لهم.

بلاغةُ ذكرِ ﴿إِحۡدَى﴾ مضافةً إلى العُمومِ الجمعيِّ:

طبائعُ العربِ التّطلّعُ إلى أعلى المقامات وأرفعِ الدّرجات

جاء ذكر ﴿إِحۡدَى﴾ مضافًا إلى لفظِ ﴿ٱلۡأُمَمِۖ﴾، دون أنْ يُقال: (لنكونن أهدى مِن الأمم)، وإنّما استحضَروا الأُمَمَ كلَّها بصيغة جمعِ الكثرة، وقالوا إحداها "بمعنى: واحدةٍ، والظّاهرةُ أنَّها عامّة؛ وإنْ كانَتْ نكرةً في الإثباتِ؛ لاقْتِضاءِ المقامِ العُمومَ"(2)، وهذا إبلاغٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 205.

في إثباتِ الفَضْلِ لأنفسهم؛ وقد استوجَبَ ما قبلَه مِمّا ظهرت فيه المبالغةُ؛ فظهَر بذلك التناسب بينهما.

ويتناغَى معَ هذا الوجهُ الذّاهبُ إلى أنْ يكون: ﴿إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ بمعنى: أفضل الأمم؛ فيكونُ مِن تعبيرِ المُقْسِمين، أي: أهدى مِن أفضلِ الأمم، ولكنّه بناهُ على التّنظير بما ليس لهُ نظيرٌ؛ وهو قولُهُم: (إحدى الإحَد)، ولا يتِمُّ التّنظيرُ؛ لأنَّ قولَهم ذاك جرَى مجرَى المَثَل في استعظامِ الأمرِ في الشّرِّ والخيرِ، وقرينةُ إرادةِ الاستعظامِ الإضافةُ إلى اسْمٍ مِن لفظِها؛ فلا يقتضي أنه معنًى يُرادُ في حالةِ تجرُّدِ ﴿إِحۡدَى﴾ عنِ الإضافة إليه[1]، وهذا جارٍ على المُبالغةِ المؤسَّسَة على المبالغةِ في جملةِ الشَّرْطِ، والَّذي يبدو أنَّهم أرادوا بهذا التّعبيرِ (أفضلَ الأمم)؛ لأنَّ كلَّ أمّةٍ تحاوروا معَها ادّعت أنَّها أفضلُ الأُمَم اهتداءً، فاحتاروا فيمَن الأفضلُ بينهم في نفس الأمر، فعَدَلوا عن تسميتِها، وأتَوا بلفظِ (الأحد) الدّالِّ على واحدةٍ منها، وأَعلنوا تفوُّقَهم عليها، فيَؤولُ المعنى إلى أنَّهم أرادوا أنْ يكونوا أفضلَ الأمم على الإطلاقِ في الاهتداء، وفي التّركيبِ دلالةٌ على تحيُّرِ الأُمَم في تعيينِ الأمَّةِ الأهدى، وأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تدَّعي أنَّها الأحقُّ بالهداية والاتّباع.

بديعُ الجِناسِ المحرّف:

الحِرصُ على التفوُّق المُطلق

بينَ لفظِ ﴿أَهۡدَىٰ﴾، ولفظ ﴿إِحۡدَى﴾ جناسٌ محرّف[2]؛ لاختلافِ نوعِ الحرفِ؛ والحَرْفانِ مُتقارِبانِ؛ لأنَّ الهاء والحاء مِن حروفِ الحلْق، وكأنَّ الجناس يشيرُ إلى معنى: أَهدى من أَهدى الأمم، فقاربَ بين اللّفظين؛ لأنّه أُريد بالإضافة أَهداها وأفضلَها من غير تعيين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332، والزمخشري، الكشاف: 12/ 669.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

معنى الفاء ودلالتُها:

سرعةُ نسيان المُعاندين لِعهودِهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على مجموعِ ما قبلها؛ وفيها دلالةٌ "على إسراعِهم في الكذبِ"(1)، كما أنّ فيها إشارةً إلى تعقيبِ حرصِهم على الاهتداءِ وأسبقيّتِهم كلَّ الأمم فيه تعقيبًا سريعًا، حتى إنَّه لم تمضِ مدّةٌ طويلةٌ ليَنسوا ما أقسَموا به منَ الأَيمانِ المغلَّظة على الاتّباع للنَّبيِّ الجديد والاهتداءِ به.

فائدةُ تَكْرارِ ذكرِ جملةِ الشّرط:

توبيخُ المُذنب بعد إقامةِ الحُجّة أعزُّ في الخطابِ

آثر النَّظمُ الكريم تكرارَ جملةِ الشَّرط بعينها ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ بالقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الحُجَّة قامَتْ عليهم على جهةِ التَّمام والكمالِ، ولزيادةِ ذمِّهم وتوبيخهم، فلم يكُن منهم أدنى احتفاءٍ بالرِّسالة والرَّسولِ لمّا جاءَهُم، وأدنى حرصٍ على الانتفاعِ به؛ على عكسِ ما ادَّعَوا على جهة المبالغة، كما أفادَ تَكرارُ الشّرط تذكيرَهم باللَّفظ نفسِه الَّذي صدرَ منهم في تلك الأيمان المغلَّظة والمؤكَّدة، حتى لا يتذرَّعوا بالنِّسيان والغفلة؛ إذ إعادةُ اللَّفظ بعينه أدعى إلى التّذكيرِ بما صدرَ عنهم.

نكتةُ تنكيرِ لفظة ﴿نَذِيرٞ﴾ الثّانية:

محمّدٌ أشرفُ خلقِ الله وأعظمُ مَن أنذَرَ البشرَ

نُكِّر لفظ ﴿نَذِيرٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾؛ للتّعظيم والتّفخيم؛ فهو أشرفُ الرُّسُلِ جميعًا عليهم الصّلاة والسّلام، "وهو محمّدٌ ﷺ الَّذي كانوا يشهدون أنَّه خيرُهم؛ معَ كونِه خيرَهُم نفسًا، وأشرفَهُم نسَبًا، وأكرمَهُم في كلِّ خُلُقٍ أُمًّا وأبًا، وأمتنَهُم في كلِّ مَأثُرَةٍ سَبَبًا"(2)، ونلحظُ أنَّ تنكير ﴿نَذِيرٞ﴾ الأولى في كلامِهم للتّقليلِ، فقد أقسموا على أنَّ أيَّ نذيرٍ يأتيهم سوفَ يتّبعونَه، ولو كان وصفُ النّذارةِ فيه قليلًا، بخلاف تنكيرِ ﴿نَذِيرٞ﴾ الثّاني فهو للتّفخيم، ويكونُ بين الوصفينِ طباقٌ من حيثُ التّنكيرُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

قلبُ الحاسِدِ يَزدادُ حِقدًا بكمالِ المَحسودينَ

وجهُ استعمالِ لفظِ (الزِّيادةِ):

(الزِّيادَةُ) أصلُها نماءٌ وتوفُّرٌ في ذواتٍ؛ والظّاهرُ أنَّ لفظَ الزِّيادة في قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ على حقيقته؛ إذِ المرادُ أنّهم لمّا أقْسَموا: ﴿لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ﴾ كانَ حالُهُم حالَ النُّفورِ مِن قَبْلِ دعوةِ النَّصارَى إيّاهُم إلى دينِهم، أوْ مِنَ الاتِّعاظِ بمواعظِ اليهود في تقبيحِ الشِّرك؛ فأقسَموا ذلك القَسَم؛ تَفَصّيًا مِنَ المُجادَلة؛ وباعِثُهُم عليه النُّفورُ مِن مفارقة الشِّرك، فلمّا جاءَهُم الرَّسولُ ما زادَهُم شيئًا؛ وإنَّما زادَهُم نفورًا، فالزِّيادةُ بمعنى التَّغْيير، فالمعنى: لم يَزِدْهم شيئًا؛ وحالُهُم هيَ هيَ، وقد يُراد بالزِّيادةِ القوّةُ في الصِّفات؛ على وجْهِ الاستعارةِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: 125]، وهذا الوجهُ مآلُهُ الوجهُ السّابقُ؛ لأنّه يعني أنَّ أصلَ النُّفورِ موجودٌ[1]، لكنَّ نفرتَهم السّابقةَ مِنَ نذيرٍ مخصوص، لكونِه ليس من بني جِلدتِهم، وهم يأنفونَ ذلك، بدليل أنَّهم أَقسموا وأكّدوا على الاتّباع للنّذير إنْ جاءَهم لهم خصّيصًا، وليس بأنْ يكون النّذيرُ لغيرهم وهم تابعونَ لغيرهم، فالنّفورُ الأوّلُ ليس من أصلِ النّذارة، بل منَ التّبعيَّة والخُضوع لغيرهم، فلمّا كرّمهم اللّه بنذيرٍ من أنفسِهم ما زادهم إلا نُفورًا، فالنُّفور الأوّلُ اتّباعُ نبيٍّ ليس منهم، والنُّفورُ الثّاني اتّباعُ نبيٍّ منهم، لكن ليسَ بمَكانتهم ومقامِهم كما توهَّموا، وكِلا النُّفورينِ استكبارٌ وغرورٌ وباطلٌ.

على قدرِ الرّغبةِ في مُفاخرةِ الآخَرِ كان حَسَدُ الذّاتِ بل أزيدُ

بلاغةُ إسنادِ فعل (الزيادة) إلى المُستتر:

فاعلُ الفعل في قوله: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ ضميرٌ مستترٌ؛ إمّا أنْ يعودَ على المصدرِ المفهوم من فعلِ المجيءِ ﴿جَآءَهُمۡ﴾ أوْ يعود إلى ﴿نَذِيرٞ﴾، أي: فما زادَهم مَجيئُهُ أوِ الرّسولُ النَّذيرُ، والمآلُ واحدٌ، "وإسنادُ الزّيادةِ إليه على كلا الاعتباريْنِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الرّسولَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 333 - 234.

أَوْ مَجيئَه ليس هو يَزيدُهُم، ولكنَّه سببُ تقويةِ نفورِهم أوِ استمرارِ نفورِهم"[1]، وهذا المجازُ يفيدُ التَّعجُّبَ مِن حالِهم؛ لأنّه يُبرِزُ كذبَهُم وتناقُضَهُم العجيبَ الغريبَ؛ لأنَّهم رتَّبوا عليه مِن قبلُ: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾، ثمَّ رتَّبوا عليه الآنَ النُّفورَ!!

علّةُ تأكيدِ الشّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّهُ:

المَواقفُ الفعليّة تكشفُ خفايا النُّفوسِ وتُظهِرُ خَبايا الحقائق

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ أنَّ القومَ كانوا نافرينَ مِن قبلِ أنْ يقولوا ما قالوا، ونفورُهم بسببِ رفْضِ قَبولِ الحقِّ، وأنَّهم قالوه تهرُّبًا مِنَ الجدالِ؛ بدافعِ بغضِ التَّحوُّلِ عنِ الشِّركِ؛ فلمّا جاءَهم الرّسول ما زادَهم شيئًا؛ وإنَّما زادهم نفورًا؛ فالاستثناءُ تأكيدٌ للشَّيءِ بما يُشْبِه ضِدَّه[2]، على معنى أنَّ ما يقتضيه أمرُ مجادلةِ أهلِ الكتابِ الإقبالُ على ما يجعلُهم أهدى منهم لا النّفورُ، ومبْنَى هذه الطَّريقةِ على غرابةِ صنيعِهِم وعُجْبِه، وأنَّ مِن شأنِه أنْ تَستبعدَه النَّفْسُ؛ فهو مُفاجِئٌ بالنَّظرِ إلى حالِهم في قولِه تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾؛ فكان اللّائقُ به هذا الأسلوبَ.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ النُّفورِ:

مجيءُ التَّذيرِ كشْفَ عَراقةَ المشركينَ في الضَّلالِ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ (النفور) مصدرًا في قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ لتصويرِ حقيقة بُعْدِ المشركين عنِ الحقِّ؛ بحيثُ يتلاءَمُ معَ حالِ المُشركينَ وواقعِهم؛ فعبَّرَ عنِ البُعْدِ عنِ الحقِّ والهداية والإصغاءِ لكلام النّبيّ بالنُّفورِ الذي هو حركةٌ عكسيّةٌ؛ مجازًا مُرسَلًا؛ لعَلاقةِ اللُّزوميَّة، أوِ استعارةً تصريحيَّةً، بتشبيهِ المعنويِّ بالحِسّيّ، فمِن بلاغةِ التّعبيرِ به إخراجُ المعقولِ في صورةِ المحسوسِ، ومنها: الدّلالةُ على غايةِ الرَّفْضِ للرَّسولِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

والرِّسالةِ وبُغْضِهما؛ في مقابلةِ غايةِ الإقبالِ عليهما والرَّغبةِ فيهما؛ بما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾؛ معنًى وصورَةَ معنًى؛ فالتَّعبيرُ به يوحي بأنَّ المشركينَ "كالإبلِ التي كانتْ نفرَتْ مِن ربِّها، فضلَّت عنِ الطّريق فدعاها، فازْدادَتْ؛ بسببِ دعائِه نُفْرَةً؛ فأَغْرَقَتْ في الضَّلالِ؛ فصارَتْ بحيثُ يَتعذَّرُ أَوْ يَتعسَّرُ ردُّها؛ فتبيَّنَ أنّه لا عهْدَ لهُم معَ ادِّعائِهِم أنّهم أَوْفَى النّاسِ، ولا صِدْقَ عندَهُم معَ جزْمِهِم بأنّهم أَصْدَقُ الخَلْقِ"[1].

علّةُ حذفِ المتعلّق:

تحقيقُ المعرفةِ بالسّياقِ معَ الإشعارِ بالعمومِ أبلغُ منَ الذّكر

حُذِف متعلِّقُ المصدر ﴿نُفُورًا﴾ من قوله: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾، فالنّفورُ يكونُ من مَنفورٍ منه، فيُقال: (نفرتُ من كذا)، والتّقديرُ: فلمّا جاءهمْ نذيرٌ ما زادَهم إلّا نفورًا منَ الهُدَى، أَوْ منَ النّذيرِ، ونحو ذلك، والمآل واحدٌ، وكأنَّ الحذفَ يتَّسِعُ ليدخُلَ فيه كلُّ تقديرٍ، وسوَّغَ الحذفَ وحسَّنَه دلالةُ السّياقِ على المحذوفِ.

بلاغةُ القصر ودلالتُهُ:

يُراعَى في الأُسلوبِ حالُ المعنى والتّلقّي جميعًا

أسلوبُ القصر في قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ في وصف المشركينَ، هو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ كلَّ ما كانَ مِنَ المشركينَ تفصيلٌ لهذا النُّفورِ وناشئٌ عنهُ، ولا يخرجُ عنه عندَ مَجيءِ النّذيرِ.

موقعُ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ ومعنى السّين والتّاء:

الاستكبارُ علّةُ النُّفورِ عنِ الحقِّ والالتصاقِ بالباطلِ

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن تمامِ الآيةِ السّابقةِ، والعَلاقةُ بينهما عُضْويَّةٌ؛ لأنَّ كلمةَ: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ بدلٌ مِن: ﴿نُفُورًا﴾، أَوْ مفعولٌ مِن أجلِه، لأنَّ النُّفورَ في معنى الفعلِ؛ فصَحَّ إعْمالُه في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

المفعولِ له، والتّقديرُ: نفروا؛ مِن أجلِ الاستكبارِ في الأرضِ[1]، والسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ[2]، فإذا كانَ الأصلُ أنْ يتطابَقَ العِلّةُ والمعلولُ فإنَّ هذه العِلَّةَ بهذه الصِّفةِ تكشِفُ عن عِظَمِ المعلولِ في بابِه؛ فظهَرَ بهذا التّلاؤُمُ بينَ النُّفورِ والاستكبارِ، وقد دلَّ التّعليلُ للنُّفورِ أنَّ مبعثَه والدّاعيَ إليه استكبارُهُم عنِ الحقِّ، ولم يكنِ النّفورُ لأمرٍ يرجعُ إلى ذاتِ الدّعوة، بل لمرضٍ نفسيٍّ حجَبَهم عن سَماعِ الحقيقةِ والهِدايةِ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

شأنُ الاستكبارِ مِـلْءُ الأرضِ ظُلْمًا ومَكرًا

جاءَ استعمالُ حرفِ الظّرفيةِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو قيدٌ للعلّة: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾، للدّلالةِ على مبالغتِهم في الاستكبارِ، واستمرارِهِم فيه، وإصرارِهِم عليه؛ حتّى نَسوا ما خُلِقوا من أجلِه بالكُلّيَّة؛ وهذا ما تأسَّسَ عليه زيادةُ نفورِهِم مِنَ النَّذير؛ لمّا جاءَهُم، كما أنَّه يدلُّ على عمومِ انتشارِ الاستكبارِ في الأرض، حيثُ تغلغلَ في كلِّ نواحيها، وإنْ كان الواقعُ ليس كذلك، لكنَّ عظيمَ شأنِ الاستكبارِ في نفوسِهم يصلُ إلى أعظمَ من ذلك.

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المستكبر يرى نفسه على أهل الأرض جميعًا

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ فهي موطنُ القومِ؛ والمعنى: أنهم استكبروا في قومهم أنْ يتَّبِعوا واحدًا منهم[3]، ولا يبعدُ أنْ يكونَ التّعريفُ للجنس فيفيدَ عمومَ الأرض من شدَّة الاستكبار والعُلوِّ على الحقّ، وهذا أنسبُ وأعمقُ بحالة النّفور المعلَّلةِ بطَلَبِ الكِبْرِ في الأرض، أي كلِّها، وتكوّنَ من اجتماعِ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ توصيفٌ للاستكبار وتحديدٌ لمحلِّه، والغرضُ منه بيانُ شموليَّة الاستكبار، حتى إنّه كاد يغطّي الأرضَ بأجمعها.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 443، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

دلالةُ حذفِ المتعلِّق:

حُذف متعلِّقُ الاستكبار في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: استكبارًا في الأرضِ على الحقِّ والهُدى الَّذي جاءَهُم به النّذيرُ، وهو مِن وجوهِ التَّناسُبِ والترابُطِ بينَ هذه الآية وما قبلَها؛ لحذفِ متعلِّق ﴿نُفُورًا﴾ فيها أيضًا، وحسَّنَ الحذفَ العِلْمُ بهِ مِنَ السّياق، ونكتتُهُ الإشعارُ بِعظَمِ الاستكبارِ وشدّةِ عُلوِّه حتَّى إنَّه أحاطَ بالحقِّ والهُدَى، وخفيَ الحقُّ والهُدَى فيه؛ فلم يجِدِ الهُدَى إلى نفوسِهم وقلوبِهم سبيلًا.

إنَّما يَستكبِرُ على الهُدَى عُمْيُ البصائرِ ومَحجوبو الضّمائر

نكتةُ ترتيبِ المتُعاطفات:

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ عاطفةٌ على قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: نفروا لأجلِ الاستكبار ولأجل مَكرِهم السَّيِّئ، وقُدِّمَ المعطوفُ عليه على المعطوفِ؛ لأنّه أظهرُ مِنَ المَكرِ الذي هو أخْفَى مِنَ الاستكبارِ؛ فالتّقديمُ جارٍ على جهةِ التّرَقّي، أي: استكبروا على الحقِّ، فلمّا زادَ استكبارُهم مكروا مكرَ السّوْءِ بأهل الحقّ، كما أنَّ الأصل في النّفور عنِ الحقّ أن يكونَ بسببِ التّكبُّرِ عليه، وقد يكونُ بسببِ إرادةِ المكْرِ به وبأصحابه، فبدأ بالأصل وأخَّر غيره، وأنَّ الاستكبار مشاهَدٌ بحركاتِ الجَسَدِ الدّالّةِ عليه حتى كأنَّه عينُ النّفورِ المُشاهَد، والمكرَ خفيٌّ لا يُحاط به لكونه أمرًا قلبيًا محضًا.

الاستكبارُ في الأرضِ علَّةُ المَكْرِ وسببُهُ

مناسبةُ استعمالِ لفظِ المَكْر:

ناسبَ لفظَ الاستكبار ذكرُ لفظ (المكر) في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾، وهو بيانٌ لعِلَّةٍ ثانيةٍ وراءَ زيادةِ نفورِ المشركينَ وهيَ المكرُ؛ الذي يحملُ معنى إخفاء الأذى[1]، ووجهُ المناسبة أنَّ الاستكبارَ خفيٌّ في النُّفوس، ومكرَ السيِّئ كذلك خفيٌّ في النُّفوس، ونتائجَهما ظاهرةٌ للعيانِ، فكلُّ ما يصدر عنهم ما بين الاستكبار والمكر، والاستكبارُ

الاستكبارُ والمكرُ مُتكاملانِ في الخفاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

صفةٌ أخلاقيَّة قلبيّة تدلُّ عليه حركاتٌ جِسمانيّة، والمكرُ صفةٌ ذهنيّةٌ تفكريّةٌ لا تدلُّ عليه حركاتٌ جسميّةٌ، فهي تحتاجُ إلى علم ومعرفةٍ وتدبير واحتيال؛ فتكاملَ اللَّفظان في بيانِ الأخلاقِ والعَقْلِ.

نوعُ الإضافة ودلالتُها:

التّصريحُ بالوصفِ الكاشِفِ إبلاغٌ في تقريره للموصوفِ

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفة؛ مِثْلُ: (عشاء الآخرة)، وأصلُه: أنْ يمكروا المكر السيِّئَ؛ بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾، وبدليلِ قراءة عبدِ اللّه بنِ مسعود غيرِ المتواترة: (ومكرا سيئا)؛ وإنَّما كان المكرُ سيِّئًا؛ لأنّه مِنَ الغدر؛ وهو مُنافٍ للخُلُق الكريم، فوصْفُه بالسَّيِّء وصفٌ كاشِفٌ، ولعلَّ التّنبيهَ إلى أنّه وصفٌ كاشِفٌ هو مقتضَى إضافةِ الموصوفِ إلى الوصفِ؛ لإظهار مُلازمة الوصفِ للموصوفِ؛ فلم يقل: ومكروا سَيِّئًا[1]؛ إبلاغًا في بيانِ حقيقةِ مكرِهم؛ كأنَّ مكرَهُم لا يبلغه مكرُ غيرِهم في درجةِ السّوءِ؛ وإنْ تساوى مكرُهُم مع مكرِ غيرِهم في أصلِ السّوءِ.

ودلَّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ على المبالغةِ في اتِّصافِ الموصوفِ بالصِّفة وثبوتِها له على جهة المُلازَمة؛ لأنَّ الإضافة فيها بمعنى اللّام؛ فهي تفيد اختصاصَ الموصوفِ بالصّفة، والصّفةُ والموصوفُ شيءٌ واحدٌ؛ فإضافةُ الموصوفِ إلى صفته يُعَدُّ - من حيثُ الظّاهرُ - مِن إضافة الشَّيءِ إلى نفسِه؛ وكأنَّ الصِّفةَ لكمالها جُعِلت بمنزلة شخصٍ آخَرَ يُضاف إليه الموصوفُ؛ وهذا قريبٌ من مُحسِّن التّجريد[2].

دلالةُ حذفِ المتعلِّق:

قد يجتمعُ عظيمُ المكرِ مع ضعفِ نتائجِه

حُذِف متعلِّق قوله: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾؛ للإشعارِ بِبُطْلانِ هذا المَكْرِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334، 24/ 216، وعادل الأكرت، دراسات في البلاغة القرآنية، الدراسة الأولى: مِن بلاغة الصفة في القرآن الكريم، ص: 59 - 60.

وضَعْفِ أثَرِه؛ فيكونُ في الحَذْفِ تَمْهيدٌ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾، وللإيماءِ في الوقتِ نفسِه إلى عِظَم هذا المَكْرِ؛ حتَّى إنَّه كأنَّه يُحيطُ بهِم؛ ولا تعانُدَ بينَ الدّلالتيْن، مع الإنكار عليهم أنْ يَمْكُروا بالنَّذيرِ وأتْباعِه؛ فمِثْلُهم لا يَنبغي أنْ يُمكَرَ بهم.

توجيهُ القراءاتِ المتُواترة:

القراءاتُ تُصَوِّرُ مكرَ المُشركينَ بصوتٍ بيانيٍّ مُعجِزٍ

قرأ الإمامُ حمزةُ قولَه تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئْۚ﴾ بسكونِ الهمزةِ وصْلًا؛ إجراءً له مَجْرَى الوقفِ؛ لتوالي الحركاتِ تخفيفًا، وقرأ الباقون بالهمزة المكسورة: ﴿ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾[1]، فقراءةُ "حمزةَ بإسكان الهمزة بنيَّةِ الوقْفِ إشارةٌ إلى تدقيقِهم المكرَ وإتْقانِه وإخْفائِه جُهْدَهُم"[2]، وقراءةُ الباقينَ بالهمزةِ المكسورةِ: تشيرُ إلى قوّة هذا المكرِ وتمامِه، وإلى ظهورِ بعضِ آثارِ المكر.

دلالةُ واوِ الحال:

أحوالُ الأفعالِ كالسُّننِ الباقية

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: واوُ الحالِ، أي: والحالُ أنّه لا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهله، ونظمُ هذه الجملةِ حالًا: إشارةٌ إلى أنَّ المكرَ السّيّئَ يحيقُ بأهله في المآلِ، وأنَّها عادَةٌ وسُنَّةٌ كونيَّةٌ، وتنبيهٌ على أنَّ معناها كالقيدِ لقوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾؛ فيفيدُ القيدُ أنَّ مآلَ هذا المكرِ السَّيِّئِ مهما عظُم وقويَ واشتدَّ فإلى البَوارِ، وإنَّما وقعَ الردّ بالحالِ على (مكر السّيِّءِ) دونَ (الاستكبار)؛ لأنَّ ضررَ المكرِ بالحقِّ أعظمُ من ضررِ التّكبُّرِ عليه؛ لأنّه إخفاءٌ لفعلٍ غادرٍ بخلافِ الاستكبار.

نوعُ (لا) ودلالتُها:

الحرف (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ للنّفي؛ وقد دخلَ على المضارعِ؛ فدلَّ على الاستقبالِ؛ وهذا يُضْفي على معنى الجملة القصريَّة العُمومَ.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 464.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَحِيقُ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مَكْرُ الخائنينَ يَحيقُ بهم من حيثُ لا يَشعرونَ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ (الحَوْق) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾، وهو ما استدار بالكَمَرة، والحَوْقُ: كَنْسُ البيتِ، وهذا اللَّفظُ لا يُستعمل إلّا في المكروه، والحَيْق ما حاقَ بالإنسان من مكْرٍ أَوْ سوءٍ يَعملُهُ فيَنزلُ ذَلك بِهِ[1]، للدّلالةِ على أنَّ مكرَهم يعودُ عليهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ المكرَ بالمؤمنين هو مكرٌ بالرِّسالة والمُرسِلِ سُبحانه، فمَن مكرَ باللّه مُكِرَ به من حيث لا يعلمُ؛ لأنَّ اللّه تعالى يُحيطُ بالعبادِ، ولا يُحيطون به، فعُلم أنّ منتهى المَكْرِ بهم، ولمّا كان مكرُ المشركينَ بالمؤمنينَ مُتجدِّدًا؛ فأوقاتُه غيرُ مُتَّصِلةٍ ومُتفاوتةٌ؛ نُظِرَ إلى ذلك في نَظْمِ الحَوْقِ فعلًا مضارِعًا.

دلالةُ حذفِ المضافِ:

تنبيهُ الماكرينَ إلى بالغِ مَكرِهم وسوءِ تدبيرِهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾ إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، والتّقديرُ: ولا يحيقُ ضرُّ المكرِ السّيِّئ، أَوْ سوءُ المكر السّيِّئ؛ على ما يدلُّ عليه الفعلُ: ﴿يَحِيقُ﴾[2]، والمكرُ السَّيِّئُ ليس إلّا سوءًا وضرًّا كلَّه؛ ففي الحذفِ إبلاغٌ في تقريرِ ذلك؛ تنفيرًا منه من جهةٍ، وإبلاغًا في تهديدِ الماكرينَ وترهيبِهم وإرعابِهم بأنَّ ضررَ المَكْرِ وسوءَه نازلٌ بهم لا محالةَ؛ فإنَّ المكرَ إذا نزَل بهم فقد نزَل بهم ضررُه.

بلاغةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمَكْرُ﴾:

الحملُ على الجنسِ يُطابِقُ قَصْدَ السّياقِ، ويمهِّدُ للَّحاقِ

تعريفُ كلمة ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ يَحتملُ أنْ يكونَ للجنسِ، فيشملُ المعنى كلَّ مَكْرٍ، ويَحتملُ أنْ يكونَ للعهدِ الذِّكريِّ؛ فقد ذُكِر مِن قبلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾؛ والمعنى: ولا يحيق هذا المكرُ إلّا بأهله؛ وهُمُ الّذين جاءهم النّذيرُ، فازْدادوا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حوق)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 443.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 335.

نفورًا[1]، والعمومُ مِن مَسالكِ المُبالغةِ، والإبلاغُ في التّرهيبِ والموعظةِ مِن البِرِّ بهؤلاءِ المشركينَ؛ لأنَّ نفورَهُم مِنَ النّذير؛ استكبارًا في الأرض، ومكرَ السّيِّئَ لمّا جاءَهُم شيءٌ عجيبٌ غريبٌ جدًّا؛ فالأَوْلى الحَمْلُ على الجنس؛ مع فائدةِ التّوطئةِ والتّمهيدِ لمجيء قولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾.

نكتةُ الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ:

الـنَّـفْـسُ تـجدُ بعضَ ما عمِلَت مِن شَرٍّ مُحْضَرًا في الدُّنْيا

إذا جعلْنا تعريفَ كلمة ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ محمولًا على العهدِ الذِّكْريِّ؛ كان الظّاهرُ أنْ يُقال: (ومكرَ السَّيِّئ ولا يحيقُ إلّا بأهله)، ولكِنْ أعيدَ ذكرُ المَكْرِ ووصفه بالاسْمِ الظّاهرِ؛ إشعارًا بتمام المُطابَقةِ بينَ العملِ وجزائه؛ إبلاغًا في ترهيبِهِم مِنَ الشّرك، وتنفيرِهم مِنهُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ضمير (الأهل):

لـلـمـاكـريـنَ بيوتٌ تجمعُهم ومـسـاكـنُ تُخفيهم

استعملتِ الآيةُ لفظَ (الأهل) مضافًا إلى ضميرِ المَكْرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ المكرَ إيذاءٌ شديدٌ؛ لإخفائِه، فلا يتمكَّنُ مِن تحقيقِه إلّا مَن كان عريقًا في الشَّرِّ والمكرِ، وكأنَّ المكرَ له بيتٌ يَسكنُه، فهو استعارةٌ، حيث شبَّه المكر السّيِّئ ببيتٍ يسكنُهُ أناسٌ، وحذفَ المشبَّه به على سبيل الاستعارة المكنية، وأشار إليه بأهل؛ ففي استعمالِه ذمٌّ للماكرينَ عمومًا، وللمشركينَ الذين يمكرونَ بأهل الإيمانِ في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ خصوصًا؛ لأنَّ نفوسَهُم عامرةٌ بدوافعِ المَكْرِ، وآلِفةٌ للمَكْرِ؛ ويتأسَّسُ على هذا دلالةٌ أخرى؛ وهي تمكينُ حصولِ المعنى وتحقيقُه؛ لأنَّ في التّعبيرِ بِهِ تعليلًا في المعنى لكونِ المكرِ يَحيق بهم، ويؤكِّد هاتيْنِ الدّلالتيْنِ ويُحقِّقُهُما إضافةُ الأهل إلى ضميرِ المكرِ؛ فكأنَّهم عُرِفوا به، ورسَخ فيهم، بقي أنّه لمّا شبَّه ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾ ببيتٍ له أهلُهُ الّذين ينزلونَ فيه، كان قد شبّهَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 336.

المكر بشيءٍ ينزلُ بأصحابه في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾، مع أنَّ المكر من حيث هو لا ينزلُ بالماكرين، لكنَّه شبَّهه بشيءٍ ينزلُ فيهم والماكرونَ هنا ينزلونَ فيه، فنجمَ من ذلك اتحادٌ تامٌّ بين المَكْر والماكرين، فهو محيطٌ بهم وهم نازلونَ فيه، فلا ناصرَ لهم من ذلك المَكْر.

بلاغةُ القَصْرِ ودلالتُهُ:

القَصْرُ حَسْمٌ وفَصْلٌ في قضيَّةٍ يُنْكِرُها المُشركونَ

قُصِر حَوْقُ المَكْرِ السَّيِّئ على أهلِه في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ، والقصرُ قائمٌ على إثباتٍ ونفيٍ؛ ففيه نوعُ توكيدٍ قويٍّ؛ ولهذا يَعُدُّه العلماءُ من أساليبِ التّوكيدِ؛ فهو قصرٌ إضافيٌّ؛ على أنَّ التّعريفَ بأل في ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ للعهدِ؛ فحَوْقُ المكرِ السّيِّئ ثابتٌ لهؤلاءِ المشركينَ، منفيٌّ عنِ النَّذيرِ وأهلِ الإيمانِ معَه؛ وهو قصرٌ قلبيٌّ؛ لأنَّ المشركينَ حين يَمكرونَ يَعتقِدونَ حُصولَ الأَذَى والضَّررِ لأهل الإيمانِ وحدَهُم، ولو كانوا يَعْتقِدونَ رُجوعَ الأَذَى والضَّررِ عليهِم لَمَا أقْدَموا علَى المَكْرِ؛ فهم بمثابةِ المُنكِرِ لحُلولِ الأذَى بهِم، فاقتضَى حالُهُم القَصْرَ بالنَّفي والاستثناءِ؛ الّذي يُقرِّرُ لهُم الحقيقةَ، ويُؤكِّدُها في أنفُسِهم، وإذا كان القصرُ إضافيًا قلبيًّا كان "مَوقِعُ قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ موقِعَ الوعيدِ، بأنَّ اللّه يدفعُ عن رسولِه ﷺ مكرَهم، ويَحيقُ ضرُّ مكرِهم بهم بأنْ يُسلِّطَ عليهم رسولَه على غفلةٍ منهم؛ كما كان يومَ بَدْرٍ ويومَ الفتحِ؛ فيكونُ على نحوِ قولِه تعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]"[1].

وإذا جعلنا التّعريفَ في لفظ ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ للجنس؛ فهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ فيعُمُّ المعنى كلَّ مكرٍ وكلَّ ماكرٍ؛ فيدخلُ فيه الماكرونَ بالمسلمينَ مِنَ المشركينَ، وهذا هو الأنسبُ بموقعِ الجملة ومَحمَلِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 336.

على التَّذْييلِ، وإنَّما كان ادِّعائيًّا؛ لابتنائِه على عدم الاعتدادِ بالضّرِّ القليلِ الذي يحيقُ بالممكورِ به بالنِّسْبة لِما أعدَّه اللّهُ للماكرِ في قَدَرِه مِن مُلاقاة جزائِه على مكرِه؛ فيكونُ ذلك مِنَ النّواميس التي قدَّرَها القدرُ لنظام هذا العالَمِ؛ لأنَّ أمْثالَ هذه المُعامَلاتِ الضّارَّة تؤولُ إلى ارتفاع ثقةِ النّاس بعضِهم ببعضٍ، واللّهُ بَنَى نظامَ هذا العالَمِ على تعاوُنِ النّاسِ بعضِهم مع بعضٍ؛ لأنَّ الإنسانَ مدنيٌّ بالطَّبْعِ[1].

نوعُ (الفاء) ومعناها:

العَلاقَةُ بينَ المُتعاطِفاتِ علاقةُ ترهيبٍ ووعيد

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ عاطفة للتّفريع؛ والمُفرَّعُ المعطوفُ عليهِ جملةُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ على جعْل التّعريف في ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾؛ للعهد الذِّهْنيِّ، وكونِ الأهلِ هؤلاءِ المشركينَ، أي: كما مكَر الّذين مِن قبلِهم، فحاقَ بهم مكرُهُم كذلك هؤلاء[2]، وحَمْلُ (الفاءِ) على الوجهِ الأوَّلِ أبلغُ في التّرهيبِ والتّهديدِ والتّشديدِ عليهم؛ لِعِظَم السّببِ المُفرَّعِ المعطوفِ عليهِ في جلْبِ العقابِ المُنبَّه عليه في جملة المعطوفِ.

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُهُ:

القرآنُ يُنبِّه المشركينَ رَدعًا لغوايتِهِم وإحسانًا لهدايتهم

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ أسلوبِ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ دون صريحِ النَّفْي، فلم يقُل: (ما ينظرونَ إلا سُنَّتَ الأوَّلين)، وإنما خرَجَ لهم النَّفيُ في صورةِ الاستفهام الإنكاري بمعنى النَّفْي؛ ليَرْجِعوا إلى أنفسِهِم، فيتأمَّلوا المعنى والحالَ، فإذا راجَعوا أنفسَهُم، وازدَجروا وارتَدعوا رجَعوا عمّا هم فيه، وصاروا يَنطِقون بـ: (ما ينظرونَ إلّا سُنّتَ الأوَّلين)؛ لأنَّ الاستفهامَ مَحْضُ معناهُ التَّنْبيهُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 335.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

تنوُّعُ أوجُهِ الاستعارة جمالٌ في المَبنى واتِّساعٌ في المعنى

براعةُ الاستعارة:

جاءَ استعمالُ مفردة (النَّظرِ) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾، وهو بمعنى الانتظار، أي: أنَّهم يَستقبلونَ ما حلَّ بالمُكذِّبينَ قبلَهُم؛ فشُبِّه لزومُ حُلولِ العذابِ بهم بالشَّيء المعلوم لهم، المُنْتظَرِ منهم؛ على وجه الاستعارة[1] التّصريحيَّةِ التّبعيّة، ويمكنُ أنْ يكونَ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ مِنَ النَّظَر بالعين؛ لأنَّ القرآنَ شبَّه العِلْمَ بالانتقام مِنَ الأوَّلين - معَ العِلْم بأنَّ عادتَه مُستمرَّةٌ؛ لأنّه لا مانعَ له منها؛ لعظيم تحقُّقه، وشِدَّةِ استيقانِه، وقوّةِ استحضارِه - بشيء محسوسٍ حاضرٍ لا يُنظر شيءٌ غيرُهُ في ماضٍ ولا آتٍ؛ لأنَّ غيرَه بالنِّسْبة إليه عدَمٌ[2]؛ على وجهِ الاستعارةِ التّمثيليّة؛ فالمُشبَّه به حالُ النّظر الحقيقيِّ إلى الطَّريقة، والمُشبَّهُ حالُ العِلْم بالانتقام مِنَ الأوَّلينَ، وحسَّنَ الاستعارةَ مقابلةُ العِلْم بالنَّظر، والنَّظرُ مِن أقوى وسائلِ العِلْم، ومقابلةُ الانتقام أوِ العذابِ لسُنَّت، وما عليه التّنزيلُ أبلغُ في التّرهيبِ والتّهديد، وأدلُّ على عظيم تسبُّبهم في نزولِ العذابِ بهم، وأبلغُ في الحثِّ على التّخلّي عن الشِّرك، والتَّحلّي بالتَّوحيد.

معرفةُ سنَّة الأولين حجّةٌ قائمةٌ وبرهانٌ على العَذاب

دلالةُ الفعلِ المُضارِع:

على القولِ بأنَّ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ﴾ مِنَ النَّظر بمعنى الانتظار: فإنَّ القرآنَ عبَّر بالفعلِ المُجرَّد؛ إشارةً إلى سرعةِ الانتقام مِنَ الماكِر المُتكبِّر[3]، إبلاغًا في بيانِ عِظَم ما يرتكبونه في حقِّ اللّٰه ورسوله ورسالته، ونُظِم معنى هذا الفعلِ مضارِعًا؛ نظرًا إلى ما يتجدَّدُ منهم مِن نفورٍ واستكبارٍ ومكرٍ؛ فكُلَّما تجدَّدَ منهم شيءٌ يدلُّ على ذلك كانوا في منزلة مَن ينتظرُ المذكورَ، وإشارةً إلى قوّةِ عِلْم المشركينَ بسُنَّةِ الأوَّلين؛ كأنّهم يُجدِّدون ذِكْرَه فيما بينَهُم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236.

علّةُ استعمالِ لفظ ﴿سُنَّتَ﴾:

مَن حذا حَذوَ المُعذَّبين فإنَّما اختارَ نهايتَهم

﴿سُنَّتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾: مفعولٌ بِه، وإنّما عُبِّر بـ(السُّنَّة)؛ إبلاغًا في ترهيبِ المُشْرِكين ووعيدِهم بحُلولِ العذابِ بهم؛ بما في هذهِ الكلمةِ مِنَ الإشارةِ إلى التَّجاذُبِ والتَّآلُفِ بينَهُم وبينَ العذابِ الذي عُذِّبَ به الأوَّلون، وإلى سُرْعةِ نُزولِ العذابِ بهم، وإلى كمالِ اقتدارِ اللّهِ علَى ذلكَ؛ لأنَّ "السّينَ والنّونَ أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ؛ وهوَ جرَيانُ الشّيءِ واطِّرادُه في سُهولةٍ"[1]، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى أنَّهم يَستحِقونَ مِثْلَ عذابِ الأوَّلينَ في الجِنْسِ والصِّفةِ؛ لجَريانِهم على حَذوِهم، واسْتنانِهم بهم.

دلالةُ حذفِ المُضاف:

اتِّحادُ المَصيرِ للمُخالِفينَ يُسقطُ التّشبيهَ والتّمثيل

حُذِفَ المضافُ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾، وهو حذفُ مضافٍ مِن قبلِ المُستثنى، أي: إلّا مِثْلَ سُنَّتِ الأوَّلينَ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [يونس: 102][2]، والجملةُ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه ﴿سُنَّتَ﴾ مقامَه أدلُّ على التّرهيبِ والتّهديدِ المناسبِ للسّياقِ؛ فكأنَّهم لا يلقونَ مِثْلَ سنّت الأوّلين، بل يلقَونَ سُنَّت الأوَّلين نفسَها؛ وهذا يعني كمالَ مُطابقةِ حالِهم لحالِ الأوّلينَ في الشِّرْكِ والعِناد.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾:

التَّلويحُ بالعذابِ تلوينٌ في التّرهيب والتّخويف

أشارَ النّظمُ الكريم باختيار مفردة (أَوّل) في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ إلى أنَّ العذابَ الواقعَ على المُشركينَ هو كالعقابِ الواقعِ على الأوّلين، فهم أتَوا ما أتى به الأوَّلون مِنَ التّكذيبِ والكُفرِ والجُحودِ والصَّدِّ عن دعوةِ المُرسَلين، فاستحقّوا بذلك العذابَ نفسَه، فكان ذكرُ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ مُشتمِلًا على هذه النُّكتة، بالإضافةِ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 61.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

الإيماء إلى أنَّهم الآخِرونَ، فهو تلويحٌ بالعذابِ والعقابِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أهميَّةِ أخذِ العِبرة مِن حالِ السّابقينَ؛ لأنَّ المدبّرَ الحكيمَ يوقِعُ عَذابَهُ على وفقِ سُنّتِهِ في خلقِهِ.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

إضافةُ ﴿سُنَّتَ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ للتّعريفِ بهذه السُّنَّة، وهي على تقدير حرفِ (في)، أي: سُنَّةَ اللّه في الأوَّلينَ بتعذيبِ مُكذّبيهم، وهي مِن إضافةِ المَصدرِ إلى مَفعولِهِ[1]، وفي الإضافةِ دلالةٌ على العَهد الَّذي يَعرِفُهُ المخاطبونَ بما جرى للأمَمِ السّابقة التي كذّبتْ رُسُلَ ربِّها.

بلاغةُ القَصْرِ ودلالتُه:

القَصْرُ حَسْمٌ وتحديدٌ وإرشادٌ وتهديد

جاءَ قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ على أسلوبِ القصر، وطريقُهُ النَّفيُ المُفادُ بـ(الاستفهام وإلّا)، وهو قَصْرُ الانتظارِ على سُنَّةِ الأوَّلينَ، وهذا قَصْرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ في حالِ المشركينَ، أوِ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ السّياقَ لا يعتدُّ بغيرِ المقصورِ عليه؛ نظَرًا لحالِهم أيضًا، والمشركونَ يُنكرونَ مضمونَ الجملةِ؛ فأُكِّدَ لهم المعنى بالقصر على طريقِ النّفي والاستثناءِ، أوْ هوَ قصرُ العِلْم على الانتقام مِنَ الأوَّلينَ أوْ عذابِهم، وهذا ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ غيرَ سُنَّةِ الأوَّلين لا يُنْظَرُ إليه؛ فلا يُعْتَدُّ به؛ لأنَّه كالعدم، وأُكِّد لهم الخبرُ بالنَّفي والاستثناء؛ لأنَّهم من أجلِ نفورِهم واستكبارِهم ومكرِهم السَّيِّئ في منزلةِ مَن يُنكِرُه جملةً وتفصيلًا، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ على الوجهيْنِ المُحتمَليْنِ للقَصْرِ.

نوعُ (الفاء) ومعناها:

الإعلامُ مُقدِّمةُ تحقيقِ السُّننِ، والوعيدُ توطئةُ إيقاعِ العَذابِ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّ ما قبلَها لَمّا ذكَّر النّاسَ بسُنَّة اللّه في المُكذّبينَ؛ أفْصَحَ عنِ اطِّراد سُنَنِ اللّه تعالى في خلقِه، والتّقديرُ: إذا علِمتَ ذلك فلن تجدَ لسُنَّةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 300.

اللّه تبديلًا، فمعنى هذه الجملة مُسبَّبٌ عن حَصرِ النَّظرِ أوِ الانتظارِ في الجملةِ السّابقة[1]؛ على جهةِ التَّرَقّي، وهذه (الفاءُ) لبيانِ أنّ ما بعدَها تعليلٌ لِما يُفيدُه الحُكْمُ بانتظارِهم العذابَ مِن مَجيئِه[2]، وإذا كان تعليلًا له فهو مُؤكِّدٌ مُحقّقٌ له لا محالةَ.

دلالةُ إيثارِ حرفِ (لَن) على غيرِه:

سُنَنُ الله ثابتةٌ لا تَتَحوّل، وقائمةٌ لا تَتَبدّل

آثرَ النَّظمُ استعمالَ حرفِ (لن)، وهو حرفُ نفيٍ ونصبٍ واستقبالٍ، يأتي لنفيِ المضارعِ نفيًا مؤكَّدًا مُشدَّدًا، وهو آكَدُ مِن (لا)[3]، وداعي هذا التّأكيدِ العَليِّ مَوْضِعَيْهِ في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾، هو "اعتقادُ الكَفَرة الجازمُ بأنَّهم لا يتغيَّرون عن حالِهم، وأنَّ المؤمنين لا يَظْهرون عليهم"[4]، فجيءَ بهذا الحرفِ لتأكيدِ نزولِ سنّةِ اللّه فيهم، وأنَّ المؤمنين تكونُ لهم الغلبةُ بما كتبَ اللّه تعالى لهم.

نكتةُ استعمالِ الفعلِ ﴿تَجِدَ﴾ المنفيِّ مادّةً وصيغةً:

نفيُ الوجودِ أعمُّ من غيرِه وأنفى لسائرِ المُمكِنات

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الوجودِ ﴿تَجِدَ﴾ مضارعًا مكرَّرًا في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ لأنّه أبلغُ في تقريرِ النَّفْيِ مِن نفيِ الرُّؤيَةِ أوِ التبدُّلِ أوِ التّحوُّلِ؛ بأنْ يُقال: (فلن ترى ولنْ تتبدّلَ وتتحوّلَ)؛ لأنَّ ما عليهِ التَّنزيلُ نفيٌ للوجودِ مِن أساسِه؛ فلا يُدْرَكُ الإثباتُ بحاسَّةٍ أوْ بعقلٍ أوْ بغيرِهما، فنفيُ الوجودِ أعمُّ مِن غيرِه.

ودليلُ النَّفْيِ المستمرّ؛ أنَّه كلّما تجدَّدَ مِن أحدٍ البحثُ عن وجودِ بديلٍ أوْ تحويلٍ لسنَّةِ اللّه تعالى؛ فلن يجدَ ما يبحثُ عنه، وصورةُ ذلك نَظْمُ معنى الوجودِ المنفيِّ فعلًا مضارعًا يدلُّ على الاستقبالِ طويلِ الأمَدِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 310 وما بعدها.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236.

خطابُ المعيَّن المُرادِ به غيرُ المعيّن يجري مَجرى المَثَل

سنّةُ الأولين هي سنّةُ الله فيهم

تعيينُ المخاطَب ودلالتُه:

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ في موضِعَيْهِ إمّا أنْ يكون لرسولِ اللّه ﷺ(1)، ويدخل فيه جميعُ النّاسِ لعموم مضمونِ ما فيه، وإمّا أن يكونَ لغيرِ مُعَيَّن؛ فيَعُمُّ كلَّ مخاطَبٍ كذلك؛ وبذلك يتسنَّى أنْ يسيرَ هذا الخبرُ مسيرَ الأمثالِ، وفي هذا تسليةٌ للنّبيِّ ﷺ، وتهديدٌ للمشركينَ(2)، وآثرَ النّظمُ الكريم الانتقالَ من أسلوبِ الغيبةِ إلى أسلوبِ الخطاب؛ لتقريرِ أمرٍ عامٍّ عمومَ الشُّمول والاستغراقِ، ولذا لم يقل (فلن يجدوا...).

دلالةُ الإضافةِ:

أُضيفَ لفظُ ﴿لِسُنَّتِ﴾ إلى اسم الجلالة المُهيمنِ على الأسماء والصّفات كلِّها؛ لبيانِ عظمةِ تلك السُّنَّة، وأنَّها التي شرعَها اللّهُ، وحكَم بها؛ وهذا تمكينٌ لمعنى جملتَي النَّفْي، ونلحظُ أنّه في الجملة السّابقة ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ أضافَ لفظ ﴿سُنَّتَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾، وعندما تغيّرَ الخطابُ منَ الغيبةِ إلى الخطاب أضافَها إلى ذاتِه الجليلة، والسرُّ في ذلك أنَّ الحديثَ مع المشركينَ الَّذين يُنكرونَ أنَّها سُنَّةُ اللّه في الأوَّلين، فعبَّر عنها بأنّها ﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾، ولمّا انتقل الخطابُ إلى النّبيّ ﷺ والمرادُ به أمّتُهُ أيضًا أضافَ السّنَّة إلى ذاته؛ لأنّهم يؤمنونَ بذلك، وبهذا عرَفنا أنَّ سُنَّةَ الأوّلينَ عبارةٌ عن سُنّته فيهم وأنَّ سُنَّة اللّه هنا هي سُنّتُهُ فيهم، بقي أنَّ سُنَّةَ اللّه عبارةٌ عن عادتِه الجاريةِ في تعذيبِ المكذّبين ونزولِ العذاب بهم، فيكونُ تسميةُ العذاب المتكرّرِ الحصولِ بالأقوام المكذِّبة مثلَ السُّنَّةِ التي تتكرّر والطريقةِ التي تستمرُّ، والعادةِ الجارية، فالتّعبيرُ استعارةٌ تصريحيّةٌ فيها شيءٌ منَ التّهكُّم والاستخفاف بهم.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 484.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

نكتةُ اختيار اسْمِ الجلالةِ:

سنَّةُ الله تعالى تُحيطُ بها هَيبةُ الثّباتِ وكبرياءُ التّحقُّقِ

اختير اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ في موضِعَيْه؛ تعليلًا في المعنَى لحُكْمِ الجملتيْن؛ فاسْمُ الجلالةِ نَصٌّ في الألوهيَّة؛ لأنّه الجامعُ لجميعِ معاني الأسماءِ والصِّفاتِ التي نعلمُها والتي لا نعلمُها؛ فكمالُ صفات اللّه تعالى مطلقةٌ لا تتناهَى؛ فمَن ذا الذي يَستطيعُ أنْ يُبدِّلَ سُنَّةَ الملِكِ الأعظمِ أوْ يُحوِّلَها؟ مع ما فيه من توريثِ الهَيبةِ في نفسِ المُخاطَب.

نكتةُ استعمالِ (التّبديل) وتنكيرِها:

مَن يُهِنِ الله فما له مِن مُكْرِمٍ؛ وإنْ كانوا أهلَ الأرضِ جميعًا

لفظُ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾ مفعولٌ لفعلِ ﴿تَجِدَ﴾ المنفيِّ في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾؛ واستُعمل هذا اللّفظ؛ لبيانِ نفيِ أنْ يقومَ مقامَ العذابِ الثَّوابُ، والمعنى: لا تقَع الكرامةُ في موقِعِ العقابِ، والتَّبديلُ مصدرُ الفعلِ الرُّباعيِّ (بدَّلَ) على وزنِ (فَعَّلَ)، وهو أقوى في معناه مِن مصدرِ الثّلاثيِّ؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنَى غالبًا؛ وقوَّةُ المعنى في التَّبْديلِ صورةٌ لتمكُّنِ تحقُّقِ سُنَّةِ اللّه، وليس المرادُ نفيَ ما زادَ على أصلِ الفعلِ، بلِ المرادُ نفيُ الأصلِ والزّيادةِ، ونُكِّر لفظُ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم، أي: فلن تجدَ لسُنَّت اللّه تبديلًا في كلِّ العُصورِ والأمصارِ والأجناسِ؛ ولو مرَّةً واحدةً؛ فهو سبحانَه القاهرُ القادرُ على إمضاءِ سُنّتِه.

علَّةُ الوَصْلِ بالواوِ:

عطَفتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ ما بعدَها على ما بعد الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾؛ للتّناسُبِ بينهُما إخبارًا، والجامعُ بين الجملتين عقليٌّ لاتّحادِهما، وغرضُ العطفِ التّرقّي مِنَ التّبديلِ لسُنَّة اللّه إلى التّحويلِ لها؛ إذ لا يلزمُ من عدمِ التّبديلِ عدمُ التَّحويل.

سنَّةُ اللهِ لا تتخلَّفُ ولا تَختلِفُ

نكتةُ استعمالِ (التّحويل) وتنكيرِها:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ لبيانِ نفي أنْ ينقُلَ اللهُ العذابَ مِنَ المشركينَ المُكذّبينَ إلى غيرِهم، والمعنى: أنَّه تعالى لا يتركُ عقابَ الجاني؛ لأنَّ التَّحويلَ نقلُ الشَّيءِ مِن مكانٍ إلى غيرِه؛ وكأنَّه مشتقٌّ مِنَ الحَوْلِ؛ وهوَ الجانبُ[1]، ولمّا كانت زيادةُ اللّفظ تدلُّ على زيادةِ المعنَى غالِبًا، وكانَ قولُه: ﴿تَحۡوِيلًا﴾ مصدرَ الفعلِ المُضَعَّفِ (حَوَّلَ)، الذي هو على وزْنِ (فَعَّلَ)، فكانَ أبلغَ مِن مصدرِ الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ (حولًا)؛ كانَ قولُه: ﴿تَحۡوِيلًا﴾ صورَةً لكمالِ تحقُّقِ سُنَّةِ الله ﷻ في واقعِ النّاسِ، ونُكِّرَ لفظُ ﴿تَحۡوِيلًا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقليلِ والعمومِ، أي: ولَنْ تجدَ لسُنَّة الله أدنَى صورةٍ مِن صورِ التَّحويلِ، ونفيُ الأدنى هنا يلزمُ منه نفيُ الأعلى؛ فلا رادَّ لقضائِه إذا وقعَ.

تعذيبُ المكذّبين وعيدٌ لا يتخلّفُ

نكتةُ تقديمِ (الجارّ والمجرور) على المفعول:

قدَّمَ النّظمُ الكريم ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾ في الموضعِ الأوّل، وعلى ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في الموضعِ الثّاني من قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ للاهتمام والعِنايَة بكونِ التّبديلِ والتّحويلِ المنفيَّين هو لسنّة الله تعالى، كما أفاد التّقديمُ تخصيصَ عدمِ التّبديل والتّحويل لسنّة الله وطريقته في التّعامُلِ معَ المكذِّبينَ والعُصاة، لأنَّ ذلك راجعٌ إلى كلامِهِ الأزليِّ الذي لا يتخلّفُ وقضائِهِ بتعذيبِ الكاذبينَ واستئصالِهم.

مِن شأنِ الحقِّ أنْ يُقنعَ العقلَ ولو كانَ باطلًا

بلاغةُ الكناية:

لمّا كانَ كلٌّ مِنَ التّبديلِ والتَّحْويلِ هو المقصودَ بالنَّفْيِ كانَ نفيُ وُجْدانِ التَّبديلِ والتَّحْويلِ عبارةً عن نفيِ وجودِ التَّبديلِ والتَّحويل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.

بالطَّريقِ البُرْهانيِّ[1]، أي: لمّا نفى الفعلَ نفى مفعولَه، وسلك النّظمُ هذا المسلَكَ؛ لإقامةِ دليلٍ على نفيِ وجودِها؛ ليُحقِّقَ للمُتلقّينَ الإقناعَ؛ ففيه دعوتُهُم إلى النَّظَرِ في الكَوْنِ فيما مَضَى وفيما هو كائنٌ، وفيما سيكونُ وسوفَ يكونُ؛ ليروا حقيقةَ ما يُقرِّرُه القرآنُ العظيمُ في هاتيْنِ الجملتيْنِ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ هل هي حقيقةٌ ثابتةٌ؟ أوَ هل يعترِضُها شكٌّ؟.

نكتةُ تَقْديمِ التّبديلِ على التَّحويل:

تقْديمُ مفردةِ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾ على ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ جارٍ على جهةِ الكَشْفِ عنِ الغضَبِ عليهم؛ فعدمُ التَّبْديلِ أشدُّ مِن عدمِ التَّحْويلِ؛ فالتّبديلُ جعْلُ الثّوابِ موضِعَ العقابِ، والتَّحْويلُ تركُ العقابِ، كما أنَّ التّبديلَ جعلُ الثّواب بديلًا عنِ العقاب، وهذا لا يستلزمُ عدمَ تحوُّلِ العذاب عنهم إلى غيرهم، فاحترسَ النّظمُ بهذا العطف عن عدمِ تحوُّلِ العذاب عنهم فضلًا عن تبدُّلِه إلى ثواب.

بلاغةُ التّكرار ونكتَتُهُ:

في استقلالِ كلِّ نفيٍ إحسانٌ للمخاطَبين وإنذارٌ للمعاندين

آثر النَّظمُ الكريمُ تَكرارَ جملة: (لن تجد لسنت اللّه) مرّتين؛ فقال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ دونَ أنْ يقول: (فلن تجد لسنت اللّه تبديلًا ولا تحويلًا)؛ فخصَّ كلًّا مِنَ التَّبْديلِ والتَّحْويلِ بنفيٍ مستقلٍّ؛ احتفالًا بكلٍّ منهما؛ إبلاغًا في تقريرِه؛ لأنَّ في الاستقلالِ تأكيدًا لانتفائِهما؛ وكأنَّ كلًّا مِنَ التَّكرارِ والاستقلالِ يُنادي عليهم نداءً أخيرًا؛ أنِ ارْجِعوا عمّا أنتم فيه مِنَ الكُفر والشِّرك والعِناد والإصرار.

كما أنَّه حسَّنَ التَّكرارَ قولُه تعالى: ﴿تَحۡوِيلًا﴾؛ لأنّه غيرُ:

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481.

﴿تَبۡدِيلًا﴾، وغرضُ التَّكْرارِ في الآيةِ تمكينُ المعنَى وتوكيدُ تحقيقِه، وأنَّ السُّنَّةَ آتيةٌ لا محالةَ لهم في أنفُسِ المُتلقّينَ عامَّةً، والمشركينَ خاصَّةً؛ لشديدِ افتقارِهم إليه، وإلى مقتضاهُ؛ مِنَ الإسراعِ إلى التَّخلّي عنِ الشِّرك، وإلى التَّحلّي بالتَّوحيدِ والإيمانِ؛ إبلاغًا في تَرْهيبِهم، ثمَّ في ترغيبِهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستكبارُ والاستنكافُ:

الاستكبارُ إعراضٌ مع غرورٍ، والاستنكافُ إعراضٌ عنِ المقصودِ

يُفرَّقُ بين (الاستكبار والاستنكاف) بأنَّ في الاستنكاف معنَى الأنَفَة مع تركِ القولِ الحقِّ فيكون قوليًّا، وقد يكونُ الاستكبارُ طلَبًا للكِبْر من غيرِ أنَفَة مع تركِ التّصديقِ بالحقّ فيكون قلبيًّا؛ والدّليلُ على التَّغايُرِ بينهما قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾ [النساء: 172]، أي: يستنكف عنِ الإقرار بالعبوديَّة، ويستكبر عنِ الإذعان بالطّاعة، والاستكبارُ مأخوذٌ مِنَ الكِبْر الذي هو العَظَمةُ، وأصلُ مادَّته يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر، والاستنكافُ مأخوذٌ مِنَ النَّكَفِ؛ جمع نَكَفَة؛ وهي غُدَّةٌ في أصل اللَّحْي، يُقال: إبلٌ مُنكِّفة: ظهرتْ نكفاتُها، ثمَّ قيسَ على هذا فقيل: نَكِفَ مِنَ الأمر، ومعنى القياس في هذا: أنّه لمّا أنِفَ أعْرَضَ عنه، وأراه أصل لَحيِه[1].

المكرُ والكَيد:

المكرُ تدبيرٌ عقليٌّ والكيدُ تدبيرٌ فعليٌّ

(المَكْرُ) تدورُ مادَّتُه على الاحتيالِ والخِداعِ ففيه خفاءٌ، و(الكيدُ) تدورُ مادَّتُه على معالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ فيكونُ بالأفعال أليقَ، ثم يتَّسِعُ البابُ؛ قال أهلُ اللُّغة: المكرُ مِثْلُ الكيدِ في أنّه لا يكونُ إلّا معَ تدبُّرٍ وفِكْرٍ؛ إلّا أنَّ الكيد أقوى مِنَ المكر، والشّاهدُ أنَّه يتعدَّى بنفسه، والمكرُ يتعدَّى بحرفٍ؛ فيُقال: كادَه يَكيدُه، ومكَر به، ولا يُقال: مكره،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر)، و(نكف)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 50.

والذي يتعدَّى بنفسه أقوى، ويجوزُ أنْ يُقالَ الكيدُ: ما يقرّبُ وقوعَ المقصود به مِنَ المكروه، والمكرُ: ما يجتمع به المكروهُ؛ مِن قولِك: جاريةٌ ممكورة الخَلْق، أي: مجتمعة اللَّحْم غيرُ رَهْلةٍ، والمكرُ قد يكون ابتداءً مِن غيرِ عقْدٍ وعهْدٍ[1].

الحَوْق والحَوْط:

بـيـنَ الـحَـوْطِ والـحَـوْقِ عمومٌ وخـصـوصٌ مِـن وجهٍ

(الحَوْطُ) يدورُ على كونِ الشّيء يُطيف بالشّيء، و(الحوقُ) يَقْرُبُ منه؛ فذلك مناطُ التقاءٍ واتِّفاقٍ بينهما، والفرقُ بينهما أنَّ في الحَوْطِ معنَى الحِفْظِ والتَّعَهُّدِ بخلافِ الحوْق؛ لذا يُقال: حاطَه اللهُ حَوْطًا وحياطةً: صانَهُ وكَلَأَه ورَعاهُ، ولا يقال حاقَه اللّه، واستعمالاتُ الحَوْقِ في اللُّغةِ تُفْهِمُ أنَّ في الحَوْقِ اقترابًا قويًّا بينَ الطَّرَفَيْنِ لنزول المكروه بخلافِ الحَوْط.

الأوّل والسّابق:

الأوّلُ أعمُّ مطلقًا منَ السّابق

(السّابقُ) في أصلِ اللُّغة يَقْتَضي مَسْبوقًا، والأَوَّلُ: لا يقتضي ثانيًا؛ ألا ترى أنَّك تقولُ: هذا أَوَّلُ مولودٍ وُلد لفلانٍ؛ وإنْ لم يولَد له غيرُه، وتقولُ: أوَّلُ عبْدٍ يملكُه حُرٌّ؛ وإنْ لم يَملك غيرَه، ولا يَخرج العبدُ والابنُ مِن معنى الابتداء[2]، وقد يُطلق الأوّل ويقتضي وجودَ ثانٍ، أوْ آخر، فيكون الأوّل مقابلًا للآخِر، كما قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة: 39 - 40]، وأمّا السّابقُ فيُقابلُه المَسبوقُ، كما أنَّ الاتّصافَ بالأوليَّة قد يكون بفعلٍ أوْ لا، بخلافِ الاتّصاف بالسّابقيّة، فهو مقترنٌ بالفعل.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر) و(كيد)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 508 - 509.

(2) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 270.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن لم يتّعظ بالإرشادِ اتّعظ بمُشاهدةِ نوازلِ العباد

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة جَرَيانَ سُنَّته في تَعْذيبِ المُكَذّبينَ، وأنَّ مِن شأنِها أنْ لا يكونَ لها تبديلٌ ولا تحويلٌ؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيانِ وقوعِ سنَّة الأوّلين في العبادِ، فأرشدَهم إلى استحضارِ ما عرفوه من أسفارِهم وترحالِهم، فهو انتقالٌ من باب التَّهديدِ في إيقاعِ العذابِ اعتبارًا ممّن مضى، إلى باب الاعتبارِ برؤيةِ العذابِ الواقعِ على مَن مضى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسِيرُوا۟﴾: أصل (سير) يدلُّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ؛ يُقال: سارَ يسيرُ سيْرًا؛ وذلك يكونُ ليلًا ونهارًا، يُقال: سرتُ، وذلك نحوُ قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾، وسرتُ بفلانٍ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: 29]، وسيَّرْتُه على التَّكثير؛ وذلك نحوُ قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، فمعنى السَّيرِ في الآيةِ مَحْضُ المُضيِّ في الأرضِ؛ بقرينة قوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

2) ﴿عَـٰقِبَةُ﴾: أصلُ (عقب) يدلُّ على تأْخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكلُّ شيءٍ يَعْقُبُ شيئًا فهو عَقيبُه[2]، والعاقبةُ: آخِرُ الأمرِ، وأَثَرُ عَمَلِ العامِلِ[3]، قال الرّاغبُ: العاقبةُ والعُقْبى يختصّانِ بالثَّوابِ، نحو: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد يُستعمل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سير)، والراغب، المفردات: (سار).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - أ/ 92.

في العُقوبةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][1]، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها تتلو الذَّنْبَ، والجَمْعُ: عُقوباتٌ[2]، والمقصود بالعاقبةِ هنا: آخِرُ الأمرِ ونهايتُه، أي: آخِرُ أمْرِهم كانَ عقوبةً.

3) ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾: أصلُ (عجز) يدُلُّ على الضَّعْفِ، ومنه العَجْزُ نقيضُ الحَزْمِ[3]، ويُقال: أعجزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتَ عن طلَبه وإدراكه[4]، ولن يُعجِزَ اللّهَ تعالى شيءٌ، أي: لا يَعْجِز اللّهُ سبحانه عنه؛ متى شاءَ[5]، فالعَجْزُ: الضَّعفُ أوْ عدَمُ القُدرة، ومعنى: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ هنا: يجعلُه عاجزًا عن تحقيقِ مُرادِه فيه؛ فيُفلِتُ أحدٌ عن مُرادِ اللّهِ منه[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في التّاريخِ عِبَرٌ وفي الأمكنةِ عظاتٌ لِمَنْ تأمّلَ في الخَلَوات

تحضُّ الآيةُ الكريمة العبادَ على السَّيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بأحوالِ المُهلَكينَ السّابقينَ؛ فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ كُفّارِ الأُمَمِ الَّذين مِن قَبلِهم، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِنَ العذابِ؛ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فيَخافوا ويَحذَروا من أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم؟ وكان كُفّارُ الأُمَمِ السّابِقةِ أشَدَّ مِن كُفّارِ قُرَيشٍ قوَّةً، فعذَّبَهم اللّهُ بسَبَبِ ذُنوبِهم؛ فلن يَتعذَّرَ على اللّهِ إهلاكُ كُفّارِ قُرَيشٍ كما عذَّب أولئك، وإذا أراد اللّهُ إهلاكَهم أوْ فِعلَ أيِّ شَيءٍ في السَّماواتِ أوْ في الأرضِ فلن يُعجِزَه ذلك؛ لكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَتعذَّرُ عليه أمرٌ[7]، فينبغي على العاقل أنْ ينظُرَ إلى عاقبةِ السّابقينَ نَظَرَ

---

(1) الراغب، المفردات: (عقب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(4) الخليل، العين: (عجز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 396، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 560، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 692.

اعتبارٍ بمآلِهم حينَ كَذَّبوا رُسُلَهم، وليس اعتبارًا بقوَّتِهم وصِناعتِهم وطِرازِهم، وما أشْبَهَ ذلك[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُهُ:

الاستفهامُ يحتملُ التّقريرَ والإنكارَ

الاستفهامُ في صدرِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّقرير؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ثبوتَ السَّيْرِ، ويُلزِمُهم بالاتّعاظِ بما شاهَدوا مِن آثارِ هلاكِ الماضينَ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تحذير وتهديد، وهذا يناسبُه السَّيْرُ والوقوفُ على ثماره[2]، أوْ للإنكارِ والنَّفْي عندَ مَن يجعَلُ (الواوَ) عطفًا على مقدَّرٍ بعد الهمزة؛ فالمُنكَرُ بالاستفهامِ هو المعطوفُ عليه.

تعيينُ موقعِ المعطوفِ عليه:

تحتملُ الواوُ العطفَ على مذكورٍ أوْ محذوفٍ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للعطف، وقد عطفتْ ما بعدَها على جملةِ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾؛ للاستدلالِ على أنَّ مُساواتَهم للأوَّلينَ تُنْذِرُ بأنْ سيحِلَّ بهم ما حَلَّ بأولئك مِن نوعِ ما يُشاهدونه مِن آثارِ استئصالِهم في ديارهم، والهمزةُ مُقدَّمةٌ مِن تأخيرٍ، وفي عطفِ الاستفهام على الاستفهام ترقٍّ في الجدال؛ إذِ الاستفهامُ الأوّلُ نفيٌ في صورة الاستفهام للتّفكيرِ في حالهم، وماذا ينتظرونَ بعدَ التكذيب؟ والاستفهامُ الثّاني إلزامُ الحُجَّة بما رأَوْهُ من آثارِ السّابقين، فلا حاجةَ إلى التّفكير؛ لأنّهم قد عاينوا ذلك، ويجوزُ أنْ تكون (الواو) للعطف على مُقدَّرٍ بعد الهمزة يليقُ بالمقام؛ فالهمزةُ في مكانها والاستفهام إنكاريٌّ، أي: أَقَعدوا في مساكنهم؛ ولم يَسيروا في الأرض؛ فينظروا كيف كانَ عاقبةُ الَّذين مِن قبلِهم؟![3].

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن - سورة فاطر، ص: 317.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 314 - 315.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 207.

نكتةُ استعمال مفردة (السَّيْرِ) مادَّةً وصيغةً:

السّيرُ في الأرضِ تأمُّلٌ وتدبُّر لا مجرَّدُ مشيٍ وانتقال

جاءَ استعمالُ مفردة (السَّير) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنّه أبلغُ مِن مرادفاته نحو: المَشْي والسَّعْي والجَرْي في الدّلالةِ على التَّعرُّفِ على آثار الهالكين؛ لأنَّ السَّيْرَ فيه معنى التَّوغُّلِ في الشّيء والامتدادِ فيه؛ فينتُج عنه التَّعرُّفُ عليه أوْ على شيءٍ يُلابسُهُ ويُصاحبه بقوَّة؛ ووراء هذا مِنَ المعنى أنَّ سيرَهُم في الأرض كان جديرًا به أنْ يُعرِّفَهم بمولاهم؛ عن طريقِ الاعتبارِ بآثارِ الهالكينَ السّابقينَ؛ لأنّهم قطعوا به مسافاتٍ طويلةً وكثيرةً، ونظمُ السَّيرِ فعلًا مضارعًا ينبِّه على كثرة هذا السَّير منهم وتكرارِه؛ فقد أقاموا الحُجَّة على أنفسِهم.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

المُكْنةُ في السَّير نعمةُ اللهِ في سُبُلِ العبادِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشعارِ بنعمة اللّه عليهم؛ حيثُ مكَّنَهُم مِنَ السَّيْرِ في الأرضِ سيرًا طويلًا كثيرًا، وجعلَهُم يتعرَّضون لآثار الأُمَم السّابقةِ، ويتعرَّفون على كثيرٍ من دفين أسرارِهم، وللإيماءِ إلى أنَّ الأرض واسعةٌ فسيحة، فمنْ ولجَ في ثناياها، ودخل في طُرُقها وسُبُلها رأى العجَبَ العُجاب، وللتّنبيهِ على أنَّ المطلوبَ هو التّعمُّقُ في النّظر، لا مجرّدُ النّظَر العابر، ومنَ المعلوم أنَّ السّيرَ يكونُ على الأرض وليس فيها، فيكونُ ذلك استعارةً تصريحيّةً تبعيَّةً؛ بتشبيهِ مَن يسيرُ على الشّيءِ بمَن يسيرُ في داخله؛ للدّلالة على المتابعةِ الشَّديدة لِما حوله حتى كأنَّه يتابعُ ما يكونُ في جوفِ الأرض، ولا يكتفي بما عليها.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

شأنُ النّاظرين المعرفةُ وشأنُ المارّينَ المَهْلَكَةُ

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهد الذِّهنيّ؛ ويجوز أنْ يكونَ للعهد الذِّكري؛ إذ قد ذُكرت في قوله تعالى في الآيةِ السّابقة: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإيماءِ إلى

أنَّهم جمعوا بين السَّيرِ في الأرضِ والاستكبارِ فيها؛ وشأنُ مَن يسيرُ في الأرضِ، ويعرف أحوالَ أهلها الأوَّلين والسّابقين أنْ يبلغَ الهُدى، ويعرفَ الحقَّ فيلزمهُ، وأفاد تشخيصُ الأرض مع أنَّ السّير يكونُ عليها تأكيدَ المقصودِ من سَيرهم وهو الاعتبارُ والنَّظر، وليس مجرَّدَ السَّير من دون تفحُّصٍ للمكان الذي يَسيرونَ عليه، فكانَ التَّقييدُ بذكرِ الأرضِ مناديًا على نكتةِ ذكره؛ ونكتتُه تبكيتُهم على عدم اعتبارِهم ممّا شاهدوا ورأَوْا؛ باستحضارِ ما ساروا فيه، وما شاهدوهُ من آثارِ السّابقينَ، واستحضارِ سَعَة الأرضِ في أذهانِهم، وأنهم ظلّوا مخفوضينَ بعدم إعمالِهم عقولَهم فيما رأوا، فلم يَرتقوا بسَيرهم في الأرضِ، وإنَّما ظلّوا مُلْتَصِقينَ بها؛ ملتصقينَ بأسباب الجهلِ والضَّلال!!

نوعُ الفاء ومعناها:

غـايـةُ الـسّـيرِ النّظرُ والاعتبارُ

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ للعطف والسببيَّة؛ أي: فيتسبَّبُ لهم عنِ السَّيرِ في الأرضِ النَّظرُ المذكورُ؛ وهذا إرشادٌ إلى ضرورةِ النَّظَرِ في الأرضِ؛ لتحقيقِ الاعتبار، كما أفادتِ (الفاء) أنَّ مجرّدَ السّير في الأرض يؤدّي إلى تحقيق العظةِ والاعتبار؛ إذِ الفاءُ تفيد التّعقيبَ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في لفظِ النَّظَرِ:

التَّـنـبـيـهُ على الـغـايـاتِ بذكرِ الأسبابِ أبلغُ في الامـتـنـان وزجـرِ الغافلين

(النَّظرُ) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ في الاعتبار، علاقتُه السَّبَبِيّةُ، وهي أبلغُ مِنَ القول بالآليَّة، فالنَّظر سببُ الاعتبار، وترتُّبُ النَّظر الحقيقيِّ على السَّير المذكور ظاهرٌ، وهذا قرينةٌ أيضًا، وبلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّظرِ بيانُ كمال إقامة الحُجَّةِ عليهم وتمامِها بذكر السّبب وإرادة المسبَّب؛ ووراءَ ذلكَ النَّعْيُ والإنكارُ عليهم حالَهم العجيب، وحثُّهم على الاعْتِبارِ، وفي التّعبيرِ عنِ الاعتبارِ بـ(النّظر) إشارةٌ خفيّةٌ إلى نعمةِ الآلات التي

تمكِّنُهم مِنَ النَّظر والاعتبار، فلولا المُنعِمُ بالبصر والخالقُ للقوى والقُدَر ما نظروا، وبهذا تتحوّلُ نعمةُ النّظر إلى اعتبارٍ آخرَ يعِظُهم ويُنذِرُهم، كما يحتملُ النّظمُ إرادةَ الحقيقةِ مِنَ النّظر؛ فيكونُ كنايةً عنِ الاعتبارِ مع جوازِ إرادة المعنى الحقيقيِّ.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

مَـن سـارَ ولـم يعتبر فقد عَميَ ولم ينظُر

لمّا كانَ السَّيْرُ مُتجدِّدًا لهم في العامِ الواحدِ؛ كانَ النَّظرُ مُتجدِّدًا منهم أيضًا؛ فناسبَ التّعبيرُ عنه بصيغة المضارِع في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، والتَّجدُّدُ فيه ناظِرٌ إلى حصولِه في أوقاتٍ مختلفةٍ في الرِّحْلةِ الواحدة، وإلى تعدُّدِ المنظورِ فيه أوْ إليه مِن آثارِ السّابقينَ، ولمّا كانَ النَّظَرُ تعبيرًا عنِ الاعتبارِ كانَ ما قيلَ في التَّجدُّدِ صادِقًا عليهِ؛ أي: فيتسبَّبُ لهم عن ذلك السَّيْرِ أنَّه يتجدَّدُ لهم نظرٌ واعتبارٌ يومًا مِنَ الأيّام؛ فإنَّ العاقلَ مَن إذا رأى شيئًا تفكَّرَ فيه؛ حتَّى يعرفَ ما ينطقُ به لسانُ حالِه؛ إنْ خفيَ عنه ما جَرَى مِن مقالِه[1].

بلاغةُ الاستفهام وغرضُهُ:

القـرآنُ يُـحـرِّكُ الـغـافـلـينَ للتَّفْكيرِ في عاقبةِ الغابِرين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ أسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دون أنْ يقول: (فينظروا عاقبة الذين مِن قبلهم)، فأشار بأسلوبِ الاستفهامِ إلى أنَّه لِعظَمِه خرَجَ عن أمثالِه؛ فاسْتَحَقَّ السُّؤالَ عن حالِه[2]، فهو استفهامٌ صوريٌّ المُرادُ منه التَّعْجيبُ مِن كيفيَّةِ عقاب اللّه للمجرمين[3]، وللتَّنبيه على أنَّ تلكَ العاقِبةَ مناطُ الاعتبارِ والاتِّعاظِ، ومحلُّ التَّهديدِ والوعيدِ؛ فينبغي على أهل الشِّرْكِ التَّنبُّهُ لها، والتَّفْكيرُ فيها، وأتى الاستفهام بـ﴿كَيۡفَ﴾ التي يُسألُ بها عنِ الحال؛ لبيانِ أنَّ النّظرَ لا يهتمُّ بالعاقبة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 315.

لذاتها، بل لكيفيّةِ تلك العاقبةِ المأساويّةِ الّتي حلّتْ بالمعذَّبين، حتى إنَّ تلك الكيفيّةَ صار يُسألُ عنها استغرابًا لشدَّتِها وقسوتِها.

دلالةُ استعمالِ فعل (الكونِ) مادَّةً وصيغةً:

إذا حلَّ العقابُ بالمكذِّبينَ فلن يُرفَعَ عنهُم بدُعاءِ المُغرغِرين

كانَ مِن عناصرِ الإبانةِ عمّا حَلَّ بالمُكذِّبينَ السّابقينَ ذكرُ فعلِ الكونِ ماضيًا في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، والتَّعبيرُ بفعلِ الكونِ يشيرُ إلى أنَّ العاقبةَ عندما حلَّتْ بهم لم تنفكَّ عنهم كما لم تنفكَّ الصِّفَةُ اللّازمةُ عنِ الموصوفِ؛ وأنّى لهم الخلاصُ منها؛ وهم أهلُ الضَّعْفِ والهوانِ؟! ويلمحُ إلى التَّشاكُلِ والتَّوافُقِ بينَ العاقبةِ والمُعذَّبينَ؛ فهذه العاقبةُ مِن شأنِها أنْ تكونَ لهم، ومِن ديدنِ أعمالهم، وإنّما نُظِم الكون فعلًا ماضيًا؛ لأنّه قد حصَل في الماضي وانتهَى، ففيه تنبيهٌ على أنَّه إنْ وقعَ أصبحَ المخاطَبون المعانِدونَ من الماضي كذلك.

نكتة تذْكيرِ فعل ﴿كَانَ﴾:

التَّنبيهُ على العذابِ وعظيمِ ألمِهِ باعتبارِ مآله وشديدِ وقعِهِ

﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسْمُ ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ وهو مؤنَّثٌ لفظيٌّ؛ فيجوزُ تذكيرُ الفعل وتأنيثُه؛ والنَّظم ذكَّرَ فعلَه؛ إشارةً إلى العذابِ الواقع عليهم، فذكر العاقبةَ وأرادَ بها العذابَ لِعظَمِها وفخامتِها وهَوْلِها؛ باعتبارِها محلَّ الاعتبارِ والاتِّعاظ، ولأنَّها عاقبةُ قوم كانوا أشدَّ قوّةً مِنَ العربِ؛ فكان كفرُهُم أشدَّ مِن كفرِهم؛ فكانت عاقبةُ أمرِهِم شيئًا عظيمًا في بابِه؛ وتذكيرُ العاقبةِ يُصَوِّرُ ذلكَ، كما أنَّ (العاقبة) مصدرٌ مأخوذٌ من وصفٍ هو (العاقب)، ودخلتْ عليه تاءُ التّأنيث للمبالغةِ في تصويرِ تلك العاقبةِ وشدّتِها وسوءِها.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ (العاقبة):

لفظُ العاقبةِ فيه تهديدٌ ووعيدٌ بقُربِ العاقبة

استعملَ النّظمُ الكريم مفردةَ (العاقبة) في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ دونَ مرادفاتها؛ تنبيهًا على قربِ وقوعِ العاقبة، وإشعارًا بأنَّها نتيجةٌ لذُنوبهم وآثامِهم، ولأنَّ هذا اللَّفظَ

المصدريّ يستدعي في الذِّهْنِ معنَى العقابِ، ويوحي بشدَّة ما كان منهم مِن ذُنوبٍ ومعصيةٍ؛ مِمّا اسْتَوْجَبَ لهُم العاقبةَ السيِّئةَ بكمالِ المصدرِ وحقيقتِه.

علَّةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

حلولُ العذابِ بالسّابقين دليلٌ على حلولِه في اللّاحقين

أُضيفَ لفظُ (العاقبة) إلى الاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، ليشمل كلَّ مَن شملَتْهُ العقوبةُ بسببِ عدمِ الاتّعاظ، وتركِ مُتابعةِ الرُّسُل في دعوتِهم، وفي التّنصيصِ على القبليَّة استدلالٌ على إمكانيّةِ وقوعِ العذابِ بهم؛ إذ لا فرقَ بين السّابق واللّاحق إلّا بالتّوقيت، لكنَّ علّةَ العذابِ بالتّكذيب مشتركةٌ.

دلالةُ ذكْرِ ﴿مِن﴾:

ذُكِر حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لأنَّه لمّا كانت عواقبُ الدَّمارِ في بعضِ ما مَضَى مِنَ الزَّمان أثبتَ الجارَّ ﴿مِن﴾[1]، أوْ لبيان أنَّ العاقبةَ تبتدئُ بالنّسبة للمخاطَبين من قبل زمانهم فرجوعًا إلى الزّمن الماضي، وهي على هذا ابتدائيّةٌ.

دلالةُ واوِ الحال:

(الواوُ) في صدرِ قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ للحالِ، أي: كان عاقبتُهم الاضمحلالَ؛ معَ أنَّهم أشدُّ قوّةً مِن هؤلاءِ؛ فيكون استئصالُ هؤلاءِ أقربَ، ولاستحضارِ قوَّة السّابقين[2]، ولمّا تضمّنَ قوله ﴿يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دلالةَ التّدمير والاستئصالِ والعذاب، دفعَ بـ(الواو) الحاليّة توهُّمَ أنَّهم كانوا ضعفاءَ لا يتحمَّلون ما نزلَ بهم من خسفٍ ورَجفةٍ وصَيحة، فاحترسَ عن ذلك بالحالِ المصدَّر بـ(الواو) لدفعِ ذلك التّوهُّم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.

مَن كان دَيْدَنَه الاستكبارُ بقوّته فعذابُه نازلٌ بقوّته

دلالةُ استعمالِ (الكونِ) مادَّةً وصيغةً:

جاء استعمالُ فعل الكون في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ القوّةَ الشّديدةَ كانَت في طِباعِهم وجِبلّاتِهم، ومِن شأنِهم ودَيْدنِهم، ومعَ ذلكَ أتَتْ عليهم قدرةُ اللّهِ، وأحاطَتْ بهم عاقبتُه، وقد تمكَّن مشركو العربِ مِن مُشاهدةِ آثارِهم التي تدلُّ على عظيمِ قوَّتِهم، وعَرَفوا مِنَ الأخبارِ والأنسابِ ذلك؛ ولذلك جاء الفعل بصيغة الماضي، وتناغمَ الفعل معَ ﴿كَانَ﴾ السّابقة في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ في رسمِ حالة متناقضةٍ بين الكونينِ، فكانوا أشدَّ قوّةً ومع ذلك انظروا كيفَ كان عاقبتُهم ومصيرُهم.

إهلاكُ الأقوى تنبيهٌ على يُسْرِ إهلاكِ الأدْنى

علّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَشَدَّ﴾:

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ اسمَ التفضيل ﴿أَشَدَّ﴾ الواقعَ خبرَ الكونِ الماضي؛ وهو وصفٌ في المعنى لاسْمِه؛ وفي التَّعبير به بيانُ أنَّ لمشركي العربِ قوَّةً شديدةً مّا، وأنَّ هذه القوَّة مهما عظُمَتْ فلَنْ تكونَ كقوَّة الأوَّلين السّابقينَ عليهم، وأنَّ هؤلاءِ الَّذين مِن قبلِهم لمّا كذَّبوا الرُّسُل، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا لم تُغْنِ عنهم قوَّتُهم التي هي أشدُّ مِن قوّةِ مشركي العربِ مِن عذابِ اللّهِ شيئًا، وهذا كلُّه مُؤسَّسٌ على اتِّصافِ مشركي العربِ بقوَّتَي الظّاهرِ؛ مِنَ الاستكبار، والباطنِ؛ مِنَ المكرِ الضّارِّ[1]، وإنّما عبّر عنِ التّفضيل بلفظ (الأشدّيَّة) دون أن يقول: (وكانوا أقوى منهم)؛ للدّلالة على أنَّ المفاضلةَ في القوَّة الشّديدة دونَ مُطلقِ القوَّة، وفي الأشديَّة زيادةُ تصويرٍ للقوَّة كمًّا وكيفًا.

التَّفكيرُ بالفروقِ بعقدِ المقارنةِ موصِلٌ للحقيقةِ

نكتةُ القيدِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

أفاد القيدُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في قوله: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾؛ إبلاغًا في تقرير الأفضليَّة؛ بدعوتِهم إلى المقارنة بين قوَّتِهم وقوَّةِ مَن قبلَهم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.

مِمَّن شاهدوا آثارَهم، وعلِموا أخبارَهم، وتمكينُ التّفضيل أدلُّ على التّهديد، وأدعَى إلى التَّفكيرِ في الحقِّ، والرُّجوعِ إليه، و(مِنْ) هنا للابتداء، ولم يُذكَر له انتهاءٌ؛ مبالغةً في تصوير القوَّةِ الشّديدة التي لا يُعلَمُ لها نهايةٌ، ومع ذلك فقد عُذِّبوا ونالهمُ الاستئصالُ.

توجيهُ تخصيصِ الأَشديَّة بالقوَّة:

من شأنِ معرفةِ شـــدّةِ قـــوّةِ الهالكين الاعتبارُ بقوَّة عـذابِ ربِّ العالمين

اقتَصَرتِ الآيةُ على جملةِ الحالِ في الحديثِ عنِ السّابقين بقوله تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ والحالُ وصفٌ في المعنى لصاحبِه؛ إيثارًا للإيجازِ؛ لاقترابِ خَتْمِ السّورة؛ ولذلك لم يُؤْتَ في نظائرِها بجملةِ الحال، ولكن أُتيَ فيها بجملة وصفٍ؛ كما في قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: 21]، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: 9]؛ حيثُ أوثِر في مِثْلِ ذلك الإطنابُ؛ بتَعْدادِ بعضِ مظاهرِ تلك القوَّةِ[1]، ولعلَّ في ذلكَ الاقتصارِ دعْوَةً للمشركينَ إلى التَّفكُّرِ في أحْوالِ السّابقينَ وأوصافِهم العديدةِ؛ وأراد أنْ يُحيلَهُم إلى عموم أوصافِهم؛ ليتمكَّنَ فيهم معنَى كمالِ اقتدارِ اللّهِ عليهم، وكمالِ ضعفهم وعجزِهم في مواجهةِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وهذا أقربُ إلى ظاهرِ التَّرهيبِ، وباطنِ التَّرغيبِ؛ تمهيدًا لآيةِ الإمهالِ الَّذي هو مِن رحمة اللّه بهم؛ وتلك آخِرُ آيةٍ في السّورة.

بلاغةُ العطفِ بالواو:

معاني الجُمَلِ آخِـذٌ بعضُها بأعناقِ بعضٍ

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: عاطِفةٌ لجملةِ النَّفي هذهِ على جملةِ الحالِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾؛ والمعطوفُ على الحالِ حالٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.

أي: أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم؛ والحالُ أنَّ اللّه لا يُعجِزُه أمْرُ أُمَّةٍ كذَّبَت رسولَها أوْ أمْرُ أحدٍ منهم كذَّبَه؛ فهذه الحالُ تُقرِّرُ وتُحقِّقُ قولَه تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾؛ لأنَّه تعالى إذا كان لم يُعجزهُ شيءٌ عن تحقيقِ مُرادِه كان عاقبةُ الَّذين من قبلهم قد تحقَّقَتْ.

فنُّ الاحتراسِ:

مباغتةُ القومِ بـردِّ الأوهـامِ مُعينٌ على تَقويةِ الأفْهامِ

لمّا بيَّن سبحانه حالَ الهالكينَ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾؛ ناسبَ أنْ يعطفَ عليه جملةَ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للاحتراسِ من أنْ يطمَعَ مشركو العربِ وأمثالُهم في النَّجاةِ من مِثلِ عذابِهم؛ بعِلَّة أنَّ لهم منَ المُنْجياتِ ما لم يكُن للأُمَمِ الخاليةِ؛ كزعمِهم أنَّ لهم آلهةً تمنعُهُم من عذابِ اللّه؛ بشفاعتِها، أوْ دَفْعِها؛ فقيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: هَبْكُم أقوَى منَ الأوَّلينَ وأشدَّ حيلةً منهم، أوْ لكم منَ الأنصارِ ما ليس لهم: فما أنتُم بمُفْلَتين من عذابِ اللّه؛ لأنَّ اللّه لا يُعجِزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[1].

دلالةُ ذِكْرِ نفيِ الكَوْنِ الماضي:

رحمةُ الله تعالى لا تـحـولُ دون وقوعِ عذابِه

عُبِّر عنِ الكونِ المنفيِّ بأداة (ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالةِ على الألوهيَّة بالنَّفي المذكورِ، والمعنى: ليس من شأنِ اللّهِ تعالى أنْ يُعجِزَه شيءٌ في السّماوات والأرض، وفي هذا تعريفُهُم باللّه من جهةٍ، وإبلاغٌ في ترهيبِهم وتهديدِهم من جهةٍ أخرى؛ لأنَّ فيه إبلاغًا في تقريرِ النَّفيِ المذكورِ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

اسْمُ الجلالةِ هو الألصقُ بغرضِ التَّعريفِ بقُدْرةِ الله

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في جملة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾؛ لتحقيقِ النَّفي؛ بذِكْرِ الاسْمِ الجامعِ لمعاني

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338 - 339.

الأسماءِ والصِّفاتِ؛ نظَرًا إلى نفسيّات المشركينَ التي تُنكِرُ بلسانِ حالها قبلَ لسانِ مقالِها مَضمونَ النَّفْيِ، ولتعلّق معنى النَّفي بالألوهيَّةِ وعدمِها؛ فإنَّ الذي يُعجزه شيءٌ عن تحقيق مرادِه ليس بإله، ومَن لا يُعْجِزُه شيءٌ عن ذلك مطلقًا فهو الإلهُ الحقُّ؛ فعُبِّر باسْمِ الجلالةِ الَّذي لم يُطْلَق على غير اللّه تعالى، لتوكيدِ خصوصيَّة هذا الأمرِ به ﷻ دونَ سواه.

دلالةُ لامِ الجُحودِ:

القرآنُ يواجِهُ كلّيَّةَ إنكارِ المشركين بتأكيدٍ عَليٍّ بليغٍ

استعملَ النّظمُ الكريم (لامَ الجُحودِ) مع كانَ المنفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾؛ لإفادة تأكيدِ نفيِ كلِّ شيء يَحولُ دونَ قدرةِ اللّهِ وإرادته؛ مراعاةً لتكذيب الكَفَرةِ في قَطعِهم بأنَّ دينَهُم لا يتغيَّرُ، وأنَّهم لا يُغْلَبون أبدًا؛ لِما لهم مِنَ الكثرة والمُكْنة، وما للمسلمين مِنَ القِلّة والضَّعْف[1].

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ العجزِ:

نفيُ المُسبَّبِ بنفيِ السَّبَبِ أبلغُ مِن نفيِ المُسبَّبِ مباشرةً

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (العجز) في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾؛ لأنَّه أبلغُ مِن ذكرِ الضَّعفِ في نفْيه عنِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّ معَ العجز ينتفي الحَزْمُ، والعجزُ نَتاجُ عدمِ القدرةِ، فيدلُّ على الضَّعفِ، لا أنَّه نتاجُ الضَّعفِ، فالعجزُ فيه معنى الضَّعفِ، وليس مقابلًا له، وإنّما يُقابِلُه عدمُ القدرة، وجِهاتُ الضَّعفِ وعدمِ القدرة مع العجزِ في الإنسانِ أكثرُ منها مع الضَّعفِ فيه؛ بشاهدِ استعمالاتِ العجزِ في اللُّغةِ، وكلامُ المفسِّرينَ يُفْهِمُ أنَّ العجز هنا مجاز مرسلٌ علاقتُه السَّببيَّةُ؛ وإن لم يُصرِّحوا بذلك؛ فقد فسَّروه بـ: ليَسْبِقَه ويَفوتَه من شيء، فيفلتَ عن مراد اللّه منه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 444، والزمخشري، الكشاف: 12/ 672، والآلوسي، روح المعاني: 22/ 207، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

توكيدُ المعاني في سياقِ العُموم يدفعُ مِظنَّة الفهوم

دلالةُ ذكرِ حرفِ ﴿مِن﴾:

كلمةُ: ﴿شَيۡءٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾ فاعلٌ، وهو نكرةٌ، والنَّكرةُ في سياقِ النَّفي تدلُّ على العموم، والأصلُ فيه أنْ يكونَ مرفوعًا لفظًا، ولكِنْ دخلَتْ عليه: ﴿مِن﴾ الزّائدةُ؛ فجاءَتْ لتأكيدِ النَّفي؛ فالنَّفيُ مُتأكَّدٌ بنفي الكونِ الماضي، ولامِ الجُحود، والنَّكرةِ، ثم لمّا دخلَت ﴿مِن﴾ عليه دلَّتْ على استغراقِ الأشياءِ؛ وهذا في الحقيقة إبلاغٌ في إقامة الحُجَّةِ على أهل الشِّرْكِ والكفرِ؛ ببيانِ اتِّساعِ محلِّ النَّظَرِ والتَّفكُّرِ والمقارنةِ والاستدلالِ.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في قوله: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للعهد الذِّهْني أوِ الذِّكريِّ؛ حيثُ ذُكِرتا في السّياق السّابق، ولو حمَلَهُما المُتلقّي على العهد الذِّهْنيِّ فإنّهما تستدعيانِ المعانيَ نفسَها.

نكتةُ الجمعِ والإفرادِ:

سبحانَ مَن لا يُعجِزُه شيءٌ في الأماكنِ كلِّها

جاءَ التّعبيرُ بجَمْعَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ باعتبارِ أنَّ هذا هو أسلوبُ القرآن عمومًا في ذكرهما، كما أنَّ الجمع والإفراد مناسِبٌ للسّياق، ففيه إثباتُ القدرةِ بنَفْيِ عَجْزه سُبحانه عن أيِّ شيءٍ في السّماوات على كثرتها وعلوِّ مكانها التي لا تبلُغُها قدراتُ البشر، والأرضِ التي يعيشونَ عليها، ولا يُحيطونَ بها.

نكتةُ تَكرارِ حرف النّفي:

حساسيّةُ السّياق تقتضي تَكرارَ النّفي لترسيخ استقلالِ المعاني

لمّا كانتِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفةً على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وكان المعطوفُ عليه في سياقِ الكونِ المنفيِّ؛ فيأخذُ المعطوفُ حكمَه، لكنَّ النّظم آثر ذكرَ حرف النّفي (لا) في خصوص ذكر الأرض، فلم يقل: (في

السَّماوات والأرض)؛ فقال: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ إرشادًا للمُتلقّينَ إلى النَّظَرِ والتَّفكيرِ في كلٍّ مِنَ السَّماواتِ والأرضِ على جهةِ الاستقلالِ؛ ليَقِفَ بقوَّةٍ على صحَّةِ النَّفي وما تحتَهُ مِن معانٍ ومقاصدَ؛ فأكَّد بإعادة النّافي[1]، فتَكرارُ معنى النَّفْي يتناغى مع جمع السَّماء وإفراد الأرضِ، وذلك أنَّ السّياقَ في نفْيِ عَجْزه ﷻ، فكانَ تَكرارُ حرفِ النَّفي فيه مزيدُ توكيد، ليقومَ كلٌّ منَ السَّماوات والأرض مقامَ الاستقلال في النّفي، وهذا أرسخُ في إثباتِ القُدرة، ومدحِ القَدير.

نُكْتَةُ استعمالِ حرف الظَّرفيّة:

اختلافُ ظرفيَّة السَّماوات عن ظرفيّة الأرض يَجعلُهما كالمتُباينَين

مِن مقتضَياتِ التَّعاطُفِ بينَ السَّماواتِ والأرضِ أن يأخذ المعطوفُ حكمَ المعطوف عليه، لكنَّ النَّظم آثر ذكرَ حرف الظّرفيّة قبل كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقال: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ لإفادة الفرق بينَ ظرفيّة السّماوات وظرفيَّة الأرض، فكلٌّ منهما له استقلالٌ بظرفيّته، وكونُ الحرف مشتركًا في الجهتين، لكنَّ دلالتَه مُختلفة، فما في السَّماوات والقدرةِ عليه، يختلفُ عنِ الَّذي في الأرض والقدرةِ عليه، واللّه ﷻ قد أحاطتْ قدرتُهُ بكلِّ شيءٍ.

علَّةُ الفَصْلِ ودلالتُه:

مَن تأمَّلَ حالَ اللهِ معَ خلْقه تعرَّفَ عليه في قلبِهِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ تعليلٌ في المعنى لجملة النَّفي: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ "بأنَّ اللّه شديدُ العلم واسعُه، لا يخفَى عليه شيءٌ، وبأنَّه شديدُ القدرةِ"[2]، ويجوزُ أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا؛ على تقديرِ سؤالٍ عن علَّة النَّفي؛ على معنى إرشادِ المُتلقّين إلى ذلك؛ للتَّعرُّفِ عليه ﷻ، وهذا أليقُ بخطابِ المشركين، ويجوز أنْ تكون لما بينَ هذه الجملةِ وجملةِ النَّفي مِن كمال الاتّصالِ؛ لأنَّ الثّانيةَ منهما تُحقِّقُ الأولى وتؤكِّدُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 237.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

في لُطْفٍ؛ لأنَّ معنى كلٍّ منهما يلزمُ معنى الأخرى؛ وإنْ كانتِ الثّانيةُ بمثابة الأُمِّ للأولى؛ لأنّها أوسعُ منها.

سِرُّ التَّوكيدِ:

توكيدُ المباني لتثبيتِ المعاني

نُظِمتْ هذه الجملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ)، ليلفتَ النَّظرَ إلى عِظَم معنى الجملةِ وشديدِ قيمتِه وأهميَّتِه وخطَرِه بالنِّسْبةِ للمشركينِ مِنَ المُتلقّينَ خصوصًا، ولمّا لم يعتبرِ المخاطَبون المشركونَ - على تقدير ثبوتِ سيرِهم في الأرضِ - مِن آثارِ السّابقينَ كانوا كالمُنْكِرينَ لكونِه تعالى عليمًا قديرًا، فأُكِّد لهم الخبرُ لذلكَ.

نكتةُ ذِكْرِ فِعْلِ الكَوْنِ:

علمُه تعالى وقدرتُه لا يحدُّهما الزّمانُ ولا ينحصِرُ بهما المكان

آثرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ فعل الكون؛ فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾؛ للدّلالةِ على الألوهيَّة بالعلم والقدرة المذكورَيْنِ؛ أي: إنَّ مِن شأنِه تعالى هذا العلمَ وهذه القدرةَ؛ فهو عليمٌ قديرٌ أزَلًا وأبَدًا؛ تناسُبًا مع الدَّعوةِ إلى الاعتبارِ بأحوالِ السّابقين وآثارِهم، والتَّعرُّفِ على اللهِ مِن خلالِها؛ فحالُهُم يدلُّ على هاتين الصِّفتين، والفعلُ إذا أُسْنِد إلى اللهِ تجرَّدَ مِنَ الزَّمان، أي: كان كذلك ولا يزالُ دائمًا وأبدًا.

بلاغةُ تشابُهِ الأطرافِ:

العلمُ والقدرةُ دليلُ نفي العجزِ عن بلوغِ المقصودِ وتحقيقِ المطلوبِ

التَّناسُبُ بينَ إثباتِ العِلْمِ والقُدْرةِ وبينَ نفي العجزِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾: ظاهرٌ قويٌّ؛ لأنَّ معَ العِلْمِ والقدرةِ لا يتعذَّرُ شيءٌ؛ لأنَّ عجزَ المُريدِ عن تحقيق إرادته إمّا أنْ يكون سببُه خفاءَ موضعِ تحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العلم، وإمّا أن يكونَ سببُه عدمَ استطاعة التَّمكُّنِ منه، وهذا يُنافي عمومَ القدرةِ، ثم قولُه: ﴿عَلِيمٗا﴾ يُنبِّه على أنّه تعالى علِمَ بجميع أعمالهم السَّيِّئةِ، وقولُه: ﴿قَدِيرٗا﴾ يشيرُ إلى أنَّه سبحانه عاقبَهُم، وظهَر في

عاقبتهم قدرتُه تعالى[1]؛ فقد خُتِم الكلامُ بما يُناسِبُ أوَّلَه في المعنَى؛ وهذا ما يُسَمَّى بـ(تشابُه الأطرافِ).

دلالةُ الصّفةِ المشبّهةِ:

الثّبوتُ والدّوامُ في الوصفِ يقرّبُ حقيقةَ معناه للمُتلقّين

نُظِم الاسمانِ العظيمانِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ بصيغة: (فعيل)؛ وهي صفةٌ مشبّهةٌ دالّةٌ على الثّبوتِ والدّوام والشّمول؛ تنبيهًا على أنَّ علمه تعالى فوقَ كلِّ علم، فهو العلم الشّاملُ، وأنَّ قدرتَه سبحانه فوقَ كلِّ قدرةٍ؛ فقدرتُه هي الكاملةُ التّامَّةُ؛ والأفرادُ المتعلِّقةُ بعلمه وقدرتِهِ لا تَكادُ تُعدُّ ولا تُحْصَى؛ مشاكلةً لسياقِ ذِكْرِ شدَّة قوّةِ أهلِ الشِّركِ مِنَ العربِ ومِمَّن كانوا من قبلِهم.

نكتةُ ترتيبِ وصْفَي العلْمِ والقُدرة:

استحضر حالَهُم في نَظْمِ بعضِ أوصافِه؛ إحسانًا إليهم

جَرَى ترتيبُ الوصفيْنِ الجليليْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ على جهة التَّهديدِ والتَّرهيبِ من كُفْرِ المُشركين وشركِهم، وما يستَتْبِعُ ذلك مِنَ الآثام والمعاصي؛ فقولُه: ﴿عَلِيمًا﴾ يشيرُ إلى أعمالهم السّيئة التي تتعلَّقُ بعلمِه تعالى، ومجيءُ قولِه: ﴿قَدِيرًا﴾ بعدَه يشيرُ إلى أنَّ أعمالَهُم سببٌ في عذابهم وعاقبتِهم التي تتعلَّق بالقدرة، ويظهر فيها كمالُ اقتدار اللّه عليهم.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّير والمشي والسَّعي:

المشيُ أعَمُّ مِنَ السَّيْرِ والسَّعْيِ

(السَّيْرُ) تدورُ مادَّتُه على مُضيٍّ وجَرَيانٍ؛ يُقال: سار يسيرُ سيْرًا؛ وذلك يكونُ ليلًا ونهارًا، ويُلاحَظُ فيه معنى التَّوغُّلِ والامتدادِ، وأمّا (السَّعْيُ) فمِن قولِهم: مَضَى سَعْوٌ مِنَ اللَّيل، أي: قِطْعٌ منه، ففي السَّعْي معنى السُّرْعةِ التي يَستدعيها داعٍ مُهِمٌّ؛ ولهذا قيل فيه: السَّعْيُ هو المشيُ السَّريعُ؛ وهو دونَ العَدْوِ؛ ويُستعمَل للجِدِّ في الأمرِ؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 444، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 482، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

خيرًا كان أو شرًّا، وأمّا (المَشْيُ) فهو أعَمُّ منهما؛ لأنَّه يدلُّ على حركة الإنسان وغيره؛ فهو قابِلٌ لأنْ يكونَ سيرًا وسعيًا؛ ولأنَّه يدلُّ أيضًا على النَّماءِ والزّيادة؛ مِن ذلك المَشاء؛ وهو النِّتاج الكثير، وبه سُمّيت الماشية، وامرأة ماشيةٌ: كثُر ولدُها، وأمْشَى الرُّجُلُ الرّجُلُ: كثُرت ماشيتُه[1].

النّظرُ والرُّؤيةُ والتّدبُّر والتّفكُّر والتّأمُّل:

للنَّظَرِ أحوالٌ؛ فهو أصلُ المعاني المُقاربةِ له، وهو أعمُّ منها

(النَّظَرُ): طلبُ الهُدَى، والشّاهدُ قولُهم: نظرتُ فلم أرَ شيئًا، والنَّظرُ طلبُ ظهورِ الشّيءِ، والنّاظِرُ الطّالِبُ لظهورِ الشيء، والنَّظرُ بالقلب مِن جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوالِ الأشياءِ؛ ألا ترى أنَّ النّاظر على هذا الوجه لا بُدَّ أنْ يكون مُفكّرًا، والمُفكِّرُ على هذا الوجهِ يكونُ ناظرًا، وهو معنى غيرِ النّاظر وغير المنظور فيه؛ ألا ترى أنَّ الإنسان يفصلُ بين كونِه ناظرًا وكونِه غيرَ ناظرٍ، والنَّظرُ: طلبُ معرفة الشّيءِ مِن جهة ومِن جهة غيره، وحدُّه: طلبُ إدراك الشّيء مِن جهة البصر أوِ الفكر، ويحتاج في إدراك المعنى إلى الأمرَيْن جميعًا.

والرُّؤيَةُ: هي إدراكُ المرئيّ، ولمّا كان الله تعالى يرى الأشياءَ مِن حيث لا يَطلبُ رؤيتَها صحَّ أنَّه لا يوصَفُ بالنَّظرِ، والتَّدبُّرُ: تصرُّفُ القلبِ بالنَّظر في عواقبِ الأمور، والتَّفكُّرُ: تصرُّفُ القلب بالنَّظر في الدّلائلِ، والتَّأمُّلُ: هو النَّظَرُ المُؤَمَّلُ به معرفةُ ما يُطْلَبُ، ولا يكونُ إلّا في طولِ مُدَّةٍ؛ فكلُّ تأمُّلٍ نظرٌ، وليس كلُّ نظرٍ تأمُّلًا[2].

العاقبةُ والخاتمةُ والنِّهايةُ:

العاقبةُ أخَصُّ مِنَ الخاتمةِ والنِّهايَةِ

(عاقبةُ) كلِّ شيءٍ آخِرُه؛ وملاحظةُ استعمالاتِ هذا الأصل يُلْحَظُ أنَّ إتيانَ الشّيء بعد الشّيء هنا يكونُ على جهةِ التُّلوِّ، وأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعى)، (سير)، (مشى)، والراغب، المفردات: (سعى)، (سار).
(2) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 94، 121، و 542 - 544.

الثّانيَ كأنَّه بسببٍ مِنَ الأوَّلِ، وكأنَّه نتيجةٌ له، ويقولون: ستَجِدُ عَقِبَ الأمر كخيرٍ أو شرٍّ؛ وهو العاقبةُ، و(الختام والخاتمة): بلوغُ آخِرِ الشّيءِ؛ يُقال: ختمتُ العملَ، وختَم القارئُ السّورةَ؛ فليس فيه معنى التُّلوِّ ولا التَّقارُبِ بينَ الشّيئَيْنِ كما في العاقبةِ؛ فالخاتمةُ أعمُّ مِنَ العاقبةِ، و(النِّهايةُ): مصدرٌ، مثلُ الحِماية والكِفاية، إلّا أنَّه سُمّي به منقطَعُ الشّيء، فقيل: هو نِهايتُه، أي: منتهاه، وخلافُ المنتهَى المُبتدأ؛ فكما أنَّ قولَك: (المبتدأ) يقتضي ابتداءَ فعلٍ مِن جهة اللَّفظ، وقدِ انتهَى الشّيءُ؛ إذا بلَغ مبلغًا لا يُزاد عليه، وليس يقتضي النِّهاية مُنتهًى إليه، ولوِ اقتَضَى ذلك لم يصِحَّ أنْ يُقال: للعالَم نهاية[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ختم)، (عقب)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 5، والراغب، المفردات: (عقب).

﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ سُنَّةِ اللهِ في الظّالمين إلى بيانِ سُنّته في رحمةِ العالَمين

لَمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة أنّه لا يُعْجِزه ﷻ عن تحقيق ما يريدُه مِن شيءٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ، وأنّه قد أهلكَ الأممَ السّابقة التي كذّبت وعاندت، وآثارُهم واضحةٌ للعيانِ، وأخبارُهم تصلُ إلى كلِّ سامعٍ عاقل، ناسبَ الانتقالُ إلى بيان أنَّ تعذيبَ الأمم السّابقة ما كان ظُلْمًا ولا هَضمًا لحقوقهم، بل هو رحمةٌ عظيمة، ولو أرادَ ﷻ أنْ يُعامل بالعدل لَما تركَ على ظهر الأرضِ من دابّةٍ، ولكنَّ رحمةَ اللّه وسِعَتِ العبادَ، فنالتْهم بالبقاءِ والاستمرار، فتركُ المؤاخذةِ فضلٌ وإحسان، لا عدلٌ وميزان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤَاخِذُ﴾: أصلُ (أخذ) يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وجَبْيِه وجَمْعِه وتحصيلِه؛ تقولُ: أخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أَخْذًا؛ قال الخليلُ: هو خلافُ العطاءِ؛ وهو التَّناوُلُ، قال: والأُخْذَةُ رُقْيَةٌ تَأْخُذُ العينَ ونحوَها، وهو تارةً بالتَّناوُلِ؛ نحوُ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر؛ نحوُ قولِه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255][1]، والمقصودُ بالمؤاخذةِ في الآية: المُجازاة بالعدلِ.

2) ﴿كَسَبُواْ﴾: أصلُ (كسب) يدُلُّ على ابتغاءٍ وطلَبٍ وإصابةٍ، يُقالُ: كَسَبْتُ الشَّيْءَ، أي: طلَبتُه[2]، ومنه الكَسْبُ: وهو ما يتَحرّاه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).

الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفْعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المال، وقد يُستعملُ فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلبُ مَنفعةً، ثمَّ استجلَبَ به مَضرَّةً[1]، ويُطلَقُ الكَسْبُ على الجَرْح، أي: فِعْلُ الشَّيء بالجارحة[2]، والمراد بالكَسْبِ في الآية: ما حصّلَهُ النّاسُ منَ المعاصي والمخالفةِ لأمرِ اللّه تعالى، بما يستحقّونَ به العقوبةَ.

3) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أَصلُ (دبّ) حَرَكَةٌ على الأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكل شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّهُ يُسَمَّى دابّة، والاسمُ العامُّ الدّابَّةُ لما يُرْكَبُ، وتصغيرها دوَيبَّة[3]، يُقالُ: دبَّ القَومُ إلى العَدو دَبيبًا، أي: مَشَوْا على هينتهم لم يُسرعوا[4]، والمقصودُ بقوله ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: من نَسَمَةٍ تدُبُّ عليها من بني آدمَ، وقيل: ومن غيرِهم أيضًا من شُؤْمِ معاصيهم[5].

4) ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: أصلُ (أخر) الدّلالةُ على خلافِ التَّقدُّم؛ فالآخِرُ نقيضُ المُتقدِّم، والأُخُرُ نقيضُ القُدُم، تقولُ: مضَى قُدُمًا، وتأخَّرَ أُخُرًا، وآخِرَةُ الرَّحْلِ وقادِمتُه، ومُؤَخَّرُ الرَّحْلِ ومُقدَّمُه، والمرادُ بـ: ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ في الآيةِ يُمْهِلُ عقابَهُم ومؤاخذتَهم؛ بما كسَبوا إلى أجلٍ معلومٍ عندَه، ولا يُعجِّلُ ذلك[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إمهالُ العبادِ للتَّوبةِ والأَوْبةِ لا للتَّكذيبِ والكُفران

ينتهي سياقُ السّورةِ بهذه الآية الكريمة ببيانِ جانبٍ من رحمتِه، وكمالِ حِلْمِه، فيقولُ: ولو يُعاقِبُ اللّهُ النّاسَ على جميعِ ما عَمِلوه من الذُّنوبِ، ولم يُمهِلْهم أهلَكَ جميعَ النّاسِ والدَّوابِّ على ظَهرِ الأرضِ،

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كسب).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (كسب).
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبَّ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دب).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 157.
(6) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (آخر).

ولكنَّ اللّهَ يُمهِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ إلى وقتٍ مَعلوم عِندَه، ثمَّ يُحِلُّ بهم عِقابَه، فإذا جاء وقتُ أَخْذِهم فإنَّ اللّهَ بعِبادِه بَصيرٌ، لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه؛ فسيُجازيهم على ما صنَعوا لا محالةَ[1]، وفي الآية الكريمة تذكيرٌ للنّاس عن أن يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذة، فيَحسَبوه عَجزًا أَوْ رِضًا مِنَ اللّهِ بما هم فيه! فعَلَّمَهم أنَّ لِعذابِ اللّهِ آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرينَ، أوِ استِبقاءُ أجيالٍ آتينَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ (الواو) وبلاغةُ استعمالِها:

من صوَرِ الحمدِ المذكورِ مطلعَ السّورة إمهالُ العبادِ إلى أجلٍ مسمًّى آخِرَها

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ لعطفِ الجملة على السّابقة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ إذِ الثّانية تُحقِّقُ الأولى وتُؤكِّدُها؛ وإنَّما احتفَل القرآنُ بمضمون الآية؛ فأشعرَ باستقلالِها عمّا قبلَها؛ بتصديرِها بـ(الواو) التي لا يبرحُها معنى المُغايَرة؛ لأنَّ تلكَ الآيةَ بمثابةِ النِّداءِ الأخيرِ في السّورةِ على أهلِ المعصيةِ والكفرِ والشِّرْكِ؛ تُذكِّرُهم بعظَم نعمةِ اللّه عليهم؛ مِنَ الإمهالِ، وتُرهِّبُهم من غضبِه وسخطِه وعذابه الذي إذا جاءَ بمجيءِ أجلِهم فلن يُغْنيَ عنهم مِن ذلك مِن شيءٍ؛ فالاعتناءُ بالمُتلقّين؛ نعمةٌ توجِبُ حَمْدَ اللّه؛ فتكونُ الآيةُ بهذا الاعتبارِ راجعةً إلى معنى ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ [فاطر: 1] في صدر السّورة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 1]، فقد رجَع آخِرُها إلى أوَّلِها، وتحتملُ (الواو) أن تكونَ استئنافيَّةً.

معنَى (لو) ودلالتُها:

الإمهالُ نعمةٌ تستحقُّ الشُّكرَ لا الإهمالَ

أداةُ (لو) حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، أي: امتناعِ وقوعِ الجواب لامتناعِ وقوعِ الشَّرْطِ، وهذا الحرفُ لا عمَلَ له؛ فهو شرطٌ غيرُ جازمٍ، ومعناه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 444.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾: أنَّ اللّه لم يُعامِلْهُم معاملةَ المُؤاخِذِ المُناقِشِ، ولو عاملَهُم معاملتَه لعجَّل إهلاكَهُم؛ والآيةُ تذكيرٌ للنّاسِ بنعمةِ الحِلْمِ والإمهالِ؛ حتَّى لا يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجزًا أَوْ رِضًا مِنَ اللّهِ بما هم فيه! فأعلَمَهم أنَّ لعِذابه آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخرينَ، أوِ استبقاءُ أجيالٍ آتينَ[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ الأخْذِ؛ مادَّةً وصيغةً:

مفردةُ المُؤاخذةِ توحي باللُّطفِ وتـومـئُ إلى الامتنان

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ (الأخذِ) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ الذي مدارُه على حَوْزِ الشَّيءِ وجَبْيِه وجَمْعِه؛ تارةً بالتَّناوُلِ، وتارةً بالقهر؛ تنبيهًا على معنى المُجازاة والمُقابَلة لِما أخَذوه مِنَ النِّعَم[2]؛ فشبَّه المجازاةَ بالأخذِ على جهة الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ ويجوز أنْ يكونَ مِن قبيلِ الكِنايَةِ؛ والتَّعبيرُ بالأخْذِ يعني استحضارَ ما كانوا فيه مِن نِعَمٍ، وإقامةَ الحُجَّة عليهم؛ حتّى لا يكونَ لهم نوعُ اعتذارٍ؛ وهذا يرجعُ إلى قوله تعالى في مطلع السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: 3]، وفيه دلالةٌ على الشِّدَّة والغضب، ونظَمَ القرآنُ معنَى الأَخْذِ المسند إلى اللّهِ تعالى في صيغةِ المُفاعَلة؛ لأنَّ دلالتَها على المُناقَشة أبلغُ[3]، وهذا كلُّه يدلُّ على عظيمِ امتنانِ اللّهِ سبحانه عليهم بنعمةِ الإمهالِ.

دلالةُ ذكرِ اسْمِ الجلالة:

إنَّـمـا يُـجـازي الـعـبـادَ ويُؤاخِذُهم المَلِكُ الأعظمُ

جاء ذكرُ اسْمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ مع أنَّه قد سبَق ذكرُه في الآية السّابقةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 339.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 281.

﴿ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ﴾؛ فلم يأتِ به مُضمرًا؛ لأنَّ ذِكْرَه أدلُّ على الهَيْبَةِ في مقامِ الجلالِ، الذي يُقرِّرُ فيه تعالى أنَّه الإلهُ الحقُّ العليمُ بأحوالِ العبادِ وأعمالِهم، القديرُ على حسابِهم ومُجازاتِهم وأخْذِهم وإهلاكِهم متَى شاءَ؛ لما له مِن صفاتِ العُلوِّ والقَهْرِ.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دون (المشركين):

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ دالٌّ على العموم، والمرادُ به كلُّ مَن صدر عنه فسادٌ ومَعصيةٌ من شأنها المجازاةُ بالعذابِ، واستُعملَ دون التَّصريح بالمشركين ونحوه؛ لبيانِ عموم الفسادِ وانتشارِه، ولعلَّ في هذا الاستغراق والعموم إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى لا يُعاجلُ الكافرينَ والمؤمنينَ بالجزاء، وإلّا فلو جازاهُما بإهلاك الظّالمين وإدخالِهم النّارَ، وإماتة المؤمنينَ لفوزِهم بجنّاتِ ربِّ العالمين ما أبقى على الأرضِ من دابّة.

معنى (الباء) ودلالتُهُ:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ للسَّببيَّةِ؛ ففيها إعلامٌ بتسبُّبِ المُجازاةِ والمؤاخذةِ عنِ العمل الَّذي كَسَبوه؛ فلولا اللُّطفُ لوقعَ العذابُ.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ بينَ (الكَسْبِ والظُّلْمِ):

الكسبُ جاء في بيان عمومِ الأعمال الفاسدة، والظّلمُ اختصَّ بما دلّ عليه معناه

جاء استعمالُ لفظِ (الكَسْبِ) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ في صورةِ (ما) المصدريَّةِ والفعلِ الماضي؛ أي: بكَسْبِهِم؛ فأمّا خصوصُ الكَسْبِ فلأنَّ السّياقَ لأفعالِ الجوارحِ؛ نظرًا إلى قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾؛ لأنَّ المكرَ والكِبْرَ إنَّما تُكْرَه آثارُهما، لا الاتِّصافُ بهما؛ لدورانِ مادَّة (الكَسْب) على الابتغاءِ والطَّلَبِ والإصابةِ، والكَسْبُ أعمُّ مِنَ الظُّلْم؛ فيدخلُ فيه المذكورُ من أعمالِهم، وأمّا فكُّ المَصْدرِ فلأنَّ صريحَ الفعلِ يَخُصُّ ما وُجِدَ مِنَ الكَسْبِ بالفِعْلِ؛ سواءٌ كان حرامًا أم حلالًا؛ مِن جميعِ أعمالِهم؛

ليقوَى ترتُّبُ العقابِ عليه؛ ترهيبًا وتهديدًا، ويجوزُ أنْ تكونَ: (ما) اسْمًا موصولًا، أي: بالَّذي كسَبُه؛ وفي كونه كذلك تنبيهٌ على أنَّ النّاسَ مُقرّونَ بأعمالهم، وأنّهم حَقيقونَ بجزائها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ؛ لأنَّ الصِّلةَ يجبُ أنْ تكونَ قصَّةً معلومةً للمُخاطَبِ، ثابتةً للموصولِ كالصِّفَةِ.

وجاءَ استعمالُ مفردة (الظُّلم) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ [النحل: 61]؛ لأنَّ السّياقَ في بيانِ ظُلم المشركينَ، ابتداءً من ذكرِ ظُلم الشِّرك، والظُّلم الاجتماعيِّ الَّذي يُمارسونَه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: 56 - 59].

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

قولُه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾: جوابُ (لو)؛ لا محلَّ له مِنَ الإعراب؛ لأنّه جوابُ شرطٍ غيرِ جازم، و﴿مَا﴾ نافيةٌ، ومَدُّ الألفِ في ﴿مَا﴾ يناسِبُ سياقَ التَّأخيرِ والإمهالِ، والمعنى: تركَ اللّه على ظهرِها مِنَ المخلوقات لامتناعِ المُؤاخذةِ العاجلة.

بلاغةُ استعمالِ (التَّرْكِ):

الاستئصالُ من مُقتضيات العدْلِ ولولا الرَّحمةُ لوقعَ

جاء استعمالُ مفردة (الترك) في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ عذابَ النّاسِ عامَّةً والمشركينَ خاصَّةً في الدُّنْيا لو عُجِّل لكانَ عذابَ استئصالٍ؛ تقومُ القيامةُ بعدَهُ؛ لأنَّ نفيَ التَّرك يدلُّ على الاستئصال التّامِّ، لاسيّما مع استعمال ﴿مَا﴾ النّافية في جواب (لو)، ودخول ﴿مِن﴾ على ﴿دَآبَّةٖ﴾ المُقتضي للعمومِ كذلك.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال (الظَّهر):

جزاءُ التَّمكينِ مِنَ الأرضِ التَّمكُّنُ مِنَ العبادةِ

استعملَ النَّظمُ لفظَ (الظّهر) في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ "والظَّهْرُ: حقيقتُه متْنُ الدّابَّة الّذي يَظهرُ منها؛ وهو ما يعلو الصُّلْبَ مِنَ الجسد؛ وهو مقابلُ البطنِ؛ فأُطْلِق على ظهْر الإنسانِ أيضًا؛ وإنْ كانَ غيرَ ظاهرٍ؛ لأنَّ الَّذي يَظهر مِنَ الإنسان صدرُه وبطنُه، وظهرُ الأرضِ مُستعارٌ لبَسْطِها الَّذي يستقِرُّ عليه مخلوقاتُ الأرضِ؛ تشبيهًا للأرضِ بالدّابَّة المركوبة؛ على طريقةِ المكنيَّة، ثمَّ شاعَ ذلك؛ فصارَ مِنَ الحقيقةِ"[1]، والتَّعبيرُ عن بَسْطِها بالظَّهر الَّذي للدّابَّةِ في أصلِ الاستعمالِ؛ جعْلٌ للأرضِ كالدّابَّة؛ دلالةً على أنَّ الكلَّ في مُكنةِ القديرِ ﷻ؛ وكأنَّ الكلَّ شيءٌ واحدٌ في جانب قدرةِ اللّه؛ على طريقة التَّسْويةِ المثبّتة في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ في (الإظهار والإضمار):

مناسبةُ عمومِ المعاصي لخصوصِ الظّهر وخصوصِ الظُّلم لعُمومِ الأرض

جاء التَّعبيرُ عنِ (الأرض) في هذه السّورة بالظّهر فقال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾، بينما في سورة النَّحل جاء التَّعبيرُ بالإضمار، فقال تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: 61]، والمرادُ في الآيتين الأرضُ بدلالةِ السّياق، وهو أمرٌ معلومٌ لا يخفى، لكنْ لسائلٍ أنْ يسألَ عن نكتةِ إظهارِ لفظ (الظّهر) في فاطر، وإضمارِه في النّحل، والجوابُ أنَّ سورة فاطر جاء فيها ذكرُ اختلاف الألوان في الجبال، وهي الظّاهر مِنَ الأرض، وهي موضع الجَمال والبهاء، فذكر ﷻ أنَّ هذا الإتقانَ في خلق الجبالِ والجمال الكامنين فيها لا يمنعُ لأجل المحافظةِ عليه من إنزالِ العذاب، فكان في ذكر (الظّهر) تخصيصٌ لعموم الأرض، إذِ الظّهرُ هو ما يظهرُ منها، أمّا آية النَّحل فقد جاء فيها الإضمارُ للدّلالةِ على العموم، أي عموم الأرض، وهذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 340.

أبلغُ في سياق الظُّلم والشِّرك؛ لأنَّ خصوصَ الظُّلم أشدُّ من عموم المعاصي المكتسَبةِ، وعدمُ التّرك لا يقتصرُ على ظهرها بل يتعدّاه إلى عمومِها.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

جاءَ استعمالُ حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ على ظاهرِه؛ ليشيرَ إلى سرعةِ الإهلاكِ وشِدَّته؛ والقرآنُ يذكُر المشهدَ الأخيرَ في الإهلاكِ؛ فليس كمِثْلِ قدرتِه قدرةٌ.

نكتةُ تقديمِ القيدِ على المفعول به:

أُخِّر قولُه تعالى: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ وهو مفعولُ فِعْلِ التَّرْكِ عن قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾؛ لأنَّ البدءَ بذكر عدم تركِ شيءٍ على ظهرها أبلغُ في سياقِ التّهديد من ذكر عدمِ تركِ دابّة، وهو الّذي يُبيِّن كمالَ اقتدارِ اللّه على الأرضِ؛ فدلَّ التَّقديمُ على شدَّة الاقتدارِ على كلِّ دابَّةٍ؛ لسَبْقِ بيانِ الاقتدارِ على ما يَحْمِلُ كلَّ دابَّةٍ.

التَّرهيبُ والوعيدُ من عِللِ تقديمِ بعضِ القيودِ على بعض

دلالةُ العمومِ في قيدِ ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾:

دخلَ حرفُ ﴿مِن﴾ على لفظ ﴿دَآبَّةٖ﴾ في قولِه: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ لزيادةِ العمومِ والتَّوكيد، واختيرتْ مفردةُ ﴿دَآبَّةٖ﴾ نكرةً لبيانِ العمومِ.

بلاغةُ التّغليبِ في ﴿دَآبَّةٖ﴾:

غلّبتِ الآيةُ في الاستعمال مفردةَ ﴿دَآبَّةٖ﴾ في قولِه: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ وهي تشملُ العقلاءَ وغيرَ العُقلاء، منَ البشرِ وسائرِ الحيوانات، وكلِّ ما يصحُّ إطلاقُ الدّابة عليه، وهذا ما يقتضيه المعنى اللّغويُّ لهذه المفردة؛ وذلك لتوبيخِ البشر بتنزيلِهم منزلةَ الدّوابِّ، ولإشعارِهم أنَّ ما أصابَ الدّوابَّ إنّما هو بسبب كَسْبِهم، وأنَّ خيرَ الدّوابِّ قد لَحِقَهم، وشرَّهم لحِقَ الدّوابَّ، ففضل الدّوابُّ العاصينَ من هذا الباب.

خيرُ الدّوابِّ لَحِقَ البشرَ وشرُّ البشرِ لَحِقَ الدّوابَّ

مزيدُ العنايةِ بالجملِ المتّصلة يُنزِّل كلَّ جملة مستقلّةٍ عن أختِها

بلاغةُ الوَصْلِ بالواوِ:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ عاطفةٌ للجملةِ على قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾؛ وبينَ الجملتينِ كمالُ اتِّصال؛ لأنَّ الجملة الثّانيةَ تقرِّرُ معنى الجملة الأولى؛ لأنَّ تأخيرَهُم إلى أجلٍ مُسمّى يلزمُ معنى الجملةِ السّابقة التي تقرِّرُ أنَّ هلاكهم لم يقَع؛ لأنَّ المؤاخذة لم تقَع؛ وكمالُ الاتِّصال يقتضي غيابَ الواوِ؛ وإنّما أشعرتِ (الواو) باستقلال ما بعدها عمّا قبلها؛ اعتناءً به؛ تنبيهًا على امتنانِه تعالى على النّاسِ بنعمةِ الإمهالِ إلى أجلٍ مُسَمًّى.

الإيماءُ إلى استحقاقِ المُشركينَ العذابَ بقوّةٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستدراك:

جاءَ استعمالُ حرف الاستدراكِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ﴾؛ دلالةً على شدَّة استحقاقِهم العذابَ في الدُّنيا؛ فكأنَّ حالَهُم يَسۡتَوۡجِبُ المؤاخذةَ والعقابَ والهلاكَ، ويستدعي ذلك بشِدَّةٍ؛ مع أنَّ الله قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾؛ كأنَّ المُتلقّينَ لا يُصدِّقون ذلك، ويُحرِّكُهم نحوَ توقُّعِ حُلولِ العذابِ بهِم عِظَمُ ما كسَبوا مِن أعمالٍ سيِّئةٍ، فكأنَّه استدركَ ذلك عليهم؛ فقال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾؛ ففي (لكن) بيانٌ لعِظَمِ جُرۡمِ النّاسِ والمشركينَ؛ إبلاغًا في تهديدِ النّاسِ عامَّةً وترهيبِهم مِن مُطلقِ معصيةٍ، وتهديدِ المشركينَ خاصَّةً وترهيبِهم مِنَ الكفرِ والشِّرْك، وبيانٌ لعظيمِ حِلْمِ اللّهِ عليهم.

القرآنُ يزرعُ قيمَ الهدايةِ في القلوبِ ليُحرِّكَهُم للإيمانِ

علَّةُ التّعبيرِ بلفظِ (التَّأخيرِ):

جاء استعمالُ مفردة التَّأخيرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ﴾؛ لتنبيهِ أهلِ الشِّرْكِ والكفرِ خاصَّةً على تأخُّرِهم عن اتِّباعِ الحقِّ والانقيادِ للهُدى، ومَن كان كذلكَ لم يَكُنۡ في تُؤَدةٍ وسكونٍ حقيقيَّيۡنِ؛ بل كانَ في عكسِ ذلك تمامًا؛ وإنۡ ملَكَ الدُّنيا بأسۡرِها؛ بدليلِ

نفورِهم مِنَ النَّذيرِ؛ لَمّا جاءَهُم، واستكبارِهم في الأرضِ، ومكرِهِم المكرَ السَّيِّءَ، وفي اختيارِ هذا اللَّفظ إشارةٌ إلى تفسيرِ لازم مضمونِ قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي ولو يُعجّل الله الحسابَ والجزاء بمجرَّد وقوعِ المعصية والكفر منهم ولكنْ يُؤخّرُهم، فيكون بينهما طباقٌ غرضُهُ الامتنانُ وبيانُ عظيمِ الحِلْم والحِكْمة.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

رُبَّ حـذفٍ أبلغُ من ذكْـرٍ، ورُبَّ محذوفٍ يُعلَمُ مِن مذكور

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾، والنّاسُ لا يتأخّرونَ إلى هذا اليومِ أحياءً، وإنَّما يموتونَ جميعًا، ثم يُحْشَرون؛ فكان ذلك قرينةً على حذفٍ؛ والتَّقديرُ: ولكن يؤخِّرُ مؤاخذتَهم - أي: مُجازاتَهم - إلى أجلٍ مسمّى؛ وفي تسليط التَّأخيرِ على الذَّواتِ نتيجةً للحذفِ إبلاغٌ في التَّوعُّدِ بالعقابِ، وفي أنَّه آتٍ لا محالةَ؛ لأنَّ تأخيرَ الذّاتِ تأخيرٌ لِما سوف يقومُ بها مِن بابِ أَوْلَى، وفيه تنبيهٌ على قوّة اتِّصافِهم بالذُّنوبِ التي أَوْجَبَت لهم المجازاةَ والمؤاخذةَ الَّتي أَخذوا حُكْمَها في تسلُّط التَّأخيرِ عليهم.

دلالةُ صيغةِ المضارعةِ:

المـشـركـونَ يُجدِّدونَ سوءًا ويُجدِّدُ الله لهم إحْسانًا

نَظَمَ القرآنُ معْنَى التَّأخيرِ فِعْلًا مُضارِعًا في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ النّاسَ عامَّةً وأهلَ الشِّرْكِ والكفرِ خاصَّةً يكونُ منهم على جهةِ التَّجدُّدِ ما لو أخَذَهُم اللّهُ به أهلكَهُم، فالمضارعةُ تبرزُ قبحَ النّاسِ وسوءَهُم مِن جهةٍ، وجميلَ صُنْعِ اللّهِ بهم ومعَهُم مِن جهةٍ أخرى.

نكتةُ استعمالِ حرف ﴿إِلَىٰٓ﴾:

دَمْـجٌ بـيـنَ الامتنانِ والإنذارِ

جاءَ استعمالُ حرف الانتهاءِ ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾؛ للدّلالةِ على طولِ الإمهالِ والتّأخير؛ معَ أنَّ ما كسبوا يَستوجبُ أنْ يقع بهم العقابُ والمؤاخذةُ بشِدَّةٍ، وللإشارةِ إلى أنَّهُم مهما طغَوْا واستكبَروا وأصرّوا على معصيتهم، وكفرهم

وشركهم فإنَّ لوجودِهم في الحياةِ الدُّنْيا نِهايَةً وانتهاءً؛ فإذا جاءَ أجلُهُم أُخِذوا بِشِدَّةٍ؛ ففيه إنذارٌ وتهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ وواضِحٌ، ويستلزمُ حرفُ الانتهاءِ حرفَ الابتداء (مِن) الذي حُذف ليدلَّ على أنَّ ذكر التَّأخيرَ هو الأهمُّ، وهو مُستمِرٌّ من زمنِ وقوعِ المعاصي منهم إلى زمنِ موتِهم أوْ نشورهم للحسابِ والجزاء.

بلاغةُ استعمالِ ﴿أَجَلٍ﴾ وتنكيرِها:

الأجلُ نِهايةُ دُنْيا الإنسانِ؛ لتبدأَ أُخْراه

جاءَ استعمالُ مفردةِ (الأجلِ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّه لا تأخيرَ بعدَه مطلقًا؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ فلا يستقيمُ مع معنَى التَّأخيرِ التَّعبيرُ بالعُمُرِ، وتنكيرُ ﴿أَجَلٍ﴾ يفيدُ تفخيمَه وتهويلَه وتعظيمَه؛ لِما فيه مِن حَسْمٍ؛ لأنَّهُ آخِرُ مُدَّةِ العُمُرِ المَضْروبةِ لهُم في عِلْمِ اللّهِ سبحانه، وبَعْدَهُ مُباشَرةً تكونُ المُفاجَآتُ العَظيمَةُ، والأَهْوالُ الفَخْمَةُ الجَسيمَةُ.

دلالةُ وصْفِ الأجلِ بـ﴿مُّسَمًّىۖ﴾:

إخبارُ الإنسانِ بمجيءِ ما يُنكِرُهُ يُقْلِقُه فيُنكرُه

وُصِفَ الأجلُ بأنَّه ﴿مُّسَمًّىۖ﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾؛ للدّلالةِ على مَجيءِ البَعْثِ الذي لا يُؤْمِنُ به المشركون؛ أي: إنَّ هذا الأجلَ سمّاه اللّهُ في الأزَلِ؛ لانقضاءِ أعمارِهم، ثمَّ لبعْثِهم من قبورِهم[1]، ومعنَى هذا الوصفِ قرينةٌ على إفادة تنكير ﴿أَجَلٍ﴾ ما ذكرنا؛ لأنَّ عندَ البعثِ وبعدَه تظهرُ العجائبُ، وتُبلَى السَّرائرُ، وإنَّما قال القرآنُ: ﴿مُّسَمًّىۖ﴾ دونَ: (مُعَيَّنٍ أو مُقدَّرٍ)؛ لأنَّه أبلغُ في إفادةِ أنَّه مُعَيَّن أوَ مُقَدَّرٌ؛ فالأجلُ معيّنٌ مُقدّرٌ، وهو دليلُ التّعيينِ والتّقديرِ؛ وهو يُشيرُ إلى كمالِ علْمِه تعالى بأحوالِ خَلْقِه.

معنى (الفاء) ودلالتُها:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ عاطفةٌ لِما بعدها على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 238.

الفاءُ تكشف للنّاس حقيقة مُدَّةِ تأخير مُجازاتِهم

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ مَجيء أجلِهم؛ ووراءَ هذا مِنَ المعنَى حقارةُ الدُّنْيا؛ لأنَّ المكثَ فيها ينتهي؛ وإنْ طالَ؛ ففي (الفاءِ) ترغيبُ النّاسِ في كسبِ الأعمال الصّالحة، ورأسُها التَّوحيدُ، وترهيبُهم مِنَ السّيِّئاتِ عامَّة والشِّرْكِ خاصَّةً، وتهديدُهم بسرعةِ مَجيء الجزاءِ؛ المُترتِّبِ على مجيءِ أجلِهم سَريعًا.

دلالةُ استعمالِ (إذا):

تحقُّق مجيءِ الأجلِ يُشعرُ بانتهاءِ الأجل

جاء استعمالُ (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ دونَ (إن)؛ للدّلالةِ على تحقُّق مجيء أجلِهم؛ لأنَّ اللّه "لا يُبدَّلُ القولُ لديه؛ لِما له مِنَ الصِّفاتِ التي هيَ أغربُ الغريبِ عندَكُم؛ لكونِكُم لا تُدْرِكونها حقَّ الإدراكِ"[1]، وفي تحقيقِ مجيءِ أجلِهم تهديدٌ ووعيدٌ لهُم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمجيء ماضيًا:

جاء التّعبيرُ بمفردةِ المجيء المسندِ إلى الأجلِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾؛ لأنَّ مجيءَ الأجلِ مجيءٌ صَعْبٌ[2]؛ فهو مجيءُ الموت، والموتُ صَعْبٌ على الإنسانِ، وفي إسنادِ المجيء إلى الأجل وهو الوقت المعلوم مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ الظّرفيَّة؛ إذِ الوقتُ لا يأتي بل يأتي الموتُ في الوقتِ المحدَّد، والغرضُ منه القطعُ بحلولِه ونزوله كما نقطعُ بحلولِ المستقبلِ مِنَ الأوقات، والأصلُ في الفعل بعد (إذا) أنْ يكونَ مضارِعًا؛ لأنَّها للشَّرطِ في الاستقبالِ، وإنَّما جيءَ بعدَها بالماضي؛ لكونِه أقربَ إلى القَطْعِ بوقوعِ الفعلِ الذي تدلُّ عليه (إذا)؛ نظرًا إلى جانبِ اللَّفظ؛ فهو ماضٍ لفظًا مستقبلٌ معنًى؛ ففي ذلك إبلاغٌ في تحقيقِ مَجيءِ أجلِهم؛ فتعلو نبرةُ التَّهديدِ والوعيد.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 238.

(2) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 32 - 33.

الإخبارُ بمجيءِ الأجلِ إخبارٌ بمجيءِ الجزاءِ وشدّتِه

دلالةُ الإضافة:

آثرَ النَّظمُ الكريمِ الإضافةَ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ دون أنْ يقولَ: (فإذا جاء الأجلُ)؛ لإرشادِ السّياقِ إلى أنَّه أجلُ النّاسِ؛ ففي إضافةِ الأجلِ إلى ضميرِ النّاسِ إبلاغٌ في حصولِ أجلِهم ومجيئِه، وحصولِ ما يترتَّبُ على ذلك مِنَ المُجازاة؛ فكانتِ الإضافةُ مُشْعِرةً بجزاءِ الشَّرْطِ بقوَّةٍ.

حصولُ الأجلِ حصولٌ للجزاءِ؛ إبلاغًا في حصولِ الجزاءِ

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشّرط:

المرادُ بـ(الأجلِ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ إمّا الموتُ وإمّا البعثُ يومَ الحَشْر، وجوابُ الشَّرْطِ محذوفٌ على الوجهيْن، وتقديرُه بالمُجازاةِ ظاهرٌ على الوجهِ الثّاني، أي: إذا جاءَ أجلُهم جازَيناهُم، وأمّا على الوجهِ الأوَّل فعلى أنَّ الجزاءَ يبدأُ من ساعةِ حُلولِ الأجلِ؛ نظرًا إلى ظهورِ الحقائقِ على وجوهِها للإنسانِ عند المُجازاة؛ فكذلك هيَ عند حلولِ الأجَل، أوْ نظرًا إلى سُرعةِ مجيءِ الجزاءِ بعدَ مجيءِ الأجَل؛ كأنَّه لا اعتبارَ بالمُدَّةِ التي بينَ حُلولِ الأجَلِ وحصولِ المُجازاة؛ إبلاغًا في التَّرهيبِ والتَّهديدِ الحاسِم، ودليلُ كونِ تقدير المحذوفِ هو فعلُ (جازاهُم) قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾، وفي الحذفِ إشارةٌ إلى الحَسْمِ والقَطْعِ في المجازاةِ؛ مبالغةً في بيانِ تحقُّقِه؛ نظرًا إلى التَّأخيرِ والإمهالِ، وأنَّ النّاسَ مهما طالَتْ مُدَّةُ تأخيرِ جزائهم ومُؤاخذتِهم فجزاؤُهُم كائنٌ لا محالةَ، وحسَّنَ حذفَ الجوابِ قوَّةُ إشعارِ إضافةِ (الأجلِ) إلى ضميرِ النّاسِ به.

رقابةُ اللهِ للعبادِ إشعارٌ بمُجازاتِهم على أعمالِهم

معنى (الفاء) ودلالتُها:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ تعليليَّةٌ؛ بجعْلِ ما بعدَها علَّةً لِما قبلَها، وما بعدَها موضوعٌ موضِعَ جزاءِ الشَّرْطِ، وليس بجزائِه؛ لتحقيقِ حصولِ المجازاةِ؛ إذا جاءَ أجلُ

النّاسِ، وهذا توكيدٌ خفيٌّ لذلك؛ يواجِهُ إنكارَ كثيرٍ مِنَ النّاسِ للبعثِ وما بعدَه؛ وهمُ المشركونَ.

غرضُ التّوكيد:

توكيدُ المُنكَر تحريكٌ للنَّظَرِ في اعتقادِ ثُبوتِه

مِن عناصرِ التَّوكيدِ الظّاهرِ لمضمون جزاءِ الشَّرْطِ المحذوفِ؛ بتوكيدِ ما يدلُّ عليه؛ وهو ما بعدَ (الفاءِ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾، فحرف (إنَّ) التي تواجِه إنكارَ القوم للبعثِ؛ وإنكارُ البعثِ يلزمُ عنه إنكارُ مضمون ما بعد (الفاء) في هذه الجملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالة:

يَحسُنُ الإظهارُ في جملة التّعليل والتّبيين

أظهَرتِ الفاصلةُ اسْمَ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ بعدَ ذكرِه بالاسم الظّاهر في صدرِ الآية، ثمَّ بضميرِه في باقيها؛ لأنَّ الغرضَ إثباتُ الألوهيَّة؛ في مُقابلةِ إثباتِ بطلانِ الألوهيَّةِ لِما يدعوه المشركونَ مِن دونِ اللّهِ؛ اتِّساقًا مع حركةِ المعنى في السّياقِ، والأبلغُ في هذا الإثباتِ في مقطعِ السّورةِ الإظهارُ لا الإضمارُ.

سِرُّ ذِكْرِ فعلِ الكونِ الماضي:

رقابةُ الله القديمةُ تزيدُ مِنَ الطّمَعِ في الرَّحمةِ والتّرهيبِ مِنَ العذاب

آثرَ النّظمُ الكريم ذكرَ فعلِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾؛ لكونِ الآيةِ آخِرَ آيِ السّورةِ، فكانَ الأعلى الإبلاغَ في تقريرِ الألوهيَّة؛ بذِكْرِ كلمةِ الكونِ الماضي؛ الدّالِّ على أنَّ كونَه تعالى بصيرًا بعبادِه مِن شأنِه ومِن أخصِّ صفاتِه؛ فمثْلُ ذلك لا يَصْدُرُ إلّا عنه سبحانه، والفعلُ إذا أُسْنِدَ إلى اللّهِ تجرَّدَ مِنَ الزَّمان، أي: كانَ، ولم يزَلْ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ (عباد):

الإخبارُ بأنّهم ناسٌ أوّلَ الآية؛ ليُلفتهم إلى أنّهم عبادٌ في آخِرِها

في التَّعبيرِ عنِ (النّاس) بلفظِ (العباد) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾؛ دون الضَّمير؛ بأنْ يُقال: (فإن اللّه كان بهم

بصيرا)؛ إشارةٌ إلى ما ينبغي أنْ يترتَّبَ على كوْنِهِ الَّذي أوْجَدَهُم؛ بدلالة الإضافة؛ وهو أنْ يكونوا عبادًا له وحْدَه فيوحِّدوه، ولا يُشْرِكوا به شيئًا، وذلك جوهرُ العبوديَّةِ الحَقَّةِ الصّادقةِ؛ وفي هذا تقريبٌ لهم، فذكرَ وصفَهم ليعرفوا حقيقةَ رَصفِهم.

دلالةُ الإضافة:

معرفةُ الإنسانِ حقيقةَ حالِه تـدْعـوه إلى الاعترافِ بحقيقةِ مآله

أضافَ القرآنُ العبادَ إلى ضميرِ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾؛ دلالةً في نورِ سياقِ إثباتِ الألوهيَّة الحقَّة، ودحْضِ الألوهيَّة الباطلةِ على أنَّ اللّه هو الَّذي "أوجدَهُم، ولا شريك له في إيجادِ أحدٍ منهم بجميعِ ذواتِهم وأحوالِهم"(1)، وهذهِ الإضافةُ تعليلٌ في المعنى لمضمونِ الجملةِ المُثْبَتِ، وفي إضافتهم إليه بمعونة ذِكْرِ العبودية في (عباد) نوعُ تقريبٍ لهم في مقطعِ السّورةِ؛ رحمةً بهم؛ لعلَّهم يرجعونَ عن معصيتِه إلى طاعتِهِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

لُطْفُ اللهِ بعبادِه قرينُ مراقبةِ أفعالِ عبادِه

كان الظّاهرُ أنْ يتقدَّمَ ﴿بَصِيرَۢا﴾ على ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾؛ لأنَّه خبرُ الكونِ الماضي، و﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلِّقٌ به؛ ففي التَّقديم إبلاغٌ في تقرير بصَرِه وعلْمِهِ تعالى بأحوال عبادِه، وبمَن يستحقُّ الثَّوابَ بما كَسَبَ، والعقابَ بما كَسَبَ؛ لاشتمالِ المُقدَّم على إضافةِ العبادِ إلى اللّه تعالى؛ أفلا يكونُ اللّه بصيرًا بخَلْقِه أعلى ما يكونُ بصرٌ وعلمٌ؟! ولا يجوزُ حَمْلُ التَّقديمِ على الاختصاصِ والقَصْرِ.

غرضُ صيغةِ المبالغةِ والتَّنكيرِ:

إحاطةُ علمِ الله تعالى لا تُحيطُ بها العقولُ

تدلُّ صيغةُ (فعيل) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ على شيءٍ من حقيقةِ المعنى؛ وهو كمالُه بحيثُ لا يكادُ يتحدَّدُ الأفرادُ المتعلِّقةُ به، وبحيثُ يُحيطُ بصرُه وعلمُه تعالى بكلِّ ما يتعلَّقُ بالعبادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 238.

جميعًا؛ ومَن يقدرُ على ذلك؟! وبذلك يظهرُ لنا التَّناغي بين هذه الصّيغة وبينَ جمعِ الكثرة ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾، وبه يظهرُ لنا أيضًا دلالةُ تنكير ﴿بَصِيرًۢا﴾ على غايةِ التَّعْظيم؛ أي: ارتفاعِ شأنِ هذا الوصفِ إلى حدٍّ لا يُمكِنُ معَه أنْ يُعْرَفَ على جهةِ الإحاطةِ والتَّمامِ والكمالِ.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في جوابِ الشَّرْطِ:

مُتابَعَةُ حركةِ المعنَى في السّورة تهدي إلى أسرارِ مُكوِّناتِها

جاءَ بعد قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾؛ وهو دليلُ جوابِ الشَّرط المحذوفِ الَّذي هو المُجازاةُ على كسبِ الخير والشَّرِّ، وليس هو جوابَه؛ وإنَّما كان الجزاءُ المُجازاةَ، وكانَ هذا دليلَها؛ نظرًا إلى سياقِ السِّباقِ ونورِ حركة المعنى فيه، وهذه الجملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ لمّا كانت تُحقِّقُ وتؤكِّدُ حصولَ الجزاءِ في الآخرة على ما كسبوا؛ على جهة اللُّزوم؛ فإنَّها مؤسَّسَةٌ على التَّهديدِ بمجيءِ سُنَّةِ اللّه في الأوَّلين في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾، إذ حالُهم يقتضي حتميَّةَ حصولِ الجزاءِ لهم في الدّنيا؛ بدليل هذا التّهديد، فإذا تأخَّر في الدُّنيا كان حاصلًا لا محالةَ في الآخرة؛ فكان هو المُحتفَلَ به في آخرِ آيةٍ؛ من جهة جَعْلِه جوابَ الشَّرْطِ، وتحقيقِه بآخِرِ جملةٍ في الآية والسّورة، ثمّ لَمّا كان تعالى بعباده بصيرًا كان مِن شأنه أنْ يفتح لهم رحمةً، ويُمْسِكَ لهم أخرى.

في حينِ جاءَ بعدَ قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ في سورة النَّحل قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النحل: 61]، وهذا هو عينُ جوابِ الشَّرْطِ، وهو يُحقِّقُ مجيءَ الأجلِ بأنَّه لا يتأخَّرُ ساعةً ولا يتقدَّمُ ساعةً؛ وإذا كان كذلك كانَ من شأنِه أنَّه يكونُ لا محالةَ؛ لأنَّه مُحدَّدٌ ومُقدَّرٌ بعِلْمٍ عَليٍّ؛ وهذا يعني وقوعَ الآخرةِ لا محالةَ؛ لأنّها تكونُ عقِبَ مجيءِ أجلِهم؛ لأنَّ دخولَ القبرِ أوَّلُ مراحلِ الآخرة؛

والبعث منه أوَّلُ حقائقِها؛ وكلُّ أولئكَ رَدٌّ في لُطْفٍ على إنكارِ الآخرةِ المُتَّصِلِ بقضيَّةِ الشِّرْكِ باللّه تعالى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكسبُ والصُّنعُ والفِعلُ والعَمَلُ:

الكسبُ مَلحوظٌ فيه التّحرّي، والصُّنعُ الإتقانُ، والعملُ القصدُ، والفِعلُ أعمُّها

(الكَسْبُ) ما يَتحرّاهُ الإنسانُ مِن عَمَلٍ فيه اجتلابُ نفْعٍ وتحصيلُ حَظٍّ؛ ككَسْبِ المالِ؛ فهو قائمٌ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، ولا يكونُ إلّا مِنَ الإنسانِ، والكَسْبُ: يُقال فيما أخَذَه الإنسانُ لنفسِه ولغيرِه، والكسبُ ورَد في استعمالاتِ القرآنِ بمعنى: فعل الصّالحات والسَّيِّئاتِ.

و(الصُّنْعُ) ترتيبُ العمل وإحكامُهُ على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يوَصِّلُ إلى المراد منه؛ ولذلك قيل للنَّجّار: صانعٌ، ولا يُقال للتّاجر: صانع؛ لأنَّ النَّجّار قد سبَق علمُه بما يريد عملَه مِن سرير أوْ بابٍ، وبالأسبابِ التي توصِّلُ إلى المراد مِن ذلك، والتّاجرُ لا يعلم إذا اتَّجَر أنّه يصِل إلى ما يريدُه مِنَ الرِّبْح أو لا، والصُّنْعُ أيضًا مُضمَّنٌ بالجودة؛ ولهذا يُقال: ثوبٌ صنيعٌ، وفلانٌ صنيعةُ فلانٍ؛ إذا اسْتخصَّه على غيرِه، وصنَع اللّهُ لفلانٍ، أي: أحسنَ إليه، وكلُّ ذلك كالفعل الجيِّد؛ فالصُّنْعُ إجادةُ الفعلِ.

و(الفعلُ) لفظٌ عامٌّ؛ يُقال لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلْمٍ أوْ بغير علم، وبقصدٍ أوْ بغير قصْدٍ، ولِما كان مِنَ الإنسان والحيوان والجماد؛ فكلُّ صنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا.

و(العملُ) لا يُقال إلّا لِما كان مِنَ الحيوانِ دونَ ما كانَ مِنَ الجمادِ، ولِما كان بقصْدٍ وعلمٍ دونَ ما لم يكُن عن قصدٍ وعلْمٍ؛ قال بعضُ الأدباء: العملُ مقلوبٌ عنِ العلْم؛ فإنَّ العلْمَ فعلُ القلب، والعملَ فعلُ الجارحة؛ وهو يبرزُ عن فعلِ القلبِ الذي هو العلمُ، وينقلبُ عنه.

والصّنعُ يكون بلا فكر؛ لشرف فاعلِه، والفعل قد يكون بلا فكر؛ لنقص فاعلِه، والعملُ لا يكونُ إلّا بفكرٍ؛ لتوسُّط فاعلِه؛ فالصُّنعُ أَخصُّ المعاني الثَّلاثة، والفعلُ أعمُّها، والعملُ أوسطُها، فكلُّ صنع عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا؛ وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[1].

الدّابَّة والحيوان:

الـدّابَّـةُ ملحوظٌ فيها الـدّبيبُ، والـحَـيَـوانُ مـلـحـوظٌ فيه الحياةُ

(الدّابَّةُ) كلُّ ما يَدِبُّ على الأرضِ مِمّا له حركةٌ؛ والدَّبُّ والدَّبيبُ مَشْيٌ خفيفٌ، و(الحيوانُ) مَقَرُّ الحياةِ؛ ويُقال على ضربيْن: أحدُهما: ما لهُ الحاسَّةُ، والثّاني: ما لهُ البقاءُ الأبَديُّ؛ وهو المذكورُ في قولِه ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]، وقال بعضُ أهلِ اللُّغة: الحيوانُ والحياةُ واحدٌ، وقيل: الحَيَوانُ ما فيه الحياةُ، والمَوَتانِ ما ليس فيه الحياةُ، والأفرادُ التي يُطْلَقُ عليها: (الحيوانُ) في أصلِ اللّغةِ أقلُّ بكثيرٍ مِنَ الأفرادِ التي يُطْلَقُ عليها (دابَّة) في أصل اللّغةِ؛ فالعمومُ في (دابّة) أعلى منه في (الحيوان)[2].

التَّأخيرُ والإمهالُ:

كــلُّ إمــهـالٍ تـأخـيرٌ؛ وليس كلُّ تأخيرٍ إمهالًا

(التَّأخيرُ) مُقابلُ التَّقديم؛ لدلالة أصلِه على خلافِ التَّقدُّم؛ قال تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: 13]، وقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42]، و(الإمهالُ) مِنَ المَهَلِ الذي هو التُّؤدةُ التُّؤَدةُ والسُّكونُ؛ يُقال: مهَل في فعلِه، وعمِلَ في مُهْلةٍ، ويُقال: مَهْلًا نحوَ: رِفْقًا، فالتّأخيرُ أعمُّ مِنَ الإمهالِ؛ لأنّه قد يكونُ فيه تُؤدةٌ وسُكونٌ، وقد يكونُ فيه عكسُ ذلك، وقد يكونُ فيها ذلك كلُّه، وقد يُلاحَظُ فيه غيرُ ذلك كلِّه.

(1) الراغب، المفردات: (صنع)، (كسب)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 321 - 323، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).

(2) الراغب، المفردات: (حيي)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 208.

الأجلُ لا يتبدَّلُ، وقد يتبدَّلُ العُمُرُ

الأجَلُ والعُمُر:

(الأجَلُ) الوقتُ المضروبُ لانقضاءِ الشّيء، ولا يكونُ أجَلًا بجَعْلِ جاعلٍ، وما عُلِمَ أنَّه يكونُ في وقتٍ فلا أجلَ له إلّا أنْ يحكمَ بأنَّه يكونُ فيه، وأجلُ الإنسانِ هو الوقتُ لانقضاءِ عُمُره، وأجلُ الدَّيْنِ محلُّه؛ وذلك لانقضاء مُدَّة الدَّيْنِ، فالأجل: هو آخِرُ مُدَّة العُمُر المضْروبة في علم اللّه تعالى؛ فهو لا يتبدَّلُ.

و(العُمُرُ) هو ما يتبدَّلُ، ويَحتملُ الزّيادةَ والنُّقْصانَ؛ لأنَّ للّه كتابيْنِ: كتابًا مخزونًا محفوظًا عنده، وهو المُعبَّرُ عنه بأمِّ الكتابِ، وكتابَ محوٍ وإثباتٍ، ويُستأنَسُ هذا الفرقُ بينَ الأَجَل والعُمُر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [فاطر: 11]، وقولِه في غيرِ موضعٍ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النحل: 61][1].

(1) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 19 - 20، والراغب، المفردات: (أجل).

سُورَةُ يسٓ

سُورَةُ يسٓ

التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

سورةُ يس مكّيّةٌ كلُّها باتّفاق

سورةُ يس كلُّها مكّيّةٌ بالاتّفاق(1)، وذهب بعضُهم إلى القول بمدنيَّة الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: 12]، حيث نزلَتْ في بني سَلَمةَ من الأنصار، حينَ أرادوا أنْ يتركوا ديارَهم ويَنتقلوا إلى جِوارِ مَسجِدِ رسولِ اللّه ﷺ، فقال لهم: «ديارَكُم تُكتَبْ آثارُكم»(2)، وليس الأمرُ كذلك كما يَرى ابنُ عطيّةَ الأندلسيّ، وإنّما نزلَتِ الآيةُ بمكّةَ، ولكنّه احتجّ بها عليهم في المدينة(3)، ولا يوجَدُ دليلٌ على استثنائِها.

ترتيب المصحف وترتيب النزول وعد الآي:

وهي السّورةُ السّادسةُ والثّلاثونَ في ترتيبِ المُصحَفِ الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابتُ، والمُعوّلُ عليه عندَ أهلِ النّظرِ والتّحقيق، جاءَتْ بينَ سورتَي (فاطر) و(الصّافّات)، وأمّا ترتيبُها النّزوليّ فهي الحاديةُ والأَرْبَعونَ في تَرْتيبِ نُزولِ سوَرِ القُرْآنِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورةِ (الجنّ)، وقبلَ سورَةِ (الفُرْقانِ)(4).

وفي عدد آياتها يقول الدّاني: "وَهي ثَمانونَ وثَلاثُ آياتٍ في الكوفيّ، وثمانونَ وآيتانِ في عدَدِ الباقينَ"(5).

فضائل السورة:

وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ في فضلِ سورة (يس) وفوائدِها، ولكنّ

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2474/ 445.

(2) مسلم، الصّحيح، حديث رقم: (280).

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2474/ 445.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 342، دَرْوَزَة، التَّفسير الحديث: 3/ 20.

(5) الدّاني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 211.

المحقّقينَ من أهل العلْم حَكموا عليها بالضَّعْف، مثلُ قولِه ﷺ: «مَنْ قرأ يس في ليلةٍ أصبحَ مغفورًا له»[1]، وقولِه ﷺ: «مَن قرأ يس في ليلةٍ ابتغاءَ وجهِ الله غُفِرَ له»[2]، وقولِه ﷺ: «اقرَؤوا على مَوْتاكُم يس»[3]، وقولِه ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وقَلْبُ القُرْآنِ يس، ومَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ اللّٰهُ لَهُ بِقراءَتِها قِراءَةَ القُرْآنِ عَشْرَ مَرّاتٍ»[4]، فلم يثبتْ في فضائلِها أحاديثُ صحيحةٌ على وجهِ الخصوص، سِوى ما تقدّم فيها وفي أخواتِها أنّها منَ المثاني؛ فعَنْ واثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «أُعْطيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وأُعْطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وَأُعْطيتُ مَكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ»[5].

أسماءُ السّورةِ الكريمةِ:

لم يَثبتْ لسورة (يس) اسمٌ آخر، وما أُثِرَ من أسماءٍ غيره تعبيرٌ عن مقاصدِها

وردتْ تسميَتُها بـ(يس) في كتبِ السُّنّة والتّفاسيرِ وسائرِ المَصاحف؛ ومنها صحيحُ البخاريّ[6]، وسُنَنُ التّرمذيّ[7]، يقولُ ابن عاشور: "سُمّيَتْ هَذِهِ السّورَةُ (يس) بِمُسَمَّى الحَرفَينِ الواقِعَينِ في أَوَّلِها في رَسمِ المُصحَفِ؛ لِأَنَّها انفَرَدت بهما، فَكانا مُمَيِّزَيْنِ لَها عَنْ بَقيَّةِ السّوَرِ، فَصارَ مَنطوقُهُما علمًا عَلَيها"[8]، وقد ذَكر لها البقاعيُّ بعضَ الأسماءِ الأُخرى التي اشتهرتْ بها، ولكن لا يُعرفُ لهذه الأسماءِ سندٌ صحيح، وهي: (القلبُ، والدّافعةُ، والقاضيةُ، والمُعِمَّة)[9].

وقد ربطَ البقاعيُّ أسماءَها بمقصودها فقال: "ومقصودُها:

(1) أبو يَعْلى، مُسند أبي يَعْلَى: حديث رقم: (6224).
(2) ابن حبّان، صحيح ابن حِبّان: حديث رقم (2574).
(3) أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم (3121).
(4) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، حديث رقم: (2887).
(5) ابن حنبل، مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (16982).
(6) البخاريّ، الصّحيح: باب تفسير سورة يس: 4/ 1805.
(7) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ: 5/ 162.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 341.
(9) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/ 388.

إثباتُ الرّسالةِ التي هي روحُ الوجود، المُفاض فيه من جهة المَلِك، وقلبُ جميعِ الحقائق، وبها قوامُها للمُرسَل بها، الذي هو خالصةُ المُرسَلين، الَّذين هم قلبُ الموجوداتِ كُلِّها، ذواتٌ ومعادنُ، إلى أهل مكّةَ أمِّ القرى وقلبِ الأرض، وهم قريشٌ قلبُ العرب، الَّذين هم قلبُ النّاس، بصلاحِهم صلاحُهم كلِّهم، وبفسادِهم فسادُهم، فلذلك كانَ مِن حولها جميعُ أهلِ الأرض، وجُلُّ فائدةِ الرِّسالة إثباتُ الوحدانيّةِ للعزيزِ الرّحيم، ذي الجلالِ والإكرام، والإنذارُ بيومِ الجمع، الذي بهِ - معَ سَترِه عن العيان، الذي هو من خواصِّ القلب - صلاحُ الخَلقِ؛ فهو قلبُ الأكوان، وبه الصّلاحُ أوِ الفسادُ للإنسان، وعلى ذلك تنطبقُ معاني أسمائِها: (يس، والقلبِ، والدّافعةِ، والقاضيةِ)"[1].

وذهبَ أبو السُّعود إلى أنّها سُمّيت بـ" الدّافعة والقاضية؛ لأنّها تدفعُ عنه كلَّ سوءٍ وتقضي له كلَّ حاجة"[2]، وسميت المُعِمَّة؛ لأنَّ مَن اعتقدَ الرّسالةَ كفَتْه جميعَ مُهمّه، ودفعتْ عنه سائرَ مُلمّه، وقضَتْ له بكلّ خير، وأعطَتْه كلَّ مراد، وكلٌّ منها له أتمُّ نظرٍ إلى القلب، كما لا يخفى، والمُعمّة: الشّاملةُ بالخير والبركة[3].

وقال المهايميُّ: "سُمّيتْ بـ(يس)؛ لدلالاته باعتبارِ مُحتمَلاته على غايةِ تعظيمه ﷺ، وهذا من أعظم مَقاصِدِ القرآن"[4]، وهو يقصدُ بالمُحتمَلات أقوال العلماء في معاني هذيْن الحرفيْن؛ إذ يرى بعضُهم أنّ المقصود بهما هو رسولُ اللّه ﷺ، ويرى آخرونَ أنّها من الحروفِ المُفتتَح بها بعضُ سوَرِ الكتاب، ويرى بعضُهم أنّ المُرادَ بها نداءُ الإنسان، ويرى بعضُهم غيرَ ذلك.

❁ بيانُ محورِ السّورةِ العامّ:

هذه السّورةُ الكريمةُ تشاركُ أخواتِها من السّور المكّيّة في تناولِها قضايا التّوحيد والوحي والبعث، ويظهر ذلك من خلال ما سيأتي بيانه بالتفصيل:

أولًا: عَرَضَت السَّورة منذُ الآياتِ الأولى لهذه القضايا الثّلاث: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: 1 - 6].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 16/ 81.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 158.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 81.
(4) المهايميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنَّان: 3/ 80.

محورُ السّورة يقومُ على بيانِ أثرِ الرّسالاتِ في تحقيقِ الهِداياتِ

ثانيًا: تناولت السورة موضوعَ البعث مرارًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، و﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78 - 79].

ثالثًا: تناولتْ قضايا النّبوّة: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس: 13] ... ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ [يس: 17].

رابعًا: بحثتِ السورة الوحدانيّةَ ونفيَ الشُّركاء: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ [يس: 74 - 75].

خامسًا: اقتضى هذا المحورُ في السورة بيانَ مَهَمّة النّبيّ ﷺ.

سادسًا: اقتضى هذا المحور عرضَ الآيات الكونيّة الدّالّة على صِدق المرسَلين؛ لتعاضُد الأدلّة بين كتاب اللّه المسطور وبينَ الكون المنظور.

سابعًا: اقتضى هذا الأمرُ بيانَ استعجالِ المُكذّبين العذاب، وتحذيرَهم وقوعَه مرارًا كما وقعَ على المُكذّبين قبلَهم.

ثامنًا: اقتضى الأمر كذلك عرضًا لبعض شُبُهاتهم حولَ البعث والنّبوّة والوحدانيّة، وردَّها عليهم.

تاسعًا: كما اقتضى الأمر أن تَعرِض لهم نماذجَ بشريّةً ممّن كان حالُهم في التّكذيب كحالهم، وكيف أنّ اللّه تعالى استأصلَ شأفتَهم ودمّرَ بنيانهم.

موضوعات السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة حولَ تفصيلِ قضايا العقيدةِ الكبرى

معظمُ مقصودِ السّورة يظهر في النقاط الآتية:

أولًا: تأكيدُ أَمرِ القرآن، والرّسالة.

ثانيًا: إلزامُ الحجّة على أَهل الضّلالة.

ثالثًا: ضربُ المَثَل، وبيانُ البراهين المختلفة في إحياءِ الأَرض الميّتة، وإبداءِ اللَّيل، والنّهار، وسيرِ الكواكب، ودَوْرِ الأَفلاكِ، وجَرْيِ الجواري المُنشآت فى البحار، وذلَّةِ الكفارِ عندَ الموت، وحَيْرتِهم ساعةَ البَعْث، وسَعْدِ المؤمنينَ المُطيعين، وشُغُلِهم في الجنَّة، وتمييزِ المؤمن من الكافر في القيامةِ، وشهادةِ الجوارح على أَهلِ المعاصي بمعاصيهم.

رابعًا: إظهار المِنَّةِ على الرّسول ﷺ بصيانتِهِ من الشِّعْرِ ونَظْمِه.

خامسًا: إقامة البرهان على البعث، ونفاذ أَمر الحق وكمال مُلْك ذي الجلال على كلّ حال(1).

الخصائصُ الموضوعيّةُ للسّورة:

من بلاغةِ سورة يــس تـفـرّدُها بــخــصــائــصَ مازَتْها مِن غيرها

أولاً: تفرّدتِ السّورةُ الكريمة بذِكْرِها مظاهر مِن قدرة اللّه تعالى في الكونِ مازَتْها مِن غيرها من السّور، وإنْ شاركَتْها في ذِكْرِ ذاتِ المَظاهر، فمن ذلك الحديثُ عن منازلِ القمر، وعدم إدراكِ الشّمس للقمَر، وتنكيسِ الخلق، وسلخِ النّهار من اللّيل، وأنّ الكواكب تَسبَح في الأفلاك، وغير ذلك الكثير.

ثانيًا: التّنوّعُ الأسلوبيّ والموضوعيّ في الاستدلالِ على قضيّة البعث، حتّى ظنّ كثيرٌ من المصنّفين أنّ مقصودَ هذه السّورةِ يقومُ على إثبات البعث فحسبُ، فقد ذكر لهم من الآيات: إحياءَ الأرض بعدَ موتها، وفيه تشبيهٌ لإحيائِهم، وكذلك من خلال إشعالِ النّار من الشّجر الأخضر، ومن خلالِ ضرب المثَلِ بإحياءِ العظام وهي رميمٌ، وغير ذلك.

الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسّورة:

أولًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بكثرة ذِكْرِ المُقابلات وأسلوبِ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 390، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 344.

الطّباق فيها، وذلك لارتباطِ هذا الأسلوبِ بمحورِها، فمن ذلك: الإنذارُ والبُشرى، و﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، و﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ و﴿لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، والإحياء والإماتة، و﴿ٱلَّيۡلُ﴾ [يس: 37] و﴿ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، و﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ [يس: 38] ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ [يس: 39]، والكفر والإيمان، والأيدي والأرجُل، والإسرار والإعلان، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [يس: 81]، وهكذا.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورة الكريمة بأنساقٍ تعبيريّةٍ فريدة، منها: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾، و﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [يس: 70]، و﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾، و﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، و﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ [يس: 47]، و﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس: 51]، و﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا﴾ [يس: 52]، و﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: 60]، و﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: 68] وغيرها.

ثالثًا: ذُيّلَتْ إحدى وسبعون آيةً من آيات السّورة الكريمة بحرف النّون، والباقي وهو اثنتا عشرة آية بحرف الميم، مع قِصَرِ فواصلِها، وسُرعةِ إيقاعها، ممّا أعطى السّورة الكريمة إيقاعَها الخاصّ بها، وجرسَها الصّوتيّ المُميِّز لها من سائرِ السّوَر، ممّا يسهّل حفظَها وأداءَها، ووقعَها على الآذان.

رابعًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة في أسلوبِها بذِكْرِ بعضِ الأبنية والمُشتقّات الصّرفيّة التي لم تردْ في غيرها من السّور؛ فمنها من الأفعال: ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾ [يس: 14]، و﴿يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]، و﴿نُنَكِّسۡهُ﴾ [يس: 68]، و﴿أَعۡهَدۡ﴾ [يس: 60]، و﴿يَخِصِّمُونَ ٤٩﴾ [يس: 49]، و﴿تَطَيَّرۡنَا﴾ [يس: 18]، و﴿يُنقَذُونَ ٤٣﴾ [يس: 43]، و﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ [يس: 59] وغيرها، ومن الأسماء: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ [يس: 39]، و﴿صَرِيخَ﴾ [يس: 43]، و﴿جِبِلّٗا﴾ [يس: 62]، و﴿مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: 71]، و﴿ٱلۡأَخۡضَرِ﴾ [يس: 80] وغيرها، ولا شكّ أنّ لهذه الأبنيةِ والاشتقاقات ارتباطاتٍ قويّةً بمحور السّورة ومقصودِها العامّ.

خامسًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بذكرها ألفاظًا فريدة في جذْرِها اللّغويّ، وهي: ﴿مُّقۡمَحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ [يس: 8]، و(مسخناهم) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾ [يس: 67]، ولا شكّ أنّ هذا مُرتبطٌ بمحور السّورةِ الكريمة في بيانِ عاقبةِ المُكذّبين لدعواتِ الرُّسُل.

❁ بيانُ المناسبةِ بين سورةِ يس والسّورتيْن السّابقةِ واللّاحقةِ:

ملمحُ اتِّصالها بسورة فاطر مضمونًا وأسلوبًا:

تقدّمت في سورة (فاطر) بعضُ وجوهِ اتّصالها بسورةِ (يس)، ومنها:

أولًا: بعد أنْ ذَكَرَ تعالى في سورة فاطر قولَه: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: 37]، وقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ [فاطر: 42] والمُرادُ به محمد ﷺ، وقد أعرضوا عنه وكذَّبوه - افتتحَ سورة (يس) بالقسَمِ على صحّةِ رسالته، وأنَّه على صراطٍ مُستقيم، وأنَّه أُرسلَ ليُنذرَ قومًا ما أُنذرَ آباؤهم.

ثانيًا: هناك تشابهٌ بين السّورتيْن في إيرادِ بعضِ أدلَّةِ القدرةِ الإلهيَّة الكونيَّة، فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [فاطر: 13]، وقال في سورة يس: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس: 37 - 38]، وقال في فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12] وقال في يس: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41].

ثالثًا: اشتمالُ كلتا السّورتيْنِ على الوعدِ للمؤمنينَ والوعيدِ للكافرين، ففي فاطر: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر: 32 - 33]، وفي سورة (يس): ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ [يس: 55 - 56] ... ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65].

رابعًا: جاءَ الحديثُ عن عداوة الشّيطان في السّورتيْن، ففي فاطر: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6]، وفي (يس) ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس: 60 - 61].

خامسًا: جاءَ التّحذير للكافرينَ في كلتا السّورتيْن الكريمتيْن، ففي فاطر: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: 44]، وفي يس: ﴿وَٱضۡرِبۡ

لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤﴾ [يس: 13 - 14].

سادسًا: فضلًا عن اشتراك السّورتيّن بدلائلِ قدرةِ اللّه تعالى في الأنفُس والآفاق، ففي فاطر مثلًا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١﴾ [فاطر: 11]، وفي يس: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧﴾ [يس: 77].

ملمحُ اتِّصالها بسورة الصّافّات مضمونًا وأسلوبًا:

الظّاهر من أقوال العلماء أنّ سورة (الصافات) جاءتْ مُتمِّمةً ومُفصِّلةً لما جاء في يس؛ لذا قال السّيوطيّ: "هذه السّورة (الصّافّات) بعدَ (يس) كالأعرافِ بعدَ الأنعام، وكالشُّعَراءِ بعدَ الفرقان في تفصيلِ أحوالِ القرون المُشار إلى إهلاكهم"(1).

وممّا ذكر في وجوه اتّصالهما:

أولًا: أنّ في سورة الصافات تفصيلَ أحوالِ القرونِ الغابرة التي أُشير إليها إجمالًا في سورة (يس) في قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٣١﴾ [يس: 31].

ثانيًا: أنّ في سورة الصافات ذكر أحوالِ المؤمنينَ وأحوالِ أعدائهم الكافرينَ يومَ القيامة مفصلًا ممّا أُشير إليه إجمالًا في السّورة قبلَها.

ثالثًا: المشاكلةُ بينَ أوّلها وآخِرِ سابقتها، ذاك أنّه ذَكَرَ فيما قبلَها قُدرتَه تعالى على المَعاد وإحياءِ الموتى، وعلّل ذلك بأنّه مُنشِؤُهم، وأنّه إذا تعلّقتْ إرادته بشيءٍ كان، وذكرَ هنا ما هو كالدّليل على ذلك، وهو وحدانيّته تعالى، إذ لا يتمّ ما تعلّقت به الإرادةُ إيجادًا وإعدامًا إلّا إذا كان المريدُ واحدًا، كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22](2).

(1) السّيوطيّ، تناسق الدّرر، ص: 127.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 41.

﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤﴾ [يس: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لما قبلها:

تعظيمُ رسالةِ المُصطفى المُرسَل مِن تعظيمِ القرآنِ المنزَّل

بعد أنْ تكرّرَ ذِكْرُ مجيءِ النَّذير في سورةِ فاطر في قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ [فاطر: 37]، وقولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ﴾ [فاطر: 42] افتتحَ هذه السّورةَ بأنَّه تعالى أرسلَ محمّدًا ﷺ ليُنذرَ قومًا ما أُنذرَ آباؤُهم.

ولمّا أقسمَ اللّه تعالى بالقرآنِ الحكيم - وهو قسمٌ عظيمٌ - ناسبَهُ أنْ يكونَ جوابُ القسم أمرًا عظيمًا له شأنٌ يتعلَّق بالقرآن، وهو إثباتُ رسالةِ النّبيِّ ﷺ المُرسَل بالقرآن، ولمّا قرّر أنَّ رسول اللّه ﷺ من المرسَلين أخبرَ بأعظم أوصافِ الرّسول الدالَّة على صدقِ رسالته، وهو أنَّه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: (حكم) يدورُ اللّفظُ على معنى المَنْعِ، وأوّلُ ذلك الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكُلُّ شَيءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأَحْكَمْتَه، والإحكامُ: الحُسْنُ والإتقانُ، يُقالُ: أَحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ: أَتْقَنْتَهُ، والحكيمُ: المُتْقِنُ للأمورِ، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْم والعَقْلِ، وهي مِنَ اللّه تعالى: العلمُ بالأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات[1]، والمقصودُ بالحكيم في الآية: وصفٌ إمّا بمعنى فاعلٍ؛ أيِ الحاكِمُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حكم).

على الكُتُبِ بتمييزِ صحيحِها مِنْ مُحرَّفها، وإمّا بمعنى مُفْعَلٌ؛ أَيْ: مُحْكَمٌ، وإمّا بمعنى ذي الحكمةِ؛ لاشتمالِه على الحِكمةِ والحقِّ والحقائقِ العاليةِ.

2) ﴿صِرَٰطٍ﴾: أصلُ (صرط) الطَّريقُ الواضِحُ، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بِسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابْتَلَعْتَهُ؛ لِأَنَّهُ - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[1]، والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ.

3) ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: (قوم) المُستقيمُ: السَّويُّ، مُشْتَقٌّ مِنِ القَوامِ، وهو اعتدالُ الذّاتِ، يُقالُ: قَوَّمتُهُ فاستقامَ، وهو الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا تعاريجَ، والاستقامةُ تُقالُ في الطَّريقِ الَّذي يكون على خطٍّ مستوٍ، وبه شُبِّه طريق المُحِقّ، نحو: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، وهو أحسنُ الطُّرُقِ؛ لأنَّه أقربُ إلى المكان المقصودِ من غيرِه، وقوَّمتُ الشَّيءَ فهو قَويمٌ؛ أَيْ: مُستَقيمٌ[2]، والمُرادُ بالمستقيم في الآية: المُعتَدلُ الَّذي لا اعوجاجَ فيه[3]؛ وهو طريقُ الإسلامِ وشرعتُه ومنهاجُه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ صِدقِ النَّبيِّ ﷺ في البلاغِ عن الله ذي العُلوِّ، بدلالةِ تنزيلِ القرآنِ المتلوِّ

ابتدأَ اللّهُ تعالى هذه السّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿يسٓ﴾، وهو من الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَت بها بعضُ السّوَرِ القُرآنيَّةِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ثمَّ أقسَمَ تعالى بالقُرآنِ الحَكيمِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديه ولا من خَلْفِه على أنَّ مُحمَّدًا ﷺ من رُسُلِ اللّهِ، وهو على طَريقِ الهُدى المُستقيمِ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلِ إلى اللّهِ وإلى جنَّتِه، وأنَّ هذا القُرآنَ تَنزيلٌ من اللّهِ العزيزِ الرَّحيمِ[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن سِيده، المُحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط - صرط).

(2) الرّاغب، المُفردات، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/ 23.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 400، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 5، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 145.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ التّعبيرِ بالقَسَمِ في السّياقِ الأكرمِ:

في القَسَمِ دعوةٌ للتفكُّر وحثٌّ على التّدبُّر

في ذِكْر الدّليلِ بصورةِ اليمينِ تنوُّعُ أساليب ذِكْرِه، والحِكْمَةُ من الإتيانِ بالقَسَم في إثباتِ رسالةِ النَّبيّ ﷺ، في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ - مع أنَّ التَّعبير به بمثابةِ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظّاهر؛ لأنّ الكفّار أنكروا كونَ محمَّدٍ ﷺ مرسَلًا، وأنكروا كونَ القرآنِ من عند الله تعالى، والمَطالبُ تُثبَتُ بالدّليل لا بالقسَم - تتلخص في أنَّ في القسَم إشعارًا بالدّليل، بأنَّ إرسالَه فيه حكمةٌ عظيمةٌ، فمَنْ تأمّلَ في الحِكمة من رسالتِه ﷺ وتفكَّر في أحوالِها شخصًا وزمانًا ومكانًا؛ علِمَ صدقَه ﷺ؛ فالقسمُ فيه إشعارٌ بالدَّعوةِ للتفكُّر، وحثٌّ على تدبُّرِ وجهِ الحكمة من إرسالِه ﷺ، وهو ما يُفضي إلى الإيمان والإذعان، كما أنَّه إذا ابتُدِئَ بالدّليل على صورة اليمين، واليمينُ لا تَقَع لا سيَّما من العظيم إلّا على أمرٍ عظيم، عَظُمَ قدْرُه وجلَّ خطرُه عندَهم بما عجَزوا عن الإتيانِ بمثله بعدَ قرعٍ أسماعِهم، فأشعرَ بجلالةِ قدره وقرَّرَ كونَه من عند الله تعالى، وآذنَ بتفخيم شأنِ المُقسم عليه، والأمرُ العظيمُ تتوفّر الدّواعي الى السُّؤالِ عنه، والإصغاءِ إليه، وعندَ ذكر اليمين تشرئبُّ القلوبُ لسَماع المُقسَم عليه، فيحصلُ التأثيرُ، ولكونِه دليلًا شافيًا؛ فإنَّه يقعُ في السّمعِ وينفعُ القلب، ثم إنَّ الحلفَ بالقرآن ممّن يَعتقدُ تعظيمَه أَرجى لإقناعِ المُخاطبين وثقتِهم بصِدقِه؛ إذ كانوا لا يُقسِمون إلّا بما عظُمَ قدرُهُ وجلَّ خطرُهُ، يقولونَ: ما هذا القرآنُ الَّذي أقسمَ ربُّنا به[1].

القرآنُ دليلُ صدقِ المُبلِّغ عن الله في دَعواه النُّبوَّة

ثمّ إنَّ هذا ليس مُجرَّد حَلِفٍ، وإنَّما هو دليلٌ خرجَ في صورة الحلفِ، بذِكْرِ القَسَم وهو ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بمعنى أنَّ دليلَ كونِه

(1) الماتُريديّ، تأويلاتُ أهلِ السُّنَّة: 8/ 503، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 251 - 252.

مُرسَلًا هو القرآن الحكيم، الَّذي هو معجزةٌ، فالقرآن هو الحاكمُ على أنَّ الرَّسول ﷺ صادقٌ في دعوى النّبوَّة؛ لِأَنَّ المُعْجِزَةَ الكُبْرَى لرسولِ اللّٰه هي القرآن؛ أي لمّا كان القسمُ يكون لما عظُم شأنُه وجلَّ قدرُه وكان مفيدًا تأكيدَ ما يُخبر عنه في جواب القسم، أفادَ القسمُ تعظيمَ شأنِ جوابِ القسم - وهو إثباتُ رسالته ﷺ - وتأكيدَ كونه من المرسَلين، ووجوبَ الاعتقاد برسالتِه وبكونه منهم، كما أنَّ في القسمِ إيماءً إلى تهديدِ مَن لم يُؤمن برسالته ﷺ، ولهذا أعقبَه بذكرِ الإنذار في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

سرُّ تخصيصِ القَسَمِ بالقرآنَ المُقيَّد بصفةِ الحكيمِ:

أدِلَّةُ القُرآنِ كُلُّها برهانٌ على رِسالةِ رسولِ اللهِ للإنسِ والجانِّ

في تخصيصِ القُرآن بالإقسام به أَوَّلًا وبوصفه بالحكيم ثانيًا في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تنويهٌ بشأن القرآنِ، ودليلٌ على عَظَمتِه؛ لأنَّ اللّٰهَ تعالى أقسَمَ به، ولا يُقسِمُ إلّا بشيءٍ مُعَظَّم، والقرآنُ الكريمُ عَظيمٌ في نفسِه، وفيه تنبيهٌ على أنَّ القرآنَ كما يشهدُ برسالته ﷺ من حيث نظمُه المُعجزُ المُنطوي على بدائعِ الحُكَم يشهدُ بها من حيث حِكمتُه؛ لأنَّ الإقسامَ بالشيء استشهادٌ به على تحقُّق مضمون الجملة القسميَّةِ وتقويةٌ لثبوته، فيكون شاهدًا به ودليلًا عليه قَطْعًا[1]؛ أيْ: لو لم يكُنْ لرِسالتِه دَليلٌ ولا شاهِدٌ إلّا هذا القرآنُ الحَكيمُ، لَكفَى به دَليلًا وشاهِدًا على رِسالةِ محمَّدٍ ﷺ؛ بل القُرآنُ العظيمُ أقوى الأدِلَّة المتَّصِلةِ المُستَمِرَّةِ على رِسالةِ الرَّسولِ؛ فأدِلَّةُ القُرآنِ كُلُّها أدِلَّةٌ لِرِسالته ﷺ[2].

وجهُ تعريفِ لفظِ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾:

من صورِ إعجازِ القرآنِ أنّ كلّه حكيمٌ، وأنَّ بعضَه أيضًا حكيمٌ

(أل) في لفظ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ للعهد، فيُقصَدُ به القرآنُ المُنَزّلُ على النّبيِّ ﷺ، ولمّا كان المُنَزّل من القرآن لم يكتملْ وقتَ نزولِ هذه الآية؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 692.

كان المُرادُ المُنزّلَ معَ ما سينزّل، فجميعُ القرآن حكيمٌ وبعضُه حكيم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القرآن سيكتملُ نزولُه، وهو من لطائفِ الإعجاز في الإخبار عمّا يَستقبل، وفيه إيذانٌ بأنَّ بعضَ القرآن قرآنٌ، كما أنَّ القرآن يُطلقُ على جميعِ السّوَر والآيات، ولمّا كان اللّفظُ المُطلقُ يُصرَفُ إلى الفردِ الكامل كانَ المُرادُ من القرآن هنا القرآنَ كاملًا.

بلاغةُ الكنايةِ في الآية:

تمامُ الحكمةِ تنزيلُ القرآنِ الحكيمِ على الرّسولِ الحكيمِ

لمّا أقسمَ بالقرآنِ بقيدِ اتّصافِه بالحكيم في قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وكان المُقسَم عليه قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ أفادَ الكلامُ بلازمِه أنَّ اختيارَ اللّه لكَ يا محمَّد ﷺ للرِّسالة فيه حكمةٌ بالغة، وأنَّ اختيار الرّسلِ وإرسالَهم فيه حكمةٌ، وكونَ القرآن مُنزّلًا عليك دون غيرك فيه حكمةٌ، وفيه من لطيفِ البلاغةِ وصفُ رسول اللّه ﷺ بالحكمةِ البالغة؛ لأنَّ القرآن الحكيمَ لا يليقُ أنْ يُنزَّلَ على غيرِ الحكيم.

فائدة (أل) والوصف بـ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾:

القرآن مُتّصف بكلِّ أوصافِ الكمالِ والحكمةِ

اللّام في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ لاستغراقِ أوصافِ الكمال؛ أيْ إنَّ القرآن هو الكتابُ الَّذي اتّصفَ بجميعِ أوصافِ الحكمةِ وكمالِها، وعبّر عن القرآن بالوصف به؛ لما تُفيدُه الصّفة من معنى اتّصافِ الموصوف بها اتّصافًا لازمًا، وأفادَ اشتمالَ القرآن كلِّه على الحكمة.

دلالةُ الوصفِ بـ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ صيغةً:

مَن تمسّك بالقرآنِ وعمِلَ بما فيه؛ تفجّرتِ الحكمةُ مِن نواحيه

يَحتمِلُ الوصفُ بـ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ الذي هو على صيغةِ (فعيل) كونَه بمعنى: فاعل؛ بمعنى أنَّ القرآن حاكمٌ يُميِّزُ بين الحقِّ والباطل ويُفصِّلُ الحلالَ من الحرام، أوْ كونَه بمعنى: مُفعَل، فالقرآنُ مُحكَم في آياتِه ومعانيه وحلالِه وحرامِه وأحكامِه، وليس فيه إلّا الحقُّ، فلا يلحقُهُ تغييرٌ ولا نقصٌ ولا اختلالٌ، ويحتملُ أن تكون صيغةُ (فعيل) للنّسبة؛ أيْ: ذي الحكمة، فمَنْ

تمسَّك به وعمِلَ بما فيه يصيرُ حكيمًا، وعلى الأوجهِ كلِّها الصّيغةُ تفيدُ المبالغةَ في الاتّصافِ بالحِكمة(1)، ولا مانعَ من اجتماعِ هذه المعاني كلِّها في وصفِ القرآنِ، ولا سيَّما أنَّ الصّفةَ جاءَتْ معرَّفةً باللّامِ التي هي لاستغراقِ أوصافِ الكمالِ، ليفيد اتّصافَ القرآنِ بكلِّ أوصافِ الكمالِ المذكورةِ.

دلالةُ الصّفةِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

القرآنُ حكيمٌ؛ لأنَّــه كــلامُ الحكيمِ

يحتمل أنَّ الصِّفةَ في قولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يُرادُ بها الحقيقة، فتكون وصفًا للقرآن بأنَّه ذو حكمةٍ، وأنَّه محكَمٌ في أسلوبه ومعانيه، وأنَّه منسوبٌ إلى الحكمة كما تقدَّم، أو على أنَّ حكيمًا بمعنى مُحكَم، ويحتمل - كما أجازه الزّمخشريّ - أن يكونَ قد وُصِفَ بوصفِ مُنَزِّلِهِ المُتَكَلِّم به؛ أي: وُصِف القرآنُ بالحكيم؛ لأنَّه كلامُ الحكيم وهو اللّه ﷻ فوُصِفَ بصفةِ المُتكلِّم به، فيكون مجازًا عقليًّا من قبيل إسناد المبنيِّ للفاعل إلى المفعولِ بواسطة حرف الجرِّ بناءً على أن (حكيم) بمعنى الفاعل لا المفعول؛ إذ الأصلُ: حكيمٌ في أسلوبِه، ويحتملُ أن يكون الكلامُ على (الاستعارة) بتشبيهِ القرآن بالحيِّ النّاطقِ بالحكمة، فحُذف المُشبَّه به وهو الحيُّ، وذَكَر شيئًا من لوازمِه وهي الحِكمة، فجُعل القرآنُ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة كالشَّخص النّاطق بالحكمة، والقرينةُ نسبةُ الحكيم إليه، والغرضُ الاستدلالُ على حِكمة القرآن بالدليل؛ أيْ: هو دليلٌ ناطقٌ بالحكمة كالحيِّ، ويحتملُ أنْ يكون مجازًا مُرسَلًا بعلاقة السّببيَّة؛ أيْ: لأنَّه يدلُّ على الحِكمة والصّواب صارَ كأنَّه الحكيمُ في نفسِه(2).

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 3، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 446، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 251.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 3، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 251، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 7، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 158، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 231، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 90.

بلاغةُ جوابِ القَسَمِ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

محطُّ النّظر إثباتُ رسالة سيّدِ البَشَرِ

لمّا كانت جملةُ القَسَم لا تستقلُّ بنفسها حتى تُتْبَع بما يُقْسَم عليه؛ لأنّ المتكلِّم لا يقصدُ الإخبارَ بالحَلْف فقط، وإنّما يريدُ أن يُخبر بأمرٍ آخرَ - كانَ محطُّ النّظر جوابَ القسم، وهو هنا قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الدّالُّ على إثباتِ رسالة محمَّد ﷺ، وأنَّه مرسَلٌ كسائر المرسَلين في كونِهم من عند الله، وفي تضمّن رسالاتِهم أصولَ الإيمان، وإنّما أكّده بالقَسَم ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ لأنَّ للقرآنِ نوعَ تعلُّقٍ بالمقسَم عليه، فإنَّ القرآن الحكيم دليلٌ وعلَمٌ على الرّسالةِ، ومن لطائف القسَم في القرآن هو أنَّ "الرُّسلَ مقسَمٌ عليهم في القرآنِ لا مُقسَمٌ بهم"(1).

بلاغةُ تتابُعِ التّأكيدِ في السّياقِ المجيدِ:

التّأكيدُ تسليةٌ للقلبِ الشّريفِ، وتَعريضٌ بأهلِ الشّركِ والتّزييفِ

جاء الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مُضمَّنًا التّأكيد بـ(إنَّ) واللّام الواقعةِ في جوابِ القَسَم الذي يُفيدُ تأكيدَ المُقسَم عليه كذلك، والجملةِ الاسميَّة؛ لِتفيدَ بجموعِها بمجموعها الرَّدَّ على إنكار الكَفَرةِ بقولِهم في حقِّه ﷺ: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾(2)[الرّعد: 43]، فيكون الخبرُ إنكاريًّا على مقتضى الظّاهر، كما أفادَ تتابُعُ التّأكيدِ التَّعْريضَ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذينَ كَذَّبوا بِالرِّسالَةِ وأنكروها؛ فَهوَ تَأْنيسٌ لِلنَّبيِّ ﷺ، وتسليةٌ لقلبه الشّريف ﷺ، وهو تَعريضٌ بِالْمُشركينَ، والتَّأْكيدُ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ زيادَةُ تَقْريرٍ بإثباتِ رسالتِه لأهمّيّتها(3)، ولا سيَّما أنَّ الكلامَ في سياقِ الْمُخاطبةِ الذي يفيدُ التّقريبَ، ليفيد المعنى: إنَّهم وإنْ أنكروا رسالتَك وكان الظّاهرُ أنْ تحزنَ لإنكارِهم وتكذيبِهم لكنَّك الرّسولُ المقرَّب عندي، فيكون الخبرُ المؤكّد بثلاثة تأكيداتٍ بهذا المعنى على

(1) ابن قيم الجوزيّة، التّبيان، ص: 143.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 5، والعليميّ، فتح الرّحمن: 5/ 467.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 158، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 345 - 346.

خلاف مُقتضى الظّاهر، فجمعَ الخبرُ في لفظٍ واحدٍ بين كونِه جاء على مقتضى الظّاهر باعتبارٍ وعلى خلافِه باعتبار آخر، والمعنيانِ مقصودان، وهذا من بديعِ بلاغةِ القرآن.

فائدةُ ضميرِ الخطابِ في قوله: ﴿إِنَّكَ﴾:

إثباتُ الرّسالةِ بالمخاطبةِ أشرفُ وأعظمُ للمُخاطَبِ

الخطابُ بـ(ضمير الكاف) في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للنبيِّ ﷺ، ولمّا كان المُرادُ تعيينَ المخاطَب وتقريبَه جاء الكلامُ في سياق المُخاطَبة، وليفيدَ مدحَ المُخاطَب ﷺ، وتعظيمَ رسالتِه وتشريفَهما، فإنَّ إثباتَ الرّسالة من المُرسِل على سبيل المُخاطَبة أشرفُ وأعظمُ للمُخاطَب.

فائدة (مِنْ) في السّياقِ المُحكَم:

تشريفُ الرّسولِ الأعظمِ، وتخصيصُهُ بالرّسالةِ والختمِ

(مِنْ) في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تبعيضيَّة؛ بمعنى: إنَّك من بعضِ المرسَلين، ليُفيدَ اتّصافَه بالرّسالة من عند اللّه، ولمّا جاءَ الكلامُ في سياق المُخاطبة، أفادَ تشريفَه ﷺ وخصوصيَّته في الاتّصاف بالرِّسالة، فإنَّه وإنْ كان من بعضِهم، لكنَّه ليس كسائرِهم عليهم الصّلاة والسّلام في الفَضْل والشّرف والقُرب عند اللّه تعالى، كما أفادَ التَّعبيرُ بالبعضيّة التّعريضَ بمَن فرّق بينَ الرُّسُل في الإيمان؛ إذ كونُه واحدًا منهم داعٍ إلى التصديقِ به والإيمانِ برسالتِه.

دلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

تنوّعُ دلالةِ التّعريفِ مفيدٌ في الإبانةِ عن السّياقِ المُنيف

(اللّام) في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للعهدِ[1]؛ والمعنى: إنَّك من المرسَلين المعهودينَ الّذين أرسلَهم اللّه تعالى، وتحتملُ أنْ تكون للاستغراق العُرفيّ؛ أيْ: جميعِ المرسَلين من عند اللّه، والمعنى على الوجهَيْن واحدٌ، وفي التعبيرِ بصيغة المفعول إشارةٌ إلى أنَّ رسوليّتَك لم تكن حاصلةً باختيارٍ أوْ كسبٍ أوِ ادّعاء؛ بل وقع عليك الاختيارُ لما يعلمُهُ تعالى في ذاتِ المرسَلين ممّا يحارُ به العقلُ الرَّشيد.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 93.

سببُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

إرسالُ المُرسَلين لا يكون إلّا من ربِّ العالمين

لمّا كان المعنى: إنَّك من المرسَلين المعهودينَ؛ اكتُفي به عن ذِكْرِ المتعلِّق، فلم يَقُلْ: إنّك من المرسَلين من عندِ اللّه؛ للإيجاز في الكلام، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إرسالَ المرسَلين لا يكونُ إلّا من عندِ اللّه، فكأنَّه أمرٌ معهودٌ معروف، فضلًا عمّا في حذف المُتعلِّق من رعايةٍ للفاصلة.

سرُّ تخصيصِ الرّسولِ الأكرمِ في قَسَمِ اللهِ المُعظّم:

القَسَمُ الشَّريفُ خَصوصيَّةٌ لرسولِ اللهِ وتشريف

لم يُقسِمِ اللّهُ ﷻ لأحدٍ مِنْ أنبيائِهِ بالرِّسالةِ في كتابِه الحكيم إلّا لهُ ﷺ؛ تكريمًا له وتشريفًا، ففيه خَصوصيَّةٌ لرسولِ اللّه ﷺ[1]، ولعلَّ سببَ التَّخصيص به أيضًا أنَّ رسالتَه ﷺ خاتمةٌ للرّسالات جميعًا، وناسخةٌ لها كلّها؛ فكان القَسَمُ على رسالتِه إشارةً إلى دوام تلك الرِّسالة، وأنَّه لا يُقبَلُ اتّباعُ رسالةٍ غيرِها، فيكونُ إنكارُها وإنكارُ رسوليّته إنكارًا للرِّسالات كافّةً، فناسبَ تأكيدُ رسوليّته وتخصيصُها بالقَسَم لها.

فائدةُ الجملةِ الاسميّة في السّياقِ:

جاءَ جوابُ القَسَم جملةً اسميَّةً في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لتُفيدَ ثبوتَ مضمونِ الجملةِ ودوامَها، ففيه إيذانٌ بثبوتِ الرّسالة له ﷺ في عموم الزَّمانِ والمكانِ.

علّةُ الإعمالِ في الآيةِ:

ما جاءَ به الرّسولُ الخاتمُ هو عينُ ما سبق به المُرسَلونَ الأكارمُ

لمّا كان المُرادُ إثباتَ رسالةِ رسول اللّه ﷺ كانَ الظّاهر أنْ يقول: (إنَّك لرسول اللّه)، فهو أخصُّ وأخْصرُ، وأدلُّ على المقصود في الظّاهر، لكنّه عدل إلى التّعبير بـ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لكونه أبلغَ من حيثُ وصْفُهُ بالرّسالةِ في ضمنِ وصفِه بأنَّه من المرسلين، فكأنَّه في حُكم المُكرَّر للتّأكيدِ وللتَّقرير لمناسبةِ المقام؛ فهو من أصول

(1) العليميّ، فتح الرّحمن: 5/ 467.

الإيمانِ، وفيه إشعارٌ بأنَّك معدودٌ من المرسَلين الَّذين آمَن بهم مَن قبلُ وصدَّقَ بهم[1]، فمَن آمنَ بالمرسَلين مِن قبلُ ينبغي أنْ يُؤمنَ بك، وأنَّك ممّن عُرف حالُه في إرسالي[2]، "كما تقول: فلانٌ من العلماء، فيكون أبلغَ من قولك: فلان عالمٌ"[3]، وفيه إشعارٌ بأنَّ الإيمانَ برسولِ اللّه ﷺ هو من تمامِ الإيمان بالمرسَلين، وبأنَّ كلَّ مُرسَلٍ سالكٌ للطَّريق المُستقيم في عقيدتِه ونهجِ شريعته، وفيه إيذانٌ كذلك بأنَّ ما تأتي به من أصولِ الإيمان ومن العقائدِ هو عينُ ما أتى به المرسَلون من قبل، كما أنَّ فيه رعايةً للفاصلة.

دلالةُ تنوّعِ السّياقِ بين الخبريّةِ والحالِ:

تنوّعُ التّوجيهِ النّحويِّ المُستفادِ إثراءٌ للمعنى وبيانٌ للمُراد

يُحتملُ أن يكون قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبرًا ثانيًا لـ(إنَّ)، وهو الأحسنُ عندَ كثيرٍ من أهلِ العربيّة والتَّفسير، وهوَ الظّاهِرُ مِنَ النَّظْمِ؛ لِتَرَتُّبِ: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عَلَى الإنذار المُستلزم اتّصافَه ﷺ بالخبرَيْنِ؛ أي: بكونِه من المُرسَلين وكونِه على صراطٍ مُستقيم، والتّقدير: (إنَّك من المُرسَلينَ وإنَّك على صراطٍ مُستقيم)، فيكون جوابُ القَسَم مُضمّنًا خبرَيْن، وهو الظّاهر، ليفيد التّصريحَ بأنَّه ﷺ على طريقةٍ مُستقيمة، فهو تأكيدٌ لاستقامةِ ما عليه ﷺ وما جاءَ به من الشّرع الكريم، وتقريرٌ له، وتعدّدُ الخبر أيضًا يناسبُ عظمةَ القَسَمِ رفعةً لشأنِ المُقسَم عليه، ويؤيّدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى إخبارًا عن رسول اللّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّخرف: 43]، ويكونُ ردًّا على المُكذِّبينَ المُنكرينَ لرسالتِه أوّلًا، ولكونه على طريقةٍ مُستقيمة ثانيًا، ويَحتَمِل أنْ يكونَ من صلةِ المرسلينَ فيكون حالًا، وهي حالٌ مُقترنةٌ؛ أيْ: (إنَّك من المرسلين حالَ كونهم على صراطٍ

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 503، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 90.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 93.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 331.

مُستقيم)[1]؛ لإثباتِ اقترانِ هذه الحالِ بهم؛ أيْ: إنَّ جميعَ المرسلين على صراطٍ مستقيم، ويؤيّد هذا الوجهَ قولُه تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6 - 7]، ويدخلُ في حالِ كونِ المرسَلينَ على صراطٍ مُستقيم حالُه ﷺ دخولًا أوّليًّا؛ لمجيئِه في سياقِ مُخاطبةِ رسول اللّه ﷺ، وعلى هذا التّوجيهِ لا يحسُنُ الوقفُ على ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ ما بعدَهُ مُتعلّقٌ به[2].

بلاغةُ الاستعارةِ بحرفِ الجرِّ:

قـوّةُ تـمكُّنِ الـرّسـالـةِ في الـصّحّـةِ والاسـتـقـامـةِ والدّلالةِ

عُبِّرَ بحرفِ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ على طريق الاستعارة[3]، فالكلامُ تَمْثيلٌ لِحالِ رسولِ اللّه ﷺ - على توجيهِ أنْ يكون ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ خبرًا ثانيًا - بأنْ شُبِّهتْ هيئةُ تمكُّنه ﷺ من الرّسالةِ، الّتي أُرسِل بها وثباتِه واستقرارِه عليها، والسّيرِ في تبليغِها، بهيئةِ الرّاكب في الاعتلاءِ على المركوبِ والتّمكّنِ من تصريفِه، فوجهُ الشّبه هو التّمكّنُ والاستقرار، ودلَّ على التّشبيه حرفُ الاستعلاء؛ لأنَّ الاستعلاءَ أقوى أنواعِ تمكّنِ شيءٍ من شيءٍ، وكلا طرَفَي التّشبيهِ حالةٌ مُنتزَعةٌ من مُتعدّد، فجاءَ الكلام على طريقِ الاستعارة التَّمثيليَّة التّبعيَّة، وإنْ كان: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ حالًا من ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فتكونُ الاستعارةُ التّمثيليَّةُ التّبعيَّة تمثيلًا لحالِ تمكُّنِهم من رسالتِهم واستقرارِهم عليها بحالِ مَن اعتلى الشّيءَ وركِبَه.

بلاغةُ الاستعارةِ في استقامةِ الصّراطِ:

الـقـرآنُ حـاوي الـدّيـنِ الـقـويـمِ والمُـبـيـنُ عـن الـصّـراطِ المُستقيمِ

في قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارةٌ تصريحية، فقد شُبِّهَ الهُدَى الموَصِّلُ إلَى الفَوْزِ في الآخِرَة، وهوَ الدِّينُ الَّذي بُعِثَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، والخُلُقُ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 327، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 278، والنّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 259، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 451، والعُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1078، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 413.
(2) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 6001.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 91.

الَّذي لَقَّنَهُ اللَّهُ بِطَريقٍ مُسْتَقيم لا اعْوِجاجَ فيهِ من حيثُ إنَّهُ مَوْثوقٌ بهِ في الإيصالِ إلَى المَقْصودِ دونَ أَنْ يَتَرَدَّدَ السّائِرُ فيه، فالإسْلامُ فيهِ الهُدَى في الحَياتَيْن، ومُتَّبِعُهُ كالسّائِرِ في صِراطٍ مُسْتَقيم لا حَيْرَةَ في سَيْرِهِ تَعْتَريهِ حَتَّى يَبْلُغَ المَكانَ المُرادَ، ولمّا كان ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مِن تمام المقسَم عليه؛ أشعرَ أنَّ المُقسَمَ به؛ أي: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو حاوي الدّين، فَكانَ القُرْآنُ مِنَ الصِّراطِ المُسْتَقيم(1).

دلالةُ لازمِ الفائدةِ في الآيةِ الرّاشدةِ:

الرّسولُ على الصّراطِ المُستقيمِ، ودينُهُ هو الهُدى القَويمُ

ليس الغرَضُ مِن الإخبارِ عن المخاطَبِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ إفادةَ كَونِ رسولِ اللّه ﷺ على صِراطٍ مُستقيم؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ حُصولُه مِن الإخبارِ مِن كَونِه أحَدَ المرسَلينَ، ولكنَّ الغرَضَ من هذا التّركيب بيانُ تمكُّنِه من الرّسالة وثباتِه عليها بحسب ما تقدَّم من تقريرِ الاستعارة، أوْ يكونُ جمعًا بين الفائدةِ ولازمِها؛ أيْ: تقريرُ كونِه ﷺ على صراطٍ مُستقيم وتمكّنِه من الرّسالةِ، ومن فوائدِ الخبرِ الجمْعُ بيْنَ حالِ الرَّسولِ ﷺ وبيْنَ حالِ شريعتِه ودينِه؛ ليَكونَ العِلْمُ بأنَّ دينَه صِراطٌ مُستقيمٌ عِلْمًا مُستقلًّا لا ضِمْنيًّا(2).

توجيهُ دلالةِ الوصفِ:

الصّراطُ المُستقيمُ هو الإسلامُ العظيمُ

اختلفَتْ أقوالُ المُفسِّرينَ في تعيينِ المُرادِ من قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، والصّحيح أنَّ تعيينَ القولِ المُرادِ يعتمدُ على توجيه الجارِّ والمجرور، فإنْ كان ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ خبرًا ثانيًا لـ(إنَّ) فالمقصودُ من الصِّراط المُستقيم هو الإسلامُ، فيكونُ قد أخبرَ عن رسولِ اللّه ﷺ بخبريْن؛ أيْ: إنَّك من المرسَلين وإنَّك على طريق مستقيم، وهو الإسلام، فهو المنهج السَّليم والدّينُ القويمُ والشّرع المُستقيم؛ لأنَّ طريقَ الأديان كلِّها غيرُ الإسلام؛ أيْ: بعدَ إرسالِ رسولِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 346.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 346.

اللّه ﷺ ليس بمُستقيم، وإنْ كان ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ صلةً لـ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ليكونَ وصفًا لجميعِ المُرسَلين، فيُقصدُ به الطّريقُ التي لا اعوجاجَ فيها، وهو توحيدُ اللّه تعالى وجميعُ الاعتقاداتِ الحقَّة والاستقامةُ في العمَلِ، ومِن جُملتِه الثَّباتُ على الإيمانِ وإخلاصِ العمَل وأداءِ الفرائضِ، وهذا المجموعُ جادَّةٌ مسلوكةٌ للمُرسَلين(1).

بلاغةُ الإطنابِ في الآية:

شريعةُ الرّسولِ وأحكامُها أقومُ الشَّرائعِ وأعدلُها

قد يُقالُ: أيُّ حاجةٍ إلى قولِه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ خبرًا كانَ أوْ صلةً، وقد عُلِم أنّ المرسَلينَ لا يكونونَ إلّا على صراطٍ مُستقيم؟ وجوابُه أنَّ له نكاتٍ؛ منها: أنَّ ما يعظُمُ شأنُه ويُهتمُّ لأمرِه لعمومِ الانتفاعِ به لا يُكتفى بما يدلُّ عليه بطريقِ الالتزامِ بلفظ ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ليفيدَ وصفُ الشّرعِ صريحًا بالاستقامةِ بعدَما دلَّ عليه التزامًا تقويةَ المعنى وتقريرَه.

رسولُ اللهِ على الطّريقِ المُستقيمِ وشريعتُه أَقومُ الشَّرائعِ وأعدلُها

ليسَ الغرضُ مِن ذِكْرِ الجملة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تمييزَ مَن أُرسِلَ على صراطٍ مُستقيمٍ مِن غيرِه ممَّن ليس على صفتِه، وإنَّما الغرضُ وصفُهُ ووصفُ ما جاء به من الشَّريعة؛ بمعنى أنَّ شريعتَه ﷺ أَقومُ الشَّرائعِ وأعدلُها، فجمعَ بين الوصفَيْنِ في نظامٍ واحدٍ، كأنَّه قال: إنَّك لمِنَ المُرسَلينَ الثّابتينَ على طريقٍ ثابتٍ، وفيه أمرٌ آخر، وهو أنَّه ليس الغرضُ في إيقاعِ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ خبرًا أو صلةً مُجرَّدَ الإخبارِ؛ أيْ: ذكرَ نفسِ الخبرِ؛ بلِ المقصودُ الأوّليُّ اتّصافُ المُسندِ إليه وهو ضميرُ (الكاف) العائدُ إلى رسولِ اللّه ﷺ بالخبرِ؛ بمعنى أنَّ الوصفَ مُستقرٌّ فيه ثابتٌ عليه، وأنَّه جادّتُه؛ بل هو عادتُه(2).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 490، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 451، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 91.

(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 3 - 4، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 263، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 8.

فائدةُ التّنكيرِ في قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

لا صـراطَ مثلُ صراطِ الإسلامِ، ولا استقامةَ مثلُ استقامتِه

يفيدُ تنكيرُ الموصوفِ وصفتِه في قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تفخيمَ الصّراطِ وتعظيمَه وتفخيمَ استقامتِه وتعظيمَها؛ بمعنى أنَّه ﷺ أُرسِلَ من بين الصُّرُط المستقيمةِ على صراطٍ مُستقيم؛ فكأنَّه جعلَ الصِّراطَ المُستقيم الصُّرُطَ كلَّها، ثمَّ جُرِّدَ منها صراطٌ مستقيمٌ، وهو هي[1]، كما يفيدُ التّفخيمُ في سياق الامتنان أنْ لا صراطَ مثلُ هذا الصّراطِ ولا استقامةَ مثلُ استقامتِه.

دلالةُ الصّفةِ في السّياقِ:

تأكيدُ استقامةِ الصّراطِ بيانٌ للمَغزى المُستفادِ

وُصِفَ لفظ (الصِّراط) بأنَّه ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ على سبيل تقريرِ المعنى، وبيانُه أنَّه لمّا كان الصّراط، وهو الطّريق الواسِعُ الواضحُ الذي لا اعوجاجَ فيه، ولا يكون إلّا مستقيمًا[2]؛ كان تقييدُ الصّراطِ بالصّفة على سبيل تأكيدِ استقامتِه وتقريرِها، وفي وصفِ الصِّراط بالمستقيمِ دعوى يُثبتُها أنَّ أساسَ الصّراط القرآنُ الحكيم؛ فتكونُ الاستقامةُ ثابتةً للمنهج المُعبَّر عنه بالصّراط؛ لأنّه منهجٌ مُحكَمٌ منسوبٌ إلى الحِكمة والإتقان، ويكونُ المعنى: أقسمُ إنَّك من المرسَلين لأنّك مؤيّدٌ بالرِّسالة التي هي القرآنُ، وإنَّك على الصِّراط المستقيم؛ لأنَّ القرآن مُحكَمٌ لا نقصَ فيه ولا اختلال، فلا بدَّ أنْ يكون الطّريقُ مُستقيمًا لا انحرافَ فيه ولا اعوجاج.

بلاغةُ الكناية في الآية:

مَنِ اتَّبعَ الرّسولَ اهتدى، ومَن جانَفَ سبيلَه ضلَّ وهلكَ

في قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ كنايةٌ، بيانُها أنَّه لمّا كان المُقسَم به هو القرآنَ الحكيمَ الَّذي أُرسِلَ به رسولُ اللّه ﷺ، وكان قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

---

(1) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 4، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 9، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 159.

(2) الرّاغب، المُفردات: (صرط).

من تمامِ جوابِ القسم، وهو وصفٌ لرسولِ اللّه ﷺ على الوجهَيْن؛ أيْ: تصريحًا أوْ ضمنًا، أفادَ بلازمِه أنَّ مَن يهتدِ بالقرآنِ فهو على صراطٍ مُستقيم، ولمّا كانَ رسولُ اللّه ﷺ مُتمكّنًا على الصّراط المستقيم قائمًا عليه أفادَ بلازمِه كذلك أنَّ مَن اتَّبعَه فقد اهتدى، ومَنِ اتَّخذ سبيلًا غيرَ سبيلِه فقد ضلّ وهَلَكَ.

بلاغةُ التّعريضِ في السّياقِ الحكيمِ:

كـفـى بـالـلـه شـهـيـدًا على صــدقِ رسـالـةِ نبيِّه واستقامتِها

في جملة جواب القَسَم: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تعريضٌ بمَن أنكرَ رسالةَ الرَّسول ﷺ بأنَّه تعالى كفى به شهيدًا بأنَّك رسولُ اللّه، وأنَّ مَن لم يتّبعْك فهو في طريق الضّلالة وليسَ على صراطٍ مستقيم[1]؛ بل القرآنُ الحكيمُ المُقسَمُ به شاهدٌ على أنّك رسولُ اللّه، وأنّك على طريقٍ مُستقيمٍ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 91.

﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥﴾ [يس: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ إرسالِ النّبيّ ﷺ بالقرآن المنزّل من العزيز الرّحيم

لَمّا كانَ كأنَّه قيل: ما هذا الّذي أُرسِلَ به؟ كان كأنَّه قيلَ جوابًا لِمَن سأل: هو القرآنُ الّذي وقع الإقسامُ به، أوْ قيلَ: ما هو وصفُهُ؟ فجاءَت هذه الآية[1]، وأيضًا: "بعدَ أَنِ استوفَى القَسَمُ جوابَهُ رَجَعَ الكَلامُ إلَى بَعْضِ المَقْصودِ مِنَ القَسَم، وهوَ تَشْريفُ المُقْسَم بِهِ، فَوصفَه فقال: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾"[2]، ولا يبعدُ أَنْ يكونَ المُرادُ بالصِّراطِ المُستقيم هو القرآنَ الحكيمَ بقرينةِ أنّه أردفَه بأنَّه تنزيلُ العزيزِ الرَّحيم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ تنزيلٌ من العزيزِ الرّحيمِ بمضمونِه المُعجِزِ العظيم

يخبرُ اللّه تعالى عن القرآنِ بأنَّه مُنزّل تنزيلَ اللّهِ العزيزِ في انتقامِه من أهلِ الكُفرِ به، الرَّحيمِ بمَن تابَ إليه، وأنابَ من كُفرِه وفُسوقِه، فلا يُعاقِبُه على سالفِ جُرمِه بعدَ توبتِه له[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدرِ ﴿تَنزِيلَ﴾:

التّنزيلُ التّدريجيّ المُنجّم خصوصيّةٌ للقرآنِ المُحكَم

لمّا كان لفظ ﴿تَنزِيلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مصدرَ الفعل (نزّل) أفادَ أنَّ القرآن كانَ ينزلُ شيئًا فشيئًا، ليُفيدَ التّدريجَ في تنزيله، كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]، وفيه إشعارٌ بأنَّ تنزيلَه على التّدريجِ فيه حِكمةٌ.

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 93.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 346.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 491.

دلالة لفظ ﴿تَنزِيلَ﴾ في السّياق الجليل:

مِنّةُ اللهِ في تنزيلِ القرآن المتلوّ هي رفعةٌ له وتعظيمٌ وعُلوّ

في التّعبير بلفظ ﴿تَنزِيلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دلالةٌ على عُلوِّ القرآن ورفعتِه؛ لأنَّ لفظَ التّنزيل يُشيرُ إلى علوِّ المُنزَّل ورفعتِه، كما يُشعِرُ اللّفظُ بفضل القرآن على النّاسِ لتنزيلِه من علوٍّ، ومنّةِ اللّه عليهم في إنزالِه، فإنَّ المُنزَّل من علوٍّ لما ينفعُ النّاس يفيدُ التَّفضّل على المُنزّل عليهم.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

تنوّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ ثراءٌ للمعنى وسعةٌ في الدّلالةِ

قَرَأَ ابْنُ عامِرٍ وحَمْزَةُ والكِسائِيُّ وحَفْصٌ عن عاصم وخلفٌ ﴿تَنزِيلَ﴾ بفتح اللّامِ؛ كَأَنَّهُ قالَ: نُزِّلَ تَنْزِيلَ العزيزِ الرّحيم، ففيه تأكيدٌ بذِكْرِ المصدر، أَوْ يكونُ التّقدير: أَعْني مِنْ قَسَمي تنزيلَ العزيزِ الرّحيم، ويحتملُ التقديرُ: أعني من الصِّراط المُستقيم الذي هو القرآنُ الحكيمُ تنزيلَ العزيزِ الرحيم، فيكونُ الصّراطُ المستقيمُ هو المُنزّلَ من العزيزِ الرَّحيم، ليفيدَ الحذفُ زيادةً في التّنويه بشأنِه بتقديرِ العناية، والتَّنبيهَ على أنَّ محطَّ النّظَرِ هو حدَثُ التّنزيلِ لتعظيمِه، وتكون الجملةُ على التّقديرَيْنِ استئنافًا مَسوقًا لبيانِ ما ذُكِر من فخامةِ شأنِ القُرآن، أَوْ يكونُ النّصبُ على المدح؛ أيْ: أمدحُ تنزيلَ العزيزِ الرحيم؛ أيْ: أمدحُ كتابًا مُنزّلًا من العزيزِ الرَّحيم، وقَرَأَ الآخَرونَ بِالرَّفْعِ ﴿تَنزِيلُ﴾، على أنْ يكونَ خبرَ مُبتدإٍ محذوفٍ، تقديره: هوَ تَنْزِيلُ العَزِيزِ الرَّحيم[1]، وحذفُ المبتدأ في مثلِ هذا الموضع من البلاغةِ بمكان؛ لأنّه في مقام وصفِ القرآن بعدَ ذِكْرِه في القسَم، وليستأنفَ به كلامًا آخر، ولهذا جاءَ بعده: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾، وهو من الحذفِ الّذي هو قلادةُ الجيد

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 539، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 304، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 4، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 253، وابن الجزريّ، النشر: 2/ 353 الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 477.

وقاعدةُ التّجويد، وذلِكَ أَنَّ العربَ إذا أَجْرَوْا حَديثًا عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ أَخْبَروا عَنْهُ التَزَموا حَذْفَ ضَميرِهِ الَّذي هوَ مُسْنَدٌ إِلَيْهِ؛ إشارَةً إِلَى التَّنْويهِ بِهِ كَأَنَّهُ لا يَخْفَى(1)، وعلى كلِّ تقديرٍ ففائدةُ التّعبير بالمصدر في قوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فضلُ تأكيدٍ لمضمونِ الجملة القسَمَيّةِ، وبيانُ كمال عراقته في كونه منزَّلًا من عندِ اللّه ﷻ، كأنَّه نفسُ التَّنزيلِ، ففيه مبالغةٌ في المعنى(2).

دلالةُ إتباعِ أسماءِ الله تعالى عندَ ذِكْرِ التّنزيل:

من تعظيمِ القرآنِ ذِكْرُ تنزيلِه الأَسنى مع بعضِ أسمائِه الحُسنى

دلَّ استِقراءُ القرآنِ العظيم على أنَّ اللّهَ ﷻ إذا ذكَرَ تنزيلَه لكِتابِه، أَتْبَعَ ذلك ببعضِ أسمائِه الحسنى المُتَضَمِّنَة صِفاتِه العُلْيا، كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الزُّمر: 1]، وغيرها من الآيات الكثيرة، وذلك للإيذانِ بأنَّ مبدأَ تنزيله كائنٌ منه تعالى، كما أنَّ ذِكْرَه ﷻ هذه الأسماءَ الحُسْنى العظيمةَ، بعدَ ذِكْرِه تنزيلَ هذا القرآنِ العظيم، يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمَةِ القرآنِ العظيم، وجلالةِ شأنِه وأهمّيَّةِ نُزولِه(3)، ولكلِّ وصفٍ جليلٍ تَبِعَ ذِكْرَ تنزيلِ القرآن دلالاتُه بحسبِ السّياق ومقاصدِ السّورة.

براعةُ إضافةِ التَّنزيلِ إلى العزَّةِ والرَّحمةِ:

التّعبيرُ بالعِزّةِ والرَّحمةِ تفضُّلٌ من الله تعالى ورَحْمَةً

في تخصيصِ إضافةِ التّنزيل إلى ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ المُعرِبَيْنِ عن الغلبةِ التّامّةِ والرَّحمةِ العامّة فوائدُ؛ هي: الحثُّ على الإيمانِ ترهيبًا وترغيبًا، والإشعارُ بأنَّ تنزيلَه ناشئٌ عن الغلَبة والعزَّة، كما أنَّ تنزيلَه في غايةِ الرَّحمةِ حسبَما نطقَ به قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، وأنَّ رحمتَه تعالى بالخلقِ اقتضتْ تنزيلَ القرآن، وفيه إيماءٌ كذلك إلى أنَّ مَن تمسَّك به اتّصفَ بالعزّة والرّحمة، ولمّا كانت صفةُ العزيز للقَهْرِ والغلَبة، وكان

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 1147 - 151، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 347.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 347.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 351 - 352.

ذلك لا يكونُ صفةَ كمال إلّا بالرَّحمة، أعقبَه بقوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، فهو المُنتقِمُ ممَّنْ خالفَه الرَّحيمُ بأهل طاعته، وهو الواحدُ الذي لا مثلَ له أصلًا لما قهرَ به من عزّته، وجبرَ به من رحمته[1]، ومن الفوائد: الإشارةُ إلى ما اشتملَ عليه التّنزيل لا تعدو أنْ تكونَ من آثارِ عزّة اللّه، وهوَ ما فيهِ مِنْ حَمْلِ النّاسِ عَلَى الحَقِّ، وسُلوكِ طَريقِ الهُدَى دونَ مُصانَعَةٍ ولا ضَعْفٍ مَعَ ما فيهِ مِنَ الإنْذارِ والوَعيدِ عَلَى العِصْيانِ والكُفْرانِ، وأَنْ يَكونَ مِنْ آثارِ رَحْمَتِهِ وهوَ ما في القُرْآنِ مِنْ نَصْبِ الأَدِلَّةِ وتَقْريبِ البَعيدِ، وكَشْفِ الحَقائِقِ لِلنّاظِرينَ، مَعَ ما فيهِ مِنَ البِشارَةِ لِلَّذينِ يَكونونَ عِنْدَ مَرْضاةِ اللّهِ تَعالَى[2]، كما أَنَّ فيه إشارةً إلَى أَنَّ المَلِكَ إذا أَرْسَلَ رَسولًا فالمُرْسَلُ إلَيْهِمْ إمّا أَنْ يُخالِفوا المُرْسِلَ ويُهينوا المُرْسَلَ، وحينَئِذٍ لا يَقْدِرُ المَلِكُ عَلَى الانْتِقامِ مِنْهُمْ إلّا إذا كانَ عَزيزًا، أَوْ يَخافوا المُرْسِلَ ويُكْرِموا المُرْسَلَ، وحينَئِذٍ يَرْحَمُهُمُ المَلِكُ، أَوْ نَقولُ المُرْسَلُ يَكونُ مَعَهُ في رِسالَتِهِ مَنْعٌ عَنْ أَشْياءَ وإطْلاقٌ لِأَشْياءَ، فالمَنْعُ يُؤَكِّدُ العِزَّةَ، والإطْلاقُ يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ[3]، كما ناسبَ ذِكْرُ الوصفَيْن مع ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ و(المستقيم)؛ فالقرآنُ حكيمٌ لأنّه من العزيز، والصِّراطُ مستقيمٌ لكونِه من الرَّحيم.

معنى الإضافةِ في ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

إظهارُ فخامةِ القرآن بإضافتِه إلى الاسمَيْن الجليليْنِ

والإضافةُ في الآية ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على معنى (مِنْ)؛ أيْ: تنزيلًا، أو تنزيلٌ من العزيزِ الرّحيم، وفائدةُ مجيءِ التّركيب بطريق الإضافةِ إظهارُ فَخامته الإضافيَّة بذكرِ الوصفيْن الجليليْن بعدَ بيانِ فخامتِه الذّاتيَّة بوصفِه بالحكمةِ في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 491، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 94، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 347.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 253.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦﴾ [يس: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإنـذارُ الّـذي يـترتّـب عليه العقابُ لا يكون إلّا بالإرسالِ

في الآيةِ الكريمةِ تقريرٌ لمضمون قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فإنَّ الإنذارَ الّذي يترتّبُ عليه العقابُ لا يكونُ إلّا بالإرسالِ، وتبليغِ الدَّعوة.

إكـمـالُ عـقـدِ الرّسالـة بـذِكْـرِ الـمـقـصـوديـنَ بالإنذارِ والدّلالة

لمّا ذَكرَ المُرسَلَ وهو رسولُ اللّه ﷺ، والمُرسَل به وهو القرآنُ الحكيم، والمُرسِل وهو العزيز الرّحيم؛ ذَكَرَ المُرسَلَ لهم؛ فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾[1]، كما ذَكرَ مضمونَ الرّسالة وهي الصّراط المُستقيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَٰفِلُونَ﴾: أصلُ (غفل) يدورُ على تَرْكِ الشَّيءِ سَهْوًا لقلَّة التّحفّظ أوِ التيقُّظ، يُقال: غَفَلَ الرَّجلُ عَن الشَّيْءِ يغفُل غُفولًا فهوَ غافل، ورجلٌ مُغفَّل: لا فطنةَ لَهُ، وغفَّلْتُ الشَّيءَ تغفيلًا، إذا كتمتَهُ وسترتَه، والغَفْلَةُ: غَيْبَةُ الشَّيْءِ عن بالِ الإنسانِ وعَدَمُ تَذَكُّرِه لَه، وتُطْلَقُ الغفلةُ على مَن تَرَكَ الشَّيْءَ إهْمالًا وإعْراضًا، والتَّغافُلُ: تَعَمُّدُ الغَفْلَة، وتأْتي بِمعنى: عَدَمُ الفِطْنَةِ وقِلَّةُ التَّجْرِبَة، ورَجُلٌ غُفْلٌ؛ أيْ: لم يُجَرِّبِ الأُمورَ[2]، والمُراد بالغافل في الآية: الَّذي لا يفطَنُ للأمور إهمالًا منهُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رسـالـةُ الـنَّـبـيِّ الـمُـنـذِرِ ﷺ إلى كافَّةِ مَنْ لم يكُنْ ذُكِّر

بيَّنَ سبحانه الحكمةَ من إرساله نبيَّه ﷺ فقال: إنّا أرسلناك يا مُحمَّد بهذه الرِّسالة؛ لتُنذرَ قومًا، وهم العربُ الَّذين لم يسبقْ لهم أوْ لآبائهم أنْ جاءهم نذيرٌ منّا، يُحذِّرهم من سوءِ عاقبةِ الإشراك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 94.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غفل).

باللّه تعالى، فَهُم لذلك غافلونَ عمّا يجبُ عليهم نحوَ خالقِهم من إخلاصِ العبادةِ له، وطاعتِهِ في السِّرِّ والعَلَنِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة اللّام في: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا﴾:

غايةُ الإرسالِ بالقرآنِ إنذارُ النّاسِ بأبلغِ بَيانٍ

لامُ التّعليل في ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ يجوزُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بـ﴿تَنزِيلَ﴾، ويُقوّيه أنَّ التَّنزيلَ أُضيفَ إلى العزيزِ الرَّحيم، والإنذارُ لا يخلو من عزّةٍ ورحمةٍ، أَوْ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، بتقدير: إنَّك مُرسَلٌ لِتُنذِرَ؛ أيْ: أُرسِلْتَ لتُنذرَ قومًا[2]، ويحتملُ أنْ تكونَ (اللّامُ) مُتعلِّقةً بـ﴿تَنزِيلَ﴾ وبالفعلِ المُضمَر معًا، ولا مانعَ منه بأنْ يكونَ على التَّنازع؛ ليُفيدَ خَصوصيَّةَ إنذارِ رسولِ اللّه ﷺ من سائرِ الرُّسُلِ المُنذِرينَ وكمالَه، ولمّا كانتِ (اللّام) للتّعليل أفادَتْ أنَّ سببَ إرسالك وسببَ تنزيلِ العزيزِ الرّحيم للقرآنِ هو إنذارُ القوم؛ بمعنى: أرسلناك ونُزِّلَ القرآن تنزيلَ العزيزِ الرّحيم لتنذرَ به القوم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ إنذار رسول اللّه ﷺ وتفخيمٌ له وبيانٌ لكماله، وأفادتْ (لام التّعليل) أيضًا الإيماءَ إلى أنَّ مِن مهامِّ المُرسَلين وواجباتِهم إنذارَ النّاس وبيانَ عقوبةِ عدم الإيمانِ باللّه تعالى وتوحيدِه، وأنَّ ما قامَ به رسولُ اللّه ﷺ من إنذارِ القوم هو عينُ ما قامَ به المرسَلون.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الإنذارِ والاقتصارِ عليه:

حثُّ القرآنِ على المبادرةِ إلى الاستعدادِ، والتّنبّهِ لما يُنذَرُ منه العبادُ

عبّرَ القرآن الكريم بالإنذارِ ليُفيد الإبلاغَ والإخبارَ الَّذي يتضمّن خبرًا فيه تخويفٌ وتحذيرٌ من مكروهٍ يقعُ إنْ لم يبادرِ المُنذَر إلى اجتنابِ ما هو فيه، وفي التّعبير بالإنذار إيماءٌ إلى المُبادرة إلى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 563، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 12/ 13.
(2) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 6002، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1078، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.

الاستعدادِ والتّنبُّهِ لِما يُنذَرُ منه، ولمّا كان الإنذارُ مُتعلِّقًا بتنزيلِ القرآنِ أوْ بإرسالِ رسولِ اللّه ﷺ أوْ بهما معًا؛ أفادَ اشتمالَ القرآنِ والرّسالةِ على معاني التّخويفِ والتّحذير[1]، كما أنَّ الإنذارَ من شيءٍ مَخوفٍ يَستلزمُ البُشرى بشيءٍ حسَنٍ إنْ تمَّتِ الإجابةُ والقبول، ويدلُّ عليه وصفُ الرّحيم كما دلَّ على الإنذارِ وصفُ العزيز.

ابتداءُ النّاسِ بالإنذارِ؛ للإسراعِ في الإقلاعِ عن الشّركِ الضّارِّ

الغالبُ في الاستعمالِ القرآنيِّ اقترانُ الإنذارِ بالبشارة، لكنَّه في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ اقتصرَ على الإنذار؛ لِأَنَّ أَوَّلَ ما ابْتُدِئَ بِه القَوْمُ مِنَ التَّبْليغ إنْذارُهُمْ جَميعًا بِما تَضَمَّنَتْهُ أَوَّلُ سورَةٍ نَزَلَتْ مِنْ قَوْلِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞﴾ [العلق: 6 - 7] الآيَةَ، وما تَضَمَّنَتْهُ سورَةُ المُدَّثِّر؛ لِأَنَّ القَوْمَ جَميعًا كانوا عَلَى حالَةٍ لا تُرْضي اللّهَ تَعالَى فَكانَ حالُهُمْ يَقْتَضي الإنْذارَ؛ لينتبهوا وليُسْرِعوا إلَى الإقْلاعِ عَمّا هُمْ فيهِ من الشّرك، الذي هو أصلُ الشّرِّ[2].

بالإنذارِ يسهلُ فعلُ الطّاعاتِ والتّعرّفُ على الشّريعةِ والآدابِ

لّما كان رسولُ اللّه ﷺ مُبشّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللّه بإذنه، ومعرّفًا بشريعةِ اللّه التّامّة الكاملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۞﴾ [الأحزاب: 45 - 46]؛ كان الاقتصارُ هنا على الإنذار - ليكونَ مُسبَّبًا عن الإرسال أوْ عن تنزيل القرآن، أوْ عنهما جميعًا - على سبيل ذِكْرِ المقصودِ الأعظم من الإرسال أوْ من التّنزيل، فإنَّ الإنذارَ يَقتضي أنْ يُقابلَه البشارةُ لَمن يَمتثل، كما أنَّه بالإنذارِ يَسهُلُ فعلُ الطّاعات، والتّعرّفُ على الشّريعة والآداب ومكارمِ الأخلاق، كما أنَّه لّما كان الخطابُ للمشركينَ المُكذِّبين؛ ناسبَ الاقتصارُ على الإنذار؛ ليفيدَ أنّه لا ينفعُ معَهم البشارةُ لانغماسِهم في الغفلةِ، فالغافلونَ لا ينفعُ معَهم سِوى الإنذار، ليتيقّظوا ويَحترزوا عن الخطأِ والغلَطِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفرَدات: (نذر)، وأبو حيّان، تحفة الأريب، ص: 295، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 386.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 348.

فائدةُ الإسنادِ إلى المُخاطَبِ:

إنذارُ الرّسولِ الأمينِ مخصوصٌ بشريعتِه، وليس نقلًا عن الرُّسلِ السّابقين

جاءَ إسنادُ الفعل (تُنذر) في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ على ما جرى عليه الكلامُ في مُخاطبةِ رسولِ اللّه ﷺ؛ ليفيدَ أنَّ رسالته ﷺ مُلتبسةٌ بمباشرةِ الإنذار، وليس النّقلَ عن الرُّسُل السّابقين، أوْ ما يصلُ إلى الأسماع من دعوةِ التّوحيد، ففيه تخصيصٌ للرّسالة وللمُرسَل ﷺ، ويفيدُ أيضًا أنَّ النّذارةَ من أوصافِ المُرسَلين، وفيه تصريحٌ بأنَّ النّذارة تكليفٌ كما أنّها تشريفٌ، بما يدلُّ عليهِ سياقُ الخطاب، وعبَّر عن الإنذارِ بالفعلِ المضارع؛ للدّلالة على استمراريّةِ الإنذارِ، ولا يبعدُ أن يكونَ المُرادُ بالضَّميرِ عمومَ المُخاطبينَ عمومًا شموليًّا؛ ليعمَّ النبيَّ ﷺ ومَن سار على منهجِهِ في الإنذارِ والدَّعوة.

فائدة التّعبير بلفظ ﴿قَوۡمٗا﴾ وتنكيره:

القوّة لا تُغني مَن لم يَعتبِرْ بإنذارِ الرّسولِ النّاصِحِ الأبرِّ

أفادَ التّعبيرُ بلفظ ﴿قَوۡمٗا﴾ الإشارةَ إلى قوَّةِ القوم المُخاطَبين ومَنَعتِهم واجتماعِهم على ما يقومونَ به، وفيه تنبيهٌ على أنَّ قوَّتَهم لا تُغني عنهم شيئًا إنْ لم يَعتبروا بإنذارِ رسولِ اللّه ﷺ لهم.

الاستعطافُ من أساليبِ الدّعوةِ الى الإيمانِ باللّطفِ والحِكمةِ

وذِكرُ القومِ الّذين كانوا في وقت تنزيلِ القرآن وحدهم في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الخطابَ كان معهم، وفيه استعطافٌ لهم لعلّهم يتّعظونَ فيؤمنوا، وهذا لا يمنع أنَّه ﷺ مُرسَلٌ إلى النّاس كافّة، ولا يَنفي مَن عداهم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158][(1)].

خصوصيّة العربِ في تلقّي الدّينِ؛ لكونهم حملة الإسلامِ الأوّلين

وجاء لفظ ﴿قَوۡمٗا﴾ في الآيةِ مُنكَّرًا ليفيدَ تعلَّقَ الإنذارِ بكلِّ قومٍ ما أُنذرَ أباؤُهم قبلَ رسولِ اللّه ﷺ، أوِ انقطعَ الإنذارُ عنهم، ويدخلُ فيه العربُ دخولًا أوّليًّا؛ لأنَّ الخطابَ كان معهم، فهُمُ الّذينَ أرادَ اللّهُ أنَ

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 146.

يَتَلَقَّوُا الدّينَ، وأَنْ تَتَأَصَّلَ مِنْهُمْ جامِعَةُ الإِسْلامِ، ثُمَّ كانوا هُمْ حَمَلَةَ الشَّريعَةِ وأَعْوانَ الرَّسولِ ﷺ في تَبْليغِ دَعْوَتِهِ وتَأْييدِهِ[1].

دلالة ﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾:

تَنوُّعُ المدلول لإثراءِ المعنى والمقول

تحتملُ ﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ أنْ تكون نافيةً، وهو الظّاهر الّذي رجّحَه علماءُ العربيّة والتّفسير؛ بمعنى: إنَّك لِمَنَ المُرسَلينَ إلى قومٍ لم يُنذَرْ آباؤهم، والمعنى: لم ينذرْ آباؤُهم فهُم غافلونَ، وعلى هذا التّوجيهِ يكون عدمُ الإنذار سببَ غفلتهم، وتحتملُ ﴿مَّآ﴾ أن تكون اسمًا موصولًا أَوْ مصدريّةً، بأنْ يوجَّهَ معنى الكلام إلى أنَّ آباءهم قد كانوا أُنذروا، وتقديرُ الكلامِ: لتُنذر قومًا بالذي أُنذِرَ آباؤهم، أوِ الّذينَ أُنذرَ آباؤُهم، أَوْ لتنذرَ قومًا إنذارَ آبائِهم؛ أيْ: بمثل إنذارِ آبائِهم، كقولك: ضربتُهُ ضَرْبَ الأمير؛ أيْ: مثلَ ضربِ الأميرِ؛ ليفيدَ أنَّ كونَهم غافلين سببٌ باعثٌ على الإنذار، كما تقول: أرسلتُكَ إلى فلانٍ لتُنذرَهُ فإنَّه غافل، أَوْ فهو غافلٌ، وليفيدَ هذا التّوجيهُ كذلك أنَّه ﷺ قد جاءَ بما جاءَ به المُرسَلونَ من قبلُ[2].

دفعُ التّضادِّ بين النّفي والإثبات

قد يُقالُ: لمّا كانت ﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ تحتملُ وجهَيْنِ؛ فعلى القول بأنَّها نافيةٌ يَقتضي أن يكونَ آباؤهم ليسوا مُنذَرين، وعلى القول بأنّها موصولة أَوْ مصدريَّةٌ يقتضي إثباتَ إنذارِ آبائِهم، فما وجهُ الجمع بينهما؟ وجوابُه: لا تناقضَ في المعنى على الوجهَيْن، فعلى القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ معناه: ما أُنذِرَ أباؤُهم الأقربونَ، وهذا لا يُنافي أنْ يكونَ آباؤُهم الأوّلونَ المُتقدّمون مُنذَرين؛ بمعنى: أنَّ المتأخّرين منهم غيرُ مُنذَرين[3]، فالآيةُ دلَّت على نفيِ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 11/ 271، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 348.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 492، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 278، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 4، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 253، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 263، والنيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 525، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 5، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 253.

إنذارِهم كما أنَّ آياتِ القرآن في هذا المعنى لم تدلَّ إلّا على نفي إنذارِهم، كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: 46] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: 44] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: 42][1].

نذارةُ الخصوص لا تُعارضُ دعوةَ العموم للنّاس جميعًا

وعلى القول إنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ في قولِه: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، لا بدّ من الإشارةِ الى أنَّ النّذارة المنفيَّة هي نذارةُ المُباشَرةِ مع القوم، والأوامرُ والنّواهي المخصوصةُ، وإلّا فدعوةُ اللّه تعالى من الأرض لم تنقطعْ قطُّ[2].

في الوصفِ بالجملةِ بيانٌ لشدّةِ الاحتياجِ إلى الإنذارِ

وعلى القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ تكونُ جملة: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ صفةً لـ﴿قَوْمًا﴾ جرَتْ على غير ما هي له؛ لتفيدَ الاحترازَ عن الآباءِ الأبعدينَ، والمعنى: لتنذرَ قومًا ما أُنذِرَ آباؤهم الأقربون[3]، ومن فوائد مجيءِ هذه الصّفةِ بيانُ غايةِ احتياجِهم إلى الإنذارِ، والامتنانُ عليهم بأنَّه ﷺ أُرسل إليهم حين انطمسَتْ آثارُ الوحي، وكانوا أحوجَ ما يكونون إليه، والتّشويقُ إلى متابعة الرّسول ﷺ، والمبادرةِ إلى الإيمانِ به، والإيماءُ إلى التّنعّم بهذه النّعمة العظيمة، وأفادت كذلك الوعدَ على امتثالِ أمرِ رسولِ اللّه ﷺ والوعيدَ على مُخالفته[4].

مَنْ سلَّم بصدقِ رسالتِهِ إلى العربِ، سلّم بعمومِ الرّسالة لغيرِ العرب

وعلى القولِ بأنَّ ﴿مَّآ﴾ على الإثبات؛ أيّ: بأنْ تُقدَّر موصولةً أو مصدريّةً يكونُ دخولُ اليهود والنّصارى وغيرِ العرب ظاهرًا في حُكم وجوبِ إنذارِهم وإرسالِ رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ إليهم، وفي حُكم وجوبِ إيمانِهم به ﷺ، وعلى القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ، فإنَّ الحكمَ يشمل اليهود والنّصارى وغيرهم كذلك؛ لأنَّ آباءَهم الأدنَيْنَ

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 11.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 446.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 263، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 93.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 93.

لم يُنذَروا بعدَما ضلّوا عن طريق الحقِّ، فَهُمْ غافِلونَ لهذا السّبب، ومَنْ سلَّم أنَّه ﷺ رسولٌ إلى العربِ، لزِمَه تصديقُه في دعوى عُموم الرّسالة والدّعوة، فهذا دليلٌ على كونِ الرّسول ﷺ مبعوثًا إلى الخلقِ كافَّةً[1]، ونلحظُ في تخصيصِ دعوة الإنذار بالقوم الَّذين لم يُنذَرْ آباؤُهم ما يدلُّ على ثقلِ الإنذارِ وصُعوبتِه؛ لأنّ مهمّةَ مَن أُرسِلَ مُعلِّمًا إلى مَن لم يَسبقْ له تعلُّمُ شيءٍ أصعبُ مِن إرسالِه إلى قومٍ قد نالوا حظًّا من العلْم، وإرسالُه إلى مَن لم يتعلّمْ أصلًا لا يَقتضي عدمَ شُمول تعليمِه لمَنْ نالَ نصيبًا من العِلْم.

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾:

بيانُ أنّ الأبناءَ وآباءَهم في الكفرِ وعدمِ الهدايةِ سيّان

على القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ موصولةٌ أو مصدريَّةٌ في قوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾؛ أيْ: لتُنذرَ قومًا بالّذي أُنذرَ آباؤهم، أوْ لتُنذرَ قومًا بمثلِ إنذارِ آبائهم، يكونُ في الكلامِ كنايةٌ عن أنَّه لا ينجعُ في المُكذّبين المُصمّمين على الكفرِ النِّذارةُ، كما لم ينجعْ في آبائِهم الّذينَ أُنذروا من قبلُ، فهم غافلونَ كحالِ آبائِهم، فتنطوي الكنايةُ على ذَمِّهم وذمِّ آبائِهم[2].

إنذارُ الآباءِ كافٍ في إنذارِ الأبناءِ، وهو سارٍ إلى يومِ القيامةِ

وعلى القولِ بأنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ في قوله: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ يكون في الكلامِ كنايةٌ متتابعةٌ؛ الأولى: بيانُ أنَّ القومَ يَستحقّون الإنذارَ بسببِ عدمِ إنذارِ آبائِهم، وأنَّ إنذارَهم حقٌّ، والثانية أنَّ إنذارَ الآباءِ كافٍ في إنذارِ الأبناءِ، والثالثةُ أنَّ الإنذارَ المذكورَ يَسري إلى يوم القيامة، فيتناولُ كلَّ مَنْ جاء بعدَ القومِ المذكورين، ولا يبعدُ أنْ يكونَ ضميرُ الخطاب في ﴿لِتُنذِرَ﴾ لعمومِ المخاطبين عمومًا شموليًّا، ويتناولُ كلَّ مُنذرٍ سواءٌ كان النّبيَّ ﷺ، أوْ مَن سارَ على منهجِه في الدّعوةِ والإنذارِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 253، والطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 519، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 525.

(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 504.

المُنذَرُ به من العذابِ واحدٌ وإنْ تعدّدتِ الأحوالُ والمَشاهِد

فائدةُ حذفِ المفعول الثّاني:

على القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ - وهو الظّاهر من السّياق كما تقدَّم - يكونُ المفعولُ الثّاني في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ محذوفًا؛ بمعنى: لتنذر قومًا عذابًا(1)، والحذفُ هنا أبلغُ في النّظم والمعنى، لطولِ الكلامِ بالصّفة: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾، فلو قيل: لتُنذِرَ قومًا ما أُنذِرَ آباؤهم عذابًا، طالَ الفصلُ بين الفعلِ ومفعولِه الثّاني وضَعُفَ تأليفُ الكلامِ، ولأنّ المعنى على عموم الإنذار، ليدخلَ كلُّ ما هو مكروهٌ عند القوم، كما أنَّ لفظ (الإنذار) يقتضي التّخويف، فيدخل الإنذارُ بالعذابِ دخولًا أوّليًّا، وعلى القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ موصولةٌ أوْ مصدريَّةٌ، يكونُ الموصولُ أوِ المصدرُ المؤوّلُ نائبًا عن المفعولِ المُطلَق، بتقدير: إنذارًا مثلَ ما أُنذر آباؤُهم، ولا حذف حينئذ، ليفيدَ أنَّ المُنذَرَ به واحدٌ - هو عذاب اللّه تعالى - وإن تعدّدتِ الأزمانُ والأمكنةُ.

نعمةُ اللهِ الكبرى بوجودِ رسولِ اللهِ بينَهم ليكونَ المُنذِرَ لهم

براعةُ الطِّباقِ في السّياقِ:

في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ طباقُ السّلبِ بين ﴿لِتُنذِرَ﴾ و﴿مَّآ أُنذِرَ﴾ على القول إنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ، وفائدةُ الطّباقِ - بملاحظة متعلّقِ كلٍّ من الفعليْن - هي الامتنانُ عليهم بالنّعمةِ الكبرى، وهي وجودُ رسولِ اللّه ﷺ بينهم؛ ليكون هو المنذرَ لهم، وذلك بطريقِ المُقايسةِ بين حالِهم وحالِ آبائِهم الذين لم يُنذَروا أصلًا، فيتيقّنوا أنَّ الإنذارَ وإنِ اشتملَ على التّخويفِ، لكنَّه نعمةٌ عظيمةٌ لتذكيرهم، ليفيدَ هذا النّوعُ البديعيُّ حثَّهم على الإيمانِ باللّهِ وبالرّسولِ ﷺ.

نعمةُ الإنذارِ تثمرُ الاستبصار، وتبعثُ على العِظَةِ والتّذكار

فائدةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾:

(الفاء) في قولِه: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ تفيدُ ربطَ هذه الجملةِ بما قبلَها على معنى التّرتيب والتّعقيب؛ أي: لم يُنذَروا فهم غافلون؛ بمعنى أنَّ غفلتَهم هم وآبائِهم مُترتّبةٌ على عدمِ إنذارِهم، ليفيدَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 386.

أنَّ الإنذار ينقلُ القومَ من الغفلة إلى اليقظة والتّنبُّه والحذَر، كما يفيدُ أنَّ غفلتَهم هي السّببُ في ضلالِهم وعدمِ كونِهم على الصِّراطِ المستقيم.

دلالة الضّمير في قولِه: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾:

الوصفُ بالغفلة يَسري على السّابق واللّاحق

لمّا عاد الضّمير في قولِه: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على ﴿قَوۡمٗا﴾ بما اتّصف به؛ أفاد أنَّ المعنى: فالقومُ الّذين لم يُنذَر آباؤهم غافلونَ، ويدخل في الضّمير الآباءُ كذلك؛ لأنّهم كانوا غافلينَ بسبب عدمِ إنذارهم، لانتفاءِ إنذار آبائِهم، والمعنى: فهم جميعًا لأجلِ عدمِ إنذارِهم غافلون عن الحقيقة، وعلى القولِ بأنَّ ﴿مَّآ﴾ موصولةٌ أو مصدريَّةٌ يعودُ الضّميرُ على القومِ خاصَّة بمعنى: فهم غافلونَ عمّا أُنذِرَ آباؤُهم[1] والذي يترجَّحُ لدينا أنَّ بيانَ إنذارِ الرَّسولِ ﷺ لقومه الّذين لم يُنذَر آباؤهم فيه امتنانٌ عليهم، وأنَّ اللائقَ بهم المسارعةُ إلى التّصديقِ؛ لأنَّهم خُصّوا بهذه النِّعمة، لكنَّهم غفَلوا عنها واعتقدوا أنَّ إنذارهم بلا سبقِ إنذارِ آبائهم مدعاةٌ للتَّكذيب بالدَّعوة لكونها بدعةً.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾:

الإنـذارُ نعمةٌ على المُنذَرين؛ لأنَّـه وسيلةٌ للتّنبّهِ والحذرِ

على القول بأنَّ ﴿مَّآ﴾ نافيةٌ كما هو الظّاهر في الكلام، يكونُ في قوله: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وبيانُها أنَّه لمّا كانتِ الغفلة مُرتّبةً على عدم الإنذارِ، أفادَ الكلامُ بلازمِه أنَّ الإنذارَ نعمةٌ ومنَّةٌ على القومِ المُنذَرين؛ لأنَّه يَنقلُهم من الاتّصاف بالغفلة إلى الاتّصاف بضدِّها، كما أفاد الكلامُ أنَّ الغفلةَ مذمومةٌ وأنَّها سبيلٌ إلى الضّلالِ، وأنَّ التّنبُّه ممدوحٌ وأنَّه سبيلٌ إلى الهدى.

الغفلةُ ذهولٌ عن الشّيءِ، ولازمُه الإهمالُ والإعراضُ

أو أنَّه لمّا كانتِ الغَفْلَةُ بمعنى الذُّهولِ عَنْ شَيْءٍ وعَدَمِ تَذَكُّرِه، وكان المُرادُ بدلالة السّياق إعراضَهم عن الأمورِ المُهمّةِ كالتّفكيرِ في الخَلْق

(1) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 23333، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.

للتوصُّلِ إلى الخالِق، أفادَ الكلامُ على سبيلِ الكناية الانتقالَ إلى لازمِ الذّهول، وهو هنا الإهمالُ والإعراضُ عَمّا ينبغي التّنبُّه عليه[1].

مناسبةُ حذفِ مُتعلّق المُشتقّ:

الّذين لم يُنذَروا أوْ لم يَنتفعوا بالإنذارِ غافلونَ عن تدبُّرِ الحقِّ وأدلّتِه

لمّا كان الخبرُ في قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يقتضي متعلِّقًا لكونِه اسمًا مشتقًّا، أفادَ حذفُ المتعلِّق إثباتَ وصفِ الغفلة لهم؛ بمعنى أنَّ الّذين لم يُنذَروا أو مَن لم يَنتفعوا بالإنذار تكونُ الغفلةُ وصفًا ثابتًا لازمًا لهم[2]؛ بمعنى تحقيقِ وصفِ الغفلة لِمَن لم يُنذَر وأنَّه ثابتٌ له، وقد يكونُ حذفُ المتعلّق لإفادة العموم؛ بمعنى أنَّ الّذين لم ينذَروا أوِ الّذين لم يَنتفعوا بالإنذار غافلون عمّا أنذرْنا به آباءَهم، وعن اللّه تعالى وعن معرفتِه والإيمانِ به، وغافلون عن عذابِ اللّه وعمّا هو فاعلٌ بأعدائِه المشركينَ به، وهم غافلونَ عن التدبُّرِ وعن التّأمّلِ في ذلك، والتّفكّر في الحُجج والأدلّة، وهم غافلونَ عن الحقِّ وعن الإيمانِ برسولِ اللّه ﷺ، وهم غافلونَ عن شريعتِه، وهم غافلون عمّا أُعدَّ لهم من العقاب، فكانَ في حذفِ المتعلّق غناءٌ عن ذِكْرِ كلِّ هذه المعاني بما يدلُّ عليه السّياقُ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

مَن لم ينتفعْ بالإنذارِ فهو في الغفلةِ كمَن لم يُنذَرْ ولم يُذكَّر

أفادَ التّعبيرُ بالجملة الاسميَّة: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أنَّ مَن لم يُنذَر ثابتٌ في الغفلةِ باقٍ ومُستمرٌّ عليها، ومثلُه مَن لم ينتفع بالإنذار، والّذي يترجّحُ لدينا أنَّ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ في الآية وإنْ كانَ مصوغًا على وزن (فاعل) إلّا أنّه بمعنى الصِّفة المُشبَّهة الدّالّةِ على دوامِ الوصفِ وثبوتِه فيهم على سبيل اللُّزوم والبقاء، فقد كان ذهولُهم عن الأمورِ المصيريَّةِ عرَضًا لازمًا لهم وثابتًا فيهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 348.
(3) أبو حفص النّسفيّ، التيسير في التّفسير: 12/ 336، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 413.

انقطاعُ الإنذار غفلةٌ وجهالة، والتّذكيرُ يقظةٌ لا محالةَ

بلاغةُ الكناية في الآية:

أفادتِ الآية بطريق اللّازم أنَّ كلَّ أمّةٍ انقطعَ عنها الإنذارُ وتُرِكَ فيها التَّذكيرُ واقعةٌ في الغفلةِ لا محالةَ، ولمّا كان تركُ الإنذارِ والتَّذكيرِ موقِعًا في الغفلة، فالإنذارُ والتّذكير يُزيلانها[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغفلة والنّسيان والسّهو:

وُصِفَ المُشركون بالغفلة عن أدلَّة الإيمانِ، ولم يوصَفوا بالسّهْوِ عنها

الفرقُ بين الغفلة والنّسيان هو أنَّ الغَفْلَة هي ذهابُ المعنى عن النَّفس، والنِّسيانَ هو ذهابُ المعنى عن النَّفس بعد حضورِهِ؛ فالغفلة أعمُّ، أوْ أنَّ الغفلة: هي عبارةٌ عن عدم التّفطُّن للشّيءِ وعدم عقليّتِه بالفعل، سواءٌ بقيت صورةُ المعنى في العقل أوِ انمَحَتْ، والنّسيانُ أخصُّ من الغفلة؛ لأنَّه عبارةٌ عن الغفلةِ عن الشّيءِ معَ انمحاءِ صورتِه أوْ معناه عن الخيالِ أوِ الذِّكر بالكليَّة، ولذلك يحتاجُ النّاسي إلى تجشُّم كسبٍ جديدٍ وكُلفةٍ في تحصيله ثانيًا، والغفلةُ أعمُّ على هذا الفرق كذلك[2].

والفرقُ بين الغفلة والسّهو هو أنَّ الغفلةَ تكون عمّا يقعُ ويكونُ، والسّهوَ يكون عمّا لا يقعُ ولا يكونُ، تقول: غفلتُ عن هذا الشيءِ حتى كان، ولا تقولُ: سهوتُ عنه حتى كانَ؛ لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكُن أصلًا، ويجوز أنْ تغفلَ عنه ويكون، وفرقٌ آخر بينهما هو أنَّ الغفلةَ تكون عن فعلِ غير الغافل، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كانَ من فلانٍ أو عمّا قدَّمه لي فلانٌ، ولهذا وُصِفَ المشركون بالغفلةِ عمّا قدّمَه لهم الرّسل من الأدلَّة والحُجَج على الإيمان، ولا يجوز أنْ يُسهى عن فعلِ غيره، لأنَّ السّهوَ لا يَتعلَّق بفعلِ غيرِ السّاهي أَصلًا[3].

---

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 298.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 98، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 23333، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 368.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 98.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ [يس: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ إنذارِ مَن لم يُنذَر، ولزومِ العقاب لمَن يكفُر

لمّا كانَ تطاولُ الإقامةِ على شيءٍ موجِبًا للإلفِ له، والإلفُ قتّالٌ لما يوجِبُ من الإصرارِ على المألوف لمحبَّتِه، جاءت هذه الآيةُ جوابًا لَمن يتوقّعُ الجوابَ عمّا أثمرتْه حالُهم من تصميمِهم على الكفرِ ومُداومتِهم عليه(1).

وأيضًا لمّا ذَكَرَ أنّ إرسالَ المرسَلين أوْ تنزيلَ القرآن للإنذار بيَّن أنَّ أكثرَ الكافرينَ المُنذَرين لا يؤمنون، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ النّبيَّ ﷺ ليسَ عليه الهدايةُ المستلزمةُ للاهتداء؛ وإنّما عليهِ الإنذار(2).

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن أنَّه أرسلَ رسولَه ﷺ، أو أنزلَ القرآن لينذرَ القومَ بيَّن أنَّهم قسمان: قسمٌ لم تنفع فيهم النِّذارةُ، وقسم اتّبعوا الذِّكرَ وخافوا اللّه تعالى فانتفَعوا وآمَنوا(3).

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى عن غفلتِهم بيَّنَ السّببَ الحقيقيّ لها، فذَكَرَ أنّه قد حقَّ القولُ عليهم فهم لا يؤمنون(4)، والمناسباتُ لا تتزاحمُ؛ بل يُكمّل بعضُها بعضًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّ﴾: أصلُ (حقّ) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّته، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ يَحَقُّ حَقًّا: إذا ثَبَتَ ووجبَ ولَزِم، ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيحِ، وضِدُّهُ: الباطِلُ، والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا(5)،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 95.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 254.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 348.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 525.
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (حق).

وتحقّقَ الأَمرُ: إذا صَحَّ، والمُرادُ بـ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾ في الآية: وجَبَ العَذابُ وسبقَ القضاءُ به[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

رَبطُ المُجازاةِ بالأعمالِ حِكمةٌ وعَدلٌ من الله ذي الجَلالِ

هؤلاءِ الَّذين بُعِث فيهم النَّبيُّ ﷺ لإنذارِهم قد ردّوا دعوتَه، ولم يَقبَلوا النِّذارةَ، وهم الَّذين يقولُ اللّه فيهم: لقد وجَب العذابُ على أكثَرِ مُشرِكي العَرَبِ الَّذين سبَقَ في عِلمِ اللّهِ تعالى أنَّهم لا يَهتَدونَ، فأكثَرُهم مُستَمِرّونَ على الإصرارِ على كُفرِهم حتَّى يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ تتابُعِ التّأكيدِ:

إنكارُ الحقِّ قد يُنْبئُ عنه القولُ والفعلُ

لمّا تصدّرَتْ جملة: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾، بتأكيدَيْن: اللّامُ الواقعةُ في جواب القسم المحذوف، و(قَدْ) التي تفيدُ التحقيق، كانَ الكلامُ على طريق الخبرِ الإنكاريّ؛ أي إنَّهم أنكروا أن يكون القولُ قد حقَّ عليهم، بسببِ أقوالِهم وأعمالِهم التّي تُنْبئُ عن إنكارِهم، وذلك بمُلازمتِهم للغفلة وإقامتِهم عليها، وعدم انتفاعِهم بالتّذكير والإنذار، فجاءَ الكلام على مُقتضى الظّاهرِ لردِّ إنكارِهم؛ أيْ: واللّه لقد ثبتَ وتحقَّقَ القولُ عليهم ألبتّةَ[3].

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿حَقَّ﴾:

استحقاقُ الكافرينَ لحقّيّةِ القولِ عليهم مُفيدٌ في البيان

عبّر بـ﴿حَقَّ﴾ في قوله: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾ لمُناسبة اللَّفظ للمعنى المُراد، فإنَّ: حقَّ الشَّيءُ بمعنى: ثبتَ ووجبَ وسبقَ، وهو حقيقٌ؛ أيْ: ثابتٌ أوْ واجبٌ، ونكتةُ التّعبير بلفظ ﴿حَقَّ﴾ دون ثبتَ أنَّ معنى

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 446.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 402، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 446، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 7.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.

﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾ يفيدُ أنَّ القولَ تعلَّق بهم وثبتَ عليهم ووجبَ وسبقَ، واستحقّوه فهو أحقُّ بهم، فلا يُغيّر ولا يُبدَّل[1]، ففي التّعبير بـ﴿حَقَّ﴾ من المعنى ممّا يقتضيهِ السّياق ما ليس في (ثبتَ).

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

مَن حقّ عليه القولُ، فلا أملَ له في النّجاةِ

عبَّر بصيغة الفعل الماضي في قولِه: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾، للإشعار بأنَّ الأمرَ قد ثبتَ ووقعَ؛ أيِّ: تحقَّقَ وقوعُ القول عليهم، ففيه تيئيسٌ من إيمانِهم، وتنبيهٌ للنبيِّ ﷺ ألّا يشعُرَ بتقصيرٍ في تبليغهم؛ لأنَّ أمرَ اهتدائهم مرتبطٌ بقضاءِ اللّهِ تعالى لهم، ولم يقضِ بإيمانهم، فيكون القولُ واجبًا عليهم لما علمَ اللّهُ من عدمِ اهتدائِهم.

فائدة التعريف في ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾:

قولُ اللهِ تعالى حقٌّ لا يَشوبُه ريبٌ، وكمالٌ لا يعتريهِ نقصٌ

(ألْ) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾ للعهد؛ أيِ: القولُ المعهودُ بأنْ يملأ اللّه تعالى جهنَّمَ من إبليسَ وممّنْ تبعَه، وهو الّذي صُرِّح به في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: 84 - 85]، ويحتملُ أنْ تكونَ عِوَضًا عن المضاف، بتقدير: حقَّ قولي، فحُذِفَ المُضافُ إليه وعوِّضَ عنه (أل)، والنّكتةُ فيه إفادةُ (أل) معنى الكمال؛ أي: القولُ الكاملُ في بابه وأوصافِه، وهو إيجابُ العذاب وثبوتُه على أكثرِهم[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

ملمحُ تمكُّنِ سُخطِ اللهِ من الكافرينَ المُصمِّمينَ على كُفرهم

عبّرَ السّياق بحرفِ الاستعلاء في قوله: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾، لإفادةِ استغراقِ القول واستيعابِه وتمكّنه منهم، وأفادَ أنَّ المُرادَ وقوعُ السُّخطِ ووجوبُه عليهم.

فائدةُ الإضافةِ في ﴿عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾:

الإضافةُ في قوله: ﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ للملابسةِ، ليفيدَ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 5.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 95.

مُلابسةَ حقّيَّةِ القولِ على أكثرِ القومِ المُنذرين؛ أيْ: لا ينفكُّ عن أكثرِهم لمُلابستِه لهم، فالمُنذِرُ واحدٌ والإنذارُ واحدٌ، والمَحلُّ منه ما هو قابلٌ للإنذار، وأكثرُه غيرُ قابل له، والمعنى: لقد حقَّ القولُ على أكثرِ القومِ الّذين تُنذِرُهم، والّذين ما أُنذِرَ آباؤهم، أوْ لقد حقَّ القولُ على أكثرِ الكفّارِ على الإطلاقِ، والمُرادُ بهم مَن ماتَ على الكُفرِ، وأصرَّ عليه طولَ حياتِه(1).

بيانُ أنّ الأكثريّةَ مُجانفةٌ للحقّ، مُستحِقّةٌ للعِقاب

سببُ إيثارِ حذفِ جوابِ القَسَم:

لمّا كان القسَمُ في قولِه: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ يَقتضي جوابًا وقد جاء محذوفًا، كانَ في حذفِهِ من التّهويلِ والتّخويفِ ما لا يخفى، حيث تذهب النَّفسُ كلَّ مذهبٍ في رسمِ الصّورةِ المُفزِعة المُرعبةِ لما يقتضيه جوابُ قسم: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾، وذهبَ ابنُ فُورَك إلى أنَّ الجوابَ بتقدير: لقد حَقَّ القول على أكثرِهم إنَّهم لا يؤمنون، ودلَّ على المحذوفِ ما بعدَه؛ أيِّ قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(2)، فيكون الاقتصارُ على: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دون ذِكْرِ جوابِ القسم؛ لمنعِ التّكرارِ غيرِ المُفيد معَ بيانِ علّةِ حقِّ القولِ عليهم وسببِهِ.

تهويلُ شأنِ حَقّيَّةِ القولِ على الكافرين في الواقعِ والمَصير

فائدةُ الفاء في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

لمّا كانتِ (الفاء) في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ للتّفريع والتّرتب، وكان اللّه تعالى قد أوقعَ الحكمَ بإدخال جهنَّمَ على مَن تبِعَ إبليسَ في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السّجدة: 13] وكانَ ثبوتُ القولِ على هؤلاءِ الّذين عبَّر عنهم بأكثرِهم إنّما هو لكونِهم من جملةِ أولئك المُصرّين على تبعيَّةِ إبليسَ أبدًا، وكان مناطُ ثبوتِ القول وتحقُّقِهِ عليهم إصرارَهم على الكُفرِ إلى الموتِ ظهرَ أنَّ التّفريع بـ(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا

الفاءُ للدّلالة على إصرارِ الكافرينَ على كفرِهم، لا على ثُبوت القول

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 414.
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 180.

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مبنيٌّ في الحقيقةِ على إصرارِهم على الكفرِ لا على ثُبوت القول عليهم، وأنَّ إصرارَهم على الكفر سببٌ في عدم إيمانِهم، وفائدةُ ذِكْرِ ثبوتِ القول بيانُ علْمِ اللّه تعالى بهم وبإصرارِهم على الكفر وعنادِهم[1]، أو يقالُ: الفاء في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ داخلةٌ على العلَّة الحصوليَّة؛ بمعنى أنَّ ما بعدَها سببٌ وعلَّةٌ لما قبلَها، وبيانُه: أنَّ عدمَ الإيمان وإنْ كان سببًا لحقِّ القولِ على أكثرِهم، لكنَّ حقَّ القولِ يَعقبُه عدمُ الإيمان؛ لأنَّه مُستمرٌّ عندهم؛ بمعنى أنَّ عدمَ إيمانِ أكثرِهم باقٍ بعدَ حقِّ القولِ عليهم، فتحقَّقَ التّعقيبُ بالفاء وحسُنَ التّرتيبُ[2].

علّةُ إيثار الضّميرِ المُنفصل في ﴿فَهُمۡ﴾:

الـضّـمـيرُ في السّياق تأكيدٌ للمحكومِ عليه وتعيينٌ له

أوثِرَ مجيءُ الضّمير (هُم) في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لتأكيدِ المحكوم عليه في نسبةِ الحُكم له، فإنَّ قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يفيدُ عندَ المُخاطَبين من تعيينِ المحكوم عليهم في نفيِ الإيمانِ عنهم ما لا يُفيدُه قولُنا: لقد حقَّ القولُ على أكثرِهم فلا يُؤمنون[3].

توجيهُ عَوْدِ الضّميرِ في: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عـدمُ الإيـمـانِ والـبـقـاءُ على الـغـفـلـةِ سببُ حـقّـيَّـةِ الـقـولِ عليهم

الظّاهرُ عودُ الضّمير على ﴿قَوۡمٗا﴾، ولمّا كانَ الضّمير يعودُ على الاسم الظّاهر بما اتّصفَ به؛ أفاد أنَّ التّقدير: فالقومُ الَّذين لم يُنذَرْ آباؤُهم فهم غافلونَ، والَّذين قد حقَّ القولُ على أكثرِهم لا يُؤمنون، فكأنَّ التّعبيرَ بالضّمير بما عادَ إليه بمثابةِ بيانِ مجموع السّببِ لعدم إيمانِهم، فيكون هذا التّوجيه على اعتبار أنَّ ما بعدَ (الفاء) مُرتّبٌ على ما قبلَها؛ أيْ: فهُم بسببِ غفلتِهم وبقائِهم عليها التي تسبّبَتْ بحقّيَّة القولِ عليهم لا يُؤمنون، ويحتملُ أنْ يعودَ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 159، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 369.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 94 - 95.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 138، والقزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 59.

الضّمير على ﴿أَكۡثَرِهِمۡ﴾؛ بمعنى أنَّ الأكثرَ الّذين حقَّ القول عليهم هم الَّذين لا يؤمنونَ.

بلاغةُ مجيءِ المُسنَدِ جملةً فعليَّةً:

إظهارُ تقويةِ الحُكم على الكافرينَ بعدمِ الإيمانِ وتأكيده

لمّا كانَ الكلام على معنى ثبوتِ عدم إيمانِ المُصمّمينَ على الكفرِ وتحقُّقه؛ عبّر بالمُسنَد بصيغةِ الجملة الفعليّة في قولِه: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ليُفيدَ تقويَ الحُكم وتجدّدَه، ولهذا لم يَقُلۡ: فهم غيرُ مُؤمنين؛ إذِ التّعبيرُ بـ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يفيدُ تقوّي الحُكم عليهم بعدمِ الإيمانِ وتأكيدَه، وهو المناسبُ لتتابُعِ التّأكيدِ الَّذي صُدِّرَت به الآيةُ، كما يُفيد التّعبيرُ بالمُسنَد جملةً فعليَّةً تحقيقَ نفيِ إيمانِهم؛ بمعنى أنَّ الإيمانَ لا يكونُ منهم، أَوۡ أنَّ عدمَ الإيمانِ لا يكون إلّا منهم على سبيلِ المبالغةِ؛ للإشعار بسببِ حقِّ القول على أكثرِهم واستحقاقِهم له.

دلالةُ النّفي بالأداة في: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

استمرارُ نفيِ الإيمانِ مُؤذِنٌ باستحقاقِ ما حقَّ عليهم

تفيدُ ﴿لَا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ النّفيَ المُستمرّ، فلا تُقيِّدُ نفيَ إيمانِهم بزمنٍ مُعيَّن؛ بمعنى استمرار نفيِ إيمانِهم في جميع الأزمانِ التي يكونونَ عليها في الدّنيا، وهذا التّوجيهُ هو المناسبُ لحقِّ القولِ عليهم واستحقاقِهم العذابَ.

فائدةُ التّعبير بالمضارع:

عبّر عن نفيِ إيمانهم بصيغةِ المضارع لإفادة تجدُّدِه، ودوامِه، واستمرارِه وقتًا فوقتًا وحالًا فحالًا من غير انقطاعٍ.

فائدةُ حذفِ المُتعلِّق:

عدمُ الإيمانِ يَستوعِبُ نُكرانَ المُرسِل والمُرسَلَ والرّسالة

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لإفادة اتّصافِهم بعدم الإيمان، ولُزومِه لهم وثَباتِهم عليه، فضلًا عن إطلاقِه ليَعُمَّ النّفيُ؛ فهم لا يُؤمنونَ باللهِ ولا برسولِه ﷺ ولا بالقرآن.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨﴾ [يس: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تمثيلُ عِنادِهم بعدمِ إيمانِهم بِمَن وُضِعَتْ في أعناقِهم السلاسلُ المُعيقة

لمّا بيّنَ النظمُ أنَّهم لا يُؤمنون؛ ذَكَرَ أنَّ ذلك من اللّه تعالى، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾[1]، فأوردَ الموانعَ من عدمِ إيمانِهم[2].

ومِن وجوهِ المُناسبةِ أيضًا أنّه لمّا كان المعنى أنّهم لا يتجدّدُ منهم إيمانٌ بعدَ البيانِ الواضحِ والحِكمةِ الباهرةِ، وكان ذلك أمرًا عجَبًا، علّلَه بما يوجِبُه من تمثيلِ حالهم؛ تصويرًا لعزّته سبحانه وباهرِ عظمتِه، الّذي لفَتَ الكلامُ إليه لإفهامِه، وهذا الذي ذُكِر هو اليوم معنًى ومثالٌ، وفي الآخرةِ واقعٌ ظاهرٌ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾: (عنق) أَصْلُ الكلمةِ مِنَ العَنَقِ، وهو الامتدادُ والإسْراعُ، يُقال: أَعْنَقَ يُعْنِقُ، إعناقًا، فهو مُعْنِقٌ: إذا أَسْرَعَ، والعُنُقُ: الرَّقَبَةُ والوُصْلَةُ ما بين الرَّأْسِ والجَسَدِ، يُقال: رَجُلٌ أَعْنَقُ؛ أيْ: طَويلُ العُنُقِ[4]، والأعناقُ: جَمْعُ عُنُقٍ بِضَمَّتَيْنِ وقدْ تُسَكَّنُ النّونُ، وهوَ مُؤَنَّثٌ، وقيلَ: المضمومُ النّونِ مُؤَنَّثٌ، والسّاكنُ النّونِ مُذَكَّرٌ[5].

2) ﴿أَغۡلَٰلٗا﴾: (غلّ) أصلُ الكلمَةِ يدلُّ على تَخَلُّلِ شَيْءٍ وثَباتِ شَيْءٍ كالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِن ذلكَ قَولُ العَربِ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 254.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 692.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 95.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيدَه، المُحكم: (عنق).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 96.

إذا أَثْبَتَّهُ فيه، كأنَّهُ غَرَزْتَهُ؛ ومنهُ سُمّي الحِقدُ غِلّا؛ لأنَّ الحِقْدَ يَتَخلَّلُ الصَّدْرَ، والغُلُّ: جامعةٌ توضَعُ في العُنق أَوِ اليَد، والجَمْعُ: أَغلالٌ، ويُقالُ: في رَقَبَتِهِ غُلٌّ من حديدٍ[1]، والمقصود بالغُلِّ في الآية: ما أحاطَ بالعُنُق على معنى التَّضييقِ والتَّعذيبِ والأَسْر، أَوْ يكونُ مع العُنق اليدانِ أوِ اليدُ الواحدة[2].

3) ﴿ٱلۡأَذۡقَانِ﴾: (ذقن) كَلمةٌ واحدَةٌ إليها يَرجعُ سائرُ ما يُشتَقُّ منَ البابِ، فالذَّقَنُ ذَقَنُ الإنسانِ وغيرِه، وهو مَجْمَعُ لَحْيَيْه، ومكانُ اجْتماعِ اللَّحْيَيْنِ أَسفلَ الوَجه، واللَّحْيانِ هما العَظْمانِ اللَّذانِ تَنبُتُ عليهما الأَسنانُ السُّفلى، ويُقالُ: ذَقَنَ الرَّجُلُ يَذْقَنُ ذَقَنًا؛ أَيْ: وضَعَ يَدَهُ تَحتَ ذِقْنِه وذَقَنِه[3]، ويُطْلَقُ على الشَّعْرِ الذي يَنْبُتُ أَسْفَلَ الوَجْه، وعلى الوجهِ نفسِه كذلك، والذَّقَنُ في الآية: مُجتمَعُ اللّحيَيْن.

4) ﴿مُّقۡمَحُونَ﴾: أصلُ (قمح) يدلُّ على صفةٍ تكونُ عندَ شُرْبِ الماءِ من الشّارِب، وهو رفعُه رأسَهُ، من ذلكَ القامِحُ، وهو الرّافِعُ رأسَهُ من الإبلِ عند الشُّرْبِ امتناعًا منه، وجمعُهُ قِماحٌ، والإقماحُ: رَفْعُ الرأْسِ وغَضُّ البَصَرِ، يُقالُ: أَقْمَحَهُ الغُلُّ إذا تَرَكَ رأْسَه مَرفوعًا مِنْ ضيقِه[4]، والمُقمَحُ بصيغةِ اسم المفعولِ في الآية مُرادٌ به: المجعولُ قامِحًا؛ أَيْ: رافعًا رأْسَه ناظرًا إلى فوقِه[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن قابَلَ دعوةَ الإسلامِ بالإعراضِ والعِنادِ؛ كان حقيقًا بعِقابِ ربِّ العبادِ

صوَّر الحقُّ تعالى انكبابَ الكافرينَ على كُفرِهم وتصميمَهم وإصرارَهم عليه تصويرًا بليغًا، فقال: إنّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن سِيدَه، المُحكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غل).
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 447.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذقن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قمح).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 350.

تَبلُغُ أذقانَهم، فهم رافِعو رُؤوسِهم لا يَقْدِرون أنْ يُطَأْطِئوها، والمُراد: منعناهُم بموانعَ عن الإيمان تُشبِهُ ما ذُكر، فهم غضّوا أبصارَهم، لا يَلتفتونَ إلى الحقِّ، ولا يَعطِفونَ أعناقَهم نحوَه، ولا يُطَأْطِئون رؤوسَهم له، والقصدُ وصفُهم بالتّأبّي عن الانقيادِ للحقّ، وعن الإذعانِ لقَبولِ الرّشَد[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

التّعجيبُ من عدمِ إيمانِ الكافرينَ مع الإنذارِ والإبلاغِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن أكثرِ الكافرينَ أنَّهم لا يُؤمنونَ كانَ كأنَّ سائلًا يسألُ عن سببِ عدمِ إيمانِهم مع أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قد أنذرَهم والقرآنُ بين أيديهم، فكأنَّ الأمرَ ممّا يُتعجَّب منه حتَّى يُعلَمَ سببُه، فقال مُبيِّنًا السّبب: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ فهو: "كلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ لتمثيلِ تصميمِهم على الكُفر، وأنّه لا سبيلَ إلى ارعوائِهم عن غيِّهم"[2].

علّةُ إيثارِ التّعبيرِ بالتّأكيدِ:

ما أكّدَهُ القرآنُ واقعٌ على الحقيقةِ بلا رَيبٍ

جاءَ الكلامُ على التّأكيد بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ لتكذيبِ الكافرين بالأمرِ، ولتقريرِ ثبوتِ هذا الجَعْلِ وعدمِ انفكاكِه عنهم، ويمكنُ أنْ يكون التّأكيدُ بتأكيدٍ واحدٍ للمُتسائِل عن شكِّه في استحقاقِهم الإضلالَ وثبوتِ القولِ على أكثرِهم، فنفى ذلك الشكّ ببيانِ صورةِ إحقاقِ القولِ عليهم بتصويرٍ حِسّيٍّ، بمنعِهم من الالتفاتِ إلى الإيمانِ.

دلالةُ اتّصالِ المُسنَدِ إليه بضميرِ العَظَمَةِ:

لا يقدرُ على تجسيدِ العظيمِ إلّا العظيمُ

دلَّ مجيءُ المُسنَد إليه مبتدأً وفاعلًا بصيغةِ ضميرِ العَظَمَةِ في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 403، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 146، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 692.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 176.

قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ على أنَّ مثلَ هذا الجعلِ لا يَقْدِر عليه إلّا اللّهُ الملكُ الواحدُ الأحدُ، كما يُفيدُ هذا التّعبيرُ أنّ ذلك الجَعْلَ والتَّصييرَ مانعٌ قويٌّ من قبولِ الإيمان والقدرةِ على النّظر في حقائقِهِ البيّنة.

نكتةُ التّعبيرِ بالمُسنَد جملةً فعليّةً:

جعلُ الأغلالِ في أعناقِ الكافرين، لا يقدرُ عليه إلّا ربُّ العالَمين

عُبِّر بالمُسنَد جملةً فعليّةً في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ دونَ (صيّرنا)؛ للإشعارِ بأنَّ جعلَ الأغلال في أعناقِهم أمرٌ عجيبٌ لا يقدر عليه إلّا اللّه تعالى، كما أنَّ التّعبير بالجعلِ دونَ التّصييرِ يفيدُ قوّة الأمرِ وتمكّنه، وأنَّه ما انفكَّ عنهم أصلًا وما زالَ، وصوغُه على هيئة الماضي يُفيد تقوّيَ الحُكم بنفس التّركيب وتحقيقِه وتأكيدِ وقوعه، فالمُرادُ تحقيقُ جعلِ اللّه تعالى في أعناقِ الّذين كذّبوا رسولَ اللّه ﷺ أغلالًا دونَ تخصيصِ هذا الجَعْل بهم وعلَيهم.

الوعيدُ بالعذابِ وتصويرُه أشدُّ على النَّفسِ من وقوعِه

ويجوزُ أنْ يكونَ الجعلُ وعيدًا بما سيحلُّ بهم يومَ القيامة حينَ يُساقونَ إلى جهنّمَ في الأغلال، كما أشارَ إليه قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ [غافر: 71 - 72]، فيكون فعلُ ﴿جَعَلۡنَا﴾ مُستقبلًا وعُبِّرَ عنه بصيغةِ الماضي لتحقيقِ وقوعِه؛ كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، والمعنى: سنجعلُ في أعناقِهم أغلالًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

جعْلُ اللهِ تعالى ثابتٌ لا يُزيلُه كفرٌ ولا عِناد

أفادَ التّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا﴾ أنَّ هذا الجعلَ ثابتٌ لا يزولُ بسببِ كُفرِهم وتكذيبِهم، وفي الثّباتِ ترسيخٌ للعذاب، وإثباتٌ للعقاب فلا مَناص، ولا سبيلَ إلى هروبٍ.

فائدةُ حرفِ الظّرفيّة ﴿فِيٓ﴾:

لّما كانَ حرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 350.

تغلغلُ الأغلالِ في أعناقِ الكافرين، كتمكّنِ المظروفِ من ظَرفِه

﴿أَغْلَالًا﴾ للظّرفيَّة، أفادَ تغلغُلَ الأغلالِ في الأعناقِ وتمكّنَها فيها، كما يتمكّنُ المظروف من ظَرفِه، وأشارَ بالظّرفِ إلى أنَّ الأغلالَ من ضيقِها لزَّتِ اللَّحمَ حتّى تثنَّى على الحديدِ فكادَ يُغطّيه فصارَ - والعنُق فيه - كأنّه فيها، وهي مُحيطةٌ به[1]، وفيه إشعارٌ بثباتِ الأغلال في أعناقِهم زمانًا طويلًا تشبيهًا لاستمرارِهم عليها باستقرارِ الظّرفِ في المظروف المُشتمِلِ عليه، وفي وضعِ حرفِ الظَّرفيّة مكانَ حرفِ الاستعلاءِ الدّالِّ على الإحاطةِ بالعُنُق استعارةٌ تبعيّةٌ بالحرف، للدلالةِ على شدّةِ إحاطةِ الأغلالِ بالعنُق، كأنّها فيه وليستْ مُحيطةً به.

بلاغةُ التقديم في: ﴿جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾:

الإقماحُ يكونُ في هذا النّوعِ من الجعلِ دونَ غيرِه

الفعل في قوله: ﴿جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ فعلٌ يَتعدّى إلى مفعولَيْن؛ بمعنى: صيّرنا، وتقديمُ ما هو في موقعِ المفعول الثّاني ﴿فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ﴾ على المفعول الأوّل ﴿أَغْلَـٰلًا﴾ يُفيدُ الاهتمامَ والعناية، للتّنبيه إلى أنَّ هذا النّوعَ من الجَعْل يُؤذنُ ببيانِ سببِ كُفرِهم وتكذيبِهم، ويفيدُ التّقديمُ أيضًا التّخصيص؛ بمعنى أنَّ الإقماحَ يكون في هذا النّوعِ من الجَعْلِ دونَ غيرِه.

بلاغةُ القلْبِ البلاغي في الآية:

إظهارُ المبالغةِ في وصفِ ضيقِ الأغلالِ الضّاربةِ في الأعناقِ

الظّاهرُ أنَّ قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ من بابِ القلب، فإنَّ الأعناقَ هي الّتي تكونُ في الأغلال لا العكس، فكان الظّاهرُ أنْ يُقال: جعلنا أعناقَهم في الأغلال، فلمّا عكسَ كان من قبيل مجيءِ الكلام على خلافِ مُقتضى الظّاهر، ونكتتُه بيانُ أنَّ الأغلال ضيّقةٌ جدًّا، بحيثُ تحصرُ أعناقَهم وتدخلُ فيها، حتَّى تصير الأغلالُ مضروبةً في أعناقهم، فالقلبُ في الإسناد للمبالغةِ في وصف ضيقِ الأغلال الضّاربةِ في الأعناق[2].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 96.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 63، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَغۡلَٰلٗا﴾:

الأغلالُ جمعُ (غُلّ)، وهو حلقةٌ عريضةٌ من حديد كالقِلادةِ، تُطوّقُ رقبةَ المغلولِ، وآثرَهُ لفظًا للإشعار بأنَّ هذه الأغلالَ توثِقُ الأعناق على معنى التّعنيف والتّضييق والتّعذيب والأَسر[1]، وفي هذا اللَّفظ إشعارٌ بالإهانة؛ لأنَّ وضعَ القيدِ في العنُق ليس كوضعِه في اليد؛ بل إنَّ وضعَه في الأيدي ليس مانعًا لهم من رُؤيةِ الحقِّ، والغرضُ من التّصوير بيانُ الخِذلان لهم بعدمِ تمكُّنهم من رؤيةِ الحقِّ.

التّمثيلُ بالأغلالِ وصفٌ لبشاعةِ الكفرِ والضّلالِ

فائدةُ تنكيرِه وجمعِهِ:

تنكيرُ ﴿أَغۡلَٰلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾؛ للتّعظيم والتّهويل؛ أيّ: أغلالًا عظيمةً هائلةً، وأيَّد هذا إسنادُ فعلِ الجَعْلِ إلى نونِ العَظَمَةِ كما تقدَّم[2]، ففي التَّنكير والنّون مبالغةٌ في تعظيمِها وتهويلِ أمرها، كما دلَّ الجمعُ على الكثرةِ والشُّمول، فلا يخلو عُنقٌ عن غُلٍّ عظيمٍ يحيطُ بأعناقهم.

هـولُ الأغـلالِ تنبيهٌ على هولِ المآلِ

فائدةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ عطفٌ على جملة ﴿جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾؛ أيّ: جعلنا أغلالًا؛ فأبلغْناها إلى الأذقان[3]، فجيءَ بها للتّفريع والتّعقيب؛ تكميلًا للصّورةِ وترتيبِها؛ بإفادة ترتُّبِ مدخولِه عَلَى ما قبلَه، أو للتّعليلِ لجعلِ الأغلال في الأعناق[4].

تجليَةُ الصّورةِ إبانةٌ مبرورةٌ

دلالةُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾:

يحتملُ أنْ يكون الضّميرُ في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ عائدًا إلى (الأغلال)، والمعنى: فالأغلالُ إلى الأذقان، والدّليلُ عليه تأخيرُ الأغلالِ ليعودَ الضّميرُ إليه، وقوله: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾؛ إذ جعل

مفادُ الاستغناءِ عن ذِكرِ الأَيدي الموثَقةِ بالأغلالِ المُعلّقةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 50، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 350.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 176.

الإقماحَ نتيجةَ قوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، ولو كان الضّمير للأيدي لم يكُن معنى التَّسبُّب في الإقماحِ ظاهرًا، كما أنَّ الغايةَ من التصوير منعُ هؤلاء المُكذِّبين من الحقِّ نتيجةً طبيعيّةً لإصرارِهم على التّكذيب، فكانَ الخِذلانُ مُرافقًا لهم، ويكفي في تصويرِ المنعِ كونُ الغُلِّ مانعًا لهم من حركةِ الرّأس ليُبصِرَ الحقَّ والحقيقة دونَ ضمِّ الأيدي إلى الصّورة، وذهبَ بعضُ علماءِ العربيّة والتَّفسير إلى أنَّ الضّميرَ يعودُ إلى غير مذكورٍ بما دلَّ عليه السّياقُ، والتّقدير: فأيديهم مجموعةٌ بالأغلالِ في أعناقِهم، فكُنّي عن الأيدي، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ؛ لمعرفةِ السّامعينَ بمعنى الكلام، وأنَّ الأغلال إذا كانتْ في الأعناق لم تكنْ إلّا وأَيدي المغلولينَ مجموعةٌ بها إليها، فاستغنى بذِكْرِ كونِ الأغلالِ في الأعناقِ عن ذِكْرِ الأيدي(1).

الغُلّ يدلُّ على اليدِ ويَستلزمُها

ولا يخلو عودُ الضّمير على (الأيدي) من وجاهةٍ وسموٍّ بيان، وفيها مبالغةٌ في تصوير الهَوْل تتلاءمُ مع سياقِ الكلام؛ فإنّ الأيديَ وإنْ لم يجر لها ذِكْرٌ في العبارة فإنَّ الغُلّ يدلُّ عليها، بل ويستلزمُها، ولا شكّ أنّ ضغطَ اليد مع العُنُق في العنق يوجِبُ الإقماحَ، زِدْ على ذلك أنَّ اليد متى كانت مُرسَلةً مُخلّاةً كان للمغلولِ بعضُ الفرجِ بإطلاقِها، ولعلَّه يتحيَّل بها ويستعينُ على فِكاك الغُلِّ، وليس الأمر كذلك إذا كانتْ مغلولة(2).

فائدةُ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾:

بيانُ أثرِ الحرفِ في تجليةِ المعنى

يفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ الغايةَ المكانيَّة؛ بمعنى أنَّ الأغلالَ واصلةٌ، أوْ مُنتهيةٌ إلى أذقانهم - وهي مجمَعُ اللَّحييْن من أسفلهما -(3) فلا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 493، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 279، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 5، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 447، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 50.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 177.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.

تدعُهُم يَلتفتونَ إلى الحقِّ ولا يَعطفونَ أعناقَهم نحوَه، ولا يُطأطِئونَ رؤوسَهم له[1]، ورسمَ الحرفُ الجارُّ أنَّ تلك الأغلالَ من نوعٍ خاصٍّ ليس الغرضُ منه جرَّ الأسير والمقيَّد إلى مكان، بل أغلالٌ مانعةٌ من الرُّؤية، فلا بدَّ أنْ تكونَ عريضةً تصلُ إلى منطقةِ الذّقن حتى تمنعَ صاحبَها من الرُّؤية، فأفادَ الحرفُ دلالةَ العَرض كما أفاد وضعُها في الأعناق دلالةَ الاندماج الكامل في العُنقِ، حتى تبدو للنّاظرِ أنَّها فيه وليس عليه ومُحيطةً به.

فائدة (ألْ) في ﴿ٱلۡأَذۡقَانِ﴾:

شمولُ الوصفِ لكلِّ مَن كفرَ الرّسولَ وكذّبَ التّنزيلَ

(أل) في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ عهديّةٌ؛ بمعنى: إلى الأذقانِ المعهودةِ عند المخاطَبينَ، أوْ تكونُ عِوضًا عن المضافِ إليه[2]، والمعنى: فهي إلى أذقانِهم، ويكونُ سببُ العدولِ عن ذِكْرِ المضافِ إليه إلى التّعبير بالاسم معرَّفًا بـ(أل) هو بيانَ أنَّ هذا الوصفَ لا يختصُّ بهم؛ بل يشملُ كلَّ مَن كان مثلَهم؛ أيْ: مَن كفر باللّه تعالى وكذّب بالرّسول ﷺ وبالتّنزيل.

مناسبةُ ذِكْرِ ﴿ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ دون (المَناكِبِ):

ذِكْرُ جهةِ العُلوّ آثَرُ في البيانِ وأوضحُ

لمّا كانَ من المعلوم أنَّ الحديدَ إذا وُضِع في العنق أنزلَه ثقلُه إلى المنكِب، لم يذكُرْ جهةَ السّفل وذَكَرَ جهةَ العلوّ فقال: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾[3]، كما أنَّ المانعَ من حركة الرأس كونُ الأغلالِ واصلة إلى المِفْصَلِ المسؤولِ عن حركةِ الرّأسِ وذلك بالأذقانِ دونَ المِنْكَبِ.

نكتةُ مجيءِ الفاءِ في قولِه: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾:

دلالةُ الفاءِ بين التّفريع والسّببيّةِ مفيدةٌ للمُرادِ

تحتملُ (الفاء) في قوله: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ التّفريعَ لإتمام الصّورة، كقوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾، ويحتملُ أن تكونَ للتّسبُّب، فإنَّ ضغطَ طوقِ الأغلالِ على الأعناق، يُسبّب الإقماحَ ويَضطَرُّ الرّؤوسَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 160.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 387.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 96.

إلى الارتفاع، وإنْ كان الضّمير في: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ﴾ يعودُ إلى الأيدي؛ فالمعنى: إنَّ ضغطَ اليدِ مع العنق يوجِبُ الإقماحَ؛ لأنَّ اليدَ تبقى مُمسكةً بالغُلِّ تحتَ الذّقن رافعةً لها[1].

دلالةُ الضّميرِ في قولِه: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾:

عودُ الضّمير تمكينٌ للمعنى الأثير

يعودُ الضّميرُ على القومِ المُنذَرين الغافلينَ عن نعمةِ الإنذارِ، بما اتّصفوا به من حقوقِ القولِ عليهم، ومن جعلِ الله تعالى الأغلالَ في أعناقِهم، ليفيد أنَّهم بما اتّصفوا به صاروا مُقمَحينَ.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مُّقۡمَحُونَ﴾:

لا ينفعُ مَنْ سُلِبَ الاستطاعةَ إنذارٌ ولا تذكيرٌ

المُقمَحُ هو الّذي يرفعُ رأسَه ويغُضُّ بصرَه لا يستطيعُ الإطراقَ[2]، وجاء لفظ ﴿مُّقۡمَحُونَ﴾ خبرًا عن الكافرينَ لبيانِ ما صاروا إليه، بعد أنْ جعلَ الله في أعناقِهم أغلالًا فكانت إلى أذقانِهم، فإمّا أنْ يكون التّعبير بلفظ ﴿مُّقۡمَحُونَ﴾ لتمثيلِ رفعِهم رؤوسَهم عن النّظر إلى الدّاعي تكبُّرًا وشَماخة، بحيث لو أمكنَهم أنْ يَسكُنوا الجوَّ لم يتأخّروا صلافةً وتيهًا، وإمّا أن يكون تمثيلًا لما هم عليه من تركِ الانقيادِ إلى دين الله العظيم الحسَنِ الجديرِ بأنْ يُقبَلَ عليه ويُتروّى منه، وهم في غايةِ الحاجةِ إليه، ففيه إيذانٌ بأنَّهم لا يستطيعونَ فعلَ أيِّ شيءٍ، فلا ينفعُهم إنذارٌ ولا تذكيرٌ، ويترجّحُ الثّاني لأنَّ وضعَ الأغلالِ يتلاءمُ مع الإهانةِ والقسرِ على الحركة المخصوصة، فلا يكونُ رفعُ الرأس كِبرًا ناجمًا عن اختيار؛ بل رفعًا مُضطرًّا إليه يمنعُهُ من رؤية الحقّ بعدَ أن خصّ به واستكبرَ عليه وشكّ في صدقه.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

المقصودُ بيانُ حالِهم وسوءِ أفعالِهم لا مَن فعلَ ذلك بهم

عبّر في قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ للإشعارِ بأنَّ إقماحَهم كان بفعلِ فاعلٍ، ولكنْ خفي عليهم

(1) ابن المنير، الانتصاف حاشية على الكشاف: 4/ 5، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 13.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 363.

الأمرُ بسببِ سوءِ أفعالِهم وانهماكِهم في شِرْكِهم، فلا يملكونَ أن يكونوا غيرَ مُقمحين، ففيه إشارةٌ إلى أنّهم مغلوبونَ مَقهورونَ على تفويتِ حظّهم من اتّباعِ دينِ اللّه، والانصياعِ لأمرِ رسول اللّه ﷺ[1]، وفي حذفِ الفاعلِ تكميلٌ للصّورةِ القبيحةِ الّتي هم عليها؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ حالِهم، وليس بيانَ مَن فعل هذا بهم، وإنْ كان قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾، يدلُّ على الفاعل.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ في السّياقِ:

ثبوتُ الإقماحِ، دليلٌ بأنّه لا يزولُ عنهم

وقوعُ جملة الفاصلة: ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ جملةً اسميَّةً يفيدُ الثّبوت؛ بمعنى أنَّ كونَهم مُقمَحينَ هيئةٌ ثابتةٌ لهم لا تزول؛ إذ تعلّقَ الحرمانُ بهم فمنعَهم من الانتباهِ إلى نعمةِ التذكير والإنذار، لأنّهم لم يتفطّنوا إلى أنَّ إنذارَهم من دون إنذارِ آبائهم نعمةٌ عظيمةٌ، توجبُ عليهم الإقبالَ والإيمان، بل غفَلوا عنها وكذّبوا بها، فكانتِ العقوبةُ من جنسِ العملِ، وهي إبقاؤُهم في غفلةٍ دائميّةٍ، لا يستطيعونَ فيها رؤيةَ الحقِّ والالتفاتَ إليه.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآيةِ:

مِن موانعِ الإيمانِ عدمُ النّظرِ إلى نعمةِ الإنذارِ تكبُّرًا وتيهًا

في قوله: ﴿جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ مركّبة، فشبَّه تصميمَهم على الكفرِ واستكبارَهم عن أمر اللّهِ بحيث لا تُغني عنهم الآياتُ والنّذُرُ حتّى تعامَوا عن رؤيةِ النّعمةِ والسَّعادةِ واستحقّوا الخِذلانَ وعدمَ التَّوفيقِ إلى الإيمانِ بمَن جُعلَت الأغلالُ في أعناقِهم، فلا يلتفتونَ إلى الحقِّ ولا يَعطفونَ أعناقَهم نحوَه، ولا يُطأطِئون رؤوسَهم له، فلا يقدرونَ على انتهاجِ السّبيلِ ورؤيتِه ولا يَهتدون إليه أبدًا، وهم مُستكبرون عن الحقِّ، لتشبيهِ استكبارِهم بالإقماح؛ لأنَّ المُقمَحَ لا يُطأطِئ رأسَه، فجمعتِ الاستعارة وصفَهم بالاستكبارِ وبالاستصغارِ، فهم مُستكبرونَ في

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 97.

ظاهرهم أذلّاءُ في باطنِهم، وجاء قوله: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ لِتكميل الصّورةِ، ببيانِ أنَّ الأغلالَ عريضةٌ واصلةٌ إلى الأذقانِ قد طوّقتْها، فلا تُخلّيهم يُطأطئونَ رؤوسَهم له؛ لأنَّ طوقَ الغُلِّ الذي في عنقِ المغلولِ يكونُ في مُلتقى طرفَيهِ تحتَ الذَّقنِ حلقةٌ فيها رأسُ العمودِ خارجًا من الحلقةِ إلى الذّقنِ، فلا يُخلّيه يطأطئ رأسَه؛ أيْ: لمّا اشتدّتِ الأغلالُ حتّى وصلتْ إلى أذقانهم وطوّقتها اضطَرّتْ رؤسَهم إلى الارتفاعِ، فكانت النّتيجةُ ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾؛ أيْ: فهم رافعونَ بصرَهم غاضّون طرفَهم، فيكونُ قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ من تمام الصّورة البيانيَّة[1]، وهذا التّشبيهُ على القول بأنَّ الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ عائدٌ إلى الأغلالِ، وأمّا على القولِ بأنَّه عائدٌ إلى الأيدي بدلالةِ السّياقِ، فإنَّها إذا كانت مُطلقةً مُرسَلةً كان للمغلولِ بعضُ الفَرَجِ بإطلاقِها، فربَّما تحيّل بها على فكاك الغلّ، فيكون غلُّ اليدِ إلى العُنق مُنبّهًا على انسدادِ بابِ الحيلةِ؛ فيكونُ انسدادُ بابِ الحيَل عليهم في الهداية والانخلاع من ربقةِ الكفرِ المُقدَّر عليهم مُشبَّها بغَلِّ الأيدي إلى الأعناق، فإنَّ اليدَ آلةُ الحيلةِ إلى الخلاصِ[2]، ولا يخلو هذا الوجهُ من وجاهةٍ وسموٍّ بيانٍ، وفي هذه الصّورةِ مبالغةٌ في تصويرِ الهولِ تتلاءمُ معَ سياقِ الكلام.

وجهُ الحقيقةِ في الآيةِ تحقّقُ الوقوعِ عقابًا يومَ القيامةِ

وذهب بعضُ أهلِ التَّفسيرِ إلى أنَّ الكلامَ على الحقيقةِ، والمقصودُ أن يكون ذلك لهم في الآخرة، وهو كقوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: 71 - 72]، ويكون التّعبير بصيغة الماضي ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: سنجعلُ، ونكتةُ التّعبير بالماضي الإيذانُ بتحقّقِ الوقوع، ومثلُه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 5 - 6، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 447، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 264.

(2) ابن المنير، الانتصاف: 4/ 5، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 14.

ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: 116]؛ أيّ: يقولُ اللّهُ له يومَ القيامةِ[1]، ولا يخفى ضعفُهُ؛ لأنَّ السّياقَ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ، وهي غفلتُهم عن اختصاصِهم دونَ آبائهم بنعمةِ الإنذارِ، فكان تكذيبُهم غفلةً عن تلك النِّعمة، حتى استحقّوا الحرمانَ منها ومن رؤيتِها.

علّةُ إيثارِ التّعبيرِ بالاستعارةِ التّمثيليَّةِ:

تمثيلُ المعقولِ بالمحسوسِ من البيانِ القرآنيّ المأنوسِ

لمّا جاء التّمثيلُ في أعقابِ بيانِ أنَّ أكثرَ الكافرين لا يؤمنونَ، ولمّا نُقلت صورةُ المعنى الأصليِّ إلى صورةِ التّمثيلِ بطريقِ تشبيهِ المعقولِ بالمحسوسِ الَّذي جاء على الذّمِّ، كان مسُّ الكلامِ على الكافرين أوجعَ، وميسمُه ألذعَ، ووقعُه أشدَّ، وحدُّه أحدّ، كما أنّه لمَّا جاء الكلامُ في بيانِ سببِ عدمِ إيمانِهم ليكونَ بالدَّليلِ المنقولِ من المعقولِ إلى المحسوسِ كانَ البرهانُ بصورةِ التّمثيلِ أنورَ، وسلطانُه أقهرَ، وبيانُهُ أبهرَ[2]، فأوثِرَ التّعبيرُ بالاستعارةِ التّمثيليَّةِ في هذه الآيةِ لبيانِ سببِ امتناعِهم عن الإيمانِ وتصميمِهم على الكُفرِ وبقائِهم عليه إلى المَوتِ.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستعارةِ التّمثيليّةِ:

تأنيسُ الرّسولِ الأكرمِ وتصبيرُه على عدمِ إيمانِ الكافرين

عبّر بجعلِ الأغلالِ في أعناقِهم على طريقِ الاستعارةِ كما تقدَّم، وفي هذه الاستعارةِ كنايةٌ عن ذِلَّتِهم واستسلامِهم وصَغارِهم بسببِ عدمِ إيمانِهم بدلالةِ جَعْلِ الأغلالِ في الأعناقِ، وفيها كنايةٌ كذلك عن مَنْعِ اللّهِ إيّاهم عنِ الاهتداءِ بالإنذارِ، فهم مَغلوبونَ على أمرِهم بسببِ تصميمِهم على الكُفرِ[3]، وفيه تأنيسٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، وتسليةٌ لقلبِه الشّريفِ ﷺ وتصبيرٌ له على إصرارِهم على الكفرِ؛ لأنَّه بيَّن أنَّ ما هُم عليه هو بجَعْلِ اللّهِ تعالى ذلك الضَّلالَ في قلوبِهم.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 505، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 49.
(2) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 86.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 523.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغُلّ والقَيد:

الـغُـلُّ هـو الطّوقُ الّذي في العُنُق خاصَّةً، وإيـشـارةُ دليـلُ الصّغارِ والأَسرِ والتّعذيبِ

الغلّ والقَيدُ كلاهما للتّضييق، وكلُّ شيءٍ أَسِرَ بعضُه إلى بعضٍ فهو قيدٌ، فإنْ كان طوقًا في العنُق فهي الأغلالِ؛ لتفيدَ أشدَّ التّقييدِ على معنى الصّغارِ والأسرِ والتّعذيبِ، وممّا يُفرِّق بينهما أنَّ الأغلالَ تُحيط بِالعُنُقِ خاصَّةً؛ أيْ: تكونُ حلقةً في العنق، أوِ الأغلالُ هي ما يجمعُ اليديْنِ أو اليدَ الواحدة وهي اليمينُ إلى العُنُق، وأمّا القيدُ فيكون للقدمِ ولليديْن، فيُقال للقِدَّة الَّتي تَضُمّ عرْقوَتَي الرَّحْل قَيْد، وذهب بعض اللُّغويّين إلى أنَّ الأغلال لا تكون إلّا فيما يجمعُ اليديْنِ إلى العنق أوِ اليدَ اليُمنى إلى العنق؛ لأنَّ الغلّة لا تكون في العُنُق دونَ اليدِ، ولا في اليدِ دونَ العُنُق، وإنّما تغلّ الأيدي إلى الأعناقِ، وأمّا القيدُ فيكون في اليديْن أوْ في القدميْن أوْ في العنُق[1]، وناسبَ السّياقَ اصطفاءُ لفظِ الأغلالِ بوصفه طوْقًا للعنُق؛ وليُفيدَ تطويقَهم بأشدِّ التّقييد، للدِّلالة على الصّغار والأَسْرِ والتّعذيب، ونتحسَّسُ فرقيْنِ آخَرَيْنِ بين اللَّفظيْنِ؛ هو أنَّ الأغلال تكونُ أكثرَ ضيقًا من القيود؛ فهي تحيطُ بالعنق كأنَّها تدخل فيه، بخلاف القيود فإنَّها لم يُلحَظ في معناها دلالةُ التَّضييق بما يُحيط به، وأنَّ الأغلالَ تُشعِرُ بالذُّلِّ بشكلٍ أعمقَ من القيودِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غلل، قيد)، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 455، والمنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 339، وابن عادل، اللُّباب: 5/ 273.

﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾ [يس: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ جَعْلِ الأغلالِ في الأعناقِ، وجعلِ حاجزٍ مانعٍ منَ الإبصار

لمّا كان الرّافعُ رأسَه غيرَ ممنوعٍ منَ النّظرِ أمامَه، تمّم معنى جَعْلِ اللَّهِ إيّاهُمْ مَغْلولينَ، ببيانِ أنَّ الكافرينَ لا يستطيعونَ النّظرَ أمامَهم كذلك؛ فجاءت هذهِ الآيةُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَدّٗا﴾: أصلُ (سدّ) يدلُّ على رَدْمِ شَيءٍ ومُلاءَمتِهِ، من ذلك سَدَدْتُ الثُّلْمَةَ سَدًّا، وكلُّ حاجزٍ بينَ الشَّيئَيْنِ سَدٌّ، والسِّدادُ: الشَّيءُ الَّذي تُسَدُّ به كوَّةٌ أوْ مَنفَذٌ سَدًّا، ومنه قيل: في هذا سِدادٌ من عَوَزٍ؛ أيْ: يَسُدُّ منَ الحاجةِ سَدًّا، والسُّدودُ: السِّلالُ من قُضبانٍ لها أطباقٌ، والجميعُ: سِدادٌ، والواحدُ: سَدٌّ[2]، والسَّدُّ في الآيةِ مُرادٌ به: اسمُ الجِدارِ الَّذي يَسُدُّ بينَ داخلٍ وخارجٍ[3].

2) ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾: أصلُ (غشي) يدلُّ على تَغْطيةِ شَيءٍ بشيءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشّيه، والغَشْيُ والغَشَيانُ حقيقتُهُ التَّغطيَةُ والغَمُّ، يُقالُ: غَشَّيت الشَّيءَ تَغْشيَةً إذا غَطَّيْتَه، والغِشْيانُ - بالكَسْرِ - الإتيانُ، يُقالُ: غَشيَهُ إذا أتاهُ[4]، والمقصودُ في الآيةِ: وضعُ الغِشاءِ؛ أيْ: جعلْنا على أبصارِهم غِشاوةً وأغطيةً تمنعُهُم من الرُّؤيةِ[5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 255، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 97.

(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سد).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 351.

(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والمطرزيّ، المُغرب: (غشي - غشا).

(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 12/ 15.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مَن أصرَّ على الكُفر والعِناد حُبِسَ في سِجنِ الضّلالةِ، فلا يَرى ولا يُبصر

أكَّد الله تعالى إصرارَ الكافرين على كفرهم، فقال سبحانه: إنَّنا لم نكتفِ بجَعْلِ الأغلالِ في أعناقهم؛ بل أضفنا إلى ذلك أنَّنا جعَلْنا من بيْنِ أيديهم حاجزًا، ومِن خَلفِهم حاجزًا، فغَطَّينا أبصارَهم فلا يَرَوْنَ شَيئًا بسببِ احتجابِ الرُّؤيةِ عنهم بالحواجزِ الأماميَّة والخلفيَّة، فالآية الكريمة تمثيلٌ آخَرُ لنتيجةٍ طبيعيَّةٍ عن تصميمِهم على كفرهم؛ إذ شبَّهَهم سبحانه بحالِ مَن أحاطتْ بهم الحواجزُ من كلِّ جانبٍ، فمنعَتْهم من الرُّؤيةِ والإبصار[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ:

الكافرونَ لا يُدركون الحقَّ، ولا يُبصرونَ سبيلَ الرّشادِ

لمّا عبَّر عن سببِ منعِهم من الإيمانِ بتصميمِهم على الكُفرِ وعدمِ التفاتِهم إلى الرّسول ﷺ وانقيادِهم له وللقرآن، ناسبَ أنْ يَعطِفَ عليه بـ(الواو) قولَه: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾؛ ليفيدَ أنَّهم كما لا يَلتفتونَ إليكَ وإلى القرآن؛ فإنَّهم لا يُبصرونَ الحقَّ وسبيلَ الرّشاد، فاجتمع عليهم عدمُ اتّباعِ الرّسول ﷺ؛ لأنَّهم مقحَمون، وعدمُ ظهورِ الحقِّ وإبصارِه لمكانِ السّدِّ، أوْ يُقال: المانعُ من الإيمانِ إمّا أن يَكونَ في النَّفْسِ، وإمّا أنْ يَكونَ خارِجًا عَنْها، فلمّا ذكرَ ما في النّفس وهو الغُلُّ، أعقبَه بذكرِ الَّذي من الخارج وهو السَّدُّ، فبيَّن بالآيتيْنِ أنَّ لهم المانعَين جَميعًا مِنَ الإيمانِ، فَلا يَقَعُ نَظَرُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَيَرَوْنَ الآياتِ الَّتي في أَنْفُسِهِمْ كَما قالَ تَعالَى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فُصِّلَت: 53]، والجامعُ على الوجهيْن هو بيانُ سببِ عدمِ الإيمان وتصميمِهم على الكفرِ[2]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 405، و406، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 147، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 692.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 255.

ونلحظُ في العطف على ما تقدم أنَّ الجزاءَ من جنس العمل؛ إذ واجهوا الدَّعوةَ الحقَّةَ بالغفلةِ عنها وعدمِ الإذعان لها، فكانت العقوبة الدّنيويّةُ أنَّهم مُقمَحونَ عن رؤيتها، وقد أُحيطت السُّدودُ بينهم وبينها، فأنَّى لهم رؤيتُها؟.

وجهُ عطفِ الخبرِ على الخبرِ دون ذِكْرِ المُسنَدِ إليه:

تنوّعُ الفعلِ مع وحدةِ الفاعلِ والسّببِ مُفيدٌ بيانَ المُرادِ

لم يَقُلِ النَّظمُ: (وإنّا جعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفِهم سدًّا)؛ بل عطفَ الخبرَ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على الخبر في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾، والغرضُ بيانُ أنَّ الفاعلَ وهو اللّه تعالى واحدٌ، وأنَّ السّببَ في الجعلَيْنِ واحدٌ، والّذي تنوّع هو الفعلُ؛ بمعنى أنَّ سببَ جعلِ اللّه تعالى في أعناقِهم أغلالًا، وجعلِه تعالى من بينِ أيديهم سدًّا ومن خلفِهم سدًّا هو واحدٌ، وهو عدمُ إيمانِهم، ليفيدَ شدَّةَ الوعيدِ على عدمِ الإيمان بتنوُّعِ العقاب، فلا تأكيدَ في إعادة الفعل (جعلنا)، كما ذهب إليه ابن عاشور رحمه اللّه[1]؛ بل هو لتنويعِ الفعل وتكميلِه، والغرضُ من الجعلَيْنِ بيانُ العقوبةِ العاجلةِ لهم قبل تحقُّقِ العقوبةِ الآجلةِ في الآخرة، وكلا الجَعْلَيْنِ حرمانٌ من النَّظرِ إلى الحقِّ واتّباعِه.

نكتةُ التّعبيرِ بالجَعْلِ:

التّعبيرُ لإفادةِ القوّةِ والتّمكّنِ، وإبرازِ مَلمَحِ التّعجّبِ

عبّر النَّظمُ الكريمُ بالجَعْلِ في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ جعلَ مثلِ هذا السّدِّ من بينِ أيديهم ومن خلفِهم أمرٌ عجيبٌ، ليس له مثالٌ ولا يقدرُ عليه إلّا اللّه تعالى، ويفيدُ التّعبيرُ بالجَعْلِ أيضًا دون لفظ (التّصيير) قوّتَه وتمكّنَه فيهم.

فائدةُ ذِكْرِ الجارّ:

اختيارُ حرفِ المعنى؛ ليدلَّ على المُرادِ من الفصيحِ المُستفادِ

لم يَقُلِ النَّظْمُ: (وجعلنا بينَ أيديهم سدًّا وخلفَهم سدًّا)؛ ليُفيدَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 351.

حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ قربَ السّدِّ منهم، بحيثُ يكونُ مُلتزقًا بهم، ليَنبنيَ عليه قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾، فتتحقَّقُ الغشاوةُ الكاملةُ.

فائدةُ تقديمِ المفعولِ الثّاني على الأوّل:

إفادةُ العنايةِ والتّخصيص، مفصحةٌ عن مدلولِ العبارة

قُدِّمَ المفعول الثّاني ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على المفعول الأوّل ﴿سَدّٗا﴾، ومثلُه في قوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾؛ للعنايةِ بموضعِ جعلِ السّدِّ، فضلًا عن التّخصيص؛ بمعنى أنَّ منعَ رؤيتِهم لا يكونُ إلّا إذا جعلْنا قدّامَهم سَدًّا، وليس من موضعٍ آخرَ، وجعلنا من خلفِهم سدًّا، وليس من موضِعٍ آخَرَ، إذ الغرضُ تقييدُهم من جهةِ الأمامِ ومن جهةِ الخَلْف، فإنْ نظروا أمامَهم لا يرونَ شيئًا، وإنِ التفتوا إلى الخَلْفِ لم يُبصِروا شيئًا، سواءٌ كان الحاجزُ سدًّا أَوْ غيرَ سدٍّ.

نكتةُ كونِ الحاجزِ ﴿سَدّٗا﴾:

سُمّيَ السَّدُّ؛ لأنَّه يسدُّ فِجاج الأرضِ فيمنعُ الرّؤيةَ ويُحيلُها

السَّدُّ هو اسمُ الحاجزِ الذي يسدُّ بينَ شيئَيْن، أو هو الجدارُ الذي يَسُدُّ بَيْنَ داخلٍ وخارجٍ بحيث يحيلُ الرؤّية ويمنعها، وسُمّي السّد سدًّا؛ لأنَّه يَسدُّ فِجاج الأرضِ الواضحة، ويمنعُ البصرَ من النّظر إليها[1]، ولمّا كان السّياقُ في بيانِ سدٍّ بصيرتِهم عن رؤيةِ حقائقِ الإيمان ودلائلِه الواضحةِ عبّر بالسّدِّ؛ للإيذانِ بعظَمِ المانعِ الَّذي من قدّامهم ومن خلفِهم، وانسدادِ المَسالك عليهم، فلم يقدِروا على النُّفوذ منها، ونلحظُ فائدةً في ذِكْرِ خصوصِ (السدّ) وهو أنّه يمنعُ في الغالب دخولَ شيءٍ إلى ما وراءَه، فيكونُ المُراد منعَ وصولِ المعارفِ الحقّة إلى قلوبِهم التي غفلتْ عن الإيمان، وأصرَّتْ على الكفر والتكذيب، فلا تنفذُ المعارفُ الربانيّة إلى عقولها وقلوبها المسدودة؛ ولا تنهمرُ الحقائقُ الصّادقةُ إلى نفوسِها وأذهانِها.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سدد)، والقنوجيّ، فتح البيان: 8/ 112، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/ 351.

فائدةُ تنكير ﴿سَدًّا﴾:

عِظمُ السدّ دليلُ شـدّةِ احتجابِ الرّؤيةِ

التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ لتعظيم السّدِّ[1]، والمعنى: جعلنا سدًّا عظيمًا يمنعُ من الإبصار، وعِظَمُ السدّ دليلُ قوّة المانع، وشدّةِ التعمية، وهو المناسبُ لإسناد الفعل (جَعَلَ) لنون العظمة، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن معَ صاحبتِها مقامٌ.

سببُ تقديمِ ذِكْرِ القُدّام على الخَلَف:

أعظمُ الخَيبة أنْ ينسدّ الطّريق، بين يدَيِ السّالك ومِن خلفِه

قُدِّم ذِكْرُ القدّام على الخَلَفِ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ لأنَّ الإبصارَ بالقدّام يحصلُ بلا تكلُّف، وهو الأصلُ في الإبصار، فإذا لم يُبصِروه فعدمُ إبصارِ غيرِه بالأولويَّة، وأمّا ذِكْرُ الخَلْف فلكونِه مُقابلًا للقدّام، فإنَّ السّالكَ إذا انسدَّ الطّريقُ قُدّامه يرجعُ إلى الخلف[2] بحسب ما سيأتي في (بديع المقابلة)، كما أنَّ مَن وُضِعتِ الأغلالُ في عنقِه لا يستطيعُ النَّظر وهو يُحاولُ الإبصار جاهدًا، وتكونُ تلك المحاولةُ من جهة الأمام أوّلًا؛ فإن لم يستطعْ لذلك سبيلًا فقد يلتفتُ ليتمكّنَ من رؤيةِ ما في خلفِه، والحاصلُ أنَّ الأغلالَ قيدٌ منعَهُم من حركةِ العنق للعثور على الطَّريق، والسَّدَّ قيدٌ آخرُ منعَهم من الإبصار فقيَّد العينَ كما تقيَّد العنُقُ، فكانوا عاجزينَ عُميانًا بسببِ غَفلتِهم عن الإنذارِ والدَّعوة.

فائدة الواو في قوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾:

بجعلِ السّدّ من بين أيديهم ومِن خلفِهم يحصلُ غَـشـيـانُ أعـيُنِ الكافرين

(الواو) في قوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ لتشريكِ الحُكم وما يَترتّب عليه؛ أيْ: للجمع بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الحُكم وما انبنى عليه؛ بمعنى أنَّه بمجموعِ جَعْل السّدِّ من بين أيديهم ومن خلفهم يحصلُ المقصودُ وهو غَشَيانُ أعيُنِهم، فيتسبّبُ منه عدمُ قدرتِهم على الإبصار، فتمتنعُ رؤيتُهم الدّلائلَ الواضحةَ، كما أفادَ العطفُ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 97.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 97.

دفعَ توهُّم مَن يعتقدُ أنَّهم إنْ كان هنالك سدٌّ أمامَهم فلا يقتضي وجودَ سدٍّ مِن خلفهم، فنفاهُ لتحقيق التّقييدِ التامِّ عن الحركةِ والإبصارِ والنّظر.

نكتةُ إعادةِ لفظ ﴿سَدّٗا﴾:

في إعـادةِ اللّفظ نـكـرةً معنًى جديدٌ

لم يَقُلِ النَّظْم: (وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفِهم فأغشيناهم)، وإنّما أعادَ لفظ ﴿سَدّٗا﴾ جريًا على الأصل في أنَّ إعادةَ الاسم النّكرة تدلُّ على أنَّه غيرُ المذكور أوَّلًا، ليفيدَ أنَّ السّدَّ الثّاني غيرُ الأوّل، فهما سَدّان، وبهما يتحقّقُ ما بُني عليه في قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، كما أنَّ إعادةَ اللَّفظ تُفيدُ تحقيقَ الجعلِ وتقريرَه[1].

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبير بالسّدِّ:

دلائـلُ الإيـمـانِ واضـحـةٌ جليَّةٌ إلّا مَن انطمَست بـصـيرتُـهُ عن رُؤيتِها

لّما كان (السّدُّ) هو الحائطَ العالي الّذي يمنعُ رؤيةَ الآفاق الواضحة؛ أفادَ أنَّ دلائلَ الإيمانِ واضحةٌ جليَّةٌ، وأنَّه لولا إصرارُ الكافرينَ على الكُفرِ وعدمِ اتّباعِهم رسولَ اللّه ﷺ والقرآن، لَما جعلَ اللّه السّدَّ من قدّامِهم ومن خلفِهم، ولأبصروا هذه الحقائقَ الواضحة.

علّةُ عدمِ تكرارِ الجَعْل:

تكرارُ اللّفظِ عندَ الـحـاجـةِ إليه بليغٌ وتركُه عند عدمِها أبلغُ

لم يَقُلْ: (وجعلنا من خلفِهم سدًّا) بتكرارِ لفظِ الجَعْل، لكنَّه قال: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾؛ لأنَّ جعْلَ سدٍّ من بينِ أيديهم وسدٍّ من خلفِهم، هو جعلٌ واحدٌ يحصلُ به الانسدادُ، وبمجموعِ الأمريْنِ يحصلُ غشَيانُ الأعيُن، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأمرَ يسيرٌ على اللّه تعالى، فهو فعلٌ واحدٌ له أثران.

توجيهُ بديعِ المُقابلة ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿خَلۡفِهِمۡ﴾:

جاء التّركيب في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وقوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ على طريقِ المُقابلة؛ ليُفيدَ أنَّهم محصورونَ في كُفرِهم فلا يَهتدون

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 98.

سُبلُ الخيراتِ والمَبَرّاتِ تأتي من جميعِ الجهاتِ

أبدًا، ونكتةُ المُقابلةِ هي أنَّه لمّا كانَ الإنسانُ إذا انسدَّتْ عليه جهةٌ مالَ إلى أُخرى، وكان السّالِكُ إذا انْسَدَّ الطَّريقُ الَّذي قُدّامَهُ يفوتُهُ المقصدُ ولكنَّه يرجعُ إلى الخلف؛ قابلَ قولَه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بقولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾[1]، ويحتملُ أنْ تكون المقابلةُ كنايةً عن جميع الجهات، فالمُرادُ من السّدَّينِ المتلاقيانِ، فتتغطّى بهما أبصارُهم[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سُبلَ الخير تأتي من جميعِ الجهات، وأنَّ أظهرَها ما يكون أمامَه، فالعاقلُ الَّذي يُنوّع نظرَه ليُبْصِرَ الحقَّ.

بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ:

البقاءُ على الكُفرِ مآلُهُ الهَلَكةُ والحِرمانُ

في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا﴾ كنايةٌ، بيانها: أنَّه لمّا كان انسدادُ الطَّريقِ مِنْ قدّامِهم ومن خَلْفِهم يفيدُ بلازمِه أنَّ الموضعَ الَّذي هُم فيهِ لا يَكونُ مَوْضِعَ إقامَةٍ وأنَّه مُهلِكٌ، دلَّ على أنَّهم هالكونَ في مَوضعِهم؛ أيْ: هالكونَ على ما هُم عليهِ مِن بقائِهم على الكُفرِ[3]، معَ حِرمانِهم من نعمةِ الإيمانِ والاهتداءِ.

نكتةُ الاقتصارِ على ذِكْرِ الجهتيْنِ فقط:

المُتوجّهُ إلى أيِّ جهةٍ هي الّتي تكون من بينِ يدَيه، وعكسُها الّتي من خلفِه

ذَكَرَ اللّه تعالى السّدَّيْنِ من بينِ الأيدي ومن الخلْف، ولَمْ يَذْكُرْ مِنَ اليَمينِ والشِّمالِ، وبيانُ النّكتةِ فيه أنْ يُقال: إنْ كان جعلُ السّديْنِ تمثيلًا لحالِ الكافرين - وهو الظّاهر - فالفائدةُ من ذكرِ تَيْنِ الجهتَيْنِ هو تعميمُ المنعِ من انتهاجِ المَسالك المُستقيمة؛ لأنَّهم إنْ قصدوا السّلوكَ إلى جانبِ اليمينِ أوْ إلى جانبِ الشّمال صاروا متوجِّهين إلى شيءٍ وموَلّينَ عن شيءٍ، فصار الَّذي توجّهوا إليه هو الَّذي بينَ أيديهم، وعكسُه الّذي من خلفِهم، ليفيدَ أنَّ كلَّ جهةٍ يَلتفتونَ إليها مُنسدَّةٌ، فكانوا لذلك لا يَستطيعونَ النّظرَ إلى الحقِّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 255، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 97.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 8/ 7، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 97.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 255، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 339.

ودلائلِه ولا الخلوصَ إليه[1]، وإنْ كان الكلام على الجَعْل الحسّيِّ، فيُقال: لمّا كانَ جعلُ السَّدِّ سَبَبًا لِلإغْشاءِ كانَ السَّدُّ مُلْتَزقًا بِهِم، وهُم مُلْتَزِقون بِالسَّدَّيْنِ فَلا قُدْرَةَ لَهُم عَلَى الحَرَكَةِ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً؛ فَلا حاجَةَ إلَى السَّدِّ عَنِ اليَمينِ وعَنِ الشِّمالِ[2].

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾:

الفاءُ للتّفريع وترتيبِ الصّورة لإتمامِ المعنى

(الفاء) في قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ للتّفريع وترتيبِ الصّورة، فكأنَّه تعالى قال: (إنّا جَعَلْنا في أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا، فَلا يُبْصِرون أَنْفُسَهُمْ لإقْماحِهِمْ، وجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْديهِمْ سَدًّا ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَلا يُبْصِرونَ ما في الآفاقِ، وحينَئِذٍ يُمْكِنُ أَنْ يَرَوُا السَّماءَ وما عَلَى يَمينِهِمْ وشِمالِهِمْ، فقال بعدَ هذا كلِّه محترسًا: (وجعلنا على أبصارِهم غِشاوةً فَلا يُبْصِرونَ شَيْئًا أَصْلًا)، أَوْ يُقال: مجيءُ التّفريع والتّرتيب لبيانِ الحالة، بتمثيل كونِ السَّدِّ قَريبًا مِنْهُمْ بِحَيْثُ يَصيرُ ذَلِكَ كالغِشاوَةِ عَلَى أَبْصارِهِمْ، فإنَّ الَّذي جُعِلَ مِن قُدّامِه ومِن خَلفِهِ سدّانِ مُلتزقانِ لا يُمكِنُهُ التحرُّكُ يَمنةً ويَسرةً، ولا النَّظرُ إلى السَّدّ ولا إلى غيره، أَمّا غَيْرُ السَّدِّ فَلِلْحِجابِ بوجود السّدِّ[3].

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾:

لمّا كان الإغْشاءُ والتَّغْشيَةُ إلباسَ شيءٍ بشيءٍ؛ عبَّر بقوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ لإفادةِ تغطيةِ أعيُنِهم بحيثُ ألبسَها ما يمنَعُها من أنْ تطمحَ إلى مرئيٍّ.

دلالةُ إسنادِ الإغشاءِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

ما كانَ عقابًا من الله، فلا مردّ لهُ ولا مَنأَى عنه

أفادَ الإسنادُ إلى نون العَظَمَة في قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ أنَّ هذا الغَشَيان ليس مثلَ أيِّ غشيانٍ؛ بل هو غَشَيانٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الَّذي

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 526، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 339.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 255.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 255، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 526، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 98.

أغشى أبصارَهم هو الملكُ الواحدُ الأحد، فلا يستطيعونَ رفعَ الغِشاوةِ عنهم.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في جملةِ الفاصلةِ:

لو كانت ذواتُ الكافرين كلُّها أعينًا لامتنعَ عليهم الإبصارُ

الغِشاوةُ تتعلَّق بالبصر وليسَ بالذّات كلِّها؛ فكان الظّاهرُ أنْ يُقال: (فأغشينا أعيُنَهم عن الإبصار)، لكنَّه قال: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ ليكونَ على طريقِ (المجاز المُرسَل) بحذفِ المُضاف[1] وتعليق الفعلِ بالكلِّ، وهو الضّميرُ المُعبَّر به عن ذواتِهم والمُرادُ به الجزءُ وهو الأعيُن، والغرضُ منه المبالغةُ في امتناعِ الرُّؤية، فكأنَّهم لو كانت ذاتُهم كلُّها أعيُنًا لامتنعَ عليهم الإبصار؛ لأنَّه تعالى هو الذي أغشى أعيُنَهم، أوْ إنَّما تعلَّقَ الفعلُ بالضّمير العائدِ إليهم دونَ أعينِهم؛ لأنَّ السدَّيْن من طولِهما حقَّقا غرضيْن؛ غِشاوةُ العينيْن مع غِشاوتهم أنفسَهم؛ فأصبَحوا لا يُرَونَ، وكأنَّهم قد لبِسوا السّدّيْن، وأحاطا بجميعِ أجسادِهم؛ فلا يُبصِرونَ ما وراءَه ولا هم يُنظَرون.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في السّياقِ:

الغِشاوةُ تمنعُ الرُّؤيةَ وما يتسبَّبُ عنها من الاهتداءِ والفلاحِ

المَفعولُ الثّاني في قوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ مَحْذوفٌ، والمَعْنَى: (فَأَغْشَيْناهُمُ العَمَى)، أوْ (فأغشيناهم فَقْدَ الرُّؤْيَةِ)[2]، وحُذِفَ المفعول الثّاني للعلْم بأنَّ ما يلبَسُ العينَ إنّما هو الغشاوة، فإنّها تدلُّ على منع الرّؤية، فحُذِف للإيجاز، كما أفاد الحذفُ التّعميمَ بمعنى أنَّ الغشاوةَ منعتْهم الرّؤية المعنويّة، وما يتسبّب عنها من الاهتداء والفلاح، كما أنَّ تغطيتَهم وتغطيةَ عيونِهم جعلَتْهم في موضِع الخِذلان والنِّسيان؛ فلا حِرمانَ أعمقُ من هذا.

دلالةُ تكرارِ الفاءِ في ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ﴾:

بيانُ أثرِ حرفِ المعنى في توجيهِ الدّلالةِ وإفادةِ المُرادِ

(الفاءُ) في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ تفريعيّةٌ، وتفيدُ التّرقّيَ في

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 458، والعكبريّ، التّبيان: 2/ 1079، والمنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 340.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/ 154.

عدم الإبصار مع تكميل المعنى وتتميمه وبيانِ نتيجتِه، وهذا من أشدِّ ما يقعُ به المنعُ من النّفوذ، وهو انسدادُ المسالكِ بسبب الإحاطةِ معَ عدمِ البصر، أوْ يُقال: كما لا يستطيعونَ معَ وجود السّدّيْنِ تحرُّكًا لا يستطيعونَ إبصارًا، وكيف يُبصِرُ مَن وجهُهُ مُلتزِقٌ بالحائط مثلًا[1]، ويجوز أنْ تكون سببيَّةً؛ أيْ: بسببِ جَعْلِنا السّدَّ من بينِ أيديهم ومن خلفِهم، هُم لا يبصرونَ، فالفاءُ داخلةٌ على المُسبَّب[2].

دلالةُ الجملةِ الاسميّة:

أفادَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّة في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ ثبوتَ وصفِ انعدامِ الرُّؤيةِ لهم بسببِ جَعْلِ اللّه تعالى من بين أيديهم سدًّا، ومن خلفِهم سدًّا وإغشائهم.

دلالة النّفي في السّياقِ المُحكَم:

الــدّلالــةُ على استغراقِ الزّمنِ مُفيدةٌ في الإبانةِ عنِ المُراد

تفيدُ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ نفيَ الحال والمستقبل، والمعنى: استمرارُ زمنِ النّفي بدلالةِ السّياق؛ أي: استمرارُ نفيِ عدمِ قُدرتِهم على الإبصار أوِ استمرارُ عدمِ إبصارِهم لأيِّ شيءٍ.

نكتةُ نفيِ الإبصار:

عــدمُ انـتـفـاعِ المُبصِر من بَصَرِه بـمـثـابـةِ مَـن لا إبصارَ له

لمّا كان المقصودُ من البصر هو الاهتداءَ إلى الطّريق؛ لمعرفة الصّوابِ وتجنّبِ الخطأ كان عدمُ الانتفاع من البصرِ بمثابة مَن لا إبصارَ له، ولهذا نفى اللّه تعالى عنهم الإبصارَ، فقال: ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

نكتة التّعبير بصيغة (أفْعَلَ):

مَن حصلَ عندَه الاهـتـداءُ، فهو المُبصِرُ حقًّا

لمّا كانَ الفعل الوارد في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ من (أبصر) الرّباعيّ الّذي يَطلُبُ مفعولًا، كان المُرادُ نفيَ إبصارِهم، وليس نفيَ

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 340.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 98، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 339، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 160، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 97.

بصرِهم، فتوجّه النّفيُ إلى المقصودِ من البصر، وليس إلى نفي عينِ البَصرِ، فمَن حصلَ عندَه المقصودُ وهو الاهتداءُ فهو المُبصِر.

مناسبةُ مجيءِ المُسنَد جملةً فعليّةً:

مَن سلَبَه الله تعالى الإبصارَ؛ فلا قدرةَ له على الاهتداءِ

أفاد مجيءُ المُسنَد جملةً فعليَّةً في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تقوّيَ الحُكم وتحقيقَه؛ بمعنى تمكُّنِ عدمِ الإبصارِ منهم، وتحقيقه عند السّامع، ليمنعَه بذلك من الشّكِّ، وليفيدَ أنَّ مَن جعلَ اللّه من بين يديهِ ومن خلفِه سدًّا فهذا دأبُه؛ أيْ: لا يأتي منهُ إلّا عدمُ قدرته على الإبصار[1].

وجهُ العدولِ من الماضي إلى المضارعِ:

تـصويرُ المـاضي بصورةِ الحالِ، تفظيعٌ لعدمِ الإبصارِ

لمّا جاءت الأفعالُ المذكورةُ في الآية بصيغة الماضي ﴿وَجَعَلْنَا﴾ و﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾، ثمَّ عُدلَ إلى صيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ كان الكلامُ على خلافِ مُقتضى الظّاهر، والنّكتةُ فيه تصويرُ الماضي بصورةِ الحال؛ لتفظيعِ حالةِ عدمِ إبصارِهم عندَ المخاطبين.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في السّياقِ:

حذفُ المفعولِ بينَ دلالةِ الفعلِ على لزومِ الوصفِ وإفادةِ العمومِ

لمّا كانَ الفعلُ المضارعُ في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ من الأفعالِ التي تطلبُ مفعولًا دلَّ على أنَّ المفعولَ محذوفٌ، وحذفُ المفعول للدلالة على لزومِ وصفِ عدمِ الإبصارِ وثبوتِه لهم؛ أيْ: فهُم لا يَقْدِرونَ عَلَى إبْصارِ شَيْءٍ ما أصلًا، وهذا التّقديرُ أبلغُ في وصفِ حالِهم، وأنسبُ لذِكْرِ السّدَّيْنِ، ويحتملُ أن يكون الحذفُ لإفادة العموم؛ والمعنى: هم لا يبصرونَ أيَّ شيءٍ، فلا يُبصرون الحقَّ والرَّشادَ وسبيلَ الهُدى ولا يُبصرونَ السَّدَّ، فهم غافلونَ وفي الضّلالة مُقيمونَ[2].

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 128 وما بعدها، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 222.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 7، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2334، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 415، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 388.

آياتُ اللّهِ ظاهرةٌ في الأَنْفُسِ والآفاقِ للدّلالة على عَظَمَة الخلّاقِ

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

الآيةُ فيها استعارةٌ تمثيليَّة، فإنَّ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إمّا أن يكونَ تَتِمَّةً للاستعارة التّمثيليَّة في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ وتكميلًا لها أيَّ تكميلٍ؛ أيْ: وجَعَلْنا مع ما ذُكِرَ من أمامِهم سَدًّا عظيمًا، ومِن ورائِهم سَدًّا كذلك، فغطَّيْنا بها أبصارَهم؛ فهمْ بسَبَبِ ذلك لا يَقدِرونَ على إبصارِ شَيءٍ ما أصلًا، فأخبرَ اللّه تعالى عن الموانعِ التي منعَهَم بها من الإيمان، عقوبةً لهم، ومثّلها بهيئةِ الَّذين وُضِعت الأغلالُ العريضةُ الواصلةُ إلى الأذقانِ في أعناقهم وجُعلوا بينَ السدَّيْنِ لا يستطيعونَ النّفوذ من بينهما، وأُغشيتْ أبصارُهم فهم لا يَرونَ شيئًا، وإمّا أنْ تكون استعارةً تمثيليَّةً مُستقلَّةً لبيانِ تنوُّعِ حالِهم وهيئتِهم، فشبَّهَ في هذه الآيةِ كونَهم مَحبوسينَ في ظُلُماتِ الغَيِّ والجَهالاتِ، مَحرومينَ عن النَّظرِ في الأدلَّةِ والآياتِ والاهتداءِ بها، وكأنَّهم وقد حُرِموا نعمةَ التفكير في القرونِ الخاليةِ والأمم الماضية والتأمُّل في المغابّ الآتية، والعواقبِ المُستقبلَة؛ فلا ينتفعونَ بخيرٍ ولا يهتدونَ إليه، ولا يتوسَّمون بصيصًا من أملٍ؛ للتّعبير عن كمالِ فظاعةِ حالِهم، ثمَّ حذفَ المشبَّه وذكرَ المُشبَّه به، على طريق الاستعارةِ التّمثيليَّة، لبيانِ حالِ الكافر الذي عرفَ الحقَّ وتبيّنَ له ثمَّ جحدَهُ وكفرَ به وعاداهُ أعظمَ مُعاداة، وذَلِكَ لِأَنَّ المُقْمَحَ لا يَرَى نَفْسَهُ ولا يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَى يَدَيْهِ، ولا يَقَعُ نَظَرُهُمْ عَلَى الآفاقِ؛ لِأَنَّ مَنْ بَيْنَ السَّدَّيْنِ لا يُبْصِرونَ الآفاقَ فَلا تَبِينُ لَهُمُ الآياتُ الَّتي في الآفاقِ، وعَلَى هَذا فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارَةٌ إلَى عَدَمِ

هِدايَتِهِمْ لِآياتِ اللّهِ في الأَنْفُسِ والآفاقِ[1]، وعلى الوجهَيْنِ في توجيه الاستعارةِ يكونُ لفظُ ﴿سَدًّا﴾ مُستعارًا لامتناعِ الرّؤية، ولفظُ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ مُستعارًا لعدم الاهتداءِ ورُؤيةِ طريقِ الحقِّ والصَّواب، وتكون الاستعارةُ من تشبيهِ المعقولِ بالمحسوسِ، والغرضُ الإيضاحُ والبيانُ وإقامةُ الدّليل والحُجَّة على المُدّعى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغِشاءُ والغِطاءُ:

الغطاءُ يَقْتَضي سترَ ما تَحْتَهُ، والغشاء لا يَقْتَضي ذلك؛ لأنَّ ما تحته ظاهرٌ مُستبينٌ

الفرقُ بينهما هو أَنَّ (الغشاء) قد يكونُ رَقيقًا يبينُ ما تَحْتَهُ ويتوهّمُ الرّائي أنّه لا شَيْءَ عَلَيْهِ لرقَّته، ومن ثَمَّ سُمّيتْ بهذا الاسم (الأغشية) التي تكون في البدن، وهي أعصابٌ رقيقَةٌ قد غُشّيَ بها كثيرٌ من الأَعْضاء، مثلُ الكبِد والطِّحال، وأمّا (الغطاء) فلا يبينُ ما تحته، والغطاءُ يَقْتَضي سترَ ما تَحْتَهُ والغشاء لا يَقْتَضي ذَلك، ومن ثمَّ قيل: (غُشيَ على الإنْسان)؛ لأنَّ ما يَعْتَريه من الغَشْي لَيْسَ بِشَيْءٍ بَيِّنٍ، وقيل: غُشيَ على فلان: إذا نابَهُ ما غَشيَ فهمَه ممّا لا يمنعُ الفهمَ ويزولُ بسرعةٍ، والغطاءُ لا يكون إلّا كثيفًا مُلاصقًا، وقيل الغشاءُ يكونُ من جنسِ الشَّيْء، والغطاءُ ما يَقْتَضيه من جنسِه كانَ أَوْ من غيرِ جنسِه، ولذَلك تَقولُ: تغطَّيتُ بالثّياب، ولا تَقولُ: تغشّيتُ بها؛ فَإنِ اسْتُعْمِلَ الغشاءُ مَوضِعَ الغِطاء فعلى التَّوَسُّع[2].

الغِشاوة والعُشوّ:

الغِشاوةُ تفيدُ عدمَ الإبصار ليلًا ونهارًا، والعُشوُّ عدمُ الإبصارِ في اللّيل فقط

الفرقُ بين (فأغشيناهم) و(فأعشَيناهم) هو أنَّ (فأغشيناهم) من الغِشاوة، وتكونُ في العين، ويكونُ عدمُ الإبصارِ في اللَّيلِ وفي النّهار، وأمّا (فأعشَيناهم) فهو من (عشا يعشو) إذا ضعُفَ بَصَرُهُ بسببِ ظُلمةٍ تكونُ في العَين؛ فلا يُبصِرُ في اللَّيل.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 264، وابن قيّم الجوزيّة، التَّفسير القيِّم، ص: 441، وإرشاد العقل السَّليم: 7/ 160، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 178.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288.

ومادّةُ (غشي) يلتقي معناها مع (غشو)، وذلك أنَّ الغِشاوةَ على العينِ كالغشيِ على القلب، كلٌّ منها يركَبُ صاحبَه ويتجلّلُه، غير أنَّهم خصّوا ما على العين بالواو، وما على القلبِ بالياء، من حيث كانتِ الواوُ أقوى لفظًا من الياء، وما يبدو للنّاظر على الغِشاوة على العين أَبدى للحسِّ ممّا يُخامِرُ القلبَ؛ لأنَّ ذلك غائبٌ عن العين، و(فَأَغشَيناهُم) من الغشوِ الّذي يكونُ على العَين[1].

(1) ابن جنّي، المُحتسِب، النجّديّ وجماعته: 2/ 205، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 98، وعُضيمة، دراساتٌ لأسلوب القرآنِ: 7/ 688.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾ [يس: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ الحُجُبِ بالسَّدَّيْنِ، وانطماسِ البصائرِ حالةَ الإنذارِ وعدمِهِ

لمَّا مُنعوا - بسببِ تصميمِهم على الكُفر - حِسَّ البصرِ فلم يُبصروا، أخبرَ عن حِسِّ السَّمعِ فجاءتْ هذه الآيةُ[1]؛ لأنَّ المُخبرَ عزيزٌ، فهو إذا فعلَ شيئًا كان على وجهٍ لا يمكنُ فيه حيلةٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَوَآءٌ﴾: أصلُ (سوي) يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بَيْنَ شيئَيْنِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا؛ أيْ: لا يُعادِلُه، وفُلانٌ وفُلانٌ على سويَّةٍ مِنْ هذا الأَمرِ؛ أيْ: سواءٌ، وسَواءُ الشَّيءِ: وسَطُه؛ لاسْتِواءِ المسافةِ إلَيْه مِنَ الأَطْرافِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥﴾ [الصافات: 55]، وسِواءُ الشَّيءِ: غيرُ[2]، و﴿وَسَوَآءٌ﴾ في الآية: اسمُ مصدرٍ بمعنى الاستواءِ، والمُرادُ به اسمُ الفاعلِ؛ أيْ: مُستوٍ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا نفعَ للكافرينَ في الإنذارِ بعدَ أنْ سَدّوا على أنفسِهم منافِذَ الأنوارِ

يخبرُ اللّٰه تعالى بأنَّ الحالَ مُستوٍ في حَقِّ هؤلاءِ الكافِرينَ الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ: الإنذارُ وعَدَمُه؛ فسواءٌ أنذَرْتَهم العذابَ يا محمَّدُ ﷺ أوْ تركْتَ إنذارَهم، فإنَّهم في كِلا الحالَيْنِ لا يُؤمنونَ بك وبما جِئتَهم مِن الحَقِّ، فإنَّه قد طبعَ اللّٰه على قلوبِهم فهم لا يُؤمنون؛ إذ قد خبُثَتْ نفوسُهم، وساءَ استعدادُهم، وغُشّيتْ أبصارُهم فلا تقدرُ على النَّظرِ في الدَّلائلِ المُشاهدة، ولا تستطيعُ التَّأمُّلَ في جمالِ الكونِ[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 98.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، والراغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).

(3) طنطاويّ، التَّفسير البسيط: 12/ 15.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 407، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 117، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 147.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواو في ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾:

الغِشاوةُ سبّبتْ عدمَ الإبصارِ، والتّسويةُ بين الإنذارِ وعدمِ الإنذارِ

لم يأتِ الوصلُ بالفاء، فلم يَقُلْ: (فسَواءٌ عليهم أأنذرتَهم أمْ لمْ تُنذرهم)، مع أنَّ الظّاهرَ ترتُّبُ التّسويةِ بالإنذارِ وعدمِه على ما قبلَه، لكنَّه قال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ المقصودَ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ معطوفةً على ﴿لَا يُبۡصِرُونَ﴾[1]، كأنَّه قيلَ: (فأغشيناهُم فهم سَواءٌ عَلَيهِم أأنذَرتَهُم أم لَم تُنذِرهُم لا يُؤمِنونَ)، فتكون التّسويةُ مُترتّبةً على الغِشاوة، ليفيد أنَّ الغشاوةَ سبّبتْ أمريْنِ: عدمُ الإبصار والتّسويةُ بينَ الإنذار وعدمِه، والجامعُ بينَ عدم الإبصارِ للحقِّ وعدم الانتفاع بسماع الإنذار خياليٌّ؛ لتقارُنِهما في الخيال، وأفاد العطفُ ختمَ حالِ القوم الَّذين لا ينفَعُ الإنذارُ معَهم لبدءِ الحديث عن قسمٍ آخرَ ممَّن ينفعُهم الإنذارُ والإرشاد، فقد تقدّمَ أنَّ تنزيلَ القرآنِ الحكيم لِتُنذرَ قومًا ما أُنذِر آباؤُهم، وبيّن أنَّ قومًا من المُنذَرينَ غافلونَ لا ينفعُ معهم إنذارٌ ونُصحٌ، فاختتمَ الكلامَ باستواءِ الإنذارِ وعدمِه، فلا تذهَبْ نفسُكَ عليهم حَسَراتٍ.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ في السّياقِ:

مـجـيءُ الاستفهامِ على معنى الإخبارِ أقوى ما يُقالُ في إثبات المدّعى

في قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، استفهامٌ مجازيٌّ، وبيانُه: أنَّه لمّا دخل لفظ (سَواءٌ) على الاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ محَّضَهُ للخبريَّة، فهو إخبارٌ من اللّٰه تعالى لرسولِه ﷺ وتقريرٌ منه باستواءِ إنذاره وعدم إنذارِه للكافرينَ المُعاندينَ في عدم الجَدوى، وهذا الأسلوبُ أقوى ما يُقالُ في إثباتِ عدم الجَدوى من الأمريْن، ولمّا كان التّركيبُ على صورة الاستفهام والمعنى على الخبر كانَ من باب المجازِ بتجريدِ الهمزة و﴿أَمۡ﴾ عن معنى الاستفهام لمُجرَّد

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 390، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 352.

الإخبار بالاستواءِ بينَ الإنذار وعدمِه في عدم الجدوى، وذهب ابنُ عرفةَ إلى أنَّ الاستفهامَ باقٍ على حقيقتِه، واستظهر هذا القولَ ابنُ عاشور، والتّقدير: وسواءٌ عليهم جوابُ: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، فيكونُ كقولِهم: (عَلِمْتُ أَزَيْدٌ قائِمٌ)؛ إذْ تَقْديرُهُ: عَلِمْتُ جَوابَ هَذا السُّؤالِ، فيكون المُتكلِّمُ به بمنزلةِ المسؤولِ عنه، والمخاطَبُ بمنزلةِ السّائلِ، ووَجْهُ الأَبْلَغِيَّةِ في هذا الأسلوبِ أنَّه لمّا كانَ الفرقُ بينَ الإنذارِ وعدمِه واضحًا كان خفاءُ الاستواءِ بينَهما بيّنًا حتَّى يسألَ السّائلون: أفعلَ فلانٌ كذا أو كذا، فكانَ الإِخْبارُ بِاسْتِوائِهِما عِنْدَ المُخْبِرِ مُشيرًا إلَى أَمْرَيْنِ مُتَساوِيَيْن؛ بمعنى أنّ الأمرين سواءٌ في عدم الجدوى وعدم الاكتراث بهما، فلا يُطلَبُ الجوابُ على أحدِهما، فيكون قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ مُشيرًا إلى التّعجيب من إصرارِ الكافرين على كُفرِهم مع ظهورِ الآيات والحُجَج الدّالَّة على الإيمان، بحيث يسأل السّائلون: أَأَنْذَرَهُمُ النَّبيُّ أَمْ لَمْ يُنْذِرْهُمْ؟ مُتَيَقِّنينَ أَنَّهُ لَوْ أَنْذَرَهُمْ لَما تَرَدَّدوا في الإيمانِ، فَقيلَ: إِنَّهُمْ سَواءٌ عَلَيْهِمْ جَوابُ تَساؤُلِ النّاسِ عَنْ أحد الأَمْرَيْنِ[1].

نكتةُ العدولُ عن الخبرِ إلى الاستفهامِ:

استـواءُ الإنـذارِ وعـدمِه، مؤشّرٌ لـلـدّلالـةِ على ضَياعِ المُنْذَرين

الاستفهامُ في قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ على معنى الخبرِ كما تقدَّم، ونكتةُ العدولِ عن الخبر إلى الاستفهام، هي أنَّه لمّا كان الأصلُ في مجيءِ هذا الأسلوب بطريقِ الاستفهام هو عدمَ علْمِ المُتكلّم بأحدِهما بعينه - بمعنى أنَّ أحدَ الأمريْن كائنٌ لا بعينِه، ليفيد بلازمِه أنَّ العلْمَ بأحدِهما غيرُ مقصود، ويتولَّد منه عدمُ اهتمامِ المُتكلِّم بعلْمِه بأحدِهما - كان التّعبيرُ بطريقِ الاستفهام أبلغَ من الخبر؛ ليفيدَ أمريْن؛ أحدُهما: إثباتُ استواءِ الأمريْن عليهم، الإنذارُ وتركُ الإنذار، وهو الَّذي يدلُّ عليه الخبرُ والاستفهامُ على

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 46، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 250.

السّواء، والآخر: عدمُ اهتمامِ المتكلِّم بإنذارِهم أوْ تركِ إنذارِهم، للاستواءِ في عدم الجدوى بالإنذار أوْ تركِه؛ بمعنى أنَّ إنذارَ رسول اللّه ﷺ للكافرينَ لا يفيدُ كما لا يفيدُ تركُ إنذارِهم، فيتولّد من عدم الجدوى من إنذارِهم عدمُ المُبالاة بهم أوْ عدمُ الاكتراثِ بأمرِهم أوْ بالعلم بحالِهم، ففي مجيءِ هذا المعنى بطريقِ الاستفهام تبكيتٌ لهم على كُفرِهم وعدمِ الانتفاع من إنذارِ رسول اللّه ﷺ لهم.

استواءُ الطّرفيْنِ مَبعثٌ على التّحقيقِ

وذَكَرَ النّيسابوريّ فائدةً أخرى، هي أنْ "يُعلِمَ أنَّ استواءَ الطّرفيْنِ بلغَ مَبلغًا يصحُّ أنْ يُستفهَمَ عنه؛ لكونه خاليًا عن شَوْبِ التّخمين وترجيح أحدِ الطَّرفيْنِ بوجهٍ، فإنَّ قولَ القائل: (الإنذارُ وعدمُهُ مُستويانِ عليهم)، يمكن أنْ يُحمَلَ على التَّقريب لا التّحقيق، بخلافِ ما لو أُخبرَ عن الأمريْنِ بطريقِ الهمزةِ وأم"[1]، فإنَّه يُحمَل على التّحقيقِ ليس إلّا؛ إذ لولا ثباتُه وتحقُّقُه في الواقعِ وإثارتُه الاستغرابَ ما استُفهِمَ عنه.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ (سَواءٌ) مصدرًا:

مَن حقَّ عليه القولُ لم ينفَعْ معه بِدارٌ إلى الإنذارِ ولا إلى عدمِ الإنذارِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن عدمِ نفعِ الإنذار وتركِه بقوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهو مصدرٌ بمعنى الاستواء، وعبّر به للمبالغة في الاستواءِ بينَ طرفَي الإنذارِ وعَدَمِه، ففيه إشعارٌ بأنَّ الإنذارَ وعدمَه للكافرينَ المُعاندينَ المُصرّينَ على الكفر مُستوٍ ومُعتدلٌ غايةَ الاعتدالِ والتّمام، من غيرِ نوعِ فرقٍ، فكأنَّه لا إفراطَ ولا تفريطَ في هذا الاستواءِ، لَمجيئِه على قَدْرِه في أنَّ الإنذارَ وعدمَهُ لا يُغنيان ولا جدوى منهما[2]، وإنّما عبِّرَ بالمصدر (سَواءٌ) في قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ الّذي هو بمعنى الاستواء، وقصدَ به اسمَ الفاعل (مستوٍ)؛ لأنَّه خبرٌ عن المبتدأ ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، أو اسمُ فاعلٍ مرفوعُه

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/ 152.
(2) الرّاغب، المفردات: (سوا)، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 98.

المصدرُ المؤوّل، ونكتةُ التّعبير بالمصدر المبالغةُ في الاستواء، كقولِهم: زيدٌ عدلٌ بمعنى عادل.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تمكّنُ استواءِ الحالتيْنِ منهم حتّى لا تردُّدَ لهم فيه

(عَلَى) في قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ بمعنى: عند، والتقديرُ: سواءٌ عندَهم الإنذارُ وتركُهُ[1]، وإنّما عبَّرَ بحَرْفِ الجرِّ (عَلَى)؛ لإفادةِ الاستعلاءِ المجازيِّ، للدّلالةِ على تمكُّنِ الاستواءِ منهم لقوّتِه، فلا يزولُ عن نفوسِهم، ففيهِ استعارةٌ؛ إذ شبَّهَ الاستواءَ المُستقرَّ عندهم الثّابتَ لديهم بأمرٍ ثقيلٍ واقعٍ عليهم، بحيث لا يستطيعونَ الحراكَ معَه، فحذفَ المُشبَّه به وذَكَرَ المُشبَّه على طريقِ الاستعارة المَكنيَّة، ويحتملُ أنّه استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ شبَّه الفوقيّةَ والاستعلاءَ بالعنديَّة، بجامعِ القُرب من الشّيءِ مبالغةً في القرب منهم حتّى إنَّه جلسَ عليهم الاستواءُ، فناسبَ ذِكْرُ الاستواءِ عليهم ما يأتي بعدَه من ذِكْرِ (الختمِ على قلوبهم)؛ أيْ: فاجتمعَ الاستواءُ الثقيلُ المذكورُ عليهم والختمُ على قلوبِهم، وفي التّعبيرِ بـ(على) أيضًا إشعارٌ بتمكُّنِ الاستواءِ في إنذارِ المُصرّينَ على الكفرِ أوْ تركِه عندَ المتكلِّم في عدمِ الجدوى، وأنَّه لا تردُّدَ له فيه[2].

دلالةُ الضّمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

المُرادُ بعدمِ الجدوى من الإنذارِ وعدمِه قومٌ مخصوصونَ

يعودُ الضّميرُ المجرورُ في قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ على الَّذين حقَّ عليهم القولُ بما اتّصفوا به من كونِ اللّهِ تعالى قد سدَّ عليهم إبصارَ الهُدى بسببِ تصميمِهم على الكُفرِ، ليفيدَ أنَّ هذه التّسويةَ قد استحقّوها بما اتّصفوا به من الأوصاف، التي اقتضَتْ عدمَ انتفاعِهم من الإنذار، فالمُرادُ من عدمِ الجدوى من الإنذارِ وعدمِه

(1) العليميّ، فتح الرّحمن: 1/ 54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 160، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 30.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 251، 22/ 253.

قومٌ مخصوصونَ ممّنْ حقّتْ عليه كلمةُ العذاب وليس جميعَ الكافرين؛ فأراد اللّهُ تعالى أنْ يُعلِمَ الناسَ أنَّ فيهم مَنْ هذا حالُهُ دونَ أنْ يُعيِّنَ أحدًا[1].

سرّ التّعبير بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دونَ (عليك):

السّياقُ موجّهٌ للمُنذَرينَ لا للمُنذِرِ الأمينِ

لم يَقُلْ: (سواءٌ عليك)؛ لأنَّه لو جاءَ على هذا النّسق، لكان المقصودُ رسولَ اللّه ﷺ، ولكان المعنى: إنذارُك وتركُ إنذارك لهم سواءٌ في حقِّك، وفي الحقيقةِ هما ليسا سواءً في حقّه ﷺ، فإنَّه يُثابُ على الإنذار وإنْ لم يؤمنوا، ففي إنذارِه ﷺ لهم فضلُ الإبلاغ وتحقيقُ معنى الرّسالة، فعبَّرَ بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ ليفيد أنَّ إنذارَك وتركَ إنذارِك سواءٌ في حقِّهم؛ أيْ هما سواءٌ؛ فهم لا يُؤمنون في الحالَيْن، وهو نظيرُ الأمرِ بالمعروف والنّهيِ عن المنكر، فإنَّه يثابُ به الآمرُ، وإنْ لم يَعملْ به المأمورُ[2].

دلالةُ همزةِ التّسويةِ في السّياقِ:

في تجريدِ الهمزةِ من معنى الاستفهامِ دلالةٌ على مُجرَّدِ الاستواءِ

هَمْزَةُ التَّسْوِيَةِ في قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ أَصْلُها الِاسْتِفْهامُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ في التَّسْوِيَةِ عَلَى سَبيلِ المَجازِ المُرْسَلِ، أوْ تكونُ الهمزة دالَّةً على التّسويةِ بعلاقةِ التّجريد؛ لأنَّ الاستواءَ جزءُ معنى الاستفهام، فإنَّه لمّا قال: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ كان على معنى: أكان الإنذارُ أم عدمُهُ لا يؤمنونَ؛ أيْ: أيُّ الأمريْن كانَ لا يُؤمنون، فلا يَستفهِم عنهما إلّا مَن تصوّرهما وقدِ استويا في علمِه، فكانت دلالةُ همزةِ الاستفهام على التّسويةِ بتجريدِ (الهمزةِ) من معنى الاستفهامِ للدّلالةِ على الخبرِ، وهو مُجرَّدُ الاستواءِ[3].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 184.

(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 1/ 275، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 42.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 29، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 352.

سرّ إيثارِ تقديمِ فعلِ الإنذارِ:

تقديمُ فعلِ الإنذارِ بصيغةِ الماضي على (أم) مُشعِرٌ بوقوعِه

قُدِّمَ فعلُ الإنذارِ على تركِه في قولِه: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ إنذارَ رسولَ اللّهِ ﷺ قد وقعَ وحصلَ، فإنَّ تقديمَ الفعلِ بصيغةِ الماضي على ﴿أَمۡ﴾ في أسلوبِ التّسويةِ مُشعِرٌ بوقوعِه، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشُّعراء: 136]؛ فإنَّ قومَ هودٍ عليه السلام قالوا هذا القولَ لرسولِهم بعدَ أنْ وعظَهُم وحذّرَهم، ومثلُه قولُه: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ [الأعراف: 193]، فإنَّ الكافرين كانوا يَدعونَ الأصنامَ، ومثلُه كذلك فيما أخبرَ اللّهُ عن أهلِ النّارِ يومَ القيامةِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ٢١﴾ [إبراهيم: 21]، فإنَّه يفيدُ أنَّهم قد جَزِعوا.

بلاغةُ تقديمِ الخبرِ على المُبْتدأِ:

إنذارُ المُعاندينَ وعدمُ إنذارِهم سيّان في عدمِ الجدوى

الظاهرُ في قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ أنَّ (سَواءٌ) خبرٌ مقدَّمٌ و﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ مبتدأٌ مُؤخَّر، وهو الّذي رجّحَه ابن عاشور وغيره[1]؛ ويفيدُ هذا التقديمُ الاهتمامَ بالحُكم على حسابِ المحكومِ عليه؛ ويثيرُ مزيدًا من الانتباهِ والإصغاءِ لمعرفةِ ذلك الشيءِ المُستوي فيه الأمران، وفي التّقديم أيضًا تأكيدٌ للأمرِ وتقريرٌ له، لئلّا تذهبَ نفسُ رسولِ اللّهِ ﷺ عليهم حَسَراتٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ فاعلًا لـ(سَواءٌ)[2]، ويكونُ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُقدَّمًا على الفاعلِ، لإفادةِ القصرِ الإضافيّ؛ بمعنى: أنَّ الاستواءَ في الإنذارِ وعدمِه مُختصٌّ بهم دون غيرِهم، تبكيتًا لهم على إصرارِهم على الكُفْرِ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَل:

التّعبيرُ بالفعلِ وإرادةُ المصدرِ ملمحٌ للاتّساعِ في الكلامِ

التعبيرُ بالفعلِ في قولِه: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ يَقتضي أنْ يكونَ معادلُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 250، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 179.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 79.

فعلًا، وهو: ﴿لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، ولمّا كان المُرادُ هو الحَدَثَ كان التّعبير بالفعلِ على طريق (المجاز المُرسَل) باستعمال الفعلِ (أَنذَرتَهُم) في جزء معناه وهو المصدرُ أوِ الحدثُ المجرّد من الزَّمن؛ بمعنى أنَّ الفعل (أَنذَرتَهُم) أُريد به مُطلَقُ الحَدَثِ المدلولِ عليه ضِمنًا على الاتّساع، وصار الفعلُ بمنزلة المصدر؛ لتجرُّدِه عن النّسبة وعن الزّمان، ففي المجازِ المُرسَل علاقةُ الكلّية والجزئيَّة[1]؛ أيْ ذُكِرَ الكلّ وهو الفعل، وأُريدَ جزءُ معناه وهو الحدث، ولعلَّ التجريدَ دالٌّ على أنَّ هذا النوعَ من الكُفّار مُستمرٌّ لا ينقطعُ، والإنذارُ وعدمُهُ بالنِّسبة إليهم خالٍ من الجدوى، فيكونُ المُراد بالضمير في ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ من عمومِ الخطابِ عمومَ الشمول؛ أيْ كلُّ مَن يقومُ بالدَّعوة عليه أنْ يضعَ في حسابه وجودَ هذه الفئةِ من الكافرينَ، التي لا سبيلَ إلى دعوتِها وإرشادِها.

بلاغةُ العدولِ عن المصدرِ الصّريحِ إلى الفعلِ:

غرضُ العدولِ إيهامُ التّجدُّد الاستمراريّ في فعلِ الإنذارِ وعدمِهِ

لمْ يُؤتَ بلفظِ المصدر بأنْ يُقال: (سواءٌ عليهم إنذارُك وعدمُ إنذارك) فيكونَ صريحًا بالمُرادِ، ومناسبًا مقامَ الإخبارِ عن الحَدَثِ فقط، وإنّما عَدَلَ عنه إلى الفعلِ، فقال: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، وذلك لإيهام التّجدُّد الاستمراريِّ؛ نظرًا إلى ظاهرِ صيغةِ الفعل؛ إذ فيه إشعارٌ بأنَّ رسول اللّه ﷺ أحدثَ فعلَ الإنذارِ وأوجدَه وقد تحقَّقَ بشكلٍ قاطعٍ، كما أنَّ في العدولِ عنِ المصدرِ الصَّريح إلى الفعلِ مُراعاةً لنظم الكلام؛ لحُسنِ دخولِ الهمزةِ و﴿أَمۡ﴾ على الفعلِ؛ لأنَّهما للاستفهام وهو بالفعلِ أوْلى، وفيه كذلك توطئةٌ بليغةٌ لانسجام النّظم بين فاصلة: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ لتجانُس الكلماتِ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 26، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 196، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 250.

الثلاثِ: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ و﴿لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ و﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في الفعليَّةِ؛ بمعنى إظهارِ الحَدثِ وتصويرِه[1].

بلاغةُ العدولِ من المضارعِ إلى الماضي:

حصولُ عدمِ الجدوى من الإنذارِ مُتعلِّقٌ بشدَّةِ عنادِ الكفّارِ

لمّا كان العدولُ عن المصدرِ إلى الفعل لإيهامِ الاستمرار التّجدُّدي؛ كان الظّاهر أنْ يُؤتى بالفعل المضارع فيُقال: (سواءٌ عليهم أَتُنذِرُهم أمْ لم تُنذِرْهم)، لكنَّه قال: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، فعدلَ عن المضارعِ إلى الماضي؛ لِدلالتِه على حصولِ معنى الاستواء في الإنذار وعدمِه في هذا الوقتِ دونَ ما قبلَه، فلمّا جاء بصيغةِ الماضي أفادَ تحقّقَ وقوعِ الإنذار، وأنَّ حالةَ الاستواءِ بينَ الإنذارِ وعدمِه إنّما حصلَتْ في هذا الوقت وليس في بدايةِ الإنذارِ، فيكونُ حصولُ هذه الحالةِ مُتعلِّقًا بشدَّة تكذيبِهم وعنادِهم وهو المناسب لمقامِ بيانِ شدَّة شكيمتِهم وعدمِ التفاتِهم للحقِّ، وحالُهم العنادُ والمكابرةُ على الإطلاق، فكان ذلك يفيدُ حصولَ اليأس وقطعَ الرّجاء من انتفاعِهم من إنذارِك لهم[2].

دلالةُ الإنذارِ في: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾:

الإنذارُ فيه معانٍ شتّى تُناسبُ السّياقَ ومُقتضى الحالِ

الإنذارُ في قولِه: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ بمعنى التّخويفِ من عقابِ اللّه تعالى، وعبّر بالإنذارِ دونَ التّخويفِ؛ لأنَّ الإنذارَ فيه معنى الإبلاغِ والإعلامِ والتّحذيرِ والتّخويفِ، فكلُّ مُنذرٍ مُعلِم وليس كلُّ مُعلِم مُنذرًا؛ فيكون مُقرّرًا لإرسالِه ﷺ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ثم إنَّ الإنذارَ لا يكادُ يكونُ إلّا في تخويفٍ يَسَعُ زمانُه الاحترازَ من المَخوف، فإنْ لم يسعْ زمانُه الاحترازَ؛ فهو إشعارٌ لا إنذارٌ[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 385، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/ 23.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 285، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 1/ 26.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 1/ 313.

فائدة ﴿أَمۡ﴾ في السّياقِ المُحْكَم:

تأكيدُ معنى الاستواءِ وتقريرُه مُفصحٌ عن المُرادِ المُستفادِ

﴿أَمۡ﴾ هي المُعادِلةُ بين طرفيْن أوْ أكثر؛ وهي هنا مع همزةِ الاستفهام تفيدُ تأكيدَ معنى الاستواءِ وتقريرَه الّذي فُهِم من قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّ (الهمزة وأم) مُجرّدتان عن معنى الاستفهام لمعنى الاستواءِ بينَ مدخولَيْها كما تقدَّم[1]، ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّه على ما صحّحه ابنُ عرفة واستظهره ابنُ عاشور من أنَّ الاستفهام في قولِه: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ على حقيقتِه؛ فإنَّ همزةَ الاستفهام و﴿أَمۡ﴾ يُفيدانِ تأسيسَ التّسوية لا تأكيدَها، نظرًا إلى أنَّ الاستفهام عن التّسوية بين الإنذار وعدمِه، ويكونُ قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ جوابًا للسّؤال عن تصوُّر التّسويةِ بينهما.

بلاغةُ الحذْفِ في السّياقِ الأشْرَفِ:

إعمامُ العذابِ وتنوُّعُه أدعى للتّخويفِ

لمّا كان الفعل (أنذرَ) يطلب مفعوليْنِ دلَّ قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾: على أنَّ المفعول الثّاني محذوفٌ، وتقديرُ الكلام: سواءٌ عليهم أأنذرتَهم العقابَ أم لم تُنذرهم، وحُذِفَ المفعولُ الثّاني لتعميم الإنذار، ليتناولَ الإنذارُ أنواعَ العذاب في الدّنيا والآخرة، كما أنَّ السّياق يدلُّ على المحذوفِ باعتبار أنَّ الإنذار يتعلَّقُ بالعذابِ والعقابِ، ففيه إيجازٌ كذلك[2]، والأبلغُ ألّا يُذكَرَ المفعولُ الثّاني في مثلِ هذا الأسلوب.

نكتةُ ذِكرِ الإنذارِ دونَ البشارة:

مَن لا يستحقُّ البشارةَ يُكتَفى معَه بالإنذارِ

إنّما ذُكرَ الإنْذارُ ولم تُذكَر معه البشارة في قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ فلم يَقُلْ: (سواءٌ عليهم أأنذَرْتَهم أوْ بشّرتَهم أم لم تُنذِرْهم ولم تُبشّرهم)، مع أنَّ الرّسول ﷺ بُعِثَ بشيرًا ونذيرًا؛ لضعف النّظم واضطرابه كما هو ظاهرٌ، وللإشعار بأنَّ المُتحدَّث عنهم ليسوا

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/ 43.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 79.

أهلًا للبشارةِ[1]، ولأنَّ المقامَ مقامُ مبالغةٍ في بيان عنادِهم وكُفرِهم وتكذيبِهم واستكبارِهم، فيكون تأثير الإنذار بسبب التّخويف أقوى من تأثيرِ البشارةِ، فإنَّ تأثيرَ الإنذارِ في الفعل والتّرك أقوى؛ لأنَّ اشتغالَ الإنسان بدفعِ الضّرر أشدُّ من اشتغالِه بجلبِ المنفعة، فكان ذِكْرُ الإنذار وحدَه أوْلى في المعنى وأوْفى لحقِّ بلاغة النّظم، فإذا لم ينفَعِ الإنذارُ فيهم كانت البشارةُ بعدمِ النّفْعِ أوْلى[2].

بلاغةُ الفصلِ في السّياقِ الأكملِ:

غايةُ الفصلِ الاحترازُ عن توهّمِ عكسِ المقصودِ

يحتملُ النظمُ أن تكونَ جملةُ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قد جاءتْ على الفصلِ لِكمالِ الاتّصالِ؛ لتكون مُفسّرةً للاستواءِ المُجمَلِ المذكورِ قبلها، أوْ مؤكِّدةً لمعنى استواءِ الإنذارِ وتركِه، فإنَّه يُفهَمُ منه أنّهم كُفّارٌ في كِلا الحالَيْنِ، فتكون جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تقريرًا لما قبلها، وتأكيدًا، أوْ تكونَ حالًا مُؤكِّدةً لجملة: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، والمعنى: مُستوٍ عليهم إنذارُك وعدمُ إنذارِكَ حالَ كونِهم غيرَ مؤمنين؛ بمعنى أنَّ عدمَ الإيمان قائمٌ بهم؛ ليُفيد دوامَ نفيِ إيمانِهم واستمرارَه[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ الفصلُ لشبهِ كمالِ الاتّصالِ؛ بأنْ يكونَ على طريقِ الاستئنافِ البيانيّ؛ لتكونَ جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ جوابَ سؤالٍ تقديره: ما سببُ استواءِ الإنذارِ وتركِه عند الكافرين بحيثُ لا جدوى منه؟ فكأنَّه قيل في الجواب: لأنَّهم لا يُؤمنون[4]، وفائدةُ الفصلِ على الوجهَيْنِ هي الاحترازُ عن توهُّمِ عكسِ المقصودِ، فإنَّه قد يكون الإخبارُ عن استواءِ الحالتَيْنِ عندَهم يقتضي مبادرتَهم إلى الإيمانِ وعدم

(1) السّمين، الدُّر المَصون: 1/ 108 - 109، والآلوسي، روح المعاني: 1/ 132.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 286، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 228، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التَّفسير: 1/ 283، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 48، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 41، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 35.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 98.

توقُّفهم على الإنذارِ، فاحترزَ من ذلك ببيانِ أنَّهم على العكسِ؛ أيْ: دوامُ نفيِ إيمانِهم[1].

فائدة المضارع المنفيّ بـ﴿لَا﴾:

استمرارُ الكفّارِ على الكُفرِ هلاكٌ وخَسارٌ

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لاستمرارِ النّفيِ؛ فإنَّ التّسويةَ بينَ إنذارِهم وعدمِ إنذارِهم تُفيدُ دوامَ كُفرِهم، والمعنى: أنَّهم مُستمرّونَ على عدمِ إيمانِهم، وتُفيد صيغةُ المضارعِ تجدُّدَ نفيِ إيمانِهم؛ بمعنى أنَّهم كلَّما عُرِضَتْ عليهم آيةٌ لا يُؤمنون بها، ففي التّعبيرِ بهذه الصّيغة توبيخٌ للكافرينَ، وتبكيتٌ لهم.

بلاغةُ الحذفِ:

حذفُ المعمولِ بينَ إفادةِ لُزومِ نفيِ الإيمانِ وبينَ عُمومِه

حُذِف معمولُ الفعل: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لإفادةِ ثبوتِ اتّصافِهم بدوامِ نفيِ الإيمان ولُزومِه لهم، ويحتملُ أنْ يكونَ الحذفُ لإفادةِ العمومِ؛ بمعنى: لا يؤمنونَ باللّه ولا بالقرآنِ ولا بالرّسولِ ﷺ؛ أيْ: لا يُؤمنونَ بكلِّ ما يَجِبُ الإيمان به.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنذارُ والتّخويفُ:

الإنذارُ هو إعلامٌ مـعَ تخويفٍ، والتّخويفُ إدخالُ الرُّعبِ في نفسِ المَخوفِ

(الإنذارُ) هو إعلامٌ مع تخويفٍ أوْ تحذيرٍ في مدّةٍ تَسَعُ التَّحفُّظَ من المَخوف أوْ من المحذَّر منه، فإنْ لم تسَعْ فهو إشعارٌ وإخبارٌ لا إنذار[2]، والغايةُ من الإنذار هي الحذرُ منَ المَخوف أوِ المحذَّر منه لاجتنابِه وتلافيه، ويلزمُهُ بيانُ موضعِ المَخافة؛ إذْ لا يتأتّى الاحترازُ من المخوفِ دونَ بيان موضعِه، فإنْ لم يبيّن له موضِعَ المَخافة فلا يُسمّى إنذارًا، وأمّا (التّخويفُ) فهو إدخالُ الرّعب في نفس المخوَّف، فيكونُ بالظّواهر الطبيعيَّة وبالأفعالِ الظّاهرة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء: 59]، فالرّسلُ مُنذِرون لا

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 46.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 181.

مخوِّفون، والإنذارُ إحسانٌ من المُنذِر؛ لأنَّه إعلامٌ وتحذيرٌ مع بيانِ موضِع الحذَر، وكلَّما كانتِ المخافةُ أشدَّ كانتِ النِّعمةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاسِ مِنَّةً بإنذارِه لهم عقابَ اللّه تعالى[1]، وهي علّةُ اختيارِ لفظِ (الإنذار) في الآيةِ دونَ (التّخويف).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّعقيبُ على عدمِ الانتفاعِ بالإنذار بوجودِ مَن تذكّرَ ونالَ المغفرةَ والأجرَ

لمّا أعلمَ أنَّ السّببَ المانعَ منَ السَّمعِ مثلُ المانعِ منَ البصرِ، وأخبرَ أنَّ الأكثرَ هُمُ المُتّصفونَ بهذه الصّفة، استشرفَ السّامعَ إلى أمارةٍ يَعرِفُ بها الأقلَّ النّاجي؛ لأنَّه المقصودُ بالذّات فأجابَ عنه بالآيةَ[1]؛ إذ لمّا بُيِّن كونُ الإنذارِ عندهم كعدَمِه عقّبَ ببيانِ مَن يتأثَّر منهُ[2]، وأيضًا لمّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَنَّ الإِنْذارَ في جانِبِ الَّذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ هوَ وعَدَمُهُ سَواءٌ، وكانَ ذَلِكَ قَدْ يوهِمُ انْتِفاءَ الجَدْوَى مِنْ غيرِهم وبَعْضٍ مِنْ فَضْلِ أَهْلِ الإيمانِ أَعْقَبَ بِبَيانِ جَدْوَى الإِنْذارِ بِالنِّسْبَةِ لِمَنِ اتَّبَعَ الذّكرَ وخشيَ الرَّحمنَ بِالغَيْبِ؛ فجاءَتْ هذهِ الآيةُ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبَعَ﴾: أَصْلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ، كأنّما لَحِقَ أوِ التصقَ به وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له، والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ، وأمّا التَّتَبُّعُ فأنْ يتتبَّعَ في مُهْلَة شَيئًا بعدَ شَيْءٍ[4]، والمُرادُ بالاتِّباعِ في الآيةِ: الاقْتِفاءُ والسَّيْرُ وراءَ سائِرٍ، وهوَ هُنا مُسْتَعارٌ لِلْإِقْبالِ عَلَى الشَّيْءِ والعِنايَةِ بِهِ[5].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 99.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 159.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 352.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 352.

2) ﴿وَخَشِيَ﴾: أصلُ (خشي) يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، يُقالُ: خَشيَهُ؛ أيْ: خافَهُ وذُعِرَ مِنْهُ، والصّحيحُ أنَّ الخَشْيَةَ خوفٌ ممّا يُخشى منه معَ تَعظيم له، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عَن عِلْم بما يَخافُ مِنْهُ[1]، وتأتي الخَشْيَةُ بمعنى تألُّم القَلْب بسببِ توقُّع مكروهٍ في المُستَقبَل[2]، وخَشيةُ الرَّحمن: الخوفُ منه معَ تعظيمِه للعلْم بصفاتِه، فيتولّدُ منه الخضوعُ والتّقوى له سبحانَه في خوَيْصَةِ النّفس[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنــذارُ يكـونُ لمَنْ آمَنَ وخَشي ونــالَ المغفـرةَ والأجرَ الرّضيّ

يقولُ اللّه سبحانه: إنَّما تُنذرُ يا محمَّدُ إنذارًا نافعًا مَن اتَّبَعَ القُرآنَ، فآمَنَ بأخبارِه، وعَمِل بأحكامِه، وتُنذرُ إنذارًا نافعًا مَن خَشيَ اللّهَ الرَّحمنَ بالغَيبِ، فبَشِّرْ يا محمَّدُ هذا الذي اتَّبَع القُرآنَ وخَشيَ الرَّحمنَ بالغَيبِ بمغفرةِ ما فَرَطَ منه من الزلّات، والأجرِ الكريم، والنَّعيم المُقيم الّذي لا يُستطاعُ وصفُه، ممّا لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطَرَ على قلبِ بَشَر[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

استيفاءُ المعنى بـذِكـرِ قسيـمِ الكافرينَ، وهُمُ المُؤمنونَ حقًّا

لمّا كان قولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بيانًا لحالِ أكثرِ المُنذَرين من الغفلةِ عن الإنذارِ، الّذينَ لا ينفَعُ معَهم نصحٌ أوْ إرشادٌ، حتَّى إنَّ اللّه تعالى جعلَ بينَهم وبينَ الإنذار والإيمانِ سُدودًا منيعةً تحجبُهم عنه - جاءَ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خشي).
(2) المناويّ، التّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 155.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 353.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 407، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 11، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 565.

﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ على الفصلِ لشبهِ كمالِ الاتّصال؛ إذ لمّا بيّن النَّظمُ الكريمُ أنَّ الكافرينَ المُصمِّمينَ على الكفرِ ليسوا مَحَلًّا للإنذارِ نشأَ سؤالٌ مقدّرٌ مفادُه: أينَ يتحقّقُ الإنذارُ؟ ومَن ينتفعُ به إنْ كان الأكثرُ غيرَ مُنتفعينَ به؟ فقال تعالى مُجيبًا عن ذلك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

ظهورُ ثمرةِ الإنذارِ تأنيسٌ للمُنذِرِ وتقويةٌ له على دَعوتِه

ذُكِرَ الَّذين ينتفعونَ بإنذارِ رسولِ اللّه ﷺ في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بعدَ ذِكرِ المَيؤوس منهم في قولِه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تأنيسًا لرسولِه ﷺ بالمؤمنينَ، وتقويةً له بظهورِ ثمرةِ إنذارِه فيهم، وإراحةً لقلبِه ﷺ من أولئك المُصمّمينَ على الكفر، لتتوجَّهَ العنايةُ التامّةُ إلى هؤلاءِ الَّذينَ يَتّبعونَ الذّكْرَ ويخشَونَ الرّحمنَ بالغيب، كما أنَّ في الكلامِ ترقيةً من الأدنى إلى الأعلى مَرتبةً[1].

بلاغةُ القصر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ﴾:

لا يُؤتي الإنذارُ ثمرتَه إلّا مع المُستعِدِّ للانتفاعِ به

لمّا كانَ موضوعُ ﴿إِنَّمَا﴾ على أنْ تُسلَكَ معَ خبرٍ لا يَجهلُهُ المخاطَبُ ولا يَدفعُ صِحَّتَه؛ لأنَّه في نفسِه جليٌّ، كانَ تخصيصُ إنذارِ رسول اللّه ﷺ بمَن يَتّبعُ الذّكرَ ويخشى الرَّحمنَ بالغيب هو في حُكْمِ الظّاهرِ المعلومِ، الّذي لا يُنكَر ولا يُدفَعُ ولا يَخفى[2].

دلالةُ القَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

تخصيصُ مَن يَنفعُهُ الإنذارُ باتّباعِ الذِّكْرِ وخشيةِ الرّحمنِ بالغيبِ

لمّا كانَ معلومًا أنَّ الإنذارَ إنَّما يكونُ إنذارًا ويكونُ له تأثيرٌ إذا كانَ معَ مَنْ يؤمِنُ باللّه ويَخْشاهُ ويُصدِّقُ بالبعثِ والقيامةِ وأهوالِها، فأمّا الكافرُ الجاهلُ المُصمّم على كُفره، فالإنذارُ وتَرْكُ الإنذارِ معَه سواءٌ - كان القصرُ بـ﴿إِنَّمَا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ على معنى تخصيصِ مَن ينفعُهُ الإنذار؛

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 304.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 332، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 295.

أي: الإنذارُ الّذي يترتّبُ عليه المقصودُ وهو اتّباعُ الذّكرِ وخشيةُ الرّحمنِ بالغيب، فيكونُ القصرُ حقيقيًّا، وإنْ نُزّلَ إنْذارُ الّذينَ لَمْ يَتّبِعوا الذِّكرَ ولَمْ يَخْشَوْا مَنْزِلَةَ عَدَمِ الإنْذارِ في انْتِفاءِ فائِدَتِهِ كان قصرًا ادّعائيًّا، وليس على جهةِ القَصْرِ المُطلَقِ[1].

توجيهُ المتُشابِه اللّفظيّ في الدّلالة على الإنذار:

الإنـــذارُ الّـذي لا يُـفـضي إلى الانـتـفـاعِ منه مُـنـزَّلٌ منزلةَ العَدَمِ

قد يقالُ: إنَّ المفهوم ممّا تقدّمَ في الآيات ثبوتُ الإنذارِ للمُصمّمينَ على الكفر، والمفهومُ من الآية انتفاءُ الإنذار عنهم، وظاهرُ الآية يناقضُ ما تقدّمَها؟ وجوابُه: أنَّه لمّا قال الله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أفادَ أنَّ الإنذارَ مُطلقٌ شاملٌ للمُنذَرين الّذين لا ينفعُهم الإنذارُ والّذين ينفعُ فيهم ذلك، ثمَّ قسَّم المنذَرين بعدَ ذلك في قوله: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ على قسميْنِ، وحكمَ على أكثرِهم أنَّهم لا يُؤمنونَ، ثمَّ علّل ذلك بتصميمِهم على الكُفرِ وعدمِ إبصارِهم الحقَّ، ثمَّ أذِنَ لحبيبه ﷺ بالإياسِ منهم، فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فكانَ قصرُ الإنذارِ في الآية على مَن اتّبعَ الذِّكرَ وخشيَ الرّحمن بالغيب من بابِ (القصر الحقيقيّ)، والمُرادُ به مَن يتأثّرُ بالإنذارِ وينتفعُ منه ويحصلُ به المقصود، فيكونُ قد نزَّل الإنذارَ الّذي لم يُفضِ إلى المقصودِ منزلةَ العدم، كأنَّه قيل: إنّما تنذرُ الّذين ينتفعونَ بالإنذار لا غيرَهم[2].

أوْ يُقالُ في توجيه الآياتِ إنَّ قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ يقتضي الإنذارَ العامَّ، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ يقتضي التّخصيصَ، فكيف الجمعُ بينهما؟ وطريقُهُ مِن وُجوه:

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 448، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 354.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 16، وابن التّمجيد، حاشية على القونويّ: 16/ 99.

الأوّل: أنَّ قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ يدلُّ على عُموم الإنذار؛ أيْ: كَيْفَما كان؛ سواءٌ كان مفيدًا ومؤثِّرًا أوْ لم يكن كذلك، وأمّا قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ فهو للإنذارِ المُفيد المُؤثِّر؛ أيْ: لا يكونُ إلّا بالنِّسبة لَمَن يتّبِعُ الذِّكْرَ ويَخْشَى الرّحمنَ بالغَيب.

الثّاني: هو أنّ الله تعالى لمّا بيَّن أنَّ الإرسال أوِ الإنزالَ للإنذارِ، وذَكَرَ أنَّ الإنذارَ وعدمَه سيّانِ بالنِّسبةِ إلى أهلِ العِناد، قال لنبيِّه ﷺ: ليس إنذارُك غيرَ مُفيدٍ مِن جميعِ الوجوه، فأنذِرْ على سبيلِ العموم، وإنَّما يُنْذَرُ بذلك الإنذارِ العامِّ مَن يتَّبِعُ الذِّكرَ، كأنَّه يقول: يا محمَّد؛ أَنذِرْ بإنذارك وتُتّبَعُ بذِكْرِك.

الثّالث: أنَّ قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ على العموم، فإذا أنذرتَ يا محمَّد ﷺ وبلّغتَ، واستهزأ البعض وتولَّى واستكبرَ فبعد ذلك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾[1].

بلاغة التّعريض في الآية:

مَن لم يتّبعِ الذِّكْرَ ولم يخشَ؛ فهو بلا عقلٍ يفقهُ ولا قلبٍ يخشَعُ

لمّا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ كان ظاهرًا أنْ ليس الغرضُ أنْ يعلمَ السّامعون ظاهرَ المعنى؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ يُنذرُ مَن اتّبعَ الذّكرَ ومَن لم يَتّبِعه، ومَن خَشيَ الرّحمنَ بالغيب ومَن لم يخشَه، ولكنَّ الغرضَ أنْ يُذَمَّ الكافرون، على طريقِ التّعريض بأمرٍ هو مُقتضى معنى الكلام بعدَها، فإنَّ الكلامَ على تقدير: (إنّما تُنذِرُ مَن اتّبعَ الذّكر وخشي الرّحمن بالغيب لا غيرَهم) ففيه تعريضٌ بالمُصمِّمين على الكُفر الَّذين لم يَتّبعوا الذِّكْرَ ولم يخشَوُا الرّحمنَ بالغيب، وأنَّ مَن لم يتّبع الذِّكْرَ ولم تكن له هذه الخشيةُ، فكأنَّه ليس له أُذُنٌ تسمَعُ وقلبٌ يعقلُ؛ فالإنذارُ معه كلا إنذار؛ لأنَّ الإنذارَ معَه لا يُجدي[2].

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 16/ 176.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 354، والقزوينيّ، الإيضاح: 3/ 39.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تُنذِرُ﴾:

يُفيدُ التّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ استمرارَ الإنذارِ وتجدُّدَه، حالًا فحالًا، معَ مَن ينتفعُ منه، أوْ يُتوقّعُ الانتفاعُ منه.

دلالةُ الاسمِ الموصول في: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ﴾:

الإنذارُ والبِشارة لكلِّ فردٍ أعظمُ مِن أنْ يكونا للمجموع

عبّر بالاسمِ الموصول ﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ ليفيدَ العموم، والعمومُ هنا على البدل؛ لأنَّه قصدَ به المفردَ بقرينةِ الضّمير المُستترِ العائدِ على الاسمِ الموصولِ في ﴿ٱتَّبَعَ﴾ و﴿وَخَشِيَ﴾ و﴿فَبَشِّرۡهُ﴾، ونكتةُ مجيءِ الاسمِ الموصول على معنى المفرد الإشعارُ بأنَّ العمومَ على البدل، ليفيدَ تعلُّقَ الإنذار بكلِّ فردٍ ممّن اتّبعَ الذّكرَ وخشي الرّحمنَ بالغيب، وليفيدَ كذلك تعلُّقَ البشارة بالمغفرة والأجرِ الكريم لكلِّ فردٍ عمومًا بدليًّا، وهو أعظمُ وأفخمُ من البشارة على المجموع، لِما يُشعرُ به الفردَ من تخصيصِه بالبِشارة.

فائدةُ صلةِ الموصولِ في ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾:

مدحُ مَنِ اتّبع الذِّكْرَ وخشيَ الرّحمنَ بالغيبَ، وتشريفٌ لفعلِهم

لمّا كانت صلةُ الموصول في قوله: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ معلومةَ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليه عندَ المُخاطَبين، عبّر بها للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ وبيانِ سببِه؛ بمعنى أنَّ سببَ قصرِ الإنذارِ على المذكورينَ دونَ غيرهم هو اتّباعُهم الذِّكرَ وخشيتُهم الرّحمنَ بالغيب، أوْ أنَّ الإنذارَ يكون نافعًا بسببِ اتّباعهم الذِّكرَ وخشيَتِهم، ويتفرّعُ على الوجهيْنِ مدحُ المذكورينَ وتشريفُ فعلِهم، بقي أنَّه قد يتوجّهُ سؤالٌ مفادُه: إنْ كان قد اتّبعَ الذِّكر وخشي الرَّحمنَ؛ فما الدّاعي إلى إنذارِه وتخويفه بالآيات؟ وهل هذا إلّا تحصيلٌ للحاصل؟ والجوابُ عن ذلك أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱتَّبَعَ﴾ وما عُطِف عليه: أرادَ الاتّباعَ والخشيةَ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ، أوِ المُراد به مَن استشرفَ الاتبّاعَ والخشيةَ وقاربَهما وتطلَّعَ

إليهما وأقبلَ راغبًا فيهما، فهذا الَّذي يكونُ الإنذارُ نافعًا له، ولا يلزمُ منه تحصيلُ الحاصل.

فائدةُ (الواو):

لا ينفعُ اتّباعٌ من غير خشيةٍ، ولا خشيةٌ من غيرِ اتّباعٍ

تفيدُ (الواو) في قوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ التّشريكَ في الحُكم، والمعنى: إنّما ينتفعُ من الإنذار مَن جمعَ بين إرادتَي اتّباعِ الذّكْرِ وخشيةِ الرّحمن بالغيب، فلا ينفعُ اتّباعٌ من غير خشيةٍ، ولا تنفع خشيةٌ من غيرِ اتّباع، وفي الجمع بين الفعلَيْن إشارةٌ إلى عملِ الجوارح الَّذي يكونُ بالاتّباع لآيات الذِّكْر الحكيم والالتزام بالشَّعائر والأوامر، وإلى عملِ القلب الذي يكونُ بالخشية والخوفِ من الرَّحمن، لكنّه خشيةٌ مُقترنةٌ بالرَّجاء بدليل ذِكْر ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾، الَّذي يطمعُ في إحسانِه وعَفوِه، كما أنَّ فعلَ الاتّباعِ يدلُّ على التَّحليةِ بالأوامرِ القرآنيّة، وفعلَ الخشية يدلُّ على التّخليةِ من أمراضِ القلب وأدوائِه الباطنة، وأمرُ المؤمن بينَ اتّباعٍ وخشيةٍ مقرونَين بالطَّمع من الرَّحمن الرَّحيم.

نكتةُ تقديمِ اتّباع الذِّكْر على الخشية:

اتّباعُ الذّكرِ سببُ حصولِ خشيةِ الرّحمنِ بالغيبِ

قُدِّم في صلةِ الموصولِ قولُه: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ على ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ للإيماءِ إلى أنَّ حصولَ المعطوفِ عليه سببٌ لحصولِ المعطوفِ؛ بمعنى أنَّ اتّباعَ الذّكرِ سببٌ لحصولِ خشيةِ الرَّحمنِ بالغَيب[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾:

اتّـباعُ الـذِّكـرِ يكونُ بتَصْديقِه وتـدبُّـره، والإيمانِ بِما فيه

في قوله: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ استعارةٌ بالفعل ﴿ٱتَّبَعَ﴾؛ إذ شبَّه الإقبالَ على القرآنِ وإرادةَ الاعتناءِ به والسّيرَ على هُداه باتّباعِ الشّيءِ والسّيرِ وراءَه مُقتفيًا أثرَه كي لا يُخطئَ في الطّريق؛ لِأَنَّ ٱلْمُتَّبِعَ شَيْئًا يَعْتَني بِاقْتِفائِهِ[2]، فوجهُ الشّبه الاعتناءُ بالمتبوع، والاهتمامُ به، ثمَّ

(1) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 304.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 253.

حُذِف المُشبَّه وذُكر المُشبَّه به على طريق الاستعارة التّصريحية التَّبعيَّة، واتِّباعُ الذِّكرِ يكون بتَصديقِه وفهمِه وتدبُّرِه والإيمانِ بما فيهِ؛ لأَنَّ التَّدَبُّرَ فيهِ يُفْضي إِلَى العَمَلِ بِهِ.

تأثيرُ الإنذارِ إنّما يكونُ عندَ تحقُّقِ وقوعِ الاتّباعِ والخشيةِ

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ:

لمّا جاءَ الفعل ﴿تُنذِرُ﴾ بصيغةِ المضارع كان الظّاهرُ أنْ يعبّرَ بالفعلَيْن: ﴿ٱتَّبَعَ﴾ و﴿وَخَشِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ بصيغةِ المضارع؛ لأَنَّ الإنذارَ إنّما يكونُ لِمَن يريدُ أَنْ يتّبعَ الذِّكر ولِمَن يريدُ أَنْ يخشى الرّحمنَ بالغيب؛ فكانَ مجيءُ الفعليْنِ بصيغةِ الماضي على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، والنّكتةُ فيه الإيذانُ بأَنَّ تأثيرَ الإنذارِ إنّما يكونُ عندَ تحقُّقِ وقوعِ الاتّباعِ والخشية[1]، والمُرادُ ابتداءَ الاتّباعُ والخشيةُ، ففيه حثٌّ على التّحقُّقِ بالفعلَيْن، وفيه تنبيهٌ كذلك إلى أَنَّ المؤمنَ يحتاجُ إلى الإنذار دائمًا؛ لئلّا يقعَ في المَناهي.

معنى التعريف في ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

القــرآنُ أعلى أنــواعِ الــذّكـرِ المُشارِ إليها في التّنزيلِ المُحكَم

(أل) في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ عهديّةٌ، داخلةٌ على الاسم؛ أي: الذّكرُ المعهودُ الّذي أنزلَه اللّه تعالى وهو القرآنُ المذكور في قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾:

القرآنُ ذِكْرٌ لمَنْ تذكّر، وهُدًى لمَن تأثّر وتدبّر

عُبِّر بالذّكرِ في قوله: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾؛ للإشعارِ بأنّ القرآن ذِكْرٌ لِمَن يتذكّرُ به، وعِظَةٌ لِمَن يُنْذَر به، ولمّا جاء اللّفظُ في سياق المَدْحِ للمُنتفعينَ بالإنذار؛ أفادَ أنّه ذِكْرٌ وشرفٌ وفخرٌ لِمَن آمنَ به واتّبعَهُ.

سرُّ تعليقِ الخشيةِ بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾:

لمّا كانتِ الخشيةُ فيها معنى الخوف، وكان الظّاهر أن تُعَلَّق على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 390.

أهـلُ الخشيةِ يَـكـفـيـهـم في الاتّـعـاظِ من الإنـذارِ التَّذكيرُ بالنّعمِ الغزارِ

مظهرِ العظمة؛ ليكونَ على نسق ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بأن يُقال: (إنّما تُنْذر من خَشيَنا بالغيب)، فلمّا كان الأمر كذلك دلَّ العدولُ عن مظهر العظمةِ إلى الوصف بالرحمانيَّة في قوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ على أنَّ اللّفظَ جاء على خلافِ مُقتضى الظّاهر، وفيه نكاتٌ ولطائفُ مُتعدّدة، الأولى: أنَّ أهل الخشيةِ يَكفيهم في الاتِّعاظِ والانتفاعِ من الإنذارِ التَّذكيرُ بالإحسانِ والنِّعَمِ الظّاهرة[1]، والثانية: أنَّه تعالى يُخشى منه وهو الرّحمن، فكيف إذا لوحظَ أنَّه تعالى مُنتقِم قهّارٌ وشديدُ العقاب، فالخشيةُ تكونُ أشدَّ وأبلغَ، فذكرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ للمبالغة في المنعِ عن الاغترار والانهماكِ في المناهي[2]، والثالثة: أنَّ الخشيةَ تورثُ الإحسانَ والنّعمَ العظيمة، والرّابعة: أَنَّ الرَّحْمَةَ تورِثُ الاتِّكالَ والرَّجاءَ فذكرَ مَعَ أَنَّهُ رَحْمَنٌ، فالعاقِلُ لا يَنْبَغي أَنْ يَتْرُكَ الخَشْيَةَ، فَإنَّ كُلَّ مَنْ كانَتْ نِعْمَتُهُ بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ أَكْثَرَ فالخَوْفُ مِنْهُ أَتَمُّ؛ مَخافَةَ أَنْ يقطعَ عنه النِّعَمَ المتواترة، والمؤمن يخشى الرّحمنَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَسْلُبَهُ ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، والخامسة: هي أَنَّ مِنْ أَسْماءِ اللّهِ اسْمَيْنِ يَخْتَصّانِ بِهِ، هُما اللّهُ والرَّحْمَنُ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: 110] فاللّهُ اسْمٌ يُنْبِئُ عَنِ الهَيْبَةِ، والرَّحْمَنُ يُنبئ عن العاطفيّة، فقال في موضع: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 21]، وقال هاهنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾؛ يَعْني مَعَ كَوْنِهِ ذا هَيْبَةٍ لا تَقْطَعوا عَنْهُ رَجاءَكُمْ، ومَعَ كَوْنِهِ ذا رَحْمَةٍ لا تَأْمَنوهُ[3].

سببُ التّعبير بصيغة المبالغة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾:

رحمـانيّـةُ الله تقتضي الخوفَ من الله والرّجاءَ فيه

عبّر بصيغة المبالغة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ في قوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 99.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 99.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257.

دونَ (الرّحيم)، للإشعارِ بأنَّ كثرةَ رحمةِ اللّه تعالى بالعبدِ تَقتضي خشيتَهُ دونَ الأمنِ من عذابِه ومعصيتِه[1].

دلالةُ الحالِ في شِبه الجُملة، ومعنى (الباء) فيها:

خشيةُ اللهِ بالغيبِ هي جوهرُ الإيمانِ بلا رَيبٍ

الجارُّ والمجرور في قولِه: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ في محلّ نصبٍ حالٌ من الفعل (خَشيَ)، وصاحبُ الحال إمّا أن يكونَ الفاعلَ وهو الضّميرُ المستتر في الفعل (خَشيَ)، ويكون المعنى: وخَشيَ الرّحمن بالقلبِ المخفيِّ الّذي هو غيبٌ عن النّاس؛ أي: في سريرتِه وبالخَلوات عندَ مغيب الإنسانِ عن عيون البشر، وحينئذٍ تكون (الباء) في ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ للآلة، وإمّا أن يكونَ صاحبُ الحالِ المفعولَ به، وهو المُضافُ المحذوف على تقدير: وخشيَ عقابَ الرّحمن، ويكونُ المعنى: وخشي عقابَ الرّحمن قبلَ حُلولِه، حال كونِ ذلك العقاب غائبًا عنه، والمعنى: خشيَ عقابَ اللّه ولم يرَهُ، فتكونُ (الباء) في ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ للمُصاحبة[2].

فائدةُ الفاء في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

البِشارةُ مُرتّبةٌ على اتّباعِ الذِّكرِ، وخشيةِ الرّحمنِ بالغَيبِ

(الفاءُ) في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ تفيدُ التّرتيب والسّببيَّة؛ بمعنى أنَّ البشارةَ مُرتّبةٌ على اتّباعِ الذِّكر وخشيةِ الرّحمن بالغيب، ومُسبَّبةٌ عنهما، أوْ أنَّ الأمرَ بالبشارة مُرتّبٌ على اتّباع الذِّكر والخَشية[3]، ولمّا كان التّبشير مُقيَّدًا بالمغفرةِ والأجرِ الكريم دلَّ على أنّهما مُسبَّبانِ عن اتّباع الذِّكر وخشيةِ الرّحمنِ بالغيب.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

بيانُ أنّ الأمرَ بالبِشارة من مهامّ الرّسولِ البشيرِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّ رسولَ اللّه ﷺ أُرسِلَ ليُنذِرَ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 100.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2335، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 100، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 415، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 390.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 161، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 100.

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ وذَكَرَ أَنَّ الإِنْذارَ النّافِعَ يكونُ عِنْدَ اتِّباعِ الذِّكْرِ في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾، أعقبَه بذِكْرِ الأمر الثّاني من أمرَي الرّسالة، وهو أنَّ رسول الله ﷺ بَشيرٌ ونَذيرٌ، فكأنَّه قال: بشّرْ كما أنذرتَ ونفعتَ[1].

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

البشارةُ ملمحٌ للتّفاؤُلِ بعطاءِ اللهِ ورحمتِهِ

قد يُقالُ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (لتبشّره بمغفرةٍ وأجرٍ كريم) فيكونَ الفعلُ بصيغة المضارع على نسق: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾؟ وجوابُه أنَّه لمّا ذَكَرَ في هذه الآية الإنذارَ المُؤثِّر الّذي يُنتَفَعُ منه كانَ الإنذارُ على معنى تحقُّقِ وقوعِ أثرِه، وهو الانتفاعُ منه، فناسبَ أن يترتّبَ عليه الطّلبُ المُحقّقُ للبشارة، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ في حينِ لو استعملَ المضارع لما أفاد أنَّ مُريدَ الاتّباعِ قد اتّبعَ بالفعل وخشي بالفعل؛ بل كان في مرحلةِ الإنذارِ والتَّخويف.

بديع الطّباق بين ﴿تُنذِرُ﴾ و﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

أوّلُ أمرِ المؤمنين الإنذارُ، وعاقبتُهُ التّبشيرُ بالفوزِ والاستقرارِ

الجمعُ بين ﴿تُنذِرُ﴾ و﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ﴾ فيه محسّنُ الطّباق، ليفيدَ أنَّ الرّسول ﷺ بشيرٌ ونذير، فلمّا ذكرَ أَنَّ الإِنْذارَ النّافِعَ عِنْدَ اتِّباعِ الذِّكْرِ، أعقبَهُ بذِكْرِ البِشارة، فقالَ: بَشِّرْ كَما أَنْذَرْتَ ونَفَعْتَ، مع الإيماءِ إلى أنَّ أوّلَ أمرِ المؤمنين الإنذارُ وعاقبتَه التّبشيرُ[2].

دلالةُ الضّمير في ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

البِشارةُ جزاءُ مَن اتّبعَ الهُدى، وخَشيَ المولى

يعودُ الضّمير في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ على الاسمِ الموصول معَ صلته، على إرادةِ تعيينِه بوصفِه الّذي اتّصفَ به، والمعنى: فبشّر هذا الَّذي اتَّبَعَ الذِّكْرَ، وخَشيَ الرَّحمَنَ بالغَيْبِ، بمغفرةٍ وأجرٍ كريمٍ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 353.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 415.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾:

(الباءُ) في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ للملابَسة؛ بمعنى: مُلابسة المغفرةِ والأجرِ الكريم للبِشارة، فالبُشارةُ هي المغفرةُ والأجرُ الكريم.

فائدةُ التّنكير في: ﴿بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾:

بيانُ أنّ البِشارةَ تكونُ بالغُفرانِ العظيمِ، والأجرِ الكريمِ

التّنكيرُ في الأسماءِ الثّلاثة الوارد في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ للتّفخيم، والمعنى: فبشِّره بمَغْفِرةٍ واسِعَةٍ تَسْتُرُ مِنْ جَميعِ الجَوانِبِ[1]، وأجرٍ عظيمٍ ليس كسائرِ الأجورِ، وموصوفٍ بأعلى مراتبِ الكرَمِ الباذخ.

دلالةُ تعليقِ المغفرةِ بالبشارة:

حاجةُ العبدِ للمَغفرةِ لا تنتهي في العاجلةِ والآجلةِ

لمّا علّقَ المغفرةَ بالبشارةِ في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾؛ أفاد أنَّ العبدَ وإنِ اتّبعَ الذِّكْرَ وخشيَ الرّحمنَ بالغيب؛ فإنَّه لا يخلو من تقصيرٍ باقترافِ اللَّمَمِ أوِ ارتكابِ بعضِ الخواطرِ القلبيَّة أَوْ ضياعِ بعضِ الأوقات، فيحتاجُ إلى المغفرة.

سببُ عدمِ تعليقِ المغفرةِ بالذّنوبِ:

مِن ألطافِ اللهِ تعالى الكريمِ غضُّ الطّرفِ عن الذّنوبِ المُقتَرَفَةِ

لم يقُلِ اللّه تعالى: (فبشِّرْه بمغفرةٍ لذُنوبه)؛ بل أطلقَ فقال: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ مدحٍ وبشارة، فلا يناسبُهُ التّكديرُ بذِكْرِ الذّنوب، كما أنَّ حذف (الذّنوب) يُفيد عمومَ المغفرة لجميع الذّنوب، صغُرَتْ كالسيِّئاتِ أَوْ عَظُمَتْ كالكبائر، وتكرّرتْ مواقعتُهما والتوبةُ منهما[2].

علّةُ تقديمِ بشارةِ المغفرة:

الأجرُ لا يكونُ كريمًا إلّا بعدَ المغفرةِ حتّى يطمئنَّ القلبُ تمامًا

قُدّمت بشارةُ المغفرةِ على بشارةِ الأجرِ الكريم في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾؛ لأنَّ التّخليةَ مُقدَّمةٌ على التّحلية، ولأنَّ الأجرَ لا يكون كريمًا إلّا بعدَ المغفرة[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 100.
(3) القونويّ، حاشية على القونويّ: 16/ 100.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَأَجْرٍ﴾:

جعلُ الأجرِ مُعاوَضةً على العمَلِ فيه امتنانٌ وإحسانٌ

عبَّرَ بلفظ ﴿وَأَجْرٍ﴾ في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ للإشعارِ بالجزاءِ بالثّوابِ على العمَلِ، فاللّه تعالى يُعطي أجرًا على عمَل المؤمن، ولمّا كان اتّباعُ القرآن وخشيةُ اللّه واجبَيْنِ على الإنسانِ بمُقتضى عبوديّته للّه تعالى كان جعلُ الأجر على طريقِ المُعاوضة على العمَل فيه معنى الامتنان والإحسان، فناسبَ مجيءُ لفظِ الأجر في سياقِ ذِكْر وصفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اتّباع الذِّكْر وخشيةَ الرّحمن بالغيبِ من المنافع، وأنَّ المؤمنَ كالأجير في الدّنيا، وأنَّ ما يعملُهُ له أجرٌ يُقابِلُه، وأنَّ الأجرَ قد يَتأخّرُ ولكنّه لنْ يَضيعَ[1].

سرُّ التقييدِ في ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾:

أجرُ المؤمنين وافرٌ نفيسٌ لا يَشوبُهُ نقصٌ ولا تنغيصٌ

لَمّا كان لفظُ (الكريم) اسمًا جامعًا لكلِّ ما يُحمَدُ ويُستحسَنُ، وكان (الكريم) هو المحمودَ فيما يُحتاجُ إليه، كان في تقييد ﴿وَأَجْرٍ﴾ بالصفة ﴿كَرِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ إشعارٌ بأنَّ الأجرَ الَّذي يأخذُهُ كلُّ مؤمنٍ يومَ القيامة مقترنٌ بحَمْدٍ على الأحسن وتكرمةٍ، وأنَّه أجرٌ وافرٌ كبيرٌ نفيسٌ فائقٌ في صنفِه وجنسِه؛ أيْ: بشّره بأجرٍ هو أفضلُ الأجور وأشرفُها لاستغراقِه فضائلَ جنسِ الأجور، لا يشوبُ ذاتَه نقصٌ ولا منفعتَه ضررٌ، كما أنَّ ذِكْرَ صفةِ (الكريم) يُشعرُ بالاستغناء، فيُغْني اللّه تعالى المؤمنينَ بهذا الأجرِ عن كلِّ أحدٍ[2]، وانتفى بهذا الوصفِ عنِ الأجرِ المنّةُ والإيذاءُ، فهو أجرٌ خالصٌ لا يَشوبُهُ نقصٌ ولا يمازجُه ضعفٌ أوْ قصورٌ ماديٌّ أوْ معنويٌّ.

دلالةُ التّركيب الوصفيّ ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾:

أجلُّ أجرٍ في الجنَّة رؤيةُ اللهِ تعالى، وهي أكرمُ نعمةٍ

يُرادُ بالتّركيب الوصفيِّ في قوله تعالى: ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ كلُّ ما يُطلقُ عليه أَجرٌ كريمٌ، فيدخلُ فيه الجنَّة بنعيمِها الشّامل دخولًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (أجر).

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 448، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 304.

أوّليًّا، فإنَّها دارُ كرامةٍ لا كَدَرَ فيها بوجهٍ، وأجلُّ أجرٍ ينالُه المؤمنونَ وأعظمُه رؤية اللّه تعالى، اللّهم متِّعنا بالنَّظر إلى وجهك الكريم[1].

نكتةُ الجمعِ بينَ المغفرةِ والأجرِ الكريمِ:

خشيةُ الرَّحمنِ بالغيبِ لا تكونُ إلّا صادقةً مُخلَصةً

جمعَ النَّظم الجليلُ بين المغفرة والأجرِ الكريم في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾؛ لأنَّه لمّا جمعَ بين اتّباع الذِّكْر وخشيةِ الرّحمن بالغيب؛ كان الجزاءُ بأمرين؛ للإشعار بأنَّ مَن اتَّبعَ الذِّكر وخشيَ الرَّحمن بالغيب قد جمعَ بينَ الإيمان والعمل الصّالح، فإنَّ الغُفْرانَ جَزاءُ الإيمان، فَكُلُّ مُؤْمِن مَغْفورٌ له، والأَجْرُ الكَريمُ جَزاءُ العَمَلِ[2] كَما قالَ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [سَبَأ: 4].

وقابلَ المغفرة باتّباعِ الذِّكْر أيضًا؛ لأنَّ اتّباعَ الذِّكْر قد يقعُ فيه تقصيرٌ، فناسبَهُ ذِكْرُ المغفرة، وقابلَ الأجرَ الكريمَ بخشية الرّحمن بالغيب؛ لأنَّ خشيتَه بالغيب لا تكونُ إلّا صادقةً مُخلَصة، فناسبَها المجازاةُ بالأجر الكريم، فقابلَ المجموع بالمجموع؛ أيْ: مجموعُ اتّباع الذِّكْر وخشيةِ الرّحمنِ بالغيبِ يقابلُه البشارةُ بمجموعِ المغفرةِ والأجرِ الكريم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأجرُ والجَزاءُ:

الأجـرُ عطاءٌ مُقابلَ عمَلٍ بعَقْدٍ، والجزاءُ عطاءٌ عن عقدٍ وبدونِه

(الأجرُ) يُقالُ فيما كانَ عن عقدٍ وما يجري مَجرى العقد، ولا يُقالُ إلّا في النَّفع دونَ الضُّرِّ، نحوُقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 199]، وقوله تعالى: ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشّورى: 40]، و(الجزاء) يُقال فيما كانَ عن عقدٍ وغير عقدٍ، ويُقالُ في النّافع والضارِّ، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [الإنسان: 12]، وقوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النّساء: 93][3]، ولمّا كان (الأجر) مُختصًّا بمواضعِ النّفعِ ناسبَ اختيارُه في موضعِ بِشارةِ المؤمنين.

---

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 339، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 390.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257.

(3) الرّاغب، المُفردات: (أجر).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [يس: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى الرِّسالَةَ وهوَ أَصْلٌ مِنَ الأُصولِ الثَّلاثَةِ، الَّتي يَصيرُ بِها المُكَلَّفُ مُؤْمِنًا مُسْلِمًا، ذَكَرَ أَصْلًا آخَرَ وهوَ الحَشْرُ، وكذلك لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى الإِنْذارَ والبِشارَةَ بِقَوْلِه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ ولَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ بِكَمالِهِ في الدُّنْيا فذكرَ أَنَّه إِنْ لَمْ يُرَ في الدُّنْيا فاللّهُ يُحْيي المَوْتَى ويَجْزي المُنْذِرينَ ويَجْزي المُبَشِّرينَ، ثمّ إِنَّه تَعالَى لَمّا ذَكَرَ خَشْيَةَ الرَّحْمَنِ بِالغَيْبِ ذَكَرَ ما يُؤَكِّدُهُ وهوَ إِحْياءُ المَوْتَى، فجاءت هذه الآيةُ[1].

العلاقةُ بين الغُفران والأجر، وبينَ البعث والحساب عمّا في المُنشّر من الكتاب

وقد يُقال: إنّه لَمّا ذَكَرَ الفريقَيْن إزاءَ الإنذار؛ الفريقُ الَّذين لم ينفعْهُم الإنذار فكفروا، والفريقُ الَّذين نفعَهم وآمنوا، أراد أَنْ يُبيِّنَ سببَ عدمِ انتفاع الفريقِ الأَوَّل، وهو أنّه لم يُؤمنوا بالحشر وإحياءِ المَوْتى والحساب، وسببَ انتفاعِ الفريق الثاني الذي آمنَ بالغيب وأنّه سوف يحيا ثانيةً وينالُ الأجرَ العظيم.

ومن المناسباتِ أيضًا أنّه لَمّا اقْتَضَى القَصْرُ في قَوْلِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ نفى أَنْ يَتعلّقَ الإنذارُ بالذين لم يتّبعوا الذّكرَ ولم يخشَوا الرّحمن، فاصبحوا بِمَنْزِلَةِ الأَمْواتِ لِعَدَمِ انْتِفاعِهِمْ بِما يَنْفَعُ كُلَّ عاقِلٍ، كَقَوله تَعالَى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ [يس: 70]، وكَقَولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النَّمْل: 80] واسْتُطْرِدَ عَقِبَ ذَلِكَ بِالتَّخَلُّصِ إِلَى إِثْباتِ البَعْثِ، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾؛ فَإِنَّ التَّوْفيقَ الَّذي حَفَّ بِمَنِ اتَّبَعَ الذّكر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 257.

وخشيَ الرَّحمن هوَ كَإحْياءِ المَيِّت؛ لِأَنَّ حالَةَ الشِّرْكِ حالَةُ ضَلالٍ يُشْبِهُ المَوْتَ، والإِخْراجَ مِنْهُ كَإِحْياءِ المَيِّت(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾: (أثر) أصلُ التَّأْثيرِ: إبْقاءُ رَسْمٍ على الشَّيْءِ، والأَثَرُ: العَلامَةُ، يُقالُ: أَثَّرَ في الأَرْضِ يُؤَثِّرُ تَأْثيرًا؛ أيْ: أَبْقَى فيها رَسْمًا وشَكْلًا، والأَثَرُ أيضًا: بَقيَّةُ ما يُرى مِنْ كُلِّ شَيءٍ، ومِنْ مَعاني الأَثَرِ أَيْضًا: الميزَةُ، والقَرينَةُ، والدَّليلُ، والخَبَرُ، والاتِّباعُ(2)، وأَمّا المُرادُ بالآثارِ في الآيةِ فهي آثارُ الأعمالِ وليستْ عينَ الأعمالِ بقرينةِ مُقابلته بـ (ما قَدَّموا)، وذلك مِثْلُ ما يتركُونَ من خيرٍ أوْ شَرٍّ بَيْنَ النّاسِ وفي النُّفوسِ(3).

2) ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾: (حصا/ حصي) أصلُ الإحصاءِ: العَدُّ والحِسابُ مَعَ التّحصيلِ والحِفْظِ والضّبط، يُقالُ: أحصَيتُ الشَّيءَ، إذا عَدَدْتَهُ وحصّلتَه وأَحطتَ به، ومَأتى استعمالِ لفظ (حصى) في العدّ أنَّ العربَ كانوا يعتمدونَ (الحصا) في العدّ كاعتمادِنا على الأصابع، وفي أَسماءِ اللّهِ تَعالَى: المُحْصي؛ هوَ الَّذي أَحْصَى كلَّ شيءٍ بِعِلْمِه، فَلا يَفوته دَقيقٌ منها ولا جليل(4)، والمُرادُ بـ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ في الآيةِ: حَفِظْناهُ وعَدَدْناهُ(5).

3) ﴿إِمَامٖ﴾: (أمّ) أَصلٌ واحِدٌ، يتفرَّعُ مِنهُ أَربَعُ أَبوابٍ، وهيَ: الأَصلُ والمَرجِعُ والجماعَةُ والدّينُ، وهذهِ الأَربعةُ مُتقاربةٌ، وبعدَ ذلك أصولٌ ثلاثَةٌ، وهي القامَةُ والحينُ والقصدُ(6)، والإمامَةُ: التَّقَدُّمُ، وأَمَّ القَوْمَ؛ أيْ: تَقَدَّمَهُم، والإمامُ: كُلُّ مَنِ اقْتُدِيَ بِهِ وقُدِّمَ في الأُمورِ، يُقالُ: ائْتَمَّ بِهِ؛ أي: اقْتَدَى بِهِ وقَدَّمَهُ أَمامَهُ، وجَمْعُ إمامٍ: أَئِمَّةٌ(7)، والمُرادُ بالإمامِ في الآية: ما يُؤتَمُّ به في الاقتداءِ ويُعمَلُ على حسَبِ ما يدلُّ عليه، والمقصودُ به: الكتابُ، وهو اللَّوحُ المحفوظ؛ لأنَّه يُتبَعُ(8).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 354.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أثر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 356.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حصا - حصي).
(5) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 18/ 462، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 8.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمّ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن سِيدَه، المُحكَم، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمم).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 412، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 13، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 102، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 148، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 693.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُستنَدُ الجزاءِ ما كُتبَ من أعمالِ العبادِ، وما تركوه خلفَهم من آثارٍ

يقولُ اللّه تعالى: إنّا نُحيي المَوْتى جميعًا مِنْ قبورِهم يومَ القيامة، ونكتبُ أعمالَهم التي باشروها بأنفُسِهم، وآثارَهم التي أثروها؛ أيْ: تركوها مِن بعدهم، أوْ آثارَ خُطاهم إلى الطّاعة أو المعصية، فنَجْزيهم على ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنَّ شَرًّا فشَرٌّ[1]، وكلُّ شَيءٍ ممّا كانَ أوْ سيَكونُ - ومِن ذلك أعمالُ العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها - مَحفوظٌ ومُثبَتٌ في كِتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شَيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

مجيءُ الفصلِ على طريقِ شبهِ كمالِ الاتّصالِ لبيانِ السّببِ

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ المُصدّرِ بالأداةِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ لتكونَ الجملةُ تعليلًا لما قبلها، فإنَّه تعالى لمّا ذَكَرَ التّسويةَ بينَ إنذارِ المُصمّمينَ على الكُفرِ وعدمِه، وذَكَرَ مَن ينتفعُ بالإنذارِ، وذَكَرَ المغفرةَ والرّحمةَ، وأمرَ رسولَه ﷺ بالتّبشيرِ علّله بأنَّه تعالى يُحيي المَوْتى، فيَجزيهم على وفقِ أَعمالِهم جميعًا، فكانَ الانتقالُ بابتداءِ كلامٍ عن طريقِ أداةِ الرّبطِ (إنَّ)؛ مُنبِّهًا السّامعَ إلى شأنٍ عظيمٍ يَنطوي على الإنذارِ والتَّبشيرِ انطواءً إجماليًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾، يَنطوي على معنى: نَبعثُهم بعدَ مَماتِهم لنُجازيَهم على أعمالِهم[2].

سرُّ التّعبير بضمير العظمة في الآية:

لا يقدرُ على عظيمِ الفعلِ والجزاءِ إلّا خالقُ الأرضِ والسّماءِ

عُبّر بضميرِ العَظَمَةِ في جميعِ الضّمائرِ الواردةِ في الآيةِ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 565 - 566.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 161، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 101، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 355.

﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وذلك في الضّمير (نا) و﴿نَحۡنُ﴾ ومع الفعل: (﴿نُحۡيِ﴾ و﴿وَنَكۡتُبُ﴾ و﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾)، للإشعار بأنَّ هذه الأفعالَ لا يقدرُ عليها إلّا مَن له صفةُ العظمةِ المُطلقة، وهو اللّهُ الملِكُ الواحدُ الأحدُ.

توجيهُ المتُشابِهِ اللّفظيِّ:

التّعبيرُ بضمير العَظَمَةِ في مقامِ التّعظيم، وبضمير الإفرادِ في مقامِ الوحدانيّةِ

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ يخبرُ اللّه تعالى عن نفسِه بصيغةِ العَظَمةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القَدْر: 1]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجْر: 9]، وأحيانًا يخبرُ عن نفسِه بصيغةِ الواحدِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: 14]، ووَجهُ ذلك: أنَّه واحدٌ عظيمٌ؛ فإذا كان المقامُ مقامَ تعظيمٍ للفعلِ وإيذانٍ بأنَّ هذا الفعل لا يقدرُ عليه إلّا مَن له وصفُ العظمة؛ يأتي الضَّميرُ بصيغة العَظَمةِ، وإذا كان المقامُ مقامَ بيانٍ لوحدانيَّة اللّه تعالى؛ يأتي ضميرُ الواحِدِ(1).

فائدةُ تتابُعِ التّأكيدِ في الجُملةِ:

سياقُ الرّدِّ على إنكارِ الكافرين للبعثِ بعد الموتِ

أفادَ ضميرُ الفصلِ ﴿نَحۡنُ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ تأكيدَ اسم ﴿إِنَّا﴾ وتقريرَه، وهو المناسبُ للتّعظيم، وباجتماع التأكيدَيْن يكونُ الخبر إنكاريًّا؛ ليفيدَ الرّدَّ على إنكار الكفّار الّذين كانوا يقولونَ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 37]، وعلى لازمِ ما فُهِم من عدمِ انتفاعِ طائفةٍ من المُنذَرين بالإنذار، إذ جرَّأهم وجرّأهم على عدمِ الانتفاعِ والتّكذيبِ استبعادُهم الحشرَ والحسابَ على الأعمال وإحياءَ الأموات، فكانَ التأكيد ردًّا على الإنكارِ اللّازم من ذلك الموقفِ المُعبَّرِ عنه بعدمِ جَدوى الإنذار.

(1) ابن عُثيمين، تفسير ابن عُثيمين، جزء عمَّ، ص: 268.

دلالةُ التّوجيهِ النّحويِّ لموضعِ خبرِ (إنَّ):

الظّاهرُ أنْ يكونَ ﴿نَحۡنُ﴾ ضميرَ فصلٍ في قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، والجملةُ الفعليّةُ ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ خبرَ اسم (إنَّ)، ليفيدَ ضميرُ الفصلِ قصرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، فيكونُ من قصر الصّفةِ على الموصوف؛ والمعنى: إنّا نحن دونَ غيرنا نُحيي المَوتى، وذهبَ الفخرُ الرّازيّ إلى أنَّ ﴿نَحۡنُ﴾ خبرٌ لاسم (إنَّ)، وتكونُ جملة ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ خبرًا ثانيًا، فيكونُ من جنس الإخبارِ عن المبتدأ بلفظِه، والمعنى على الكمال في الوصفِ كَقَوْلِ الشّاعر:

أَنا أَبو النَّجْمِ وشِعْري شِعْري

ومِثْلُ هَذا يُقالُ عِنْدَ الشُّهْرَةِ العَظيمَةِ، وذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لا يُعْرَفُ، يُقالُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقولُ: أَنا ابْنُ فُلانٍ فَيُعْرَفُ، ومَنْ يَكونُ مَشْهورًا إذا قيلَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ يَقولُ: أَنا؛ أَيْ: لا مُعَرِّفَ لي أَظْهَرُ مِنْ نَفْسي، والمُراد من قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ إنّا نحنُ مَعْروفونَ بِأَوْصافِ الكَمالِ، وإذا عرّفْنا بِأَنْفُسِنا فَلا تُنكِرْ قُدْرَتَنا عَلَى إحْياءِ المَوْتَى[1].

اللهُ أعرفُ المَعارفِ، ولا مُعَرِّفَ للهِ أَظْهَرُ مِنْ اللهِ

بلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الفعليّة:

أفادَ مجيءُ خبر اسم (إنَّ) - وهو ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ - جملةً فعليَّةً؛ تقويةً للحُكم، وتحقيقًا له في الزّمن المستقبل؛ بمعنى تحقيقِ إحياءِ اللّه الموتى، وأنَّه لا يكونُ إحياؤهم إلّا من اللّه تعالى.

لا يُحيي الموتى إلّا مَن له قدرةُ الإحياءِ والإماتة

دلالةُ الإسنادِ بين الحقيقةِ والمجاز:

يحتملُ أنْ يكون المُرادُ من الإسنادِ في قولِه: ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الحقيقةَ، وهو الظّاهر والأَوْلى، وعليه جمهورُ المُفسّرين؛ أيْ: نُحيي الموتى يومَ البعثِ للحساب والجزاء، ووجهُ مجيء الكلام على الحقيقةِ الذي هو الأصلُ أنْ يُقال: لمّا ذَكَرَ ما يدلُّ على انتفاءِ أولئك

دعوةُ مَن ينتفعُ بالإنذارِ وتركُ المُصمّمين على الإنكارِ من الكفّارِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 258.

المُصمّمين على الكفر مِن الَّذين لم يَنتفعوا بإنذارِ رسول الله ﷺ، وقفّاه بذِكرِ ما يُقابلُهم من المُنتفعين بالإنذار، ورتّبَ عليه تبشيرَهم بالمغفرة والأجرِ الكريم، كانَ كأنَّه قيلَ: إذا كانَ حُكمُ المؤمنينَ التّبشيرَ بالمغفرة والأجر، فما حكمُ أولئك المُصمّمينَ على الكفر يومَ البعثِ؟ فقيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وتحريرُ المعنى: اشتغِلْ بمَن ينتفعُ بإنذارِك وبشِّرهم بالمغفرة والأجرِ ودعْ أولئك الموتى إلينا، فإنّا نبعثُهم ثمّ نُنبّئهم بما عملوا، لكنْ قد يُقالُ على هذا: لمَ عبَّر عن إحيائهم بالفعلِ المُضارعِ الدّالِّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ مع أنَّ الإحياءَ يتمُّ كنفسٍ واحدةٍ، والجوابُ: أنَّ المُراد بالمُضارع هنا: الشَّأنُ والقوّةُ على الفعل؛ أيْ: شأنُنا الإحياءُ للموتى، وهذا الشَّأنُ مُستمرٌّ لكونِه داخلًا ضمنَ قُدرتِنا ومَشيئتِنا، ومتى أردنا ذلك فنحنُ عليه قادرونَ.

ويحتملُ أنْ يكون المُرادُ من قوله: ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ المجازَ، بطريقِ الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، بتشبيهِ الجهلِ بالموتِ والهدايةِ بالإحياء، فاستُعيرَ لفظُ الموتى للجُهّال والمُرادُ بهم الكفّار، ولفظُ الإحياءِ للهداية والمُرادُ بها الإيمان، ثمَّ حَذَفَ المشبَّه وذَكَرَ المُشبَّه به، ومناسبةُ الاستعارة أنَّه لمّا ذَكَرَ المُصمّمين على الكُفر، وذَكَرَ المُنتفعين بالإنذار وتبشيرَهم بالمغفرةِ والأجرِ الكريمِ، كانَ كأنَّه قيلَ: لمَ خصَّ هؤلاءِ بالمَغفرةِ والأجرِ؟ فأجيبَ: لأنّا نخرجُهم من الشّرك إلى الإيمان، ونكتبُ ما قدَّموا وآثارَهم من الخير والشّرِ، فنغفرُ سيّئاتِهم ونُجازيهم على حَسناتِهم بالأجر الكريم، فهو حينئذٍ عِدَةٌ كريمةٌ بتحقيقِ المُبشَّر به[1].

فائدة (ألْ) في قوله: ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

يُرادُ بـ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ المُصمّمونَ على الكُفر، إذ شبّههم بالموتى لعدمِ انتفاعِهم بالهدايةِ، و(أل) للجنس؛ بمعنى جنسِ الموتى؛ ليُفيدَ اللّفظُ استغراقَ الإحياءِ لجميعِ الموتى، ويُحتملُ أنْ تكون للعهد؛ ليشملَ المُصمّمينَ على الكفر والمُنتفعينَ مِنَ الإنذار؛ أي: الفريقينِ جميعًا[2]، ويفيدُ الاستغراقَ كذلك؛ لأنَّ النّاسَ مُنقسمونَ بين الكُفر

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 9، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التَّفسير: 12/ 341، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 11، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 264، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 17، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 161، والشوكانيّ، فتح القدير: 4/ 415.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 17، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 100 - 101.

المُصرّون على الكُفْر كالمَوتى؛ لعدمِ انتفاعِهم بالهدايةِ

والإيمان، وعلى الوجهيْن يكون الإسناد حقيقيًّا، في قولِه: ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وإنْ كان الإسناد مجازيًّا فتكون (أل) للعهد، ويُراد بالموتى المُصمّمونَ على الكفر؛ إذ شبَّههم بالموتى؛ لعدم انتفاعِهم بالهدايةِ.

بديعُ المُقابلةِ ودلالاتُها ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

تعظيمُ شأنِ فعلِ إحياءِ المَوتى، وأنّه لا يقدرُ عليه إلّا الله تعالى

جاءَ اللّفظانِ ﴿نُحۡيِ﴾ و﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في قوله: ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على مُقابلة التَّضادِّ في اللَّفظُ والمعنى؛ فإنَّ الإحياءَ ضدُّ الإماتةِ إنْ حُمِلا على الحقيقة، والعلمَ ضدُّ الجَهلِ إنْ حُمِلا على المجاز، وقوبِلَ الفعلُ ﴿نُحۡيِ﴾ المُسنَدُ إلى ضميرِ العَظَمَةِ العائدِ إلى اللّٰه تعالى بالاسم ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ العائدِ إلى عموم الخلقِ بما دلَّت عليه (أل) التي للجنسِ أوْ للعهد كما تقدَّم، وفائدةُ المقابلةِ تعظيمُ شأنِ فعلِ إحياءِ المَوْتى، وأنَّه لا يقدرُ عليهِ إلّا اللّٰهِ.

فائدةُ العطفِ بالواوِ:

لا أحدَ يُحيطُ بكتابةِ ما قدَّم النّاسُ وآثارِهم سِوى اللهِ الأحدِ

لمّا كانتِ (الواو) في ﴿وَنَكۡتُبُ﴾ عاطفةً للجملة في قوله: (نَكتُبُ ما قَدَّمواْ) على الجملةِ السّابقة لها من قوله: ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ دلَّ العطفُ على أنَّ الجملةَ بتقدير: إنّا نحنُ نكتبُ ما قدَّموا وآثارَهم، ليكونَ القصرُ داخلًا على هذه الجملةِ كذلك، ليُفيدَ قصرَ كتابةِ ما قدَّموا وآثارِهم على اللّٰه تعالى، وهو من قصرِ الصِّفة على الموصوف كذلك؛ والمعنى: إنّا نحنُ وليسَ غيرَنا نكتبُ ما قدَّموا وآثارَهم، وليُفيدَ ضميرُ الفصلِ تأكيدَ المُسندِ إليه وتقريرَه.

ما قدّمَه الإنسانُ يكونُ مكتوبًا بدقّةٍ وأمانٍ

ولمّا كانت جملة: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ تُفيدُ المجازاةَ على الأعمال بطريقِ الكناية مع التهديدِ والوعيدِ لغيرِ المُنتفعين بالإنذار، وجاءت معطوفةً على قوله: ﴿نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، أفادَ أنَّ المعنى نُحَيي الموتى للجزاءِ؛ أيْ: فلذلك عُطِفَ: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 355.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾:

تشبيهُ إحاطةِ علمِ اللهِ بالأعمالِ وحفظِها بالكتابةِ في الضّبطِ والحصرِ

في قولِه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ عبّر عن إحاطةِ عِلْمِه تعالى بأعمالِهم وحفظِها بلفظ ﴿وَنَكۡتُبُ﴾ بطريق الاستعارة، فإنَّ الكتابةَ تُضبَطُ بها الأشياءُ(1)، وبيانُ الاستعارة أنّه شبَّه حفظَ الأعمالِ الّتي قدّموها وآثارهم كبيرَها وصغيرَها بالكتابة في الضّبط والحَصْر والإحاطة والعلْم بها، ثمَّ حذفَ المُشبَّه وذَكَرَ المُشبَّه به بصيغةِ الفعلِ الدّالِّ على استمرارِ الكتابة؛ لتكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، ومع ذلك يحتملُ السّياقُ الحقيقةَ، وأنَّ اللّه تعالى يُسجِّلُ أعمالَهم عليهم في صحائفِهم التي يطّلعونَ عليها عندَ الجزاءِ يومَ القيامةِ، لتكونَ برهانًا على ما فعلوه، وحُجّةً على ما اقترفوه مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: 13 - 14].

بديعُ الإدماجِ في ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾:

بيانُ إدماجِ الإخبارِ عن كتابةِ أعمالِ الكافرين بالتّهديدِ والوعيدِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّه يُحيي المَوتى ليُجازيَهم على أعمالِهم عطفَ عليه قولَه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾؛ ليفيدَ أنَّه تعالى يُحصي لهم أعمالَهم، مِن خَيرٍ وشرٍّ قدَّموهُما في الدُّنيا ليُجازيَهم عليه، وجاءَ العطفُ على الإدماجِ لإنذارِ الكافرين وتهديدِهم، بأنَّهم مُحاسَبون على أعمالِهم وآثارِهم، ومُجازَون عليها(2).

دلالةُ الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾:

اللهُ تعالى يكتبُ كلَّ ما قدَّم الإنسانُ من باطلٍ أو حقٍّ، ممّا جلَّ أوْ دقَّ

لمّا كان الاسمُ الموصول ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ يدلُّ على العموم، أفادَ أنَّه تعالى يكتبُ كلَّ ما قدَّموا وكلَّ آثارِهم؛ أي: القليلَ والكثيرَ، والصَّغيرَ والكبيرَ، ويدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 52.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 355.

[الكهف: 49]، ويدُلُّ عليه أيضًا في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، وبينَ (أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ والموصول تساوُق في الدِّلالة على الكلّيَّةِ والشُّمول؛ فيكونُ كلُّ ميّت يُحييهِ اللّه تعالى فإنَّ عملَه مكتوبٌ له ومُسجَّلٌ عليه.

فائدةُ حذفِ العائدِ في قوله: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾:

حذفُ العائد على الاسمِ الموصول في قوله: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾؛ لتحقيقِ إفادة العمومِ الدّالِّ عليه بالاسم الموصول، والمعنى: ونكتب كلَّ ما قدَّموا من خيرٍ أوْ شرٍّ.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ﴾:

الوعدُ بالثّوابِ على الأعمالِ وآثارِها ممّا يُنتفَعُ به بعدَ المَماتِ

في قوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ إثباتُ الكتابةِ وما يلزمُ منها، ففيه كنايةٌ عن الوَعْدِ بالثَّوابِ على الأعمالِ الصّالحةِ، والثَّوابِ على الآثارِ الحسنة، وفيه كِنايةٌ أُخرى عن إحصاءِ جميع الأعمال، وعدَمِ إفلاتِ شَيءٍ مِنها أو إغفالِه.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

ذِكْرُ آثارِ الأعمالِ بمثابةِ المُقابلِ لما قدَّموا

ذُكِرَ في هذه الآية ﴿مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ ولم يُذكُرْ مُقابله بأنْ يُقال: (ما قدَّموا وما أخّروا)، في حين ذُكِرَ مقابل ما قُدِّمَ في قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: 13]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾ [الانفطار: 5]، وذهب الفخرُ الرّازيّ إلى أنَّ مقابل ﴿قَدَّمُواْ﴾ قد حُذِف للعلْم به، فيكونُ من الإيجاز، وتقديرُ الكلام: نكتبُ ما قَدَّموا وأَخَّروا، فاكْتَفَى بِذِكْرِ أَحدِهما كَما في قَوْلِه تَعالَى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النّحل: 81]؛ أيْ: والبَرْدَ[1]، ويمكنُ توجيهُ سببِ الحذف على قول الرّازيِّ إلى الاهتمام بما يُقدّمُه الإنسانُ في بدايةِ حياتِه وفي نشوةِ شَبابِه، فإنَّ ما يتأخّر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 258.

يكونُ على خُطى ما تقدَّم غالبًا، والظّاهر أنّه لا حذفَ في الآية، وبيانُهُ: أنَّه لمّا ذَكَرَ ﴿وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ وهي الأَعمالُ الحَسَنةُ أو السّيئةُ الّتي يُعمَلُ بها بعدَ موتِهم، كانَ ذِكْرُها بمثابةِ المُقابلِ لما قدَّموا، ليكونَ الكلامُ على وِزان قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: 13] وقوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾ [الانفطار: 5]؛ فإنَّ المعنى في الآيتَيْن: ما قُدِّمَ قبلَ الموت من عملٍ صالحٍ وسَيِّئٍ، وما أُخِّرَ بَعْدَ المَوْتِ مِنْ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ يُعمَلُ بها بعدَه(1).

سرُّ تأخيرِ الكِتابةِ على إحياءِ الموْتى:

لــو لــم يـكُــنْ بعثٌ بعدَ الموتِ لم يكُنْ لكتابةِ الأعمالِ أثَرٌ

كان الظّاهرُ أنْ تقدَّمَ الكتابةُ على الإحياءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ كتابةَ ما قدَّمَه الإنسان وما أخّره تكونُ قبلَ إحيائه يومَ القيامة؛ أيْ: لم يَقُلْ: (إنّا نكتُبُ ما قَدَّموا وآثارَهم ونُحييهم)؛ والسّرُّ في ذلكَ أنَّ الكتابةَ ليستْ مقصودةً بالذات، وإنَّما المقصودُ الأصليُّ هو الإحياء للجزاء، ولو لم يكُنْ إحياءٌ وإعادةٌ لم يكُن للكتابة أثرٌ، كما أنَّ الكتابةَ مُعظِّمةٌ لأمرِ الإحياءِ؛ لأنَّ الإحياءَ إنْ لم يكُنْ للحِسابِ لا يُعَظَّمُ، والكِتابةُ في نَفْسِها إنْ لم يَكُنْ إحياءٌ وإعادةٌ يومَ القيامةِ لا يبقَى لها أثَرٌ أصلًا لانتفاء المُجازاةِ على الأعمالِ؛ فالإحياءُ هو المُعتبَرُ، والكِتابةُ مُؤكِّدةٌ مُعظِّمةٌ لأمرِه؛ فلهذا قدَّم الإحياءَ، ولأنَّه لمّا قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ أفادَ على التّوجيهينِ العَظَمةَ والجَبَروتَ، والإحياءُ عَظيمٌ يختَصُّ باللّه، والكتابةُ دونَه؛ فقرَن بما يؤذنُ بالتّعظيم الأمرَ العَظيمَ وهو إحياءُ الموتى، وذكَرَ بعدَه ما يُعظِّمُ ذلك العظيمَ وهو الكتابة(2)، ويمكنُ القول: إنَّ تكذيبَ المُكذِّبينَ يقومُ على إنكارِ البَعْث أوَّلًا، وإنْ سلَّموهُ جدلًا فإنَّهم يرَوْنَ أنَّ إحياءَهم لا يعقبُهُ حسابٌ على الأعمال؛ لكونِها

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 24/ 61، والبغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 183.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 258، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 527.

غيرَ مُسجّلةٍ عليهم؛ فكانَ الردُّ عليهم على وفقِ اعتقادِهم وهو إثباتُ الإحياءِ بعدَ الموت، والحساب على الأعمالِ المسجَّلة عليهم في كتابٍ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، ويمكنُ أنْ يكونَ من قبيلِ (اللّفِّ والنَّشر غيرِ المرتّب)؛ إذ وصفَ المُنذَرين بأنَّهم اتّبعوا الذّكرَ المكتوبَ وهو القرآن، وخَشوا الرَّحمنَ بالغيب، فأعادَ الكلامَ على خشيتِهم المُتلبّسة بالغيب أنَّهم يَحيونَ بعدَ الموت، وباتّباعِهم الذّكرَ المكتوبَ فإنَّ أعمالَهم المقدَّمةَ وآثارَها تُكتبُ أيضًا وتُسجّلُ لهُم.

فائدةُ الواوِ في ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾:

لمّا كانتِ (الواو) للتّشريكِ في الحُكم، وكان (آثارَهُم) معطوفًا على الاسمِ الموصول ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾؛ كان المعنى: إنّا نحنُ نكتبُ آثارَهم.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾:

على العاقل ألّا يُبادِرَ إلى فعلٍ ولا قولٍ حتّى ينظُرَ في عواقِبِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ عدمَ الاكتفاء بكتابةِ ما يُقدّمُهُ الإنسانُ في حياتِهِ من أعمال؛ بل عطفَ على ذلك كتابةَ الآثارِ النّاجمة عن أعمالِه في قوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾، وآثارُ المَرْءِ هي التي تَبْقَى وتُذْكَرُ بَعْدَ موتِ الإنْسانِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ يُجازَى عَلَيْها، مِن أَثَرٍ حسَنٍ كَعِلْمٍ عَلَّمه، أَوْ كِتابٍ صَنّفه، أَوْ وقف أوقفَه، أَوْ بِناءٍ بَناه مِنْ مدرسةٍ أو مَشفى، أَوْ مجمّعٍ نافعٍ أَوْ مَسْجِد، أَوْ أثرٍ سَيِّئٍ كَوَظيفَةٍ وظَّفَها بعْضَ الظُّلّامِ عَلَى المُسْلِمينَ، وسَكَّةٍ أَحْدَثَها فيها ذهابُ المالِ العامّ، أَوْ أثرٍ سيّءٍ أَحدَثَهُ فيه صَدٌّ عَنْ ذِكْرِ اللَّه، ومنه تأسيسُ قوانينِ الظُّلم والعُدوان وترتيبُ مبادئ الشرِّ والفسادِ فيما بين العباد، وإشاعةُ الباطل، وعلى العموم كُلُّ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ أَوْ سيئة يُستَنُّ بها، ويدخلُ في الأثرِ الحسَنِ خُطى المشّائينَ إلى المساجدِ؛ فإنّها من جُملةِ الآثار[1].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 7، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 12، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 264، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 161.

وجـوبُ خشيةِ الـلـهِ وحـذرِ الحسابِ

وعبّر السّياق القرآنيُّ بلفظ: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمۡۚ﴾ دونَ أن يقول: (نكتبُ ما قدَّموا وما أخّروا)؛ للإشعارِ بأنَّ أعمالَهم يكون لها بقيَّة؛ أيْ: يكونُ لها تأثيرٌ يَبقى وعلامةٌ دالَّةٌ على الفعلِ وصاحبِه، وهو المناسبُ لتعقيبِه بالإحصاء في قوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

نكتةُ التّعبيرِ بالجمعِ مُضافًا:

ملمحُ تنبيهِ الإنسانِ إلى كثرةِ ما يَستتبعُ الأعمالَ

عبِّرَ بصيغة الجمع في قولِه: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡۚ﴾، للإشعارِ بكثرة الآثارِ الَّتي تبقى بعدَ موتِ الإنسانِ وهو لا يَدري، ففي التّعبير بصيغةِ الجمع تنبيهٌ له إلى كثرةِ ما يَستتبعُ الأعمالَ، وقد أُضيفَ الجمعُ إلى الضّمير العائدِ على ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ أيْ: (نكتب آثارَ الموتى) للتّنبيه على أنَّ الآثار تكونُ بعد هلاكِ الإنسان، وأنَّها باقيةٌ بعدَ موتِهم، ففيه تحذيرٌ من العمَل السَّيِّئ عمومًا، ولا سّيما ممّا له آثارٌ سيّئةٌ، والإضافةُ على معنى (اللّام)، لتفيدَ الاختصاصَ؛ بمعنى الآثارِ الَّتي تُنسَبُ لهم، واختصّوا بها بسببِ أعمالِهم التي قدَّموها.

علّةُ إضافةِ الآثارِ إلى الذّواتِ دونَ العملِ:

مجازاةُ النّاسِ يومَ القيامةِ على أعمالِهم وعلى آثارِ أعمالِهم

لم يَقُلْ: (ونكتبُ ما قدّموا وآثارَه) ليكون المعنى: نكتبُ آثارَ ما قدَّموا؛ بمعنى: آثارِ أعمالِهم؛ بل قال: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡۚ﴾؛ فأضافَ (الآثار) إلى الضّمير (هُم)؛ للإشعارِ بأنَّ آثارَ أعمالِهم تُنسَبُ إليهم لا إلى الأعمالِ، وأنَّهم يُجازَونَ عليها كما يُجازَونَ على أعمالِهم، فتكونُ مجازاةُ النّاس على أمريْن؛ على أعمالِهم وعلى آثارِ أعمالِهم، ولو قيل: (ونكتبُ ما قدّموا وآثارَه)، لفُهم منه أنَّه إذا جوزي على العملِ اكتُفي به عن المجازاة على أثَرِه؛ لأنَّ الأثر صارَ تابعًا العملَ ومنسوبًا إليه، والآيةُ تصديقٌ لحديث رسولِ اللّه ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسْلام سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُها، وأَجْرُ مَنْ عَملَ بها بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَيْءٌ، ومَنْ سَنَّ في الإسْلام

سُنَّةً سَيِّئَةً، كانَ عَلَيْهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِها مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ ينقُصَ مِن أوزارِهم شيءٌ»[1]، ويحتملُ أنّ (الآثار) نُسبت إليهم لكونِها آثارًا مُستقلّةً عن أعمالِهم وآثارِ أعمالِهم، والمُرادُ بها أماكنُ طاعاتِهم أوْ مَعاصيهم، ومحالُّ سجودِهم أوْ نفورِهم، ومواطنُ جهادِهم أوْ فرارِهم...الخ، فيأتي الأثرُ شاهدًا لهم أوْ عليهم.

فائدةُ العمومِ في قولِه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾:

يُحيطُ اللهُ تعالى بـكـلِّ أَعْـمـالِ النّاسِ صغيرِها وكبيرِها

لمّا كان لفظ (كُلّ) يفيدُ العمومَ على سبيلِ الحصرِ والإحاطةِ، وجاءَ اللَّفظُ مُضافًا إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ في قولِه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾؛ أفاد أنَّ المعنى: وكُلَّ شيءٍ من الأشياءِ كائنًا مّا كانَ، وليسَ من الألفاظ والتّراكيب ما يكونُ أعمَّ من هذا التّركيب الإضافيِّ، فيَشملُ اللَّفظُ كلَّ ما يُطلَقُ عليه لفظُ شيءٍ من الموجودات من لفظٍ، أوْ فعلٍ، أوْ ذاتٍ، أوْ غيرِها، ويدخل فيه دخولًا أوّليًّا كلُّ شيءٍ مِنْ أَعْمالِ النّاسِ كَما دَلَّ عَلَيْهِ السّياقُ، فَأفادَ ذِكْرُ ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ الإحاطةَ، والعمومَ لِما قَدَّموا وآثارَهُمْ مِنْ كَبيرَةٍ وصَغيرَةٍ، وفي التّعبير بالعموم المُستغرِق لجميع الأشياء إشارةٌ إلى إحصاءِ علْم اللهِ تعالى وتعلّقَه بجميع الحوادث، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المُراد بـ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ أعمالُ النّاس، وأجاز أَنْ يَكونَ المُرادُ بـ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ كُلَّ ما يوجَدُ مِنَ الذَّواتِ والأَعْمالِ، على أنْ يكون المُرادُ بالإحْصاءِ إحْصاءَ عِلْمٍ؛ أيْ: تعلُّقَ العِلْم بِالمَعْلوماتِ عِنْدَ حُدوثِها، وبالتّوجيهِ الذي ذكرناهُ جَمَعْنا بينَ الأمريْنِ مِن غيرِ فصلٍ بينَهما[2].

التّوجيهُ النّحويُّ للنَّصبِ في ﴿وَكُلَّ﴾:

النّصبُ أقوى في ثبوتِ الإحصاءِ ووقوعِه على كلِّ شيء

لمّا جاء لفظ (كُلّ) في قوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ منصوبًا؛ دلَّ على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه المذكور؛ فيكون النَّصبُ

(1) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث: 1017.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 357.

على (الاشتغال)، وتقديرُ الكلام: (وأحصَينا كلَّ شيءٍ أحصَيناهُ في إمامٍ مُبين)، فيكونُ بتقدير تكريرِ الفعل؛ لتأكيدِ مَعنى الإسنادِ وتقريرِه بمجيئِه مُكرّرًا، فكان هذا الأسلوبُ أقوى في ثبوتِ الإحصاءِ ووقوعِه على كلِّ شيء.

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾:

مَنْ كَتَبَ شَيْئًا مُفَرَّقًا يَحْتاجُ إِلَى جَمْعِ عَدَدِهِ

عبّر النَّظْمُ الكريمُ بلفظِ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ دونَ (كتبناه)؛ لأنَّ لفظَ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أنسبُ في المَقام كما تقدَّم، كما أنّه أبلغُ من (كتبناهُ)؛ لأنَّ مَنْ كَتَبَ شَيْئًا مُفَرَّقًا يَحْتاجُ إِلَى جَمْعِ عَدَدِهِ، فَقالَ: هوَ مُحْصًى فيهِ[1]، بقي أنَّ إسنادَ الإحصاءِ إلى ضميرِ العَظَمَة يدلُّ على أنَّ هذا الإحصاءَ دقيقٌ وكاملٌ؛ لأنَّ العظيمَ لا يكونُ إحصاؤُه مُشابِهًا لأيِّ إحصاءٍ.

دلالةُ الضَّمير في ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾:

لمّا عادَ الضّمير في قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ على لفظ (كُلَّ) أفادَ زيادةَ تأكيدٍ للنّصِّ على المُحصَى الّذي هو أعمُّ العامِّ.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾:

الإحصاءُ يَستلزِمُ العدَّ والإحاطةَ ويقتضي الضّبطَ والحفظَ

الإحصاءُ حَقيقتُه العدُّ والحسابُ، ولمّا كان العدُّ يستلزمُ الإحاطةَ بالمعدودِ جاء قولُه: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ كنايةً عن الإحاطةِ والضَّبطِ والحفظِ، وعدَم تَخلُّفِ شَيءٍ عن الذِّكرِ والتَّعيين؛ لأنَّ العدَّ يكون لأجلِ البيانِ والحفظ، والتّعبير به هو المناسبُ للتّركيب الدالِّ على العموم، فلكلِّ كلمةٍ معَ صاحبتِها مقامٌ، والإحصاءُ يَستلزِمُ ألّا يَفوتَ واحدٌ من المحسوباتِ عدًّا وإحاطةً وضبطًا وحفظًا[2].

دلالةُ لفظ ﴿إِمَامٍ﴾:

الكتابُ إمامٌ يُعمَلُ به ولا يُخالَف، ويُتَّبع ولا يُناكَف

سُمّيَ الكتابُ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ إمامًا؛ لأنَّه يُقصَدُ ويُعمَلُ به، ويُتَّبع ولا يخالَف، فهو المقتدى الذي به

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 259، وابن عادل، اللّباب: 16/ 180.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 356.

الحجَّة، فيُؤخذُ بما فيه ويُعتمَدُ عليه، والملائكةُ يَأتمّون به، ويَتَّبعونَه، فَما كُتِبَ فيهِ مِنْ أَجَلٍ ورِزْقٍ وإحْياءٍ وإماتَةٍ اتَّبَعوهُ[1]، وذهبَ كثيرٌ من المُفسّرين إلى أنَّ المُراد بالإمام اللّوحُ المحفوظ، فهو الكتابُ الّذي أحصى اللّه تعالى فيه كلَّ شيءٍ[2]، ونلحظُ استعارةً تصريحيّةً في تسميةِ الكتابِ إمامًا؛ إذ شبَّه الكتابَ بالإمام بجامعِ الاقتداء، فكما يُقتدى بالإمام في حركاتِهِ وأعمالِه فإنَّ هذا الكتابَ الذي أحصى كلَّ شيءٍ يُقتدى به ولا يُخالَف، سواءٌ كان العملُ خيرًا أوْ شرًّا، وإنَّما جُعِل الإمامُ إمامًا ليؤتَمَّ به، وبينَ الكتابِ والمُنذرِ مناسبةٌ خفيّةٌ؛ إذِ المُصمِّمونَ على الكُفر لم يتَّبِعوا الإمامَ والرَّسول ﷺ والَّذين آمنوا اتَّبعوا الذِّكرَ، وأرادَ اللّه بيانَ أنَّ الَّذين اتَّبعوا الذِّكْرَ همُ الموفَّقون، وأوضحَ ذلك ورمزَ إليه باتّباعِ المُحصَى الَّذي هو إمامٌ لا يُخالَفُ عندَ الحساب والجزاء.

نكتةُ التّقييدِ بالصّفةِ ﴿مُّبِينٍ﴾:

الإمــامُ المُبـينُ حُـجّـةٌ على المُقتدين

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ قيّد لفظَ (الإمام) بوصف ﴿مُّبِينٍ﴾، على صيغةِ اسم الفاعل؛ ليفيد أنَّه بيّنٌ في نفسِه، ويَبين عن حقيقة جميعِ ما أثبتَ فيه، وفي الوصفِ إيذانٌ بأنَّ أثرَ مكتوبِه لا يَندرِسُ، فهو المُظهِر للأمور، والفارقُ بين أحوال الخلق في الدّنيا والآخرة[3]، ونجدُ أنَّ النّعتَ دالٌّ على ترشيحِ الاستعارة؛ إذِ الإمامُ المُقتدَى به في الصَّلاة إذا كان مُبينًا في نُطقِهِ وأوامرِه يكونُ حُجّةً على المُقتدينَ به، فلا يستطيعونَ مُخالفتَه، وكذلك الإمامُ للرَّعيَّة إذا كان واضحًا في كلامه وأوامره يكونُ أدلّ على مُراده، فهذا الكتابُ كالإمامِ المُبينِ المُفصِح بكلِّ صدقٍ عن أعمالِ الخَلائق، الواضحِ كلَّ الوضوح في بيانِها وذِكْرِها.

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 448، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 259.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 8، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التَّفسير: 12/ 341، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 259، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 264.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 499.

دلالةُ العطفِ بالواو في ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾:

إيــذانُ السّياق بقدرةِ الله تعالى على ما لا يُمكن لأحدٍ غيره

جاءَ قولُه: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ معطوفًا على ما قبلَهُ؛ ليكونَ تأكيدًا لمعنى قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ وبيانًا لمُجمله؛ على سبيل التّرقّي في المعنى، فإنَّه لمّا كانَ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ربّما أوهمَ إحياءَ البعضِ وتركَ آخرينَ، والاقتصارَ على كتابةِ ما ذُكِر من أحوالِ الآدميّين أوِ الحاجةِ إلى الكتابة، دلَّ بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ على قدرتِه على ما لا تُمكِنُ القدرة عليه لأحدٍ غيرِه في أقلِّ قليلٍ ممّا ذكر، فكيف بما فوقَه؛ ولأنَّ مَن يكتبُ شيئًا في أوراقٍ ويَرميها قد لا يجدُها، فكأنَّه لم يكتبْ، فقال: نكتُبُ ونَحفَظُ ذلكَ في إمامٍ مُبين، وهو كقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: 52]، أَوْ يكونُ قولُه تعميمًا بعد التخصيص، فتفيدُ التأكيد كذلك مع زيادةٍ في المعنى، فإنَّه تعالى لمّا ذَكَرَ أنَّه يكتبُ ما قدَّموا وآثارهم، بيَّن أنَّ الكتابةَ ليست مُقتصرةً على ما قدَّموا وآثارِهم؛ بل كلُّ شيءٍ مُحْصًى في إمامٍ مبينٍ، وهذا يُفيد أنَّ شيئًا من الأفعالِ والأقوالِ لا يَعزُبُ عن علمِ اللّه ولا يفوته، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: 52 - 53]؛ يعني ليسَ ما في الزُّبُر مُنحصرًا فيما فعلوهُ؛ بل كلُّ شيءٍ مكتوبٌ، ويحتملُ أن تكونَ الجملةُ المعطوفةُ لبيان أنَّ ما قدَّموا وآثارهم أمرٌ مكتوبٌ عليهم لا يُبدَّل وأنّه يُتَّبَعُ، فيكون العطفُ على سبيل التّرقّي كذلك، فإنَّ القلَمَ جَفَّ بما هو كائن، فلمّا قال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ بيّنَ أنَّ قبل ذلك كتابةً أخرى، فإنَّ اللّه تعالى كتبَ عليهم أنَّهم سَيَفعلون كذا وكذا، ثمَّ إذا فَعَلوا كُتِب عليهم أنَّهم فعلوه، وهذه الأوجهُ لا تتقاطعُ، فيكون عطفُ جملةِ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ دونَ فَصْلِها مُراعًى فيه

ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ زيادَةِ الفائِدَةِ[1]، ويمكنُ أيضًا أنْ يكونَ العطفُ دالًّا على أنّ مُنكري إحياءِ الموتى كيفَ يُحييهم اللّه تعالى وقد تفرّقتْ أجزاؤُهم في التراب كالذرِّ المُتناثِر الَّذي صارَ كدقيقٍ في يوم عاصفٍ لا يمكنُ جمعُه وتركيبُه وترتيبُه، فبيَّنَ أنَّ إحياءَ الموتى أمرٌ هيّنٌ؛ إذ تُجمَعُ الأجزاء المُتناثرةُ جَمْعًا هيِّنًا؛ لأنَّ كلَّ ذرّةٍ قد أُحصيَتْ فلا تغيبُ عن عِلْمِه العظيم، بقي أنَّ الآيةَ بتمامها بعدَ الكلام عن موقفِ الفريقيْن منَ الرَّسول ﷺ تُجمِلُ حالَ الفريقيْن؛ فالكفارُ المُنكرونَ للرِّسالة يكونُ الكلامُ شديدَ التّحذيرِ لهم بأنَّ اللّه تعالى من شأنِه إحياؤُكم وتسجيلُ أعمالِكم التي أحصاها عليكم في كتابٍ واضحٍ، فلا سبيلَ للشكِّ في ذلك لكونِه هيِّنًا عليه، والمُؤمنونَ الَّذين اتَّبعوا الذِّكْرَ وتحقّقتْ لهم الخشيةُ يكونُ الكلامُ وعدًا لهم بإحيائِهم وكتابةِ أعمالِهم الطيّبة المُسجَّلة، فيُثابون عليها من دونِ أيِّ نُقصانٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحصاءُ والعَدُّ والحِفظُ والضَّبطُ:

الإحـــصـــاءُ يشملُ ما يقبلُ الـعَـدَّ وغـيره، ويُفيدُ الإحاطةَ بالمعدودِ

(الإحصاء) هو جمعُ الأشياءِ على سبيل الإحاطةِ بها مع حفظِها والعلْم بها في موضعٍ واحدٍ، فيدخلُ في الإحصاء ما يقبلُ العدَّ؛ أي: المعدودُ وغيرُه، كما أنَّ في الإحصاءِ إحاطةً بالمعدود وصفاتِه وأحوالِه وجميعِ تفصيلاتِه، فهو أعمُّ من (العدِّ) الَّذي هو ضمُّ المعدودِ بعضِه إلى بعضٍ، ولهذا جمعَ اللّه بين (العدِّ والإحصاء) على طريق العطفِ الَّذي يقتضي المُغايرةَ في قوله: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾ [مريم: 94]، وللفرق بينهما ذكَرَ اللّه تعالى الإحصاءَ دون العدِّ في قولِه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النّحل: 18]؛ لأنَّ إحصاءَ النّعمة بالإحاطة بعددِها وصفاتِها وأحوالِها ودقائِقها وجميعِ خصائِصها

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 16/ 180، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 102، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 340، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 357.

ممّا لا يقدرُ عليه مخلوق، وأمّا (الحفظ) فهو نقيضُ الإضاعةِ، ولا يدلُّ على الإحاطة، وأمّا (الضبط) فإنَّ ضبطَ الشَّيء شدَّةُ الحفظِ له؛ لئلّا يتفلَّتَ منه شيء، ولهذا لا يوصَفُ اللّه تعالى به، ولا يُستعملُ اللَّفظ معه سبحانه؛ لأنَّه تعالى مُنزَّه عن إفلاتِ شيءٍ منه أوَ أنْ يتخوّف إفلاتَه، ويُستعمَلُ الضّبط في الحساب؛ فيقالُ: فلانٌ يَضبِطُ الحساب، إذا كان يتحفَّظُ فيه[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 26، 207، والسّامرائيّ، أسئلة بيانيّة: 2/ 81.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾

[يس: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ضربُ الأمثالِ مِن أساليبِ القرآنِ في التّربية

لمّا دلَّ اللّه سبحانَه على ما له منَ القُدرةِ الكاملةِ بالأفعالِ الهائلةِ من كلٍّ منَ الإماتةِ والإحياءِ الحِسّيَّين والمعنويَّين إبداءً وإعادةً، وكان ضربُ الأمثالِ بالمُشاهَدات ألصقَ شيءٍ بالبال، وأقطعَ للمِراء والجدالِ، وأكشفَ لما يُراد منَ الأحوالِ: قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾: أَصلُ (ضرب) إيقاعُ شَيْءٍ على شَيءٍ، وإصابَتُهُ بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَهُ بالعَصا، يَضْرِبُهُ، ضَرْبًا، أيْ: أَوْقَعَها عليه[2]، وضَرْبُ الأَمْثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ، وتَمْثيلُه بِهِ، يُقال: ضَرَبَ اللّه مَثَلًا، أَي: وصَفَ وبَيَّنَ، وقد يكون مأخوذًا من ضَرْبِ الدِّرْهَم؛ صَوْغِه لإيقاع المَطارِق، سُمّيَ بِهِ؛ لتَأْثيرِه في النُّفوسِ، أو يكونُ مأْخوذًا منَ الضَّريبِ، أَي: المَثيلِ، تَقولُ: هو ضَريبُه، وهُما مِنْ ضَريبٍ واحِدٍ؛ لأَنَّه يَجْعَلُ الأَوَّلَ مِثْلَ الثّاني[3]، والضَّربُ في الآية بمعنى الجَعْلِ، أي: (اجعلْ أصحابَ القريةِ والمُرسلينَ إليهم شَبَهًا لأهلِ مكَّةَ وإرسالَكَ إليهم)[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تنويعُ السُّبلِ القرآنيّةِ في دعوةِ النّاسِ إلى الإيمانِ الصَّحيحِ

يأمُرُ الحقُّ سبحانَه رسولَه ﷺ أنْ يَقرأَ على النّاسِ قصَّةَ أصحابِ القريةِ ليَعتَبِروا، ويتَّعِظوا، فيقولُ: واجْعَلْ أصحابَ القرية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 103.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ضرب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 358.

مثلًا لمشركي قومِك، إذ أصَرّوا على تكذيب الرُّسل الَّذين أُرسلوا إليهم، كما أصرَّ مشركو قومِك على تكذيبك، عنادًا واستكبارًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

مِن حقِّ العاصين الإنذارُ؛ كما أنَّ مِن حقِّ الطائعين التّبشيرَ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ بالوصل بالواو، عطفًا على فعل الأمرِ في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ [يس: 11]؛ لاشتراكِهما في الجهةِ الجامعةِ؛ أي: فبشّر مَنِ اتَّبع الذِّكْرَ، واضربْ لقومك المُكذِّبين مثَلَ أصحاب القرية؛ فإنَّ ضربَ المثل؛ لأجل تحذيرِ القوم وتهديدِهم، فيناسبُ العطفَ على الأمر بتبشير المؤمنين؛ لاجتماعِهما في الضِّد، فيَشتركان في الجامعِ الوهْميِّ، فهو مِن قَبيل عطْفِ الكفر على الإيمان.

بلاغةُ المَجازِ:

إنّما يُصوِّرُ المجازُ حقيقةَ المَثَلِ القرآنيِّ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ على المجاز؛ باستعمال: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ في معنى الجعْل، والمعنى: (اجعل لهم مثلًا)، وهو مأخوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبَ خَيْمَةً، وضَرَبَ بَيْتًا[2]، وجوّز الزّجّاجُ والزّمخشريُّ وغيرُهما أن يكون الفعل (ضرب) المستعملُ في ضرْب المَثَل مُشتَقًّا مِنَ الضَّرْبِ بِمَعْنَى المُماثِلِ، ومنه قولُهم: هم ضُرَبائي، وقولُهم: هو ضَرْبُه وضَريبه، أي: مِثْلُه؛ لِأَنَّ الضَّرْبَ اسْمٌ لِلنَّوْعِ، ويقال: هذا مِن ضَرْبِ هذا، أي: مِن أمثاله ونوعِه، والمعنى: (اجعل حالَ قومك وحال أصحاب القرية مِن ضَرْبٍ واحد)، أي من نوعٍ واحدٍ لتَماثُلِهم في الأفعال والأحوال[3]، ويجوز أن يكون الضَّرْبُ مستعارًا للذِّكْرِ، وعلى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 568، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 150، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 693.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 358.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 281، والزمخشري، الكشاف: 4/ 7، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 264.

كُلٌّ فهذا المجازُ بوجوهِهِ المعنويَّةِ الثّلاثةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ في الفعل: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾، وفائدةُ الاستعارةِ على هذه الأوجُه: أنَّ ضَرْبَ المَثَلِ المذكورِ مِن شأنِه أن يؤثِّر فيهم، وأن يؤدّي المقصودَ منه على أبلغِ وجهٍ وأكملِه وأتمِّه، فعليهم أن يُقبِلوا على تلقّيه بوَعْيٍ.

معنَى اللّامِ في قوله: ﴿لَهُم﴾:

مِـن الحِـكْـمـةِ تقريبُ المتلقّي؛ لـيُـقـبِـل على الـخـطـاب بإنصاتٍ وتَمَعُّنٍ

اللّام في قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ للاختصاص، فيكونُ المعنى: واضرب لأجلِ قومِك مثلًا أصحابَ القرية، ففيه نوعٌ مِنَ الاستعطاف للقوم؛ لعلَّهم يؤمنون، أي: ليكون ضربُ المثل بشارةً لهم؛ بما يُرجَى لهم عند إقبالهم، ونذارةً لهم؛ لِما يُخشى عليهم؛ عند إعراضهم وإدبارهم.

دلالةُ عوْدِ الضّميرِ في قوله ﴿لَهُم﴾:

تـشـابـهـت قلوبُهم واتّحدت فِـعـالُـهـم في تكذيبهم الرُّسلَ

يعودُ الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُم﴾ على ﴿قَوۡمًا﴾ [يس: 6] في قوله ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس: 6]؛ أي بما اتّصفوا به من كونهم غافلين، ومن كونهم قد حقَّ القولُ على أكثرهم، ومن عدم جدوى إنذارِهم، ويَلزمُ من هذا كلِّه أنَّهم كانوا مكذِّبين لرسول اللّه ﷺ في رسالتِه وفي نزول القرآن عليه، ولهذا جاءت قصّةُ أصحابِ القرية في بيان تكذيبِ القوم للرُّسل وما تبع ذلك التّكذيبَ، فالمعنى: واضرب يا رسول اللّه لقومِك المكذّبين مثلًا يُناسِبُ حالَهُم.

سِرُّ ذِكْرِ ضربِ المَثَل بـ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

تحذيرُ الكافرين مِن أن يقع بهم ما وقـعَ للقوم السّابقين

يَحتملُ أن يكون طلبُ ضربِ المثل للقوم في قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ لكون خبرِ أصحاب القرية قد بلغَهم، إلّا أنَّهم قد نسوا ذلك، وغفلوا عنه، فأمره بتذكيرهم؛ ليَحذروا عن مثل صنيعهم، وسوءِ معاملتِهم رسولَهم، ويَحتملُ أنّهم لم يكن بلغهم خبرُ أصحاب القرية، وما نزل بهم؛ بسوء معاملتِهم الرّسولَ، فأمره أن يُعلِم قومَه ذلك، ويُبيّنَ لهم، فيسألون عن ذلك أهلَ الكتاب، فيُخبرونهم بما كان في كتبهم؛

فيعرفون صدْقَ رسولِ الله فيما يُخبرهم، فيكونون على حذرٍ عن مثل صنيعِهم ومعاملتِهم الرُّسلَ[1].

المقصودُ من ضربِ المَثَل في الآية:

غرابةُ قصّةِ أصحابِ القرية، بحيث يُتمثَّل بها في الكلامِ

ضَرْبُ المَثَلِ إمّا أن يُستعملَ في تطبيقِ حالةٍ غريبةٍ بحالةٍ أُخرى مثلِها؛ كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ﴾ [التحريم: 10]، فالمَعْنى على هذا الوجه: اجعلْ أصحابَ القريةِ مثلًا لهؤلاء في الغُلوِّ في الكفر، والإصرارِ على تكذيبِ الرُّسلِ، أي: طبِّق حالَهم بحالِهم، وإمّا أن يُستعملَ في ذِكْرِ حالةٍ غريبةٍ وبيانِها للنّاس من غير قصدٍ إلى تطبيقِها - بنظيرةٍ لها، والمعنى على هذا الوجه: اذكُر وبيِّن لهم قصَّةً هي في غرابة أحوالِها وعجيبِ أمرِها كالمَثَل الذي يُتمثَّل به، ويجري بين النّاس[2]، ويمكنُ الجمعُ بين المعنَيَين؛ لبيان المقصود مِن ضرْب المثلِ في هذه القصّة، فالقصّةُ حالةٌ غريبةٌ عجيبةٌ؛ وهي ممّا يُتمثَّلُ به في الكلام، ويكفي ورودُها في القرآن لأن تكون ممّا يُتمثّلُ به.

سببُ تقديمِ: ﴿لَهُم﴾ على ﴿مَّثَلًا﴾:

ضــربُ المَثَلِ للتّحذير من العصيانِ ولرجاء الإيمان

قُدِّم الجارُّ والمجرور: ﴿لَهُم﴾ على المفعولِ في قَوْلِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾؛ للاهتمام والعناية بالمُقدَّم، وهم أهلُ مكّة الذين يُضرب لهم المَثَلُ؛ لحاجتِهم إليه؛ تحذيرًا لهم، ورجاءً لإيمانِهم بالله ورسولِه ﷺ، وهذا على وجه كوْنِ ﴿لَهُم﴾ مُتعلّقًا بـ﴿مَّثَلًا﴾.

تَنوُّعُ المعنى باختلاف تعلُّقِ الجارّ والمجرور ﴿لَهُم﴾:

تنوّعُ تعلُّقِ الجارّ والمجرور يوسّعُ المعنى ويثريه

يحتملُ أن يكون الجارّ والمجرور: ﴿لَهُم﴾ متعلِّقًا بالفعل: ﴿وَٱضْرِبْ﴾، فيكون المعنى: اضرب مثلًا لأجلِهم؛ كي ينتفعوا ويعتبروا، والامتنانُ على هذا الوجه أظهرُ، ويحتملُ أن يكون صفةً لـ﴿مَّثَلًا﴾؛ فلمّا قُدّم

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 509.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 161.

الوصفُ على الموصوف صار حالًا، والمعنى: واضرب مثلًا حالَ كوْنِ المثلِ شبيهًا لهم وألصَقَ بحالِهم[1]، والتّرهيبُ عليه أوضحُ.

فائدةُ تنكيرِ المثَل:

نُكّرَ لفظُ: ﴿مَّثَلًا﴾؛ للإيذانِ بتعظيمِه وتفخيمِه، فهو جديرٌ بأن يسمعه المخاطَبون، ويُصغوا إليه، لِما فيه مِنَ العِبَرِ والعِظات.

نكتةُ التّعبيرِ بالمثَل:

قِصّةُ أصحاب القرية عجيبة في معانيها وإشاراتها

لمّا كان المثَلُ يُطلق على ما يكون عجيبًا مِن خبرٍ أو قصَّةٍ؛ بحيث يُتمثّل به في مجاري الكلام، ولمّا كان الأصلُ في المثَلِ أن يكون جامعًا للمعاني، وأن يكون برهانُه ساطعًا واضحًا، وكان مثَلُ أصحاب القرية مشتملًا على التّوحيد، والرّسالة، واليوم الآخر: عُبّر بالمثَلِ في قولِه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾؛ ليكون المعنى: (واضرب لهم شَبَهًا عجيبًا يمتثِلونه في أمرك وأمرهم)؛ ليُفيد أنَّ هذه القصّةَ عجيبةٌ في معانيها ودلالاتِها[2].

دلالةُ إضافةِ الأصحابِ إلى ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

إنّما يَظهرُ الباطلُ بتآزُرِ أفرادِه

أفاد إضافةُ (الأصحاب) إلى ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: قوّةَ هؤلاء القوم، وكثرتَهُم، واجتماعَ كلمتهم، وتمسّكَهُم بقريتِهم؛ لنسبتِهم إليها، وهذا يعني أنّ الرُّسلَ الذين جاؤوهم قد عانَوا منهم أشدَّ معاناةٍ، فالإضافةُ تمهيدٌ لحالهم مع المُرسَلين في الآيات اللّاحقة.

وهذه الإضافةُ على معنى اللّام؛ أي: واضرب لهم مثلًا الأصحابَ المنسوبين إلى القرية، ففيه إشعارٌ بشُهرة هذه القرية في وقتِها؛ بحيث كانوا يُعرفون بها.

نُكتةُ عدمِ تعيينِ القرية:

تعيينُ الأسماءِ والمواضعِ في القرآن مُقترِنٌ بالفائدة والعبرة

لمّا كان هدفُ القِصّةِ ضَربَ المَثَل: لم تُعَيَّنِ القَريةُ، ولم يُعَيَّنْ أولئك

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 358.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 103.

الأصحابُ في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾؛ لأنَّه ليس هذا محَلَّ عِبرةٍ، بلِ العِبرةُ في القِصَّةِ كلِّها؛ بما جرى بين الرّسل وأصحاب القرية[1].

التّوجيهُ النّحويُّ لقوله: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ بين المفعوليّة والبدليّة:

يتنوّعُ المعنى لِتنوُّعِ الموقعِ الإعرابيِّ لأجزاء الكلام

يحتملُ أن يكون الفعل ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ مُتَعَدّيًا إلى مفعولَين، فيكون ﴿مَّثَلًا﴾ مفعولًا أوّلًا، و﴿أَصۡحَٰبَ﴾ مفعولًا ثانيًا، بتضمين (اضرب) معنى (اجعل)، والتّقديرُ: (واجعل لهم مَثَلًا مثلَ أصحابِ القرية)، بتقدير مضافٍ، فحُذِفَ (مثلَ) وأقيم ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ مُقامَه في الإعراب.

أو يكون مِن تقديم المفعول الثّاني على الأوّل، فلا يحتاجُ إلى تقدير مضافٍ على قول الزّمخشري، والتّقديرُ: (واجعل أصحاب القرية مثلًا لهؤلاء في تصميمهم على الكفر، وإصرارِهم على تكذيبِ المرسلين)، وفائدةُ تقديمِ المفعول الثاني بيانُ أَهَمّيَّةِ المُمَثَّل به لهم؛ للاعتناء والإصغاء إلى ما هو شبيهٌ بحالتِهم، وليتَّصل بالمفعول الأوّل ما هو شرحُه وبيانُه، وليعود الضّميرُ إلى ما أضيف إليه المفعولُ الأوّل في قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ فيكونَ أنسبَ في النّظم وأَوْفقَ له[2]، والمعنى: واجعل يا رسول اللّه أصحابَ القرية التي هذه حالُها مثلًا لقومك، ليعتبروا، ويتّعظوا، فيؤمنوا، وفائدةُ تضمين (اضرب) معنى (جعل) هو الإشعارُ باعتمادِ هذا المَثَل، وكونِه أمرًا عجيبًا لا مِثال له؛ بسبب دلالةِ الفعل المُضمَّن (جعل) على الإيجاد من غير مِثالٍ سابقٍ.

ويحتملُ أن يكون الفعل: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ مُتَعَدّيًا إلى مفعولٍ واحدٍ؛ بتضمينِه معنى (اُذْكُر)، والتّقديرُ: واذكر لهم مَثَلًا مَثَلَ أصحابِ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 61.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 161.

القرية، أو معنى (صِفْ)، أي: وصِفْ لهم مَثَلًا مَثَلَ أصحابِ القرية، ثمّ حذفَ المضافَ، فيكون ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ بدلًا من ﴿مَّثَلًا﴾، وفي البدليَّة تشويقٌ وتشوُّفٌ إلى معرفةِ المُبدلِ؛ لفخامتِه وعظمتِه في سياقه.

توجيهُ تعلّقِ ظرفِ الزّمان: ﴿إِذۡ﴾:

(إذ) وما أُضيفت إليه مناطُ ضرْبِ المَثَل بأصحاب القرية

يَحتملُ أن يكون الظّرفُ: ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ بدلَ اشتمالٍ من: ﴿أَصۡحَٰبَ﴾؛ بوصف إضافتِه إلى القرية[1]، والمعنى: واضْرِب لهم وقْتَ مجيءِ المرسَلين، ومثِّل ذلك الوقتَ بوقتِ إنذاركَ يا رسول الله لقومِك[2]، ومناسبتُه: أنَّه لمّا كان المُمَثَّلُ به في الحقيقة إنّما هو أخبارُ القرية بأحوال أهلها؛ لأنَّها وجهُ الشّبهِ، وكانت أخبارها كثيرةً في أزمنةٍ مديدةٍ: عيّن المرادَ ببدلِ الاشتمال بـ: ﴿إِذۡ﴾، أي: في وقت مجيءِ المرسَلين إلى القرية[3].

ويَحتملُ أن يكون مَنصوبًا بـ: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾، والمعنى: اجعلِ الضَّربَ كأنّه حين مجيئِهم وواقعٌ فيه؛ والمرسَلون من قوم عيسى وهم أقربُ مُرْسَلٍ أُرْسل إلى قوم إلى زمان نبيِّنا مُحَمّد، أو أن يكون مُتعلِّقًا بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: (اذكر)، أي: واضرب لهم مثَلًا أصحابَ القرية، واذكر لهم ذلك إذ جاءها المرسَلون.

وعلى عموم الأوجُهِ فإنّ: ﴿إِذۡ﴾ وما أُضيفت له: مِن تمام مفهوم ضرْب المثل؛ فإنَّ المَثَل على الإجمال هو أصحابُ القرية وقت مجيء المرسَلين.

نُكتةُ التّعبير بـ: ﴿إِذۡ﴾:

تفخيمُ الوقتِ تفخيمٌ لِما يقع فيه مِنَ الأحوالِ والأفعال

لمّا كان ظرفُ الزّمان ﴿إِذۡ﴾ يأتي لِما عظُم شأنُه مِما هو في حيِّز ما يُضاف إليها، وكان حدثُ مجيءِ المرسلين عظيمًا في ذاته،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 103.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 7، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 264.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 104.

وبالنّسبة إلى المُرسَل إليهم: عُبّر بـ: ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ لتعظيم ضرْبِ هذا المَثَل، وتعظيم المَثَل نفسِه، وبيانِ عِظَم شأن مجيء المرسلين إلى القرية؛ لِما وقع فيه مِن وقائعَ وأحداثٍ، أي: فهو جديرٌ بالإصغاء إليه، والتّدبُّرِ فيه، والانتفاع منه؛ فإنَّ تفخيم الوقت تفخيمٌ لِما يقع فيه مِنَ الأحوال والأفعال.

نُكتةُ عوْدِ الضّميرِ على القرية في ﴿جَآءَهَا﴾:

مِـــن شـــأن الـرُّسُـل شمولُ اهـتـمـامِـهـم بالمُرْسَل إليهم

كان بالإمكان أن يعود الضّميرُ على أصحاب القرية فيقال: (إذ جاءهم المرسلون)؛ لأنَّ التّمثيل بأصحاب القرية، وليس بالقرية، لكن جاء النّظمُ القرآنيُّ في قول اللّه تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ بعوْد الضّمير على القرية مؤنَّثًا؛ والنّكتةُ فيه: التّنبيهُ على أنَّ مجيءَ المرسلين - لكونه مقترنًا بالآياتِ البيّنات - كأنَّ القرية بأهلِها كلِّهم تأثّروا بهم، أو ينبغي أن يتأثّروا بهم وبدعوتِهم، فلمّا رَدَّ أصحابُ القرية دعوةَ رُسلِهم: دلَّ على أنَّهم مطبوعون على الكفر، مُصمِّمون عليه، فلا ينفعُهم إنذارٌ ولا تحذيرٌ ولا وعيدٌ، فالعُدولُ عن (جاءهم) إلى ﴿جَآءَهَا﴾ أوفرُ فائدةً، لدلالته على أنَّ المرسلين بلغوا موضعَ سكنِ أصحاب القرية، ومقرَّ عزّهم، ومركزَ شوكتِهم، وموضعَ كبرائهم، وأنَّهم جاؤوا إلى القرية بمَن فيها؛ ليَدْعوا الجميعَ، وليس إلى قومٍ مخصوصينَ فيها[1].

دلالةُ اللّام في: ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

مِـــن شـــأنِ المُرسلين والدُّعاةِ أن يـقـومـوا بـواجـبـهـم حقَّ القيام

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾: للعهد، أي: الرُّسل الذين أرسلَهم اللّه تعالى، لمّا أُسند الفعلُ: (جاءَ) إلى الاسم المشتقّ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ أفاد أنَّ مجيئَهم إلى أهل القرية منوطٌ بوصْفهم مُرسَلين، أي: إنَّ الغايةَ مِن مجيئِهم تبليغُ الرّسالة، وإنذارُ القوم، وليس لأمرٍ آخرَ.

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 9، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 103، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 393.

إنّما الغرضُ ذِكْرُ الرّسالةِ وبيانُ حالِ المُرسَلين مع مَن أُرسلوا إليهم

نُكتةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالبناء للمفعول في: ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

عُبّر بصيغة المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ لمّا كان منصبًّا على غرضِ الرّسالة، وذِكْر المرسَلين وحالِهم مع مَن أُرْسِلوا إليهم: جُعل السّياقُ له، وتَوجُّهُ الكلامِ إليه، فليس المقصودُ هنا ذكرَ المُرْسِل؛ وإن كان معلومًا مِنَ السّياق.

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾ [يس: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليةُ النّبيِّ ﷺ من مقاصدِ القرآن

لمّا كان مِن أعظم مقاصدِ السّياقِ تسليةُ النّبيِّ ﷺ، لِتَوقُّف قومِه عنِ المبادرة إلى الإيمان به، مع دعائه بالكتاب الحكيم إلى صراطٍ مستقيم، وكان في المشاركة في المصائب أعظمُ تسليةٍ؛ أبدلَ من قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ تفصيلًا لذلك المجيء، وبيانًا له؛ فقال: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾: (عزّ) أصلٌ يدلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما مِن غلبةٍ وقَهْرٍ، قالَ الفرّاءُ: يُقالُ: عَزَزْتُ عليه، فأَنا أَعزُّ عِزًّا وعَزازَةً، وأَعزَزْتُه: قوَّيتُه، وعَزَّزْتُه أَيْضًا[2]، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسان من أن يُغلَب، مِن قولهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبةٌ، وتَعَزَّزَ اللّحمُ: اشتدّ وعَزَّ، كأنّه حصل في عَزازٍ يَصعبُ الوصولُ إليه[3]، والتَّعزيزُ في قوله تعالى ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ مُرادٌ به: التَّقويَةُ والنُّصرةُ مع التَّعظيم[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تجديدُ الدَّعوةِ بزيادةِ ثالثٍ، لإحقاقِ الحقّ وإبطال الباطل

أخبر اللّه تعالى أنَّه حين أرسل إليهم رسولَين بادروا إلى تكذيبهما في الرّسالة، فأيّدهما اللّه وقوّاهما برسول ثالث، فقالوا لأهل تلك القرية: إنّا مرسَلون إليكم مِن ربِّكم الذي خلقكم لِكَيْ تعبدوه وحده لا شريك له، وتتركوا عبادةَ الأصنام[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 104 - 105.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عز).

(3) الراغب، المفردات: (عز).

(4) المراغي، تفسير المراغي: 6/ 72.

(5) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 151.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

مجيءُ الكلامِ على البدلِ للاعتناءِ بالكلامِ وللتّنبيهِ إلى الإصغاءِ إليه

جاء قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ بطريق الفصل، لكمالِ الاتّصال؛ لأنَّ جملة ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ بدلُ بعضٍ من كلٍّ، أي مِن قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، ليظهرَ بمجموع البدل والمُبدلِ منه مزيد اعتناءٍ بشأنِ الكلام، والمقامُ يقتضي اعتناءً بشأن الإخبار عن حال المرسَلين مع أصحاب القرية، وتفصيلِ أخبارِهم، لغرابةِ القصَّة، ومجيءُ البدل أوفَى بتأدية المراد، فكأنَّه أجْملَ في قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، ثمَّ فصّل في قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾، ولا يأتي مثلُ هذا الأسلوب إلّا فيما عظُم أمرُه، وجلَّ بيانُه؛ لشدِّ السّامعين إلى الإصغاء إليه، فرُبَّما لم يتنبَّهِ السّامعُ إلى الجملة الأولى؛ أي المُبدلِ منه، فيأتي البدل بيانًا إيضاحًا لِما يكون قد فات السّامعَ.

نُكتةُ تَكرارِ لفظِ ﴿إِذۡ﴾:

تعظيمُ الوقتِ لتعظيمِ الحدثِ الواقعِ فيه

جاء ظرفُ الزّمان ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ﴾ بدلًا من ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ بَدَلَ مُفَصَّلٍ من مُجمَلٍ وهو يدخلُ في نطاق البدلِ المطابقِ أو بدلِ الكلّ منَ الكلّ، كأنّ اللّه قال: (اضرب لهم مثلًا إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين).

أو يكون ﴿إِذۡ﴾ ظَرْفًا والفعلُ الواقِعُ فيه ﴿جَآءَهَا﴾ أي: (جاءَها المُرسَلون حين أرسلناهم إليهم)، أي لم يكن مجيئُهم من تلقاءِ أنفسهم، وإنَّما جاءوهم حَيْثُ أُمِروا، وهذا فيه لَطيفَةٌ على القول بأنّ الرُّسُلَ كانوا مَبعوثينَ من جهة عيسى عليه السلام إلى أنْطاكيَّة، وهي كأنّ اللّه تعالى قال: إرسالُ عيسى عليه السلام هو إرسالُنا، ورَسولُ رَسولِ اللّهِ بإذنِ اللّه رَسولُ اللّه، فَلا يَقَعُ لَكَ يا مُحَمَّدُ أنَّ أولئك كانوا رَسولَ الرَّسولِ، وأنتَ رَسولُ اللّهِ، فَإنَّ تَكذيبَهم كتكذيبِك، فتَتِمُّ التَّسْليَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 260.

وعلى كُلٍّ؛ فقد جاء تَكرارُ أداة الظّرف ﴿إِذۡ﴾ في كلٍّ من قوله: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ وقوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ﴾ للإشادة بأهمّية هذا الزّمن لاشتماله على حدثٍ عظيمٍ.

فائدةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظمة:

مِن شأنِ الرّسولِ أنْ لا يُقصِّر في أداءِ رسالته

أُسنِد الفعلُ في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ إلى ضمير العظمة؛ للإشعار بأنَّ إرسال الرُّسل إنّما يكون لِما لله تعالى مِنَ العظمة، وأنَّ هذا الأمر لا يقدرُ عليه إلّا الله الملكُ الواحدُ الأحدُ، فيتضمّن اللّفظُ التّرهيبَ مِن مخالفتِهم وعصيانِهم، وفي إسناد الإرسال إلى ذاتِه سبحانَه أعظمُ تسليَةٍ للنّبيِّ ﷺ[1]، وفيه أنَّ إرسالَ الاثنَيْنِ كافٍ وافٍ؛ لعَظَمَة الإرسال، وعَظَمةِ الرِّسالة في نفسها، وعَظَمَةِ الرّسولَيْنِ في أنفسهما، ولكنَّ العيبَ في القوم المُكذِّبينَ.

نُكتةُ إسنادِ الإرسالِ إلى الله تعالى على خلاف الظّاهر:

وقــوعُ الإرســالِ بإذنِ الله وأمره

ذهب جمهورُ المُفسِّرين إلى أنَّ القرية هي أنطاكيَّة، وأنَّ الرّسل المذكورين هم رُسلُ عيسى عليه السلام إلى هذه القرية، يَدْعون النّاس إلى عبادة اللّه وحده، فلمّا أُسْنِد الإرسالُ إليه تعالى مع أنَّه فعلُ رسولِه - بإذنه تعالى - كانَ كأنَّ اللّه تعالى يقول لسيّدنا محمَّد ﷺ: إرسالُ عيسى عليه السلام هو إرسالُنا، ورسولُ رسولِ اللّه بإذن اللّه هو رسولُ اللّه، فتكذيبُهم كتكذيبِك، فيكتملُ التّمثيلُ، وتتمُّ التّسليةُ بقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ وكيل الوكيلِ بإذن الموكِّل يكون وكيلَ الموكِّل[2].

وذهب بعضُ المُفسّرين إلى أنَّ الإسناد على ظاهره، وأنَّ المُرسَلين إلى هذه القرية أنبياءُ أرسَلَهُم اللّه تعالى قبل عيسى عليه السلام، وأنَّ أصحاب القرية كانوا عُبّادَ أصنامٍ[3]، والظّاهرُ مِنَ الآية والتي بعدها هو المعنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 105.
(2) ابن عادل، اللباب: 16/ 182، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 161.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 449، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 53.

المُجملُ، وهو أنَّ اللّه تعالى بعث إلى القرية رسولَيْن، فَدَعَيا أهلَ القرية إلى عبادة اللّه تعالى وحده، وإلى الهدى والإيمان، فكذّبوهما، فشدّد اللّه تعالى أمرَهما بثالثٍ، وقامَتِ الحُجَّةُ على أهل القرية[1].

الإشعارُ بشدّةِ كفرِ أصحاب القرية إذ لم ينفعْهم تعدّدُ الرُّسل

فائدةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِمُ﴾ على ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِمُ﴾ على المفعول ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ للاهتمام بشأن أصحابِ القرية، إذ همُ المقصودون بالرّسالة، وبمجيء الرُّسل إلى القرية، ويُلمَحُ في التّقديم القصرُ الإضافيُّ لخصوص العدد المذكور، بمعنى: أرسلنا إليهم دون غيرِهم اثنين، ففيه إشعارٌ بشدّة كفرِهم، وتصميمِهم عليه، بحيث لم يُؤثّر فيهم تعدُّدُ المرسَلين، فكان في التّقديم فَرْشٌ لقوله: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾.

إرسالُ رسولَين لإقامة الحُجّةِ البالغةِ

دلالةُ تخصيصِ العدد:

خُصِّصَ العددُ بـ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ للإشعار بأنَّ بعضَ القوم لا يؤثِّرُ فيهم قولُ رسول واحد، فأرسل اللّه تعالى إليهم رسولَيْن؛ ليُعضّد أحدُهما الآخرَ، فيكونَ أشدَّ لأمرهما، أو لأنّ في بعثَةِ الاثنَيْن حِكْمَةً بالِغَةً، على القولِ بأنَّ عيسى عليه السلام هو الذي بعثهما إلى القريةِ، وهي أَنَّهُما لمّا كانا مَبْعوثَيْنِ مِنْ جِهَةِ عيسى بإِذْنِ اللّهِ كانَ عليهما إنْهاءُ الأَمْرِ إلى عيسى، والإتيانُ بما أَمَرَ اللّهُ، واللّهُ عالمٌ بكُلِّ شيءٍ، لا يحتاجُ إلى شاهِدٍ يَشْهَدُ عنده، وأَمّا عيسى فهوَ بَشَرٌ، فَأَمَرَهُ اللّهُ بِإِرْسالِ اثْنَيْنِ ليَكونَ قَوْلُهما على قَوْمِهما عند عيسى حُجَّةً تامَّةً[2].

كمالُ صفةِ الرّسالةِ في هذين الرَّجُلين

دلالةُ حذفِ الموصوفِ وذِكْرِ الصّفة:

في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ حذفٌ تقديرُه: (أرسلنا رسولَين اثنين)، فحُذف الموصوف إيجازًا، لوضوح المعنى بوجود

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 449.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 260.

القرينة ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، فالصّفةُ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ مضمَّنَةٌ وصْفَ الرّسالة بما دلَّ عليه الفعل ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وفي الحذف إنباءٌ بكمال الصّفة فيهما، فحالُهُما يدلُّ على كونهما رسولَيْن، وهذه إقامةٌ للحُجَّةِ على القومِ أصالةً، ومدحٌ لهما تبعًا.

بلاغةُ الإيجازِ بطيِّ الكلام:

في قبْضِ الكلام قـبـضٌ لـقـلـوبِ المُـتَـلَـقّـين مِـنَ العاصين

في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ إيجازٌ بطَيِّ الكلام، وتقديرُه: (أرسلنا إليهم اثنين، فأخبراهم بإرسالهما إليهم، كأنْ قالا: نحن رسولان إليكم لتؤمنوا باللّه، فكذَّبوهما)، أو: (فأَتَياهم، فدعواهم إلى الحقِّ، فكذَّبوهما في الرِّسالةِ)[1]، فجاء الكلام على الإيجاز، لانصباب الكلام على الغرض الأهمِّ؛ وهو الإخبارُ عن تكذيب القوم لهما، والمحذوفُ معلومٌ؛ بقرينة قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾، والإيجازُ بالحذفِ أبلغُ في الإنذارِ والتَّهديدِ الذي هو مقصودُ السّورةِ.

فائدةُ الفاءِ في قولِه ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾:

الإسـراعُ إلى تكذيب المرسَلين كُـفـرًا وبُـغـضًـا وتكبُّرًا

تُفيد الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ التّرتيبَ والتّعقيبَ، بمعنى أنَّ أصحاب القرية عاجلوا الرّسولَين بالتّكذيب، ولم يُمهلوهما، وهذا يشير إلى أنّهم جديرون بالوعيد الشّديد، وقُربِ وقوعِ العذاب عليهم؛ لأنَّ ترتُّبَ التّكذيب على قولِه: ﴿أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ أشْعرَ أنَّ أصحاب القرية كذّبوا الرّسولَين بسبب إرسال اللّه تعالى لهما، وأنّهم يُبغضون التّوحيدَ والإيمانَ باللّه إلهًا وربًّا.

دلالةُ صيغةِ (فعّل):

شـدّةُ تـكـذيـبِ الـقـوم وتـكـرُّرُه منهم

أفادت صيغةُ (فعّل) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ شدّةَ تكذيبِ القوم لهما، لِتكرّر فعْلِ التّكذيب مرّةً بعدَ مرَّة، بمعنى أنَّهم كذّبوهم في كلِّ تبليغٍ للرّسل، وفي كلِّ دعوة بلّغوها لهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 105، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 161.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾:

لمّا كان الفعلُ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ يفيدُ تَكرارَ تكذيبِ القومِ للرّسولَين، أفاد بلازمِه استمرارَ الرّسولَين في دعوتِهما، وتَكرارَ الأمرِ منهم، وهذه دلالةٌ كنائيَّةٌ، أو هي مِن مُستَتْبَعاتِ التَّراكيبِ.

دلالةُ ذِكْرِ الضّميرِ في قوله ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾:

في ذِكْـرِ الضّميرِ بـيـانُ تكذيبهم وبغضهم

يعود الضّميرُ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ على لفظ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾، مع موصوفِه المحذوفِ، أي: (فكذّبوا الرّسولَين الاثنين اللّذَين أرسلناهما)، وكان مِنَ الممكن حذفُ المفعول والاكتفاءُ بالفعل (فكذبوا)، ويكونُ المُكَذَّبُ معلومًا مِنَ السّياق، ولكنَّ استحضارَ الرّسولَين بتسليطِ فعْلِ التّكذيب عليهما أنبأَ بإصابتهما بما يضرُّهُما حِسّيًّا كما ضُرّا معنويًّا بالتّكذيبِ، وأنّهم يُبغضون الرُّسلَ كما يُبغضون الرّسالةَ.

فائدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الفعل:

تكذيبُ الرُّسلِ لا يتجزَّأ

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ لإفادة العموم، أي: (فكذّبوهما في كلِّ ما أرسلوا به)، أي: في كونِهم رسولَيْن مِن عند اللّه، وفيما كانا يَدعوان إليه مِن توحيد اللّه، وأنَّه لاشريك له، وهذا الإيجازُ ينسجمُ مع الإيجاز بطَيِّ الأحداثِ في الآية.

فائدةُ الفاءِ في قولِه ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾:

عـنـايـةُ الـلـه برُسلِه بتقويتِهم وإظهارِ حجَّتِهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾: للتّرتيب والتّعقيب، بمعنى أنّه تَرتَّبَ على تكذيب الرّسولَين تعزيزُهما بثالث، من غير مهلةٍ بينهما، وفيه إشعارٌ بعناية اللّه برسلِه، ورعايتِه لهم، وبلطفِه ورحمتِه للقوم المُكذِّبين، حيثُ لم يُعجِّلْ لهم بالعقوبة عقِبَ تكذيبِهم الاثنين، وإنّما أَمْهلَهُم بمجيء ثالث.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ (عزَّزَ):

عُبِّرَ بالتَّعزيز في قوله تعالى: ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾ للإيذان بأنَّ إرسالَ

تقويةُ الرّسولَين وإذلالُ الباطلِ

الرّسول الثّالثِ لتقويتِهما في أنفسهما، وتقويةِ رسالتِهما، فإنَّ التّضافُر على الشّيء أقوى لشأنه، وأعونُ على ما يُراد منه[1]، والمعنى: (قَوَّيْناهما وشَدَدْنا أَزْرَهما برسولٍ ثالث)، فظاهَرَ الحججَ عليهم باثنين، ثمَّ ثالثٍ، لِكَي تَكونَ عَلَيهِمُ الحُجَّةُ أَشَدَّ[2]، أي: فأوقعنا العزّةَ لرسولَيْنا، أو للرّسالة، بسبب ما وقع لهما مِن الوَهَن بالتّكذيب[3]، وفي التّعبير بهذا اللّفظ أيضًا: معنى القهرِ والغلَبةِ، ومنه العزيز الذي يَقهَرُ، ولا يُقهَرُ، وفيه كذلك إشعارٌ بأنَّ اللّه تعالى عزيزٌ غالبٌ، لا يترك رُسلَه وأولياءَه؛ فإنَّ الذي يُعزِّزُ لا بدَّ أن يكون متّصفًا بكونه عزيزًا، وفيه أيضًا إيذانٌ بأنَّ عزَّ الحقِّ فيه ذلُّ الباطل.

دلالةُ صيغةِ (فعّل):

تكثيرُ عددِ المرسَلين ليحصلَ المقصودُ وهو الشّدّةُ والغلبةُ في الحجّة والبيان

عبّر النّظمُ القرآنيُّ بصيغة (فعّل) في قولِه: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ للإشعار بالكثرة؛ ليفيدَ أنَّ أصلَ العزّة موجودٌ؛ أي: لم يكن الرّسولان ذليلَيْن، ثمَّ حصلَ عزُّهما بالثّالث؛ بلِ المُرادُ أنَّ اللّه تعالى قوّى عزَّهم، وزادَه بإرسالِ ثالثٍ، ليحصل المقصودُ؛ وهو الشّدّةُ والغلبةُ في الحجّة والبيان.

فائدةُ إسنادِ الفعْلِ إلى ضمير العظمة:

أُسْنِد الفعلُ في قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ إلى ضمير العَظَمة، للإشعار بقوّة التّعزيز وعظَمتِه، وأنَّ مِثْل هذا التّعزيزِ لا يَقْدِرُ عليه إلّا اللّه الملكُ الواحدُ الأحدُ.

توجيهُ قراءتَيْ قوله ﴿فَعَزَّزْنَا﴾:

تعاضُدُ القراءتَين في المعنى

قرأ جميعُ القرّاء سوى شعبة عن عاصم ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بالتّشديد، وقرأ شعبة ﴿فَعَزَزْنَا﴾ بالتّخفيف، ومعناه إذا شُدِّد: فقوَّينا وشدّدنا، وإذا خُفِّفَ: فغَلَبْنا وقهرنا، فقراءةُ التّشديدِ بيانُ أنّ اللّه قوّى الرّسولَين وغلّبهما على أعدائهما بإرسال الثّالث، وقراءةُ التّخفيف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 105.
(2) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 10/ 3191، والشافعي، الرسالة، ص: 437.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 105.

تشير إلى غلبة اللّه وقهره على أعدائه، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾ [ص: 23] أي: غلبني؛ قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: 21].

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنّ قراءةَ التّخفيف ترجع إلى قراءة التّشديد، فالتّقويةُ فيها معنى الغلبة، والغلبةُ فيها معنى التّقوية، قال الفرّاء: عَزَّزْنا وعَزَزْنا كقوله شَدَّدْنا وشَدَدنا بالتّخفيف والتّثقيل ونحوِ ذلك(1).

فائدةُ حذْفِ المفعول:

اجتماعُ التّعزيزِ الحسّيّ والمعنويِّ أقوى وأبلغُ

حُذف مفعولُ الفعلِ في قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، والذي هو بتقدير: فعزّزناهما بثالثٍ، وهو مفهومٌ مِنَ السّياق، وسببُ الحذف: أنَّ المقصود إظهارُ اقتداره ﷻ على إيقاع فعْلِ التّعزيز وتصريفِه في كلِّ ما أُريدَ له، والغرضُ مِنَ الكلام ذكرُ المعزَّز به؛ وهو الرّسول الثّالثُ، وإذا كان الكلام مُنْصَبًّا على غرضٍ مِنَ الأغراض جُعل سياقُه له، وتوجّهُه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مَطَّرَحٌ(2)، ويمكنُ أن يُقال: أفاد الحذفُ عمومَ التّعزيز للرّسولَيْن وللرّسالة؛ ليفيد التّعزيزَ الحسّيَّ والمعنويَّ، أي: عزّزناهما، وعزّزنا رسالتهما، والمعنى: ثبّتناهما، وقوّيناهما على الاستمرار في الدّعوة بثالثٍ، وقوّينا وشدَّدنا رسالتهما(3)؛ بتحقيقِ صدْقِها وتقريره.

فائدةُ الباءِ في قوله ﴿بِثَالِثٍ﴾:

الباء في قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ سببيّةٌ، والمعنى: فعزّزناهما، أو فعزّزنا رسالتَهما وأمرَهما بسبب إرسالِ رسولٍ ثالثٍ، وتَحتمل أن تكون للملابسة، بمعنى: اختلط التّعزيزُ بإرسال رَسولٍ ثالثٍ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 510، والسمعاني، تفسير السمعاني: 4/ 371، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 13، وابن الجزري، النشر: 2/ 353.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 8.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 14.

فائدةُ حذْفِ الموصوفِ:

حُذف الموصوفُ، واكتُفيَ بالصّفة في قولِه: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾، على طريق الإيجاز، والتّقديرُ: فعزّزنا برسولٍ ثالثٍ؛ كما هو ظاهرُ السّياق، أوِ التّقدير: فعزّزنا رسالتَهما برسالةِ رسولٍ ثالثٍ، وهذا الحذفُ مبنيٌّ على حذف المفعول، ومُحقِّقٌ له.

فائدةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

كثرةُ أهلِ الحقِّ معتبرةٌ، فهي تفيدُ تقويةَ قولِهم وتقريرَه

تُفيد الفاءُ التَّعقيبَ والسَّببيَّة، أي: إنَّ قولَهم أعقب التّعزيزَ، وتسبَّب عنه؛ ليفيد حصولَ العزّة للمرسلين؛ والمعنى: (فعزّزنا بثالثٍ، فحصل ما أردنا مِنَ العزّة، فقالوا)، وليفيد أنَّ كثرة أهلِ الحقِّ تفيد تقويةَ قولِهم وتقريرَه، فتدفعُهُم إلى الإسراع إلى الدّعوة، والجرأة على خطاب أهلِ الباطل بعدَ تكذيبِهم العنيفِ، فالكثرةُ مُعتبرةٌ، وتفيدُ الفاءُ التّفصيلَ، فيكون قولُه: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ بيانًا لقوله ﷻ: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾[1].

بلاغةُ الإسنادِ في ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

إقامةُ الجماعةِ العزيزةِ القويّةِ أمام المكذِّبين

يَحتمل في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ أن يكون (القول) صدرَ مِنَ الرّسل جميعًا، فيكون الكلامُ على الحقيقة، وهو الموافق لمعنى التّعزيز والتّقوية، أي: فحصل لهم مِنَ القوّة والمنَعة ما جعلهم جميعًا يقولون هذا القولَ، ويحتمل أنْ يكون القولُ صدر مِن واحدٍ منهم، وأُسند إلى الجميع على المجاز العقليِّ، لرضاهم به[2]، والحملُ على المجاز الإسناديِّ أبلغُ في تقرير التَّعزيز؛ لأنَّ الرّسلَ صاروا جماعةً ذاتَ كلمةٍ واحدةٍ، فلا يستطيعُ أحدٌ غلبتَهُم ولا التَّجرُّأَ عليهم، فإذا قال واحدٌ منهم شيئًا كان كأنَّ القائلَ جميعُهُم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 395.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 13، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 104.

فائدةُ التّأكيدِ بـ(إنَّ)، وحذفِ النونِ:

الرّسلُ مُشفقون على مَن يُرْسَلون إليهم

أفاد التّأكيدُ بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ تقريرَ مضمونِ الجملة؛ لسَبْق إنكارِ أصحاب القرية إرسالَ الرّسولَيْن؛ فإنَّ التَّعزيز بالثّالث يُؤْذِنُ بأنَّهم كذَّبوا الاثنين، ولمّا كان تكذيبُ الرّسولَيْن تكذيبًا للثّالثِ؛ لاتّحادِ كلمتهم ودعوتِهم: أكّدوا الخبر تأكيدًا وسطًا بـ(إنَّ)؛ للإشعارِ بأنَّ ما هم عليه مِنَ الأدلّة والبراهين لا يحتاجُ إلى المبالغة في التّأكيد، ويسمَّى هذا بالخبر الطّلبيِّ[1]، ويجوز أن يكونوا قد نبَّهوا على هذا المعنى بحذف إحدى نونَيْ: (إنَّ) أيضًا، ويجوز أن يكون المحذوفُ نونَ (نا)؛ دلالةً على هضم أنفسِهم، وتلطُّفهم وتودُّدِهم للقوم؛ وهم يقولون أو يقول أحدُهم لهم: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، ويحقّقُ هذا تقديمُ: ﴿إِلَيۡكُم﴾ على: ﴿مُّرۡسَلُونَ﴾.

فائدةُ تقديمِ: ﴿إِلَيۡكُم﴾ على: ﴿مُّرۡسَلُونَ﴾:

في التّقديمِ مزيدُ بيانِ حرصِ الرُّسلِ على هدايتهم

قُدّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡكُم﴾ على عاملِه ﴿مُّرۡسَلُونَ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾؛ للإيذانِ باهتمامِ الرّسل بأمر المُرْسَل إليهم، لتبليغِهم ودعوتِهم إلى التّوحيد[2]، ويفيد التّقديمُ القصرَ، بمعنى: (إنّا إليكم - لا إلى غيركم - مرسلون)؛ ليَشعرَ القومُ بخَصوصيَّتهم بأن أُرسل لهم ثلاثة رُسلٍ؛ ممّا يقتضي مزيدَ ترغيبٍ في اتّباعِهم، وقَبول دعوتِهم، وفي تقديم الجارّ والمجرور رعايةٌ للفاصلة[3].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّعزيزِ والتّقويةِ:

التَّعزيزُ أعمُّ مِنَ التَّقويةِ

التّعزيز مِنَ العِزَّة، وهي الشِّدَّةُ والقوَّةُ والامتناعُ والغلبةُ والقهرُ وما ضاهَى هذه المعانيَ، ومنه العَزيز، وهو القويّ الشّديد الغالب

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 161، والشربيني، السراج المنير: 3/ 343، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 360.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 360.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 106، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 104.

القاهر الذي لا يُغْلَب، ولا يُقهَر، وأمّا التّقويةُ فتُطلق غالبًا على المُعاوِن مِن خارجٍ في قوّة البدن والقدرة[1]، والتَّقويةُ تكونُ بعد ضعفٍ، وأما التَّعزيزُ فيكونُ بعد قوَّةٍ، ولمّا كان المقصودُ في قولِه: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٍ﴾ التّقويةَ؛ مع انضمام معنى الشّدّة والتّماسك والامتناع مِنَ الكافرين، بحيث لا يُغلَبون، ولا يُقهرون: عُبّر بـ(عَزَّزنا)، دون (قوّينا).

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عزز، قوي).

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾ [يس: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

يتَّخِذُ الكافرونَ مِن بشريَّةِ الرُّسُلِ دليلًا على رفضِ الرِّسالةِ منهم

لَمّا أكّد المرسَلون إرسالَهم، وجاء الكلامُ على طريق الرّدِّ على إنكار أصحاب القرية: أجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورًا عندَ ردِّ دعوة الرّسل، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ الآيةَ.

المَعنى الإجماليُّ:

مِن شأنِ مُبغضي الإيمانِ رفضُ الرِّسالةِ، لرفضِ أشخاصِ الرُّسُلِ

قال أصحابُ القَريةِ للمرسَلين بعد أنْ عزَّز اللهُ الاثنين الأوَّلَيْن بثالثٍ: ما أنتم إلّا بشرٌ مثلنا، فمِن أين لكم وجودُ مَزيّةٍ تختصّون بها علينا، وتدّعون الرّسالة؟، وما أنزل الرّحمنُ إليكم مِن رسالة، ولا كتاب، ولا أمركم فينا بشيء، فما أنتم إلّا تَكذِبونَ في دَعْواكم أنَّكم رُسُلٌ مِنَ اللهِ إلينا[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

الكلامُ مع الاستئنافِ البيانيِّ كلامانِ، ومعَ العاطفِ كأنّه كلامٌ واحدٌ

لَمّا قال المرسَلون: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ كأنَّ سائلًا سأل، فقال: ماذا قال أصحابُ القرية، وماذا أجابوا؟ فقيل: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾[2]، وسرُّ حذف العاطفِ في الاسئناف البيانيّ، وفي المقاولة: أنّ العاطف ينتظمُ الجُملَ حتى يُصيِّرَها كالجملة الواحدة، فاجتُنب لإرادة استقلالِ كلِّ واحدة منها في معناها، فكلُّ جملةٍ منسوبةٌ إلى قائلِها[3].

دلالةُ إسنادِ القولِ إلى ضميرِ الجماعة:

عُبِّر بضمير الجماعةِ في قولِه ﴿قَالُواْ﴾: للإشعار بأنَّ أصحاب

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 415، 416، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 418.
(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 241.
(3) ابن المنير، الانتصاف: 2/ 116.

أهلُ الباطلِ يدٌ واحدةٌ في وجهِ الحقِّ

القرية كانوا مُجتمعين، وأنَّ قولهم كان برضا جميعِ مَن حضر، والمعنى: قال أصحابُ القرية جميعُهم، فإسنادُ القول إلى ضميرِهم دليلٌ على ما تفيدُه إضافةُ الأصحابِ إلى القريةِ، وعلى اتِّحادِهم في مواجهةِ الرُّسُلِ.

بلاغةُ القصْرِ بالنّفي والاستثناء:

القومُ يُرسِّخونَ الباطلَ، وينطلقونَ منه في حِجاجِهم

جاء جوابُ أصحابِ القرية بطريق القصْرِ بالنّفي والاستثناء في قوله: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، مِن باب قصر الموصوفِ على الصّفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ قلبيٌّ؛ لأنه يُلاحِظُ اعتقادَ الرُّسُلِ مِن أنّهم رسلُ اللّهِ، وأنَّ الرَّسولَ يكونُ بشرًا، فأرادوا عكسَ المعنى لهم؛ والمعنى: (أنتم مقصورون على البشريَّة مثلنا، لا تتجاوزونه إلى الاتّصاف بالرّسالة)، أي: أنتم بشرٌ، لا رسلٌ، والسّبَبُ هو أنَّه لمّا كان القصرُ (بالنّفي وإلّا) يسلكُ مع مخاطَبٍ يعتقد فيه المتكلِّمُ أنَّه مخطئٌ مُصِرٌّ على خطئِه فيأتي المتكلِّم بهذا الأسلوب لإنكار ما عليه المخاطَبُ، ليفيد أنَّ أصحاب القرية كانوا يعتقدون أنَّ الرُّسلَ عندهم في معرض المنتفي عنِ البشريّة والمُنسلخِ عنه حكمُها بناءً على اعتقادهم أنَّ الرّسول يمتنع أن يكون بشرًا، فأقاموا الرّسلَ مقامَ الجاهل بحالِه في أنَّهم بشرٌ وليسوا رسلًا[1]، ففي التّعبير بهذا الأسلوب إيذانٌ بأنَّ القومَ لم يُكذّبوا الرّسلَ فقط؛ بل أرادوا منهم أن يُقلعوا عن دعوتِهم؛ لأنَّ الرّسل - في اعتقاد القوم القبيح - مرتكبون للخطإ في دعوتِهم، ويلزمُ منه صحّةُ اعتقادِ القوم وصحّةُ ما هم عليه منَ الشّرك، وقد أفاد هذا الأسلوبُ أيضًا معنى الإصرار، أي إنَّ الرّسل عليهم السلام كانوا يُكرّرون دعوتَهم إلى التّوحيد ويُصرّون عليها ولم ينفع تكذيبُ القوم في ترك دعوتِهم.

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294، والتفتازاني، المطول، ص: 397.

دلالةُ إفرادِ الصّفةِ:

مبالغةُ الكفّار في إثبات بشريّةِ الرُّسل، والتّصغيرِ من شأنهم

قولُه: ﴿بَشَرٌ﴾: يصدُق على المفرد والمُثنّى والجمع، وعلى المُذَكَّر والمُؤنَّث، وقد وُصِف بالمفرد المُذكَّر، وهو: (مثل) المضافُ في قوله: ﴿مِّثۡلُنَا﴾، فأمّا التّذكيرُ فلأنّ الرّسلَ ليسوا إلّا رجالًا، وأمّا الإفرادُ فللمبالغة في إثباتِ بشريَّة الرُّسلِ؛ بالمبالغةِ في تقرير المِثْليَّةِ والتَّسويةِ بين الرُّسل والقوم جميعًا في البشريَّةِ، وذلك بإرادة نفيِ جنْسِ البشريّة، وفيه ملحظُ أسلوبِ التّحقير والتّصغير من شأنهم.

دلالةُ ذِكْرِ الصّفة:

في ذِكْرِ المِثْليَّة إحساسٌ بنقصانهم، وكمالِ الرُّسلِ

في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: أفاد التّعبيرُ بالصّفة في قوله: ﴿مِّثۡلُنَا﴾ تقييدَ الموصوف بمعنى الصِّفة، وجيءَ بالصّفة - دون أن يُقال: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ﴾ فقط - ؛ لإتمام شُبْهة القوم، والمعنى: إنّما أنتم بشرٌ مثلُنا، فما نرى لكم علينا مِن فضل في شيء، وفيه إقرارٌ خفيٌّ منهم بفضل الرّسالة والمرسَلين مِن عند اللّه على سائر البشر، وفيه: إشعارٌ بالمُشابهة في الذّات وسائرِ الأوصاف البشريَّة؛ ممّا يقتضي عدمَ المفاضلة بينهم، أي: لا مزيةَ لكُم عَلينا موجِبةٌ لاختصاصكم بما تدَّعونَه مِن أنّكم مُرسَلون من عند اللّه تعالى.

فائدةُ العطْفِ بالواو:

المبالغةُ في التّكذيب بطريق الترقّي في الإنكار على المرسَلين

أفاد العطفُ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ التّشريكَ في الحكم، أي: قالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، وقالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾، وجيء بالجملة الثّانيةِ معطوفةً على الأولى دون العكس؛ ليفيد التّرقّيَ في الإنكار؛ فإنَّ الجملة الأولى نفيٌ للرّسالة عنهم خاصَّةً؛ بحكم بشريَّتِهم، والجملةَ الثّانيةَ أبلغُ في النّفي؛ لأنَّها تفيد نفيَ الرّسالة عن كلِّ بشرٍ، فهي في حكم الاستدلال على نفي رسالتِهم، فتكونُ في حكم الدّليل على الجملة الأولى[1]، وجملة: ﴿مَآ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 106.

﴿أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: تفيد بلازمِها أنَّهم قالوا: فما أُرسلتم إلينا بشيء، فناسب عطفُ قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ عليها؛ ليفيد الكلامُ تكذيبَهم في إرسالِهم، وفي أن يكون الرّحمن قد أنزل مِن شيءٍ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

من عظيمِ رحمةِ اللهِ إرسالُه الرُّسُلَ

عُبّرَ بلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾؛ ليتوصَّلوا بالوصف الدّالِّ على عمومِ رحمتِه إلى إيرادِ شُبْهتِهم، فكأنَّهم قالوا - لجهلِهم -: إنَّ عموم رحمتِه مع استوائنا في عبوديَّته تقتضي أن يُسوّيَ بيننا في الرَّحمة، فلا يخصُّكم بشيء دوننا[1].

وفي التّعبير به أيضًا: إشارةٌ بالرّدِّ على المكذّبين مِن قولِهم، فتكونُ الإدانةُ مِن قولِهم أنفسِهم؛ لِأَنَّ اللّه لَمّا كان موصوفًا بالرّحمة، وكانَ الإرسالُ رحمَةً، فكيف لا يُنزِلُ رَحمَتَهُ مع كونه الرَّحمنَ؟! وإرسالُ المرسَلين مِن عظيم الرّحمة، ومِن أفضل النّعم وأجلِّها[2]، فالتَّناقُضُ جليٌّ في رفضِهم الإيمانَ.

وهذه النُّكتةُ وما قبلها جاريتانِ على أنَّ اختيارَ لفظِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِن صنيعِ القوم، ويجوزُ أن يكونَ القرآنُ قد أدمجَ هذا اللَّفظَ في حكايةِ قولهم، على أنّه تعليقٌ على قولِهم لبيانِ كذبِهم؛ لأنَّ هذا الإنزالَ مِن مُقتَضَياتِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ، ومِن رحمتِه تعالى بهم أنْ عزَّزَ الاثنين بثالثٍ لما كذَّبوهما، فلم يُغلِق البابَ أمامَهُم، ولم يُعجِّلْ لهم بالعذاب، أو أن يكون اختيارُ اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دون لفظ الجلالة (اللّه) لأنَّ مُشركي قُريشٍ كانوا يُنكِرون اسمَ الرَّحمنِ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 106.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 261.

فائدةُ ذِكْرِ ﴿مِن شَيۡءٍ﴾:

المبالغةُ العليَّةُ في الإنكارِ مِن شأنِ مَن يستوي عندَه الإنذارُ وعدمُه

قولُه: ﴿شَيۡءٍ﴾: أعمُّ النَّكِراتِ، ثمّ هو جاء في سياق النّفي، فازدادَ العمومُ فيه؛ فلو قالوا: (وما أنزل الرّحمن شيئًا): لأفادَ الإبلاغَ في النَّفْي، والمعنى: نفيُ عموم إنزال الرّحمن أيَّ شيءٍ، وهذا العموم مخصوصٌ بقرينة السّياق؛ فليس المقصودُ: ما أنزل الرّحمن أيَّ شيءٍ؛ فإنَّه كذبٌ بداهةً، بلِ المعنى: ما أنزل الرّحمن مِن شيءٍ مِنَ الوحي والرّسالةِ[1]، فيكونُ الإنكارُ في هذا القولِ - لو قالوه - أبلغَ منه في قولهم: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾؛ لأنّ معنى هذا القولِ مِن لوازم نفي أنْ يكونَ الرّحمنُ قد أنزلَ شيئًا، ومِن لوازمِه أيضًا: أنَّ الرّحمنَ لم يُرسلْكُم بشيءٍ[2]، لكنَّهُم زادوا في الإبلاغ؛ فأدخلوا حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ على: ﴿شَيۡءٍ﴾؛ فازدادَ العمومُ عمومًا، وهذا يعني غايةَ رفضِهم للرِّسالةِ والرُّسُلِ، وبذلك يحصلُ عظيمُ التَّسْليةِ لنبيِّنا محمدٍ ﷺ.

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ الفعل: ﴿أَنزَلَ﴾:

في الحذفِ فائدتا التَّمْكينِ والتَّأسيسِ

لمّا كان الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ يتعدَّى بحرف الجرِّ (على)، ولم يأتِ لفظُ (عليكم) بعد قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾، فلم يقُل: (وما أنزل الرّحمن من شيءٍ عليكم): أفاد أنَّهم كانوا يقصدون المبالغةَ في التّكذيب، للإشعار بشدَّة طُغيانِهم وكفرِهم؛ فإنَّ حذْفَ متعلَّقِ الفعل في قوله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ يفيدُ نفيَ عموم المنزّل على الرّسل، وعلى غيرِهم، أي: ما أنزل الرّحمن مِن شيءٍ عليكم وعلى غيركم؛ ليفيدَ نفيَ أن ينزّل اللّه تعالى الرّسالة على أحدٍ من خلقِه، وبهذا الحذفِ تتِمُّ المبالغةُ الواردةُ بالتّعبيرِ بلفظ: ﴿شَيۡءٍ﴾ في سياق النّفي، مع دخولِ ﴿مِن﴾ عليه، فقد بلغوا أقْصَى المعنى.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 265، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 162.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 290.

فائدةُ الفصلِ:

صريحُ القولِ في التّكذيبِ لا مزيدَ عليه في الإنكار

فُصِلت جملة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها مِن لوازم الجملتيْنِ السّابقتيْن عليها، كلٌّ على حِدَةٍ، فهي تُحقّقُهما؛ فبينها وبين ما قبلها كمالُ اتّصالٍ، وجديدُ المعنى فيها: التَّصريحُ بتكذيبِ الرُّسُلِ، وهذا هو الغايةُ، وقد مهَّدوا لها بما قبلها، ليكونَ هذا التّكذيبُ نتيجةً مُؤكَّدَةً مُعلَّلَةً.

بلاغةُ القصْرِ بالنّفي والاستثناء:

قصرُ الرُّسلِ على التَّكذيبِ قِمَّةُ الإنكارِ

في قولِه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾: قصرٌ بطريقٍ يُؤتَى به لمَن يُنكِرُ معنى الخطاب، أو يجهلُه؛ وهو النّفيُ والاستثناءُ، وهو قصرٌ إضافيٌّ قلبيٌّ، قصرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ فيدلُّ على أنَّ القومَ يَعْلَمونَ أنَّ الرُّسُلَ ينكرونَ حُجَجَهم الواهية، وأنّهم مُستمرّون في دعوتهم إلى الإيمان، وقد يكونُ القوم أرادوا أنَّ الرُّسلَ - بسببِ استمرارهم في تلك الدعوة - يجهلون (في زعمهم) كونَهُم غيرَ رُسلٍ، وهذه الجملةُ القصريَّةُ تحسمُ موقفَ القوم مِنَ الرُّسلِ، وأنَّ الرُّسلَ في أبصارهم وبصائرهم كاذبونَ لا محالةَ.

نُكتةُ التّعبيرِ بضمير المخاطب ﴿أَنتُمۡ﴾:

اختصاصُ رُسلِ القومِ بالتَّكذيبِ دلَّ على عمومِ الاحتجاجِ على ذلك

لمّا نفَى القومُ عمومَ تنزيل الرّحمن مِن شيءٍ في دعوى الرّسالة؛ كان الظّاهرُ أن يحكموا بالتّكذيب على كلِّ مَن يدّعي الرّسالة، فكان التّعبيرُ بالضّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ عدولًا عنِ العامِّ إلى الخاصّ؛ لكون المقاولةِ معهم، ولقصد إبطال دعوتِهم خصوصًا؛ وما نفيُهُم عمومَ إنزالِ شيءٍ إلّا مِن أجل الحُكم بتكذيب رُسلِهم خصوصًا، وهذا النّفيُ يُفْهَمُ منه أنَّ كلَّ مَن يدّعي الرّسالة كاذبٌ، فيكونُ أبلغَ في التّكذيب.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع:

كان مِن آثار المبالغة الشّديدة في الإنكار والرَّفض في عناصر

الكـذبُ صفةٌ لازبةٌ للرُّسل في نظر المكذّبين

الآية: قصرُ القومِ الرُّسلَ على صفة التّكذيبِ فيما كان، وفيما هو كائنٌ، وفيما سيكون، وسوف يكون؛ بقرينة الجملتين اللَّتيْنِ قبل جملة التَّكذيب، وصورةُ ذلك نظمُ التَّكذيب فعلًا مضارعًا في قوله: ﴿تَكۡذِبُونَ﴾.

فائدةُ مجيءِ المُسندِ جملةً فعليَّةً:

في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ للتّنبيه له، ولصياغة أسلوبِ القصْرِ بالنّفي والاستثناء، ولتثبيت معنى المُسنَد عندَ المخاطَبين بعد ذكْرِ المُسنَد إليه فيكونُ المعنى أشدَّ ثباتًا وأمنعَ للشّكِّ وأدخلَ في التَّحقيق، كما أنَّه أبلغُ في تأكيد الحصر، ولهذا جاء المُسنَدُ ﴿تَكۡذِبُونَ﴾ جملةً فعليَّةً، المفيدَ تَقوّيَ الحُكم، بمعنى تحقيقِ تكذيبِهم عند السّامعين وأنَّه لا يأتي منهم إلّا الكذبُ، دون تخصيص الكذب بهم، ليتوصّل القومُ إلى تحقيق تكذيبِ المرسَلين عند السّامعين والحاضرين وقتَ المقاولةِ، ليمنعوهم منَ الشّكِّ ومن أن يكونوا قد وصفُوا المرسَلين بصفةٍ ليستْ لهم[1].

سببُ إيثارِ حذْفِ متعلَّقِ الفعل:

من عادةِ القومِ الكـافـريـنَ المبـالـغـةُ في تكذيب المرسلين

لمّا كان القوم يَقصدون إنكارَ الرّسالة، وتكذيبَ المرسلين في دعوى الرّسالة: كان الظّاهرُ أن يُقال: (إنْ أنتم إلا تكذبون في دعوى الرّسالة)[2]، فحُذِفَ متعلَّقُ الفعل ﴿تَكۡذِبُونَ﴾ للعموم؛ لقصد القوم لزومَ اتّصافِ المرسَلين بالكذب، أي: أنتم تكذبون في دعوى الرّسالة وغيرِها؛ مبالغةً في تكذيب القوم للمرسَلين، وفي حذف المتعلَّق ميزةُ رعايةِ الفاصلة، ويجوزُ أن يكونوا قد قصدوا تكذيبَهُم في دعوى الرّسالةِ فقط، وبالغوا في ذلك مِن طريق حذف المتعلِّق؛ للدَّلالة على

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 129 وما بعدها، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 16، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 265، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 162.

أنَّ كونَهم كاذبينَ في دعوى الرِّسالةِ أمرٌ باتَ ظاهرًا جليًّا؛ بحيث لا يحتاجُ نصًّا عليهِ، وحُذف أيضًا للعلمِ به مِنَ السّياقِ، وهذا مِن سَمْتِ القَصصِ القرآنيِّ، وفي بيانِ عمومِ تكذيبِ هؤلاء القومِ لرُسلِهم تسليةٌ عظيمةٌ لنبيِّنا محمّدٍ ﷺ .

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ [يس: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإحالةُ على علم الله تعالى راحةٌ للمؤمنين

لّما كذّب القومُ المرسَلين صراحةً؛ مُحتجّينَ لتكذيبهم بالجملتيْنِ الأوليَيْنِ: أجاب هؤلاء الرّسلُ الثّلاثةُ بجوابٍ مؤكّدٍ تأكيدًا بليغًا، لتكرّر الإنكارِ مِنَ القوم المكذّبين، فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمانةُ في أداءِ الرِّسالة، واليقينُ بنصر الله تعالى

قالت رُسُلُهم لهم: اللّهُ ربُّنا يَعلَمُ أنّا رُسُلُه إليكم، وأنّنا صادِقونَ، ولو كنّا كذَبةً عليه لانتقم مِنّا أشدَّ الانتقام، ولكنّه سيُعِزُّنا ويَنصرُنا عليكم، وستعلمون لَمَن تكون عُقْبى الدّار[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

من أساليبِ المحاورة التّشويقُ

لّما أخبر اللّه تعالى عنِ القوم المكذّبين أنَّهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾: كأنَّ سائلًا سأل، فقال: ماذا قال المرسَلون حين بالغ القومُ في تكذيبهم؟، فقيل: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، فلهذا فُصلتِ الآيةُ على سبيل الاستئناف البيانيّ.

دلالةُ الإطنابِ في المقاولة:

لا يسأمُ المرسَلون مَن التّبليغ وإن بالغ الكافرون في التّكذيب

لّما كذّب القومُ المرسَلين، وبالغوا في تكذيبهم: ردَّ عليهم المرسَلون بتقريرِ رسالتِهم وصدقِها مرّةً أخرى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم بمجرَّدِ التّكذيب لم يسأموا التّبليغَ، ولم يتركوا قول الحقِّ؛ وإن كرّر

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 415، 416، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 569، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 694، قال الزمخشري: "قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ جارٍ مَجرى القَسَمِ في التّوكيدِ"، راجع: الزمخشري، الكشاف: 4/ 9.

القومُ تكذيبَهم، وأنكروا عليهم، بل أعادوا ذلك لهم، وكرَّروا القولَ عليهم، وأكّدوه[1].

دلالةُ الإسنادِ في: ﴿قَالُوٓاْ﴾:

الاجتماعُ عندَ شدّةِ المواجهةِ

الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ عائدٌ على المرسَلين ثلاثتِهم، أي: قال المرسَلون جميعُهم، فالإسناد حقيقيٌّ، وفيه إيذانٌ باجتماعِهم عند هذا القول، لتقرير رسالتِهم، وبيان صدقِها، وفيه دلالةٌ على اشْتدادِ التَّحدّي والمواجهة بينهم وبين القوم، والأبلغُ في بيانِ وحدتِهم وقوّتهم الحملُ على الإسناد المجازيِّ؛ بأن يكون القائلُ واحدًا منهم، مع رضا الآخرين؛ لأنّ الرُّسلَ صاروا جماعةً ذاتَ كلمةٍ واحدةٍ، فلا يستطيعُ أحدٌ غلبتَهُم ولا التَّجرُّأَ عليهم، فإذا قال واحدٌ منهم شيئًا كان كأنَّ القائلَ جميعُهُم.

نُكتةُ التّعبيرِ بعنوان الرّبوبيّة:

الرُّبوبيّةُ تحريكٌ للنُّفوسِ نحوَ الإيمانِ بالمُحْسِنِ إليها

أَسْنَدَ المُرسَلون العلمَ برسالتِهم إلى عنوان الرّبوبيَّة في قولِه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾؛ للإشعار بأنَّ إرسالَهم نعمةٌ منَ الله تعالى عليهم، وعلى أصحاب القرية، وأنَّه تعالى قد أحسن بهم؛ إذ أرسلَهم إليهم، فيكون فيه رمزٌ إلى حكمة الإرسال، وهو أيضًا أوفقُ بالحال التي هم فيها؛ مِن إظهار المعجز على أيديهم، فكأنّهم قالوا: ناصرُنا بالمعجزات يعلم إنّا إليكم لمرسَلون[2]، وفيه أيضًا: أنَّه لو لم يكن لنا وازعٌ عنِ الكذب عليه إلّا إحسانُه إلينا لكان كافيًا[3].

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿رَبُّنَا﴾:

الرُّسلُ يُقابلون عظيمَ الإنكارِ والتّكذيبِ بتودُّدٍ وتلطُّفٍ

في إضافة الرُّسلِ الرَّبَّ إلى ضمير الجماعة المُتخاصِمة: الرُّسلِ والقوم الكافرين معًا، ترغيبٌ في الإيمان مؤسَّسٌ على التَّعبير بلفظ الإحسان والإنعام، وهو الرَّبُّ؛ والمعنى: أنَّ الله المحسنَ إلينا وإليكم

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 261.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 394.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 106.

يعلَمُ صِدْقَنا، أفلا تؤمنون بنا، وتصَدِّقوننا؟! وترهيبٌ، لأنَّ اللّه هو الذي سيفصل بيننا، فهو الخبيرُ المُحيطُ بنا جميعًا، المُهيمِنُ علينا.

دلالةُ تركيب: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾:

الجمعُ بين المعنى الخبريِّ والإنشائيِّ مِن براعة أسلوبِ القرآن

قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ أسلوبٌ خبريٌّ، يُقصد به الإخبارُ عن علم اللّه تعالى برسالتِهم، والاستشهادُ بعلم اللّه تأكيدٌ وتحقيقٌ لِما جاءوا به في نفوسهم، وطمأنةٌ وتطييبٌ لها بالقناعة بعلمه تعالى[1]، وهذا التّركيبُ - مع كونه خبرًا - جارٍ مجرى القسَم في التَّوكيد؛ كقولهم: شَهِدَ اللّهُ، وعَلِمَ اللّهُ؛ لِأَنَّهُ استِشهادٌ بِاللّهِ عَلَى صِدقِ مَقالَتِهِم، فهو بمثابة القسَمِ الذي هو مِنَ الإنشاءِ غيرِ الطّلبيّ[2].

سرُّ الجوابِ بإسنادِ العِلْمِ إلى الرَّبِّ تعالى:

إذا أحسَن بالإرسال أحسَن بالمُرسَل

في إسناد العلم إلى ضمير الرَّبِّ تعالى في قوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾: إشعارُ القوم الكافرين بجهلِهم حينَ قالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾، فالعالمُ بحقيقةِ الرَّسولِ، ومَن يكونُ، وعلى أيِّ صفةٍ يكون إنّما هو اللّهُ، وأنَّ اللّه هو الأعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه، والرُّسلُ عالمون بذلك بعلمِ اللّه[3].

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفعليِّ:

مِن شأنِ الرُّسُلِ كشفُ حقيقةِ زيْفِ الكافرين

في قولِه تعالى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تقدَّمَ المُسنَدُ إليه المُعرَّى مِنَ العواملِ اللّفظيَّة: ﴿رَبُّنَا﴾ على خبره الفعليِّ المثبت: ﴿يَعْلَمُ﴾؛ فأفاد تقويةَ الحُكم النّاتجِ عنِ الإسناد، وتحقيقَه في نفوسِ المُتلقّينَ؛ لأنَّ المتلقّي إذا تلقَّى قولَه: ﴿رَبُّنَا﴾: أُشْعِرَ قلبُه بأنَّ القرآن أراد الحديثَ عنه، فإذا تلقَّى قولَه: ﴿يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾: كان قد تلقّاه؛ وقد وُطِّأَ له، وقُدِّمَ الإعلامُ فيه، فدخَل على قلبِه دخولَ المأنوسِ به، وقَبِلَه

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 347.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 9، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 265.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 261.

قَبولَ المُهيِّأ له، المطمئنِّ إليه؛ وذلك لا محالةَ أشدُّ لثبوت الحكم المتعلِّق بالمسندِ وتوابعِه: ﴿يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، وأنفَى للشُّبْهةِ عنه، وأمنعُ للشَّكِّ فيه، وأدخلُ في التَّحقيقِ له؛ لأنّه ليس إعلامَك الشّيءَ بغتةً غُفلًا مثلُ إعلامِك له بعدَ التّنبيهِ عليه، والتَّقدمةِ له.

وفي التّقديم أيضًا: النَّصُّ على أنَّ فاعلَ الفعلِ المذكورِ هو الرَّبُّ ﷻ، وليس هؤلاء الكافرين، والمعنى: ربُّنا يعلم، لا أنتم؛ لانتفاء النَّظر في الآيات البيّنة الظّاهرةِ عنكم[1]، والقصرُ المُفادُ بالتّقديم إضافيٌّ قلبيٌّ؛ لأنّه يعكسُ ما يُفهِمُه ردُّ القوم على الرّسل مِن أنّهم العالمونَ بقضيَّة الرِّسالة والإرسالِ والرُّسُلِ، وهو قصرُ صفةٍ ذاتِ متعلِّقٍ: ﴿يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ على موصوفٍ مضافٍ: ﴿رَبُّنَا﴾[2].

سببُ تتابُعِ التّأكيدِ في الآية، على عكس ما قبْلَها:

مقابلةُ عليِّ الإنكارِ بعليِّ التّوكيدِ إحسانٌ إلى القومِ

ورَد قولُه تعالى سابقًا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ مؤكَّدًا بإنَّ؛ مع اسميَّة الجملة، لأنَّه سُبِق بتكذيبٍ للرّسولَيْن الاثنَيْن؛ قال تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾، ثم قال: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾، فمُقْتَضَى هذه الآيةِ أنَّ الرَّسولَيْنِ الأوَّلَيْن أخبراهم - على وجهٍ خالٍ مِنَ التّوكيد - بأنّهما رسولانِ، فلمّا كذّبوهما عزّزهما اللّه برسولٍ ثالثٍ وأعادوا إثباتَ رسالة أنفسهم مع شيءٍ مِنَ التّوكيد كما سبق ذِكْرُه، فلمّا علت نبرةُ التّكذيب، وأنكر القومُ أن يكون الرّحمنُ قد أنزل عليهم شيئًا، واتّهموهم بالكذب، وبالغوا فيه على وجهٍ عالٍ و﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾: كان جوابُ الرُّسل: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، فأكّدوا رَدَّهم بمؤكّداتٍ ظاهرةٍ مشهورة في استعمالها للتّوكيدِ، وهيَ: إنَّ، واللّامُ، واسميَّةُ الجملةِ؛ ومؤكّداتٍ لطيفةٍ، وهي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 394.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 394.

قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ لأنّه يجري مجرَى القَسَمِ الذي هو مِن عناصرِ التّوكيدِ الظّاهرة، وتقديمُ المُسنَدِ إليه المُعرَّى مِنَ العواملِ في قوله: ﴿رَبُّنَا﴾ على خبره الفعليّ المُثبتِ ﴿يَعۡلَمُ﴾، فكان التّوكيدُ في الآيةِ عليًّا؛ ليُطابِقَ علوَّ إنكارهم وتكذيبِهم، ومُؤْذِنًا بأنّ القوم بلغوا أقصى ما يمكنُ مِنَ التّكذيبِ والإنكار[1].

فائدةُ تقديم ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على ﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾:

الرُّسُلُ يَقِفون على أرضٍ صلبةٍ في دعوتهم إلى الله

قدّم الجارُّ والمجرور على الخبر في قوله: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ للاهتمام بالمقدَّم؛ بمعنى: (إنّا مرسلون إليكم، ولم نأتِكم غلطًا)[2]؛ لأنَّ مضمونَ الآيةِ السّابقةِ يوحي بالحكم بغفلتهم إلى حدٍّ الوقوعِ في الكذب الذي صَرَّح القومُ بالحُكم به عليهم، كما يفيد التّقديمُ معنَى التّخصيص، أي: (إنّا إليكم - وليس إلى غيركم - لمرسلون)؛ ووراء هذا مِنَ المعنى: بيانُ أنَّ الرُّسُلَ لن يسكتوا عن دعوتهم إلى الإيمان والحقِّ ما داموا لم يُؤمَروا مِن قِبَل الله بهجْرِهم، ولعلَّ وراءه أيضًا إشعارًا باستعطافِهم لعلَّهم يؤمنون.

بلاغةُ مجيءِ الفاصلةِ على خلافِ مقتضى الظّاهر:

تَكرارٌ في الظّاهرِ، إيجازٌ عامِرٌ بالفوائدِ عندَ التَّدبُّرِ

لمّا ردَّ القوم على المرسَلين بإثبات بشريَّتِهم، وبإنكار أن يكون الرّحمن قد أنزَل شيئًا لإثبات دَعْوَى رسالتِهم، واتّهموهم بالكذب في قولهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ كان الظّاهرُ أن يُقال: (قالوا ربّنا يعلم إنّا لَصادقون)، لكنَّه عدلَ عن جوابِهم على مُقْتَضَى الظّاهر إلى قولِه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ ليكون التّعبيرُ بالإرسال مُضمَّنًا ثمانيةَ معانٍ:

أحدُها: تقريرُ بشريَّتِهم، إذ لم يُنفوها، و**الثّاني**: بيانُ أنْ لا تنافيَ بين

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 9، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 265، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 171.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 106.

البشريَّة والرّسالة، إذ لم يَنفوا بشريَّتهم، بل أثبتوا رسالتَهم، **والثّالثُ**: الرّد على قولِهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾؛ فإنَّ إثبات الرّسالة إثباتٌ لإنزال الرّحمن شيئًا؛ وهذا يُثبتُ دعوى الرّسالة، **والرّابعُ**: تقرير رسالتِهم، وتحقيقُها، **والخامسُ**: الرّدُّ على تكذيبِهم في قولِهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ بتضمين المعنى: أنَّهم صادقون؛ فإنَّ المعنى: ربُّنا يعلمُ إنّا إليكم لمرسَلون فيما دعوناكم إليه، وإنّا لصادقون؛ للإيذان بأنَّ الرّسول لا يكون إلّا صادقًا(1)، **والسّادسُ**: بيانُ الدّليل، فإنَّ الرّسالة مقترنةٌ بالدّليل والحجَّة والبرهان؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي: إنّا لصادقون في رسالتِنا، بما اقترن بالرّسالة مِنَ الحُجَّة والبيِّنة، **والسّابعُ**: الاستدلالُ على صِدْقِ ما ظهَر على أيديهم مِنَ الآيات بعِلْمِ اللّه بأنَّهم لَمرسَلون، **والثّامنُ**: الإيماءُ إلى الجوابِ عمّا قد يُقال: كَيفَ يكونُ علمُ اللّه تَعالى بأنّهم رسلُ اللّه حجَّةً عَلَيۡهِم؟ فالجوابُ عَنهُ: أَنَّ مَعۡنَاهُ: رَبُّنا يعلم إنّا إلَيۡكُم لَمرسَلون، بما أظهر على أَيۡدينا مِنَ الآيات والمعجزات، فَصارَت الحجَّة قائِمةً بِالآياتِ والمعجزات، لا بِنَفس العلم(2).

بلاغةُ التّعريضِ:

ردُّ العلمِ إلى اللّه تعالى فيه تحذيرٌ شديدٌ ووعيدٌ عظيمٌ

في قوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾: تعريضٌ بالمكذّبين، بالتّهديد والوعيد؛ فإنَّ مراجعةَ الرُّسلِ على طريق الاحتجاج، بردّ العلم إلى اللّه تعالى، ورضاهُم بعلمِه سبحانه بأنَّهم لمرسَلون: يلزمُ منه الحذرُ مِنَ المخالفة، ومِن معارضةِ علم اللّه تعالى؛ مع ما اقتضَى ما أتوا به مِنَ المعجزة لتصديق الدّعوة؛ ففيه تحذيرٌ شديدٌ، ووعيدٌ على التّكذيبِ؛ لِأنَّ المرسَلين ردّوا أمرَ العلم بكونِهم مرسَلين إلى اللّه تعالى(3).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 502.
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 4/ 371.
(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 184، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 449، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 162.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٧﴾ [يس: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المؤمنون لا يَلحقُهم وبالُ تكذيبِ الكافرين

لمّا قرَّر المرسَلون أمرَ رسالتِهم عند أصحاب القرية: أَتبعوه بالدّليل، وبالإعلام بأنَّ وبالَ التَّكذيبِ لا يلحقُهم منه ضررٌ؛ إشارةً لهم إلى الإنذارِ مِن عذاب الملك الجبّار، وأنَّهم لا يملكون أنْ يُنقذوهم مِن هذا العذاب، إن وقَع، فقال تعالى على لسان الرُّسلِ: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على لُحوقِ الشَّيْءِ، والوصولِ إليه، أو المُشارَفةِ عليه[2]، يُقالُ: بَلَغْتُ المكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه، وكذلك إذا شارَفْتَ عليه[3]، والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ[4]، والبَلاغُ: ما يُتَبَلَّغُ بِهِ، ويُتَوَصَّلُ إلى الشَّيْءِ المَطْلوبِ، والبَلاغُ أيضًا: ما بَلَغَكَ، والبَلاغُ كذلك: الكِفايةُ، وهو أيضًا: الإبلاغُ والإيصالُ[5]، والمقصودُ بالبلاغ في قوله تعالى: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: تبليغُ الرّسالة بوضوح.

المَعنى الإجماليُّ:

وقال الرُّسُلُ: وما يجبُ علينا إلّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللّهُ به إليكم، بلاغًا مُبينًا للحَقِّ، فإنْ لم تَقْبَلوا دَعوتَنا فقد أدَّيْنا ما علينا، وليس لنا من الأمرِ شَيءٌ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 107.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 416، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 694.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الوصلِ بالواو:

البلاغُ المبينُ هو المقترِنُ بالدّليل الواضح

أفاد عطفُ جملةِ ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ على جملة ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ بالواو: تحسينَ الجواب، وتقريرَه بالدّليل والحجَّة؛ وبيانُه أن يُقال: إنّما حسُن منهم هذا الجوابُ الواردُ على طريق التّوكيد والتّحقيقِ في قولهم ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، حينما يكون مقترِنًا بقولهم: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، والمعنى: ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسَلون، بالدّليل الظّاهر المكشوفِ مِنَ الآيات الشّاهدةِ لصحَّتِه؛ لأنّ البلاغ المبين هو الذي يكون بلاغًا مقترِنًا بالدّليل الواضح البيِّن، فهو المُحَسِّنُ للاستشهاد؛ فإنَّه لا يَحْسُنُ إلّا ببيّنةٍ، وإلّا فلو قال المُدَّعي: واللهِ إنّي لصادقٌ فيما أدَّعي، ولم يُحضِرِ البَيِّنَةَ: لم يكن حَسَنًا، فكان اقترانُ ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ بما قبلَه على طريق الإطناب: تتميمًا للحُجَّة، وتقريرًا لها[1].

وقد يُقال: إنَّ المرسَلين إنّما أظهروا اليمينَ في قولِهم: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ بعد ظهور البيِّنة وإفحام الخصم، فكان مجيء القَسَم في موضعِه مِنَ التّأكيد والتّقرير؛ لأَنَّ المتكلِّم إذا جاء بالقسَم تحقيقًا وتأكيدًا لحُجَّته البيِّنةِ فلا عجزَ، بل هو مِن تمام تقرير المعنى، وهذا يفيد أنّ الجواب عن إنكارِهم قد تمَّ بقول الرُّسل: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، لكونِه مؤكَّدًا بتأكيداتٍ عدّةٍ، لا سيَّما بالقسَم، لكنَّ تمامَه بالبيّنة الواضحة[2].

بلاغةُ القصْرِ الإضافيِّ في الآية:

الخروجُ مِنَ العُهدة بتبليغِ الرّسالةِ، وإثارة فكرِ الكافرين للنّظر والتّدبّر

قولُه: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: مؤسَّسٌ على أسلوبِ القصرِ بالنّفي والاستثناءِ؛ وهو أسلوبٌ قويٌّ؛ لأنّه يواجِه إنكارَ المُنكِرِ، أو

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 9، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 265، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 22، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 107.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 528، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 11.

جهلَ الجاهلِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ قلبيٌّ؛ لأنَّ المقصودَ به قلبُ ما في رأسِ القومِ الكافرين؛ مِنَ التَّنافي بينَ وصفِ الرِّسالة ووصفِ البشريَّة، وأنَّ الرَّسولَ فوقَ البشريَّةِ، وغيرُ قادرٍ على التّبليغِ؛ مع إنكارِهم وتكذيبِهم، وهو قصرُ موصوفٍ (وظيفتهم) على صفةٍ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

وهذا القصرُ يُلاحِظُ عَلاقةَ الرُّسلِ بربِّهم وبالمرسَل إليه، مِن جهة براءة ذمَّتِهم؛ والمعنى: وما عَلَيۡنا مِن جهةِ ربِّنا إلّا تبليغُ رسالتِه تبليغًا ظاهِرًا بيِّنًا بالآياتِ الشّاهدةِ بالصِّحَّةِ، وقد خَرَجۡنا عن عُهدته؛ فلا مؤاخذةَ لنا بعد ذلك مِن جهة ربِّنا، أي: إنَّ إنكاركم لا يضُرُّنا بعد ما كان علينا مِن أداء التّبليغ، وإنَّما هو يعود عليكم بالمضرَّة، وكذلك ما علينا شيءٌ نُطالَبُ به مِن جهتِكم إلّا تبليغُ الرِّسالةِ على الوجهِ المذكورِ، وقد فعلناه، فأيَّ شيءٍ تَطلبون منّا، حتَّى تُصدِّقونا بذلك؟[1]، وذَلِكَ مِنۡ شَأۡنِه أَنۡ يُثِيرَ النَّظَرَ الفِكۡرِيَّ في نُفوسِ القَوۡمِ، أي لم يبقَ منكم إلّا التّفكُّرُ والتَّذكُّرُ[2]، وبمجموعِ ما سبَق تحصُلُ التَّسليةُ لأنفس الرُّسُل.

فائدةُ حرفِ الجرِّ (على):

البــلاغُ أمـانـةٌ عظيمةٌ، ومقامٌ جليلٌ

تُفيد (على) الاستعلاءَ، حقيقةً أو مجازًا، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾: دالّةٌ على وجوب البلاغ المبين عليهم، بحيث يكون مُتمكّنًا منهم، فهم يتحمَّلونه ويَثبتون عليه، ما داموا مُتَّصفين بأنّهم رسلٌ.

فائدةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾:

مِن شأن الرُّسل بذلُ جميعِ ما في وُسْعِهم لهداية النّاس

(أل) في لفظَي: ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ لاستغراق أوصافِ الكمال، فتكون (أل) للكمال، والمعنى: ما علينا إلّا البلاغ الكاملُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163.

(2) النيسابوري، غرائب التفسير: 5/ 528، وابن عادل، اللباب: 16/ 185، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 362.

الوصفِ في البلاغيَّة، ووصولِ القول إلى المُخاطَبِ، والكاملُ الوصفِ في الإبانة والإيضاح.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾:

إيصالُ الخبرِ تامًّا كافيًا

عُبِّرَ بلفظ ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾، وهو اسمُ مصدرٍ مِنَ الإبلاغ الذي هو بمعنى إيصال الخبرِ إلى أقصى المقصدِ والمُنتهى على وفْق المعنى المراد؛ للإيذان بأنَّ على الرّسل إيصالَ الخبر إلى مَن أُرْسِلوا إليهم، بحيث ينتهي إليهم الخبرُ تامًّا، ويكون كافيًا لهم في حصول الإبلاغ، وعُبِّر باسم المصدرِ؛ للإشعارِ بأنَّ الواجب على الرّسل هو الحاصلُ مِنَ المصدر، وليس فعْلَ الحدث فقط، أي: الواجب هو حصولُ الإبلاغ، وليس فعْلَ الإبلاغ فقط مِن غيرِ إنجاز الحاصل منَ الإبلاغ، وهو الخبر الحاصل بتمام معناه عند المقصود بالإبلاغ الذي هو منتهاه؛ فإذا حصل البلاغُ حصل الإبلاغ، لأنَّه سببٌ له، ولهذا لم يَرِد في القرآن في بيان وجوبِ إيصالِ الدّعوة ذِكرُ المصدر، مثلُ التّبليغ أوِ الإبلاغ، فلم يرد إلّا اسمُ المصدر؛ كما في قوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: 99]، وقوله: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: 35]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ [النور: 54].

نُكتةُ وصْفِ البلاغِ بـ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾:

البلاغُ الكاملُ إنّما يَحسنُ ببيِّنةٍ واضحةٍ

لمّا كان المُبين بمعنى الظّاهرِ الذي لا إيهامَ فيه ولا موارَبةَ، البَيِّن بالآيات الشّاهدة، لصِحّته، ولصحَّة الرّسالة: كان مجيءُ وصف: ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ مُحسِّنًا للاستشهاد؛ لأنَّ البلاغَ الكامل لا يَحْسُنُ إلّا ببيِّنةٍ، وإنَّما يكون مبيِّنًا إذا كان مؤكَّدًا بالمعجزات الظّاهرة، والآيات المُشاهَدة[1].

بلاغةُ التّعريضِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ تعريضٌ؛ وبيانُه أنَّ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 13/ 22، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 22.

إنكارُ الكافرين لحقائقِ الإيمانِ مبنيٌّ على محْضِ العنادِ والحميّةِ الجاهليّةِ

الرّسل لمّا وصَفوا بلاغهم بـ:﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: أفاد أنّ إنكار المُنكرين للحقِّ ليس لخفاء حالِه وصحّتِه؛ لأنَّه مُبينٌ واضحٌ، بل إنكارهم مبنيٌّ على محض العناد، والحميّة الجاهليّة[1]، ففي الوصفِ به تعريضٌ بالقوم بأنَّ إنكارَهُم سببُه العِنادُ والعصبيَّةُ الذَّميمةُ.

مناسبةُ إجابةِ النّظيرِ بالنّظيرِ:

مقابلةُ الشّبهةِ المتعدّدةِ بالحُججِ المتعدّدةِ

لمّا نفى الكفّارُ رسالةَ المرسَلين بثلاثة أشياء: أَحَدها قَوْلُهُمْ: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، وثانيها قولُهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾، وثالثُها قولُهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾: قوبلوا عَلَى نَظيرِهِ بالجواب عليهم بِثَلاثَةِ أَشْياءَ؛ أَحَدها قَوْلُهُمْ: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾، ووجْهُ التَّأْكيدِ فيهِ: أَنَّهُ في مَعْنَى قَسَم، ويجري مجراهُ، وثانيها: تأكيدُ الرّسالة الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، وثالثُها قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[2].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 381.
(2) الزركشي، البرهان: 2/ 390.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ [يس: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من صفاتِ المغلوبين اللّجوءُ إلى الشُّبه الخفيَّة، وتنفيرُ النّاس من أهل الحقِّ

لَمّا غَلَبَتِ الحُجَّةُ القومَ المكذّبين مِن كلّ جانب، وبَلَغ قَولُ الرُّسُلِ: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مِن نُفوسِ أَصْحابِ القَريةِ مَبلَغَ الخَجَلِ، والاستِكانَةِ مِن إِخْفاقِ الحُجَّةِ، والاتِّسام بِميسَمِ المُكابَرَةِ والمُنابَذَةِ لِلَّذين يَبْتَغونَ نَفْعَهُمْ: انصَرَفوا إلى سَترِ خَجَلِهم وانفِحامِهم بِتَلفيفِ السَّبَبِ، لِرَفْضِ دَعْوَتِهِمْ بِما حَسِبوهُ مُقنِعًا لِلرُّسُلِ بِتَركِ دَعوَتِهم، ظَنًّا منهم أَنَّ ما يَدَّعونَهُ شيءٌ خَفيٌّ لا قِبَلَ لِغيرِ مُختَرِعِه بِالمُنازَعَةِ فيهِ، وذَلِكَ بِأَن زَعَموا أَنَّهُم تَطَيَّروا بهم، ولَحِقَهُم منهم شُؤم، ولا بُدَّ لِلمَغلوبِ مِن بارِدِ العُذرِ الذي هو أَشَدُّ مِنَ الخطأ[1].

وأيضًا: لَمّا ظَهَرَ مِن الرُّسُلِ المُبالَغَةُ في البَلاغِ ظَهَرَ منهم الغُلُوُّ في التَّكذيبِ، فلمّا قالَ المُرسَلونَ: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ قالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾، ولَمّا أَكَّدَ الرُّسُلُ قولَهُم بِاليَمينِ حَيْثُ قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ أَكَّدَ الكافرون قَوْلَهُم بِالتَّطَيُّرِ بهم؛ فجاءت هذه الآية[2].

وأيضًا: لَمّا كان حلولُ الصّالحين بين النّاس يكون تارةً نعمةً، وأخرى نقمةً؛ باعتبارِ التّصديقِ والتّكذيب، والإساءةِ والإحسانِ، فكان قد حصل لهؤلاء الذين كذّبوا هؤلاء الرسل بلاءٌ، لتكذيبهم لهم، مِن جَدْبِ الأرض، وصعوبةِ الزّمان، ونحوِ ذلك مِنَ الامتحان: ذكَر ما أثَّرَه ذلك عند أهل القرية، فقال تعالى:﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ الآية[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 362.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 261.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 107.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾: (طير) أَصْلُ الطّيَرةِ مِنَ الطَّيْرِ، وهو الحيوان الطّائر؛ كالغُراب ونَحوِه، والطّيَرة: التَّشاؤم، يُقالُ: تَطيَّر بالشَّيء، يتطيَّر، تَطيُّرًا، وطيرةً، أي: تشاءم به[1]، والتَّطايرُ: التَّفرُّق والذَّهاب، ومنه سُمّي التَّشاؤم طيرَةً؛ لأنَّ أغلبَ اعتمادهم كان مِن جهة الطّيور وأفعالها[2]، والمُرادُ بقوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي: إنّا تشاءمنا بكم، ولم نر على قدومكم علينا واتّصالكم بنا إلّا الشّرّ.

2) ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾: أصلُ (رجم) الرَّمْيُ بالحِجارَةِ، ثُمَّ يُستعارُ مِن ذلكَ الرِّجامُ، وهي الحِجارَةُ، يُقالُ رُجِمَ فُلانٌ؛ إذا ضُرِبَ بالحِجارةِ[3]، والرَّجَمُ - بفتْح الجيم -: القَبْر، سُمّي رَجَمًا لِما يُجْمَعُ عليهِ مِنَ الأحجار والرِّجام[4]، والرَّجم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْم، ومنه قوْلُه تعالى حكايةً عَن أبي إبراهيم لابنِهِ إبراهيم عليه السلام: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أَي: لأَسُبَّنَّكَ وأَشْتُمَنّكَ، والرَّجيم في نعت الشَّيْطان المرجومُ بالنُّجوم[5]، والرَّجمُ في الآية مُرادٌ بهِ القتلُ بالحِجارة رميًا.

3) ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾: أصلُ (مسّ) يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[6]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصلت: 51]، وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73][7]، والمَسوسُ مِنَ المياه: ما نالته الأيدي[8]، وحاجةٌ ماسَّة؛ أَي: مُهِمَّةٌ[9]، وحقيقةُ المَسِّ في الآية مُستَعْمَلٌ في الإصابَةِ على وجْهِ المجازِ بالاستعارَة.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طير).

(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (طير).

(3) ابن فارس، مقاييس الله: (رجم).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 316.

(8) الخليل، العين: (مسس).

(9) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّطيُّرُ كان مِن شأنِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ

قال أصحابُ القَريةِ لِرُسُلِهم: إنّا تشاءَمْنا بكم، ومِن تبليغكم ودعوتكم؛ فقدِ افتتن بعضُ القوم بكم، وتفرَّقت كلمتُنا، وانفرط عقدُ وحدتنا، ولئن لم تنتهوا عن بثِّ هذه الدَّعوة بيننا: لنَرجمَّنكم بالحِجارة رجمًا، ولنُمثِّلَنَّ بكم شرَّ التَّمثيل، أو لنُعذِّبنَّكم عذابًا شديدًا؛ وأنتم أحياء[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

إذا ضعُفت حُجَّةُ الباطل لجأَ إلى إشاعةِ تشويهِ الحقِّ

جاءتِ الآية بالفصل؛ على طريق الاستئناف البيانيّ؛ لِحكاية التّقاوُلِ بين القوم المكذّبين والمرسَلين، والسّرُّ في حذف العاطف - وهو الواو - أنَّ العاطف ينتظمُ الجُملَ حتى يصيِّرَها كالجملة الواحدةِ، فاجتنب لإرادة استقلال كلِّ واحدة منها في معناها[2]، وفي الاستئناف البيانيِّ استدرارٌ لأسماع المخاطَبين، لأنَّ كلَّ جملةٍ واقعةٌ في جواب سؤالٍ مُقدَّرٍ، لمعرفة جواب الفريق الآخر، ممّا يُشعرُ بأهميَّتِه، ومطاولةُ المقاولة تدلُّ على عزّة المُرسَلين، وقوّةِ حُججِهم، وتأثيرِها في نفوس المخاطَبين، مع قلّة عددهم، وتدلُّ على ضعف القوم المكذِّبين، وضعفِ حُججِهم؛ مع كثرة عددهم؛ فإنَّه لمّا ألزمهم الرّسلُ بأنّهم قد بلّغوا بالآيات الواضحة، وخرجوا مِنَ العُهدة: انتقلوا إلى بحثٍ آخَرَ، كما هو ديدنُ المغلوبين السّفهاءِ، حين يعجزون عن معارضة أهلِ الحقِّ العظماءِ[3].

فائدةُ التّأكيدِ بـ(إنَّ):

التّأكيدُ صورةٌ لكمالِ إحساسِهم بكذِبِهم وغلبتهم

تفيد (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملة الاسميّة: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 416، و417، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 569، و570، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 152.
(2) ابن المنير، حاشية على الكشاف: 2/ 116.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 108.

وتقريرَها، والمقامُ مقامُ تأكيدٍ وتقرير؛ للمبالغة في محاولة إظهارِ صدْقِ مقالتِهم، بعد غلبة حُجّتهم، وظهورِ مكابرتِهم وعنادِهم، إذ ليس لهم بعد دفع حُججهم إلّا التّأكيدُ والتّرهيبُ والتّخويفُ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان المكذِّبون يتوقّعون تكذيبَ النّاس لهم؛ لِما يرون على الرّسل مِنَ الآيات، وظاهرُ الكرامات، ممّا يشهد ببركتهم: أكّدوا قولَهم بـ(إنَّ)، لتقرير شُبْهتِهم عند المخاطَبين[1].

قوةُ حُجّةِ الحقِّ ثقيلةٌ على نفوسِ الباطلِ

دلالةُ حذْفِ النّونِ:

﴿إِنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أصلُه: (إنّنا)، فحُذفت نونٌ مِن هذه النّوناتِ الثّلاثة، وغرضُ الحذفِ: تصويرُ الإسراعِ في إخبار الرُّسُلِ بالتّطيّر منهم؛ للتّضجُّرِ والضّيقِ والغضبِ منهم؛ بقرينة سياقِ التّطيّر، وقولِهم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

الرضّا بالقول بمثابة القولِ به

دلالةُ إسنادِ التَّطيُّرِ إلى الجماعة:

أُسْنِدَ فعلُ التَّطيُّرِ إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾؛ للإشعار بأنَّ جميع أهلِ القرية قالوا به، أي: يقول المقالةَ الواحدُ منهم، أوِ الجمعُ، فيوافقُهم أهلُ القرية رضًا منهم به، فكان إسنادُ التَّطيُّرِ إلى الجميعِ في ظاهر اللّفظِ على جهة المجاز العقليِّ[2].

إمعانُ أهلِ الباطل في الكفرِ والعنادِ

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على خبرِه الفعْليِّ:

جاء المُسنَدُ جملةً فِعليَّةً في قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ لتقوّيَ الحُكمَ، أيْ: لتحقيق تطيُّرِهم بالمرسَلين وتقريره، بمعنى أنَّ التّطيّر لا يكون إلّا بسببكم وسببِ دعوتِكم، كأنّه خبرٌ لا يحوم حولَه ريبٌ، وحُكْمٌ لا تُحيط به شُبْهةٌ؛ والقومُ بذلك يريدون تشويهَ صورةِ المرسَلينَ، فيُذيعونَ ذلك، ويُشهِرونه، ويبتغون أنْ يدخل في النّفوس،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 107.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 363.

فلا يخرجُ منها أبدًا، لِبُغضِهم للإيمان، وللرُّسُل، وعبَّروا بهذا الأسلوب إمعانًا في كفرِهم وعنادِهم.

بلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾:

مِن شُبَهِ الكافرين أنَّ الدّخولَ في دين الحقِّ مُؤْذِنٌ بالشَّرِّ والهلاكِ

عُبِّرَ بقوله: ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ على جهة الكنايةِ؛ وبيانُها: أنَّ الأصلَ في التّطيّرِ تَكَلُّفُ معرفَةِ دلالَةِ الطَّيرِ على خيرٍ أو شَرٍّ، مِن تَعَرُّضِ نوعِ الطَّيرِ، ومن صِفَةِ اندفاعِهِ، أو مجيئِهِ يُمنةً أو يُسرةً، ثُمَّ أُطلِقَ على كُلِّ حَدَثٍ يَتَوَهَّمُ منهُ أَحَدٌ أَنَّهُ كانَ سَبَبًا في لَحاقِ شَرٍّ بِهِ[1]، فاستعمله العربُ كنايةً عنِ التّشاؤمِ، وأنَّه لا يكونُ مِنَ المتطيَّرِ منه إلّا البلاءُ والشّرُّ، فقلَّما يُستعمل: (تطيَّر) في الخير، فلا يكاد يُستعملُ إلّا في الشُّؤم، والمعنى: إنّا تشاءمنا بكم، فإنْ أصابنا بلاءٌ أو شرٌّ فبِسببكم، ومِن أجلكم[2]؛ وذلك أنَّهم كرهوا دينهم، ونفرت منهم نفوسُهم، وعادةُ الجُهّال أنْ يتيمَّنوا بكلِّ شيءٍ مالوا إليه، واشتَهَوه، وآثروه، وقَبِلَتْه طباعُهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم نعمةٌ أو بلاء قالوا: ببركة هذا، وبشؤم هذا؛ كما حكى اللّه عنِ القبطِ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]، وعن مشركي مَكّةَ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النساء: 78][3]، وفي التّعبير بالتّطيّر بسبب المرسَلين إيماءٌ إلى أنَّ دخولَهم في دينهم مُؤْذِنٌ بالشّرّ والبلاء، ففيه تحذيرٌ لقومِهم مِنَ الرّجوع عن عبادة الأصنام إلى توحيد اللّه، والإيمانِ برُسلِه.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ لفظ التّطيّر جارٍ على الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، وذلك أنّ العربَ كانوا إذا خرجوا مسافرينَ، فمرّوا بطائرٍ زجروه؛ فإنْ مرَّ سانحٌ تيمَّنوا، وإنْ مرَّ بارحٌ تشاءموا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 362.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 502، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 449.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 9، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 395.

فلمّا نسبوا الخيرَ والشرَّ إلى الطّائرِ استُعير لِما كانَ سببًا لهما، مِن قدَرِ اللّه تعالى، وقِسْمته، أو مِن عمل العبدِ، بتشبيه الحظِّ بالطّائر، لأنَّه لا يُعرفُ كيف سَيطيرُ يمنةً أو يسرةً؟ فيكونُ التّعبيرُ بالتّطيّر ممّا تحصَّل مِنَ النّظر في الطّائر، ثم صار اللّفظُ مُستعارًا لِما يُتشاءَم منه، بكثرة الاستعمالِ(1).

وذهب آخرون إلى أنَّ لفظ التّطيّر جارٍ على المجاز المرسَل؛ وذلك أنَّ العربَ كانوا إذا أرادوا الإقدامَ على عملٍ منَ الأعمال، وأرادوا أنْ يعرفوا أنَّ ذلك العملَ يَسوقهم إلى خيرٍ أو إلى شرٍّ: اعتبروا أحوالَ الطَّير؛ وهو أنَّه يطير بنفسه، أو يُحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار فهو يطير مُتيامِنًا أو مُتياسِرًا، أو صاعدًا إلى الجوّ، إلى غير ذلك مِنَ الأحوال التي كانوا يعتبرونها، ويستدلّون بكلِّ واحدٍ منها على أحوال الخير والشّرّ بالطّائر، فلمّا كثُر ذلك منهم سُمّيَ الخيرُ والشّرّ بالطّائرِ؛ ليكون مجازًا مُرسلًا؛ مِن تسميةِ الشّيء باسم لازمِه(2).

أهـلُ الـبـاطـلِ يَـشُـقّـون على أنـفـسِـهـم بالباطل

دلالةُ صيغةِ (تفعّل):

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ بصيغة (تفعّلَ) التي تدلُّ على التّكلّف، ليفيد أنَّهم كلّفوا أنفسَهم الطّيَرة، وأنّها لم يكن لها مجالٌ عندهم في عَلاقَتهم وموقفِهم مِنَ الرُّسلِ، أي: حملنا أنفسنا على الطّيرةِ والتّشاؤم؛ ويَحتمل أن تفيد الصّيغةُ معنى الاتّخاذ كذلك، ليكون المعنى أنّهم اتّخذوا الطّيرة حظًّا بسبب الرُّسلِ ودعوتِهم.

فائدةُ الباءِ في قوله ﴿بِكُمۡۖ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ سببيَّةٌ، ولمّا تعلّق الحرفُ بالضّمير (كُمْ) أفاد أنَّهم تطيّروا بسبب وجود الرُّسل بينهم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 450، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 290، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 108.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 225.

نُكتةُ ربْطِ سببيَّةِ التّطيّرِ بذاتِ الرُّسل:

المبالغةُ في التّشاؤم والإيذان بإبعادِهم

رُبطَ التّطيُّرُ بذات الرُّسل في قولِه ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ ولم يقل: (تطيّرنا بدعوتِكم) مثلًا، للمبالغة في بيان تطيّرِ القوم المكذّبين بالرّسل مِن جهة دعوتِهم، فإنّه يلزمُ مِن تطيُّرهم بذواتِهم تطيّرُهم بوجودِهم بينهم، وبكلِّ ما يَصدرُ عنهم، ويفيد تطيّرُهم بذات الرّسل أيضًا الإيذانَ بإخراجِهم، أو قتلِهم؛ لأنَّ المُتطيّر مِن ذاتٍ ما يَجهدُ في إبعادِها.

فائدةُ الفصلِ في قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾:

التّرقّي مِنَ الإشعارِ بالتّهديد إلى التّصريح به

لمّا قال المكذِّبون للمرسَلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ كان تطيّرُهم سببًا للتّهديد والتّوعيد، فجاء قولهم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ مِن غير عاطفٍ، ليكون استئنافُهم استئنافَ النّتيجةِ للسّبب، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ليفيد أنَّ توعّدَهم للرّسل بالرّجم والعذاب الأليم نتيجةٌ لتطيّرهم بهم، ليُقنعوا قومَهم بما يريدون فعلَه بالرّسل[1]، فهذا التّهديدُ والوعيدُ بجملة ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ مِن لوازم جملة التّطيُّر، فكان ذلك إفصاحًا بما سكَتَ عنه، وتوكيدًا لها، فبينهما كمالُ اتّصالٍ.

فائدةُ لامِ القسَمِ:

ضعُفت حُجّتُهم، فلجأوا إلى الدّماءِ

تفيد اللّامُ الموطّئةُ للقسَم في قوله ﴿لَئِن﴾ تأكيدَ مضمون الشّرط وجوابِه، وسببُ إيرادِهم جملةً مِنَ المؤكِّدات في بيان هذا الوعيد: ضعفُ شُبُهاتِهم ووهنُها، والإعلامُ بأنَّ ما أخبروا به مِنَ التّهديد لا فترةَ لهم عنه، فلا يتأخّرون عن رجْمِهم ومسِّهم بالعذاب الأليم[2].

سببُ مجيءِ الشّرطِ بـ(إنْ):

لمّا كانت (إنْ) الشّرطيةُ تفيد نُدرةَ وقوع الشّرط، أوِ استحالتَه:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.

مِنَ المستحيل شرعًا أنْ يقِف المرسَلون عن إبلاغ رسالتِهم

عُبّر بها في قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾؛ لأنَّ المكذِّبين كانوا يشكّون في أنْ يترك المرسَلون بلاغَهم ودعوتَهم، لعلمِهم بصدقِ دعوتِهم، وفيه إيماءٌ إلى عناد المكذِّبين وطغيانِهم، لشكّهم في ما يدعون المرسَلين إليه.

دلالةُ ﴿لَّمۡ﴾:

قد بدَتِ البغضاءُ مِن أفواهِ القوم

في قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ دخلت أداةُ الشّرط (إنْ) التي تكون للمستقبل على أداة النّفي والجزم ﴿لَّمۡ﴾، فصرَفَتْها عن نفي الماضي إلى نفي المستقبل، والمعنى: إن لم تنتهوا بعد الآن لنرجُمَنَّكم، فيكونُ التّهديدُ أَشَدَّ وأقوى، لاقترانه بالمستقبل.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الفعلِ في ﴿تَنتَهُواْ﴾:

وصولُ المرسَلين إلى حدِّ النّهاية في إبلاغ الرّسالة وظهورِ الحجّة

الانتهاءُ هو تركُ ما يُزجر عنه؛ بحيث يقف عند حدِّه، ولا يتخطّاه، وهو أبلغُ منَ النّهي؛ لأنَّ الانتهاء يكون لِما قد فُعِلَ، والنّهيُ يكون لِما كان قد فُعل، أو لِما لم يُفعل أصلًا، ففي التّعبير بلفظ ﴿تَنتَهُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّ الرُّسلَ قد بلَغوا حَدَّ النّهاية في إبلاغ الرّسالة، وظهورِ الحجّة، بحيث طلَب منهم المكذِّبون أن يتوقّفوا عنِ البلاغ، وينتهوا عند هذا الحدِّ، ولا يتجاوزوه، لِقوّة حُجَج المرسَلين، وعظيمِ بيانِها.

دلالةُ الشّرطِ المنفيِّ:

إيذاءُ الرُّسل وتهديدُهم بسببِ تبليغِ الرّسالةِ

لمّا جاء الشّرطُ منفيًّا في قولِه: ﴿لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ أفاد أنَّ الجزاء - وهو: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ - يقعُ بأيِّ أمرٍ يحصلُ به عدمُ انتهاء تبليغِ المرسَلين، مِن قولٍ، أو فعلٍ، أو إشارةٍ؛ ففيه تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ.

دلالةُ حذْفِ متعلَّقِ الفعلِ:

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿تَنتَهُواْ﴾ في قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ للإيذان بعموم الانتهاء، أي: (لئن لم تنتهوا عن مقالتِكم، ودعوتِكم،

وإبلاغكم، وعن إنذارنا، وإن لم تنتهوا عمّا ذكرتم، مِن أنّكم أُرسِلتم إلينا بالبراءة مِن آلهتنا، والنّهيِ عن عبادتها)، فحُذِفَ المتعلَّقُ لقصد العموم، للإشعار بأنّهم يريدون أن ينتهيَ الرّسلُ عن كلّ شيء، كرهًا لهم ولِما يدعونَهم إليه.

كلُّ ما يكون مِنَ الـرُّسـلِ محلُّ تـشـاؤمٍ لـدى الكافرين

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾:

لمّا أراد المكذّبون صراحةً أن ينتهي الرّسلُ عن كلّ شيءٍ، أفاد بلازمِه أنَّ المكذّبين لم يَقبلوا أيَّ قولٍ مِنَ المرسَلين، ولم يستجيبوا لهم في أيِّ شيءٍ، وأنَّ كلَّ ما صدرَ مِنَ المرسَلين بوصفِ رسالتِهم كان عكسَ ما يشتهون ويرغبون؛ ففيه إشعارٌ بسوء ما كان عليه القومُ في الفعل والقول.

طـلـبُـهـم مِـنَ الرُّسُلِ أنْ ينتهوا كنايةٌ عن غايةِ سـوءِ تلقّيهم دعوتَهُم

سرُّ العُدولِ عنِ الطّلبِ إلى الشّرط:

لمّا تضمّن الشّرطُ معنى الطلب، بمعنى طلبِ المكذّبين مِنَ المرسَلين أن ينتهوا عن كلِّ شيءٍ في تبليغ رسالتِهم، كان كأنّ سائلًا يَسأل فيقول: فلِمَ لَمْ يَطلبِ القومُ مِنَ الرّسل الانتهاءَ بصيغة الطّلب، بأن يقولوا: (انتهوا)؟ والجوابُ هو أنّه لو جيء بالطلب لكان يتطلّب جوابًا، والجوابُ حينئذٍ لا يكون إلّا بالوعد والخير، فيستمرُّ بابُ دعوتهم إلى الحقِّ، ومناقشتِهم فيه، وهم يريدون إغلاق هذا الباب، ومِثْلُه لو قيل: (لئن انتهيتم)، ولمّا لم يكن لهم ما يُقدّمونه للمرسَلين، وكانوا يعلمون يقينًا أنَّ الرّسل لا يَرْضَوْن بما هم عليه مِنَ الشّهوات والمنافعِ الدّنيوية: لم يكن بأيديهم إلّا أنْ يتوعّدوا الرّسلَ؛ لأنَّ قصدَهم زجرُ الرّسل عن إبلاغ رسالتِهم، والزّجرُ يحصل بالتّهديد والوعيد، فاقتضَى الكلامُ أنْ يكون بأسلوب الشّرط بصيغة ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾، ليكون جزاءُ الشّرط تهديدَ الرّسل بالرّجم والعذاب الأليم.

جَـنـحـوا إلى أسلوبِ التّهديدِ والوعيدِ

دلالةُ التّعبيرِ بالرّجم:

الرّجمُ هو الرّمي بالحجارة، ولا يُستعمل هذا اللّفظُ إلّا في

التّعبيرُ بالرّجم يـفـيدُ الإبـعـادَ بالقتلِ أوِ الطّرد

مقام التّعذيب، على سبيل القتل، أوِ الطّرد والإبعاد، فكان تعبيرُ القوم المكذّبين بلفظ الرّجم في قوله تعالى: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ مفيدًا أنَّهم قصدوا إبعادَ المرسَلين عنهم، قتلًا أو طرْدًا مِن قريتِهم، وهو المناسبُ لتطيُّرِهِم.

دلالةُ الجمعِ بين المعطوفَيْن في جزاء الشّرط:

الزّجرُ على سبيلِ التّرقّي في التّهديد أبلغُ وأشدُّ

لمّا جاء الجزاءُ بالعطف بالواو التي لا يبرحُها معنى المغايرة في قوله تعالى: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أفاد أنَّ الرّجم غيرُ مسِّ العذاب الأليم، فيَحتمل أن يكون المرادُ مِن ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ لنقتلنَّكم بالرّمي بالحجارة[1]، فيكون مجيء المعطوف ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على سبيل البيان والإيضاح للرّجم، والمعنى: لا يكون الرّجمُ رجمًا قليلًا بحجر أو حجرين، بل نُديم ذلك عليكم إلى الموت؛ وهو عذابٌ أليمٌ، ويكونُ المُرادُ: (لَنَرْجُمَنَّكُمْ، ولَيَمَسَّنَّكُمْ - بِسَبَبِ الرَّجْمِ - عَذابٌ مِنّا أَليمٌ)[2].

ويَحتمل أن يكون العطفُ على التّنزّل، بمعنى: (لنرجمنَّكم بالقتل، وأقلُّ ما يصيبكم منّا هو العذاب الأليم).

ويَحتمل أن يكون ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بمعنى: (لنرمينّكم بالحجارة، طرْدًا لكم)[3]، والمعنى: (لنطردنَّكم، ولنبعدنَّكم)، أي: (لنخرجنَّكم من قريتنا)، فيكون مجيءُ المعطوف ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على سبيل التّرقّي في الزّجر والتّهديد، أي: (لا نكتفي بإخراجكم وإبعادِكم، وهو عذاب معنويٌّ، بل نزيدُ عليه الضّربَ والإيلامَ الحِسّيَّ)، وهذا مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛

---

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 348، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 100، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 262.

(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير، ص: 12، و348، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 100، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.

لأنّ في الرّجم عذابًا أليمًا، والعذابُ الأليمُ يكونُ بالرَّجْم وغيرِه، وما مِن عذابٍ حسّيٍّ إلّا ويتْبَعُه ألمٌ نفسيٌّ، والألمُ النَّفْسيُّ يؤثِّرُ بالسَّلْبِ على الأعضاء والجوارح.

دلالةُ التّعبيرِ بالمسِّ:

حينَ يجتمعُ البغضُ والضّعفُ تظهرُ حقارةُ المُبْغِضِ

عُبّر بالمسِّ في قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ للإشعار بقوّة تأثير إيقاع الضّرِّ إن أوقعوا العذابَ بهم، بحيث يُخالِطُ العذابُ أجسادَهم، ويُحسّون به، ويُدركونه، وفي التَّعبير به - دون الإصابة - إحساسٌ بأنّهم لن يبلُغوا في الرُّسُلِ ما يريدونَ مِن تعذيبِهم؛ لأنّهم مُؤيَّدون مِن قِبَلِ اللّهِ تعالى.

فائدةُ تتابُعِ التّأكيدِ:

تتابَع التّأكيدُ باللّام ونون التّأكيد في جزاء الشّرطِ في الفعلين ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ لإفادة إصرار القوم الكافرين على رجم الرُّسل، ومسِّهم بعذاب أليم.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

القومُ يُغلقون بابَ الدعوة، ويفتحون بابَ الحرب

أفاد التّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعلَين في قوله: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ تهديدَ الرّسل بأنَّهم يقصدون رجْمَهم ومسَّهم بالعذاب عاجلًا؛ معَ استمرارِهم على رجمهم وتعذيبِهم؛ حتَّى ينتهي الرّسلُ عمّا يدعونهم إليه.

فائدةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ):

التّجرّؤُ الصّريحُ على الرُّسُلِ

كلمة (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّنَّا﴾ لابتداء الغاية المكانيَّة، فيفيد ذلك ابتداءَ مسِّ العذاب مِنَ القوم المُكذِّبين، بمعنى: أنَّه يصدرُ منهم لكي يَخافهم المرسَلون، ويَهابوهم، فينتهوا عن دعوتِهم، وتبليغِ رسالتِهم.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعل:

يفيد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿مِّنَّا﴾ على الفاعل الموصوف

قُبحُ الكافرين وشدّةُ جرأتِهم في زجرِ المرسلين عليهم السلام

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العنايةَ والاهتمامَ بالمُقدَّم؛ ووجهُ ذلك قصرُ صدورِ المَسِّ بالعذاب الأليم على المُقدَّم مع التّخصيص، أي: (ليمسّنكم مِنّا - وليس مِن غيرنا - عذابٌ أليمٌ)، والمعنى: (نحنُ بأنفسِنا سنقوم بتعذيبِكم، فالعذابُ يَمسّكم مِنّا، وليس مِن غيرنا، كما تقولون أنتم في تهديدكم إيّانا بأنّنا سنُعذّب ممَّن أرسلكم)[1]، ففيه بيانٌ لشدّة قبحِهم وجَرْأتِهم على المرسَلين، وفي التّقديم أيضًا رعايةٌ للفاصلة ورؤوسِ الآي.

التّخويفُ بالباطلِ مِن سياسةِ الكافرين

سببُ إيثارِ مجيءِ الفاعلِ وصفتِه نَكِرَتَين:

لم يقلِ القومُ الكافرون: (وليمسّنكم مِنّا عذابنا الأليم)؛ بل قالوا: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لأنَّ القوم أرادوا المبالغةَ في الزّجر، بمجيء الفاعل وصفته نكرتيْن، ليدلَّ التّنكيرُ على التّعظيمِ؛ فهو عذابٌ وسيعٌ، وألمُه جليلٌ لا يُطاق.

الإبلاغُ في التّهويلِ والتّخويفِ

نُكتةُ وصفِ العذابِ بالأليم:

لمّا كان العذابُ لا يكون إلّا أليمًا موجعًا: كان وصفه بـ﴿أَلِيمٌ﴾ للمبالغة في بيان الإيجاع والأذى، والمُرادُ هو التّعذيبُ المُؤلم مِن غير تقييدٍ بنوعٍ خاصٍّ، وهذا هو الظّاهرُ[2].

التّهديدُ بشدّةِ العذابِ كنايةٌ عن شِدَّة النُّفور

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة (فعيل):

يَحتمل أن تكون صيغةُ (فعيل) في قوله ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى اسم الفاعل (مُفعِل)، أي: عذابٌ مُؤلمٌ، ويَحتمل أن يكون: ﴿أَلِيمٌ﴾ جاريًا على النَّسَب، مِن باب النَّسَب بالصّيغة، مثل قَوْلِه تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٢١﴾ [الحاقّة: 21]، على حمله على ذلك، أَيْ: ذاتِ رِضًا، والمعنى: عذابٌ ذو أَلَم، وهو أشدُّ مبالغةً مِن أن يقال عذاب مؤلِم، وفي التّعبير بصيغة ﴿أَلِيمٌ﴾ رعايةٌ للفاصلة[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 108.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 418.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 262.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّشاؤم والتّطيّر:

الشُّؤمُ خلافُ اليُمن، ويُقال: شأم فلان أصحابَه؛ إذا أصابهم شؤمٌ من قِبَلِه، والشّؤمُ في كلام العرب: النَّحس، وهو توقّعُ حصولِ الشّرّ مطلقًا مِن ذاتٍ مِن غيرِ سببٍ محقَّقٍ، وأمّا التّطيّرُ فهو مأخوذ مِنَ الطّائر في أصل إطلاقه، وذلك أنّ الرّجل قبل الإسلامِ إذا أراد السّفرَ بكّر إلى أوكار الطّير، فهيَّجها، فما ذهب عن يمينه سمّوه سانحًا؛ فيتفاءلُ بالسّانحِ، ويستبشر خيرًا، ثم يمضي في سفره، وما ذهَب عنْ شَماله سمّوه بارِحًا؛ فيتشاءم بالبارحِ، ويردُّه ذلك عن إمضاء أمره، فالشّؤمُ يكون بالذّوات، وأمّا الطّيرة فتكون بالذّوات، أو بالأعمال، أو بالأقوال، فالطّيرةُ أعَمُّ.

التَّشاؤمُ بالذّوات، والتَّطيُّرُ أعمُّ

الطّيَرة والتّفاؤل:

الفرق بينهما هو أنَّ الفألَ إنَّما هو من طريق حُسْن الظنِّ باللّه، وهو ما يُظَنُّ عندَه الخيرُ، مثلُ الكلمة الحسنة، يسمعُها الرّجل من غير قصد، نحو: يا فلاح، يا مسعود، والطّيرةُ: إنَّما هي مِن طريق الاتّكال على شيء سوى اللّه تعالى، وهي ما يُظَنُّ عنده الشّرُّ، فيكونُ بينهما تباينٌ كلّيٌّ.

شاعَ عُرْفًا مدحُ الفأل وذَمُّ الطّيَرةِ

أو يُقال: الفَأْلُ أَعَمُّ مُطلقًا مِنَ الطّيَرَةِ، وأَنّه عِبارةٌ عمّا يُظَنُّ عندهُ الخَيْرُ أوِ الشَّرُّ، وذلك أَنَّهُ تارةً يَتَعَيَّنُ للخَير، وتارَةً للشَّرِّ، وتارَةً يَتَرَدَّدُ بَينَهُما، فالمُتَعَيِّنُ لِلخَيرِ مِثْلُ: الكَلِمَةِ الحَسَنَةِ يَسمَعُها الرَّجُلُ من غيرِ قَصدٍ، نحو: يا فلاح، يا مَسعودُ، ومنه تَسميَةُ الوَلَدِ والغُلامِ بالاسم الحَسَنِ، حَتَّى متى سَمِعَ استَبشَرَ القلبُ، ومِثلُ المَنظَرِ الحَسَنِ يَراهُ الرَّجُلُ من غير قَصدٍ، فيستَبشِرُ به، والمُتَعَيِّنُ للشَّرِّ مثل الكَلمَةِ القَبيحَةِ يَسمَعُها الرَّجُلُ من غيرِ قَصدٍ، نَحوُ: يا خَيبَةُ، يا ويلُ، ومنه كَراهَةُ تَسميَةِ الوَلَدِ والغُلامِ بالاسم القَبيحِ، واستعمالُ الفألِ في الخير أكثرُ، واستعمالُ الطّيَرة في الشَّرِّ أوسعُ[1].

(1) القرافي، الفروق: 4/ 262، وإسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 381.

أو يُقال: إنَّ الفأل رجوعٌ إلى قولٍ مسموعٍ، وأمرٍ محسوسٍ، يَحْسُنُ معناه في العقول، فيُخَيَّلُ للنفس وقوعُ مِثْلِ ذلك المعنى، ويحسُن الظَّنُّ بالله سبحانه، ورجاءُ الخير منه بأدنى سبب لا يقبحُ، والطّيرةُ أَخْذُ المعاني مِن أمور غيرِ محسوسة، ولا معقولة، ولا معنى يشعر العقل بما يَتوقَّع مِن ذلك، فلهذا فارقتِ الفألَ.

والطّيَرَة لا تقع إلّا على توقُّع أمر مكروه، والفألُ يقَع على ما يُحَبُّ ويُكْرَهُ، والمُستحسَنُ منه ما يُحَبُّ[1].

(1) المازري، المعلم بفوائد مسلم: 3/ 178 - 179.

﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾

[يس: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من أوصاف المؤمنين الرّدُّ على الشُّبهات في الدّين

لمّا قال القوم المكذّبون: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أجاب عليهم الرّسل، دافعينَ ما زعموه منَ التّطيّر: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ فجاءتِ الآية على طريق المقاولة؛ للإشعار بطول المُحاوَرة بين أصحاب القرية والمرسَلين(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾: أَصلُ (سرف) مُجاوزةُ الحَدِّ، والإغفال للشَّيء، يُقالُ: أسرفَ يُسرِفُ إسرافًا وسرفًا، أَيْ: جاوزَ الحَدَّ، ولم يَعتدِلْ، وضِدُّهُ القَصْدُ والاعتدالُ(2)، وأَمّا الإغفالُ فقولُ القائلِ: مررتُ بكم، فَسَرِفتُكم، أَيْ: أَغفلتُكم(3)، والإسرافُ أيضًا: التَّبذيرُ، والمُسرِفُ: المُبذِّرُ(4)، ويُطلَقُ الإسرافُ أَيْضًا على الإتلافِ والتَّضييع، تَقولُ: سَرِفَ الطَّعامُ، أَيْ: ضاعَ وتَلِفَ(5)، والمُرادُ بالإسرافِ في الآيةِ: البُعدُ عن حدِّ الاعتدال مع عَدم المُبالاة(6).

المَعْنى الإجماليُّ:

الشُّؤمُ الحقيقيُّ هو الكفرُ وتكذيبُ الرُّسل

أخبر اللّه تعالى عمّا أجاب به المرسَلون القومَ المكذّبين، فقالوا: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكمُ البلاءَ إنَّما هو معكم، بسبَبِ ضَلالِكم وكفرِكم، وليس بسَبَبِنا كما زعمتُم، أتتوعّدوننا، إنْ وعَظْناكم،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 418.
(2) الخليل، العين: (سرف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سرف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).
(5) المعجم الوسيط: (سرف).
(6) المراغي، تفسير المراغي: 6/ 96.

وأمَرْناكم باتِّباعِ الحَقِّ، وتُقابِلونَنا بهذا الرَّدِّ؟! أوِ المعنى: أَئِنْ وُعِظْتُم باللَّهِ تَطَيَّرْتُم بنا؟ ليس الأمرُ كما تقولون، بل أنتم قومٌ عادتُكم مُجاوَزةُ الحَدِّ، والطُّغيانُ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جاءتِ الآيةُ بطريق الفصل، لِحكاية التّقاوُلِ بين المرسَلين والقوم المكذّبين، فهي استئنافٌ بيانيٌّ، وقد تقدَّم في أمثالِها أنّ فيها استدرارًا لأسماع المخاطَبين؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ واقعةٌ في جواب سؤالٍ مُقدَّرٍ، لمعرفة جواب الفريق الآخر، ممّا يُشعر بأهميَّتِه؛ ومطاولةُ المقاولة تدلُّ على عزّة المرسَلين، وقوَّةِ حُججِهم، وتأثيرِها في نفوس المخاطَبين، مع قلّة عددهم.

بلاغةُ التّعريضِ في الآية:

التّعريضُ بالمشركين المتشائمين، وتحذيرُهم من مصيرِ أصحابِ القريةِ

حُكيَ قولُ الرُّسُلِ - الذين لم يكونوا يتكلَّمون العربيَّةَ - بما يُرادِفُهُ، ويُؤَدّي مَعناهُ بأُسلوبٍ عَرَبيٍّ، تَعْريضًا بأَهلِ الشِّركِ من قُرَيشٍ الَّذينَ ضُرِبَتِ القَريَةُ مَثَلًا لهم، فالرُّسُلُ لم يَذكُروا مادَّةَ الطِّيَرَةِ والطَّيرِ، أو خصوصَ اللّفظ، إذ تكلَّموا بأسلوبِهم ولغتِهم، وإنَّما أَتَوا بما يدلّ على أَنَّ شُؤْمَ القَومِ مُتَّصِلٌ بِذواتِهم، بسببِ كفرِهم، لا أنّه جاءٍ منَ المُرسَلينَ إليهم، فَحُكيَ بما يوافِقُهُ في كلامِ العربِ، تَعْريضًا بِمُشرِكي مَكَّةَ الذين كانت هذه المعاني منتشرةً شائعةً عندهم[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿طَـٰٓئِرُكُم﴾:

أهلُ الباطلِ يتّهمونَ غيرَهُم بما ليس إلّا فيهم

عُبِّرَ بلفظ ﴿طَـٰٓئِرُكُم﴾ على طريق الكناية، وهو لفظ يستعملُه العربُ كثيرًا كنايةً عنِ التّشاؤم، بمعنى أنَّه لا يكون منه إلّا الشّرُّ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 417، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 450، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 694.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 363 - 364.

والبلاء، ويجوز مجيئُه على طريقة المشاكلة لِما قاله المكذّبون ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾، لأنَّ المرسَلين لا يعتقدون التّشاؤم أصلًا، ويحتمل أن يكونَ لفظُ ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾ استعارةً تصريحيَّة أصليَّةً، بتشبيه ما يتشاءمون منه بالطّائر، أو يكونَ مجازًا مرسلًا، مِن تسمية الشّيء باسم لازمِه[1]، وقد تقدّمت هذه الأوجهُ بشيء مِنَ التّفصيل في قوله: ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾.

فائدةُ الإضافةِ في ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾:

الكـفـرُ أصــلُ الشّرورِ والبلايا

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾ على معنى الاختصاص، فلا طائرَ إلّا ما هو منسوب لكم، وهو مختصٌّ بكم، وهو الكفر الذي أنتم عليه، فهو الذي يكون منه الشّر والبلاء، ففيه ردٌّ بليغٌ على قولِهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ بتكذيبِهم في دعواهم، وفي ذلك إحسانٌ إليهم، بإرجاعهم إلى أنفسهم، لعلهم يُراجعونها، فيَرجعون إلى الحقِّ والصَّوابِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمعيَّةِ:

مـلازمـةُ الـشـرِّ والمـكـروه للكفر والكافرين

عبِّر بلفظ المعيَّة في مَعْرِضِ ردِّ الرّسل على القوم المكذّبين في قولِهم: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾، لتفيد المعيَّةُ معنى ملازمةِ المكروه والشّؤم لهم، ولمّا كان الظّرف (مَعَ) يدلُّ على الظّرفيَّة المكانيَّة أوِ الزّمانيَّة، ويفيد الاجتماعَ مع المتبوع على وجه مصاحبتِه ومتابعتِه، أفاد التّعبيرُ بـ﴿مَّعَكُمۡۚ﴾ أنَّ الشّؤم مجتمعٌ معكم، تابعٌ لكم، وهو معكم حيثما كنتم، وفي أيِّ زمان حضرتُم، فهو ملازمٌ لكم؛ ليفيد أنَّ متابعتَه لهم بسببِهم، ويكون المعنى: سببُ شؤمكم مَعَكُمْ، أي: في أنفسِكم، لا مِن قِبَلِنا، والمكروه الواقعُ بكم بسوء أعمالكم، لا مِن جهةِ غيركم؛ كما تزعمون، وهو سوءُ كفركم، وسوءُ عقيدتكم، وقبحُ أعمالِكم، فإنَّ الّذينَ استمعوا أَحْسَنَ القَولِ اتَّبَعوهُ، ولم يَعتَدوا

---

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 225.

عليكم، وأنتمُ الَّذينَ آثَرتُم الفِتنَةَ وأسعَرتُمُ البَغضاءَ والإحَنَ، فلا جَرَمَ أنتم سَبَبُ سوء الحالة التي حَدَثَت في المَدينَةِ[1].

بلاغةُ أسلوبِ الاستفهامِ:

النَّهيُ عنِ التّطيُّرِ والدَّعوةُ إلى الاتّعاظِ والتَّذكُّرِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾ جارٍ على الإنكار، وهو استفهامٌ داخلٌ على (إنْ) الشّرطيّة، فهوَ استِفهامٌ عن محذوفٍ دَلَّ عليهِ الكَلامُ السّابِقُ، وقُيِّدَ ذلك المحذوفُ بِالشَّرطِ الَّذي حُذِفَ جوابُهُ أيضًا، استغناءً بالاستِفهامِ عنه، والتَّقديرُ على مذهب سيبويه بجعل المحذوف - وهو التّشاؤم - مَصَبَّ الاستفهام الإنكاريّ، أي: (أَتَتَشاءَمونَ بالتَّذكيرِ إن ذُكِّرتُم؟)، لِما يَدُلُّ عليه قَولُ أهلِ القَريَةِ: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أَيْ: بِكَلامِكُمْ[2]، ويَحتمل أن يكون مصبُّ الإنكار أمرين؛ هما: تشاؤمُهم بتذكير الرُّسلِ لهم، وتوعّدُهم لهم بالرّجم والتّعذيب؛ ولهذا حُذف المُستفهَم عنه الذي هو محلُّ الإنكار بقرينة السّياق، ليفيد العمومَ؛ ويلزمُ مِنَ الاستفهام الإنكاريِّ نهيهُم عن التّطيّر، وحثُّهم على الاتّعاظ، أي: (لا ينبغي أن تتطيّروا وتتوعّدوا، بل كان ينبغي الاتّعاظُ والامتنانُ، على تذكيرنا لكم)[3].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ(إنْ) الشّرطيةِ:

إنّما ينفعُ التّذكيرُ مَن يستقبلُه

لمّا كان تذكيرُ الرّسل واقعًا؛ كان مُقتضى الظّاهر أنْ يُعبَّر بـ(إذا)، لكنْ عُبّر بـ(إنْ) في قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾، ليكون الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر، ونكتةُ ذلك بيانُ استبعادِ تذكُّر القوم المُكذّبين بالتّذكير، واستحالته، وأنَّه وإن حصل التّذكير فإنَّ أثره - وهو المقصود، أي: الانتفاعُ منه بالاتّعاظ والإيمان بالرّسل - لا يحصُل، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ أعمالَهم القبيحة تستدعي استحالة

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 348، والزمخشري، الكشاف: 4/ 9، وابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 4/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 364.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 364.
(3) المظهري، التفسير المظهري: 8/ 77، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 152.

تذكيرِهم، ففيه امتنانٌ مِنَ الرّسل عليهم بتذكيرِهم، إذ ذُكِّروا؛ وهم ليسوا أهلًا له.

بلاغةُ التّعبيرِ بالشّرط:

شأنُ التّذكيرِ أن يكون سببًا للاتّعاظ لا للتّطيّر والتّوعّد

لمّا كان الشّرطُ على معنى تعلّق الجزاءِ بحصول الشّرط، وأنّه كلّما حصل الشّرطُ حصل الجزاء على وجه العادة: عبّر بأسلوب الشّرط في قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾؛ للإشعار بأنَّ دأبكم وعادتَكم التّطيّرُ والتّوعُّدُ بالتّعذيب كلّما ذُكّرتم، فلا تتدبّرون وعظًا، ولا تتفكّرون في تنبيه، ولا تردّون قولنا بحُجّة، أي: فليس هذا فعلَ العقلاء[1]، وفي التّعبير بالشّرط: توبيخٌ لهم؛ لأنَّ شأنَ التّذكير أنْ يكون سببًا للاتّعاظ، لا للتّطيّر والتّوعّد.

توجيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾:

التّوسّعُ الدّلاليُّ بتنوّعِ القراءاتِ

قَرَأَ الجمهور: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ بهمزةٍ مفتوحةٍ ثمّ همزةٍ مكسورةٍ على الاستفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ، وبتشديد ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾، والمعنى: لا ينبغي أن تتطيّروا وتتوعّدوا لنا بالرّجم والتّعذيب كلّ ما ذكّرناكم، بل كان ينبغي الاتّعاظُ والامتنانُ على تذكيرنا لكم.

وقرأ أبو جعفر المدنيّ: ﴿ءَاأَن ذُكِرۡتُمُوۚ﴾[2] بفتحِ كلتا الهمزتين، وبتخفيف الكاف من ﴿ذُكِرۡتُمُوۚ﴾؛ والاستفهامُ على هذه القراءة يفيد التّقريرَ، والتّقديرُ: أتطيَّرتم لِأَنْ ذَكَرْنا أسماءكم، والمعنى: أَلِأَجْلِ أنّا ذكرنا أسماءَكم حين دَعوناكم حَلَّ الشُّؤمُ بَينَكُم؟! كِنايَةً عَن كَونهم أَهلًا لأَنْ تَكونَ أَسماؤهم شُؤمًا[3].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 349.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، وقد صرح الشاطبي في العقيلة (البيت: 205)، وابن الجزري في النشر: 1/ 457: أنها رسمت بياء في مصاحف أهل العراق، وبألف في غيرها، ولذا تم ضبطها هنا بألف لتوافق قراءة أبي جعفر، ولو تم رسمها على قول الداني وأبي داود لكان هكذا: ﴿ءَاأَيۡن ذُكِرۡتُمُوۚ﴾، بزيادة الياء بعد الألف.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 364 - 365.

الرُّسُلُ ذوو حِكْمةٍ في الإنكار على المشركين وبيانِ ضعفِ حُججهم

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشّرطِ:

حُذِفَ جوابُ الشّرطِ في قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾، ثقةً بدلالة المُستفْهَم عنه المحذوفِ عليه، وذهب بعضُ النّحاة - مثل يونس - إلى أنَّه يُؤتى بما يناسب الشّرطَ؛ بأنْ يُقدّر الجوابُ، ويكونَ قرينةً على المستفهَم عنه المحذوفِ[1]، فالأَوْلويَّة عنده لتقدير جواب الشّرط، ويُفهم منه تقديرُ المُستفْهَم عنه، وتقديرُ الكلام: أئن ذكّرتم تطيَّرتُم، وتوعَّدتُم بالرَّجم والتَّعذيبِ[2].

بيانُ هولِ فِعلِهم وقبيحِ عَمَلِهم بأساليبَ بليغةٍ مختلفةٍ

مِن براعةِ بلاغةِ القرآنِ تَوارُدُ حذفيْن:

توارَد حذفانِ في قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾، فحُذِفَ المُستفْهَم عنه، وحُذِفَ جوابُ الشّرط، واكتُفيَ بأداة الاستفهام الدّاخلة على الشّرط لظهور القرينة على المحذوف بدلالة السّياق، فإن انصبَّ الحذفُ على المُستفْهَم عنه الذي هو موضعُ الإنكار: قُدّر الجواب منه، وإن انصبَّ الحذف على الجواب - على ما ذهب إليه يونسُ - قُدّر المُستفهَم عنه منه، والمعنى يتنوّع، وليس المعنى واحدًا كما ذهب إليه ابنُ عاشور[3]، فإن كان التّقديرُ: (أتشاءَمتم إن ذكّرتم) كان محلُّ الاهتمام الإنكارَ على تشاؤمِهم وتطيّرهم، وإن كان التّقدير: (أئن ذكرتم تشاءَمتم وتوعّدتمونا بالرّجم والعذاب الأليم) كان محلُّ الاهتمام تعظيمَ هول جواب الشّرط وجزائِه، أي: أئِن ذكّرتم فعلتُّم كلَّ الذي فعلتموه، وسببُ الحذف على الوجهين بيانُ هولِ فعلِهم، وقبيحِ عملِهم.

مِن شأن الرُّسُلِ هَضْمُ حقِّ أنفسِهم

دلالةُ البناءِ للمفعول:

عُبّر بصيغة الفعل المبنيِّ للمفعول في قولِه: ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾؛ لأنَّ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 54.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 349، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163، والمظهري، التفسير المظهري: 8/ 77، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 152.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 346.

الغرضَ منصبٌّ على نفسِ الحدثِ، وهو التّذكير أوِ الذّكر حسب القراءة، دون التّوقّف على تعيين الفاعل ومعرفته؛ لئلا يَفْهَمَ القومُ مِن ذكر الفاعلِ - وهو الرّسل - اعتدادَهُم بأنفسهم، وأنّهم يغضبون لأنفسهم، فتكونُ الخصومةُ مِنَ القوم مِن أجل الأشخاصِ، لا مِن أجل القضيَّةِ.

بلاغةُ الحِجاجِ في قول الرُّسل:

لمّا ادّعى المكذّبون التّطيّرَ بسببِ المرسَلين فقالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾، منع المرسَلونَ هذه الدّعوى بطريق المعنى فقالوا: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾، والمعنى بطريق الاحتجاج: إذا كان طائرُكم معكم، فتطيرّكم منكم وليس منّا.

فائدةُ الإضرابِ بـ﴿بَلۡ﴾:

سببُ الشّؤمِ والبلاءِ على الكافرين هو استمرارُهم في المعاصي وإسرافُهم فيها

لمّا كان قول المرسَلين في قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ إضرابًا عمّا يقتضيه الشّرطُ في قول المرسَلين ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾، من كون التّذكير سببًا للشّؤم، أو مُصحِّحًا للتّوعُّد بالرّجم والتّعذيب، وكان ما قبل ﴿بَلۡ﴾ الإضرابيّةِ في الأسلوب العربيّ يقتضي أنْ يكون منفيًّا، دلَّ على أنَّ المعنى: (ليس سببُ الشّؤمِ تذكيرَكُم، بل استمراركم على المعاصي، وإسرافكم فيها)، ويَحتمل أنْ يكون الإضرابُ عن قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾، ليفيد تسليمَ ما هم فيه مِنَ البلاء والشّؤم، لكنَّه أضربَ عمّا جعلوه سببًا للشّؤمِ إلى إثبات السّببِ الحقيقيّ، والمعنى: (ليس تطيّركم بسببنا، بل هو بسبب إسرافِكم في المعاصي)[1]، فأفاد الإضرابُ ردَّهم عنِ اعتقادِهم الباطل إلى إثبات الحقيقة.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿قَوۡمٞ﴾:

الإسرافُ مِن ديْدَن أهلِ الكفر

يفيد التّعبيرُ بلفظ: ﴿قَوۡمٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أنَّ أصحاب القرية كانت لهم قوّةٌ واجتماعٌ في الرّأي،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 110.

وكانوا مظاهرين لمن هو منهم، وعلى كفرِهم وعصيانِهم، فعُبّر بالقوم، للإيذان بأنَّ الذي غرَّهم ودفَعَهم على التّكذيب والإسراف في المعصية والظّلم: هو ما آتاهم اللّه مِنَ القوّة على القيام فيما يريدون[1]، وهؤلاء الرّسل أخبروا عنهم بأنّهم ﴿قَوۡمٞ﴾ بعد توعّد أصحابِ القرية لهم بالرّجم والتّعذيب، وهذه الأعمالُ لا يقوم بها في العادة إلّا الرّجالُ، فعَبّروا بالقوم، باعتبار أنَّ الرّجال هم الذين يُعتدُّ بهم في هذه المَهامِّ، ولهذا وصفوهم بالمسرفين، فإنَّ مَن يتوعّدُ الرّسلَ وأتباعَهم قد أسرف في المعصية والطُّغيان، وفي التّعبير بلفظ ﴿قَوۡمٞ﴾ إيذانٌ بأنَّ الإسرافَ مُتمكِّنٌ منهم، وهم ضالعون فيه، وأنَّه به صار قِوامُ قوميَّتِهم[2]، وفي هذا كلِّه ذمٌّ لهم.

دلالةُ لفظِ ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾:

الإسرافُ معنًى يدخلُ فيه كلُّ سوءٍ صدَر مِنَ الكافرين

عُبِّرَ بقوله ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ في مَعْرِض ذمّهم في قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾؛ وذلك أنَّه لمّا كان السّرفُ هو مجاوزةَ الحدِّ للشّيءِ في القدرِ والكيفيَّة، بإهدارِه وتضييعِه[3] أشعر التّعبيرُ به مجاوزةَ القوم المكذّبين الحدَّ في تكذيبِهم الرّسلَ، وفي مقدار قُبحِ أعمالِهم المخالفة للحقِّ، وفي طريقة تصرّفِهم مع الرّسل، بتوعُّدِهم بالرّجم والتّعذيب، وأنّهم جاهلون في إسرافِهم، لإهدارِهم ما أُرسلَ به المرسَلون، وتضييعِهم له؛ مع ظهورِه ووضوحِه.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

تتكرَّرُ الذُّنوبُ مِنَ العبْدِ حتَّى تصيرَ طبعًا له

عُبّر بصيغة اسمِ الفاعلِ في قوله ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ للإيذان بثبات وصْفِ الإسراف، بحيث صار وصفًا لازمًا لهم، أي: أنتم قومٌ عادتُكمُ الإسرافُ، والمعنى أنّهم قد تكرَّرَ ذلك منهم حتَّى صار مِن دَيْدنِهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 109، والشربيني، السِّراج المنير: 3/ 343.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 363.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سرف).

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

أفاد التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ في قوله: ﴿أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ ثبوتَ مضمونِ الجملة، وتوكيدَ النّسبة بين المُسنَد والمُسنَد إليه، والمعنى: ثبوتُ كونِكم قومًا مسرفين، فلا تتغيّرون، ولا تنتفعون بوعظٍ ولا تذكيرٍ.

المُسرفُ لا يتغيّرُ، ولا يتّعظُ بوعظٍ ولا تذكيرٍ

فائدةُ حذْفِ مُتعلّقِ اسمِ الفاعلِ:

لمّا حُذف متعلّقُ اسم الفاعل: ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾، وكان وصفُهم بالإسراف في مقام الذّمّ على تجاوزهم وظلمهم: دلَّ الحذفُ على عموم إسرافِهم في الكفر والعصيان، وفي الظّلم والعدوان، وأنّهم قد أسرفوا، لتطيّرهم، وتوعُّدِهم المرسَلين، فالمعنى: (بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ في العصيان، والتّجاوُزُ فيه عنِ الحدِّ، فلذلك أتاكم الشّؤم)، أَو: (أنتم عادتكم الإسرافُ فى الظّلم والعدوان، ولذلك توعَّدتم وتشاءمتم بمَن يجب إكرامُه والتَّبَرُّك به)[1]، ولا يخفى ما في الحذف مِن شديد التّوبيخ، وعظيمِ التّهديد، بسبب تنوّعِ إسرافِهم، وسوء عاداتِهم.

إذا كانَ الإسرافُ طبْعًا تعدَّدَتْ مظاهرُه وكثُرت

(1) اسماعيل حقي، روح البيان: 7/ 382، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 419.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: 20 - 21]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ليس العيبُ في دعوة الحقِّ، وإنّما في القوم المكذّبين

لمّا كان السّياقُ على معنى أنَّ الأمر بيد الله، فلا هاديَ لِمَنْ أَضلَّ، ولا مُضلَّ لِمَنْ هدَى؛ لأنّ القوم بلغوا رُتبةَ الإسرافِ التي تدلُّ على أنَّ هداية التّوفيق لم تشملْهُم، فهو سبحانه يَهدي البعيد في البقعةِ والنَّسَبِ إذا أراد، ويُضلُّ القريبَ فيهما إن شاء: بيَّن أنَّ الدّعاء نفع الأقصى، ولم ينفعِ الأدنى، فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ الآيتين.

وأيضًا لمّا أخبر الله تعالى عنِ المرسَلين أنَّهم أتَوْا بالبلاغ المبين: بيَّن أنَّ الرّجل السّاعيَ انتفع مِن هذا البلاغ، فليس العيبُ في المرسَلين وبلاغِهم، بلِ العيبُ في القوم المكذّبين، والدّليلُ هذا الرّجلُ المؤمن الذي جاء يسعى مِن أقصى المدينة، لإعلانِ إيمانِه، ومُحاورةِ قومِه، فجاءت هاتانِ الآيتان وما بعدهما إلى آخِرِ القصَّة.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقۡصَا﴾: أصلُ (قصو) يدلُّ على بُعْدٍ وإبعادٍ، من ذلكَ القَصا: البُعدُ[1]، وقَصا المَكانُ يَقْصو قُصوًّا: بَعُدَ، والقَصيُّ والقاصي: البَعيدُ[2]، وكلُّ شيءٍ تَنَحَّى عَنْ شيءٍ فقدْ قَصا يَقصو قُصوًّا، فهو قاصٍ، والأَرضُ قاصيةٌ وقَصيَّةٌ، والمُرادُ بقوله سبحانه: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي: مِن بعيدِ المَدينةِ، أو طَرَفِ المَدينةِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصا).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (قصا).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 365.

2) ﴿يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: (سأل) أصلُ السُّؤالِ الاِسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ: سَأَلْتُهُ عن علمٍ سُؤالًا ومسألةً، أيْ: طَلَبْتُ مَعرفَتَهُ، وسألْتُهُ الصَّدَقَةَ، أيْ: طَلَبْتُ منه أنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ[1]، ومِن مَعانيهِ: الاستفهامُ والاستخبارُ والاستعلامُ والاستفسارُ[2]، وحقيقةُ السُّؤالِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أي: لا يَطْلُب منكم أموالًا على إبلاغهم الرّسالةَ ونصحهم وإرشادهم.

3) ﴿أَجۡرٗا﴾: أصلُ (أجر) الجَزاءُ على العَمَلِ[3]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأُجرة: اسمٌ على وزن فُعْلَة، مأخوذٌ من أجَرَه يأجُرُه ويأجِرُه إذا أثابَه وأعطاهُ جزاءَ عَمَلِه، وتُسَمَّى الأُجْرَةُ أيضًا: الأَجْرَ والكِراءَ، وهو بَدلُ المَنفَعَةِ، أو ما يُعْطاهُ الأجيرُ في مُقابِلِ العَمَلِ، ويُقال: الأَجْرُ مِنَ اللّهِ، والأُجْرَةُ مِنَ الإنسانِ، والجَمْعُ: أُجَرٌ، وأُجُراتٌ بِضَمِّ الجيمِ وفَتْحِها[4]، والمقصودُ بالأجر في الآية: أي العِوَضُ والمالُ على إبلاغِ الرّسالةِ والإرشاد.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يعـدِمُ الحقُّ أنـصارًا لـه وإن كانوا قِلَّةً

وجاء رَجُلٌ مُؤمِنٌ من طَرَفِ المدينة يُسرع المشيَ لَمّا سمع بخبر الرُّسُل، وهو حبيبٌ النَّجّار، فقال ناصحًا قومه: اتَّبِعوا هؤلاءِ الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللّهُ إليكم، اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم على تبليغِ رِسالةِ اللّهِ أيَّ أجرٍ دُنيويٍّ، وهم مُتَّصِفونَ بأنَّهم ثابِتونَ ومُستَقيمونَ على الحَقِّ الَّذي يَدْعونَكم إليه، فاتَّبِعوهم تهتَدوا[5].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سأل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(4) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (أجر)، والمناوي، التوقيف، ص: 36.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 421، 422، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 570.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

لا يستوي الخبيثُ والطَّيِّبُ

عُبِّر بطريق الوصل في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ ليكون الكلامُ من عطف قصَّة لها تعلّقٌ بالقصّة المعطوف عليها، فعُطف الكلام على قصَّة التَّحاور الجاري بين أصحابِ القرية والرّسل الثّلاثة؛ لبيان البَون والفرقِ الكبير بين حالِ المعانِدين من أهل القرية وحال الرّجل المؤمن منهم، الذي وعظهم بموعظةٍ بالغةٍ، ولهذا جاء الكلام بصيغة الخبر، فتكون جملة: (جاءَ مِن أَقصا المَدينَةِ رَجُل يَسعَى) عَطۡفًا عَلَى جُمۡلَةِ ﴿جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

ويحتمل أن تكونَ عَطۡفًا عَلَى جُمۡلَةِ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾[1]، فالجهةُ الجامعةُ بين المعطوفيۡن: هي الإخبارُ عن حال المرسَلين مع أصحاب القرية.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعل:

قد يوجدُ الخيرُ في أطراف البلد، ولا يوجد في وسطِها

قُدّم الجارُّ والمجرور على الفاعل الذي حقُّه التّقديمُ في قوله ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ بيانًا لفضل هذا الرّجل الذي جاء يسعى، إذ هداه اللّه تعالى مع بُعده عنهم في المكان، وللإشعار بأنَّ بُعدَه لم يمنعه مِنَ الإيمان بهم، ولم يمنعْه عن مناصرتِهم والسّعي لنصيحة قومِه، وفيه بلاغةٌ باهرةٌ؛ وذلك لأنَّه لمّا جاء مِن أقصى المدينة رجلٌ، وهو قد آمن: دلَّ على أنَّ إنذارَ المرسَلين وبلاغَهم قد بلغ أقصى المدينة، فيُشْعِرُ بأنّهم أتَوْا بالبلاغ المبين، فما قصَّروا في التّبليغِ والإنذار حتى بلغ خبرُهم القاصيَ والدّانيَ، وفيه تنبيهٌ إلى عِظَم ما قام به المرسَلون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان باللّه ظهر في أهل أبعدِ المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة؛ لِأَنَّ قلب المدينة هو مسكنُ حُكّامها، وأحبارِ اليهودِ، وهم أبعدُ عنِ الإنصافِ والنَّظَرِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 365.

في صِحَّةِ ما يَدعوهم إليه الرُّسُلُ، وعامَّةُ سُكّانِها تَبَعٌ لعُظَمائِها، لِتَعَلُّقِهم بهم، وخشيتهم بأسَهُم، بِخلافِ سُكّانِ أطراف المَدينَةِ، فهم أقرب إلى الاستِقلالِ بالنَّظَرِ، وقلَّةِ اكتراثٍ بالآخَرينَ؛ لِأَنّ سُكّان الأَطراف غالِبُهُم عملَةُ أَنفُسِهم؛ لِقُربِهِم مِنَ البَدوِ، ففي التّقديم اهتمامٌ بالثّناء على أهل أقصى المدينة[1]، وفيه أيضًا: إشعارٌ بأَنَّ اللّه تعالى يهدي مَن يشاء؛ سواء قرُبَ أو بعُد[2]، ولو أخّر الجارَّ والمجرور وقُدِّم الفاعل لأشكل النّظمُ، وتوُهِّم تعلّقُ: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بـ﴿يَسۡعَىٰ﴾ فلم يفد أنَّه مِن أهل المدينة، وأنَّ مسكنه في طرفها؛ مع أنّه هو المقصود[3].

إيثارُ التّعبيرِ بـ﴿أَقۡصَا﴾:

مجيءُ الرَّجُلِ مِن أيِّ مكانٍ في أقصى المدينة كافٍ في مدحِهِ

المرادُ بالأقصى الأبعدُ في المكان، والمعنى: وجاء مِن أبعد مواضع المدينة رجلٌ يسعى، وعُبّر بـ﴿أَقۡصَا﴾ دون (أبعد) لأنَّ لفظ ﴿أَقۡصَا﴾ يدلُّ على بُعد المكان والنّاحية، ولو قيل (من أبعد) لاقتضَى أنْ يَذْكُر مُتعلَّقَ البُعْد، فيقال (مِن أبعد موضعٍ في المدينة)، أو: (مِن أبعدِ مكانٍ في المدينة)؛ لأنَّ البُعْد يكون في المكان وغيره، فلو عُبّر بالأبعد فات الإيجازُ الملائمُ لسَمْتِ بيانِ القِصَّةِ مِنَ الطَّيِّ والقَبْضِ، ووصفُ الرّجل بالبُعْد لا يُناسب إيمانَه وقُرْبَه مِنَ اللّه تعالى، ومِنَ المرسَلين.

فائدةُ (أل) في ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

إنّما يُمدَحُ المكانُ ويُذمُّ بساكِنيهِ

(أل) في قوله ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ للعهد الذِّكريِّ، أي: المدينة التي ذُكرت بوصْفِ القرية في قولِه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ بمعنى: المدينة التي اتّصفت بمجيء المرسَلين إليها، وبما حصل فيها مِنَ المُحاورة بين المرسَلين والمكذّبين، أو تكون عوضًا عن مضافٍ، وتقديرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 365.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 109، والشربيني، السراج المنير: 3/ 344.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 262، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 529، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 398.

الكلام: وجاء مِن أقصى مدينة القوم الذين أرسلْتُ إليهم هؤلاء الرُّسُلَ[1]، فحُذف المضافُ، وعوِّض عنه بـ(أل)، وعلى كِلا الوجهين في التّعبير بـ(أل): إيجازٌ في المعنى.

نُكتةُ العُدولِ عنِ التّعبيرِ بالقرية إلى المدينة:

المدينةُ أوسعُ مِنَ القرية

عُبِّر أوّلًا بالقرية في قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، ليناسبَ لفظَ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ الدّالَّ على الاجتماع، والقريةُ فيها معنى الجمع، ثمَّ لَمّا عبّر عن بُعدِ الأطرافِ وكِبَرِ البلدة بقوله: ﴿مِنۡ أَقۡصَا﴾ ناسب ذكرُ المدينة فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ، ففي التّعبير بالمدينة إشارةٌ إلى السّعة؛ لأنَّ المدينة أدلُّ على الكِبَر المُستلزِم بُعْدَ الأطراف وجمْعَ الأخلاط، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ التّعبير بالمدينة بعد التّعبيرِ بالقرية للتّفنّن[2].

دلالةُ التّعبيرِ بقوله تعالى ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

في اختيارِ مكانِ الدّعوةِ حِكْمةٌ لإظهارِ الآياتِ وإثباتِ الحُججِ

في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ دلالةٌ بطريق اللّزوم على أنَّ موضع محاورةِ المرسِلين لأصحاب القرية كان في وسط المدينة، وعندَ مجتمع النّاس، وليس في أطرافِها أو أقصاها.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿رَجُلٞ﴾:

الرّجولةُ في الإيمان، ورجاحةُ العقلِ، وقوّةُ الحجّةِ

في تنكير الرّجل في قوله تعالى: ﴿رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ مع أنّه كان معلومًا معروفًا عند الله تعالى فائدتان؛ الأولى: أن يكون تعظيمًا لشأنه، أي: رجل كاملٌ في الرجوليَّة، وقد دلّ على هذا إيمانُه، وإعلانُه به، ورجاحةُ عقلِه في المحاورة، وإيرادِ الحُجج، والثّانية: أن يَظهر مِن جانب المرسَلين أمرُ رجلٍ مِنَ الرجال، لا معرفة لهم به، فلا يُقال: إنَّ المرسَلين والرّجل تواطؤوا فيما بينهم[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 504.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 111، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 365.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 529، والشربيني، السراج المنير: 3/ 344.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿يَسۡعَىٰ﴾:

إنّما يسعى الرَّجلُ لحياة الإيمانِ في قلبه

عُبّر بلفظ ﴿يَسۡعَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ للدّلالة على أنَّه كان يُسرعُ في مشيه فوق المشي المعتاد، ودون العَدْو، ويجتهد في إسراعِه، لقطع مسافةٍ ممتدَّة، لتحصيل المطلوب وتحقيقِه، وقد دلَّ على هذا قولُه: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ ففيه إشعارٌ بجدّه في الأمرِ، حرصًا على نصيحة قومه، وأفاد أيضًا: أنَّ فعلَه محمودٌ مرغوبٌ فيه، فإنَّ أكثر ما يُستعمل السَّعْيُ في الأفعال المحمودة[1]، وفيه أيضًا: تبصيرٌ للمسلمين، وهدايةٌ لهم؛ ليبذلوا جهدهم في النُّصح[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع:

مجيءُ الرّجلِ المؤمنِ إلى موضعِ محاورة القومِ كان مقصودًا

نظَم القرآنُ السعيَ المُسنَدَ إلى الرّجلِ المؤمن فعلًا مضارعًا؛ ليستحضرَ المُتَلَقّون صورَةَ السَّعْيِ في أذهانِهم، ويُشاهِدوها كأنّها أمامَهُم؛ لأنَّ السّعيَ قد كان منه، وانتهَى، والقرآنُ يَحكيه، لأنَّ هذا السَّعْيَ جوهرُ أحوالِ الرُّجلِ، والذي يتأسَّسُ عليه باقي أحوالِه؛ فهو يسعَى بسرعةٍ مِن أجلِ صلاح قومِه وإصلاحِهم بالإيمان، عن طريق نهيِهم عنِ المنكر، وأمرِهم بالمعروف؛ وهو يسعَى مُشفِقًا عليهم، رحيمًا بهم، نَصوحًا لهم، مِن أجلِ نجاتهم مِنَ النّيران، والفوز بالجِنانِ، وهو يسعَى مِن أجل مناصرة رُسلِ اللّه.

فائدةُ حذْفِ متعلَّقِ الفعل:

المؤمنُ يهتمُّ بشأنِ المؤمنين ويسعى في نصرتِهم وهدايتِهم ونصحِهم

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿يَسۡعَىٰ﴾ لإفادة عموم انتهاء الغاية، والتّقديرُ: يسعى إلى المرسَلين لمُناصرتهم، وإلى القوم المكذّبين لنصيحتِهم، ويسعى إلى موضع المحاورة لبيان الحقِّ، وزيْفِ الباطل، وفيه إيماءٌ إلى السّعي الذي هو بمعنى القيام في المَهامِّ العظيمة، والجدّ فيها؛

(1) الراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سعى).
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 344.

على ما يدلُّ عليه السّياق، أي: أنّه يهتمُّ بشأن المؤمنين، ويسعَى في نصرتهم وهدايتهم ونصحهم[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

يفتقرُ سياقُ يس إلى لوازمِ المجيءِ مِن أقصى المدينة

جاء في سورة القصص في قصّة موسى قَوْلُه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [القصص: 20]، وفي سورة يس: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾.

فخُصَّت سورَةُ يس بتقديم الجارّ والمجرور على الفاعل؛ لأنَّ المراد ذكرُ الموضع الذي جاء منه، قصدًا إلى الاهتمام بأنَّه قطع مسافةً ممتدّةً، وأنَّه جدَّ في الأمر، أي: لَمّا سمع خبر الرُّسُل جاء مِن أقصى المدينة يسعَى، فكانَ الذى يفيد المخاطَبَ في سورة يس أنْ يَعلم أنّه جاء مِن مكان بعيد إلى مجتمع النّاس في القرية، فقدَّم ما تبْكيتُ القوم به أعظمُ، والتّعجّبُ منه أكثرُ، فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾، أي: ينصحُ لهم ما لا ينصحون مِثْلَه لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم؛ مع أنَّه لم يحضر جميعَ ما يحضرونه، ولم يُشاهد مِن كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فحثَّهُم على اتّباع الرُّسل المبعوثين إليهم، وقَبولِ ما يأتون به مِن عند مُرسِلهم.

وأمّا آية سورة القصص: فخُصَّت بتقديم الفاعل ﴿رَجُلٞ﴾ على ذكر الموضع ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ لأنَّ وظيفةَ الرَّجلِ هناك هي النُّصْحُ لموسى بالخروجِ مِنَ المدينة التي وكَز فيها الرجلَ الذي ليس مِن شيعتِه؛ لأنّ الملأ يأتمرون به ليقتلوه، فهذا يفتقرُ إلى شجاعةٍ وجرْأةٍ معَ إخلاصٍ وحُبٍّ، ونحوِ ذلك مِنَ الصّفات التي تقوم بالموصوف، فلا يقومُ بهذا الدَّوْرِ مع نبيِّ اللّه موسى عليه السلام إلّا رجلٌ هاتِه صفاتُه؛ فلذلك اعتنَى به القرآنُ فقدَّمَه، وأتَى به في موقعِه الأصلِ.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 529.

ونقل ابنُ عرفة توجيهًا لتقديم الفاعل في آية القصص، فقال: "إنّما قدم الرّجلُ هنا تحوّطًا على قلب النّبيِّ صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم مِن أنْ يَناله رَوْعٌ أو حزنٌ على موسى ﷺ؛ لأنّه لو قيل: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾: لأمكن أن يظنّ النّبيُّ صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم، أنّه جاءه جماعة كثيرون يريهم الاستخفافَ منه لأجل قتلِه القبطيَّ، فما يصل إلى ذِكْر الفاعل إلّا بعد حصول الرّوعِ منه والفزع في القلب، فبدأ بذِكْر الرّجلِ احترازًا من هذا"[1].

وفي توجيه المتشابه وجْهٌ آخر؛ وهو أنَّ الرّجل في آية يس جاء ناصحًا لهم في مخالفة دينهم، فمجيئه مِن أقصى المدينة أنسبُ لدفع التّهمة والتواطؤ عنه، فقُدِّم ذكرُ البُعْدِ في المكانِ لذلك، وفي آية القصص: لم يكن نصحُه لترك أمرٍ يشقُّ تركُه كالدّينِ، بل لمجرّد نصيحةٍ لموسى ﷺ، فجاء على الأصل في تقديم الفاعل على الجارِّ والمجرور[2].

ووجْهٌ آخرُ؛ وهو أنّه قدّم الجارَّ والمجرور على الفاعل في آية يس لأنَّه أهمُّ؛ يُبيِّنُ ذلك: أنّه حين أخذ في قصّة الرُّسل: اشتمل الكلام على سوء معاملةِ أصحابِ القرية الرُّسلَ، وأنّهم أصَرّوا على تكذيبهم، وانهمكوا في غَوايتهم، مُستمرّين على باطلهم، فكان مَظِنَّةَ أنْ يلعن السّامعُ - على مجرى العادة - تلك القريةَ قائلًا: ما أنكدَها تُرْبةً، وما أسوأها مَنْبَتًا، ويَبقى مُجيلا في فكره: أكانت تلك المدرةُ بحافاتها كذلك؟ أم كان هناك قطرٌ دانٍ أو قاصٍ منبت خير؛ منتظرًا لمساق الحديث هل يُلِمُّ بذكره؟ فكان هذا العارضُ مُهمًّا، فلمّا جاء موضعٌ له صالحٌ: ذُكِرَ، فقُدِّم الجارُّ والمجرورُ لدفع توهّم خُلوِّ القرية مِنَ الخير، منتظرًا لإلمام الحديث به، بخلاف ما في سورة القصص فإنّ الكلام فيها جاء على الأصل؛ بتقديم الفاعل على الجارِّ والمجرور[3].

بلاغةُ الفَصْلِ:

جاء قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ؛ ليقعَ جوابًا

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 267.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 304.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 283، والخطيب القزويني، الإيضاح: 2/ 169.

مجيئُه يسعَى يدفَعُ إلى معرفة حاله قولًا وفعلًا

عن سؤالٍ نشأَ مِن حكايةِ مجيئِه ساعيًا، كأنَّه قيلَ: فماذا قالَ عند مجيئِه؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1].

دلالةُ النّداء بـ(يا):

القومُ في غفلةٍ عظيمةٍ؛ فاحتاجوا للنّداء

عُبّر بحرف النّداء (يا) في قوله تعالى على لسان الرّجلِ المؤمن: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ليكونوا متهيّئين لإصغاء ما يُلقي إليهم، وجاء بصيغة نداءِ البعيد، للإشعار ببُعْدِهم عن طريق الحقِّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ (القوم):

عُبِّر بالقوم في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لقصد العموم، ليشمل النّداءُ أصحابَ القرية كلَّهم، وليُفْهِمَهُم - في نورِ باقي الآية - أنّهم في مُكْنتِهِم أنْ يتَّبِعوا المرسَلين.

فائدةُ تقديرِ الإضافةِ وحذفِ المضافِ إليه:

خيرُ الدُّعاةِ إلى اللهِ مَن يُحْسِنُ الجمعَ بين التّرغيب والتّرهيب

أضاف الرّجلُ المؤمنُ القومَ إلى نفسِه في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ليلزم منه إضافةُ نفسِه إليهم إضافةَ اختلاطٍ، وامتزاجٍ؛ فكأنّه منهم، وهم منه، فَصارا كالجَسَدِ الواحد، فهو مريدٌ لهم ما يريد لنفسه، وإنّما يضرُّهم ما يضرُّه، وينفعُهم ما ينفعُه؛ كقول القائل لغيره إذا نصحه: ما أُحِبُّ لك إلّا ما أُحِبُّ لنفسي؛ وذلك إشارةٌ إلى تأليف قلوبِهم، واسْتِمالتِها إلى قَبولِ نصيحته في اتّباع المرسَلين وطاعتِهم فيما يأمرونهم به، ففي الإضافة إظهارٌ منه لقومِه أنَّه لا مباينةَ بينهم، ولا تهمةَ في إرادة السّوءِ بهم[2].

وحُذِف في النَّظْمِ القرآنيِّ المضافُ إليه، والتّقديرُ: (قومي)، والحذفُ صورَةٌ لإثباتِ معنى تبرُّئه مِن صنيعِهم، وأنّه غيرُ راضٍ عنه، ولا تعانُدَ بين الأسلوبيْن، فبالإضافةِ والحذفِ مَعًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 398.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التّفسير: 12/ 350، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 112.

يظهرُ لنا كمالُ إيمانِ الرُّجلِ، وحِكْمتُه في الدَّعوةِ إلى اللّهِ سبحانه وبحمده.

دلالةُ الاتّباعِ بين الكنايةِ والاستعارةِ:

يلزمُ من اقتفاءِ الأثـرِ واللّـحوقِ بالمتبوعِ الامتثالُ لقولِه وعملِه

لمّا كان الاتّباعُ هو لحوقَ الشّيء بلا فاصلٍ على سبيل اقتفاءِ الأثرِ، واللّحوقِ بأثر المتبوع، والسّيرِ في أثره: كان المرادُ بالاتّباع الائتمارَ والامتثالَ على سبيل الكناية؛ لأنّه يلزم مِن اقتفاء الأثر واللّحوق بالمتبوع الامتثالُ لقوله وعملِه[1]، فعُبّر بلفظ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، للإيذان بوجوب اقتفاءِ أثَرِ المرسَلين، ولحوقِهم والسّير في أثرِهم، بحيث لايغيب عنِ القوم شيءٌ من أوامرِهم وأفعالِهم وآثارِهم، ويحتمل أن يكون لفظُ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ على الاستعارة التّصريحية التّبعيَّة؛ تشبيهًا للأخذِ برأيِ غيرِه على سبيل الامتثال بالمتّبِع له في سيرِه والمقتفي أثرَه[2]، والحملُ على الاستعارة هو الألصقُ بحال الرَّجلِ المؤمن، مِن شديدِ حرصِه على هداية القوم؛ لأنّ الاستعارةَ أبلغُ وأقوى في ذاتها مِنَ الكناية، فعَلاقَةُ الاتِّحادِ التي في الاستعارة ليسَت في الكناية.

فائدةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

اتّبِعوا المرسلينَ الـذيـنَ أعـرفُ أحـوالَـهُـم كما عَرَفْتُموها

(أل) في قوله ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ للعهد الذِّكْريِّ[3]، أي: (اتّبعوا المرسَلين الذين جاؤوكم، وبلَّغوكم بالرّسالة)، وهذا يعني سبْقَ علم الرّجلِ المؤمن بهم، وبما جاءوا به، وأنّه مؤمن بهم وبالذي جاءوا به، وأنّه بلَغ في الإيمان بذلك على جهة العلم التَّفصيليِّ مبلَغًا جعَلَه داعيًا إلى اللّه تعالى كالرُّسُل.

فائدةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرّسالة:

يجبُ اتّباعُ مَن يـدلُّ عـلى اللهِ حالُه

تعرَّضَ الرّجلُ المؤمنُ لعنوان الرّسالة في قوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ حثًّا لهم على اتّباعِهم؛ ببيان علَّة الاتّباع وسببِه، وهو كونُهم مرسَلين

(1) الراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 366.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 366.

مِن عند اللّه تعالى بالآيات الظّاهرة الدّالّةِ على الرّسالة[1]، ففيه حثٌّ للقوم على النَّظَرِ في الرِّسالةِ، وفي وظيفتِهِم: هل أدّوها؟ أم قَصَّروا فيها؟.

بلاغةُ إيجازِ القَصْر في قوله ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

الجمعُ بين إظهارِ النّصيحةِ وإظهارِ الإيمانِ

جُمِع في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بينَ إظهار النّصيحةِ وإظهارِ إيمانه؛ فقوله ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ إظهارٌ للنّصيحة؛ لأنَّه ذكرَ الفعلَ على سبيلِ الطّلبِ المفيد لوجوب الامتثال، وقولُه ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إظهارٌ لإيمانه؛ لأنَّه وصفَهم بالمرسَلين، فهو مؤمِن برسالتهم وبكونهم رسُلًا، وقدَّم إظهارَ النّصيحة على إظهار الإيمان؛ لأنّه كان ساعيًا في النّصيحة، ولإظهار الشّفقة، وأمّا الإيمان فكان قد آمَن مِن قبلُ، وقد باح بإيمانِه؛ ليشتغل القوم به عن رجم الرُّسل، وتعذيبِهم[2].

توجيهُ المتشابِهِ اللّفظيِّ:

تنوّعُ التّعبيرِ القرآنيِّ لِتنوّعِ المقامِ

إن قيل: ما الفرقُ بين مؤمن آل فرعون؛ حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر: 38] وهذا الرّجل إذ قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فأمرَ مؤمنُ فرعونَ قومَه باتّباعِه في الإيمانِ بموسى وهارون عليهما السلام، وأمّا الرّجل المؤمن في سورة يس فقد أمرَهم باتّباع المرسَلين ولم يقل (اتّبعونِ)؟ ويجابُ: بأنَّ الرّجل المؤمن المذكور في سورة يس نصحهم في أوّلِ مجيئه ولم يروا سيرتَه بعدُ ولم يعلموها، فقد جاء من أقصى المدينةِ فقال: (اتّبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدّليلَ وأوضحوا لكم السّبيلَ)، وأمّا مؤمنُ آل فرعون فكان فيهم ونصحهم مرارًا وقد علموا سيرته، فقال: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ﴾ [غافر: 38] أي: (اتّبعوني في الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام، واعلموا أنّه لو لم يكن خيرًا لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 163، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 112.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 350، والنيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 529.

أنّي اخترته)[1] فالرَّجلُ المؤمنُ يُخاطِبُ قومًا يستخِفُّهم فرعونُ، ويُخوِّفُهم ويُرعِبُهم، ويُهدِّدُهم ويتوعَّدُهم؛ لو اتَّبَعوا موسى عليه السلام، فهو يخافُ على قومِه مِن فرعونَ ومَن معَه مِن أهلِ الكفر، فعَرَّضَ بفرعونَ وبهم، فقال لقومه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر: 38]، والمعنى: اتّبعونِ، ولا تتّبعوا فرعونَ؛ لأنَّ فرعون قال لهم مِن قبلُ: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: 29]، فكرّر الرّجلُ المؤمنُ كلمة ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر: 38]، ومعنى الهداية: (﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ [غافر: 38]؛ ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾ [غافر: 29])؛ فأفْهَمَ هذا ما ذكرنا.

بلاغةُ الفصلِ:

إذا عُدمتِ الأجرةُ وثبتتِ الهدايةُ ظهرَ الصّدقُ ووجبَ الاتّباعُ

جاء قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ غيرَ مُصَدَّرٍ بواو العطف، لأنَّه يتضمّن تأكيدًا لِما قبله، إذ يلزم منه الإرشادُ إلى اتّباع المرسَلين، أو أن يكون عطفَ بيانٍ؛ لكمال الإيضاحِ لبيان سبب الأمر باتّباعِهم، وللتَّوسُّل به إلى وصفهم بما يُرغِّبُهم في اتِّباعهم؛ مِنَ التّنزهِ عنِ الغرض الدُّنيويِّ، والاهتداءِ إلى خيرِ الدُّنيا والدّينِ، أو يُقال: اتّبع الرّجلُ المؤمنُ طريقةَ الحِجاج بالتّنزّل، لأنَّه لمّا قال لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ كأنَّهم منعوا كونَهم مرسَلين، فنزل درجة، وقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾، وبيانُه: أَنَّ الخَلْقَ في الدُّنْيا سالِكونَ طَريقَةً، وطالِبونَ لِلاسْتِقامَةِ، والطَّريقُ إذا حَصَلَ فيه دَليلٌ يَدُلُّ يَجِبُ اتِّباعُهُ، والامتِناعُ من الاتِّباعِ لا يحسُنُ إلّا عند أَحَدِ أمرَينِ: إمّا مُغالاةِ الدَّليلِ في طَلَبِ الأُجرَةِ، وإمّا عند عَدَمِ الاعتِمادِ على اهتدائِه، ومعرِفَتِهِ الطَّريقَ، لَكِنَّ هَؤُلاءِ لا يَطلبونَ أُجْرَةً، وهم مهتدونَ عالِمونَ بالطَّريقَةِ المُستَقيمَةِ الموصِلَةِ إلى الحَقِّ، فَهَبْ أَنَّهُم ليسوا بمرسَلينَ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 529، والشربيني، السراج المنير: 3/ 344.

هادينَ، أَلَيسوا بمُهتَدينَ؟ فاتَّبِعوهُمْ[1]، فعلى هذا الوجه يلزمُ مِن هذه الآيةِ التَّوجيهُ إلى اتِّباعِ الرُّسُلِ أيضًا؛ فبينَ الطَّرفيْنِ على هذه الأوجهِ السّابقة كمالُ اتّصالٍ.

بلاغةُ مجيءِ هذه الآيةِ بعدَ التي قبلَها:

غـرضُ المؤمنين في الـدّعـوة إلى الـحـقِّ ليس إلّا محض النُّصح

في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إطنابٌ بالتَّتميم؛ لأنَّه يتضمّن تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بطريق الاستدلال؛ فإنَّ مَن سعى في أمرٍ لا بُدَّ أن يَطمع ويَتوقّع أجْرَه، وهؤلاء المرسَلون بخلاف ذلك، وغرضُهم في ذلك ليس إلّا محضَ النُّصح، لا متابعةَ أمر الشّهوة والرّياء[2]، فهذه الآية غرضُها المبالغة في وجوب اتّباع المرسَلين المأمورِ به صراحةً في الآية السّابقة عليها.

نُكتةُ الحملِ على لفظ ﴿مَن﴾ ومعناها:

حـــالُ رســـولٍ واحـدٍ كافيةٌ في وجــوب اتّـبـاعـه فكيف وقد أُرسل منهم ثلاثةٌ

حمَل القرآنُ على لفظ ﴿مَن﴾ بالإفراد والتّذكيرِ في قوله ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾، إيماءً إلى وجوب اتِّباع مَنِ اتّصف بهذا الأمر الدّالِّ على الرّسالة، وإن كان واحدًا[3]، أي: أنَّه كان يكفيهم مُرْسَلٌ واحدٌ لكي يؤمنوا، لكمال الرِّسالةِ في نفسها، بحيث لا تحتاجُ إلى مُكمِّلٍ لها مِنَ الخارج، فكيف يكونون وقد اجتمع لهم ثلاثةُ رسل؟ وفي هذا تقريرٌ لإسرافِهم في الكفر والطّغيان والمعاصي، وفي الإفراد في هذا المعنى - وهو نفيُ السّؤال عنِ الأجر - إبلاغٌ في مدح الرُّسل به، بالنَّصِّ عليهم واحدًا واحدًا، وفي الحمّل على معنَى مَن بالجمع في قوله ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ إلى وجوب اتِّباعِهم، بالدُّخولِ في زُمْرَتِهم، أي: أنَّ حالَ كلِّ واحدٍ منهم على الاستقلال يوجِبُ اتِّباعَهُم، وحالُهُم جماعةً يوجِبُ ذلك.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 263، والشّربيني، السّراج المنير: 3/ 344.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 13/ 26.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 110.

فائدةُ صلةِ الموصول:

أفادت صلةُ الموصول في قوله: ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ بيانَ سببِ الحكم، أي: بيانَ سببِ وجوب اتّباع المرسَلين، وهو كونُهم لا يسألونهم أجرًا مع اهتدائهم.

علّةُ التّعبيرِ بالمضارعِ:

جاءت جملةُ الصّلة الأولى فِعْليَّةً مَنْفيَّةً في قوله: ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾؛ لِأَنَّ المَقْصودَ نَفْيُ أَنْ يَحْدُثَ مِنْهُمْ سُؤالُ أَجْرٍ، فَضْلًا عَنْ دَوامِهِ وثَباتِه[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾:

دعــوةُ الرُّسُــلِ مُمَحَّضَةٌ لِنَفْعِ القومِ

عبّر الرّجلُ المؤمنُ بالأجر في قول الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على كلِّ نَفْعٍ دُنيويٍّ يحصُلُ لأَحَدٍ من عمله، فيَشمَلُ المالَ والجاهَ والرِّئاسَةَ، فلمّا نُفي عنهم أن يَسأَلوا أَجرًا فقد نُفي عنهم أن يكونوا يَرمونَ من دَعوَتِهم إلى نَفعٍ دُنيَويٍّ يَحصُلُ لهم، وإنّما يرومون نفعَ النّاسِ، وقد جاء لفظ ﴿أَجۡرٗا﴾ نكرةً في سياق النّفي فأفاد العمومَ، بمعنى: (لا يسألونكم أيَّ أجرٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا)، ففي هذا اللّفظ دلالةٌ على أنَّ المُرسَلين مأمورونَ بالتّبليغ، فالذي أرسلَهُم هو الذي يَجْزيهم، ولا يطلبون مِنَ القومِ أيَّ حاجةٍ لهم على نصيحتِهم ودعوتِهم إلى التّوحيد.

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ الصّلة:

شـــأنُ الـرُّسـلِ إخلاصُ العملِ في جميعِ جوانبِ الدّعوةِ

لَمّا حُذف متعلَّقُ الصلة في قوله ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أفاد العمومَ، ليدلَّ على أنَّ المرسَلين لا يسألونهم أجرًا على دعوتِهم، وعلى نصيحتِهم، أي: هم لا يسألوهم أجرًا على رسالتِهم إليهم في أيِّ حالٍ من الأحوال[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 366.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 110.

نوعُ الواو، وفائدةُ جُملتها:

جملةُ الحالِ مناطُ استدلالٍ وإقناعٍ

الواو في قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ واوُ الحال[1]، وجملةُ الحالِ تفيدُ اقتران اهتدائِهم بعدم سؤالِهم أجرًا على دعوتِهم ونصحِهم، على أنّهما خبران، لا خبرٌ واحدٌ، وذلك أبلغُ في إغرائهم باتِّباعِ الرُّسُلِ، وهي حالٌ مؤكِّدة؛ لأنَّ المُرسَل لا يكون إلّا مهتديًا[2]، واهتداؤهم يؤكِّد كونَهم لا يسألون الأجر، ولا ما يتْبَعُه من طلبِ جاهٍ وعُلوٍّ[3].

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ:

رسلُ اللهِ خيرُ مَن تدلُّ على اللهِ حالُهُ

عُبِّر بالجملة الاسميّةِ في قوله:﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ الاهتداء ثابتٌ لهم، لا يُزايلهم، فهم مهتدون قبل نصحِ القوم وبعده؛ ففيه إيذانٌ بثبات اهتِدائِهم ودوامِهِ بحيث لا يَخْشى مَن يَتَّبِعُهم أن يَكونَ في وقْتٍ مِن الأوقاتِ غيرَ مهتدٍ[4]، فقد رسَخ الإيمانُ في قلوبهم، وتكرَّرَ منهم أعمالٌ صادِرَةٌ عنه حتى صاروا عريقين فيه.

دلالةُ صيغةِ (افتعل) في ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾:

أفاد التّعبيرُ بصيغة (افتعل) في قوله: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ المبالغةَ في اهتدائِهم، وأنَّهم تلقَّوا هداية الله بالقَبول، لتفيد الصّيغةُ معنى المطاوعة، أي: هداهم الله، فاهتدوا.

بلاغةُ التّعريضِ:

اتّبعوا المُهتدين المُخلِصين، لا الضّالّين المُضِلّين

لمّا أَخبَرَ الرّجلُ عنِ المرسَلين بأنَّهم ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾، والاهتداء هو سلوكُ طريقِ الحقّ عن علمٍ به، وانكشافٍ تامٍّ له[5]، أفاد قولُه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ التّعريضَ بالقومِ المكذّبين بأنَّهم ضالّون في طريقِهم، جاهلون بما يعملون، والمعنى: اتَّبعوا مَن أنتم في

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 113.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 113.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 398.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 366.
(5) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 185.

حاجةٍ إليهم، لأنّهم مهتدون، وهم ليسوا في حاجةٍ إليكم، لا دنيويّةٍ، ولا أخرويَّةٍ.

فائدةُ الإخبارِ بقوله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾:

الـثّـنـاءُ على المرسَلين وعلى ما يدعونَ إليهِ والتّرغيبُ في متابَعَتِهم

لمّا أخبَرَ الرّجل المؤمن عنِ الرُّسل أنَّهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾: أشعرَ أنَّ الرّسل يدعونهم إلى الهدى، وأنَّهم إنِ اتّبعوهم يهتدوا، أي: فإذا كانوا هم مهتَدينَ فإنَّ ما يدعونَكم إليهِ منَ الاقتِداءِ بهم دَعوَةٌ إلى الهُدى، فَتَضَمَّنَت هذه الجُملَةُ بموقِعِها بعدَ الّتي قَبلَها ثَناءً على المُرسَلينَ، وعلى ما يَدعونَ إليهِ، وتَرغيبًا في مُتابَعَتِهِم[1].

سببُ تقديمِ عدمِ سؤالِ الأجرِ على الاهتداء:

تجرّدُ أهلِ الحقِّ عنِ الرّغبةِ في الوصولِ إلى النّفعِ الدّنيويِّ في مقابلِ نصحِهم

قُدِّمَ في الصِّلَةِ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ عَدَمُ سُؤالِ الأجر على الاهتداء؛ لأَنَّ القوم كانوا في شَكٍّ من صدق المرسَلين، وكان من دواعي تكذيبهم اتِّهامُهم بأنَّهم يجُرّون لأنفُسِهم نفعًا من ذلك، لأَنَّ القوم لمّا غلَبَ عليهم التَّعَلُّقُ بحُبِّ المالِ، وصاروا بُعَداءَ عن إدراكِ المَقاصِدِ السّاميَةِ: كانوا يَعُدّونَ كُلَّ سعيٍ يَلوحُ على امرِئٍ إنَّما يَسعَى به إلى نَفعِهِ؛ فَقَدَّمَ ما يُزيلُ عنهم هذه الاسترابةَ، وليتهيّؤوا إلى التَّأَمُّلِ فيما يَدعونَهم إليه، ولِأَنَّ هذا من قَبيلِ التَّخليَةِ بالنِّسبَةِ للمُرسَلينَ والمرسَلِ إليهم، والتَّخليَةُ تُقَدَّمُ على التَّحليَةِ، فكانت جملَة: ﴿لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ أَهَمَّ في صِلَةِ الموصولِ[2].

الفروقُ المُعجَميَّة:

الأجر والجزاء:

بين الجزاءِ والأجرِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ

الأجرُ لا يكون إلّا على عملٍ نافعٍ، ويكون فيما كان عن عَقدٍ، وما يجري مجرى العقد، وأمّا الجزاءُ فيُقال فيما كان عن عقدٍ، وعن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 367.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 367.

غير عقد، ويُقال في النّافع والضّارّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: 12]، وقوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: 93].

والأجرُ: الكِراءُ على العمل، وجَبْرُ العظم الكسير؛ فأُجرةُ العاملِ كأنّها شيء يُجْبَر به حالُه فيما لحِقَه مِن كدٍّ فيما عملَه، والجزاءُ قيامُ الشّيءِ مَقامَ غيرِه، ومكافأتُه إيّاه، ولهذا يجري في سياق القضاءِ والإنابةِ[1]، فقد يكون الأجرُ مكافئًا للعمل، وقد يقاربُه، وقد لا يكافئُه، وأمّا الجزاءُ فيكافئه، وفي القرآن الكريم يُستعمل الجزاءُ في سياق الحديث عن ثواب أهل الإيمان، فيدلُّ على أنّه فوقَ العمل بكثير، فضلًا منه سبحانه، ويُستعمل في سياق الحديث عن عقاب أهل المعصية مِن أمّة الدّعوة ومِن أمّة الإجابة، فيدلُّ على أنّه مُكافئٌ للعمل؛ عدلًا منه تعالى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 455 - 456.

﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ [يس: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإســلامُ حـقٌّ؛ لأنَّـهُ المُنسجمُ مـعَ الـفـطـرةِ والعقلِ والواقعِ

لمّا قال ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ بيّنَ ظهورَ اهتِدائِهِم بأنَّهم يُدعَونَ من عِبادَةِ الجَمادِ إلى عِبادَةِ الحَيِّ القَيّومِ، ومِن عِبادَةِ ما لا يَنفَعُ إلى عِبادَةِ مَن منه كُلُّ نَفعٍ[1].

وأيضًا: لمّا أفهَمَ السّياقُ أنّه قال: (فإنّي اتّبعتهم في عبادة اللّه) بنَى عليه قولَه: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، جوابًا لمَن يلومُه على ذلك، وترغيبًا فيما اختارَه لنفسِه، وتوبيخًا لمَن يأباه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَطَرَنِي﴾: أصلُ (فطر) يَدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِه[3]، يقال: فَطَرَ البِئرَ يَفطُرها، فَطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم[4]، والفاطِرُ: فاعِلُ الفَطْرِ، وهو الخَلقُ، وفيهِ معنى التَّكوُّنِ سريعًا؛ لأنَّهُ مُشتقٌّ مِنَ الفَطرِ وهو الشَّقُّ[5]، والفِطْرَةُ: الغَريزَة، والطَّبيعة، والمقصود بقوله: ﴿فَطَرَنِي﴾ في الآية: خَلَقني وابتدأ وجودي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أحــبَّ لـهـم ما أحــبَّ لـنفسه، وأبانَ عن صدقه في النّصيحة

لقد أبانَ الرَّجلُ أنَّه يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسه، فقال: وما الَّذي يَمنَعُني مِن عبادةِ اللّهِ الَّذي خلَقَني مِنَ العَدَم، والذي إليه المرجعُ للجزاء يومَ المعاد، فيُجازيَكم على أعمالكم؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 530.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فطر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 249.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 422، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 153.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الرّجلُ المؤمنُ يترقَّى في حوارِ القومِ

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

جاءت جملةُ: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عَطۡفًا على جُمۡلَةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، لتكون مِن عطف الجملة الإنشائيَّة على الجملة الإنشائيَّة، وقد قَصَدَ بهذه الجملة إشعارَهم بأنَّهُ اتَّبَعَ المُرسَلِينَ، وخَلَعَ عِبادَةَ الأَوثانِ، وهذا حينَ أبدى لقومه إيمانَه باللّه وتوحيدَه له[1].

العجبُ مِن انصرافِهم عن شيءٍ تشهدُ به الفطرةُ

بلاغةُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ في قوله: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مجازيٌّ، فإنَّ (ما) في ﴿وَمَالِيَ﴾ للاستفهام عنِ السّبب على طريق الإنكار، والمعنى: (ما لي مانِعٌ مِن جانِبي في ترك عبادة الذي فطرني)، أو: (ما لي صارفٌ عن عبادة الذي فطرني)، والاستفهامُ وإن كان ظاهرًا أنّه مُتوجِّه عن سببٍ لنفسِه لقولِه ﴿وَمَالِيَ﴾ لكنَّه لمّا جاءت جملةُ ﴿لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ حالًا مِن ضمير المتكلِّم (الياء)[2] أفاد الحالُ تقييدَ الإنكار بهذه الحالِ، فالإنكارُ إنكارُ تحقُّق سببٍ موجبٍ لترك عبادة الذي فطره، والإعراضِ عنها، ويتولَّدُ مِنَ الإنكار توبيخُهم على ترك عبادة اللّه تعالى التي يشهد العقلُ وتُقرُّ الفطرةُ بصحّتها[3]، فإنّه إن انتفى عنه السّببُ الموجِبُ لترك عبادة اللّه فلَأَن يكون منتفيًا عنهم أَوْلَى وأَحْرَى، ففيه إشعارٌ بأنّهم كانوا مُنكِرين عليه الدَّعوَةَ إلى تصديق الرّسل الذين جاؤوا بتوحيد اللّه، فإنّ ذلك يقتضي أنّه سبقهم بما أَمَرَهم به[4].

مِن صفاتِ الدّاعي إلى اللّه الفِطنةُ والحِكْمةُ

بلاغةُ التّعريضِ:

لمّا كان الكلام على طريق المخاطَبة، كان الظّاهر أنْ يُقال: (وما

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 506، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 368.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 368.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 114.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 368.

لكم لا تعبدون الذي فطركم)، ولكنّه صرَف الكلامَ إليه فقال: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، فجاء الكلامُ على طريق التّعريض؛ ليفيد الإنكارَ على سبب ترك عبادتِهم الذي فطرهم، وفائدةُ مجيء الكلام بطريق الكناية التّعريضية: تركُ التّصريح بنسبتِهم إلى الباطل، بإسماعِ القوم المخاطَبين الحقَّ على وجهٍ لا يزيد غضبَهم، ولا نُفْرتَهم، وهو ترك المواجهة بالتّضليل والتّصريح لهم بالنِّسبة إلى ارتكاب الباطل؛ ترغيبًا في إيمانِهم واتّباعِ المرسَلين[1]، فأوردَ الكلامَ في معرض المناصحة لنفسِه - وهو يريد مُناصحتَهم - ليتلطّف بهم في الإرشاد، ويُداريَهُم، وليكونَ أسرعَ قَبولًا، ولأنّه أدْخَلُ في إمحاضِ النُّصح، حيث لا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسِه وروحِه، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولولا أنّه قصد ذلك لقال: (الذي فطرني، وإليه أرجع)[2].

أو يُقال: إنّه أضاف الفَطْرَ إلى نَفْسِه لِأَنَّ الخلقَ والإيجادَ نِعْمَةٌ منَ اللّه تعالى توجِبُ الشُّكْرَ، والشّكرُ يقتضي إفرادَ اللّه تعالى الذي فطره بالعبادة، وأضاف البَعثَ إليهم فقال ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لِأَنَّ ذلك وعيدٌ يقْتَضي الزَّجرَ، والمُراد تقريعُهم على تركهم عبادةَ خالقهم إلى عبادة غيره، فأضاف ما يقتضي الشّكرَ لنفسه؛ لأنَّه أليقُ بإيمانه، وما يقتضي الزّجرَ إليهم؛ لأنّه أليقُ بكفرهم، فكان إضافَةُ النِّعمةِ إلى نَفسِه أَظهَرَ شُكرًا، وإضافَةُ البَعثِ إلى الكافرِ أَبْلَغَ أثَرًا[3].

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ الآية جَرَتْ على طريق الاحتباك، وبيانُه أنّ َتقدير الكلام: (وما لي لا أعبد الذي فطرني، وإليه أرجع، وما لكم لا تعبدون الذي فطركم، وإليه ترجعون) فحُذف (وإليه أرجع) أوّلًا، لما دلَّ عليه ثانيًا، وحذف إنكارَه عليهم ثانيًا لما دلَّ عليه أوّلًا من إنكاره على نفسه، ونكتةُ الحذف: استجلابُ قلوبهم، بإظهار الإنصاف، والبُعْدِ عنِ التّصريح بالخلاف[4]، فيكونُ على نسَق الوجه الأوّل في أنَّ المقصودَ مُلاطفتُهم ومُداراتُهم.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 245، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 113.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 10، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 266، وابن عادل، اللباب: 16/ 191.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 18.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 111.

حِجاجُ الرّجلِ المؤمنِ عقليٌّ مُقْنِعٌ

بلاغةُ الحِجاجِ على مَعْبوديَّة الله تعالى:

في التّعبير بقوله: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ احتجاجٌ على جهلِ القوم في عدم إيمانِهم، للإشارَةِ إلَى أَنَّ ألوهيَّة اللّه تعالى ومعبوديّتَه ظاهِرةٌ، لا خَفاءَ فيها، فَمَنْ يَمْتَنِعُ مِنْ عِبادَتِه يَكونُ مِنْ جانِبِهِ مانِعٌ، أي: فلمّا لم يكن مانِعٌ مِنْ جانِبي لا جَرَمَ عَبَدْتُه[1].

تنوّعُ التّعبيرِ القرآنيّ لتنوُّعِ المقامِ

توجيهُ المتُشابِهِ اللّفظيِّ:

قالَ اللّهُ تعالى في سورة نوح: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13] بطريق خطاب القوم، وقال في سورة يس: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، وكلا الاستفهامين على الإنكار؛ فما وجْهُ مخاطَبةِ القومِ في سورة نوح، ومخاطَبةِ النّفس في سورة يس؟ وجوابُه: أنَّ المُتكلّم في سورة نوح غَيْرُ مَدْعوٍّ، وإنَّما هوَ داعٍ، وهاهنا الرَّجُلُ مَدْعوٌّ إلَى الإيمانِ، فَقالَ: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: وقد طُلِبَ مِنّي ذلك؟![2].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عبّرَ بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾؛ للدّلالةِ على معنى الحال والاستمرار، والمعنى: إنكارُ تركِ عبادتِه تعالى حالًا ومآلًا.

التَّعريفُ باللهِ موجبٌ لعبادته والاعترافِ بحقوقه

بلاغةُ التّعبيرِ بالموصولِ وصلتِه:

لم يقلِ الرّجلُ المؤمنُ: (وما لي لا أعبد اللّه) بذكر الاسم الجليل، بل قال: ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ بذِكْرِ الموصول وصلتِه؛ وذلك للإشعار بوجْهِ بناءِ الحُكم، وذكرِ السّببِ الدّاعي إلى عبادة اللّه تعالى، أي: لأنَّه فطرني وجبَتْ عبادتُه عليَّ، ووجَب إفرادُه بالعبادة؛ لأنَّ فاطرَ العبادِ وجميعِ المخلوقات واحدٌ لا شريكَ له، وأحدٌ لا يتجزَّأُ.

أو يُقال: ذِكْرُ الموصول وصلتِه إشارةٌ إلى المقتضي الذي أوجب عبادتَه سبحانه؛ فَإنَّ قَوله: ﴿وَمَالِيَ﴾ إشارةٌ إلى عدم المانعِ، ولا

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.

يكفي عدمُ المانع لوجود الفعل ما لم يوجَدِ المُقتَضي، فقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يُنبِئُ عنِ الاقتضاءِ؛ فَإنَّ الفاطر ابتداءً مالِكٌ، والمالكُ يَجبُ على المملوكِ تَعظيمُهُ، كما أنَّ الفاطرَ مُنْعِمٌ بالإيجادِ، فيَجبُ على المُنعَم عليه شُكرُ نِعمَةِ المنعِم، باتّباع أوامره(1).

نُكتةُ تقديمِ عدمِ المانعِ على المُقْتضي:

عدمُ المانعِ تخليةٌ، والمُقتضي تحليةٌ

قَدَّمَ الرَّجلُ المؤمنُ بَيانَ عَدَمِ المانِعِ في قوله: ﴿وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾ على بَيانِ وجودِ المقتضي في قولِه ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، مَعَ أَنَّ المُستَحسَنَ في الحِجاجِ تَقْديمُ المقتضي حَيْثُ وُجِدَ المُقْتَضي ولا مانِعَ، فكان الظّاهر أن يُقال مثلًا: (هو الذي فطرني فما لي لا أعبده؟)، وسببُ تقديم عدم المانع هو أنَّ المقتضي لِظُهورِهِ ووضوحِه كانَ مُستَغنيًا عنِ البَيانِ رَأْسًا، فَلا أَقَلَّ مِن تقديمِ ما هو أَوْلى بالبَيانِ، لوجود الحاجة إليه، وانصبابِ الغرض عليه، وهو بيانُ عدمِ المانع مِن عبادة اللّه تعالى، وليرجعَ القومُ إلى أنفسِهم؛ فيَعتبروا، ويُؤمنوا(2).

فائدةُ الواوِ:

اللهُ هوَ الذي بيدِه أمرُ الخَلْقِ

تفيد الواوُ في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ العطفَ على صلة الموصول الأولى، والتّقديرُ: (وما لي لا أعبد الذي فطرني، والذي إليه ترجعون)، فيكون قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مِن تمام بيانِ سببِ استحقاقِه تعالى العبادةَ؛ إذ إنَّ قوله: ﴿فَطَرَنِى﴾ يُشير إلى أنَّ مبدأكم منه تعالى، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُبَيِّن أنَّ مرجعَكم إليه تعالى؛ فاستعِدّوا لِلقاءِ مَن منه مبدأُكم وإليه مرجعُكم بإفرادِه تعالى بالعبادة(3).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 114.

بلاغةُ تقديمِ (إليه) على ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

اختصاصُه تعالى بالرّجوع إليه دليلٌ على اختصاصه بالعبادة

قدَّمَ (إلَيهِ) على الفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ للعناية والاهتمام على وجه التّخصيصِ بمعنى: (إليه ترجعون، لا إلى أحدٍ سواهُ، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا، فيُجازيكم على أعمالِكم)، وفي التّقديم رعايةُ الفاصلة ورُؤوسِ الآي.

دلالةُ عوْدِ الضّمير:

الضّمائرُ من بوّاباتِ الإيجازِ البيانيّ

يعود الضّميرُ في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ إلى الاسم الموصول مع صلتِه في قوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، أي: (وإلى الذي فطركم تُرجعون)، ففيه تذكيرٌ بالمبدأ والمعاد، وفيه استدلالٌ لطيفٌ؛ فالذي قدَر على المبدأ قادرٌ على الإعادة.

بلاغةُ التّعريضِ:

الرّجلُ المؤمنُ رحيمٌ بقومِه

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ على طريق التّعريض على معنى المبالغة في تهديدهم، وتقريعِهم، بطريق الرّمز والإشارة؛ أي: (تُرجعون إلى الذي فطركم بالموتِ والبعثِ، فتُعاقبون أشدَّ العقوبة إنْ بقيْتُم على الشّرك)[1]، فالمُعرَّضُ به هو عقوبتُهم على كفرهم وإصرارِهم عليه.

مِن خصوصيّات قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

الخوفُ والرّجاءُ قُطْبا العبادةِ

إذا كان الرّجلُ المؤمن قد أضاف ما يقتضي الشُّكرَ لنفسه؛ لأنَّه أليقُ بإيمانه؛ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾: فإنّه أضاف الرّجوعَ إلى الله إلى القوم الكافرينَ؛ لأنَّ المُضافَ وعيدٌ يقتضي الزَّجرَ، وإضافَةُ البَعْثِ إلى الكافرِ أَبْلَغُ أَثَرًا[2]، والمرادُ تقريعُهم على تركهم عبادةَ خالقِهم إلى عبادة غيره، وإذا كان حالُ العبدِ في الآخرة دائرًا بينَ الثّواب والعقابِ، كان في قوله ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ جمعٌ بينَ الخوفِ والرّجاءِ، وهذا ما ينبغي أنْ يكون عليه العبدُ في الدّنيا[3].

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 245، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 114.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 18.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ [يس: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحقيقُ معنَى لا إلـه إلّا الله بالجمعِ بين نفْي الآلهة وإثباتِ أُلوهيَّة الله تعالى وحده

لمّا أمر الرّجلُ المؤمنُ أصحابَ القريةِ صريحًا، ونهاهم تلويحًا، ورغَّبهم ورهَّبَهم، ووبَّخَهم وقرَّعَهم، وبيَّنَ جلالةَ مَن آمن بالرّسل، واتّبعهم، ومَن كانوا سببًا في ذلك: أنكَر على مَن يفعل غيرَه؛ بطريق الإنكار على نفسه، مُحقِّرًا لِمَن عبدوا آلهةً مِن دون اللّه؛ وهم غارقون في نِعَمِه[1].

وأيضًا: لمّا كان قوله ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إشارَةً إلى وجودِ الإلَه، وكان المرادُ تحقيقَ التّوحيد قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، إشارَةً إلَى نَفْيِ غَيْرِهِ، فَيَتَحَقَّقُ مَعْنَى: لا إلَهَ إلّا اللّهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِ﴾: أصلُ (غني) يَدُلُّ على الكِفايَةِ، يُقالُ: غَنيَ يَغنَى غِنًى، والغَناءُ بفَتحِ الغَينِ مَعَ المَدِّ: الاستغناءُ والكِفايةُ، يُقالُ: لا يُغني فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أَي: لا يَكْفي كِفايَتَهُ[3]، وغَنيَ القَوْمُ في دارِهِم: أَقاموا، كَأَنَّهُمُ استَغنَوا بها[4]، والغَناءُ في الآيةِ مُرادٌ به: جَلْبُ النَّفع ودَفعُ الضُّرّ، بحسب الأمر الَّذي يكون فيه الغَناء[5].

2) ﴿يُنقِذُونِ﴾: أصلُ (نقذ) يدلُّ على استخلاصِ شَيءٍ[6]، قالوا: ينقِذُ بكسر القافِ، إذا نجا، وأنقذته أنا إنقاذًا إذا أنجيته[7]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 111.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 264.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غني).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 202، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 19.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نقذ).

والإنقاذُ: التَّخْليصُ من ورْطَة، وفَرَسٌ نَقيذٌ: مأخوذٌ مِن قوم آخرين؛ كأنَّه أُنْقِذَ منهم، وجمْعُه نَقائذُ[1]، والمرادُ بالإنقاذِ في الآية: التَّخليصُ من غَلَبٍ أو كرْبٍ أو حَيْرةٍ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإشراكُ بالله تعالى خطأٌ ظاهرٌ لدى أربابِ الأحلام، وذوي الحجا

يُنكِر الرّجلُ المؤمن على نفسِه - وعلى قومه تبعًا - أنْ يتّخذ مِن دونِ اللهِ آلهةً، أي: لا يصحُّ ولا يجوز أنْ أتَّخذ مع الله تعالى في العبادة آلهةً أخرى كائنًا ما كانت هذه الآلهةُ، فأَعبدَها، وأترك عبادة مَن يستحقّ العبادةَ، وهو الَّذي فطرني وخلقني؟! فإنَّه إنْ أرادني الرَّحمن بسوء لم تَنفعني شفاعةُ هذه الأصنام التي تعبدونها، ولا تُخلّصني من ورطة السّوء؛ فإنّها لا تملك مِنَ الأمر شيئًا؛ إذ إنَّها لا تملك دفعَ الضُّرر ولا منعَه، ولا جَلْبَ النَّفع، ولا تُنقذ أحدًا ممّا هو فيه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الفصلِ في الآية:

التّأكيدُ على إنكارِ الشّركِ وبيانِ عِلّته

جاءت جملةُ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ على طريق الاستئناف البيانيّ؛ فإنَّ المؤمن لمّا أنكر أيَّ مانع يمنعُه مِن عبادة الذي فطَره: لزِم منه الإنكارُ على عبادة غيره تعالى، فاستشعر الكلامُ سؤالًا عن وُقوعِ الانتِفاعِ بِشَفاعَةِ تلك الآلِهَةِ عند الَّذي فَطَرَهُ، فكأنَّه قيل: هل تتّخذ مِن دونه آلهةً تشفعُ لك عند الذي فطرك، وتنقذُك مِنَ البلايا والهلاك؟ فأجيب على طريق الإنكار: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾الآيةَ[4]، وإنكارُ الاتِّخاذِ في هذه الآية مِن لوزام مضمونِ الآية السّابقةِ عليها، فالآيةُ اللّاحقةُ تؤكّدُ الآيةَ السّابقةَ؛ فبينهما كمالُ اتّصالٍ، فلهذا غابتِ الواوُ.

(1) الراغب، المفردات: (نقذ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 24.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 368.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

لا حاجةَ في بيان السّببِ، لظهورِه ووضوحِه

جاء الاستفهامُ في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ على طريق الإنكار، والمُرادُ إنكارُ وقوع اتّخاذ آلهةٍ مِن دون الله، أيْ: أُنْكِرُ عَلَى نَفْسي أَنْ أَتَّخِذَ مِنْ دونِه آلِهَةً، وبالنّسبة للقوم: إنكارٌ للواقع على معنى النّهي، أي: لا تتَّخِذوا آلهةً مِن دونه، ويتْبَعُ ذلك معنى التّوبيخِ وما جرَى في طريقه[1].

وفَضْلُ الإنكارِ بالاستفهام - كما في الآية - على الإنكار بالنّفي الصّريح: إفهامُ ظهورِ المُنكَر ووضوحِه غايةَ الظُّهورِ والوضوح؛ كأنّه لا يحتاج إلى تعليلٍ، وذلك أَنَّ من أَخْبَرَ عن شَيءٍ، فقال مثلًا: (لا أَتَّخِذُ): يَصِحُّ مِنَ السّامِعِ أَنْ يَقولَ لَهُ: (لِمَ لا تَتَّخِذُ؟)، فَيَسأَلُهُ عن السَّبَبِ، فإذا عبَّر بصيغة الاستفهام الإنكاريِّ، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾: فمعناه أَنَّهُ مُستَغنٍ عن بَيانِ السَّبَبِ الَّذي يُطالَبُ به عند الإخبارِ، كَأَنَّهُ يَقولُ: تَفَكَّرْ في الأَمرِ تفهَمْ من غير إخبارٍ مِنّي؛ لظهوره ووضوحِه[2]، وفيه التّعويلُ في إقامة الدّليل على المُخاطَب، فيكونُ أبلغَ إقناعًا وتسليمًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالاتِّخاذِ:

الإلـهُ الـحَـقُّ لا يُجعَلُ جَعلًا، ولكنَّه مُستَحِقٌّ الإلهيَّةَ بالذّاتِ

في إنكار اتِّخاذِ آلهةٍ مِن دون الله تعريضٌ بإثباتِ هذا الاتِّخاذ للقوم، معَ إنكارِه عليهم، والاتّخاذُ افتعالٌ مِنَ الأَخْذ، ومعناه التَّناوُلُ بقوَّةٍ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه الأوثانَ التي يعبدُها القومُ من دون الله لم تكُن آلهةً، وإنّما هم الذين صيَّروها آلهةً، وأقبلوا على جعلِها آلهةً برغبةٍ قويَّةٍ! وتكلّفوا في اتّخاذها آلهةً مِن دون الله، لمخالفتهم الفطرةَ الأولى[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم اجتهدوا في عبادتِها، وبالَغوا

---

(1) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 186، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 512، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 368.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 265.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 111.

في ذلك، فيتضمّن استعمالُ هذه الصّيغة توبيخًا على هذا الاتّخاذِ، والحقُّ أنّها ليست بآلِهَةٍ؛ لأَنَّ الإلهَ الحَقَّ لا يُجعَلُ جَعلًا، ولكنَّهُ مُستَحِقٌّ الإلهيَّةَ بالذّاتِ(1).

توجيهُ المتُشابِهِ اللَّفظيّ:

دخلت ﴿إِن﴾ الشّرطيّةُ على الفعل المضارع فقال تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، ودخلت في سورة الزُّمَرِ على الفعل الماضي فقال ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: 38]، فيقال: ما الحِكمَةُ في اختيارِ صيغة الماضي في سورة الزّمر واختيارِ صيغةِ المضارع في سورة يس؟ وجوابه أنَّ الفعل المذكور من قبلُ في سورة يس بصيغة المضارع في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ وقوله: ﴿وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾، فجاء على نسقٍ واحدٍ، والمذكور في سورة الزّمر بصيغَةِ الماضي في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ [الزمر: 38]، فناسب كلٌّ سياقَه(2).

التّناسقُ في صيَغ الأفعال

نكتة التّعبير بـ ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾:

جاء الفعل: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّ الكلام على معنى إنكارِ أنْ يتّخذَ آلهةً مِن دون اللّه في الحالِ والاستقبال، وإن كان الاستفهامُ الإنكاريُّ على معنى الاستقبال غالبًا، فالمُرادُ الإنكارُ في الحال والمآل، ولا سيَّما بعد مجيء الرّسل وتبليغِهم؛ بمعنى أنَّ مجيءَ الرُّسلِ إلى أصحاب القرية سببٌ لأشدِّ الإنكار على مَن يتّخذُ مِن دون اللّه آلهةً.

العاقلُ المنْصِفُ لا يتجدَّدُ على ذهنِه اتِّخاذُ آلهةٍ مِن دونِ اللهِ

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

يدلُّ معنى ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المغايرة، والمعنى: (أأتّخذ مِن غيرِ الذي فطرني آلهةً؟)، وعبّر بـ﴿دُونِهِۦٓ﴾ دون (غيره) إيماءً إلى دناءَةِ هذه الآلهةِ، وإلى عُلوّ اللّه ذاتًا ورتبةً ، فكلُّ الآلهة المزعومةِ

التَّقابلُ بينَ عليِّ الذاتِ ودنيئِها يُحرِّكُ للمقارنة بينهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 368.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 266، وابن عادل، اللباب: 16/ 194.

هي من دونِه سبحانَه[1]، ففي عبارة ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ ما ليس في عبارة (من غيره).

وأمّا عمومُ ما سوى اللّه فمفهومٌ مِن مطلق اتّخاذ آلهة؛ فإنَّ مَن عبدَ غيرَ اللّه تعالى وجب عليه عبادةُ كلِّ شيءٍ مُشاركٍ للمعبود؛ لِأَنَّ الكُلَّ مُحْتاجٌ مُفْتَقِرٌ حادِثٌ، فيلزمُه أَنْ يتّخذَ آلِهَةً لا حَصْرَ لَها، فلمّا قال: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: أفاد أنَّ الإله الحقَّ هو الذي فطرك وخلقك، فَلا يَجوزُ أَنْ تَتَّخِذَ آلِهَةً[2].

فائدةُ تنكيرِ ﴿ءَالِهَةً﴾:

لمّا جاء لفظ ﴿ءَالِهَةً﴾ نكرةً في سياق الاستفهام: دلَّ على العموم، بمعنى الإنكار على أيِّ إلهٍ مِن دونِ اللّه، سواء كان هذا المعبودُ بالباطل فردًا أو جماعةً.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ:

التّعريفُ بحقيقةِ المعبودِ الباطلِ تخليةٌ

جاء المفعولُ - محلُّ الإنكارِ - بصيغة الجمع في قوله ﴿ءَالِهَةً﴾، مع أنَّه يكفي في الظّاهر أنْ يُعبَّر بصيغة المُفرد لدلالة اللَّفظِ على العموم في سياق الاستفهام، والنّكتةُ في ذلك الإشعارُ بعجْزِ ما عبدوه لتعدُّدِه[3]، ولإفهامهم بقرينة الاتِّخاذ الدّالِّ على رغبتهم في الآلهة بقوَّةٍ: أنّها مع كثرتها وتعدُّدِها لا تُغني شيئًا، ولإفهامهم أنَّ اللّه واحدٌ أحدٌ، وفيه إيماءٌ إلى كثرة الآلهة التي كانوا يعبدونها.

فائدةُ الفصلِ:

اختصاصُ اللهِ بالعبادةِ رحمةٌ للخلْق

لمّا جاء السّياقُ في قوله تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ بطريق الإنكار على اتّخاذ آلهةٍ مِن دون اللّه: أَتْبَعَه بما يُؤكِّدُ هذا الإنكارَ ببيان عجزِ هذه الآلهةِ وقصورِها، فعابَها بقولِه: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 111، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دون).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 265.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 111.

﴿بِضُرٍّ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، فذلك مُحقِّقٌ مؤكِّدٌ لِما قبلَه، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، فلهذا غابتِ الواوُ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿إِن﴾ الشَّرطيةِ:

عبَّرَ بأداة الشّرط ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدۡنِ﴾، والتي تفيدُ نُدرةَ وقوعِ الشّرط، للإشعار بقلّة الضّرِّ، وكثرةِ النّفعِ؛ ترغيبًا فيه تعالى، وبيانًا لكرمه ورحمته بخلْقِه[1].

سرُّ تعدّي الفعْلِ إلى ضمير الياء بنفسِه:

الرجلُ المؤمنُ يُعلِّمُهم في لُطْفِ تسليمَ الأمرِ لله

تعدّى الفعلُ (يريد) إلى ضمير ياء المتكلِّم بنفسِه وليس بحرف الجرّ - فقال: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾، ولم يقل: (إن يُرِدِ الرّحمن بي ضرًّا)، ومثلُه قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزُّمَر: 38]، ولَمْ يَقُل: (إنْ أَرادَ اللّهُ بي ضُرًّا)، والسّببُ هو أنَّ الفعل إذا كانَ مُتَعَدّيًا إلى مَفعولٍ واحِدٍ تَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ بِحَرْفٍ، فالبلاغةُ أنْ يَتعدّى الفعل بنفسِه إلى المفعول الأهمِّ والأولى بوقوع الفعل عليه، ويَتعدّى إلى الآخر بحرف الجرّ، فإذا كان السّؤالُ عن حال فلان قيل: اختصَّه الملك بالكرامة، وإذا كان السّؤال عنِ الكرامة قيل: اختصّها الملك بفلان، فيجعل الفعل متصّلًا بما هو المقصودُ في الكلام، أي: يُجعل المسؤولُ عنه مفعولًا بغير حرفٍ؛ لأنَّه هو الأهمُّ والمقصودُ، ولمّا كان المُرادُ بَيانَ كَوْنِ العَبْدِ تَحْتَ تَصَرُّفِ اللّه، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشاءُ في البُؤْسِ والرَّخاءِ: لم يكن الضُّرُّ بِمَقصودٍ بَيانُهُ، لا سيّما والقائلُ مُؤمِنٌ أرادَ إظهارَ إيمانِه وإعلانَه؟ فهو يَرْجو الرَّحمَةَ والنِّعمَةَ، بِناءً على إيمانه بِحُكم وعدِ اللّه، ويُؤَيِّدُ هذا قَولُهُ من قبلُ: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ حيثُ جَعَلَ نَفسَهُ مفعولَ الفِطرةِ؛ فكذلك جعلها مفعولَ الإرادَةِ فقال: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾، وذِكرُ الضُّرِّ وقَعَ تَبَعًا[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 111، والشربيني، السراج المنير: 2/ 346.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 266.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

عُبِّرَ باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ اسم الجلالةِ (اللّه)؛ لأنَّ المشركينَ كانوا يُنكِرون اسمَ الرَّحمنِ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، وللإشارةِ إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتضي عدَمَ خَشيتِه، فالمؤمنُ يَخْشى اللّهَ مع عِلمِه برَحمتِه، فهو يَرْجو الرَّحمةَ، وذِكْرُ وصْفِ الرّحمن في سياق إرادة الضّرِّ يُفْهَمُ منه أنَّ الرّحمة لا تنافي إرادة الضّرِّ، فلا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أو يظُنُّ ظانٌّ أنَّ إرادةَ اللّهِ الضُّرَّ للإنسانِ تُنافي الرَّحمةَ؛ لأنَّ إرادةَ الضُّرِّ بالإنسانِ قد تكونُ مِن رَحمةِ اللّه بالإنسانِ، والأقدارُ أسرارٌ، وقد تَظهر في المآلِ، بأن يرجع المذنبُ إلى اللّه تعالى بعد إصابتِه بالضّرِّ، أو يكون عبرةً لغيرِه.

سُبحانَ مَن وسِعت رحمتُه كلَّ شَيءٍ

توجيهُ المتُشابِه اللَّفظيِّ:

جاء في سورة يس قولُه تعالى: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ وقال في سورة الزّمر: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الزُّمَر: 38]، فما السّببُ في إيراد اسْمِ الرّحمن في سورة يس واسمِ اللّه الجليل في سورة الزّمر؟ والجوابُ أنَّ الاسمين (اللّه) و(الرّحمن) مُختصّان بواجب الوجود؛ كَما قالَ تَعالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: 110]، والاسمُ الجليلُ (اللّهُ) يأتي في سياق الهَيبَةِ والعَظَمَةِ، واسمُ (الرَّحْمَنُ) يأتي في سياق الرّأفةِ والرّحمةِ، وفي سورة الزّمر وُصِفَ اللّهُ بالعِزَّةِ والانتقام في قَولِه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ٣٧﴾ [الزُّمَر: 37]، وذَكَرَ ما يَدُلُّ على العظمة في بداية الآية بقَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزّمر: 38]، فناسبَ السّياقَ ذكرُ الاسم الدّالِّ على العظمة فقال: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: 38]، وذكَر في سورة يس ما يَدُلُّ على الرَّحمَةِ

سياقُ الجلالِ هو الغالِبُ على الجمالِ في موضع الزُّمر، والعكسُ في يس

بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإنَّهُ نعمَةٌ هي شَرطُ سائِرِ النِّعَم، وهو مِن جليل النّعم؛ فَناسبَ السّياقَ ذكرُ الرَّحمنِ فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾، فناسب كلٌّ سياقَه[1].

دلالةُ النّفيِ في قوله: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾:

المقصودُ نفيُ الشّفاعة والإغناءِ جميعًا

لمّا كان الإغناءُ يتضمَّن أمرَيْن: أحدُهما سدُّ الحاجة والكفاية، والثّاني دَفْعُ الأذى[2]؛ أفاد التّعبيرُ بقولِه: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أنَّ الآلهةَ لا تكون بدلًا عن أحدٍ، ولا ترفعُ ولا تمنعُ شفاعتُهم شيئًا، وليس المُراد أنَّ لها شفاعةً لكنَّها لا تُغني؛ بل المرادُ باعتبار المقصودِ: أنْ لا شفاعةَ لها أصلًا حتَّى تغنيَ شيئًا[3]؛ لأنّه لمّا جاء لفظ: ﴿شَيْـًٔا﴾ في سياق النّفي أفادَ اللّفظُ عمومَ نفيِ أيِّ إغناءِ لشفاعتِهم، فيفيد بلازمه أنْ لا شفاعةَ لها أصلًا، ونُكتةُ التّعبير بـ:﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ دون أنْ يُقال: (لا تشفع شيئًا)، هو الاستدلالُ بطريق التّنزّل للخَصْمِ؛ أي: لو فرضنا أنَّها آلهة تشفع لكم كما تزعمون: فإنَّ شفاعتَها لا تغني عنكم شيئًا، وفيه إشعارٌ بأنَّه تعالى إن أرادكم بضُرٍّ، وكنتم تنتظرون شفاعتَهم: فإنَّ شفاعتَهم لا تنفع، ولم يمكن أن يكونوا شفعاءَ عندَه[4]، ففيه تبكيتٌ لهم في وقت انتظارِ شفاعةِ آلهتِهم، ليُفاجَئوا بغير ما كانوا يَتوقَّعون وينتظرون.

أو يُقال في سبب العُدولِ إلى نفيِ الإغناء عن نفيِ الشفاعة أصلًا إنّه إذ قد نُفيَ عن شفاعة الآلهة النَّفْعُ للمَشفوعِ فيه، فقد نُفيَ عنهم أن يَشفَعوا بطَريقِ الالتزام؛ لأنَّ من يَعلَمُ أنَّهُ لا يُشَفَّعُ لا يَشفَعُ، فكأنَّهُ قال: (أأتخذ مِنْ دونِه آلِهَةً لا شَفاعَةَ لَهُمْ عِنْدَ اللّه)، فيكون العدولُ إلى اللُّزوم، لإقامة الحُجَّة على بطلانِ اعتقادِهم أنَّهُمْ شُفَعاءُ مَقبولو الشَّفاعَةِ[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 266.
(2) الراغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غني).
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 512، والسمعاني، تفسير السمعاني: 4/ 373.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 10.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.

نُكتةُ إفرادِ لفظِ الشّفاعةِ:

الإفرادُ إبلاغٌ في تقرير النّفي

أُفْرِد لفظُ الشّفاعة فقال: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾؛ للإشعارِ بِعَدِّ آلهتِهم عَدَمًا، أي: (لو اتّحَدَت شفاعتُهم وتعاونُهم على شيءٍ واحدٍ في آنٍ واحدٍ: فإنّها لا تُغْني شيئًا)[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الفعل: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾:

نفيُ الإنقاذِ عن الآلهةِ تحريكٌ للنّفوس الحُرَّة لأن تُبغضَها

لمّا كان الإنقاذُ هو تخليص شيءٍ وتنجيتَه مِن ورْطةٍ أو غلَبٍ أو كربٍ أو حَيْرةٍ؛ ليُفيد بلازمِه معنَى النّصرة والمُظاهَرة، فالمُنقذُ هو المُناصِرُ والمُظاهِرُ: أفاد التَّعبير بقوله: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أنَّهم لا يخلّصونني مِن الضّرِّ إذا أصابني، ولا ينصرونني، ولا يتّصفون بالنّصرة والمظاهَرة[2]، فخصوصُ هذا النّفي يُبعِدُهم عنِ الآلهة الباطلة، ويُحرِّكُ نفوسهم نحوَ الإلهِ الحقِّ، وهذا النفيُ مِن لوزام جملة النّفي قبْلَه؛ فإنَّ مَن لا تنفع شفاعتُه لا ينقذ أحدًا؛ ففي التَّصريحِ به إبلاغٌ فوقَ الإبلاغ بخصوص معناه في تقبيح هذه الآلهة الباطلة، والتّنفيرِ منها، وإبلاغٌ في التّرغيبِ في الإيمان.

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ الفعل:

المعبودُ بالباطلِ مخلوقٌ ضعيفٌ

حُذف متعلَّقُ الفعلِ ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ليفيد العمومَ، والتّقديرُ: (لا ينقذوني مِن أيِّ شيءٍ)، ويَحتمل أن يكون حذفُ المُتعلَّق لإفادة إثباتِ نفي الإنقاذ في نفسِه للآلهةِ على الإطلاقِ، وعلى الجملة، والمعنى: (لا يأتي منهم إنقاذ، ولا يقدرون عليه بوجهٍ مِنَ الوجوه)[3]، ومآلُ المعنى عليهما واحدٌ، وعلى كليهما إبلاغٌ في التّقبيح والتّنفيرِ منها.

بلاغةُ تنزيلِ الآلهةِ منزلةَ العاقل:

في تنزيل الآلهة الباطلة منزلةَ العاقل تهكُّمٌ شديدٌ بها وبعابديها

عُبِّرَ بصيغة جمع العاقل أوِ العالم في قوله ﴿يُنقِذُونِ﴾، ومثلُه في قولِه ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ﴾، للإشعار بأنَّ الشّفاعةَ والإنقاذ لا يكونان إلّا مِنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 112.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نقذ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 10.

العقلاء، أو ممّن يتّصف بالعلم[1]، ففيه تعريضٌ بتجهيل الكافرين وتوبيخِهم بأنَّ آلهتَهم لا يأتي منها شفاعةٌ ولا إنقاذٌ؛ لأنَّها غيرُ عاقلة أصلًا، ولم يُعبِّر في الإغناء بهذه الصّيغة - أي: لم يقل: (ولا يغنون) - ؛ لأنّ الإغناء قد يكون بمال أو سلاحٍ مثلًا، ولهذا قرَن لفظَ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ بالإغناء المعبّر عنِ انتفاء أيِّ إغناءٍ للآلهة.

فائدةُ العطفِ على جوابِ الشّرطِ:

مجيءُ الشّرطِ سببًا للجزاء وللمعطوف تعظيمٌ لشأنِ الشّرط، واهتمامٌ به

عطفتِ الواوُ قولَه: (لا يُنقِذونِ) على قوله: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، وعلامةُ الجزم فيه حذفُ نونِ الإعراب؛ لأنَّ أصله: (لا ينقذونني)؛ ليفيد العطفُ أنَّ المعطوف لا يكون شيئًا حتَّى يكونَ المعطوف عليه، ويكون الشّرطُ لذلك سببًا في الثّاني، أي: المعطوفِ؛ بوساطةِ كونه سببًا للأوّل، أي: المعطوفِ عليه[2]، ففيه تعظيمٌ لشأنِ الشّرط، وبيانٌ لأهمّيَّته؛ وبيانُه: أنَّ الشّرطَ في قوله: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ هو سببٌ لانتفاء إغناء آلهتِهم لهم، وهذا الانتفاءُ سببٌ لإنتفاء إنقاذِهم؛ فإنَّ مَن لا إغناءَ له لاينقذ أحدًا، ولايكون منه إنقاذٌ أصلًا، فيكون هذا الشّرط على معنى جملتين، بتقدير: (إنْ يردن الرّحمن بضرٍّ لا تغنِ عنّي شفاعتهم شيئًا، وإن يردنِ الرّحمن بضرٍّ لا تنقذني الآلهة)، وسببُ الاهتمام بشأن الشّرط تضمُّنُه معنى التّوحيد، وإفادتُه التّرغيبَ والتّرهيبَ، وفي عدم تَكرار الشّرطِ في جملة المعطوفِ إيجازٌ يُحَرِّكُ للنَّظرِ في المعطوفِ عليهِ السّابِق.

وسببُ تقديم نفْيِ إغناءِ شفاعتِهم على عدم الإنقاذ أنَّ الأوّل سببٌ للثّاني كما تقدّم، وليكونَ الكلامُ على ترتيبِ ما يَقَعُ من العُقَلاءِ؛ فيكونَ أقربَ إلى نفوس المُتلقّين، فيتمكَّن فيهم فَضْلَ تمكُّن؛ وذلك

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 114.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 234.

لأَنَّ من يُريدُ دفعَ الضُّرِّ عن شَخص أَضَرَّ بِهِ شَخْصٌ: يدفَعُ بالوَجهِ الأَحسَنِ، فَيَشفَعُ أَوَّلًا، فإن قَبِلَهُ، وإلّا يَدفَعُ عنه بإنقاذِه وتخليصِه[1].

سببُ إيثارِ التّصريحِ على الاكتفاء بدلالة اللّزوم:

مَن لا تنفع شفاعتُه لا يُنقذُ أحدًا

لمّا نفَى الإغناءَ في شفاعة آلهتِهم، وكانت شفاعتُهم لا تنفعُ لعجزِهم، وعدم مساواتِهم للّه الواحد الأحد الذي يضرُّ وينفعُ في صفاتِ الإلهيَّة: كان انتفاءُ أنْ ينقذوا بطريق الأولى؛ فإنَّ مَن لا تنفع شفاعتُه لاينقذ أحدًا، فيقال: لمَ صرَّح بنفي الإنقاذ؛ مع علمِه بطريق الفحوى مِنَ الكلامِ؟، وجوابُه: أَنَّه لمّا كان السّياق في أمورِ الإيمان الذي هو أساسُ الصّلاح: عدَل عن دَلالَةِ الفَحوى إلى دَلالَةِ المنطوقِ، فكان التّصريحُ باعتبار المقام أولى وأظهرَ وأثبتَ في نفوس المخاطَبين[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 267.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ [يس: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توحيدُ الله تعالى مِن عملِ العقلاء

لمّا أنكر الرّجل المؤمن على نفسِه أن يتّخذ آلهةً من دون اللّه تعالى، وقصد به التّعريضَ بالقوم المكّذبين: بيّنَ السّبب في إنكارِه، ليكون أثبتَ حجَّةً، وأظهرَ شهادةً، أي: إنَّه لو فعل، واتّخذ آلهةً لكان في ضلالٍ مبين، فيفيد أنَّ عدمَ الاتّخاذِ هو مِن فعل العقلاء النّاصحين لأنفسهم.

وأيضًا: لمّا جاء الاستفهامُ الإنكاريُّ في قولِه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾: استأنف ما يُبينُ بعد ذلك عن فعل العقلاء النّاصحين لأنفسهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ مُؤكِّدًا له بأنواع التّأكيدِ، لأجل إنكارهم له، بعدم رجوعهم عن معبوداتهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَٰلٖ﴾: أصلُ (ضلّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذهابِهِ في غير حَقِّه[2]، والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[3]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عن الطَّريق، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ يَضلُّ ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ، ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلِلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّه: إذا جعلتَه في مَكان، ولم تَدْرِ أَين هوَ، وأضْلَلْتُه، أي: أضَعْتَه[4]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الضَّياعُ والخُسران.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 112.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقول الرّجلُ المؤمن إنّي إنِ اتَّخذتُ آلهةً هذه صِفتُها لفي ضلال بيِّن؛ لا يخفَى على مَن له أدنى مُسْكةٍ مِن عقلٍ؛ فإنَّ إشراك مَن لا يخلُق وليس مِن شأنه النَّفعُ والضُّرُ، بمَن يخلُق وهو القادر على كلِّ شيءٍ: خطأٌ ظاهرٌ، وغلطٌ واضحٌ لدى أرباب الأحلام وذوي الحِجا(1).

مَن عبدَ غيرَ الله تعالى فهو في خُسْرانٍ ظاهِرٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الفصلِ في الآية:

جاء قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ على طريق الاستئناف البيانيّ؛ إذ إنَّ إنكارَ الاتِّخاذِ وتوابعَه مِن المعنى في الآية السّابقة: يُثير في النّفس سؤالًا عن نتيجة هذا الاتِّخاذِ لو كان، فكأنَّ سائلًا سأل عن ذلك، فكانت هذه الآية: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ جوابًا عن ذلك.

ذِكْرُ مآلِ الشّرك لبيان عظيمِ خطرِه

فائدةُ تتابُعِ التّأكيدِ في الجملة:

أُكدّتِ الجملةُ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ بمؤكَّدين: (إنَّ)، واللّام؛ ليكون الكلام على طريق الخبر الإنكاريِّ؛ لأنَّ الرّجل يخاطب قومَه الذين اتّخذوا مِن دون اللّه آلهةً، فهم مُنكرون للتّوحيد والإيمان(2)، ويجوزُ أيضًا أن يكون التّوكيدُ صورةً لِوكادةِ معنى الجملة في نفسِ الرجل المؤمن؛ تصويرًا لحقيقة إيمانه باللّه تعالى.

المؤمنُ الحقُّ هو المنفعِلُ بمعاني الهدى

دلالةُ حرفِ الجزاء ﴿إِذٗا﴾:

حَرْفُ ﴿إِذٗا﴾ في قوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ جَزاءٌ لِلْمَنْفيِّ، لا لِلنَّفْيِ في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾(3)، وبيانُهُ: أنَّه لمّا كان

الرّجلُ المؤمنُ يبالغُ بلطفٍ في إثباتِ الضّلال المبين لقومه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 422، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 18، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 154.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة يس، ص: 94.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 269.

الاستفهامُ الإنكاريُّ على معنى النّفي، بتقديرِ (لا أتّخذ من دون اللّه آلهةً): كان المنفيُّ هو اتّخاذ آلهةٍ من دون اللّه، فيكون ﴿إِذًا﴾ جزاءً للمنفيِّ، أَيْ: إنِ اتَّخَذْتُ مِنْ دونِ اللَّهِ آلِهَةً أَكُنْ في ضَلالٍ مُبينٍ، ونُكتةُ مجيءِ حرف الجزاء هنا: هو إقامة الحجّة على أنَّهم في ضلالٍ مبين بطريق الاستدلال؛ لإثارةِ تفكيرهم عن طريق الجزاء في الشّرط، لعلَّهم يؤمنون.

وذهب الرّضيُّ إلى أنَّ ﴿إِذًا﴾ ظرفُ الزّمان، وأصلها: (إذ)، حُذفت الجملةُ المضاف إليها، وعوّض عنها التّنوينُ، وفُتح اللّفظُ، ليكون في صورة ظرفٍ منصوبٍ، وقُصد جعلُه صالحا لجميع الأزمنة بعد ما كان مختصًّا بالماضي، وضُمِّن معنى الشّرطِ غالبًا، ليفيدَ ﴿إِذًا﴾ اقترانَ الزّمان بوقت الحدث الذي جاء في سياقِه، ويفيد كذلك الإشارةَ إلى أنَّ ما قبله سببٌ لِما بعدَه، وأنّ ما بعده نتيجةٌ لِما قبلَه، ليفيدَ أنَّ وقتَ اتّخاذ الآلهةِ مِن دون اللّه هو وقتُ الوقوع في الضّلال المبين، وهو ثابت ومستمرٌّ في جميع الأزمنة، وأنَّ هذا الاتّخاذ سببٌ في الوقوع في الضّلال المبين، والتّقديرُ: (إنِ اتّخذت مِن دون اللّه آلهةً إنّي في ذلك الوقتِ في ضلال مبين)، أي: أكون في ضلالٍ مبين، ليفيد بلازمِه أنَّ كلَّ مَن يفعلُ هذا الفعلَ فهو في ضلالٍ مبين في جميع الأزمنة، ويلزمُه جميعُ الأمكنة، فيدخل في الضّلال المبين قومُه دخولًا أوّليًّا.

فائدةُ (في):

تفيد (في) الظرفيَّةَ، بمعنى إحاطة الضّلال به كإحاطة الظّرف بالمظروف، إنِ اتّخذ مِن دون اللّه آلهةً، وفي هذا كلُّ تنفيرٍ مِن هذا الاتِّخاذِ.

دلالةُ تنكيرِ الضَّلال:

نُكِّر الضَّلالُ في قوله: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ليفيد تهويلَ الضّلال الذي يقع فيه مَن يشركُ باللّه تعالى، أي: هو ضلالٌ ليس كأيِّ ضلالٍ، وهو واضحٌ عظيمُ الظّهور.

دلالةُ قولِه ﴿مُّبِينٍ﴾:

لمّا كان (مُفْعِلٌ) في قوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى (فَعيلٍ)[1]، كان المعنى: (إنّي إذًا لفي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 267.

المشركُ بالله في أظـهـر الـضّـلال وأوضحِه

ضلالٍ بيِّنٍ واضِحٍ لا شُبهةَ فيه)، وفي هذا الوصفِ تحقيقٌ لإنكار الاتِّخاذِ في الآية السّابقةِ لا محالةَ، وفيه تعريضٌ بقومِه بأنَّهم في ضلالٍ مبين لأنَّهم اتّخذوا من دون اللّه آلهةً.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ [يس: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإعلانُ بالإيمان في مقامِه ووقتِه

لمّا أقام الأدلَّةَ على توحيد اللّه تعالى، وبُطلانِ الإشراك به سبحانه، ولم يبقَ لأحدٍ تَخَلَّفَ عنهُ علّةٌ أو سببٌ يتعلّق به: صرَّحَ بما لوَّحَ إليه مِن إيمانِه، وصدَح بالحقِّ، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾(1).

المَعنى الإجماليُّ:

كلمةُ الحقِّ عاليةٌ فوق كلِّ كلمةٍ

لمّا أنكر الرّجلُ المؤمنُ على قومِه اتّخاذَ الآلهة مِن دون اللّه: صرَّح بإيمانِه، وأعلن به فقال: (إنّي آمَنتُ برَبِّكم الذي أنعم عليكم، فاسمَعوا قَولي، واتّعظوا به، وأجيبوني إلى دعوتي)(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

إثباتُ الإيمانِ لنفسِه مِن لوازمِ ما سبَقَه مِن معانٍ

لمّا كان قولُه: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ يفيدُ بلازمِه أنّه لم يتّخذ مِن دون اللّه آلهةً، ويفيدُ بمعناه الإقرارَ بالإيمان باللّه تعالى، كان قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ جاريًا على معنى التّأكيد والتّقرير لما قبلَه، فبينهما كمالُ اتّصالٍ، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ جملةَ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾: واقِعَةٌ موقعَ الغاية مِنَ الخطاب، والنّتيجةِ مِنَ الدّليل؛ ولهذا جاءت على طريق الفصل(3).

سرُّ التّأكيدِ في صدر الآية:

أَكّدَ الرّجلُ المؤمنُ مضمونَ الخبر بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 112 - 113.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 422، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 18، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 154.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.

﴿بِرَبِّكُمۡ﴾؛ لكمال العناية بمضمون الخبر، وللقطعِ لِما يظنّ قومُه الكافرون مِن أنَّه لا يجترئُ على مقاطعتِهم كلِّهم، بمخالفتِهم في أصل الدّين، ولإظهار أنَّ صدور الإيمانِ عنه عن كمال الرّغبة والشّوق، وانشراحِ الصّدرِ، واطمئنانِ القلبِ، وصدقِ اليقين، وكمالِ النَّشاط، لا كمَن: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [آل عمران: 167][1].

مـن أظـهـر أوصافِ الإيمانِ صـدورُ الإعـلان بـه عـن شـوقٍ ورغبةٍ وانشراحِ صدرٍ

نُكتةُ تقديمِ المسنَدِ إليه على خبره الفعليِّ:

قُدِّم المُسندُ إليه الذي هو اسمُ إنَّ على خبره الفعليِّ المُثبَت في قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ﴾؛ فأفاد تقويةَ الحكم النّاتج عن هذا الإسناد، وتحقيقَه في النَّفْسِ؛ ليلتفِتَ إليه القومُ، ويُفكِّروا فيه؛ لأنّه الذي يرجوه الرّجلُ المؤمنُ لهم.

مَن عرَف حقيقةَ الإيمان وأثرَه في النَّفسَ تمسَّك به

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الإيمان:

عبّر بلفظ الإيمان باللّه في قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ بطريق الإعلانِ بإيمانه أمامَ النّاس جميعًا وتصريحًا به؛ لأنَّ الإيمان بربِّ العالمين يستغرق كلَّ مقتضياتِ الإيمانِ ويستلزمُها، وفيه إشعارٌ بقوّة يقينِه وتصديقه، وفيه تسجيلٌ عليهم بأنَّ اللّه هو ربُّهم لا تلك الأصنام[2].

الإيـمـانُ بـربِّ الـعـالـمـين يـسـتـغـرقُ كـلَّ مـقـتـضـيـاتِ الإيـمـانِ ويستلزمُها

دلالةُ الجملةِ الخبريّةِ:

أفادت جملةُ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الإخبارَ عن وقوع إيمانه، والحديثَ عنه، أي: (أوقعتُ التّصديقَ بربِّكم الذي لا تصديقَ في الحقيقة غيرُه)، فالجملة خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وليست إنشاءً[3].

فائدةُ الباءِ في قوله ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

عُدّي الفعلُ في قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ بالباء، لتضمُّنِ الفعلِ معنى الاعتراف، أي: آمنت واعترفت بربّكم[4].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 346.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 115.

نوعُ الخطابِ ودلالتُه في قوله ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

العمومُ في الخطابِ لقوّةِ الإيمان وصدقِه

يَحتمل الخطابُ أن يكون للكفّار، وهو الظّاهرُ مِنَ السّياق؛ فإنَّه لمّا نصحهم شافهَهُم بالإيمانِ، وصدَع بالحقّ، إظهارًا للتَّصلُّبِ في الدّينِ، وعدمِ المبالاة بما يصدر منهم مِنَ التّعذيب، أوِ القتل، أي: إنّي آمنت بربّكم الحقِّ، ويَحتمل أنْ يكون للمرسَلين؛ لأنَّه لمّا أظهر إيمانَه أقبل القوم عليه يريدون قتلَه، فأقبل هو على المرسَلين، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي أَرسلكم إلينا، والذي تدعوننا إلى الإيمان به، فهو يلجأ إليهم ويناشدُهم، ويَحتملُ أن يكون على العموم، مِن غيرِ أن يُعيّن، أي: آمنت بربّكم أيّها السّامعون، فاسمعونِ، ليكون الخطابُ على العموم، كقول الواعظ: يا مسكينُ؛ ما أكثرَ أملَكَ!، يقصد كلَّ سامع، ولا يخصُّ أحدًا[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرّبوبيّة:

يُذَكِّرُهم بإحسانِه تعالى الموجِبِ لإيمانهم به

لمّا علَّق حُكمَ الإيمان على وصف الرّبوبيّة في قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾: أشعرَ أنَّه آمن باللّٰه تعالى بما حباه به مِنَ الإحسان وأنواعِ الإنعام، والمعنى: (آمنت بربّكم الذي خلقكم وربّاكم بأنواع النعم)؛ وأفاد التّنبيهَ على أنَّ مقتضَى التّربيّةِ الإيمانُ، وأنَّ إيمانه مِن آثار تربيّتِه تعالى له[2].

دلالةُ الإضافةِ:

تفيدُ إضافة الرَّبِّ إلى ضمير القوم الكافرين - على أن الخطاب لهم -: توبيخَهم على كفرِهم بالمحسِنِ إليهم، أي: (كيف تكفرون بربّكم الذي خلقكم، وأحسن إليكم)[3].

---

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2344، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 266، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 164، و46، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 399.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 115.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 399.

نُكتةُ جمعِ المضاف إليه:

على القول بأنَّ الخطاب لقومِه، بأن يعود الضّمير في قولِه: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ إلى الكافرين: كان مجيءُ الضّمير بصيغة الجمع للإيذانِ بأنّ الذي يعبده هو ربُّهم أيضًا، ولو قال: (إني آمنت بربي) على ما هو الظّاهرُ، جريًا على ما قبله: كان مِنَ المحتمل أن يقولوا: أنت تعبد ربّك، ونحن نعبد ربّنا، ويقصدون بربِّهم آلهتَهم[1]، فكان في العدول عن خطاب الإفراد إلى خطاب الجمع نوعٌ مِنَ الاحتجاج عليهم.

الجمعُ هنا إمّا احتجاجٌ، وإمّا تذكيرٌ

وعلى القول بأنّ الخطابَ للمرسَلين: كان مجيء الضّمير بصيغة الجمع رَوْمًا لِزيادةِ تقرير إيمانِه بالمرسَلين وإظهارًا للاختِصاصِ والاقتداءِ بهم، كأنَّه قال: (بربِّكم الَّذي أرْسَلَكم، أو الَّذي تَدْعوننَا إلى الإيمانِ به)[2].

بلاغةُ الالتفاتِ:

إذا كان الخطابُ للرُّسل: كان الكلام على الالتفات، أي بطريق تلوين الخطاب، فإنَّه لمّا خاطب قومَه بقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾: التفت إلى الرُّسل، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾، لشدِّ انتباه القومِ، ولتحقيق إيمانِه.

الالتفاتُ يُنشِّطُ ذهنَ المُتلقّي، ويهيِّئُه لتجديد التَّلقّي

فائدةُ الفاء:

تفيد الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ التّفريعَ، بمعنى تفريعِ طلبِه سَماعَ القومِ الكافرين منه على إعلانِه الإيمانَ بربِّهم، ليفيد أنَّ الإعلانَ بإيمانِه يقتضي سماعَهم منه، اسْتِدْعاءً لِتَحْقيقِ أَسْماعِهِمْ إنْ كانوا في غَفلَة[3]، وإن كان الخطابُ للمرسَلين كان المعنى: (فاسمعوا كلامي عنِ الإيمان، فاشهدوا لي بذلك عند ربّي

مِثْلُ الإيمانِ باللهِ يُسْمَعُ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 503.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 369.

وربّكم)، فيكونُ الكلامُ على جهة الاستشهاد بهم، والاستحفاظِ للأمر عندهم[1].

دلالة قوله: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

دلالةُ لفظِ السّمعِ على طلبِ السّماعِ والإجابةِ والقَبولِ فورًا

عبّرَ بصيغة الأمر: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ الدّالِّ على طلب الامتثال فورًا مِن غيرِ تراخٍ؛ بمعونةِ السّياق، لِما يفيدُه اللّفظُ مِن معنى طلب السّماع، والإجابةِ والقَبولِ فورًا؛ إظهارًا لقوّة إيمانِه، وشجاعتِه، ولِحبِّه للخير الذي هو فيه، ولمّا كان المُراد مِن تعْدية الفعل إلى ياء المتكلِّم في قولِه: ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ ما يتعلَّق به السّماع؛ وهو الكلام، وما صدر مِنَ المقال، كان المعنى: (فاسمعوا يا قومي كلامي مِنَ الإيمان، وأجيبوني في وعظي ونُصْحي، واقبلوا قولي)، كما يقال: سمِع اللّه لَمن حمده، أي: قَبِلَه[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 399، والهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 503.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 503.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس: 26 - 27]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

طوِيَ مصيرُ الرجلِ المؤمنِ، تبشيرًا بسلامةِ نبيِّنا، وتنزُّه قومِه عن قتلِه

لمّا كان مِنَ المعلوم - بما دلَّ عليه السّياقُ مِن صلابة الكافرين في تكذيبهم الرُّسلَ وتهديدِهم لهم، مع ما لهم مِنَ الآيات - أنَّهم لا يُبقون هذا الذي هو مِن مدينتهم، وقد صارحهم بما إنْ أغضَوا عنه فيه: انتَقَضَ عليهم تعلُّقُهم بشركِهم، والتفافُ القوم حولَهم: لم يذكرِ اللّه تعالى مصيرَه مع قومِه، ليكونَ مِنَ الأمور التي لا حاجةَ في ذكرِها، ولظهور العلم به مِنَ السّياق؛ فقال جوابًا لِمَن تشوَّف إلى علم حاله بعد ذلك - إيجازًا في البيان، وترغيبًا لأهل الإيمان -: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: (كرم) أَصْلُ الكَرَم: شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكْرُمُ كَرَمًا، أَيْ: شَرُفَ، ورَجُلٌ كَريمٌ، أَيْ: شَريفٌ ذو فَضائِلَ[2]، والإكرامُ والتَّكريمُ: أن يوصَل إلى الإنسان نَفْعٌ لا يلحقه فيه غَضاضَةٌ، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئًا شريفًا[3]، والمُكَرَّمُ: الرَّجُلُ الكَريم عَلَى كُلِّ أَحد، ويَأْتي التَّكْريمُ بِمَعْنَى التَّفْضيل، والكَرَمُ: الفضلُ، ومنه قَوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 62] أي: فضَّلتَ[4]، والمُرادُ بالمُكرَمينَ في الآيةِ: الَّذينَ تلحقُهُم كَرامةُ اللّهِ تَعالى وفضلُه، وهُمُ الملائكةُ والأنبياءُ وأفضلُ الصّالحينَ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).
(3) الراغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 344.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (كرم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 371.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتلَه قَومُه: ادخُلِ الجنَّةَ، قالَ: يا ليتَ قومي يعلمون بما أنا فيه مِن نعيم، وخيرٍ عميم، لإيماني بربّي، وتصديقي برُسِله، وصبري على أذى قومي، وإنَّما تمنَّى عِلمَ قومه بحاله، ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثلِه؛ بالتَّوبة عنِ الكفر، والدُّخول في حظيرة الإيمان والطّاعة، اتِّباعًا لسنن أولياء اللّه الَّذين يكظمون الغيظ، ويترحَّمون على الأعداء(1).

مِن شأن المؤمِن المُخلِص أنْ يحبَّ الخيرَ للنّاس جميعًا

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

جاء قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ على طريق الاستئناف البيانيِّ؛ لأنّ هذا مِن مظانِّ المسألة عن حاله عند لقاء ربّه، بعد أن قتله قومُه عند مواجهته لهم بذلك الخطاب الجزلِ، وإعلانه الإيمانَ، كأنّ قائلًا قال: كيف كان لقاءُ ربّه بعد ذلك التصلُّب في نصرة دينه، والتّسخّي لوجهه الكريم بروحه؟ فقيل: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾الآيةَ(2).

ترويحُ المؤمنين بدخول جنَّة ربِّ العالمين

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

في مجيءِ قوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ بعد نُصحِه قومَه وإعلانِه إيمانَه: إشارةٌ إلى قتله شهيدًا في إعلاءِ كلِمَة اللّه؛ لأَنَّ تعقيبَ مَوعِظته بأمره بدخول الجنَّة دُفعَةً بلا انتقالٍ يُفيدُ بدلالَةِ الاقتضاء أَنَّهُ مات، وأَنَّهم قتلوه، لمخالفته دينَهم؛ فإنَّه إذْ لم يَقُصَّ في المثلِ أَنَّهُ غادَرَ مَقامَهَ الَّذي قامَ فيه بالموعظة كانَ ذلك إشارةً إلى أَنَّهُ مات في مقامِه ذلك، ويُفهَم منه أَنَّهُ مات قَتيلًا في ذلك الوقت، أو بأَثَرِه،

اللّهُ يعصِمُ رسولَه محمّدًا مِنَ النّاس

---

(1) الواحدي، الوسيط: 3/ 512، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 572، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 154.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 11، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 370.

وإنَّما سَلَكَ في هذا المعنى طَريقَ الكِنايَةِ، ولم يُصَرِّح بأَنَّهم قتلوه، إغماضًا لهذا المعنى عنِ المُشرِكينَ، كيلا يَسُرَّهم أَنَّ قومهُ قتلوه، فيجعلوه من جملة ما ضُرِبَ به المثلُ لهم وللرَّسولِ ﷺ، فَيَطمعوا في قتله ﷺ ؛ فهذه الكناية لا يفهمُها إلّا أهلُ الإسلام الَّذينَ تَقَرَّرَ عندهم التَّلازُمُ بينَ الشَّهادَةِ في سَبيلِ اللّه ودخول الجَنَّة، أَمّا المشركون فيحسبون أَنَّ ذلك في الآخِرَةِ[1].

ففي الآيات حذفٌ معلومٌ مِنَ السّياق؛ إذ بعد قول الرّجل: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ كلامٌ مُضْمَرٌ مكنيٌّ عنه، كما تقدَّم؛ أي: (فقُتل، فـ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾)[2]، وسببُ طيِّ الكلام ذكرُ المقصودِ الأهمِّ الذي عليه انصبابُ الكلام.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المبنيّ للمفعول:

ما أجمل إكرامَ اللهِ أهلَه الدّاعينَ إليه

بُني الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ المقصود هو القول، وليس قائلَه، وقد يُراد مِن حذفِ الفاعلِ وبناءِ الفعلِ للمفعول الكثرةُ التي تُشْبه العمومَ؛ دلالةً على إكرام الرّجلِ المؤمنِ في كلِّ أحوالِه في الآخرة؛ فمِن إكرامِه وهو يدخلُ الجنةَ أنْ يكونَ لدخولِه احتفالٌ يظهرُ في أشياءَ كثيرةٍ، منها أن يُقالَ له مِن كثيرينَ مِنَ الملائكة وغيرِهم: ادخلِ الجنّةَ؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾؟ فيكون القائلون مِن تلك الجماعة المُكرَّمة.

دلالةُ حذْفِ الجارِّ والمجرور:

الرّجلُ المؤمنُ هو المُحْتفَلُ به

جاءتِ الآيةُ بحذف الجارّ والمجرور: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ ولم يُقل: (قيل له ادخل الجنَّة)، لانصباب الغرض إلى المَقول دون المَقول له، تعظيمًا له، ولأنَّه معلومٌ مِنَ السّياق[3]، أو لأنَّ القولَ المذكور هنا قَوْلٌ تَكْوينيٌّ، لا يُقصَدُ منه المُخاطَبُ به، بل يُقصد حكايةُ حصوله وكونِه؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 370.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 351.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 11.

لأنَّه إذا حصل حصل أثرُهُ، كقوله تعالى: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النّحل: 40][1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱدۡخُلِ﴾ مادّةً وصيغةً:

إكرامُه بإدخاله مأواه الأخيرَ باطنَ محيطِ الجنّة

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ بلفظ الدّخول الذي هو نقيضُ الخروج، للإشعار بأنَّه يلجُ الجنَّة، ويتغلغلُ فيها[2]، وهذا من إكرامِه، ولمّا كان لفظ الدّخول يفيد الانتقالَ إلى باطنِ محيطٍ أفاد أنَّه يكون في باطن محيط الجنَّة.

وعُبِّر بصيغة (افعل) الدّالَّةِ على طلب إحداث الفعل، على سبيل التّكريم والتّشريف، لتعلُّقِ طلب الدّخول بالجنَّة، وفيه إشعارٌ بتقريرِ تحقّق إيمانِه وقَبول اللّه تعالى له، وأنَّ الجنَّة مأوى المؤمنين.

دلالةُ لفظِ ﴿ٱدۡخُلِ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

مِن إكرامِ المؤمنِ إنباؤه بأنَّ دخولَه الجنَّةَ مُتحقِّقٌ

يحتمل أن يكون لفظ ﴿ٱدۡخُلِ﴾ في قوله: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ على طريق المجاز، فإنَّه لمّا قُتلَ بُشّر بالجنَّة، بأنْ عُرض عليه مقعدُه منها، وتحقَّق أنّه من ساكنيها، برؤيته ما أقرَّ عينَه، فلمّا تحصَّل له ذلك: تمنَّى أن يُعْلِمَ قومَه بذلك، والمعنى: (ادخل الجنَّة إذا دخلها المؤمنون)، فالأمرُ بالدّخول مجازٌ عنِ التّبشير بالدّخول مع الدّاخلين في الآخرة، فهو من مجاز الصّيغة؛ ففائدتُه التّبشير والقطعُ بدخولِها في المستقبل، بمعنى أنّها قد وجبت له، فيكون قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ قبل دخول الجنَّة، وبعد موتِه، إخبارًا عنِ المستقبل بصيَغ الماضي ﴿غَفَرَ﴾ و﴿وَجَعَلَنِي﴾ للإيذانِ بتحقّق وقوعِ دخول الجنّة مع المُكرَمين.

وقد يكون التّعبيرُ بالأمر بالدّخول على الحقيقة[3]، أي أنَّ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 370.

(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل:(دخل).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 12، والكرماني، لباب النّقول، ص: 2344، والزمخشري، الكشاف: 4/ 11، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 451، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 4/ 266.

الرّجلَ المؤمنَ قد أُدخِلَ الجنَّةَ عقبَ موتِه؛ لأنَّه كان مِنَ الشّهداء، والشُّهَداءُ لهم مزيَّة التَّعجيلِ بدخولِ الجَنَّةِ دخولًا غيرَ موَسَّع[1]، فهو فيها حيٌّ يُرزق، فيكون المعنى: فلمّا دخلها، وأفضى إلى الجنَّة، وعايَنَ ما أكرمه اللّه به فيها لإيمانه: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾[2].

فائدةُ (أل) في قولِه ﴿ٱلۡجَنَّةَۖ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ للعهد الذهنيّ بمعنى الجنَّةِ المعهودة التي وعدها اللّه المؤمنين، وقد علِم الرّجلُ المؤمن مِنَ الرّسل أنَّ في الآخرة نارًا وجنَّةً وغيرَ ذلك.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

تـمـنّـى الـخـيـرَ لقومه، بمجرّد تبشيرِ الله له

في قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ حذفٌ، وتقديرُ الكلام: (قيل ادخل الجنَّة، فلمّا دخلها، وعاين ما أكرمه اللّه به: قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)[3]، ونُكتةُ الحذف: الإشعارُ بتذكّر قومِه، وسرعة قولِه، رغبةً منه في إيمانهم، والمعنى أنَّه لم يُلهه دخولُه الجنَّةَ عن حالِ قومه، فتمنَّى أن يعلموا ماذا لَقيَ من ربِّه ليعلَموا فَضيلَةَ الإيمان فيؤمنوا؛ وما تمنَّى هلاكَهم ولا الشَّماتَةَ بهم؛ فكان مُتَّسِمًا بكظم الغيظ وبالحِلْم على أَهلِ الجهلِ، وذلك لأَنَّ عالَم الحقائق لا تَتَوَجَّهُ فيه النَّفْسُ إلَّا إلى الصَّلاحِ المحضِ ولا قيمَةَ لِلحُظوظِ الدَّنيَّةِ وسَفسافِ الأمورِ[4].

بلاغةُ الفصل:

تَـرقّـبُ الـسّـامـعِ مــا سـيـقـولُـه من أكـرَمَـه الله بدخول الجنّة

لمّا أخبر اللّه تعالى عنِ الرّجل المؤمن بأنَّه ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ كأنَّه قيل: فماذا قال بعد أنْ دخل الجنَّة، ورأى نعيمَ اللّه فيها؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 370.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 509.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 6023، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 512.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 370.

لِأَنَّ السّامِعَ يَتَرَقَّبُ ماذا قالَ حينَ غَمَرَهُ الفَرَحُ بِدُخولِ الجَنَّةِ، وأكرمه فيها؛ فجاء قوله على طريق الاستئناف البيانيّ: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾.

فائدةُ دخولِ (يا) على (لَيت):

(يا) للنّداءِ أو للتّنبيهِ

لمّا كان الأصلُ في حرف النّداء أنْ يَدخل على المُنادَى لطلب إقبالِه: كان دخولُ (يا) على (لَيتَ) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ بتقدير: (يا هؤلاء)، أو: (يا أيُّها العقلاء ليت قومي)، فكأنَّه يُنادي كلَّ سامعٍ عاقلٍ، ليَسمع ما يتمنّاه، إشعارًا بعِظَم المُتمنَّى، ويَحتمل أنْ يكون حرفُ (يا) للتّنبيه[1]، أي: لتنبيه المخاطَبين والعقلاء إلى عِظَم المتمنَّى، فالمآلُ والمقصد واحدٌ.

سببُ إيرادِ التّمنّي:

يتمنّى المؤمنُ بعد موتِه أن يعلم النّاسُ بحاله ومآله وحميدِ عاقبته

عبّر بـ(لَيتَ) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ للإيذان بتمنّي الرّجل طلبَ كونِ غيرِ الواقع فيما مضَى - وهو علْمُ القوم بما غفر له ربُّه - واقعًا فيه؛ مع أنّه يعلمُ يقينًا أنَّ هذا العلمَ لا يحصل لهم؛ لِحُكْم العقل بامتناعه، والمعنى: أنّه تمنّى أن يعلموا حاله، ليعلموا حُسْن مآله، وحميدَ عاقبته، ليؤمنوا مِثْلَ إيمانه، فيصيروا إلى مِثْل حاله[2].

فيتولَّد مِنَ التّمنّي الإشفاقُ والنُّصحُ لهم، فيكون قد نَصَحَ قَوْمَهُ في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾[3]، والمعنى: لو علموا بذلك لآمنوا بالله تعالى، واستوجبوا مثل ما استوجبتُ مِنَ

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 488.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 14، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 12.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 266، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 572، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 118.

الإفضاء إلى الجنَّة[1]، ويَحتمل أن يكون المتولّد مِنَ التّمنّي التّنديمُ، أي: إن علموا ذلك ندموا على كفرِهم، وما فعلوه به[2].

ويصحُّ الجمعُ بين المعنَيَيْن، أي بين النّصح والتّنديم، ولا إشكالَ في الجمعِ بينهما، فيفيد التّعبيرُ بصيغة التّمنّي الإشعارَ بِعظم مغفرةِ اللّه له ورحمتِه به وإكرامِه، وبحسرتِه على قومِه الكافرين، ورغبتِه في علمِ قومِه بإكرامِه، ليندموا على ما فعلوه، وفيه تذكيرٌ للمخاطَبين وتوجيهُهُم إلى سرعة الاستدراك قبل فواتِ الأوانِ، حيث لا ينفع النّدمُ.

نُكتةُ تعْديةِ الفعل (عَلِمَ) بالباء:

التَّضمينُ ضَرْبٌ مِـن ضُـروبِ إيجازِ القِصَر

لَمّا كان الفعل (علِم) يتعدَّى إلى مفعولين: كانت تعديتُه بالباء في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ على خلاف مقتضَى الظّاهر، والنّكتةُ فيه: تضمينُ الفعل (علم) معنى (شعر)؛ فإنَّه إذا قيل: (عَلِمْت بالشيء) كان بمعنى: (شَعَرْت به)[3]، ليفيد أنَّه تمنَّى أن يحصل العلمُ بمغفرة اللّه له عندَ قومِه، ولو كان علمًا قليلًا، بأن يكونَ على جهة الشّعور به.

ويَحتمل أن يكون اقترانُ الباء بالفعل (علم) على معنى تمنّيه أن يكونوا موضع علمِه بما غفر له ربُّه، كما يُقال (علمت به)، و(ظننت به) بمعنى: جعلته موضع علمي أو ظنّي[4]، ولمّا كان المراد توصيفَ الحالة، وليس العلمَ بذاتٍ معيّنة: عُدّي الفعلُ بالباء، فإنَّ العلم بالشّيء يختلف عن علم الشّيء؛ لأنَّ الأوّل على معنى العلم بالحال، بأن تكون حالًا متجدّدةً، وهيئةً مركّبةً، والثّاني على معنى

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 6023، والزمخشري، الكشاف: 4/ 11.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 451.

(3) المعافري، الأفعال: 2/ 343، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).

(4) الشاطبي، المقاصد الشافية شرح ألفية ابن مالك: 3/ 624.

العلم بالذّات، والحقيقة، وإدراكِها[1]، والمعنى في الآية: يا ليت قومي يعلمون بحالي، أي: مغفرة اللّه له، وجعله مِنَ المُكرَمين.

فائدةُ العدولِ عنِ المفردِ إلى الجمع في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾:

المبالغةُ في إكرام المؤمنِ في الجنَّة بجعلِه مع المُكرَمين أُنسًا بهم وفرحًا بجمعِهم

الأصلُ في نظم الصّفةِ للموصوفِ المفرد أن تكون مفردة، فكان الظّاهرُ على الأصل أن يقال: (وجعلني مُكرَما) على أنَّ (مُكرَما) وصفٌ في المعنى للمفعول في ﴿وَجَعَلَنِي﴾، ولكنَّ القرآن عدَل عنِ الإفراد إلى الجمع فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾؛ لأنَّ هذا الرَّجُلَ المُحدَّثَ عنه قد أهانَه قومُه، ففتكوا به، وقتلوه، فثار بينهم وبينه الجفاءُ والبغضُ والعداوةُ والفُرْقةُ؛ فجعَل اللّهُ مِن نعيمِه وثوابِه أن يكونَ واحدًا مِن جماعةٍ تُؤْنِسُه، فأبدله اللّه بالجماعة الكافرة جماعةً مُكْرَمةً، يُكْرَمُ معهم؛ كما أكرم قومَه، وتلطَّفَ معهم، والأنسُ أعظمُ فوزٍ[2]، وفي العدولِ ميزةُ مراعاةِ الفاصلة، والمراد بالمكرَمين الَّذينَ تَلْحَقُهُمْ كرامَةُ اللَّهِ تَعالَى وهُمُ المَلائِكَةُ والأَنْبياءُ وأَفْضَلُ الصّالِحينَ[3].

فائدةُ (أل) في قوله ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾:

إكرامُ العظيمِ عظيمٌ

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ للاستغراق، فيدخلُ في اللَّفظ كلُّ مُكرَمٍ بعدَ الممات، والاستغراقُ مخصوصٌ بمَن هو مِثْلُ الرجل الذي جاء مِن أقصى المدينة يسعى في عملِه، وفي مقابلتِه إحسانَه إلى النّاس بالإساءة والإهانة، بقرينة السّياق، ولأنّ الجنان درجاتٌ، والناس فيها درجات ورُتَب أيضًا، ويَحتمل أن تكون للعهد الذِّهنيِّ، أي: وجعلني من جملة الذين علموا بأنَّهم مُكرَمون[4]، أو ممّن عُرفت حالُهم بأنَّهم مُكرَمون.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 32.

(2) طه السيد، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي، الإفراد والتثنية والجمع أنموذجا: 2/ 228 - 230.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 268.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 118.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾:

إكرامُ الله تعالى رفعةٌ وشرفٌ

عبِّر بالإكرام في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ للإشعار بأنَّه أُعطي المنزلةَ الرّفيعةَ في الجنَّة على جهة التّعظيم، ولمّا كان المُكرَمُ على ضِدِّ المُهانِ، وكانت الإهانَةُ بالحاجَةِ: كان الإكرامُ فيه معنى الاستغناء، أي: الذي يعطيه اللّه تعالى الحاجاتِ التي تنفعه؛ بحيث يَستغني بها ولا تلحقه بها غضاضةٌ، مع شرف هذه الحاجات ورفعتِها[1]، وليُنبِّهَ على أنَّ اللّه عوَّضَه عنِ الإهانة التي عاناها مِن قومه بالإكرام.

بلاغةُ الكنايةِ:

حالُ الطّائعينَ فيه عبرةٌ للعاصين

لمّا كان الإكرامُ ضدَّ الإهانةِ، وكان الإكرامُ مِنَ اللّه على معنى الفضل والثّواب: أفاد الكلام أنَّ مَن لم يؤمن باللّه تعالى وبالمرسَلين فليس له إلّا الإهانةُ يوم القيامةِ، ولا تكون الإهانة إلّا عقابًا مِنَ اللّه تعالى، فالمؤمن مِنَ المكرمين بالثّواب، والكافر مِنَ المُهانين بالعقاب[2].

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ اسمِ المفعول:

مظاهرُ الإكرامِ لا تُعدُّ ولا تُحصَى

حُذف متعلَّقُ قولِه: ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ ليفيد العمومَ، تنبيهًا على عِظَم الإكرام والنَّعيم، والمعنى: (وجعلني ممَّن أُكرِمَ بقَبول عمله، وممَّن أُحلَّ دارَ الكرامةِ وهي الجنَّة)[3]، وفيه ميزةُ التَّوافُقِ مع الفواصلِ السّابقةِ عليه، واللّاحقةِ له.

دلالةُ (ما):

إنَّ الصّدقَ في الإيمانِ سببُ كلِّ سعادةٍ للعبدِ في الدّارَيْنِ

تَحتمل (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أنْ تكون مصدريّةً، فتُؤوّلَ مع الفعل بمصدر، أي: (بمغفرة ربي لي) والمعنى أنّه تمنَّى أن يَعلمَ قومُه بأنّه غُفر له بإيمانه، فيرغبوا في الإيمان؛

(1) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 186، والراغب، المفردات: (كرم).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 251.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 14.

وفائدةُ التّعبير بالمصدر المؤوّلِ الإشعارُ بأنّه تمنَّى عِلْمَهم بتحقّق مغفرةِ اللّه له، وبإكرامِه مِن غير أيِّ قيد، أو وصفٍ له.

ويَحتمل أن تكون (ما) خبريَّةً؛ بمعنى (الذي)، والعائدُ في قوله: ﴿غَفَرَ﴾ محذوفٌ؛ لإفادة العموم، أي: (بالذي غفر لي ربّي)، أي: بالشّيء الذي غفَر لي، فيكون تعبيرًا عنِ السّبب الذي غفر اللّه له به، وهو الإيمان؛ ليَحْمِلَهُم على الدّخول في الإيمانِ، أي: (ليؤمنوا هم أيضًا، فيغفرَ اللّه لهم، ويجعلَهم مِنَ المُكرَمين)، وهذه مرتبةُ أولياء اللّه؛ يريدون الخير بمَن أراد بهم الشَّرَّ، ويتمنَّون أنْ لا يكون للّه عاصٍ[1]، وفي الكلام تشويقٌ إلى طلب المغفرةِ، وأن لا يُغترَّ بالعبادةِ.

فائدةُ تقديم ﴿لِي﴾ على ﴿رَبِّي﴾:

الفرحُ بفضلِ اللّه وبرحمته

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على الفاعل في قوله: ﴿غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ للإيذان بتحقّق مغفرةِ اللّه تعالى له، مع تقصيرِه في حقِّ اللّه؛ لأنّه يعتقد أنَّ أحدًا لا يُقدّر اللّه حقَّ قدره، وأنَّ دخولَ الجنّة مع المغفرة محضُ فضلٍ من اللّه، فهو كاملُ الإحساس بامتنان اللّه وإنعامِه عليه بذلك، ولشدّة فرحِه بالمغفرة قدَّم نفسَه أيضًا، فالتّقديمُ للاهتمام بالمقدَّم والعناية به، وليس فيه تخصيصٌ.

فائدةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرّبوبيّة:

مغفرةُ اللّه تعالى من جليلِ إحسانِه ونعمِه على المغفور له

عبّر الرَّجلُ المؤمنُ بعنوان الرّبوبيَّة فقال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾، ولم يقل: (بما غفر لي اللّه)؛ للإشعار بأنَّ مغفرتَه تعالى مِن جليلِ إحسانِه ونعمِه عليه، وأنَّه بعد مماته تجلَّى له إحسانُ ربِّه به، وعنايتُه له بمغفرتِه لذنوبه، وليُرغِّبَ قومَه في الإيمان ليُغفر لهم، فيَلْقوا مِنَ الإحسان ما لَقيَ.

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 512، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 351، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 451، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 268.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ الجَعْلِ:

عبّر الرّجلُ المؤمنُ بلفظ الجَعْلِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ ولم يقل: (وصيّرني منَ المكرمين)؛ للإشعار بأنَّه جعلٌ عظيمٌ، وأنَّه قد حوِّلَ إلى هيئةٍ جديدةٍ في الحال والمنزلةِ غيرِ الهيئة التي كان عليها، وأنَّه ثابتٌ عليها.

نعيمُ الآخرةِ مِن شأنِه أنْ يُغايِرَ نعيمَ الدنيا

الجُزْءُ
الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

﴿۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾

[يس: 28 - 29]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من بيانِ جزاءِ المؤمنينَ إلى عاقبةِ المُكذِّبينَ

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ إنذارَ المُرسَلينَ لقومِهم، وما كانَ من الرَّجُلِ الَّذي جاءَ مِن أقصَى المدينةِ يسعَى ليَحُضَّ قومَه على اتّباعِ المُرسَلينَ، وما صدرَ عنهُم مِن تهديدِ المُرسَلينَ ووعيدِهم، وما كان للرَّجلِ المؤمِنِ من دُخولِ الجنّةِ ومَغفرةِ الذّنبِ، ناسَبَ بيانُ ما أنزلَ اللّهُ عليهِم من العذابِ، إشارَةً إِلَى هَلاكِهِمْ بَعْدَهُ سَرِيعًا عَلَى أَسْهَلِ وجْهٍ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى إِرْسالِ جُنْدٍ يُهْلِكُهُم[1]، فإنَّ ما حصَلَ له معهم من نُصحِهِم وكان أنِ انقطعَ الحديثُ عنهم تشوّفَ السّماعُ إلى معرفةِ حالِ قومِه الَّذين نصحَهم[2]، فهو انتقالٌ من بيانِ جزاءِ المؤمنينَ، إلى بيانِ عاقبةِ المكذِّبينَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُندٖ﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على التَّجمُّعِ والنُّصرةِ، يُقالُ هم جُنْدُهُ؛ أيْ: أعوانُه ونُصّارُه[3]، ويُقالُ للعَسكرِ الجُنْدُ اعتبارًا بالغِلظَةِ، من الجَنَدِ؛ أيِ: الأرضِ الغليظةِ الَّتي فيها حِجارة[4]، والجُنودُ جَمْعُ جُنْدٍ، والجُنْدُ اسمُ جَمْعٍ لا واحِدَ له من لفظِه، وهو الجماعةُ المُهيَّئَةُ للحَربِ[5]، والمُرادُ بالجُندِ هنا العددُ الكثيرُ من الملائكةِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 286.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 5.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جند).
(4) الرّاغب، المُفردات: (جند).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 73.

2) ﴿صَيۡحَةٗ﴾: (صيح) أصلٌ يدلُّ على تَشقيقِ الصَّوتِ، مِنْ قَولِهم: انْصاحَ الخَشبُ، أو الثَّوبُ، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، والصّياحُ صوتُ كُلِّ شيءٍ إذا اشتدَّ(1)، والصَّيحةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكوا، والصَّيحةُ أيضًا: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها(2)، ولمّا كانت الصَّيحةُ قد تُفزِعُ عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قولِه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجْر: 73]، والصّائحةُ: صيحةُ المَناحَة(3)، والمُرادُ بها في الآيةِ: صاعقةُ العذاب.

3) ﴿خَٰمِدُونَ﴾: (خمد) أصلٌ يدلُّ على سُكونِ الحركةِ والسُّقوطِ(4)، يُقال: خَمَدَ القومُ إذا لم تَسمَعْ لهُم حِسًّا، وقومٌ خُمودٌ، وخَمَدَتِ النّارُ خُمودًا: سكَنَ لهبُها، وإذا طُفِئَتْ قيل: هَمَدتْ(5)، والخَمّود: موضعٌ تُدفَن فيهِ النّارُ حَتَّى تَخْمُدَ(6)، و﴿خَٰمِدُونَ﴾: ميّتون، استُعيرَ اللَّفظُ للموتِ بعدَ الحياةِ المليئةِ بالقوَّةِ والطُّغيانِ(7).

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنــزالُ الـعـذابِ ثمرةُ التّمادي في الكُفرِ والتّباهي في الطُّغيانِ

تَذكُرُ الآياتِ الكريمتان ما نزَل بأصحابِ القريةِ مِن عذابٍ أهلَكهم، فاللّهُ لم يُنزِلْ جُنودًا من السّماء تُعذِّبُهم، بل عذّبَهم بما عذّبَ به الأُمَمَ السّابقة، فأخذتهم الصّيحةُ، فإذا هم أمواتٌ لا حَراكَ بهم، قد ذهبتْ منهم حرارةُ الحياةِ كما تذهبُ حرارةُ النّارِ حينَ الخُمود(8)، فالآيتان تُبيِّنان عذابَ استئصالِ المُجرمينَ بعدَ التّمادي في الكُفرِ، والتّباهي في الطّغيانِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمد).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خمد).
(6) ابن سِيدَه، المُحكَم: (خمد).
(7) ابن الهائم، التّبيان، ص: 272، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 6.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 21 - 22، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 4.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ العطفِ بالواو ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾:

بيانُ مآلِ الأحوالِ المتقابلةِ في سياقٍ واحدٍ من أغراضِ العطفِ في القرآنِ

لمّا كانت جملةُ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ معطوفةً عَلَى الجُمْلَةِ المستأنفةِ وهي قولُه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ [يس: 26]، أخذتْ حُكمَ الجُملةِ المعطوفةِ عليها، فهي مُستأنفةٌ اسْتِئْنافًا بيانيًّا، لِأَنَّ السّامِعَ يَتَشَوَّفُ إِلَى مَعْرِفَةِ ما كانَ مِنْ هَذا الرَّجُلِ ومِنْ أَمْرِ قَوْمِهِ الَّذينَ نَصَحَهُمْ فَلَمْ يَنْتَصِحوا، فَلَمّا بَيَّنَ لِلسّامِعِ ما كانَ مِنْ أَمْرِهِ عُطِفَ عَلَيْهِ بَيانُ ما كانَ مِنْ أَمْرِ القَوْمِ بَعْدَهُ[1]، فكأنَّ السّائلَ يَسألُ عن مجموعِ الأمرَيْن، وهو ما حصَلَ للمُؤمِنِ وما حَصَلَ لقومِه.

بلاغةُ استعمالِ أداةِ النّفي (ما):

نفيُ العمومِ للتّمهيدِ الحاصرِ أبلغُ تشويقًا وأبدعُ بيانًا

افْتِتاحُ قِصَّةِ عِقابِ القومِ المُكذّبين في الدُّنْيا بِالنَّفْي بأداةِ (ما) المُقتضيةِ للعمومِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ لتكونَ نافيةً لكلِّ أشكالِ العذابِ وحصرِها في العذابِ الآتي ذِكْرُه، فهي تَمْهيدٌ لِلْمَقْصودِ مِنْ أَنَّهُمْ ما حَلَّ بِهِمْ إلّا مِثْلُ ما حَلَّ بِأَمْثالِهِمْ مِنْ عَذابِ الاِسْتِئْصالِ؛ أيْ: لَمْ نُنْزِلْ جُنودًا مِنَ السَّماءِ مَخْلوقَةً لِقِتالِ قَوْمِه، أَوْ لَمْ نُنْزِلْ جُنودًا مِنَ المَلائِكَةِ مِنَ السَّماءِ لِإِهْلاكِهِمْ، وما كانَتْ عُقوبَتُهُمْ إلّا صَيْحَةً واحِدَةً مِنْ مَلَكٍ واحِدٍ أَهْلَكَتْهُمْ جَميعًا[2].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ الإنزالِ:

جاءَ التّعبيرُ بلفظِ الإنزالِ دونَ التَّنزيلِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، للإشعارِ بأنَّ العذابَ يَنزِل دَفعةً واحدةً في معاملةِ المكذّبين.

فائدةُ إسنادِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

عذابُ الصّيحةِ عظيمٌ بعظَمةِ مُنزلِهِ سبحانَه

أُسنِد فعلُ الإنزالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ إلى نونِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 5.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 5.

العظَمة، ومِثلُهُ في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، لأنَّ العذابَ هو مِن بابِ الهَيبةِ[1]، وللإشعارِ بأنَّ هذا الفعلَ المنفيَّ هو من فِعلِ الملِكِ العظيم الواحدِ الأحدِ، والمعنَى: ما أنزلْنا بما لَنا من العظَمةِ على قومِه من بعدِه من جُندٍ من السَّماءِ وما كنّا مُنزِلين، وفي نفي فعلِ الإنزالِ المُسنَدِ إلى نونِ العظَمةِ وإثباتِ عذابِ الصَّيحةِ دلالةٌ على أنَّ هذا العذابَ من اللّهِ ﷻ.

نكتةُ إسنادِ ﴿أَنزَلْنَا﴾ للفاعلِ دونَ المفعولِ:

تعظيمُ الأفعالِ تعظيمٌ لمآلاتِها

جاء إسنادُ فعلِ الإنزالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى الفاعلِ وهو ضميرُ العظمة، بينما في بَيانِ حالِ المُؤْمِنِ قال: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ [يس: 26]، بِإِسْنادِ القَوْلِ إلَى المفعول، والسّببُ هو أنَّه لمّا كان العذابُ من باب الهيبةِ جاء الفعلُ بصيغةِ التّعظيم، وأمّا في قولِه تعالى: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ [يس: 26] فقال: ﴿قِيلَ﴾ [يس: 26]، ليَكونَ هوَ كالمُهَنَّأ بكثرةِ المهنِّئينَ وتنوُّعِهم؛ بمعنى: يَقولُ لَهُ كُلُّ مَلَكٍ وكُلُّ صالحٍ يَراهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ خالدًا فيها، وكَثيرًا ما ورَدَ في القُرْآنِ قولُه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ﴾ [الزمر: 72] إشارَةً إلَى أنَّ الدُّخولَ يَكونُ دُخولًا بإكْرامٍ كما يدخُلُ العريسُ البيتَ المُزيَّنَ على رُؤوسِ الأَشْهادِ يُهَنِّئُهُ كُلُّ أَحَدٍ[2].

فائدةُ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

أفادَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ الاستعلاءَ والتّمكّن، وهو وإنْ أتى في سياقِ النّفي إلّا أنّه ثابتٌ إنزالُ الصيحة في الآيةِ اللّاحقةِ، فهو تَمكّنَ منهم واستأصلَهم جميعًا.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ إلى الضّمير:

شرفُ المؤمنِ ورفعتُه الإيمانُ، وذلَّةُ الكافرينَ ومهانتُهم الكفرُ

أُضيفَ لفظُ (قوم) إلى الضّميرِ العائدِ إلى الرّجلِ المؤمنِ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 7.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 268.

قولِه تعالى: ﴿قَوۡمِهِۦ﴾، فلم يَقُل: (وما أنزلنا على المُكذّبين)، أو: (وما أنزلنا على الكافرين)، ونكتةُ الإضافةِ هنا هي التّصريحُ بأنَّ العذابَ كان على قوم الرّجُلِ المؤمنِ لا على غيرِهم، وليرتبطَ الكلامُ بما قبلَه، وأنْ يُبيِّنَ الفرقَ بين اثنَيْن هُما مِنْ قَبيلَةٍ واحِدَةٍ أُكْرِمَ أَحَدُهُما غايَةَ الإكْرامِ بِسَبَبِ الإيمانِ، وأُهينَ الآخَرُ غايَةَ الإهانَةِ بِسَبَبِ الكُفْرِ[1].

فائدةُ ﴿مِنۢ﴾ ودَلالتُها التّوكيديّةُ:

الاعتداءُ على أولياءِ اللهِ مُنذِرٌ بمُعاجَلةِ العُقوبةِ

أفادت ﴿مِنۢ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ تَأْكيدَ اتِّصالِ المَظْروفِ بالظَّرْفِ[2]؛ أيْ: تأكيدَ اتّصالِ عدمِ إنزالِ الملائكةِ من السَّماءِ على قومِه، والتّنصيصَ على اتّصالِ الصَّيحةِ الواحدةِ على قومِه من بعدِ إهلاكِهم إيّاه؛ أيْ إنَّه تعالَى لم يُمهِلِ القومَ بعدَ قتلِ الرّجلِ المؤمنِ، فلَمْ يُرْسِلْ إلَيْهِمْ رَسولًا آخرَ، ولا عاتَبَهُمْ على لسانِ رسُلِه بَعْدَ قَتْلِهِ؛ بَلْ عاجَلَهُمْ بالهَلاكِ[3].

دلالةُ استعمالِ الظَّرفِ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

الإيماءُ إلى استحقاقِ العذابِ بسببِ القتلِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ الظّرفِ في قولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ للإيماءِ إلى تقريرِ استحقاقِهم العذابَ وتأكيدِه عليهم بسببِ قتلِهم له، بمعنَى أنَّ اللّهَ تعالى غضِبَ له[4]، إضافةً إلى إشراكِهم باللّه وامتناعِهم عن اتّباعِ المرسَلينَ، كما يُفيدُ قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ تقريرَ كونِ الرَّجُلِ المؤمنِ من المُكرَمين، إذ لَم يَنزِلِ العذابُ وهو بينَ أظهُرِهم.

فائدةُ الإضافةِ وتعيينِ الضَّميرِ في ﴿بَعۡدِهِۦ﴾:

التّنبيهُ إلى عِظَمِ شأنِ قتلِ المؤمنِ

أُضيفَ الظَّرفُ (بَعْدِ) إلَى الضَّميرِ العائدِ على لفظِ ﴿رَجُلٞ﴾ [يس: 20] في قولِه تعالَى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 268.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 5.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 59.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 510.

﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]، بما اتّصفَ به من كونِه جاءَ يسعى ونُصحِه لقومِه في وجوبِ اتّباعِ المُرسَلين وإعلانِه إيمانَهُ وإنكارَه على قومِه في شِركِهم؛ أيْ: من بَعْدِ إهلاكِهم إيّاه، أو من بعدِ قتلِهم له، ومِثلُه في حذفِ المُضافِ المعلومِ مِن السّياقِ قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾ [البَقَرَة: 133]؛ أيْ: مِن بعدِ موتي[1]، وطوي التّصريحُ بقتلِهم له لفَهمِه من السّياقِ، وللإشعارِ بأنَّه ما كان ينبغي أن يفعلوهُ، ولهذا لم يُذكَر.

غرضُ التقديمِ في ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في الموضِعيْن؛ أيْ: في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، للاهتمامِ والعنايةِ بالمقدَّم، لإفادةِ مُعاجَلتِهم بالعذابِ، واستحقاقِهم له من بعدِ قتلِهم له.

فائدةُ استعمالِ حرفِ ﴿مِن﴾ في الآية:

لمّا جاءَ حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في سياقِ النّفيِ؛ أفادَ تأكيدَ عُمومَ الجُنْدِ واستغراقَهم؛ أيْ: ما أنزلْنا على قومِه من بعدِه أيَّ جُندٍ مِن السّماء.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿جُندٍ﴾:

أفادَ تنكيرُ لفظِ ﴿جُندٍ﴾ العمومَ، بمعنى نفيِ إنزالِ أيِّ جُندٍ من السّماءِ، وذلك على الاختلافِ في كونِه الرّسالةَ والإنذارَ، أو جُنودَ العذابِ، فيَحتمِلُ النّصُّ ذلكَ كلَّه.

نوعُ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها في: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابْتِدائيَّةٌ تُفيدُ أنَّ ابتداءَ إنزالِ الملائكةِ مِن السّماء، ويَحتمِلُ أن تكونَ بيانًا للجُندِ بِناءً على الأكثرِ مِن أنَّ أكثرَ الملائكةِ في السّماء[2].

فائدةُ التّقييدِ في: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وغَرَضُه:

ممّا هو معلومٌ أنَّ الإنزالَ يكونُ من السَّماء، فيُسألُ عن سببِ تقييدِ الإنزالِ بقولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وذلك أنَّ فائدةَ التّقييدِ تَظهَرُ في تعظيمِ شأنِ السّماء بالتّصريحِ بها، ولبيانِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 5.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 269، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 6.

تعظيمُ شأنِ السّماءِ بنُزولِ عذابِ الصّيحةِ منها

أنَّ العَذابَ نَزَلَ عَلَيهِمْ مِنَ السَّماءِ وليس من مُطلَق الفوقيَّة؛ لأنّ الإنزال يتناولُ ما كان من فوقٍ إلى أسفلَ على الإطلاقِ[1]، فيكونُ المُرادُ أنَّ الصّيحةَ كانت بأمرٍ من السّماء، فَبَيَّنَ أَنَّ النّازِلَ لَمْ يَكُنْ جُنْدًا لَهُمْ عَظَمَةٌ، وإنَّما كانَ ذَلِكَ بِصَيْحَةٍ مِن السّماءِ أهلكَتْهُم واستأصلَتْهُم[2].

بديعُ الجناسِ في الحروفِ في الآيةِ:

لمّا جاء حرفُ (مِنْ) ثلاثَ مراتٍ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع اختلافِ المعنى كان به مُحسِّنُ الجناسِ[3]، ومِن لطائفِ التَّكرارِ أنَّ فيه سلاسةَ اللَّفظِ مع ائتلافِ النَّظْمِ.

نوعُ الواوِ في ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ودلالتُها:

تَحتمِلُ الواوُ والعَطْفَ والاستئنافَ

تَحتمِلُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أن تكونَ عاطفةً على جملةِ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ لتُفيدَ مُغايَرةَ المعطوفِ للمعطوفِ عليه في المعنى، كما تَحتمِلُ أن تكونَ استئنافيَّةً، وتكونُ جملةُ (ما كُنّا مُنْزِلينَ) مُعْتَرِضَةً بَيْنَ نَوْعَيِ العِقابِ المَنْفيِّ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾، والمُثْبَتِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾، والنُّكتةُ في الاعتراضِ هي قصدُ الرَّدِّ عَلَى المُشْرِكينَ بأَنَّ سُنَّةَ اللّهِ تَعالَى لَمْ تَجْرِ بِإنْزالِ الجُنودِ عَلَى المُكَذِّبينَ، وشَأْنُ العاصينَ أَدْوَنُ مِنْ هَذا الاهْتِمامِ[4].

فائدةُ (ما) في ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ودلالتُها:

استغراقُ النَّفيِ الزَّمانَ كلَّه

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ نافيةٌ، فيكونُ الكلامُ من عطفِ الكلامِ المنفيِّ على الكلامِ المنفيِّ؛ أيْ: ما أنزلْنا وما كُنّا مُنزِلين، والمعنى: ما أنزلْنا الآنَ، وما كُنّا مُنزلينَ سابقًا ولا لاحقًا في مثلِ هذا الأمرِ.

(1) ابن فُوْرك، تفسير ابن فورك: 3/ 341.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 269.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 6.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 6.

سرُّ العطفِ بين الجُملِ المتشابِهةِ المعنى في الظّاهرِ:

ترسيخُ مفهوم السُّنَنيَّة وبيانُ عـدلِ الـلـهِ معَ جميعِ الأُممِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ عطفِ جملةِ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ على جملةِ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ والمعطوفُ عليها تستلزمُ معنى الجملةِ المعطوفةِ في الظّاهرِ؟ والجوابُ أنَّ جملةَ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ تختلفُ في المعنى عن الجملةِ الأولى؛ لأنَّها بمَعنى ما كانَ يَنۢبَغي لَنا ولا يصِحُّ أَنۡ نُنۡزِلَ جُندًا من السّماء؛ لِأَنَّ الأَمۡرَ كان بِدونِ ذَلكَ ممّا هو أيسَرُ وأهوَنُ، فَما أَنۡزَلۡنا وما كُنّا مُحۡتاجينَ إلَى إنۡزالٍ، هذا توجيهٌ، وتوجيهٌ آخَرُ وهو أن يُقالَ: معنى ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾: ما كان دأبُنا وعادتُنا أن نُنزِلَ في مِثلِ تلكَ الواقِعةِ جُندًا مِن السّماء، فيكونُ مجيءُ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ بمثابةِ التّعميم بعدَ التّخصيصِ، ولهذا اقتضَى النّظمُ أن يُبدَأَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ويُذيَّلَ الكلامُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ على التأكيدِ والتّعميم، ولو عُكِسَ لاختلَّ النّظمُ وضَعُفَ المعنى والتأليفُ، وعلى وجهَيِ الجوابِ يكونُ قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ تَصۡغيرًا لِأَمۡرِهِمۡ، واستحقارًا لإهلاكِهم[1].

بلاغةُ التّعريضِ في الآيةِ الكريمةِ:

الـتّـلـويـحُ بعصا العذابِ لـلـمـشـركـينَ وتَهديدُ المُناوِئينَ

في الآية تَعۡريضٌ بالمُشۡركينَ مِنۡ أَهۡلِ مَكَّةَ إذۡ قالوا للنَّبي ﷺ: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92]؛ أَيۡ: تَأۡتيَ باللَّهِ الَّذي تَدَّعي أَنَّهُ أَرۡسَلَكَ ومَعَهُ جُنۡدُهُ مِنَ المَلائِكَةِ ليَثۡأَرَ لَكَ، ففيه تَوَعُّدٌ لهم بأنَّه يَنزِلُ بهم مِن عذابِ اللّهِ ما نزَلَ بقوم حَبيبِ النّجّار، وأَنۡ يُصيبَهُمۡ ما أَصابَ هؤلاءِ القومَ، إذۡ هذا هو المُرَوِّعُ لهم من المِثال، وهُمُ المَضۡروبُ لَهُمُ المَثَلُ[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 12، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 269، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 266، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 165، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 120.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 59.

توجيهُ موهِمِ الاختلافِ:

نـفـيُ إنـزالِ الـجُـنـدِ مـن السَّماءِ بقصدِ الاستئصالِ وإثباتُ إرسالِهم بقصدِ الإعانةِ

نفتِ الآيةُ الكريمةُ إنزالَ جُندٍ من السَّماءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، وفي المقابلِ أثبتَتْ آياتٌ أخرى إرسالَ جُندٍ من السَّماءِ وهُمُ الملائكةُ يومَ بدرٍ والخندقِ، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: 9]، وقال: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: 9]، وقال: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤﴾ [آل عمران: 124]، وقال: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عمران: 125]، فيُسألُ عن ذلك، والجوابُ أنَّ الآيةَ النّافيةَ هي في نفيِ إنزالِ جُندٍ من السَّماء بقصدِ الاستئصالِ والإهلاك، والآيةُ المُثبِتةُ هي في إثباتِ إرسالِ ملائكةِ التَّأييدِ بالنَّصرِ والإعانة، فافترقَ المَقصِدُ، وبانَ الفرقُ.

علَّة فصلِ جملةِ الإثباتِ عن جملةِ النّفي:

تحتملُ الجملةُ شـبـهَ كـمـالِ الاتِّصالِ وكمالَه

جاءَ الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، وبيانُهُ أنَّه لمّا نفَى اللّهُ تعالَى أنَّه أنزلَ على قوم حبيبٍ النَّجّار جُندًا من السماءِ كانَ كأنَّه قيلَ: فماذا أُنزِلَ عليهِم؟ فقيلَ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾، فهي من شِبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وتَحتمِلُ جُملةُ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أن تكونَ بيانًا للجُملةِ المنفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾[1]، لدَفعِ توَهُّمِ عدمِ إنزالِ العذابِ عليهم أصلًا؛ أيْ: ما أنزلنا جُندًا بل صَيحةً، ففيها معنى الإضرابِ، وهو نوعٌ من البيانِ، فيكونُ الفصلُ من كمالِ الاتِّصال.

مُناسَبةُ القَصرِ بطَريقِ النّفيِ و﴿إِلَّا﴾ في الآية:

سـرعـةُ نـزولِ الصّيحةِ وقـوّةُ عذابِ المُهلَكين

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أسلوبِ القَصرِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بطريقِ النّفي و﴿إِلَّا﴾، وذلكَ لمُناسَبةِ أنَّ ما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 269.

تقدَّم مِن نفي إنزالِ جُندٍ من السّماءِ يقتضي السُّؤالَ عن مصيرِ أولئكَ المُكذِّبينَ؛ فجاءَ الجوابُ بنفي كلِّ ما يتوهَّمُهُ الذِّهنُ، وإثباتِ شيءٍ واحدٍ؛ ألا وهو الصّيحةُ، وذلكَ لبيانِ سرعةِ مَجيءِ الصّيحةِ، وقوّةِ العذابِ النّازلِ فيهم، وهو ما يُقوّي أن تكونَ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا كما سَبق.

نكتةُ استعمالِ ﴿كَانَتْ﴾ ماضيًا:

جاء استعمالُ الكونِ بصيغةِ الماضي: ﴿إِن كَانَتْ﴾، للإيذانِ بحُصولِ الصّيحةِ ووقوعِها وتمحيضِ الحدَثِ فيها، لم يكُن شيءٌ إلّا صيحةً.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدةِ ﴿صَيۡحَةٗ﴾:

مَنْ لم ينتفعْ بصيحةِ الإنذارِ عاجلَتْهُ صيحةُ العذابِ

استَعمَلَ النَّظمُ الكريمُ مُفرَدةُ الصَّيحةِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وهي الصّوتُ إذا اشتدَّ وقويَ، واللّفظُ مُستعمَلٌ في العُرْف اللُّغويِّ في معنى العذابِ المُفاجِئ الذي يَستلزِمُ الهلاكَ كما هو ظاهرُ كلامِ اللُّغويّين[1]، وهو من التَّصَوُّح بمعنى التَّشقُّق والتّيبُّس الَّذي يُفيدُ انتهاءَ الانتفاعِ من الشّيء، وآثَرَ استعمالَ الصّيحةِ للتّنبيهِ على أنَّ مَنْ لَم ينتفعْ بصيحةِ الإنذارِ؛ قَصمَتْهُ صيحةُ العذابِ.

فائدةُ توكيدِ الموصوفِ بـ﴿وَٰحِدَةٗ﴾:

بيانُ حقارةِ الكافرينَ بسرعةِ استئصالِهم وإهلاكِهم

لمّا كان لفظُ ﴿صَيۡحَةٗ﴾ على وزن (فَعْلَة) لبناءِ مرَّة، أفاد أنَّ الصيحةَ كانت واحدةً، ومعَ ذلك فقدَ أكَّد أمرَها وحقَّقَ وحدتَها بقولِه: ﴿وَٰحِدَةٗ﴾، وفائدةُ التّأكيدِ بيانُ حقارةِ أمرِهم[2]؛ إذ تَكفيهم صيحةٌ واحدةٌ لإهلاكِهم واستئصالِهم، كما أنَّ في التّأكيدِ تعظيمًا لصيحةِ الهلاكِ الّتي يُلحِقُها اللّهُ تعالى بالكافرينَ، ومِن فوائدِ التّأكيدِ تقريرُ مَعْنَى الوَحْدَةِ، لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أنَّ المُرادَ جنسُ الصّيحةِ الشّاملُ للقليلِ والكثيرِ[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صيح).

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 116.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 6.

غرضُ حذفِ المُستثنَى منه في الآية:

حذفُ المعلومِ لبداهتِه، والتّلويحُ بالبدَهيِّ أقوى مِنَ التّصريحِ به

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ مُفرَّغٌ، وبيانُه أنَّه لمّا لحقَتْ تاءُ التأنيثِ الفعلَ ﴿كَانَتۡ﴾ مع نصبِ ﴿صَيۡحَةٗ﴾ دلَّ على أنَّ المُستثنَى منه محذوفٌ يُعرَف من السّياق على قراءةِ الجمهور، والغرضُ من مَجيءِ الكلامِ بأسلوبِ الاستثناءِ المُفرَّغ القصدُ إلى عموم المُستثنَى منه ممّا هو مناسبٌ لجنسِ المُستثنَى وصِفته، ولبيانِ أنَّ استحقاقَ العُقوبةِ معلومٌ ولو لم يُذكَر، وتقديرُ المُستثنَى هو (العُقوبَةُ) أو (الأَخْذَةُ) أَوِ (الصَّيْحَةُ) الَّتي دَلَّتْ عَلَيْها ﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، وتقديرُ الكلامِ: (ما كانتِ العقوبةُ أو الأخذةُ أو الصّيحةُ إلّا صيحةً من صِفتها أنّها واحدةٌ، فإذا هم خامدون بها)[1]، ونكتةُ تأنيثِ اسم (كان) المُضمَرِ وصْفُ الصّيحةِ بالِاتِّحادِ بدلالةِ السّياق[2]؛ أي: اتّحادِ العُقوبةِ بالصّيحةِ، والمعنى: (ما كانت الصّيحةُ أو العقوبةُ الّتي أهلكتْهُم إلّا صيحةً واحدةً، لا أكثرَ، فإذا هُم خامدونَ).

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآية:

تَنوّعُ إعرابِ القراءةِ تابعٌ لتنوّعِ المعنى

قرأ الجمهورُ: ﴿صَيۡحَةٗ﴾ بالنَّصبِ، على أنَّ (كان) ناقصةٌ، واسمُها ضميرٌ يعود إلى ما يُفهَم من السّياق، والتّقديرُ: (ما كانتِ العُقوبةُ إلّا صيحةً واحدةً)، وقرأ أبو جعفر: ﴿صَيۡحَةٌ﴾ بالرَّفع على أنّ (كان) تامَّةٌ، و﴿صَيۡحَةٌ﴾ فاعِلٌ، فيكونُ الكَوْنُ بِمَعْنَى الوُقوع والحُدوث؛ أيْ: ما حدثتْ أو ما وقعَتْ إلّا صيحةٌ واحدةٌ؛ والمعنى: (ما وُجدتْ صيحةٌ من الصّياح إلّا صيحةٌ واحدةٌ)[3].

فائدةُ الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَإِذَا هُمۡ﴾:

أفادتِ الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ التّعقيبَ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 6.

(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 1081.

(3) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 353.

والتّرتيبَ، فحصَلَ خُمودُهُم عَقِبَ الصّيحةِ مُباشَرةً، وهو مُسبَّبٌ عنها، ففيهِ تأكيدُ تحقيرِهم ببيانِ سرعةِ خُمودِهم.

فائدةُ (إذا) الفُجائيَّةِ في ﴿فَإِذَا هُمۡ﴾:

استبطاءُ العقوبةِ دليلُ جهلِ المُتوقِّعِ

استعمَلَ النَّظمُ الكريمُ أداةَ (إذا) الفُجائيَّةِ في الجُملَةِ المُفرَّعَةِ عَلَى ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وهي قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾، لإفادَةِ سُرعَةِ الخُمودِ إلَيْهِمْ بِتِلْكَ الصَّيْحَةِ، بحيثُ إنَّ هلاكَهم كان مع الصَّيحةِ وفي وقتِها، والمعنى: (فاجَأَهُم الخُمودُ ولَم يتأخَّر)[1].

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ ﴿هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾:

عُبِّر بالجملةِ الاسميَّة ﴿هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ لإفادةِ أنَّ الخمودَ ثابتٌ لهم، فكأنَّهم ما كانت لهم حركةٌ يومًا من الدّهر[2]، ففيه تنبيهٌ على المآلاتِ، للحذرِ من عاقبةِ السّيِّئاتِ.

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾:

احتمالُ جملةٍ واحدةٍ المكنيّةَ والتّصريحيّةَ والتّمثيليّةَ والتّشبيهَ البليغَ

لفظُ الخُمود في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ مأخوذٌ من خمدَتِ النّارُ، إذا زال لهيبُها وانطفأتْ، فشُبِّه حالُ القوم حالَ وقوعِ الصّيحةِ عليهم وموتِهم بالنّارِ الّتي زال لهيبُها وانطفأتْ، وحُذِفَ المُشبَّه به وهي النّار، ورُمِزَ إليها بشيءٍ من لوازمِها وهو الخُمود، فهو استعارةٌ مَكنيَّة، وإثباتُ الخمود تخييلٌ، وقُصِدَ بالاستعارةِ المَكنيَّة في لفظِ ﴿خَٰمِدُونَ﴾ موتُهم المُسبِّبُ لانتفاءِ حركتِهم وسقوطِهم، بمعنى أنَّ الموتَ الدّاهمَ أفقدَهم الحركةَ[3].

كما أنَّ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ استعارةً أخرى؛ فقد تَضَمَّنَت الاستعارةُ تَشْبيهَهُمْ قَبْلَ الخمودِ بالنّارِ المَشْبوبَةِ في القوّةِ والبَأْسِ، إشارةً إلى ما كانوا عليه قبلَ نزول الصّيحة من القوّة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 269، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 6.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 116.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 267، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 305.

والشدّة والطّغيان، كما أنَّ في الاستعارةِ إشارةً الى أنَّ الحيَّ كالنّارِ السّاطعةِ في الحَرَكةِ والالتهابِ والميِّتَ كالرَّماد، فشبَّه حَياتَهمْ بِشُبوبِ النّارِ وانتشارِها على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة.

ويُحتَمَل أن تكونَ الاستعارةُ تمثيليَّةً؛ بأنْ شُبِّهت الهيئةُ المأخوذةُ من القَوم وشدَّتِهم ثُم عُروضِ الموتِ والهلاكِ عليهم فصاروا ساكنينَ من غيرِ حركةٍ بالهيئةِ المُنتزَعةِ من النّار وكونِها ساطعًا لهبُها ثُمَّ عُروضِ الانطفاءِ عليها فصارت خامدةً، فذُكِر الكلامُ المُركّبُ الموضوعُ للمُشبَّه به وهو النّار، وأُريدَ المُشبَّهُ وهو القومُ الخامِدون[1]، كما يُحتَمَلُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ من التّشبيهِ البليغِ؛ أيّ: شبَّههم بالنّارِ الخامدةِ الَّتي صارت رمادًا[2]، والقولُ بأنَّه استعارةٌ أظهَرُ وأبلَغُ.

مناسَبةُ استعمالِ مُفرَدةِ الخُمودِ:

دقَّة التّعبير القرآنيّ في اختيارِ الكلمةِ الأنسبِ

وَصَفُهُمْ بِالخُمودِ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ في غايَةِ الحُسْنِ، وذَلِكَ لِأَنَّ الحَيَّ فيهِ الحَرارَةُ الغَريزيَّةُ، وكُلَّما كانَتِ الحَرارَةُ أَوْفَرَ كانَتِ القوّةُ الغضَبيّةُ والشَّهْوانيَّةُ أَتَمَّ، وهُمْ كانوا كَذَلِكَ، أَمّا الغَضَبُ فَإِنَّهُمْ قَتَلوا مُؤْمِنًا كانَ يَنْصَحُهُمْ، وأَمّا الشَّهْوَةُ فَلِأَنَّهُمُ احْتَمَلوا العَذابَ الدّائِمَ بِسَبَبِ اسْتيفاءِ اللَّذّاتِ الحاليَّة؛ فَإِذَنْ كانوا كالنّارِ الموقَدَة، ولِأَنَّهُمْ كانوا جَبّارينَ مُسْتَكْبِرينَ كالنّارِ ومَنْ خُلِقَ مِنْها؛ فناسَبَ أن يصفَهُم حالَ موتِهم بقوله: ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخمودُ والهُمودُ:

الخُمودُ هو السّكونُ بعدَ القوّةِ والحركةِ الشّديدةِ، وأمّا الهُمودُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 121.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 191.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 269.

الخمودُ سكونٌ بعد قوّةٍ وشدّةٍ، والهمودُ سكونٌ تامٌّ بسببِ اليُبْسِ والبِلَى

فيدلُّ على السّكونِ التّامِّ بسببِ يُبْسِ الشّيءِ وبِلاه، ومِنه الهامِدُ مِنَ الشَّجَرِ؛ أي: اليابِسُ، وهَمَدَ الثَّوبُ يَهْمُدُ هُمودًا وهَمْدًا إذا تَقَطَّع وبَلِيَ، وهوَ مِنْ طولِ الطَّيِّ تَنْظُرُ إليه فتحسَبُه صَحيحًا، فإذا مَسَسْتَه تَناثَر مِنَ البِلى، وأرضٌ هامدةٌ: مُقْشَعِرَّة لا نباتَ فيها إلّا اليابسَ المُتناثِرَ المُتحطِّمَ، فالهامدُ البالي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لطول بقائه مُتيبّسًا[1]، فالسّكونُ الَّذي يحصُلُ عند الصّيحةِ يُسمَّى خُمودًا، والّذي يحصُلُ بعدَ طولِ البِلَى حتَّى يتناثرَ إن مسَستَهُ يُسمَّى هُمودًا، كما أنَّ في التّعبيرِ بالخُمودِ إشعارًا بأنَّ هلاكَهم بالصّيحة على سبيلِ الغلَبةِ والقَهرِ، فالإخمادُ يكونُ بالغَلَبَةِ، ولهذا يُقال: خمَدَتْ نيرانُ الظُّلم والفتنةِ، وذهبَ أبو هلالٍ العسكريُّ إلى أنَّ الفرقَ بينَهُما هو أنَّ خُمودَ النّارِ أن يَسكُنَ لهبُها ويبقى جَمرُها، وهُمودَها ذَهابُها ألبتّة[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خمد)، و(همد).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 300.

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾ [يس: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما بعدَ الإهلاكِ إلّا التّأسيفُ ممّن لَمْ ينتفعْ بالمواعظِ

لَمّا أخبرتِ الآياتُ السّابقةُ عن مصيرِ القومِ المُكذِّبين، وبما سَبق ذِكْرُه وهو الحقُّ من أمرهم، ورغَّبَهم بما ضَرَب لهم من المَثَل ورهّبهم العذابَ فلم ينفعْهم ذلك؛ بل وقَع لهم من العذابِ ما وقع؛ ناسبَ ذِكرُ الحسرةِ على العباد الّذين يُصرّون على الاستهزاءِ، ويُعانِدون أنبياءَ اللّه تعالى، لبيانِ أنَّ الاستجابةَ لأمرِ اللّه تعالى من المدعوّين قليلة، ففيه تنبيهٌ وتحذيرٌ وتعريضٌ من الوقوع فيما وقعَ به أولئك المذكورون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾: أصلُ (حسر) كَشْفُ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَسَرْتُ عن الذِّراعِ؛ أيْ: كَشَفْتَها، والحاسِرُ: الَّذي لا دِرْعَ عليه ولا مِغْفَرَ[1]، ومِنَ البابِ: الحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفائِتِ، وهي أَشَدُّ حالاتِ النَّدَمِ حَتَّى يبْقى النادِمُ كالحَسيرِ من الدوابِّ الَّذي لا مَنْفَعَةَ فيه[2]، يُقالُ: بعيرٌ حسيرٌ، إذا أتعبه السَّيْرُ فلم تَبقَ له قوَّةٌ[3]، والمُرادُ بالحسرةِ في الآيةِ: شِدَّةُ النَّدمِ المَشوبِ بتلهُّفٍ واغتمامٍ على نفعٍ فائتٍ ولا يُمكنُ ارتجاعُه[4].

2) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: (هزأ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّخرية، يُقالُ: هَزِئَ واستَهزَأ، إذا سَخِر[5]، ورَجُلٌ هُزَأَةٌ: يَهْزَأ بالنّاسِ، وهُزْأَة: يُهْزَأ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حسر).
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التّبيان، ص: 176.
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (هزأ).

مِنْهُ[1]، والهُزْءُ: مَزحٌ في خُفْيَةٍ، وقد يُقالُ لِما هو كالمَزح، والاسْتِهْزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤ، وإن كان قد يُعبَّرُ به عن تعاطي الهُزُؤ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥﴾ [التَّوبة: 65]، والمُرادُ بالهُزْءِ في الآية: المُبالَغَةُ في السُّخريةِ والاستخفافِ بالغير.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا تنفعُ الحسرةُ والنّدامةُ حينَ وقوعِ العذابِ

تُبيِّنُ الآيةُ حالَ العبادِ يومَ القيامةِ إذا عاينوا العذابَ على تكذيبِهم رُسُلَ اللهِ ومخالفةِ أوامرِه، فلَمْ يأتِهم رسولٌ من عندِ اللهِ لدعوتِهم إلى التَّوحيدِ والحقِّ والخيرِ لأنفسِهم إلّا استهزؤوا به وكذّبوه، وجَحَدوا ما أُرسِلَ به من الحقِّ[2]، وقد لَحِقتْهم الحسرةُ والأسفُ والنَّدامةُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ عن السّابقِ:

اطِّرادُ سُنَّةِ الكافرينَ في تكذيبِهم الرّسلَ والاستهزاءِ بهم

جاء قولُه تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ مفصولًا عمّا قبلَه؛ لأنَّ الجملة تذييلٌ لِما سبقَها، فهي تُفيدُ العمومَ والكلّيَّةَ، فهو شاملٌ للأُمّة المقصودةِ بِسَوقِ الأمثالِ السّابقةِ من قولِه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: 13]، واطّرادَ هذا السَّنَنِ القبيحِ فيهم[3]، ففي الكلامِ توكيدٌ لِما سبق ذِكْرُه في مضامينِ الآيات.

فائدةُ النّداءِ ﴿يَٰحَسْرَةً﴾ وغرضُهُ:

مناداةُ الحسرة للتَّنبيهِ إلى أمرٍ عظيمٍ عجيبٍ يقعُ في زمانِ الحسرة

جاء النِّداءُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، للتّنبيهِ على ما يُنادَى له لعِظَمِ شأنِه وخطَرِه ليُصْغيَ إلَيْهِ السّامِعُ؛ فالمعنى: أيُّها النّاسُ، تنبَّهوا على ما يقع في زمان الحسرةِ وأنَّ هذا وقتُكِ يا حسرةُ فتعالَي، فإنَّ العربَ إذا اجتهدت في المبالغةِ في الإخبارِ عن عظيمٍ

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكم: (هزأ).
(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 4/ 12، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 5.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 7.

يقعُ فيه جعلتّه نداءً، ومنه مناداةُ الحسرةِ في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر: 56]، ومناداةُ الويلِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: 72]، ومِثلُه مناداةُ الأسفِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84][1].

بلاغةُ المجازِ في النّداءِ ﴿يَٰحَسْرَةً﴾:

الحسرةُ حالٌ عجيبةٌ تلحَقُ المكذِّبين يومَ القيامةِ فتَزيدُهم عذابًا فوقَ العذابِ

جاء النِّداءُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ على المَجازِ؛ لأنَّ الأصلَ في المُنادَى أن يكونَ للعاقلِ، فلمّا نوديَتِ الحسرةُ نُزِّلت منزلةَ العُقَلاءِ، لبيانِ عِظَمِ هذه الحالةِ العجيبةِ التّي يُتحسَّرُ فيها، والمعنى: يا حسرةُ تعالَي فاحضُري؛ فهذه من الأحوالِ والأوقاتِ الّتي من حقِّها أن تَحضُري فيها ليتحسَّرَ بكِ من استهزأ برُسُلِ اللّه، والمُرادُ بالأحوالِ ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾؛ أيْ: إنَّ العبادَ يتحسّرون بكِ على أنفسِهم تندُّمًا وتلهّفًا لاستهزائِهم برُسُلِ اللّه[2].

وأجاز بعضُ النّحاةِ والمفسّرينَ أن يكونَ المُنادَى محذوفًا بتقديرِ: (يا هؤلاءِ حسرةً على العبادِ)، أو: (يا قومِ حسرةً على العبادِ)، ويكونُ (حَسرَةً) مصدرًا منصوبًا بفعلٍ تقديرُه: (أتحسّرُ حسرةً)، وتقديرُ الكلامِ: (يا هؤلاءِ أتحسَّرُ حسرةً على العبادِ)[3]، وعلى هذا الوجهِ فهو مجازٌ بالحذفِ في النّداءِ، ونكتةُ حذفِ المُنادَى في هذا الأسلوبِ عظَمةُ الأمرِ المذكورِ وغلبَتُه بينَ النّاسِ بحيثُ يُنادَى لهُ كلُّ قومٍ، لأنَّهم قد حلّوا محلَّ مَنْ يُتَحَسَّرُ عليه، ولهذا جاء الكلامُ بعدَه في سياقِ العُمومِ، وعلى كلا الوجهَيْنِ فالمعنى عَلَى التَّعجُّبِ، وهو أبلَغُ من أن يُقالَ: العَجَبُ من العبادِ[4].

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 284، والواحديّ، التّفسير البسيط: 8/ 84 - 85.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 512، ومكّيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 6023، والعكبريُّ، التّبيان: 2/ 1081، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 13.

(3) العكبريّ، التّبيان: 2/ 1081، والمُنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 347.

(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 353.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ الحسرةِ وتنكيرِها:

الحسرةُ شدَّةُ ندمٍ يقطعُ صاحبَه عن بلوغِ النّفعِ

استَعملَ النَّظمُ الكريمُ مُفردةَ الحسرةِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ وهي شدَّةُ النَّدمِ مع تلهّفٍ على ما فات من النّفع، بأن يكونَ الإنسان ذو الحسرةِ في حالةٍ من التندُّم والتّلهّف ما لا نهايةَ بعدَه حتَّى يصيرَ به حسيرًا؛ أيّ: مُنقطعًا[1]، أو هي الغمُّ على ما فات والنَّدمُ عليه كأنَّ المُتحسِّرَ انحسَرَ عنه قواهُ من فَرط ذلك أو أدركَهُ إعياءٌ عن تداركُ ما فَرَط منه[2]، والمعنى متقاربٌ، والمآلُ واحدٌ وهو شدّة ندم المُتحسّرِ وتلهّفِه لِعدم قدرته على تدارُك ما فاتَه من الخَيرِ العظيم، ليُفيدَ أنَّ المُستهزئينَ برُسُلِ اللّه يتندّمون على استهزائِهم ويتمنَّونَ أن لو كانوا يستطيعونَ تداركَ ما فاتَهُم من الإيمانِ برُسُلِ اللّه وتوقيرِهم واحترامِهم واتّباعِهم، وقد نُكِّرَ لفظُ الحسرةِ لإفادة شدَّتها الّتي يتحسَّرها المكذّبون المُستهزؤون بالرُّسُل، وأنَّها حسرةٌ عظيمةٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾:

حقيقٌ بالمُستهزئ أن يُتحسَّرَ عليه

التّحسُّرُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ استعارةٌ، تَمْثيلًا لِحالِ عِبادِ اللّهِ تَعالَى في تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ اللّهِ بِحالِ مَنْ يَرْثي لَهُ أَهْلُهُ وُقوعَهُ في هَلاكٍ أَرادوا مِنْهُ تَجَنُّبَهُ[3]، والغرضُ من الاستعارةِ تعظيمُ ما جناهُ المُستهزئون على أنفسِهم ومَحنوها به، وفَرطُ إنكارِه تعالى لاستهزائِهم وتَعجيبِه منه[4].

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في ﴿عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾:

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ على تمكُّن الحسرةِ من المُستهزئين واستيعابِها لهم؛ فهي قد أحاطت بالعبادِ فأسقطتّهم إهلاكًا وعذابًا.

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 9/ 6027، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 7.
(2) الرّاغب، المُفردات: (حسر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 8.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 13، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 267، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 122 - 123، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 7.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡعِبَادِۚ﴾:

تحتمل الاستغراق لتفاوُتِ الحَسْرةِ بين العبادِ، والعهدَ للنَّصِّ على المذكورين

يُحتَمَلُ أن تكونَ (أل) في لفظِ العبادِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ عهديَّةً، فيكونَ المُرادُ بالعبادِ جميعَ المستهزئين بالرُّسل، وهو ما دلَّ عليه سياقُ الآية، كما تَحتَمِلُ أن تكونَ للاستغراقِ ثمَّ خُصَّ الكلامُ بالمستهزئين بما دلَّ عليه السّياقُ، وحينئذٍ في مَجيءِ لفظِ العبادِ على العموم إشارةٌ إلى أنَ كلَّ عبدٍ من العبادِ حقيقٌ بأن يَتحسَّر، إذ لا يخلو أحدٌ عن تقصيرٍ ما إلّا مَن رحمه اللّهُ تعالى، وهو ما يَشترِكُ مع دلالةِ لفظِ التّغابُن، وعلى القولِ بأنَّ (أل) للعهدِ أو للاستغراقِ يدخُلُ في اللَّفظ أصحابُ القريةِ دخولًا أوّليًّا لَمجيءِ الكلامِ في سياقِ الحديثِ عنهم[1].

بلاغةُ التَّعريضِ في استعمالِ لفظ ﴿ٱلۡعِبَادِۚ﴾:

تركُ المعنى العامِّ للفظِ العبادِ إلى المعنى الخاصِّ تعريضٌ وتهكُّمٌ بالمُستهزئين

على القولِ بأنَّ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡعِبَادِۚ﴾ للعَهدِ وأنّ المُرادَ من العبادِ المستهزئون يكونُ في الكلامِ عُدولٌ، وبيانُه أنَّه لمّا كان غالبُ الاستعمالِ القرآنيِّ للفظِ العبادِ في معنى العبادِ الطّائعينَ أو معنى عُمومِ العبادِ، وأتَى هنا على أنَّ المُرادَ به المُستهزئونَ دلَّ على العُدولَ عن الأصلِ في معنى اللَّفظِ لَمجيئِه على خلافِ الغالبِ في الاستعمالِ[2]، ومُناسَبةُ العدولِ هو التّعريضُ بالمُستهزِئينَ، فإنَّ ذِكْرَ العبادِ الموحيَ باقتصارِه على الطّائعين في سياقِ الحسرة عليهم، إشعارٌ بهَولِ ما سيكونُ على مَن سِواهم مِن المُستهزِئين، ما فيهِ من رائحةِ التّهكُّم بهم.

نكتةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعِبَادِۚ﴾ بـ(أل):

للسّياقِ أثرٌ في نَظْمِ الألفاظِ وانتقاءِ المباني

جاءَ التَّعبيرُ بالتَّعريفِ بـ(أل) دونَ الإضافةِ في لفظِ ﴿ٱلۡعِبَادِۚ﴾؛، فلَمْ يَقُلْ: (يا حسرةً على عبادي)؛ وذلك لأنَّ الإضافةَ إلى اللّهِ تعالى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 122.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 344، والبسيليّ، نكتٌ وتنبيهاتٌ في تفسير القرآن المجيد: 3/ 448.

تكسو المُضافَ شرفًا، كقولِه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63]، وقَوْلِه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحِجْر: 42]، وكذلك: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الصّافات: 40]، فيكونُ اللّفظُ في سياقِ التّكريم والتّشريف، وقد جاء اللّفظُ في الآيةِ في سياقِ التّوبيخ والتّعجيبِ من حالِ العبادِ المُكذِّبينَ للرُّسُل المُضمَّنِ الدّعوةَ إلى تَركِ هذا الأمرِ واجتنابِه جاءَ اللَّفظُ غيرَ مُضافٍ إلى اللّٰه تعالى.

علّةُ فصلِ الجملةِ عن السّابقة:

الاستهزاءُ بالرُّسُل دليلُ الكفرِ وسببُ الحسرة

جاءت جملةُ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ مفصولةً، لأنّها تفسيرٌ وبيانٌ لسبب الحسرةِ والنّدامةِ والتّعجّب، وقد كانت الجملةُ بيانًا لسبب الحسرةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ وإِنْ كانَ قَدْ وقَعَ بَعْدَ ذِكْرِ أَهْلِ القَرْيَةِ؛ فَإِنَّهُ لَمّا عَمَّمَ عَلَى جَميعِ العِبادِ حَدَثَ إيهامٌ في وجْهِ العُموم، فَوَقَعَ بَيانُهُ بِأَنَّ جَميعَ العِبادِ مُساوونَ لِمَنْ ضُرِبَ بِهِمُ المَثَلُ، ومَنْ ضُرِبَ لَهُمْ في تِلْكَ الحالَةِ المُمَثَّلِ بها، ولَمْ تَنْفَعْهُمُ المَواعِظُ والنُّذُرُ البالِغَةُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرَّسولِ المُرْسَلِ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ ومِنْ مُشاهَدَةِ القُرونِ الَّذينَ كَذَّبوا الرُّسُلَ فَهَلَكوا، فَعُلِمَ وجْهُ الحَسْرَةِ عَلَيْهِمْ إِجْمالًا مِنْ هَذِهِ الآيَةِ، ثُمَّ تَفْصيلًا مِنْ قَوْلِه بَعْدُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾[1].

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ بطريقِ النّفيِ و﴿إِلَّا﴾:

صنعةُ الأقوامِ المُتْقَنةُ مع الرُّسُلِ هي الاستهزاءُ والسُّخرية

جاء أسلوبُ القَصرِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بطريقِ النّفي و﴿إِلَّا﴾، وهو استثناءٌ مُفرّغ، لنفي كلِّ فعلٍ صدَر عن الأقوامِ تجاهَ الرُّسُلِ الّذين أتوهُم مُنذِرين، وإثباتِ فعلٍ واحدٍ وهو الاستهزاء، فهو استثناءٌ من أعمِّ الأحوالِ مِنَ الضَّميرِ في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 8 - 9.

﴿يَأۡتِيهِم﴾؛ أيْ: ما يَأْتيهِمْ رَسولٌ في أيِّ حالٍ مِنْ أَحْوالِهِمْ إلّا في حال اسْتِهْزائِهِمْ بِهِ؛ أيْ: ليس لهم حالٌ ولا عملٌ مع الرُّسُل إلّا بالاستهزاءِ بهم، ففيه تبكيتٌ لهم وتوبيخٌ شديدٌ[1]، وهذا أبلغُ من مجرّد الإخبار بأنَّهم كانوا يستهزئون، فهُم لم يُقدِّموا للرُّسُلِ شيئًا إلّا الاستهزاء.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَأۡتِيهِم﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَأۡتِيهِم﴾، ليُفيدَ استمرارَ استهزائِهم وتجدُّدَه كلَّما أتاهم رسولٌ، ففيه زيادةٌ في التّوبيخ لاستهزائِهم، ولإشعارِهم بمزيدِ الحسرةِ.

فائدةُ استعمالِ ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾:

دلَّ استعمالُ حرفِ ﴿مِّن﴾ الدّاخلةِ على لفظِ ﴿رَّسُولٍ﴾ على العمومِ، بمعنى أنَّه لا يُرادُ به رسولٌ واحدٌ؛ بل عمومُ المُرسَلين.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿رَّسُولٍ﴾:

استهزاءُ المكذِّبينَ لا يَتقيّدُ بوصفٍ أو حـالٍ؛ لأنَّـه محضُ كُفرٍ

نُكِّر لفظُ ﴿رَّسُولٍ﴾، لإفادةِ الشُّيوعِ والعمومِ في الوقتِ والحالِ، لا سيَّما أنَّ اللفظَ قد جاءَ في سياقِ النّفي، والمعنى: أيُّ رسولٍ من عندِ اللّهِ يأتيهِم وفي أيِّ وقتٍ يستهزِئون به، من غيرِ قَيدٍ لوصفِه، ففيهِ تعجيبٌ من أمرِ المُستهزئين وتقبيحٌ لفعلِهم، مع تضمينِ الكلامِ الوعيدَ بما ذُكِر من لفظِ الحسرةِ الَّذي يقتضي التّنديمَ يومَ القيامةِ، لانخراطِ الاستهزاءِ في سِلْكِ التّكذيب.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُفردِ ﴿رَّسُولٍ﴾:

جاء التعبيرُ بصيغةِ المُفردِ في قولِه تعالى: ﴿رَّسُولٍ﴾، للإشعارِ بأنَّهم يستهزئون بأيِّ رسولٍ، سواءٌ أكانَ مُرسَلًا وحدَه، أم معَ رُسُلٍ آخَرين، فيتناولُ المُفردَ والجمع.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 8.

دلالةُ ذِكْرِ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾:

عدلُ اللهِ تعالى مع المُستهزِئين راحةٌ للمؤمنينَ

جاء ذِكْرُ فعلِ الكونِ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ للإشعارِ بعراقتِهم في الاستهزاء، ولتأكيدِ استمرارِهم عليه، وأنَّ دَيْدَنَهم مع رُسُلِ اللّهِ الاستِهزاءُ، فدلَّ على أنَّ عذابَ اللّهِ تعالى لهم، لم يكُنْ بسَببِ فِعلٍ عابرٍ، أو قولٍ طارئٍ؛ بل هو منهَجٌ انتهَجوهُ في التَّعامُلِ معَ الرُّسُلِ المُنذِرين.

نكتةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

التّعجيبُ من حالِ الكافرينَ فكأنَّهم لا يَستهزِئونَ بأحدٍ إلّا بالرّسولِ ﷺ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على الفعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ليُفيدَ التّخصيصَ الإضافيَّ؛ أيْ: كانوا بهِ وليسَ بغيرِه يستهزئون، فكأنَّهم لا يَستهزِئون بأحدٍ إلّا بالرّسول، تعجيبًا من فِعلِهم وتوبيخًا لهم، كما أنَّ فيه اهتمامًا بالرّسول ﷺ وعنايةً به ليُشعِرَ باستفظاعِ الاستهزاء به، كما أنَّ في تأخيرِ الفعل رعايةً للفاصلة ورؤوسِ الآيِ، فَحَصَلَ مِن تقديمِ الجارّ والمجرور غَرَضانِ: أحدُهما مِنَ المَعاني وهو تقديمُ الجارِّ والمجرور، والثّاني من البديعِ وهو رعايةُ الفاصلة(1).

فائدةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ مضارعًا:

عقابُ الاستهزاءِ شاملٌ لكلِّ مَنْ آثَرَ الاستهزاءَ على الإيمانِ إلى يومِ الدّين

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، لتصويرِ الحالةِ التي كان عليها الأقوامُ السّابقون، ولبيان بشاعةِ فِعلِهم وقُبحِه، كما أنَّ في صيغةِ المضارع تعريضًا بمَن هو مُستمرٌّ في الاستهزاءِ برسولِ اللّه ﷺ من المشركين، وبمَن يَستهزِئُ بالدُّعاةِ من أتباعِه إلى يومِ الدّين، فيَدخُلُ في ذلك كلُّ مَن آثَرَ الاستهزاءَ على الإيمان.

بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ الكريمةِ:

لَمّا جاء قولُه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 9.

الرُّسلُ أبعدُ الخَلقِ من الهُزءِ حالًا ومقالًا وفعالًا

كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على معنى التّنديمِ والتَّحسّرِ من استهزاءِ الكافرينَ بالمُرسَلين، وعلى معنى التّعجيبِ من هذا الفعلِ القبيح؛ أفاد بلازمِه على طريقِ الكنايةِ أنَّ الرُّسُلَ عليهِمُ الصّلاةُ والسَّلامُ أبعدُ الخَلقِ من الهُزءِ حالًا ومقالًا وفعالًا.

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾ [يس: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هلاكُ المُكذِّبين واقعٌ في اللّاحقينَ كما هوَ في السّابقينَ

لمّا بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ هلاكَ المُكذِّبين أمرٌ لا بدَّ منه؛ ناسَبَ الانتقالُ إلى تخويفِ المشركين مثلَ عذابِ الأمم الخاليةِ في الدُّنيا ليَعتَبِروا فقال: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، وذلك بقصدِ الارتداعِ والاعتبارِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: (قرن) أصلٌ يدلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1]، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئَيْنِ أو أشياءَ في معنًى من المعاني[2]، وكَثُرَ إطْلاقُ القَرْنِ على الأُمَّةِ الّتي دامتْ طويلًا، كما فُسِّرَ بالأُمَّةِ البائِدَةِ، ويُطْلَقُ أيضًا على الجيلِ من الأُمَّةِ، ومنهُ حديثُ: خيرُ القُرونِ قَرْني ثمَّ الَّذينَ يلونَهُم ثمَّ الَّذينَ يَلونَهُم[3]، كما يُطلَقُ ويُرادُ به الحِقبةُ مِن الزَّمانِ، فقيل: أَربعونَ سَنَةً، وقيل: مائةٌ، وسُمّي القرنُ قرنًا؛ لِاقْتِرانِ أَهلِه فيه واجتماعِهم[4]، والمُرادُ بالقُرون في الآيةِ: الأجيالُ منَ النّاس.

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّظَرُ في عواقبِ الكافرين عِبرةُ المُتفكِّرين

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ حالَ الأممِ السّابقةِ بعدَ التّكذيبِ من نُزولِ الهلاكِ فيهِم، مُنبِّهةً كفّارَ مكَّة ليعتَبِروا قائلةً: ألم يُخبَروا ويَعتَبِروا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).
(2) الرّاغب، المُفردات: (قرن).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 137.
(4) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (قرن).

بِمَنْ أهلكَ اللّهُ قبلَهُم من المُكذِّبين للرُّسُل كعادٍ وثمودٍ، بسَبَبِ تَكذيبِهم أو استِهزائِهم برُسُلِ اللّهِ: كيف لم تكُنْ لهم رَجعةٌ إليهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

عدَمُ الاعْتِبارِ من مصيرِ المُهلَكينَ طريقُ الانجرارِ إلى مصيرِهِم

فُصِلَتْ جُملةُ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ عمّا قبلَها لكَمالِ الاتِّصالِ؛ فهي بيانٌ لِما قَبلَها، فلمّا قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كان في الجملةِ إجمالٌ لعاقبةِ الاستهزاءِ بالرّسولِ، فجاءت جُملةُ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ لبيانِ أنَّ عاقبةَ ذلك الاستهزاءِ كانت هلاكَ المُستهزئِينَ، فَعَدَمُ اعْتِبارِ كُلِّ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رَسولَها بعاقِبَةِ المُكَذِّبينَ قَبْلَها يُثيرُ الحَسْرَةَ عَلَيْها وعَلَى نُظَرائِها كَما أَثارَها اسْتِهْزاؤُهُمْ بِالرَّسولِ وقِلَّةُ التَّبَصُّرِ في دَعْوَتِهِ ونِذارَتِهِ ودَلائِلِ صِدْقِهِ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ وغرضُه:

التّعجيبُ من حالِ الكفّارِ وتوبيخُهم على عدمِ الاعتبارِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَحتَمِل أَنْ يَكونَ إنْكاريًّا، بأَنْ نُزِّلَت غَفْلَتُهُمْ عَنْ إهْلاكِ القُرونِ مَنْزِلَةَ عَدَمِ العِلْمِ، فَأُنْكِرَ عَلَيْهِمْ عَدَمُ العِلْمِ بِذَلِكَ، وهوَ أَمْرٌ مَعْلومٌ مَشْهورٌ، ولمّا كان الإنكارُ على معنى النّفي؛ أفاد الاستفهامُ أنّهم لم يَعتبِروا بمَن أهلكَ اللّهُ مِن قَبلِهم من القرونِ فيخافوا أن يُعجَّلَ لهم في الدُّنيا مثلُ الَّذي عُجّل لغيرِهم ممَّن أُهلِكَ، وأنَّهم مع ذلك لا يعودون إلى الدُّنيا أبدًا[3]، ويَحتَمِل كَوْنَ الِاسْتِفْهامِ تَقْريريًّا؛ لأنَّ همزةَ الاستفهامِ لمّا دخلت على (لَمْ) نفَتِ النّفيَ الَّذي دلَّت عليه (لَمْ)، فكان نفيُ النّفيِ إثباتًا، وبُنِيَ التَّقْريرُ عَلَى نَفْيِ علمِهم بإهلاكِ القُرونِ قبلَهُم اسْتِقْصاءً لِمَعْذِرَتِهِمْ حَتَّى لا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 574، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 5، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 695.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 9.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 476.

يَسَعُهُمْ إلّا الإقْرارُ بِأنَّهم عالِمونَ، فَيَكونُ إقْرارُهُمْ أشَدَّ لُزومًا لَهُمْ، لِأنَّهُمُ اسْتَفْهَموا عَلَى النَّفْيِ فَكانَ يَسَعُهُمْ أنْ يَنْفوا ذَلِكَ[1]، أو يكونُ التّقريرُ بالعِلمِ الحاصلِ عندَهم فعلًا بكثرةِ مَنْ هلَكَ من القُرون قبلَهم، وليس المقصودُ إثباتَ عِلمِهم بهذهِ الحقيقةِ، ولكنْ لوَضعِها مَوضِعَ الاعتبارِ والاتّعاظِ فيؤمنوا ولا يُكذّبوا ولا يَستهزئوا بالرّسول ﷺ، وعلى كِلا الوجهَيْنِ يتولَّدُ من الاستفهامِ المجازيِّ معنى التّعجيبِ من حالِهم، وتوبيخِهم على عدمِ الاعتبارِ بإهلاكِ الكثيرينَ قبلَهم من القُرونِ.

نوعُ الرُّؤيةِ ودلالتُها في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾:

دعوةُ القرآنِ المجيدِ إلى النّظرِ العقليِّ والتّبصُّرِ للاعتبارِ والاتّعاظِ

الرّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ علميَّةٌ وليست بصريَّةً، سواءٌ أكانَ الاستفهامُ إنكاريًّا أم تقريريًّا، لِأنَّ إهْلاكَ القُرونِ لَمْ يَكُنْ مَشْهودًا لِأُمَّةٍ جاءَتْ بَعْدَ الأُمَّةِ الَّتي أُهْلِكَتْ قَبْلَها[2]، وفائدةُ التّعبيرِ بالرّؤيةِ العِلميَّةِ أنّ المقامَ مقامُ نظرٍ وتبصُّرٍ بالقَلبِ والعقلِ، ليَعتَبِروا بإهلاكِ مَنْ قبلَهم فيترُكوا الاستهزاءَ والتّكذيبَ ويُؤمنوا باللّه وبرسولِه، وتَحتَمِل أن تكونَ بصريّةً باعتبارِ رؤيةِ آثارِ المُهلَكين.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في ﴿يَرَوۡاْ﴾:

الظّاهرُ عودةُ الضّميرِ إلى مُشرِكي العَربِ ويَحتمِلُ إلى العِبادِ

الظّاهرُ أنَّ الضّميرَ في ﴿يَرَوۡاْ﴾ عائِدٌ إلَى المكذِّبين من مُشركي العَربِ[3]، ويَحتَمِلُ أن يكونَ عائدًا إلى العِبادِ كَما يَقْتَضيه تَناسُقُ الضَّمائِرِ، والمُعادُ فيه عُمومٌ ادِّعائيٌّ، فَيَتَعَيَّنُ أَنْ تُخَصَّ من هذا العُمومِ أَوَّلُ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رَسولَها وهُمْ قَوْمُ نوحٍ؛ فَإنَّهُمْ لَمْ يَسْبِقْ قَبْلَهُمْ هَلاكُ أُمَّةٍ كَذَّبَتْ رَسولَها، فَهَذا مِنَ التَّخْصيصِ بِدَليلِ العَقْلِ، لِأنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَبۡلَهُم﴾ يُرْشِدُ بِالتَّأمُّلِ إلَى عَدَمِ شُمولِهِ أَوَّلَ أُمَّةٍ أُرْسِلَ إلَيْها

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 347، والقنوجيّ، فتح البيان: 11/ 288/، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 10.

(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 10.

(3) البروسويّ، روح البيان: 7/ 390، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 6.

وهُم قومُ نوحٍ عليه السلام[1]، وإن كان الضَّميرُ عائدًا إلى العباد عمومًا فيَدخُلُ فيهِ مُشرِكو مكَّةَ دخولًا أوَّليًّا.

معنى ﴿كَمۡ﴾ في ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ ودلالتُها:

تحذيرُ العبادِ وتنبيهُهم من إتيانِ العذابِ وهُم في غفلةٍ منه

﴿كَمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ خبريَّةٌ، وهي بمعنى الكثرةِ المُبهَمَة، جاءت لتُفيدَ عظمةَ الإهلاكِ لكثرةِ المُهلَكين الَّذين لا يَعلمونهم تخويفًا للسّامعينَ وترهيبًا لهم، والتَّقديرُ: (ألَمْ يَرَوْا كثيرًا أهلَكْنا قبلَهم مِن القُرون)، لتكونَ ﴿كَمۡ﴾ مفعولًا للفعلِ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، ووجهُ التّذكيرِ بكثرةِ المُهلَكينَ مَزيدُ اعتبارِ السّامعينَ بحالِ السّابقينَ، في أنّهم سيَصيرون إلى مِثلِ حالِهم إن فعلوا مثلَ فعلِهم، فلينظروا لأنفسِهم، وليَحذَروا أن يأتيَهم العذابُ وهم في غفلةٍ عمّا يُرادُ بهم[2].

فائدةُ الإسنادِ في ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ إلى نونِ العَظَمَة:

جاء فعلُ الإهلاكِ مُسنَدًا إلى نونِ العَظَمَة ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، للإشعارِ بأنَّ إهلاكَ الأمم أمرٌ عظيمٌ، ولا يَقدِرُ عليه إلّا العظيمُ الواحدُ الأحَدُ، والمعنى: ألَمْ يَرَوا كم أهلَكْنا على ما لَنا من العظَمة[3].

نكتةُ حذفِ الجارِّ قبلَ الظَّرفِ ﴿قَبۡلَهُم﴾:

إهلاكُ المُكذِّبينَ سُنّةٌ ماضيةٌ في الآخرينَ كما في الأوّلين

جاء الظّرفُ ﴿قَبۡلَهُم﴾ خاليًا من ذِكرِ الجارِّ، فلمْ يَقُلْ: (مِن قَبلِهم) كما في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ [الأنعام: 6]؛ وذلك لبيانِ أنَّ المُرادَ جميعُ الزّمانِ الَّذي تقدَّمَهُم مِن آدَمَ إلى زمانِهم، والمعنى: انظُروا جميعَ ما مضى من الزَّمان هل عُذِّبَ فيه قومٌ عذابَ الاستئصالِ إلّا بسببِ عصيانِ الرُّسل[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 9.
(2) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 189.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 118.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 118.

وعندَ ذِكْر (مِن) فإنَّه يُراد ابتداءُ الغاية؛ أيْ: ابتداءً مِن قَبلِهم، فآثَرَ العمومَ لبيانِ أنَّه سُنَّةٌ ماضيةٌ.

دلالةُ إضافةِ الظّرفِ إلى الضّميرِ في ﴿قَبۡلَهُم﴾:

أُضيفَ الظّرفُ إلى الضّميرِ العائدِ إلى المُشركينَ مِن أهلِ مكّةَ في قولِه: ﴿قَبۡلَهُم﴾، للإيماءِ إلى أنَّ مآلَ أمرِهم مثلُ مآلِ الَّذين قبلَهم في الإهلاكِ إنِ استَمرّوا على التّكذيبِ والاستهزاء.

فائدةُ القَيدِ ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾:

جاء القيدُ ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ ببيانِ وتفسيرِ الإبهامِ المُضمّنِ في ﴿كَمۡ﴾[1]، ليُفيدَ الجارُّ والمجرورُ بيانَ المُرادِ بالكثرةِ المُبهَمةِ الَّتي تدلُّ عليها ﴿كَمۡ﴾.

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾ بالجمعِ:

معرفةُ كثرةِ الهالِكينَ مَزيدُ تحذيرٍ وتنبيهٍ

عُبِّر بصيغةِ الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡقُرُونِ﴾، للإشعارِ بكثرتِها وشِدّتِها؛ أيْ: القرونِ الكثيرةِ الشَّديدةِ الضَّخمةِ[2]، والقَرنُ أهلُ كلِّ عصرٍ، سُمّوا بذلك لاقترانِهم في الوجودِ في زمنٍ واحدٍ، أو يُقالُ: هُم القومُ المُقتَرِنونَ في زمنٍ واحد[3]، ومِن شأنِ ذِكْرِ الكثرةِ بيانُ أنْ لا أحدَ يَنجو إذا نزَلَ بهِ ما نَزلَ بالجميعِ، فهي سُنَّةٌ ماضيةٌ، لا تَخُصُّ أحدًا دونَ آخَرَ.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾:

عَدَمُ الرُّجوعِ إلَى الأَهْلِ يَزيدُ المُكذِّبينَ حسرةً وندامةً

فُصِلت جملةُ ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ عن السّابقة لأنَّها من باب كمالِ الاتّصال، فهي بدلٌ من معنى جُملة ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾، وتَحتَملُ الجملةُ أن تكونَ بدلَ كلٍّ من كلٍّ؛ فإنَّ كونَهم غيرَ راجعين عبارةٌ عن إهلاكِهم، كما تَحتَملُ الجملةُ أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ[4]، والمعنى: أَلَمْ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 10.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 118.

(3) الرّاغب، المُفردات: (قرن).

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 13، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 39، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166.

يرَوا كثرةَ إهلاكِنا مَنْ قبلَهم كونَهم غيرَ راجعينَ إليهم، وفائِدَةُ هَذا البَدَلِ تَقْريرُ تَصْويرِ الإهْلاكِ لِزيادَةِ التَّخْويفِ، ولاسْتِحْضارِ تِلْكَ الصّورَةِ في الإهْلاكِ؛ أيْ: إهْلاكًا لا طَماعيَةَ مَعَه لرجوعٍ إلَى الدُّنْيا، فَإنَّ ما يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الإهْلاكُ مِنْ عَدَمِ الرُّجوعِ إلَى الأَهْلِ والأَحْبابِ مِمّا يَزيدُ الحَسْرَةَ اتِّضاحًا[1].

تعيينُ مَرْجعِ الضّميرِ في ﴿أَنَّهُمْ﴾:

يعودُ الضّميرُ في ﴿أَنَّهُمْ﴾ على ما أفادتْهُ ﴿كَمْ﴾ مِن القُرونِ الكثيرةِ، والمعنى: أنَّ الأُمَمَ المُهلَكَةَ مِن أهلِ كلِّ عصرٍ لا يَرجِعون بعدَ إهلاكِهم ومَماتِهم إلى العِبادِ الَّذين في الدّنيا، كما يعودُ الضّمير في ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على العبادِ عمومًا[2].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

تنبيهُ الغافِلينَ باستحالةِ الرُّجوعِ ردٌّ على القائلينَ بتناسُخِ الأرواحِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على فِعلِ الرُّجوعِ في قولِه تعالَى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾، لتنبيهِ السّامِعينَ مِن أهلِ الدّنيا إلى أنَّ المُهلَكينَ لا يَرجِعونَ إليهم، بل إلى اللّهِ تعالى، معَ الإيماءِ إلى التَّذكيرِ بأنَّهم سيَموتونَ ولن يَرجِعوا إلى هذه الدُّنيا، كما أنَّ فيه رعايةً للفاصلةِ، معَ ما فيهِ من الرَّدِّ على القائلينَ بتناسُخِ الأرواحِ، وعَودتِها بأشكالٍ وأبدانٍ مُتغايرةٍ.

فائدةُ استعمالِ ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾:

تثبيتُ استحالةِ الرُّجوعِ وبيانُ العجزِ من ثوابتِ النِّذارةِ

جاء استعمالُ ﴿لَا﴾ النّافيةِ في قولِه: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ دونَ (لن)، لإفادةِ أنَّ النّفيَ لدَفعِ إثباتِ الرُّجوعِ دونَ لَحظِ الرّدِّ على أحدٍ، ولو قال: (لن) لَتُوُهِّمَ أنَّ هناكَ مَن زَعَمَ رُجوعَهم، مع إفادةِ النّفي لجميعِ الزّمانِ، والفِعلُ المُضارعُ أفادَ نفيَ استمرارِ عدمِ رجوعِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 475، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 13، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 11.

الهالكينَ إلى أهلِ الدُّنيا، وتجدُّدَ عدمِ الرّجوعِ في كلِّ عصرٍ[1]، وهو أقوى في تثبيتِ الاستحالةِ، وأرجحُ في بيانِ العَجزِ.

دلالةُ جُملةِ التّذييلِ في الآيةِ:

تكاثُفُ معاني الهلاكِ مقصودُ السّياقِ في الخِطابِ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ تذييلٌ، وهو وإنْ كانَ بدَلًا ممّا قبلَه، والبدلُ تابعٌ للمُبدَل منه، لكنَّ فيه معنى التّذييل، ولا سيَّما إن كانَ الضّميرُ في ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ عائدًا إلى العبادِ كما تقدَّم، وكذلك إن كان عائدًا إلى أهل مكّة، ليُفيدَ الكلامُ العمومَ بدلالة أنَّ الخطابَ يعُمُّ جميعَ المُكلَّفين، ليُفيدَ قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أنَّ الموتى لا يَرجِعون إلى أهلِ الدّنيا، ويُفيدَ بلازمِه عدمَ رجوعِهم إلى الدّنيا.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 126.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾ [يس: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإهلاكُ بدايةُ العقابِ لا الإفلاتِ مِن الحسابِ

لَمّا بَيَّنَتِ الآيةُ السّابقةُ الإهْلاكَ؛ ناسَبَ بيانُ أَنَّهُ لَيسَ مَنْ أَهْلَكَهُ اللَّهُ تَرَكَهُ، بَلْ بَعْدَهُ جَمْعٌ وحِسابٌ وحَبْسٌ وعِقابٌ، ولَوْ أَنَّ مَنْ أُهْلِكَ تُرِكَ لَكانَ المَوْتُ راحَةً[1]، ولمّا كان كثيرٌ من أهلِ الجهلِ وذوي الحَمِيَّةِ والأَنَفَةِ لا يُبالونَ بالهَلاكِ في مُتابَعةِ الهَوى اعتِمادًا على أنَّ مَوتةً واحدةً في لحظةٍ يسيرةٍ أهونُ من حَملِ النَّفْسِ على ما لا تُريدُ، فيكونُ لَهُم في كلِّ حينٍ مَوتاتٌ، أخبَرَ تعالى أنَّ الأمرَ غَيرُ مُنقَضٍ بالهلاك الدّنيويِّ، بل هناكَ مِن الخِزيِ والذُّلِّ والهَوانِ والعُقوبةِ والإيلامِ ما لا يَنقَضي أبدًا فقالَ تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُحۡضَرُونَ﴾: (حضر) أصلٌ يدلُّ على إيرادِ الشَّيءِ ووُرودِه ومُشاهدتِه[3]، والحُضورُ نَقيضُ المَغيبِ والغَيْبةِ، وأحضَرَ الشَّيءَ، وأحضَرَه إيّاه[4]، والإحضارُ: جَعْلُ الشَّيءِ حاضرًا، و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ في الآيةِ بمَعنى الإحضارِ والمُشاهَدةِ لأَجْلِ الحسابِ والجزاءِ[5].

المَعنى الإجماليُّ:

وجوبُ الاستعدادِ ليوم المَعادِ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى بأنَّ كُلَّ الأمَمِ الَّتي أُهلِكَت بالعذابِ والَّتي لم تُهلَكْ ستُحضَرُ يومَ القيامةِ عندَ اللّهِ مُجتَمِعينَ للحِسابِ والجَزاءِ[6]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حضر).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 366، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 12، و30/ 151.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 431، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271.

والإحضارُ جزاءٌ وعقابٌ على ما صدرَ مِن العِبادِ في الدُّنيا، فإنَّهم سيَجتمِعون في صعيدٍ واحدٍ، لينالوا الجزاءَ العادِلَ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بين الجُملِ:

مُقتضَى العطفِ جـمـعُ المـعـاني وتـكـمـيـلُ الدّلالاتِ

تَحتمِلُ جُملةُ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أن تكونَ معطوفةً على جملةِ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، وهي على ذلك من عَطْفِ الحِكايَةِ عَلَى الحِكايَةِ، كَأَنَّهُ يَقولُ بَيَّنْتُ لَكَ ما ذَكَرْتُ، وأُبَيِّنُ أَنَّ كُلًّا لَدَيْنا مُحْضَرونَ[1]، وصحَّ عطفُ الجُملةِ الخبريَّةِ على الإنشائيّة؛ لِأَنَّ المعطوفَ عليه إنشاءٌ لفظًا خبرٌ في المعنى؛ فالاستفهامُ على معنى التّقريرِ أو الإنكارِ، فيكونُ الكلامُ من عطفِ الخَبَرِ على الخَبَرِ.

وتَحتمِلُ أن تكونَ جُملةُ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾، فهي واقعةٌ موقعَ الاحْتراسِ مِنْ تَوَهُّمِ المُخاطَبينَ بِالقُرْآنِ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ مُؤَيِّدٌ اعْتِقادَهُمُ انْتِفاءَ البَعْثِ[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآية:

تـنـوّعُ الألـفـاظِ والأداءِ في تقريرِ المعنى الواحِدِ

اختلَفَ القُرّاءُ في قراءة ﴿لَّمَّا﴾، فقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ وعاصمٌ وابن جمّاز بتشديدِ الميم، وقرأ الآخرونَ بالتَّخفيفِ: ﴿لَّمَا﴾، وتَوجيهُ التّشديدِ أن تكونَ (إنْ) نافيةً و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى (إلّا) الَّتي لِلاستثناء، وتقديرُ الكلام: (وإنْ كلٌّ إلّا جميعٌ لدَينا مُحضَرونَ)، والمعنى: (وما كلُّ الخلائقِ إلّا لمُجتمِعونَ مُحضَرونَ لدَينا)، وتوجيهُ قراءةِ التّخفيفِ أن تكونَ (إنْ) مُخفَّفةً من الثّقيلةِ للتّوكيدِ، وتكونَ اللّامُ في ﴿لَّمَا﴾ هي الفارِقةَ بينَ (إنْ) المُخفَّفةِ والنّافيةِ، لِتُفيدَ تقريرَ التّوكيدِ، و(ما)

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 11.

تقويةً للتّوكيدِ، وتقديرُ الكلامِ: (وإنْ كلٌّ لجميعٌ لدَينا مُحضَرون)؛ والمعنى: وإنّه كلُّ الخلائقِ لَمُجتمِعونَ مُحضَرون لدَينا[1]، والقِراءتانِ مُتقارِبتان في تقريرِ المعنى الواحدِ.

نوعُ القصرِ وبلاغتُهُ في ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾:

قلبُ اعتقادِ الكافرينَ في نفي البَعثِ يومَ الدّينِ

على قراءةِ التّشديدِ لأداةِ ﴿لَّمَّا﴾ تكونُ الجُملةُ قصرًا، والتّقديرُ: (وَما كلٌّ إلّا جَميعٌ لدَينا مُحضَرونَ)، ونكتةُ مجيءِ الكلامِ على طريقِ القَصْرِ الرّدُّ على الكافرينَ في اعتقادِهم انتفاءَ البعثِ يومَ القيامةِ، وللإيذانِ بأنَّهم مُصِرّونَ على خَطَئِهم في هذا الاعتقادِ، ففيهِ توبيخٌ شديدٌ لهُم، فيكونُ القَصرُ مِن قَصرِ القلبِ، لقَلبِ اعتقادِهم في مَآلِهم.

فائدةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في الآيةِ:

تتابُعُ التّأكيدِ يُؤذِنُ بأنَّ الخَبرَ إنكاريٌّ

على قراءةِ التّخفيفِ في (لَما) تتابعتْ ثلاثةُ توكيداتٍ، هي (إنْ) المخفَّفةُ مِن الثّقيلة، واللّامُ الفارقةُ بينَ (إنْ) المُخفَّفةِ والنّافيةِ في قولِه: (لَما) و(ما) المُقوّيةُ للتّأكيدِ، ليَكونَ الكلامُ على طريقِ الخَبرِ الإنكاريّ، لِأنَّه يتضمّنُ ردًّا على المُنكِرينَ للبعثِ، فناسَبَ تقويةَ الكلامِ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ.

فائدةُ استعمالِ أداةِ العمومِ ﴿كُلٌّ﴾:

الإحضارُ مُحيطٌ بِكلِّ العبادِ فلا ينفَلِتُ مِنهُم أحدٌ

لمّا كانت ﴿كُلٌّ﴾ من ألفاظِ العمومِ الذي يُفيدُ عمومَ الأفرادِ، وكان التّنوينُ عِوضًا عن المُضافِ إليهِ الَّذي هو بتقديرِ (كلُّ القُرونِ) بِما دلَّ عليهِ السّياقُ؛ أفادَ ﴿كُلٌّ﴾ استيعابَ الأفرادِ، ليُفيدَ أنَّ الإحْضارَ عندَ اللهِ تعالى مُحيطٌ بِكلِّ العبادِ بِحَيْثُ لا يَنْفَلِتُ فردٌ مِنْهُمْ عن الحُكمِ[2]، فهو حُكمٌ استقصائيٌّ لا يتخلّفُ أحدٌ عن الحضورِ، ففيه إشعارٌ بعجزِ العبادِ مِن النَّجاةِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 541، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 304، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 355، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 291.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 11.

نكتةُ اجتماعِ ألفاظِ العمومِ في سياقٍ واحدٍ:

استغراقُ الأفرادِ في مكانٍ وزمانٍ واحدٍ من أعجبِ ما يدلُّ على القدرةِ الكاملةِ

اجتمعَ لفظُ ﴿جَمِيعٌ﴾ مع لفظِ ﴿كُلٌّ﴾ في سياقٍ واحدٍ، مع اشتراكِهما فيما دلّا عليه من العموم، وذلكَ لاختصاصِ ﴿كُلٌّ﴾ بمعنى الإحاطةِ والشُّمولِ، واختصاصِ ﴿جَمِيعٌ﴾ بمعنى الاجتماعِ، ونكتةُ مجيءِ اللَّفظيْن في هذا السّياقِ الدّلالةُ على استغراقِ جميعِ أفرادِ الخَلقِ في زمانٍ واحدٍ وصعيدٍ واحد، وهذا أعجبُ ما في الأمرِ، أن يَجتمِعَ الخلقُ جميعًا يومَ القيامةِ مِن قُرونٍ مُتفاوِتةٍ ومُتباعِدةٍ في الزّمانِ والمكانِ والأحوالِ، فَلَيْسَتْ إِحْدَى الكَلِمَتَيْنِ بِمُغْنِيَةٍ عَنْ ذِكْرِ الأُخْرَى؛ أَلا تَرَى أَنَّهُ لَوْقيلَ: (وَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ)، لَما كانَ تَنافٍ بَيْنَ (أَكْثَرِهِمْ) وبَيْنَ (جَميعِهِمْ)؛ أَيْ: أَكْثَرُهُمْ يُحْضَرُ مُجْتَمِعينَ، فهكذا إذا قيل: (كلُّهم مُجتمِعونَ مُحضَرونَ)[1].

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿لَّدَيْنَا﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ حضورَ العبادِ في حُكمِ الحاصِلِ الآنَ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ (لَدَى) دونَ (عِندَ)، فلَمْ يَقُلْ: (وإن كلٌّ لمّا جميعٌ عندَنا مُحضَرونَ)؛ لأنَّ (لدى) لا تُستعمَلُ إلّا للحاضِرِ القريبِ، وأمّا (عندَ) فتُستعمَلُ لِما يكونُ عندَ الشّيءِ سواءٌ أكانَ قريبًا أم بعيدًا، فيُقالُ: عِندي مالٌ، وإن كانَ غائبًا، فَلا تقولُ: لديَّ مالٌ، إلّا إذا كانَ حاضرًا[2]، فأفادَ استعمالُ (لَدَى) الإشارةَ إلى أنَّ اجتماعَ العبادِ يومَ القيامةِ بحُكمِ الحاصِلِ في هذا الوقتِ.

غرضُ تقديمِ الظّرفِ ﴿لَّدَيْنَا﴾:

الاهـتـمـامُ بـهـولِ المَحْشَرِ بالتَّصريحِ بمَن يـكـونُ لـديـهِ المَحشَرُ

أفادَ تقديمُ الظّرفِ ﴿لَّدَيْنَا﴾ على عاملِه ﴿مُحۡضَرُونَ﴾[3] الاهتمامَ والعنايةَ بالمُقدَّم، وذلك للتّنبيهِ إلى هَولِ المَحْشَرِ وعَظَمَةِ مَنْ يُحشَرُ لَديهِ، كما أفادَ التَّقديمُ التّخصيصَ، والمعنى: (لدَينا وليسَ لدى

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 63، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 11.

(2) ابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 209.

(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 9/ 265، وابن عادل، اللُّباب: 16/ 208.

غيرِنا يكونُ حشرُ النّاسِ كلِّهم مُجتمِعينَ مُحضَرينَ)، وذهَبَ بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ ﴿لَّدَيۡنَا﴾ ظَرفٌ لـ﴿جَمِيعٞ﴾[1]، والمعنى: مُجتمِعونَ لدَينا، ففيه تخويفٌ وترهيبٌ كذلك.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿لَّدَيۡنَا﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ:

هـولُ الموقـفِ في قلوبِ المشرِكينَ عـظـيـمُـهُ في صُدورِ المؤمنينَ

أُضيفَ الظَّرف ﴿لَّدَيۡنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ للإشعارِ بأنَّهُ لا يَقدِرُ على جمعِ العبادِ كلِّهم مُجتمِعينَ مُحضَرينَ إلّا الإلهُ المَلِكُ الواحدُ الأحدُ، وبأنَّ هذا الجَمعَ مِن مُقتضَى عَظَمَةِ اللّهِ ﷻ، وفي اللَّفظِ تخويفٌ للعبادِ من ذلكَ الموقِفِ المَهيبِ، فهو لدَى اللّهِ تعالى، فمَعَ شديدِ هولِهِ في قلوبِ المُشرِكينَ، إلّا أنَّه عظيمٌ في صُدورِ المُؤمِنينَ.

نكتةُ التّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعولِ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المَبنيِّ للمَفعولِ في قولِه تعالى: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾؛ لِأنَّه ليسَ المقصودُ في السّياقِ بيانُ الفاعلِ بقَدرِ ما هوَ المَقصودُ بيانُ حُضورِ العبادِ واجتماعِهِم لدى اللّهِ تعالى، وتَصويرُ حالةِ حُضورِهم يومَ القيامةِ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾:

المُهلَكُ لا يُـتـرَكُ هَـمَـلًا؛ وإنّـمـا يُؤخَّرُ إلى أجَلٍ

لفظُ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ إمّا أن يكونَ خبرًا ثانيًا للمُبتدأ ﴿كُلّٞ﴾، كما يَحتَمِلُ أن يكونَ نعتًا للفظِ ﴿جَمِيعٞ﴾[2]، فيكونَ تقييدًا لمعنى الاجتماعِ، بمعنى أنَّ هذا الاجتماعَ على معنى الإحضارِ لدَينا، ليَدُلَّ على أنَّهم مُحضَرونَ للحسابِ والجزاءِ خيرًا كانَ أو شرًّا، وفي التّعبيرِ بلفظِ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ إشعارٌ بأنَّ المُهلَكَ بالعذابِ أو بأيِّ أمرٍ آخَرَ لا يُترَكُ.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 271، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 127، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 12.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾ [يس: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ البعثِ إلى ذِكْرِ دليلِه من عالَمِ الشُّاهَدةِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ مَصيرَ البشَريّةِ يومَ القيامةِ مِن الإحضارِ للحسابِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ وقد أنكرَ المُشرِكونَ البعثَ والجزاءَ بعدَ المماتِ؛ ناسَبَ الانتقالُ إلى إثباتِ دليل البعثِ ممّا يُشاهدُهُ النّاسُ فقالَ تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾؛ فهو انتقالٌ من ذِكْرِ البعثِ في عالَمِ الغيبِ إلى ذكرِ دليله مِن عالَمِ الشَّهادةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ﴾: (موت) أصلٌ يدلُّ على ذَهابِ القوَّةِ من الشَّيءِ[1]، والميتُ: بِتَخْفيفِ الياءِ وتَشْديدِها: هو الَّذي فارَقَ الحَياةَ، ويَسْتَوي فيه الذَّكَرُ والأُنْثَى، يُقالُ: ماتَ يَموتُ مَوْتًا، فهو مَيِّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، ومَوْتَى، ومَيِّتون، ومَيْتون، ويُطلَق على مَن في حُكْمِ المَيِّتِ وليس به[2]، والمُرادُ بموتِ الأرضِ: جفافُها ويُبْسُها، لخُلوِّها من حياة النَّباتِ فيها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أعظمُ الأدلّةِ ما ملأ العيونَ وأشبعَ البطونَ

يَذكُرُ الحقُّ ﷻ الأدلَّةَ الدّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقدرتِه؛ فيقولُ: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لكفّارِ قريشٍ دالَّةٌ على وحدانيَّتِنا وكَمالِ قُدرتِنا على بَعثِ مَن مات وإحيائِه وإعادتِه بعدَ فَنائِه، كهيئتِه قبلَ مماتِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 13.

هي إحياؤُنا الأرضَ الهامِدةَ الَّتي لا نباتَ فيها بإنزالِنا الماءَ عليها، فتَهتزُّ وتربو وتُنبِتُ نباتًا مُختلِفًا ألوانُهُ وأشكالُهُ، وتُخرِجُ حَبًّا هو قوتٌ وغذاءٌ لكُم ولأنعامِكُم، وبهِ قِوامُ حياتِكُم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ القصّةِ على القصّةِ:

أرسَخُ الكلامِ ما بُيِّنَ بعدَ إبهامٍ وفُصِّلَ بعدَ إجمالٍ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ وهو من بابِ عَطفِ القصَّةِ على القصَّةِ[2]؛ فَإِنَّهُ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا لِحالِ إعْراضِهِمْ وتَكْذيبِهِم الرَّسولَ ﷺ وما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ تِلْكَ الحالُ مِنْ إشْراكٍ وإنْكارٍ لِلْبَعْثِ وأذًى له ﷺ وعاقِبَةِ ذَلِكَ كُلِّهِ، ثُمَّ أعقَبَ ذَلِك بالتّفصيلِ لِإبْطالِ ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الاعْتِقاداتُ مِنْ إنْكارِ البَعْثِ ومِنَ الإشْراكِ باللَّهِ[3].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَءَايَةٞ﴾ وتنكيرِه:

تفخيمُ دلائلِ الصِّدقِ لِما تَحويهِ مِن براهينِ الحقِّ

استعمَلَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿وَءَايَةٞ﴾ دونَ مُرادِفاتِها، لِلإشعارِ بأنَّ إحياءَ الأرضِ المَيتةِ وإخراجَ الحَبِّ لتحقيقِ غرَضِ استمرارِ النّوعِ الإنسانيِّ علامةٌ عظيمةٌ وآيةٌ ظاهرةٌ لأصحابِ العقولِ، فهي دليلٌ لا يَخفَى على مَنْ رعَى ذِهنَه بحُسنِ نظَرٍ، ونُكِّرتْ هذهِ اللّفظةُ للتّفخيمِ والتَّعظيمِ، فهي آيةٌ وأيُّ آيةٍ، فهي ليستْ مثلَ غيرِها من الآياتِ الظّاهرةِ في فخامتِها ووضوحِها، إذ هي آيةٌ باهرةٌ عظيمةٌ دالَّةٌ على صحَّةِ البعثِ والتّوحيدِ[4].

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 453، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 25، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 7.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 272.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 12.

(4) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 7/ 166، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 127.

نكتةُ تقديم ﴿وَءَايَةٌ﴾ بينَ الخبريَّة والابتداءِ:

الآيةُ المغفولُ عنها هي موضعُ العبرةِ وموطنُ المِنّةِ

لفظُ ﴿وَءَايَةٌ﴾ إمّا أن يكونَ خبرًا مُقدَّمًا على المبتدأ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾، وفائدةُ التَّقديمِ الاهتِمامُ بالمُقدَّم؛ للإشعارِ بعِظَمِ هذهِ الآيةِ وكونِها وحدَها تكفي في الاستِدلالِ على توحيدِ اللّهِ وعلى الحَشرِ بعدَ الموتِ، فالمَقصودُ إفادةُ أنَّ الآيةَ هي في كَونِ الأرضِ أُحيِيَتْ بعدَ موتٍ ممّا يُشاهِدُهُ النّاسُ، فهُم يَعرِفون الأرضَ الميتةَ الَّتي أحياها اللّهُ بالغيثِ والنّباتِ، لكنَّهم لا يُدرِكونَ كونَها آيةً[1]، وإمّا أن يكونَ لفظُ ﴿وَءَايَةٌ﴾ مُبْتَدَأً لِكَوْنِها قَدْ تَخَصَّصَتْ بالصِّفَةِ ﴿لَّهُمُ﴾، وما بَعْدَها ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ هو الخَبَر، أو جُملةُ ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ كلُّها هي الخَبر، وسببُ هذا التّوجيهِ هو أنَّ الأذهانَ متوجِّهةٌ إلى أنَّ آيةً دالَّةً على صحّةِ البعثِ مُتحقِّقَةٌ، أو على التّوحيدِ مُتحقِّقَةٌ، لكنَّ المُخاطَبينَ لا يعلَمونَ بخُصوصِها؛ أيِ الآيةُ هي الأرضُ المَوصوفةُ بالموتِ ثُمَّ بالإحياءِ[2].

دلالةُ التَّهكُّمِ من معنى اللّامِ في ﴿لَّهُمُ﴾:

اللّامُ الدّاخلةُ على ضميرِ الجَمعِ ﴿لَّهُمُ﴾ للاختصاصِ؛ أيْ: هي آيةٌ لهم ليَستدِلّوا بها على البعثِ لا للعَجْماواتِ والبهائِم، فإنَّها تُؤمِنُ باللّهِ وتُقِرُّ لهُ بالتّسبيحِ، ففيها تهكُّمٌ.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في ﴿لَّهُمُ﴾:

الاستدلالُ بإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها على الحَشرِ لعُمومِ العبادِ

الضَّميرُ في ﴿لَّهُمُ﴾ عائدٌ إلى كُفّارِ قُريشٍ ومَن يَجري مَجراهُم في إنكارِ البَعثِ والحَشرِ[3]، ويَحتمِلُ أن يعودَ على العبادِ جميعًا كما ذَكَرَه القونويُّ[4] بدَلالةِ العمومِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 34، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267، والعُكبريّ، التبيان: 2/ 1082، والسَّمين، الدُّرُّ المَصُون: 9/ 265، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 422.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 541، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 453.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 128.

﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾، ولِأنَّ الإنعامَ والانتفاعَ بإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها والاستدلالَ بهِ على الحَشرِ والتّوحيدِ هو لِعُمومِ العبادِ، ويَدخُلُ في عُمومِ الضّميرِ المُشرِكونَ ومَنْ يُنكِرُ الحَشْرَ دُخولًا أوّليًّا، بدلالةِ عمومِ السّياقِ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ عهديَّة؛ فهي الأرضُ التي يَسكنونَها ويأكُلونَ مِنها، فظُهورُ كونِها آيةً للمُخاطَبينَ أوضَحُ، وتَحتَمِلُ أن تكونَ للجِنسِ، بمَعنى جِنسِ الأرضِ، لإفادةِ العمومِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآيةِ:

أبدعُ الاستعاراتِ ما ازدَحَمتْ فيها صورُ البيانِ

شَبَّهَ النّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ بامرأةٍ وحذفَ المُشبَّه به، ورَمَزَ له بأحَدِ لوازِمِه وهو الموتُ، فإنَّ الأرضَ لا تَموتُ على سبيلِ الاستعارةِ المَكنيّة، كما أنّه شبّه خُمودَ الأرضِ وعدَمَ إنباتِها بمَوتِ الإنسانِ، على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيّة، لتشخيصِ المَشهَدِ المَرئيِّ، وليَكونَ دليلًا وتوطِئةً لذِكْرِ الإحياءِ المُستدَلِّ بهِ على البعثِ.

بلاغةُ الفصلِ في ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ وتنوّعُ أوجهِهِ:

إحياءُ الأرْضِ مَناطُ الاستدلالِ علَى إمْكانِ البَعْثِ

جاءتْ جُملةُ ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ مفصولةً لاحتمالِها الحالَ مِنَ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ وهيَ حالٌ مُقيَّدَةٌ لِما يدلُّ عليهِ الخبَرُ من معنى الآيةِ؛ أي: الأرضُ المَيتةُ حالَ إحيائِنا لها آيةٌ لهُم، وتَحتَمِلُ أن تكونَ خبرًا للأرضِ، وجملةُ ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ خبرًا لـ﴿وَءَايَةٌ﴾، فيكونَ مَجموعُ الأرضِ المَيتةِ وإحيائِها وما عُطِفَ على ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ آيةً لهم، ليُفيدَ زيادةً في التّنويعِ، لمُناسَبةِ التّفخيمِ، وتَحتَمِلُ كذلك أن تكونَ بيانًا وتفسيرًا لجُمْلَةِ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، لِبَيانِ موضعِ الآيَةِ فيها[1]، وتَحتَمِلُ أن تكونَ بَدَلَ اشْتِمالٍ مِنْ جُمْلَةِ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ فيكونَ مَجيءُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 14.

البَدَلِ مع المُبدَلِ منه لزيادةِ الإيضاحِ والبيانِ لمَوضعِ الآيةِ، كما تَحتَمِلُ أن تكونَ اسْتِئْنافًا بيانيًّا، كَأَنَّ سائِلًا سَأَلَ: كَيْفَ كانَتِ الأَرْضُ المَيتَةُ آيةً، فقال: ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾؛ أيْ: عن طريقِ إحيائِنا لها[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾:

إحياءُ الأرضِ نموُّ نباتِها وانتشارُ خيرِها

لفظُ الإحياءِ صفةٌ تَقتضي الحِسَّ والنموَّ والحركةَ، والمُرادُ أن تكونَ الأرضُ طريَّةً غضَّةً فيها قوّةُ نموِّ النّباتِ، فإحياؤُها بالغيثِ وخُروجِ النَّباتِ مِنْها مِنَ العُشْبِ والكَلَأ والزَّرْعِ، ولمّا كان موتُ الأرضِ بمعنى زوالِ القوّةِ النّاميةِ مُقدَّمًا والحياةُ طارئةً عليها، عبَّرَ بالميتةِ أوّلًا ثمَّ بالإحياءِ ثانيًا[2]، ولفظُ الإحياءِ استعارةٌ، حيثُ شبّهَ إنماءَ النّباتِ وإخراجَه من الأرضِ بالإحياءِ، ثمَّ صُرِّحَ بالمُشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ، وبلاغةُ الاستعارةِ في التّصريحِ بالإحياءِ الَّذي هو ظاهرةُ البعثِ بعدَ الموتِ عندَ المُشرِكينَ.

نكتةُ الإسنادِ إلى نونِ العَظَمةِ ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾:

التّنبيهُ على عظيمِ قدرةِ اللهِ تعالى في إحياءِ الأرضِ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ للإشعارِ بأنَّ إحياءَ الأرضِ المَيْتَةِ لا يَقدرُ عليه إلّا اللّهُ الواحدُ الأحدُ، وأنَّ إحياءَها بمُقتضَى عظمتِه وفضلِه سبحانه، ومِثْلُه إسنادُ الفعلِ في قولِه: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ فنبَّه تعالى على عظيمِ القدرةِ في الإحياءِ والإخراجِ وعلى عمومِ النّفعِ بهما بمَظهرِ العَظَمَةِ[3].

نكتةُ إسنادِ الإحياءِ إلى اللهِ سبحانه ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾:

الاستدلالُ على قدرةِ الإحياءِ بعدَ موتِ الأحياءِ

أُسنِدَ فعلُ الإحياءِ إلى نونِ العَظَمَةِ في قولِه تعالى: ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾، ولم يُسنَدْ إماتةَ الأرضِ إليهِ سبحانه؛ فجاءت وصفًا للأرضِ، مع أنَّ الأمرَ كلَّه للّهِ تعالى، وذلك للإشعارِ بأنَّ موتَ الأرضِ أمرٌ مُسلَّمٌ

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 64، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 12، والهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 24.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 127، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 13.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 123.

بِهِ عندَ المُنكِرينَ كمَوتِ البَشَرِ، وقد كان إنكارُ المشركين لقضيّةِ إحياءِ الموتى يومَ البعثِ، فجاءَ الإسنادُ لفعلِ الإحياءِ باعتبارِه موضعَ الإنكارِ، ففيه استدلالٌ على أنَّ الذي أحياها في الدُّنيا هو القادرُ على إحياءِ الموتى يومَ القيامةِ.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بالماضي في الآية:

الأمرُ المُحقَّقُ ليسَ كالمُرْتَقَبِ المُنتظَرِ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في الفعلَيْن ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ و﴿وَأَخۡرَجۡنَا﴾ للتّغليب، فغَلّبَ الماضيَ على المضارعِ لأنَّ المقامَ مقامُ استدلالٍ، وإنَّما يكونُ فيما قد وقَعَ وظَهرَ وتبيَّنَ للعقولِ، ويُحتَمَلُ أن يكونَ التّعبيرُ بصيغةِ الماضي لتنزيلِ مُنتَظَرِ الوقوعِ مَنزِلَةَ الواقِعِ[1]، تعميمًا للدّليلِ وللمُبالَغةِ فيهِ وفي الإنعام.

بديعُ الطِّباقِ في ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾:

بينَ لفظَي ﴿ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ و﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ طباقٌ، فإنَّ الموتَ يُقابِلُ الإحياءَ، ونكتَتُهُ إثارةُ المُتلقّي للمقارنةِ بين الحالتَيْن: حالةِ الأرضِ الميتة، وحالةِ إحياءِ اللّهِ تعالى لها.

بلاغةُ التَّرتيبِ بين الجُمَلِ المُتعاطفةِ:

تَسلسُلُ الاستدلالِ طريقُ الإيصالِ للحقائقِ الكبرى والمعتقداتِ العُظمى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ للعطفِ المُفيدِ للتّشريكِ في الحُكمِ، بمعنى أنَّ تمامَ الآيةِ ووضوحَها هو في إحياءِ اللّهِ الأرضَ المَيْتَةَ وإخراجِه سبحانه منها حَبًّا، وجاءَ ترتيبُ العطفِ بتقديمِ إحياءِ الأرضِ على الإخراجِ للإشعارِ بأنَّ المعطوفَ عليه وهو إحياءُ الأرضِ الميتةِ كان سببًا في المعطوفِ وهو إخراجُ الحَبِّ، ولمّا كان المعطوفُ - وهو إخراجُ الحَبِّ - سببًا في أكلِ النّاسِ وبقاءِ معيشتِهم ودوامِها كان المعطوفُ عليهِ هو السّببَ الأوّلَ لأكلِ النّاسِ وبقائِهم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ إحياءِ الأرضِ الذي به كانتِ الحياةُ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 129.

نكتةُ استعمالِ (مِنْ) في تقريبِ المعاني:

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ ابتدائيَّةٌ[1]؛ أي: ابتَدأ إخراجُ الحَبِّ من الأرضِ، ففيها تقريبٌ لصورةِ إحياءِ الموتى، فكما أخرجَ الحَبَّ فهو يُخرجُ الموتى.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهَا﴾:

قُدِّمَ ذِكْرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهَا﴾ على المفعولِ به في قولِه: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾، فلَمْ يَقُلْ: (وأخرجْنا حَبًّا منها)، لتَعظيمِ شأنِ المُقدَّمِ وهو إخراجُه تعالى الحَبَّ من الأرضِ الَّتي أحياها.

نكتةُ إفرادِ ﴿حَبّٗا﴾ وتنكيرِه:

تقريبُ الصّورةِ الغيبيّةِ اعتناءٌ بخطابِ العقلاءِ

أُفرِد لفظُ ﴿حَبّٗا﴾ للدَّلالةِ على جنسِ الحَبِّ، والدّالُّ على الجنسِ مُشعرٌ بالاختلافِ[2]، فكما أنَّ النّاس مُختلفون في صفاتِهم وأعمالِهم، فكذلك الحَبُّ، ولبيانِ أنَّ إخراجَ النّاسِ من قُبورِها سيأتي مرَّةً واحدةً، فأُفرِدَ للتَّنبيهِ على الصّورةِ الغيبيّةِ المُرادِ الاستدلالُ عليها، كما جاء لفظُ ﴿حَبّٗا﴾ نكرةً في سياقِ الاستدلالِ والامتنانِ لإفادةِ عموم الجنسِ والنَّوعِ[3]، والمعنى: أخرجْنا منها أنواعَ جنسِ الحَبِّ من الأطعمةِ، كالحِنْطَةِ والشَّعيرِ والأَرُزِّ والأقواتِ[4]، كما يُفيدُ التّنكيرُ تفخيمَ هذه النّعمةِ لعمومِ الانتفاعِ منها.

توجيهُ تخصيصِ الحَبِّ بالذِّكْرِ:

الحَبُّ يُشبِهُ عَجْبَ الذَّنَبِ في الحجمِ والنُّموِّ

ذُكِرَ إخراجُ الحَبِّ دونَ غيرِه من سائرِ الأصنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾، للتّنبيهِ على موضوعِ السّياقِ، فإنَّ الحَبَّ بَذرةٌ صغيرةٌ تُشبِهُ عَجْبَ الذَّنَبِ الذي يتشكّلُ منه الإنسانُ يومَ البعثِ، فشابَهَ الحَبُّ عَجْبَ الذّنَبِ من حيثُ الحجمُ والنّموُّ، كما جاءَ عن أبي هريرةَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 129.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267.
(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 239، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 8.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 356، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267.

رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «إنَّ في الإنسانِ عَظْمًا لا تأكلُه الأرضُ أبدًا، فيهِ يُركَّبُ يومَ القيامةِ، قالوا: أيُّ عَظمٍ هو؟ قال: عَجْبُ الذَّنَبِ»[1].

بديعُ الإدماجِ ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾:

الامتنانُ في سياقِ الاستدلالِ يُرسِّخ البيانَ

في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ إدماجٌ، وبيانُه أنَّ إخراجَ الحَبِّ مِن الأرضِ هو إخراجُه من نباتِها، فالحَبُّ جاءَ من الأرضِ بواسطةٍ، ففيه إدماجٌ لتكثيرِ الامتنانِ في ضمنِ الاستدلالِ، ولذلك فرَّعَ عليه ظهورَ المِنَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾[2].

نوعُ الفاءِ في ﴿فَمِنۡهُ﴾ ودلالتُها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ للتّرتيبِ والسّببيَّةِ؛ بمعنى أنَّ إخراجَ الحَبِّ مِن الأرضِ سببٌ في أكلِ النّاسِ منه[3]، أو للتّفريعِ[4]، فإنَّ الأكلَ فرعُ الإخراجِ.

نوعُ (مِنْ) في ﴿فَمِنۡهُ﴾ ودلالتُها:

الظّاهرُ أنَّ (مِن) للتّبعيضِ وتَحتمِلُ الابتداءَ والسَّببيَّةَ

(مِنْ) في قولِه: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ للتّبعيضِ، بمعنى أنَّ النّاسَ تأكلُ بعضَ الحَبِّ، وبعضُه تأكلُه الأنعامُ، وبعضُه يبقى في الأرضِ، ولو قيلَ: (فتأكلونه) لأفادَ أنَّ النّاسَ تأكلُ جميعَ الحَبِّ المُخرَجِ، والأمرُ ليس كذلك، ويُحتَمَلُ أن تكونَ (مِنْ) ابتدائيَّةً، ليكونَ الأكلُ منه عامًّا للأكلِ بنفسِه وبما يُتّخذُ منه من الخُبزِ وغيرِه[5]، كما يُحتمَلُ أن تكونَ (مِنْ) سببيَّة والضّميرُ في ﴿فَمِنۡهُ﴾ عائدٌ إلى المصدرِ المَفهومِ من الفعلِ ﴿وَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ والتّقديرُ: (بِسبَبِ هذا الإخراجِ يأكلونَ)[6].

---

(1) أخرجه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4814)، (4935)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2955).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 13.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 8.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 13.
(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 239، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 129، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 8.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 142، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 348.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في ﴿فَمِنۡهُ﴾:

يَرجِعُ الضّميرُ في ﴿فَمِنۡهُ﴾ إلى ﴿حَبّٗا﴾، وتكونُ (مِنْ) تبعيضيّةً أو ابتدائيَّةً، ويُحتَملُ أنْ يَرجِعَ إلى ﴿وَأَخۡرَجۡنَا﴾ و(مِنْ) سببيّةٌ؛ أيْ: بسببِ إخراجِنا الحَبَّ يأكلونَ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فَمِنۡهُ﴾:

الحبُّ أصلُ قوتِ البشريّةِ في ذاتِهِ ومآلِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: (فيأكلونَ منه)، للاهتمام بالمُقدَّم والعنايةِ به، وفيه من إيهام الحَصْرِ حتَّى كأنَّه لا مأكولَ غيرُه؛ لأنَّ الحَبَّ هو الشّيءُ الذي يتَعلَّقُ به مُعظمُ ما يُؤكَلُ ويُعاشُ به، ويقومُ بالارتزاقِ منه صَلاحُ الإنسِ، وإذا قلَّ جاءَ القَحطُ ووقَعَ الضُّرُّ، وإذا فُقِدَ جاء الهلاكُ ونزَلَ البلاءُ[1]، فالقَصرُ صَحيحٌ باعتبارِ الجُملة، إذ يَعيشُ عليه الإنسانُ والأنعامُ، والإنسانُ يعتَمِدُ في مَعيشَتِهِ على النَّباتِ والأنعام، وهو أصلٌ يُؤكَلُ لحظةَ خُروجِه مِن الأرضِ، ويُحفَظُ ليُقتاتَ عليهِ، كما أنَّ في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ رعايةً للفاصلةِ.

براعةُ الإيماءِ بمُفرَدةِ الأكلِ:

العقلُ المُنكِرُ للإحياءِ بعدَ الموتِ عليه أن يَخشَى مِن منعِ إحياءِ الحَبِّ بعدَ الموتِ

لمّا كان المقصودُ في الآيةِ هو إثباتَ البعثِ وتحقيقَ التّوحيدِ للمُشرِكينَ؛ كان لا بدَّ في الدّليلِ مِن أن يكونَ حِسّيًّا حقيقيًّا ظاهرًا، فعبَّرَ بـ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ للإيذانِ بأنَّه حبٌّ حقيقةً يَعلمونَ ذلكَ عِلمَ اليقينِ وعينَ اليقينِ وحقَّ اليقينِ، لا يَقدِرونَ على أنْ يدَّعوا أنَّ ذلك خيالٌ سِحريٌّ بوجهٍ[2]، مع الإشعارِ بحاجتِهم وضَعفِهم المُتجدِّدِ، ففيه تلميحٌ ودعوةٌ لتحريكِ القُلوبِ للخوفِ من إيقافِ الأرضِ عن إخراجِ نباتِها، فإنَّ مَن يُنكِرُ البعثَ بعدَ الموت، عليهِ أن يَقبَلَ فِكرةَ إيقافِ حياةِ الحَبِّ بعدَ الموتِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 15، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 239، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 129.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 124.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَأۡكُلُونَ﴾؛ لأنَّ الأكلَ بالنّسبةِ للإخراجِ مُستقبَلٌ، فهو امتنانٌ مِن اللّهِ تعالى على عبادِه بأنَّ أكْلَهم مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، وبهِ فعلَيهِم أنْ يشكُروا بتجديدِ الإيمانِ.

بلاغةُ الخبرِ في الاستدلالِ على البعثِ:

اتِّصالُ منافعِ السّماءِ بمنافعِ الأرضِ مع بُعْدِ ما بينَهما يدلُّ على أنَّ مُنْشِئَهُما واحدٌ

لمّا قالَ تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ كان فيه دلالةٌ ظاهرةٌ على البعثِ بعدَ الموتِ، فإحياءُ المَوتى ليس بأبعدَ من إحياءِ الأرضِ المَيْتةِ فيه، وفي قولِه: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ دلالةُ الوحدانيَّةِ للّهِ تعالى؛ لِأنَّه أَخرَجَ ما ذَكَر من النَّباتِ والجنّاتِ والأعنابِ والنخيلِ إلى آخِرِ ما ذَكَر من الأرضِ لمنافِعَ مِنَ السّماءِ تتّصِلُ بالأرضِ، فدلَّ اتِّصالُ منافعِ السَّماءِ بمَنافعِ الأرضِ معَ بُعْدِ ما بينَهما على أنَّ مُنْشِئَهما ومدبِّرَهما واحدٌ، إذْ لو كانا فِعلَ آلهةٍ متعدِّدةٍ لكانَ فيه تدافُعٌ وتمانُعٌ مِن فِعلِ ذَوي العَدَدِ من التّغالُبِ والتّدافُعِ والتّمانُعِ في العُرفِ، بأنْ يَمنَعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه في إخراجِ الحَبِّ وجَعْلِ الجنّاتِ وغيرِها مِن الآياتِ[1].

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 8/ 518.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعْنَٰبٖ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٣٥﴾ [يس: 34 - 35]

الانتقالُ بينَ أنواعِ نِعَمِ اللهِ تعالى في النّباتِ والأشجارِ

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لَمّا ذَكرتِ الآيةُ السّابقةُ الأرضَ باعتبارِ إحيائِها بعدَ موتِها، وذُكِرَ إخراجُ الحَبِّ الَّذي لا ساقَ له من الأرضِ للأَكْلِ؛ ناسَبَ إتْباعُ ذلكَ المِنَّةَ في غيرِه مِمّا له ساقٌ من الأشجارِ الكِبارِ والصِّغارِ ذاتِ الأقواتِ والفواكِه، فقالَ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعْنَٰبٖ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَفَجَّرْنَا﴾: (فجر) أصلٌ يدُلُّ على تفتُّح في الشَّيءِ[2]، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، يُقالُ: فَجَرْتُه فانْفَجَر، وفَجَّرْتُه فتَفَجَّرَ، ومنه: انْفَجَرَ الماءُ انْفِجارًا: تَفَتَّحَ[3]، والفُجْرَةُ: موضعُ تَفَتُّحِ الماءِ، والمُرادُ بـ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ في الآيةِ: المُبالَغةُ في الفَجْرِ، وهو الشَّقُّ باتِّساعٍ؛ أيْ: شقَقْنا في الأرضِ وأنْبَعْنا الماءَ مِنها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنوُّعُ مظاهرِ الامتنانِ لتقعَ في مَوقعِ الشُّكرانِ

بيَّنَ الحقُّ سبحانَه بعضَ النِّعَمِ الَّتي تَحمِلُها الأرضُ للنّاسِ، فذَكَرَ أنَّه جَعَلَ في الأرضِ - الَّتي كانت مَيِّتةً فأَحْياها - بَساتينَ من أشجارِ النَّخيلِ والأعنابِ، وشقَّ فيها من عُيونِ الماءِ ما يُنبِتُ الشَّجرَ، ويُخرِجُ الزَّهرَ ويُنضِجُ الثَّمرَ، ليأكُلوا مِمّا خلقَ اللهُ فيها من الثَّمرِ، ومِمّا عَمِلوه وصَنعوهُ بأيديهم[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 125.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فجر).

(3) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (فجر).

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 273، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 423، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 364.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بين الجُمَلِ:

من عاداتِ القرآنِ تتابعُ الاستدلالِ وإتمامُه

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ على جُملةِ: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ لاشتراكِهما في كونِهما جُملتَيْن خَبريّتَيْن، كما تَشترِكُ جُملتا العطفِ في الجِهةِ الجامِعةِ؛ لِأنَّهُما من تمامِ الاستدلالِ على البعثِ يومَ القيامةِ وعلى ظُهورِ نِعَمِ اللّهِ على العبادِ الَّتي تَقتضي الشُّكرَ.

نكتةُ ترتيبِ ذِكْرِ الجنّاتِ بعد الحَبِّ:

امتزاجُ الامتنانِ بالاستدلالِ كامتزاجِ الماءِ بالجنّاتِ

عُطِفَ ذِكْرُ الأشجارِ على ذِكْرِ الحَبِّ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، وفيه مُناسَبةٌ، وبيانُها أنَّ العنبَ يُقالُ لثمرةِ الكَرْمِ، ولشَجَرِ الكَرْمِ نفسِه[1]، ومُناسَبةُ الامتنانِ في مَعرِضِ الاستدلالِ على أمرِ الحشرِ بجَعْلِ الجنّاتِ من النّخيلِ والأعنابِ المُرادِ بها الأشجارُ والثّمراتُ من التّمرِ والعنبِ كما امتنَّ ﷻ بإخراجِ الحَبِّ الَّذي هو ثمرةٌ؛ إعظامًا للمنَّةِ لتَضمُّنِ ذِكْرِ الأشجارِ الامتنانَ بالثّمارِ وغيرِها من منافعِ تلك الأشجارِ أنفسِها بسائرِ أجزائِها للإنسانِ نفسِه بلا واسطةٍ - لا سيَّما النَّخيلُ - وأمّا ثمرةُ التَّنصيصِ على الأكلِ من ثمَرِ الأشجارِ من بينِ المنافعِ فظاهرةٌ؛ لأنَّ ثمرةَ هذهِ الأشجارِ هي المَقصِدُ الأوّلُ منها، وهذا بخلافِ الحُبوبِ فإنَّها ليستْ بهذهِ المَثابةِ؛ ولِذا غيَّرَ الأسلوبَ ولَمْ يُعامِلْ ثَمرَ ذلكَ مُعامَلَةَ الحُبوبِ[2]، وقد يُقالُ إنَّ المُرادَ من الأعنابِ الثّمرةُ وليسَ الشّجَرَ كما ذهبَ إليه بعضُ المُفسّرينَ[3]؛ فيكونُ ذِكْرُ النَّخيلِ دونَ التّمورِ عُدولًا عنِ المُطابَقةِ للحَبِّ والأعنابِ، ونكتةُ العدولِ عن ذِكْرِ ثمرةِ النّخيلِ هي اختصاصُ شجرِها بمَزيدِ

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (عنب).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 8.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267.

النَّفعِ وآثارِ الصُّنعِ؛ لأنَّ شجرَها يُنتفَع بخشبِه وجريدِه وسعفِه وطلعِه أو يدومُ ظلُّها ويُتّخَذُ منها عصًا وغيرُ ذلك، كما يُنتفَعُ بثمرِه، ولإفادةِ هذهِ النّكتةِ الأنيقةِ لم يُراعَ المُطابَقةُ للحَبِّ والأعنابِ[1].

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ الجَعْلِ:

مَن صَيَّر الأرضَ جنّاتٍ قادرٌ على جعلِ التّرابِ بَشَرًا

استعَمَلَ النّظمُ الكريمُ فِعلَ الجَعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، ومعَ الحَبِّ فِعلَ الإخراجِ، وذلك لأنَّ جَعْلَ الجنّاتِ من نخيلٍ وأعنابٍ في الأرضِ أعجبُ وأبقَى، وإنْ كانَ الإحْياءُ بِإنْباتِ الزَّرْعِ والكَلَأ أَوْضَحَ دَلالَةً لِأَنَّهُ سَرِيعُ الحُصولِ، كما أنَّ الجَعلَ فيهِ معنى التَّثبيتِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرّعد: 3] وقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: 31]، فناسَبَ اقترانُ الجَعلِ بذِكرِ شجَرِ النّخيلِ والأعنابِ، وأمّا الحَبُّ فيناسبُه الإخراجُ لأنّه ليس بشجرٍ، فهوفي داخلِ الأرضِ، ولا يُنتفَعُ منه إلّا بالإخراجِ، كما أنَّ الجَعلَ يُفيدُ حُصولَ الجنّات بعدَ أنْ لَمْ تَكُنْ، وهو دليلٌ آخَرُ على البعثِ؛ فإنَّ مَنْ جَعلَ الأرضَ الخاليةَ جنّاتٍ قادرٌ على جَعْلِ التّرابِ بَشَرًا.

دلالةُ حرفِ الظّرفيّةِ ﴿فِيهَا﴾:

استعَملَ النّظمُ حرفَ الظّرفيّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا﴾ لإفادةِ قوَّةِ رسوخِ شجرِ النّخيلِ والأعنابِ في الأرضِ، وأنّه لولا رسوخُها لَما أثمرَتْ.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في ﴿فِيهَا﴾:

الأرضُ تُخرجُ حَبَّها وشَجَرَها وبَشَرَها

يَرجِعُ الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ بما اتّصفَتْ به؛ أيْ: وجعلْنا في الأرضِ الّتي أحييناها والّتي أخرجْنا منها حَبًّا جنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ، ليُفيدَ ترتيبَ تهيئةِ الأرضِ للانتفاعِ ممّا فيها وتكميلِ صورةِ الاستدلالِ على الحشرِ.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 131.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَرى النِّعمةَ فيَغفُل عنها، ويرى الدّليلَ النّاصِعَ فلا يَفقَهُ مُرادَهُ، فشَأنُ التّقديمِ هَمزُ الفهيم.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وتنكيرِها:

الجنَّةُ هي كلُّ بستانٍ ذي شجَرٍ يَستُرُ بأشجارِهِ الأرضَ، وتُسمَّى الأشجارُ السّاترةُ الأرضَ المُظلَّلَةَ جنَّةً وإن لَم تكنْ بستانًا[1]، وجاء استعمالُ الجنّاتِ دونَ مُرادفاتِها في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ وسياقُ الكلامِ على إحياءِ الأرضِ بعدَ ذِكرِ إخراجِ الحَبِّ؛ لأنّ الإحياءَ بالجنّات أكثرُ طراوةً وأوفرُ بهجةً[2]، وأدوَمُ ظِلًّا، وأشرَحُ لنفسِ الإنسانِ صدرًا، ولأنَّ المقصودَ الإيماءُ بكثرةِ الخارجينَ مِن الأرضِ بذِكرِ كثرةِ الأشجارِ النّابتةِ في الأرضِ، وجاءَ لفظُ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ التّفخيمِ والتّنويعِ ولا سيَّما أنّ اللَّفظَ جاءَ جمعًا والكلامُ في مَعرِضِ الامتنانِ.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾:

حرفُ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ بيانيَّةٌ، لإفادةِ أنَّ الجنّاتِ هي مِن النّخيلِ والأعنابِ، وما يَلحَقُ بهما مِن مزروعاتٍ في واقعِ المُخاطَبين.

توجيهُ تخصيصِ النَّخيلِ والأعنابِ بالذِّكْرِ:

النَّخيلُ والأعنابُ فاكهةٌ وقوتٌ وجَمالُ منظرٍ وطولُ نفعٍ

خَصَّ النَّظمُ النّخيلَ والأعنابَ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، وذلكَ لأنَّ تَيْنِ الشّجرتَيْن كانتا مشهورَتَيْن في وقتِ التّنزيلِ وفي بساتينِ القَومِ، فإنَّ أكثرَ البساتينِ تُغرَسُ مِن الأعنابِ والنّخيلِ، ثُمَّ تُغرَس باقي الأشجارِ فيها تَبَعًا لها،

(1) الرّاغب، المُفردات: (جنن).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 129.

فخاطَبَهم بما هو موجودٌ أمامَ أعيُنِهم ومَشهودٌ في مَعيشتِهم، كما أنَّ النّخيلَ والأعنابَ مِمّا يُؤكَلُ تفكُّهًا وتَقوُّتًا بخلافِ باقي الثّمارِ، ولِأَنَّهُما أَعَمُّ نَفْعًا فَإِنَّها تُحمَلُ مِنَ البلادِ إِلَى الأَماكِنِ البَعيدَةِ، فيكونُ بيانُ الجنّاتِ بالنّخيلِ والأعنابِ لكونِهما مِن قبيلِ الفردِ الأكمَلِ لا للتّخصيصِ[1]، فالمَقْصودُ في الآيةِ ذِكْرُ صِفاتِ الأَرْضِ فاخْتارَ مِنْها الأَلَذَّ الأَنْفَعَ ولا سيَّما وقتَ نزولِ القرآنِ ولخُصوصيَّةِ المُخاطَبينَ[2].

غرضُ جمعِ (النّخيلِ) و(الأعنابِ):

كـثرةُ الأنـواعِ وتـعـدُّدُ المنافعِ وتـنـوّعُ الأشكالِ نِعَمٌ لا تُحصَى

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ في لفظَيْ ﴿نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾؛ لأنَّ المُرادَ الأنواعُ؛ أيْ: أنواعُ النّخيلِ وأنواعُ الأعنابِ، وأمّا الحَبُّ فلَمْ يُجمَعْ لِأنَّ المُرادَ بِهِ الجنسُ كما تقدَّم، والدّالُّ على الجنسِ مُشعِرٌ بالاختلافِ ولا كذلكَ الدّالُّ على الأنواعِ، كما أنَّ الحَبَّ غرضُه واحدٌ وهو قِوامُ البدَنِ، والغرَضُ من النّخيلِ والأعنابِ التّلذُّذُ، ويحصُلُ بالتّنوّعِ الدّالِّ عليه بالجَمعِ المُفيدِ للتّعدُّدِ، إذِ التّلذُّذُ الحاصِلُ مِن أحَدِ النّوعَيْنِ مُغايِرٌ للتّلذّذِ الحاصلِ مِن النّوعِ الآخَرِ[3].

نكتةُ تقديمِ النّخيلِ على الأعنابِ:

النخيلُ أشـرفُ أشـجـارًا وأطـولُ أعـمـارًا وأطـيبُ ثمارًا

قُدِّم ذِكْرُ النّخيلِ على الأعنابِ في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، لشرفِ النَّخيلِ عندَ العرَبِ، ولِأنَّ الجَنّةَ لا يُقالُ لها جنّةٌ عندَ كثيرٍ من العرَبِ إلّا إذا كان النّخيلُ فيها، ولكثرةِ نفعِها، ولأنَّها أطولُ أعمارًا وأشجارًا، وأغزرُ إنتاجًا ونفعًا، وألطفُ زينةً ومَنظرًا.

غرضُ عطفِ السَّببِ على النَّتيجةِ:

مَنْ عَـرَفَ العلّةَ المُـبـقـيـةَ فَـهِـمَ سـبـبَ الـثّـمـرةِ الباقيةِ

لَمّا كانت الجنّاتُ لا تصلحُ ولا تُثمرُ إلّا بالماءِ؛ عُطِفَ ذِكْرُ تفجيرِ العيونِ في قولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ على قولِه تعالى:

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 133.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 273، والباليسانيّ، حسن البيان: 5/ 2044.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 267، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 131.

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ من بابِ عطفِ الوسيلةِ المُسبِّبةِ للوجودِ والبقاءِ على النتيجةِ، فإنَّ الجنّاتِ لا تكونُ ابتداءً، ولا تبقَى بعدَ ذلكَ استمرارًا ما لم يكُنْ سببُها موجودًا، فعُطِفَ بذِكْرِ الماءِ للتّنبيهِ على أسبابِ البقاءِ، بقصدِ الامتنانِ الموصلِ لجميلِ الاستدلالِ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾:

تفجيرُ العيونِ إخراجُ الماءِ من أسفلَ إلى أعلى على خلافِ العادةِ

استعمَلَ النّظمُ الكريمُ مُفردةَ التّفجيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ الَّذي هو بمعنى التّفتيحِ، لبيانِ أنَّ إخراجَ الماءِ مِن العُيونِ يكونُ باختراقٍ لانصداعٍ وتشقّقٍ في الأرضِ، ويكونُ انبعاثُ الماءِ سائلًا وبكثرةٍ، للإشارةِ إلى أنَّه لمّا كان من طَبعِ الماءِ الغَوْرُ في التُّرابِ والرُّسوبُ بشدَّةِ السَّريانِ إلى أسفلَ، وكان فوَرانُه إلى جهةِ العُلوِّ أمرًا باهرًا للعقلِ - عَبَّر بلفظِ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾، للإيذانِ بأنَّ الماءَ ما كان ليَخرُجَ لولا قَسْرُ قادرٍ حكيمٍ[1]، وجاءَ التّعبيرُ بصيغةِ فَعَّلَ للإشعارِ بكثرةِ التّفجيرِ وتكرّرِه؛ للمُبالَغةِ في الفعلِ والمفعولِ، ففيه تكثيرٌ للمِنَّةِ وتعظيمٌ لها وتكثيرٌ للمُمتَنِّ به.

دلالةُ إسنادِ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

أُسنِدَ الفعلُ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ للإشعارِ بعظمةِ اللّهِ تعالى في تفجيرِه الماءَ من العيونِ، وأنَّه لا يكون إلّا من المَلِكِ الواحدِ الأحدِ، وهو دليلُ العنايةِ والرِّعايةِ.

تعيينُ دلالةِ الضّميرِ في ﴿فِيهَا﴾:

يعودُ الضّميرُ على الأرضِ بما اتّصفَت به؛ أيْ: وفجّرْنا في الأرضِ المَيْتةِ الَّتي أحيَيناها والَّتي جعلْنا فيها جنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ من العُيونِ، ليُفيدَ تمامَ التّهيئةِ للانتفاعِ من المذكورِ، ولهذا أعقبَهُ بقولِه: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 125.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِيهَا﴾:

توالي المِنَنِ بذِكْرِ النِّعَمِ من بواعثِ الهِمَمِ

جاء استعمالُ حرفِ الظّرفيّةِ الدّاخلِ على الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الأرضِ الَّتي أحياها اللّهُ بإخراجِ الحَبِّ وجَعْلِ الجنّاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾، للإشعارِ بعظمِ ما وُضِعَ في الأرضِ، فكلُّ شيءٍ وُضِع فيها يُعدُّ من تمامِ الآيةِ على توحيدِ اللّهِ تعالى وعلى البعثِ يومَ القيامةِ، وللمبالغةِ في الامتنانِ، فجَعْلُ الجنّاتِ فيها مِنّةٌ قائمةٌ بذاتِها، وتفجيرُ الماءِ فيها من العيونِ مِنَّةٌ أخرى قائمةٌ بذاتِها.

غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾:

التّنبيهُ إلى الأفعالِ العظيمةِ والتّفكيرِ في العُيونِ الكثيرةِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ وأُقيمَتِ الصّفةُ ﴿مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ مَقامَه، فلَمْ يَقُلْ: (وفجّرنا فيها ماءً)، وإنَّما حُذِفَ المفعولُ لِما دلَّ عليه سياقُ الامتنانِ بإثمارِ الشّجرِ الَّذي يكونُ بالماءِ، ولدلالةِ الصّفةِ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾؛ أيْ: فجّرْنا فيها ماءً من العيونِ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ التّنبيهُ إلى فِعلِ اللّهِ تعالى وقُدرتِه العظيمةِ في تفجيرِ الماءِ من العُيونِ، وإلى أنَّه هو الفاعلُ ذلك بعظمتِه، ولِتنصرفَ الأذهانُ إلى عظيمِ كَونِ الماءِ عُيونًا، كما أنَّ في الحذفِ إيجازًا في الكلامِ معَ تمامٍ في النّظمِ والمعنى، بل الحذفُ هو البلاغةُ النّاصعةُ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ وفائدتُها:

تَحتَمِلُ (مِنْ) معنى التّبعيضِ والبيانِ والابتداءِ

تَحتَمِلُ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ أن تكونَ للتّبعيضِ، لتُفيدَ أنَّ تفجيرَ الماءِ من بعضِ العيونِ وليسَ كلَّها؛ أيْ: لا يكونُ دَفعةً واحدةً، وبه يتحقّقُ الامتنانُ والاستدلالُ، كما يدلُّ التّبعيضُ على تناهي عظمتِه وتعاليها عن أن يُحاطَ بشيءٍ منها[1]، وتَحتَمِلُ أن تكونَ ابتدائيَّةً، لتُفيدَ ابتداءَ تفجيرِ الماءِ من منابعِ العُيونِ، كما تَحتَمِلُ أن

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 125، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166.

تكونَ بيانيَّةً؛ أيْ: لبيانِ موضِعِ تفجيرِ الماءِ، وهو الموافِقُ لقولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: 12][1].

أثَرُ معنى تعريفِ ﴿ٱلْعُيُونِ﴾ في معنى حرفِ ﴿مِنَ﴾:

معاني الحروفِ تتعيَّنُ بمعاني الألفاظِ

(أل) في لفظِ ﴿ٱلْعُيُونِ﴾ استغراقيّةٌ، لِتشمَلَ كلَّ عُيونِ الأرضِ، على القولِ بأنَّ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وتَحتَمِلُ أن تكونَ عَهديَّةً بمعنى العُيونِ المعهودةِ عندَ النّاسِ، وهي مُتجدِّدةٌ بتجدُّدِ الزَّمانِ والمكانِ، فتكونُ ﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّةً أو بيانيَّةً.

نكتةُ تأخيرِ علَّةِ جَعْلِ الجنّاتِ:

الغيثُ أَعَمُّ وُجودًا من تفجيرِ العُيونِ وأيسرُ خروجًا

جاء قولُه تعالى: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ مُتراخيًا عن قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، مفصولًا بينَهما بذِكرِ تفجيرِ الأرضِ عُيونًا، بخلافِ ما جاء في شأنِ إخراجِ الحَبِّ، فقال: ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾، ونكتةُ ذلك أنَّ تفجيرَ العُيونِ من مبادئِ الأثمارِ؛ أيْ: وجعلْنا فيها جنّاتٍ من نخيلٍ، ورتَّبْنا مبادئَ أثمارِها ليأكُلوا من ثَمَرِه، كما أنَّ الحَبَّ قوتٌ فينمو بمياهِ الأمْطارِ، ولِهَذا يُرَى أَكْثَرُ البِلادِ لا يَكونُ بها شَيْءٌ مِنَ الأَشْجارِ والزَّرْعِ، ومع هذا فالحِراثةُ لا تَبطُلُ هُناكَ اعْتِمادًا عَلَى ماءِ السَّماءِ، وهَذا لُطْفٌ مِنَ اللَّهِ حَيْثُ جَعَلَ ما يَحْتاجُ إلَيْهِ الإنْسانُ أَعَمَّ وُجودًا، وأَمّا الثِّمارُ فَلا تَتِمُّ إلّا بالأَنْهارِ ولا تَصيرُ الأَشْجارُ حامِلَةً لِلثِّمارِ إلّا بَعْدَ وُجودِ الأَنْهارِ فَلِهَذا أُخِّرَ[2].

نوعُ اللّامِ وفائدتُها في قولِه: ﴿لِيَأۡكُلُواْ﴾:

الأكلُ من الثّمراتِ من لذائذِ الجنّاتِ

اللّام في قولِه:﴿لِيَأۡكُلُواْ﴾ لامُ (كي) الَّتي تُفيدُ التّعليلَ، فما بعدَها هو المقصودُ الأهمّ، بمعنى أنَّه تعالى جعَلَ في الأرضِ جنّاتٍ من نخيلٍ وأعنابٍ، وفجّرَ فيها من العُيونِ من أجْلِ أن يأكلَ النّاسُ من ثمرِه، ولو لَمْ يَجعلْها ولم يُفجِّرْ ماءً من العيونِ لَما أكَلوا من

---

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 23، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 132.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 274.

الثّمَر، ففيه معنى العنايةِ بالعبادِ، وإيماءٌ إلى استعطافِهم، ولهذا جاء بعدَه ما يدلُّ على استبطاءِ شُكرِهم والحثِّ عليهِ فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

دلالةُ الاحتمالِ في لفظِ الثّمرِ:

تَـنـوُّعُ نِـعَـمِ اللـهِ وإحسانِه بالعبادِ بالجمعِ بينَ أنواعِ النِّعمِ

يُحتَمَلُ أن يكونَ المُرادُ بالثَّمرِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ثمرَ الأشجارِ المعروفَ، وهو الظّاهرُ، ليكونَ قد جَمَعَ نعمةَ الثّمارِ إلى نعمةِ الأطعمةِ بإخراجِ الحَبِّ من الأرضِ[1]، كما يُحتَمَلُ أن يكونَ المُرادُ ما هو أعمُّ منه؛ أي: الفوائدَ، والمعنى: ليأكُلوا من فوائدِه، كما تقولُ: ثمرةُ التِّجارةِ الرِّبحُ؛ أيْ: فائدتُها، وحينَئِذٍ يكونُ الضَّميرُ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ عائدًا إلَى التَّفْجيرِ المَدْلولِ عَلَيْهِ بِقَوْلِه: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾؛ أيْ: فجّرنا فيها من العُيونِ تفجيرًا ليَأْكُلوا مِنْ فَوائِدِ ذَلِكَ التَّفْجيرِ، وفَوائِدُهُ أَكْثَرُ مِنَ الثِّمارِ[2].

نكتةُ إفرادِ الضّميرِ في قولِه: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾:

كـثرةُ الـجـنّـاتِ مـــردودةٌ إلى قدرةٍ واحدةٍ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ إفرادَ الضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ دونَ تثنيتِه ليرجِعَ إلى النَّخيلِ والأعنابِ، وذلكَ ليعودَ على ما هو في حُكمِ المُشارِ إليهِ مِن الجنّاتِ؛ أيْ: ليأكلوا من ثَمَرِ ما ذُكِرَ من الجنّاتِ والنَّخيلِ، بإجراءِ الضَّميرِ مَجرَى اسمِ الإشارةِ؛ أيْ: ليأكُلوا من ثَمَرِ هذا وهذا وهذا، للتّنويعِ[3]، ولإنزالِ الجنّاتِ منزلةَ الجنَّةِ الواحدةِ، فيَحصُلُ الشُّكرُ، ويَعظُمُ الحمدُ.

نكتةُ الالتفاتِ في الآيةِ:

انشغالُ العبادِ بـالأكـلِ دونَ ذِكْـرِ المُـنـعِـمِ غفلةٌ تَستوجِبُ العقابَ

ذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ أصلَ النَّظمِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾: (ليأكلوا مِنْ ثَمَرِنا)، كَما قالَ: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾،

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 356.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 274، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 9.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 239.

﴿وَفَجَّرۡنَا﴾، فَنَقَلَ الكَلامَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الغَيْبَةِ عَلَى طَرِيقِ الِالتِفاتِ، فيكونُ الضّميرُ عائدًا إلى اللّهِ، والتّقديرُ: (من ثَمرِ خَلْقِ اللّه)، وفائدةُ الالتفاتِ هي الإشعارُ بغفلتِهم عن المُنعِم، وانشغالِهم عنه بالأكلِ والمَعيشةِ، ولتربيةِ المَهابةِ بذِكْرِ المُنعِم بطريقِ الغَيبةِ إجلالًا ومهابةً منه[1]، وفي إضافةِ الثَّمرِ إلى اللّهِ تعالى تنبيهٌ إلى أَنَّ الثِّمارَ بَعْدَ وُجودِ الأَشْجارِ وجَرَيانِ الأَنْهارِ لَمْ توجَدْ إلّا باللّهِ تَعالَى، ولَوْلا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ لَمْ توجَدْ، فالثَّمَرُ بَعْدَ جَميعِ ما يَظُنُّ الظّانُّ أَنَّهُ سَبَبُ وُجودِهِ لَيْسَ إلّا باللّهِ تَعالَى وإرادَتِهِ فَهيَ ثَمَرُهُ[2]، وتقدَّم أنَّ بعضَ المُفسّرين أجازَ أن يعودَ الضّميرُ على تفجيرِ الماءِ المَفهومِ مِن مدلولِ قولِه: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾.

دلالةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿ثَمَرِهِۦ﴾:

الإضافةُ في لفظِ ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ للاختصاصِ؛ أَيْ: ثَمَرِ المَذكورِ مِن الجنّاتِ، وعلى أنَّ الضّميرَ عائدٌ إلى اللّهِ، فالإضافةُ للتّشريفِ، والمعنى: ليأكُلوا ممّا خلقَه اللّهُ[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآيةِ:

تَنوّعُ المعاني مقصودٌ ومُثمِرٌ للدّلالاتِ المتّسعةِ

قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿ثُمُرِهِۦ﴾ بضَمِّ الثّاءِ والميمِ، وقرأَ الباقونَ بفَتحِهما: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾[4]، وذهبَ بعضُ المُفسّرينَ وعلماءِ القراءاتِ إلى اتّفاقِهما في المعنى على اعتبارِ أنَّ القراءةَ بضَمَّتَيْنِ هي لغةٌ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، وذهبَ آخَرونَ إلى أنَّ قراءةَ ﴿ثُمُرِهِۦ﴾ فيها مبالَغةٌ في المعنى؛ لأنَّ لفظَ ﴿ثُمُرِهِۦ﴾ الَّذي هو جمعُ (ثِمار) بمَعنى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 15، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 267، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 132، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 274.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 239.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 260.

الأموالِ الكثيرةِ المُثمرةِ مِن كلِّ صِنفٍ، وأمّا على قراءةِ ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ فالمعنى: ليأكُلوا مِن الثَّمَرِ الحاصلِ بالماءِ ممّا يُخرِجُهُ الشَّجَر[1]، وقد جَمَعتِ القراءتانِ المَعنَيَيْنِ الوارِدَيْنِ في تفسيرِ الثَّمَرِ، وهو تقويةٌ لإرادةِ المَعنَيَيْنِ جميعًا.

نوعُ الواوِ وفائدتُها في قولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ تَحتمِلُ أن تكونَ عاطفةً، وهو الظّاهرُ، لِتعطفَ (ما) على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾[2]، والمعنى: ليأكُلوا من ثمرِه وليأكلوا ممّا عمِلتْه أيديهم، كما تَحتَمِلُ أن تكونَ استئنافيَّةً، فتكونَ (ما) نافيةً كما يأتي، ويُحتَمَلُ كذلك أن تكونَ حاليَّةً وتكونَ (ما) نافيةً كذلك، وجُملةُ (ما عَمِلَتْهُ أيديهم) في محلِّ نصبٍ على الحاليَّة[3]، لتُفيدَ التّعجيبَ مِمّا جعلَه اللّهُ تعالى من النِّعَمِ الكثيرةِ، والحالُ أنَّ أيديَهُم لَم تَصنَعْه، ولم يكُن لها شيءٌ من خَلقِه.

نِعَمُ اللهِ تعالى تَخرُجُ بأيدي النّاسِ واجتهادِهم

بديعُ الإدماجِ في الآيةِ:

على القولِ بأنَّ (ما) اسمٌ موصولٌ معطوفٌ على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ والمعنى: (ليأكُلوا من ثَمرِه وليأكُلوا مِن الذي عمِلتْه أيديهم)، يكونُ في الكلامِ إدماجٌ، لِلْإرْشادِ إلى أنَّ عملَهم في إقامَةِ الجَنّاتِ والخِدمةِ فيها والسَّقيِ والتَّعهُّدِ لها أوفَرُ لأغلالِها وثمارِها[4].

نوعُ (ما) واجتماعُ الدّلالاتِ في معنًى واحدٍ:

الظّاهرُ أنَّ (ما) موصولةٌ في محلِّ جرٍّ عطفٍ على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، والتّقديرُ: (ليأكلوا من ثمرِه ومِن الَّذي عمِلتْه أيديهم)؛ أيْ: (وما عمِلتْه أيديهم مِمّا غرَسوا وحَرَثوا وزرَعوا وممّا عصَروا وصنَعوا)[5]،

تتعدّدُ الدّلالاتُ المختلفةُ وتجتمعُ في معنًى واحدٍ بتعدُّدِ الاعتبارات

(1) العليميّ، فتح الرّحمن: 5/ 482، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166.
(2) الشّربينيّ، السِّراج المنير: 3/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 166.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم:: 7/ 166.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 14.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 377، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 515، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 15.

والمعنى: (ليأكُلوا من ثمرِ الأشجارِ كالرُّطَبِ والفواكِه، وليأكلوا ممّا يصنَعونَ منه بأيديهم)، ولمّا كانت (ما) الموصولةُ تُفيدُ العُمومَ؛ دلَّت على عُمومِ الامتِنانِ في كلِّ ما تلبّسوا بعملِه للانتفاعِ بِهِ والإفادةِ منه، ويُحتَملُ أَن تكونَ (ما) نافيةً، لتُفيدَ نفيَ أن تكونَ أيديهم عملتْهُ؛ أيْ: (إنّا جعلْنا لَهُمُ الجنّاتِ والنّخيلَ والأعنابَ ولم تَعمَلْهُ أيديهم، ولا صُنعَ لهُم فيه)، وفيه مُبالَغةٌ في الامتِنانِ كذلكَ، وهو أَنْسَبُ بسياقِ الآيَةِ مَساقَ الاستِدْلالِ[1]، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١﴾ [يس: 71]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 64]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾ [الواقعة: 72]، ليُفيدَ ظهورَ الامتنانِ في إبداعِ اللّهِ تعالى بإخراجِه الحَبَّ من الأرضِ وجَعلِه الجنّاتِ من نخيلٍ وأعنابٍ وتفجيرِه الماءَ من العُيونِ، والحالُ أنَّ العِبادَ لَمْ تعمَلْهُ أيديهم ولا يَقدِرون، وللجمعِ بينَ المَعنيَيْن، فإنَّ العبادَ يعمَلون بأيديهم ضِمنَ سُنَنِ اللّهِ تعالى، ولكنَّ أيديَهُم لا تعملُ على التَّحقيقِ إلّا بإرادةِ اللّهِ تعالى: كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، فأثبَتَ له الرَّميَ ونفاهُ باعتِبارَيْن.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ في ﴿عَمِلَتْهُ﴾:

على القولِ بأنَّ (ما) موصولةٌ فضميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ عائدٌ إلى الاسمِ الموصولِ، وعلى القولِ بأنَّ (ما) نافيةٌ فالضّميرُ عائدٌ إلى الحَبِّ والنّخيلِ والأعنابِ[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآيةِ:

ذِكْرُ المفعولِ تصريحٌ وحذفُهُ عمومٌ وتلميحٌ

قرأ ابنُ كثيرٍ، ونافعٌ، وأبو عمرٍو، وابنُ عامرٍ، وحفصٌ عن عاصمٍ وأبو جعفرٍ ويعقوبُ: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ بهاءِ ضميرٍ، وقرأ حمزةُ، والكِسائيُّ،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 377، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 515، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 15، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 268، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 14.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 14.

وخَلَفٌ وأبو بكرٍ عن عاصم: ﴿عَمِلَتْ﴾ بغيرِ هاءِ ضميرٍ على حذفِ المفعولِ، وحذفُهُ لإرادةِ العُموم، على (ما) موصولةً أو نافيةً، وعلى قراءةِ إثباتِ الهاءِ يجوزُ في (ما) أن تكونَ موصولةً، كما يجوزُ أن تكونَ نافيةً كذلكَ؛ والمعنى: (وَما عَمِلَتْ أَيْديهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ)، وقراءةُ حَذفِ الهاءِ المفيدةُ إرادةَ العمومِ مُؤيِّدةٌ ومُقوّيةٌ لِأَنْ تكونَ (ما) موصولةً لصحّةِ حذفِ الضّميرِ العائدِ إلى الموصولِ مِن صلتِهِ في مِثلِ هذه الحالةِ[1].

نكتةُ استعمالِ العملِ دون الفعلِ:

عُبِّرَ بالعملِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ﴾ دونَ أن يُقالَ: (وما فعلَتْه أيديهم) للإشعارِ بتكرُّرِ العَملِ عن قصدٍ وإرادةٍ، فلَمْ يأتِ اعتباطًا؛ بل هو عملٌ فيه جهدٌ ومثابرةٌ ومواصلةٌ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾:

الـخِـطـابُ الإيمائيُّ مكتَنزٌ في النَّظْمِ الكريمِ ترغيبًا وترهيبًا

ذُكِرَتِ الأيدي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ وهي مجازٌ مُرسلٌ بإطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلّ، والمعنى: (وما عملوه)، وإنّما ذُكرتِ الأيدي ونُسِبَ العملُ إليها لِأنَّ غالبَ العملِ يكونُ بها، ولمّا كانَ لَفظُ اليَدِ يُعبِّرُ عن القوّةِ الّتي يحتاجونَها عندَ العَملِ، كانَ في التّعبيرِ بالمَجازِ المُرسَلِ إشعارٌ بنِعمةِ خلقِ القوّةِ فيهم، ليَعمَلوا بأيديهم ما يحتاجونه في حياتِهم، مع التّنبيهِ على أنَّ أيدي النّاسِ كذلك قد تورِدُهم المَهالكَ، فليَحذَرِ الإنسانُ من أعمالِه، وليَجتَنِبِ المُهلِكاتِ، وليعتَنِ بالمُنجياتِ.

بلاغةُ الاستفهامِ ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ وغرضُهُ:

الإنـكـارُ على المُقصِّر حثٌّ على المـبـادرةِ إليـه وفِعلِه

لمّا عَدَّدَ تَعالَى النِّعَمَ في الآياتِ، وبيَّنَ سببَ خَلقِها ومن أجلِ مَنْ خُلِقَتْ، حَضَّ العبادَ عَلَى الشُّكْرِ فقالَ: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ على طريقِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 353، والعكبريّ، التّبيان: 2/ 1082، وابن الجوزيّ، زاد المَسير: 3/ 523، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 349، وقد ذكر الداني أن هذه الكلمة في بعض المصاحف بالتاء من غير هاء، وفي بعضها بتاء بعدها هاء، يُنظر: الداني، المقنع في رسم مصاحف الأمصار، ص: 101.

الاستفهام المَجازيّ الإنكاريّ المُفيدِ استبطاءَ شُكرِهِم، وأمَرَهم بهِ من حَيثُ إنَّ الإنكارَ مُتّجِهٌ إلى تَركِ الشّكرِ بسببِ شِركِهم باللّهِ تعالى[1]، ففي الاستفهام المَجازيّ معانٍ، هي استبطاءُ شكرِهم وتوبيخُهم على تَركِهِ واستِقباحٌ له بسببِ أعمالِهم، ولمّا كان الإنكارُ على تَركِ الشّكرِ أفادَ الأمرَ بِهِ والحثَّ عليه، فالإنكارُ على تَركِ أمرٍ حَثٌّ على المُبادَرةِ إليهِ وفِعلِه.

دلالةُ فاءِ العطفِ على المحذوفِ:

لمّا كان الاستفهامُ له الصّدراةُ في الكلامِ؛ كان الاستفهامُ الإنكاريُّ موجَّهًا إلى مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المَقامُ، لِتُفيدَ الفاءُ ترتُّبَ نفيِ الشّكرِ على المَحذوفِ المُقدَّرِ، والتّقديرُ: (أيَرَوْنَ هذهِ النِّعَمَ)، أو: (أيتنَعَّمونَ بِها فلا يَشكُرونَ المُنعِمَ بها)[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

الـنِّـعـمُ صـيـدٌ وشُكرُها قيدٌ

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ المطلوبَ هو استمرارُ الشّكرِ وتجدّدُه وقتًا فوقتًا؛ أي: ادأبوا دائمًا في إيقاعِ الشُّكرِ والدَّوامِ على تجديدِه في كلِّ حينٍ بسبَبِ هذه النِّعَمِ الّتي جعلَها اللّهُ تعالَى لتأكُلوا مِن الثّمَرِ وممّا عمِلَتْه أيديكُم[3]، ولمّا كان الكلامُ في سياقِ إقامةِ الحُجّةِ على التّوحيدِ والبعثِ يومَ القيامةِ؛ أفادَ أنَّ أفضلَ الشّكرِ يكونُ بتوحيدِ اللّهِ تعالى وعبادتِه والاعتقادِ بالحشرِ والحسابِ والجنَّةِ والنّارِ.

---

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 357، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 268.

(2) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السّليم: 7/ 167، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 10.

(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 349.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [يس: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ مظاهرِ الخالقِ إلى ذِكْرِ ما توجبُه من تنزيهِ المولى

لَمّا نبَّه ﷻ في الآية السّابقةِ على الشُّكر فقال: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ إنكارًا على المشركين صنيعَهم في تركِ الشُّكرِ على بديع خلقه سبحانه؛ ناسَبَ الانتقالُ إلى تنزيهِ اللّهِ تعالى الَّذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها من الأرضِ، تنبيهًا على أنَّ ما ذُكِر من الحَبِّ والجَنّات ما هو إلّا أمثلةٌ من مخلوقاتٍ أخرى خُلِقَت من الأرضِ كذلك، ولمّا كان السّياق لإثباتِ وحدانيَّة اللّه تعالى والإعلامِ بأنَّ ما عُبِدَ من دونه لا استحقاقَ له في ذلك بوجه، ولا نفع بيدِه ولا ضُرّ، ناسبَ ذِكْرِ تنزُّهِه عمّا ادَّعَوه من الشِّركِ غايةَ التَّنزُّه[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خالقُ المخلوقاتِ منزَّهٌ عن شركِ الأندادِ محمودٌ في قلوبِ العبادِ

أثنى اللّه تعالى على ذاتِه بما هو أهلٌ له من ثناءٍ، فقال: تَنَزَّهَ اللّهُ عمّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ وجَميعِ النَّقائِصِ، الَّذي خلَقَ الأصنافَ كلَّها ممّا تُنبِتُه الأرضُ مِن النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ والحبوبِ، ومِن النّاسِ أنفسِهم، وخلق ممّا لا يعلمون من الأشياءِ الَّتي لم يُطلِعْهم عليها، ولم يَجعَل لهم طريقًا إلى معرفتِها تفصيلًا؛ بل علَّمَهُم ذلك بطَريقِ الإجمالِ بنحوِ قولِه تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النَّحل: 8]، ليَستدِلّوا بذلك على عَظَمةِ الخالقِ وسَعة مُلكِه وجَلالةِ قَدْرِه[2].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 127.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 433، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 4/ 376، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 23/ 7.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في الآية ودلالته:

النّظرُ في الآياتِ الكونيَّةِ موجبٌ لتنزيهِه سبحانَه وتوحيدِه

فُصِل قولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إمّا لأنَّه استئنافٌ، فتكونُ الجملةُ استئنافيَّةً في حُكم التّذييلِ لِما قبلَها؛ لأنَّها مَسوقةٌ لتنزيهِهِ تعالى عمّا فعلوه من تَركِ شُكرِه على نِعَمِهِ العظيمةِ المذكورةِ، واستعظامِ ما ذُكِرَ مِن بدائعِ آثارِ قُدرتِه وأسرارِ حكمتِه وروائعِ نَعمائه الموجِبةِ للشُّكرِ، وتخصيصِ العبادةِ به والتَّعجيبِ مِن إخلالِهم بذلكَ والحالةُ هذه[1].

وإمّا لأنَّ الجملةَ اعتراضيَّةٌ بينَ قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ وما جاء بعدَها لِتَمامِ المعنى وقولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾[2]، وفائدةُ الاعتراضِ تنزيهُ اللّهِ تعالى بعدَ الإنكارِ على تَركِهم شُكرَه سبحانه لِما يتضمَّنُه الإنكارُ من استمرارِهم على الشِّرك وتركِ العبادةِ، وعلى كلا الوجهَيْنِ فإنَّ الجُملةَ تُفيدُ الإطنابَ في الكلامِ لزيادةِ بيانِ المعنى وإيضاحِه.

بديعُ فنِّ الإدماجِ في الآية:

إدمـاجُ التّنزيه الـدّالِّ على التّوحيدِ بغرضِ ذِكْـرِ عجيبِ الخلقِ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى إحياءَ الأرضِ وإخراجَ الحَبِّ منها وجَعْلَه فيها الجنّاتِ من النّخيلِ والأعنابِ، وكان لذلكَ أحوالٌ وإبداعٌ عجيبٌ؛ ذكَّر بتَعظيمِ مودِعِ تلك الصَّنائعِ بحكمتِه والتّعجيبِ من عظيمِ خَلقه فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾؛ فجاء الكلامُ على طريقةِ إدماجِ غرضٍ في غرضٍ آخَرَ، لِتَضمُّنِ قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الاستدلالَ على توحيدِ اللّهِ تعالى بخَلقِ الأزواجِ[3].

---

(1) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 167، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 10.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 15.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 15.

معنى ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ ودلالتُها في السياقِ:

تنزيهُ اللهِ تعالى عمّا لا يليقُ به ممّا ادّعاهُ المُشرِكون

﴿سُبۡحَٰنَ﴾ عَلَمٌ دالٌّ على التّسبيحِ[1] الّذي هو التَّبعيدُ عن السّوءِ اعتقادًا وقولًا؛ أي: اعتقادَ البعدِ عنه والحُكمَ به، وانتصابُه على المصدريّةِ ولا يكادُ يُذكَرُ ناصبُه؛ أيْ: أُسبِّحُ سبحانَه؛ أيْ: أنزِّهُه عمّا لا يليقُ به عقدًا وعملًا تنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشأنِه، فعلى القولِ بأنَّه عَلَمٌ للتّسبيحِ، يكونُ حُكمًا من اللّهِ ﷻ بتسبيحِه وتلقينِ للمؤمنينَ أن يقولوا اللَّفظَ على سبيلِ الأمرِ به، وأن يَعتقدوا مضمونَه ولا يُخِلّوا به ولا يَغفُلوا عنه، وذهبَ بعضُ اللّغويّين إلى أنَّه مصدرٌ مِثلُ (غُفران)، أُريدَ به التّنزُّهُ التّامُّ والتّباعُدُ الكُلّيُّ عن السّوءِ، ففيه مبالغةٌ من جهةِ إسنادِ التَّنزُّهِ إلى الذّاتِ المُقدَّسِ، فالمعنى تنَزّهَ بذاتِه عن كلِّ ما لا يليقُ بِه تعالَى تنزُّهًا خاصًّا به سبحانَه، وإذا كان مصدرًا يكونُ منصوبًا بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أُسَبِّحُ، وعلى هذا التّقديرِ يكونُ الكلامُ إخبارًا من اللّهِ تعالى بتنزُّهِه وبراءتِه عن كلِّ ما لا يليقُ به مِّما فعلوه وما تركوه[2]، ولإنشاءِ تنزيهِ اللّهِ تعالى عن أحوالِ المُشركينَ تنزيهًا عن كلِّ ما لا يليقُ بإلهيّته، وأعظَمُه الإشراكُ به وهو المقصودُ هنا[3]، مع تأكيدِ التّعجيبِ من أفعالِهم وأقوالِهم لتنبيهِهم على قُبحِ ما يعملونَ مع ظُهورِ الآياتِ، ومَنْ تعجَّبَ مِن شيءٍ قالَ: سُبْحانَ اللّه![4].

غرضُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾:

الزّيادةُ في المبنى زيادةٌ ومبالَغةٌ في المعنى

في التّعبيرِ بلفظِ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مبالغةٌ في التّنزيهِ، ففيه مبالغةٌ في جهةِ الاشتقاقِ؛ لأنَّ اللَّفظَ مُشتَقٌّ من الفعلِ سبَّحَ الذي يُفيدُ التّكثيرَ والمُبالَغةَ في التّسبيحِ، ففيهِ عدولٌ عن سبَحَ الثلاثيِّ، وفيه مبالغةٌ في

---

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 16/ 251.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 167.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 15.

(4) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التفسير: 12/ 357، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 26.

جهةِ العُدولِ عن المَصدرِ الدّالّ على الجِنسِ إلى الاسمِ الموضوعِ له خاصّةً، لا سيَّما العَلَمُ وجِهةُ إقامتِه مقامَ المَصدَرِ مع الفِعلِ[1].

مُناسَبةُ إيثارِ التّسبيحِ على الحمدِ:

كمالُ الخلقِ يُنادي على تنزيهِ الخالقِ ابتداءً

آثَرَ النّظمُ الكريمُ الإتيانَ بالتّسبيحِ دونَ الحمدِ، فلم يَقُل: (الحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها)؛ بل قال: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾؛ وذلك للإشعارِ بأنَّ اللّهَ تعالى ليسَ مِثلَ المخلوقاتِ، والمَقامُ مقامُ تنزيهٍ وتوحيدٍ؛ لِأنَّ كَونَ كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إلى أن يكونَ زوجًا يدُلُّ على كَمالِ الواحِدِ المُتفَرِّدِ الَّذي لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن مخلوقاتِه[2]، فكانتْ جميعُ الأصنافِ الَّتي خلقَها سبحانَه هي زوجَيْن، لِيُفيدَ مُخالَفةَ الخالِقِ للمخلوقِ، فناسَبَ التّعبيرُ بالتّسبيحِ دونَ الحَمدِ.

علَّةُ التّعبيرِ بالموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

بيانُ عللِ الأشياءِ خطابٌ مُقنِعٌ لمَن تولّى اللهُ عقلَه بالحفظِ

جاء التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ دونَ الاسمِ الظّاهرِ، للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ؛ أيْ: لبيانِ سببِ تنزيهِه تعالى، وهو أنَّه تعالى ﴿خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفي جملةِ الصّلةِ تعظيمٌ لهُ سبحانَه بذِكْرِ عظيمِ خَلقِهِ الظّاهرِ للعيانِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿خَلَقَ﴾:

صِدقُ القرآنِ في الإخبارِ عن سُنَنِ اللهِ تعالى

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في الفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ للإيماءِ إلى أنَّ ما يَخلُقُهُ اللّهُ تعالى وسيَخلقُه إلى قيامِ السّاعةِ في حُكمِ التّقضّي، ففيهِ وعدٌ مِن اللّهِ تعالى بأنَّ الخلقَ مُستمرٌّ إلى انقضاءِ زمانِ الحياةِ الدُّنيا، ففيه استدلالٌ على صدقِ القرآنِ فيما أخبَرَ، فهو من الإخبارِ بالغيبِ، وامتنانٌ على عبادِ اللّهِ تعالى فيما خَلَقَ لهم، ويُحتَمَلُ أن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 167.

(2) ابن عُثيمين، تفسير سورة يس، ص: 133.

يكونَ التّعبيرُ بصيغةِ الماضي لتنزيلِ مُنتظَرِ الوُقوعِ منزلةَ الواقعِ[1] تعميمًا للدّليل وللمبالغة فيه، وفي ظُهور الإنعامِ[2].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ للجِنسِ، وفائدتُها استغراقُ اللَّفظِ للأصنافِ والأنواعِ من كلِّ شيءٍ، والمعنى: (خلقَ جنسَ الأزواجِ كلِّها).

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾:

الإيماءُ إلى تنزيهِ اللهِ تعالى عن صفاتِ المَخلوقينَ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾، والمُرادُ بها الأصنافُ والأنواعُ، وذلك لمناسَبةِ الحُكم بتنزيهه تعالى الدّالِّ على مخالفته تعالى للخَلقِ كما تقدَّم، ففيها إيماءٌ للفَرقِ بين المخلوقِ والخالق، فلمّا قال سُبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ دلَّ على تخصيصِ كلِّ صِنفٍ أو نوعٍ بما اختصَّ به من الخَلقِ، ولمّا كان الحُكمُ بتنزيهه تعالى مبنيًّا على خَلقِ الأزواجِ كلِّها؛ دلَّ على تفرُّده بهذا الخَلْقِ كلِّه، وعلى تفرُّده بأن يكونَ خَلقُهُ على هذا الوصفِ؛ أيْ: مِن كونِه أزواجًا، ففيهِ إيذانٌ بحكمته تعالى في هذا الخَلْقِ وعلمِه به، ونبّهَ بذِكْرِ الأزواجِ في الأشياءِ على أنّها لا تَنفَكُّ مِن ترتيبٍ ما، وأنَّ الواحدَ في الحقيقةِ ليسَ إلّا هو تعالى[3]، وفيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ ما في الكونِ مِن المخلوقاتِ هو أزواجٌ.

فائدةُ التّوكيدِ بقولِه: ﴿كُلَّهَا﴾:

دفعُ توهُّمِ التَّغليبِ في لفظِ الأزواجِ وتأكيدُ استقصاءِ الجنسِ

أُكِّدَ لفظُ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ بلفظِ ﴿كُلَّهَا﴾ لتقريرِ التّعميمِ وتأكيدِه، بمعنى أنَّه ما مِن زوجٍ إلّا واللّهُ تعالى هو الذي خلقَه، لِما تُشعِرُ به الزّوجيَّة من الحاجةِ والافتقارِ، وفيهِ دفعٌ لتوهّم إرادةِ التَّغليبِ في لفظِ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾، ولمّا أكّدَ العمومَ؛ أفادَ أنّ غيرَه لم يَخلُقْ شيئًا، ففيه تقريرٌ لتنزيهِ اللّهِ عن الشَّريكِ في ذاتِه أو صفاتِه ودليلٌ عليه.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 129.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 133.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/ 1073.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها في الآية:

(مِنْ) في المواضعِ الثلاثةِ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بيانيَّة[1]، والمَجْرورُ بها في فَحْوَى عَطْفِ البَيانِ، أو هو بَدَلٌ مُفَصَّلٍ فيكونُ ما بعدَها بيانٌ للإجمالِ المذكورِ في لفظِ العُمومِ ﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ أو تفصيلٌ بذِكْرِ الأهمِّ[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما):

استعملَ النّظمُ الكريمُ الاسمَ الموصولَ (ما) دونَ (الَّذي) لإفادةِ العُمومِ، بمَعنى كلِّ ما تُنبِتُ الأرضُ فيدخُلَ في دلالةِ اللَّفظِ.

بديعُ التّفصيلِ بعدَ الإجمالِ في الآية:

التّفصيلُ في قوّةِ الدّليلِ بذِكْرِ الأهمّ ثمَّ الأهمِّ لمناسَبةِ الاستدلالِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ مُجمَلًا عامًّا، فأفادَ ذِكْرَ جميعِ الأصنافِ على طريقِ الإجمالِ، ولمّا قالَ بعدَه: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قَسَّمَ هذا الجَمعَ وفصَّلَ المُجمَلَ[3] بتعديدِ أبرَزِ الأصنافِ للبيانِ والإيضاحِ ولتأكيدِ العُمومِ، فالتّفصيلُ ليس للتّخصيصِ[4]، وإنّما فصَّلَ بذِكْرِ الأهمِّ؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ استدلالٍ، ولإظهارِ المِنَّةِ على الخَلقِ.

نكتةُ استعمالِ مُفرَدةِ الإنباتِ:

كلُّ نابتٍ داخلٌ في الحُكمِ بشرطِ الاتِّساقِ معَ السّياقِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ ﴿تُنۢبِتُ﴾ للإشعارِ بنَماءِ النّباتِ في الأرضِ، ولمّا كان النّبتُ يُطلَقُ على ما يَخرُجُ مِن الأرضِ من النّامياتِ، سواءٌ كانَ له ساقٌ كالشَّجَرِ، أم لَمْ يكُنْ له ساقٌ كالنَّجمِ[5]، كان المُرادُ بقولِه: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ جميعَ ما ينمو على الأرضِ ممّا يَخرُجُ مِنها من جِنسِ النّباتِ وما في حُكمِه، والإغراقُ في

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 167.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 17.
(3) ابن التَّمجيد، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 16/ 134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 17.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 275، والنيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 532.
(5) الرّاغب، المُفردات: (نبت).

العموم فيما ذَهبَ إليهِ بعضُ المُفسِّرين بأنَّ المَعادِنَ تَدخُلُ في العُموم؛ لأنَّها مُتولِّدةٌ من الأرضِ[1]، فبعيدٌ لفقدِهِ شَرطَ العُمومِ وهو الاتِّساقُ معَ السّياقِ.

فائدةُ التّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تُنۢبِتُ﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿تُنۢبِتُ﴾، للإشعارِ بتجدُّدِ إنباتِ الأرضِ حالًا فحالًا، وفيه تصويرٌ لحالةِ الإنباتِ المُقتضي الإذعانَ والتّسليمَ لدليلِ التّوحيدِ والتّنزيهِ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ودلالتُهُ:

اشتراكُ المخلوقاتِ في الأصلِ التُّرابيّ واختلافُها في الأصنافِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ على ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لبيانِ الصِّنفِ الثّاني من أصنافِ الأزواجِ؛ فالأوَّلُ من الأرضِ وهو التُّرابُ، والثّاني من الأنفُسِ البشَريّةِ وأصلُها من التّرابِ، فاجتمعَتِ الأصنافُ في الأصلِ، واختلفَتْ في الأشكالِ والأصنافِ.

نكتةُ ذِكرِ الأنفُسِ المُضافةِ في ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾:

قياسُ المُكذَّب به على المُسلَّم به طريقُ القرآنِ في الاستدلالِ

يُحتَمَلُ أن يكونَ الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ عائدًا إلى النّاسِ ليُفيدَ العُمومَ، ولمّا كان السّياقُ في بيانِ إقامةِ الدّليلِ على التّوحيدِ والحشرِ يومَ القيامةِ؛ دخلَ فيهِ المُشركون دخولًا أوّليًّا، وفي اختيارِ مُفرَدةِ الأنفُسِ إيماءٌ إلى ضرورةِ التّفكُّرِ في الأنفسِ الَّتي خَلقَها اللّهُ تعالى من ترابٍ، وأنَّ مردَّها إلى ترابٍ، وبَعْثَها من ترابٍ، قياسًا على النّباتاتِ الَّتي يراها الخَلقُ وهي في الأصلِ من ترابٍ.

كما يُحتَمَلُ أن يكونَ الضّميرُ عائدًا إلى العبادِ في قَوْلِهِ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾، والمُرادُ بِهِمُ: المُكذِّبونَ للرَّسولِ ﷺ.

سرُّ عطفِ المجهولِ على المعلومِ ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

لمّا كان المقامُ مقامَ استدلالٍ، وكان الكلامُ يقتضي ذِكْرَ ما

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 349.

إعلامُ المُنكِر بجهلِه دافعٌ للإعلامِ بعجزِه

يَعلمونَه لا ما يَجهَلونَه، فلِمَ قال: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾؟ والجوابُ أنَّ الكلامَ ذُيِّلَ بهذه الجُملةِ للإيذانِ بتمامِ الدّليلِ، فإنَّه لمّا أخبَرَ بأنَّه خلقَ أزواجًا ممّا لا يَعلَمون ممّا لَمْ يُطلِعْهُمُ اللّهُ عليه ولَم يجعلْ لهم طريقًا إلى معرفتِه(1)؛ حكمَ عليهم بالجهلِ في كثيرٍ من أمورِ الخلقِ، وبالعجزِ عن إدراكِ جميعِ الأزواجِ.

فائدةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ وغرضُهُ:

مُلكُ اللهِ متَّسعٌ لا يُحيطُ به عقلُ بشَرٍ

حُذِف المفعولُ في قولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وهو الضّميرُ العائدُ إلى الاسمِ الموصولِ (ما) لإفادةِ العمومِ، والإيذانِ بكثرةِ الأزواجِ المجهولةِ لديهم، فيَدخُلُ فيه كلُّ زوجٍ ممّا سيُعلَمُ في المُستقبَلِ وما لا يُعلَمُ أصلًا، ففي حذفِ المفعولِ دليلٌ على اتّساعِ مُلكِه سبحانَه وعظيمِ قدرتِه، وعلى أنَّ النّاسَ وإنْ عَلِموا أشياءَ فما خَفيَ عليهم من خَلقِ الأزواجِ أكثرُ، وعلى أنَّ القرآنَ لم يَحصُرْ سُنَّةَ الزّوجيَّةِ في النّباتِ والحَيوانِ(2)، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ [الذّاريات: 49]، كما أنَّ في حذفِ المفعولِ رعايةً للفاصلةِ ورُؤوسِ الآيِ.

دلالةُ النّفيِ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

عُبِّرَ بأداةِ النّفيِ ﴿لَا﴾ الدّاخلةِ على الفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للإشعارِ باستمرارِ نفيِ علمِهم وتجدُّدِه في الحالِ والاستقبالِ، وأنَّهم مهما بلغوا من العِلمِ بالأزواجِ فإنَّهم لن يَطَّلِعوا على جميعِ الأزواجِ من المُغيَّباتِ.

توجيهُ المخصوصِ بالذّكرِ في الآيةِ:

ترتيبُ المذكوراتِ باعتبارِ مقصودِ السّياقِ

خَصَّ النَّظمُ القرآنيُّ بالذِّكرِ أَصْنافَ النَّباتِ؛ لِأَنَّ بها قِوامَ مَعاشِ النّاسِ ومَعاشِ أَنْعامِهِمْ ودَوابِّهِمْ، وأَصْنافَ أَنْفُسِ النّاسِ؛ لِأَنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 268.

(2) رضا، تفسير المنار: 12/ 19.

العِبْرَةَ بِها أَقْوَى، قالَ تَعالَى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات: 21]، ثُمَّ ذَكَرَ ما يَعُمُّ المَخْلوقاتِ مِمّا يَعْلَمُهُ النّاسُ وما لا يَعْلَمونَهُ في مُخْتَلِفِ الأَقْطارِ والأَجْيالِ والعُصورِ، وقَدَّمَ ذِكْرَ النَّباتِ إيثارًا لَهُ بِالأَهَمّيَّةِ في هَذا المَقامِ لِأَنَّهُ أَشْبَهُ بِالبَعْثِ الَّذي أَوْمَأَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 17.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اتِّساعُ دائرةِ الاستدلالِ أوقعُ في إثباتِ البرهانِ

لَمّا استَدَلَّتِ الآياتُ السّابقةُ بالأَحْوالِ الأَرْضيَّة وهي المكانُ الكُلّيُّ على البعثِ والتَّوحيد، ناسَبَ الانتقالُ إلى الاستَدلالِ باللَّيلِ والنَّهارِ وهوَ الزَّمانُ الكُلّيُّ، فَإِنَّ دلالَةَ المَكانِ والزَّمانِ مُناسِبَةٌ؛ لِأَنَّ المَكانَ لا تَستَغْني عَنْهُ الجَواهِرُ، والزَّمانَ لا تَستَغْني عَنْهُ الأَعْراضُ[1]. فأتَى بالزَّمانِ والمكانِ كليهما ليكونا أداةَ حقٍّ في إثباتِ ما يُنكِرُه المُشرِكونَ.

كما أنَّه يُقالُ: لَمّا استَدَلَّتِ الآياتُ السّابقةُ بِالمَكانِ الَّذي هوَ المُظْلِمُ وهوَ الأَرْضُ فقالَ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، استَدَلَّ بالزَّمانِ الَّذي فيه الظُّلْمَةُ وهوَ اللَّيلُ، ووَجْهٌ آخَرُ: وهوَ أَنَّ اللَّيلَ فيه سُكونُ النّاسِ وهُدوءُ الأَصْواتِ وفيهِ النَّوْمُ وهوَ كالمَوْتِ ويَكونُ بَعْدَهُ طُلوعُ الشَّمسِ كالنَّفْخِ في الصّورِ فَيَتَحَرَّكُ النّاسُ، فَذَكَرَ المَوْتَ كَما قالَ في الأَرْضِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، فذَكَرَ مِنَ الزَّمانَيْنِ أَشْبَهَهُما بِالمَوْتِ، كَما ذَكَرَ مِنَ المَكانَيْنِ أَشْبَهَهُما بِالمَوْتِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسۡلَخُ﴾: أصلُ (سلخ) واحدٌ، وهو إخراجُ الشَّيءِ عن جِلْدِه ونزعُه منه، والأصلُ: سلختُ جِلْدَةَ الشّاةِ سَلْخًا[3]، والسّلخُ هو الكشطُ والإزالةُ والنّزع، ويُقال: انسَلَخَ الشَّهرُ من سنَتِه، والرَّجلُ من ثيابِه، والحيَّةُ من قشرِها، والنَّهارُ مِنَ اللَّيلِ، بمعنى أزيلَ عنه[4]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 275.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 276.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلخ).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (سلخ).

وكلُّ شَيْءٍ خرجَ من شَيْءٍ فقد انْسَلَخَ مِنْهُ[1]، ومعنى ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾: نُخرِج مِنْهُ النَّهار إخراجًا، ونَنزِعُه مِنه حتَّى لا يبْقى مَعَه شَيْءٌ من ضوءِ النَّهار[2].

2) ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾: (ظلم) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الضّياءِ والنّورِ[3]، ومنه: الظُّلْمَة والظُّلُمَة، بِضَمِّ اللّامِ: ذَهابُ النّورِ، وهيَ خِلافُ النّورِ، وجمعُ الظُّلْمةِ: ظُلَمٌ وظُلُماتٌ وظُلَماتٌ وظُلْمات، والظَّلامُ اسْمٌ لذَلك[4]، وأَظْلَمَ فلانٌ: دخَلَ في ظُلْمَةٍ، ومنه أصبح وأمسى[5]، والمُرادُ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾: فإذا هم داخِلون في الظّلمة[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعاقُبُ اللّيلِ والنّهارِ بُرهانٌ باهِرٌ على عَظَمةِ الخالِقِ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ بعضَ دَلائلِ وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى، وعَظيمِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى، فاللَّيلُ يُنزَعُ عنه النَّهارُ السّاترُ له، فإذا النّاسُ داخلونَ في الظَّلامِ المُشتَمِلِ عليهم من كلِّ جانبٍ، المُحيطِ بهم مِن كلِّ جهةٍ[7]، وهذهِ الآيةُ دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللّهِ وألوهيَّته لجَرْيِ الكونِ في الليلِ والنّهارِ على مجرًى واحدٍ، وسَنَنٍ واحدٍ، فهذا شيءٌ مُتّسِقٌ لا يتغيَّر، فدلَّ ذلك على أنَّه فِعلُ إلهٍ واحدٍ عليمٍ حكيمٍ، إذ لو كان فِعلَ عددٍ من الآلهةِ، لكان إذا أتى أحدُهُما بالليلِ غلَبَ على الآخَرِ، فلا يَقدِرُ المغلوبُ على إتيانِ النَّهارِ بعدَ ذلك وغلَبَه صاحبُه وقهرَه، وكذلك مُنشِئُ النّهارِ إذا غلَبَ على مُنشِئِ الليلِ لَهَمَّ به على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلخ).
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 287، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 467، وابن الهائم، التّبيان، ص: 272.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(5) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ظلم).
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 482.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 434، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 26، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 366.

إتيانِه بالآخَرِ وغلبَه عليه، ويَمنَعُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه عن إدخالِ شيءٍ ممّا أنشأَهُ هو فيما أنشأَهُ الآخَرُ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بينَ الجُمَلِ في الآية:

اتِّحادُ الجُملِ المُتعاطِفةِ على إثباتِ حقيقةٍ واحدةٍ من مظاهرَ شتَّى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ عَطَفَتِ الجملةَ على قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾، فأخذَتْ حُكمَها في العطفِ على قصّةِ: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾، فيكونُ الكلامُ على التّتابُعِ والتّفصيلِ بذِكْرِ الآياتِ الدّالَّة على الإحياءِ بعدَ المَوتِ، وجاءَ الوصلُ بطريقِ العطفِ بالواوِ لاشتراكِ الجُملةِ المعطوفةِ والمعطوفِ عليها في الجهةِ الجامعةِ، وهي إبطالُ ما اعتقدَهُ المُكذِّبونَ من البعثِ ومن الإشراكِ باللّهِ ببيانِ الدّليلِ الواضحِ عليهما وعلى قدرةِ اللّهِ على فعلِ كلِّ ما يَشاءُ، فاتّفقَتِ الجُمَلُ على بيانِ حقيقةٍ كلّيّةٍ واحدةٍ من مظاهرَ شتَّى.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿وَءَايَةٌ﴾ وتنكيرِه:

وضوحُ الآياتِ وانكشافُها موصِّلٌ إلى الحقِّ المبِّين

استعمَلَ النَّظمُ الكريمُ مُفردةَ ﴿وَءَايَةٌ﴾، للإشعارِ بأنَّ سَلْخَ النّهارِ من اللّيلِ علامةٌ أخرى باهرةٌ عظيمةٌ وهي ظاهرةٌ واضحةٌ، فتكونُ هذه الآيةُ دليلًا آخَرَ على المُستدَلِّ عليه، ونُكِّرت للتّفخيم، فهذه الآيةُ ليست مِثلَ سائرِ الآياتِ في فخامتِها ووضوحِها؛ لأنّها آيةٌ سَمائيّةٌ عُلويّةٌ مُحيطةٌ بالبَشَرِ من كلِّ جانبٍ، ومنافعُها تبلغُ الجميعَ، فمَن نظَرَ تأمُّلَها في كلِّ يومٍ، استدَلَّ بها على الحقِّ الأبلَجِ، فهي آيةٌ مُنكشِفةٌ عظيمةٌ لا تَخفَى على ناظرٍ، ولا تغيبُ عن مُتفكِّرٍ.

أثرُ إعرابِ ﴿وَءَايَةٌ﴾ في توجيهِ النَّظمِ:

يَحتَمِلُ لفظُ ﴿وَءَايَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 517.

﴿ٱلنَّهَارَ﴾ أن يكونَ خبرًا مُقدَّمًا على المبتدَأِ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، وعلى هذا الإعرابِ يكونُ تقديمُ الخَبَرِ لِلاهتمامِ به؛ للإشعارِ بعِظَمِ هذهِ الآيةِ وفخامتِها، وكونِها وحدَها تكفي لِلاستدلالِ على توحيدِ اللّهِ وعلى الحَشرِ بعدَ الموتِ، ويحتملُ أَنْ يَكونَ لفظُ (آيَة) مبتدأً و﴿لَّهُمُ﴾ صفةً مُخصِّصةٌ، ولفظُ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ هو الخبرَ، أو جُملةُ ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ هي الخَبر، لإفادةِ أنَّ (آية) دالَّةٌ على المطلوبِ متحقِّقةٌ في اللَّيلِ نَسلَخُ منه النّهارَ، فمَنْ أرادَها وجدَها، فهي للإجابةِ عمّنْ يَطلُبُ آيةً لإثباتِ صحّةِ ما يُنكرُهُ.

تختلفُ لطائفُ التّوجيهِ باختلافِ معاني التّفسيرِ

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾:

اللّامُ الدّاخلةُ على الضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ للاختصاصِ، وجاءت لإفادةِ معنى الاستدلالِ والإنعامِ على المشركينَ المُنكرينَ للبعثِ، ففيهِ معنى الاستعطافِ والتَّذكيرِ بالنِّعَمِ، وبرحمةِ اللّه ليُؤمنوا بهِ ﷻ وبالبعثِ بعدَ الموتِ، ولإفادةِ معنى النَّفعِ للعبادِ على القَولِ بأنَّ الضَّميرَ يَرجِعُ لعمومِ العبادِ، ولا مانعَ من الجمعِ بين معنَيَي الاستدلالِ والنَّفعِ.

آيةُ اللّيلِ والنّهارِ استدلالٌ باهرٌ ونفعٌ ظاهرٌ

تعيينُ مَرجعِ الضَّميرِ في ﴿لَّهُمُ﴾:

الضَّميرُ في ﴿لَّهُمُ﴾ يَحتَمِلُ أن يعودَ على كفّارِ قريشٍ ومَنْ يجري مَجراهم في إنكارِ البعثِ والحشرِ، ويَحتَمِلُ أن يعودَ على العبادِ جميعًا كما تقدَّم في ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾، ويدخُلُ في عُمومِ الضّميرِ المُشركونَ ومَنْ يُنكِرُ الحَشْرَ دُخولًا أوّليًّا، بدَلالةِ السّياقِ.

يُحتمَلُ عَودُ الضَّميرِ إلى المُشرِكينَ أو إلى عُمومِ العبادِ

معنى تعريفِ لَفظَي ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ﴾:

(أل) في لفظَيِ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ للعهدِ الحُضوريِّ؛ أيِ: اللّيلُ الّذي يُشاهدونَه، والنّهارُ الّذي يَعرفونَه لا شكَّ عندَهُم فيه.

بلاغةُ احتمالِ الجملةِ الواحدةِ للفَصْلِ وعَدَمِهِ:

قابليّةُ تعدُّدِ زوايا النَّظرِ في الجُملةِ الواحدةِ دليلُ قوّةِ رَصْفِ الكلامِ وبديعِ النّظمِ

جاءت جُملةُ ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ بدونِ واوٍ على احتمالِ أن تكونَ في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾، وهو الظّاهر(1)، وهيَ حالٌ مُقيِّدةٌ لِما يدُلُّ عليهِ الخَبَرُ مِن مَعنى الآية؛ أي: اللّيلُ حالَ سَلْخِنا النّهارَ منه؛ لِأَنَّ سَلْخَ النّهارِ هو مناطُ الاستدلالِ على إمْكانِ البَعْثِ بَعْدَ المَوْت وعلى توحيدِ اللّهِ تعالى، وتَحتمِلُ أنْ تكونَ خبرًا لـ﴿ٱلَّيۡلُ﴾، والمبتدأُ والجُملةُ الفِعليّةُ خبرًا لـ(آيَةٌ)، فيكونُ مجيءُ الجُملة الفعلية خَبَرًا لتقويةِ الحُكم وتحقيقِه، وتَحتَمِلُ أن تكونَ صفةً لـ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ على قولِ بأنَّ (أل) فيه للجِنسِ، والمُعرَّفُ بـ(أل) الجنسيَّةِ في حُكم النّكرةِ باعتبارِ المَعنَى(2)، والمَعنَى: وآيةٌ لهُم اللّيلُ موصوفًا بكونِنا نَسلَخُ النّهارَ منه، وعلى هذهِ الاحتمالاتِ فالجُملةُ ليستْ مِنَ الفَصلِ؛ لِأنَّ الحالَ والخبرَ والصِّفةَ من تمامِ الكلامِ، وليس بمستقلٍّ عنه.

ويُحتمَلُ أن تكونَ جُملةُ ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ بيانًا لِجُمْلَةِ ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾ لِبَيانِ موضعِ الآيَةِ في اللّيلِ(3)، فهي من كَمالِ الاتّصالِ، وتَحتمِلُ أن تكونَ اسْتِئْنافًا بيانيًّا، كَأَنَّ سائِلًا سَأَلَ: كَيْفَ كانَ الليلُ آيةً لهُم فقال: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أيْ: عن طَريقِ سَلْخِنا النّهارَ منه(4)، فهي من شِبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وعلى هذَيْنِ الاحتِمالَيْنِ فالجُملةُ تدخُلُ في بابِ الفَصلِ، ومَنْ يتأمّلْ هذهِ الأوجُهَ المُحتَمَلَة، يتبيَّنْ لهُ بديعُ نَظمِ القرآنِ، وقوّةُ رصفِه وبهاءُ نَسقِه.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿نَسۡلَخُ﴾:

مِن خصائصِ السّلْخِ التّدرُّجُ إلى بُلوغِ الغايةِ

استعَمَل النَّظمُ الكريمُ مُفرَدةَ السَّلخِ في قولِه تعالى: ﴿نَسۡلَخُ﴾ دونَ غَيرِه، لِأنَّ انْسِلاخَ الشَّيْءِ عَنِ الشَّيْءِ أَنْ يَبْرَأَ مِنْهُ ويَزولَ

(1) أبو حيّان، شرح التّسهيل: 2/ 110.

(2) ابن مالك، شرح التَّسهيل: 1/ 116، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 3/ 252.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 14.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 12.

عَنْهُ حالًا فَحالًا، بحيثُ يكونُ المسلوخُ أرقَّ من المَسلوخِ منه، كسَلْخِ الجلدِ عن مِثلِ الشّاةِ، كَذَلِكَ نَزعُ النّهارِ من اللّيلِ، فإنَّه يزولُ عنه شيئًا فشيئًا ووقتًا فوقتًا إلى أنْ لا يبقى معه شيءٌ من ضوءِ النّهارِ، فيَتِمَّ الانسلاخُ[1].

غرضُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَسۡلَخُ﴾:

تصويرُ نزعِ النّهارِ من الليلِ مُتجدِّدٌ في أعيُنِ النّاظِرينَ

جاءَ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿نَسۡلَخُ﴾، لتصويرِ الحالِ المُؤذِنِ باستمرارِ السّلخِ وأنّه يكونُ حالًا فحالًا، فهذا هو الواقعُ فلا يُناسبُه إلّا صيغةُ المضارعِ، ولمّا كانت هذه الآيةُ مَسوقةً لبيانِ القدرةِ القاهرةِ في الزّمانِ، اختيرَ المضارعُ الدّالُّ على التّجدُّدِ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، بخلافِ ما سَبَقَ، فإنَّه بيانُ قدرتِه في المكانِ، فلا يتجَدَّدُ الزّمانُ فيه مِثلَ تجدُّدِه في هذهِ الآيةِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿نَسۡلَخُ﴾:

السّلخُ إزالةُ الجلدِ عن الباطنِ لكشفِ الخفيِّ وبيانِ الحقائقِ

في قولِه تعالى: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ استعارةٌ بليغةٌ، لأنَّ السَّلخَ إزالةُ الشّيءِ من الشّيءِ وتخليصُه منه تمامًا على وجهٍ يُفيدُ شدَّةَ ملابستِه له والتحامِه بِه قبلَ السَّلخِ، فكذلكَ سَلْخُ النّهارِ من اللَّيلِ[3]، وفي توجيهِ هذه الاستعارةِ وجهانِ[4]: أحدُهما أن يكونَ السّلخُ بمعنى النّزعِ، فيكونَ مجازًا مُستعارًا من سَلخِ الإهابِ عن مِثلِ الشّاةِ؛ أيّ: نَزعِه عنها وإخراجِه الإهابَ من الشّاةِ، فاستُعيرَ منه لكَشفِ الضّوءِ عن مكانِ اللّيلِ وإزالتِه منه، فشُبِّه كَشفُ الضّوءِ وإزالتُه من مكانِ اللّيلِ بسلخِ الجلدِ من الشّاةِ، فيكونُ قد شبَّهَ النّهارَ بالنِّسبةِ لليلِ بإهابٍ من النّورِ أحاطَ باللّيلِ إحاطةَ الإهابِ بالشّاةِ، فلمّا نُزِعَ كانَ اللّيلَ، وحُذِفَ المُشبَّه به وذُكِرَ المُشبَّه لتكونَ الاستعارةُ تصريحيّةً

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 436، وابن الهائم، التّبيان، ص: 272.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 136.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 482.

(4) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2349.

تبعيَّة[1]، والجامع أمرٌ عقليٌّ وهو ما يُعقَلُ من ترتُّبِ أحدِهما على الآخَرِ، فإنَّه كما يترتّبُ ظهورُ اللّحم على كَشْطِ الجلد، كذلكَ يترتّبُ ظهورُ ظلام اللَّيلِ على كشفِ الضّوءِ عن مكانه، فالمُستعارُ له نزعُ النّهارِ من الليلِ، والمُستعارُ منه نَزعُ الجلدِ من مَسلوخِه، والمعنى: سَلَخْنا النَّهارَ من اللّيلِ ونَزعْناه منه.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظي ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ﴾:

الظُّلمةُ هي الأصلُ والنّورُ عارضٌ، فإذا زالَ العارِضُ ثبتَ الأصلُ

شُبِّهَ النّهارُ بِجِلْدِ الشّاةِ الذي يُغَطّي ما تَحْتَهُ، كَما يُغَطّي النَّهارُ ظُلْمَةَ اللَّيلِ في الصَّباحِ، وشُبِّهَ كَشْفُ النَّهارِ وإزالتُه بسَلْخِ الجلْدِ عن الشّاةِ، فصارَ اللَّيْلُ بِمَنْزِلَةِ جِسْمِ الحَيَوانِ المَسْلوخِ مِنْهُ جِلْدُهُ، فأفادَ أنَّ اللَّيلَ هو الأصلُ، وأنَّه كانَ قَبلَ النَّهارِ، وأنَّ الظُّلمةَ كالأصلِ والنّورَ دَخيلٌ عليه، فإذا سُلِخَ النّهارُ من اللَّيلِ؛ أيْ: نُزِعَ النّورُ من الظُّلمةِ، خَلَصتِ الظُّلمةُ فكان اللَّيلُ، وإذا أُلبِسَتِ الظُّلمةُ النّورَ كان النهارُ[2]، ففي الكلام إشعارٌ بأنَّ النّورَ بالنِّسبةِ للكُرةِ الأرضيَّة عارِضٌ من نورِ الشَّمسِ، والثّاني أن يكونَ السّلخُ بمعنى الإخراجِ، كما يُقالُ: سَلَخْتُ الشّاةَ من الإهابِ، والشّاةُ مَسلوخةٌ، فإنَّه كما يُقالُ: الجلدُ مَسلوخٌ، يُقالُ: الشّاةُ مَسلوخةٌ[3]، فالمُستعارُ لَهُ على هذا الوجهِ ظُهورُ النَّهارِ من ظُلمةِ اللَّيلِ، والمُستعارُ منهُ ظُهورُ المَسلوخِ من جلدتِه؛ فالطَّرَفانِ حِسّيّانِ، والجامعُ عقَليٌّ كذلكَ، وهو ما يُعقَلُ من تَرتُّبِ أحدِهما على الآخَرِ[4]، وتقديرُ المعنى على هذا الوجهِ: (نُخرِجُ منهُ النّهارَ إخراجًا لا يَبقَى معَه شيءٌ من ضوئِه)[5].

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 47، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 349.

(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 358.

(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 167.

(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 389.

(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 287، والطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 47، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 240.

علَّةُ ذِكْرِ مُتمِّمات آيةِ اللَّيلِ في الآية:

الاستدلالُ بطريقِ القياسِ على الشّبيهِ

لِسائلٍ أن يسألَ عن نكتةِ ذِكْر: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ واللَّيلُ في نفسه آيةٌ؟ والجوابُ هو أنَّ الشّيءَ تتبيَّن بضدِّهِ مَنافِعُه ومَحاسِنُه[1]، فذِكْرُ النّهارِ معَ اللَّيلِ يَزيدُ من ظُهورِ آيةِ كلٍّ واحدٍ منهُما، كما أنّه لمّا كانَ المَقصودُ في هذهِ الآيةِ إقامةَ الدّليلِ على إحياءِ المَوتَى وعلى وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى؛ أَجرَى الكلامَ على معنى الإخراجِ والنَّزْعِ المُقارِبِ لحالةِ الإحياءِ بعدَ المَوتِ، ليكونَ الكلامُ بمثابةِ القياسِ على الشَّبيهِ.

نوعُ (مِنْ) ودلالتُها في ﴿مِنۡهُ﴾:

احتمالُ الابتداءِ والملابسةِ لشدّةِ الاختلاطِ

حرفُ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ للابتداءِ[2]، بمعنَى: ابتداءُ سلخِ النّهارِ يكونُ من اللَّيلِ، وتَحتَمِلُ أن تكونَ للمُلابَسةِ، بمعنى سَلخِ النّهارِ مِن اللَّيلِ الَّذي كان مُختلِطًا به ومُتخلِّلًا في أجزائِه بإزالةِ الضَّوءِ وكشفِهِ عن حقيقةِ اللَّيلِ[3].

نوعُ الفاءِ وفائدتُها في ﴿فَإِذَا هُم﴾:

اختصاصُ اللَّيلِ بإعقابِ النَّهارِ مِنَ الآياتِ اليقينيّةِ الثّابتةِ

حرفُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ للتّرتيبِ والتّعقيبِ، والمُرادُ التّعقيبُ العُرفيّ، وذَلِكَ مِمّا يَختَلِفُ بِحَسَبِ الأُمورِ والعاداتِ، فَرُبَّما يَطولُ الزَّمانُ المُتَوَسِّطُ بَينَ شَيْئَيْنِ ولا يُعَدُّ ذَلِكَ في العادةِ مُهلةً كَما في هَذِهِ الآيَةِ، فَإِنَّ مِقْدارَ النَّهارِ وإن تَوسَّطَ بَينَ إخْراجِهِ مِن اللَّيْلِ وبَيْنَ دُخولِ الظُّلمَةِ، لكنَّه يَعقُبُهُ عُرفًا؛ فجاءَ بالفاءِ لإفادةِ أنَّهُ لا يَعقُبُ النّهارَ إلّا اللَّيلُ[4]، وهذهِ الآيةُ دليلٌ على سُنَنيّةِ الآياتِ الَّتي خَلقَها اللّهُ تعالى في الكونِ، وأنَّ ما يُقالُ من التّطوُّرِ في مَظاهِرِ الحياةِ واختلافِ مَظاهِرِ اللَّيلِ والنَّهارِ ما هو إلّا افتراءٌ وخَرَصٌ ووَهْمٌ لا يَرقَى للعقلِ الصَّحيحِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 276.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 11.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 128.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 514، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 11.

بلاغةُ التَّعريضِ باستعمالِ (إذا) الفُجائيّةِ:

المفاجأةُ في ذهابِ الضّياءِ وحلولِ الظّلامِ بالكلّيّةِ

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ للمُفاجَأة، فيُسألُ عن سرِّ استعمالِها في هذا السّياقِ، ومَجيءُ الظُّلمةِ بعدَ الضّياء أمرٌ غيرُ مفاجئٍ لاعتيادِ النّاسِ عليه؟ وبيانُه أنَّه لمّا كانَ دُخولُ الظّلامِ الشّاملِ بعدَ زَوالِ النّهارِ بالكُلّيَّةِ أمرًا غريبًا عَظيمًا يَنْبَغي ألّا يَحصُلَ إلّا بعدَ إضعافِ ضَوءِ النّهارِ لَم يُعتدَّ بِهِ ولم يُعَدَّ مُهلةً؛ بل جُعِلَ مُفاجِئًا لإخْراجِ النَّهارِ بلا تَراخٍ[1]، وأيضًا لمّا كان نَزعُ الضَّوءِ عنِ اللَّيلِ مُترقَّبًا فيه أن يكونَ في مُدَّةٍ مديدةٍ لكَونِ ظُهورِه في غايةِ الكمالِ كان حُصولُ الظَّلامِ بعدَهُ في مُدةٍ قصيرةٍ أمرًا غيرَ مُترقَّبٍ[2]، فناسَبَهُ المُفاجأةُ، كما تُفيدُ (إذا) الَّتي تدُلُّ على المُباغَتةِ أنَّه ليسَ بيدِهم بعدَ انسلاخِ النّهارِ من اللَّيلِ أمرٌ، ولا بُدَّ لَهُم مِنَ الدُّخولِ في الظّلمةِ إذا زالَ النّهارُ، ولا يَقدِرون على دَفعِه[3]، وفي المُفاجَأةِ استِغرابٌ واستعجابٌ من فجأةِ الدّخولِ في الظّلمةِ، ليتضَمَّنَ التّعجيبَ من هذهِ الآيةِ كلِّها، وفي الآيةِ تعريضٌ بالمشركينَ، كأنَّه قال: وآيةٌ لهُم القَلبُ نَسلَخُ منه نورَ الإيمانِ، فإذا هو مُظلِمٌ، وفي التّعريضِ مَزيدُ تحذيرٍ.

تعيينُ مَرجعِ الضّميرِ ودَلالتُه في ﴿هُم مُّظْلِمُونَ﴾:

الشّركُ باللهِ تعالى ظُلمةٌ وتوحيدُه نورٌ

الضّميرُ ﴿هُم﴾ في قولِه: ﴿هُم مُّظْلِمُونَ﴾ عائدٌ إلى الكفّارِ الَّذين يُحتَجُّ عليهِم بالآياتِ، والدّخولُ في الظّلمةِ بعدَ انسلاخِ النّهارِ من اللّيلِ وإن كانَ يَستغرِقُ جميعَ النّاسِ - كما هو في الواقعِ - لكنْ لَمّا كانَ السّياقُ في بيانِ الاستدلالِ على الحَشرِ والبعثِ بعدَ المَوتِ كان الكفّارُ هُم المقصودينَ بالكلامِ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم بشِرْكِهم وإنكارِهم البعثَ دخلوا في الظُّلمةِ.

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 514.
(2) السّيالكوتيّ، حاشيةٌ على المُطوّل: 1/ 495.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 276.

مناسبةُ لفظِ ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾ وصيغتُها:

الإظلامُ معنًى حسيٌّ كما أنَّ الشِّركَ ظُلمٌ معنويٌّ

أفادتْ صيغةُ ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾ أنَّهم داخِلون في الظُّلمةِ، كما يُقالُ: أظلَمْنا؛ أيْ: دخلْنا في ظلامِ اللّيلِ، ومنه: أَصْبَحْنا وأَضْحَيْنا وأَمْسَيْنا، فالهَمزةُ في هذه الكلماتِ للدُّخول في الزّمانِ أو المكانِ، والمعنى: فإذا هُم داخِلونَ في الظُّلمة[1]، وهو المُناسِبُ للفظِ ﴿نَسۡلَخُ﴾ الذي يُفيدُ نزعَ النّهارِ حالًا فحالًا، فلا يُناسِبُ مقامَ التّعبيرِ بـ﴿نَسۡلَخُ﴾ سوى أن يترتّبَ عليهِ ويَعقُبَهُ الدّخولُ في الظُّلمةِ، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، فلِكُلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ، كما أنَّ في الصّيغةِ ما يدلُّ على أنَّ الإظلامَ مِن صنيعِهم، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّهم آثَروا ظُلمةَ الجهلِ على نورِ العلمِ.

بديعُ التّوشيحِ في الآيةِ:

ما بعدَ انسلاخِ الكاشِفاتِ إلّا إظلامُ المُبصِراتِ

مَن سَمِعَ في صدرِ الآيةِ انسلاخَ النّهارَ من اللّيلِ علِمَ أنَّ الفاصلةَ ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾، فإنَّ مَن انسلَخَ النّهارُ عن ليلِه أظلَمَ ما دامتْ تلكَ الحالَ؛ أيْ: دخلَ في الظُّلمةِ، ولذلك سُمّيَ توشيحًا؛ لأنَّ الكلامَ لمّا دلَّ أوَّلُه على آخرِهِ نُزِّلَ المعنى منزلةَ الوِشاحِ، ونُزِّلَ أوَّلُ الكلامِ وآخرُه منزلةَ العاتِقِ - وهو ما بَينَ المنكِبَينِ - والكَشْحِ - وهو الجزءُ الجانبيُّ من الجسمِ ما بينَ الضُّلوعِ إلى الخاصرةِ - اللَّذَينِ يَجولُ عليهِما الوِشاحُ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّلخُ والإخراجُ:

السّلخُ نزعُ أحدِ المُلتصِقَين، والإخراجُ أعمُّ منهُما

السَّلْخُ إخراجُ ظَرفٍ أو ما يكونُ بمنزلةِ الظّرف له، بحيثُ يكونُ المَظروفُ والظّرفُ متلابِسَيْنِ، ويكونُ المَسلوخُ أرقَّ من المسلوخ مِنه، ولهذا يُقالُ: لكُلِّ شيءٍ يُفلَقُ عن قِشرِه أنَّه قد انسَلَخَ، والإخراجُ هو

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 482.

(2) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 229، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 1/ 39.

عامٌّ في كلِّ شيءٍ، وهو الإزالةُ أو الانفصالُ من مُحيطٍ أو ما يَجري مَجرى المُحيطِ إلى خارجِه[1]، فلا يدُلُّ الإخراجُ على معنى المُلابَسة بين الشّيئَيْن، ولا على أنَّ المسلوخَ أرقُّ مِن المسلوخِ منه، ولا على معنى النّزعِ الحاصلِ من السّلخ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 302.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾

[يس: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذِكْر الظّاهرةِ يأتي ذِكْرُ تفصيلِها

لمّا ذَكَرتِ الآيةُ السّابقةُ الليلَ والنَّهارَ؛ ناسَبَ أن يُذكَرَ بعدَهُما سِرُّهما وأظهَرُ ما فيهما، ولمّا أشعَرَ الكلامُ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ النّورَ بالنِّسبةِ للكرةِ الأرضيّة عارضٌ من نورِ الشَّمسِ بدأ بذكرِها فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[1]، كما أنَّه لمّا ذَكر تعالى سَلْخَ النّهارِ مِن اللَّيلِ؛ أعقَبَهُ بذِكرِ طريقةِ سَلْخِ النّهارِ من اللَّيلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ﴾: (قرّ) أصلٌ يدلُّ على الثُّبوتِ والتَّمكُّنِ، يُقالُ: قرَّ الشَّيءُ، يَقِرُّ، قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه ولم يَتَحَوَّلْ[2]، وقيل: أصلُه من القُرِّ، وهو البَرْدُ، وهو يَقتَضي السُّكونَ، والحرُّ يَقتضي الحركةَ، واسْتَقَرَّ فلانٌ: إذا تحرَّى القَرارَ[3]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ [البقرة: 36]؛ أَيْ: قَرارٌ وثُبوتٌ، و﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾ [الأنعام: 67]؛ أَيْ: غايَةٌ ونِهايَةٌ، والمُرادُ بقولِه: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾: موضعٌ تنتهي إليه فلا تُجاوزُه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حركةُ الشَّمسِ مُقدَّرةٌ تقديرًا بالِغًا مُنَظَّمًا بأمرِ اللهِ تعالى

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ غايةَ جريانِ الشّمسِ، التي سُلِخَ النَّهارُ مِن اللَّيلِ بغَيبوبتِها، بأنَّها تَجري بقُدرةِ اللّهِ تعالَى إلى مَوضِعِ قَرارِها الَّذي قدَّرَه اللّهُ لها، ذلك الجريُ على هذا التقديرِ والحِسابِ الدَّقيقِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 129، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 350.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(3) الرّاغب، المُفردات: (قرّ).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 365.

الَّذي تَكلُّ الفِطَنُ عنِ استخراجِه وتتحَيَّرُ الأَفهامُ في استنباطِه، ما هو إلّا تقديرُ الغالِبِ بقدرتِه على كلِّ مقدور، المُحيطِ عِلمُه بكلِّ معلوم، فهو القاهِرُ الغالِبُ سُبحانَه، وهو العَليمُ المحيطُ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، الَّذي يُدبِّرُ الأمْرَ، فيطَّرِدُ على نِظامٍ عَجيبٍ، ونَهجٍ بديعٍ، لا يَعتريه وهَنٌ، ولا يَلحَقُه خَلَلٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾:

تتابعُ الآياتِ أو تفصيلُ بعضِها لبعضِها الآخَرِ قـوَّةٌ في البيانِ وتثبيتٌ للبرهانِ

تَحتَمِلُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ أن تكونَ عاطفةً أو استئنافيَّةً، والعطفُ إمّا على جُملةِ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ لكَونِ الجملتيْن خبريّتيْن، ولاشتراكِهما في الجهةِ الجامعةِ وهي كونُهما آيتيْن من آياتِ اللّهِ الدّالَّةِ على الإحياءِ بعدَ المماتِ، وعلى عظيمِ قُدرةِ اللّهِ الدّالَّةِ على وحدانيَّتِه، وإمّا على مُفردٍ، بعطفِ (الشَّمسُ) على ﴿ٱلَّيۡلُ﴾[2]، والتّقديرُ: (وآيةٌ لهُم الشّمسُ تجري لِمستقرٍّ لها)، ليُفيدَ عطفُ المُفرَدِ أنَّ جَريَ الشّمسِ لُمستقَرٍّ لها له عَلاقةٌ بسلخِ النّهارِ مِن اللَّيلِ.

وتَحتَمِلُ الاستئنافَ[3] لِتُفيدَ تفصيلَ المُجمَلِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، وكانَ مُقْتَضَى الظّاهِرِ مِنْ كَوْنِ الكلامِ تَفْصيلًا للآيةِ السابقةِ أَنْ لا يُعْطَفَ، فَيُقالَ: (الشَّمْسُ تَجْري لُِمسْتَقَرٍّ لَها)، فَخولِفَ مُقْتَضَى الظّاهِرِ لِأَنَّ في هَذا التَّفْصيلِ آيَةً خاصَّةً؛ أيْ: في نفسِ جري الشّمسِ آيةٌ أخرى عَلَى عَظيمِ صُنْعِ اللّهِ تَعالَى وهوَ نِظامُ الفُصولِ[4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 29، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 577، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 366.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 19.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 136.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 19.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾:

(أل) في لفظِ ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ للعَهدِ، بمَعنى الشّمسِ المعهودةِ عندَكم، وهي الَّتي تَطلُعُ نهارًا وتَغيبُ ليلًا.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ الجَري:

بيانُ دقَّةِ التّعبيرِ القرآنيِّ الموافقِ للإشاراتِ العِلميّةِ

اختارَ النَّظْمُ الكريمُ مُفرَدةَ الجري في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ الذي هو انسياحُ الشّيءِ ومرُّه سريعًا، وكلُّ ما يمُرُّ مرَّ الماءِ ويجري مِثلَه يُقالُ له: يجري، وفيه إشعارٌ بأنَّ الشّمسَ تجري كجري الماءِ، لا من حيثُ السّرعةُ؛ بل من حَيثُ طريقةُ الجري واستمرارُه وعدمُ انقطاعِه؛ فالبعيدُ عن الماءِ لا يَشعرُ بجريِه مع سُرعةِ مُرورِه، ومِثلُه البعيدُ عن الشّمسِ لا يَشعُرُ بجَريِها معَ سُرعةِ مُرورِها، وكُلٌّ لهُ السّرعةُ المُناسِبةُ له، وأصلُ الجري أن يكونَ لِذَواتِ الأرجُلِ، وأُطْلِقَ مَجازًا عَلَى تَنَقُّلِ الجِسْمِ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ تَنَقُّلًا سَريعًا بِالنِّسْبَةِ لِتَنَقُّلِ أَمْثالِ ذَلِكَ الجِسْمِ، وغَلَبَ هَذا الإِطْلاقُ فَساوَى الحَقيقَةَ، وأُريدَ بِهِ السَّيْرُ في مَسافاتٍ مُتَباعِدَةٍ جِدَّ التَّباعُدِ فَتَقْطَعُها في مُدَّةٍ قَصيرَةٍ[1]، ولهذا عُبِّرَ عن حركةِ الشّمسِ السّريعةِ في الكونِ الدّالَّةِ على الاستمرارِ وعَدمِ الانقطاعِ بالجَري، ولَمْ يَقُلْ: والشّمسُ تسيرُ أو تمشي أو تمُرُّ، لعدَمِ مُناسَبةِ اللّفظِ للحالةِ المقصودةِ.

بلاغةُ الجملةِ الفعليّةِ في الآيةِ:

من أعظمِ خصائصِ الشّمسِ المغفولِ عنها الجريُ لغايةٍ

الجملةُ الفعليَّةُ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ تَحتَمِلُ أن تكونَ خبرًا للمبتدَأِ (الشَّمسُ)، لتُفيدَ جُملةُ الخَبرِ تقويةَ الحُكمِ وتحقيقَه، أو حالًا بأن يكونَ تقديرُ الكلامِ: (وآيةٌ لهُمُ الشّمسُ تَجري)، وهي حالٌ مُقيِّدةٌ لِما يدُلُّ عليهِ الخَبرُ من معنى الآيةِ، أو بيانًا للجُملةِ المُقدَّرةِ (وآيةٌ لهُمُ الشّمسُ)، لبيانِ مَوضِعِ الآيةِ من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 19.

الشّمسِ، أو بدَلَ اشتمالٍ مِن الجُملةِ المُقدَّرةِ (وآيةٌ لهُمُ الشّمسُ)[1]، وعلى جميعِ هذهِ التّقديراتِ فإنَّ الشّمسَ في حالةٍ مُستمِرّةٍ متجدِّدةٍ، لا تقِفُ عندَ حدٍّ، ولا يوقفُها شيءٌ، وأخَصُّ خصائصِها بعدَ ضوئِها أنّها تَجري.

نوعُ اللّامِ في ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ وفائدتُها:

تَحتمِلُ اللّامُ أن تكونَ للتّعليلِ والاختصاصِ وبمعنى (إلى)

حرفُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ للتّعليلِ، أو الاختِصاصِ، أو بمعنى حرفِ (إلى).

أمّا التّعليلُ فلهُ معنيانِ: **الأوّلُ:** أن يكونَ المُستقَرُّ مصدرًا ميميًّا بمعنى الاستقرارِ؛ أيْ: تجري الشَّمسُ لاستقرارٍ لها على نَهجٍ مَخصوصٍ؛ أيْ: أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ جريَها في مدارٍ واحدٍ قارٍّ، وطريقٍ خاصٍّ تسيرُ عليه دائمًا[2]، **والآخَرُ** على معنى التّعليلِ؛ أيْ: والشّمسُ تَجْرِي لِأَجْلِ أَنْ تَسْتَقِرَّ؛ أيْ: لِأَجْلِ أَنْ يَنْتَهِيَ جَرْيُهَا كَمَا يَنْتَهِي سَيْرُ المُسافِرِ إذا بَلَغَ إلَى مَكانِهِ فاسْتَقَرَّ فيهِ، وإنّما كان مستقرُّها هو نهايةً لجريِها؛ لِأَنَّ سَيْرَ الشَّمْسِ لَمّا كانَتْ نِهايَتُهُ انْقِطاعَهُ نُزِّلَ الِانْقِطاعُ عَنْهُ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ[3].

وأمّا الاختصاصُ فمعناهُ: أنَّ جريَها مُختصٌّ بحدٍّ مُعيَّنٍ تنتهي إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]؛ أيْ: لوقتِنا الَّذي وقّتْنا له وحدّدْناه[4].

وإمّا أن تكونَ للغايةِ بمَعنى (إلى) فله معنَيانِ: **الأوّلُ**: الشّمسُ تجري إلى موضعِ قرارِها؛ أيْ: هي جاريةٌ مسرعةٌ أبدًا إلى انقراضِ الدُّنيا في موضعٍ مَكينٍ مُحكَمٍ هو أهلٌ لقرارِها، وعُبِّرَ به مع أنّها لا تَستقِرُّ ما دام هذا الكونُ لئلّا يُتوَهَّمَ أنَّ دوامَ حركتِها لأجلِ أنَّ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 19.

(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 2351.

(3) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 358، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 19.

(4) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 48، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 136.

موضِعَ جريِها لا يُمكنُ الاستقرارُ عليه؛ بل لأجْلِ أنَّ اللّهَ تعالى قدّرَ لها هذا[1]، **والآخَرُ**: والشّمسُ تَجْرِي إلَى مَكانِ اسْتِقْرارِها، وهوَ مَكانُ الغُروبِ، شُبِّهَ غُروبُها عَنِ الأَبْصارِ بِالْمُسْتَقَرِّ والمَأْوَى الَّذي يَأْوي إلَيْهِ المَرْءُ في آخِرِ النَّهارِ بَعْدَ الأَعْمالِ[2]، وفي هذا المعنى جاءَ عن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ يَوْمًا: «أَتَدْرونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قالوا: اللّهُ ورَسولُهُ أَعْلَمُ، قال: «إنَّ هذهِ الشَّمسَ تجري حتَّى تنتهي تَحْتَ العَرْشِ، فَتَخِرُّ ساجِدَةً، فَلا تَزالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقالَ لَها: ارْتَفِعي، ارْجِعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتُصْبِحُ طالِعَةً مِنْ مَطْلِعِها، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تنتهيَ إلى مُستقَرِّها ذاكَ، تَحْتَ العَرْشِ، فَتَخِرُّ ساجِدَةً، ولا تَزالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقالَ لَها: ارْتَفِعي، ارْجِعي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِعُ، فَتُصْبِحُ طالِعَةً مِنْ مَطْلِعِها، ثُمَّ تَجْرِي لا يَسْتَنْكِرُ النّاسُ مِنْها شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إلَى مُسْتَقَرِّها ذاكَ، تَحْتَ العَرْشِ، فَيُقالُ لَها: ارْتَفِعي، أَصْبِحي طالِعَةً مِنْ مَغْرِبِك، فَتُصْبِحُ طالِعَةً مِنْ مَغْرِبِها»، فَقالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «أَتَدْرونَ مَتَى ذاكُمْ؟ ذاكَ حينَ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾» [الأنعام: 158][3].

بديعُ فنِّ الإدماجِ في الآية:

تعليمُ النّاسِ من عنايةِ القرآنِ الرّاسخةِ

الإخبارُ عن كونِ الشّمسِ تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ ليسَ من آيةِ الشَّمسِ؛ لأنَّه أمرٌ غيبيٌّ، فهو إدماجٌ لتَعليمِ النّاس أمرًا لا يعلمونه في سياقِ الاستدلالِ والتَّذكيرِ، فالنّاسُ لا يَشْعُرونَ به، فيكونُ ذِكْرُه تعليمًا لهم مُدمَجًا في تذكيرِهم بهذه الآيةِ العظيمةِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾:

انقطاعُ جريانِ الشّمسِ له حدٌّ مُؤقَّتٌ مُعيَّنٌ

شَبَّهتِ الآيةُ جريَ الشَّمسِ في طريقٍ خاصٍّ لها في قولِه تعالى:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 516، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 20.
(3) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث (159).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 21.

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ بمستقرِّ المُسافِرِ في كونِه ثابتًا وقارًّا لا يُتخطَّى وهذه استعارةٌ، وعلى القول بأنَّ المعنى لأجْلِ أن ينتهيَ جريُها كما ينتهي سَيرُ المُسافِرِ يكونُ قد شبَّهَ انتهاءَ دَورِها إليه بمُستقَرِّ المُسافِرِ إذا قُطِعَ مَسيرُهُ، ووجهُ الشَّبَهِ انتهاءُ السَّيرِ إلى محَلٍّ مُعيّن، ولا يُقصَدُ أن يكونَ للشّمسِ قَرارٌ وثباتٌ مِثْلُ قرارِ المُسافِرِ، ولكنَّ المقصودَ انقطاعُ جَريِها بأنْ يكونَ له حدٌّ مؤقَّتٌ مُعيَّنٌ، وإنْ كانَ للشّمسِ قرارٌ كما هو ظاهِرُ اللَّفظِ لكانَ المُستقَرُّ حقيقةً لا مُستعارًا[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ دونَ تعريفِهِ بالإضافةِ:

تعظيمُ مُستقرِّ الشّمسِ وفخامتُهُ من تمامِ الآيةِ الباهرةِ

عدَلَ النَّظمُ عن إضافةِ ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ إلى ضميرِ الهاءِ العائدِ إلى الشّمسِ إلى الإتيانِ بحرفِ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، فلم يَقُلْ: (والشّمس تجري لمستقرِّها)، وذلك ليَحتَمِلَ حرفُ اللّامِ أوجُهًا مِن الدّلالةِ سبَقَ بيانُها، وليتأتّى تَنكيرُ (مُستَقَرٍّ) تَنكيرًا مُشعِرًا بتَعظيمِ ذلك المُستقَرِّ وفخامتِه[2].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية:

يقينيّةُ جري الشّمسِ بتقديرِ العزيزِ العليمِ

جاءت جملةُ ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ على طريقِ الفصلِ؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ لبيان السّبب، ولدفعِ توهُّمِ جَريِها بنفسِها، فلمّا قال: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ كان قد يتبادَرُ إلى الذّهنِ: هل تجري في مُستقرٍّ خاصٍّ لها بنفسِها، فقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ أيّ: ذلك الجريُ ليسَ بنفسِها ولا بإرادتها وإنَّما ذَلِكَ بتقديرِ اللّهِ الغالبِ لكلِّ ما في الكونِ العليم بِه، فجريُها بتدبيرِه وتسخيرِه إيّاها.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتمييزِ المُشارِ إليه أكملَ تمييزٍ؛ لأنَّه مَناطُ الاستدلالِ، وهو إشارةٌ إلى

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 268، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 137.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 21.

تنبيهُ الأذهانِ على عجيبِ جري الشّمسِ في أفلاكِ الأكوانِ

الشّمسِ حينَ جَريها لمُستقَرٍّ لها، وفيه إيجازٌ في اللفظِ، وعبَّرِ باسم الإشارةِ للبعيدِ، مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه، للإيذانِ بعُلوِّ رتبتِه، وبُعدِ منزلتِه، والتّعجيبِ من هذهِ الحالةِ؛ أيْ: ذلك الجريُ البديعُ المُنطوي على الحِكَمِ الرّائعةِ التي تحارُ في فَهمِها العُقولُ والأفهامُ، إنّما ذَلِكَ بتقديرِ اللّهِ وتَدْبيرِهِ وتَسْخيرِهِ إيّاها.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿تَقۡدِيرُ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَقۡدِيرُ﴾ لتقريرِ تعظيمِ ذلك الأمرِ الباهرِ للعقولِ وللمبالغةِ فيه، لِما في صيغةِ ﴿تَقۡدِيرُ﴾ من معنى التّفعيلِ[1]؛ أيْ: قدَّرهُ تقديرًا، فهو على ميزانٍ إلهيٍّ لا تُدركُ كُنهَه العقولُ.

نكتةُ التّذييلِ باقترانِ وصْفَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾:

مناسَبةُ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ للمعاني السّياقيّةِ

ذُيِّلَ الكلامُ بذِكْرِ الوصفَيْنِ الجليلَيْنِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، لمناسبَتِهما لسياقِ الآيةِ؛ أيْ: هو العزيزُ الغالبُ فلا يَقدِرُ أحدٌ أن يَفعَلَ فعلَه، وهو العليمُ بذلكَ الجَري وبغيرِه؛ أيْ: بذلك النّظامِ العجيبِ والنّهجِ البديعِ، ولمّا كان الوصفانِ على معنى العموم بدلالةِ (أل) فيهما، وكان ذِكْرُ الشّمسِ إشارةً إلى فردٍ من أفرادِ الكَونِ، دلَّ التّعبيرُ بهما على أنَّ جميعَ الكونِ يجري بعزّتِه وغلَبتِه وهو العليمُ به وبجميعِ أحوالِه، فـ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ هو الغالبُ بقُدرتِه علَى كلِّ مقدورٍ و﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ هو المحيطُ علمُه بكلِّ معلومٍ[2]، وفي الجمعِ بينَهما مُناسَبةٌ أخرى وهي أنَّ العِزَّةَ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكَوكَبِ العَظيمِ، والعِلْمَ يُناسِبُ النِّظامَ البَديعَ الدَّقيقَ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجريُ والمَشيُ والسَّيرُ والمرورُ:

لكلٍّ من هذه المفرداتِ دلالتُها في السّياقِ

الجريُ هو انْسياحُ الشَّيْءِ في سرعةٍ واسترسالٍ متواصلٍ، وفي

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 130.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 168.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 21.

مسارٍ مُعيَّنٍ، فكأنَّ مسارَه صار عادةً له لا يخرج منه ولا يتجاوزُه، ومنه: جريُ الفَرَسِ وجريُ ماءِ النّهرِ وجريُ الشّمسِ، وأمّا المشيُ فهو الانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ والامتدادُ فيه قليلًا قليلًا بإرادةٍ وبلا حِدَّةٍ، ولا يُمكِنُ أن يُقالَ: إنَّ الشّمسَ تمشي لِأنَّها سريعةٌ في سيرِها، ولا إرادةَ لها، كما أنَّ لفظَ المَشيِ لا يدُلُّ على ما أفادَهُ لفظُ الجريِ المناسِبُ لإسنادِه للشّمسِ، وأمّا السّيرُ فهو المُضيُّ والذَّهابُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ مع استطالةٍ ودقَّةٍ في الذَّهابِ وجَدٍّ فيه، وأمّا المَرُّ فيدلُّ على المُضيّ والاجتيازِ بالشَّيءِ بشِدَّةٍ، بمعنى اجتيازِ المارِّ غيرَه وهو في طريقِ مُضيِّه بأن يعترِضَه شيءٌ فيمرَّ به دونَ أن يُعيقَه في المُضيِّ مع سرعةٍ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة والرّاغب، المُفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جرى، مشى، سار، مرر).

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتابعُ الآياتِ تكميلٌ للمشهدِ وتتميمٌ للمعنى

لمّا ذَكرتِ الآيةُ السّابقةُ آيةَ النّهار؛ ناسَبَ أن يُتبِعَها بذِكْرِ آيةِ اللّيلِ فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾[1]، وذلك للتّكميلِ والتّتميمِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾: (قدر) أصلٌ يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[2]، والتَّقديرُ: يُطلَقُ على جَعلِ الأشياءِ بقَدَرٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ، وعلى تحديدِ المقدارِ، مثلُ تقديرِ الأوقاتِ، والكمّياتِ من الموزوناتِ والمعدوداتِ[3]، وتَقْديرُ اللّهِ الأشياءَ على وجهَيْن؛ أحدُهما: بإعطاءِ القُدرةِ، والثّاني: بأنْ يجعلَها على مقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ حسبَما اقتضَتِ الحكمةُ[4]، والتَّقْديرُ في الآيةِ مُرادٌ به: جَعْلُ الأشياءِ بِقَدَرٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ[5].

2) ﴿مَنَازِلَ﴾: (نزل) أصلٌ يدلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه، يُقالُ: نَزَلَ عَنْ دابَّتِه نُزولًا، ونَزَلَ المَطَرُ من السَّماءِ نُزولًا، ومَكانٌ نَزِلٌ: يُنْزَلُ فيهِ كَثيرًا، ووَجَدْتُ القَومَ على نَزَلاتِهم؛ أيْ: مَنازِلِهِمْ[6]، ومنازِلُ القمر: جَمْعُ مَنْزِلٍ، وهي أماكنُ نُزولِه، وعدَدُها ثمانيةٌ وعِشرونَ مَنزِلًا مِن أوَّلِ الشَّهرِ، فإذا صارَ إلى آخِرِ مَنازِلِه دقَّ[7]، والتَّنزيلُ:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 131.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 194، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 22.
(4) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (قدر).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 22.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (نزل).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 514.

تَرتيبُ الشَّيءِ ووَضعُهُ مَنْزِلَهُ، والمنازِلُ في الآية: جمعُ مَنزِلٍ، والمُرادُ بهِ المَسافةُ التي يَقطَعُها القمرُ في يوم وليلةٍ[1].

3) ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾: أصلُ الكلمة مِنَ الانعراج، وهو الانعِطافُ، والعُرجونُ: عودُ العِذْقِ من النَّخلة، فإذا قَدُم وعَتُق، يَبِسَ وتقوَّس واصفَرَّ، شُبِّهَ به القَمَرُ في دِقَّتِه وتَقوُّسِه واصفرارِه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أطوارِ القمرِ الزّمانيّةِ تنبيهٌ على تسارعِ الأوقاتِ

تُبيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ اللّهَ تعالى قد قدَّرَ القَمَرَ مَنازِلَ يَسيرُ فيها، ويَنزِلُ كُلَّ ليلةٍ في واحِدٍ منها، حتَّى يَكتَمِلَ ضَوْؤُه ويَصيرَ بَدرًا، ثمَّ يَتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا حتَّى يَعودَ هِلالًا، كعودِ عِذْقِ النَّخلةِ اليابِسِ الأصفَرِ النَّحيلِ المتقوِّسِ لِقِدَمِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ وفائدتُها:

عُطِفَتْ جُملةُ ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾ على جملةِ ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي﴾، لتكونَ من عطفِ الجملةِ الخبريَّةِ على الجملةِ الخبريةِ، والجهةُ الجامعةُ بينَهُما هي كونُهما مِن آياتِ السّماءِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآية:

اختلافُ قراءاتِ المعطوفِ ينشَأُ عنهُ اختلافُ نوعِ المعطوفاتِ

قرأ ابْنُ كَثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمْرٍو ورَوح عن يعقوب: ﴿وَٱلۡقَمَرُ﴾ رفعًا عطفًا على ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾، إذْ كانت الشّمسُ معطوفةً على اللّيل، فأتْبَعوا القمرَ أيضًا الشَّمسَ في الإعرابِ، لأنَّه أيضًا من الآياتِ، كما اللّيلُ والنّهارُ آيتانِ، فيكونُ من عطفِ المُفرَداتِ، فعَلَى هذه القراءة تأويلُ الكلام: (وآيةٌ لهُمُ القَمرُ قدّرناهُ مَنازِلَ)، ويَحتَمِلُ أن يكونَ مُبتدَأً خبرُه ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾، فيكونَ من عطفِ الجُمَل، وقرأ ابْنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحَمْزَةُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 33.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (عرجن).

والكِسائيُّ وأَبو جَعْفَرٍ وروَيْسٌ عَنْ يَعْقوبَ وخَلَفٌ بنَصبِ ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ على الاشتغالِ، وتقديرُ الكلامِ: (وقدّرنا القمرَ مَنازِلَ) فيكونُ من عطفِ الجُمَلِ[1]، ونكتةُ تغييرِ الأَسلوبِ الاعتناءُ بأمرِ التّقديرِ[2] وتعظيمُ هذا الفِعلِ الَّذي لولاهُ لَما عَرَفوا الشّهرَ وحِسابَ السِّنينَ.

أثرُ اختلافِ القراءاتِ في التّوجيهِ النّحويّ:

وعلى قراءةِ رفعِ: ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ تَحتَمِلُ الجُملةُ الفعليَّةُ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ أن تكونَ حالًا مِن (القَمَرُ)، والمعنى: وآيةٌ لهُمُ القمرُ حالَ كونِنا قدّرناهُ مَنازِلَ، فيكونَ القَمرُ آيةً بقَيدِ هذهِ الحالِ، وتَحتَمِلُ أن تكونَ خبرًا لـ(القَمَرُ)، ويكونَ العطفُ بالواوِ دالًّا على كونِ المذكورِ آيةً، وعلى قراءةِ النّصبِ تكونُ جملةُ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ مُفسِّرةً للمحذوفِ، والتّقديرُ: (قدّرْنا القمرَ قدّرْناهُ منازِلَ)، ففيها زيادةٌ في إيضاحِ الآيةِ وبيانِها؛ لأنَّ الجملةَ المُفسِّرةَ في معنى التأكيدِ والتّقريرِ.

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾:

بديعُ التَّقديرِ لمعرفةِ حسابِ الزّمانِ

جاء استعمالُ لفظِ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ الذي هو من التّقديرِ، وهو جَعلُ الأشياءِ على مِقدارٍ عندَ صُنعِها[3]، ويُطْلَقُ عَلَى جَعْلِ الأَشْياءِ بِقَدَرٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ، ويُطْلَقُ عَلَى تَحْديدِ المِقْدارِ مِنْ شَيْءٍ تُطْلَبُ مَعْرِفَةُ مِقْدارِهِ، مِثْلَ تَقْديرِ الأَوْقاتِ وتَقْديرِ الكَمّيّاتِ مِنَ المَوْزوناتِ والمَعْدوداتِ، وكِلا الإِطْلاقَيْنِ مُرادٌ هُنا، فَإِنَّ اللّهَ قَدَّرَ لِلشَّمْسِ والقَمَرِ نِظامَ سَيْرِهِما، وقَدَّرَ بِذَلِكَ حِسابَ الفُصولِ السَّنَوِيَّةِ والأَشْهُرِ والأَيّامِ واللَّيالي[4].

غرضُ الإسنادِ في ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ:

أُسنِدَ فعلُ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ، للإشعارِ بأنَّ هذا التّقديرَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/ 378، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 307، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 353.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 16.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 95.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 22.

لا يَقدِرُ عليهِ إلّا الإلهُ الملكُ الواحدُ الأحدُ، وأنَّ تقديرَ القمرِ مَنازِلَ هو شأنٌ عظيمٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿مَنَازِلَ﴾:

تشخيصُ القمرِ بالتّنقُّلِ بينَ الأماكِنِ للإعلامِ باختلافِ الزّمانِ

شَبّهتِ الآيةُ المنزلَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وهو اسمُ مكانِ النُّزولِ، للمَواقِعِ الَّتي يَظهَرُ القمرُ من جهتِها كلَّ ليلةٍ من الشّهر، وهي ثمانٍ وعِشْرونَ مَنْزِلَةً عَلَى عَدَدِ لَيالي الشَّهْرِ القَمَرِيِّ، فيكونُ إطلاقُ المنازِلِ، وأصلُهُ من تشبيهِ المَنزلِ بالموقعِ في كونِ القمرِ ينتَقِلُ إليه على جهةِ الحُلولِ فيه بقوّةٍ لمدَّةٍ[1]، فكأنَّ القمرَ يَنزِلُ كلَّ ليلةٍ في واحدٍ من المَنازِلِ لا يتَخَطّاهُ ولا يتقاصَرُ عنه، فهو من بابِ الاستعارةِ التّصريحيّة، ولمّا قال: ﴿مَنَازِلَ﴾ بصيغةِ الجمعِ دلَّ على أنَّ له مراتبَ تختلفُ كلَّ ليلةٍ.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ وفائدتُه:

مَنازلُ القمرِ تَظهرُ بزيادتِه واستوائِه ونُقصانِه

لمّا كان القمرُ المُخبَرُ عنه في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ ليس مَنازِلَ، إذ لا يُخبَرُ عنه بأنَّه مَنازِلُ لأنَّ المنازِلَ اسمُ مكانٍ، كان لا بدَّ من تقديرِ مُضافٍ يُناسِبُ السّياقَ، والتّقديرُ: (والقمرَ قدّرْنا مَسيرَه مَنازِلَ)، فيكونُ من بابِ حذفِ المُضافِ وهو اسمُ المكانِ (مَسير)، ليكونَ أصلُ الكلامِ مَسيرَ القمرِ مَنازِلَ، ويُحتَمَلُ أن يكونَ التّقديرُ: (والقمرَ قدّرْنا سَيرَهُ مَنازِلَ)؛ أيْ: (في منازِلَ)، فالمحذوفُ هو المصدرُ، كما يَحتَمِلُ أن يكونَ الكلامُ بتقديرِ: (والقَمرَ قدّرْنا لَهُ منازِلَ)، بحذفِ حرفِ الجرِّ، أو: (والقَمرَ قدّرناه ذا مَنازِلَ)[2]، وذهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ المُقدَّر منازلَ هو نورُ القمرِ وليسَ مَسيرَهُ، وتقديرُ الكلامِ: (والقمرَ قدّرنا نورَه في منازلَ، فيَزيدُ مِقدارُ النّورِ كُلَّ يَوْمٍ وينقُصُ)[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 22.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 16، والمنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 5/ 351، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 140.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 67.

فائدةُ المجازِ بالحذفِ في ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾:

على القولِ بأنَّ هناك مُضافًا محذوفًا يُسألُ عن نكتةِ تعديَةِ فِعْلِ ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾ إلى ذاتِ القمرِ دونَ ذِكْرِ المُضافِ؟ وذلك للإيماءِ إلى عظمةِ آيةِ القمرِ ليتّسِقَ معَ آيةِ الشّمسِ الَّتي تَجري لِمُستقرٍّ لها، وللتّنبيهِ إلى أنَّ مَسيرَ القمرِ لا يُعرَفُ إلّا بالنَّظَرِ إلى القمرِ نفسِه، وللمُبالَغةِ في لُزومِ السَّيْرِ لَهُ مِنْ وقْتِ خَلْقِهِ حَتَّى كَأَنَّ تَقْديرَ سَيْرِهِ تَقْديرٌ لِذاتِهِ[1]، فلو قيلَ: (والقمرَ قدّرنا مَسيرَه) ونحوُه، لفاتَتْ تلك الفوائدُ، ولكانَ النّظَرُ إلى الفعلِ والحَدَثِ لا إلى الآيةِ الظّاهرةِ الّتي يَعلَمُ بها النّاسُ عددَ السّنينَ والحِسابَ.

آيةُ القمرِ قائمةٌ بذاتِها مستقلّةٌ بكيانِها

نكتةُ استعمالِ ﴿حَتَّىٰ﴾:

جاء استعمالُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾، للإشعارِ بأنَّ عَودَ القَمرِ كالعُرجونِ القَديمِ يكونُ على جهةِ انقضاءِ القَمرِ في مَنازلِه شيئًا فشيئًا، و﴿حَتَّىٰ﴾ ابتدائيَّةٌ، ولمّا كان معنى الغايةِ لا يُفارِقُها آذَنَ ما فيها من معنى الغايةِ بمُغيًّا محذوفٍ، فالغايَةُ تَسْتَلْزِمُ ابْتِداءَ شَيْءٍ، والتَّقْديرُ: (ابتدَأَ ضَوؤُه وأَخَذَ في الازْدِيادِ لَيْلَةً فَلَيلَةً، ثُمَّ أَخَذَ في التَّناقُصِ حَتَّى عادَ)؛ أيْ: (صارَ كالعُرجونِ القَديمِ)[2].

عَـــودُ الـقـمـرِ كـالـعُـرجـونِ الـقـديـمِ بـعـدَ انقضاءِ منازلِه كاملةً

فائدةُ العطفِ بتقديرِ المحذوفِ في الآيةِ:

لمّا كانتْ ﴿حَتَّىٰ﴾ تُفيدُ العطفَ أفادتْ أنَّ ما بعدَها معطوفٌ على كلامٍ قبلَها، والتّقديرُ: (فسارَ في منازلِه حتَّى عادَ كالعُرجونِ)، فدلَّ قولُه: ﴿قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ على هذا المحذوفِ وهو السَّيرُ، لأنَّ كونَه ذا منازلَ يقتضي سَيرَه[3]، ففي الكلامِ إيجازٌ بحذفِ الجملةِ بقرينةِ السّياقِ.

تـقـديـرُ الـقـمـرِ مـنـازلَ سُـنَّـةٌ كونيَّةٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 22.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 22.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 486.

التَّنبيهُ على بداياتِ النّهاياتِ ربطُ دقَّةِ اختيارِ اللفظِ وتنوُّع فوائدِه العِلميَّة

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿عَادَ﴾:

آثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردةِ ﴿عَادَ﴾، للتَّنبيهِ على أنَّ هذا العَودَ له بَدءٌ، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: 29]، فإنَّه لا يُقالُ: عاد إلى الشّيءِ إلّا وقد بدأ به[1]، والمعنى: حتَّى عادَ القَمرُ مرَّةً أخرى كالعُرجونِ القَديم، فبدلًا من أن يُقالَ: (والقمرَ قدّرناهُ منازِلَ فبدأَ كالعُرجونِ القديم حتَّى عادَ كذلك)، قال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾، ففي الكلامِ إيجازٌ بليغٌ، لإشارته إلى أنَّه في الابتداءِ كالعُرجونِ، ثمَّ يتزايَدُ نورُهُ حتَّى يتمَّ بدرًا، ثمَّ ينقصُ نورُه يومًا فيومًا إلى أن يصيرَ مثلَ وضعِه السّابقِ[2].

تشبيهُ القمرِ بالعُرجونِ تذكيرٌ بزوالِ الدُّنيا بما يُشاهدُه النّاسُ

بلاغةُ التشبيهِ التّمثيليّ ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾:

شَبّهتِ الآيةُ الكريمةُ القمرَ بالعُرجونِ القديمِ في قولِه تعالى: ﴿عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وهو من تشبيهِ الحِسّيِّ - وهو القمرُ في أواخِرِ لياليه - بحسّيٍّ معلوم ومشهورٍ بينَ العَربِ - وهو العُرجونُ القديمُ - وهو العودُ الَّذي تُخرِجُهُ النَّخْلَةُ فَيكونُ الثَّمَرُ في مُنْتَهاه، وهوَ الَّذي يَبْقَى مُتَّصِلًا بِالنَّخْلَةِ بَعْدَ قَطْعِ الكِباسَةِ مِنْهُ، وهيَ مُجْتَمَعُ أَعْوادِ التَّمْرِ، فيُسمَّى عُرجونًا إذا تقوّسَ ويبِسَ واصفَرَّ، فشبَّهَ القَمرَ بِهِ من ثلاثةِ أوجُهٍ: الاصفرارِ والدّقّةِ والاعوجاجِ، ووجْهُ الشّبَهِ أنَّ العُرجونَ بَعدَ اليُبْسِ يَستدِقُّ ويَصيرُ مُعوَجًّا أصفرَ، فالتَّشبيه تمثيليٌّ، ووجه الشّبه هيئةٌ مُنتزعَةٌ من عدّة أوصافٍ للمُشبَّه به[3]، فَأَشْبَهَ صورةَ ما يواجِهُ الأَرْضَ مِنْ القَمَرِ في آخِرِ لَيالي الشَّهْرِ وفي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْهُ، وتَرْكيبُ ﴿عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ صالِحٌ لِصورَةِ القَمَرِ في اللَّيْلَةِ الأَخيرَةِ وهيَ الَّتي يَعْقُبُها المُحاقُ، ولِصورَتِهِ في اللَّيْلَةِ الأولَى

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عود).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 145.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 144 - 145.

مِنَ الشَّهْرِ وهوَ الهلالُ، وقَدْ بَسَّطَ لَهُمْ بَيانَ سَيْرِ القَمَرِ ومَنازِلِه، لِأَنَّهُمْ كانوا يُتْقِنونَ عِلْمَهُ بِخِلافِ سَيرِ الشَّمْسِ(1).

نكتةُ التّقييدِ بالصّفةِ ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾:

مصيرُ كلِّ قديمٍ إلى زوالٍ

جاءتْ صِفةُ العُرجونِ وهي ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾، للبيانِ والإيضاحِ، فإنَّ العُرجونَ الَّذي هو عودُ العِذْقِ الَّذي يكونُ أصفرَ عريضًا مُستدِقًّا منحنيًّا لا يكونُ إلّا قديمًا، فإذا عتُقَ وقدُمَ دقَّ وتقوَّسَ واصفرَّ، ونكتةُ الوصفِ هو بيانُ وجهِ الشّبَهِ وظهورُه عندَ المُخاطَبينَ، معَ التَّنبيهِ على أنَّ العُرجونَ القديمَ مصيرُه إلى زوالٍ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَودُ والرّجوعُ:

العَودُ يدلُّ على البَدءِ بالشّيءِ، والرّجوعُ يُفيدُ العَودَ معَ الانتهاءِ

العَودُ هو الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنه إمّا انصرافًا بالذّاتِ، أو بالقولِ والعزيمةِ، ولا يكونُ العَودُ إلّا من بَدءٍ، وقد يَبدأُ بالشيّءِ ولا يَعودُ إليه، ولكنَّه إذا قيل: عادَ إلى الشَّيءِ فيدُلُّ على أنَّه بدَأ به، ومن مَعنى المُقابَلةِ بينَهُما قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 27]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾ [البروج: 13]، وأمّا الرُّجوعُ فهو العَودُ إلَى ما كانَ عَلَيْهِ مَكانًا أو صفةً أو حالًا، ويُفيدُ اللَّفظُ معنى المَصيرِ والانتهاءِ إلى المَوضِعِ الَّذي قد كان فيه قَبلُ(2)، وجاءَ في مُعجَمِ الفُروقِ اللُّغويةِ في بيانِ الفَرقِ بينَ اللفظَيْنِ: "الرجوعُ: فِعلُ الشّيءِ ثانيةً، ومَصيرُه إلى حالٍ كان عليها، والعَودُ: يُستَعمَلُ في هذا المَعنى على الحقيقةِ، ويُستَعمَلُ في الابتداءِ مجازًا، قالَ الزَّجّاج: يُقالُ: قد عاد إليَّ من فلانٍ مكروهٌ، وإن لم يكُنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 22.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عود) وابن منظور، لسان العرب: (رجع، عود)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.

قد سبَقَهُ مكروهٌ قبلَ ذلك، وتأويلُه أنَّه لَحِقَني مِنه مكروهٌ، قلتُ: ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]، والمعنى: أو لتدخلُّن في ديننا، فإنَّه عليه السلام لم يكن على دينِهم قطُّ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ اللَّيلَ والنّهارَ والشّمسَ والقمرَ باعتبارِها آياتٍ كونيّةً؛ ناسبَ الانتقالُ في هذهِ الآيةِ إلَى بيانِ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَشْياءِ المَذْكورَةِ خُلِقَ عَلَى وفْقِ الحِكْمَةِ فقالَ تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾[1]، ولمّا تقرَّرَ أنَّ لكلٍّ منهُما مَنازلَ لا يَعدوها، فلا يَغلِبُ ما هو آيتُهُ ما هو آيَةَ الآخَرِ؛ بل إذا جاءَ سُلطانُ هذا ذهَبَ ذاكَ، وإذا جاءَ ذاكَ ذهَبَ هذا، فإذا اجتمَعا قامَتِ السّاعةُ، تَحرَّرَ أنَّ نتيجةَ هذهِ القضايا قولُه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُدۡرِكَ﴾: أَصْلُ (درك) من الدَّرَك، وهو التَّبِعةُ، يُسَكَّنُ ويُحَرَّكُ[3]، وهو لُحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ ووُصولُهُ إلَيْهِ[4]، والدِّراك: إتْباعُ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ في كلِّ شيءٍ[5]، يُقالُ: أدركتُ الرَّجُلَ إدراكًا إذا لحِقتَه، فهوَ مُدْرَك[6]، وتَدارَكَ القَوْمُ لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلَهُمْ[7]، وممّا سَبق نخلُصُ إلى أنَّ المُرادَ بالإدراكِ في الآيةِ: هو اللَّحاقُ والوصولُ إلى البُغيةِ، والمَقصودُ: نَفيُ انبغاءِ إدراكِ الشَّمسِ القَمَرَ؛ أَيْ: لا يَدخُلُ النَّهارُ علَى اللَّيلِ قَبلَ انقضائِه، ولا يَدخُلُ اللَّيلُ على النَّهارِ قبلَ انقضائِه[8].

2) ﴿فَلَكٖ﴾: (فلك) أصلٌ يدلُّ على استِدارةٍ في شَيءٍ، مِنْ ذلكَ: فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفتْحِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 278.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 132.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (درك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).
(5) الخليل، العين: (درك).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (درك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك)، والمناويّ، التّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 159.
(8) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 514، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 24.

الفاءِ، سُمّيَتْ لاستِدارَتِها(1)، وفَلَكُ كُلِّ شَيْءٍ: مُسْتَدارُهُ ومُعْظَمُه، وفَلَكُ البَحْرِ: مَوْجُه المسْتَديرُ المترَدِّدُ(2)، ومِنْ هذا القياسِ فَلَكُ السَّماءِ: مَجرى الكواكبِ(3)، والمَقصودُ بالفَلَكِ في الآيةِ: الدّائرةُ المَفروضةُ في الخلاءِ الجوّيِّ لسيرِ أَحَدِ الكواكبِ سَيرًا مُطَّرِدًا لا يَحيدُ عنه(4).

3) ﴿يَسۡبَحُونَ﴾: (سبح) أصلٌ يدلُّ على جِنْسٍ من السَّعْيِ(5)، السَّبْح مصدرٌ كالسِّباحة، سَبحَ السّابحُ في الماء، والنُّجوم تَسْبَحُ في الفَلَك: تَجري في دَوَرانه(6)، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾ [النّازعات: 3]؛ أيْ: تَذهَبُ فيها بَسْطًا كما يَسبَحُ السّابحُ في الماء سَبْحًا، والسَّبْحُ لا يَختَصُّ بالجَري في الماءِ، فقد يُقالُ للفرَسِ الَّذي يمُدُّ يديهِ في الجَري: سابِحٌ، وعليه فالسَّبْحُ في الآيةِ مُستعارٌ للسَّيرِ في مُتَّسَعٍ لا طرائقَ فيه مُتلاقيةً كطرائقِ الأرضِ، وهو تقريبٌ لِسَيْرِ الكواكبِ في الفضاءِ العظيمِ(7).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّمسُ والقمرُ يتعاقبانِ لا يفترقانِ بنظامٍ دقيقٍ وزمانٍ مُحدَّدٍ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّه لا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَرَ في مَسيرِه، فتجتَمِعَ معَهُ باللَّيلِ، وكذلكَ لا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للَّيلِ أنْ يَسبِقَ النَّهارَ، فيُزاحِمَه في مَحلِّه أو وقتِه، وإنَّما كُلُّ واحدٍ من الشَّمسِ والقَمَرِ واللَّيلِ والنَّهارِ يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ فيَسيرُ في هذا الكَونِ بِنِظامٍ بَديعٍ(8).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (فلك).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 25.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(6) الخليل، العين، وابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (سبح).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 61.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 438، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 578، 579.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ إيلاءِ حرفِ النّفي المُسنَدَ إليه:

تسليطُ النّفيِ على الشّمسِ لبيانِ انتفاءِ إدراكِها انتفاءً مُطلَقًا

قُدِّم ذِكْرُ حرفِ النَّفي على المُسنَدِ إليهِ في قولِه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾، وكان الظّاهرُ أن يُقالَ: لا ينبغي للشّمسِ أن تُدرِكَ القمرَ، لكنَّه عدَلَ عنه إلى إيلاءِ النّفيِ الاسمَ دونَ الفِعلِ، وفائدتُه تقريرُ النّفيِ في ذِهنِ السّامعِ، لتوجُّهِ النّفيِ إلى الشّمسِ وما أُسنِدَ إليها، وإن كان المَقصودُ الأوّلُ توجُّهَ النّفيِ إلى الفعلِ ﴿يَنۢبَغِي﴾، وليدُلَّ الكلامُ على أنَّ الشّمسَ مُسخَّرةٌ لا يَتيسَّرُ لها إلّا ما أُريدَ بها[1]، ووجهُ الدَّلالةِ أنَّ حرفَ النّفيِ لمّا دخلَ على الشّمسِ نفسِها مع أنَّ النّفيَ مُتوجِّهٌ إلى الفعلِ الَّذي بعدَه لا بدَّ له من نكتةٍ، وهي التّنبيهُ على أنَّ ذاتَ الشّمسِ لا يَصدُرُ عنها شيءٌ بالاختيارِ، لِتَوجُّهِ النّفيِ إليها؛ فهي في حُكمِ المَعدومِ، وما هذا شأنُه فلا يَصدُرُ عنه شيءٌ بالاختيارِ، فما يَصدُرُ عنها من عَدمِ إدراكِها القمرَ بإرادةِ اللّهِ تعالى، ولو قيلَ: (لا ينبغي للشّمسِ أن تُدرِكَ القمَرَ)؛ لكانَ النّفيُ مُتوجِّهًا إلى الفعلِ، وحينئذٍ لم يُفهَمْ منه كونُ الشّمسِ في حُكمِ المَعدومِ، فلا يدُلُّ على كونِها مُسخَّرةً[2].

فائدةُ النّفيِ بحرفِ ﴿لَا﴾:

يُفيدُ التّعبيرُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ النّفيِ وعدَمَ انقطاعِه بدَلالةِ السّياقِ؛ أي: استغراقَهُ لكلِّ الأزمانِ إلى وقتِ قيامِ السّاعةِ.

نكتةُ استعمالِ فعلِ ﴿يَنۢبَغِي﴾:

نفـيُ إدراكِ الشّمسِ للقمرِ نفيٌ للفعلِ ولتصوُّرِ حُصولِه

استعَملَ النّظمُ الكريمُ الفِعلَ ﴿يَنۢبَغِي﴾، وهو مُطاوِعُ فِعْلِ (بغى) الَّذي هو بمعنى (طَلَبَ) تَجاوَزَ الاقتصادَ فيما يَتحرّى[3]، فأفادَ نفيَ الانبِغاءِ نفيُ تأتّيه، بمعنى أنَّه لا يصلُحُ لها أن تُدرِكَ القمَرَ ولا

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 269.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 146.

(3) الراغب، المفردات: (بغي).

يتَسخَّرُ لها ولا يَستقيمُ، لأنَّه إن أدركَتِ القمرَ كانت متجاوِزةً الحدَّ الذي ليس لها في جَريِها، ولأفادَ أنَّه تعالى خلَق الشّمسَ والقمرَ على صفةٍ يستحيل إدراكُ الشّمسِ القمرَ واجتماعُهما ما بقيَتِ الدُّنيا، فإذا انقضى العالَمُ وقامتِ القيامةُ جُمِعَ الشّمسُ والقمرُ، فالنفيُ هو نفيٌ للفعلِ ولتصوُّرِ مِثلِ هذا الفعلِ أن يَصدُرَ عنها.

نكتةُ التّعبيرِ بنفيِ الانبغاءِ دونَ انبغاءِ النّفيِ:

نفيُ الانبغاءِ يُفيدُ نفيَ الإمكانِ والحُصولِ

لمّا كانَ هناك فرقٌ بينَ أن يُقالَ: (ينبغي ألّا تَفعَلَ) و(لا ينبغي أن تفعلَ) لدلالةِ الأوَّلِ على إثباتِ الانبِغاءِ فلا يقتضي وجوبًا، بمعنى أنَّه يَحتَمِلُ أن يكونَ على سبيلِ الوُجوبِ أو على سبيلِ الأصلَحِ والأحسَنِ، ولدَلالةِ الثّاني على نفيِ الانبغاءِ الَّذي يُفيدُ نفيَ إمكانِه وحُصولِه، كُنّيَ بالأُسلوبِ الثّاني على المَحظورِ الَّذي لا يستقيمُ فعلُه أو لا يُمكِنُ حُصولُه، ولهذا قالَ تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ دونَ أن يُقالَ: (الشّمسُ ينبغي لَها ألّا تُدرِكَ القمرَ)؛ لأنَّه سيكونُ بمعنى الأفضلِ والأحسَنِ والأسلَمِ ممّا يُفيدُ صحَّة الوقوعِ ولكن معَ مَرجوحيَّتِه، وهذا يُخالِفُ الواقِعَ الكونيَّ، وممّا يجري في هذا البابِ قولُه تعالَى فيما يتعلَّقُ بالتّوحيدِ: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: 18] وقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم: 92]، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: 69][1].

فائدةُ اللّامِ في ﴿لَهَآ﴾:

تُفيدُ اللّامُ في قولِه تعالَى: ﴿يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ معنى الاختصاصِ؛ بمعنى أنَّ نفيَ انبغاءِ إدراكِ الشّمسِ القمرَ ثابتٌ لها لا ينفكُّ عنها بحالٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 24.

نكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعليّ:

تـقـويـةُ حُـكـمِ الإسـنـادِ تُـقـوّي المـعـنـى المُـرادَ تحقيقُه

قُدِّم ذِكْرُ المُسنَدِ إليهِ في قولِه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾، وجاءَ المُسنَدُ جملةً فعليَّةً، لتقويةِ حُكم النّفي وتحقيقِه، فذَلكَ أَبْلَغُ في الانْتِفاءِ والامتناعِ مِمّا لَوْ قيلَ: (لا يَنْبَغي لِلشَّمْسِ أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ)[1].

نكتةُ استعمالِ مُفرَدةِ الإدراكِ:

نفيُ إدراكِ بلوغِ الشّمسِ للقمرِ نـفـيٌ لـلـعـكـسِ كذلك

لمّا كان الإدراكُ بمعنى اللَّحاقِ والوصولِ إلى البُغيةِ، وكان المصدرُ المُؤوّل ﴿أَن تُدۡرِكَ﴾ فاعلَ ﴿يَنۢبَغِي﴾، أفاد الكلامُ نَفيَ انْبِغاءِ إِدْراكِ الشَّمسِ القَمَرَ، والمَعْنَى: نَفْيُ أَنْ تَصْطَدِمَ الشَّمْسُ بِالقَمَرِ، خِلافًا لما يَبْدو مِنْ قُرْبِ مَنازِلِهِما، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ المُسامَتَةِ لا مِنَ الاقْتِرابِ[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوّلِ ﴿أَن تُدۡرِكَ﴾:

نـفـيُ إدراكِ الشّمسِ للقمرِ مُستمِرٌّ إلى قيامِ السّاعةِ

جاء التَّعبيرُ بالمصدرِ المُؤوّل في قولِه تعالى: ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ للإشعارِ بأنَّ المُرادَ نفيُ الإدراكِ على أيِّ وجهٍ كان دونَ تقييدٍ بأيِّ وصفٍ للشّمسِ أو للقمرِ، ولتِبيانِ أنَّ الإدراكَ مُستمِرٌّ إلى قيامِ السّاعةِ، ولأنَّه تعالى هو الّذي سخّرَها لِأَنْ تَجريَ لِمُستقَرٍّ لها، ولو قيلَ: (لا الشّمسُ ينبغي لها إدراكُ القمرِ)، لكانَ الكلامُ يَحتمِلُ وصفًا للمصدرِ الصّريحِ، ولكنَّه محذوفٌ، فيبقَى المُخاطَبُ مُتوهِّمًا تقييدَ نفيِ الإدراكِ بوصفٍ ما، لمَجيئِه بصيغةِ المَصدرِ الصّريحِ، والمَقصودُ نفيُ تقييدِ المَصدرِ مُطلَقًا، ولهذا جاءَ بصيغةِ المصدَرِ المُؤوَّلِ.

توجيهُ نفيِ إدراكِ الشّمسِ للقمرِ دونَ عكسِه:

مـا كـان أبـطَـأَ نُفيَ عنه إدراكُ الأسرعِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ نفيِ اللّهِ تعالى إدراكَ الشّمسِ للقمَرِ، دونَ أن يُقالَ: (لا القمرُ ينبغي أن يُدرِكَ الشّمسَ)؟ والجوابُ: هو أنَّ سَيرَ القضمرِ أسرَعُ بالنِّسبةِ إلى قَطعِ فَلَكِه؛ لأنَّه يَقطَعُ فَلَكَه في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 24.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 24.

شَهرٍ، والشّمسُ لا تَقطعُ فَلَكَها إلّا في سنةٍ، فكانت جديرةً بأن توصَفَ بنفي الإدراكِ لبُطءِ سَيرِها في قَطعِ فَلَكِها[1].

فائدةُ تَكرارِ (لا) في الآية:

لمّا تكرّرتْ (لا) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾؛ أفادت اختِلافَ المَوضوعَيْن، فيكونُ قولُه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ آيةً، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ آيةً أخرى، فأفادَ تَكرارُ (لا) تعدُّدَ الآياتِ وتقريرَ النّفيِ في نُفوسِ المُخاطَبين والمُبالغةَ فيه.

استقلالُ الجُملِ بالنّفي تَعدادٌ للمعاني المُستقِلّةِ

بلاغةُ الإيجازِ بينَ الاحتباكِ والاكتفاءِ:

في قولِه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ إيجازٌ بديعٌ، وهو إمّا من بابِ الاحتباكِ أو الاكتفاءِ، وبيانُه أنّه لمّا قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ نفَى ضِمنًا إدراكَ النّهارِ للّيل، ولمّا قال: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ نفَى ضِمنًا إدراكَ القمرِ للشّمس، للتّلازُمِ بينَ الشّمسِ والنّهارِ، وبينَ القمرِ واللّيل؛ أيْ: ذَكَرَ أوّلًا النّهارَ بدليلِ الشّمسِ عليه، وحَذَفَ (وَلا القَمَرُ ينبغي له أن يُدرِكَ الشَّمسَ)، وذَكَرَ ثانيًا القمرَ بدليلِ اللّيلِ عليه، وحَذفَ (وَلا النَّهارُ سابِقُ اللَّيلِ)، فكان في الجُملةِ الأولى دليلٌ على ما حُذِفَ في الثّانيةِ، وفي الجملة الثّانية دليلٌ على ما حُذِفَ في الجُملةِ الأولى[2].

اجتماعُ توجيهاتِ فنونِ البديعِ في النّظمِ البديعِ من براعةِ الإيجازِ

وإمّا أن يكونَ من الاكتفاءِ[3]، فيكونَ إيجازًا بحذفِ جُزءٍ من المُتلازِمَيْن في الكلامِ، لدَلالةِ السّياقِ عليه، لأنَّه لمّا قال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ أفادَ أنَّ الكلامَ بتقديرِ: (وَلا القَمَرُ يُدرِكُ الشَّمسَ)، لترابطِهما وتلازُمِهما في الواقعِ، فاكتُفيَ بذِكرِ الشّمسِ

(1) الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/ 472.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 24.

لقوّتِها وسُرعتِها في مَدارِها، ولمّا قال: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ كان الكلامُ بتقديرِ (وَلا النَّهارُ سابِقُ اللَّيْلِ)، فاكتُفي بذِكْرِ اللَّيلِ.

نكتةُ استعمالِ لفظِ الإدراكِ مع الشّمسِ والسّبقِ مع اللّيلِ:

دقَّـةُ اختـيـارِ اللَّفظِ في التّعبيرِ عـن الإشـارة العلميَّةِ

ذكرتِ الآيةُ مع الشّمسِ فعلَ الإدراكِ المنفيِّ عنها في قولِه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾، لنفيِ وقوعِ ذلك في المُستقبَلِ، ولنفيِ تصوُّرِ مِثلِ ذلكَ الأمرِ في الذّهنِ، ونفتِ الآيةُ فعلَ السّبقِ عن الليلِ في المُقابِلِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ دونَ أن يُقالَ: (ولا اللَّيلُ ينبغي أن يُدرِكَ النّهارَ)، للتّنصيصِ على التدبيرِ والحكمةِ على المُعاقَبةِ، فإنَّه مُستفادٌ من الحَركةِ اليوميّةِ الَّتي مدارُ تصرُّفِ كلٍّ منهُما عليها[1]، وذهبَ بعضُ المُفسّرين إلى أنَّ السّببَ في جعلِ الشَّمسِ غيرَ مُدرِكةٍ، والقمَرِ غيرَ سابقٍ، أنّ الشّمسَ لا تقطَعُ فَلَكَها إلّا في سنةٍ، والقمرَ يَقطعُ فَلَكَه في شهرٍ، فكانتِ الشّمسُ جديرةً بأن توصَفَ بالإدراكِ لتَباطُؤِ سَيرِها بالنّظَرِ إلى سَيرِها في فَلَكِها عن سَيرِ القَمَرِ، فكان القمرُ خليقًا بأن يوصَف بالسَّبقِ لسُرعةِ سَيرِه؛ أيْ: باعتبارِ الزّمَنِ الّذي يُنجزُه لقَطعِه فَلَكَهَ في شهرٍ[2].

بلاغةُ الكنايةِ ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾:

لّما أخبَرَ اللّهُ تعالى في قولِه: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ عن سَبْقِ النّهارِ اللَّيلَ أفادَ تعاقُبَهُما، فهو كنايةٌ عن أنَّ اللَّيلَ لا يأتي حتَّى يَذهَبَ النّهارُ، والنّهارَ لا يأتي حتَّى يمضيَ اللَّيلُ.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِۚ﴾:

(أل) في لفظَيِ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِۚ﴾ للجِنسِ، فالمُرادُ جِنسُ اللَّيلِ وجنسُ النّهارِ، وليسَ ليلًا أو نهارًا مُعيَّنًا.

(1) الطِّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 21.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 18.

إقامةُ الجملةِ المعطوفةِ باستقلالِ المعنى وتحقيقِ الانفرادِ

نكتةُ العُدولِ عن الفصلِ إلى الوصلِ:

لمّا كانت جُملةُ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ على معنى العُمومِ والكليَّةِ، كان الظّاهرُ أن تكونَ الجُملةُ على الفصلِ، لتكونَ تذييلًا لِما سبقَها ومن الضّربِ المُستقلِّ بنفسِه في إفادةِ معنى العُمومِ والكلّيَّة، لكنَّه عدَلَ عن الفَصلِ إلى العَطفِ ليكونَ قولُه تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ آيةً وعلامةً باهرةً أخرى، بمعنى كَونِ كلِّ كوكبٍ أو نَجمٍ يَسبَحُ في فَلَكِه آيةً عظيمةً أخرى ونِعمةً على الخَلْقِ كُبرَى، كما أنَّ في العدولِ إلى العطفِ تَرجيحًا لجانِبِ الإخبارِ بهذه الحَقيقةِ على جانِبِ التَّذييلِ، وإلّا فحَقُّ التَّذييلِ الفَصلُ[1].

تنوُّعُ تقديرِ المُضافِ المحذوفِ بينَ العمومِ والخصوصِ

فائدةُ تنوينِ العِوَضِ في لفظِ (كُلّ):

التّنوينُ في لفظِ العمومِ (كُلّ) عوضٌ عن المُضافِ إليه، والتّقديرُ: وكلُّهم[2]، بقرينةِ ضميرِ الجمعِ في ﴿يَسْبَحُونَ﴾ المُقتضي المُطابَقةَ في الجمعِ بين المبتدأِ والخبرِ، والضّميرُ عائدٌ إلى جميعِ الكواكبِ والنُّجوم، ويَدخُلُ فيها الشّمسُ والقمرُ دخولًا أوّليًّا لَمجيئِهما في السّياقِ[3]، فإنَّ ذِكْرَ الشّمسِ والقَمرِ مُشعِرٌ بها، أو يكونُ الضّميرُ عائدًا إلى الشّمسِ والقمرِ فقط، والجَمعُ بتقديرِ المُضافِ بـ(كلُّهم) باعتبارِ التَّكاثُرِ العارضِ لهُما بتكاثُرِ المَطالعِ والمَغاربِ، فنُزِّلَ هذا التّكاثُرُ منزلةَ تعدُّدِ أفرادِهما، فإنَّ اختلافَ الأحوالِ يوجِبَ تَعددًا ما في الذّاتِ[4].

كلُّ كوكبٍ وجرمٍ في السّماءِ في فَلَكِهِ سابحٌ

فائدةُ العمومِ في لفظِ (كُلٌّ):

يُفيدُ لفظُ (كُلٌّ) العمومَ، مع أنَّ المتقدِّمَ ذِكْرُه هو الشّمسُ والقَمَرُ، ومناسَبةُ التّعميمِ إفادةُ الحُكمِ المَذكورِ في قولِه تعالى: ﴿فِي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 25.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 18.
(3) ابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، ص: 193، والواحديّ، التفسير البسيط: 18/ 487، والكرماني، لباب النّقول، ص: 2355.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 269، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 168.

﴿فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ للأرضِ والشّمسِ والقَمرِ وجَميعِ الكواكبِ، وقَرّرَ هذا المعنى اقترانُ الفعلِ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ بضميرِ الجمعِ الواوِ، والمعنى: جميعُ الكواكبِ والأجرامِ في السّماءِ في فَلَكٍ يَسبَحونَ، وهي حَقيقةٌ عِلميَّةٌ سبَق بها القُرآنُ[1].

معنى حرفِ الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾ في الآية:

تُفيدُ ﴿فِي﴾ الظّرفيَّةَ في قوله تعالى: ﴿فِي فَلَكٍ﴾، بمَعنى تمكُّنِ كلِّ كوكبٍ أو نَجمٍ مِن الفَلَكِ الَّذي هو فيه، فلا يزالونَ يَسبَحون في فلَكِهم مُتمكِّنينَ فيه، فالظَّرفيّةُ تُخبِرُ عن ثباتِ النُّجومِ والكواكبِ في أفلاكِها.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي فَلَكٍ﴾:

التّعريضُ بالعبادِ الَّذين يَخرُجونَ عنِ الصّراطِ المستقيم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي فَلَكٍ﴾ على عامِله ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ لإفادةِ التّخصيصِ، بمعنى أنَّ سَبْحَ كلِّ كوكبٍ لا يكونُ إلّا في فَلَكِه، ولا يَسبَحُ خارجَ فلَكِه، كما أنَّ في التّقديمِ رعايةً للفاصلةِ ورؤوسِ الآيِ؛ فأفادَ ذلك أنَّهم لا يَخرُجونَ عن أفلاكِهم، وفيه تعريضٌ بالعُقَلاءِ الَّذينَ يَخرُجونَ عنِ الصِّراطِ المُستقيمِ بإرادتِهم، فكانت تلك الكواكبُ والنُّجومُ خَيرًا مِن أصحابِ العُقولِ الَّذينَ يَختارونَ الانحرافَ عن الوِجهةِ الصّحيحةِ.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿فَلَكٍ﴾:

من بديعِ خلقِ اللهِ أن جعلَ لكلِّ كوكبٍ فَلَكًا

جاءَ لفظُ ﴿فَلَكٍ﴾ في سياقِ لفظِ العُمومِ (كُلٌّ)، فدلَّ على أنَّ المُرادَ منه اسمُ الجنسِ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الشَّمسِ والقمرِ وغيرِهما من النُّجومِ له فَلَكٌ على حِدَةٍ يَسبَحُ فيه، فإن قيلَ: فكيفَ يكونُ معنى جَميعُهم يَسبَحون في فَلَكٍ؟ والجوابُ أن يُقالَ: هذا كقولِهم: (كساهُمُ الأميرُ حُلّةً وقلّدَهُم سيفًا)؛ أيْ: كلُّ واحدٍ منهم، أو كَساهُمْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 26.

وقلَّدَهُم هذَيْنِ الجِنسَيْنِ؛ فاكتُفي بلفظٍ يدلُّ على الجِنسِ اختصارًا، ولأنّ الغرَضَ الدّلالةُ على الجنسِ كما يدلُّ عليه السّياقُ[1].

فائدةٌ في بيانِ فنِّ القلبِ المُستوي:

فنونُ البديعِ يُتوقَّفُ فيها على ما فيهِ فائدةٌ أو لطيفةٌ

ذَكَر السُّيوطيُّ أنَّ هناك نوعًا من البديع يُسمّى القلب، والمقلوبَ المُستويَ، وما لا يَستَحيلُ بالانعكاسِ، ثمَّ عرّفَه بقولِه: "وهو أن تُقرَأَ الكلمةُ مِن آخرِها إلى أوَّلِها كما تُقرَأُ من أوَّلِها إلى آخِرِها، كقولِه تعالَى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: 3]، ثُمَّ قالَ: ولا ثالثَ لهُما في القُرآنِ[2]، وهذا الفنُّ البديعيُّ لا يَرتَبِطُ بهِ أدنَى معنًى، ولا يُحقِّقُ غرَضًا بيانيًّا، وغايةُ ما فيه تجميعُ أمثلةٍ لأصنافِ البديعِ الَّتي ابتدعَها عُلماؤُه والأدباءُ، وهو غيرُ مقصودٍ في القرآنِ، ولا يَصِحُّ أن يُتكلَّفَ في البحثِ عنه.

براعةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿يَسْبَحُونَ﴾:

سَيرُ الكواكبِ في الأفلاكِ كحَركةِ السّابحِ في الماءِ

لفظُ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ مُستَعارٌ للسَّيرِ السّريعِ في متَّسَعٍ لا طرائِقَ فيهِ مُتلاقيةً كطرائِقَ الأَرضِ، فشبَّه سيرَ الكواكبِ والأَرضِ والشّمسِ والقمرِ على السّهولةِ والسّعةِ بمَن يَسبَحُ في البحرِ ويَسيرُ فيه بانبساطٍ وحركةٍ سريعةٍ، ووجهُ الشَّبَه الجريُ المعروفُ في السّباحةِ والدّورانِ وعدَمِ الانغماسِ، ثُمَّ حَذفَ المُشبَّهَ وذَكَرَ لفظَ المُشبَّهِ به على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ[3]، وغَرضُ التّشبيهِ راجعٌ إلى المُشبَّه، وهو سُرعةُ سَيرِ الكواكبِ في الفضاءِ الواسعِ العظيمِ، وتقريبُها للمُخاطبِينَ وبيانُ أنَّها لا تَنغَمِسُ ولا تَخرُجُ عن مَجالِها وفَلَكِها كحالِ السّابحِ لا ينغَمِسُ في الماءِ ولا يَخرُجُ منه، وعبّرَ بضميرِ الجمعِ الَّذي للعاقلِ (الواو) ترشيحًا للاستعارةِ، فلَم يَقُل: كلٌّ في

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 115.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 3/ 318.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 148.

فلكٍ يَسبَحْنَ أو تَسبَحُ؛ لأنَّ السّابحَ عاقلٌ يدخُلُ في العُقَلاءِ عادةً[1]، وحسَّن مجيءَ الفعلِ مُسنَدًا إلى ضميرِ الجمعِ مراعاةُ الفاصلةِ ورؤوسِ الآي، وقد جاءَ التَّشبيهُ في الآيةِ على وجهٍ هو أعرَفُ عندَ المُخاطَبينَ، والقصدُ هو بيانُ طريقةِ جَريِ هذهِ الأشياءِ في الفَلَك؛ فجاءَ التّشبيهُ على وجهِه في كونِ المُشبَّه بِهِ أبلغَ مِن حَيثُ إنَّه أعرَفُ مِن المُشبَّهِ وأظهَرُ لكونِه محسوسًا[2].

توجيهُ مجيءِ الجمعِ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ بصيغةِ العُقلاءِ:

يُجمَعُ غيرُ العاقلِ جَمعَ العُقلاءِ عندَ وصفِه بوصفِهم

جاء الفعلُ مُسنَدًا إلى الواوِ الَّتي هي للعاقلِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ في وصفِ جَريِ الكواكبِ، ونكتةُ ذلك هي أنَّه لمّا ذَكَرَ للكواكبِ أو للشَّمسِ والقمرِ وصفَ العُقلاءِ مِن كونِها تَجري على نظامٍ مُحرَّرٍ مُحكَمٍ لا يختلُّ، وسَيرٍ مُقدَّرٍ لا يَعوَجُّ ولا يَنحَلُّ، ولمّا وصفَها بكونِها تَسبَحُ، وكانتِ السِّباحةُ من أفعالِ الآدميّينَ جمعَها جمعَهُم بقولِه تعالى: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾، وأجرَى الخَبرَ عن غَيرِ العاقلِ مجرَى الخبرِ عن العاقلِ، فعُبِّرَ بضميرِ الجمعِ الواو، وهذا التّوجيهُ ممّا أجمَعَ عليهِ عُلماءُ اللّغةِ والمعاني، ومِثلُه قولُه تعالى: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4]، إذ جَمَعَ لَفظَ ساجِدٍ جمعَ العُقَلاءِ في وصفِ الكواكبِ؛ لِأنّ السّجودَ مِن أفعالِ الآدميّينَ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 439، والزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 391، والنَّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 50 الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 69، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 115.

(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 439، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 517.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 201، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/ 361، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 439، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 517.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41]

ربط التَّذكير بنِعَمِ الله في نظام الفَلَكِ بمِنَّتِهِ بالحمل في الفُلْكِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيَّن اللّه تعالى سباحةَ الكواكب في الأفلاك وما حدَّه لها أتبعَه بذكر ما هيَّأه من سباحة الفُلْكِ في البحار تذكيرًا بأيّام اللّه تعالى، وإظهارًا لقُدرتِه، وتحذيرًا من سطوتِه ونقمتِه، وتنبيهًا على توالي نعمِه واستدرارِها، ومنًّا عليهم بما يسَّرَ لهم من سلوك البحر وجَرْيِ السُّفن فيه، والتَّوصُّلِ به إلى جليل المنافع، فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ﴾ الآيةَ[1].

آيةُ البحر تجمَعُ بينَ العبرة والمِنَّة

ولمّا مَنَّ اللّه تعالى بإحياءِ الأرضِ وهي مكانُ الحيواناتِ وعدَّ آياتٍ فيها وفي السَّماء بيَّنَ أنَّه لم يقتَصِر على ذلك، بل جعلَ للإنسانِ طريقًا يُتَّخَذُ منَ البحرِ خيرًا، ويتوسَّطُه أو يسيرُ فيه كما يسيرُ في البرِّ كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الإسراء: 70][2]، فآيةُ البحرِ تجمعُ بين العبرةِ والمنَّةِ، وهي آية تسخيرِ الفُلْكِ أن تسير على الماء، وتسخيرِ الماءِ لتطفوَ عليه دونَ أن يُغرِقَها[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَمَلۡنَا﴾: (حمل) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، يُقالُ: حمَلتُ الشَّيءَ أحمِلُه حملًا[4]، فالحملُ: معنًى واحدٌ اعتُبِر في أشياءَ كثيرةٍ، فسوّيَ بين لفظِه في (فَعَلَ)، وفُرِّق بين كثيرٍ منها في مصادرِها، فقيلَ في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيءِ المحمول على الظَّهر: (حِمْلٌ)، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: (حَمْلٌ)،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 282، والبقاعي، نظم الدّرر: 16/ 133.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 282.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).

كالولد في البطن، والماء في السَّحاب، والثَّمرة في الشَّجرة، تشبيهًا بحَمَلِ المرأة[1]، وكذلك قال بعضُ اللُّغويّين: ما كان لازمًا للشَّيءِ فهو (حَمْلٌ)، وما كان بائنًا فهو (حِمْلٌ)، فكلُّ مُتَّصلٍ حَمْلٌ وكلُّ مُنفصلٍ حِمْلٌ[2]، والمُراد بالحملِ في الآية: وضعُ شيءٍ على آخَرَ لنقلِه؛ أي: حمَلْنا ذُرّيَّة أهلِ مكَّة في أصلاب آبائهم[3].

2) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: (ذرّ) أصلٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ[4]، و(ذَرَرْتُ) بمعنى: أخذك الشَّيءَ بأطرافِ أصابعِك، تذُرُّه ذَرَّ الملحِ المسحوقِ على الطَّعام، و(ذُرّيَّةُ الرَّجلِ): ولدُه، وذهب بعضُ اللُّغويّين إلى أنَّ الذُّرّيَّة تُطلَقُ على الآباءِ كذلك؛ لأنَّ الذَّرَّ وقعَ منهم، فهو مِنَ الأضدادِ، والذُّرّيَّةُ أيضًا: الخَلقُ، مأخوذةٌ (منَ) الذَّرءِ، فتقولُ: ذَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ؛ أي: خَلَقَهُم؛ والجمعُ: (الذَّراري والذُّرّيّاتُ)، والذُّرّيَّة: نسلُ الإنسان من ذكورٍ وإناث[5]، ومعنى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الأولادُ وأولادُهم كانوا في أصلابِ مَن حُمِلَ مع نوحٍ في السَّفينة[6].

3) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يدُلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، من ذلك (فَلْكَةُ المِغْزَلِ) بفتح الفاء، سُمّيت لاستدارتِها[7]، و(فَلَكُ كُلِّ شيءٍ): مُستَدارُه ومُعظَمُه، والفُلْكُ: السَّفينةُ، يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، ويكونُ جمعًا للسُّفنِ، ويُجمَعُ على (الفُلوكِ) أيضًا[8]، والمرادُ به في الآية: اسمٌ لمركبِ البحرِ، واسمُ جمعٍ له بصيغةٍ واحدةٍ.

4) ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: (شحن) أصلٌ يدُلُّ على المَلْءِ[9]، و(الشَّحْنُ): مَلْؤُكَ السَّفينةَ وإتمامُك جهازَها كُلَّه، فهي (مشحونةٌ): مملوءةٌ[10]، و(الشّاحنُ): أعظَمُ السُّفُنِ[11]، ومنه (الشَّحْناءُ): عداوةٌ امتلأَتْ منها النَّفسُ[12]، والمُرادُ بالمَشحونِ هنا: المملوءُ.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حمل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حمل).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 488.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(5) الخليل، العين والأزهري، تهذيب اللغة وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 488.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن سيده، المحكم: (فلك).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شحن).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شحن).
(11) ابن عباد، المحيط في اللّغة: (شحن).
(12) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (شحن).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

من آياتِ الله أن هيَّأَ للنّاس ركوبَ السُّفنِ في البحر

يقولُ الحقُّ ﷻ: ودليلٌ آخرُ للمشركين وعلامةٌ لهم على قُدرتنا على كلِّ ما نشاء حَمَلْنا آباءَهم في سفينةِ نوح المملوءةِ الموقرةِ منَ الأمتعةِ والحيواناتِ، فحملُ الآباء حملٌ للذُّرّيَّةِ؛ أي: الأولادُ وأولادُ الأولادِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ في الآيةِ:

التَّذكيرُ بعظيم قُدرة الله، وتتابعِ آلائه، طريقٌ إلى الإيمانِ به

جاءت الآيةُ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ بطريقِ الوصل عطفًا على ما قبلَها؛ لاشتراكِهما في كونِهما جملتَين خبريَّتَين، وفي الجهة الجامعة، وهي التَّذكيرُ بعظيم قدرة الله وآياتِه الباهرة، في حياةِ النّاس، وبتعاقُبِ آلائه العظيمة وإحسانه العميم، للاستدلال على توحيدِ الله تعالى، وعلى البعثِ يوم القيامة.

ركوبُ السُّفن آيةٌ لانتفاع عمومِ الخلقِ بها

لمّا جاء ذكرُ هذه الآية معطوفةً على الآياتِ الأرضيَّة والسَّماويَّة العُظمى الّتي تعُمُّ النّاس جميعًا، دلَّ بأنَّ هذه الآيةَ كسابقتِها في انتفاع عموم الخلقِ منها، وأنَّ أثرها باقٍ إلى يوم القيامة.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿وَءَايَةٌ﴾:

لولا ما حملَتْ سفينةُ نوح لانقرضَ الخلقُ في هذه الدُّنيا

في التَّعبير بلفظِ: ﴿وَءَايَةٌ﴾ أربعُ فوائدَ: الأولى: أنَّها عبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتبارًا، الثّانية: أنَّها نعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعامًا، الثّالثةُ: أنَّها إنذارٌ لهم؛ لأنَّ في الآيات إنذارًا[2]، الرّابعةُ: أنَّها علامةٌ باهرة لهم؛ لأنَّ حمل ذرّيَّتِهم في الفلك المشحون الذي صنعَه نوحٌ عليه السلام علامةٌ باهرة عظيمة؛ فإنَّه لولا أنَّ نوحًا حملَ النّاس المؤمنين ومن كلِّ زوجَين اثنين لَما كان المُخاطبون في هذه الدُّنيا، ففي الكلام تذكيرٌ بآيةٍ عظيمةٍ ظهرَ أثرُها لكلِّ مَن جاء بعد نوحٍ عليه السلام.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 521.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 19، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 34.

توجيهُ لفظِ: ﴿وَءَايَةٌ﴾ بينَ الخبريّة والابتداء:

يجري في لفظ: ﴿وَءَايَةٌ﴾ التَّوجيهُ النَّحويُّ الذي جرى في أُختِها، في قولِه ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: 33]، وبيانُه بإيجازٍ: أن يكون لفظُ (آيَة) خبرًا مُقدَّمًا للمصدر المُؤوّل من ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [يس: 33][(1)]؛ بمعنى: أنَّ حملَ ذُرّيَّتهم آيةٌ لهم، وليس المقصودُ أنَّ الآيةَ هي في حملِ ذُرّيَّتهم في الفلك المشحون، ولمّا كان تقديمُ الخبر للاهتمام بشأنِه ورعايتِه، أشعرَ التَّقديم بِعظم هذه الآية وفخامتِها، وكونِها وحدَها تكفي لكي يُؤمنوا، ولا داعيَ لانضمام آياتٍ أُخَرَ.

آيةُ حملِ نوحٍ للنّاس تكفي دليلًا للإيمان بربِّ النّاسِ

ويجوزُ أن تكونَ (آيَة) مبتدأً، و﴿لَّهُمُ﴾ صفةً مُخصِّصةً للنَّكرة، والمصدرُ المُؤوَّلُ: ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هو الخبرَ[(2)]؛ لإفادةِ أنَّ آيةً دالَّةٌ على المطلوبِ مُتحقِّقةٌ في حمل ذُرّيَّتِهم في الفلك المشحون، لكنَّ المُخاطَبين لا يُدرِكون كونَها آيةً؛ غفلةً منهم وجهلًا.

بيانُ أوجُهِ الاختلاف بينَ مُتشابه الآياتِ:

لم يقُلْ: (وَآيَةٌ لَهُمُ الفُلْكُ جَعَلْناها تحمل ذُرّيَّتهم)، على نسقِ الآياتِ السّابقةِ كما في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [يس: 33]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، وذلك لأنَّ الكلام في الآية الباهرةِ التي تكون موضعَ الاستدلالِ، فكان حملُ اللّٰه تعالى النّاسَ في الفلك المشحون هو العجَبَ والآيةَ، أمّا نفسُ الفُلْكِ فليسَ بعجَبٍ؛ لأنَّه كبيتٍ مبنيٍّ من خشَبٍ، وأمّا نفسُ الأرضِ فعجَبٌ ونفسُ اللَّيلِ عجَبٌ لا قُدرةَ عليهما لأحدٍ إلّا اللّٰه[(3)].

حملُ النّاس في الفُلْكِ هو الآيةُ، وليس الفُلْكُ ذاتُه

دلالةُ تنكيرِ ﴿وَءَايَةٌ﴾:

تنكيرُ ﴿وَءَايَةٌ﴾ للتَّفخيم، بمعنى: أنَّها آيةٌ باهِرةٌ ليست كسائرِ

آيــةٌ واحــدةٌ تكفي للإيمان بالله، فكيف إذا اجتمَعَت آياتٌ؟.

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 271.
(2) الأصبهاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 353.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 285.

الآيات، فكيف إذا اجتمَعَتْ عدَّةُ آياتٍ على إثبات الحشرِ والتَّوحيد؟ كما يُفيدُ التَّنكيرُ التَّعدُّدَ في الآياتِ، والمعنى: وآيةٌ لهم أُخرى تدُلُّ على وحدانيَّتِنا، وأنَّنا نبعثُهم بعد الموت.

توجيه الأدلَّة للكفّار للاستدلال على قدرةِ الله وعظمَتِه

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَّهُمُ﴾ في السّياقِ:

اللّامُ في ﴿لَّهُمُ﴾ في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ للاختصاصِ، بمعنى: أنَّ هذه الآيةَ ظاهرةٌ في الاستدلال لهم على توحيدِ اللّه وعلى ظُهور نعمِه العظيمة على النّاس، وفي الاختصاص استعطافٌ للمُخاطبين وتذكيرٌ لهم بما منَّ اللّه عليهم، كما تحتملُ أن تكون للنَّفع[1]؛ أي: آيةٌ لنفعِهم في الإيمانِ باللّه والتَّصديقِ بالبعثِ.

الآياتُ الكونيَّةُ للعبادِ دليلٌ للكافرِ ورحمةٌ للمؤمنِ

دلالةُ الضَّمير في ﴿لَّهُمُ﴾:

الضَّمير في ﴿لَّهُمُ﴾ عائدٌ على كفّار قُريشٍ ومَن يجري مَجراهم في إنكارِ البعث والحشرِ، والتَّخصيصُ بالمشركين؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لإرشادِهم، ويحتملُ أن يعود الضَّمير في ﴿لَّهُمُ﴾ على العباد جميعًا كما تقدَّم في: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، ويدخلُ في عموم الضَّمير المشركون ومن يُنكِرُ الحشرَ دُخولًا أوَّليًّا، بدلالة السّياق[2].

حملُ الذُّرّيةِ هو المقصودُ لا وصفُ هيأتِه وكيفيَّتِه

مناسبة التّعبير بالمصدر المؤوّل:

عبَّر بصيغة المصدر المُؤوَّلِ في قوله: ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾؛ لأنَّ المُرادَ تنبيهُ السّامعين بدءًا إلى عظمةِ اللّه تعالى في هذا الفعل العميم ليمنَعَهم ذلك عن الشَّكِّ، ولتذكيرِهم بمِنَّتِه الجليلةِ، فإنَّ تقديمَ المُحدَّث عنه يُفيدُ التَّنبيهَ عليه، كما أنَّه بالتَّعبير بالمصدر المُؤوَّل عُلِمَ أنَّ القصدَ إلى مُجرَّدِ معنى الحدثِ، وهو حملُ الذُّرّيَّة دون اعتبار معنًى زائدٍ عليه، أو وصفٍ يُقيِّدُه؛ لأنَّ في (أنْ) تحصينٌ منَ الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ[3]، ولو عُبِّرَ بالمصدر

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 148.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 148.
(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 94، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 148.

الصَّريح فقيلَ: (وآيةٌ لهم حَمَلْنا ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون) لاحتملَ الكلامُ معانيَ، منها: أن يكونَ نفسُ الحمل آيةً لهم دون صفةٍ من صفاتِه، واحتملَ أيضًا أن تكونَ الآيةُ في أن يكون الحملُ على صفةٍ مخصوصةٍ، أو هيئةٍ من هيئاتِه اقترنَتْ به، فتكونُ الآيةُ مَنوطةً بذلك الوصفِ أو تلك الهيئةِ، وليس هذا هو المقصودَ، كما أنَّ في التَّعبير بالمصدر المُؤوَّلِ: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ منَ التَّأكيد والمُبالغة في ظُهور المِنَّةِ ما لا يخفَى كما سيأتي.

فائدةُ (أنَّ) في السّياقِ المُحكمِ:

التَّأكيدُ تقريرٌ للمعنى المُستفادِ في نفوس العباد

أفادت (أَنَّ) تأكيدَ مضمونِ الخبر وتقريرَه، بمعنى: تأكيدِ حملِ اللّه تعالى ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحونِ، بقصد تقريرِه في نفوس المُخاطَبين، فالحملُ واقعٌ، واللّه تعالى قادرٌ لا يُعجِزُه شيءٌ.

فائدةُ التَّعبير بنونِ العظمةِ:

حملُ النّاس في سفينةِ نوحٍ لا يقعُ إلّا بقُدرة القادر تعالى

عبَّر بنونِ العظمة في المُسند إليه في قوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾، أي: في ﴿أَنَّا﴾ و﴿حَمَلْنَا﴾؛ للإيذانِ بعظمةِ حملِ ذُرّيَّتِهم في الفلكِ المشحون، وأنَّه ممّا لا يقدرُ عليه إلّا الإلهُ الواحدُ الأحدُ، وأنَّه إنَّما كان بما للّه تعالى من وصفِ العظمةِ والقُدرة اللّامُتناهية.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿حَمَلْنَا﴾:

لولا منَّةُ الله تعالى لَما حُمِلَ النّاسُ في السَّفينة مع شدَّة ثِقلِهم وكثرتِهم

لمّا كان الحمل بمعنى منعِ الشَّيءِ الثّقيلِ أن يصيرَ إلى جهةِ السُّفْلِ[1] عبَّر بـ﴿حَمَلْنَا﴾؛ للإشعارِ بأنَّه لولا منَّةُ اللّه تعالى وعظيمُ قدرتِه لما حُمِلتُم مع شدَّةِ ثقلِكم وكثرتِكم، ولكنتم في جهةِ السُّفل؛ أي: غرقتُم.

وجوهُ التَّعبير بلفظِ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾:

الذُّرّيَّةُ هي الأولادُ وأولادُ الأولادِ، سواء أكان المرادُ بهم الأصولَ أم صبيانَهم، كبارًا وصغارًا، ونساؤُهم اللّاتي يصحَبْنَهم في تجارتِهم،

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2355، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 455.

الاهتمامُ بشأنِ الـذُّرّيَّـة فطرةٌ إنسانيَّةٌ راسخة، وإنجاؤُهم أبلَغُ في الامتنان

والتَّعبيرُ بالذُّرّيَّةِ فيه استعطافٌ للمُخاطَبين وتذكيرٌ بالمنَّة العظيمة؛ لأنَّ الإنسان بطبعِه وفطرتِه يُعنَى بشأن ذُرّيَّته ويستَذكرُ ما يكونُ منَ المنَّة عليهم ويُقدِّرُه؛ لأنَّ استقرارَهم في السُّفنِ أشقُّ، وتماسكُهم فيها أعجَبُ، وعليه يدورُ كونُه آيةً باهرةً[1].

حملُ السَّفينة لأهـلِ الإيـمـان كحملِ الجواهرِ فـي الـصُّـنـدوق المُصان

وفي لفظِ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إيماءٌ إلى كمالِ النِّعمةِ؛ أي: لم تكن النِّعمة مُقتصرةً عليكم، بل مُتعدّيةً إلى أعقابِكم إلى يوم القيامة، أو أنَّه خصَّ الذُّرّيَّةَ بالذِّكر لأنَّ الموجودين كانوا كفارًا لا فائدةَ في وجودِهم فقالَ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ أي: لم يكنِ الحملُ حملًا لهم، وإنَّما كان حملًا لِما في أصلابِهم منَ المُؤمنين، كما أنَّ مَن حملَ صندوقًا لا قيمةَ له وفيه جواهرُ إذا قيلَ له: لِمَ تحملُ هذا الصُّندوقَ وتتعبُ في حملِه وهو لا يُشترَى بشيءٍ؟ يقولُ: لا أحملُ الصُّندوقَ وإنَّما أحملُ ما فيه[2].

ويحتملُ أن يكونَ المُرادُ بالذُّرّيَّة الجنسَ، والمعنى: حمَلنا أجناسَهم؛ لأنَّ ولدَ الحيوانِ من جنسِه ونوعِه، والذُّرّيَّة تُطلَقُ على الجنسِ[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هذه الذُّرّيَّةَ من خلقِ اللّه، بما يدُلُّ عليه أصلُ الاشتقاقِ.

دلالةُ الضَّمير في: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾:

اللهُ تعالى يتولَّى عبادَه المؤمنينَ، ويجعلُ نجاتَهم آيةً

الضَّميرُ في: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يحتملُ أن يكونَ عائدًا على أهلِ مكَّةَ، كما يحتملُ أن يكونَ عائدًا على قوم نوحٍ الذين آمنوا معه وركبوا في الفُلك؛ ويجوزُ أيضًا أن يكون عائدًا على العباد عمومًا، ويكونُ تقديرُ الكلامِ: وآيةٌ للعباد أنّا حمَلْنا ذُرّيّاتِ العبادِ؛ أي: بعضَهم[4]، أو

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 18، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 521، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 15، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269.

يكونُ التَّقديرُ: وآيةٌ لأهلِ مكَّةَ أو للعبادِ جميعًا أنّا حمَلْنا ذُرّيَّة القرون الماضيةِ في الفُلك المشحون، فالضَّميران مُختلفانِ.

توجيهُ القراءاتِ في لفظِ: (ذُرّيّاتِهم):

من سَعةِ المعنى إرادةُ كثرة المحمولين في السَّفينة، أو جنسِهم

قرأ نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ: ﴿ذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ بالألف على الجمع مع كسر التّاء؛ لكثرة من حملَ معه في السَّفينة، وقرأ الباقون: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بغير ألفٍ على التَّوحيد مع فتح التّاء إرادةَ الجنس، والمعنى: ذُرّيّاتِ جنسِهم ونوعِهم[1].

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليَّةِ:

الشَّكُّ في قصَّةِ السَّفينةِ كالإشراك بالله وإنكارِ البعثِ

أفاد مجيءُ الخبر جملةً فعليَّةً في قولِه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تقويةَ الحكم وتحقيقَه في نفوسِ السّامعين بنفسِ التَّركيب، ليُفيدَ معنى: لا يحملُ ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون إلّا نحنُ، ففيه منَ المدح ما لا يخفَى.

ثمَّ إنَّ قولَه: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أقوى في إثبات الحكم من أن يُقالَ: (وآيةٌ لهم حملْنا ذُرّيَّتَهم)، ولمّا كان مثلُ هذا الفعل وهو حملُ اللّه تعالى ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون ممّا لا يُشَكُّ فيه؛ لأنَّه لا يفعلُه إلّا اللّه تعالى كان في مجيء الخبرِ جملةً فعليَّةً دون أن يُقالَ: (وآيةٌ لهم حملْنا ذُرّيَّتَهم) تنبيهٌ لمُشركي مكَّةَ ومَن يجري مَجراهم إلى أنَّ أفعالَهم القبيحةَ منَ الإشراك باللّه وإنكارِهم البعثَ وغيرِهما كانت بمثابةِ مَن يشُكُّ في أنَّ اللّه تعالى هو الذي حمل ذُرّيَّتَهم في الفلك المشحون، ويُنكره بحالٍ منَ الأحوال.

بلاغةُ الايجاز في حملِ الذُّرّيَّة:

من بلاغةِ القرآن التَّعبيرُ الأثيرُ باللَّفظ القليل عن المعنى الكثير

تخصيصُ الذُّرّيَّةِ بالحملِ في الفُلكِ المشحونِ مع أنَّهم محمولون بالتَّبَع؛ إيجازٌ في الكلامِ، واقتصادٌ في اللَّفظ تعبيرًا عن الامتنان حيث تضمَّنَ بقاءَ عقِبِهم، وعن التَّعجُّبِ؛ إذ تضمَّنَ حملَ ما لا يكاد

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 273، والعليمي، فتح الرحمن: 5/ 485.

يُحصَى كثرةً في سفينةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه كان الظاهرُ أن يُقالَ: حمَلْناهم ومَن معهم ليبقَى نسلُهم، فذِكرُ الذُّرّيَّة يدُلُّ على بقاء النَّسلِ، وهو يستلزمُ سلامةَ أصولِهم، فدلَّ بلفظٍ قليلٍ على معنًى كثيرٍ[1].

بديعُ الإدماجِ في السّياقِ:

تنويعُ المِنَنِ للمُبالغةِ في الاعتبارِ والاتِّعاظِ

لمّا كانت هذه الآيةُ حاصِلةً لفائدةِ حمل أزواجٍ من أنواع الحيوان جعلت لآيةِ نفس الحملِ إدماجًا للمنَّةِ في ضمنِ العبرة؛ ليُفيدَ قولُه: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ تنويعَ المنَّةِ؛ أي: في صُنع الفلك، وفي حملِ ذُرّيّاتِهم فيه، فكأنَّه قيلَ: وآيةٌ لهم صُنعُ الفُلكِ لنحمِلَ ذُرّيّاتِهم فيهِ فحملناهُم[2].

بلاغةُ التَّعبير عن حملِ الذُّرّيَّة:

لولا نَجاةُ الأصولِ ما جاءَ ما كان في أصلابِهم

لمّا عبَّر بالذُّرّيَّة على وجه العموم في قوله: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ اقتَضى أنَّ أصولَ النّاس وجميعَ البشر محمولون في الفُلك على طريق الكنايةِ إيجازًا في الكلام، وإظهارًا لكمال المنَّة على المُخاطَبين والنَّصِّ بها عليهم، فكأنَّه قال: إنّا حملنا أُصولَهم وحملناهم وحملنا ذُرّيّاتِهم؛ إذ لولا نجاةُ الأصولِ، ما جاءتِ الذُّرّيّاتُ التي كانت في أصلابِ الأصولِ، وكانتِ الحِكمةُ في حملِ الأُصولِ بقاءَ الذُّرّيّات؛ فكانتِ النِّعمةُ شاملةً للكلِّ، ويحتملُ أن يكون الكلامُ على طريق المجازِ المُرسلِ، والمعنى: حمَلْنا آباءَهم، تسميةً للسَّبب باسم المُسبَّبِ؛ لأنَّه ذرأ الأبناءِ منهم[3].

والنُّكتةُ فيه إظهارُ المنَّة على المُخاطبين منَ القوم الكافرين؛ لأنَّهم هم المقصودون - على جهةِ الأولويَّة - بالخطابِ.

ومن أسبابِ العدول إلى الكناية، أو المجازِ المُرسل هو أنَّه هناك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 27.
(3) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 2/ 691.

مَن لم يُحمَل في الفلك من أصول البشر من قبلِ نوحٍ عليه السلام، فلو قيلَ: (وآية لهم أنّا حملنا آباءَهم) لدخَلَ فيهم آباؤُهم من قبل نوحٍ عليه السلام الذين كان من نسلِهم مَن ركبَ الفلك مع نوحٍ[1].

من دلالاتِ الكنايةِ في السّياقِ:

الإيمانُ بالرَّسولِ الخاتمِ هو المُنجي مِنَ الهلاكِ الدّاهمِ

لمّا كان المُرادُ بقوله: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ حملَ أصولِ النّاس الذين هم آباؤُهم على طريق الكنايةِ كان في الكلامِ إيماءٌ إلى أنَّكم أيُّها الكافرون من ذُرّيَّة مَن نَجا منهم من آبائِكم الذين كنتُم في أصلابِهم، وهم الذين آمنوا برسولِهم نوحٍ عليه السلام وصدَّقوه، لا مَن كذَّب به، فكيف لم تتَّبعوهم، مع أنَّكم تتحجَّجون بقولِكم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزّخرف: 22][2]، وإن كان المُرادُ التَّوجيهَ الثّانيَ كان المعنى: إنَّ في آبائِكم مَن قد صدَّقَ الرُّسل، وآمَنَ بهم، ومنهم مَن كذَّبَهم، فكيف اتَّبعتُم الذين كذَّبوهم دونَ الّذين صدَّقوهم، ففيه تبكيتٌ وتوبيخٌ لهم على كُفرِهم، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّ إيمانَهم بالرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، هو الّذي يُنجّيهم منَ الهلاكِ.

دلالاتُ حمل الذُّرّيَّة:

تعظيمُ منَّةِ السَّببِ في الإنجاءِ؛ لكونه أدلَّ على المقصودِ

لمّا كان المرادُ من حمل الذّرّيَّة في الفلك في قوله: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الإنجاءَ مِنَ الغرقِ - لأنَّ الكلامَ سيقَ في بيان المنَّة العظيمةِ - كان إطلاقُ الحملِ على الإنجاءِ على وجهِ المجازِ المُرسل لعلاقةِ السَّببيَّة والمُسبَّبيَّة؛ لأنَّ الحملَ في السَّفينة سببٌ في الإنجاء مِنَ الغرقِ في وقتِ الطّوفان، والمعنى: وآيةٌ لهم أنّا أنجَينا ذُرّيّاتِهم مِنَ الغَرقِ بحملِهم في الفُلكِ حين الطّوفان[3]، ليُفيدَ التَّعبيرُ بالمجاز المُرسل تعظيمَ منَّةِ السَّبب في الإنجاءِ، فكونُه آيةً أدلُّ على المَقصود لظُهورِه ووضوحِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 134.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 522.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 27.

الإشارةُ إلى المحمول والمحتملِ تنويعٌ في المِنَّةِ ومُبالغةٌ

وعلى القول: إنَّ المُرادَ بالفُلك المشحون سفينةُ نوحٍ عليه السلام يكونُ الفعل ﴿حَمَلْنَا﴾ مُسندًا إلى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على طريقِ المجاز العقليِّ؛ فإنَّ ذُرّيَّة المُخاطَبين لم تُحمَلْ في الفُلك، فيكونُ المُرادُ بإسناد الحمل إلى الذُّرّيَّة حملَ آبائِهم الأقدَمين وفي أصلابِهم هؤلاءِ وذُرّيَّتُهم(1)، تنويعًا في المنَّةِ ومُبالغةً فيها.

من دلالاتِ كونِ حملِ الذُّرّيَّةِ آيةً لهم:

آياتُ الله عبر الزَّمان ظاهرةٌ ومُستمرَّةٌ في كلِّ آنٍ

لمّا كان حملُ الذُّرّيَّة آيةً لهم، وكانت آيةُ الأرض الميتةِ وآيةُ سلخ النَّهار منَ اللَّيل وآيةُ الشَّمس تجري لمُستقرٍّ لها كلُّها تُفيدُ استمرارَ الآية وظُهورَها للنّاس؛ فُهِمَ من دلالةِ قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنَّ هذه الآيةَ مُستمرَّةٌ لكلِّ ناظرٍ؛ إذ يشهدونَ أسفارَهم وأسفارَ أمثالِهم في البحرِ، ولا سيَّما سُكّانُ الشُّطوطِ والسَّواحِلِ، فيُفهَمُ منه: أنّا حملنا ونحمِلُ وسنحملُ أسلافَهم وأنفُسَهم وذُرّيّاتِهم(2).

توجيهُ التَّشابُه اللَّفظيِّ مع هذه الآية:

تنوُّعُ المقاصدِ يقتضي تنوُّعَ العبارة وكثرةَ الفوائدِ

جاء في سورةِ يس قولُه تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، وفي موضعٍ آخرَ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: 11]؛ أي: لمّا طغا الماءُ وتجاوَزَ حدَّه حملناكم في السَّفينةِ؛ أي: في زمنِ نوحٍ عليه السلام، فالآيتان تتحدَّثانِ عن الإنجاءِ بسفينةِ نوحٍ عليه السلام، ففي آيةِ سورة يس مَنَّ عليهم بحمل ذُرّيَّتِهم، وفي آيةِ سورةِ الحاقَّة منَّ عليهم بحملِ أنفُسِهم، وتوجيهُه أن يُقالَ: المقصودُ من آيةِ سورةِ يس بيانُ الآيةِ الباهرةِ على توحيدِ الله تعالى، وأمّا إظهارُ المِنَّة فهو تَبَعٌ للآيةِ الباهرة، من أجلِ الاستِعطافِ، فذكرَ فيها ما ينفعُ الذُّرّيَّةَ الذي يستلزمُ نفعَ الأصولِ؛ لأنَّ مَنْ ينفَعُ المُتعلِّقَ بالغيرِ يكونُ قد نفعَ ذلك الغيرَ، وأمّا المقصودُ من آيةِ سورةِ الحاقَّة فهو بيانُ دفعِ ضررِ العذابِ عن النّاس.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 27.

(2) ابن عاشور/ التحرير والتنوير: 23/ 28.

ويدلُّ عليه سياقُ الآياتِ في بيان العذابِ والضُّرِّ الذي وقع بالكافرين في قولِه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة: 5 - 6]، وقولِه: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝﴾ [الحاقة: 9 - 10]، فمَنَّ عليهم فيها بحملِ أنفُسِهم؛ لأنَّه لو مَنَّ عليهم بدفع الضَّررِ عن الذُّرِّيَّة لا يُفيدُ دفعَ الضّرِّ عنهم؛ فإنَّ مَن يدفَعُ الضَّررَ عن المُتعلِّقِ بالغيرِ لا يكونُ قد دفعَ الضَّررَ عن ذلك الغيرِ، بل يكون قد نفعَه، مثالُه: مَن أحسَنَ إلى ولدِ إنسانٍ وفرَّحَه فرحَ بفرحِه أبوه، وإذا دفعَ واحدٌ الألمَ عن ولدِ إنسانٍ يكونُ قد فرَّحَ أباه، ولا يكونُ في الحقيقةِ قد أزالَ الألمَ عن أبيه، فعند طُغيانِ الماءِ كان الضَّررُ يلحقُهم فقال: دفعتُ عنكم الضَّررَ، ولو قال: دفعتُ عن أولادِكم الضَّررَ لَما حصلَ بيانُ دفعِ الضَّررِ عنهم.

وفي آية سورة يس أرادَ بيانَ المنافعِ فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لأنَّ النَّفعَ حاصلٌ بنفعِ الذُّرِّيَّةِ، ويدُلُّك على هذا أنَّه في آيةِ سورة يس قال: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ فإنَّ امتلاءَ الفُلكِ منَ الأَموالِ يحصُلُ بذكرِه بيانُ المنفَعةِ، فاختار ما يدلُّ على كمالِ المنفعةِ وهو الشَّحنُ، وأمّا دفعُ المضَرَّةِ فلا يُفيدُه لفظُ الشَّحن؛ لأنَّ الفُلكَ كلَّما كانَ أثقلَ كانَ الخلاصُ به أبطأَ، وأمّا في آيةِ سورةِ الحاقَّة فاختارَ الجريَ الذي يُفيدُ سرعةَ السَّير، الذي تتمُّ به السَّلامةُ والخَلاصُ منَ الضَّررِ(1).

وجاء في سورةِ الإسراءِ قولُه تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70]، وفي سورة يس: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾، ففي آيةِ سورةِ الإسراءِ لم يقُل: (وحمَلْنا ذرِّيَّتهم في البرِّ والبحرِ)، مع أنَّ المقصودَ في الموضِعَين بيانُ النِّعمةِ لا دفعُ النِّقمةِ والضَّرر، والعلَّةُ في ذلك هو أنَّه لمّا قال: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70] عَمَّ الخلقَ؛ إذ ما من أحدٍ إلا وحُمِلَ في البرِّ أو البحرِ، وأمّا الحملُ في البحرِ فلم يعُمَّ، فذُكِرَ بأنَّه إن كنّا ما حملناكُم بأنفُسِكم فقد حملنا ذُرِّيَّتكم ممَّن يُهمُّكُم أمرُه منَ الأولادِ والأقاربِ والإخوانِ والأصدقاءِ(2).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 284.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 284.

نكتةُ التَّعبيرِ بالحرفِ ﴿فِي﴾:

لمّا كان الحملُ يتعدَّى بـ(على)؛ إذ الحملُ ما كان على ظهرٍ أو رأسٍ[1]، كانت تعديةُ الفعل بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة في قوله: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾؛ للإشعار بقوَّة تمكُّنهم في الثَّباتِ في السَّفينةِ بوصفِها سوَّرَتْهم كالوعاءِ لهم في الاستيعابِ والإحاطةِ؛ فكانوا راسخينَ فيها مع قوّةِ الطّوفان الذي عمَّ الأرضَ وعظمتِه، ليُشير إلى عظمةِ الإنجاءِ، وكونِ الثَّباتِ في السَّفينة وقتَ الطّوفانِ من تمامِ الآيةِ.

الرُّسوخُ في السَّفينة وقتَ الطّوفانِ من تمامِ الآيةِ

دلالةُ (أل) في السّياقِ المُحكَم:

تحتملُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ أن تكونَ للعهدِ، ويُقصَدُ به الفُلْكُ المُعيَّن الذي كان لنوحٍ ﷺ، وهو المشهورُ عند العرب، فأغنَتْ شُهرتُه عن ذكره أوَّلًا، وتحتملُ أيضًا أن تكونَ للجنس، فيُقصَدُ بالفلك جنسُ الفُلك، ليشملَ جميع السُّفن التي يركبونَها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢﴾ [الزُّخْرُف: 12]، وقالَ تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطِر: 12][2].

الفُلكُ هو المعلومُ المشهورُ عند العربِ، أو يشملُ جميعَ السُّفنِ

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾:

لمّا كان معنى ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ هو المملوءَ كان مجيءُ اللَّفظِ صفةً لـ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ أظهرَ في معنى الامتنانِ؛ لأنَّ السَّلامةَ في الفلك المشحونِ من أجلِ النِّعم، وللتَّنبيه على قُدرةِ اللّٰه تعالى بحملِ الماءِ السّائلِ الرَّقيقِ الفلكَ المملوءَ الثَّقيلَ، وفي مجيءِ الصِّفة أيضًا مُراعاةً للفاصلةِ، فأفادت الصِّفةُ أمرين: أحدَهما معنويٌّ دلاليٌّ، والثّاني لفظيٌّ في الفاصلةِ المُؤثِّرة في نفوسِ السّامعين[3].

التَّنبيهُ إلى عظيمِ قُدرة الله تعالى بحملِ الفُلكَ على الماءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات: (حمل).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 283.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 149.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾ [يس: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ آيةِ حَمْلِ النّاسِ في الفُلكِ المشحونِ بالوسائلِ الّتي عليها يركبون

لمّا كانت آيةُ حملِ النّاسِ لم تنقطِعْ بل عَمَّ سبحانه بنفعِها قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[1]، وأيضًا لمّا ذكرَ آيةَ حملِهم في الفلك المشحونِ تنبيهًا على عظيم نعمتِه وقُدرتِه سبحانَه؛ إذ حملَ الماءُ السّائلُ الرَّقيقُ الفلكَ المشحونَ الثَّقيلَ بما ينفعُ النّاسَ أعقبَه بذكرِ مثلِه ممّا يُركَبُ كالإبلِ وغيرِها التي تحملُ الأثقالَ بما ينفعُ النّاسَ، فقال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، وقال تعالى في وصفِ الإبلِ وغيرِها منَ المركوبِ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: 7 - 8].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرْكَبُونَ﴾: (ركب) أصلٌ يدُلُّ على عُلوِّ شيءٍ شيئًا[2]، ومنه: (ركِبَ الدّابَّةَ)؛ أي: عَلا عليها، وكلُّ ما عُلِيَ فقد رُكِبَ وارتُكِبَ[3]، والرَّكوبُ - بفتح الرّاء -: المركوبُ، مثلُ الحَلوبُ، وهو (فعولٌ) بمعنى: (مفعولٍ)، فلذلك يُطابِقُ موصوفَه، يُقالُ: بعيرٌ ركوبٌ وناقةٌ حلوبةٌ، وجمعُه: (رَكبٌ، ورُكبانٌ، ورُكوبٌ)، والمُرادُ بالرُّكوبِ هنا: اعتلاءُ الدّابَّةِ للسَّيرِ، وأُطلقَ على الحُصولِ في الفُلكِ لتشبيههم الفُلكَ بالدّابَّةِ بجامعِ السَّيرِ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 134.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ركب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 23/ 69، و25/ 173.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى: وخلَقنا للعبادِ - ومنهم المُشركونَ المُكذِّبون - تفضُّلًا منّا عليهم، من مثل الفُلكِ ما يركبونَه منَ المراكبِ، فيدخلُ فيه السُّفنُ والإبلُ التي خلقَها اللّه للرُّكوب في البَرِّ؛ فإنَّها سفائنُ البَرِّ لكثرةِ ما تحملُ وقلَّة كلالِها في المسيرة(1).

من نِعَم الله تعالى ما سخَّرَ للرُّكوبِ من كلِّ مركوبٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآيةِ الكريمةِ:

اشتراكُ كلِّ ما يُركَبُ في الحمل في الأسفارِ وتيسير المسارِ

جاءت جملةُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ على طريقِ الوصلِ بالواو عطفًا على ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لتكونَ تتميمًا للآية الباهرةِ، وزيادةً في المِنَّة عليهم، فعُطِفَ الفعل ﴿وَخَلَقْنَا﴾ على ﴿حَمَلْنَا﴾، ليكونَ عطفًا على خبرِ (أنَّ) المصدريَّة، وتقديرُ الكلام: (وآيةٌ لهم أنّا حَمَلْنا ذُرّيَّتهم وخلَقْنا لهم).

وجاء الوصلُ بين الجملتَين بالواو؛ لاشتراكِهما في كونِ الجملتَين خبريَّتَين، وفي الجهة الجامعةِ من حيثُ اشتراكُ الفُلك والإبلِ وكلِّ ما يُركَبُ في البرِّ أو البحرِ في حملِهم في الأسفارِ وتيسيرِ حاجاتِهم فيها، ونظيرُ هذه المُشاركةِ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢﴾ [الزخرف: 12].

كمالُ التَّشابهِ بين الإبلِ والفُلكِ ناسبَ التَّذكيرَ بنعمةِ خلقِ المِثل

وتحتملُ أن تكونَ جملةُ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ مُعترضةً في خلالِ آيةِ البحرِ، فاصلةً بين مُتَّصلَين على طريقِ الاستطرادِ(2)، فتكونُ الواوُ استئنافيَّةً، ولا تخلو من رائحةِ التَّشريك في المعنى؛ أي: في مُراعاة النَّظير، وهي التَّذكير بنعمةِ خلقِ الإبلِ التي تُركبُ ويُحمَلُ عليها في الأسفارِ؛ لكمالِ التَّماثُلِ بينَ الإبلِ والفُلكِ، فكأنَّها نوعٌ منه، أو مع ما يركبونَ منَ السُّفنِ والزَّوارقِ(3).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20: 523، والبغوي، معالم التّنزيل: 4/ 15، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 285، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 28.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿وَخَلَقْنَا﴾:

عبَّرَ بلفظِ الخلقِ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم﴾ وفي الآيةِ السّابقةِ عبَّرَ بـ﴿حَمَلْنَا﴾، للتَّنبيه على أمرَين، وكلاهما آيةٌ عظيمةٌ:

التَّعبيرُ بلفظِ الخلقِ لعمومِ النَّفعِ، فليس كلُّ أحدٍ يركبُ السَّفينةَ

الأوَّلُ: أنَّه تعالى نبَّهَ في قولِه: ﴿حَمَلْنَا﴾ على آيةِ الإلهامِ في صُنعِ البشرِ السَّفينةَ التي عَمَّ نفعُها كلَّ البشرِ، فحُكيت آيةُ الإلهامِ بصُنعِ الفُلك من حيثُ الحكمةُ العظيمةُ في الإلهامِ وتسخيرِ البحرِ لها وإيجادِها في وقتِ الحاجةِ لحفظِ النَّوعِ، فلذلك لم يُؤتَ في جانبِها بفعلِ الخلقِ المُختصِّ بالإيجادِ دون صُنعِ النّاسِ[1].

والآخرُ: أنَّه تعالى نبَّهَ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَا﴾ على نعمةِ إيجادِ الإبلِ وكلِّ ما يركبونَه، التي هي من تمامِ آيةِ الحملِ في السَّفينةِ، ومن لطائفِ المُغايرةِ في الفعلِ ما يُفيدُه التَّعبيرُ بالخلقِ من نعمةِ العمومِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه ليس كلُّ أحدٍ يركبُ الفُلكَ، ولهذا عبَّر بالحملِ، ولمّا عبَّر بالخلقِ الذي يكونُ عامًّا ذكرَ منَ المركوبِ ما يعُمُّ الخلقَ؛ أي: الإبلَ وما يجري مَجراها في قطعِ المسافاتِ وبُلوغِ الحاجاتِ، ويدخلُ فيه السُّفنُ كذلك، ولهذا جاء اللَّفظُ بصيغةِ العمومِ في قولِه: ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾.

فائدةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَهُم﴾:

منَ الإنعامِ على النّاسِ انتفاعُهم بالرَّكائبِ على اختلافِها

اللّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾ للاختصاصِ؛ إذ اختصَّ اللّٰه تعالى البشرَ بخلقِ ما يركبونَه، وذلك لأجلِ انتفاعِهم الظّاهرِ منه، وهو المُناسبُ لسياقِ الإنعامِ وإظهارِ المنَّةِ.

دلالةُ الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُم﴾:

العمومُ المُستَفادُ مِنَ منَّةِ الله على جميعِ العبادِ

يحتملُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾ أن يكون عائدًا على أهلِ مكَّةَ ومَن يجري مَجراهم في الكفرِ والتَّكذيبِ، وإنكارِ الحشرِ يوم القيامةِ، ويدخلُ فيه كلُّ مَن ينتفعُ منَ المركوبِ لسَوقِه على جهةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 28.

الإنعامِ وظُهورِ المنَّةِ، أو أن يكون عائدًا إلى العباد، ليُفيدَ عمومَ المنَّة كما هو الظّاهرُ، فيكونُ على نسَقِ الضَّميرِ، في قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: 33]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، فالأصلُ عَودُ الضَّمائرِ على شيءٍ واحدٍ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

السّياقُ مُناسبٌ لمقامِ إظهارِ النِّعمةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ: ﴿لَهُم﴾ على المفعولِ به: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم والاهتمامِ به، واختصاصِ الخلقِ به؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إظهارٍ للنِّعمةِ وتذكيرٍ بها.

فائدةُ ﴿مِّن﴾ في سياقِ الآيةِ:

تنوُّعُ التَّوجيه المُرادِ توسيعٌ للمعنَى المُستَفادِ

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ تحتملُ أن تكونَ للتَّبعيضِ بمعنى: خلَقْنا من بعضِ مثلِ السَّفينةِ ما يركبونَ، كالإبلِ التي هي سفنُ البرِّ، ويدخلُ في اللَّفظِ كلُّ مركوبٍ يُركبُ إلى يوم القيامةِ، وتحتملُ أيضًا أن تكونَ لبيانِ الجنسِ بمعنى: خلَقْنا لهم من جنس سفينةِ نوح ما يركبون؛ فإنَّ السَّفينةَ الّتي صنَعَها نوحٌ عليه السلام كانت بإلهامٍ منَ اللّه تعالى، فيكونُ خاصًّا بالسُّفنِ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ تقديمُ البيانِ على المُبيَّنِ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ ولرعايةِ الفاصلةِ في قولِه: ﴿يَرْكَبُونَ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمثلِ في السّياقِ:

المركوباتُ مُتماثلةٌ في مقصدِ الحمل والتَّنقُّلِ

المِثلُ: هو المُشابهُ في الهيئةِ والحالةِ، واستعمالُ القرآن لفظَ (المثلِ) بعد كافِ التَّشبيه مألوفٌ بأنَّه يُرادُ به تشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، وقد يكونُ الشَّيءُ مِثلًا لشيءٍ في جميعِ صفاتِه، وقد يكونُ مثلًا له في بعضِ صفاته، وقد يكون وجهُ المماثلة ظاهرًا فلا يُحتاجُ إلى بيانِه، وقد يكون خفيًّا فيُحتاجُ إلى بيانِه[2].

وعبَّر بالمثلِ في قولِه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ للتَّنبيه على عظيمِ نعمةِ ما

---

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 455، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 150.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 315، و2/ 398، و9/ 177.

يركبونَ، لُماثلتِه للفُلكِ في العملِ والحملِ[1] وفي المقصدِ؛ أي: بالنَّقلِ من مكانٍ إلى مكانٍ بعيدٍ؛ أي: لما في المركوبِ من قوّةِ الحملِ ومُداومةِ السَّيرِ، فبها يصِلونَ إلى قضاءِ حوائجِهم ومنافعِهم في الأمكنةِ النّائيةِ البعيدةِ.

دلالةُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

بيانُ عظيمِ النَّفعِ بتنويعِ وسائلِ الرُّكوبِ المُستعملةِ

الضَّميرُ عائدٌ إلى ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ بما وُصِفَ به، والتَّقدير: وخلقنا لهم من مِثلِ الفُلكِ المشحونِ؛ للإشعارِ بعظيمِ النَّفعِ؛ لكثرةِ ما يركبون وما يحملون.

دلالةُ ﴿مَا﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

عمومُ الاسمِ الموصولِ استِغراقٌ لكلِّ مركوبٍ

لمّا كانت ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ اسمًا موصولًا يُفيدُ العمومَ دلَّ على استغراقِ اللَّفظِ لكلِّ مركوبٍ، فيدخلُ فيه الإبلُ والسُّفنُ[2] دخولًا أوَّليًّا، فيكونُ هذا التَّوجيهُ جامعًا بين أقوالِ المُفسِّرين في بيانِ المُرادِ من قولِه: ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾.

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ يتَناولُ الرَّواحلَ خاصَّةً؛ لأنَّها التي تُشبِهُ الفُلكَ في جَعْلِها قادرةً على قطعِ الرِّمالِ، كما جعَلَ الفُلكَ صالحًا لَمخْرِ البحارِ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِه:

إحضارُ المقصودِ في ذهنِ السّامعينَ مُفيدٌ لإبرازِ البيانِ المُبينِ

عبَّر بالاسمِ الموصولِ وصلتِه في قولِه تعالى: ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾، ليظهرَ إحضارُ المقصودِ في ذِهنِ السّامعينَ، بوساطةِ ذكرِ جملةِ: ﴿يَرۡكَبُونَ﴾ التي هي معلومةُ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليه عند السّامعين.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿يَرۡكَبُونَ﴾ دونَ: (يَحمِلونَ):

خُصَّ الرُّكوبُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾؛ لأنَّه أعمُّ المنافعِ؛

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 18/ 490.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 134.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 28.

من آيـاتِ الله تـعـالى حـاجـةُ الـنّـاسِ بـاطِّـرادٍ إلى الرُّكوبِ

إذ يحتاجُ الرُّكوبَ الصَّغيرُ والكبيرُ وفي جميع الأماكنِ والأزمانِ، ثمَّ إنَّ الرُّكوبَ قلَّما يخلو عن الحملِ، ولظُهور تعلُّقِ الخلق الذي هو بمعنى الإيجادِ بالمركوبِ لا بالحملِ، ثمَّ إنَّه لمّا كانت مُلابستُهم الفُلكَ والإبلَ باختيارِهم عبَّر عنه بالرُّكوبِ في حين عبَّر عن مُلابسةِ ذُرّيَّتهم بفُلكِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحَملِ دونَ الرُّكوبِ؛ لكونِ حملِهم في الفُلكِ بغير شعورٍ منهم واختيارٍ، ولذا لم يقُلْ: (وخلقنا لهم من مثلِه ما يحملون)[1].

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المُضارِعِ:

الإنسانُ لا ينفَكُّ عـن المـركـوبِ لبلوغ المُبتَغى المرغوبِ

آثَرَ التَّعبيرَ في الآيةِ بصيغةِ المُضارعِ: ﴿يَرۡكَبُونَ﴾؛ للإشعارِ باستمرارِ ركوبِهم على ذلك المركوبِ على سبيلِ التَّجدُّدِ ليقصِدوا منافعَهم ويبلُغوا حاجاتِهم[2]، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ لا ينفَكُّ عن المركوبِ لبلوغ حاجاتِه.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 134.

﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٤٤﴾ [يس: 43 - 44]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقةُ بين تسخيرِ الرَّكائبِ، والتَّأكيدُ بأنَّ الإنجاءَ منَ المهالكِ رحمةٌ منَ اللهِ المالكِ

لمّا كان اللهُ تعالى قد أنجى آباءَنا حين حملَهم في ذلك الماء الذي لم يكُنْ مثلُه قطُّ، وكان ربَّما ظَنَّ أنَّ الإنجاءَ لسرٍّ منَ الأسرارِ غيرِ إرادتِه، جعل أمر ما خلق من مثله تارةً، وتارةً ليعرفَ أنَّ ذلك هو بصُنعِه فتُشكَرُ نعمتُه أوَّلًا وآخرًا؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾، ولمّا كان هو سبحانَه يُصرِخُ مَن يشاءُ فيُنَجّيه رحمةً منه، وكانت (لا) نافيةً نفيًا مُستغرقًا، استثنى ما كان منه سبحانه فقال: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾[1].

وأيضًا لمّا كان قولُه تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ مُفيدًا باعتبارِ دلالتِه الكنائيَّةِ على استمرارِ هذه الآيةِ وهذه المنَّة تذكيرًا بأنَّ اللهَ تعالى الذي امتَنَّ عليهم إذا شاء جعَلَ فيما هو نعمةٌ على النّاسِ نقمةً لهم لحكمةٍ يعلَمُها؛ عبَّرَ بالآيتَين عادةَ القرآنِ في تعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ وعكسِه لئلّا يبطَرَ النّاسُ بالنِّعمةِ ولا ييأسوا منَ الرَّحمةِ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرِيخَ﴾: (صرخ) أصلٌ يدلُّ على صوتٍ رفيعٍ، ومن ذلكَ (الصُّراخُ)، يُقالُ: (صَرَخَ يَصْرُخُ): إذا صَوَّتَ[3]، و(المُستَصرِخ): المُستَغيثُ، و(المُصرِخُ): المُغيثُ، و(الصَّريخُ): المفزعُ والمُعينُ، ومنه: (أصرختُهم): أي: أعنتُهم[4]، ويُقالُ أيضًا: الصّارِخُ: المُستغيثُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 134 - 135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 29.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرخ).
(4) الخليل، العين: (صرخ).

والصّارِخُ: المُغيثُ، ويُقالُ: بل المُغيثُ مُصرِخٌ[1]، والمُرادُ بالصَّريخِ في الآيةِ: المُغيثُ والمُعينُ، ومعناه: فلا مُغيثَ لهم ولا مُعينَ منَ الغرَقِ.

2) ﴿يُنقَذُونَ﴾: (نقذ) أصلٌ يدلُّ على استِخلاصِ شيءٍ[2]، و(النَّقْذُ): مصدرُ: نَقذَ ينقذُ نَقَذًا، وقالوا: (ينقِذُ) بكسرِ القافِ، إذا نَجا[3]، وأنْقَذَه من فلانٍ، واستَنْقَذَه منه، وتَنَقَّذَه: بمعنًى؛ أي: نجّاه وخلَّصَه، وكلُّ ما أنقَذْتَه فهو: نَقَذٌ[4]، والمُرادُ بالإنقاذِ في الآيةِ: التَّخليصُ والنَّجاةُ من كربٍ أو حيرةٍ، وهو هنا بمعنى: الانتشالِ منَ الماءِ.

3) ﴿وَمَتَـٰعًا﴾: (متع) أصلٌ يدلُّ على بُلوغِ الغايةِ منَ الشَّيءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يمتَعُ مُتوعًا؛ أي: بلغَ غايةَ ارتفاعِه[5]، يُقالُ: جبلٌ ماتعٌ: طويلٌ شاهِقٌ، والمُتوعُ: امتدادُ الشَّيءِ طولًا مع قوَّته، وكمالِ حالِه، وجودةِ هيأتِه؛ ولذا استُعملَ فيما يبلُغ به الشَّيءُ ذلك من قوَّةٍ باطنةٍ وزادٍ وأسبابِهما[6]، والمتاعُ: ما يستمتِعُ به الإنسانُ في حوائجِه[7]، والمُرادُ بالمتاعِ هنا: المنفعةُ العاجلةُ؛ أي: نَيلُ ملذّاتِ الدُّنيا غيرِ الدّائمةِ.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

ينبغي ألّا يُؤمَنَ عـذابُ اللـه تعالى فهو يُغرِقُ ويُنجي بمشيئةٍ منه ورحمةٍ

يقولُ الحقُّ تعالى: وإن نشَأْ نُغرِقْ مَن يركبون السُّفُنَ في البحرِ، فلا مُغيثَ لهم يطلُبون منه النَّجدةَ، فيمنعُ عنهم حدوثَ الغرقِ، ولا أحدَ يُنقِذُهم فينتشِلُهم من الماءِ بعد غرقِهم فيه، إلّا أن نُنَجّيَهم نحن منَ الغَرَقِ؛ رحمةً منّا بهم، ولنُمتِّعَهم إلى مُنتَهى آجالِهم المعلومةِ عند اللّه تعالى[8].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صرخ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نقذ).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (متع).
(7) الخليل، العين: (متع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 447، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 515، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 286.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآيةِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ بطريقِ الوصلِ بالواو عطفًا على: ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾؛ وناسَبَ ذلك لاشتراكِ الجملتَين - المعطوفةِ والمعطوفةِ عليها - في الخبريَّةِ، وفي الجهةِ الجامعةِ؛ لأنَّها مُتمِّمةٌ لمعنى الآيةِ الباهرةِ، ولتذكيرِهم بعظيم نعمتِه سبحانَه في أنَّ كمالَ نعمةِ الحملِ في الفُلك بعدمِ غرقِهم، فلمّا امتَنَّ عليهم بالحمل والرُّكوب خوَّفَهم بالغرقِ؛ ليجمعَ الكلامُ بين التَّرغيب والتَّرهيب كما تقدَّم.

الجمعُ بين التَّرغيبِ والتَّرهيبِ أسلوبٌ في القرآنِ عجيبٌ

مُناسبةُ مجيءِ الشَّرطِ بالأداةِ (إنْ):

لمّا كان الأصلُ في استعمالِ الأداةِ (إنْ) أنَّها تأتي في حكم نادرِ الوقوع ليُقصَدَ بها عدمُ الجزم في وقوعِ الشَّرط؛ دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ على أنَّ الإغراقَ لا يكون إلّا بمشيئةِ اللّه تعالى، وأنَّه لا يكونُ إلّا نادرًا، وأنَّ الإغراقَ على سبيلِ العقابِ لا يكونُ إلّا لمَن كفَرَ وكذَّبَ.

الإغراقُ على سبيلِ العقابِ لا يكونُ إلّا لمَن كفرَ وما أنابَ

مُناسبةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ:

لمّا كان الشَّرطُ على معنى تعليقِ الجزاء بالشَّرط، واقترانِ وُقوعِه بمُجرَّد وقوعِ الشَّرط أفاد تعليقُ الإغراقِ بمحضِ المشيئةِ وأنَّ وقوعَ الإغراقِ يحصُلُ في وقت وقوع المشيئةِ الإشعارَ بأنَّه قد تكاملَ ما يوجِبُ إهلاكَهم من معاصيهم، ولم يبقَ إلّا تعلُّقُ مشيئتِه تعالى بإغراقِهم[1]، ففيه تخويفٌ لهم وتوبيخٌ على أعمالِهم القبيحةِ.

حينَ تتكاملُ موجِباتُ العقابِ يبقَى وُقوعُه مَنوطًا بمشيئةِ الله تعالى

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عبَّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿نَّشَأۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ مشيئتَه سبحانه قد تقعُ في أيِّ وقتٍ؛ لما يدُلُّ عليه الفعلُ من معنى التَّجدُّد،

مشيئةُ الله بالعقابِ لا يعلمُ وقتَ وُقوعِها إلّا مالكُ الرِّقابِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

وفي التَّعبير بصيغة المضارع أيضًا إشعارٌ بعظيم رحمتِه؛ لدلالةِ المُضارع على المُستقبلِ غيرِ المقطوعِ به المُناسب للشَّرطِ.

بيانُ أنَّ كلَّ فعلٍ واقعٌ بمشيئةِ الله تعالى

مُناسبةُ حذفِ المفعولِ في السّياقِ:

حُذِفَ مفعولُ: ﴿نَّشَأۡ﴾ للاختصارِ، لنيابةِ قرينةِ السّياقِ عن ذكرِه، فإنَّه لمّا قال: ﴿وَإِن نَّشَأۡ﴾ علِمَ السّامعُ أنَّه تعالى قد علَّقَ هذه المشيئةَ في المعنى بشيءٍ، فهو يضَعُ في نفسِه أنَّ ههنا شيئًا تقتَضي مشيئتُه له أن يكونَ، أو أن لا يكونَ، فلمّا قال: ﴿نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ عرَفَ ذلك الشَّيءَ، وتقديرُ الكلامِ: وإنْ نشأْ إغراقَهم نُغرِقْهم، فيكونُ من باب الحذفِ منَ الأوَّلِ لدلالةِ الثّاني عليه، فجاء البيانُ بعدَ الإبهامِ، ونُكتةُ الحذفِ القصدُ إلى التَّعميم؛ كي لا يقصُرَ السّامعُ مشيئَتَه تعالى على الإغراقِ فقط؛ فأفاد الإيجازُ بتقليلِ اللَّفظِ تكثيرَ المعنى، ولبيانِ أنَّ كلَّ فعلٍ واقعٌ بمشيئَتِه تعالى، وأنَّ الإغراقَ ليس ممّا يكبُرُ على اللّه تعالى، وأفادَ ورودُ البيان أيضًا بعدَ الإبهامِ وبعدَ التَّحريك له لُطفًا ونبلًا لا يكونُ إذا لم يتقدَّمْ ما يُحرِّكُ[1].

السُّفُن لا تمنَعُ مِنَ الإغراقِ، ومَن يحميها ومَن فيها هو الله مُجريها

فائدةُ الإسنادِ إلى نونِ العظَمةِ:

جاء الفعلانِ: ﴿نَّشَأۡ﴾ و﴿نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ مُسندَين إلى نونِ العظمة؛ للإيذانِ بعظمة مشيئتِه وتعظيم شأنِ أفعاله ﷻ، وبأنَّه لا يفعلُ هذا الفعلَ إلّا الملكُ الواحدُ الأحدُ؛ أي: وإنْ نشأْ نُغرِقهم مع إيجادِ السُّفُنِ، فالسُّفُنُ لا تمنَعُهم من إغراقِنا لهم، بما لنا منَ العظَمةِ.

المُرادُ منَ الإغراقِ ما كان على سبيلِ العذاب

بديعُ المُقابلةِ في قوله: ﴿نُغۡرِقۡهُمۡ﴾:

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ كان الحملُ مُضمَّنًا معنى الإنجاءِ منَ الغرقِ، المُفيد للامتنانِ، فناسبَه أن يُقابلَه بـ﴿نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ ليكونَ على طريقِ المُقابلة لـ﴿حَمَلۡنَا﴾، ليُفيدَ أنَّ

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 164، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 229.

المرادَ منَ الإغراقِ ما كان على سبيلِ العذابِ، فجمعَ في الآيتَين بين التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، جَرْيًا على عادةِ القرآنِ المجيدِ.

لا فرارَ من قدَرِ اللهِ في الغرقِ إذا كان بأمرِ الله قد سبقَ

دلالةُ الضَّمير في قولِه: ﴿نُغۡرِقۡهُمۡ﴾:

الضَّميرُ في ﴿نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ عائدٌ إلى المشركين المُكذِّبين، مع ما اتَّصفوا به منَ الحمل في الفُلكِ المشحون، والمعنى: إنْ نشَأْ نُغرِقهم في اليمِّ، مع ما حملناهم فيه منَ الفُلكِ[1].

ترتُّبُ انتفاءِ الصُّراخِ على الإغراقِ الصُّراحِ

دلالةُ (الفاء) في قولِه: ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾:

أفادتِ الفاءُ في قوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ التَّعقيبَ والتَّرتيبَ، بمعنى: ترتُّب انتِفاءِ صُراخِهم على إغراقِنا لهم، على سبيلِ العقاب والعذاب، أي: فلا صريخَ لهم إنْ أغرَقْناهم.

فائدةُ الحذفِ في السّياقِ:

مشيئةُ اللهِ لا مانعَ لها ولا مُمتنعَ من حُصولِها

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ حذفٌ لطيفٌ، وتقديرُ الكلامِ: وإنْ نشَأْ نُغرِقْهم فيغرَقوا؛ فلا صريخَ لهم، فحُذِفَ (فيغرَقوا)؛ للإيذانِ بتحقُّقِ وقوعِه بمُجرَّدِ مشيئَتِه تعالى للأمرِ، فذُكِرَ ما ينتجُ من غرقِهم وما يحصُلُ لهم عقيبَه؛ للإعلامِ به وحُذِفَ ما هو مُتحقِّقُ الحصولِ، إشعارًا بأنَّ مشيئةَ اللّه لا مانعَ لها.

دلالةُ (لا) النّافيةِ للجنسِ:

بيانُ أنْ لا صريخَ برُغمِ أنَّ الموقفَ يستلزمُ الصَّريخَ

أفادَ التَّعبيرُ بـ(لا) النّافيةِ للجنسِ في قولِه: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ نفيَ جنسِ الصَّريخِ لهم بعد غرقِهم؛ ليُنجّيَهم منَ الغرقِ، بمعنى: لا وجودَ لصريخٍ لهم أصلًا يحفَظُهم منَ الغرقِ، مع أنَّ غرقَهم يستَدعي أن يكونَ لهم صريخٌ.

التَّعبيرُ بالصَّريخ للإشعارِ بأنَّ الإغراقَ يكونُ مُفاجئًا، ويكون مُفزِعًا

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿صَرِيخَ﴾ دونَ: (مُغيث):

الظّاهرُ أنَّ الصَّريخَ في قولِه: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ بمعنى المُغيث،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

وعبَّر بالصَّريخ دون المُغيث؛ للإشعارِ بأنَّ إغراقَهم يكون فجأةً ويستَدعي صيحةً شديدةً منهم لشدَّة الفزعِ والهولِ الذي يُصيبُهم عند الغرقِ، من أجلِ إغاثتِهم، ولكنْ لا صرخةَ لهم ولا صريخَ يُغيثِهم، كما أنَّه لمّا قال: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أفادَ كذلك أنَّه لا منَعَةَ لهم[1]، ولمّا نفى الصَّريخَ على معنى العموم كان المعنى: لا مُغيثَ لهم يمنَعُنا من إغراقِهم إنْ شئنا إغراقَهم، ولا مُغيثَ لهم يمنَعُهم منَ الغرقِ إنْ أغرَقْناهم، فعُبِّرَ بلفظٍ قليلٍ عن معنًى كثيرٍ مع فصاحةِ اللَّفظ وحُسنِ التَّأليف.

ويحتملُ أن يكون الصَّريخُ بمعنى: المُستَغيث؛ أي: فلا استِغاثةَ لهم؛ بمعنى: نفيِ الاعتِدادِ بصُراخِهم عند استغاثتِهم[2].

سرُّ إيثارِ لفظِ: ﴿صَرِيخَ﴾ دونَ: (مُنقِذ):

أفادَ نفيُ الصَّريخِ نفيَ المُغيثِ، وأفادَ نفيُ الإنقاذِ نفيَ المُنجّي

وعبَّر بلفظِ: ﴿صَرِيخَ﴾ ولم يقُلْ: (ولا مُنقِذَ لهم)، وذلك للفرقِ بينَ اللَّفظَين باعتبارِ المقام؛ لأنَّه لمّا أراد أنَّه لا أحدَ له القدرةُ على النُّصرة، أو الدَّفع، أو المنع من إغراقِهم، عبَّر بـ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، فإنَّ مَن لا يكونُ من شأنِه أن ينصُرَ لا يشرعُ في النُّصرةِ؛ لأنَّها ليست في قُدرتِه، وإنَّما ينصُرُ ويُغيثُ مَن يكونُ من شأنِه أن يُغيثَ، ولم يقُلْ: (ولا مُنقِذَ له) عطفًا على ما سبقَه، بل عدلَ إلى قولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ لأنَّ مَن لا يكون من شأنِه أن يُنقِذَ إذا رأى مَن يعزُّ عليه في ضرٍّ أو ورطةٍ فإنَّه يشرعُ في الإنقاذِ وإن غلَبَ على ظنِّه عدَمُ الإنقاذِ، لكنَّه يبذُلُ المجهودَ، ولهذا جاء بأسلوبِ نفيِ الجملةِ الاسميَّةِ الدّالِّ على ثُبوتِ نفيِ الإنقاذ منَ الغرق، وإنْ حصلَتِ المُحاولة وبُذِلَ الجُهدُ، ولو قيلَ: (ولا مُنقِذَ له) أفادَ نفيَ وجودِ أيِّ مُنقذٍ لهم، وليس

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 20.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 18، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 151.

المقصودُ نفيَ الجنسِ[1]، فأفادَ نفيُ الصَّريخِ نفيَ المُغيثِ الذي يدفعُ عنهم الغرقَ، وأفاد نفيُ الإنقاذِ نفيَ مَن يُنَجّيهم بعد الغرقِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ: (فَعيلٌ):

صيغةُ (فعيلٍ) بمعنى (فاعلٍ) أبلَغُ في الدَّلالةِ على المُرادِ

عبَّر بصيغةِ (فعيلٍ) في قوله تعالى: ﴿صَرِيخَ﴾ دون (صارخٍ) أو (مُصرِخٍ)؛ لِما تُفيدُه الصّيغةُ من معنى المبالغة؛ أي: للمُبالغةِ في نفي الصَّريخِ الذي يُغيثُهم؛ فإنَّ (فعيلٍ) بمعنى (فاعلٍ) أبلَغُ في المعنى من صيغةِ (فاعلٍ).

فائدةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ﴾:

مَن طالَه العقابُ فلا مُنقِذَ له مِنَ العذابِ

أفادَتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ معنى الاختصاصِ؛ أي: للمُشركين المُكذِّبين، ومعنى التَّخصيصِ؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لبيانِ قُبحِ أفعالِهم مِنَ الشِّركِ وإنكارِ البعثِ والتَّكذيبِ، مقابلَ نِعَمِ اللّه الجليلةِ عليهم.

دلالةُ الضَّميرِ في شبهِ الجملةِ: ﴿لَهُمْ﴾:

مَن نالَه العذابُ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ

الضَّميرُ في ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ إلى المُشركين المُكذِّبين، تنبيهًا لهم على أنَّه تعالى قد يُغرِقُهم على سبيلِ العذاب، فيجمعُ عليهم عذابَ الدُّنيا والآخرة.

سرُّ العطفِ بالواوِ في السّياقِ:

الخلاصُ مِنَ العذابِ، إمّا بدفعِه سلَفًا، أو برفعِه بعد وُقوعِه

أفادتِ الواوُ العطفَ على سبيلِ التَّرقّي، وبيانُه أنَّه لمّا نفى أن يكونَ لهم صريخٌ؛ بمعنى: لا يجدون في البحرِ صريخًا لهم، عطفَ على سبيلِ التَّرقّي في نفي أيِّ حيلةٍ لهم في إنجائِهم فقالَ: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ أي: وإنْ وجَدوا صريخًا فلا يقدرُ على إنقاذِهم؛ أي: فلا يُنقِذُهم مُنقِذٌ مِنَ الموتِ بالغرقِ[2]، والسَّببُ في هذا العطفِ هو أنَّ الخلاصَ مِنَ العذابِ، إمّا أن يكونَ بدفعِ العذابِ من أصلِه، أو برفعِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 286، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 231.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 363.

بعدَ وقوعِه، فلمّا قال: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أفادَ أنَّه لا صريخَ لهم يدفَعُ العذابَ ويمنعُه؛ أي: لا صريخَ لهم يحرُسُهم منَ الغرقِ؛ لأنَّ الإغاثةَ بمعنى الدَّفع والمنع، ولمّا عطفَ عليه قولَه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾ كان على معنى: ولا هم يُنقَذون بعد غرقِهم ووقوعِهم فيه؛ لأنَّ الإنقاذَ بمعنى التَّخليصِ بعد الوُقوع في ورطةٍ بحسبِ ما سيأتي.

نكتةُ التَّعبير بـ(لا) دونَ: (ما):

جـيءَ بالحرفِ (لا) لـلإعـلامِ بالانتفاء؛ إذ لا إنقاذَ ولا نجاةَ

لّما كانت (لا) تُفيدُ النَّفيَ في الحال والاستقبال أفادَتْ نفيَ إنقاذِهم بعد غرقِهم، ونُكتةُ التَّعبير بـ(لا) دونَ (ما) هو أنَّ (ما) تُستعمَلُ للرَّدِّ على قولٍ، أو ظنٍّ، أو ما كان مُنزَّلًا هذه المنزلةَ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ [البقرة: 8]، وقال: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾ [الأحزاب: 13]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 78]، وأمّا (لا) فإنَّها تُستعَملُ لإعلامِ المُخاطَبين بما يقعُ لهم عند نزولِ العذابِ بالإغراقِ، وليس للرَّدِّ على قولٍ قالوه.

فائدةُ تقديمِ النَّفيِ على جملةِ الإسنادِ:

تقديمُ النَّفيِ أفادَ شُمولَهم بعدَمِ الإنقاذِ إفرادًا وجمعًا

قُدِّمَ النَّفيُ على المُسندِ والمُسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (وهم لا يُنقَذون)؛ لأنَّ تقديمَ النَّفيِ أفادَ شُمولَهم بالنَّفيِ إفرادًا وجمعًا؛ أي: نفيَ الإنقاذِ عن كلِّ فردٍ منهم، ونفيَ الإنقاذِ على سبيلِ المجموع.

كما أنَّ دخولَ النَّفيِ على الجملةِ كلِّها أبلَغُ في انتفاءِ الحصولِ من نفيِ المُسند عن المُسند إليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

ثـبـوتُ عـدمِ الإنقاذِ، يقتَضي صيغةً دالّةً على الثُّبوتِ

عبَّرَ بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ﴾، دونَ أن يُقالَ: (فلا صريخ لهم ولا ينقذون)؛ لِما تُفيدُه الجملةُ الاسميَّةُ من معنى

الثُّبوتِ والدَّوامِ؛ أي: ثُبوتِ عدَمِ الإنقاذِ عنهم، ودوامِه حالًا، فمآلًا إلى الهَلَكةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿يُنقَذُونَ﴾:

الإغـراقُ ورطةٌ، ولا يُنجّي منها إلّا المُنجّي ﷻ

عبَّر بلفظِ: ﴿يُنقَذُونَ﴾؛ لأنَّ الإنقاذَ بمعنى التَّخليص من ورطةٍ أو مكروهٍ، والتَّنجيةِ منهما[1]؛ ليُفيدَ أنَّهم إنْ أغرقَهم اللّهُ تعالى فهم في ورطةٍ لا يخلُصونَ منَ الغرقِ.

سرُّ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

بيانُ أنْ لا أحدَ يُنقِذُ مَن أغرقَه الله

جاء الخبرُ جملةً فعليَّةً، في قولِه: ﴿يُنقَذُونَ﴾، فاشتمَلَ الإسنادُ على تكرُّرِ النِّسبةِ، بتكرُّرِ المُبتدأ: ﴿هُمۡ﴾، وضميرِ الجمعِ في ﴿يُنقَذُونَ﴾ العائدِ على المبتدأ؛ ليُفيدَ تقوّيَ الحكمِ بنفسِ التَّركيبِ؛ أي: تحقيقَ نفي إنقاذِ أحدٍ إيّاهم، واستمرارَه[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

الإعـلامُ بنفيِ وقوعِ إنقاذِهم، وليس لتعيينِ مَن لا يقدرُ على إنقاذِهم

عبَّر بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿يُنقَذُونَ﴾؛ لأنَّ القصدَ الإعلامُ بنفيِ وقوعِ إنقاذِهم، وليس تعيينَ مَن لا يقدرُ على إنقاذِهم، فإنَّه لا غرضَ من معرفتِه، وفيه إشعارٌ بأنَّ هذا الفعلَ لا يقدرُ عليه إلّا اللّهُ تعالى، فلمّا كان هو الذي أغرقَهم كان المُنقِذُ لهم معدومًا.

دلالةُ الاستثناءِ في السّياقِ:

شرطُ النَّجاةِ منَ الإغـراقِ رحمةٌ منَ الله تعالى

يحتملُ الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ أن يكون مُنقطِعًا؛ لأنَّ الرَّحمةَ ليست من جنسِ الصُّراخِ ولا من جنسِ إنقاذِ النّاسِ لهم، وإنَّما هي إسعافُ اللّهِ إيّاهم بأيِّ طريقةٍ من طرائقِ الإسعافِ، وتقديرُ الكلامِ على الانقطاعِ: لا صريخَ لهم ولا هم يُنجَّونَ منَ الغرقِ البتَّةَ، لكنَّ رحمةً منّا هي التي تُنجّيهم.

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نقذ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 29.

ويحتملُ أن يكون الاستثناء مُفرَّغًا، وبيانُه: أنَّه لمّا كان ﴿رَحۡمَةٗ﴾ مفعولًا لأجلِه كان على معنى بيانِ العلَّة الغائيَّة؛ أي: علَّة إنقاذِهم منَ الغرق، والغاية منه أن يكونَ رحمةً منّا ومتاعًا إلى حينٍ، فيكونُ استثناءً مُفرَّغًا من أعمِّ العللِ الشّاملةِ للباعثِ المُتقدِّم والغايةِ المُتأخِّرةِ؛ أي: لا يُغاثونَ ولا يُنقذون لشيء منَ الأشياءِ إلّا لرحمةٍ منّا ولأجلِ المتاعِ إلى حينٍ(1).

وأجاز بعضُ النُّحاة والمُفسِّرين أن يكون الاستثناءُ مُتَّصلًا، وتقديرُ الكلام: ولا يُنجَّونَ منَ الموتِ بالغرقِ لأجلِ شيءٍ إلّا لرحمةٍ(2).

دلالةُ (مِنْ) في السّياقِ:

(مِنْ) في قولِه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ ابتدائيَّةٌ، ليُفيدَ أنَّ مُبتدأ الرَّحمة وأصلَها منَ اللّه تعالى، وكان معنى الكلام: نُنقِذُهم رحمةً منّا؛ أي: فضلًا منّا ومَنًّا، لا وُجوبًا علينا(3).

رحمةُ اللهِ للعبادِ تفضُّلٌ منه، وليسَتْ واجبةً عليه سُبحانَه

نكتةُ الإسنادِ إلى نونِ العظَمةِ:

في قولِه: ﴿مِّنَّا﴾ أُسنِدتِ الرَّحمةُ إلى نونِ العظمةِ؛ لإفادة أنَّ هذه الرَّحمةَ عظيمةٌ من قِبَلِنا، وأنَّه لولا عظمَتُها لَما أُغيثوا ولا أُنقذوا؛ إيذانًا بِعظَمِ ذنوبِهم وكثرةِ معاصيهم.

رحمةُ اللهِ وسِعَتِ الطّائعين والمُذنبين على حدٍّ سواءٍ

فائدةُ العطفِ في السّياقِ:

لمّا كان ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوفًا على ﴿رَحۡمَةٗ﴾ الذي هو مفعولٌ لأجلِه؛ لبيانِ سببِ الإغاثةِ والتَّنجيةِ أفاد أنَّ مجموعَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه سببٌ فيهما؛ إذِ الرَّحمةُ بدونِ تمتيعِ الحياةِ لا تكونُ علَّةً للتَّنجيةِ، كما أشعرَ العطفُ بترتُّبِ التَّمتيعِ بالحياة على رحمتِه تعالى

لولا رحمتُه في إنقاذِ النّاسِ منَ الهلاكِ لما تمتَّعوا إلى حينٍ

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 289، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 71، والسمين الحلبي، الدرالمصون: 9/ 272، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 18، والعكبري، التبيان: 2/ 1084، والطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 60، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 152.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 135.

بهم؛ أي: فلولا رحمتُه العظيمةُ في إنقاذِهم وخلاصِهم منَ الهلاكِ لَما تمتَّعوا إلى حينٍ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿وَمَتَٰعًا﴾:

كلُّ ما فيه انتفاعٌ وتلذُّذٌ في الدُّنيا ينقَضي بانتهاءِ الأَجَلِ

لَمّا كان معنى المتاعِ كلَّ ما يُنتفَعُ به على وجهٍ ما انتفاعًا لوقتٍ مُمتَدٍّ على وجهِ التَّلذُّذِ به سواءٌ أكان لباسًا، أو طعامًا، أو مركوبًا، أو غير ذلك ممّا يُنتَفَعُ به في الدُّنيا[2]، وأنَّ المفعولَ لأجلِه ﴿وَمَتَٰعًا﴾ لم يأتِ مُبَيِّنًا لوجهِ المتاعِ؛ أفادَ التَّعبيرُ به أنَّ انتفاعَهم المُطلقَ في أوقاتِ حياتِهم وإن امتدَّ فإنَّه مقطوعٌ بالأجلِ، وهو الموتُ، فأشعرَ أنَّ متاعَهم وتلذُّذَهم في الدُّنيا قليلٌ ما دام له أجلٌ بالموت، ففيه تخويفٌ بعذابِ الآخرة، لِما يُؤذِنُ به انتهاءُ الغاية بـ﴿إِلَىٰ﴾ بانقطاعِ تمتيعِهم بانقضاءِ الأجل، أي: بالموت.

وفيه إشارةٌ كذلك إلى أنَّ كلَّ ما يكون فيه انتفاعٌ وتلذُّذٌ في الدُّنيا سواءٌ أكانَ قليلًا أم كثيرًا، جليلًا أم حقيرًا، هو منَ المتاعِ الذي ينقَضي بانتهاءِ الأجلِ.

سببُ تقييدِ الرَّحمةِ بقولِه: ﴿مِّنَّا﴾ دون التَّمتيعِ:

رحـمـةُ اللـه ظاهِرُها عطفٌ وباطنُها لُطفٌ، وكلاهما خيرٌ

قد يُقالُ: لِمَ قيَّدَ الرَّحمةَ بكونِها منه تعالى فقال: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾، ولم يُقيِّدِ المتاعَ بأن يُقالَ: (ومتاعًا منّا إلى حين) مع أنَّ كلَّ الأمورِ منه تعالى؟.

وجوابُه أنَّه لَمّا كانتِ الرَّحمةُ خيرًا في ظاهرِها وباطنِها نسبَها إليه تعالى، وللإشعارِ بأنَّه لولا رحمتُه لما أُنقِذوا منَ الغرقِ، وأمّا التَّمتيعُ فهو في ظاهرِه استدراجٌ لهم إلى الموتِ، فلم ينسبْه إليه سبحانه وتعالى.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ استعارةٌ تهكُّميَّةٌ، بيانُها: أنَّه

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 152.
(2) الراغب، المفردات (متع).

تمتُّعُ الكافرِ بالعيشِ في الدُّنيا استدراجٌ له، وزيادةٌ في عذابِه يوم القيامةِ

لمّا كان السّياقُ في بيان حالِ المُشركين المُكذِّبين، كان جَعلُ الغايةِ من إنقاذِ الكافرين: هي تمتُّعَهم في الدُّنيا على سبيلِ الاستعارة التَّهكُّميَّة، فإنَّ تمتُّعَ الكافر تهكُّمٌ به[1]؛ لأنَّ انتفاعَه بالعيش في الدُّنيا هو استدراجٌ له وزيادةٌ في عذابِه يومَ القيامةِ، فيكونُ تمتُّعُه حُجَّةً عليه.

نكتةُ تقييدِ المتاعِ في السّياقِ:

التَّمتُّعُ ينتَهي بالموتِ، ومَن نَجا مِن مَوتةٍ استقبلَتْه أُخرى

قُيِّدَ المتاعُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ بالجارِّ والمجرورِ (الظَّرفِ)؛ للإيذان بأنَّ تمتيعَهم ليس مُطلقًا، بل له غايةٌ زمانيَّةٌ ينتهي إليها، وهي آجالُهم المضروبةُ لهم، وفي هذا التَّقييد لطيفةٌ بلاغيَّةٌ، وهي أنَّه لمّا كان الاستثناءُ على معنى أنَّه تعالى رحمَهم بإنقاذِهم منَ الغرقِ والموتِ، وكان إنقاذُهم سببًا لتمتيعِهم في الدُّنيا إلى أجلٍ يموتون فيه أفادَ أنَّهم إنْ سلِموا من موتِ الغرقِ فذلك سلامةٌ إلى أجلٍ يموتون فيه لابدَّ لهم منه، فإنَّ كلَّ حيٍّ صائرٌ إلى الموتِ فإذا نجا من موتةٍ استقبلته موتةٌ أخرى ولكنَّ اللَّه أودَعَ في فطرةِ الإنسانِ حُبَّ زيادةِ الحياةِ مع علمِه بأنَّه لا محيدَ له عن الموتِ[2]، وفي هذا المعنى قال المُتنبّي:

ولَم أَسلَمْ لكي أبقَى ولكِنْ *** سَلِمْتُ منَ الحِمامِ إلى الحِمامِ[3].

أي: إن سلِمْتُ من مرضٍ لم أبقَ خالدًا، ولكنْ سلِمْتُ منَ الموتِ بهذا المرضِ إلى الموتِ بمرضٍ أو سببٍ آخر[4].

دلالةُ لفظِ ﴿حِينٍ﴾ في الآيةِ:

لا مندوحةَ منَ الأجَلِ وإنْ طالَ الأملُ

لمّا كان لفظُ ﴿حِينٍ﴾ يُقصَدُ به وقتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، طالَ أم قصُر[5]، وكان المُرادُ به في قولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الموتَ؛ أي:

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 2/ 138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 30.
(3) ديوان المتنبي، ص: 478، ولفظ صدر البيت فيه: (وإنْ أسلمْ فما أبقى ولكنْ).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 18، وابن المنير، حاشية على الكشاف: 4/ 18.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 161، والراغب، المفردات: (حين).

إلى حينِ انقضاءِ الأجلِ؛ أفاد أنَّ تمتُّعَهم قد يطولُ وقتُه وقد يقصُرُ، ففي التَّعبيرِ بلفظِ ﴿حِينٍ﴾؛ تحذيرٌ لهم منَ التَّمادي والانشغالِ بما يتمتَّعونَ به؛ فإنَّ أجلَهم قصيرٌ، وهو وإن طالَ في الوقت، فإنَّه سينتَهي ولو بعد حينٍ.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حِينٍ﴾:

التَّحذيرُ من ملذّات الدُّنيا؛ لأنَّ الأجلَ قصيرٌ وإن طالَ

لمّا كان لفظُ ﴿حِينٍ﴾ من أسماء الزَّمان المُبهمة التي تتخصَّصُ بالإضافةِ، وجاء في قولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ نكرةً مُنوَّنًا غيرَ مُضافٍ؛ فإنَّ تنكيرَه أفادَ الإبهامَ، وذلك للإيذانِ بأنَّ أجلَهم الذي يموتون فيه مُبهَمٌ لا يعلَمُه إلّا اللّه تعالى، ويحتملُ أن يُفيدَ التَّنكيرُ التَّقليلَ، بمعنى: أنَّ أجلَهم وإن امتدَّ فهو قليلٌ؛ لأنَّه مُنتَهٍ، ولا يمتنعُ الحملُ على المعنيَين؛ أي: فيكونُ المرادُ الإبهامَ والتَّقليلَ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٥﴾ [يس: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربــطُ عــدمِ النَّجاة من قدَرِ الله وعـذابِه، بـالإعـراضِ عن التَّذكير بالتَّقوى ونبذِها

لـمّا كان هذا الحال معلومًا للمُشركين لا يُنازَعون فيه بوجهٍ، بل إذا وقعوا في الضّيق واقترَبوا منَ الغرَقِ أخلَصوا الدُّعاء وأمروا به وخلَعوا الأندادَ، وكان علمُ ذلك موجبًا لصاحبِه أن لا يغفلَ عن القادرِ عليه وقتًا ما، بل لا يفتُرُ عن شُكره خوفًا من مَكرِه، وكان العاقلُ إذا ذُكِّرَ بأمرٍ فعلمَه يقينًا كان جديرًا بأن يقبلَه، فإذا لم يقبَلْه وخوِّفَ عاقبتَه بأمرٍ محتمَلٍ جدَّ في الاحترازِ منه، عَجِبَ منهم في إعراضِهم عنه سُبحانَه مع قيامِ الأدلَّةِ القاطعةِ على وحدانيَّتِه وأنَّه قادرٌ على ما يُريدُ من عذابٍ وثوابٍ، وإقبالِهم على ما لا ينفَعُهم بوجهٍ، قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾ الآيةَ(1).

وأيضًا لـمّا عدَّدَ الله تعالى الآياتِ بقولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس: 33]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾ [يس: 37]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، وكانتِ الآياتُ تُفيدُ اليقينَ وتوجِبُ القَطعَ بما قال تعالى، لكنَّها لم تُفِدْهم اليقينَ كان على الأقلِّ أن يحترِزوا عن العذابِ؛ فإنَّ مَن أُخبِرَ بوقوعِ عذابٍ يتَّقيه، وإن لم يقطعْ بصدقِ قولِ المخبرِ احتياطًا فبيَّنَ الله تعالى أنَّه إذا ذكرَ لهم الدَّليل القاطعَ لا يعترفون به، وإذا قيلَ لهم اتَّقوا لا يتَّقون، فهم في غايةِ الجهلِ ونهايةِ الغفلة، لا مثلَ العلماءِ الَّذينَ يتَّبعونَ البُرهانَ، ولا مثلَ العامَّة الذينَ يبنونَ الأمرَ على الأحوطِ(2).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 136.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 286.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وإذا قيلَ لهؤلاء المُكذِّبين بما نزَّلَ اللّه منَ الآياتِ: احذَروا ما تقدَّم قبلكم من نقَم اللّه في الأُممِ الماضيةِ بكُفرِهم، أن يحُلَّ مثلُه بكم، واحذَروا ما أنتم لاقوه من عذابِ اللّه تعالى إن هلَكتُم على كُفركُم وتكذيبِكُم، لعلَّكم تنالونَ بذلك رحمةَ رَبِّكم[1].

الإعـراضُ عن التَّذكير بالتَّقوى وتـوقّـي سـوءَ المـصيرِ خَيـبـةٌ وهلاكٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآية:

جاءتِ الآيةُ على طريق الوصلِ بالواو لاشتراكِ الجملتَين في الخبريَّة والجهة الجامعةِ، وبيانُ الاشتراكِ في الجهة الجامعة هو أنَّه لـمّا أخبرَ في الآياتِ السّابقةِ عن عدَم انتفاعِ المُشركين بالآياتِ الآفاقيَّة الدّالَّة على وحدانيَّة اللّه تعالى مع مُشاهدتِهم لها ممّا يُفيدُ إعراضَهم عنها عطفَ عليها عدَمَ انتِفاعِهم بالآياتِ القوليَّة المُبلَّغة إليهم في القرآنِ منَ الموعظةِ مُعرضينَ عنها، فلم ينتَفِعوا بالنَّظرِ ولا بالقولِ[2].

الـكـافـرون جـاهـلـون؛ لعدمِ انتفاعِهم بالآياتِ القوليَّةِ والكونيَّةِ

فائدةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) الشَّرطيَّةِ:

عبَّر بأداةِ الشَّرطِ (إذا) لـما تُؤذِنُ به الأداةُ بالجزم في وقوع الشَّرط، وهو القولُ للمُشركين ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾؛ لأنَّ لفظ (إذا) موضوعٌ للدَّلالة على الوقوع، فضلًا عن أنَّ التَّعبير بـ(إذا) مُشعِرٌ بالحثِّ على امتِثالِهم للتَّقوى والرَّغبةِ في تحصيلِها.

الـحـثُّ عـلى الامتثالِ للتَّقوى والـرَّغـبـةِ في تحصيلِها

نكتةُ مجيءِ فعلِ الشَّرطِ بصيغةِ الماضي:

لـمّا أفادَتْ (إذا) وُقوعَ الشَّرطِ في المُستقبل، وكانت تدلُّ على الجزمِ في وقوعِه، عبَّر بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا

تحقُّقُ الشَّرطِ مُـؤذِنٌ بتحقُّقِ الجزاءِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 448، 449، والواحدي، تفسير الوجيز، ص: 901.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 30.

قِيلَ﴾ للإشعارِ بأنَّ الشَّرطَ كالمُتحقِّق الوقوعِ نظرًا إلى لفظِ الماضي الموضوعِ للدَّلالةِ على الوقوعِ، بمعنى: أنَّ القولَ المذكورَ سيقعُ تحقيقًا؛ ليُؤذِنَ بتحقُّقِ الجزاءِ.

مُناسبةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ:

المُؤمنُ مُقبِلٌ على آياتِ الله، والكافرُ مُتحفِّزٌ للإعراضِ عنها قبلَ سماعِها

لـمّا كان الشَّرطُ يُؤتَى به للدَّلالة على أنَّ الجزاء مُتعلِّق بالشَّرط وواقعٌ في وقت وقوع الشَّرط وكان جزاءُ الشَّرط المحذوفُ بتقدير: (أعرَضوا)، أفادَ أنَّ إعراضَ الكافرين يكونُ في وقت وقوع الأمر بالتَّقوى فكأنَّ إعراضَهم مُبيَّتٌ عندَهم وهم عازِمون عليه.

نكتةُ بناء الفعلِ للمفعولِ:

إعراضُ الكافرين عن الحثِّ على تركِ لذّاتِهم، وليس لأمرٍ آخرَ

البناءُ للمفعول لظُهورِ أنَّ القائل هو الرَّسولُ ﷺ، فهو المُبلِّغ آياتِ القرآنِ[1]، وكان في العدولِ إلى صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ: ﴿قِيلَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم لا ينتفِعون بالقولِ من أيِّ قائلٍ كانَ، وبأيِّ طريقةٍ كان القولُ، سواءٌ كان بطريقِ الإنذارِ أو بغيرِه، فإعراضُهم لِما تتضمَّنُه الآياتُ من المعاني المُخالفة للذّاتِهم، وليس لأمرٍ آخرَ[2].

فائدةُ اللّامِ في شبهِ الجملةِ: ﴿لَهُمُ﴾:

يُقالُ في المَثَل (قد أعذَرَ مَن أنذَرَ)

اللّام في ﴿لَهُمُ﴾ للاختصاصِ، وتخصيصُهم بالتَّبليغ فيه إشعارٌ بأنَّهم قد حُذِّروا وذُكِّروا.

دلالةُ الضَّميرِ في قوله ﴿لَهُمُ﴾:

إنذارُ المشركين إلزامٌ لهم بالحجّةِ

الضَّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ عائدٌ على المُشركين من عُتاةِ قُريشٍ[3] المُكذِّبين بما نزَّلَ الله منَ الآياتِ، المُصرّين على كُفرِهم وعِنادِهم.

نكتةُ الأمرِ بالتَّقوى:

عبَّر بلفظِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾ للإشعارِ بالتَّحذيرِ والأمرِ بأن يكونَ اجتِنابُهم

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 23/ 30.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 353، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 455.

لِما بين يدَيهم وما خلفَهم من العَثَراتِ المُهلِكةِ، مَشوبًا بالخوفِ العظيم، فكأنَّه قال: احذَروا واجتَنبوا وخافوا خوفًا عظيمًا[1]، ففيه الأمرُ بإعداد العُدَّة المُتضمِّنُ معنى النَّهيِ عن الاغترارِ بالدُّنيا وفعلِ المُنكراتِ.

التَّقوى تُفيدُ وُجوبَ الاجتنابِ، مع الخشيةِ من مغبَّةِ الارتكابِ

دلالةُ ﴿مَا﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

تفيدُ ﴿مَا﴾ الموصولةُ في الموضِعَين من قولِه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ العمومَ؛ ليشمل اللَّفظُ كلَّ ما بين أيديكم، وكلَّ ما خلفكم، وهو المُناسبُ لمعنى الإحاطةِ في هذا التَّركيب بحسبِ ما سيأتي.

تكرارُ الاسمِ الموصولِ العامِّ يُفيدُ معنى الإحاطةِ

بلاغةُ الجملةِ بين الكنايةِ والاستعارةِ والمجازِ:

يحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ كنايةً عن الماضي من وقائعِ الأممِ التي خلَتْ، بمعنى: اتَّقوا أن تفعلوا مثلَ ما فعلَتِ الأممُ الماضيةُ مِنَ الإشراكِ والتَّكذيب، وأن يكون قولُه: ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كنايةً عن المُستقبلِ مِنَ العذابِ المُعَدِّ في الآخرةِ لِمَن كفَرَ وكذَّبَ، بمعنى: اتَّقوا أسبابَ العذاب في الآخرةِ، أو يكونُ التَّركيبُ كنايةً عمّا تقدَّمَ مِنَ الذُّنوب وما تأخَّر ممّا أنتم تعملونَ من بعدُ، بمعنى: اتَّقوا وبالَ ما تقدَّمَ مِنَ الذُّنوب وما تأخَّر، فيُفيدُ معنى: اتَّقوا أيَّ عملٍ فيه ذنب.

التَّحذيرُ ممّا وقع في الماضي لئلّا يُفعَلَ، وممّا سيقعُ بأن يُجتنَبَ

ويحتملُ العكسَ، بأن يكونَ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ كنايةً عن المُستقبلِ، و﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ كنايةً عن الماضي[2]، وهذا الاختلافُ لاختلافِ تصوُّرِ ما اعتُبِرَ به الخلفُ والقُدّامُ بما يسوقُه الزَّمنُ، ولهذا يُقالُ: (خلَّفتُ كذا) لِما قضيتَه، و(خلفي كذا) لِما لم تفعلْه بعدُ[3].

أو يُقالُ: هذا التَّركيبُ فيه استعارة تمثيليَّة للزَّمان الماضي والمستقبل[4]، والغرضُ مِنَ الاستعارة تقريبُ ما مضى وما يكون في المُستقبل، فإن نُظِرَ إلى تمثيلِ المُضافِ إليه بسائرٍ إلى مكانٍ، فالذي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 136.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 19، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269.
(3) الراغب، تفسير الراغب الأصبهاني: 1/ 524.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 152.

بين يدَيه هو ما سيرِدُ هو عليه، ليُفيدَ المُستقبلَ، والذي خلْفَه هو ما خلَّفَه خلفَه في سَيرِه، فيكونُ المُرادُ بالخلفِ الماضيَ، وإن نُظِرَ إلى تمثيلِ المضافِ بسائرٍ، فهو إذا كان بين يدَي المُضافِ إليه فقد سبقَه في السَّير، فهو سابقٌ له، فيكونُ تركيبُ (ما بينَ يدَيه) استعارةً تمثيليَّةً للماضي، وإذا كان خلفَ المُضافِ إليه فقد تأخَّر عنه، فهو وارِدٌ بعدَه، فيكون تركيبُ (ما بينَ يدَيه) استعارةً تمثيليَّةً للمُستقبل[1]، وسواءٌ أكان التَّركيبُ على الكناية أم على الاستعارة فإنَّ المُرادَ التَّحذيرُ ممّا وقع في الماضي منَ الأمور السَّيِّئة لئلّا يُفعَلَ، وممّا يقعُ في المستقبل بأن يُجتنَبَ ما يُؤدّي إلى العذابِ والعقابِ.

ويحتملُ أن يكون التَّركيبُ على سبيل المجاز بذكرِ الجزء وإرادةِ الكلِّ، فيكونُ المُرادُ الإحاطةَ، وليس خُصوصَ الزَّمانِ الماضي والمُستقبلِ؛ أي: اتَّقوا كلَّ ما يُحيطُ بكم منَ الآفاتِ ونوازلِ السَّماءِ ونوائبِ الأرضِ وجميعِ المكارِهِ[2].

دلالةُ التَّرجّي في السّياقِ المُحكَمِ:

التَّقوى ممّا يُتَّقى سببٌ لرجاءِ الرَّحمة وغايةٌ لها

ورَدَ حرفُ التَّرجّي (لعلَّ) في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ لمعنى التَّرجيةِ للمُخاطَبين، أي: المأمورينَ بالتَّقوى؛ أي: سترجونَ الرَّحمة، أو ستكونون على رجاءٍ منَ الرَّحمة، ولمّا علَّق رجاءَ الرَّحمة على الأمر بالتَّقوى كان الرَّجاءُ غايةً لها، والمعنى: اتَّقوا رجاءَ تُرحَموا، أو كي تُرحَموا، ويحتملُ أيضًا أن تكونَ جملةُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ حالًا من واوِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾، والمعنى: اتَّقوا راجينَ أن تُرحموا فتَنجوا منَ العذاب والهلاك؛ لِما عرفتُم أنَّ مناطَ النَّجاةِ ليس إلا رحمةَ اللّٰه تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 30.

(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 61، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 153.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 427.

لـمّا جُعِلَ ترجّي الرَّحمةِ غايةً للتَّقوى وعُلِّق بها، وكان التَّقديرُ: اتَّقوا ما بين أيديكم وما خلفَكم لِتكونوا راجينَ رحمةَ اللّه، أو من أجلِ نيلِ رحمة اللّه، كان في العدولِ عمّا يدُلُّ على المفعولِ لأجلِه والإتيانِ بكلمةِ التَّرجّي (لعلَّ) إيماءٌ إلى أنَّهم بعد الاتِّقاء لا يُجزَمُ عليهم بأن يكونوا مرحومينَ[1]، فليس لهم إلّا الرَّجاءُ.

العـبدُ ينبغي أن يـكـون على رجاءِ الرَّحمةِ ولا يجزمَ بنَيلِها

و أيضًا لـمّا كان الأمرُ بالتَّقوى يشملُ الفردَ المُطلقَ بمعنى غايةِ التَّقوى وكمالِها، دلَّ على أنَّ العبدَ وإن اتَّقى غايةَ التَّقوى ينبغي أن يكون على رجاءِ الرَّحمةِ، ولا يجزمَ بنيلِها[2].

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

حُـذِفَ جـوابُ الشَّرطِ لتتصوَّرَ النَّفسُ الإعراضَ وشدَّتَه وأنواعَه

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في الآيةِ لبيان اعتيادِهم على الإعراضِ عن الأمر بالتَّقوى وعن آيات الإنذارِ، كأنَّه قيلَ: وإذا قيل لهم اتَّقوا العذابَ أعرَضوا[3]، فدلَّ على جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ قولُه في الآيةِ التي تليها: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، وحذفُه أبلَغُ من ذكرِه؛ لتذهبَ فيه النَّفس كلَّ مذهبٍ في تصوُّرِ كمالِ الإعراضِ وشدَّتِه وأنواعِه، وفي حذفِ الجزاء أيضًا إشارةٌ إلى عدمِ اهتمامِهم بالجوابِ، فهم لا يتَّقون ولا يُجيبون ولا يمتثِلون ولا يُعنَونَ بالقائلِ ولا بالمقولِ، وفيه إشعارٌ كذلك بالقطعِ بعدمِ انتفاعِهم بالآياتِ، سواءٌ قيلَ لهم أو لم يُقَلْ؛ لأنَّهم قد اعتادوا على الإعراضِ عنها.

ويُفيدُ حذفُ جوابِ الشَّرطِ أيضًا أنَّهم أبلَغُ ما يكونون في الإعراضِ حين المُخاطَبة، ففيه تقبيحٌ لهم ببيانِ حالِهم عند تذكيرِهم وتحذيرِهم.

(1) ابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 153.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 153.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 526، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170.

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤٦﴾ [يس: 46]

العلاقةُ بين الصُّدودِ عمّا يُؤمَرُ بتوقّيه والإعراضِ عن الآياتِ المُنَزَّلةِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمّا كان تقديرُ جواب الشَّرط في الآية السّابقة هو (أعرَضوا)، بيَّن أنَّ الإعراضَ عن آياتِ اللّه، قد صار لهم خُلُقًا لا يقدرون على الانفِكاك من أسرِه، فعطفَ عليه هذه الآيةَ إشارةً إلى هذا المعنى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: (عرض) أَصلُ كلمةِ (الإعراضِ) منَ: (العَرْضِ)، وهو الظُّهورُ والبُروزُ[2]، أو منَ (العَرْضِ)، وهو خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: (اعترَضَ الطَّريقَ) إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفضُ إعراضًا؛ لأنَّ الرّافضَ أظهرَ خلافَ الشَّيءِ، أو لأنَّه كالواقفِ عرضًا في وجهِ الشَّيءِ[3]، والإعراضُ أيضًا: الصَّدُّ والتَّولّي، ويأتي الإعراضُ بمعنى: الانصِرافِ عن الشَّيءِ بالقلبِ، وضدُّ الإعراضِ: الإقبالُ[4]، والمقصودُ بالإعراضِ في الآيةِ: الانصرافُ بالوجهِ عن الشَّيءِ، ثمَّ يُبنَى عليه الانصِرافُ بالفِكرِ عنه؛ أي: تارِكينَ التَّفكُّرَ فيها[5].

ذمُّ الإعراضِ عن آياتِ الله القوليَّةِ والكونيَّةِ بالقولِ أو بالفعلِ

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الحقُّ سبحانه: وما تنزلُ عليهم آيةٌ من آيات القرآن التي من جملتها تلك الآياتُ النّاطقةُ بتفصيل بدائع صُنع اللّه المُنبعثة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 136.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 8/ 17.

بجريان أحكام أُلوهيَّته على جميع الكائنات إلّا أعرَضوا عنها استهزاءً وتكذيبًا غيرَ مُتدبِّرين معناها، ولا ناظرينَ في دلالتِها(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآيةِ:

الإعـراضُ عن آيـاتِ اللـه مـذمـومٌ وأشـدُّ منه الاصرارُ على ذلك

جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ﴾، الآيةَ على طريقِ الوصل بالواو لاشتراكِهما في الخبريَّةِ وفي الجهة الجامعةِ؛ لأنَّه لـمّا ذكرَ أنَّهم إذا ذُكِّروا بآياتِ اللّه ووُعِظوا بها أعرَضوا كما يُفهَمُ منَ السّياق، ولـمّا كان الكلامُ على طريقِ الذَّمِّ صرَّح بمُداومتِهم على الإعراضِ عن آياتِ اللّه التي تأتيهم، تأكيدًا لذمِّهم.

بلاغةُ القصر في السّياقِ المُحكَم:

المُـعـرِضـون عــن الآيــاتِ يـسـتَـحـقّـون تقبيحَ أفعالِهم وتــســفـيــهَ أحلامِهم

عُبِّرَ بأسلوبِ القصر بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ في الآيةِ لإيذانِ المُخاطَبين من المشركين المكذِّبين بأنَّهم مُخطِئونَ في إعراضِهم عن أيِّ آيةٍ من آياتِ ربِّهم كلَّما أتَتْهم، ومُخطِئونَ في إصرارِهم على هذا الإعراضِ، كما يُفيدُ أنَّهم مُنكِرونَ لخطَئِهم ويعتَقِدون أنَّهم على صوابٍ في إعراضِهم عن الآياتِ، ففيه تقبيحٌ لهم وتسفيهٌ لعقولِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإتيانِ في الآيةِ:

آيــاتُ الـلـه القوليَّةُ مُتاحةٌ في المـصاحـفِ، وآياتُه الكونيَّةُ ظاهرةٌ في الآفاقِ

عبَّر بالإتيانِ في قولِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾ للإشارةِ إلى سهولةِ إتيانِ الآياتِ وكونِها قريبةً منهم، ولـمّا كانَ المُرادُ منَ الآياتِ ما يشملُ النَّقليَّةَ والكونيَّةَ - بحسبِ ما سيأتي - كان اللَّفظُ مُتناوِلًا للإتيانِ بطريقِ الوحي وبطريقِ الآياتِ الكونيَّةِ، ووصف ما نزلَ بطريقِ الوحي على رسولِ اللّه ﷺ بقولِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قد بلَّغَها لهم، وأنَّهم قد سمعوها، فهي قريبةٌ منهم، وصارَتْ بين أيديهم، فيكونُ التَّعبيرُ على الحقيقةِ، وأمّا وصفُ الآياتِ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 7/ 74.

الكونيَّة بكونِها تأتيهم فهو على معنى الظُّهورِ، فعبَّر بالإتيانِ مجازًا عن الظُّهورِ؛ إذ إتيانُ الشَّيء سببُ الظُّهورِ التّامِّ له[1]، فيكونُ لفظ ﴿تَأۡتِيهِم﴾ مُستعملًا في حقيقتِه ومجازِه معًا، والمعنى: ما تظهرُ لهم آيةٌ منَ الآياتِ الدالَّةِ على وحدانيَّته وتفرُّدِه تعالى بالألوهيَّة ممّا نزلَ بالوحي، أو ما تظهرُ لهم من الآياتِ الكونيَّةِ إلّا كانوا عنها مُعرِضينَ.

وأفاد التَّعبيرُ بالإتيان أيضًا تعظيمَ كلِّ آيةٍ منَ الآياتِ التي تأتيهم، فإنَّ لفظَ (أتى) يُستَعملُ غالبًا لِما عظُم شأنُه كما في قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، فأمرُ اللّه عظيمٌ.

فائدةُ صيغةِ المُضارع: ﴿تَأۡتِيهِم﴾:

التَّعجيبُ من استمرارِ إعراضِ الكافرين مع استمرارِ إتيانِ الآياتِ

عُبِّرَ بصيغةِ المُضارع في قولِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾ للدَّلالة على استمرارِ إتيانِ الآياتِ وتجدُّدِها وقتًا فوقتًا[2]، ولحكايةِ الحالِ الماضية بقرينة: ﴿كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، وفائدةُ حكاية الحال تصويرُ حالة إتيانِ الآياتِ وحالة إعراضِهم؛ ليكونَ على سبيل ذمِّهم، ففيه تعجيبٌ من حالِهم في استمرارِهم في الإعراضِ مع استمرارِ إتيانِ الآياتِ الدّالَّة على توحيدِ اللّه والإيمان به وبرسولِه ﷺ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ في السّياقِ:

بيانُ أنَّ الآياتِ في المُتَناوَلِ، وأنَّها وصلتهُم بلا ريبٍ

قُدِّمَ المفعولُ به (هم) على الفاعلِ ﴿ءَايَةٍ﴾، في قولِه: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ للإشعارِ بأنَّ كلَّ آيةٍ هي في مُتناوَلِ أيديهم، وأنَّها قد وصلتهم، ويُفيدُ التَّقديم أيضًا استعطافَهم لِما في التَّقديم من إشعارٍ بالاهتمامِ بهم، بحيث تكون الآياتُ عندَهم.

فائدةُ ﴿مِّنۡ﴾ في قولِه ﴿مِّنۡ ءَايَةٍ﴾:

تأكيدُ النَّفي وإرادةُ العموم كلاهما مُبيَّنٌ في الدَّلالةِ

﴿مِّنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ لتأكيد النَّفي، وللنَّصِّ على العمومِ وتحقيقِه[3]، لئلّا يُتوهَّم أنَّه قد أتَتْهم آيةٌ واحدةٌ فقط.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/ 16.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 28.

(3) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2357، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 6/ 18.

دلالةُ لفظِ ﴿ءَايَةٍ﴾ في السّياقِ:

الآيةُ تشملُ آياتِ التَّنزيل والآياتِ الكونيَّةَ

يحتملُ أن يكونَ المرادُ من لفظِ ﴿ءَايَةٍ﴾ آيةَ التَّنزيل، لتشملَ أيَّ آيةٍ من آياتِ القرآن، كما تحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ الآية الحجَّةَ والعلامةَ الباهرةَ الدّالَّة على توحيد اللّه تعالى وصدقِ نبوَّة سيِّدِنا محمَّد ﷺ، والظّاهر أنَّها تشملُ الاثنين، فتشملُ آياتِ التَّنزيل والآياتِ الكونيَّةَ، ليفيدَ الكلام أنَّ كلَّ آيةٍ قرآنيةٍ أو كونيَّةٍ هي علامةٌ ظاهرةٌ باهرةٌ على توحيدِ اللّه تعالى وصدقِ رسول اللّه ﷺ[1].

دلالةُ التَّنكير في لفظِ ﴿ءَايَةٍ﴾:

مفادُ السّياق تفخيمُ الآيةِ والتَّنويه بأثرِها لمَن يعرفُ قدرَها

أفاد تنكيرُ لفظ ﴿ءَايَةٍ﴾ العمومَ؛ لمجيء اللَّفظ في سياق النَّفي، والمعنى: ما يأتيهم أيُّ آيةٍ من آياتِ ربِّهم إلّا كانوا عنها مُعرِضين، وفي التَّنكير أيضًا تعظيمٌ للآية التي تأتيهم، وتفخيمٌ لها؛ بمعنى: أنَّ آيةً واحدةً تكفيهم لو لم يُعرِضوا عنها.

فائدةُ ﴿مِّنۡ﴾ في ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾:

ما يأتي النّاسَ منَ الآياتِ هو بعضٌ من آياتِ الله

﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تبعيضيَّةٌ[2]، بمعنى: من بعض آياتِ ربِّهم، ففيه إشارةٌ إلى كثرة آياتِ اللّه تعالى وتنوُّعِها، وأنَّ ما يأتي النّاسَ من الآياتِ الكونيَّة والقوليَّة هو بعضٌ من آيات اللّه.

دلالةُ مجيء الصِّفة في السّياق:

آياتُ الله نعمةٌ وفضلٌ منه سبحانه على العبادِ

جاء قولُه تعالى: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ صفةً لـ﴿ءَايَةٍ﴾ على وجه التَّقييد، بمعنى: أنَّها آية ليست مثل سائر الآيات، بل هي آيةٌ موصوفةٌ بأنَّها من آيات ربِّهم، فأفادتِ الصِّفةُ تعظيمَ الآية وبيانَها وتذكيرًا بأنَّها من آياتِ ربِّهم المنعِم عليهم والمُحسنِ إليهم، وفي مجيء الصِّفة قيدًا للموصوفِ إشعارٌ بعلَّة وجوبِ النَّظر في الآيات وعدم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 526، والواحدي، التفسير البسيط: 8/ 16، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 6/ 18.

(2) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2357، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 6/ 18.

الإعراضِ عنها؛ أي: لكونِها من آيات ربِّهم المُحسِنِ إليهم، والإشعارُ أيضًا بتعنُّتِهم وعدمِ اهتمامِهم بالآية التي تأتيهم والموصوفة بأنَّها من آياتِ ربِّهم.

تهويلُ الاجتراءِ على الإعراضِ عن آياتِ الله تعالى

فائدةُ الإضافةِ في السّياقِ المُحكَمِ:

إضافةُ ﴿ءَايَٰتِ﴾ إلى ﴿رَبِّهِمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تُفيدُ اختصاصَ الآياتِ بكونِها آياتِ ربِّهم على سبيل الحصر؛ بمعنى: كلُّ ما يظهرُ مِنَ العلاماتِ الباهرةِ هو من آياتِ ربِّهم، وتُفيدُ الإضافةُ أيضًا تشريفَ الآياتِ وتعظيمَها المُستتبعَ تهويلِ ما اجترَؤوا عليه في حقِّها من الإعراضِ عنها[1]، وفي الإضافةِ أيضًا إيماءٌ إلى الجانبِ الذي تأتي منه هذه الآياتُ، والمعنى: وما تأتيهم آيةٌ من ربِّهم.

كلُّ آيةٍ هي آيةُ إحسانٍ وإنعامٍ وتربيةٍ للأنامِ

نكتةُ الإضافةِ إلى عنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

أُضيفَ لفظُ ﴿ءَايَٰتِ﴾ إلى اسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضميرِهم في قولِه: ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دونَ أن يُقالَ: (آيات اللّٰه)؛ لأنَّه لمّا أضافَ الآياتِ إلى اسمِ الرَّبِّ الذي هو بمعنى: المُحسِنِ والمُنعِمِ عليهم والمُربّي لهم أفادَ أنَّ كلَّ آيةٍ هي آيةُ إحسانٍ وإنعامٍ وتربيةٍ لهم لردِّهم إلى الإيمانِ باللّٰه ورسولِه ﷺ؛ أي: فكان ينبغي أن يحرِصوا عليها وينتَفِعوا من هذا الإحسانِ، لا أنْ يُعرِضوا عنه؛ ليُفيدَ أنَّ الإعراضَ عن آياتِ اللّٰه إعراضٌ عمَّن غَمَرَهم إحسانُه وعمَّهم فضلُه وامتِنانُه[2]، ففيه تعجيبٌ من حالِهم وتقبيحٌ لإعراضِهم.

الإعراضُ عن آياتِ الله تمرُّدٌ عن حقِّ العبوديَّة لله الأوحدِ

دلالةُ إضافة اسمِ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ:

إضافةُ الرَّبِّ إلى ضمير (هُمْ) في قولِه: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ لقصد التَّسجيلِ عليهم بالعقوق لحقِّ العبوديَّةِ؛ لأنَّ من حقِّ العبد أن يُقبِلَ على ما يأتيه من ربِّه وعلى مَن يأتيه يقولُ له: إنّي مُرسَلٌ إليك من

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 136، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 353.

ربِّك، ثمَّ يتأمَّلُ وينظرُ، وليس من حقِّه أن يُعرِضَ عن ذلك؛ إذ لعلَّه يُعرِضُ عمّا إن تأمَّلَه علمَ أنَّه من عند ربِّه[1].

فائدةُ الاستثناءِ في السّياقِ المُحكَم:

تقبيحُ الإعراضِ عن أنواعِ الآياتِ في جميعِ الأماكنِ والأوقاتِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ على طريقِ الاستثناءِ المُفرَّغ؛ ليُفيدَ الاستثناءَ من أعمِّ الأحوالِ، ليشملَ حالَهم وحال إتيان الآية، والتَّقديرُ: ما تأتيهم آيةٌ من آياتِ ربِّهم في حالٍ من أحوالهم أو في حالٍ من أحوالِ الآية إلا في حالِ كونِهم عنها مُعرِضين[2]، ليُفيدَ الاستثناءُ إعراضَهم عن الآيةِ في جميعِ أوقاتِهم وأماكنِهم، فهم مُعرِضونَ صباحًا ومساءً وفي جميعِ أماكنِ تواجُدِهم، وليشملَ جميع أنواعِ الآياتِ وأوقاتِ ظهورِها؛ أي: ليس لهم في جميعِ أحوالِهم إلّا الإعراضُ عن الآيات، وكأنَّه يُشير إلى عدمِ رجائِهم الرَّحمةَ بسببِ إعراضِهم، وعدَمِ استحقاقِهم لها.

دلالةُ الحالِ في سياقِ الآية:

المُسارعةُ إلى الإعراضِ عن الآياتِ وكونُ ذلك في وقتِ إتيانِها

لـمّا كان الاستثناءُ مُفرَّغًا وكانت جملةُ: ﴿كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ في موضعِ الحالِ من مفعول: ﴿تَأۡتِيهِم﴾[3]، وكان الحالُ على معنى اقترانِه بصاحبِه؛ أي: اقتران إعراضِهم في وقت إتيانِ الآيات كان في الكلام دلالةٌ بيِّنةٌ على كمالِ مُسارعتِهم إلى الإعراضِ عن الآياتِ وإيقاعِهم له في آنِ إتيانِها[4].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ﴿كَانُواْ﴾ في السّياقِ:

من أقبحِ الإعراضِ عن آياتِ اللهِ الاستغراقُ في الإعراضِ عنها

أوثِرَ التَّعبيرُ بتركيبِ: ﴿كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ على أن يُقالَ: (إلّا أعرَضوا عنها) كما وقع مثلُه في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 134.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 134.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 109.

﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾ [القمر: 2]؛ لِما يدلُّ عليه تركيبُ (كان) مع اسمِها وخبرِها - مع مجيءِ خبرِها ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ بصيغةِ اسم الفاعل - على استمرارِهم على الإعراضِ ومُداومَتِهم عليه بحسبِ استمرارِ إتيانِ الآياتِ، ويُفيدُ التَّعبيرُ بـ﴿كَانُواْ﴾ أيضًا استغراقَهم في الإعراضِ حتَّى صار من كينونتِهم؛ أي: لا يُفارِقُهم الإعراضُ وإن استَمرَّ إتيانُ الآياتِ[1].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

خطأُ الكافرين في اختيارِهم الإعراضَ عن الإيمانِ، وبقائِهم على الكفرِ

قُدِّمَ ﴿عَنۡهَا﴾ على مُتعلَّقِه ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ لإفادةِ الحصرِ الادِّعائيِّ، فكأنَّهم لا يُعرِضونَ عن شيءٍ سِوى عن آياتِ ربِّهم، مُبالغةً في تقبيحِ حالِهم.

ويحتملُ أن يكون التَّقديمُ للحصرِ الإضافيِّ[2]، وبيانُه: أنَّه لـمّا كان إتيانُ الآياتِ من أجلِ الإيمان باللهِ ورسولِه ﷺ كانتِ الآياتُ دالَّةً على الإيمانِ، فكانوا بين أن يُعرِضوا عن الكفر الذي هم فيه أو عن الإيمان الذي أتاهم، ليُفيدَ الحصرُ الإضافيُّ أنَّهم كانوا مُعرِضينَ عنها لا عمّا هم عليه منَ الكفر، ففيه تنبيهٌ لهم على ما وقَعوا فيه منَ الخطأ وتعمُّدِهم فيه؛ أي: في اختيارِ الإعراضِ عن الإيمانِ وبقائِهم على الكفرِ، ففيه تعليلٌ لسببِ كُفرِهم الدّالِّ على جهلِهم وسفاهةِ عقولِهم لتركِهم النَّظرَ والاتِّعاظَ، كما أنَّ في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ رعايةً للفاصلةِ ورؤوسِ الآيِ[3].

الإعراضُ عن آياتِ اللهِ بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ، وبتركِ النَّظرِ الصَّحيحِ فيها

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾:

لـمّا كان الإعراضُ يُفيدُ معنى التَّركِ والصُّدودِ؛ لأنَّ (أعرَضَ)

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 29.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 169.

بمعنى: ولّى مُبديًا عَرْضَه[1]، أوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ لِما يدُلُّ عليه الإعراضُ من تولّيهم عن النَّظرِ والتأمُّلِ في الآياتِ التي تأتيهم.

ويدلُّ اللَّفظُ أيضًا على عِنادِهم وصُدودِهم بعد التَّحقُّق والعلمِ بأنَّها آياتٌ[2]، ففي الآياتِ النَّقليَّة القوليَّة أعرَضوا على وجهِ التَّكذيبِ والاستهزاءِ، وفي الآياتِ الكونيَّة أعرَضوا عن طريق تركِ النَّظرِ الصَّحيح فيها المُؤدّي إلى الإيمانِ به ﷻ[3]، فيشملُ لفظُ الإعراضِ مَن يتركُ النَّظرَ والتَّأمُّلَ بعقلِه، ومَن يُعانِدُ ويصُدُّ عن آياتِ اللّٰه.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما ورَدَ في القرآنِ من سؤال الكافرين الآياتِ لكي يُؤمِنوا كان سؤالَ تعنُّتٍ لا سؤالَ استِرشادٍ، ولو كان سؤالُهم سؤالَ استرشادٍ لآمَنوا بالآياتِ وتمسَّكوا بها.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ:

المُعرِضُ عن آياتِ الله صادٌّ عنها لا يرغَبُ في الانتفاعِ بها

في لفظِ: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ استعارةٌ، بيانُها أنَّ الإعراضَ هو الانصِرافُ بالوجه عن الشَّيءِ مُتولّيًا عنه مُبديًا عرضَه، بحيثُ لا يلتَفتُ إليه ولا يرفَعُ به رأسًا[4]، فاستُعيرَ اللَّفظُ للانصرافِ عن النَّظرِ والفكرِ والتأمُّلِ، وللانصرافِ القلبيِّ، فشُبِّهت حال الإعراض الفكريِّ بحال التَّولّي الحسّيِّ، وحُذِفَ المشبَّه به على طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ونكتةُ الاستعارة الإشعارُ بتركِهم النَّظرَ في الآياتِ على وجهِ الانصرافِ عنها وتركِهم لها خلفَ ظُهورِهم، ففيه معنى الصَّدِّ عن الآياتِ وانتفاءُ الرَّغبةِ في الانتفاعِ منها.

من دلالاتِ التَّعبير بقولِه "﴿مُعۡرِضِينَ﴾":

الحثُّ على الإقبالِ على آياتِ الله بتلاوةِ المسطورِ والنَّظرِ في المنظورِ

لـمّا جاء التَّعبيرُ بلفظِ: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ على طريقِ الذَّمِّ، وكان ما يُقابلُ الإعراضَ هو الإقبالُ أفادَ التَّعبيرُ بلازمِ قولِه: ﴿كَانُواْ عَنۡهَا

(1) الرّاغب، المفردات: (عرض).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 8/ 524.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 170.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 5.

﴿مُعۡرِضِينَ﴾ الحثُّ على استمرارِ الإقبالِ على الآياتِ النَّقليَّة بقراءتِها والتَّمسُّكِ بها، وعلى الآياتِ الكونيَّة بالنَّظر فيها.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

مجيءُ جملةِ التَّذييلِ في مقامِ المثَلِ في عُمومِه وحكايتِه والتَّمثُّلِ به

لـمّا كان قولُه: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ على معنى العموم، وكان الله تعالى قد ذكر الآياتِ الكونيَّةَ في قوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس: 33]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾ [يس: 37]، وقولِه: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، وأعقبَه ذكرَ آياتِ التَّنزيلِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾؛ جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ على معنى التَّذييل[1] لتأكيدِ إعراضِهم؛ وتُفيدُ جملةُ التَّذييلِ العمومَ والكُلّيَّة، بمعنى: تعميم أحوالِهم وأحوالِ ما يُبلَّغونَه منَ القرآن[2]، فتشملُ الآياتِ الكونيَّةَ والآياتِ التَّنزيليَّة، فتنزَّلُ الآيةُ لوُقوعِها موقعَ التَّذييلِ ممّا قبلَها منزلةَ المثَلِ في التَّمثيلِ لحالِ المُشركينَ الذين عادتُهم الإعراضُ عن آياتِ الله في الكون وفي القرآن.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعراضُ والصَّدُّ:

الإعراضُ وصفٌ للنَّفس بمعنى الانصرافِ والتَّولّي، والصَّدُّ منعٌ أو امتناعٌ

الصَّدُّ: بمعنى المنعِ عن قصدِ شيءٍ مخصوصٍ[3]، فيكونُ المصدودُ عنه مُعيَّنًا مقصودًا؛ بمعنى: منعِ الوصولِ إليه، أو بمعنَى الامتناعِ منه، فالصَّدُّ يكونُ للغيرِ بمنعِه، وللنَّفسِ بالامتناعِ عن المصدودِ[4].

وأمّا الإعراضُ: فهو بمعنَى التَّولّي والرَّفضِ للشَّيءِ بطريقِ

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 62.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 31.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.
(4) الراغب، المفردات (صدد).

الانصراف عنه، فهو وصفٌ للنَّفس، ولا يتعلَّقُ بمنعِ الغيرِ عن شيءٍ ما، ولهذا لمّا ذكرَ اللّه تعالى الآيةَ في قولِه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ناسبَ ذكرَ الإعراضِ؛ لأنَّه في سياقِ وصفِ حالِ الكافرينَ مع آياتِ اللّه بانصرافِهم عنها، وليس في سياقِ منعِ النّاس منَ النَّظر في آياتِ اللّه، فضلًا عمّا فيه من دلالةِ الإصرارِ على الرَّفضِ بالتَّولّي وبشكلٍ ظاهرٍ؛ لأنَّ الإعراضَ لا يكونُ إلّا ظاهرًا لمُناسبتِه لأصلِ الاشتقاقِ، وأمّا الصَّدُّ فقد يكونُ ظاهرًا وقد يكونُ خفيًّا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٤٧﴾ [يس: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين الإعراضِ عن الآياتِ ورفضِ آيةِ الأمرِ بالإنفاقِ على الفقراء

لـمّا أخبرَ اللّه تعالى عن استمرارِهم على الإعراضِ عن أيِّ آيةٍ من آياتِ ربِّهم ذكر مثالًا لإعراضِهم عمّا أمرَ اللّه تعالى به ممّا لا ينبغي أن يُعارِضَه أيُّ إنسانٍ فقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ.

وأيضًا لـمّا ذكر إعراضَهم عن الخالقِ بالإعراضِ عن آياتِه بيَّن إعراضَهم عن الشَّفقة على المخلوقين وقسوتَهم عليهم فقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لـمّا كانتِ الرَّحمةُ بالرِّزقِ والنَّصرِ إنَّما تُنالُ بالرَّحمةِ للضُّعفاءِ، وكان الإنفاقُ خلُقَ المؤمنين، قال مُبيِّنًا أنَّهم انسلَخوا عن الإنسانيَّةِ جملةً فلا يخافونَ ما يجوزُ وقوعُه منَ العذاب، ولا يرجونَ ما يجوزُ حلولُه منَ الثَّوابِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الآيةَ[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

البُخلُ بالإنفاقِ على الفقراء بحجَّة تكفُّل الله بهم هو الضَّلالُ لا عكسُه

وإذا قيلَ للمُشركِينَ: أنفِقوا ممّا رزقَكم اللّهُ على غيركم مِنَ المُحتاجينَ قال أولئك المُشركونَ للمُؤمنينَ: كيف نُطعِمُ - نحنُ - هؤلاء الذين تأمُرونَنا بالإنفاقِ عليهم، ولو شاء اللّهُ لأطعمَهم هو من رزقِه؟ وقال المُشركون أيضًا للمُؤمنينَ: ما أنتُم بأمرِكم لنا بالإنفاقِ ممّا رزَقَنا اللّه على المُحتاجينَ إلّا في ضلالٍ واضحٍ في غايةِ الظُّهورِ[3].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 17.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 137.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 450، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 580، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 697.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ:

بيانُ أنَّ الإعراضَ عـن الإنـفـاق كـالإعـراضِ عن آياتِ الله

لـمّا أخبرَ اللّه تعالى عن أنَّ الكافرين مُعرِضون عن آياتِ اللّه كلِّها عطَفَ عليه بالواوِ قولَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لاشتراكِهما في الخبريَّة وفي الجهة الجامعةِ، وهي الإعراضُ عن أمرِ اللّه؛ فإنَّ الإعراضَ عن آياتِ اللّه تركٌ لِما أمرَ اللّه بالنَّظرِ إليه، والإعراضَ عن الشَّفقةِ على خلقِ اللّه تركٌ لِما أمرَ اللّه بالإنفاقِ عليه؛ للإيذانِ بأنَّهم يبخلونَ عن جميعِ ما كُلِّفوا به.

مُناسبةُ التَّعبير بأسلوبِ الشَّرطِ:

الـكـافـرُ يـعـمـلُ عـلى الإمـسـاكِ، والمؤمنُ يُبادِرُ إلى الإنفاقِ

لـمّا كان الشَّرطُ على معنى تعليقِ الجواب بالشَّرط بمعنى أنَّ وقوعَه في وقت وقوعِ الشَّرطِ، وكان التَّعبير به يدلُّ على أنَّ وقوعَ الشَّرط سببٌ لوقوعِ الجوابِ أفادَ أنَّ قولَ الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ واقعٌ في وقت الطَّلبِ منهم بالإنفاق، فكأنَّ الجوابَ عندَهم حاضِرٌ وهم عازِمون عليه، فإذا قيلَ لهم أنفِقوا أجابوا الجوابَ المذكور من غير مُهلةٍ، ففيه تعريفٌ بحالِهم وبما يُضمِرونَ.

فائدةُ التَّعبير بـ(إذا) الشَّرطيَّةِ:

الـحـثُّ عـلى الإنـفـاقِ عـلى خـلـقِ الـلـه والتَّرغيبُ فيه

عبَّر بأداةِ الشَّرطِ (إذا) للإيذان بتحقُّق جوابِ الشَّرطِ لتحقُّق الجزم بوقوع الشَّرط؛ بمعنى: تحقُّق وقوعِ قولِ الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ إذا طُلب منهم الإنفاقُ مـمّا رزقَهم اللّه، كما أنَّ في التَّعبير بـ(إذا) إشارةً إلى الحثِّ على الإنفاقِ والتَّرغيبِ فيه، فإنَّ الطالبَ لأمرٍ إذا عظُمَتْ رغبتُه فيه عبَّر بلفظٍ يدلُّ على تحقُّقِ الوقوع لإظهارِ الرَّغبةِ في حُصولِه.

نكتةُ مجيءِ فعلِ الشَّرطِ ماضيًا:

لـمّا كانت الأداةُ (إذا) تُفيدُ وقوع الشَّرطِ في المُستقبل وكانت

السّياقُ يُفيدُ وقوعَ الفعل تحقيقًا

تدلُّ على الجزمِ في وقوعِه عبَّر بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الشَّرطَ كالمُتحقِّق الوقوعِ نظرًا إلى لفظ الماضي الموضوعِ للدَّلالة على الوقوع، ولمّا أفاد التَّعبيرُ بصيغة الماضي تحقُّقَ الشَّرط دلَّ على تحقُّقِ الجزاء، وهو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾.

نكتةُ بناءِ الفعلِ للمفعول:

التَّعلُّلُ بأنَّ الله يُطعِمُ الفقراءَ سنَّةُ الأوَّلين ومُستمرَّةٌ في المتأخِّرين

عبَّر بالفعل المبنيِّ للمفعول: ﴿قِيلَ﴾ للإشعارِ بأنَّهم لا يستجيبون للقولِ من أيِّ قائلٍ كان، وأنَّهم مُصِرّون على قولِهم المذكور، ففيه إشعارٌ بعموم الفاعلين، وأنَّ هذا القولَ لا يشملُ مَن كان في زمنِ نزول القرآن، بل يجري حتَّى آخرِ الزَّمان، وفي التَّعبير بصيغةِ المبنيِّ للمفعول أيضًا إيماءٌ إلى أنَّ المُعوَّلَ عليه هو حصولُ القول دونَ توقُّفٍ على تعيين الفاعل.

فائدةُ حذفِ المفعول:

الإنفاقُ على الفقراءِ وغيرِهم مُتنوِّعٌ ولا يختصُّ بالإطعامِ

لمّا حُذِفَ مفعولُ ﴿أَنفِقُواْ﴾ دلَّ على العموم؛ ليشملَ الطَّعامَ وغيرَه ممّا يحتاجُه الفقراءُ وغيرُهم[1]، ليُفيدَ الأمرَ بعمومِ الإنفاقِ، فضلًا عن إفادةِ أنَّ كلَّ ما يُنفَقُ هو من رزقِ اللّه تعالى.

فائدةُ الحرفِ (مِنْ) في السّياقِ:

الإنفاقُ المطلوبُ أن يكونَ من بعضِ المالِ وليس كلَّه

(مِن) في قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ تبعيضيَّةٌ[2]؛ لتُفيدَ معنى: أنفِقوا من بعضِ ما رزَقَكم اللّه، أي: ليس كلَّه؛ ليُفيدَ التَّبعيضُ التَّعجيبَ من قولِ الّذين كفروا وعدمَ امتثالِهم لأمرِ اللّه مع أنَّهم أُمِروا بالإنفاقِ من بعضِ الرِّزقِ وليس كلَّه.

مُناسبةُ التَّعبير بالموصولِ وصلتِه:

عبَّر بالموصولِ وصلتِه في قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ للإيماءِ إلى

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 72.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 137، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 29.

سبب بناء الحكم؛ بمعنى: لأنَّ اللّه تعالى رزَقَكم وجبَ عليكم الإنفاقُ، ويُفيدُ التَّعبيرُ بالموصول وصلته أيضًا أنَّ ما تُنفِقونَه ليس من عندِكم، بل هو من فضلِ اللّه عليكم بما رزقَكُم، وإيثارُ الموصولِ الاسميِّ (ما) الدّالِّ على العموم؛ للدَّلالة على سعةِ رزقِ اللّه تعالى وتنوُّعِه.

ما يُنفَقُ إنَّما هو من فضلِ الله ورزقِه، والمُنفِقُ وكيلٌ مُؤتَمنٌ عليه

دلالةُ الفعلِ الماضي:﴿رَزَقَكُمُ﴾:

عبَّر بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿رَزَقَكُمُ﴾ للإيذانِ بأنَّ رزقَ اللّه لهم مُتحقِّقُ الوقوع، فالأمر بالإنفاقِ جاء بعد حصولِ الرِّزقِ ووُقوعِه.

إذا وُجِدَ الرِّزقُ فإنَّ الإنفاقَ يكونُ من بعضِه

فائدةُ إسنادِ الرِّزقِ إلى الله:

إسنادُ الرِّزقِ إلى اللّه تعالى في قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أفادَ أمورًا:

قد يرزقُ الله الكافرَ ويمنعُه من المُؤمن لحكمةٍ لا يعلَمُها إلّا هو

أحدُها: الإشارةُ إلى أنَّ جلالةَ الرِّزقِ بجلالةِ مُعطيه، ولهذا لم يقُلْ: (ممّا رُزِقتُم)[1]، **والثّاني**: تخويفُهم منَ الامتناعِ عن الإنفاقِ بما يدلُّ عليه وصفُ الألوهيَّة، ففيه تهديدٌ كنائيٌّ لمَن لم يمتَثِل الأمرَ بالحرمانِ؛ فإنَّ الرّازقَ قد يمنعُ الكافرينَ والعُصاةَ من رزقِه ومنَ الاستمتاعِ به، **والثّالثُ**: بيانُ أنَّ ما أصابَكم منَ الرِّزقِ لا يدُلُّ على أفضليَّتِكم؛ لأنَّكم أشركتُم باللّه، وهو رازِقُكم، **والرّابعُ**: تقبيحُ حالِهم؛ إذ يرزُقُهم اللّه وهم يمتَنِعون عن الإنفاقِ، **والخامسُ**: أنَّ البخلَ بالإنفاقِ في غايةِ القُبحِ؛ فإنَّ أبخلَ البخلاءِ مَن يبخلُ بمالِ الغيرِ، **والسّادسُ**: أنَّه لا ينبغي أن يمنعَكم من الإنفاقِ على الذين آمنوا مخافةَ الفقرِ، فإذا أنفقتُم فهو يُخلِفُه لكُم ثانيًا كما رزقَكُم أوَّلًا[2]، **والسّابعُ**: أنَّ الرِّزقَ يكونُ للمُؤمنِ والكافرِ، **والثّامنُ**: أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على إغناءِ الفقيرِ وإعطائِه، ولكنَّه جعلَ الغنيَّ واسطةً في الإنفاقِ على الفقيرِ، فالسَّعيد مَن عرفَ حقَّ التَّوسيطِ وانتهزَ فرصةَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 137.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 287.

الإمكان، وعلمَ أنَّ الإنفاقَ سببٌ للبركةِ في الحال، ومجلَبةٌ للثّوابِ في المآلِ(1).

بلاغةُ العدولِ إلى الإظهارِ بدلَ الإضمارِ:

علَّةُ عدم الإنفاقِ في سبيل الله هي الكفرُ، فالمُؤمن مُنفِقٌ والكافر مُمسِكٌ

لـمّا قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ كان الظّاهرُ أن يُقالَ في جواب الشَّرطِ: (قالوا أنُطعِمُ مَن لو يشاء اللّه أطعمَه)، فلمّا جاء بالاسم الظّاهرِ في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كان في الكلام عُدولٌ عن مُقتَضَى الظّاهرِ، والنُّكتةُ فيه: تسجيلُ كفرِهم وتحقيقُه عليهم، والإيماءُ إلى بيان علَّة قولِهم: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ بمعنى: أنَّ كفرَهم سببٌ وعلَّةٌ لقولِهم المذكورِ(2)، ليُفيدَ بمُقابلِه أنَّ الإيمانَ سببٌ للإنفاقِ من بعض المال، فالمُؤمنُ مُنفقٌ والكافر مُمسِكٌ.

فائدةُ اللّامِ في السّياقِ المُحكَمِ:

تنوُّعُ توجيه المعنى لتنوُّعِ معنى اللّامِ مُفيدٌ في الإبانةِ عنه

الظّاهرُ أنَّ اللّامَ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لتعديةِ فعلِ القول إلى المُخاطبِ به؛ بمعنى: أنَّ قولَ الذين كفروا توجَّه إلى الذين آمنوا وخاطَبوهم بقولِهم: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾، ويحتملُ أن تكون اللّام للعلَّة، فيكون قولُ الذين كفروا مُعلَّلًا بكونِه من أجلِ الذين آمنوا، وفي شأنِهم، والمعنى: قال الذين كفَروا في شأنِ الَّذين آمنوا، فيكون كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ [آل عمران: 168](3).

سببُ إيثارِ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ:

الإنفاقُ عامٌّ على جميع النّاس والأفضلُ أن يكون على المُؤمنين

في قولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قُيِّدَ قولُ الكافرينَ بكونِه للذينَ آمنوا دون غيرِهم، للإشعارِ بإطلاقِ الأمرِ بالإنفاقِ في قوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ويدخُلُ فيه الذين آمنوا دخولًا أوَّليًّا.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 538.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 32.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 32.

دلالةُ التَّقييدِ بصيغةِ الموصولِ وصلتِه:

إيمانُ المُؤمنين مانعٌ للكفرة مِن الإنفاقِ عليهم

لـمّا جاء القيدُ بصيغةِ الموصولِ وصلتِه في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفادَ أنَّ سببَ قولِهم المذكورِ وامتناعِهم عن الإنفاقِ أمرانِ: أحدُهما: كفرُهم، والثّاني: كونُ إنفاقِهم على الذين آمنوا، بمعنى: أنَّ إيمانَ الفقراء باللّه ورسولِه ﷺ سببٌ آخرُ لقولِهم المذكور، ولـمّا كانت جملةُ الصِّلة معلومةَ الانتساب إلى مُشارٍ إليه أفادَ مجيئُها أنَّ الذين كفروا على علم بمن أمروا بالإنفاقِ عليهم.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

مِنَ الجهلِ أن يمنعَ العبدُ جداهُ، ويقولَ لا أُعطي مَن لم يُعطِه اللّه

في قولِه تعالى: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تهكُّميٌّ[1]، فيُفيدُ الاستفهامُ إنكارَهم أن يُطعِموا مَن لو يشاءُ اللّه أطعَمَه المُضمن نفيَ إطعامِهم؛ أي: لا نُطعِمُ مَن لو يشاءُ اللّه أطعَمَه، ويُفيد كذلك الاستهزاءَ؛ أي: أنَّ قولَهم هذا على سبيلِ الاستهزاءِ بالذين آمنوا، وليس على سبيلِ الاستعلامِ والاعتقادِ بصحَّتِه؛ لأنَّ الاستفهام جاء مبنيًّا على وصفِهم بالكفرِ، وكأنَّهم قالوا: نحن أحَقُّ بعدمِ الإطعامِ؛ لأنّا عاجزونَ وهو تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ فإذا لم يُطعِمْهم، فنحن أحرَى بعدَمِ إطعامِهم[2]، والمقصودُ من ذكرِ قولِ الكافرين إنكارُ قولِهم وذمُّهم عليه، كما ذمَّ المنافقين بقولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: 1]، فأكذَبَهم في قولِهم؛ لأنَّهم قالوه نفاقًا على غيرِ وجهِ الاعتقادِ لصحَّتِه[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ:

مَن تعوَّدَ على المنعِ أدامَ الاتِّصافَ به

تعبيرُ الكافرين بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿أَنُطۡعِمُ﴾؛ ليدُلَّ على استمرارِهم فيما مضى من عدمِ الإطعامِ وقتًا فوقتًا[4].

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 289، وأبو حفص النَّسفي، التيسير في التفسير: 12/ 364، والزمخشري، الكشاف: 4/ 19.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 269، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 156.
(3) الباقلاني، الانتصار للقرآن، ص: 665، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/ 117.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 156.

دلالةُ الاسم الموصولِ ﴿مَن﴾:

ما كانَ عامًّا فالخاصُّ داخلٌ فيه، وموصوفٌ بما وُصِفَ به

يُفيدُ الاسمُ الموصولُ العمومَ، لتكونَ حجَّتُهم الدّاحضةُ شاملةً لجميع النّاس، ويدخلُ في العمومِ الذين آمنوا دُخولًا أوَّليًّا بدلالةِ السّياقِ.

مُناسبةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿لَّوْ﴾:

توبيخُ الكافرين لتعلُّلِهم بمشيئة الله في الامتناعِ عن الإنفاقِ

لـمّا كانت أداةُ الشَّرطِ ﴿لَّوْ﴾ تُفيدُ امتناعَ الجزاءِ لامتناعِ الشَّرطِ، بمعنى: أنَّها تدلُّ على أنَّ انتفاءَ الجزاءِ بسببِ انتفاءِ الشَّرطِ[1]، كان معنى قوله: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ انتفاءَ إطعامِ المُؤمنين بسببِ انتفاءِ مشيئةِ اللّه، فقصَدوا به انتفاءَ أن يكونوا هم السَّببَ في انتفاءِ إطعامِهم، ففي الكلامِ توبيخٌ للكافرين في الامتناعِ عن الإنفاقِ بتعلُّلِهم بالمشيئةِ.

بلاغةُ الكنايةِ في تعليقِ الجزاءِ بالمشيئةِ:

كثرةُ الرِّزقِ لا تدلُّ على الأفضليَّةِ عند الله تعالى

لـمّا أخبرَ اللّه عن الكافرين بأنَّهم قالوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ كان في تعليقِ الجزاءِ على مشيئةِ اللّه كنايةً عن اعتقادِهم بأفضليَّتِهم على الذين آمنوا، لِـما يُفيدُه قولُه: ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ بأنَّ اللّه رزَقَنا وأطعَمَنا بمشيئتِه ولـم يُطعم الذين آمنوا؛ لأنَّه لـم يشَأْ ذلك، فظنّوا لجهلِهم أنَّ تعلُّقَ مشيئةَ اللّه برزقِهم تفضيلٌ لهم، وقد جهلوا أنَّ وصف الأفضليَّة بالإيمانِ؛ أي: في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وأنَّ رزقَهم لن ينفعَهم بسبب كُفرِهم.

وفي الكلامِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّهم على الحقِّ، فكأنَّهم يقولون: نحن نوافقُ مشيئةَ اللّه فلا نُطعِمُ مَن لـم يُطعِمْه اللّه[2]، وجهلوا أنَّ الأمرَ بالإنفاقِ هو من اللّه تعالى، وأنَّ المطلوبَ هو الامتثالُ للأمر وتحقيقُه، والمؤمنُ لا يعترضُ على المشيئةِ، وإنَّما يوافقُ الأمرَ.

---

(1) التفتازاني، المطول، تح، هنداوي، ص: 333.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 515.

مَن بخِلَ بالإطعامِ مع الحاجةِ إليه، فهو بغير ذلك أشدُّ بُخلًا

علَّةُ إيثارِ المُغايرةِ في الجوابِ:

قد يُقالُ: ما الحكمةُ في تغييرِ اللَّفظِ في جوابهم؛ إذ إنَّهم لمّا قيلَ لهم: ﴿أَنفِقُواْ﴾ كان الظّاهرُ أن يُقالَ في الجوابِ: أنُنفِقُ على مَن لو يشاءُ اللّه رزَقَه؟ لأنَّهم أُمروا بالإنفاقِ، لكنَّهم أجابوا بقولِهم: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾؟ والجوابُ أنَّهم عمدوا إلى الجواب بغاية المخالفةِ إمعانًا في كفرِهم وإعراضِهم، وبيانُه: أنَّهم إنَّما أُمروا بالإنفاق ممّا رزقَهم اللّه، والإنفاقُ يدخلُ فيه الإطعامُ وغيرُه، فلمّا قالوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ أفادَ أنَّهم لم يأتوا بالإنفاقِ ولا بأقلَّ منه، وهو الإطعامُ؛ لأنَّ نفيَ إطعامِهم يقتَضي نفيَ إنفاقِهم بالأولويَّةِ، فمَن يبخَلُ بالإطعامِ مع شدَّةِ حاجةِ الجائعِ إليه فهو لغيرِ الإطعام أشدُّ منعًا وبُخلًا، وهذا كقول القائل لغيره: (أعطِ زيدًا دينارًا)، فيقولُ: (لا أُعطيه درهمًا) مع أنَّ المُطابقَ هو أن يقولَ: (لا أُعطيه دينارًا)، ولكنَّ المُبالغةَ في هذا الوجه أتمُّ، فكذلك في هذه الآيةِ[1].

تعليقُ الإطعامِ بالمشيئةِ مِنَ الدَّعاوى الزّائفةِ

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارعِ:

عبَّر بصيغةِ المضارع ﴿يَشَآءُ﴾ للإشعارِ باستمرارِهم في تعليقِ إطعامِ المُؤمنين، والإنفاقِ عليهم بمشيئةِ اللّه تعالى.

الإيجازُ بالحذفِ أبلَغُ في الدَّلالةِ، وأوفى بالتَّعبيرِ عن المُرادِ

دلالةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ:

في قولِه تعالى: ﴿مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ حُذِفَ مفعولُ ﴿يَشَآءُ﴾ بقرينة الجوابِ، وتقديرُ الكلامِ: مَن لو يشاءُ اللّه إطعامَه أطعمَه، ونكتةُ الحذفِ الإيجازُ في الكلامِ، ولو ذُكر المحذوفُ لضَعُفَ النَّظمُ وفاتَ الإيجازُ.

بلاغةُ التَّتميم في جملةِ الفاصلةِ:

جاءت جملةُ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ تذييلًا مُقرِّرًا لقول

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 72 - 73، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 354.

مَن يعلمُ أنَّ اللهَ يُطعِمُ مَن يشاءُ علِمَ أنَّه بمشيئتِه أطعمَه

الذين كفروا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾، فهو من قيلِ الكفّار للمُؤمنينَ، لتكونَ الجملةُ على جهةِ التَّتميم[1]، وإنَّما وصفَ الذين كفروا الذين آمنوا بأنَّهم في ضلالٍ مُبينٍ؛ لأنَّهم أُمِروا بإنفاقِ أموالِهم بما يُخالفُ مشيئةَ اللّه - بحسبِ اعتقادِهم -، ولظنِّهم أنَّ كلامَ المُؤمنين مُتناقضٌ، ومَن تناقضَ كلامُه يكونُ في غايةِ الضَّلالِ.

ووجهُ ذلك أنَّهم قالوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى إن شاء أن يُطعِمَهم فهو يُطعِمُهم، فكان الأمرُ بإطعامِهم أمرًا بتحصيلِ الحاصلِ، وإن لم يشَأْ إطعامَهم لا يقدرُ أحدٌ على إطعامِهم لامتناعِ وقوعِ ما لم يشأ اللّه، فلا قدرةَ لنا على الإطعام، فكيف تأمرونَنا به؟ وما دَرَوا أنَّ التَّناقُضَ منهم وفيهم، فإنَّ مَن يعلمُ أنَّ اللّه يُطعِمُ مَن يشاءُ كان عليه أن يعلمَ أنَّ اللّه بمشيئَتِه أطعمَه كذلك، ولمّا جاء الكلامُ في سياقِ تهكُّمِ الكافرين واستهزائِهم بالمُؤمنين أفادَ أنَّهم قالوا هذا القولَ على سبيلِ إظهارِ التَّهكُّم بالمؤمنين الذين يقولون: كلُّ شيءٍ بإرادةِ اللّه وموكولٌ إلى مشيئَتِه[2].

جزاءُ الاستهزاءِ بالمؤمنين تقريرُ الكفرِ والضَّلالِ والزَّجرِ

وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ بعض المُفسِّرين ذهبوا إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يُحتملُ أن يكون من قولِ اللّه ﷻ للكفرة؛ ليكون جوابًا لهم[3]، لتكون الجملةُ مُستأنفةً، لبيان السَّبب في نسبتِهم إلى الضَّلال بعد نسبتِهم إلى الكفرِ، فكأنَّه قيلَ: ما قال اللّه في جوابِ مقالة الكافرين هذه؟ فقيلَ: قال: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[4]؛ أي: إن أنتم أيُّها الكافرون إلّا في ضلالٍ مُبينٍ بسبب

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح شاكر: 20/ 527، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 16، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 289، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 354.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 527، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 364، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270.

(4) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 157.

قولِكم هذا على وجه الاستهزاءِ بالمؤمنين، وفي التَّعلُّقِ بالمشيئةِ في تركِ الإنفاقِ على المُحتاجين، ولـمّا جاءت الجملةُ على جهةِ التَّذييل أفادت تقريرَ كُفرِهم وضلالِهم، وكانت زجرًا لهم عن قولِهم، وعلى هذا الوجه كان مجيءُ الجملة بأسلوبِ القصرِ لبيان خطَئِهم فيما يعتَقِدونه من حقّيَّتِهم، ومن عدم الامتثالِ في الإنفاقِ.

سببُ إيثارِ القصرِ بالنَّفي و﴿إِلَّا﴾:

دلالـةُ السّياقِ على أنَّهم ليس لـهم وصـفٌ إلّا الضَّلالُ

لـمّا كان أسلوبُ القصر بـ(ما) و﴿إِلَّا﴾ يُسلَكُ مع مُخاطَبٍ يعتقدُ فيه المُتكلِّمُ أنَّه مُخطئٌ ومُصِرٌّ على خطئِه، كان تعبيرُ الذين كفروا للذين آمنوا بقولِهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ردًّا لحقّيَّة إيمانِهم، ولإيذانِ المُؤمنين بأنَّهم - أي: الَّذين كفروا - على هُدًى وأنَّهم على صوابٍ من قولِهم، وليسوا بمُخطئِين في مقولتِهم، بناءً على جهلِهم بأنَّ كلامَ المؤمنين مُتناقضٌ، ومَن تناقضَ كلامُه يكونُ في غاية الضَّلالِ، وما دَرَوا أنَّهم هم المُتناقِضون حقًّا، ولـمّا كان القصرُ بالنَّفي و﴿إِلَّا﴾ يُفيدُ الحصرَ، كان المعنى: ليس لكم وصفٌ سوى الضَّلالِ.

من دلالاتِ نسبةِ الكافرين المُؤمنينَ إلى الضَّلالِ:

مـن خُـدَعِ الكافرين نسبةُ المـؤمـنـينَ إلى الضَّلالِ المبُين

نسبَ الكافرون المؤمنينَ إلى الضَّلال في قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ ليكون كلامُهم على طريق المُخادَعة والمُراوَغة والمُعانَدة؛ لكيلا يُنسَبوا هم إليه، لأنَّ الكفر ضدُّ الإيمان، فنسبةُ أحد الطَّرفَين إلى الضَّلال يقتَضي أن يكون المُقابلُ على هدًى، والمعنى الذي قصدَه الكافرون: إن أنتم - أيُّها المؤمنون - إلّا في ضلالٍ مُبينٍ، وإن نحنُ إلّا على هُدًى مُبينٍ.

دلالةُ الاستثناءِ بالأداة: ﴿إِلَّا﴾:

أفـادَ السّياقُ الاستثناءَ من عموم أحوالِ المُخاطَبين؛ للدَّلالة على ضلالهم

لـمّا قال الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وكان الكلامُ على طريق الاستثناءِ المُفرَّغ، أفاد الاستثناءَ من أعمِّ العامِّ، فهو استثناءٌ من عموم الأحوالِ؛ أي: ما أنتم في

حالٍ منَ الأحوالِ إلّا في حالِ انغماسِكم في الضَّلال المُبين، بمعنى: أنتم مُنغمِسونَ في الضَّلالِ المُبين، في جميع أوقاتِكم، وفي جميع أماكنِكُم وأحوالِكم.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الخطابِ:

كـلُّ مـؤمـنٍ لـه مـدخـلٌ في الخطابِ المُدرَجِ في السّياقِ

عُبِّرَ بضميرِ الخطابِ: ﴿أَنتُمۡ﴾ لأنَّ المقامَ مقامُ خطابٍ، وقصَدوا تعيينَهم؛ ليكونَ حملُ الخبر عليهم - وهو قولُه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ - ثابتًا؛ للإشعارِ بثقتِهم في كونِهم في ضلالٍ مُبين، ولمّا كان قولُ الكافرين للذين آمنوا؛ أي: بسببِ إيمانِهم لم يكُنِ التَّعبيرُ بضميرِ الخطاب لتخصيص الكلامِ بمُخاطَبٍ دون مُخاطَبٍ، بل كلُّ مَن كان مُؤمنًا فله مدخلٌ في هذا الخطابِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿ضَلَٰلٖ﴾:

زَعـمُ الكافرينَ أوهـامَ وصـفَ المـؤمـنـيـنَ بالضَّلالِ المُبين

نُكِّر لفظُ ﴿ضَلَٰلٖ﴾ لتهويلِ الضَّلالِ الّذي وقعَ فيه المُؤمنون وتفظيعِه، على حدِّ زَعمِ الذين كفروا.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

تنبيهُ المُؤمنين إلى دسـائـسِ الـكـافـريـنَ وخداعِهم

في قولِه تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ استعارةٌ بالكنايةِ؛ إذ شبَّه الّذين كفروا الضّلالَ بالظَّرفِ، والمُؤمنين بالمظروفِ الذي انغَمَسوا فيه، والقصدُ بيانُ أنَّ الضَّلالَ مُحيطٌ بهم من كلِّ جهةٍ، فهم مغمورونَ فيه غائِصونَ[1]، ففيه تنبيهٌ منَ اللّه تعالى للمُؤمنينَ إلى دسائسِ الكافرين وخداعِهم ومَكرِهم.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في الوصفِ ﴿مُّبِينٖ﴾:

تشكيكُ المُؤمنين في إيـمـانِـهـم مـن دسـائـسِ الكافرين

في وصفِ الضَّلالِ بالمُبين في قولِه: ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ مجازٌ عقليٌّ، وبيانُه أنّه لمّا كان لفظُ ﴿مُّبِينٖ﴾ اسمَ فاعلٍ كان على معنى أنَّ الضَّلالَ هو الذي يُبينُ، فأسندَ اسمَ الفاعلِ ﴿مُّبِينٖ﴾ إلى الضَّلال

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 289، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 353، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 331.

على معنى الاتِّصافِ به حتَّى صار من شدَّةِ بيانِه هو المُبينَ؛ أي: أنتم في ضلالٍ لا يخفَى على أحدٍ أنَّه ضلالٌ، وقصدُهم المُبالغةُ في وصفِ المُؤمنين بالضَّلالِ؛ لتشكيكِ المُؤمنين في إيمانِهم، فضلًا عمّا في مجيءِ الوصفِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ رعايةً للفاصلةِ.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾ [يس: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقةُ الإنكارِ والتَّأبّي على أمرِ اللهِ بالتَّساؤُلِ عن موعدِ البعثِ

لـمّا ذكر قلَّةَ خيرِهم المُستَنِدةَ إلى استهزائِهم بالمُؤمنين لـمّا منَعوهُم الإنفاقَ بعلَّة أنَّ اللَّه لو شاءَ لأطعمَهم، وتهكُّمَهم باليوم الذي ذُكِّروا به بالأمرِ بالاتِّقاءِ والتَّعليلِ بترجّي الرَّحمةِ، أتبعَه حكايةَ استهزاءٍ آخرَ منهم دالٍّ على عظيمِ جهلِهم بتكذيبِهم بما يوعَدونَ به منَ البعثِ والحسابِ على وجهِ التَّصريحِ بذلك اليومِ فقالَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1].

ومن وجوه المُناسبةِ أيضًا: لـمّا أمرَ اللهُ الكافرينَ بالإيمانِ وبتقوى اللهِ وخوَّفَهم أن يحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بمَن قبلَهم منَ المَثُلاتِ أعقبَ هذا بذكرِ إنكارِهم ليومِ البعثِ، واستعجالِهم له، استهزاءً به وسُخريةً منه فقالَ مُخبرًا عن الكافرين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾: (وعد) أصلٌ يدلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقالُ: (وعدتُه أعِدُه وعدًا)، ويكونُ ذلك بخيرٍ وشرٍّ، أمّا الوعيدُ فلا يكونُ إلّا بشَرٍّ، يقولون: (أوعَدتُه بكذا)[3]، والموعدُ: يصحُّ أن يكون اسمَ مكانٍ أو زمانٍ أو مصدرًا ميميًّا، و(الموعدة) أيضًا: اسمٌ للعِدة، و(الميعادُ) لا يكونُ إلّا وقتًا أو موضِعًا[4]، والمقصودُ بالوعد في الآية: الإخبارُ بأمرٍ مُستقبلٍ، وهو البعث يوم القيامةِ[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 138، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 33.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 18.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 20، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا إنكارَ المُشركينَ للبعثِ واستِبعادَهم له: ويقولُ أولئك المُشرِكون تكذيبًا واستهزاءً: متى يكونُ البعثُ يومَ القيامةِ إن كنتُم صادقينَ في دعواكُم أنَّنا نُبعَثُ بعدَ موتِنا أحياءً؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ في الآيةِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ على طريقِ الوصلِ بالواوِ عطفًا على جملةِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[2]، التي هي معطوفةٌ كذلك على جملةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ المُضمَّنةِ الوعدَ بالسّاعةِ والحسابِ، فتكونُ جملةُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ متَّصلةً بجملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ﴾ كذلك[3]، ومُناسبةُ الوصلِ بالواوِ اشتراكُ الجملِ في الخبريَّةِ وفي الجهةِ الجامعةِ، وهي الإخبارُ عن تكذيبِهم بالبعثِ والحسابِ واستهزائِهم بالمُؤمنينَ، كما كذَّبوا بآياتِ اللّه واستهزَؤوا بها.

لـمّا كان العطفُ في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يقتَضي المُغايرةَ بين المعطوفَين أفاد عطفُ قولِهم هذا إلى أنَّه مقولٌ آخرُ، ليس من جنسِ ما سبقَ، ففيه تكذيبٌ بالوعدِ وتكذيبٌ للمُؤمنين واستهزاءٌ آخرُ بهم.

دلالةُ تكرارِ القولِ في السّياقِ:

إعادةُ القولِ في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ مقولَهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هو نصبُ أعينِهم وفرطُ اهتمامِهم به[4]، كما يُفيدُ تعدادُ مقولاتِهم القبيحةِ، وأنَّ كلَّ قولٍ من مقولاتِهم

التَّكذيبُ بالبعثِ والاستهزاءُ به صفتان مُلازمتان لسلوكِ الكافرين

تتابعُ تكذيبِ الكافرين واستهزائِهم المقيتِ

لـمّا تنوَّعَ التَّكذيبُ وتجدَّدَ، وردَتِ المُتعاطِفاتُ بذلك

تعدُّدُ المقولاتِ وتكرُّرِ الإساءاتِ دليلٌ على الافتِئاتِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 450، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 697.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 30.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 365، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 157.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 157.

هو مُنكرٌ مُسجَّلٌ عليهم مُقرِّرٌ لتكذيبِهم، فضلًا عمّا يوحي به لفظُ القولِ من وصفِهم بالكبرِ والعنادِ والجحودِ؛ لِما فيه من معنى المُجاهرةِ بالمطلبِ ورفعِ الصَّوتِ به تصريحًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارعِ:

استمرارُ التَّكذيبِ والاستهزاءِ يقتَضي فعلًا دالًّا على الاستمرارِ

أفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارعِ في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إلى استمرارِ قولِهم هذا وتجدُّدِه وقتًا فوقتًا، وحالًا فحالًا، فهم على عادتِهم المُستمرَّةِ في التَّكذيبِ والاستهزاءِ، لا ينفكّون عنهما(1).

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

إنكارُ البعثِ يومَ القيامةِ دليلٌ على إنكارِ أوامرِ اللهِ وعدمِ العملِ بها

الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إنكاريٌّ؛ بمعنى: إنكارِهم وقوعَ الوعدِ وتحقُّقَه في الواقعِ، ولمّا جاء الإنكارُ المُضمَّنُ معنى نفي الوعدِ في سياقِ أمرِهم بالتَّقوى والإنفاقِ أفاد أنَّهم بإنكارِهم الوعدَ يُشيرون إلى أنَّه لا فائدةَ لأمرِهم بالتَّقوى والإنفاقِ الدّالِّ على صحَّةِ البعثِ والحسابِ والجزاءِ، أو الدّالِّ على صحَّةِ وقوعِ العذابِ والإنذارِ به(2).

فائدةُ الاستفهامِ بـ﴿مَتَىٰ﴾:

الكافرون مُكذِّبون بوُقوعِ الوعدِ مُنكِرونَ له في جميعِ الأزمانِ

لـمّا كان الاستفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ يشملُ تعيينَ زمنِ وقوعِ الوعدِ في عُمومِ أزمنةِ المُستقبلِ، وكان الاستفهامُ بقصدِ الاستعجالِ بوقتِ السّاعةِ والاستبطاءِ لقيامِ القيامةِ على سبيلِ الإنكارِ والتَّهكُّمِ والتَّكذيبِ؛ دلَّ على أنَّهم مُكذِّبون بوقوعِ الوعدِ مُنكِرون له في جميعِ الأزمانِ التي يستَغرِقُها لفظُ ﴿مَتَىٰ﴾، فيُفيدُ أنَّ مقصودَهم إنكارُ ذلك بالمرَّةِ وفي جميعِ الأزمنةِ، ونفيُ تحقُّقِه، وجَحدُ وقوعِه.

نكتةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ:

مجيءُ اسمِ الإشارةِ دالٌّ في قولِه تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ على تحقيرِ الكافرينَ هذا الوعدَ والاستهزاءَ به والاستخفافَ، ويحتملُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 138.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 289.

أيضًا أن يكونوا قد عبَّروا باسم الإشارةِ للقريبِ لِما كان قد ثبتَ في أذهانِهم من قُربِ البعثِ لكثرةِ ما حدَّثَ به القرآنُ عن إحياءِ الموتَى من قُبورِهم وما كان يُتلَى عليهم من آياتِ الوعيدِ بقيامِ السّاعةِ، فيكونُ المُرادُ باسمِ الإشارة المعلومَ في الذِّهنِ[1].

استهزاءُ الكافرين بالبعثِ واستخفافُهم به مُستمرٌّ إلى يوم يلقَونَه

فائدةُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ للعهدِ، فيحتملُ أن يكون المُرادُ به الوعدَ بالبعثِ وإحياءِ الموتَى يوم القيامة كما يدلُّ عليه ظاهر السّياق، والرَّسولُ ﷺ لم يزل يعِدُهم بذلك، ويحتملُ أن يكون المرادُ الوعدَ بالعذابِ والإنذارِ، والتَّهديدَ بالشّرِّ مُطلقًا بما يدُلُّ عليه أمرُهم بالتَّقوى والإنفاقِ[2]، والظّاهرُ أنَّه يدخلُ في لفظِ الوعدِ كلُّ ما يدُلُّ على الإيمانِ، فيشملُ الوعدَ بالعذابِ والبعثِ والقيامةِ والمصيرِ إلى الجنَّةِ أو النّارِ.

الوعدُ بالبعثِ يشملُ العذابَ والمصيرَ إلى الجنَّةِ أو السَّعيرِ

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ دونَ (الوعيدِ):

لـمّا كان الإيعادُ بالعذابِ أو بالبعثِ وإحياءِ الموتَى يومَ القيامة وعيدًا للكافرينَ، كان في التَّعبيرِ بلفظِ الوعدِ دونَ الوعيدِ إمعانًا في تكذيبِهم للرَّسولِ ﷺ وللمُؤمنين، وزيادةً في الاستهزاءِ بالوعدِ وبمَن أخبرَهم به[3]، فكأنَّهم لم يعتبِروا كونَه شرًّا لهم، ويحتملُ أنَّهم عبَّروا بالوعدِ؛ لأنَّهم زعَموا أنَّ لهم الحسنَى عندَ اللّٰه تعالى إن تحقَّق البعثُ.

توبيخُ الكافرينَ في إمعانِهم في التَّكذيبِ والاستهزاءِ بوعدِ الآخرة

أو يُقالُ: لـمّا كان الوعدُ يُستعَملُ في الخيرِ والشَّرِّ والنَّفعِ والضُّرِّ، والوعيدُ يستعمل في الشَّرِّ خاصَّةً؛ أفادَ تضمُّنُ الوعدِ هنا الأمرين؛ أي: الوعدَ بالقيامة وجزاءَ العبادِ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 171، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 32.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 73، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 32.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 354.
(4) اسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 408، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 30.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾ مصدرًا:

التَّعبيرُ بما يُفيدُ المُبالغةَ لدلالةِ المصدرِ على الحدَثِ

لـمّا كان لفظُ: ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾ مصدرًا كان المُرادُ منه اسمَ المفعولِ؛ أي: الموعودُ، وتقديرُ الكلامِ: متى يقعُ الموعودُ به[1]؟ وعبَّر بالمصدر دون الاسمِ المفعول للمُبالغةِ في المعنى بسبب دلالةِ المصدرِ على أصلِ الحدثِ.

بلاغةُ مجيءِ الشَّرطِ دونَ الجزاءِ:

كونُ جزاءِ الشَّرطِ مفهومًا منَ السّياقِ مُفيدًا في الإبانةِ عن المُرادِ

لـمّا كان الشَّرطُ يقتَضي جزاءً وجوابًا، كان الشَّرطُ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مُقتَضيًا جزاءً مفهومًا منَ السّياقِ؛ أي: منَ الكلام الذي سبقَ الشَّرطَ، والتَّقديرُ: إن كنتُم صادِقينَ في وعدِكم فقولوا: متى يكونُ هذا الوعدُ[2]؟ فيكونُ الجزاءُ على نيَّةِ التَّكريرِ للمُبالغةِ في التّكذيبِ بالوعدِ الذي وُعِدوا به.

نكتةُ التَّعبير بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾:

تكذيبُ الرَّسولِ الصّادقِ والمؤمنينَ البررةِ من سفاهةِ الكفَرةِ

عُبِّرَ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ التي تُفيدُ عدمَ الجزم بوقوع الحكم لقصدِ الكافرين إشعارَ الرَّسول ﷺ والمؤمنين بنُدرةِ صدقِهم، قصدًا لتشكيكِهم في أقوالِهم ومُعتَقَدِهم، والمعنى على التَّكذيب ونفي صدقِهم فيما يُخبرون به مُطلقًا.

فائدةُ حذفِ مُتعلّقِ الخبرِ:

من أساليبِ الكافرينَ لإثباتِ كُفرِهم تكذيبُ المؤمنينَ

حُذِفَ مُتعلَّقُ خبرِ (كان) في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لإفادةِ العمومِ؛ بمعنى: إنكارِ الكافرينَ لصدقِ رسولِ اللّٰه ﷺ والمُؤمنينَ على العُمومِ، والتَّقديرُ: إن كنتُم صادِقين في أيِّ قولٍ تقولونَه، ويدخلُ فيه وعدُهم بالبعثِ وإحياءِ الموتَى والتَّهديدِ بالعذابِ دخولًا أوَّليًّا، مُبالغةً منهم في التَّكذيبِ والإنكارِ، والمعنى: أنتم لا تصدُقونَ في أيِّ أمرٍ فكيف تُصدُقون في الإخبارِ بأمرِ الوعدِ ووقتِه؟.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 289.

(2) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 3/ 455، واسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 409.

دلالةُ الخطابِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

في التَّشكيكِ بصدقِ الرِّسالةِ مُبالغةٌ في الإعراضِ والتَّكذيبِ

الصِّدقُ: أن تتطابقَ النِّسبةُ الكلاميَّةُ التي قيلَتْ مع نسبةٍ واقعيَّةٍ يُمكنُ الاستدلالُ عليها، فإنْ لم يحدُثْ ذلك فالقائلُ كاذِبٌ، فمَطلبُهم الدَّليلُ على صدقِ ما يعِدون به[1]، والخطابُ في قولِه: ﴿كُنتُمْ﴾ هو للرَّسولِ ﷺ وللمُؤمنين بحسبِ ما ذهبَ إليه جمهورُ المُفسِّرينَ[2]؛ ليُفيدَ أنَّ الكافرينَ يقصِدونَ تشكيكَ صاحبِ الرِّسالةِ وأتباعِه في صدقِ ما هم عليه مُبالغةً منهم في الإعراضِ والعِنادِ والتَّكذيبِ، وذلك من خلالِ التَّعبيرِ بفعلِ الكينونةِ الماضي، واسمِ الفاعلِ المجموعِ: ﴿صَٰدِقِينَ﴾، ممّا يدلُّ على هذه المُبالغةِ في التَّكذيبِ تهكُّمًا وسُخريةً؛ أي: إن كانت كينونَتُكُم صدقًا، وكنتُم راسِخينَ في صدقِكُم باجتماعِكُم عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العهدُ والوعدُ:

العهدُ يقتَضي الوفاءَ، والوعدُ يقتَضي الإنجازَ

العهدُ ما كان منَ الوعدِ مقرونًا بشرطٍ، نحوَ قولِهم: (إن فعلتَ كذا فعلتُ كذا)، و(ما دمتَ على ذلك فأنا عليه)، قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]؛ أي: أعلَمْناه أنَّك لا تخرُجُ منَ الجنَّة ما لم تأكُلْ من هذه الشَّجرةِ، والعهدُ يقتَضي الوفاءَ، والوعدُ يقتَضي الإنجازَ، ويُقالُ: (نقضَ العهدَ وأخلَفَ الوعدَ)[3].

ولمّا كان مطلَبُهم - وإن كان استهزاءً - تحقيقَ ما يوعدون به منَ البعثِ والحسابِ وإنجازَه ناسبَ لفظَ الوعدِ.

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/ 199.

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 9/ 6045، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 515، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 526، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 106.

(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 57.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾ [يس: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بيانُ سفَهِهم وصِدقِ الرَّسولِ بأنَّ البعثَ صيحةٌ تُباغِتُهم وهم يتخاصَمونَ

لمّا كان الحازمُ مَن لا يتهكَّمُ بشيءٍ إلّا إذا استعَدَّ له بما هو مُحقَّقُ الدَّفعِ، بيَّنَ سفهَهَم بإتيانِها بغتةً، وبأنَّه لا بدَّ من وُقوعِها، وأنَّها بحيثُ تملأُ السَّماواتِ والأرضَ، فكأنَّه لا شيءَ فيهما غيرها، فقالَ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[1]، وأيضًا لمّا أخبرَ اللهُ تعالى عن الكافرينَ قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أجابَ عن الرَّسولِ ﷺ وعن المُؤمنين فقالَ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ تحقيقًا لصدقِ الرَّسولِ ﷺ فيما وعدَهم به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخِصِّمُونَ﴾: (خصم) أصلٌ يدلُّ على المُنازَعة، و(الخَصِمُ): المُختَصُّ بالخُصومةِ، ويُطلَقُ على الواحدِ والجمعِ والذَّكرِ والأُنثى، و(الخِصامُ): مصدرُ: خاصَمتُه مُخاصمةً وخِصامًا[2]، و(المُخاصَمةُ): أن يتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخَصمِ الآخرِ، وقيلَ للخصمَينِ: خَصمانِ لأخذِ كلِّ واحدٍ منهما في شقٍّ من الحِجاجِ والدَّعوَى[3]، و(الخِصامُ): الجدالُ، و﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أصلُه: يختَصِمون، فأبدِلَتِ التّاءُ صادًا لقُربِ مخرجَيهما ثمَّ أُدغِمَت، والمعنى: يختَصِمون ويتَشاجَرون على عادتِهم[4].

المَعنى الإجماليُّ:

التَّأكيدُ بأنَّهم ما ينتظرون إلّا صيحةً مُباغِتةً، وهم يتنازَعونَ في غفلةٍ

يرُدُّ اللهُ تعالَى في الآيةِ على الكافرين ببيانِ بعضِ مشاهدِ يومِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب (خصم).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، تح صقر، ص: 366، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 34.

القيامةِ، فيقولُ: إنَّ هؤلاءِ الكافرين الَّذين يستنكرون قيامَ السّاعةِ، ويستبعِدونَ حصولَها، جاهلون غافلون، فإنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وستحُلُّ بهم بغتةً، فإنَّهم ما ينتظرون إلّا صيحةً واحدةً يصيحُها إسرافيلُ بأمرِنا، فتأخذُهم هذه الصَّيحةُ، وتصعقُهم وتُهلِكُهم وهم يتخاصَمونَ، ويتنازَعونَ في أمورِ دُنياهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ بالتَّعبيرِ بالأسلوبِ الحكيمِ:

التَّنبيهُ إلى سرعةِ قيامِ السّاعةِ، وغفلةِ البشرِ عن طُروئِها المُفاجئِ

لـمّا قال الكافرون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ وكان سؤالُهم سؤالَ تكذيبٍ واستهزاءٍ أجابَهم اللّٰه تعالى بالقول الحقِ فقالَ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ تصديقًا لرسولِه ﷺ وللمُؤمنينَ، لبيان سرعةِ قيامِ السّاعةِ وغفلةِ أهلِها عنها، ففيه إيماءٌ إلى جهلِ الكافرين وغفلتِهم في سؤالِهم المذكور، فيكونُ أسلوبُ الكلامِ خارجًا على الأسلوبِ الحكيمِ إعراضًا عن جوابِهم؛ لأنَّهم لم يقصِدوا حقيقةَ الاستفهامِ، فأُجيبوا بأنَّ ما أعدَّ لهم منَ العذاب هو الأجدَرُ بأن ينتظروه[2].

سببُ الإجابةِ عن الوعدِ بقيامِ السّاعةِ:

الوعدُ الذي يُعرَفُ فيه الصّادقُ منَ الكاذبِ يكونُ عندَ قيامِ السّاعةِ

لـمّا سألَ الكافرون عن وقت وقوعِ الوعدِ وكان الجوابُ عن فجأة قيامِ السّاعةِ بذكرِ الصَّيحةِ؛ أفاد أنَّ الوعدَ الذي يُعرَفُ فيه الصّادقُ منَ الكاذبِ هو في وقتِ قيامِ السّاعةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾:

لـمّا كان الفعلُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ مُتعدّيًا بنفسِه في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ﴾ دلَّ على أنَّه مُشتقٌّ منَ النَّظرةِ بمعنى: التَّرقُّبِ والانتظارِ[3].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 34.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة والرّاغب، المفردات (نظر).

تخويفُ الكافرينَ بأنَّ الصَّيحةَ تنزلُ بهم وهم ينظُرون

وفيه رائحةُ النَّظر بالعين والمُعاينةِ؛ لأنَّ المُنتظرَ كأنَّه ينظرُ إلى الوقتِ الذي يأتي فيه ما ينتظرُه؛ ليُفيدَ التَّعبيرُ بـ﴿يَنظُرُونَ﴾ دون (ينتظرون) معنيين: **أحدُهما**: الانتظارُ بدلالةِ المُطابقةِ، و**الثّاني**: النَّظرُ بالعينِ بدلالةِ الإيماءِ؛ للإشعارِ بأنَّهم سينظُرون إلى الصَّيحةِ التي ينتظرونها، فتكونُ أشدَّ هَولًا عليهم.

سرُّ نسبةِ انتظارِ الصَّيحةِ إلى الكافرينَ:

مَن يفعلُ ما يستحقُّ به العذابَ يُقامُ مُقامَ مُنتظرِ السّاعةِ

قد يُقالُ: الكافرون المُكذِّبون بالسّاعة ما كانوا ينتَظِرونَ السّاعةَ، بل كانوا يجزمونَ بعدَمِها ويُصرِّحونَ بنفيها، فكيف نُسِبَ إليهم الانتظارُ؟ والجوابُ أنَّهم لمّا كانوا يفعلون ما يستحقُّ فاعلُه الهلاكَ والبوارَ وتعجيلَ العذابِ أُقيموا مُقامَ المُنتظرِ للسّاعةِ، أو يُقالُ: لمّا كان سؤالُ الكافرين باسمِ الاستفهامِ ﴿مَتَىٰ﴾ الذي يُفهَمُ منه بحسب ظاهرِ اللَّفظِ أنَّ السّائلَ ينتظرُ وقوعَ شيءٍ في وقتٍ مُعيَّنٍ عُبِّر في الجوابِ بالانتظارِ[1].

دلالةُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾:

التَّماثلُ في الفعلِ يقتَضي التَّماثُلَ في الحكمِ

الضَّميرُ في قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ عائدٌ إلى القوم الكافرين الذين سألوا عن وقوعِ الوعدِ تكذيبًا واستهزاءً، فإن قيلَ: إنَّ هؤلاء الذين أخبرَ عنهم بأنَّهم قالوا: متى هذا الوعدُ انقرَضوا وصاروا رمادًا، فكيف يُخبرُ عنهم بأنَّ السّاعةَ تقومُ عليهم وهم يختصمونَ؟.

والجوابُ: أنَّه يُرادُ بهذا مَن هو على مثلِ حالهم منَ المُكذِّبين بالسّاعة، فلمّا اجتمعَ السّابقون واللّاحقون في التَّكذيب بالسّاعة كان الخبرُ عن بعضِهم كالخبرِ عن جميعِهم سواءً بسواءٍ[2]، ولهذا جاء الفعلُ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ بصيغةِ المُضارعِ الدّالِّ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 30.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 49.

بلاغةُ الاستعارةِ في السّياقِ:

في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ استعارةٌ؛ إذ استُعيرَ لفظُ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ لمعنى الانتظارِ، وبيانُ الاستعارة أنَّه شبَّه وقوعَ الصَّيحة التي هي لاحقةٌ لهم لا محالةَ بلُحوقِ الشَّيءِ للمُنتظر؛ لأنَّ المُنتظرَ ينظرُ إلى ما ينتظرُه، والجامعُ بينَهما اللُّحوقُ على جهةِ القطعِ بالوقوع، ثمَّ حُذِفَ المشبَّه وذُكِرَ المُشبَّه به على طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة[1]، أو جعلَهم مُنتظرين للصَّيحة على معنى قُربِها منهم، تشبيهًا بالرَّجلِ الذي ينتظرُ الشَّيءَ فهو مادٌّ الطَّرفَ إليه ينظُرُ وينتظِرُ، والجامعُ بينَهما قُربُ حصولِ الشَّيءِ.

وفي الاستعارةِ تهديدٌ وتخويفٌ للكافرينَ؛ لأنَّه جعلَهم في مقامِ المُنتظرِ للصَّيحةِ التي تأخذُهم على جهة الوعيد بالعذاب.

انتظارُ العذابِ نوعٌ مِنَ العذابِ

دلالةُ الاستثناءِ في السّياقِ:

الاستثناءُ في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ مُفرَّغٌ، فيُفيدُ الاستثناءَ من أعمِّ العموم، بمعنى: ما ينظرون شيئًا من الأشياءِ إلّا صيحةً واحدةً، تهويلًا لأمرِ الصَّيحة وما يُلابسُها.

تـهـويـلُ أمـرِ الصَّيحةِ الحقِّ وما يُلابِسُها من أحوالٍ

بلاغةُ القصرِ في سياقِ الآيةِ:

لـمّا كان القصرُ بطريقِ النَّفي والاستثناء يُسلَكُ مع مُخاطبٍ مُخطِئٍ وتراه يُصِرُّ على خطئِه، ويُنكِرُ خلافَه جاء قولُه تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ على طريقِ القصرِ بالنَّفي والاستثناءِ للإيذانِ بأنَّ المُخاطَبين مُنكرونَ لقيام السّاعة ومُصرّون على أنها لا تكون، والحقيقةُ هي أنّها واقعةٌ بوقوع الصَّيحة العظيمة، كما يُفيدُ القصرُ أنَّ انتظارَهم مقصورٌ على الصَّيحة العظيمة، فكأنَّهم لا ينتظرون شيئًا آخرَ، تعظيمًا لشأن الصَّيحة؛ ليكون الكلامُ على سبيلِ الحصرِ الادِّعائيِّ.

إيعادُ الكافرين وتخويفُهم بأنَّهم لا ينتظرون شيئًا سوى السّاعةِ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/ 397.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿صَيۡحَةٗ﴾ نكرةً:

الصَّيحةُ هي الصَّوتُ الشَّديدُ، وعبَّر بها عن النَّفخةِ الأولى المُميتةِ التي ينقَضي بها نظامُ الحياةِ في هذا العالم[1]، جاء بلفظِها نكرةً؛ لتعظيمِ الصَّيحة وتفخيمِها، فهي صيحةٌ ليست كسائرِ الصَّيحات.

الصَّيحةُ نفخةٌ عظيمةٌ ذاتُ هَولٍ وفخامةٍ تُنهي الدُّنيا بصورةٍ مُزلزلةٍ عاتيةٍ

فائدةُ التَّأكيدِ في السّياقِ المجيدِ:

لـمّا كان لفظُ: ﴿صَيۡحَةٗ﴾ على وزنِ اسم المرَّة بمعنى: أنَّها صيحةٌ واحدةٌ كان في مجيءِ لفظِ ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ تأكيدٌ لكونِ الصَّيحة واحدةً، وفائدةُ التَّأكيدِ تقريرُ المعنى وتثبيتُه في نفوسِ المُخاطَبين، يُزادُ على ذلك أنَّه لـمّا كانت هذه الصَّيحةُ يموتُ بها جميعُ الخلائقِ في هذا الكونِ دفعَ توهُّمُ أنَّ الأمرَ يحتاجُ إلى صيحةٍ أُخرَى، والمعنى: ما ينظُرون إلّا صيحةً واحدةً لا يُحتاجُ معها إلى صيحةٍ ثانيةٍ بيانًا لعظيمِ قُدرةِ اللّه تعالى[2].

صيحةُ نهايةِ العالمِ واحدةٌ تدلُّ على عظيمِ قُدرةِ الله

نكتةُ التَّعبيرِ عن الأخذِ بصيغةِ المُضارعِ:

عبَّر بصيغةِ المُضارعِ في قولِه: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾، لتصويرِ حالةِ الأخذِ يومَ القيامة؛ لتُرهِبَهم وتهديَهم لِـما فيها من هَولٍ ورُعبٍ وفزعٍ.

الأخذُ الواقعُ منَ الصَّيحةِ أمرٌ مهولٌ يُزلزِلُ الكونَ برُمَّتِه

دلالةُ إسنادِ الأخذِ إلى الصَّيحةِ:

لـمّا كان فاعلُ ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾ ضميرًا عائدًا على ﴿صَيۡحَةٗ﴾، كان إسنادُ الأخذِ إلى الصَّيحة حقيقةً عقليَّةً؛ لأنَّهم يهلكون بالصَّيحةِ؛ أي: بصعقَتِها.

الهلاكُ بالصَّيحة حقيقةٌ لا موارَبةَ فيها

دلالةُ جملةِ: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾ بين الصِّفةِ والحالِ:

تحتملُ جملةُ: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾ أن تكونَ صفةً ثانيةً لـ﴿صَيۡحَةٗ﴾؛ ليُفيدَ الكلامُ أنَّ هذا الوصفَ مُلازمٌ للصَّيحة العظيمة التي تكون عند النَّفخةِ الأولى، كما تحتملُ أن تكون الجملةُ حالًا للصَّيحة؛

هلاكُ النّاس مُقترنٌ بوقتِ وُقوعِ الصَّيحةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 34.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.

لأنَّها تخصَّصَتْ بالتأكيدِ في قوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾، والتَّأكيدِ على معنى الصِّفة، لتُفيدَ أنَّهم يهلكون في حالِ أخذِهم بالصَّيحةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في سياقِ الآيةِ:

صيحةُ نهايةِ العالمِ تعُمُّ الكونَ، وتصلُ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها

عبَّر في قولِه: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾ بلفظِ الأخذِ الدّالِّ على حَوزِ الشَّيء وتحصيلِه بقوَّةٍ وتمكُّنٍ[1]، وجاء الكلامُ على طريق الاستعارة، بتشبيه تمكُّن الصَّيحة منهم وإحاطتِها بهم بقوَّةٍ على سبيل الإهلاكِ بأخذ الشَّيء باليدِ وحَوزِه، والقبضِ عليه بقوَّةٍ بخطفةٍ واحدةٍ بحيثُ لا ينفَلتُ منه، والجامعُ بينَهما التَّمكُّنُ مِنَ الشَّيء بقوَّةٍ وسرعةٍ على سبيل الإحاطة، ولـمّا كان لفظُ الأخذ على التَّعميم ودلَّ عليه اتِّصالُ المفعول بالفعل أفاد أنَّ الصَّيحةَ تعمُّهم بالأخذِ وتتمكَّنُ منهم جميعًا، وتصِلُ إلى مَن في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، ولا شكَّ أنَّ مثلَ هذه الصَّيحة لا يكونُ إلّا عظيمًا[2]، والمعنى: ما ينظُرون إلّا صيحةً واحدةً تُهلِكُهم جميعًا.

أو يُقالُ في بيان وجهِ الاستعارة: شُبِّه حلولُ صيحةِ الهلاكِ وتمكُّنُها منهم بحلولِ المُغيرينَ بقوَّةٍ وسرعةٍ وتمكُّنٍ على الحيِّ لأخذِ أموالِه، فأُطلِقَ على ذلك الحلولِ فعلُ ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقة: 10]، فيكونُ معنى ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾: تحلُّ بهم على سبيلِ الإهلاكِ وهم يختَصِمون[3].

فائدةُ الواوِ في السّياقِ المُحكمِ:

مجيءُ العذابِ في حالِ الغفلةِ أشدُّ منه في حالِ ترقُّبِه وانتظارِه

الواوُ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ حاليَّةٌ[4]، للتَّعبيرِ عن عِظَمِ الأمر وهَولِه؛ بمعنى: أنَّ الصَّيحة تأخذُهم وهم في حال المُخاصمة والمُنازَعة في أمورِ الحياة والبيع والشِّراء، وبيانُه أنَّ الصَّيحةَ المُعتادةَ

---

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي (أخذ).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 34.

(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 354.

إذا وردَتْ على غافلٍ يرجُفُ، فإنَّ المقبِلَ على مُهمٍّ إذا صاحَ به صائحٌ يرجُفُ فؤادُه، بخلافِ المُنتظرِ للصَّيحةِ، فإذا كان حالُ الصَّيحةِ ما ذكرناه منَ الشِّدَّةِ والقوَّةِ وتردُ على الغافلِ الذي هو مع خصمه مشغولٌ يكونُ الارتجافُ أتمَّ، والتَّرهيبُ أعظَمَ، وإذا كان المُرادُ من ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ المُخاصمةَ في البعثِ والتَّكذيبَ به؛ أي يقولون: لا يكونُ ذلك أصلًا، وليس من حسابٍ ولا عذابٍ؛ فيكونون غافلينَ عن السّاعةِ، فتأتيهم الصَّيحةُ وهم في حالِ الغفلةِ كذلك، بخلافِ من يعتقِدُ أنَّ السّاعةَ قائمةٌ فإنَّه يتهيَّأُ لها وينتظرُ[1].

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ في الآيةِ:

ثباتُ حالِهم على الاختصامِ وصفٌ لانشِغالِهم بالدُّنيا

عبَّر بالجملة الاسميَّةِ في قولِه: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾، وهي حالٌ من مفعولِ ﴿تَأۡخُذُهُمۡ﴾؛ لإفادةِ ثُبوتِ حالِ تنازُعِهم وتخاصُمِهم، وانشغالِهم بشؤونِ الحياةِ والجدالِ فيها.

مناسبةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

التَّعبيرُ عن الانشغالِ بما هم فيه في تلك الحالِ

لـمّا جاء الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ جملةً فعليَّةً أفادَ تقوّي الحكم بنفسِ التَّركيب وتحقيقه؛ بمعنى: أنَّ الصَّيحةَ تأخذُهم وهم في هذه الحالِ.

دلالةُ لفظِ: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ في السّياقِ:

تقومُ السّاعةُ على النّاسِ وهم في البيعِ والخصومةِ

قولُه تعالى: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ منَ الخصومةِ والخِصام، وهو الجدالُ، فيحتملُ - وهو الظّاهرُ - أن يكونَ اللَّفظُ بمعنى: يختَصِمونَ ويتَجادَلون في أُمورِهم وحياتِهم المعاشيَّةِ؛ أي: إنَّ السّاعةَ تقومُ وهم على ما كانوا عليه من قبلُ في البيع والخصومةِ والمُنازَعةِ، كما يحتملُ أن يكون بمعنى يختَصِمون ويتَجادَلون في السّاعةِ والبعثِ؛ أي: إنَّها لا تقومُ ولا تكونُ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونَها[2].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنَّة: 8/ 526، والواحدي، التفسير البسيط: 18/ 496.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ التَّفعيل:

في التَّعبير بصيغةِ التَّفعيلِ في قوله: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ إشعارٌ بالمُبالغة في التَّخاصُمِ والتَّناهي فيه، إيماءً إلى توغُّلِهم في الغفلةِ والمُبالغة فيها، فتأتيهم السّاعةُ وهم لا يشعُرون بها وغيرُ مُتهيِّئين لها.

تقومُ السّاعةُ على النّاس، وهم غيرُ مُتهيِّئين لها

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ الفعل المضارع:

عبَّر بصيغة الفعل المُضارع، في قولِه: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ لتصوير حالِهم من الغفلة في ذلك الموقف الرّهيب، وفيه دلالةٌ أيضًا على استمرارِهم بهذه الحالة لاعتيادِهم إيّاها.

الغفلةُ في الموقفِ المهولِ دليلٌ على ضياعِ العقول

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

تنوّعت القراءة في لفظ: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾؛ فقرأه الجميعُ بفتحِ الياء، واختلَفوا فيما عدا ذلك: فقرأ ورشٌ عن نافعٍ وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وهشام في روايةٍ عنهما: ﴿يَخَصِّمُونَ﴾ بفتحِ الخاء وبتشديدِ الصّادِ مكسورةً على اعتبارِ التّاءِ المُبدَلةِ صادًا والمُسكَّنةِ لأجل الإدغام، أُلقيَتْ حركتُها على الخاء التي كانت ساكنةً، وقرأه قالونُ عن نافعٍ وأبو عمرٍو في المشهورِ عنهما باختلاس فتحة الخاء لأجلِ التَّخَلُّصِ من التقاءِ السّاكنَين، وبكسر الصّادِ مُشدَّدةً: ﴿يَخْصِّمُونَ﴾، وقرأه حفص عن عاصمٍ والكسائيُّ وابنُ ذَكوانَ عن ابنِ عامرٍ ويعقوبُ وخلفٌ وشعبة بخلاف عنه: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بكسرِ الخاءِ وكسرِ الصّادِ مُشدَّدةً، وهو الوجه الثاني لهشام، وقرأه حمزةُ ﴿يَخْصِمُونَ﴾ بسكونِ الخاءِ وكسرِ الصّادِ مُخفَّفةً مضارعُ (خصمَ)، قيلَ: بمعنى جادَلَ، وقرأ أبو جعفرٍ ﴿يَخْصِّمُونَ﴾ بإسكانِ الخاءِ وبكسرِ الصّادِ مُشدَّدةً على الجمع بين الساكنَين، وهو الوجه الثاني لقالون، والوجه الثاني عن شعبة عن عاصم هو كسر الياء: ﴿يِخِصِّمُونَ﴾.

القراءاتُ في (يَخِصِّمونَ) ترجعُ إلى معنى المُنازَعةِ والمُدافَعةِ

ففي هذه الكلمة ستُّ قراءات، ومعنى هذه القراءاتِ كلِّها أنَّهم يتحاوَرونَ ويتجادَلون ويتراجَعون الأقوالَ بينَهم ويتدافَعون في شؤونِهم[1].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 457، وابن الجزري، النشر: 2/ 354، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 35.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ٥٠﴾ [يس: 50]

هلاكُ النّاس بسبب الصَّيحة يومَ القيامة، وانقطاعُ حركتِهم بالكُلّيَّةِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كانت الصَّيحةُ مُميتةً سبَّبَ عنها قولَه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوْصِيَةً﴾: (وصى) أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على وصلِ شيءٍ بشيءٍ، ومنه سُمّيت (وصيَّةً)؛ لأنَّها وصلٌ لِما كان في الحياةِ بعد الموتِ[2]، والوصيَّةُ: ما أوصيتَ به، يُقالُ: أوصَى يوصي إيصاءً، ووصَّى يوصي توصيةً: إذا عَهِدَ إليه، وأوصيتُ إليه بمالٍ: جعلتُه له، والوصايةُ: فعلُ الوصيِّ، والجمعُ: وصايا[3]، والمُرادُ بالتَّوصيةِ هنا: الأمرُ بشيءٍ مع تحريضٍ على إيقاعِه والعملِ به؛ أي: لا يستطيعونَ توصيةً ما[4].

المَعنى الإجماليُّ:

إذا وقع النَّفخُ في الصّورِ لم يستطع أحدٌ الوصيّةَ، ولا الرَّجعةَ إلى الأهل والذُّريَّة

يقولُ سبحانَه: لا يستطيعُ الكافرون حينَ يقعُ النَّفخُ أن يوصوا أحدًا بأيِّ شيءٍ ممّا يُريدونَ الوصيَّةَ به، كالأموالِ وغيرِها، ولا يستطيعونَ حينَها الرُّجوعَ إلى أهليهم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ (الفاء) في السّياقِ:

الفاءُ تُفيدُ التَّرتيب والتَّعقيب، بمعنى: يتسبَّب عن أخذِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 140.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصى).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (وصى).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 35.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 450، 453، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 38، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 581.

موتُ النّاسِ يوم القيامة مَشوبٌ بالهمِّ والغمِّ، محوطٌ بالهولِ والرَّهبة

بالصَّيحةِ أنَّهم لا يستطيعون توصيةً، ويعقب هلاكَهم أنَّهم لا يستطيعون توصيةً؛ أي: لا يتمكَّنون من توصيةٍ في أموالِهم ولا يرجعون إلى أهلِهم كما هو شأنُ المُحتضَرِ[1]، فيكون موتُهم مشوبًا بالغمِّ مع هول الموقف ورهبتِه، ودلَّ قولُه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ على أنَّ الموتَ ليس حين سماع أوَّلِ صوتِ الصَّيحة بل عقبَه من غير مُهلةٍ لتمام أمرٍ ما[2].

بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ:

الهلاكُ بالصَّيحة يأتي على جميع الـنّـاس، ولا يستثني أحدًا

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، كنايةٌ عن شدّةِ السُّرعة، وإعجالِ الحالِ بين الصَّيحة وهلاكِهم؛ إذ لا يُقصَد مدلولُ الجملة الصَّريحُ؛ لأنَّهم لا يتركون غيرَهم بعدَهم؛ إذ الهلاكُ يأتي على جميع النّاسِ[3].

نكتةُ التَّعبير بعدمِ الاستطاعة دونَ نفيِ الفعلِ:

نفيُ الاستطاعة على الفعلِ أبلَغُ في بـيـانِ شـدَّة الحالةِ من نفيِ الفعلِ

عُبِّرَ بعدم الاستطاعةِ على التَّوصية في قولِه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ دون أن يُقالَ: (فلا يوصون) للإشعارِ بشدَّة الحالة التي هم عليها، فهم لا يوصون ولا يستطيعون التَّوصيةَ أصلًا، فإنَّ قول القائل: (فلانٌ في هذه الحالِ لا يوصي)، دونَ قولِه: (لا يستطيعُ التَّوصيةَ)؛ لأنَّ مَن لا يوصي قد يستطيعُها[4].

سببُ نفيِ استطاعةِ التَّوصيةِ:

نفيُ الاستطاعةِ على القولِ يُؤذِنُ بالعجزِ عمّا هو أكثرُ منه

لـمّا كانت التَّوصيةُ بمعنى اللَّفظ الذي يوصَّى به عبارةً عن القول، ولـمّا كان القول يوجَدُ أسرعَ مـمّا يوجَدُ الفعل كان التَّعبيرُ عن عدم استطاعتِهم التَّوصيةَ بالقولِ في قولِه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ إيذانًا بعجزِهم عمّا هو أكثرُ منَ القول، بمعنى: أنَّهم لا يستطيعون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 35.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 141.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 457، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 35.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.

أن يقولوا كلمةً، فكيف يستطيعون أن يُنجِزوا فعلًا يحتاجُ إلى زمانٍ طويلٍ وحركةٍ من أداءِ الواجباتِ وردِّ المظالمِ[1]؟.

الوصيَّةُ حين الاحتضارِ من أهمِّ ما يتركُ في آخرِ المسارِ

سرُّ إيثارِ لفظ: ﴿تَوۡصِيَةٗ﴾:

اختيارُ لفظِ ﴿تَوۡصِيَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ من بينِ سائرِ الكلماتِ يدُلُّ على أنَّه لا قُدرة له على أهمِّ الكلماتِ التي يسعى إلى التَّلفُّظِ بها؛ فإنَّ الحاجةَ في وقتِ الموتِ إلى التَّوصيةِ أمَسُّ من غيرِه[2].

مَن يعجزُ عن قولِ الكلمةِ فهو عمّا فوقَها أعجَزُ

فائدةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿تَوۡصِيَةٗ﴾:

لـمّا جاء لفظُ: ﴿تَوۡصِيَةٗ﴾ في سياقِ النَّفي أفادَ اللَّفظُ العموم، بمعنى: لا يستطيعون أيَّ توصيةٍ، ولو كانت بكلمةٍ يسيرةٍ، فيُفيدُ التَّنكيرُ التَّقليلَ[3]، بمعنى: أنَّهم إذا عجزوا عن الكلمةِ فهم عمّا فوقَها أعجَزُ.

منعُ عمومِ التَّوصيةِ وجهٌ بالغٌ في العجزِ

دلالةُ حذفِ المفعولِ فيه:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾، حُذِفَ المفعولُ فيه، فلم يذكر التَّوصيةَ في أيِّ شيءٍ، وفائدةُ الحذفِ التَّعميمُ؛ بمعنى: فلا يستطيعونَ توصيةً في أيِّ شيءٍ من أمورِهم[4].

بيانُ الحاجةِ إلى التَّوصيةِ، لانقطاعِ الرَّجاءِ في الرَّجعةِ

مُناسبةُ الجمعِ بين المعطوفَين:

لـمّا عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ على عدَمِ الاستطاعةِ على التَّوصيةِ أفادَ بيانَ شدَّة الحاجةِ إلى التَّوصيةِ؛ لأنَّ مَن يرجو الوصولَ إلى أهلِه قد يُمسِكُ عن الوصيَّة لعدمِ الحاجةِ إليها، وأمّا مَن يقطَعُ بأنَّه لا وصولَ له إلى أهلِه، فلا بُدَّ له منَ التَّوصيةِ، فإذا لم يستطِع مع الحاجةِ، دلَّ على غايةِ الشِّدَّةِ في قوَّةِ وُقوعِ الصَّيحةِ ومجيءِ الوعدِ[5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 35.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 159.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 290.

الـصَّـيـحـةُ لا تُـمـهِـلُ أحـدًا لـيـتـكـلَّـم، ولا قائمًا ليقعُدَ، ولا قاعدًا ليقومَ

جمعَ بين المعطوفَين في الآية للإشارةِ إلى أنَّ الإنسانَ إمّا أن يكونَ في ما بين أهلِه، أو خارجَ بيتِه، فإن كان بين أهله فلا يستطيعُ توصيةً، وإن كان خارجَ بيتِه فلا يرجعُ إلى أهله؛ إذ تبغتُهم الصَّيحةُ فيموتون حيثُما كانوا[1]، فالمُرادُ بعدم استطاعةِ التَّوصيةِ وعدمِ القدرة على الرُّجوع، عدمُهما بسبب الموتِ لا بوجهٍ آخرَ، وفي هذا تنبيهٌ عظيمٌ على عظمةِ هذه الصَّيحةِ التي لا تُمهِلُ أحدًا ليتكلَّمَ، ولا القائمَ ليقعُدَ، ولا القاعدَ ليقومَ؛ إذ يموتُ كلٌّ بمكانِه على هيأتِه دون حركةٍ، ولا عجبَ من ذلك؛ فإنَّها صيحةٌ يوم القيامةِ.

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملةِ على الفعلِ:

أهميَّةُ التَّقديم فـي تـرسـيـةِ المـعـنـى، وفـي مُراعاةِ الفاصلةِ

قُدِّمَ ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ﴾ على عاملِه ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم، بمعنى: أنَّهم إذا كانوا إلى أهلِهم لا يرجعون فإلى غيرِهم من بابٍ أولى، فضلًا عمّا في تأخير الفعل من مُراعاةٍ للفاصلةِ والمقصودِ.

نكتةُ تقديمِ التَّوصيةِ على الرُّجوعِ:

كلُّ إنسانٍ يموتُ في مكانِه، حيثُ تفجَؤُه الصَّيحةُ ولا تُمهِلُه

لـمّا كانت التَّوصيةُ بالقول وكانت أخفَّ على مَن يُحيطُه الهلاكُ منَ الحركة والانتقال قُدِّم عدَمُ الاستطاعةِ على التَّوصية على عدم القدرةِ على الرُّجوعِ إلى الأهل، فإذا لم يستطيعوا التَّوصيةَ وهي بأحرفٍ يسيرةٍ، فمن بابٍ أولى أن لا يقدروا على الرُّجوع إلى أهلِهم، والمقصود أنَّ كلَّ واحدٍ منَ النّاس يموت في مكانِه حيثُ تفجَؤُه الصَّيحةُ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 270، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 171، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 159.

المحتويات

